www.ibtesama.com

** معرفتي **
www.ibtesama.com
منتديات مجلة الإبتسامة

www.ibtesama.com

مَوعِدٌ مَعَ الشدائد

أو

الممر الشمالي الغربي

الجزء الأول

www.ibtesama.com

نشر هذا الكتاب بالاشتراك

مـــع

مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر

القاهرة — نيويورك

www.ibtesama.com

موعد مع الشدائد

أو

الممر الشمالي الغربي

تأليف

كنيث روبرتس

ترجمة

أمينة السعيد

ملتزمة النشر والطبع

مكتبة النهضة المصرية

٩ شارع عدلي باشا بالقاهرة

١٩٥٧

www.ibtesama.com

هذه الترجمة مرخص بها وقد قامت مؤسسة فرانكلين
للطباعة والنشر بشراء حق الترجمة من صاحب هذا الحق

This is authorized translation of NORTHWEST PASSAGE by Kenneth Roberts. Copyright, 1936, 1937, by Kenneth Roberts. Published by Doubleday & Company. Inc. New-York.

www.ibtesama.com

الفصـــل الأول

لم أكتب هذا الكتاب لأثبت به نظرية معينة . ولا لأستنكر فيه ما يسمونها بوتقة الحرب ، ولا لأقرر: أنه ما من رجل صهر فى هذه البوتقة إلا أصابته منها جروح مزمنة تبعث فيه القسوة والضلالة والجحود ، وتجعله أنانيا مغروراً سكيراً مريض الخلق والنفس ، حاقداً على كل معنى من معانى الخير ، فاقداً الثقة بالله والجنس البشرى. ولقد تقرأ فى هذا الكتاب أحياناً أن بعضاً ممن استبسلوا فى الدفاع عن بلادهم ضد الهنود الحمر والفرنسيين ، لا يزال يتمتع بلقب المواطن المخلص ، رغم وقوفه فى وقت السلم جامداً أومتردداً أمام ما تخلفه الحروب دائماً من أعداء يفوقونها خطراً وشراً ، مثل الجبن وسوء التقدير والجشع والغباء ، وغيرها من العلل التى نلمسها فى ساسة البلاد وحكامها .

ولكنى أرمى بهذا الكتاب إلى غرض أبسط وأسهل ، فقد تصادف أن عرفت رجلا بارز الصفات غريب الأطوار ، وشاء الحظ أن ألازمه فى فترات هامة من باكورة تاريخ بلادى . ولو أن هذا الرجل وجد القيادة الحسنة ، لصار

www.ibtesama.com

٢

أعظم شأناً من چنكيز خان . فقد كنت أراه فى بعض الأحيان إلها ، وفى بعضها الآخر شيطاناً ، ولكنى أعتقد أنه فى فترات صلاحه أفاد أمته مادياً أكثر من أى محارب أو سياسى أو كاتب ممن يفوقونه صيتاً وشهرة . أما فى فترات انحلاله ، فقد انحدر إلى أسفل ما يمكن أن يصل إليه إنسان فى مثل ذكائه وحيويته وتعرض لما تعرض له من إجهاد وإغراء ، وقاسى ماقاساه من نكران للجميل وخيبة للآمال . لذلك أرتأيت أن أدوّن خواطرى وأسجل ذكرياتى عن الأيام التى بهرنى فيها ذلك الرجل كما لم يبهرنى إنسان قبله .

كان بودى أن أتوخى الصدق والدقة فى سرد تفاصيل هذه القصة ؛ ولكن ، ما إن شرعت فى كتابتها ، حتى وجدت صعوبة فى العودة بذاكرتى إلى أول حلقة من سلسلة الأحداث والملابسات التى كان لها الأثر الأكبر فى حياتى . فأنا مثلا لا أستطيع أن أتبين المصدر الحقيقى لمتاعبى : أهو ميلى إلى رسم المناظر والوجوه فى كراسة رخيصة الثمن ؛ أم إصرار والدى على إلحاقى بكلية هارڤارد ، أم هى كلمات التشجيع التى كنت أسمعها من چون سنجلتون كوپلى ؟ كان بعض الناس يصب اللوم ، كما سأوضح بعد ، على هنك مارينار وكاب هوف لزيارتهما لى فى غرفتى بجامعة كمبردج ، ثم

www.ibtesama.com

تشجيعهما إياى على السخرية بأعضاء مجلس المراقبين . وأنا نفسى ظللت طويلا ألوم الزابث براون وعجزى الصبيانى عن السيطرة على لسانى . ولا يستبعد أيضاً أن يكون مرد متاعبى إلى الطعام الفظيع الذى كان يقدم لنا بمطاعم كلية هارڤارد عام ١٧٧٩ ، أو إلى ملك فرنسا لاستخدامه هنود سان فرانسس ليعاونوه على التحكم فى أمريكا الشمالية .

وهذه الأسباب : حبى للرسم أو كلية هارڤارد وطعامها الشنيع ، أو چون سنجلتون كوپلى وكاپ هوف ، أواليزابث براون ، أو هنود سان فرانسس ، لو أن واحداً منها لم يوجد، ما بدأت متاعبى ، ولكان مصيرى أن أصبح تاجراً بمدينة بورتسموث ، وأعيش فى راحة وخمول ، بين جدران بناء كبير من الطوب الأحمر ، أتمتع بجمع المال غير آبه بكيفية جمعه .

وقد تبدو هذه الأسباب مفككة لا ارتباط بينها ، ولكنى مضطر إلى ذكرها على مضى القصة ، لاتصالها الوثيق بحوادث الخاتمة .

قضى والدى عهداً طويلا بكيتارى ، وكانت أمى قبل زواجها تعيش فى البيت الذى بناه جدها ريتشارد ناسن عام ١٦٣٢

www.ibtesama.com

وهو ذلك البناء المربع الذى يقع عند مرساة بابيستيف أجمل البقع القريبة من شلالات سلمون ، وهى الشلالات التى تعين حدود الملاحة فى نهر بيسكاتاكوا أثناء الجزر .

وكان أبى همفرى تاون يملك فى مدينة كيتارى مصنعاً للحبال ، ويقع هذا المصنع فى مواجهة جزيرة باوچر ، حيث كان چون لانجدون من پورتسماوث يبنى سفنه .وكان أبى يصنع الحبال الغليظة الطويلة لسفن الملك ، وكان بعض تلك الحبال عظيما إذا احتاج الأمر إلى نقله حمله ثمانون رجلا على أكتافهم وساروا به فى الشوارع ، فيخيل للعين أنهم دابة جبارة لها مائة رجل . وكان أبى يبيع معظم انتاج مصنعه لچون لانجدون ، ولعله أسمانى لانجدون تاون لهذا السبب .

وكان أبى رجلا طيب القلب ، ولكنه ضيق الصدر لا يقبل مناقشة ولا يحتمل معارضة . ويبدو أنها علة وراثية فى أسرته ، فقد هاجر جده الأكبر وليم من مدينة ايپسوتيش إلى كيتارى فى غضبة من غضباته .... وتفصيل ذلك أنه كان للجد ثلاث أخوات : ربيكا وسارة ومارى ، عرفن بالحكمة والاتزان ، ولكنهن أبلغن عن الأطفال الشريرين الذين أثاروا فى ماساشوستس تلك الزوبعة الخيالية عن السحر والساحرات . وكانت النتيجة أن أوقعن أنفسهن فى تهمة مزاولة السحر .

www.ibtesama.com

فقدمن للمحاكمة ، وأخلى سبيل ربيكا فى أول الأمر ، ثم أعيدت إلى السجن عند ما ادعى الأطفال كذباً أنهم يعانون آلاماً مبرحة بفعل سحرها ... وحوكمت من جديد ، فأدينت كما أدينت أختها سارة لتسترها عليها ، وانتهى الأمر بشنق الاثنتين . وعندئذ غلت مراجل الغضب فى صدر وليم ، فأخذ زوجته وأطفاله الثمانية وممتلكاته وحصانه وبقراته الثلاث ، وشد رحاله إلى الشرق . وأبى أن يقف حتى عبر نهر بيسكاتاكوا ونزل بكيتارى ، حيث أمكنه أن يستنشق هواء البحر فى مدينة ماين ، ذلك الهواء الذى لا يلوثه خبث روائح الأغبياء والقتلة فى ماساشوستس .

وكان بيتنا يقوم على « مندام پوينت » فى كيتارى قريباً من جزيرة بادچر ومرساة المعدية الرئيسية الموصلة إلى مدينة بورتسماوث . وفى هذا البيت بدأت حياتى من الصغر ،وكنت أروح وأغدو على نهر بيسكاتاكوا ، بين كيتارى وبايپستيف ، تارة على الأقدام وتارة فى الزورق ، إما لقضاء أعياد الميلاد أو أعياد يوم الشكر ، أو لصيد الأسماك فى الربيع وقنص الأوز البرى والغزلان فى الخريف . وبسبب هوايتى للصيد عرفت هنك مارينار وكاپ هوف .

كانت أنّا مارينار ، أم هنك ، تملك عدداً من القوارب

www.ibtesama.com

تؤجرها للصيد فى الميناء بالقرب من بيتنا ، وكانوا يسمونها فى كيتارى « أميرالة أسطول الزوارق » نسبة إلى قواربها التى تأتى بالأسماك يومياً إلى ميناء سبرنج ووارف فى پورتسماوث.

وكانت امرأة لعوباً تحب المرح وتتقن تدبير « المقالب » . وكان من غرائب أطوارها ميلها إلى تسمية أولادها بأسماء البارزين من أعيان مدينة بورتسماوث . فسمتهم بأسماء كل من المحافظ بيننج وينتويرث وأخيه هانكنج وصموئيل لانجدون ، الذى صار فيما بعد مديراً لهارفارد ، وأرشيبالد ماكفيدرس أول من بنى مصنعاً للحديد بمدينة دوڤر ، والقاضى پيتر ليڤياس وغيرهم . وكان أولئك الأشخاص من كبراء الكنيسة الأيسكوپييه وأغنيائها ، لذلك ثارت عليها الطبقة الأرستقراطية التى كانت تدين بكاملها إلى تلك الكنيسة ، واعتبرها الكبراء امرأة ملعونة لاجترائها على تسلية نفسها بأسماء بعض منهم ... أمابقية أهل پورتسماوث وكيتارى فكانوا يجلونها ويحترمونها ، لجدّها فى استحضار الأسماك إلى سبرنج وارف ، ولعطفها على أولادها ، وكلاهما أمر لا يقوى عليه معظم أتباع الكنيسة الابسكوپييه .

وقد أخذ هنك ماريناز عن أمه بعض مرحها وكثيراً من حبها للعمل الشاق ، ولكنه كان يفضل أن يقصر جهوده

www.ibtesama.com

على الصيد والقنص ، لذلك اعتبروه كسلان متشردا ، وهى تهم لا أساس لها من الصحة ، فقد كان يتعب فى هوايته هذه ثلاثة أضعاف ما يتعب التاجر فى عمله ، ويستمد من تعبه لذة لا يجدها غيره من المشتغلين بالمهن الأخرى .

وكان ، كما يقولون ، صياداً محترفاً ، ولقد رأيته فى الشتاء قادماً فى النهر ، وزورقه محمل من مقدمه إلى مؤخره بحصيلة يوم من إوز برى وبط وشرشير وبلبول وخضارى وغيرها من طيور الصيد . وكان على مهارة عظيمة فى إصابة الهدف ، ولست أشك أنه لو أعطى الفرصة ما عجز عن صيد كل ما فى كندا من إوز برى .

وكان هنك يعرف حبى للقنص ، فيصطحبنى معه إلى مراتع الأوز والغزلان والدببة ، من أقصى الشمال عند دوفر إلى أقصى الشرق عند أرنديل حيث يقيم بعض أقاربى .وعرفت عن طريقه كاپ هوف ، وهو مواطن آخر فى كيتارى يرتزق من حمل الرسائل المستعجلة بين پورتسمارث وفولماوث وكان إذا قل عمله يأتى معنا للصيد بدعوى احتياجه إلى الراحة وكان أكولا نهما ، باستطاعته أن يلتهم فى الوجبة الواحدة اثنتى عشرة سمكة لا يقل طول واحدة منها عن اثنتى عشرة بوصة . وكان يقول إن العودة من الصيد بإوزة واحدة تسبب

www.ibtesama.com

له حيرة بالغة ، لأن الإوزة أكبر قليلا من أن يأكلها رجل واحد ، وأقل من أن يقتسمها اثنان .

والعجيب فى أمر هذين الصديقين ، أنهما كانا يهتمان حقيقة بمجهوداتى فى الرسم أكثر من اهتمام أى انسان آخر فى كيتارى وپورتسماوث . وكان أبى وإخوتى يعتقدون أن الرسم عمل نسائى مثل نقش الخزف وأشغال الإبرة ، ويرون فى ممارسة الرجال له مضيعة للجهد والوقت ؛ أما أمى ، فكنت أشعر أنها تعجب سراً برسومى ، ولكنها تؤثر الصمت حتى لاتناقش الآخرين وتعارضهم فى موضوعات تعلم أنها لا تسرهم . وكانت ترى فى اللوحة التى رسمتها لمطبخ البيت أمراً ينقصة الوقار ، وتفضل لو أننى رسمت صورة لأجمل حجرة فى البيت ، وهى غرفة الاستقبال ، التى لم نكن نجلس فيها ولا نراها إلا لماماً .

أما هنك وكاپ فكانا يرقبانى من وراء ظهرى وأنا منهمك فى التخطيط على الورق ، فأشعر بأنفاسهما تهب على قفاى . وكانت ملاحظاتهما فى بعض الأحيان لا تقدم ولا تؤخر ، ولكنها تنطوى فى بعض أحيان أخرى على توجيهات قيمة تفيدنى كثيراً .

www.ibtesama.com

وقد سألنى هنك مرة قائلا :

– ألا تكون أشجار الحور أحسن شكلا إذا رَسمْتَ مثلثات سوداء عند تفرع الغصون من الجذع ؟

أما كاپ ، فقد تعلمت منه الاهتمام بإبراز التعبير أفضل كثيراً من جعل الرسم مطابقاً للأصل ، قال لى مرة :

– اسمع ؟ إن القطار إذا طار مسرعاً لا يبدو مثل رسمك هذا . وإنما يكون باهتا كالشبح ، طويلا بشكل ملحوظ . ممطوطاً إلى ضعف طوله الحقيقى .

فى عام ١٧٥٧ ، قرر والدى أن يرسلنى إلى كلية هارڤارد والواقع أننى لم أفهم مطلقاً . ما دفعه إلى اتخاذ هذه الخطوة ، ولعله اكتفى باشتغال أخوىّ الآخرين فى مصنع الحبال ، وارتأى أن ثقافة هارفارد ، بعد تعلمى فى مدرسة ماجور صامويل هيل ، ومعرفتى فيها بالشباب الأپسكوپيلى كله ، تهيئ لى بداية عملية موفقة ، تعود على الأسرة بالخير والفائدة .

وربما كان أبى مصيباً فى تقديره هذا ، فرجال بورتسماوث ينتمون أغلبيتهم إلى الكنيسة الأبسكوبيه ، ولم يكن من عادتهم أن يسمحوا لغريب عن طائفتهم بالارتقاء إلى مرتبتهم ؛ ولكنهم رحبوا بى ، وما إن أدرج اسمى بكلية هارڤارد

www.ibtesama.com

حتى أبدوا استعدادهم لقبولى واحداً منهم ، بصرف النظر عن رأيى الخاص فى ذلك .

أو قد يكون السبب فى إرسالى إلى هارڤارد رغبة أمى فى أن ترانى قساً ، شأنها فى ذلك شأن غيرها من الأمهات اللائى يحلمن برؤية فلذات أكبادهن يرتدون مسوح الرهبان ، ويرتلون الصلوات بأصواتهم الموسيقية . ومما يعزز هذا الرأى ما أشيع فى كيتارى وبورتسماوث عن رغبتى فى الالتحاق بالكنيسة ، بعد انتهائى من الدراسة بهارڤارد ، وقد يكون الأصل فى هذه الشائعة كلمات تفوهت بها أمى فى مجالسها الخاصة ، أو ما يتوهمه الناس خطأ من أن هارڤارد معهد دينى من نوع ما ، بدليل انخراط معظم خريجيه فى سلك القساوسة .

أما فى حالتى ، فقد كانت هناك ثلاثة أسباب تنفى هذه الشائعة : أولها أنى لم أتلق درساً واحداً فى اللاهوت طوال إقامتى بهارڤارد ، وثانيها أن هوايتى للرسم جعلتنى أميل إلى محاضرات الأستاذ هوليس فى الرياضيات والفلسفة الطبيعية والتجريبية ، وهى علوم لا تهم القس فى شىء ولكنها تعجبنى ولقد درست على يديه خواص الغازات والسوائل ، والميكانيكا والاستاتيكا والبصريات ، ثم نظريات التناسب ومبادئ الجبر والمقاطع المخروطية والهندسة المستوية والفراغية ، ثم

www.ibtesama.com

مبادئ المقاييس والمستويات والأجسام الصلبة ، وكذلك أسس علم الفلك والجغرافيا ونظريات الكرات والأجسام الكرية ، ثم حركة الأجرام السماوية حسب نظريات بطليموس وتيكوبراهى وكوپرنيقوس ، ثم تقسيم الدنيا إلى ممالكها المختلفة وكيفية استعمال الخرائط إلى آخر هذه السلسلة من العلوم . وكان الأستاذ هوليس أول من حدثنى عن الممر الشمالى الغربى . الذى شاءت الأقدار أن يلعب دوراً هاماً فى حياتى .

أما ثالث الأسباب فى ابتعادى عن العلوم الدينية ، فهو أنى لم أكن أحبها ، ولا أميل إليها .

ورغم هذا ، صمدت تلك الشائعات زمناً طويلا فى مدينة پورتسماوث ، ولم يمض وقت طويل حتى بدأت تخلق لى المشاكل ، مما جعلنى أكره الشائعات طوال حياتى .

www.ibtesama.com

الفصـــل الثانى

فى صيف عام ١٧٥٩ ، زارنى هنك مارينار وكاپ هوف على غير انتظار ، بكلية كمبردج التابعة لجامعة هارڤارد . وكانت الكلية فى ذلك الوقت على غير ما يتوقع المؤمنون بأنها مهد صالح لتنشئة القساوسة .

لم تكن ، كما ندّد بها المصلح هواتفيلد قبل ذلك بسنوات ، مدرسة لتعليم الإلحاد ؛ ولكنها كانت مهداً للفوضى البالغة ؛ فقد كان من المألوف فى ليالى ربيع ذلك العام ، أن يعج المكان بالثورة والهياج ، حين يظهر الطلاب سخطهم على ما يقدم لهم من طعام ردئ . وكانت ظاهرة الطعام الردئ تحدث كل ليلة ، فيثور الطلاب ويصيحون كل مساء ، ثم تدق الأجراس وينتهى الأمر فى أحيان كثيرة بسيل من الطوب والأحجار ينهال على باب المدرس المشرف .

وكان مجلس المراقبين فى الكلية لا يكف عن إرسال التنبيهات ، لتحذير الطلبة من التمادى فى الفوضى ، زاعماً أن هناك منظمات غرضها التحريض على خرق النظام . وقد حذر المجلس الطلبة من التغيب عن مساكنهم حتى وقت متأخر من الليل ، وأمرهم أن يكفوا عن الابتذال بخروجهم

www.ibtesama.com

من المدينة دون إذن ، واستعمالهم ألفاظاً نابية فى الكلام ، كما منعهم من الدراسات العادية . كذلك طالبهم بالحد من إسرافهم فى إنفاق نقودهم على الأكل فى المطاعم وكذلك شرب الأنبذة القوية والجعة المركزة والمشروبات الروحية المقطرة .

ولكن مجلس المراقبين لم يحاول أن يبحث فى الأسباب التى تثير الطلبة وتدفعهم إلى العصيان ، ولم يعمل أيضاً على تحسين حالة الطعام ، فكان طبيعياً أن يظل النظام مختلا ، وتبقى الفوضى على حالها .

وأصبح من تقاليد الظهور أن يبحث الطلاب ، فى الليالى الحارة ، عن أسباب للإخلال بالنظام . وإذا استعصى عليهم أن يجدوا بغيتهم فيها ، خلقوا من عندهم أسباباً للثورة والفوضى حتى لا يحرم المتأخرون فى العودة إلى الكلية من تسليتهم المفضلة .

وكان بهارفارد مائة وأربعة وثلاثون طالباً ، ومساكن الكلية لا تتسع إلا لسبعين فقط . فكان على الباقين منا أن يعيشوا فى الخارج . وكنت أسكن شقة بالطابق العلوى من منزل صغير بشارع براتل .

وفى ساعة متأخرة من عصر يوم من شهر يونية ، سمعت قبيل ساعة الاستراحة ، صوتاً أجش يردد اسمى فى الشارع ،

www.ibtesama.com

فلما نظرت من النافذة أستبين الخبر ، رأيت أحد زملائى يشير إلى مسكنى ، وبجواره هنك مارينار وكاپ هوف ، يتطلعان إلى أعلى وعليهما مظاهر التعب والإرهاق .

وصحت أدعوهما إلى المسكن ، فصعدا يتعثّران على درجات السلم المظلم الضيق ؛ وما إن دخلا الغرفة حتّى خيل إلى أنها امتلأت إلى حافتها وفاضت ، لا بجسميهما وبما يحملان من بنادق ولفائف وصرر ، إنما برائحة غريبة من أبخزة الروم والمسك .

وسألتهما بعد أن تبادلنا التحية :

— ما هذه الرائحة ؟

أجاب كاپ — وهو يشير بيده الضخمة إلى مكتبى :

— إنى لا أشم سوى رائحة هذه الكتب ، فهل من رائحة غيرها ؟

وقال هنك :

— ربما تكون رائحتنا نحن شخصياً ؛ أو رائحة هذه الجلود التى نحملها ، فقد اصطاد كاپ ، من مكان ما فى الشرق ، خمسة قناوس بحرية واثنى عشر ثعلباً بنياً صغيراً . وها نحن أولاء مسافرون إلى بوسطن لنبيعها للكابتن كالندر .

قلت لكاپ :

— صيد وفير ، أين عثرت عليه ؟

www.ibtesama.com

قال — دون مبالاة :

— وجدته ، فاصطدته .

سألته :

— ولم لم تبع الجلود فى پورتسماوث ؟

قال فى ضيق :

— دعنا من هذا الموضوع ولا تطل الكلام فيه ، فليس أبغض إلى نفسى من اهتمام الناس بصيدى ، إذ كلما ذكره أحدهم بكلمة ، انصبّ الحديث عليه ، كأننى عثرت على حمولة عربة من الذهب الخالص . إنى لأتمنى أحيانا ألو لم أجد حيواناً واحداً حتى تتنوع الأحاديث وتتغير القصص . وعلى كل حال ، سوف نسرع إلى بوسطن بمجرد أن نجد شيئاً نملأ به بطوننا الخاوية ، وعند ما نرحل ترتاح من هذه الرائحة التى تملأ خياشيمك .

قلت :

— أذهب معكما إذا كنتما تنويان تناول الطعام فى الخارج .

قال وهو يهز رأسه :

— لقد جئناك لسببين : الأول أن نترك عندك بنادقنا قبل سفرنا إلى بوسطن ، والثانى أننا لا نملك نقوداً ، ولن نحصل على شىء منها قبلما نبيع هذه الجلود ، وكنا نظنك عامر الجيب

قلت :

— نحن فى أواخر العام وقد فرغت نقودى . وكذلك حال الزملاء جميعهم . فليس أمامنا سوى أن نذهب معاً لتناول العشاء فى مطعم الكلية . قد لا يعجبكما الطعام ، ولكنها الوسيلة الوحيدة .

قال كاب فى تأكيد :

— سيعجبنا حتما . فالجوعان يأكل الحجر ، ولن أتورع فى حالتى الراهنة عن التهام القنافذ بأشواكها .

وتعلل هنك بأن ملابسهما لا تليق بمجتمع مهذب ، ولكن الواقع كان غير ذلك ، فقد كانا يرتديان ملابس المدينة : سراويل منسوجة فى البيت ، وجوارب من الصوف الرمادى ، وقمصان من الكتان الخشن فوقها معاطف بنية اللون بأحزمة من الخلف . وكانت ملابسهما حسنة فى مجموعها ، وبقليل من التنظيف تصبح مناسبة ، إذا صرفنا النظر عن تكسراتها ، وتغاضينا عن رائحة القندس البحرى التى لا تفارقهما .

وكانت الرائحة قوية نفاذة ؛ ولكن ما إن دخلنا المطعم إلا وتلاشت أمام الموجات العفنة التى كانت تزداد هبوباً علينا كلما توغلنا بين الموائد ، ومعها يعلو ويزداد صخب الآكلين ، فيصير هزيماً غاضباً ، ثم ينخفض ثانية إلى همهمة السخط والتذمر .

www.ibtesama.com

وما كان أحد لينتبه إلى وجود كاپ وهنك ، حتى لوكانا يرتديان جلود الغزال أوفراء الذئاب ؛ إذ كان اهتمام الطلبة جميعهم منصباً على الفطائر المحشوة التى تقدم لهم . كانت الفطائر مخبوزة فى أطباق عميقة تشبه « السلاطين » التى يستعملها الحلاقون ، وكلما وضعت واحدة منها أمام طالب ، مال عليه جيرانه يرقبونه وهو يشق غطاءها ، فما إن يزيح صاحب الفطيرة ذلك الغطاء الواقى ، إلا ويسرع بأصابعه إلى أنفه يسدها فى اشمئزاز بالغ ، فيئن زملاؤه طويلا مظهرين بذلك مشاركتهم فى محنته . وعند ما جاء دورنا ، وقدمت لنا الفطائر وفتحناها ، انقطع الأمل فى احتمال سيطرتنا على عواطفنا ؛ فى اللحظة التى شققت فيها غطاء فطيرتى بسكينى ، انبعثت منها رائحة نفاذة مقيئة ، انقبض لها حلقى وتقلصت أمعائى .

ورأى الطلاب ما ارتسم على وجهى من مظاهر الاشمئزاز فتعالى أنينهم وتوجعهم .

سألت زميلى ونجت مارش :

ما هذا بحق الله ؟

أجاب :

ـ لحم فاسد ! لحم عفن !

قلت :

ـ لقد جاء هذان الصديقان اليوم سيراً على الأقدام من بورتسماوث ، وهما فى أشد الحاجة إلى الطعام . أفلا يوجد هنا شىء مقبول يأكلانه ؟

قال مارش :

ـ لايوجد سوى هذه الفطائر المحشوة باللحم الفاسد ،

ثم تسمرت عيناه فى دهشة ، وهو ينظر إلى كاپ هوف ، وكان يجلس بجوارى .

كان كاپ قد أزاح قشرة الفطيرة جانباً ، وراح يأكل ما بداخلها فى اشتهاء زائد ، أما هنك فقد انثنى على فطيرته يلتهمها دون تأفف أو اشمئزاز .

صحت فيهما محتجاً :

ـ لا ...لا تأكلان وإلا تسممتما ، ليس فى استطاعتنا أن نترك الموائد قبل أن يأذن المشرفون بالخروج ، وإن فعلنا يغرم الواحد منا خمسة شلنات ؛ فرجائى أن تنتظرا قليلا ، وسأقترض بعض المال لنأكل فى مطعم .

قال كاپ ، وهو يحك بملعقته جوانب الإناء :

ـ وما العيب فى هذا الطعام ؟

ونظر فى عطف إلى الوجوه التى تحملق فيه دهشة متعجبة

www.ibtesama.com

وقال :

– ربما كانت فطيرتى أحسن من فطائركم ، وهى على كل حال لم تشبعنى ، وأنا على استعداد لشراء غيرها ، فهل من يريد التخلص من فطيرته ؟

ونظر إلى أصدقائى فى براءة وقال :

– الفطيرة بكأس من الروم، وغداً أعود من بوسطن ومعى بعض هذا المشروب ، وعلى الدائنين أن يحضروا فى المساء إلى مسكن لانجدون لقبض الثمن .

وبحركة واحدة قدم الجالسون إلى مائدتنا فطائرهم كلها ، وكان عددها إحدى عشرة ، فوضعها كاب بينه وبين هانك على شكل نصف دائرة ، ثم سأل زملائى وهو يبتسم فى وداعة :

تُرى هل يعرف أحدكم بم حشيت هذه الفطائر ؟

قال ماثيو ويفر من أهل ووتر تاون نيابة عنا :

– ليس لنا علم بما كان فى فطيرتك ؛ ولكننا نعرف أن فطائرنا محشوة بلحم حصان عجوز مات من زمن بعيد .

وأسبل كاب عينيه وازدرد بصعوبة لقمة من فطيرته ثم قال :

– لا . ليس هذا لحم حصان . إنها محشوة بلحم الأرنب ، ولو كنتم من أكلة الطعام الطبيعى لتعودتم على طعم الأرانب بعد

www.ibtesama.com

أن يمضى على موتها بعض الوقت . إنها تكتسب رائحة قوية إذا طال حفظها بعد موتها فى مكان حار . وهو ماحدث فى حشه هذه الفطائر . فالأرانب التى استعملت فيها ، مضى زمن على موتها ، وانصرم عهد على حفظها مغطاة فى الحرارة. ومع كل ذلك انظروا إلى ما اكتسبته من طعم ونكهة ،

وحملق فيه ويفر غير مصدق وقال :

—ألا ترى أن طعمها شنيع ؟؟

وبدا على كاپ أنه يستشير معدته فى تحديد الاجابة على هذا السؤال ، ثم قال :

—لا . ليس شنيعاً بالضبط . فقد سبق أن أكلت فطائر من هذا النوع لم يكن الأمر يحتاج إلى كسر غطائها بالسكين ، لأنها كانت تنفجر بتأثير الغازات المنبعثة من حشوها .ولست أدعى أن الفطائر التى أحدثكم عنهاأطعمة أنيقة تليق بالسيدات المرفهات ، ولكنى رأيت أولئك السيدات يأكلن أنواعاً من الجبن لها طعم أشنع ورائحة أقبح . والعبرة فى هذه الفطائر يا إخوانى بطريقة أكلها . وليس أفضل من أن تشيحوا بوجوهكم عند ما تشقون غطاءها . وتظلوا كذلك حتى تزول حدة الرائحة . ولكنها طريقة المبتدئين على كل حال .ولست أدعى أننى استطعت أكل البيض الفاسد يوماً من الأيام ،

www.ibtesama.com

ولكن الأرنب المتعفن شيء عظيم . ومفعوله أكيد فى تقوية المعدة .

قال صامويل ونجت وهو يتنحنح :

— من يعش ير ويتعلم . أعطنى فطيرتى لأجرب طريقتك .

فقال كاب وهو يحملق فيه بدهشة :

— فطيرتك ؟ إننى أكلتها وانتهيت منها فلم يبق لك فطيرة عندى ، لقد بعتنها مقابل كأس من الروم تشربها غدا ومن واجبك إذا عقدت صفقة أن تحترم كلمتك ، ألا يعلـمونك الأخلاق فى كلية هارڤارد ؟

وسكت صامويل لا يحير جواباً . وبينما جعل كاب وهنك يتفاوضان فى همس ، جربت أن آكل فطيرتى على الطريقة الجديدة ، فوجدت بالفعل أن طعمها ، على عيوبه ، أفضل كثيراً من رائحتها .

وقال كاب يحدث أصدقائى فى بساطة وإخلاص :

— لقد اشتريت أنا وهنك هذه الفطائر ، فأصبحت ملكنا ، وليس لأحد أن يستردها ، ولكننا لا نحب أن نستغلكم ، فأنتم شبان ظرفاء . وإن كان تهذيبكم قد أهمل فى بعض النواحى ، لذلك نعرض عليكم صفقة عادلة .الفطائر الباقية تكفيكم إذا تقاسمتموها فيما بينكم ، فاشتروها إن شئتم ، الفطيرة بسيجار تدفعونه غداً مساء عند ما تحضرون لشرب الروم .

www.ibtesama.com

الفصل الثالث

يبدو أن أخبار الصديقين الظريفين انتشرت فى المكان بسرعة ؛ إذ فى مساء اليوم التالى ، اجتمع فى الطريق أمام مسكنى نحو عشرين طالباً ، بعضهم ممن لم يسبق لى معرفته ، وعند الغسق ظهر كاب وهنك قادمين من بوسطن ، واستطعنا وهما ما زالا فى أول الطريق ، أن نطمئن إلى وفائهما بوعدهما . فقد كان كاب يشد على كتفه حمالة من الجيش يتدلى منها على أسفل ظهره برميل سعته خمسة جالونات ، أما هنك فكان يحمل عدداً من الصرر والحزم ، بينها لفافة أسطوانية فى حجم ماسورة المدفع الصغير ، وكانت الدلائل كلها توحى بأنهما باعا الجلود فى بوسطن بثمن طيب .

وكان من السهل أن أرى الأثر الطيب الذى تركه الصديقان فى زملائى ، فقد حياهما مارش وونجت ومن معهما تحية حارة ، وسألاهما عن عدد الفطائر المحشوة التى أكلاها فى ذلك اليوم ، ثم وعدا بالحضور فى المساء إلى مطعم الكلية ، حيث يتناولون حساءاً مطهواً من العليق البرى السام . وقد سر كاب وهنك بهذه الدعوة ، وأكدا للزملاء أن حساء من هذا النوع لا بد أن يكون لذيذاً شهياً .

www.ibtesama.com

قال سام ونجت لكاپ :

– لقد أحضرت لك السيجار الذى طلبته ، ونظراً لما نعرفه عن سلامة ذوقك فى المأكل والمشرب ، أوصينا بصنعه خصيصاً لك من شعور الخيل وقشور حوافرها .

أجاب كاپ :

–وهذا تنويع جميل نلقاه بالترحيب ، فقد تعودنا نحن أبناء الريف أن ندخن السيجار المصنوع من السمك المقدد .

ثم نظر فى توجس إلى الجمع الواقف وقال :

– ليكن فى علمكم أننا لم نحضر فى هذا البرميل سوى خمسة جالونات ، وأنا أشعر بظمأ شديد بعد أن حملتها على ظهرى خمسة أميال ، وأخشى ألا يزيد نصيب الواحد منا على كأسين اثنتين ؛ فهيا بنا نختفى فى مكان ما ، لنشربها بسرعة قبل أن يسمع طلبة الكلية جميعهم بخبرها فيجهزون عليها دوننا .

وكان على حق فيما يقول ، فقد ازداد عدد الطلاب كثيراً بمن حضروا من معارفى ، لذلك بادرنا بارسال ونجت ومارش لإحضار الماء الساخن والأكواب ، ثم أسرعنا بالصعود إلى غرفتى حيث جلس معظمنا على الأرض لقلة عدد المقاعد .

ووضع كاپ البرميل على المائدة وربت عليه بحنان وقال :

– هذا – أيها الفتيان – دواء ناجع لكل أنواع تسمم

www.ibtesama.com

الطعام التى تصيب أمثال بطونكم الضعيفة . ووجه العظمة فيه أنه صنع حديثاً ، ولم تفسد مزاياه بالتصفية والتنقيةوالتعتيق روم من القطانة الثالثة شديد القوة ، أشبه بالطعام منه بالشراب ، رشفة منه تشعرك بطعمه ونكهته . والمفروض فى شراب الروم أن يغلبك على أمرك ، وهذا النوع يضمن لك ذلك ، ولا سبيل إلى إخفاء خواصه مثلما يحدث فى غيره من أنواع الروم المعتقة الضعيفة . تأكدوا أن طعمه لن يتغير فى أفواهكم حتى إذا وضعتم فيه بصلا نيئاً أوسمكاً منتناً . إنه الروم الأصيل العريق ؟

ووقعت عيناه على طست لغسل الوجه ، وإبريق من الفخار وضع فى ركن الغرفة ، فقال :

ــ أعطنى هذا الأبريق لأذيقكم الروم على طبيعته الغضة ، وسترون بعد ذلك ما يكون من أمره حين أخلطه بالزبد والماء :

وأخرج سداد البرميل ، ثم صب بعض محتوياته فى الأبريق ، فتشبع الجو برائحة عطنة كالتى تفوح من مواد فسدت لطول تخمرها فى قبو رطب قذر .

ورفع كاب الأبريق إلى شفتيه ، ولما أنزله كانت عيناه تفيضان بالدموع وأنفاسه تكاد تنقطع بشهقة تشنجية جعلته

www.ibtesama.com

مثل سمكة تختنق خارج الماء . قال وهو يعطى الابريق لجاره :

– والآن ، هذا دورك ، فخذ نصيبك ؛ ولكن حذار أن تسكب بعضه عليك ، فأنت رجل مهذب ، ومن الخسارة أن تفسد ملابسك الأنيقة بالثقوب التى يسببها .

ثم التفت إلى هنك يقول :

– لا تضيع وقتك فى إخراج الزبد من اللفائف ، وكذلك الأشياء الأخرى التى أحضرناها من بوسطن . فهذا الروم أشد قوة مما كنت أتوقع .

وعندما عاد مارش وونجت بما طلبناه منهما ، كنا نصخب ونهرج بتأثير ما فعلته فى رؤوسنا تلك الجرعة الوحيدة التى قدمها لنا كاپ علاجاً للتسمم .

ونشط كاپ إلى العمل ، فأحضر دلواً أذاب فيه ملء كوبين من السكر الأحمر ببعض الماء الساخن ، ثم أضاف قليلا من الروم بعد أن تبّله بحفنة من البهار . ولما أتم العملية على الوجه الذى يرضيه ، أكمل الدلو إلى حافته بماء شديد السخونة ، وراح يقلب الخليط فى سرعة وشدة حتى تطاير الرشاش على قميصه . وأقبلنا عليه نبتغى ملء كؤوسنا ، فكان

www.ibtesama.com

كلما دنا أحدنا منه يلقى عليه محاضرة فى موضوع خلط الروم بالزبد ، فيقول :

– ليست هذه الطريقة المثلى لإعداد الروم ؛ فالأصل أن يخلط بعصير التفاح المخمر بدل الماء . وعندئذ يصبح من القوة بحيث إذا شربت منه ثلاث كؤوس أو أربعا ، تذهب عنك هموم الدنيا كلها ، وتستوى عندك ألوان الطعام على اختلافها ، فلا يهمك ما تأكل ، وإذا أكلت فلا تلبث ذكرى الطعام أن تنقشع عن ذهنك قبل انقضاء دقائق معدودات .

ويستأنف الكلام فيقول :

– والعادة فى المشروبات الأخرى أن يزول أثرها بعد يوم أو بعض يوم ، مهما بلغت الكميات التى تشربها منها ؛ ولكن هذا الروم دائم الأثر ، وخلطه بالزبد يجعله أبدىّ المفعول ، حتى لقد تبلى قبعتك المصنوعة من جلد الذئب قبل أن يفيق رأسك من دواره . والصيادون من أمثالنا حين يخرجون إلى صيد الفهد الجبلى ، وهى مهمة تحتاج إلى بالغ العناء والجلد والمشقة . يشربون كأسين أو ثلاثا من الروم المخلوط بالزبد ، وعندها لا يحتاجون مطلقاً إلى استعمال البندقية فى صيد الفهد ، وانما يسيرون إلى الوحش بأقدامهم ، ويأخذونه بحنان فى أحضانهم ، ثم يغرقونه بقبلاتهم ، فيسقط

www.ibtesama.com

المسكين مغشياً عليه بتأثير رائحة الروم التى تفوح من أفواههم وإذ ذاك تهون المهمة على الصياد ، ولا يتبقى له إلا أن يقيد الحيوان ويضعه فى حقيبته .

وكان الروم ، بعد أن خلطه كاب بالزبد ، قد تغير طعمه فجأة ، وأصبحت له نكهة الشراب الهادىء الطيب . فسر أصدقائى بذلك كل السرور ، واتجهت أنظارهم إلى كاپ فى كثير من التقدير والاعزاز .

وازاء هذا الرضا الشامل ، اغترف كاپ لنفسه كأساً ، وجرعها دفعة واحدة ، حتى ثمالتها ، ثم نظر إلى أعلى فى تأمل . وقال يؤكد إعجابهم :

ـ انه حقاً شراب لا بأس به ، وبعد أن تحتسوا منه كئوساً ستلعبون معى كالقطيطات الوديعة .

ثم قال ، وكأنما تذكر أمراً قد نسيه :

ـ أسرع ياهنك باعطاء لانجدون ما أتينا له به من بوسطن، واشرح له فكرتنا .

والتقط هنك اللفافة الاسطوانية التى بدت لى كماسورة مدفع صغير ، وقال وهو يتنحنح فى خجل :

ـ إنها الفطائر التى أكلناها ليلة أمس ....

وقال كاپ يقاطعه :

www.ibtesama.com

– اطرق الموضوع مباشرة ، ولا تلف حوله وتدور . لقد فكرنا فى أمركم طويلا يافتيان هارڤارد ، وانتهينا إلى أنكم لن تحصلوا من الكلية على طعام جيد قبل أن تظهروا الفساد واضحاً للقائمين على إدارتها . ألم تكن هذه فكرتك ياهنك ؟

قال هنك :

– نعم ، ورأينا ألا فائدة ترتجى من تكرار الشكوى والتذمر ولهذا ....

وتدخل كاپ قائلا :

– يعتقد هنك أن مطالبكم لن تستجاب قبل أن تصارحوا أولئك القوم برأيكم الجلى فيهم . على أن يكون ذلك من الشدة والجلاء بحيث لا يترك مجالا للشك واللبس فيما تقصدون. ولنضرب مثلا بفتى وقح تعود الإساءة إلى أحدكم ، فالمنطق لا يفيد مع مخلوق على شاكلته . والسبيل الوحيد إلى وقفه عند حده . أن ينال لكمة قوية على فكه تنبه إلى حقيقة سلوكه ، وتجعله أكثر حرصاً فى المستقبل . ألم يكن هذا ما جال بخاطرك ياهنك ؟

قال :

– نعم ، ولقد فكرنا فى أننا لو أحضرنا بعض الورق المقوى ...

www.ibtesama.com

وقاطعه كاپ قائلا :

- لحظة واحدة ... إنك لا تحسن الكلام مثلى؛ ولكن الأفضل أن نترك شرح الموضوع حتى نتذوق شيئاً من هذا الروم قبل أن يبرد ، فهاتوا كئوسكم .

وتكأكأ أصدقائى عليه . وهم يمزحون معه كأنهم أصدقاؤه العمر كله ، وقد بلغ بهم رفع الكلفة أن افتنوا فى تدليله بشتى عبارات المديح والإعزاز .

وانهالت عليه الأسئلة منهم ؛ فمرة يسألونه عما إذا كان من الجائز أن يؤاخذ إنسان على أفعال يحفزه إليها ضمير ملوث بطبعه ، ومرة أخرى يطلبون رأيه فى تأثير عجلة الجاذبية وصلتها بذوبان الأجسام الصلبة فى السوائل الحمضية ؛ أو يستفسرون منه عما إذا كان الربح المادى هو غاية المبادئ الخلقية الكريمة .

وجعلوا يحفزونه إلى الاجابة عليهم باللغة الانجليزية بدل لهجة ولاية « مين » التى كان يستعملها فى حديثه .

وجرع كاپ ما فى رأسه ، ثم وضعه على المائدة ، وانحنى على الدلو يعد كمية أخرى من الشراب . قال :

- لست أعرف شيئاً عن الضمائر الملوثة بطبعها ، ولا السوائل المذيبة للأجسام الصلبة ، فهذه أشياء لم يسبق لى التعامل فيها ؛

www.ibtesama.com

ولكنى أستطيع أن أفيدكم فى موضوع أهداف المبادئ الخلقية الكريمة ، فإن لى وهنك فى ذلك آراء لا يستهان بها .

وصاح الحاضرون مرحبين بآرائه ، فقال :

— لقد بحثنا الموضوع ونحن فى طريقنا إلى مدينة بوسطن فازددنا بالبحث تقديراً للأمر . والحقيقة أننى ليلة أمس ، راعيت الأدب أكثر مما يجب فيما قلته عن الفطائر المحشوة بالأرانب ، فالواقع أن مايعطى لكم منها أبشع من أن يتصوره العقل ، ولست أشك فى أنه لو شمها الظربان — ذلك الحيوان ذو الرائحة الكريهة — لهانت عليه رائحته . ورأينا أيها الفتيان أن تعلنوا شكواكم صريحة لأولئك المشرفين على كلية هارڤارد ولقد وجدنا لكم الوسيلة الناجحة . أليس كذلك ياهنك ؟

ونظر إليه هنك فى عتاب ، فعاد كاپ يقول :

— نحن نعلم أن لا تجدون تاون يتقن الرسم ، فقد رأيناه أنا وهنك يمارس هوايته بإتقان وإبداع ، لذلك نقترح أن يرسم صورة لكلية هارڤارد وهى تقدم العشاء لحيوان الظربان ، فيكاد المسكين يختنق لهول رائحة الطعام ...

وضاعت بقية الحديث فى عاصفة من التهليل والضحك ، وعندئذ انثنى كاپ وهنك إلى اللفافة الأسطوانية فرفعا عنها غطاءها ، وأخرجا منها ورقة بيضاء كبيرة الحجم مقواة ،

www.ibtesama.com

وثبتاها على الحائط . ثم دس أحد الواقفين فى يدى قلما أسود .

وقفت أترنح أمام الورقة ، وبعد أن حددت نقط الرسم كأحسن ما أستطيع . بدأت فى إخراج اللوحة المنشودة ، فمثلت مجلس المراقبين فى صورة رجل يرتدى ملابس الحجاج وفى يده صحن من الطعام يقدمه لظربان[١] ، الذى اندفع إلى الوراء متراجعاً ، وهو يسد أنفه بمخلبه فى اشمئزاز لا مزيد عليه .

والعادة أن يضج السكارى بالضحك لأتفه الفكاهات ، وهذا ما حدث معنا ؛ فكلما تقدمت الصورة فى الوضوح ، صخب المتفرجون وعلا ضجيجهم ، وارتموا على الأرض يتلوون لفرط ضحكهم . وأصابتنا الهوسة جميعاً حتى أنا ، فقد ظننت أننى أخرج إلى الوجود أندر تحفة فى الرسم الفكاهى . .

وعند ما تراجعت إلى الخلف أتأمل الرسم ، وأنا أجفف دموع الضحك المنسابة على وجنتى ، اصطدمت برجل يقف خلفى تماماً ، ولم أكن قد شاهدته من قبل ، ولكنه لم يكن يبدو أكبر سناً منا ، فظننته أحد الطلاب . وكان إنساناً يلفت

---

(١) الظربان : حيوان فى حجم القط أسمر له رائحة كريهة نتنة .

النظر : وجهه النحيف الباهت تشيع فيه آثار الجدرى ، وحاجباه الكثان يبرزان فى وضوح ، وعيناه الصغيرتان الفاحصتان تجعلانه كمن يرقب الحياة من خلال عديسات صغيرة . وكان أكثر أناقة من عامة الطلاب ، يرتدى معطفاً بنياً ثميناً ، من تحته صديرية حريرية بلون البرتقال قال يحدثنى :

– رسم لا بأس به ... لا بأس به أبداً .

ووضع إصبعاً على شفته السفلى ، وبيده الأخرى جعل يطرق على صورة الرجل المرسوم فى ملابس الحجاج وقال :

– مارأيك فى أن يطل هذا السيد من باب مطعم الكلية ، حتى لا يبقى مجال للشك فيمن نقصد بهذا الرسم ؟

وكانت فكرة صائبة ، فعدت إلى الصورة أدخل التعديلات المقترحة ، ورسمت الجزء الخلفى من قاعة المطعم ، بحيث بدا الرجل كأنه يميل داخلا من بابها .

وبينما كان المتفرجون يصيحون إعجابا ، اقترح الرجل ذو العينين الضيقتين الفاحصتين فكرة أخرى . قال :

– ضع الصحن فى يده الأخرى ، واجعله يمسك أكرة الباب باليد القريبة منك ، فهذا التعديل يضفى حيوية على الصورة .

www.ibtesama.com

وعملت بنصيحته وأنا فى غاية الانسجام لهذه الآراء التى جسمت الرسم وأبرزت أغراضه ، ثم جعلت أكمل التظليل وأسوّد الأجزاء الضرورية له . وعند ما انتهيت كانت اللوحة والحق يقال تحفة نارة .

قال كاپ :

ـ فلنشرب نخب الانتهاء من الصورة ، ثم نأخذها أنا وهنك ونثبتها فى مكان يراها الناس فيه بسهولة . فأين تقترحون تعليقها ؟ أمام غرفة المدير ؟

وتجاهل الرجل النحيل الضجيج القائم حولنا ، وقال لى فى ابتسامة لطيفة :

ـ حقا إنها صورة جميلة . أعطنى القلم لأريك شيئاً . إنها حيلة صغيرة ، ولكن فائدتها عظيمة .

وأعطيته القلم . فتقدم من الصورة ، ورسم خطاً واحداً منحنياً على خد الرجل الذى يلبس ملابس الحج . وكان الوجه الذى رسمته ضامراً عابساً ، فلما وضع الخط المنحنى ، تحول التعبير السابق إلى مزيج من المكر والنفاق والحقد والغباء والأنانية والقسوة .

قلت وأنا أنظر بدهشة إلى الضيف الغريب النحيل :

ـ أين تعلمت هذا ؟

www.ibtesama.com

قال :

– إنى أعيش فى أجواء الفن منذ الثانية عشرة من عمرى ، فزوج أمى . . .

وسكت فجأة ، كما سكت الصخب والضحك الذى كان يتردد فى أرجاء الغرفة كهدير الأمواج . وفى هذا السكون المفاجىء ، سمعت طرقات متزنة على الباب . . . وحدث ماكنت أخشاه . فقد كنت واثقاً من أن اجتماعاً كهذا ، لا بد أن يصل خبره إلى أسماع المسئولين بالكلية ، فتقع الطامة على رأسى ؛ ولكن روم كاپ المخلوط بالزبد أنسانى الحرص ، فتصرفت فى حمق ، ولم أتبين ذلك إلا بعد فوات الأوان .

واتجهت إلىّ أنظار جميع من فى الغرفة ، فمررت بيدى فوق جبهتى ، عسى أن أزيح عن رأسى غشاوة الروم وأبخرته ، ثم صحت فى صوت أجش :

– ادخل .

وانفتح الباب ، فكشف ضوء الشموع المتراقص عن رائدى مستر بلتشر ويلارد ، بظهره الأحدب . وما إن رآه الجالسون على الأرض ، حتى نهضوا فى ترنح وتعثر ، ثم وقفوا فى احترام صامتين ، كما تقضى بذلك قوانين الكلية .

www.ibtesama.com

وأفلت الرسم من بين أيدى كاپ وهنك إلى الأرض ، وسمعت صوت الورقة وهى تلتف من تلقاء ذاتها فى شكلها الأسطوانى السابق ، كما لو كانت تحاول بدورها الاختفاء من ممثل الهيئة الحاكمة .

وتقدم ويلارد مباشرة إلى المائدة وعليها البرميل والدلو وعشرات الأكوب المعدنية القذرة ، ولما انتهى من فحص هذه الأشياء التى تمثل جسم الجريمة ، نظر إلى دائرة الوجوه الملتفة حوله ، ثم ركز اهتمامه فى شخصى ، قال :

ــ لانجدون تاون ؛ إنك تعرف أن قوانين الكلية تحرم على الطالب الاحتفاظ بالخمور فى مسكنه ، وعقوبة من يخالف ذلك غرامة لا تزيد على خمسة شلنات ، مع مصادرة المشروبات الموجودة عنده ، للتخلص منها بمعرفة مدير المراقبين .

وقبل أن أجيب ، تنحنح كاپ هوف بصوت مرتفع وقال :

ــ هذا الروم ملكى ، وليس للانجدون تاون شأن به ، ولقد كلفنى ثمانية شلنات ، شلن لكل جالون من الخمسة ، وثلاثة اشتريت بها البرميل الفارغ الذى وضعتها فيه ، ولا مانع من أن أعطيه مدير الكلية إذا كان فى حاجة إليه ؛ أما أن يأخذه منى بدون موافقتى فأمر لا أسمح به مطلقاً .

www.ibtesama.com

ونظر إليه ويلارد من تحت حاجبيه الكثتين وقال :

ــ أنت لست عضواً فى هذه الجماعة .

قال كاپ موئمناً :

ــ لا ، لست عضواً فى هذه الجماعة ، ولا فى جماعة أخرى ، وما جئت إلا لأخبر لاتجدون تاون بأن موسم صيد سمك السالمون قد بدأ فى كيتارى . ولو كنت أعلم بأن الروم مكروه فى هذه الجهة ، ما كلفت نفسى مشقة إحضار هذا البرميل .

وزمّ ويلارد شفتيه ثم قال :

ــ وتنص قوانين الجماعة أيضاً على غرامة لا تزيد عن خمسة شلنات ، لكل من يجروئ من الطلبة على استضافة شخص مستهتر سيئ السلوك . وإذا عاد الطالب إلى خطئه ، يوئنب علناً أو يجرد من حقوقه ، أو يفصل من الكلية موقتاً أو نهائياً ، حسبما يستحق من عقاب .

ووقف كاپ يحك رأسه فى ارتباك ، فقلت :

ــ سيدى ، إن كاپ هوف ، على قدر معرفتى الوثيقة به ، ليس مستهتراً ولا سيئ السلوك .

أجاب ويلارد :

ــ إن طاقة المعرفة فى جيلكم هذا ، لا تعدو الخبث والوقاحة

www.ibtesama.com

وغيرهما من الآثام التى تتنافى مع المبادئ الأساســية للحكم العاقل النظيف .

ورأيت كاپ ينحنى بسرعة ويلتقط الصورة من الأرض ويقول :

ــ أعتقد أن الوقت قد حان لرحيلنا . والأفضل أن نعود إلى كيتارى ، فهيا بنا ياهنك نحمل متاعنا ، وسأحمل عنك هذا البرميل .

والتفت إلى ويلا رد وقال فى بساطة :

ــ لقد فرضت نفسى على لا نجدون تاون وصحبه ، ولست أعتقد أنهم ارتكبوا جرماً باحتساء كأس من الروم . فهذه الكأس من حق الشباب مهما تعددت القوانين التى تصدرونها .

وقال ويلارد ــ وملامح الشر تطغى على وجهه :

إنى أحتقر فلسفتك المستهترة المنحلة .

ومد يده المعروقة إلى الصورة التى كان كاپ يحاول دسها تحت معطفه . وقال وهو ينقر عليها بإصبعه :

ــ ما هذه ؟

قال كاپ ــ وهو يسحب الصورة ليخفيها وراء ظهره :

ــ هذه ورقتى أنا وأمرها لا يعنى أحداً سواى .

فقال ويلارد :

www.ibtesama.com

– كذا ؟ ! اسمح لى أن أشك فى صدق كلامك ، واسمح لى أيضاً أن أذكرك بأنه من حق مدير المراقبين أن يستعين بأحد الطلبة على إقرار النظام . وإذا تقاعس الطالب عن إسداء المعونة يعتبر سلوكه تحدياً للمسئولين . وهى أكبر المخالفات . وعقابها التجريد أو الفصل .

ونظر إليه كاپ . وقال وهو يتنفس بصعوبة :

– أتعتبره خروجاً على قوانين الكلية أن يرفض أولئك الفتيان انتزاع ورقتى منى ؟

فقلت له :

– أعطه إياها يا كاپ .

وقدم كاپ لفة الورق إلى ويلارد ، ففتحها هذا . ثم رفع حاجبيه ببطء وقال :

– من رسم هذه الصورة ؟

فصاح كاپ يكرر جملته بسرعة :

– إنها تخصنى . وأنا وحدى صاحب فكرتها .

وقال هنك مارينار :

– بل أنا أول من فكر فيها إن شئت الصدق .

www.ibtesama.com

وعندئذ تقدم الغريب ، الذى غير التعبير على الوجه لمرسوم ، وقال لويلارد ببساطة :

—كل هذا الكلام خارج عن الموضوع . فمن الواضح أن هؤلاء الفتيان لايعرفون أصول الرسم ، رغم ما يتمتعون به من مواهب أخرى طيبة . وسوف أضع حداً للخلاف بإثبات حتى فى هذه الصورة .

ومال فوق الرسم يضيف إليه خطوطاً صغيرة . وإذا بالمعجزة تحدث ، فيصبح الرجل المرسوم فيها صورة طبق الأصل لبلتشر ويلارد بذاته . وكان التشابه رائعاً فى دقته ، حتى تأثر به ويلارد نفسه ، فتحول عبوس وجهه إلى تعبير يكاد يكون جميلا .

ولف ويلارد الصورة ، وضم قبضته وأسندها إلى خصره . ثم قال وهو ينتقل بنظراته بينى وبين الرجل الغريب :

دليل قاطع وإثبات يرقى عن الشك ، ولست أرى سوى أن هذه الجماعة قد ضمت إلى صحبتها فصيلة من الشخصيات الكفيلة بتدمير الخلق والمبادئ . هـــلا أخبرتنى من الذى دعاك إلى . . .

فقاطعه الشاب الغريب قائلا :

www.ibtesama.com

– اسمى ياسيدى كوپلى . چون سنجلتون كوپلى من جنوب بوسطن .

وضحك ويلارد فى سخرية وقال :

– يؤسفنى ياسيدى أنك لست عضواً فى هذه الجماعة ، لأعاملك بما تستحق .

ثم التفت إلينا يتفرس فينا بنظرة قاسية وقال :

– كل من كان منكم طالباً بكلية هارڤارد يحضر غداً إلى مكتبي فى تمام الخامسة مساء للتحقيق والمحاكمة .

** معرفتي **
www.ibtesama.com
منتديات مجلة الإبتسامة

www.ibtesama.com

الفصل الرابع

كان شهر يولية قد أشرف على نهايته عند ما أرسل المسئولون إلى والدى إخطاراً بفصلى من الكلية، لا لفداحة ذنوبى وأخطائى . ولكن عظة لغيرى من الطلاب الذين تمادوا كثيراً فى الإسراف والعصيان والخروج على النظام . وعلق المسئولون أمر العفو عنى على الظروف . وقالوا إنه قد يسمح لى بالعودة إلى الكلية فى الخريف وقد لا يسمح .

وبدا لى القرار مجحفاً ظالماً ، حتى كرهت الكلية من كل قلبى ، وتمنيت ألا أعود إليها أبداً ، فقد غضب علىّ والدى أشد الغضب ، ولم يبخل علىّ برأيه الصريح فى مساوئ الخمر ومضار رفقاء السوء ؛ وكان أقسى ما سمعته منه وأمرّه أننى أضيّع عمرى وأجلب العار على أسرتى بممارسة هواية الرسم التى لا تليق بالرجال . قال :

– إننا نتمتع بمركز اجتماعى مرموق وصلنا إليه بالكد والكفاح وخشية الله ، فمن حقنا أن نتشبث به ونبقى عليه . لقد كان جدك ، وأبوه وجده من قبله ، يفلحون الأرض من مشرق الشمس إلى مغربها ، فيطعمون عائلاتهم بعرق

www.ibtesama.com

جبينهم . عاشوا فى راحة وهدوء . واقتصدوا قليلا من دخلهم كل عام ، وبهذا المال الذى ادخروه مع مثابرتى على العمل والكدح ، تأتّى لى أن أقيم مصنع الحبال الذى نملكه . وأبنى البيت الكبير الذى نعيش فيــه . ولولا جهاد هذه الأجيال المتعاقبة من الرجال الكادحين ، ماتهيأت لك يا لانجدون فرصة الذهاب إلى هارفارد ، حيث كان باستطاعتك أن تبنى مستقبلا يفضلنا جميعاً فى المال والجاه . لقد منحناك الفرصة ولكنك ضيعتها هباء ، وآثرت على الجد والثراء هواية العبث بالأقلام والألوان ، لتملأ الورق بما يشبه نبش الدجاج ،أتتوهم أن المجتمع يحترمك بهذه الطريقة ؟ أتتخيل أنك تستطيع بهوايتك الهزيلة أن تعول امرأة ؟ ألا تتصوركم نشعر بالخجل حين نرى الناس يشيرون إليك بأصابعهم . ونسمعهم يقولون ساخرين : ها هو ذا ابن تاون . . إنه يرسم صوراً ! ألا تذكر أن جدك كان ضابط مدينة كيتارى . وأول من حل بمنطقتها ؟ تُرى ماذا يقول لو رآك الآن ؟ يقينى أنه ما كان يحتمل سخافاتك ؛ ولا أنا أستطيع احتمالها على الإطلاق !

قلت :

— يؤسفنى ما حدث ياسيدى . وأنا على أتم الاستعداد لإطاعتك بالكد والاجتهاد ؛ ولكنى أستطيع أن أحقق نجاحاً أكبر إذا اشتغلت بما أميل إليه .

www.ibtesama.com

فصاح بي قائلا :

– هراء ! ! لو اشتغلنا بما نحب ما انتهينا إلى شيء ! لطالما تمنيت أن أكون تاجراً من ثراة بوسطن ، أملك بالعشرات سفناً تمخر البحار ! إننا لا نعمل عن هواية وميل ، وإنما نؤدى العمل واجباً حتمياً .

قلت مؤمّناً على قوله :

– أجل ياسيدى ؛ ولكنى سمعت من والدتى أن جدى الأكبر لم يكن يذهب إلى الكنيسة أو يتعفف عن شرب الروم ، كما لم يتقاعد عن الاشتراك فى محاربة الهنود كلما سنحت له الفرصة ، مما يدل على أنه كان يعيش على هواه أحياناً .

وزاده حديثى غضباً ، فقال :

– ألم يكن يؤدى واجباً بمحاربة الهنود ؟

قلت أناقشه :

– لم تعد محاربة الهنود أو الفرنسيين واجباً يعترف به الناس فى هذه الأيام ، وقلّ من يذهب إلى هذه المهمة إلا لحب غريزى فى القتل والتذبيح ، أو جرياً وراء متعة لا يجدها بالبقاء فى بيته .

فقال :

– إنى أرفض مناقشتك فى هذه النقطة يا لانجدون ، ولكنى أفضل أن يحتوينى القبر ميتا على أن أراك تتسكع فى هذه

www.ibtesama.com

المدينة . ولاهم لك سوى الرسم ، ولا يمكن أن أقبل بحال من الأحوال أن تسلك سبيل الدعة ، لتعيش عالة علىّ كأنك امرأة فقيرة من أهلنا . عليك أن تحزم متاعك على وجه السرعة لترحل غدا إلى بيت جدك ، حيث تكون بمأمن من صحبة هنك مارينار وكاپ هوف أو غيرهما من الأجلاف المارقين . ستعاون جدك فى فلاحة مزرعته ، ويحسن بك أن تقوم بالعمل فى أدب وظرف ، وإلا تعرضت للسعات سوطه ، حتى وأنت فى هذه السن ! نعم . ولسوف أشكره على ذلك إن فعل !

ولم يكن هناك مجال للاختيار . فقد كنت أعلم أن أمى وإخوتى يخافون أبى مثلما أخافه أنا ، ولن يجرؤ أحدهم على معارضته ، رغم اقتناعهم جميعاً بقسوة حكمه على . وعلى ذلك رضيت بنصيبى صاغراً ، وذهبت إلى جدى فى پايپستيف لاندنج .

لم يطل بى الوقت فى المزرعة حتى كرهت عملها الذى يقصم الظهر . وثرت على رتابته التى تشل العقل . كنت ملزماً بترك فراشى عند الفجر وما زلت فى أشد الحاجة إلى راحة النوم ، لأسقى الماشية وأنظف حظائرها ، ثم أعزق ما لا عداد

www.ibtesama.com

له من خطوط الذرة والبقول . وأحصد ما لا نهاية له من البذور والحبوب . وبعد ذلك أنقل أطنان القش من الحقول إلى العربات ، لأكرر الجهد عند تفريغها فى المخازن والشوان . ولا يقف الجهد عند ذلك القدر ، فهناك شجيرات أقتلعها ، وصخور أحملها ، وأسوار أشترك فى بنائها ، ثم أقطع الأخشاب للوقود ، وأرفع الماء من الآبار . وأحلب الأبقار ، وأمشط الخيول ، وأطلى سروجها بالزيت . وفوق هذا كله أعنى بأسباب النظافة الضرورية .وأعمل على حماية المزارع من كل ما يعرضها للدمار .

كنت أجلس إلى المائدة وأنا أتصبب عرقاً . ولشدة الإرهاق لا أقوى إلا على الضرورى من الكلام ؛ فضاق صدرى بهذه الحياة التى تنحصر فى الكفاح ، وكرهت أن أصبح كبقية أهل البيت أهرع إلى فراشى فور انتهائى من عشائى .

وغلبتنى الكراهية فأصبحت أمقت كل شىء ، حتى غرفتى الدافئة ، التى تقع تحت منور السقف ، وحتى نومى الثقيل الذى لا يحقق راحة وإنما يؤجل مشقة العناء .

ولم تكن الحياة التى أعيشها تترك لى فرصة أمارس فيها هواية الرسم ، بالرغم مما كانت تثيره روعة المناظر فى نفسى

www.ibtesama.com

من حماسة ونشوة ؛ فقد كنت أجد مادة فنية دسمة فيما أراه على نهر بيسكاتاكوا من قوارب مثلثة الشراع . تنزلق على الصفحة المائية الواسعة ، وهي في طريقها إلى المرساة . لتفرغ شحنتها من البضائع التي تحملها إلى المناطق الداخلية . ثم المنازل البيضاء الصغيرة القائمة على شاطئ سليجو وراء الضفة الأخرى من النهر ، ثم الغابات الكثيفة ومن فوقها سماء سخية بالألوان والأضواء التي لا تنقطع على مضى أوقات اليوم وتعاقب فصول السنة .

وسارت الحياة على هذا النمط . ومعها ازدادت يداى خشونة ، وبلغ من تصلب أصابعي أن أصبحت أشك في قدرتها على استعمال الأقلام مرة أخرى .

ولا جدال في أن حرماني من رؤية أليزابت براون ضاعف كراهيتي للحياة التي أعيشها ، وجعلني أحقد على ما ابتليت به من عبودية لا تحتمل . والحق أنني كنت في شوق شديد إليها ، وما كان يقعدني عن العودة لزيارتها ببورتسماوث ، سوى تأنيب أبي ، وما قاله عن العار الذي جلبته عليّ أسرتي .

ولم أكن أرى فيما فعلته بهارڤارد أمراً مشيناً . فالحماقة التي أعترف بارتكابها لم تكن تختلف عما يأتيه زملائي بين وقت وآخر ، ولقد كان بينهم من شاركني في الجرم بقدر مماثل ،

www.ibtesama.com

ومع ذلك لم يعاقب ولو بكلمة تأنيب واحدة . ولكن تقدير أبي للحادث جعلني أجبن أمام ألزابيث ، أو قل : إن افتتاني بها جعلني لا أجرؤ على مجابهتها قبل التأكد من صفاء شعورها نحوي .

وكان إشكالي مضاعفاً ، فلقد كان والدها إپسكوبي المذهب ونحن كونجرجيشانيين ، وفي هذا الاختلاف ما فيه من أسباب التناقض ، فضلا عن أنه كان راعي كنيسة كوينز التي يؤمها علية القوم في بورتسماوث ابتداءً من المحافظ بينج وينتويرث فنازلا . وكان الأپسكوبيون في عمومهم يحتقرون أصحاب المذاهب الأخرى ، ويعتبرونهم حثالة المجتمع ، فيبادلهم الآخرون شعورهم ، وينظرون إليهم كفئة أفضل قليلا من الكاثوليك .

وأدهى من ذلك وأمرّ ، أنني من كيتاري ، التي يحتقرها أهالي بورتسماوث ، وأبسط من فيهم يعتبرها مكاناً وضيعاً قذراً . وأعتقد أنه ما كان في استطاعتي أن أصادق ألزابيث براون ، لولا انتسابي إلى كلية هارفارد وصـــلاتي الوثيقة بطلابها وخريجيها من الأپسكوبيين الأثرياء .

ولكل هذه الأسباب ، كنت واثقاً من قيام حوائل أبدية

www.ibtesama.com

بيني وبين أليزابيث . إذا عرف أهلها أنني لم آت حماقة فحسب ، بل فصلت كذلك من كلية هارفارد بالذات .

وظللت على هـذه الحال إلى أواخر شهر أغسطس . حين كتب لى الخلاص من مزرعة جدى ، بفضل الأنباء التى جاءتنا باستيلاء اللواء آمهرست وجنوده الإنجليز وفرق المقاطعات على قلعتى تيكو نديروجا وكراون بوينت ، أحصن ما عرفنا من مواقع الفرنسيين والهنود على طول حروبنا معهم ، ولشدة ابتهاج أهل بورتسماوث بهذا النصر العظيم ، ظلوا يطلقون المدافع ويدقون الأجراس أربعاً وعشرين ساعة ، فكان صوتها يصل إلينا فى پاپيستيف لاندنج رغم بعد المسافة .

وفى أوائل شهر سبتمبر ، أى بعد أسبوعين من الحادث العظيم ، كتب إلى والدى خطاباً ينبئنى فيه بأن الانتصار الحربى الساحق ، أنعش الأسواق فى بورتسماوث ، وأعاد الثقة إلى الدوائر الصناعية ، مما يحفز التجار إلى بناء سفن جديدة كثيرة ، ستحتاج إلى ما لا نهاية له من الحبال ، لذلك يسره أن أعود إلى البيت ، وأعاونه فى إدارة المصنع .

وكان واضحاً من خطابه أنه قد غفر لى ، ولم يعد يعتبر

www.ibtesama.com

حماقتى فى هارفارد لطخة أبدية تحط من كرامتى ، إنما غلطة يمكن التغاضى عنها ، أو تحاشى ذكرها على الأقل .

ولم أكذب خبراً ، ففى مساء ذلك اليوم ، كنت أسير إلى بيتنا . وكأى شاب فى مركزى كانت أسرتى آخر ما أفكر فيه ، فقد انشغل ذهنى كله بأليزابيث براون ، التى اعتزمت أن تكون زيارتى لها ، أول ما أفعله عند وصولى بورتسماوث .

** معرفتي **
www.ibtesama.com
منتديات مجلة الإبتسامة

www.ibtesama.com

الفصل الخامس

شق القارب الذى أقلنى إلى بورتسماوث طريقه بين السفن والقوارب المتزاحمة فى المرساة القائمة عند نهاية شارع بَكْ ؛ وفى حانة سيمان تركت حقيبتى ، ثم سرت فى الطريق إلى بيت ألبزابيث ، وأنا أسعد الناس بقرب لقائنا مرة أخرى .

ولا أظن إلا أن شارع بَكْ يبدو فى الأمسيات الدافئة أعجوبة فى نظر من يعتقدون أن نيو أنجلاند ولاية مقبضة معتمة ، تزدحم بجماعة من الأغنياء المتعجرفين المتحذلقين : فعلى جانبى ذلك الطريق الضيق تقوم المخازن والحوانيت والمشارب والبيوت التى تملأ الأجواء بما تشيعه من روائح الروم والقهوة والليمون والبهار. ولم يكن شارع بَكْ يختص بالروائح فقط . فقد اصطلح أهل بورتسماوث على اختياره ميدانا للنزهة ، يخرجون إليه كل مساء وحداناً وزرافات ليقطعوه جيئة وذهاباً وهم يضحكون ويتسامرون فى مودة وألفة ، فترى فيه التجار والمحامين ورجال المال وأهـل الفن ، كما ترى ضباط القلعة فى ملابسهم الحمراء المذهبة يتأبطون سيوفهم اللامعة ، ثم أعضاء مجلس الملك بمعاطفهم الفضفاضة المبطنة بالحرير الأحمر . والواقع أنه فى كل مساء دافئ كنت

www.ibtesama.com

ترى أهل بورتسماوث كلهم يتمشون اخوينا فى شارع بلك ، فيختلط حفيف الملابس الحريرية بطرقات العصى الأنيقة على الأرض ، وضربات الكعوب العالية على الطوار « الأرصفة » ، وتقـــع الأنوار المنبعثة من الأبواب والنوافذ على الرؤوس اللامعة بالدهون والأحذية المزينة بالفصوص ، فينعكس منها بريق يفيض على المكان مزيداً من البهجة والحبور .

وفيما أنا سائر بالطريق ، رأيت بين الجموع ، عن بعد ، السيد آرثر براون وزوجه . ولم تكن معهما البزابث ولا أختها جين ، فانتابنى قلق شديد ، ولم أر بداً من أن أسرع إلى بيت آل براون بشارع كورت طلباً للاطمئنان . وحدث ما كنت أتمناه ؛ إذ فتحت لى اليزابيث الباب ، لأنها صغرى الأختين ، وواجبها أن تقوم بمثل هذا العمل .

وصاحت تقول : ياللعجب ! إنه لانجدون تاون يعود إلينا من عالم الأموات !

وتأملتنى بطرف عينها فى عتاب ، وكانت نظرتها بهذه الطريقة تسحرنى ، ثم قالت : لم تصلنى منك كلمة واحدة طوال الأسابيع الماضية ؛ أهذا ما يعلمونه لكم فى هارفارد من أصول الأدب وقواعد اللياقة ؟

ولم ألق بالا لتحيتها الساذجة ؛ إذ كانت مقابلتها قد

www.ibtesama.com

غلبتني على أمرى . فشعرت كأن شيئاً بداخلي انفجر فجأة وأغرق حلقي وعقلي حتى سكت عن التفكير والنطق : كان شعرها أسود لامعاً ، إذ سقطت عليه أشعة الشمس انبعث منه إشعاع أرجواني ، وعيناها السوداوان كانتا على عمق بعيد ، حتى لتظن وأنت تتأملهما كأنهما بحر تسبح في أمواجه المخملية الداكنة أضواء ذهبية براقة : كان وجهها نحيلا مسنوناً له شكل القلب . وفمها الواسع تطوقه شفتان يزيدهما بياض بشرتها احمراراً فوق احمرار ، وعلى ركن من ذلك تتأرجح ابتسامة فيها ما في العينين من بهجة دائمة . تكسبها طابع المرح حتى في أوقات الجد .

وأطربها سكوتي فضحكت ، وتظاهرت بأنها تستدير عائدة إلى البهو ، ولكني أمسكت بيدها وجذبتها نحوى ، فرفعت إصبعها الجميلة إلى شفتيها تردني محذرة . ثم أسرعت السير إلى الباب الخلفي . حيث سمعت همهمة حديث تنبعث من ورائه .

وعند ما دخلت تلك الغرفة الصغيرة التي تضيئها الشموع . أدركت السبب في تخلفها عن النزهة بشارع بك . فقد كان هناك ثلاثة أشخاص يتسامرون : أختها الكبرى جين مع زوجها سام ليفرمور . وهو خريج هارفارد وصديق لي .

www.ibtesama.com

وهو نفس سام ليڤرمور الذى أصبح فيما بعد مدعياً عمومياً لمقاطعة نيوهامپشاير .

وعند ما وقعت عيناى على الشخص الثالث دهشت واغتبطت فى ذات الوقت ، فقد عرفت فيه الرجل الذى وقف بجانبى منذ شهرين متحملا عنى مسئولية رسم الرجل والظربان المشمئز ؛ وأذكر أنه عرفنى بنفسه فى ذاك اليوم ، وقال إن اسمه چون سنجلتون كوپلى ؛ ولم أكن قد سمعت بهذا الاسم من قبل ، ولكن الظروف شاءت بعد ذلك أن أسمعه مرات لا تعد ولا تحصى .

وقبل أن تنطق اليزابيث بكلمة ، قفز كوپلى من مقعده وأمسك بيدى يهزها بحرارة وقال : ياللمصادفة الطيبة ! لقد حاولت أن أراك بعد اليوم المشهود ، ولكنهم أخبرونى بأنك فى مأزق حرج . فأرجو أن يكون الأمر قد مرّ بسلام :

وتوجست شراً فى تلك اللحظة . وأغلب الظن أن كوپلى لاحظ ذلك . ولكنة تجاهل ما اعترانى . ولما أجبته فى وجوم بأن الإشكال قد انتهى ولم تترتب عليه نتيجة ذات بال ، حاول جهد طاقته أن يتبسط معى بعبارات ودية لطيفة .

قال يحدث اليزابيث وجين وسام :

أمر غريب ! لم أكن أعرف أن تاون صديق لكم ! فقد

www.ibtesama.com

قابلته فى كمبردج ، وأنا مشتاق إلى رؤيته ثانية لأحفزه إلى تنمية مواهبه الفنية .

ورفعت البزابيث وأختها حاجبيهما . كما لو كانتا تقولان بصوت مسموع : كذا ! ! ظنناك ستتكلم عن أمر يستحق الذكر ! !

وراح كوبلى يروى للجالسين ما حدث عند ما زارنى كاپ وهنك ، ثم ما سـمعه من نتائج الحوادث التى وقعت فى ذلك المساء .

وكان أسلوبه فى الحديث غاية فى المرح ، فاستغرق سام فى الضحك ، وجعل يقهقه عالياً ويضرب فخذه بيده ؛ أما البزابيث وأختها . فلم تجدا فيما تسمعانه ما يبعث على التسلية .

قالت البزابيث تسألنى :

يا للمخلوقين البشعين ! من هما يا لانجدون ؟

قلت : ليسا بشعين أبداً ! إنهما هنك مارينار وكاپ هوف .

وطوحت البزابيث بيدها اشمئزازاً وقالت باحتقار :

هراء ! إنهما فظان مخيفان ذلقا اللسان وقحان . وليس فى بورتسماوث أحد يجهل أن كاپ هوف كان نزيل السجن فى يوم من الأيام ...

www.ibtesama.com

فقلت محتجاً : ولكنها لم تكن غلطة كاپ أن وضع فى السجن يا ألبزابيث ، فقد حبسوه لانتقاده وينتوورث .

صاحت مستنكرة : يالمنطق الأعرج ! مادام كاپ هوف تكلم فى حق پيننج وينتوورث ، فلا شك أنه مخطئ ، أليس كذلك ؟؟

قلت : لا يا ألبزابيث ، بل هو خطأ بيننج وينتوورث لتصرفاته التى تستحق النقد .

قالت متعجبة : ماهذه المغالطة يا لانجدون ؟ لا أظنك تجهل أن هذين المخلوقين الوقحين أضرا بك كل الضرر ، ولم تجن من صحبتهما سوى الحماقة والكسل . ولست أفهم كيف تدافع عنهما بعد ما سببا لك من متاعب فى كمبردج .

وعقدت الحيرة لسانى ، إذ كنت أتمنى أن تظل على جهل بما حدث فى كمبردج ، ثم خف كوپلى لنجدتى فقال : أعتقد أنك تقسين فى حكمك على صديقيه ، فلقد وجدتهما غاية فى اللطف والطيبة ، ولم يكن هذا رأيى وحدى ، فكل من كانوا هناك فى تلك الليلة أحبوهما واغتبطوا بمعرفتهما . وأنا لا أدعى أنهما من النوع الذى يعجب السيدات ، ولكننا لا نستطيع أن نقصر صلاتنا على سادة القوم ، وإلا بقيت معلوماتنا عن الحياة ناقصة .

www.ibtesama.com

والتفت إلى الزابيث يسألها باسما : ألا ترين ذلك ؟؟

ولم تجب الزابيث ، فقال يتم حديثه : ومن أهم الضرورات للفنان أن يعرف شتى أنواع الناس ، ويتعمق فى دراستهم ، فرسالته أن يرسم صور الحياة ، وسوف يكون الفشل نصيبه إذا لم يكن ملما بمختلف المظاهر والأطوار .. أليس هذا الكلام معقولا ؟

قالت باقتضاب : إن لانجدون ليس رساماً .

ثم أضافت تقول فى لهجة يشوبها الجفاف : إنه يقيم الآن فى كيتارى ، ولكنه سوف ينتقل إلى بورتسمارث عند ما يتخرج فى هارفارد . ألا تتمنى ذلك يا لانجدون ؟

فاحتج كوپلى قائلا : ولكنه بالفعل فنان له عين صائبة فى تقدير الأضواء والظلال ، وطريقته فى تكوين الصور ماهرة . هذه موهبة ممتازة ، والإنسان لا يستطيع أن يتجاهل المواهب ، ولا فى مقدور العوامل الثانوية التافهة أن تخفى وميضها الباهر .

ونزل حديثه على قلبي برداً وسلاماً ، وبلغ من سرورى بما سمعت منه فى تلك اللحظة أن نسيت أمر الزابيث وقلت : هذا كلام فنان أصيل ، ولست أستغرب الآن ما فعلته من معجزات بوجه الرجل الذى رسمته .

www.ibtesama.com

وضحك سام قائلا : إن مستر كوپلى تلميذ چوزيف بلاكبرن ، وقد جاءنا اليوم موفداً منه ليتفق مع مستر براون على الأوقات المناسبة لرسم صورته .

وأثار هذا الخبر اهتمامى إلى أبعد حد ، فبلاكبرن أعظم من يرسم الوجوه ، ومن دواعى فخرى العظيم أن يمتدحنى أحد تلاميذه البارزين . ولم يسعنى سوى أن أحملق بتواضع فى وجه كوپلى .

قال فى مرح : أنت فى حاجة إلى دوام الدرس والتمرين ، فماذا رسمت طوال هذا الصيف ؟

قلت وأنا أتأمل يدىّ على ضوء الشموع ، وأفحص كفىّ الخشنتين وأصابعى المتورمة المعوجة : لم أرسم شيئاً .

وتقدم كوپلى منى ، ثم قال وهو يتحسس كفىّ : ما هذا ؟ لماذا أهملت يديك ، وماذا كنت تصنع بهما ؟ أكنت تشتغل بالحدادة ؟ !

قلت : بل كنت أعمل فى الزراعة .

وساد الغرفة سكون عميق ، حتى خيل إلى أننى أسمع خفقات أجنحة الفراشات وهى تطير من شمعة إلى شمعة . وفى وسط هذا سكون سمعنا الباب الخارجى يفتح ويقفل ، ثم صوت مستر براون يتحدث مع زوجته فى البهو الخارجى .

www.ibtesama.com

إيمان ، إذا ضعف ماتت الموهبة فتعيش حياتك تعساً شقياً . أسمعت بمن يدعى مارك كيتسبي ؟

واعترفت بأنني لم أسمع به من قبل .

قال : مارك كيتسبي اسم يعرفه كل فنان فى انجلترا وفرنسا ، ولقد كان مولعاً برسم طيور منطقة كارولينا الجنوبية ، فجعل يشبع رغبته ويرسمها رغم ما نال من نقد ولوم . حقيقة إنه لم يقتن ثروة من وراء ذلك ، ولكنه عاش عمره سعيداً ، وما كان يرضيه أن يستبدل حظه بذهب أعظم التجار والمزارعين ، وسوف تظل ذكراه حية فى قلوب الناس أجيالا وأجيالا بعد أن يطوى الثرى أغنى أغنياء كارولينا وأعظم زارعيها .

وفى خلال هذا الحديث . كانت البزابيث تجلس على المقعد منتصبة وقد أسبلت جفنيها وشبكت أصابعها فى شدة فوق حجرها ، فالتفت إليها ثانيـــة يقول : ماذا ترين فى ذلك ؟

ثم أدار نظره إلى چين ، ولكن المرأتين نهضتا من مجلسهما وغادرتا الغرفة دون كلمة واحدة .

www.ibtesama.com

الفصل السادس

أما بقية حوادث تلك الليلة فمعتمة غير واضحة المعالم :

كانت أحلام الصبا التى آنستنى طوال الصيف ، توهمنى بما سألقاه من عطف عند ما أرى البزابيث ثانية . ولذلك كانت الصدمة مرة أليمة . وقد حاول سام ليفرمور . بطيبة قلبه المعهودة ، أن يهيئ لى فرصة أنفرد فيها بأليزابيث ، ولكنها رفضت بعد أن اجترأت على الدفاع عن الفن وأفصحت عن احترامى له . وبذلك امتهنت كرامتى فى نظرها . وضيعت أملها فى رجولتى .

وجربت لأول مرة لذع الصراحة التى يمكن أن تصدر عن فتاة غاضبة . وتلقيت ذلك الدرس المحزن القاسى الذى لا بد للشاب أن يلاقيه عند ما تتعارض آماله مع رغبات الفتاة التى يحبها . ولقد حاولت أن أقنعها بالحجة . ولكنها كانت تحيد عن الحق فى إصرار . فلم نصل فى حديثنا إلى أية نتيجة .

وجعلت تحاول بمهارة حديثها وذلاقة لسانها أن تلقى وزر رغبتى فى احتراف الرسم على صداقتى لكاپ هوف وهنك مارينار ومخالطتى لهما . كما جعلت تتهمنى بأننى أقدم هذين

www.ibtesama.com

الرجلين عليها وأفضل رضاهما على رضاها . وأقدر صداقتهما أكثر مما أقدر صداقة عظماء الرجال فى بورتسماوث . وما هذا كله إلا لأننى أميل بطبعى إلى الابتذال وأوثر صحبة الرعاع على الكرام .

كانت تسميهما الصديقين الوقحين ، وتعتبرهما من الأوغاد والسوقة ، وتؤكد أننى إذا لم أتخل عنهما سأثبت أنى على شاكلتهما ؛ وغد لا أستأهل مصاحبة أشراف القوم وأفاضلهم.

ولم أفهم سراً لحدتها المتزايدة ، واختلطت الأمور على عقلى المجهد اختلاطاً بليداً يائساً مشبعاً بالغضب والحنق . وجلست أمامها أدعك يدى الخشنتين فى غباوة ، وقلبى بين جنبى ينزف دماء المهانة ، كنت أريد أن أغادر البيت فى ترفع وكبرياء ، ولكنى لم أكن أحتمل فراقها بعد وحدتى الطويلة بعيداً عنها .

ودخلت أختها چين الغرفة فجأة وقالت : يريد أبى أن يراك يا البزابيث أنت ولانجدون .

وقفزت البزابيث واقفة ، وخرجت فى حزم ، وسرت خلفها حزيناً واجماً . وأمسك سام بكمى وقال يهمس فى أذنى محـــذراً : لا تجادلهم . ولا تناقشهم ، فالأمور قد تنصلح إذا لم تعارضهم ... وسأبقى هنا فى انتظارك .

www.ibtesama.com

وشعرت بعد هذه الكلمات كأنني مجرم يشجعه محاميه قبيل صدور الحكم بإعدامه ، وعبرت البهو إلى غرفة الاستقبال ، ورأيت مسز براون وزوجها المبجل السـيد آرثر براون يجلسان متصلبين على مقعديهما ، ويحملقان فى بنظرات غاضبة .

وكان ضوء الشمعتين الموضوعتين على المائدة الوسطى يتراقص ويهتز ، فيكسب وجهيهما المغضبين حدة ونحولا . وكنت أعتقد دائماً أن مستر براون وزوجته شخصان متعاليان متكبران ؛ ولكن الغضـون والخطوط العميقة التى رأيتها فى تلك اللحظة أظهرتهما فى صورة أخرى : فقد بان عليهما – إن لم أكن مخطئاً – سيماء خيبة الأمل ، خيبة الأمل الممتزجة بالخوف . وانزوت الزبابيث فى ركن من الغرفة ، وتركتنى أمام والديها أقف وحيداً مثل سجين يجابه منصة القضا« .

وتنحنح مسـتر براون وقال : إننا يا لانجدون لا نكاد نصدق ما سمعناه عنك من مستر كوپلى .

ومال برأسه إلى الوراء ونظر إلىّ من فوق أنفه واستطرد : لقـد حاول أن يقنعنا أنك تفكر جدياً فى احتراف الرسم ... الفن ! فهلا طمأنتنا إلى أنه مخطئ فى ظنه .

www.ibtesama.com

ولما لم أحر جواباً ، انحنى إلى الأمام مقطباً ، واعتمد على المائدة بمرفقيه ، وهو يشبك أصابعه بعضهما ببعض ، وقال يستحثنى على الكلام : هيا لا تجدون . لا أظنك تتنكر لكل ما أنعم الله به عليك من فضائل وخيرات ، وتضرب عرض الحائط بجهاد أبيك وآمال أمك ، من أجل نزوة .. مجرد نزوة طارئة طائشة . إن الابن الأحمق يورث أباه الحزن والخيبة ، ويخلف أمر المرارة لمن ولدته من بطنها وأرضعته من لبانها .

قلت : ما هى بنزوة ياسيدى . لقد كنت أهوى الرسم طول عمرى . ومستر كوپلى يتوسم فىّ موهبة طيبة .

قال مستر براون متلطفاً : اسمع يابنى ! إنك لا تفهم شيئاً ! منذ سنوات ، وقبل أن أنزح إلى هذه البلاد ، كنت أعمل فى دبلن سكرتيراً لدين سويفت ، أثناء تأليفه كتاب « رحلات جليڤر » الذى لا بد أن تكون قد سمعت عنه ، فهو عبارة عن قصة خرافية صبيانية ، أصابت من الشهرة ما لم تصبه أكرم الأعمال الأدبية .... وتعرفت فى ذلك العهد بألوان شتى من الناس : ممثلون ومؤلفون ورسامون . ولقد كان الرسامون أخيبهم حالا . كانوا طغمة من المهرجين الجهلة وقطيعاً من الغشاشين الأدنياء . كلهم معدم مفلس يعيش فى فقر مدقع ، وكثيراً ما رأيتهم يقفون على أقدامهم

www.ibtesama.com

ساعات طويلة فى انتظار مقابلة السادة واستجداء عطفهم .

ووضع كفه أمامه وسعل ، ثم نظر إلى البزابيث وقال : وكان معظمهم سكيراً مدمناً .

قلت أصحح مزاعمه : ليسوا جميعاً كما تقول يا سيدى ، فقد كان ڤلاسكويز وروبنز من أعظم السادة ، كما أنعم على ليلى ونيللر برتبة الفارس .

وسمعت من خلفى البزابيث تتحرك فى ضيق ، وهزت مسز براون رأسها ، وقال زوجها فى جد :

ـ لأفضل عندى أن أكون حارس باب بيت الله من أن أسكن قصور الفساد . ففى مقابل كل رسام ناجح مثل ليلى أو نيللر ، يوجد آلاف من الفاشلين ممن أحسنوا الظن بقدرتهم على مزج الألوان ، فتردوا فى حضيض الفقر ، وعاشوا يأكلون القاذورات التى تعافها الخنازير ، ثم ماتوا جوعاً وبرداً فى جحورهم البغيضة . لست أبتغى إهانتك يا بنى ، ولكن الحقيقة أنك غير ڤلاسكويز أو نيللر .

وكان رأسى يزدحم بالردود التى تفند مزاعمه ، ولكنى بقيت واقفاً أمامه فى صمت أبله ، إذ كنت أعرف أن منطق العالم كله لا يمكن أن يثير عطفه على ، أو يزحزحه عن موقفه .

وسعل مرة ثانية ثم قال فى بعض الحنان : أظنك لم تدرس الموضوع بما فيه الكفاية .. لقد كنا نعتقد أنك تستهدف خدمة الكنيسة . فأدخلناك بيتنا وأحطناك بحبنا . وأسبغت عليك ابنتى كثيراً من عطفها . كنت أرجو أن تجذبك ثقافتك العالية وصِلاتك الطيبة نحو الكنيسة الإنجليزية ؛ وحتى لو تمسكت يالانجدون بالكنيسة الكونجريشينية ، ماوجدنا فى ذلك غضاضة ، فعائلتنا حرة التفكير ... وتقدر حرية التفكير فى غيرها ! ولقد صار بعض قساوسة كنيستك عمداء لكلية هارفارد ، ولم يضعف تقديرى لمراكزهم العظيمة اختلاف العقيدة ، فمن تعاليم أسرتى احترام الوظائف الرفيعة . وأنت تعلم ياسيدى أن ثلاثة من أبنائى يعملون فى الجيش والرابع قسيس فى مدينة نيوپورت ، وابنتى الكبرى متزوجة من ضابط فى الجيش البريطانى ، والثانية من ربان فى البحرية البريطانية ، والثالثة مخطوبة لمستر ليڤرمور وهو محام قدير أمامه مستقبل عظيم . ولا شك يا لانجدون أنك تقدر مدى نفور أولئك الأخيار من شخص مستهتر معدم يعمل رساماً وينخرط فى سلك الفنانين .

فقلت محتجاً : ولكنك لا تنفر من مستر كوپلى !

فقال مستر براون فى أدب :

www.ibtesama.com

ـ أحقاً ؟ ألا يجوز أنك تجهل حقيقة شعورى نحو مستر كوپلى ؟ إنه تلميذ بلاكبرن الرسام . الذى قدم هذه المدينة ليصور أعيانها . ولقد أوفده بلاكبرن ليرجونى أن أستعمل نفوذى فى إيجاد عمل له . إن چوزيف بلاكبرن أشهر رسام فى بلادنا ، ومع ذلك ، تراه يلجأ دائماً إلى رجاء الناس . وقد سمعت أن مستر كوپلى نفسه رسام فذ ، ولكنه مضطر للحط من كرامته بالاستجداء من أجل أستاذه ! ثم ، ألا تعلم أن بلاكبرن العظيم لا يتقاضى فى الصورة سوى خمسة جنيهات فقط ! ؟ لقد بلغ ذروة المجد ، ومع ذلك لا يزيد أجره عن هذا المبلغ الحقير ! ترى كم صورة يتحتم عليه أن يرسمها يا لانجدون ، ليعول عائلته ويعيش حياة محترمة ! ؟

ولزمت الصمت ، ووقفت أرتكز على إحدى ساقى ، ثم أنتقل إلى الأخرى ، وأنا أرقب فى وجوم لهب إحدى الشموع وهو يتراقص مثلما يتراقص عقلى فى ضعف وعجز .

وتعالى من خلفى صوت اليزابيث تقول : ليس فى نية لانجـدون رسم سادة القوم ، فأمله أن يتخصص فى رسم الهنود .

وحسبت فى صوتها رقة ، فلما التفتُّ أنظر إليها ، حملقت فى وجهى غاضبة متحدية .

www.ibtesama.com

فقال مستر براون فى لهجة هادئة : نعم ، سمعت من مستر كوبلى مثل هذا الكلام . فهلا أخبرتنى عن حكمة هذا الاختيار ؟

قلت : لأننا لا نعرف أشكالهم على وجه الدقة . فضلا عن أنهم يتخذون لأنفسهم رسوماً متسقة بارزة ذات ألوان غريبة غنية ، أعتقد أنها ستكون جميلة فريدة إذا أبرزتها فى رسومى ، ومن ورائها مناظر الغابات الخضراء ، أو السماء الزرقاء ، أو المياه الصافية الرقراقة .

وشهقت مسز براون فى اشمئزاز بالغ . ومال مستر براون إلى ظهر مقعده ، وقال وهو ينظر إلى مستهزئاً : وهذا دليل آخر على قصر نظرك . فقبل أن تتعلم كيف تستعمل الألوان قررت أن تكون رساماً ، رغم ما فى ذلك من حطة لكرامة أسرتك ، واستهانة برأى أصحاب المقام فى هذه المدينة ؛ وليتك وقفت عند هذا الحد . لكنك أسرفت واخترت لنشاطك مخلوقات مجردة من المال والدين والإنسانية والفن والأدب ، فكأنك لا تطلب الفقر فحسب ، وإنما تريد أن تخرق قواعد الرسم وأصوله . أنت لا تزال صغير السن يا لانجدون ، لم تر كثيراً . ولم تتعلم ما يستحق الذكر ، فلم لا تقرأ كتاب رتشاردسون ناقد الرسم الكبير ، عسى أن

www.ibtesama.com

توسع أفقك بنصائحه القيمة ، فمن رأيه أن الطبيعة العادية لا تصلح للتصوير إلا بقدر ما يصلح النثر للشعر المنظوم . فرسالة الرسام أن يسمو بأفكاره فوق ما ترى العين ، فيصور فى ذهنه نموذجاً كاملا لموضوع لا وجود له فى عالم الحقيقة . والرسم كالشعر ، يجب أن يتغاضى عن عيوب المرأة الجميلة ، ويذهب فى إبراز الشجاعة والحكمة والاستقامة فى صورة الرجل إلى أبعد ما نراه فى واقع الحياة . وعند ما نرسم رجلا مهذباً يجب أن نكسبه مزيداً من التهذيب ، وعند ما نرسم فلاحاً يتحتم أن نجعله أقرب ما يكون إلى صورة السادة المثقفين .. إنها أساليب المؤرخين والشعراء ، فهل رأيت واحداً منهم يقف عند وصف الحقائق الأصلية فى موضوعه ؟

قلت : لست أرى ما يمنع ذلك .

ويبدو أن مستر براون كان يعتبر كلامه حججاً لا تناقش ، فلما اجترأت على الرد حملق فىّ بدهشة لم تلبث أن انقلبت إلى حقد ومقت . وقال :

— بالضبط ! أنت لا ترى ما يمنع ذلك ، ولكن ريتشاردسون يرى ما لا تراه ، وكل رسام فذ يؤمن بأن الحياة عديمة الطعم إذا نحن اقتصرنا فى إبرازها على ما نعرفه

www.ibtesama.com

بالعقل ونراه بالعين . قد يجد مثلك ما يسليه فى قوم تافهين كالهنود ، ولكن أهل الذوق والأخلاق ينفرون من صور أولئك الهمج المتوحشين .

قلت :

– هذا يتوقف على الرسام الذى يصورهم .

ورفع مستر براون يديه من فوق المائدة ، ثم عاد وأسقطهما عليها ، كأنه يستشهد السماء على ما يبذل من جهود لإنقاذى من خيبتى وغباوتى . قال : لن أسترسل فى مناقشتك يا بنى ، ولكن مصيرك الحتمى إلى الضياع إذا أنت أصررت على سلوك هذا الطريق .

ونهض متعاظما ، ومر بجانبى إلى نهاية الغرفة حيث فتح الباب . ووقف ينتظر خروجى . ونظرت إلى اليزابيث وهى منزوية فى ركنها ، فرأيتها تحملق فى لهب الشموع كأنها لا تحس بوجودى ؛ أما التعبير الذى ارتسم على وجه أمها فكان مقتاً صريحاً لا يمكن للعين أن تخطئه . وأحسست بشفتى السفلى ترتجف ، وانحبس الصوت فى حلقى فلم أستطع الكلام ، ولم يعد أمامى سوى الانصراف . فأومات برأسى مودعاً ، وخرجت مسرعاً .

www.ibtesama.com

وتمتم مستر براون بكلمات غير مفهومة ، ثم تبعنى إلى نهاية البهو حيث دس قبعتى فى يدى ، واطمأن إلى انصرافى من الباب الرئيسى . وفى الخارج كانت الأشجار تبدو مثل تل معتم جامد ، والسماء من فوقها مزينة بالنجوم اللامعة ؛ فخيل إلى أننى إذا حرمت من هذا البيت ، وتقطعت السبل بينى وبين البزابيث ، فسوف تتلاشى تلك النجوم المضيئة ، ولا يبقى سوى ذلك التل المعتم الجامد .

قال ليڤرمور لمستر براون وهو يسرع ورائى : ثق ياسيدى أن لانجدون متعب مرهق ، وستصفو أفكاره فى الصباح بعد أن ينام ليلته ويعيد التفكير فى مستقبله .

وسمعت الباب يصفق بشدة تعبر عما يجول بخاطر مستر براون .

وسرت مع سام فى الطريق وأنا أكرر كلماته فى غباء ... ستصفو أفكاره فى الصباح ... ستصفو أفكاره فى الصباح ..

وكنت فى أقصى مراتب الشقاء ، وما كان فى الإمكان أن يزداد شقائى حتى لو تأتى لى فى تلك اللحظة أن أعرف ما يخفيه الصباح من مفاجآت ، أو أن أدرك أن شمس الغد لن تشرق قبل أن أكون قد توغلت بعيداً فى الشمال وراء عدو لحريتى ، أشد مراساً من السيد المبجل آرثر براون .

www.ibtesama.com

الفصـــل السّابع

قال سام يحدثني في عطف : دعنا الآن مما حــدث ، والأفضل ألا نتكلم حتى لا تندم على كلامك في يوم ما ... مستر براون رجل طيب بلاجدال . ولكنه قسيس . والقساوسة لا يحتملون معارضة أو مناقشة ، فضلا عن خوفهم الشديد على مراكزهم الاجتماعية المرموقة ، فتذكر هذه الحقائق كلما تحدثت إلى واحد منهم . إني أقدر شعورك ، وأعرف أنه عقّد لك أفكارك بأقواله ، فهذا ما يحدث لي عند ما أتحدث إليه أحياناً . سنذهب إلى حانة «ستودلي» لنشرب بعض الروم عساه يفك لك عقدك الفكرية .

وعند ما وقفنا تحت المصباحين المعلقين على جانبي باب الحانة ، كنت قد تحسنت إلى الحد الذي جعلني أسمع صوتاً يتحدث إليّ ، ولكن عقلي كان مشلولا ، فجاءتني الكلمات بلا معنى .

قال سام وهو يلكزني : إنه يتحدث إليك ..

ورفعت عيني ، فرأيت كاب هوف بجسمه الضخم ووجهه المستدير اللامع . وكان يرتدي ملابس العمل : وهي سترة وقميص من الجلد ؛ ولم أذكر ، وأنا أحملق في جسده الذي

www.ibtesama.com

يشبه الثور فى ضخامته ، سوى ما تكنه له الزابيث وأبوها من كراهية وحقد .

سألته : ماذا تريد ؟

فاقترب منى حتى امتلأت خياشيمى برائحة الروم والعرق ، وقال : لم أرك منذ شهور . فأين كنت ؟ وماذا بك ؟ أثمل أنت ؟

فهززت رأسى نفياً ؛ ولكنه استمر يتأملنى بإنعام . فقلت :

— كنا نقصد ستودلى ؛ ليحل الشراب عقدة تفكيرى على حد قول سام ؛ فتعالَ معنا إذا كنت تريد كأساً .

قال : عقدة ! إنك ثمل ! من الخير أن تذهب إلى حانة الغزال ؛ ففيها من الروم ما يذيب العقد فى أصلب أنواع الخشب . وهى أحسن وسيلة لإفاقتك من سكرك .

ثم خفض صوته وقال : سأذهب للبحث عن هنك ، فهل رأيته أخيراً ؟

ولما علم بأننى لم أره ، سألنى عن موعد عودتى إلى كيتارى ، ولكنى لم أكن فى حالة تسمح باتخاذ قرار فى هذا الموضوع ، فقال : كنت واثقاً من ذلك ، فالأفضل أن تنتظرنى هنا ،

www.ibtesama.com

ولاتحاول عبور النهر وأنت على هذه الحال . سأعود سريعاً لأوصلك إلى البيت سالماً .

وسعل سام ليڤرمور في أدب وقال : سأقف معه حتى تعود .

وأومأ كاب برأسه موافقاً ، وسار يظلع في الطريق ، في حين انشغلت أنا بأفكارى وأحزانى ، وفيما سيأتى به الغد .

وعند ما دخلنا حانة ستودلى ، كان العمل فيها يسير على قدم وساق ، ولا غرابة ، فقد كانت أحسن حانات المدينة وأكثرها أناقة . وقد اشتهر صاحبها بتقديم أجود الخمور وأطيب ألوان السمك ، فتأتى له أن يكسب في بحر عامين لا أكثر ،أرباحاً طائلة أنفقها في تشييد فندقه الجديد « إيرل أوف هاليفاكس تاڤرن » ، الذى فاق فنادق ولاية بنسلڤانيا وماريلاند وڤرچينيا بفضل أسرّته المريحة ، ومشربه الجميل، وطعامه الجيد ، وشرابه اللذيذ .

وكانت قاعة المشرب بحانة ستودلى طويلة ، جدرانها وسقفها مكسوة بأفخر أخشاب الصنوبر المدهونة باللون العسلى الفاخر ، وفى نهاية هذه القاعة الكبيرة يقوم خوان المشرب ، ومن ورائه مدفأة من الطراز الألمانى الكبير ، لا تنقطع النيران فيها حتى في الليالى الدافئة . وعلى لهيب

www.ibtesama.com

تلك النيران تشوى سرطانات البحر على الطريقة التى اشتهرت بها الحانة . وكان السقف متحركاً يرفع فى الصيف تخفيفاً لدرجة الحرارة وترطيباً لجو القاعة ؛ أما فى الشتاء فيعاد وضعه لتدفئة المكان وإشاعة الحرارة بين جنبات الحانة . والحق أن الجلوس فيها كان متعة حتى عندما تصفر الرياح وتعصف الزوابع ويتراكم الجليد فى شوارع المدينة . وكان رواد الحانة كباراً وصغاراً يفدون عليها كل مساء بعدما ينتهون من أعمالهم أو نزهاتهم ، ليحتسوا كأساً من الروم المخلوط بالزبد ريثما تشوى السرطانات البحرية على نار المدفأة ، فإذا ما تم إعداد هذا «الصحن» اللذيذ ، أقبلوا على أكله مع كأس أو كأسين من جعة ستودلى الفاخرة .

ولما كان من بين عملاء الحانة كثيرون من أصحاب المراكز الرفيعة ، كأعضاء مجلس الملك ، وأغنياء التجار الذين يحتفلون بربابنة سفنهم ، وأعضاء محفل القديس چون الماسونى الذى يشغل الطابق الثالث من ذات المبنى ، فقد بنى ستودلى لضيوفه المختارين مقاصير صغيرة خاصة تقع على طول جانب من قاعة المشرب . وإلى واحدة من تلك المقصورات قادنى صديقى سام .

www.ibtesama.com

وربت كتفي وهو يقول ليطمئنني : ستنقشع الغمة عن قريب . وبعد يوم أو يومين تنسى كل ما حدث .

وطلب قنينة من الروم المخلوط بالزبد ، وأمر بإعداد أربعة سرطانات ، اشترط أن تشوى على نار حامية لمدة ست دقائق على الأقل . ورغم أنه كان يتكلم بلهجة تفيض مرحاً وتفاؤلا غير أني كنت أعرف أنه مخطئ في تقديره . ولن يتاح لي في يوم من الأيام أن أنسى ما فعلته بي الزبابيث ولو طال الزمن .

قال وهو يضع الروم على المائدة :

— هاك العلاج الناجع لكل آلامك !

وجعل يرقبني بعين مدققة وأنا أشرب الكأس التي قدمها لي . ثم قال في حزم :

— لقد أسأت التصرف يا لانجدون ، فآل براون قوم محافظون يتمسكون بالتقاليد ولا يخرجون على العرف المألوف ، وما كان يصح أن تخالفهم في آرائهم أو تعاندهم فيما يؤمنون به . لقد أسأت اختيار طريقك إليهم وبدأت من الناحية الخطأ ، ولو كنت أقسمت لهم ألا تحترف الرسم ولو أعطيت أموال قارون . ما وجدت منهم سوى غاية العطف على الفن ومحترفيه .

www.ibtesama.com

قلت : ربما !

قال : بل مؤكد ... وعلى أى حال ، إن الأثرياء كثيرون فى بورتسماوث ، فامنحنى فرصة من الوقت أحدثهم فى أمرك . ولن تمضى سنوات قليلة حتى يسهموا بالمال الذى يجعل منك رساماً كما تبتغى . وحتى إذا لم يتحقق هذا الأمل ، ففى استطاعتك أن تقتنى أثناء الانتظار ثروة طيبة ، والفرص أمامك لا أول لها ولا آخر . ولولا رغبتى فى الالتحاق بخدمة الحكومة لانتهزت إحدى هذه الفرص العديدة . كل ما تحتاج إليه مركب شراعى تشحنه بأى سلعة : جلود القنادس ، أو خشب البراميل ، أو السمك المملح ، أو أوانى الطهو ، أو حتى الجليد ، ثم تقلع بها إلى جزر شوجار تبيع حمولتها وتشترى بثمنها بناً وروماً ، ومن هناك تبحر إلى انجلترا حيث تبيع السفينة بحمولتها . رحلة واحدة كهذه تأتيك بخمسة أمثال رأس المال .

قلت : جائز ! ولكن مشكلتى مع البزابيث تظل قائمة .

قال محتجاً : لن تظل قائمة فالبزابيث لا يهمها نوع العمل الذى تقوم به ، ما دمت قد أثريت منه .

ولما رأى ما ارتسم على وجهى ، سعل فى ارتباك ، وقال بسرعة كأنه يقرأ أفكارى :

www.ibtesama.com

ــ لا أقصد ذلك . فمن المستحيل أن تتزوجك دون موافقة أبيها . ولكنها ستطمئن إلى أنك تسير في طريق الامتياز الاجتماعى عند ما تراك تنمى ثروتك وتزيد أملاكك .

وسكب لنفسه كأساً أخرى من الروم .

قلت : أظنك محقاً ، فأحسن الناس فى هذه المدينة لا يرضيهم سوى المال ، أما إذا أحجم شاب عن جمع المال وهو قادر على ذلك ، وآثر على الغنى مهنة غير مشرفة كالرسم أو التأليف مثلا . فمصيره المحتوم أن ينبذه المجتمع ويرجمه بالحجر !

قال : هراء ! !

قلت أتمم حديثى : أما من حيث مساهمة بعض الناس فى مساعدتى لدراسة الرسم ، فرأى لا أوافق عليه إطلاقاً لأننى أقدس حريتى فى ممارسة فنى . ولست أحب أن يتحكم فى إنتاجى أصحاب الفضل علىّ .

وصاح سام فى احتجاج يقول : ياإلهى ! !

قلت : ثم هناك اعتبار آخر . وهو أننى إذا بدأت أجمع المال كما تقول ، فمن المتعذر أن أقف عند حد ، وأغلب الظن أن الذهب سيغرينى بطلب المزيد منه . فأعيش حياتى عبداً له ، مثلما حدث لكثير من خيرة أهل هذه المدينة .

www.ibtesama.com

قال فى حدة مفاجئة :

على رسلك .. يبدو أننا الليلة على حال غير طبيعية ! من تقصد بخيرة أهل المدينة ؟

قلت : أنت تعلم من أقصد . إنهم أتباع الكنيسة الأبسكوبية ! أولئك الملكيون المتطرفون الذين يحترمون حكامنا ويجلونهم ..

وصاح سام ساخراً : مرحى ، مرحى ! ها قد جاءت المشويات !

وفتح الباب ، ودخل واحد من عبيد ستودلى ، وكان اسمه أحد الألقاب الرفيعة التى تعود ستودلى أن يسبغها على عبيده مثل «الأمير» أو « الملك » أو« الإيرل » أو« البارون » . وأقبل علينا العبد يحمل صينية عليها أكواب الجعة وسرطانات البحر المشوية . ولما رأى الخادم أننى أجلس متجهماً ، لا أبدى ترحيباً أو رضاً ، صاح يقول فى صوت رفيع :

– ماذا بك يا مستر لانجدون ؟ ولماذا لا تقبل على هذه السرطانات الشهية ؟ لقد أخرجتها الآن من النار بيدى .

وبدأت وسام فى التهام تلك السرطانات ، ورحت أخرج بشوكتى لحمها الطرى من أصدافها القشرية ثم أغمسه فى الزبد الساخن . وكانت كما قال « الدوق » لذيذة الطعم طرية كاللبن المختثر . والتقط سام بشوكته قطعة كبيرة منها ، ولوح

www.ibtesama.com

بها للدوق على سبيل إظهار تقديره وإعجابه ، ثم حشا بها فمه في لذة واضحة ، فخرج « الدوق » مسروراً سعيداً .

ولم يتكلم أحدنا خلال الطعام حتى أتينا على آخر قطعة فى الصحون ، وغسلنا حلوقنا بجعة ستودلى التى تشبه القشدة .

قلت أستأنف حديثى :

ثق أن كثيرين من أكابر بورتسماوث يكرهون الاستغلال الشائع فى هذه المنطقة . فأبى رجل شريف وكذلك آل لانجدون وآل بكرنج وآل پنهولو وآمثالهم ممن لا تخفى عليك أسماؤهم . أولئك قوم أشراف ولكنهم يتبعون الكنيسة الكونجريجيشينية ، ولذلك لا حول لهم ولا قوة ، فالنفوذ والسلطة وقفٌ على أصحاب الوظائف ممن يتملقون بيننج وينتويرث ويفتعلون الضحك حين يروى لهم فكاهاته السخيفة .

فقال وهو يتلفت نحو الباب الذى يفصل مقصورتنا عن المقصورة المجاورة :

لا ترفع صوتك هكذا ، فللجدران آذان ، والمدينة تعج بالوشاة .

قلت : إذاً ليس من الحكمة أن أجهر بالحق ، أو أشتغل بالرسم ، حتى لا أغضب غيرى ، فأضر بنفسى .

ثم قلت وأنا أهز إصبعى فى وجهه :

www.ibtesama.com

يجب ألا أجهر بالحق إذا تناول الكبار ! ألم تسمع بما فعله سادة الناس ببعض نساء أسرتى ؟ كن سيدات صالحات تقيات . ولكنهن اتهمن بالسحر وشنقن فى اپسويتسن ! ألم تسمع بما حدث لريتشارد شورتزيدچ حين سبق پينج وينتويرث إلى الزواج من موللى بيمان ؟

وهز سام كتفيه وقال :

وهل تستطيع أن تثبت عليه التهمة ؟

قلت : لن أستطيع ؟ اسأل البحارة عما جرى فى البحرية البريطانية . لقد دبر بيننج وينتويرث مكيدة لشورتريدچ . اختطفته بعد أسبوعين من زواجه فرقة كاملة نقلته إلى إحدى السفن البريطانية ليقضى فيها ما تبقى من حياته . إنه الآن فى إحدى البوارج ؛ أما وينتويرث فما زال يغرى موللى بالحضور إلى ليتل هاربور .

قال : من أين أتيت بهذه الأسطورة ؟ إنها أشبه بقصة خرافية كالتى تؤلفها أنا ما رينار ، أو قل إنها أكذوبة من نوع أكاذيب صديقك السليط كاپ هوف .

قلت : على رسلك ! وما رأيك فى الإقطاعيات التى يوزعها بيننج وينتويرث فى هذه المنطقة ؟ ألا يمنح الأراضى

www.ibtesama.com

الواسعة لرجال غرباء عنا مقابل رشوة باهظة ؟ أم أن هذه أسطورة أخرى ؟ !

وتجلى الغضب فى نظراته ، ولكنى مضيت فى حديثى بعناد . فقلت :

ألا تعلم أنه يشترط نصيباً قدره خمسمائة فدان من كل إقطاعية يمنحها، ويحتم على المنتفعين بالإقطاعية أن يصلحوها له على نفقتهم ؟ ؟

قال سام : لم أسمع بهذا .

قلت : عجيب ! ظننت أن العالم كله يعرف بهذه الحقيقة ! كلنا يعلم أنه سرق مائة ألف فدان من هذه المقاطعة ! ثم ، أليست حقيقة أنه وأخاه مارك جردا المقاطعة من كل غاباتها، وتسلم بيننج نصف أخشابها ؟ أين كنت حتى تجهل كل هذه الأمور ؟ وكيف لاتعلم ، وأنت محام ، آن العدالة ان تصيبك حتى تجثو على ركبتيك لآل وينتويرث ؟ ياللعجب ! ! تصور محامياً يجهل خضوع المدعى العام لسيطرة أولئك العتاة ! ولعلك لم تسمع قط بأن هذا النائب العام يملك ألف طريقة وطريقة يدخلك السجن بها إذا لم يعجبه شكلك ؟ ولعلك لم تسمع أيضاً بوسائله فى التنكيل بمن يعارضون مشروعاته بيننج وينتويرث ! أو بأنه وعمدة المدينة لا يتورعان عن سرقة

www.ibtesama.com

المال من جيوب الموتى لاقتسامه مع وينتويرث !

ودفن سام أنفه فى كوب الجعة ولم يحر جواباً . فقلت :

ماقبلت أقوال المبجل آرثر براون إلا لأنه والد البزابيث ولكنى لا أقبل ما تريده من وجوب احترام حكام هذه المدينة. أيرضيك ما فعله أهل ليتيس ميتشل حين أكرهوها على الزواج من العمدة وايزمان كلاجت؟ أيطربك احترامهم وتمجيدهم لكل وغد يرتدى الملابس الرسميـــة ؟ أيعجبك أن يضرب وايزمان كلاجت زوجه مرتين فى الأسبوع على الأقل ؟ أو أساليبه هو والعمدة فى إثارة البحارة وتحريضهم على العصيان، فإذا سقطوا فى الفخ وعصوا ، غرمهم عشرة شلنات ، حتى يتأتى لمندوب جلالة الملك وصديقه السيد العمدة الشريف أن يتمرغا فى الملذات والخمور ؟ أيرضيك تهجمهم علىّ ، وتجريدهم لى عنوة من ملابسى ؟

وفى تلك اللحظة ، وكأنما قد قرر الحظ أن يضرب بغير رحمة ، فتح الباب الذى يقع بيننا وبين الغرفة المجاورة . وهو غير الباب الذى يصلنا بالمشرب العام ، وظهر من ورائه وجه وجسم أرســـلا القشعريرة فى عمودى الفقرى . كان وجه وايزمان كلاجت المدعى العام ، وقد انبعثت من عينيه نظرة هـــائلة .

www.ibtesama.com

كان رجـــلا كبير الجسم ، حاجباه غزيران . وعيناه سوداوان . وشكله عصبي منفر . وكان فمه يتقلص نحو جانب من وجهه حتى لتظن أنه وصل إلى أذنه . وحاجباه يتحركان فى انقباض كأنهما حشرتان تتصارعان . وكان من عادته أن يزداد بالغضب دمامة على دمامة . حتى كان الأطفال يفزعون لمرآه ويجرون مبتعدين فى خوف .

ورأيتـــه فى تلك اللحظة أبشع ما يكون منظراً . وهو يتأملنى من فرجـــة الباب . فلم أملك سوى أن أبادله النظر صامتاً . . .

وقفز سام واقفاً . واستدار نحو الباب . وعندئذ دخـــل كلاجيت ومن ورائه العمدة ثوماس باكر — وهو نفس ثوماس باكر الذى شنق المدرّسة روث بلاى فيما بعد . وكان رجـــلا منقبض السحنة بغيض الشخصية .

ولمحت فى الغرفة التى جاءوا منها بقايا من الطعام والشراب فتأكدت أنهما كانا هناك منذ جئنا إلى الحانة . وربما قبل ذلك . ولا شك أن كلامى وصلهما واضحاً جلياً من خلال الحاجز الرقيق الذى يفصل المقصورتين .

وكان سام أول من وجدالقدرة على الكلام فسألهما فى أدب :

ترى لأى غرض نحن مدينون لكما بشرف هذه الزيارة ؟

www.ibtesama.com

وكان كلاجيت ضخم الجثة ، ولكنه مهيب المنظر فى عباءته الحمراء الطويلة . قال بصوته الشاذ العالى :

مستر ليڤرمور . ليس عندى ما أشكوه منك . ولكنى أراك فى رفقة خطيرة . وأظننى أستطيع تسوية الأمر بينى وبينك دون إجراءات رسمية . فوداعاً وأتمنى لك ليلة سعيدة .

فقال سام : سيدى المدعى العام ، إن لاتجدون تاون ضيفى ، فإن كنت هنا لحديث معه . فرجائى أن تسمعنى إياه .

قال كلاجيت بلهجة لاذعة : أراك تتصدى للدفاع عنه يا سيدى ، فهل أفهم من ذلك أنك موافق على آرائه كلها ؟

فقال سام : لست على علم بآرائه كلها . أما بخصوص عطفى عليه فهذا شأنى وحدى . وأمره يخرج عن موضوعنا يا سيدى ؛ إنما المهم أنك دخلت علينا دون دعوة . ولم تطرق الباب على سبيل الاستئذان .

قال كلاجيت : الجواب على هذا السؤال سهل هين ، فأنا هنا يا سيدى لأمنع القذف فى موظفى حكومة جلالة الملك . أو لعلك تؤيد القذف فى حق ممثلى جلالته ؟

فقال سام محتجاً : قطعاً لا . فأنا لا أؤيد القذف فى حق أى إنسان بصرف النظر عن شخصيته .

قال كلاجيت فى صوت مرتفع عنيف :

www.ibtesama.com

إذاً فلا شأن لك هنا يا سيدى . ومرة أخرى أرجو لك ليلة سعيدة . افتح له الباب يا عمدة وساعده على الخروج !

ورغم ضخامة پاكر وثقل مظهره . كان يستطيع التحرك بمنتهى السرعة عندما يريد . ولقد تحرك بالفعل فى سرعة ؛ فقفز إلى باب المشرب وفتحه . ثم دفع بيده سام إلى الخارج بمنتهى السهولة ، كأنه يزيح كأس الجعة من فوق مائدته . وبنفس السرعة أغلق الباب . ثم أوصده . ولما رأيت يد المقبض ترفع وتخفض ، أدركت أن سام يحاول اقتحام الباب ليعود إلىّ .

وكان واضحاً أن أمرى قد انتهى . وليس باستطاعة سام أن ينقذنى وإلا دمر نفسه . ونظر كلاجيت إلىّ مقطباً ، وتقلص فمه جانباً حتى كاد يصل إلى أذنه .

قال : أتحب أن تكتب اعترافاً ؟

قلت وأنا أحاول السيطرة على صوتى المرتجف : ولمَ أكتب اعترافاً ؟

قال : لأنك ارتكبت جريمة خطيرة .

قلت : أى جريمة ؟

قال وهو يضرب المائدة بقبضته : الإهانة والقذف ! أهنتنى وأهنت زوجى . وقذفت فى محافظنا بيننج وينتويرث الرجل الطيب الشريف . واجترأت على ترديد شائعات

www.ibtesama.com

خبيثة عن مصير ريتشارد شورتريدج ! كذب فى كذب !
والآن أريد أن أعرف من أين تأتى بهذه الافتراءات ، ومن الذى يمدك بهذه السموم الخبيثة ؟ فمن سمعتها ؟

فتنفست فى شدة وهززت رأسى ولم أحر جواباً .

قال يحذرنى : إنك فى موقف بالغ الخطورة ، والأفضل أن تعترف بمصدر التهم الباطلة .

قلت أحاوره : تهم باطلة ، أنا آخر من يتهم الأشراف زورا .

فصاح كلاجيت : ماذا تقول ؟

وكنت خائفاً فزعاً كطفل صغير ؛ ولكن صياحه رد لى بعض شجاعتى المفقودة ، فقلت رافع الرأس :

ما هذه بالتهم الباطلة ؟

فالتفت النائب العام نحو العمدة يقول له : سكير يهذى ! ورجل على هذه الحال يضر بسلامة المجتمع ويعرض الأمن للخطر ، فلا تدعه يتصل بأحد خارج السجن أيها العمدة . لا أحد على الإطلاق .

فقلت : لن تجرؤ على محاكمتى ، لن تجرؤ على ذلك حتى لا أردد أقوالى أمام أعضاء المحكمة .

ولم يتكلم كلاجيت ، ولكنه ابتسم وهو يشد عباءته حول كتفه ، وإذ ذاك أدركت أننى لن أرى بعينى المحكمة فى يوم

www.ibtesama.com

من الأيام ، لا ولن أعامل حسب قوانين العدالة ، أو أعطى فرصة المثول أمام قاضٍ باع ضميره لبيننج وينتويرث . كان واضحاً أنه قد اعتزم معاملتى على غرار ما عامل ريتشارد شورتريدچ ، ومصيرى الوحيد أن أسجن فى أحد السجون التى لا يرجى الهرب منها .

وجن جنونى فصحت فى وجهه أقول : انتظر ! لا بد من كلمة لأسرتى ، وأنا أطالب بحقى فى توكيل محام يدافع عنى . أريد أن أرى سام ليڤرمور .

قال كلاجيت فى شبه ابتسامة : إنه هذيان الخمر ! لا تدعه يتصل بأحد وأنت مسئول عن تنفيذ هذا الأمر .

وأشار لپاكر أن يذهب بى إلى الباب .

وقبل أن أتحرك ، تعالت من المقصورة المجاورة ، التى دخل علينا منها كلاجيت وپاكر ، ضوضاء عالية أعقبتها أصوات أوان تتحطم على المائدة ، ثم صاح أحدهم يقول فى صوت أجش :

منذا الذى يهذى من شدّة السكر ؟ وهل يُستبعد ذلك وفى تصرفات بعض الناس ما يدفع إلى الهذيان ؟

وفُتح الباب الذى كان من قبل مردوداً ، وعلى عتبته وقف كاپ هوف برأســه المرفوع وجسمه المائل . وكانت عيناه تلمعان كأنه مفيق غير سكران .

www.ibtesama.com

الفصل الثامن

وقف كاپ هوف ينظر إلينا فى حزم وعزم ، ثم شمر سرواله . وأقبل علينا فى بطء بعد أن أقفل الباب وراءه .

قال يسألنا : منذا الذى يهذى من فرط السكر ؟ أهو كلاجيت ؟ ! أظن ذلك . فقد سمعت أنه اغتصب اليوم بعض المال من أم هنك مارينار ؛ فطبيعى أن ينفق غنيمته فى السكر والعربدة ، وأن يهذى لفرط ما احتسى . كيف حالك يا مستر كلاجيت ؟ أأنت على ما يرام ؟ ؟

والتفت كلاجيت إلى پاكر يأمره قائلا : خذ الاثنين ياعمدة ، ولا تدع أحداً يتصل بهما .

قال كاپ يخاطب العمدة وهو يصطنع السذاجة : تأخذ من ياعمدة ؟ لقد جئت لأنقذ لانجدون تاون من سوء عشرة ممثلى التاج وفساد الخمر التى يشربونها . فهل كنتم تتناولون العشاء معاً أيها السادة ؟ ليس من طبعى أن أعكر صفو الناس فى مرحهم ، ولكن الوقت تأخر بهذا الصبى ، فيجب أن يعود الآن إلى بيته ، حتى لا تقلق أسرته لغيبته .

وذهب كاپ إلى النافذة ، وأزاح ستائرها . ثم قال يغير

www.ibtesama.com

الموضوع : ما كنت أعرف أن هذه المقصورة تطل على حارة ضيقة تشبه السجن الذى يخرج الناس كلهم منه ، إن الجزر ينحسر الآن ، وطريق النهر موحل ، فهلا عدت معى إلى البيت يا لانجدون ؟

فقلت : لا أستطيع ذلك فأنا مقبوض علىّ !

فقال لى كاپ فى جد ، وهو يشير بيده إلى كلاجيت وپاكر : هذا جزاء مخالطتك لأصحاب السوء ، وطبيعى أن يحدث لك ذلك ، ما دمت تصادق أمثال هؤلاء الناس .

فقال كلاجيت لپاكر فى خشونة : لقد سمعت أوامرى أيها العمدة ، وهذان الرجلان تحت الحفظ . فهلا اصطحبتهما إلى ..

قال العمدة : سأفعل !

ولكنه بدل أن ينفذ الأمر مباشرة ، أراد أن يلعب دور المدعى العام ، فقال لكاپ هوف : أنت مشبوه ، وسيرتك السيئة مفسدة فى هـــذه المدينة ، ولقد حاولت تعطيل سير العدالة . أنت مشبوه سيىء السيرة .

فقال كاپ : لست أنكر أننى قدوة سيئة ، ولكنى لست مشبوها . كنت قدوة سيئة منذ سرقت سراويل راعى الكنيسة وأنا فى السابعة من عمرى . ومازلت إلى اليوم على حالى

www.ibtesama.com

لم أتغير ، ومن السهل أن أثبت هذه الحقيقة ؛ أما أنني مشبوه فقول لا أسمح به لأحد. ومن يجرؤ على هذا الادعاء . أجبره على سحبه ، وإذا لم يسحبه عملت بنفسى على إعادة كلامه إلى حلقه .

وأمسك پاكر من كتفيه وألقاه على مقعد وقال له : اجلس ياپاكر !

وسار كلاجيت صوب باب الغرفة الموصل للمشرب وهو يقول لكاپ هوف : أتظن أيها المجنون أن مشرب ستودلى يخلو من رجال البوليس لحظة ؟

قال كاپ : استدعهم إن شئت . افتح الباب ونادهم !

وفتح كلاجيت الباب ، وإذا بجسم هنكنج مارينار الهائل الضخم يكاد يسد فتحته . ودفع هنك بكلاجيت إلى داخل الغرفة . ودخل وراءه وأقفل الباب وأوصده بالمفتاح .

وكان وجه هنك قد ابيض لشدة الغضب ، وركنا فمه مشدودين فى عصبية بالغة . وملابسه ممزقة موحلة ، ووقف الفتى وظهره إلى الباب يحملق فى كلاجيت صامتاً .

ووضـــع كاپ يده الثقيلة على كتفى كلاجيت ودفعه إلى الجلوس بجوار پاكر . ثم قال : لا أريد ضوضاء أيها

www.ibtesama.com

السيدان . وإلا حشوت فكما بقشور هذه السرطانات . حتى تعجزا عن الفحيح . لست مشبوها . ولا أحب أن يقال عنى ذلك . فحذار أن تنطقا بحرف وإلا ظننتكما تشتمانى . وأنا رجل يخرجنى الغضب عن طورى ... ثم إن هنك ماريتار لا يميل كثيراً إليك يامستر كلاجيت .

ووقف كاپ أمام الرجلين الجالسين واضعاً يديه الضخمتين على كتفيهما . ثم التفت إلىّ يقول : سيذهب هنك معك يا لانجدون !

سألته : إلى أين ؟

فقال كاپ : إلى حيث تكونان بمأمن من الضياع الأبدى فى السجن أو فى إحدى سفن البحرية . لقد أغضب كلاجيت هنك هذا المساء يا لانجدون . فعند الغروب صادر حمولة السمك التى تملكها أمه ... اشتهت نفسه أن يتعشى سمكاً ، ولكنه لم يشأ أن يشتريه . فلجأ إلى تلك الحيلة القذرة التى طالما مارسها مع الناس . وكان أن أرسل إليها اثنين من رجال البوليس يقبضان عليها بتهمة إهانته . وحكم عليها بغرامة قدرها خمسة دولارات . فدفعت الغرامة وخسرت السمك . واقتسم كلاجيت وباكر الغنيمة بينهما .

وأهوى كاپ بيده الثقيلة على رأس كلاجيت وقال :

www.ibtesama.com

كيف نسيت أمر هنك يا مستر كلاجيت ؟ كان واجبك أن تعمل ألف حساب لنفوره من هذه الأعمال . إنى لأتساءل إذا كان قد بقى لك أحد من رجال الشرطة بعد ما أصيب اثنان منهم بإصابات خطيرة توجب بقاءهما فى المستشفى شهراً على الأقل ، وتقطعت أنفاس أربعة آخرين حتى استطاعوا التغلب على هنك ، وأدخلوه سجنك اللعين ؟

ولكن كان يجب أن تعلم يامستر كلاجيت أن هنك لا يبقى فى السجن طويلا !

والتفت إلى هنك يقول : ألا تريد كلمة مع كلاجيت قبل أن تبدأ رحلتك مع لا نجدون ؟

قال هنك : بل أريد أن أنبهه إلى وجوب الابتعاد عن أمى ...

قال كاپ مقاطعاً : انتظر لحظة ! فأنت غير معتاد على الكلام مثلى ، وأخشى ألا يفهم مستر كلاجيت مضمون كلامك ، لذلك يستحسن أن أفسر له الموضوع فيما بعد .

ثم صاح بنا فى لهجة غاضبة : لماذا لا ترحلان حتى أفرغ إلى الكلام ؟

وركب هنك حافة النافذة المفتوحة . وقفز منها إلى الأرض بخفة . فتبعته متعثراً . ثم وقفت على أطراف أصابعى

www.ibtesama.com

أتطلع إلى الغرفة المضاءة . قلت : يجب أن تأتى معنا ، فأسرع ياكاپ ! ألا تقدر خطورة موقفك ؟

أجاب فى خشونة : بالتأكيد .

وفى خفة عجيبة من رجل فى مثل ضخامته ، أمسك بكتفى النائب العام والعمدة ، ثم ضرب مقعديهما من تحتهما ضربة قوية خاطفة . سقط الرجلان على أثرها يئنان ويتأوهان ، وعندئذ قفز من المقصورة ، وحشر نفسه فى النافذة ، ومنها خرج إلى الشارع .

قال : وداعاً للأوغاد ، والأفضل أن نغادر المدينة نحن الثلاثة بعض الوقت ، فاتخذا طريقكما إلى الشمال ، وسأسير نحو الجنوب ، إذ من حسن حظى أن لى جدة عزيزة تدير حانة « سيمان » بمدينة نيوبرى پورت . ولم أزرها منذ وقت طويل ، وأملى أن ...

وعلا ضجيج الغضب من داخل الحانة . فسكت لحظة ثم قال : هيا نبدأ رحلتنا جرياً .

واتجهنا نحو النهر جرياً . فكانت هــذه الكلمات ، ثم ضحكته الخشنة ، ودبيب أقدامه الثقيلة على أرض الطريق ، آخر ما سمعنا أنا وهنك مارنيار من كاپ هورف .

www.ibtesama.com

الفصل التاسع

كان الجزر فى منتصف طريقه حين جثمت أنا وهنك فى قاع القارب المربوط تحت مرساة سپرنج وارف نعانى الأمرّين من الروائح الكريهة التى امتزج فيها عطن الطين بأبخرة الكبريت والنطرون ، ولما أشعلنا المصباح بدت قوائم المرساة وما يتدلى إلى الماء من الحشائش العالقة بها ، مثل أغصان أشجار ضخمة فى غابة سوداء تخفينا فى أحضانها عن العيون . وضحكت بصوت خافت . وأنا رابض فى قاع الزورق المبتل ، عندما تذكرت أننى كنت فى غسق هذه الليلة أجلس مع اليزابيث براون فى مخدع أمها ، جلسة الشاب المهذب ، الذى كان طالباً بكلية هارڤارد ، والذى يتمنى أن يصبح رساماً .

وكان هنك قد جاءنى برسالة خطها لى سام ليڤرمور بسرعة ،حين طرد من الحانة عند القبض علىّ ،فراح يستحثنى على قراءتها عملا بتوصية كاتبها .

قال : أسرع بقراءتها ، فقد نصحنى سام بعدم التوانى فى الهرب من المدينة ، لخطورة إصابة أحد الجنود الذين ضربتهم .

www.ibtesama.com

وفضضت خطاب سام فوجدت به ورقتين ، يقول فى إحداهما :

« سوف يساعدك كاپ وهنك على الهرب . اذهب إلى كراون پوينت وأعط الخطاب المقفل المرافق لهذا إلى البكباشى زاكياس لاڤويل أو الصاغ روچرز ، فكلاهما يستطيع أن يلحقك بالجيش . لقـــد انتهت المعارك ، وحياة الجنود الآن هادئة ، ولن تؤدى عملا سوى التسلية بالصيد والقنص . لن يمضى وقت طويل حتى تتمكن من العودة مرة ثانية ، وعندئذ لن يجرؤ أحد على مضايقتك باعتبارك بطلا مغواراً ... طمئن إلى أننى سأكون شفيعك ، ولن أقصر فى تهدئة خواطر أبيك ، وإقناعه بأن الأقدار دفعتك إلى ما حدث رغم أنفك » .

قال هنك : احتفظ بالخطاب الآخر ، فسام ماسونى ، وربما يكون قد خط على المظروف علامات سرية لصديقيه الماسونيين لاڤويل وروچرز ، فكلاهما عضو فى محفل سانت چون ببورتسماوث ! الناس لا يعتنقون الماسونية إلا رغبة فى الحصول على خدمات الآخرين .

وفحصت الخطاب بحثاً عن علامات سرية . ولكنى لم أجد شيئاً فقرأته لهنك . وكان الخطاب كالآتى :

« إلى البكباشى زاكياس لاڤويل أو الصاغ روچرز بقلعة

www.ibtesama.com

كراون پوينت : يحمل هذا الخطاب لانجدون تاون وهنك مارنيار ، وكلاهما صديق لى من كيتارى وهما من رواد الغابات الماهرين ، والأول تعلم فى هارڤارد ، وقد شاء سوء الطالع أن يختلفا فى الرأى مع الهيئة الحاكمة فى منطقتنا. وسأعتبرها خدمة شخصـــية لى إذا أمكن إلحاقهما بفرقة من الفرق ، وباستطاعتى أن أضمن كفايتهما لأداء واجب الجندية كاملا . وختاماً أرجو قبول غاية تقديرى واحترامى . ودمتم لخادمكم المطيع .

سام ليڤرمور

وخفضنا ضوء المصباح ، وشققنا طريقنا من تحت المرساة مخترقين مياه پسكاتاكوا الصاخبة السوداء ، وبعد نصف ساعة افترقت عن هنك أمام باب منزلنا ، على وعد منه بالعودة حالما ينتهى من إعداد حاجتنا من الأغطية والأغذية .

ودخلت البيت متمهلا خائفاً من المحنة التى سألقاها . وكان الهدوء يسود الطابق الأول ، وما إن صعدت السلم إلى الطابق الثانى ، حتى سمعت صوت أمى تقول فى لهجة ناعسة :

أهذا أنت يا لانجدون ؟

www.ibtesama.com

فلما أجبتها تمتمت تحتج على هذه الساعات المتأخرة من الليل . وطلبت منى أن أوصد الباب الخارجى . وصعدت إلى الغرفة الخلفية المطلة على النهر وهى الغرفة التى أتقاسمها مع أخى الصغير أوديورن ، فلما أضأت المصباح رمشت عيناه ، وتمتم بكلمات غير مفهومة ، ثم أدار وجهه ناحية الجدار .

وخلعت ملابسى ، ثم سحبت حقيبتى الجلدية من تحت الرفوف ، ورحت أحشوها بقميصى الجلدى وسروالى السميك وثيابى الداخلية الصوفية ، مع بعض الأحذية والجوارب وقميص خفيف لأيام الحر ، اعتقاداً منى بأن الجو بارد فى كروان پوينت . ولم أنس إشارة سام إلى أوقات الفراغ التى تنتظرنى ، فدسست كراسة الرسم وصندوقاً صغيراً للألوان ، وحزمة من الأقلام .

ودخلت أمى الغرفة ، وقد وضعت ملفحة فوق قميص نومها . قالت : ما معنى هذا يا لانجدون ؟ ولماذا لم توصد الباب الخارجى ؟

قلت : لقد وقعت فى مأزق صغير يا أماه ، ومن المستحسن أن أبتعد عن المدينة بعض الوقت .

وتململ أوديورن فى سريره محتجاً . وجلست أمى على الفراش وقد غلبها الضعف والتعب فجأة . قالت :

www.ibtesama.com

— أى نوع من المتاعب يا بنى ؟

قلت : تصادمت مع وايزمان كلاجيت . فقد سمعنى أنتقده هو والمحافظ ، بل وأنتقد أتباع الكنيسة الأبسكوبية كلهم ، فكاد يلقينى فى السجن يا أماه .

وأعطيتها خطابى سام ليفرمور ، فراحت تبحث فى صدرها عن نظارتها ، ورأيت الدموع تملأ عينيها ، قلت :

— أعنى الخطابين أقرأهما لك .

ولما انتهيت . جلس أوديورن فى فراشه فجأة وقال :

لن يأتى مساء غد إلا ويكون الزجاج كله فى بيت كلاجيت محطماً . فأنا أعرف من يحسن أداء هذه المهمة .

فالتفتت إليه أمى وقالت : أوديورن تاون . إياك أن أسمعك تنطق بكلمة واحدة . وانزل الآن لتوك وائتنى بقطعة من اللحم البارد وبرغيف من الخبز .

وتسلل أودريون من فراشه . ونزل إلى الدور الأرضى .

ودخل أبى فى بطء ، وقد تدثر برداثه الرمادى ، ومن ورائه إخوتى أيبن وريتشارد وأينوتش . وكان وجهه عامراً بالجمود والحد . فأدركت أن وقت تدخل الكبار قد أزف ، فأخذت بطانيتى البنية من الحقيبة ، ورحت أرتب متاعى فيها بنظام .

www.ibtesama.com

وعند ما أخذت كراسة الرسم ، شاعت سخونة الخجل فى وجهى فى انتظار تأنيبه الشديد .

سألنى قائلا :

— لماذا انتقدت وايزمان كلاجيت والمحافظ ، يابنى ؟ ألم أناشدك مراراً وتكراراً أن تفتح عينيك وتقفل فمك ؟

قلت : آل براون هم السبب ، فمع أن مستر جون سنجلتون كوپلى شجعنى على تنمية مواهبى . وحذرنى من إهمالها وإلا ندمت طول حياتى ، فقد حمل علىّ مستر براون ، وأكد أننى لست فناناً ، وليس باستطاعة الفنان أن يكون رجلا مهذباً ، ثم طردنى من بيته .

قال والدى : حقاً ؟

قلت : أجل ، وكانت إهانته بالغة أصابتنى فى صميم كبريائى ، فأخذنى ليڤرمور إلى حانة ستودلى ليرفه عنى ، وهناك فاض بى الغضب ، فجعلت أتحدث بما يجول فى خاطرى ، وكان كلاجيت والعمدة پاكر فى المقصورة المجاورة .

وبدا الحد على والدى وقال : ولماذا لم تذهب إلى حانة بل ، ألا تعرف أن ستودلى تعج بأنصار الملك ؟

وقالت أمى فى اشمئزاز : يسرنى أن أسمعتهم رأيك فيهم . وأظن الوقت قد حان ليعرفوا حقيقة أنفسهم .

www.ibtesama.com

وأومأ أبي برأسه موافقاً وقال : أجل ، وبود الكثيرين من أهالى بورتسماوث أن يجهروا بشعورهم. ولكنهم يسكتون عن خوف ، والظاهر أن الجرأة أصبحت مهمتنا نحن عامة الناس ، وصار من واجبنا أن نقف فى وجوه كلاجيت وپاكر وويتتويرث ، ونقاوم طغيانهم لسنوات كثيرة قادمة .

ثم قال بعد أن فكر كثيراً :

— أظنك فى موقف لا تحسد عليه يابنى ، وأنا مع صديقك ليڤرمور فى أن كلاجيت لن يجرؤ على التعرض لك إذا التحقت بالجيش ، فاذهب على بركة الله ، وستكون حملة الصيف قد انتهت عند وصولك إلى قلعة كراون پوينت .

ثم قال فى بعض البشاشة :

— دخولك الجيش تجربة لا بأس بها ، ولست أستطيع التكهن بمصيرك فيها ، ولكنى لا أستبعد أن تكافئك الحكومة بقطعة من الأرض تكتب لنا رخاء دائماً . وأظنها فكرة طيبة أن يتطوع أحد أفراد عائلة تاون لمحاربة الفرنسيين .

ونظر إلىّ فى تفكير وقال :

— كثيراً ما قسوت عليك ، وأسرفت فى تأنيبك على ميولك الفنية ، ولكنى أعترف الآن بخطئى ، مادام كوپلى قد اعترف بمواهبك ، وأظنها مواهب أصيلة بدليل تلك الثقة

www.ibtesama.com

بالنفس التي دفعتك إلى مخاصمة آرثر براون .

وتنحنح في ارتباك ، وسعلت أمي ، وحملق إخوتي في سقف الغرفة كأنما يحاولون استعادة أمور غابت عن ذاكرتهم ، مما يدل على أنهم أخذوا بتغير أبي المفاجيء .

قال : كان تصرفاً سيئاً من آل براون . تصرفاً سيئاً جداً ، ولكنك أحسنت الوقوف في وجوههم . فمن واجب الرجل الشريف أن يوضح لأهل زوجته أموره من البـــداية ، ولا يتركهم يتصرفون في حياته ومستقبله وفق هواهم ، وما كنت لتستحق الحياة لو ضعفت أمامهم .

وحك أخي رجليه العاريتين الواحدة بالأخرى ، ثم قال :

– عندي جنيه ذهبي واثنا عشر شلنا ، وهي كل ما ادخرته يا لانجدون ، ولكنها تحت تصرفك إذا أردت .

وسعل أخي ريتشارد ، وقال :

– خذ بندقيتي يا لانجدون فهي حديثة الصنع سديدة الإصابة .

وقبلت النقود والبندقية شاكراً ، فقال أخي الأكبر أيبن :

– خذ ما تشاء من متاعي .

وبعد تفكير قصير أخذت منه « صنارته » الحديدة وبعض الشصوص المثبتة ، وكذلك منديلين حريرين وقمعاً كبيراً

www.ibtesama.com

للبارود رقّت جوانبه من كثرة ما استعمله عمى الأكبر چيمس أثناء رحلته إلى قرطاجنة عام ١٧٤١ .

يشاع عن أهالى نيو إنجلند أنهم قوم بخلاء لا يتكلمون إلا قليلا ، عواطفهم باردة ، وارتباط بعضهم ببعض قوى للغاية . ولعلها شائعة صادقة فيما يختص بفريق من الناس ، ولكنى لم ألحظ ارتباطا شديداً بين أغلبية الناس فى تلك المنطقة ، ولا بروداً عاطفياً ملموساً ، أما الصمت فظاهرة واضحة فيهم ، وليس من عادتهم أن يتكلموا عن حسناتهم .

فعند ما جاء أبى وإخوتى معى إلى المطبخ ، وجلسوا صامتين وأمى تعدُّ لنا الطعام ، أدركت أن صمتهم لا ينبعث عن برود عاطفى أو بخل من أى نوع كان .

وسمعت فى تلك اللحظة صفيراً من الخارج ، فقبلتنى أمى ، وساعدنى أبى وإخوتى فى شد متاعى إلى كتفى ، ثم خرجوا جميعاً معى إلى الباب .

وتصافحنا هناك ، ولم يزد أحدنا عن كلمة «إلى اللقاء» ؛ ولما ابتعدت قليلا فى الظلام صاحت أمى من وراء المودعين ، تقول بصوت مرتجف :

www.ibtesama.com

— هنك مارينار ، اعتن بلانجدون كل العناية ، فقد كان دائماً ولداً طيباً .

وأحسست بغصة فى حلقى ، ولكنى واصلت السير الى مرسانا الصغير على شاطئ النهر ، وهناك التفت خلفى ، فرأيت أمى وأبى مازالا على عتبة الباب تحت ضوء الشموع ، ينظران ناحيتى بعيون لا ترى شيئاً من شدة الظلام .

** معرفتي **
www.ibtesama.com
منتديات مجلة الإبتسامة

www.ibtesama.com

الفصل العاشر

يخيل إلى الآن ، أن الحرب التي وجدنا أنفسنا في خضمها على غير انتظار ، أمر قديم غامض ؛ ولكنها كانت تبدو في أنظارنا إذ ذاك ، خطيرة في أهميتها ، طويلة لا نهاية لها .

ولقد كانت هذه الحرب دائرة الرحى منذ خرجت من بطن أمي إلى عالم الوجود ، وكنا نسميها « الحرب » في بساطة وسذاجة ؛ إذ كانت الحدث الوحيد الذي نعرفه ونسمع أخباره ؛ ولقد كانت في الحقيقة حرباً ضد الفرنسيين وحلفائهم الهنود ، ومع مضي الزمن أصبحنا نسميها الحرب الفرنسية القديمة ، وكانت في رأي من اشتركوا فيها أقدم مما يحمله ذلك الاسم من معنى ، بل أقدم أيضاً وأكبر سناً من روبرت ماتلن خباز بورتسماوث ، ذلك المعمر الذي عاش حتى بلغ خمسة عشر عاماً بعد المائة .

ومنذ بداية عام ١٧٥٥ والرجال الذين استعمروا أمريكا يحاربون الفرنسيين تحت إمرة قواد بريطانيين عاجزين ، يظنون أنفسهم آلهة ، فيتعالون على المستعمرين ، ويعتبرونها إهانة لا تغتفر أن يتساووا معهم في المعاملة . وقد حارب هؤلاء الرجال تحت قيادة البريطانيين سنة بعد سنة ، ليجلوا الفرنسيين

www.ibtesama.com

عن خطوط قلاعهم التى تمتـد بين كويبيك ومونتريال ، مارة بكراون بوينت وتيكوندبروجا ، ثم تتوغل فى المناطق الهنـدية من الناحيـة الغربية . وسنة بعد سنة ظل الفرنسيون يردون البريطانيين على أعقابهم ، تارة بالخـداع ، وتارة أخرى بالهجمات الهندية المفاجئة .

ونشبت هذه الحرب من أجل غنيمة يطمع فيها ملوك أوروبا كلهم ، وما كان يضير عاهلى فرنسا وانجلترا أن تفنى جيوشهما عن آخرها ، إذا كان الفوز بتلك الغنيمة هـو الثمن الأخير .

أما الغنيمة فكانت وادى أوهايو العامر بالسهول الخصبة والغابات الكثيفة ، والأنهار الجبارة والحيوانات الغنية بأثمن الفراء . كان هذا الوادى بمثابة منجم تتطاحن عليه الدولتان .

ومنذ بداية الحرب كانت غباوة القادة الإنجليز تصيبنا بنكبات متتالية تزلزل كياننا كل عام ، فثارت نفوس الناس على أولئك الخائبين المفسدين ، وعم الغضب الشعب على مختلف طبقاته ، حتى كنت تجد النقمة فى كل بيت وكل حانة ، لا فى بورتسماوث وحدها ، بل فى شتى المدن الأخرى .

فى عام ١٧٥٥ ، وقع القائد برادوك ، ذلك الوحش المغفل ، فى كمين نصب له بالقرب من قلعة ديكويسن ، وكانت النكبة

www.ibtesama.com

أشنع من أن توصف . وفى نفس السنة رفض سير وليـــام جونسون أن يقضى على فلول الجيش الفرنسى ، فتسبب بغباوته وعناده فى إطالة الحرب سنوات طويلة . وإزاء المحن المتتالية أرسلت بريطانيا عام ١٧٥٦ رجلها وقائدها المحنك أيرل أوف لودون ، فلم يلبث هو الآخر أن انفض الناس عنه وكرهوه ، لأخطائه القديمة المتكررة ، ولجبن مرءوسه جنرال وب ، ولقد عمت النقمة عليه بعد أن أسقط الفرنسيون تحت قيادة مونتكالم قلعة وليم هنرى ، الواقعة على بحيرة جورج ، ونجحوا فى تدميرها عن آخرها ، ثم جردوا القوات المدافعة عنها من الأسلحة والمتاع ، وتركوا رجالها للهنود يمثلون بهم شر تمثيـــل . وفى عام ١٧٥٨ قام ابركرومبى ، أغبى قادة الإنجليز كلهم ، بتأليف أفضل جيش شهدته البلاد ، وكان غرضه الهجوم على تيكونديروجا ، ولكنه آثر بغباوته وقصر نظره أن يهجم من أسوأ موقع ممكن ، فخسر الموقعة والجيش ، ووقع سبعة من رجال بورتسماوث فى كمين أعد لهم ، وكانت النتيجة أن حصدهم الفرنسيون برصاصهم ، ثم علقوا جثثهم المحترقة على الأشجار .

والآن ، ونحن فى عام ١٧٥٨ ، استطاعت قوات الجنرال آمهرست أن ترد الفرنسيين عن تيكوندبرجا وكراون پوينت

www.ibtesama.com

وساد الاعتقاد بأننا هزمنا أعداءنا أخيراً ، وفى استطاعتنا أن نسترد منهم كويبيك ومونتريال ، ثم كندا كلها ، بشرط أن يقلع القادة الإنجليز عن تخبطهم ، ويكفوا عن ارتكاب أخطاء جديدة .

ولقد أسفر سوء تصرف الإنجليز عن حسنة واحدة ، إذ أثبتت ماجريات الحوادث أن قوات المقاطعات الأمريكية لاتقل عن أحسن الجيوش الإنجليزية مهارة وقدرة على القتال ، ولن تعجز عن الانتصار الباهر إذا وجدت القيادة الطيبة التى تحسن توجيهها . . . ولكن هذه الحقيقة لم تخفف من غلواء نقمتنا على الإنجليز ، فبقينا على نفورنا منهم ، لا نثق بهم ، ولا نأمن لهم جانباً .

وفى هذه المرحلة الدقيقة من الحرب ، شاءت الأقدار أن نلحق بالجيش أنا وهنك مارينا . ولم نفعل ذلك عن رغبة فى القتال ، إنما هى الظروف التى ألزمتنا باختيار أهون الشرين ، فآثرنا الحرب بويلاتها على ظلم وايزمان كلاجيت وطغيان رجاله. ولكنه كان تفضيلا أخرق ، فقد علمتنا الأيام بعد ذلك أن الحرب أعظم شر فى الوجود ، وظلم الإنسان مهما بلغ لا يمكن أن يقاس بفظاعة الحرب وشناعة ويلاتها . . . إنها

www.ibtesama.com

الحقيقة ، ولكن الإنسان لا يتبينها مع الأسف إلا بعد تجربة تكلفه ثمناً باهظاً .

كان أول هدف لنا أن نصل إلى موقع « رقم ٤ » ، وهى قلعة شيدت على نهر كونيكتيكات ، عند ملتقى جميع الطرق والممرات والمسالك الممتدة بين شاطئ المحيط الأطلسى والمناطق الغربية . كنا نعلم أننا لن نأمن شر وايزمان كلاجيت إلا إذا عبرنا « رقم أربعة » . لذلك أبحرنا بقاربنا من كيتارى نحو مصاعد النهر فى أقصى سرعة ممكنة . ودرنا حول « بويلنج پوينت » ثم اخترقنا « لونج بيتش » ، واستدرنا غرباً مع اندفاع المد الداخل ، وبعد أن تركنا « هيلتون پوينت » سرنا موغلين فى المجرى إلى خليج « جريت » الجميل .

وعندما أشرقت شمس الصباح فى اليوم التالى ، تركنا زورقنا أمانة لدى مزارع من « دورهام » ، وسمحنا له باستعماله فى غيبتنا التى كنا نأمل ألا تطول . وشددنا متاعنا إلى ظهورنا ، وحملنا بنادقنا على أكتافنا ، وسرنا غرباً فى الدرب الموصل إلى « دانبارتون » قاصدين الموقع « رقم أربعة » .

وكان فى نيتنا بعد أن نصل إلى رقم أربعة ، أن نسلك الطريق القديم إلى بحيرة جورج ، ولو تأتى لنا تحقيق هذه الخطة ، لتغير بلا شك مجرى حياتنا ، ربما إلى أسوأ ، وربما

www.ibtesama.com

إلى أحسن ، فى الواقع لست أدرى أيهما على وجه التحقيق ؛ ولكن الأمر الذى لا مراء فيه أننا قلبنا خططنا رأساً على عقب بتوقفنا عند حانة فلنتلوك حيث قابلنا الجاويش ماكنوت ، ولولا ذلك لاتجهنا إلى بحيرة جورج ، ثم وصلنا إلى كراون پوينت بعد يومين اثنين ، ولكان لهذين اليومين كل الأثر فى حياتنـــا .

تقع مدينة دانبارتون فى منتصف المسافة بين بورتسماوث وقلعة رقم أربعة ، وهى تقوم وسط سهل خصيب ، تنتشر فوق مرتفعاته الخضراء مزارع جميلة مسورة ؛ أما المدينة نفسها فلم تكن شيئاً مذكوراً ، وكل مظاهر العمران فيهـــا لا تعدو أبنية من جذوع الأشجار تقوم عند مفترق الطرق ، وتتألف هـــــذه الأبنية من كنيسة ومدرسة وحانون وحانة فلنتلوك .

وعند وسط التقاطع ترتفع لوحة خشبية كتب عليها «رقم ٤ على بعد ٥٤ ميلا » ، وفوق باب الحانة تتدلى لوحة أخرى كتب عليها « هذه آخر فرصة . . . ليس هناك روم لمسافة ٥٤ ميلا ... صاحب الحانة س . فلنت » .

وكانت الحانة على ما يتمنى طريدان مثلنا ، هادئة ساكنة لا يؤنس الوحشة حولها سوى كلب فى شكل الذئب ، وكان

www.ibtesama.com

الكلب يرقد نائماً على التراب أمام السلم الأمامى ، وبين حين وحين تخرج من حلقه نبحات خافتة مكبوتة ، كأنه يحلم بما يستوجب اليقظة والانتباه . ودخلنا الحانة لنتزود بحاجتنا من الطعام ، وما إن ولجناها ، حتى أدركنا أن الهدوء الذى يشملها مظهر خارجى فقط ، أما فى الداخل فكان هناك رجال ينتحون ركنا مظلما ، وهم يتسلون بالغناء . وسمعناهم ينشدون :

« استيقظى يا نفسى من نومك
وانهضى مع الفجر إلى الجهاد
وانفضى عنك غبار الخمول
وأبشرى بتضحيات الصباح
واستعيدى ما ضاع من العمر هباء
وعيشى يومك كأنه الأخير
وأصلحى مواهبك بعناية واهتمام
وتهيئى بحماسة لليوم العظيم

ولم نكن نبتغى التورط فى مغامرات ، وما زلنا على مقربة من بورتسماوث ، فانثنينا على أعقابنا نبتغى الخروج ، ولكننا لم نكد نتحرك حتى انفجر صوت ينادينا بخشونة جعلتنى أتصور أننا وقعنا فى قبضة رجال وايزمان كلاجيت . وترددت

www.ibtesama.com

برهة ، فإذا بالصوت يأتى من بين المغنين قائلا : اسمع أنت وهو ، إلى أين تذهبان ؟ تعاليا هنا !

والتفتنا إلى المتحدث ، فإذا به ينهض من بين الجماعة ، وهو يحملق فينا بنظرات وحشية . كان متوسط القامة ، شعره – أو الجزء الظاهر منه – فى لون الجزر الأحمر ، ووجهه المحتقن تغطيه آثار الجدرى . كان أعنف رجل رأيته فى حياتى : احتقان وجهه يظهره فى حالة غيظ شديد ، وزرقة عينيه تكسبه قسوة وشدة . وكان بوجهه أثر جرح كبير ، يتجه من جانب عينه إلى أذنه فيشطرها نصفين . وكان أحد جفنيه مرتخياً ، فبدت نظراته إلينا مليئة بالتربص والترصد . وكانت ذراعاه الطويلتان تصلان إلى ركبتيه ، أما وقفته فتميل إلى الانحناء ، كأنه يتأهب للوثوب على عدو لدود يبتغى الفتك به .

قال هنك : ماذا جرى ؟ هل خالفنا قانوناً ؟

وقام الرجل من ركنه واقترب منا : كان يرتدى ملابس الصيد المصنوعة من جلد الغزال الأخضر ، وقد شد حول خصره حزاماً عريضاً تتدلى منه حلقات جلدية صغيرة لربط المتاع الخفيف ، مع سروال جلدى قصير له أشرطه تلتف حول ساقيه من تحت ركبته حتى عقبيه . وكان أعجب ما فيه

www.ibtesama.com

لباس رأسه المكون من قلنسوة صوفية يابسة يتدلى من خلفها شريطان قصيران ، وكان يميلها فوق رأسه مثل قوقعة ترتكز على حاجبه الغاضب ، فيبدو بها كأنه أقبح مثل ينطق بالخلاعة والاستهتار . ولم تكن هذه القبعة جديدة عليّ ، فلقد سبق أن رأيتها فى بورتسماوث ، ولكن على رءوس الفتيات فقط ، وكنّ يسمينها القلنسوة الأسكتلندية .

قال الرجل : اسمعا . فى وسعكما الغناء على ما أعتقد ، أليس كذلك ؟

فاعتذرت فى تأدب قدر المستطاع ، بأننا على عجلة من أمرنا ، وليس لدينا وقت للغناء .

قال : أفى عجلة لا تسمح بالغناء ؟ إذاً لماذا جئتما إلى الحانة ؟ وإلى أين تذهبان ؟

وأفهمته أننا متجهان إلى كراون پوينت .

فقال — وقد بدأ غضبه يتزايد :

هذا عذر قبيح ، وما دمتما تقصـــدان كراون پوينت فساعة واحدة لا تقدم ولا تؤخر ! ثم إنكما لا تعرفان الطريق إليها ، وأنا فى شديد الحاجة إلى شخص يتقن الغناء . هيا أقبلا على مائدتنا ، فالأمر على غاية من الأهمية !

وأفلتت منى ضحكة بالرغم منى ، فتقلصت يده اليمنى

www.ibtesama.com

وانقبضت ، وخيل إلى أنه يتهيأ للفتك بنا . فقلت بسرعة : حسناً . سوف نجلس معك ونغنى حسب إرادتك . فلسنا نريد إثارة المتاعب مع أى إنسان كان . ولكن خبرنى بالله عليك . ما وجه الأهمية فى ذلك ؟

ونزع الرجل قلنسوته الخضراء عن رأسه ، ومسح جبينه بكمه ، وقال فى حرارة :

ـ لا يدرك حالى إلا من سبق له التعامل مع هندى سكران ؛ وهى تجربة لم تمر بك ، فلا جدوى من الشرح والإفاضة . إن معى هندياً من ستوكبردج اسمه چون كونكاپوت . وهو فى حالة سكر بيّن . وهنود ستوكبردج يحبون الغناء ، وهذا ، ـ هذا الجون كونكاپوت يريد أن يسمع غناءً ، ولكن صوتنا يزعجه ويغضبه ، ومن طبعه إذا غضب ألا يكف عن شرب الروم . وأنا أريده أن يسافر معى ، ولن يستطيع ذلك ما لم يفق من سكره . وسبيلى الوحيد إلى إفاقته أن أسقيه بعض الجعة بعد الروم ، حتى يفرغ ما فى معدته . وينام قليلا فيستريح ، ولكنه لن يرضى بشرب الجعة إلا إذا رضى عن الغناء ... وهذا وجه الأهمية فى الموضوع .

فسألته : ولم لا تسافر وحدك وتترك كونكاپوت يفيق على مهل ؟

www.ibtesama.com

فوضع الرجل قلنسوته على رأسه ، ثم ضربها بكفه فمالت بزاويتها المعهودة ، وثبتت فى وضعها رغم شدة ميلها ، وقال وهو يحملق فى هنك :

ـ لأنه أرسل خصيصاً ليستدعينى !

ثم أضاف فى مرارة : ولأنه يجب أن يعود معى إلى كراون پوينت ؟ فنحن فى حاجة إليه ! والآن ، وبحق الله ، تعال إلى المائدة ولا تناقشنى . إذا كنت زاهداً فى المتاعب كما تدعى .

وتبادلت وهنك النظر ثم قررنا الإذعان للظروف ، فأسندنا بنادقنا إلى الحائط ، وعلقنا فوقها متاعنا ، وذهبنا إلى المائدة فى الركن المظلم .

كان يجلس إلى المائدة رجال ثلاثة . أحدهم فلنت صاحب الحانة ، والثانى خادمه الأجير ، والثالث چون كونكاپوت الهندى . وكانت مظاهر القلق الشديد واضحة فى نظرات فلنت وخادمه .

كان كونكاپوت هندياً غريب المنظر . يرتدى ، مثل رفيقه ذى الشعر الأحمر ، سروالا قصيراً من جلد الغزال ، ويغطى صدره بقميص منقوش لا مثيل له فى القذارة . وكان حليق الرأس إلا من ضفيرة عقدت فى وسط رأسه بحلقة

www.ibtesama.com

نحاسية كانت فى الأصل حلية حـــذاء . ورغم أنه كان يخفى وجهه بين يديه . فقد تبينت أنه يبكى بحرقة شديدة .

ونقر صديقنا بإصبعه على كتف فلنت . وقال فى إصرار وتصميم :

— هات الجعة ! جعة للحاضرين كلهم . وعليك كلما نقص قدح كونكابوت أن تملأه ثانية .

قال صاحب الحانة فى لهجة الاحتجاج :

— لن يشربها ، وسوف يسكبها على رأسى كما فعل بآخر قدح قدمته له .

فالتفت صديقنا إليه وقال فى غضب :

— أطع الأوامر ، ودعه يسكبها على رأسك إن أراد ، فأنا الذى أدفع الثمن . ومن حقه أن يفعل ما يشاء ! هيا ائتنا بالجعة سريعاً . فعلينا أن نؤدى بعض الألحان .

وأسرع صاحب الحانة يلبى الطلب ، فالتفت إلينا الرجل يقول :

— ما عليكما سوى الغناء . ولا يهمكما أمر كونكابوت . إنه يبكى جده .

www.ibtesama.com

سألته : وماذا جرى لخده !

قال : ما يجرى عادة ؟ ولعلهم دفنوه بدون أساوره ، أو لعله لسوء حظه مات فى فراشه . كلنا يعرف لماذا يبكى الهنود فى سكرهم . فلا تشغل بالك بأمره . وما عليك سوى الغناء .

وترنم هنك بالسطر الأول من نشيد : «هناك أرض للسعادة الخالصة ، أرض يحكمها الملائكة الخالدون » .

فقال صاحبنا : هذا نشيد جميل . هيا نغنه حتى يولينا كونكاپوت اهتمامه .

قلت لهنك : أنت تغنى وأنا أواليك بالنغم ، وقد أساعد بالطبقة الغليظة إذا كان بيننا من يحسن الأداء .

وبدأنا بهذا النظام . وكان صوت هنك شجياً عالياً ، فلما وصل إلى المقطع الذى يقول « والموت كبحر ضيق يفصل ...» اشترك صاحبنا معنا فى الغناء بصوت قبيح يصم الآذان ، كما اشترك خادم الحانة بصوته الضعيف . وعندما وصل هنك إلى الطبقة الصوتية العالية ، رفع الهندى كونكاپوت رأسه من بين يديه ، وحملق فينا بعيون احمرت لشدة سكره وكثرة بكائه .

كان أقذر من رأيت من الهنود ، وجهه طلى حديثاً بالصباغ الأبيض ، الذى أذابت الدموع معظمه ، فبدت سحنته أشبه بحظيرة خنازير تحتاج إلى تنظيف .

www.ibtesama.com

وعاد فلنت صاحب الحانة يحمل ثلاثة أقداح من الجعة ، ووقف خلفنا يشترك فى الغناء مكرهاً . ثم وضع الأكواب على المائدة وجلس فى مقعده .

قال ذو الشعر الأحمر للهندى فى إلحاح ملحوظ :

– ماذا بك ؟ ولماذا لا تفتح فمك الكبير بالغناء مع هؤلاء المغنين الأصيلين ؟

ومسح كونكابوت وجهه بيده ، وقال فى إنجليزية سقيمة : مزيداً . . . مزيداً من الغناء .

ورفع الكوب وابتلع نصف ما به من جعة . ثم رمش بعينيه فى غباء وقال : مزيداً . . .

فقال ذو الشعـــر الأحمر : أعطه مزيداً من الجعة . وداوم على ذلك .

وبعد أن رطبنا حلوقنا بالجعة ، عدنا نغنى المقطع الثانى من النشيد ، ولدهشتى وجدت أن صوت كونكاپوت جميل شجى ، فطربنا للغناء طرباً شديداً ، حتى إننا فى نهايته صفقنا لأنفسنا تحية وإعجاباً ، وشربنا ما فى أقداحنا إلى آخر قطرة كما يفعل المغنون فى الحانات عادة .

وملأ فلنت أكوابنا الفارغة مرة ثانية ، وترنح كونكاپوت على مقعده ، وفحصنا بعيون واسعة كعيون البوم ، وقال :

www.ibtesama.com

ــ أتعرفون أغنية « القيثارات القديمة » ؟

فقال هنك : نعم . نعرفها كلها ، فنحن لا نقل عنك مدنية وحضارة .

ورفع كونكاپوت عقيرته بالغناء يقول :

« تعالوا أيها المؤمنون جميعكم
أيها السـعداء المنتصرون »

وتركناه يغنى وحده حتى وصل إلى كلمة : « تعالوا نقدم له فروض الحب » ، ثم اشتركنا معه فى الترتيل . وكان نجاحنا باهراً ، حتى إن الكلب الذى كان ينام خارج الحانة دخل ورقد أمام الباب وهو يزمجر فى هدوء . وما إن انتهينا من هــذا النشيد إلا وبدأ الهندى نشيداً آخر حتى خيل إلى أنه لن يكتفى بأى قدر من الغناء ، فقــد غنى وغنى دون تعب كأنه آلة لا تكل ولا تمل . وكلما ازدادت رحلات فلنت بين المائدة وبرميل الجعة .

وما إن بدأت أيأس من سكوت كونكاپوت عن الغناء ، حتى وضع يده على كتفى ، وقال بلكنته المعقدة ألفاظاً لم أفهم منها سوى كلمة « حلو ».

فقلت : من تقصد ؟ ومن هو الحلو ؟

www.ibtesama.com

فقال صاحب الحانة يفسر كلامه: يقصد أنك أخوه الحلو، وأنه يحبك، ولكن اطمئن إلى أنه لن يعانقك، فهؤلاء الكفار لم يتعلموا العناق بعد.

وقام كونكاپوت يتمايل على قدميـــه، وتعثر فى مقعد أمامه ثم سار مترنحاً إلى الباب، وراح يرفع رجليه عالياً كأنه يصعد تلا.

قال فلنت — يوضح لنا الأمر:

— إنه يصعد الآن جبلا. وعندما يتصور أنه وصل إلى القمة. سيسقط ويظل يتدحرج بشدة إلى أن نمنعه بالقوة.

وقام خادم الحانة إلى كونكاپوت وقاده إلى الهواء الطلق خارج الحانة.

وتنهد ذو الشعر الأحمر عالياً، وقال:

— حسناً! هذه نهايته! وسيكون فى حالة تسمح بالسفر عندما يصحو من نومه.

www.ibtesama.com

الفصل الحادى عشر

كان صديقنا ذو الشعر الأحمر جاويشاً فى الجيش يدعى ماكنوت . وكان كأهل فئته عنيداً فى رأيه صلباً فى تفكيره ، ولم أر أضيق منه صدراً ولا أكثر حباً للرياسة . والشجاعة عادة ليست من صفات الرياسة ، ولكنه كان على عكس ذلك جسوراً باسلا ، لا يتردد فى الهجوم على رجل فى ضعف حجمه ، ولم يكن يحتمل اعتراضاً على آرائه ، ولكنه يحب أن يعترض على آراء غيره ، حتى لتظنه متأهباً للشجار مع النـــاس على الدوام . ومن واجبي أن أنصفه ، فأعترف بأنه كان دائماً على صواب فى رأيه ، ولعله اكتسب هذه الفضيلة من قدرته على الاتعاظ بأخطاء الناس ، وما يعانون منها .

وعندما خرج الهندى فى رفقة صاحب الحانة وخادمه ، تلاشت علائم السكر منـــه فجأة ، ونظر إلينا فى دقة ، وقال بسرعة : من أنا ؟

وأجاب نفسه يقول : أنا ماكنوت ، وأشـــتغل جاويشاً بالجيش . فمن أنتما ؟ وماذا تعملان ؟ ولماذا تقصدان كراون پوينت ؟

www.ibtesama.com

قال هنك : أردنا أن نتفرج عليها . وسنلتحق بالجيش إذا راقت لنا أحوالها .

قال ماكنوت : أحقيقة هـــذا ؟ وبأى فرقة تلتحقان ؟ الملكية أم الهايلاندرز ؟ أفى جيش القائد آمهرست . أم فيلق المقاطعات ؟

قلت : لم نقرر بعد . ولدينا خطابات توصية إلى البكباشى لاڤويل والصاغ روچرز .

قال فى شراسة وقسوة : حسناً ..حسناً ! ومتى تقرران ؟ ليس من اللائق أن تحيرا ضابطين عظيمين كالبكباشى لاڤويل والصاغ روچرز ، وتتركاهما يحتاران فى أمركما هكذا ؟

ثم نادى على صاحب الحانة ، وكان يقف على عتبة الباب بعد أن ترك كونكاپوت فى رعاية خادمه . وقال له : ثلاثة أكواب من الجعة يافلنت .

قلت أحاوره : لعلك تنصحنا أى الضابطين نقابل أولا ؟

فقال بلا اكتراث : الأمر يتوقف على نوع العمل الذى تريدانه ،فالضابط لاڤويل لطيف... لطيف جداً .. لا يرضى بالهدوء لفرقته ،فاقصداه أولا إذا راق لكما الاشتغال بتنظيف القلعة وحفر دورات المياه ، أو قطع الأشجار وتعويم أخشابها

www.ibtesama.com

فى البحيرة . أما إذا كنتما تفضلان الفأس والجاروف . فلديه المجال متسع أيضاً . لأنه شغوف بعمل التنظيمات الداخلية .

قلت : ولكن هذه الأعمال كلها لا تروقنا .

قال ماكنوت : مكانكما إذاً بعيد عن الجيوش التى يتحتم فيها الخضوع للنظام . وإطاعة الأوامر فى أعمال لا تميلان إليها .

سألته : وهل نضطر إلى أداء هذه الأعمال تحت إمرة الصاغ روچرز أيضاً ؟

قال – وهو يتأملنى فى ارتياب : أتعرف شيئاً عن متطوعى روچرز ؟

قلت : كل إنسان يعرفهم . وهل لهم عمل سوى قتل الهنود ؟

قال بحدة : إنهم يكلفون بالسير معظم الوقت دون نوم أو طعام . يرقدون أحياناً فى الحفر اثنتى عشرة ساعة دون حراك . لينهشهم الناموس والذباب الأسود ؛ وفى أحيان أخرى يضطرون إلى الجرى يومياً سبعين أو ثمانين ميلا من أجل الفتك بحفنة من الهنود والسير لايكون إلا على الأقدام إن أمكن ، فإذا تعذر ذلك استقلوا زوارق أو عائمات من خشب الشجر أو زحافات على الجليد ؛ وإذا تعذرت الوسيلة مرة أخرى ، مضوا يعبرون المستنقعات على أرجل خشبية ؛ وقد لا تنفع هـذه الحيلة فيعبرونها سباحة . ولا أهمية على

www.ibtesama.com

الإطلاق لما يصيبهم أو من يقضى منهم ... يأكلون الطعام نيئاً ، ويزحفون على بطونهم والناس ما زالوا نياماً ... ينظفون بنادقهم ويحلقون ذقونهم ، ثم يفطرون ويحزمون متاعهم ويرتقون ثقوب ملابسهم المصنوعة من جلد الغزال ، وفى خلال هذه الاستعدادات قد يصيدون هندياً أو اثنين من فوق الأشجار . فإذا انتهت هذه المهمة ، يأتى دور الطابور ، ثم تنظيف المعسكر ، ثم شق الطرق الجديدة ؛ فإن تبقى من اليوم فسحة بعد ذلك ، أصبح لزاماً عليهم أن يعبّدوا ما سبق أن شقوه . وليس هـذا كل شىء ، فهناك أيضاً العرض العسكرى ، ثم تعليم الإنجليز النظاميين دروساً فى القتال . وإذا ضن أحدهم بحياته وآثر أن يهرب إلى الفرنسيين ، يتبعه رجال روچرز فى المساء ، ويعيدونه من المعسكر الفرنسى ليلقى جزاءه ... هذا على كل حال جانب من حياة متطوعى فرقة روچرز .

قلت : أيكلفون كل هذا ونحن على أبواب الشتاء ؟

صاح يقول : أبواب الشتاء ! لم تتفتح أبواب الشتاء بعد ، ومازلنا فى منتصف شهر سبتمبر . هذا موسم العمل ياصاحبى ، ومن دواعى الأسف أننا لم نقتل من الهنود بعد « المقطوعية » السنوية المعتادة ! متوسطنا خمسة فى اليوم

www.ibtesama.com

الواحد . وينقصنا على هـــذا الحساب ثمانية وخمسون هندياً ... ياللجحيم ! لن نتمكن من تغطية النقص قبـــل أن تسقط أوراق الخريف ، فتكشف الحشائش القصيرة من يلوذ بها من الهنود . وعندئذ نراهم بوضوح . ونصيد منهم ما نشاء . لقد كان نصرنا عليهم عظيما فى موقعة « أحذية الجليد » حين قطعنا عليهم الطريق . ولم نعطهم فرصة الاختباء .

قلت دهشاً : أأنت من متطوعى روچرز ؟

صاح ماكنوت : يا إلهى ، ألم تدرك ذلك بعد ؟ طبعاً أنا منهم ! وهل غير متطوعى روچرز يلبس القلنسوة الأسكتلندية وجلد الغزال الأخضر ؟ أكنت تظننى ألبس هذه القبعة الملعونة غير مضطر ؟ والله ماكنت أفعل ذلك خيفة أن يظننى الناس رقيعاً متخنثاً ؛ ولكنهم لن يجرؤوا على هذا الظن بمتطوعى روچرز .

وأحسست وأنا أصغى إليه برغبة ملحة فى ارتداء قلنسوة خضراء من هذا النوع ، وتصورت نفسى أتمايل بها فى شوارع بورتسماوث وكيتارى ، فإذا مرّ بى المبجل آرثر براون وابنته البزابيث ، رمقتهما بنظرة ازدراء وأنا أخطر فى الطريق .

www.ibtesama.com

ونظرت إلى هنك فإذا به يحملق فى القلنسوة الخضراء كأنها استولت على لبه مثلى .

وأحسست فجأة بماكنوت ينظر إلينا فاحصاً ، ثم بدا عليه الرضا عنا ، فقال فى ضحكة قصيرة :

— أظنكما تصلحان ؛ وحالما يفيق كونكاپوت ، نسير نحن الجنود إلى كراون پوينت لمقابلة الصاغ روچرز .

قال هنك — فى لهجة احترام :

— ألك معرفة جيدة بالصاغ روچرز ، ياحضرة الجاويش ؟

أجاب ماكنوت — فى دهشة وضيق :

— أعرفه جيداً ! ؟ أعرفه قبل أن تسمع باسمه ! تصاحبنا منذ أول مذبحة للهنود ، أيام كنا أطفالا متوردى الخدود . ولن يرد لى طلباً إذا شئتما أن أتوسط فى إلحاقكما بفرقة المتطوعين .

قال هنك : وهل يجيب الصاغ روچرز مطالبك كلها ؟

قال فى حزم : دائماً ...

ثم استدرك فى لهجة أكثر تواضعاً وقال :

— إلا فى المرات التى أجيب أنا فيها مطالبه ، فأحياناً يلذ لى أن أكرمه بخدمة مثلما حدث حين كنا نعبد الطريق بين « رقم ٤ » وكراون پوينت ، واحتاج إلى تحصيل إيجار

www.ibtesama.com

مزارعه الواقعة فى دانبارتون ، فرضيت بأداء هذه المهمة ، وجئته بالمال المطلوب .

سألته : ولكن ، أليس عجيباً أن يكلف القائد أحد ضباطه بأداء مهمات استثنائية مثل تحصيل إيجارات مزارعه الخاصة .

وصاح ماكنوت : وأين العجب فى ذلك . وجيش روچرز نفسه أعجب العجائب ؟ لقد أنشأ روچرز فى العام الماضى خمس فرق من ماله الخاص . والبريطانيون لا يدفعون له ولو بعض ديونه عليهم . علماً بأنه لولا رجال روچرز ما راح البريطانيون ولا جاءوا ، فهل تستكثر عليه بعد ذلك أن يكلف أحد جنوده بتحصيل إيجارات متأخرة ؟؟ لا المقاطعات تعطيه ، ولا البريطانيون يعطونه شيئاً ، وليس عنده من يثق ويعتمد عليه سوى رجاله وماله ! أفليس من حقه بعد ذلك أن يبعث أحدنا فى مهمة شخصية ؟ والله ما سمعت أغرب من كلامك هذا !

قلت أغيّر الموضوع : وكونكاپوت الذى معك ، أهو من المتطوعين أيضاً ؟

قال — وهو ينظر إلى فى قسوة :

— ولم لا يكون متطوعاً ؟

www.ibtesama.com

قلت : أبداً ! إنما ظننت أن شكله ...

قال : شكله لا يدل على ذلك . لأنه يرتدى قميصاً ، والأقمصة غير مألوفة عند هنود ستوكبريدج ، وبين جيوش روچرز جماعة كاملة من الهنود لا يسمح لهم بلبس الأقمصة أثناء العمل ، خضوعاً لرغبة القائد آمهرست . فمن رأيه أن القمصان لا تكسب سمة الجندية . وإنى أوافقه على ذلك ، فمثل هذه القمصان القذرة المهلهلة لا توحى بالجد والاحترام ؛ ولكن الهنود يعتقدون ذلك . ولشدة تعلقهم بالقمصان يحملونها معهم أينما ذهبوا . ليرتدوها حالما تنتهى مهمتهم العسكرية . إنهم يتزينون بها ويلبسونها أيضاً لتحميهم من الأمطار ولسع الناموس ، ومن عادتهم أن يغطوها دائماً بمادة دهنية . وأنا على كل حال لا أرى فائدة من المتطوعين الهنود ، فمن المستحيل الاعتماد عليهم فى أمر مهم ، لأنهم يسكرون حين لا يجوز السكر ، ويهربون عند ما نكون فى أشد الحاجة إليهم ، ثم إنهم فى الحرب يموتون بمنتهى السهولة . ويقتلون كأى شعب آخر .

وكان الحاويش ماكنوت يعود دائماً إلى الكلام عن الصاغ روچرز رغم تشعب أحاديثه وتعددها .

وكان ما كنوت – على طريقة الحاويشية فى التفكير –

www.ibtesama.com

يعتبر الصاغ أعظم رجل على ظهر الأرض . وأمهر ضابط فى الوجود .

وتبين لى من حديثه أنه قضى الشطر الأكبر من حياته فى دنبارتون مسقط رأس روچرز ، ولم يترك هذه المدينة إلا عندما هجم الهنود عليها بقيادة الفرنسيين ، وأحرقوا المزارع وأهلكوا المحصولات ، وذبحوا الماشية وقطعوا أشجار الفاكهة ، وسلخوا رؤوس الرجال وسرقوا النساء والأطفال ، مما اضطر المزارعين إلى البحث عن الأمان فى منازل متقاربة داخل محلات كبيرة واسعة .

قال ماكنوت : ولقد بدأ روچرز يطارد الهنود منذ فطامه ! أعلن عليهم الحرب وهو مازال فى الخامسة عشرة من عمره ، وبعد عام واحد من ذلك التاريخ ، كان قد درس أحوال الهنود كما لم يدرسها أحد قبله ، فكان يتنبأ بتحركاتهم وخططهم قبل أن يفكروا فيها . وما زال على عبقريته هذه حتى يومنا هذا . والحقيقة ياسيدى أنه لا يكره هنود سانت فرانسيس كالسم فحسب ، بل يمقتهم أكثر منى أنا ، أو تقريباً مثلى ؛ ومع ذلك لم يفقد أعصابه أمامهم مرة . ومن عادتنا أن أجلس أنا وهو نتنبأ بما يحتمل أن يفعلوه . ثم ننهض إلى إفساد خططهم كلها . ولهذا الأمر يخشاه هنود سانت فرانسيس . ولقد ظلوا

يخشونه منذ أن بلغ السابعة عشرة من عمره ، ولعلهم يطمئنون إلى الثعابين السامة أكثر مما يطمئنون لى وله ، ولم يكن ابتعادهم عن هذه الجهة إلا تلافياً لشرنا .

قلت له : وهل يشتغل فى الزراعة عند ما لا يكون فى حرب مع الهنود ؟

وهز ماكنوت رأسه فى حدة وقال : لا ، وحق جهنم ! فهو يكره الاستقرار فى مكان واحد ، ويجب أن يبحث وينقب وراء الجديد من الأمور ، ومن عادته أن يسأل عما لا يعرفه ، ويلحف فى السؤال ، فإن تعذرت عليه الإجابة المقنعة ، سافر وراء الحقيقة مئات الأميال . مازلت أذكر والله ما كان يفعل وهو فى الثامنة عشرة أو التاسعة عشرة ، بعد أول حرب مع الهنود ، كان يذهب وحده إلى جهات لم يجرؤ إنسان أبيض على دخولها ... يسافر ليلا ونهاراً وراء الرغبة فى المعرفة ... ويسافر دائماً وحده ، نعم وحده ! وقد أمكنه فى خلال الرحلات أن يخترق مناطق الكوهيز ويصل إلى ما بعد بحيرة ممفرا ماجوج ، حيث لم يستطع أن يذهب سوى من يأسرهم الهنود من الرجال البيض ، كان يسافر إلى كندا ويعود منها ، لا لسبب سوى البحث عن أحسن المسالك والممرات . ولقد أصبح بفضل ذلك مرجعاً

www.ibtesama.com

فى مجاهل هذه البلاد ، ولست أشك فى أن إنساناً غيره لا يعرف عنها ما يعرفه .

قال هنك : وكيف لم يتمكن الهنود منه إلى الآن ؟

فوضع ماكنوت مرفقيه على المائدة ، والتفت وراءه يقول بسرعة : لست أدرى والله ! لست أدرى كيف نجا منهم طول هذا الوقت ! إنه فى حجم الجاموس البرى ، ولكنه يجوب الغابات فى خفة الهوام . يقف أمامك وسط الأشجار ، وفى مثل لمح البصر يختفى فجأة فلا ترى العين له أثراً . ولقد احتار الهنود فى أمره فسموه « ووبى مادا أوندو » أى الشيطان الأبيض ، ويزعمون أنه يختفى فى قلب الصخور ، ثم يخرج منها متى يشاء مثل « پامولا » شيطان الشر . هذا ما يدعيه قادتهم البواسل لا نساؤهم الضعيفات . والأعجب من ذلك أنه تعلم لغتهم وأتقن الحديث بها ، مع أن الإنسان عادة لا يتقن اللغة بهذه الدرجة ، إلا إذا عاش بين أهلها وقتاً طويلا ، فما بالك بمحارب فى ظروفه !

ورحنا نشرب الجعة صامتين مفكرين ، وبعد لحظة قال ماكنوت يستأنف حديثه : لقد اشتركنا فى الحرب الفرنسية منذ نشبت عام ١٧٥٥ ، وأول ما فعلناه أن جمعنا من هذه المنطقة بعض شبابها المتحمس لقتال الهنود ، ثم مكناهم على

www.ibtesama.com

الفور من إخراج حماستهم إلى حيز التطبيق . وكانت هذه الجماعة بداية جيش روچرز ،وأول نواة للمتطوعين المشهورين. وكنا فى ذلك الوقت نعمل تحت إمرة ذلك العجوز الثرثار الحقود سير وليام جونسون .

وزاد انفعال ماكنوت فقال – وهو يهز قبضته فى وجوهنا :

– كنا نرقب الفرنسيين ليل نهار ، ونخبر چونسون بكل حركة يأتونها . قتلنا هنودهم ، وأغرقنا قواربهم ، وأحرقنا محصولاتهم ، وأسرنا منهم كثيرين . ولم يمض شهر على وجودنا ، حتى كان الفرنسيون على استعداد ليدفعوا خمسة آلاف جنيه نقداً ثمناً لرأس روچرز . وفى السنة التالية ، كوّن روچرز فرقتين من المتطوعين ، وفى الثالثة أربع فرق ، ولديه الآن ثمان فرق غير هنود ستوكبريدچ . وأقسم بالله لو قدر للإنجليز أن ينتصروا فى هذه الحرب ، ما عاد الفضل كله إلا لروچرز ومتطوعيه ! إنه رجل عجيب ، لا يتعبه السير خمسين أو ستين ميلا فى اليوم على أرض تغطيها ثلاث أقدام من الجليد ، وفى درجة من البرودة تنخفض إلى ما تحت الصفر بكثير ؛ والأمر بالمثل فى الصيف حينما يبلغ القيظ أقصاه ، وترتفع درجة الحرارة إلى الخامسة والأربعين ، فيكاد الجو يشتعل ناراً ... ومهما اختلفت

www.ibtesama.com

الظروف . لا تختلف أحوال روچرز : فهو دائماً على أتم استعداد للفتك بمن يقابلهم من الفرنسيين أو الهنود . وهو سريع كالبرق ، ولكنه حريص غاية الحرص ؛ أما عن كفايته فلا يمكن أن يدانيه فيها فرنسيّ أو إنجليزىّ . قائد أو لواء ؛ والإنجليز يعترفون بأنه خير رجالهم ، وقد جاءوا بلورد هاو الصغير فى بعثة حربية ليتعلم من روچرز كيف يقاتل بالأساليب الملائمة لهذه البلاد . ولكن الأقدار شاءت ألا يتعلم ؛ إذ قتل مع الأسف وهو يقاتل بالطريقة الإنجليزية . قبل أن يتم دروسه مع روچرز !

وازدادت حماسة ماكنوت . واشتد الانفعال به . فقام يذرع الغرفة جيئة وذهاباً ، فى خطوات خفيفة لا صوت لها ، فبدا لنا فى قلنسوته الأسكتلندية وثيابه الجلدية ، مثل شبح يهيم بين جدران القاعة الخشبية القاتمة .

وتوقف عن السير ، ومدّ عنقه نحونا ، وقرب وجهه من وجهينا وقال :

– صدقونى لو ترك الإنجليز الأمر لروچرز وحده ، ما صنع إلا المعجزات ، فهم لا يعرفون عن هـذه البلاد شيئاً ، لا شىء على الإطلاق ... وأساليبهم الحربية لا تفضل الأطفال فى لعبة الحرب ..... إنهم ...

www.ibtesama.com

وفتح الباب فى هذه اللحظة . ودخل منه كونكاپوت ، وهو يحملق فينا حزيناً تعيساً مغتماً . ويقول بصوت أجش :

— إنى مريض .... أعطنى بعض الروم !

فسار إليه الحاويش . ثم قال بعد أن تأمله بدقة :

— لا ... أنت الآن على أحسن حال . وما تظنه مرضاً لا شىء على الإطلاق . فخذ بندقيتك وغطاءك استعداداً لقضاء الليل فى الغابة .

فقال — فى انجليزيته السقيمة :

— روم ... كونكاپوت هندى مريض ! آه ... آه ... ! ! كونكاپوت مريض جداً . .

فقال له ماكنوت — فى حزم وشدة :

— لا ... كونكاپوت كان مريضاً ، ولكنه عوفى بحمد الله ! فاحمل بندقيتك وبطانيتك ؛ ولا بأس من أن تظل مرتدياً قميصك بعض الوقت ... هيا إلى متاعك مادمنا اتفقنا على أنك بخير .

ونظر إليه كونكاپوت صامتاً . ثم راح يبكى فى تخاذل وهو يسير إلى ركن المشرب حيث ترك بندقيته وغطاءه .

ونظر ماكنوت إلينا ، وقال :

— لقد أرسل الصاغ روچرز كونكاپوت هذا من كراون

www.ibtesama.com

بوينت إلى حيث كنت أحصل الإنجارات ليستدعيني بسرعة، مما ينبئني بحملة قريبة . وما دمتما تقصدان كراون بوينت، فرأيي أن توفرا يومين من الرحلة بالسير معنا في الطريق الحديد ، بدل بحيرة جورج ورقم ٤ .

واقترب منا وقال — وهو يقف منتصباً :

— لقد كنت صريحاً في حديثي ، فهل ما زلتما ترغبان في الانضمام إلى الصاغ روبرت روجرز ومتطوعيه ؟

وأقبلنا على متاعنا نجمعه ، وقال هنك :

— في نيتنا ذلك ياحضرة الحاويش .

وبعد عشر دقائق ، كنا مع الجنديين الغريبين نسير في عتمة الغسق إلى الغرب، موغلين في غياهب الغابات السوداء، وكنت أسمع كونكابوت يشهق ، مثلما يفعل الطفل بعد ما يؤدب بالضرب الشديد .

** معرفتي **
www.ibtesama.com
منتديات مجلة الإبتسامة

www.ibtesama.com

الفصل الثانى عشر

ماكاد ينتصف اليوم التالى . حتى كنا نهبط من المرتفعات والتلال إلى المراعى المنبسطة الواسعة التى تحيط بنهر كونيكتيكات ثم توقفنا أخيراً عند القلعة المشيدة من جذوع الأشجار ، وهو الموقع الذى يسمونه « رقم ٤ » . وكنت طول حياتى أسمع أعجب القصص عن هذه القلعة ؛ فمن هذا الموقف بالذات كان هنود سانت فرانسيس يهبطون دائماً إلى النهر ، ثم يتجهون شرقاً لغزو المزارع والمحلات ؛ فإذا انتهوا من غزوهم ، حملوا أسراهم وغنائمهم . وعادوا من ذات الطريق إلى الموقع « رقم ٤ » ، حيث يتجهون مع النهر شمالا فيسيرون عبر ممرات كوهيز إلى مواطنهم بسانت فرانسيس .

رحت أسرح الطرف فى المرعى الهادئ ، والقلعة المسورة عند حافة مياه ذلك النهر الوديع . الذى طالما مرقت فوقه زوارق الشياطين الحمر فى طريقها إلى نهر بيسكاتاكوا ، وقد ظلت صفحة النهر فى خدمة الهنود نيفاً وثمانين عاماً ، وحدث أن تسلل ركابها إلى بيت جدى ، وهو ذات البيت الذى أمضيت فيه الصيف الماضى . فشجوا رأس شقيق جدى ريتشارد ناسون . وكان فى الثامنة من عمره ، ثم اختطفوا

www.ibtesama.com

عمتى سارة وكانت طفلة لم تبلغ الرابعة بعد . وحملوها معهم إلى سانت فرانسس . حيث أبقوها خمسة أعوام طويلة . ولم يطلقوا سراحها بعد ذلك إلا حين افتداها أهلها بالمال الوفير. كان المكان كله عامراً بالذكريات . ولم أكن واثقاً من احتمال عودتى إليه . فعمدت إلى كراستى وقلمى أرسم صورة للتلال القائمة وراء القلعة المسورة . ومنازل المزارعين. وكان غرضى أن أحتفظ بهذه الصورة حتى أرجع إلى أسرتى فأريها لأمى التى طالما حدثتنى عن تاريخ أسرتنا مع الهنود .

ولقد شاءت الظروف أن أنظر إلى الرسم بعد ذلك بسنوات ، وكنت أبتسم ساخراً حين أفعل ذلك . لا للأخطاء الفنية الشائعة فيه ، بل لأننى رسمته وأنا متفائل أكثر مما يجب ، فلو كنت أعلم بما ينتظرنا من أخطار جسام . ما جعلت من الرسم سوى صورة واضحة للجحيم .

واستأنفنا المسير إلى كراون بوينت فى الطريق الجديد الذى شقه متطوعو روچرز ، وكانت المهمة تزداد مشقة كلما صعدنا التلال المتزايدة فى ارتفاعها ، وكانت مياه النهيرات والغدران التى نمر بها تزداد انحداراً وثورة فى جريانها ، وفى صباح اليوم الثالث عشر من سبتمبر ، أى بعد يوم ونصف

www.ibtesama.com

يوم من تركنا « رقم ٤ » . وصلنا إلى مشارف الهضبة المطلة على مضايق وخلجان بحيرة تشامپلين .

ورأينا أمامنا – مثل خريطة مرسومة – الطريق الذى يصل كندا بالمستعمرات الأمريكية ، كان ممراً مائياً ضيقاً ، طالما تنازع عليه الإنجليز والفرنسيون ، وأهدروا من أجله الدم بوفرة ...

والحق أنى لم أر فى حياتى أجمل من ذلك المنظر تحت أشعة شمس الصباح الذهبية . وكانت كراون پوينت أمامنا مباشرة . على الجانب البعيد من المضايق المائية ، تقوم فى منحنى من الأرض يمتد فى قلب البحيرة كالشص ، وعلى حافته تطل قلعة ببرجها الحجرى المرتفع . وخيل إلىّ أنه من المستحيل أن تكون للقلعة فائدة مذكورة ، ما دامت بهذا القرب من صخور الشاطىء ، إذ أن المسافة بينها وبين صفحة الماء لا تسمح للمدافع بإصابة الزوارق . خصوصاً إذا توخى من فيها الاحتماء بالصخور . ورأيت الجنود وراء القلعة المربعة كأنهم النمل ، وكانوا يعملون فى إقامة فتحات فى الجدران لقلعة جديدة أوسع من الفتحات المنتشرة على القلعة الأخرى . وكانت رقعة الماء بين القلعتين ، القديمة والجديدة ، ضيقة جداً بحيث يستحيل على أى زورق ، كبيراً

www.ibtesama.com

كان أم صغيراً . أن يمرق بلا إذن من المدافع إذا أحسن اختيار مواقعها . وأدركت لأول مرة أهمية كراون پوينت الحربية ؛ فلو أحسن تحصينها على الوجـــه الصحيح ما أمكن لجيش مهاجم أن ينقل موؤنته وذخيرته من ذلك الممر المائى الضيق ، الذى يربط كندا بأمريكا . وانقطاع الموئن معناه انهيار الجيش بعد وقت قصير .

وإلى يسار كراون پوينت . كان الممر المائى هادئاً ، يدور نحو الجنوب . حتى يصـــل إلى مرتفعات تيكونديروجا البعيدة ، وإلى اليمين تقع بحيرة تشامپلين ذات الصفحة المائية الواسعة . وفى مكان ما وراء هذه المياه الممتدة ، كان الفرنسيون وحلفاؤهم الهنود يربضون متحفزين .

وعلى شاطئ هذا البحر الداخلى العظيم ، كانت قمم جبال جرين الحادة الشامخة تبرز من الجانب الذى كنا نقف عليه ، أما الجانب المقابل فعليه مرتفعات متموجة السطح تغطيها الأشجار الممتدة حتى شاطئ ولاية نيويورك ، وكشفت لنا شمس الصباح أنواع الأشجار التى تخفى التلال بخضرتها اللانهائية ، وتكسو المنطقة كلها ببساط سندسى لا أول له ولا آخر ... كانت الأشجار فى كل مكان تقع العين عليه ، ورءوسها الضخمة تغطى مئات الآلاف من الأميال إلى

www.ibtesama.com

الأفق . كانت بلايين وبلايين من الأشجار المتزاحمة فى جبروت وجمال وجلال .

ووقفت أتأمل وأعجب ؛ كيف زحف هذا النمل الآدمى إلى كراون پوينت ؟ ولماذا قطع تلك المراحل المضنية ، بعيداً عن الأهل والأوطان . ليشقى مع بنى جنسه شقاء قد يودى به فيهلك ؟ أو تظن هذه المخلوقات أنها ذات أهمية بالغة فى هذا الكون ؟ أم تراها تعتقد أنها مبعوثة العناية الإلهية . لتنظم أحوال هذه الدنيا الواسعة ؟

ونزع كونكاپوت قميصه الملون القــذر ، وطواه داخل ثنيات بطانيته فى حــذر من يخفى جريرة ارتكبها . ثم انحدرنا إلى الشاطئ عبر المضايق المائية متجهين إلى القلعة الحديدة .

وعند ما حملتنا العائمة نحو القلعة . نظر قائدها إلى ماكنوت باحترام بالغ . وقال مساعد القائد محدثاً : أين سوجوتيل هذه . التى يتأهب المتطوعون للرحيل إليها ؟

ونظر ماكنوت إلى الجندى فى ازدراء وقال :

— من أنبأك بأننا راحلون ؟

قال : أينوتش سيم ! إنه حلاق فرقتنا ، وعنده الخبر

www.ibtesama.com

اليقين دائماً ، وقد أنبأنا أن خمسمائة متطوع يرحلون الليلة إلى سوجوتيل .

فقال ماكنوت : ما دام عليما بالأمور . فلماذا لم تسأله عن موقع سوجوتيل ؟

وانسحب الجندى غاضباً . ونظر ما كنوت إلى شارد اللب ، ثم قال بهدوء : ألم أخبرك بذلك ؟ إن الصاغ ينتظرنا ، أنا وكونكاپوت .

قلت هامسا : وأين ذلك المكان ؟ أين سوجوتيل هذه ؟

قال : ما سمعت به من قبل . ولكننا سنعرف عن قريب .

وعند ما وصلنا إلى المرساة الصخرية . وجدناها تعج برجال لا عدد لهم ولا حصر ، وكان بعضهم يفكك العائمات الراسية قبلنا ، ويحمل أخشابها على الأكتاف إلى القلعة . وعند الشاطئ كان فريق من جنود المقاطعات والإنجليز يصيد السمك ، بصنارات مصنوعة من فروع الأشجار . وبينما كنا نقفز إلى الشاطئ ، سقط أحد الجنود من فوق الصخور إلى الماء ، ثم خرج منه يترنح فرحاً ومعه سمكة كبيرة لا يقل وزنها عن خمسة عشر رطلا .وأسرع اثنان من زملائه إلى السمكة يضربانها على رأسها بالأحجار ؛ ثم حملاها إلى المعسكر فى نشوة الظفر والانتصار .

www.ibtesama.com

قال ماكنوت فى حقد ظاهر :

– سمكة نتنة ! ولكن جند المقاطعات لا يحجمون عن أكل شيء ، حتى القطط المريضة الميتة !

وسار أمامى بخطى سريعة ، متحاشياً الأحجار المبعثرة فى الطريق ، حتى وصلنا إلى القلعة الجديدة التى لم يتم بناؤها بعد ، وكان فى فنائها الواسع أساس ثكنتين هائلتى الحجم ، ومن حول هذا الأساس نحو ألفى رجل أو أكثر يعملون . منهم من يحفر الأرض أو يرفع التراب ، ومنهم من يثبت الأخشاب أو يحمل الأحجار ، وتناهى إلى سمعى دق طبول خافت وأصداء نداءات عسكرية . ورأيت وراء القلعة مئات من الخيام بالقرب منها جماعات من الجنود يتدربون فى ثياب قرمزية اللون .

وأثار ذلك النشاط المستمر ، الذى يسود المكان كله ، بالغ حماستى فتمنيت أن أشترك فيه ، وخشيت ألا أجد لى مكاناً بين هؤلاء الجنود المجتهدين .

* *

كانت الأرض الواقعة شمال الحصن تنحدر إلى خليج صغير ، يضمه منحنى أرض كراون بوينت ، وكان الشاطئ مغطى بالحصى والأحجار . وفى مخبأ منه ، لا يُرى من القلعة

www.ibtesama.com

أو من ميدان التدريب ، يقوم نموذج صغير لمعسكر كامل ، فيه نحو ثمانين خيمة ، نصبت على الشاطئ فى موجهة سطح البحيرة ، الذى يمتد شمالا ، حتى يتلاشى بين أشباح الجبال الماثلة من بعيد تحت غلالة من الضباب الخفيف .

ووقفت على الشاطئ أفحص ذلك المعسكر الصغير ، فوجدت أنه مقسم إلى أجزاء متجاورة ، تنتهى فى أقصى اليمين بخيمة للضباط ، ورأيت عشرين زورقاً كبيراً للصيد ، رُصت مقلوبة على الشاطئ ، ومقدم كل منها يتجه نحو قسم من أقسام المعسكر ، كأنها تؤكد التقسيم الذى وزعت الخيام على نظامه ، وكانت الزوارق متشابهة فى قذارتها البالغة وأصباغها البنية والخضراء .

وكأنما أثارت هذه الزوارق ذكريات حبيبة إلى نفس ماكنوت : إذ قال فى مرح : ها هى ذى الزوارق كلها ! ! ما من نقطة فى ماء هذه البحيرة الملعونة إلا لمسها أحد هذه الزوارق !

وكان معظم الرجال الذين يعملون بين الخيام والزوارق ، يرتدون قلانس مماثلة لماكنوت . وباستثناء عدد قليل يتدرب على الرماية بإطلاق الرصاص على كيزان من الصنوبر تلقى عالية فى الهواء ، كان الباقون غارقين فى العمل ؛ يرتقون

www.ibtesama.com

أحذيتهم ، أو يغسلون قمصانهم وينشرونها لتجف . أو يرتقون الثقوب فى ثيابهم الجلدية ، أو ينظفون أدواتهم ، أو يثبتون الدروع حول بنادقهم . أو يقطعون الرصاص أو يكيلون البارود . أو يصلحون الزوارق ثم يكدسون المؤن والذخائر بجوارها .

ورأيت فى الجانب الأيسر من المعسكر فصيلة من الهنود . لهم زوارقهم الخاصة وخيامهم المختلفة ؛ وكانوا — مثل كونكاپوت — عراة حتى خصورهم . يجلسون القرفصاء على الصخور عند حافة الشاطئ . أو يحملقون فى صورهم المعكوسة على المرايا الصغيرة بأيديهم . أو يطلون أجسادهم بالأصباغ .

وأشار ماكنوت بيده إلى كونكاپوت وقال له : هيا إلى فصيلتك ! لم أر هندياً يفتقر إلى طلاء جديد مثلك . فقم إلى أداء هذه المهمة ولا تتأخر . وسأنوب عنك فى مقابلة الصائغ .

ونظر كونكاپوت إلى نفسه فى تأمل حزين . كأنه يعمل تصميما لشكل الطلاء الذى يحتاج إليه ، ثم تركنا وانصرف دون أن ينبس بكلمة .

وهز ماكنوت رأسه ثم قال : إننا راحلون ! نعم راحلون فعندما يطلى الهنود أجسادهم يكون الرحيل مؤكداً ! الأمور

www.ibtesama.com

تتحرك ياسيدى . والمتاعب تتجمع فوق رءوس بعض الناس !

وكان خمسة أو ستة من المتطوعين يجلسون على جذع شجرة أمام خيمة الضباط ، وبين لحظة وأخرى تطل عليهم رأس من باب الخيمة لتدعو واحداً منهم ، فيقفز واقفاً ، ويتلقى الأوامر الصادرة إليه ، ثم يسير على الشاطئ متجهاً نحو المعسكر الرئيسى خلفنا .

وكانت الحركة متواصلة فى خيمة الضباط : رجال يدخلون ورجال يخرجون ، بعضهم إنجليز يرتدون ملابسهم القرمزية ، وبعضهم الآخر من جنود المقاطعات فى أردية زرقاء وأطواق نحاسية حول رقابهم ، وبجانب هؤلاء كلهم متطوعون يحملون أوامر مكتوبة ، أو براميل ثقيلة ، أو لفافات غريبة الشكل .

وأخذنى ماكنوت من ذراعى ، وراح يشير إلى الرجال ويذكر أسماءهم ؛ وكانت أسماء لا تحمل لى فى ذلك الحين معنى ، ولكنها أصبحت فيما بعد ذات معان خطيرة . قال :

— أترى هذين المتطوعين اللذين يقفان أمام خيمة الضباط؟ الرجل ذا الوجه الشرس القاسى والآخر ذا الوجه الطيب البرىء ؟ إنهما ملازمان فى الفرقة ، الأول منهما چون ستارك

www.ibtesama.com

الذى تولى قيادتنا حين كنا نشق الطريق إلى « رقم ٤ » — وهو الطريق الذى جئنا منه — والثانى مهندس اسمه جوناثان كارڤر . وقد اشترك معنا فى شق الطريق ... احذر أن تحتك بأحدهما وإلا أصابتك رصاصة هندية ، أو شجت رأسك ضربة من بَلطاتهم .

ودعوت الله ألا يلقينى فى طريقهم ؛ فالأول صفراوى المزاج رفيع الشفتين مقطب الجبين ، والثانى لين كالثعبان يتصنع التواضع وهو من غير أهله . وقد شعرت أنهما شرسان ، ومن الخطر أن يتعامل الإنسان معهما .

قال ماكنوت : أما صاحب الثياب الخضراء الذى تراه يفحص المؤن ويحصيه ، فهو ملازم بريطانى فى الفيلق الملكى ، اسمه ويليامز . ولقد علمه روچرز فنون الحرب سنتين كاملتين ؛ والآن يقاتل معنا كمتطوع منا ، والمنتظر أن يصبح عن قريب قائداً ، إذا استمر فى اجتهاده . إنه أحسن ضابط بريطانى وقعت عليه عينى ، وهو غير مواطنيه ؛ يحسن تلقى الأوامر من المتطوعين . لقد سرنا معه فى الشتاء الماضى خمسين ميلا فى جو درجة برودته عشرون تحت الصفر . واشترك فى ثلاث معارك ، ولولاه لمتنا جميعاً من شدة البرد أثناء عودتنا ،

www.ibtesama.com

فهو يعرف كيف يشعل ناراً من الجليد المخلوط ببعض الطين ! !

وحاولت أن أحتفظ فى ذهنى بما قاله ماكنوت ، ولكن الحوادث والأسماء اختلطت على فأخرجت كراستى ، وجعلت أرسم الضباط المسرعين والرجال العاملين ، وأكتب أسماءهم تحت صورهم . وكان ضمن من رسمت فى تلك اللحظة اليوزباشية أوجدن وبترفيلد وبرووار ، والملازمان دنبار وتيرنر ، والصول آفرى .

وأطل هنك وماكنوت من فوق كتفى يرقبان الصور التى أرسمها ، وأخيراً صاح ماكنوت فى عجب يقول :

ـ انظر إلى هذا ! أليس هو أوجدن بلحمه ودمه ؟ أوليست هذه نظراته الجانبية المعتادة ؟ أى والله . هكذا ينظر إلى الناس وكأنه لا يصدق ما يقولون له ! ثم هذا ! إنه دانبار ! نعم دانبار . وليس غريباً على إنجليزى مثله أن يفتح فمه بهذه السعة !

وتوقف ماكنوت عن الكلام فجأة ، كأنما طافت بخاطره فكرة جديدة . ثم قال :

ـ انتظر هنا . ولا تتحرك قيد خطوة ، حتى أذهب

www.ibtesama.com

لمقابلة الصاغ ، وأخبره بأمرك ... نعم ياسيدى ، سأقنعه بوجوب أخذك معنا ، وأقسم على ما فى ذلك من مصلحة أكيدة .

وقفز يهبط الشاطئ . واتجه نحو خيمة الضباط جرياً .
وبعد لحظة سمعناه يتحدث بصوته الخشن ، وكذلك سمعنا من يتحدث إليه فى نبرات عميقة قوية ، لم أسمع لها مثيلا فى حياتى ، فقد كان لتلك النبرات رنين مكتوم ، كأن صاحبها يتكلم من تحت الماء .

وجلست مع هنك ندرس الصور التى رسمتها ، ونستعيد أسماء أصحابها : اليوزباشي ستارك ، اليوزباشي كارفر ، اليوزباشي ويليامز ، اليوزباشي بترفيلد ، اليوزباشي أوجدن ، اليوزباشي برووار ، والملازم دانبار ، والملازم تيرنر ، والصول آثرى ، ولم يكن فى هذه المجموعة وجه واحد سليم ، بل إن بعضهم ضاعت معالم وجهه وراء ما شاع فيها من ندوب الجدرى وآثار الجروح . والواقع أنى لم أر فى حياتى وجوهاً كتب عليها تواريخ حياة أصحابها بمثل هذا الوضوح الذى رأيته فى أولئك الرجال .

وفجأة أطلت علينا من وراء باب الخيمة رأس ماكنوت الحمراء ، وأومأ إلينا بعنف . فأسرعنا نهبط الشاطئ ، ثم خلعنا قبعاتنا ودخلنا الخيمة .

www.ibtesama.com

الفصل الثالث عشر

كان فى ركن الخيمة فراش خشن تغطيه أوراق الأشجار الناعمة ، وبجانبه حقيبة من الشعر . وفى الوسط مائدة جلس إليها رجل جامد الوجه . جعل يتأملنا دون أن يظهر فى وجهه أدنى تعبير . وضاقت أنفاسى وارتجفت ركبتاى تحت تأثير نظراته الفاحصة الباردة : كان فى نحو الثامنة والعشرين من عمره ، غليظ الجسم ، وأدركت لفورى أنه صاحب الصوت الغليظ المكتوم الذى سمعته منذ لحظات . وكانت ظاهرة الغلظة أبرز ما فيه . ولكنها كانت غلظة بدنية لا معنوية ، توحى بالصلابة فى الأخلاق . والمناعة ضد الفناء .

وكانت شفتاه غليظتين . وكذلك أنفه الطويل . وكانت يداه المعقودتان على المائدة أمامه فى حجم هائل . وعلى عضلات ضخمة بارزة . وأصابعه أبيض كثيراً من وجهه وذراعيه . كأنما نقعت فى الماء زمناً طويلا . وكان لحم وجهه منتفخاً تحت عينيه الواسعتين . ومن رقبته التى تشبه رقبة الثور فى ضخامتها . تنحدر كتفاه . فتملآن سترته الجلدية امتلاء يكاد يمزقها . وخيل إلى وأنا أنظر إلى عرض صدره

www.ibtesama.com

مع ذراعيه ، أنه انتفخ بالخواء على أثر شهيق طويل .

وكان يغطي رأسه بقبعة المشاة ذات الحافة النحاسية الأمامية ، التي تبرز في ارتفاع كأنها وضعت بهذا الاتجاه لتحمي لابسها من الرصاص والضربات . ومن خلف هذه القبعة تتدلى حلية من الجلد تنثني إلى أعلا مثل ذيل السنجاب . وكانت العينان اللتان تحدقان فيّ من تحت اللوحة المعدنية في لون الحصى الرمادي الذي صقلته أمواج البحر على شاطئنا جهة ماين .

ولكنه كان سمحاً في حديثه رغم هيبته وجلاله ، يكلمنا كأنداد له ، بعكس ما درج عليه ضباط الجيش العظام . وكانت ابتسامته واضحة التعبير ، تنم أحياناً عن التشجيع ، وأحياناً أخرى تتسم بالطيبة ، أو تظهر الخجل ، حسب حالة صاحبها أثناء حـــديثه ، والحق أنها وقعت في نفسي أحسن وقع . فشعرت أنها ابتسامة رجل طيب الأخلاق والقلب .

قال في بطء ، كأن شفتيه الغلظتين لا تسعفانه بالحركة السريعة : سمعت من الجاويش ماكنوت أنكما تحملان رسالة إليّ .

قلت ــ وأنا أقدم له خطاب سام ليقرمور : نعم يا سيدي !

www.ibtesama.com

وفحص العنوان ، ثم فض الرسالة ، وجعل يقرؤها وشفتاه تتحركان فى بطء .

قال – وهو يضعها على المائدة ، ويضربها بيده الضخمة :

– نعم ... أعرف ليڤرمور ، وليس أحب إلىّ من تلبية رجائه فى الظروف العادية ؛ ولكنه يجهل حقيقة الخدمة فى فرقة المتطوعين ، ولا يمكن أن يتصور هذه الحقيقة إلا مَن عمل معنا ، فقبولكما فى فرقتى ليس خدمة يليق بى أن أقدمها له.

وانبرى ماكنوت وقال فى لهجة عنيفة ، تعجبت أن يتحدث بها جاويش إلى رئيسه الصاغ :

– ألم أقل لك إنه بارع فى الرسم ، فلم لا تلقى نظرة على رسومه ؟

والتفت إلىّ وقال فى غضب :

– أره كراستك !

وتناول روچرز الكراسة ، وراح يقلب صفحاتها بأصابعه الغليظة ، وتوقف عند إحداها ، وقال كمن أصابته الدهشة :

– هذا « رقم ٤ » !

ومضى يقلب الصفحات مرة أخرى ، ثم صاح فى صوت كأنه انفجار ، ومد يده بالكراسة إلى ماكنوت ، وأشار بإصبعه إلى إحدى الرسوم . فقال ماكنوت بأدب :

www.ibtesama.com

أليس هو بلحمه ودمه ؟

وأقفل روچرز الكراسة وأعادها إلىّ ، ثم قام واقفاً . كان طويل القامة ، أطول منى ومن هنك ، نصفه الأسفل بعكس الأعلى نحيف بشكل ملحوظ . وتناول خطاب ليڤرمور ثانية وقرأه ، وكانت شفتاه تتحركان أثناء القراءة كما فعل فى المرة الأولى ، ثم قال فى لهجة الشك :

— أكنت فى هارڤارد ؟ إن رجالى جماعة متباينة الصفات ، ولست أعرف كيف يعامل بعضهم رجلا مثقفاً مثلك !

فقلت له : لست مثقفاً بالدرجة التى تتصورها ، فأنا لم أقض فى الجامعة سوى عامين ، وهى فترة قصيرة لا يتعلم الإنسان فيها شيئاً مذكوراً .

وقال ماكنوت من خلفى بعنف :

— إنه ليس مثقفاً بالمرة ! تصور أنه لا يعرف لمَ يبكى الهنود إذا سكروا ! !

ثم أشار إلى هنك بإصبعه وقال :

— انظر إليه أيها الصاغ ، أهذا شكل رجل تعلم فى هارڤارد ؟

فقال الصاغ فى ابتسامة :

www.ibtesama.com

— لا . . . ولكن هـل علّموك فى هارڤارد شيئاً عن هذه البلاد ؟

قلت : لا ياسيدى . وكل ما أعرفه عن الغابات تعلمته من هنك مارنيار .

فقال روچرز : ليس قصدى هذا ، إنما كنت أسأل عما إذا كانوا علموك شيئاً عن البقع المتخلفة من بلادنا ، مثل وسكونسين ومنطقة الشمال الغربى .

قلت : لا سيدى ، فحوادث هذه الأيام لا تهمهم ، والدروس التى يعلّمونها قاصرة على بلاد اليونان وروما ومصر وغيرها من البلاد المذكورة فى الإنجيل . وفى العام الماضى حاضرنا الأستاذ ونتروپ فى رحلة اليوزباشى ميدلتوف ، والمناقشات التى دارت حول الممر الشمالى الغربى ؛ ولكنه تناول الموضوع من الناحية الفلسفية فحسب .

قال يسألنى : مناقشات حول الممر الشمالى الغربى ؟ ومن هو هذا اليوزباشى ميدلتوف . وأى مناقشات تقصد ؟

قلت : إنه الرجل الذى حصل على ترخيص من الحكومة الإنجليزية بالإبحار فى خليج هدسون بحثاً عن الممر الشمالى الغربى الموصل إلى اليابان ، ولقد أبحر بالفعل ، ولكنه عاد إلى انجلترا دون أن يعثر عليه . ولكن أحدهم نشر فى ذلك

الحين كتاباً يقول فيه : إن شركة خليج هدسون قدمت إلى ميدلتون رشوة قدرها خمسة آلاف جنيه ، كيلا يتم الرحلة .

قال روچرز — وعلى فمه شبح ابتسامة فيها معانى الشك واضحة :

— وأى مصلحة تعود عليهم من فشل البعثة ؟

قلت : لأن الشركة كانت تحتكر الملاحة فى الخليج ، وعثور ميدلتون على الممر المذكور ، يجتذب الناس إليه من أرجاء الدنيا ، فتفقد الشركة احتكارها . إنها غنيمة تستفيد بها انجلترا مع العالم كله ، ولكن حملة أسهم شركة خليج هدسون ، البالغ عددهم اثنى عشر فقط ، رأوا أن يحاربوا المشروع محافظة على ثرواتهم .

قال : وهل أفلحوا فى وقف المشروع ؟

قلت : لا ياسيدى . لقد قام ميدلتون أثناء الرحلة بالإبحار فعلا . ولكن مؤلف الكتاب يؤكد أنه ارتشى . بدليل ما وجده فى مذكراته من البراهين التى تثبت وصوله إلى الممر الشمالى الغربى ، رغم ادعائه غير ذلك ، ولقد اتهم المؤلف ميدلتون بالكذب ، ووصف أصحاب شركة خليج هدسون بالخونة النصابين المفسدين .

قال : وكيف احتفظت بكل هذه المعلومات ؟

www.ibtesama.com

قلت : لأن الكتاب يتحدث عن بلاد الهنود فى الشمال الغربى ، ولقد قرأته بحثاً عن معلومات تفيدنى فى دراسة مظاهرهم وأشكالهم .

قال : ولماذا تهتم بمظاهرهم وأشكالهم ؟

قلت – وأنا أنتقى الألفاظ المناسبة :

– كنت أريد أن أرسم هنوداً من مختلف الجهات والقبائل. أرسمهم بالألوان كما لم يفعل فنان من قبل . لقد بنى مارك كاتسبى شهرته على رسم طيور كارولينا الجنوبية . ولست أعرف سبباً يجعل الطيور أكثر أهمية من الهنود . ولكنى لم أجد مرجعاً واحداً يفيدنى . ولذلك قرأت الكتاب بحثاً عما أريد ، فلم أجد فيه بغيتى مع الأسف .

قال : من الذى وضع ذلك الكتاب ؟

قلت : إنجليزى اسمه آرثر دوبز .

قال : آرثر دوبز ! آرثر دوبز . وماذا حدث له بعد ذلك ؟ وأين هو الآن ؟

قلت : لست أعرف يا سيدى .

وظل روچرز ينعم النظر فىّ . وشفتاه تتحركان فى بطء شديد ، كأنه يستعيد كل كلمة قلتها له . وعند ما انتهيت من

www.ibtesama.com

الحديث ظل واقفاً ويداه تتدليان فى ارتخاء ، وشفتاه الغليظتان منفرجتان . فشعرت كأنه يريد مزيداً من المعلومات ، وانتظرت أن يسألنى عن أشياء أخرى ؛ ولكنه عاد إلى المائدة وأخذ يقرأ خطاب سام ليفرمور للمرة الثالثة ، ووضعه على كومة من الأوراق أمامه . وقال :

— حسنا ... أنتما تريدان الانضمام إلى المتطوعين ، وما دام ماكنوت يزكيكما . فعليه تقع المسئولية . والآن عليكما اختيار العمل الذى تفضلانه . أى عمل تختاران طالما بقيتما بعيدين عن قيادتى ؛ أما إذا التحقتما بفرقتى ، فعليكما بالطاعة عن دقة وطيب خاطر وليكن فى علمكما أن أوامرى ليست سهلة أو هينة .

وصدر منه ذلك الصوت الذى يشبه الانفجار . والذى أدركت أخيراً أنه ضحكة . ثم قال :

— من أوامرى ما يقضى على الرجل العادى . ولكننا نطلب هنا الطاعة والنظام . وهما ما لا يستطيع جنود المقاطعات فهمه ... والأمر لكما على كل حال . ولن أمانع فى انضمامكما إذا قبلتما هذه الشروط .

وفى فورة من الطيش والحماقة . قبلت التطوع عن نفسى وعن هنك . فقال وهو يستدير إلى ماكنوت : خذهما الآن

www.ibtesama.com

إلى العتاد . وابدأ فى تعليمها كما يجب . ولا تنس أن تعطيهما الرماح «السناكى» . سيكون الزورق «رقم ٢» فى عهدتك ، ووكيلك فيه الحاويش رايس .

والتقط ورقة من فوق المائدة . وقال وهو يقدمها إلى ماكنوت : هاك آخر قائمة بأسماء رجالك وما يحتاجون إليه من عتاد ، لقد أخرجنا جيلبز منها لمرضه بالحمى . وعجزه عن الرحيل ؛ فخذ مارنيار بدلا منه . وليكن فى علمك أننى لن أسمح لرجل فى هذه الرحلة بأبسط انحراف صحى . حتى السعال أو العطس .

ونظر إلىّ مفكراً ثم قال : أعتقد أنك ماهر فى استعمال القلم ، وأظنهم امتحنوك بهارفارد فى اليونان ومصر وغيرها من البلاد المذكورة فى الإنجيل .

فأومأت برأسى موافقاً . فقال يستكمل حديثه : سأضعك معى فى الزورق رقم «١» تحت قيادة اليوزباشى أوجدن ، حتى تكتب لى خطاباتى عند ما أكون مشغولا . فهل تستطيع ذلك ؟

قلت : نعم يا سيدى .

قال — وهو يشير بيده :

حسنا ، سنحاول أن نعلمك بعض ما أهملته هارفارد .

www.ibtesama.com

الفصل الرابع عشر

تركنا ماكنوت . وذهب مع رجاله يهيئ الزورق رقم اثنين ، وبدا لنا المعسكر بما فيه من الرجال ، كمسرح بعيد . تعرض عليه تمثيلية لا دور لنا فيها .

وازداد المنظر شبهاً بالمسرح ، بفضل البحيرة الكبيرة التى تمتد مياهها الزرقاء المتموجة حتى تصل إلى الجبال البعيدة . فالحق أن منظر هذه البحيرة بدا للعين كأنه إحدى الستائر الجميلة التى يستعملونها على المسرح .

ورأينا العمل يجرى على قدم وساق فى تزويد المغامرة القريبة بسبعة عشر زورقاً يسع الواحد منها اثنى عشر رجلا على وجه التقريب .

قلت لهنك : لعلنا أخطأنا بعدم انضمامنا إلى فرقة لاڤويل ، فمعلوماتنا على ما أعتقد لا تؤهلنا للانخراط فى سلك المتطوعين.

قال : وهل هم أعلم منا ؟ فى مقدورنا ، ولا شك ، أن نسير طول اليوم فى الغابات ونصيد الغزال عن بعد مائتى خطوة . وهى مهارة فى الرماية لا تعجزنا عن قتل الأعداء ؛ فالذى يصيب الغزال من هذه المسافة يصيب رأس الهندى أو الفرنسى ، وأظنك تعرف يا لانجدون أن الإنسان لايستطيع

www.ibtesama.com

الإضرار بغيره بعد إصابته برصاصة فى رأسه . ثم إننا قادرون على حماية أنفسنا فى الغابة . وهذا أقصى ما يمكن أن يعرفه المتطوعون . وأراهنك على أننى سأتفوق عليهم جميعاً فى الرماية بعد قليل من التدريب ، وكذلك أنت ياصديقى .

وأشار بيده إلى جماعة من المتطوعين تتدرب على إصابة الهدف عند الشاطئ ، وكانوا فى شغل بإلقاء كيزان الصنوبر فى الهواء ثم ضربها بالرصاص وهى ما تزال معلقة فى الجو ، فإذا أخفق الواحد منهم فى إصابة هدفه ، زمجر الباقون غضباً عليه ... وكانت الكيزان تتفتت أمامنا بشكل يدل على إصابتها من أول رصاصة توجه إليها .

قال هنك : وأين تكون سوجوتيل التى نرحل إليها ؟ هل تعرف مكانها أو سمعت عنها ؟؟

وأحسست من طريقته فى إلقاء السؤال ، أنه متوتر الأعصاب مثلى ، بالرغم من تظاهره بالثقة والاطمئنان ، قلت :

— الله أعلم ، ولكن ما دمنا نذهب بالزوارق ، فهذا دليل على أنها تقع فى الناحية الشمالية . وعلى كل حال أظنها رحلة كشفية فقط ، فعـــدد الزوارق وحمولتها من الرجال لا تكفى معركة حامية .

www.ibtesama.com

فتساءل قائلا : أتظن عملية كشف صغيرة تحتاج إلى سبعة عشر زورقاً ؟ بهذا العدد ياصديقى نستطيع كشف القارة الأمريكية كلها .

وسلمت بصواب رأيه ، وجلست صامتاً أرقب ماكنوت ورجاله ، وهم يقلبون الزورق رقم اثنين ويدفعونه إلى البحيرة ، فيتعالى من احتكاك قاعه بالحصى وارتطامه بالماء صوت كهزيم الرعد . وعند ما استقر الزورق على صفحة الماء ، قفزوا إليه ، وجعلوا يفحصون قاعه خشية أن تكون به ثقوب يتسرب منها الماء ، ولم يتركوه حتى اطمأنوا تماماً إلى سلامته ، وعندئذ عاد ماكنوت إلى البر ، وسار نحو الخيام إلى حيث نجلس .

قال : هيا بنا ننجز أعمالنا : فعلينا أن نوقع على بعض الأوراق ، كما نحضر قلانسنا وملابسنا ، ثم نتسلم مؤننا ، فموعد الرحيل الليلة بعد انتهاء العرض مباشرة .

فسأله هنك : إلى أين نرحل ؟

وأصم ماكنوت أذنيه عن السؤال ، ومضى فى حديثه بقول : سأعطيكما الأوامر اللازمة ، ولن يستغرق ذلك أكثر من عشر دقائق ، ولكنى لن أكرر كلمة أقولها ، فأنصتا إلىّ باهتمام واحذرا النسيان، وإلا دفعتما حياتكما ثمناً لذلك ...

www.ibtesama.com

إن الهنود لا يرحمون ، ولا أظنكما تحبان أن يقطعوا رأسيكما
فقلنا : إننا نفهمه جيداً .

قال يشرح الأوامر : عند ما تكون الفرقة فى المعسكر ، تقومان بالتدريب وتستعدان للتفتيش عند كل غروب . ويجب أن تكون البنادق دائماً نظيفة لامعة ، والبلطة مسنونة كالشفرة ، ولا يصح أن تقل ذخيرتكما عن ستين عبوة بارود وستين طلقة ، مع تمام الاستعداد للرحيل بعد دقيقة واحدة من صدور الأوامر . تصرفا عند ما تسيران فى الغابة كما لو كنتما تطاردان غزالا . ولكن مع فارق واحد ، وهو أن الغزال لا يؤذيكما ، ولا يهرب إذا رآكما أو أحس بوجودكما ، فى حين أن الغزلان البشرية التى تطاردانها ، تبحث عنكما مثلما تبحثان عنها ، وتحمل البنادق والمدى ، وتتقن إصابة المرمى ، وليس أحب إليها من القضاء عليكما برصاصة صائبة ، لإرضاء فتيات القبيلة بفراء رأسيكما ... المسألة كلها تتوقف على الزمن ، فإن سبقتما إلى القتل كان خيراً وأبقى ، وإن سبقوكما نضطر إلى ترك جثتيكما فى مكانهما فليس لدى المتطوعين وقت يضيعونه فى تشييع الجنازات وإقامة مراسم الدفن .

وشاع المرح فى لهجته حين قال : ولكن الحذر ينجيكما

www.ibtesama.com

من الأخطار ، والصدق يبلغكما المرام ؛ فالجيش كله يعتمد على المعلومات الصحيحة ؛ وليس أخطر على متطوع أو ضابط من الكذب ، أما الناس العاديون فلا يلزمكما الصدق معهم . ولكما أن تكذبا عليهم بقدر ما تريدان . كونا دائما على حذر ، كما يفعل الفرنسيون والهنود ، ولا تخاطرا بحياتكما دون داع للمخاطرة ، واعملا بنصيحة الصاغ فى وجوب تلافى المخاطرة ، إلا عند الضرورة .

وضحك من أنفه ، وكأن نصيحة الصاغ فكاهة لطيفة ، ثم قال :

— من عادتنا أن نسير فى صف واحد متباعدين، حتى لا تصيب الرصاصة الواحدة شخصين ، وعند ما تعترض طريقنا أرض غدقة أو مستنقعات ، ننتشر فى جبهة عريضة ، فيصعب على العـــدو اقتفاء أثرنا . نسير من مطلع الفجر إلى هبوط الظلام ، حتى لا يفاجئنا العدو على غير انتظار . وفى المعسكر ينام نصف الجند ويبقى نصفهم الآخر للحراسة . وإذا أخذنا من العدو أسرى لا نبيتهم معاً ، وإنما نبعد الواحد عن الآخر إلى أن يتم استجوابهم ، حتى لا يتفقوا على تضليلنا بمعلومات كاذبة . أواضح هذا الكلام ؟

واعترفنا بوضوحه التام ، فمضى فى إصدار الأوامر يقول :

www.ibtesama.com

علينا أن نحسب حساب شتى أنواع المصاعب والمتاعب ، ونستعد لكل احتمال ، فنأخذ معنا أحذية الانزلاق فى المستنقعات على سبيل الحيطة . وإذا سلكتما طريقاً معيناً إلى جهة ما ، فحذار أن تعودا منه ، وإلا سقطتما فى كمين الأعداء . والأفضل أن تختارا طريقاً آخر لا يعرفونه .

وسواء أكانت مجموعاتنا كبيرة أم صغيرة ، فلا بد أن يتقدمها الكشاف بنحو عشرين خطوة ، ويسير آخران على عشرين خطوة من جانبها ، ورابع على عشرين خطوة وراءها ، وبهذا نتلافى المباغتة والقتـــل بالجملة . إياكما ونسيان هذه المعلومات ، فقد نكلفكما بمهمة الكشاف فى أى وقت من الأوقات .

أما متى نقابل قوة كبيرة العدد . فهذا أمر لا يمكن التنبؤ به ، وإذا حدث لا تستسلما للذهول كما يفعل البريطانيون ، وإلا أبادونا عن آخرنا . الحكمة تقضى فى مثل هذا الموقف بالتفرق سريعاً . كل يشق طريقه وحده خارج الحصار ، ثم يكون اللقاء فى المكان المتفق عليه . ومن عادتنا أن نتفق كل ليلة على مكان جديد ، فإياكما ونســيانه . إياكما . إياكما ! !

أما عن الطعام ، فلا يصح الجلوس إليه دون حراسة ،

www.ibtesama.com

وليس مسموحاً بالنوم إلى ما بعد الفجر . إذ من عادة الهنود والفرنسيين أن يهجموا قبـــل مطلع النهار . لا تعبرا نهراً من المكان المألوف للناس ، تلافياً للوقوع فى كمين . وإذا تعقبكما أحد . دورا دورة كبيرة ، ثم عودا إلى نفس الطريق . وبذلك يتغير الوضع . فتصبحان فى أثره بعد أن كان فى أثركما . لا تلقيا الأعـــداء وقوفاً . بل اركعا أو ارقدا على الأرض . أو اختبئا وراء شجرة . وعند ما يقتربون منكما تمام الاقتراب . أطلقا الرصاص . ثم أجهزا عليهم بالبلط . أليست المسألة بسيطة ؟

فقال هنك : أجل والعبرة فيها بالعقل والمنطق .

قال ماكنوت : بكل تأكيد . ولكن يدهشك كيف يخطىء فيها كثير من هؤلاء الرجال .

وأشار بإبهامه إلى ميدان تدريب الجيش النظامى البريطانى ، الذى تنبعث منه أصوات الأوامر الخشنة ، مختلطة مع دق الطبول .

قال : من طبع أولئك الرجال أن يسيئوا التصرف دائماً ! فالقواد البريطانيون يسيرون فيلقاً كاملا فى اتجاه فوهات بطارية العدو ، ثم تنتابهم الدهشة ويغشاهم الحزن ، عندما يضطرون إلى دفن أفراد الفيلق بكامله !! والعجيب أنهم

www.ibtesama.com

لا يتعظون قط ، ففي كل مرة يحدث لهم مثل هذا الأمر يكررون الغلطة ، ويسيّرون فيلقاً جديداً بنفس الطريقة ليلقى ذات المصـير . ولولا روچرز ومتطوعوه لأفنى الفرنسيون كل عام جيشاً بريطانياً جديداً . إنه الوحيد الذى يصلح للقيادة ، ولو نصبوه قائداً على البريطانيين منذ أعوام أربعة ، ما بقى اليوم فرنسي واحد فى أمريكا الشمالية ! أى والله ، ما بقى واحد منهم ، فهو قدير على ردهم إلى كويبك ، ثم محاصرتهم بكشافته ، حتى يموتوا جوعاً عن آخرهم .

وكأنما ذكرته كلمة الموت جوعاً بالطعام ، فقال فى مرح :

– والآن . حان وقت الطعام ! ومن حسن حظكما أن تتناولا طعام المتطوعين فى أول قدومكما ! فالمتطوعون يعطون خلال إقامتهم بالمعسكر ما لا يحلم به جند آخرون . فالصاغ يغرقنا بالنبيذ والروم وأطيب المأكولات .

وأردف فى اشمئزاز :

– ولكننا لا نأكل هذه اللفائف أثناء الحملات .

قلت : اسمع ! أين سوجوتيل هـذه التى نقصدها ؟ إن الشك لعنة على الجدد من أمثالنا !

www.ibtesama.com

قال : المفروض أن نحتفظ بسر مواقعنا حتى نبدأ المسير ، خشية أن يتسرب خبره إلى العدو .

قلت محتجاً : لن يتسرب الخبر عن طريقنا على وجه التأكيد ، فأنت تعرفنا جيداً ، ولعلك لمست على طول سفرنا معك ، عزوفنا الأصيل عن الثرثرة .

فألقى ماكنوت على المتطوعين نظرة كلها حذر ، ثم اقترب منا وقال :

حسنا ! سأخبرك . فلا تنس لى هذه المكرمة . واذكرنى بالخير عند الصاغ . ألم تسمع قط باسم سانت فرانسيس ؟

فأومأت برأسى إيجاباً . فأهل نيو إنجلند كلهم يذكرونها بالحزن والأسى . قال :

— إنها سانت فرانسيس !

قلت : أهى سانت فرانسيس ؟ ماذا تقصد بهذا الكلام ، وما دخل سوجوتيل بسانت فرانسيس ؟

قال : ليس هناك مكان فى العالم اسمه سوجوتيل ، إنما هى حيلة لجأ إليها روجرز إمعانا فى التمويه على الأعداء ؛ والحقيقة أننا ذاهبون إلى سانت فرانسيس .

قلت فى تعجب : سانت فرانسيس . سانت فرانسيس !

قال راضياً : نعم ! فقد قتلنا أولئك الشياطين الحمر ومثلوا

www.ibtesama.com

بنا . وأحرقوا منازلنا ودمروها ، وسبوا نساءنا ، وهشموا رءوس أطفالنا . فتكوا بكشافينا وسلخوا رءوس جندنا ، وشووا ضباطنا على نار هادئة خمس سنوات طوال ، ولكنهم ازدادوا فى العهد الأخير طغيانا ؛ فمنذ أسبوع أسروا اليوزباشى كندى ، وهو يقف تحت علم الهدنة ، واعتقلوا چيمس تيوت أحسن ضباط المتطوعين . لقـــد بغوا وطغوا ما فيه الكفاية ، وآن لنا أن نلقى عليهم درساً يتعلمون منه أن الحرب ليست هزلا . إن القضاء على سانت فرانسيس ، يا بنى ، هو هدفنا من هذه الحملة .

** معرفتي **
www.ibtesama.com
منتديات مجلة الإبتسامة

www.ibtesama.com

الفصل الخامس عشر

ظل المعسكر طول اليوم على الحال التى رأيناه عليها عند قدومنا . ولم يعوّم قارب واحد إلا لاختبار سلامته من الثقوب ، حتى انحدرت الشمس ناحية الجنوب الغربى ، ثم توارت وراء جبال شاطئ نيويورك ، التى بدت فى أضواء الأصيل مثل كتل أرجوانية ضخمة أمام صفحة السماء البرتقالية الصافية . وهبت رياح سبتمبر الباردة على سطح كراون پوينت تجر أذيالها على البحيرة ، فتسير معها المياه إلى الشمال بلون يشبه الرخام الرمادى الداكن . ولو أن عينا كانت ترقب من أعلى الجبال ، ما رأت طول اليوم شيئاً غير مألوف فى المعسكر ، فقد ظل المتطوعون . حتى أقبل المساء . يعملون فى خيامهم ، ويقومون بمهامهم اليومية المعتادة .

وحال اللون البرتقالى فى السماء . وتحول إلى صفرة وردية ، ثم زادت الحلكة فصارت الأضواء خضراء داكنة ، وكبر حجم الجبال فى أذيال النهار الهارب ، وبرزت من فوقها النجوم باهتة . فلم تعد العين تميز أين ينتهى الشاطئ ومتى تبدأ البحيرة .

وعندئذ قامت بين الخيام والشاطئ حركة لا تكاد العين

www.ibtesama.com

تلحظها ولا الأذن تسمعها : أصوات أخشاب تحتك بأخشاب ، وهمس منخفض مكبوت . وأجسام تُنزل فى الماء بخفة لا مثيل لها . وتحول المكان كله إلى ما يشبه منظراً مسرحياً : فقد أقيمت حواجز من الأعشاب أمام النيران الموقدة لتحجب نورها عن البحيرة ، وتعكسه على الخيام . وبهذا الترتيب المسرحى فى الإضاءة بقيت الزوارق وما حولها فى ظلمة حالكة .

وبعد أن وضعت الحواجز أمام النيران ، سرت أنا وهنك نحو شاطئ البحيرة المظلم . تنفيذاً لأوامر ماكنوت ، فوجدنا تلك الشقة الضيقة من الأرض تزخر برجال يتزايد عددهم باطراد فجأة ، كأن الأرض تنشق عنهم . وكان الحاويشية يرددون أرقام زوارقهم فى أصوات رتيبة ، فهذا ينادى :

سبعة ... سبعة ... ســبعة ... وذلك يرد : ثلاثة ... ثلاثة .... ثلاثة .

وتركنى هنك ليلحق بقاربه رقم ثلاثة . فتقدمت أشق طريقى بين الرجال المشغولين الذين يهمهمون ويزمجرون ، حتى سمعت صوتاً أجشّ يقول : واحد ... واحد .... واحد ...

وكان رقم الزورق الذى حدده روچرز لركوبى .

وعلى مقربة من موئخرة الزورق ، وقف ضباط ثلاثة ، عرفت فيهم الصاغ روچرز بقبعته الضيقة . قال لى :

www.ibtesama.com

– انزل إلى القارب .

وسألني الجاويش الذي يمسك بحافة القارب عن اسمي : فلما أخبرته به قال :

– خذ الصف الثالث .

ووجدت رجلين يقفان على جانبي مقاعد الصف الثالث ، كل منهما يمسك بمجذاف مرفوع فوق الماء .

وتوافد على الزورق رجال آخرون ، جعلوا يتعثرون بيننا ، ويطأون أقدامنا ، ويصدموننا ببنادقهم . وكان جو الزورق مشبعاً بروائح جلد الغزال والعرق وزيت البنادق والصوف المبلل ، فوقفت في مكاني مرتعداً أتأمل الخيام المضاءة ، والأشباح السوداء التي تمر بيني وبين حواجز اللهب ، ثم سمعت واحداً من تلك الأشباح يقول : العدد كامل في الزورق رقم خمسة عشر ، ونحن على استعداد .

وتلاه صوت ثان يقول : العدد كامل في الزورق رقم اثنى عشر ، ونحن على استعداد .

وسمعت صوت روچرز يستفهم في لهجة ودية عن أمر الزورق رقم سبعة عشر ، قال :

– هل مات أحد من رقم سبعة عشر ؟ أم تراهم عدلوا عن الذهاب معنا ؟

www.ibtesama.com

وسرت الهمسات على الشاطئ كأنها شبح يتوارى مبتعداً . ثم تعالى صوت يقول فى أنفاس مبهورة :

– العدد كامل فى الزورق رقم سبعة عشر . ونحن على استعداد .

فقال روچرز :

– فليبدأوا المسير !

وسمعت صوت المجاذيف تضرب الماء فى خفة ، ثم تئن ، ثم تضربه ثانية . وأقبل ضابط نحو مؤخرة زورقنا ، ورغم الظلام المحيط بنا تبينت فيه اليوزباشى أوجدن ، ثم رأيت الزورق المجاور لنا ينزلق فى بطء مبتعداً عن الشاطئ ، ظلت مجاذيفه تضرب الماء وتئن حتى غاب عن ناظرى .

قال روچرز : ادفع الزورق إلى الماء .

واهتز الزورق تحتى ، واحتك قاعه بحصى الشاطئ ، ثم اعتدل فى الماء . وقفز روچرز إلينا ومعه رجلان أحدهما جاويش ، واتخذ مجلسه عند المؤخرة ، ثم تناول مجذافاً ودفع به الزورق بعيداً عن الشاطئ ، وعندئذ بدأ الرجال يجذفون فى خفة وصمت . وانطلق الزورق فى طريقـــه متخطياً الزوارق الأخرى التى تنزلق فى هدوء الأشباح . وكلما مررنا بأحدها ذكر رقمه المميز له عن الآخرين . حتى وصلنا إلى

www.ibtesama.com

أول الزوارق ، فلم يذكر رقم سبعة عشر ، قال روچرز :

— إلى خليج باتونمولد .

وكانت الزوارق السبعة عشر تقف صفاً طويلا فى انتظار كلمة روچرز . فلما قالها ، اتجهنا نحو الشمال قليلا ومن ورائنا ذلك الأسطول البحرى الذى يشق طريقه فى الماء بنظام وترتيب ، كأنه دابة هائلة لها مائة رجل .

وفى الضوء القليل الخافت كنت أبصر الصاغ روچرز ينحنى بجسمه الهائل على مؤخرة الزورق ، مرة يخلع الدفة ومرة يعيدها إلى مكانها . كان منظره يطمئن القلب ويبعث فى النفس شعوراً عجيباً بالدفء ، والحق أن الأيام التالية أتتنا بكثير من هذا الشعور ، وكانت صحبته تضفى علينا اطمئناناً ، حتى فى أحرج الأوقات وأدعاها إلى اليأس . ولو كان فى مقدورى أن أنقل هذا الشعور إلى غيرى من الناس . ما استطاعوا إلا أن يقدروا تلك الشخصية الفريدة ، التى تلم بمعلومات لم يتأت مثلها لكائن حى . فلقد كان رجلا فذا بمعنى الكلمة ، ولولا قوته الجبارة ما اجتمع شملنا على

www.ibtesama.com

أمل لم تنجح أشد المحن ولا أحلك الظروف فى تجريدنا منه .

سار الزورق ببطء وهو يهتز قلقاً فوق صفحة الماء ، وطوتنا البحيرة برطوبة باردة ، تشبعت بتلك الرائحة المالحة النفاذة ، التى تختلف تمام الاختلاف عما عهدنا فى مياه پيسكاتاكوا النقية . وتذكرت فى تلك اللحظة الأهل والوطن ، وطافت بذهنى صورة البزابيث ، فقلت أحدث نفسى : انتظر واصبر ، حتى ترى عباءتك الخضراء مثبتة على كتفك بمشبك فضى ، وعلى رأسك قلنسوة تميل فى خيلاء على حاجبك الأيمن ! . . أتراها إذ ذاك تبكى أسفاً لسابق إساءتها إليك ؟؟ لقد عجزت عن تقديرى حين تمسكت بميولى الفنية ، ولكن الوضع سيختلف عندما أعود إلى الوطن بطلا ! لم تكن راضية عن صلاتى ببعض الناس ، وكانت تعتبر أصحابى « مخلوقات فظة » ، فماذا تراها تقول الآن ، إذا عرفت بنوع الرجال الذين أختلط بهم ؟

وضحكت فى مرارة ، وجاءت الضحكة عالية مع الأسف ، فقال الجاويش الذى يسير الدفة هامساً :

— سنسمح لمن يضحكون عالياً بالعودة سباحة إلى الشاطئ ، ليضحكوا ما شاء لهم الضحك . والهنود تبقر بالخناجر بطونهم .

www.ibtesama.com

وتصلبت فى مكانى جامداً ، وحمدت الظلام الذى أخفانى عن العيون ، وكان السكون شاملا إلا من صوت المجاذيف الحذرة ، والليل يطوى البحيرة بغلالة سوداء معتمة محزنة . وكان النوم يغالب عقلى الواعى ، فخيل إلى أن صوت المجاذيف البطئ الرتيب لحن جنائزى ، يسير موكبنا على هداه ، إلى حيث تبتلعنا أفواه القبور المتفتحة لاستقبالنا .

وخيل إلى أن وقتاً طويلا مضى قبل أن سمعت الحاويش يقول لنا فى همس أجش : تبادلوا المجاذيف .

وجذب أحد الرجال ذراعى ، وتحرك نحو مكانى ، فأدركت أن دورى فى التجديف قد حل ، وعندئذ مررت فوقه إلى مقعده وأخذت منه المجذاف الخشن . وتبدل الرجال جميعهم حتى ماسك الدفة الذى تخلى عنها لروچرز ، واستمر هذا التبديل يتكرر كل نصف ساعة .

وكان أعجب ما فى الرحلة ذلك السكون الذى يشمل الزورق ومن فيه ، ولست أذكر أننى رأيت فى حياتى مجموعة كبيرة من الرجال تصبر على الصمت مثل هذا الوقت الطويل . فالواقع أن نفساً واحداً لم يكن يصدر منهم ، ولعل فى ذلك تفسيراً وجيهاً لشدة ضجيجهم فى المعسكر أثناء الراحة . فالذين يضطرون إلى الصمت أياماً وليـــالى ،

www.ibtesama.com

لا بد أن ينفجروا بالصخب حين تتغير ظروفهم وتزول حدة توترهم . ومن الظلم أن ينتقدهم الناس لإفراطهم فى السكر والعربدة ، فهذا الإفراط تنفيس طبيعى عن الكبت الطويل ، والإغراق فى المتعة رد فعل طبيعى للحرمان الشديد .

وعند ما لاحت تباشير الفجر ، كنا على مقربة من الشاطئ ذى الأشجار الكبيرة ، وسمعنا صوت الأمواج تتكسر على الصخور ، فأبطأنا السير ، ووقف روچرز فى مؤخرة الزورق يشم الهواء . ويبدو أنه كان يشم الاتجاه إلى هدفنا ؛ إذ نادى على ركاب الزورق رقم اثنين يقول ، بعد أن تبين الطريق دون أن تظهر له معالم فى الظلام : سندور من هنا ، وبلغ هذا الأمر لمن يليك .

ويممنا نحو الشاطئ ، وشعرت بقاع الزورق يحتك بالرمال ، ثم سمعنا الزوارق الأخرى ترسو واحداً بعد الآخر .

وانهمك روچرز فى إصدار الأوامر :

– فستة من الرجال يحرسون الشاطئ ، وستة آخرون يقفون على التل القريب ، وستة غيرهم يأخذون أماكنهم على الأرض الجنوبية المسطحة . كان يتكلم فى ثقة كأنه يرى

www.ibtesama.com

معالم المكان واضحة فى ضوء النهار الساطع . مع أننا لم نتبين شيئاً فى العتمة سوى رائحة أشجار الصنوبر ، وقد اختلطت ببعض الأعشاب المتحللة . كان يهمس فى حذر من يخشى عدواً غير منظور . ويكره أن يعطى ذلك العدو أبسط فرصة للانقضاض علينا .

** معرفتي **
www.ibtesama.com
منتديات مجلة الإبتسامة

www.ibtesama.com

الفصل السادس عشر

ما إن جاء الفجر حتى كانت الزوارق كلها قد استترت وراء غصون الأشجار المتدلية نحو الماء . وعسكرنا فوق ربوة بعيدة ، لا تراها من البحيرة عين متربصة .

ولكنه لم يكن معسكراً بالمعنى المألوف ، فلم تنصب خيام ، ولم توقد نار ، ولم يغل شاى أو يسخن طعام . كانت الأوامر قد صدرت بعدم إشعال النار ، حتى نتأكد من عدم وجود الهنود والفرنسيين . ولم يكن الرجال فى حاجة إلى تكرار هذا الإنذار .

وكانت الأوامر تقضى بأن يعسكر رجال كل زورق على حدة ، فتفرقنا فى سبعة عشر معسكراً صغيراً ، ولما كان التحرك إلى دورات المياه أو ينبوع الماء ممنوعاً بصورة قاطعة ، فقد التحف الرجال بأغطيتهم ، وجلسوا فى انتظار الطعام صامتين ، تحت رقابة الجاويشية والملازمين الواقفين للحراسة فوق الربوة .

وعند ما انسحب الفجر أمام طلائع النهار ، رأيت رفاقى

www.ibtesama.com

بالزورق رقم واحد ، وتبينت وجوههم بعد أن كانوا أشباحاً معتمة . وخيل إلى أنهم أزهد ما يكونون فى الرفقة والصحبة . ولم يبد أحدهم رغبة فى معرفتى ، ولما كنت بطبعى خجولا ، فقد اغتممت نفسى لسوء الحظ الذى رمانى فى هذه الزمرة .

كنا اثنى عشر رجلا غير روچرز وأوجدن وويليامز والجاويش . فجعلت أفحصهم بدقة : كان جاويش فصيلتنا ، ويدعى برادلى ، شاحب اللون ، فى وجهه مرارة ملحوظة ، ومن خصائصه أن يقف ساكناً متصلباً ، وهو ينقل نظراته بيننا ، كأنه يتحين الفرص ليضبط أحدنا متلبساً بمخالفة الأوامر .

وكان أحد رجال فصيلتنا زنجياً أبنوسى اللون ، فى شكله غموض غير مألوف ، وقد أحسست بهذا الغموض لأول وهلة ، رغم أننى لا أعرف عن الزنوج شيئاً ، والقليلون الذين عرفتهم فى حياتى يتشابهون فى المنظر والشكل . كان رافع الرأس لا يخفضه قط ، حتى ليخيل إليك أنه ينظر دائماً إلى أعلى ، وإذا تكلم ضحك ضحكاً خفيفاً ، كأنه يرى الدنيا ومن عليها فكاهة مسلية . كان بعضهم يسميه « پومپ » وبعضهم الآخر يسميه « الكرباج ».

وكان چيس بيتشام ، الذى يجلس بجانبى ، عجوزاً

www.ibtesama.com

مقوس الظهر أشيب الشعر ، تشيع فى وجهه تلك الروح الهادئة المطمئنة ، التى تراها فى الكلب حين ينام تحت أشعة الشمس الدافئة ، لا يبالى بضجيج الأطفال ومعاكستهم .

وكان نصف رجالنا أرلنديين ، ولكنهم كانوا يتكلمون بلهجة أهالى نيو إنجلند ، ولولا الأسماء التى كانوا ينادون بها بعضهم بعضاً ، مثل كيليان وفويل وهيلى وماكلوك ، ماأدركت حقيقة جنسيتهم . وكانوا قلقين لا يستقرون على حال ؛ تارة يتشاتمون ويتعاركون ، وتارة أخرى يتعاطفون بشكل يثير الاشمئزاز .

وكان معنا أومباشيان : ويبستر وكروفتون . الأول منهما نحيل الجسم حزين الوجه ، مهمته حراسة الروم وتوزيعه ؛ والثانى صغير الجسم سريع الحركة فى حيطة وحذر ، ومهمته حراسة الطعام وتوزيعه على الرجال . وكان نصيب كل زورق برميلا من الروم ، يأخذ الرجل منه ربع كوب مرتين فى اليوم طوال رحلة البحيرة ؛ أما الطعام فكان من البسكويت والشكولاته والزنجبيل و « السجق » البولونى . وبالإضافة إلى هذه المؤن ، كان الرجل منا يحمل كيساً جلدياً مليئاً بدقيق الذرة ، وهو غذاؤنا الوحيد عند ما نترك الزوارق ونبدأ المسير على الأقدام .

www.ibtesama.com

وانقبض صدرى بحنين مفاجىء للوطن . فقمت واقفاً ، ورحت أتطلع حولى باحثاً عن هنك أو ماكنوت ، ولكنى لم أر لهما أثراً بين عشرات الجنود الراقدين بين الأشجار والصخور .

وخيل إلى كأن الجالسين حولى من أهل عالم آخر ، فأحسست بالوحشة البالغة بين الوجوه الغريبة ، وازدادت تعاستى حين هجمت علىّ أسراب الناموس ، وانهالت على وجهى ويدى تلدغها بوحشية .

وعـــدت إلى الجلوس فى مكانى ، وكان چيس بيتشام يرقد بجوارى ساكناً يحملق فى الفضاء مثل كلب أبيض وديع ، قلت له :

— ألا تلدغك هذه الحشرات ؟

فرد بالإيجاب ، وكان فى لهجته المؤدبة ما يوحى بوجوب إنهاء الحديث عند هذا الحد ؛ ولكنى قلت مرة ثانية :

— وهل ترتدى شيئاً يحميك من لدغها ؟

فرد بالإيجاب ، ولم يغير لهجته المؤدبة القاطعة .

وعرفت فيما بعد أن چيس لا يجيب عادة بأكثر من « نعم» أو«لا» ، إلا إذا رتب فى ذهنه جملة أطول من هاتين الكلمتين ،

www.ibtesama.com

لأنه يتوخى الدقة فيما يقول . وهى صفة حميدة إذا لم يتغال المرء فيها ، ولكنى لم أكن فى تلك اللحظة أعرف شيئاً عن طباعه ، فهبطت لهجته الباردة حماستى ، ولعنت غفلتى التى قادتنى إلى الجيش .

وتبين لى ، رغم مظاهر عدم الاكتراث البادية على الرجال ، أنهم سمعوا سؤالى . فقد رفع كروفتون رأسه وهو راكع على ركبتيه يرتب الطعام ، وقال لجيس : أخبره عن خيوطك الصوفية ياجدّى . وأفهمه أن البعوض لا يلدغ من فوق الصوف .

وسرح چيس بصره فى الفضاء وقال فى لهجة الأسف : ولكن الخيوط الصوفية لا تمنع الحشرات .

ونهض أحد الأرلنديين وارتكز على كوعه وقال : طبعاً لا تمنع الحشرات ، ولكنها علاج ناجع لوجع الأسنان . ولا يمنع البعوض سوى التهام كوزين من الذرة النيئة يومياً ! أليس كذلك يا جدى ؟

فقال چيس : لا . . لا ... الصوف لا يفيد فى وجع الأسنان .

وأقبل علينا الجاويش برادلى بالطعام ، وبعد أن حلق حوله ، دار على الرجال يعطى كل واحد منهم قطعة من

www.ibtesama.com

البسكويت وأخرى من السجق . ومن خلفه سار ويستر ذو الوجه الحزين ، يسكب من آنية خشبية يحملها بعض الروم فى كئوسنا . وكان الرجل منا إذا أخذ نصيبه يرمق وبستر بنظرة كلها فضول ورهبة .

وعند ما وصل برادلى إلىّ ، قال فى حدة :

– من عادة چيس ، إذا كان الجو صحوا ، أن يدلك جسده بالصابون ولكنه يكره الكلام فى هذا الموضوع ، بسبب عدم استعماله للصابون إلا فى هذا الغرض ؛ أما فى الجو المطير فهو يدهن جسده بالزيت كالهنود .

ونظر إلى چيس وقال بلهجة أرق :

– أليس هذا ماتفعله ياجدى ؟

قال چيس وهو يضم ركبتيه بذراعيه : نعم .

وأطلق برادلى صوتاً من أنفه ، ثم ابتعد عنا يتبعهوبستر ، وقد علت وجهه أمارات التفكير العميق ، وعجبت حين رأيت چيس ينظر وراء وبستر فى حزن ظاهر ، وأخيراً التقت عيناى بعينى العجوز ، فسعل يجلو صوته ، وقال :

– لقد تسلم وبستر رسالة أمس تخطره بموت زوجته ، ولذلك تراه فى حالة غير طبيعية .

قلت : أمر مؤسف !

www.ibtesama.com

فأومأ چيس برأسه ، وقال : أجـــل . موت الزوجة ليس بالأمر الهين بعد عشرة طويلة .

ونهض الزنجى «كرباج» ووقف بجانبي ، ودون أن ينبس بكلمة ، قدم لى علبة نحاسية .

قلت أسأله : ماهذا ؟

وأجاب بأنها تحتوى على شحم الدب ، إذا دهنت به جسدى ، تنفر الحشرات منى ، لأنها تكره أن تتلوث أرجلها بالشحم .

فشكرته ، ودهنت وجهى ورقبتى بالشحم .

وبينما أنا مشغول بهذه المهمة ، قال «الكرباج» :

ــ ألا تذكرنى ؟ إنى من أسرة هويپل بميناء بريڤپوت ، اسمى پومپ هويپل .

وكانت ميناء بريڤپوت جزءاً من مدينة كيتارى ، تقع شرق منزلنا ، فقلت :

ــ أأنت أحد الرجال الذين أتى بهم اليوزباشى هويپل من أفريقيا ؟

وكان اليوزباشى هويپل مواطناً محترماً فى منطقتنا ؛ جمع ثروة كبيرة فى شبابه من تجارة الرقيق الأسود .

وأومأ پومپ برأسه ، وجعل يقص على كيف كان يرانى

www.ibtesama.com

فى كيتارى وأنا بعد صغير يافع . وكان ذلك قبل أن يهرب من الرق ، وينضم إلى الجنود .

ومال كروفتون إلى الأمام وقال وهو يهز يده بما تبقى من قطعة « السجق » :

– كيتارى ؟ ولكنك لا تتكلم بلهجة أهل كيتارى ... إنى شخصياً من ايپنج ، فمن أين لك هذه اللهجة الإنجليزية التى تتحدث بها ؟

فأجبته بأننى لا أعلم ، ولا بأنى أتحدث كالإنجليز .

وأقبل الحاويش برادلى ، وحملق فى كروفتون ، وقال بمرارته المعهودة : هكذا أنتم يا أهل ايپنج ، تعتبرون الرجل غريباً عنكم إلا إذا تحدث وكأن فأراً يسد مسالك أنفه .

والتفت إلىّ يقول : غريب أننى لم أرك من قبل ، فقد نشأت وترعرعت فى بورتسماوث .

فأخبرته بأنى فى السنوات الأخيرة كنت أدرس بالجامعة بعيداً عن بورتسماوث :

فقال غير مصدق : الجامعة ؟... الجامعة ؟

فلما عرف بأنها هارڤارد صاح فى عجب يقول : هارڤارد! هذا إذن هو السبب فى ضيق كروفتون بلهجتك ، فأعلم من

www.ibtesama.com

عرفهم فى حياته رجل من ايينج . كان يريد أن يدرس الكسور الاعتيادية .

ونظر إلىّ فى تأمل : وقال :

— ماذا رماك وسط المتطوعين . مادمت ذا أسرة وعلم ؟

قلت : اضطررت إلى ذلك بسبب رجل لا بد تعرفه إذا كنت من أهالى بورتسماوث .

قال فى اهتمام واضح : حقاً ؟ . ومن يكون ذلك الرجل ؟

قلت : وايزمان كلاجيت .

وظل وجه الحاويش جامداً ، ولكنه التفت بنظراته الحزينة نحو چيس بتشام الأشيب ، فى حين ضحك پومپ هويپل فى عصبية ملحوظة .

وسكت برادلى قليلا ثم قال :

— عظيم ولكنى لم أكن أتوقع فى يوم من الأيام أن يلتحق بفرقة المتطوعين أحد أصدقاء وايزمان كلاجيت .

قلت : ولكنى لست صديقه بالمعنى المفهوم .

ورحت أقص عليه ما حدث فى حانة ستودلى ، حين أهنت المحافظ كلاجيت والعمدة پاكر . وكيف أنقذنى كاپ هوف وهنك مارينار من قبضته . وساعدانى على الفرار .

www.ibtesama.com

وتزاحم الزملاء حولى يسمعون القصة ، وكان پومپ هوپيل يدحرج مقلتيه إلى أعلى وهو يضحك فى سرور وغبطة ، كلما وصلت إلى نقطة حرجة من قصتى .

وظل برادلى طول الوقت يمص شظية من خشب الصنوبر ، فلما انتهيت من حديثى قال بلا اكتراث :

— يستحسن أن تصحب عدداً منا عند عودتك لبلدك ، حتى إذا حاول كلاجيت أن يضايقك . هـدمنا بيته على رأسه جزاء ما فعل .

وهمهم الرفاق مؤمنين على هذا الاقتراح . فأحسست فى تلك اللحظة الخاطفة ، بأنى أخطأت كثيراً حين ظننت هؤلاء الرجال رعاعاً سفلة ، لأنهم فى الحقيقة ، أكرم وأفضل من قابلت فى حياتى ، ومن حسن حظى أن ساقتنى المقادير فى طريق هذه الجماعة الطيبة الذكية .

وتعالى صوت أجش ينادى الحاويش برادلى من بعيـــد ، فأسرع صديقى الحديد يلبى النداء ، ثم عاد إلينا يقول فى عجلة :

— تاون . إن الصاغ يطلبك .

www.ibtesama.com

الفصل السابع عشر

عند ما رأيت روچرز لأول مرة في اليوم السابق ، خيل إلى أنه من أقبح الرجال شكلا بشفتيه الغليظتين وأنفه الشحيم الطويل وجفنيه المنتفختين المتهدلتين ؛ أما اليوم فقد عرف كيف يحجب دمامته ، ويخفيها عن الأنظار تحت ستار من النشاط الهائل ، الذى ينبعث من ذهنه وبدنه على السواء .

كان فى حركة دائمة تارة يسير بين الرجال محدقاً فاحصاً ، كأنه يدرس أحوالهم الصحية والمعنوية ، وتارة يسرح النظر نحو شجرة الصوبر الطويلة فى تأمل عميق ؛ ومرة يمعن فى البرية المنبسطة حوله حتى لتظن أنه يبحث عن علامات فيها ، ومرة ثانية يضرب الثرى بعقب حذائه كأنه يفحص معدنها . وأحياناً يدور فى حلقات وهو يتمتم بشفتيه ، مثلما يفعل التلميذ حين يستذكر دروسه ، أو يسترق نظرات خاطفة مدققة إلى وجوه الرجال المحيطين به .

وعند ما صعدت الربوة لأقابله ، كان يسير فى دائرة حول شجرة باسقة ، واليوزباشى أوجدن يجلس على مقربة منه فى صحبة اليوزباشى الوسيم الأشقر ويليامز وزملائه ضباط الفرقة الملكية ؛ أما بقية الضباط فكانوا يرقدون على الأرض

www.ibtesama.com

بين أكداس الحقائب والعتاد متدثرين بأغطيتهم السميكة .

وكانت الشمس قد ارتفعت فى السماء ، فظهرت البحيرة وقد اكتست مياهها الزرقاء الباهتة بغلالة ضباب الصبح الخفيف . وأرسل روچرز بصره نحو البحيرة ، وبعد ذلك رفع وجهه ناظراً إلى أعلى ، ثم أطلق صفيراً حاداً وقال :

— أترى شيئاً ؟

وأجاب بالنفى صوت مبحوح جاءنا من أعلى الشجرة ، فرفعت عينى نحو مصدره ، وعندئذ رأيت كونكاپوت رابضاً بين الغصون .

وانحنى روچرز على حقيبته ينقب فيها ، ثم أخرج كراسة ، وقال وهو يقدمها لى : خذ هذه المذكرة ، ودوّن فيها أسماء الرجال الذين أوفدهم فى مختلف المهمات ، واكتب الأسماء والجهات بمنتهى الدقة ، وسجل مواعيد عودتهم إذا قدر لهم أن يعودوا ؛ وكذلك الأماكن التى نتوقف فيها . وإلى جانب هذا أريد منك أن ترسم خريطة لخط سير الحملة ؛ ونحن الآن فى خليج بترفيلد ، وفى نيتى أن نصل الليلة إلى ما بعد نهر أوتر ، وقد نبلغ منطقة سيليت روك .

قال اليوزباشى ويليامز يسأله فى أدب :

— سپليت روك ؟

www.ibtesama.com

قال روچرز — باسما : أظنك تفضل أن نذهب إلى أبعد من ذلك ، إلى وينوسكى مثلا ؟

فقال اليوزباشى بلهجة الاعتذار : أمامنا رحلة طويلة جداً ، وسپليت روك على بعد عشرة أميال فقط ، أليس كذلك ؟

قال روچرز : نعم . هذا بعدها ، ولكن التأنى خير من العجلة ، ولأن نقرر المسير عشرة أميال ونسيرها فعلا . أفضل كثيراً من ثلاثين ميلا لانصل إليها أبداً .

ولم يجب ويليامز بكلمة ، فقال روچرز يستكمل حديثه فى تأن وتؤدة : أينما ذهبت يقفز لى الفرنسيون فجأة مثل الضفادع ، وكذلك الأمر فى الهنود .

ثم ضحك قائلا : يظهر أن فىّ قوة تجتذبهم إلىّ ، على الرغم مما بيننا من حب مفقود ، ولكنا سنكون على حذر فنخدعهم ، وسترى بعينيك ما نفعل عند ما ينقشع الضباب .

وسقطت إحدى ثمار الصنوبر بهدوء على مقربة من روچرز فنظر إلى أعلى مستطلعاً ، وسمعت كونكاپوت يقول فى وجوم :

— ستة رجال فى زورق !

www.ibtesama.com

ونظرنا من بين الأشجار إلى شاطئ نيويورك . ولكن غلالة الضباب حجبت الرؤية عن أنظارنا .

وأقبل أحد الحراس يصعد الربوة جرياً ، وقال :

— زورقان تتوسطهما سفينة ، وثالث يقوم باستكشاف الشاطئ . السفينة عامرة بالفرنسيين ، فيها خمسة عشر رجلا ، وبكل زورق ستة هنود .

سأله روچرز : وأين تسير هذه الزوارق ، وكم تبعد عنا ؟

قال : عند رأس الخليج ، على مرمى رصاصة من الشاطئ

قال روچرز : نادِ اليوزباشي چاكوبز ، فسوف أستخدم هنوده مع الماهوك أيضاً .

وكان اليوزباشي چاكوبز قائد هنود ستوكبريدج ، دميم الشكل كالعفريت المخيف : نصفه الأعلى مطلى باللون الأسود ، ونصف وجهه الأسفل بالأبيض ، وعلى صدره نقشت شارة ضابط باللون الأصفر ، وكان حليق الرأس إلا من ضفيرة فى الوسط ، ربطها بجلد حية من ذوات الأجراس ، فبرزت إلى ارتفاع ست بوصات ، ومن حولها نفش الشعر المزين بذيول الثعابين ، فبدت الضفيرة مثل فرشاة بغيضة رهيبة .

ورأيت روچرز يتخذ مع الضابط الهندى صبغة الرجل العسكرى الكامل ، ويكلمه بلهجة رسمية أكثر مما اعتاد مع

www.ibtesama.com

غيره : فبعد أن بادله التحية العسكرية وافية ، لم يقتصر على مناداته باسمه ورتبته . إنما أضاف إلى ذلك اسم الأسرة أيضاً ، وهو أخي نوايا آمپيتى أونك ، متمثلا بالهنود عند ما ينادى بعضهم بعضاً ؛ أما چاكوبز فقد كان اسمه الأول . أو الاسم المتمدين الذى يطلقه على نفسه .

وكانت أوامر روچرز تقضى بوجوب سير هنود ستوكبريدج فى أثر الزوارق والسفينة ، لإعداد تقرير كامل عن حركاتها ؛ أما الماهوك فيتجهون شمالا مع نهر أوتر ، للبحث عن الموقع الذى عسكر فيه الأعداء الليلة الماضية .

وبعد أن أصدر روچرز أوامره هذه ، أمسك بشفته السفلى يشدها . وهو ينقل البصر من زوارقه المختفية بين أشجار الخليج ، إلى البحيرة الواسعة ، التى ما زالت تبدو خالية من الأعداء ؛ ثم التفت إلى اليوزباشى أوجدن يقول : ضع عشرين من رجالك بين الحشائش بالقرب من الزوارق ، فإذا اكتشف الأعداء وجودها ، واتجهوا نحوها ، أطلقوا عليهم الرصاص بحيث تبيدونهم عن آخرهم . لا تدعوا واحداً منهم يفلت من الموت بأى ثمن كان . أما إذا لم يكتشفوا القوارب ، فدعوهم يمضون فى طريقهم بسلام .

ونقل أوجدن الأوامر إلى الجاويش برادلى ، ثم اتجه إلى

www.ibtesama.com

الربوة ينادى الجند بأسمائهم : بيتشام ، فويل ، بينيت ، رايس ، ماكرو ، مورفى ، ثيتشر ....

وعندئذ رأيت الجند ينسلون نحو الزوارق بحذر ، وأوجدن يشير على كل منهم بالموقع المناسب لاختفائه .

وعاد روچرز إلى مكانه بين ضباطه . وكانوا قد حزموا أمتعتهم ، وحملوا بنادقهم قال :

— اذهبوا إلى رجالكم ، وابقوا معهم حتى نتبين هدف الأعداء ، مروهم بأن يأخذوا قسطاً وافراً من النوم والراحة ، على أن يلزموا منتهى الهدوء والسكون . فلا كلمة ولا حركة حتى تنجلى الأمور .

وأسرع الضباط إلى تنفيذ الأوامر ، وانصرفوا فلم يبق على الربوة سوانا ، أنا وروچرز ، وأقبل هنود ستوكبريدچ عراة إلا من أحذيتهم الطويلة ، وسراويلهم المربوطة تحت ركبهم ، ثم صعدوا الربوة ، ووقفوا يفحصون سطح البحيرة الهادئ الأزرق ، وكان طلاؤهم الأبيض والأسود يجعلهم أقرب شبها إلى الأشباح ، فاللون الأسود يخفى نصفهم على الأقل ، ولا بد للعين من أن تدقق ، لترى الجسم كاملا .

وأخذت بمنظرهم الساحر ، فعكفت على كراستى أرسمهم ،

www.ibtesama.com

ولكنى لم ألبث أن تركت الورق والقلم حين أشار واحد منهم بيده نحو البحيرة ، وزمجر آخر بصوت غير مفهوم .

وأدرت رأسى إلى حيث يشيرون ، فشاهدت زورقاً ينزلق فوق صفحة الماء ، وراء اللسان الممتد فى البحيرة .

قال روچرز : هاهم أولاء قادمون .

ولم يكن الزورق كبيراً كذلك النوع المسمى « بزوارق الرياسة » ، وكان فيه ستة رجال تلمع أجسامهم تحت شمس الصباح مثلما يلمع الخزف المصقول فى النور : رجل فى المقدمة ، وآخر عنـــد الدفة ، وأربعة يجذفون . وكانت وجوههم مطلية بالأخضر والأصفر ، وأجسامهم ملونة بالأبيض والأسود .

وعند ما استدار الزورق فى منحن واسع ، على بعد خمسين ياردة من شاطئ الخليج استطعنا أن نتبين رءوسهم الحليقة ، وأجسامهم المتمايلة ، ووجوههم المطلية وفى وسطها عيون بيضاء تدقق النظر فى قمم الأشجار ، بحثاً عن دخان يتصاعد من معسكر خفى .

وتلفتُّ أبحث عن هنود ستوكبريدج ، لأرى كيف يلقون هؤلاء الدخلاء ولكنى لم أهتد إلى أثر لهم ؛ وبدت الربوة كأنها قد خلت من كل حياة آدمية ، لا حركة فيها ولا صوت .

www.ibtesama.com

وحتى فصائل الجنود المنتشرة تحت الربوة ، ذابت من الوجود ، ولم يبق لها أثر فقدالتف المتطوعون فى بطانياتهم الخضراء ، وقبعوا فى أماكنهم بلا حراك ، كأنهم صخور أو جذوع أشجار ، غلفتها الطحالب والأعشاب .

وانزلقالزورقسائراً حول الخليج ، ثم ظهرت وراءه سفينة تمخر وسط البحيرة فى بطء ، متجهة نحوكراون پوينت ، كان ملاحوها يرتدون ملابس من جلد الغزال ، أما الواقفان عند المقدمة والدفة ، فكانا فرنسيين فى زى أبيض . ولم أكن قد رأيت فرنسيين من قبل ، فخيل إلى وأنا أنظر إلى هذين الضابطين من بعد ، كأنهما دميتان مما يلهو به الأطفال فى لعبة الحرب .

ولم أشعر فى تلك اللحظة بخطر الفرنسيين المميت ، ولا تذكرت أنهم يحاربون أهل بلادى ، ويفتكون بمزارعيها خمسة أعوام طويلة ، ولا بما فعله هنودهم منذ عامين ، حين أغاروا على الضياع والمحلات قرب قلعة ويليام هنرى ، وذبحوا النساء والأطفال ، ومثلوا بالرجال ... نسيت كل هذا ، ونسيت أيضاً آلاف الرجال الذين قتلوهم منذ عام فى تيكونديروجا .

كنت مأخوذاً فقط بمنظرهم الساحر ، فظللت أنظر

www.ibtesama.com

وأنظر ، حتى غاب الزورق والسفينة وراء الشاطئ الجنوبى لخليج باتونمولد ، وعندئذ وجدت الحياة تدب من جديد فوق الربوة ، بعد أن غفلت عين العدو عنا ؛ وتراخى التوتر السائد ، وعاد الرجال إلى متاعهم وعتادهم ينظمونه ، أو ينشغلون عنه بمناقشات طويلة حامية . وآثر بعضهم أن ينشر أغطيته على الأرض ، ويجلس عليها يتسلى بالمقامرة ، فكنت ترى المقامرين فى مرح ما بعده مرح : يبللون أطراف أصابعهم بريقهم ، ثم يسحبون الورقة ، ويلقونها على الأرض بمنتهى القوة والحماسة . أما باقى الرجال ، فقد التف بأغطيته ، مثلما يلتف الدود بشرانقه . ثم توسد الأرض يطلب نصيبه من النوم والراحة .

ولم تسنح لى فرصة النوم حتى الظهيرة ، فبالرغم مما كنت أشعر به من نعاس شديد ، اختار روچرز أن يبقينى معه وقتاً طويلا ، تأتى لى فيه أن أتعلم كثيراً عن رجال الحملة الذين انخرطت فى سلكهم ؛ فقد كان معظمهم ضباطاً أو جنوداً متطوعين بصفة دائمة ، أما الأقلية فمن رجال القائد آمهرست ، الذين أحسن تدريبهم على طريقة المتطوعين ، ثم كلفوا بمعونة روچرز لمدة مؤقتة .

وعلمت من روچرز أن القائد آمهرست يعتبر فرقة

www.ibtesama.com

المتطوعين أفضل مدرسة يتدرب فيها الممتازون من ضباطه وجنوده على حرب الغابات ، لذلك كان يبعث بهم إليها لفترات متفاوتة يستعيدهم بعدها ليدربوا جنوده على فنون الكر والفر تمهيداً للانتفاع بهم فى الحملات القادمة . وعرفت أيضاً أن اليوزباشى ويليامز جاء من الفرقة الملكية ، واليوزباشى دانبار من فرقة جيدج للمشاة الخفيفة ، واليوزباشى بترويرث من جيش المقاطعات ، والصول آمرى من فيلق فيتش ، وأن ربع الجند مختارون من الفيالق الإنجليزية التى لم تتعلم سوى الأساليب التقليدية للقتال فى الساحات المفتوحة . تلك الأساليب التى تعتبر انتحاراً أكيداً إذا استعملت مع الفرنسيين وحلفائهم الهنود .

وكان هنود ستوكبريدج متطوعين بالمثل ، أما الماهوك فقد بعث بهم سير ويليام چونسون حاكم الشمال إلى القائد آمهرست ، ولكن هذا الأخير لم يلبث أن ضاق بهم ، فأحالهم على روچرز عساه يستفيد بهم فى مهمة الكشف . وكانت لهجة روچرز حين يذكرهم فى حديثه لا توحى برضاه عنهم ، ولا تنم عن تحمسه لوجودهم فى جيشه .

وكنت أزداد إعجاباً بروچرز لحظة بعد لحظة ؛ فلقد كان الرجل معجزة فى النشاط ، لا يعرف التعب ولا يعترف به ،

www.ibtesama.com

ولم أره مرة إلا فى حركة دائمة . يدور بكل ركن فى المعسكر باحثاً منقباً . دارساً مراقباً . وحتى حين يتسلى رجاله بلعبة الورق . لم يكن يتركهم فى سلام ، إنما يقف أمامهم يتتبع أساليبهم باهتمام .

وأدهشنى أنه لا يفرق كثيراً فى معاملته بين الجنود والضباط وقد رأيته ذات مرة وهو يرقب جماعة تقطع الوقت بلعب النرد . فما كان منه إلا أن أخرج من جيبه « شلنا » راهنهم به . وأقبل عليه الحظ . فإذا بالشلن يصبح اثنين فأربعة ، وعندئذ تحداه الرجال دون تهيب . وطالبوه أن يمضى فى اللعب إلى آخره . ولكنه اعتذر بجهله فى أصول المقامرة ، وانصرف بمكسبه ضاحكاً بين صيحات الغيظ والاحتجاج .

والحق أننى أعجبت بأسلوبه فى معاملة رجاله ببساطة وأخوة وتواضع لم أر لها مثيلا من قبل . فأنا وإن كنت حديث العهد بحياة الجيوش . غير أننى سكنت ذات مرة بجوار معسكر بريطانى . وشاهدت بعينى كيف يؤثر الضابط الإنجليزى الموت ألف مرة على رفع الكلفة مع رجاله ، أو التبسط فى معاملتهم .

وحدث مرتين أن انفرد بى روچرز . فإذا به يعود بنا إلى سابق حديثنا فى كراون پوينت . ويسألنى عما قرأت فى

www.ibtesama.com

كتاب اليوزباشى ميدلتون عن رحلة الممر الشمالى الغربى ؛ وكلما أجبته بما أعرف ازداد تدقيقاً فى الاستفسار ، كأنه يعتبر قصة الممر أهم موضوع فى الدنيا .

وكانت الأسئلة التى تجول بخاطره فى دقيقة واحدة ، أضعاف ما يجول بخاطرى فى أسبوع كامل ، وكان يريد أن يعرف ما دعا دوبس إلى الاهتمام بالممر الشمالى الغربى ، وكيف تأكد من وجوده ، ولماذا أنكر ميدلتون الحقيقة ، وهل ورد فى الكتاب ذكر محاولات أخرى فى هذا الصدد ؟؟ ثم من هم أولئك الأسپان الذين حالوا كشفه ، وما أسماء المناطق الهندية التى أشار إليها دوبس فى كتابه ، وهل ورد فى كلامه تقدير لنفقات الرحلة وتكاليفها ؟؟

وهكذا انهال على بأسئلته الدقيقة ، فكنت أجيب على ما أعرف فقط ، ومن ذلك مسألة النفقات ، ، التى ما زلت أذكر أن دوبس تحدث بضخامتها ، وأكد أنه أعلن عن مكافأة قدرها عشرون ألفاً من الجنيهات ، لمن يستطيع اكتشاف الممر من كبار ضباط البحرية .

وصفر روچرز دهشة ، وقال يحدث نفسه فى صوت خافت : عشرون ألف جنيه ... عشرون ألفاً ! !

ولم أفلح فى قراءة أفكاره ، فلقد كانت ابتسامته خليطاً

www.ibtesama.com

من التعبيرات المتناقضة ، فيها الاهتمام والاعتذار والعطف والحيرة وانشغال البال .

وأخيراً تركنى لحالى .

كان قد مضى علىّ أربع وعشرون ساعة منذ وقعت عيناى لأول مرة على كراون بوينت وجيش المتطوعين ، ومع أنها فترة قصيرة ، غير أننى لطول ما سرت مع هنك ، أصبحت أشعر كأننى قضيت فى الجيش حياة طويلة لم أنل خلالها قسطاً من الراحة أو الهدوء .

** معرفتي **
www.ibtesama.com
منتديات مجلة الإبتسامة

www.ibtesama.com

الفصل الثامن عشر

تركنا خليج باتوفيلد فى ليلة ذلك اليوم ، وجذفنا عشرة أميال كاملة ، حتى وصلنا إلى نهر أوتر ؛ ورغم قصر هذه المرحلة ، فقد صادفنا من المتاعب ما كاد يورثنا الفشل، ويحرمنى من صديقى الوحيدين فى الحملة ؛ ولكن هذه المتاعب عرفتنى قيمة المتطوعين ، وكشفت لى مدى قدرتهم على تحمل المشاق والمصاعب .

فقد أقبل الماهوك قرب الغروب ينبئوننا بأنهم لم يعثروا على معسكر الفرنسيين الذين رأيناهم فى السفينة ، وجاء هذا التقرير على غير ما يشتهى روچرز ، فقال يشكو الأمر لويليامز :

— ياللعنة ! لا بد أن يكون هؤلاء الفرنسيون قد عسكروا فى مكان ما ، ولو كنت مكانهم ما اخترت غير نهر أوتر . لقد مروا بنا فى الصباح المبكر . وهو وقت يتناسب تماماً مع قيامهم من معسكرهم عند الفجر ، وليس من المعقول أنهم جذفوا بالليل . انما الأرجح أن مبعوثينا الماهوك لم يؤدوا واجبهم الذى كلفناهم به ، وكل ما عملوه أن ابتعدوا عن هذه المنطقة قليلا ، ثم ناموا طول النهار ملء جفونهم .. والله

www.ibtesama.com

ما اطمأنت نفسي مرة إلى أمر يتدخل فيه سير وليام چونسون ، ولقد كان هو الذى أرسل أولئك الماهوك إلى الجنرال آمهرست .

وأجاب اليوزباشي أوجدن بأن الماهوك لا يختلفون عن غيرهم من الهنود فى عمليات الاستكشاف ، ومثلهم مثل هنود ستوكبريدچ . فقال له روچرز وهو يحملق فيه : قد يكون ذلك ، ولكنهم تدربوا مع چونسون على نظام جيوش البيض ، وجونسون ، كما تعرف ، أجهل ما يكون فى شئون النظام وأساليب الحرب ؛ أما هنود ستوكبريدچ فقد تدربوا معى لمدة ثلاث سنوات ، وأصبحوا على خبرة وتجربة ، ولو ترك القائد لى الخيار فى أمر ماهوك جونسون هؤلاء ، ما قبلتهم قط ، فهم مصيبة كبيرة شأنهم شأن الجيش النظامى سواء بسواء .

وعند الغسق ، عاد اليوزباشي چاكوبز مع هنود ستوكبريدچ ، وأخبرنا أن الفرنسيين والهنود عسكروا فى مكان مستور بالقرب من كراون پوينت . وفكر روچرز ملياً ثم هز رأسه ، وأمر بإخراج الزوارق من مخابئها ، وتعويمها مع لف المجاذيف بالقماش . وعند ما استقل رجالنا الزوارق ، مر عليهم بنفسه يأمرهم واحداً بعد واحد باتباع الصمت والتزام السكون ، ويحذرهم من الكلام مهما كانت الظروف . وعاد يكرر

www.ibtesama.com

لهم الإشارات المتفق عليها : فعواء ذئب مرتين معناه الوقوف ، والعواء مرة واحدة علامة السير إلى الأمام .

وكان الليل قرا بارداً ، فتصلبت عضلات رقبتى ،وشعرت كأنها تحولت إلى قطعة من الخشب . وكان الضباب الكثيف المنخفض يتخلل ملابسنا إلى أجسامنا فيوجعها بقرصاته . وكان روچرز يقف عند مؤخرة الزورق يشم اتجاهات الهواء كما يفعل حيوان الغاب ؛ وبين آن وآخر يطلق عقيرته بعواء مفزع تردده الأجواء مخيفاً عالياً . ولزمنا الصمت طول الطريق ، وخيمنا سكون شامل ، لم يكن يعكره سوى شهيق روچرز وهو يشم الهواء مثل دب حريص ، يبحث عن مصدر الخطر الذى يحس به .

ووصلنا إلى مصب نهر أوتر الرقراق بعد أربعة أميال من التجذيف المستمر ، وعند ذاك استبانت لنا فائدة شم الهواء ، فقد أطلق روچرز عواءه المعروف مرتين ، فوقفنا فى مكاننا . وبقينا طويلا ونحن فى صمت مطبق ، أشاع فى أجسادنا ارتجاف الخوف ، حتى خيل إلى أننا لفرط هذا الارتجاف نهز القوارب التى نجلس فيها . وكان السكون شاملا ، إلا من تغريد طير صغير يحلق أمامنا متجها إلى الجنوب ؛ ولكن ، يبدو أن روچرز كان يشعر بشىء ما ؛

www.ibtesama.com

إذ ظل يميل من جانب إلى جانب ، وهو يتشمم الهواء : مرة يزفر كأنما ينظف رئتيه استعداداً لاستقبال الرائحة التى يبحث عنها ،ومرة يشهق بكل ما فى خياشيمه من قوة ونشاط .

ولا شك أن تصرفاته هذه لم تكن مجرد محاولة للبحث عن رائحة ، إنما كانت حاسة سادسة يتمتع بها دوننا جميعاً ، فحينما بدأت أضيق بالانتظار ، وأعتقد أن وقوفنا لن ينتهى أبداً ، طرق أسماعنا صوت خافت يقبل من وسط الضباب الرابض أمامنا . كان صوتاً مألوفاً كثيراً ما سمعت مثله فى ميناء بورتسماوث ، عند ما يدفع المد الزوارق والسفن أمامه . وجلس روچرز فى مؤخرة الزورق ، وسمعته يقول لليوزباشى ويليامز هامساً :

— هاهم أولاء الفرنسيون يرسون زوارقهم عندمصب النهر .

وهمس ويليامز يقول : نستطيع أن ندور حولهم .

فقال روچرز بهدوء : ما دمنا نجهل عددهم ، فالأفضل أن نهرب منهم ، وأسلم وسيلة لذلك أن نسبقهم إلى مكان يتعذر عليهم الوصول إليه .

وأصدر أوامره همساً فتقهقرت الزوارق السبعة عشر إلى الوراء ، كأنها شبح وحش جبار ، ثم عادت فاتجهت شرقاً إلى خليج ضحل ، بلغ انخفاض المياه فيه أن كانت مجاذيفنا

www.ibtesama.com

تحتك بالأرض أثناء تحركها . وظل الماء يقل تحتنا باطراد حتى اضطررنا إلى ترك زوارقنا وهى لم تزل بعيدة عن الشاطئ بمسافة مذكورة . ثم سحبناها وجررناها فوق الطين الزلق والنباتات المائية . وكان المنظر أقرب إلى الحلم منه إلى الحقيقة : كنا نحو مائتى رجل ، وكانت الظروف تلزمنا بجر زوارقنا عبر الطين الزلق بلا أدنى صوت أو حركة أو ارتطام بالماء أو احتكاك من أى نوع كان ، حتى يتسنى لنا الوصول سالمين إلى الشاطئ حيث ملايين الباعوض المتلهف لامتصاص دمائنا .

وتدثرنا بالأغطية لنحمى أنفسنا بقدر ما يمكن من شر تلك الحشرات النهمة الفتاكة ؛ وعند ما أقبل الفجر قمنا نحمل الزوارق إلى الشاطئ .

كان مصب نهر أوتر غريب الشكل ، فالغرين الذى ظل مئات السنين يأتى من شرقى تلال شامپلين تجمع فى تلك البقعة ، وبنى فى وسط المصب شريطاً من الأرض ، يمتد نحو ميـــل فى قلب البحيرة ، وكان هذا الشريط الأرضى يقسم الخليج إلى خليجين ، تكتنفهما مياه النهر من الجانبين ، مما يجعل البقعة كلها مثل فكى حيوان هائل ، يمد لسانه الطويل فى البحيرة ، بغية التهام الجزيرة التى تقع على بعد ثلاثة أميال .

www.ibtesama.com

كان الخليجان المتجاوران غير متماثلين . فالشمالى منهما عميق تسهل فيه الملاحة،والجنوبى ضحل لا يصلح إلا لأصغر المراكب ، لذلك سحبنا زوارقنا فيه ثم حملناها عبر اللسان الفاصل إلى الجانب العميق ، بعيداً عن معسكر الفرنسيين .

وبعد ساعة من الجهد الشاق ، والغوص فى الوحول ، استطعنا رغم وحشية الباعوض أن نصل إلى الجانب الشمالى العميق ، وهناك أخفينا زوارقنا تحت أكوام من الأغصان والفروع ؛ ثم ألقينا بأجسادنا المكدودة على سفح التل ، ونحن نلهث تعباً ونتميز غضباً ، وصعد روچرز والملازم تيرنر والصول أفرى إلى القمة ، على أمل أن يكتشفوا مزيداً من أمر الفرنسيين .

قلت إننا ألقينا بأجسادنا على الأرض ونحن نلهث تعباً ونتميز غضباً ؛ ولكن هذه الكلمات لا يمكن أن تعبر عن بعض ماكنا نشعر به من حنق بالغ على الماهوك ، أولئك الخيابى الذين أرسلناهم للكشف ، فضللونا بمعلوماتهم الكاذبة .. ولقد كان للظروف العصيبة التى أحاطت بنا دور فى ازدياد ثورتنا عليهم ، ولعل أعصابنا تضاعف توترها بطول الصمت وشدة الجهد وعذاب الناموس .. ! فلما بلغنا الشاطئ ،

www.ibtesama.com

واستقر أمرنا على أرضه ، جلسنا وفى قلوبنا مراجل من الغضب لا يهدأ لها أوار . وبقينا على هذه الحال حتى عاد روچرز ينبئنا بوجود ثلاث سفن فرنسية عند مصب النهر ، وعندئذ انهلنا على الهنود وسيدهم سير ويليام چونسون بما لا يصح أن أسجله من أقبح الشتائم وأقذع النعوت .

وكانت سفينة واحدة تكفى لفضح أمرنا ، أما وهى ثلاث سفن على طول المصب ، فمأزق يعتبر الهرب منه معجزة ؛ ولولا روچرز بحزمه الفذ ومهارته الفائقة ، ما استطعنا النجاة وما بقى واحد منا على قيد الحياة .

وظل الرجال يلعنون الماهوك بصراحة ومرارة ، وينعتونهم مرة بالشياطين الحمر ، وثانية بالحيوانات النتنة ، وثالثة بما لا يصح ذكره من الكلمات . ولم يكن بين رجال المعسكر أحد هادئ سوى الماهوك أنفسهم ، إذ جلسوا فى ملكوت كأنهم لا يشعرون بما يعتمل فى صدورنا من حقد عليهم . وازددنا بذلك غيظاً منهم ، ونفرنا مبتعدين عنهم ، مثلما ينفر الإنسان من الحيات السامة ، ولكنهم لم يبالوا ، إنما انتحوا جانباً عند حافة الماء ، وجلوا مثل الثعالب المسلوخة يرسمون على أجسادهم خطوطاً حمراء على الطلاء الأسود السابق .

وسار روچرز على حافة التل ، ليرتب أمر حراسة المعسكر

www.ibtesama.com

ويطمئن على ســلامة الزوارق فى مخبئها . وكانت تجربة الليلة الماضية علمتنى أن أبقى دائماً على مقربة منه ، دون أن أقف فى طريقه ، أو أعرقل أعماله ؛ فلما انتهى من عرض فصيلتى تيرنر وآفرى ، ثم فتش على هنود ستوكبريدج ، وتأكد من تمام استعدادهم لمجابهة الموقف ، أبقى اليوزباشى چاكوبز معه ، ثم أمر الباقين بالانضمام إلى تيرنر وآفرى فى حراسة منطقة المصب . أما الملازم الهندى سولومون فقد كلفه روچرز بتنبيه تيرنر إلى وجوب مراقبة المنحدرات ، بمجرد انتظام الحال فى المعسكر ، وبعد ذلك سار ونحن من خلفه إلى حيث تجمع الرجال عند شمال التل . وهناك وقف تحت شجرة عالية وقال لچاكوبز :

ـ أريدك الآن أن تستدعى لى الماهوك ، فلقد تفشت فيهم الفوضى ، ولا بد من علاج الأمر على وجه السرعة .

www.ibtesama.com

الفصل التاسع عشر

وقف الماهوك أمام روچرز يحملقون فيه بغباء شديد ينبعث من عيونهم التى لا تختلف فى سوادها عن اللون الذى طلوا به وجوههم ... كانوا ثلاثة عشر رجلا ، يشبهون الأفاعى أكثر من البشر : ضفائرهم المدلاة من قمة رءوسهم الحليقة ، تزيد منظر جماجمهم فرطحة على فرطحة . ووجوههم المخططة بالأحمر فوق الأسود تجعلهم على بشاعة فوق الوصف وكانوا جميعاً يأتزرون بملاءات مثبتة حول خصورهم ، ومنسدلة على أرجلهم ومن فوق هذه المآزر برزت أجسامهم المصبوغة بالسناج منتصبة نحيلة . وكان من الواضح أنهم يضمرون الغضب والحقد إلى أبعد حد .

ووقف روچرز يحدق فيهم ، ثم أرسل بصره إلى الضباط الجالسين حول الربوة ، ومن بعدهم تطلع إلى جماعات المتطوعين الذين يتناولون إفطارهم . وكانت العيون جميعها مركزة على الماهوك ، والسكون الرهيب يسود أفراد الحملة دون استثناء ، قال بصوته الغليظ فى لهجة لا تخلو من العطف :

— إن العالم كله يعرف إخواننا الماهوك محاربين رهيبين ، وقد جاءوا من بلادهم البعيدة بوادى الماهوك ، بعد رحلة

www.ibtesama.com

طويلة شاقة ، ليحملوا السلاح فى خدمة أبيهم الملك العظيم ثقة ببطولتهم المفزعة فى القتال ، أمر الملك العظيم بلسان قائده المحنك القائد آمهرست . أن ينضموا إلينا عيوناً وآذاناً ضد أعدائنا الفرنسيين . أما وقد حدث منهم ما حدث ، فهل لى أن أسأل أصدقاءنا الماهوك عما دعاهم إلى المجىء إلينا ، فربما هناك سبب آخر لا ندرى به ؟

وأومأ إلى اليوزباشى چاكوبز . فبدأ يترجم حديثه للماهوك ، فى لغة جميلة النغم رغم غموضها علينا ، ولما انتهى من كلامه ، قام واحد من الماهوك يجيب على السؤال بخطبة طويلة ، ترجمها چاكوبز قائلا عنهم : إن أباهم سير ويليام جونسون ، قد طلب إليهم الذهاب إلى كراون پوينت . ليثبت للملك العظيم ، الذى يعيش وراء البحار . أن أولاده الماهوك ما زالوا على ولائهم له ، وطاعتهم لرغباته . ورغبات صديقه وصديقهم سير ويليام جونسون .

قال الماهوك : إن أبانا سير ويليام جونسون يعرف أننا لا نحارب فى كل وقت . ولقد تركنا بلادنا قبل الاطمئنان على محصول الذرة . ولسنا نعرف ما أصابه إن خيراً أو شراً . وكل عاقل يفهم أن المحصول إذا قل . أصبح لزاماً علينا أن نخرج إلى الصيد لنوفر الطعام لأهلنا وذوينا ، وإن لم نفعل ذلك ماتوا جوعاً . ولكن بعضهم لا يفهم ولا يقدر ،

www.ibtesama.com

وبدل أن تشكرونا على تضحيتنا بالمجىء إلى كراون پوينت ، ارضاءً للملك العظيم ، أو تعطونا الهدايا والمنح لنعود بها إلى نسائنا وأطفالنا . . نجد قائدكم يأمرنا بالسير فى رحلة طويلة لم يؤخذ رأينا فيها ، أو تطلب موافقتنا عليها ؛ ثم يطالبنا بقتل أناس ليست لنا بهم سابق معرفة . ولو علمنا من قبل بأغراض هذه الرحلة ، مارضينا بالمجىء إلى كراون پوينت ، أو قبلنا الانضمام إليكم .

وتململ الضباط الواقفون خلف روچرز فى ضيق ، وتمتموا بأصوات خافتة ، ولكن روجرز عاد يقول فى عطف :

— لقد أدركنا الآن لماذا أرسل إلينا سير ويليام چونسون إخواننا الماهوك : لقد بعث بهم ليأكلوا طعامنا ، ويشربوا « رومنا » ، ولا يعملون شيئاً فى مقابل ذلك . وهذا تصرف عجائز النساء لا المحاربين البواسل ، ولكنها غلطة سير ويليام چونسون الذى لم يخبرنا أن رجاله كالنساء سواء بسواء . كان يجب أن ينبئنا بذلك ، أما ولم يفعل ، فلست ألوم إخواننا الماهوك على زهدهم فى هذه الرحلة ، ثم هناك أمر آخر يحتاج إلى تفسير ، فقد كنا نظن أن الماهوك أمهر الناس فى اقتفاء الأثر ، لذلك أرسلناهم ليلة أمس وراء معسكر

www.ibtesama.com

الفرنسيين ، ولما لم يعترضوا على تكليفهم بهذه المهمة ، ظننا أنهم راضون ، فوثقنا بقدرتهم على أداء الرسالة . ولكنهم عادوا إلينا خائبين ، وبالرغم من وجود ثلاث سفن كاملة ، أكدوا خلو النهر من الفرنسيين ، فكدنا بهذه الأخبار أن نفقد أرواحنا وزوارقنا . فهل لإخواننا الماهوك أن يفسروا لنا سبب العمى الذى أصاب بصائرهم ؟

وقام خطيب الماهوك يرد فى لهجة رزينة ، وقد بدت عليه سيماء النبل ، كما لو كان ينطق بأعمق العواطف الطيبة ، قال :

— إن سير ويليام چونسون لا يجبر أولاده على العمل رغم إرادتهم ، وقد تعود أن يستطلع رأيهم فى كل رحلة ، فإن رغبوا ذهبوا ، وإن كرهوا بقوا ، والأمر لهم أولا وأخيراً . ولكن الوضع يختلف فى كراون پوينت ، فقد فوجئنا برجل غريب عنا يكلفنا بالمهام وفق رغبته هو لا رغبتنا نحن ، وهو ما لا نرضاه أو نقبله أبداً ؛ لذلك سرنا مسافة قصيرة ، ثم جلسنا نبحث الأمر ونناقشه فى مؤتمر أبدى فيه كل رجل رأيه بخطبة طويلة . وقد ارتأى بعضنا أن نذهب ، وفضل البعض الآخر أن نتخلف ، وبعد مناقشة وافية أخذنا الأصوات فكانت الأغلبية فى جانب العودة ، ولذلك عدنا .

www.ibtesama.com

وأنا الآن أعرف أن الهنود قوم غريبو الأطوار ، ومن الخطأ أن نحكم عليهم بعقلية الجنس الأبيض ، فهم ليسوا أقل منا أمانة أو استقامة أو حكمة . ولكنهم سذج إلى درجة الشذوذ ، بسطاء إلى حد يدفعهم إلى الخطأ دون قصد ؛ فالهندى قد يبدد الطعام الذى يجب أن يحتفظ به ، ويتعلق بالأوهام فى وقت يحتاج إلى واقعية العقل . يتهور حين يلزم الحذر ، ويحـــذر حين يجب الإقدام . يكذب فيما لا يستحق الكذب ، ويصدق عند ما لا يجوز الصدق . يهرب والحاجة ملحة إلى وجوده ، ويُقبل والحاجـــة تتطلب ابتعاده . يتسامح فى أقبح الجرائم وأفظعها ، ويقتل لأتفه الأسباب وأحقرها .

هذا ما علمتنيه الأيام عنهم ، ولكنى فى ذلك الوقت لم أكن أعرفهم ، فبدوا لى خونة من أحقر طبقة ، واعتبرت الماهوك كلاباً كَلِبَةً لا يستحقون إلا أشنع قتلة .

أما روجرز فكان له رأى آخر . إذ أجاب الماهوك فى عطف كأنه يمتدحهم على خدمة جليلة أتوها . قال : إنا نشكر إخواننا الماهوك على توضيح ما كنا نجهله من أمرهم ، ونقدر لهم فضل المجىء من بلادهم البعيدة تأكيداً لولائهم وصداقتهم ، ولاشك أننا محتاجون دائماً إلى خدماتهم ، لذلك

www.ibtesama.com

يجب أن نظل أوفى الأصدقاء لهم . ولكننا نريدهم أن يتعلموا أساليبنا فى الحرب مثلما تعلمها هنود ستوكبريدج . أما أن نتركهم لرغباتهم الخاصة . فأمر لا يتمشى مع طبيعة أحوال هذا الجانب من البلاد . وإذا أرسلنا لهم الحبل على الغارب ، تكون النتيجة وبالا عليهم . فقد يفضلون النوم عندما نطلب اليقظة للحراسة . وعندئذ يفقدون رءوسهم ، ونفقد نحن أيضاً رءوسنا معهم .

وسكت برهة ثم قال :

— ليس هذا أسلوبنا فى الحرب . ومن المستحيل أن نحارب ونحن أموات ، وما دمنا نريد البقاء على قيد الحياة ، فسبيلنا الوحيد إلى ذلك ، أن يقوم العقلاء بإصدار الأوامر ، وعلى الباقين الطاعة العمياء ، سواء أكانوا راضين أم كارهين. هذه طريقتنا فى الجيش . ومن يخرج عليها يقتل رميا بالرصاص وما دام إخواننا الماهوك يكرهون الخضوع للأوامر ، ويفضلون السير على هواهم . فخير لهم ألا يخدموا أحداً سوى سير ويليام چونسون . وإلا انتهى مصيرهم مع غيره إلى الإعدام . نحن حريصون على صداقتنا لهم ولسير ويليام چونسون . ولا نحب أن يفسد جمال هذه الصداقة إعدام واحد منهم . ولكننا لا نريد فى ذات الوقت أن نبقيهم معنا

www.ibtesama.com

أكثر مما بقوا ، لأنهم لا يحسنون من الأمور سوى الأكل والشرب والنوم وعصيان الأوامر . لذلك يجب أن يعودوا إلى كراون پوينت . نعم ، يجب أن يعودوا إلى القائد آمهرست ، ونصيحتى — إذا سألهم عن سبب عودتهم — أن يعتذروا له بالمرض ، ويدّعوا أنهم أكلوا طعاماً فاسداً أضر بصحتهم ، فكل ما أخشاه أن يعدمهم رمياً بالرصاص ، إذا عرف السبب الحقيقى . وقد يدهش الناس كيف أصيب الماهوك جميعاً بالمرض ، وقد يتبادر للأذهان أنهم ضعاف مثل عجائز النساء ، وليست لديهم القوة الكافية ، ولكن هذه الظنون بلا شك ، أفضل كثيراً من الإعدام رمياً بالرصاص .

ووقف روچرز بعد هذا الحديث مستنداً إلى بندقيته ، وانتظر حتى انتهى اليوزباشى چاكوبز من ترجمة كلامه ، وقد ظل الماهوك خلال ذلك الوقت كله يحملقون فى الفضاء بعيون معتمة ، كأن الحديث لا يخصهم ولا يعنيهم .

وبعد أن انتهى چاكوبز من ترجمته ، قال روچرز : يجب أن يعودوا لفورهم سيراً على الأقدام ، فدعوهم يرحلوا بأمتعتهم ، لأننا فى احتياج إلى زوارقهم .

والتفت إلى اليوزباشى ويليامز يقول له : سأقوم بالبحث وراء السفن الفرنسية ، فعليك قيادة المعسكر حتى أعود .

www.ibtesama.com

الفصل العشرون

الفارق الوحيد بيننا وبين الهنود ، أن الرجل الأبيض بحكم تحضره يخضع للنظام ويحترم القانون ، فى حين أن الهندى عاش منذ الأزل متحرراً من كل قيد : فالطفل الهندى لا يعاقب على خطأ يرتكبه . والهندى السكران لا يؤاخذ على جريمة يقترفها تحت تأثير الخمر ، والقبيلة الهندية مهما كبرت ليست لديها السلطة لإكراه رجل على أداء عمل لا يميل إليه . والكسالى منهم يعيشون عالة على جهود النشطاء ، ولهذا يصف البيض الهنود بالوحشية والقسوة والخيانة والجبن والغباء ، ولكنى أشك فى صدق هذا الوصف ؛ فالهندى مهما انحطت أخلاقه ، لا يستطيع أن يجارى الرجل الأبيض فى وحشيته ، خصوصاً عند ما ينطلق من قيود النظام الذى نشأ عليه ، ويفلت منه زمام نفسه تحت وطأة الذعر أو الثورة أو الفوضى .

ولقد نزل الماهوك على إرادة روجرز صامتين ، وعند ما غاب هو وچاكوبز عن أنظارنا ، ساروا إلى الزورق فى هدوء ، والمتطوعون من خلفهم يودعونهم بأقذع الشتائم وأقبح السباب . وعدت إلى زورقى رقم (١) لألتهم فطورى ،

www.ibtesama.com

فسمعت چيس بتشام يقول وهو يتأملهم بنظراته الحزينة :

– ياللأوغاد الحمر الملاعين !

وكان الغضب والحقد قد أثار الأيرلنديين من ركاب زورقه ، فراحوا يتشاتمون فى حدة ، ووقف الحاويش ماكنوت وسـط رجاله يتلفت فى حنق وغضب ، كأنه يبحث عن ضحية يصب عليها جام نقمته .

وزحف هنك مارينار وجلس بجانبى وقال :

– ليت للهنود جلداً مفيداً يعوض ثمن الرصاص الذى يطلق عليهم !

وأخذت الحماسة ماكنوت ، فجعل يحفزنى إلى الكتابة بمكان بارز من مذكراتى بحيث يسهل على روچرز رؤيته : إنه من الخير للحكومة البريطانية أن تقرر الهدايا والعطايا لمن يتغيب من الماهوك عن الخدمة العسكرية ثلاث سنوات متتالية ، لأن بعدهم نعمة تستحق أجزل العطاء .

وكنت فى الحقيقة أشعر بحنق خانق على هؤلاء الأنذال ، الذين كادوا يقودوننا إلى الهلاك ؛ ولو كان الأمر بيدى ، ما ترددت لحظة فى قتل واحد منهم مثلما أقتل قنفذاً ملأ فم كلبى بأشواكه الحادة .

وتعالت صيحة من ناحية الزوارق المستورة تحت الأعشاب ،

www.ibtesama.com

وكنت فى ثورة من الغضب أنستنى خطورة هذه الصيحة ، فبقيت فى مكانى لا أتحرك عنه . حتى رأيت ما كنوت يقفز واقفاً ويرمى عصاه نحومصدر الصوت . وهبط اليوزباشى ويليامز من الربوة ركضاً ، وتسلل هنك إلى فصيلته ، وأمسك بندقيته ورفع زنادها ، وسرعان ما تناول الرجال كلهم بنادقهم وركعوا على ركبهم يحملقون فى اتجاه الزوارق مترقبين .

ومن بين الأعشاب التى تخفى الزوارق ، خرج رجل من الماهوك يترنح أمام اليوزباشى باترفيلد ضابط جيش المقاطعات. وكان وجه الضابط شديد الاحتقان ، ويده تقبض على كتف الهندى ، الذى يحاول الخلاص بنفسه وبندقيته ومتاعه وكيس ملئ بالبارود .

وتخطى اليوزباشى ويليامز الرجل الهندى ، وقبض على ذراع باترفيلد بشدة ، ثم جذبه بحيث اضطره إلى الوقوف فى مكانه ، وفى لمح البصر رأيت الجند بملابسهم الخضراء يملأون الربوة ، وصفا طويل منهم يقف وراء ويليامز ، ولم أشعر إلا وأنا أقف أمام هذا الصف ومعى هنك وماكنوت. وتوقف الهندى لحظة أمام هذا الحائط البشرى ، ثم استدار وكاد يمرق من بين ويليامز وباترفيلد ، لولا أن مد الأخير رجله أمامه ، فأسقطه على الأرض .

www.ibtesama.com

صاح ويليامز يقول لباترفيلد :

– والله ما يحق لك أن تفعل ذلك أيها اليوزباشى .

وقفز الهندى واقفاً ، كأنه سنجاب أحمر هائل الحجم ، وجعلت عيناه تدوران حوله بحثاً عن مخرج ، أو فجوة ينفذ منها ، ولكن المتطوعين وقفوا حائلا بينه وبين الزوارق ، فتسمر فى مكانه حيث يقف ويليامز وباترفيلد وسط حلقة من الرجال .

صاح باترفيلد : وما الذى يمنعنى من أن أفعل ذلك ؟ ماذا يمنعنى ؟ لقد سرق هؤلاء الثعابين مئونتنا من البارود والروم ، وقبل ذلك عرضونا للخطر ، ولن أتركهم دون تأديب . لقد ضبطت أحدهم متلبساً بجريمة سرقتنا ، فلا بد أن أجعل منه عبرة للآخرين .

هتف الرجال يقولون فى غضب شديد :

– أفرغ رصاصك فى رأسه ! أبقر بطنه بخنجرك !

قال ويليامز : وأين باقى الماهوك ؟

قال باترفيلد فى غضب : رحلوا جميعاً فى اتجاه النهر ، رحلو جميعاً ما عدا هذا .

وصاح ويليامز منادياً : أيها الملازم دانبار . أيها الملازم جرانت ! اذهبا مع رجالكما إلى النهر للمحافظة على الأمن ،

www.ibtesama.com

وعلى الضباط الآخرين أن يبعدوا رجالهم عن هذا الحشد، خذوهم إلى معسكراتهم .

ولم تتحرك نظراته عن باترفيلد أثناء الحديث . فلما انتهى قال له :

— والآن أيها اليوزباشى ، ابتعد قليلا . ودع هذا الهندى يلتحق برفاقه . فأنا أريد أن نتخلص منهم جميعاً .

قال باترفيلد : لا يهمنى ما تريد ، ولن أترك هذا الشيطان يهرب بكيس البارود . ولا يمكن أن أتراجع أمام مثله من الجرذان القذرة .

قال ويليامز — فى برود : لقد سمعت أوامرى أيها اليوزباشى باترفيلد ، دع هذا الرجل وشأنه .

فصاح باترفيلد — غاضبــاً : إلى الشيطان أيها البريطانى اللعين ، أتظن أننا نقبل أوامرك السخيفة ؟ لا وحق الله ! إن لنا عقولا تفكر مثلكم وأحسن !

وارتفع من بين المتطوعين صوت أجش يقول هامساً : قذر من رجال المقاطعات !

وتحرك الرجال فى الحلقة ، وتبدلت مواقفهم . ورأيت ثلاثة أو أربعة من جند المقاطعات يقفون وراء باترفيلد ، كما تجمع إخوانهم حوله . واشتد الانفعال بباترفيلد، فانقلبت

www.ibtesama.com

حمرة وجهه إلى صفرة ، قال بصوت خفيض مرتجف :

– قذر من رجال المقاطعات ! قذر من رجال المقاطعات ! أهذا ما تعتقدون ؟ لولانا أيها الإنجليز الأغبياء ، ما كنتم الآن إلا فى القبور وفوقكم التراب أكواماً . أنتم والأيرلنديون السكيرون ، والأسكتلنديون السفاحون ، أتتعالون على المتطوعين ، وما أنتم سوى تماثيل نحاسية محشوة بنشارة الخشب المنقوع فى أنتن الماء ؟ !

وفجأة لطم جندى اسكتلندى متطوعاً من رجال المقاطعات ، فهجم عليه اثنان من زملاء المضروب ، وسقط الثلاثة وسط خضم من اللكمات واللطمات . ووثب ما كنوت على المتعاركين ، وفرقهم مشيعاً المعتدى بركلة هائلة ، ورفع غريمه عن الأرض ، وأوقفه على قدميه ، ثم صفعه صفعة رنانة ، وبعد ذلك عاد إلى هدوئه كأنما انتهى من عمل تافه ليبدأ غيره ، وأدار بصره محدقاً فيمن حوله يتحدى المخلين بالنظام .

قال ويليامز : أيها اليوزباشى باترفيلد ، ما أساء إلى سمعة المتطوعين ، سوى أفعال كالتى تأتيها الآن ، فدع هذا الماهوك يذهب إلى حال سبيله ، وإذا اعترضت طريقه ، أحاكمك أمام مجلس عسكرى .

وبدل أن يجيب باترفيلد على كلام ويليامز ، اختطف كيس

www.ibtesama.com

البارود من تحت إبط الهندى ، فإذا بهـذا الأخير يرتمى على الأرض ، وفى لحظة تحول الرجال إلى دوامة بشرية ، أو إعصار آدمى ...كانوا أشبه بمجانين يتضاربون ويتعاركون ويتشاتمون ، وكل يريد أن يمزق الآخر إرباً .

ورأيت الهندى يتسلل من بين الأقدام والأذرع المتشابكة ، وهو لا يزال متشبثاً ببندقيته وكيس البارود ، ثم أبصرت باترفيلد يركله فى جنبه بوحشية .

وتلوى الماهوك كالحية . واستل سكينه المعلق بقماط على صدره ، وطعن به كيس البارود . وسمعت ماكنوت يصيح فى أذنى ، وشاهدت وجه هنك المتقلص قريباً من وجهى ، ثم أحسست بساعده يلطمنى ، فوقعت على ظهرى بعيـداً عن الحلقة .

وانطلقت رصاصة ، أعقبها دوى هائل ، أشبه بهزيم الرعد منه بالانفجار ، وإذا بملابسى تكاد تطير من فوق جسدى ، وحذائى يوشك أن ينخلع من قدمى ، وشـعرى ينجذب من رأسى ، ثم أحسست أنى أُضغط على الأرض . كأن حشية ثقيلة تجثم فوق جسدى .

قمت أتحامل على ساقى مذهولا . وإذا بحفنة الرجال الذين

www.ibtesama.com

كانوا قبل لحظة شعلة من النشاط والحركة ، قد تناثروا على الأرض فى خليط من الحطام البشرية المحزنة ، يئنون ويتلوون فى بطء ، والدخان يتصاعد من أجسادهم ، وفاحت رائحة اللحم المحروق ، حتى كادت تخنق الجو ، وتصاعد دخان البارود فى حلقات زرقاء فوق قمم الأشجار .

وأقبل الرجال راكضين نحو هذه الكومة التى تدخن وتئن وتتلوى ، وزحفت أبحث عن هنك مارينار . ولم يلبث أن هدانى إليه شعره الأسود : كان راكعاً على ركبتيه ، والسناج بغطى وجهه . والدخان يتصاعد من سترته ، أما يده فقد وضعها على كتفه المصابة .

قلت : انتظر ! أترك لى السترة أشقها .

وأخرجت سكينى ، ونزعت به الكم عن ذراعه ، وكان البارود قد اخترق القميص وأحرق اللحم من تحته ، فغدت الكتف كتلة سوداء دامية .

قال : إنه مازال يحترق ، فهل تستطيع إطفاءه ؟

قلت : بل لقد انطفأ وحده . فضع ذراعك على كتفى ، ودعنا نذهب من هنا .

ورفع ذراعه ، يستند بها على ، وعندئذ رأيت راحتيه الاثنتين وقد أحرقهما البارود بشكل مؤلم ، قال :

www.ibtesama.com

— كدت أسترجع البارود منه ، ولكنه أطلق بندقيته عند ما مددت يدى .. أين الهندى وماذا أصابه ؟

وسمعت من ورائى ماكنوت يقول بصوت مبحوح ولهجة لاذعة :

— لقد ذهب .

ونظرت ورائى ، فإذا بماكنوت يجلس على الأرض ممدداً ساقيه أمامه ، وكان الدخان قد سوّد وجهه مثل هنك ، وسرواله مشقوق عن ركبة محروقة ، بلغت من شدة الإصابة أن برزت العظام الداخلية بيضاء ، وسط اللحم الممزق الأسود .

وأقبل آوجدن من خلفنا، وبعد أن فحص حالة الحاويش، قال لزملائه المتطوعين :

— هذا ماكنوت ، فخذوه إلى الربوة .

وحمله رجلان على ذراعيهما ،فقال لهما ماكنوت :

— رفقاً بهذه الساق ، وإلا قصمت رقبتيكما اللعينتين ، فحذائى محشور فى جرحى .

قلت لأوجدن : دع الرجلين . سأتولى وحدى أمر نقل هنك حتى لا يتألم .

وطوقته بذراعى ، وجذبته برفق حتى وقف ، ثم استدرنا

www.ibtesama.com

نصعد الربوة ، وأقبل علينا اليوزباشي ويليامز . وكان من الصعب تمييز شكله . فقد لفح البارود جانباً من وجهه ، وأصاب عينه فأقفلها . وكذلك أحرق نصف شعره ، فانكشف جلد رأسه أسود دامياً . ورغم خطورة جروحه ، لم يظهر عليه أدنى اهتمام بأمر نفسه ، إنما عكف على كتف هنك يفحصها بدقة وعناية .

وأقبـــل اليوزباشي أوجدن من ورائنا . وقال لويليامز ضارعاً :

— لا تهمل عينك أيها اليوزباشي . ورجائي أن تبادر على الفور بعلاجها .

قال ويليامز بلهجة مرحـــة : ما بها شيء . فاطمئن ، وعليك بالآخرين . فإنهم أسوأ حالا .

والتفت إلى هنك يقول : كنت ذكيا . وكدت تنقذنا جميعاً .

فقال هنك : ظننت أنني استوليت على البارود . ولكن فاتني أن أتنبأ بغرضه حين غرس خنجره في الكيس .

قال ويليامز : بل أحسنت التصرف . ولم تخطئ في أمر ، ويسرني أن ينضم إلى رجال فرقتي محارب فذ مثلك .

وعاد ينظر بعينه السليمة إلى جرح هنك ، ثم قال بلهجة المرح ذاتها :

www.ibtesama.com

— ستشفى عن قريب . ولن يمضى وقت طويل قبل أن تكون على ما يرام .

واستدار يسير مترنحاً كالمخمور ؛ ولكن أوجدن أسرع يطوقه بذراعه وسار معه بين الأشجار. كانت عينه المصابة تدمع بغزارة ، فيرسم الدمع مجارى بيضاء على السناج الأسود الذى يغطى وجهه . وأوجعنى قلبى حين طافت الهواجس بذهنى ، فخشيت أن تكون إصابة الرجلين خطيرة ، فيضطر ويليامز إلى ترك الجيش ، ويعجز هنك عن حمل بندقيته مرة أخرى .

وساعدت صديقى حتى صعدنا الربوة ، وهيأت له ما استطعت من سبل الراحة ، ثم أقبلت على جرحه أنظفه من حبات البارود وأطهره . وعاد روچرز بعد انتهائه من مهمة البحث وراء سفينة الفرنسيين ، وكنت أتوقع أن ينفجر غضباً لما حدث ؛ ولكنى قرأت فى محياه ما يشبه الارتياح والرضا . وجاء الجاويش برادلى يعنى بهنك ، فتركتهما معاً ، وذهبت إلى روچرز أحمل دفتر الأحوال ، وكان الضباط يلتفون حوله . وبينهم اليوزباشى باترفيلد سليما لم يصب بسوء .

قال باترفيلد يشرح له ما حدث : كنا فى احتياج إلى هذا

البارود ، ولولا تدخل اليوزباشي ويليامز لاستعدناه من الهندى وانتهى الإشكال دون ما حدث .

قال روجرز ضاحكاً : بل أنت مخطئ فى ظنك ، وكان من المحتمل أن تحدث أمور نحن فى غنى عنها ، فعليك أن تراعى منتهى الحكمة فى معاملة الهنود ، ولا تخرج عن طورك مهما أساءوا التصرف ... نحن فى حاجة إلى صداقة الماهوك ، فأعداؤنا من الهنود لا حصر لهم ، ولسنا نريد مزيداً منهم .

ودفع قبعته إلى مقدمة رأسه ، وحدق فى ضباطه ثم قال وعينه على باترفيلد : ولكنها أمور ثانوية ، والمهم أنك خالفت النظام ، وفقدت السيطرة على أعصابك . والنظام أساس سلامتنا كلها ، والضابط الذى يفقد السيطرة على أعصابه مرة ، يفقدها بعد ذلك مرات ومرات ، ولكن من حسن الحظ أننا ما زلنا قريبين من مواقعنا ، حتى يسهل علينا التصرف فى أمرك .

فقال باترفيلد — فى رنة الصدق : لست ممن يفقدون السيطرة على أعصابهم أيها الصاغ ، ولقد كنت فى تمام وعيى ، وأعرف ما فعلت دقيقة بدقيقة .

فقال روجرز : لن أناقشك فى هذه النقطة ؛ ولكنى أعلم أن فقدان الأعصاب يضر بالمجموعة كلها . وهذا ما حدث

www.ibtesama.com

فقد أصيب الرجال جميعهم إلا ك ، وتسبب لنا فى خسائر جسيمة ، ولست أدرى من الحكمة أن أقدمك إلى مجلس عسكرى ، فالأفضل أن تعود إلى كراون پوينت أيها اليوزباشى باترفيلد ... سأكتفى فى عقابك بهذا ، ولك أن تعتذر أمام القائد آمهرست بمرض أقعدك عن المسير بعد نهر أوتر . وسيعود معك من شاركوك العصيان ، وكذلك المصابون والجرحى .

وسار روچرز نحو الزوارق ، ثم عاد فنادى اليوزباشى ويليامز ، فلما أقبل مستنداً إلى اليوزباشى أوجدن ، قال له :

– أيها اليوزباشى إنى أحملك مسئولية هؤلاء الرجال جميعاً ، هنوداً وبيضاً ، نظاميين ومتطوعين ، فعليك أن تقودهم حالا إلى كراون پوينت ، أما نحن فسنبقى هنا .

وبقى حال ويليامز سيئاً للغاية ، فمع كل ما بذل أوجدن من جهود فى تطهير وجهه من البارود ، ظل اللحم المتسلخ حول عينيه ينزف دماً ، كذلك تورم جلد رأسه وتقيح حيث احترق شعره . وكانت عينه السليمة مغمضة أيضاً ، لا يستطيع فتحها بتأثير إصابة الأخرى ، مما اضطره إلى رفع وجهه عاليا إذا أراد رؤية ما أمامه . قال وهو يحرك شفتيه بصعوبة : إنها إصابة بسيطة ، ولن يستغرق علاجها أكثر من يوم أو يومين ،

www.ibtesama.com

ومادمت أرى بعيني اليمنى . فلن يعجزنى إصابة الهدف إذا سمحت لى بالتجربة ، ثم إنى أستطيع السير مثل ....

قال روچرز يقاطعه : سنعود معهم سيراً على الأقدام حسب الأوامر ، فنحن فى حاجة إلى الزوارق ، ولا يمكننا الاستغناء عن أحدها ... وسيعود معك كل متطوع أونظامى أحرقه البارود ، أو حتى أفسد ثيابه .

وتمتم اليوزباشي يقول : اسمح لى أيها الصاغ بكلمة واحدة ...

فقال روچرز : لك ما تريد .

قال : نحن ثلاثون ، ومن قبل ذهب الماهوك العشرة . فهل من الحكمة أن تستغنى الحملة عن خمس رجالها ؟ هذا العدد الكبير يفوق ما نفقده فى معركتين خاسرتين ، فهل من سبيل إلى إعادة النظر فى هذه الأوامر ؟ كلنا يستطيع مواصلة السير أيها الصاغ . اليوزباشي باترفيلد . وجميعنا .

قال روجرز : لسنا نعرف مدى الضرر الذى نزل بعينك ، وفى رحلة كهذه يتعذر علينا علاجها أو صيانتها من الذباب لذلك لن أجازف بمسيرك معنا خشية أن تصاب بالعمى ، فأضطر إلى إعادتك مع أحد رجالى ... ليس فى أوامرى ما يشينك ، فأنا أعيدك إلى قاعدتك لعدم لياقتك صحياً ؛

www.ibtesama.com

أما الآخرون فللعصيان والفوضى . لا يهمنى عـــددهم ، وما كنت لأتردد فى الاستغناء عنهم ولو بلغوا مائة . وأقسم بالله أن تسير هذه الحملة بدونهم . ولن أقف ولو نقص عدد رجالى إلى خمسين بل إلى عشرة . فعشرة يعرفون الطاعة ويخضعون للنظام أفضل من مئات الفوضويين الجهلة .

وأطرق برأسه برهة ، ثم قال وهو يحدق فى الضباط بنظرات صارمة :

– كلكم فى هذه الرحلة متطوع ! أتفهمون ؟

– ليس عندنا اسكتلندى أو انجليزى أو ارلندى أو إقليمى أو نظامى أو أى نوع آخر . وأقسم بالله إذا تحزب واحد لجنسه ، لأعيدنه إلى القلعة ، ولو كنت عن نهاية رحلتى على بعد عشرين قدماً .

www.ibtesama.com

الفصل الحادى والعشرون

خرجنا من خليج أوتر الشمالى فى تلك الليلة ، ونحن نجذف وسط عاصفة تهب علينا بلا رحمة ، فجلست فى الزورق أعجب من أمر نفسى ، وأسألها لماذا لا يحزننى فراق هنك وماكنوت؟ وكنت أظن إذ ذاك أنه التعب والإرهاق والتعاسة والشقاء ، ثم المطر الذى يعرف كيف يتخلل سترتى ليصل إلى جسدى فيهرأه برداً ؛ ولكنى أعرف الآن ، فلقد علمتنى التجارب بعد ذلك أننا حين نفقد فى الحرب أحداً ، لا نفكر فيه كانسان ذهب من حياتنا إلى غير عودة ، إنما نشعر كأنه مازال ينتظرنا فى مكان قريب ، حيث يمكننا رؤيته متى سمحت الظروف أو أردنا .

وفى تلك الليلة اخترقنا أضيق جزء فى البحيرة ، وخرجنا إلى منطقة متسعة ، لا يحتمل أن يهاجمنا الفرنسيون فيها ، وبذلك انتهت أقسى وأخطر مرحلة من رحلتنا .

وظننت فى بداية الأمر أننا أصبحنا قادرين على المسير بسهولة وسرعة ، ولكن الأمر جاء بالعكس ، وازدادت الرحلة صعوبة وبطوءاً ، وظلت العاصفة خمسة أيام متتالية تفرقنا وتدوخنا وتعذبنا . وكنا كلما اقتربنا من الذراع الشرقية

www.ibtesama.com

لبحيرة شاميلين ، حيث يبدأ خليج مسيسكوا ، يزدادالشاطىء الشرقى اتساعاً وانخفاضاً ، فتتضاعف صعوبة اختفائنا عن عيون أعدائنا قبل طلوع النهار . ورأينا على مقربة منا جزيرتى جراند ولاموت ، وفيهما صخور شاهقة وأشجار كثيفة ، فظننا أننا عثرنا على مخبأ لا يبارى ؛ ولكن روچرز ضحك منا ساخراً ، وقال حين رأى أوجدن يتأمل المكان بعين فاحصة : هذه بالفعل منطقة جميلة ، ولكن الفرنسيين سيبحثون عنا فيها مثل أى بقعة أخرى ، فنكون قد أوقعنا أنفسنا فى مأزق لا مهرب منه ، وجلبنا الدمار النهائى على حملتنا .

قال أوجدن : أظنك على حق .

وضحك روچرز فجأة وقال : الأفضل أن نختار مخبأ لا يطرأ على ذهن الفرنسيين ، بشرط أن تتوافر فيه سبل التقهقر إذا ألزمنا بالانسحاب ، وهذه الأرض المنبسطة تفى بالغرض تماماً .

ولم يكن معقولا أن يختفى مائة وستون محارباً ومعهم سبعة عشر زورقاً ، فى سهل منبسط مكشوف ، ولكننا قمنا بالمهمة على أكمل وجه : لم نشعل مصباحا أو نوقد ناراً ، إنما جعلنا نشتغل فى الظلام الدامس ، ومع ذلك

www.ibtesama.com

جاء عملنا متقنا للغاية ، فلما طلع النهار كنا فى السهل غير منظورين ، كأن الأرض انشقت وابتلعتنا .

وطوال اليوم العشرين من سبتمبر ، بقينا فى مخبئنا رابضين أمام جزيرة جراند ، والعاصفة تعمينا عن الرؤية بثورتها الجارفة .

ولجأنا فى اليوم التالى إلى أرخبيل صغير ، وبعد ترقب رأينا أربعة زوارق كشافة تبحث عنا بين كهوف الجزيرة الكبيرة ؛ وظل الأعداء يطوفون ويحومون ، حتى انقضى اليوم ، فانصرفوا عند العصر عائدين إلى معسكرهم ..وكنا على بعد قليل منهم ، ولكنهم لم يعنوا بالالتفات إلى حيث نختبىء فى السهل المغطى بتلك الحشائش القصيرة ، التى لا يمكن أن تخفى ولو غزالا صغيراً .

وفى اليوم الثانى والعشرين ، كنا قد قطعنا رحلة طويلة ، فأقمنا معسكرنا فوق شبه الجزيرة الذى يفصل خليج مسيسكوا عن بحيرة تشامپلين . وكان المضيق الموصل بين الخليج والبحيرة يقع إلى يسارنا ، وأمامنا تمتد سهول كندا التى لاتبلغ العين آخرها .

ولم أكن أعرف ما ينتظرنا بعد اجتياز السهل المنبسط ، ولم يكن روچرز يعرف أيضاً . لاهو ولا چاكوبز ولا هنود

www.ibtesama.com

ستوكبريدج . ولكن الأمر الذى كنا جميعاً نعرفه ، أننا أصبحنا من مدينة سان فرانسيس على بعد تسعين ميلا ، وأن ليس فى الأميال التسعين التى تمتد أمامنا بيت أو شارع أو حتى ممر ضيق .

وعند ما انهمك الرجال فى التكهنات والتنبوءات أسكتهم الحاويش برادلى قائلا :

— وهل يهم ما تجدون ؟ لقد كنتم تشكون مر الشكوى من التجديف المنهك بالليل ، ثم تضجون من البرد الذى يهرأ أجسامكم بالنهار ، والآن انتهى عهد العذاب بزوارقه وتجديفه ، وأصبحتم فى عداد المخلوقات البشرية المتحضرة ، تسيرون بالنهار ، وتنامون بالليل ، وتفعلون ما يحلو لكم ويطيب .

وبعث كلامه فى قلبى راحة وشجاعة ، فلقد كان سأمى من الزوارق قد بلغ فى تلك اللحظة أقصاه ، وعافتها نفسى إلى درجة تصورت معها أننى سأظل طوال حياتى زاهداً فيها ، لا أفكر فى ركوبها على أى نوع كانت .

www.ibtesama.com

الفصل الثانى والعشرون

وفى الليلة التالية بلغنا خليج ميسكوا . فدخلنا نجذف باحتراس شديد ، وانحرفنا فى دائرة حادة نحو اليمين ، ثم رسونا مع الفجر على طرفه الجنوبى ، قال روچرز :

ـ هذا أحسن ما نستطيع عمله ، فالأرض هنا صلبة ، ومن السهل أن نخفى عليها زوارقنا بطريقة تضلل الفرنسيين .

ثم عاد يقول فى لهجة أزعجتنى : والأرض الصلبة نادرة فى هذا الإقليم .

وسحبنا الزوارق إلى منطقة منخفضة عن الشاطىء ، وكانت بمستوى الماء تقريباً ، مما جعلها أرضاً وليست بأرض : فالأشجار تنبثق من تربة كالاسفنج ينز الماء منها ويتحلب تحت أبسط ضغط ، وكنا ندب عليها فى ذهابنا وإيابنا ، بين الشاطىء والزوارق ، فيتردد لوقع أقدامنا صوت كأنه أسماك صغيرة تتقلب مذعورة فى ماء ضحل .

وعاد روچرز إلى نشاطه الذى لا يهدأ : وضع حراساً فوق الأشجار لمراقبـــة الفرنسيين ، ثم كلفنا بتهيئة مخبأ للزوارق فلما انتهينا من هذه العملية ، تعاون معنا هو وأوجدن على سحب الزورق الأول ، وعند ما بلغنا نصف المسافة ، تركنا وعاد إلى الزورق الثانى .

www.ibtesama.com

وكنا نتحرك فى طين لزج يمتص أقدامنا بسهولة ، ثم يأبى أن يتركها ، فنضطر إلى جذبها بشدة مرهقة ، وقد ترتب على ذلك أن فقدنا أحذيتنا أنا والجاويش برادلى والأمباشى وبستر ؛ ولما عدنا نبحث عنها ، وجـــدناها مطمورة بشكل يكاد يتعذر معه انقاذها . وكانت الأرض بطبيعتها هذه مثل أفعى كسول تريد ابتلاعنا بهدوء ، لتهضمنا على مهل عند ما يحلو لها .

وأرسينا الزوارق على بقعة جافة ، تبعد عن الماء نحو مائة ياردة ، وحشونا مخابئها بمئونة العودة ، ثم سترناها عن الأنظار بأغصان الصنوبر وأوراقها .

وكنت أعتقد أن الجو فى كندا شديد البرودة ، ولكنى وجدته بفعل الغابات والمستنقعات يكاد يخنق الأنفاس حرارة ورطوبة . أما الباعوض فكان يهاجمنـــا فى جيوش لا تقهر ، ولم تفلح الجهود فى رده عن أنوفنا وحلوقنا ، فجعلنا نسعل ثم نبصق ، ليخرج بصاقنا عامراً بتلك الحشرات الصغيرة الشريرة .

ووزع الطعام بيننا بالتساوى ، فأخذ كل واحد لفافة كاملة من « السجق » البولونى ، وكيساً مليئاً بالدقيق ، وقطعتين كبيرتين من الشكولاته ، وزقاً عامراً بالروم .

وكان روچرز يحث ضباطه على العناية بتوزيع الأغذية ،

www.ibtesama.com

فيقول : تأكدوا من امتلاء أكياس الرجال بالدقيق ، وأعطوهم كفاية أسبوعين ، والله يعلم متى نحصل على دقيق غيره .

وما إن انتهى أمر الزوارق وتوزيع المؤن ، حتى أصابت روچرز نوبة أخرى من النشاط الشيطانى : فجعل يستعرض الصفوف جيئة وذهاباً ، ويصدر الأوامر بسرعة لاتبارى ، وفى ذات الوقت يشد متاعه إلى ظهره ، ويثبت بلطته فى حزامه ، ثم يدور حولنا مثــل نحلة تطن فى عناد وإصرار ؛ مرة يناشدنا السرعة فى الاستعداد ، وأخرى يفتش على أربطتنا ، ويتفــقد أقماع بارودنا ، ويفحص أحذيتنا ، ليطمئن على أحوالنا .

وأخيراً أمرنى أن أدون فى دفتر أحوال الرحلة :

« سأترك الملازمين الهنديين سولومون وكونكاپوت فوق الربوة للمراقبة وعليهما بالبقاء فى هذا الموقف لا يبرحانه ، إلا إذا عثر الفرنسيون على الزوارق ، فعندئذ يلحقان بنا لإبلاغ الخبر ».

وبينما الرجال ينظمون صفوفهم ، ويتأكدون ثبات متاعهم على ظهورهم ، أوقفنى الجاويش برادلى بجانب چيس بتشام خلف أوجدن ، وركض اليوزباشى چاكوبز مع ثمانية من

www.ibtesama.com

هنوده ، لكشف الطريق أمامنا . وكانوا قد خلعوا ملابسهم حتى خصورهم ، وطلوا أجسامهم بالدهن والألوان ، فلما وصلوا إلى آخر الربوة ، وقفوا ثم التفتوا نحونا فى انتظار تحركنا .

وعاد روچرز يكرر الأوامر ، وهو يسير أمامنا جيئة وذهاباً . قال :

— سيروا على شاطئ البحيرة حتى الطرف الشمالى الشرقى لخليج مسيسكوا ، وهو المكان الذى اتفقنا على اللقاء فيه إذا ما اضطرتنا الظروف إلى التفرقة ؛ وبعد ذلك نوغل فى الشاطئ إلى ما بعد منطقة المستنقعات ، ومنها نسير إلى الأمام .

وجعل يتأمل جيشه الصغير ، وقد ارتسمت على شفتيه الغليظتين ابتسامة مرحة ، ولا غرابة ، فقد كنا محملين من الأعناق إلى الأفخاذ بالمتاع الخشن ، والعرق والطين والقذارة تكسونا نتيجة للجهد الذى بذلناه فى ذلك الجو الرطب الحار . هذا إلى ما فعله بعضنا من طلاء وجهه وأطرافه بالطين حماية من الباعوض .

والحق أن منظرنا بهذه الصورة كان يغرى بالضحك .

وبدأ سر الحملة بهنود الكشافة . وعند ما غابوا عن

www.ibtesama.com

الأنظار ، تبعناهم فى صف طويل . وكان علينا أن نخوض أولا تلك الأرض الغدقة ، حيث فقد برادلى حذاءه ،فدعوت الله أن ينجينى من براثنها ، حتى لا يصيبنى ما أصابه . وكنا نرى من بين الأشجار المتكاثفة إلى يسارنا ، صفحة خليج مسيسكوا الزرقاء ، وقد بدت للأنظار هادئة باردةمنعشة، بعكس ما كنا نشعر به من حرارة وإرهاق .

وقادنا روچرز فى سكون : كان يسير فى سهولة مدهشة، ونحن من ورائه نمشى فى سكون على قدر ما تسمح بهالظروف لرجال مثلنا كتب عليهم أن يقطعوا نصف وقتهم فى خوض المستنقعات ، ويقضوا نصفه الآخر فى تخليص أقدامهم من النباتات المتسلقة المتشابكة وبعد ذلك يشقون طريقهم وسط حشائش أطول منهم .

كنا نركز أنظارنا على الأرض دائماً ، لنتبين موقع أقدامنا ، وبين لحظة وأخرى نسترق لفتة حولنا ، لنحتفظ بالمسافات متساوية بيننا .

وكان روچرز يأمرنا بالوقوف كل ساعة ، ثم يسير إلى آخر الصف يفتش ، وهو يقول :

– إن تكرار الوقوف يضمن انتظام الصف ، وأنا

www.ibtesama.com

لا أريد ارتباكات فى هذه الرحلة بالذات .

وعند الغسق ، وصلنا إلى مرتفع جاف ، فصدرت الأوامر بإقامة المعسكر لقضاء الليل .وكانت الأربطة التى تشد متاعى إلى ظهرى ، قد انغرست فى جسدى ؛ وتركت عليه آثاراً عميقة ، بحيث أصبح الجلوس عذاباً مقيما ، والوقوف أقسى وأمر . وكان روچرز يريد فحص الطريق الذى جئنا منه ، فاعتمد على كتفى برادلى وفارنجتون ، حتى وصل إلى غصن قريب فى شجرة صنوبر باسقة ، وبعد ذلك تسلق إلى القمة بسرعة السنجاب وخفته ، ثم هبط إلينا نشطاً كأنه لم يبذل جهداً . ووقفت أنظر إليه وأنا فى دهشة من أمر هذا الرجل الذى لا يعرف الإرهاق طريقاً إلى بدنه .

ومثلما كان صوت روچرز الأجش آخر ما سمعت قبل أن يغلبنى النوم ، كذلك كان صوته أول ما أيقظنى فى الصباح فقمت أتوجع لفرط ما تعانى مفاصلى من أوجاع التعب وتصلب الرطوبة .

ولقد مضى الآن على تلك الحوادث زمن طويل ، ولكنى مازلت أتخيل كأنى أسمع صوته يقول : أيقظهم الآن ... أيقظهم ...أيقظهم ، فلم يبق على استئناف المسير سوى عشر دقائق .

www.ibtesama.com

وصلنا بعد يومين إلى نهاية الطرف الشمالى لخليج مسيسكوا ، ولكنى لم أدرك الهدف من إصرار روچرز على فحص كل بقعة نتركها ، إلا فى ختام اليوم الثانى منهما : كنا قد أقمنا المعسكر لتونا ، وهبت الرياح تلفح أجسادنا ببرودتها الموجعة مؤذنة بصقيع قريب . وكنا فى مسيس الحاجة إلى نار نجفف بها أغطيتنا المبتلة ، وندفىء أقدامنا المتجمدة . ونطهو ما نحتاج إليه من طعام بعد طول جوع . ولكن الأوامر صدرت بعدم إشعال النار فلم نجد مناصاً من الاستغناء عنها . وجلسنا نهيئ لأنفسنا من أسباب الراحة ، وعندئذ أقبل برادلى على المعسكر جرياً ، ومن خلفه سولومون وكونكاپوت .

صاح الأول يقول : راحت الزوارق . عثر الفرنسيون الملاعين عليها !

هتف الرجال بصوت واحد فى دهشة ، كأنهم لا يصدقون النبأ : عثروا على الزوارق ! عثر الملاعين عليها ؟ !

وانقلبت حال المتطوعين ، فكنت تراهم يقومون بأفعال سخيفة لا معنى لها ، أخذ أحدهم ينظف قطعة « السجق » التى كان يأكلها من الدقيق العالق بها ، ثم أعادها إلى كيس الدقيق ثانية ... ونزع آخر قلنسوته الاسكتلندية . وجعل

www.ibtesama.com

يدقق النظر داخلها ، كأنه وراء اكتشاف عظيم . وسحب ثالث بطانيته ، وانهمك فى تنظيفها بدقة ربة البيت الماهرة . ولعلهم كانوا يحاولون مثلى أن يشغلوا أنفسهم عن التفكير فيما يعنيه الخبر من استحالة عودتنا إلى قواعدنا ، بعد ضياع زوارقنا ونحن فى بقعة جرداء يحيط بها العدو من كل جانب . وأغلب الظن أننا كنا نتشاغل بالتوافه عن التفكير فى عدد الأيام التى بقيت لنا على قيد الحياة .

** معرفتي **
www.ibtesama.com
منتديات مجلة الإبتسامة

www.ibtesama.com

الفصل الثالث والعشرون

التفّ المتطوعون حول روچرز ورفيقيه الهنديين ، فحاول الملازم دانبار أن يبعدهم ، ولكن روچرز قال له :

— لا مانع من وجودهم ، فالأمر يهمنا جميعاً .

ثم التفت إلى سولومون يسأله قائلا :

— متى حدث ذلك ، وكيف عثروا على الزوارق ؟

وروى سولومون ما حدث عند الغروب أول من أمس ، فكان معنى هذا التاريخ أن رجلينا بذلا جهداً خارقاً ليقطعا فى أربع وعشرين ساعة ، ماقطعناه فى ضعف ذلك الوقت . وكأن الأعداء يتبعوننا مدة يوم كامل .

قال روچرز : وكم عددهم ؟

وحل سولومون من حول إصبعه خيطاً ، وجعل يحصى ما فيه من عقد ، ثم أخبرنا أن أربعة زوارق مليئة بالهنود دخلت الخليج عند الغروب ؛ ومن خلفها عشرون سفينة تحمل الواحدة منها عشرين فرنسياً ..

وعرفنا من سولومون أيضاً أن هندياً من الأعداء تتبع آثارنا حتى وصل إلى مخبأ الزوارق ، وعندئذ صاح فرحاً ، وأطلق رصاصة فى الجو على سبيل الابتهاج.. وعند ما رست

www.ibtesama.com

السفن ، بعث الفرنسيون بأعوانهم الهنود وراء ما تبقى من موئننا وعتادنا ، حتى عثروا عليها . وكانت شدة الظلام تجعل الرؤية متعذرة عن بعد ، ولذلك تسلل كونكاپوت بخفة إلى أن اقترب من النيران التى أوقدها الفرنسيون ، وهناك رأى القائد يقسم قوته إلى فريقين ، ثم يوزع على الفريق الأكبر منهما كل ما عثروا عليه من موئننا . واستنتج سولومون من ذلك أن الفريق الأكبر ، الذى يبلغ عدده نحو مائتى جندى ، سيقتفون مع الهنود كلهم أثرنا عند ما يطلع النهار . فنهض هو وكونكاپوت إلى اللحاق بنا فى سرعة مضاعفة ، ودون توقف للراحة أو للأكل .

وانثنى روچرز إلى جعبة رصاصه ينقب فيها ، حتى عثر على قطعتين كبيرتين من الطباق أعطاهما لسولومون وكونكابوت ، ثم تركهما يذهبان فى سكون لينالا قسطاً من الراحة بعد رحلتهما الطويلة الشاقة .

ومد روچرز يده فى الكيس ثانية ، وأخرج قطعة من الورق وزجاجة بها فوسفور مضىء ، وأعطى الزجاجة إلى اليوزباشى أوجدن ، وفتح الورقة ثم قال وهو ينظر إلى الوجوه المحيطة به : سنأخذ قراراً الآن وفى هذا المكان . ولقد

www.ibtesama.com

كنتم طول الوقت تتكهنون بوجهتنا وأنتم تجهلون حقيقتها ، ولكنى سأقرأ الآن عليكم الأوامر .

وأزاح أوجدن الغلاف الذى يحيط بزجاجةالفوسفور ، فانبعث منها ضوء باهت انعكس على الورقة وأضاء وجه روچرز ، فبدت عيناه أكثر غدراً ، وأنفه أكبر ضخامة . ونظراته أشـــد صرامة . كان مثل تمثال نحت من الصخر الصلد . قال : هذه الأوامر من اللواء آمهرست ، وقد وقع عليها ، وفيها يقول .

« عليكم بخليج سيسكوا ، ومنه تهجمون على محلات العدو جنوب نهر سانت لورنس . يجب أن يكون هجوماً مشرفاً لجيش صاحب الجلالة ينزل بالعدو قضاء مبرماً ، فضعوا نصب أعينكم مايأتيه أولئك الهنود الأنذال من ألوان الفظائع والوحشية كلما سنحت لهم الفرصة . خذوا بثأر من قتلوا من مواطنيكم الأبرياء ، ولكن تذكروا أنه بالرغم ممـــا فعله أولئك الأشرار بنسائنا وأطفالنا ، فأوامرى الصريحة ، ألا تقابلوا هذا الجانب من إجرامهم بالمثل ، وإياكم أن تقتلوا نساءً أو أطفالا ، أو تنزلوا بهم أذى من أى نوع . وعند ما تنتهى مهمتكم تعودون إلى المعسكرالعام ، أو تلتحقون بمقرى أينما كان » .

www.ibtesama.com

وهز روچرز الورقة أمامنا . وهو يتأملنا مثل بومة هائلة وقال : هـــذه هى الأوامر . والفرنسيون يعتقدون أنهم أوقعوا جيش روچرز فى فخ لا خلاص منه . ولقد كان القضاء علينا بغيتهم منذ خمس سنوات . ولعلهم الآن يساومون على أثمان جلود رءوســـنا . التى سيسلخونها فى ظرف أيام ثلاثة . هناك جائزة لرأسى أنا قدرها ألف جنيه ، وأغلب الظن أنهم اتفقوا على طريقة توزيعها ، وعرف كل منهم قدر نصيبه فيها .

وهمهم الرجال فى قلق . فمضى فى حديثه يقول :

— أغلى أمانى الفرنسيين أن يقضوا علينا ، ولكن ليس فى نيتى أن أرضيهم ، فلقد جاهدت طويلا وشقيت كثيراً حتى كونت جيشكم هذا ، ولقد جاهدتم وشقيتم معى بما فيه الكفاية ، فحرام أن يضيع هذا كله بفعل طغمه من الفرنسيين الأشرار تعاونهم حفنة من الهنود الأوغاد . لقد قمنا بأعمال خارقة لا يصدقها العقل ، ولن أقف الآن عن إتيان هذه الأعمال أو أكف عنها .

ثم قال يتم حديثه : لقد خاض بعضكم معنا معركة « أحذية الجليد » فى العام الماضى . ولا أظنكم إلا تذكرون كيف حوصر الملازمان فيلبس وكروفتون مع عشرين متطوعاً ،

www.ibtesama.com

ثم عرض عليهم الفرنسيون شروطاً طيبة للتسليم . فلما قبلوا وسلموا ، لم يعد إلينا واحد منهم . وإذا كنتم نسيتم تفاصيل ما حدث لأخوانكم ، فعليكم بشقيق كروفتون يروى لكم القصة . إنه الآن معنا ، وأظنه يحب أن يتحدث إليكم .

وتكلم شقيق كروفتون ، قال بصوت مرتفع :

— لقد قطعوا ذراعى أخى ، وفصلاهما عن جسده ، ثم انتزعوا أضلاعه من مكانها واحدة بعد الأخرى . أنا لا يهمنى عدد الفرنسيين والهنود ، وسيان عندى أكانوا مليوناً أم مائتين ، فباستطاعتى أن أفتك بهم جميعاً وحدى .

ولم ينبس واحد من الرجال بكلمة ، قال روچرز وهو يومئ برأسه :

— هكذا قتل كروفتون ؛ أما الملازم فيلبس فقد شقوا شريطاً من بطنه ، وعلقوه به فى شجرة وهو مازال على قيد الحياة . ولم يكن نصيب الرجال الآخرين أفضل ، فبعد أن مزقهم الأعداء إرباً ، ألقوا بأشلائهم فوق أشجار الصنوبر ، فلم نستطع جمعها ثانية .

وهب علينا الهواء بارداً وخيمنا سكون شامل ، لم يعكره سوى وقع أقدام الديدبان ، وهو يدب على الأرض المبتلة ، على بعد مائة ياردة من مكاننا .

www.ibtesama.com

وعاد روچرز إلى حديثه يستأنفه :

– يقولون إن شهرة رجالى تطبق آفاق فرنسا وانجلترا ، وكذلك أمريكا ، ولكنى لا أعرف ما يقولون على وجه التدقيق ، أما الذى أعرفه عن يقين ، فهو أنكم أكثر الناس خبرة بأساليب الحرب ، وأقدرهم على الاحتمال وأمهرهم فى إصابة الهدف .

وسعل يجلو صوته ، ثم عاد يقول للرجال الواقفين حوله كالأشباح :

– لعلهم يعتقدون أننا وقعنا الآن فى قبضتهم ، وانتهى أمرنا إلى الأبد . وأنا لا يضيرنى أن يعتقدوا هذا ، ولكنهم لم ينالونى أو ينالوكم بعد ، وأغلب الظن أنهم لن ينالونا إذا استعنا بسابق خبرتنا ، وقاتلنا كما تعودنا دائماً أن نقاتل .

وصاح الرجال وأنا معهم يقولون :لا... لا...لا... لن ينالونا أبداً .

وأحسست فى تلك اللحظة كأننى أعرف أولئك الناس منذ مولدى ، وتمثل لذهنى ماحدث لكروفتون وفيلبس ، فتأججت نيران الحقد فى صـــدرى وآمنت مثلما آمن زملائى بأنه ليس فى مقدور فرنسيي العالم كله أن ينالونا ، مادمنا تحت قيادة روچرز .

www.ibtesama.com

جلست حتى منتصف تلك الليلة مع روچرز وأوجدن فى مخبأ بين جذوع الأشجار . وكان المخبأ مستوراً من ثلاثة جوانب ، وبذلك أمكننا أن نوقد ناراً داخله .

وأقبل علينا اليوزباشية والملازمون والحاويشية يدبون على أربع ، ليقدموا تقاريرهم عن صحة رجال فصائلهم . ولم يكن بيننا مرضى ، ولكن ستة حدثت لهم إصابات ، فأصبحوا عاجزين عن العمل . وعكفت على دفترى أدون تلك التقارير ، وبجانبي يجلس روچرز وأوجدن أمام خريطة مرسومة على صفحة من لحاء الأشجار ، يتشاروان فى مواقع الأنهار والوديان . وبالرغم من تمام معرفتهما بكل شبر من أرض كندا ، استنفدت المشاورة وقتاً طويلا ، ولم ينتهيا إلى قرار إلا بعد منتصف الليل .

وأخيراً قال لى روچرز : هذه خريطة هامة ، فانسخ فى فى دفترك صورة منها .

ثم التفت إلى أوجدن يقول فى تفكير :

— لا بد من واحد يعود بالمصابين الستة ، ولكنى لا أستطيع فى ذات الوقت الاستغناء عن ضابط أوجاويش .

قال أوجدن : إن ماكميلان يعرج منذ مدة .

www.ibtesama.com

قال روچرز : أعرف ذلك . ولكنى لا أستطيع إعادته ، بعد ما حدث بيننا من اختلاف فى العام الماضى ؛ فعندما أسر الأعداء اليوزباشى بوربانج ، أراد ماكميلانأن ينال الترقية ويأخذ مكانه ، ولكنى قدت الفصيلة بنفسى ولم أرقه . وقد أغضبه منى هذا التصرف . فشكانى لآمهرست ، وقدم استقالته . وأخشى إذا أنا أعدته الآن أن يظنه انتقاماً .

وسكت أوجدن عن الإجابة : ففال روچرز وهو يفرك يديه :

ــ ناد ماكميلان ، وليكن ما يكون .

وأخرج أوجدن رأسه من فتحة المخبأ العبقة بالدخان ، وطلبمن الحارس أن يدعو الملازم ماكميلان ، وكان السكون شاملا ، فسمعت أنين ماكميلان عند ما أيقظه الحارس ، ثم رأيته يزحف إلينا ، وقد تورم جفناه من لسع الباعوض .

قال روچرز باسما : ماذا أصاب رجلك ؟

قال : رجلى ؟ أى رجل ؟

قال : أظنك تعرف .

فهز ماكميلان رأسه وقال : ليس بها شىء أيها الصاغ ، والمسألة كلها إرهاق بسيط مثلما حدث لغيرى ممن جذفوا فى الزوارق طويلا .

www.ibtesama.com

قال روچرز : حسنا ، ولكن عندى ستة لا يقوون على القتال ، ولا بد من شخص يعود بهم إلى القاعدة ، مع رسالة إلى القائد آمهرست ؛ ولقد اخترتك لهذه المهمة .

وتبادل الرجلان نظرات جامدة ، وفتح ماكميلان فمه مرتين ثم عاد وأقفله دون كلمة ، وظل صامتاً ، ولكن وجهه احتقن بشدة ، حتى نفرت عروقه ، كأنها تهدد بالانفجار .

قال روچرز : أعرف ما يجول بخاطرك أيها الملازم ، فأنت تظننى سافلا وضيعاً ، أريد أن أنتقم منك ، وأعمل على حرمانك من النصر ، بعد ما حرمتك من الترقية فى العام الماضى .

قال ماكميلان : نعم :.. هذا ما أعتقده بالضبط .

قال روچرز : ولكنك مخطئ ، فما منعنى من ترقيتك سوى تهورك وقلة تدريبك ، ورأيى أنك أفيد للجيش كملازم منك كيوزباشى . ولقد وقع عليك اختيارى الآن ، لأنك أعرف رجالى بمسالك الغابات ، ورسالتى من الأهمية بحيث يجب أن تصل إلى آمهرست ، وإلا انتهى أمرنا جميعاً . وأعدك إذا أنت أوصلتها إليه بسلام ، أن أذكرك بالخير فى تقاريرى ، وهو أمر يفيدك أكثر من خوض المعركة مع العشرين من ضباط الحملة .

www.ibtesama.com

قال ماكميلان : ولكن أفضل البقاء مع العشرين ، ومادامت رسالتك بهذه الأهمية التي تؤكدها ، فلماذا لا تبعث بها مع ضابط سليم الساق ؟

قال روچرز : ولكنك سليم الساق على حد قولك .

وعبث ماكميلان بإصبعه فى رقبته المتورمة ، وبدت عليه مظاهر الحيرة ، وهو ينقل نظراته بيني وبين أوجدن ، ثم قال : حسنا . حسنا . أين هذه الرسالة ؟

ونشر روچرز أمام ماكميلان صفحة من لحاء الشجر ، وقال : انظر إلى هذه الخريطة ملياً ، وتذكر معالمها جداً.. إنها تشبه رقم ٧ ، خط منها ينتهى عند كراون پونيت ، والآخر يمر ببحيرة تشاپلين إلى سانت فرانسيس ، على نهر سانت لورنس ، ومن هناك يتجه إلى بحيرة ممفرا ماجوج فنهر كونيكتيكات ، ثم ينتهى عند القلعة رقم ٤ .

ونقر بإصبعه الغليظة على الخريطة ، وقال :

— انظر ملياً إلى الخط الشرقى الذى يمر من سانت فرانسيس إلى رقم ٤ . أترى هذين المنحنيين الكبيرين فى الجزء الأعلى من نهر كونيكتيكات؟ هذه مناطق الكوهيز ، وأنا الوحيد الذى يعرفها ، لأننى أقمت فيها منذ أربعة أعوام قلعة لپينج ونيتويرث إنها بعيدة ، ولن يجرؤ إنسان على متابعتنا إليها ،

www.ibtesama.com

فاذا استطعنا بلوغها . نكون قد سلمنا . أتفهم ما أقول ؟

فأومأ ماكميلان برأسه . وهو يمر بإصبعه على الجانب الشرقى للرسم الذى يشبه رقم ٧ .

ونقر روچرز بإصبعه على الخريطة مرة ثانية وقال :

— انظر كيف تنتهى مناطق الكوهيز بملتقى نهرى ويلز وأمونوساك بنهر كونيكتيكات ؟ فى هذه النقطة أقمت القلعة ، وهى لا تبعد أكثر من ستين ميلا عن رقم ٤ ، ومن السهل العثور عليها . وفى الشـــتاء الماضى عسكر الملازم ستيفنس بهذه المنطقة ، وفى مقدوره أن يرشد آمهرست إلى المكان الذى أريد أن توضع به المؤن .

قال ماكميلان : وأنا أيضاً أعرف المكان ، وأستطيع أن أرشده .

قال روچرز : حسنا عليك أن تسير فى الصباح إلى كراون پونيت وتصل إليها بأسرع ما يمكن ، واحذر أن تخاطر بحياتك مهما كانت الظروف ، فالفرنسيون وهنودهم يسيرون فى أعقابنا . ولذلك يستحسن أن تدور حولهم من الجهة الشرقية ، ولا تتردد فى الابتعاد خمسين ميلا إذا اقتضى الأمر ؛ وإذا اكتشف العدو مكانك أنت والرجال ، اتركهم يدافعون

www.ibtesama.com

عن أنفسهم ، واذهب أنت وحدك ، : يجب أن تصل رسالتى إلى آمهرست . يجب . [illegible]

وأومأ ماكميلان برأسه ؛ وقال روچرز : لا تخبر أحداً من الرجال بالرسالة ، إلا إذا تأكدت من أنك هالك لا محالة ، عندئذ فقط تسلمها أكفأهم على حملها ، بشرط أن تكون واثقاً من قدرته على الهرب بها . لا تدع الفرنسيين يحصلون على هذه المعلومات مهما فعلوا بك .

وحملق ماكميلان فيه لحظة ، ثم أومأ برأسه ثانية ، فقال روجرز :

— إذا وصلت إلى كراون پونيت ، اذهب مباشرة إلى آمهرست ، وعرفه بضياع الزوارق ، وكذلك باتفاقنا على السير فى طريق ممفرا ماجوج ، ثم كونيكتيكات عند مانتهى من سانت لورنس . واطلب منه أن يرسل إلى القلعة القديمة ، التى أقمتها عنـــد مصب نهر أومونوساك ، مؤونة تكفى مائة وخمسين رجلا يتضورون جوعاً ، وأن يقيم عليها الحراسة الواجبة للمحافظة عليها . والآن أريد أن أسمعك أيها الملازم تكرر هذه الأوامر بمنتهى الدقة .

www.ibtesama.com

قال ماكميلان بلهجة صارمة : مؤونة لمائة وخمسين رجلا عند مصب نهر أوموناساك ، في مواجهة مصب نهر ويلز ، عند نهاية مناطق الكوهيز . وستعود برجالك عن طريق الضلع الأخرى للمثلث ، تلك الضلع التى تنتهى برقم ٤ .

قال روچرز باسما : حسنا ، سنعود عن ذلك الطريق ، إذا قدر لنا أن نعود .

** معرفتي **
www.ibtesama.com
منتديات مجلة الإبتسامة

www.ibtesama.com

الفصل الرابع والعشرون

عند ما ابتلع الضباب ماكيلان وزملاءه الستة ، وهم يشقون طريقهم شرقاً فى فجراليوم السادس والعشرين من شهر سبتمبر ، كان عدد من بقى فى حملتنا مائة وثلاثة وخمسين رجلا ، يحاولون كسب المسافة أمام مائتين وخمسين فرنسيا وهندياً ، ليصلوا إلى سانت فرانسيس ، وينهو أمرها، ثم يعودوا إلى قواعدهم إذا تيسر لهم ذلك .

وما إن تركنا فى ذلك الصباح طرف خليج مسيسكوا الشمالى ، حتى دخلنا منطقة المستنقعات والأراضى الغدقة ، وكان عمق المياه فى بعض الأجزاء لايزيد على قدم ، وفى بعضها الآخر يحفر التيار جداول ونهيرات عميقة داخل النهر الأعظم الضحل . وكنا نسقط فى تلك الجداول والنهيرات ، فنغوص فى الماء إلى رءوسنا ، ولم يكن من أمل فى طريق أفضل بعد أن عاد هنود الكشافة ، وقرروا أنهم بالرغم من طول بحثهم وتنقيبهم ، لم يجدوا فى الجهة كلها سوى مستنقعات واسعة أرضها كالاسفنج الطرى .

وكانت المياه الراكدة بين الأشجار ، تستر حفراً وتضاريس . . والنباتات الصغيرة والحشائش المتشابكة

www.ibtesama.com

تتزاحم في طبقات تصل إلى ما فوق الركبة . وقد ترتفع أحياناً إلى مستوى الحزام أو الصـــدر أو الرأس .. ومن جذوع الأشجار الملقاة فى المستنقعات نمت فروع صغيرة جديدة امتدت بطولها على الأرض ، فى حين كسرت الرياح من الأشجار أغصاناً جافة ، فسقطت فى صفوف ذات أطراف حادة تجرح السيقان .. وكانت هذه الأغصان تشتبك بالملابس أحياناً . أو تخدش العيون ، أو تنزع القلانس من فوق الرءوس . أو تمزق الثياب ، وتنفذ إلى الأجسام فتؤذيها .

وسرنا نخترق هذه الأرض البغيضة ولم يكن فى استطاعتى أن أنظر أمامى أو خلفى ، ولكنى رأيت الرجلين اللذين يســـيران على جانبي يتمايلان فى المياه الغاصة بالنباتات والحشائش ، وبين آن وآن كنت أسمع روچرز يصحح الاتجاه لكونكاپوت ،وهذا ينقل الأوامر إلى هنود ستوكبريدچ فى المقدمة .

وكان ضمن واجباتى أن أدون فى دفترى كل ما يطرأ على سيرنا من تعديل أو تبديل ، فيقول لى روچرز : لا توجد خريطة لهذه المناطق ، والملاحظات التى ندونها تفيدنا فى رسم واحدة ، ومن السهل أن نعدها فى رحلة ثانية ، إذا قدر لنا النجاة من أخطار هذه الحملة .

www.ibtesama.com

وقد لاحظت أنه حين يملى علىّ وصف الرحلة ، ينحى عن الخيال ، ويأخذ بأدق الواقع ، ومن أمثلة ذلك قوله :

« نحن اليوم فى السادس والعشرين من شهر سبتمبر . وقد سرنا ميلا ونصف ميل فى اتجاه شمال الشمال الشرقى ، ثم ميلا واحداً شمال شرق . وعبرنا جدولين ينحدران نحو الجنوب الغربى . ثم قطعنا نصف ميل إلى الشمال الشرقى ، وميلا إلى الشمال ، ونصف ميل إلى الشمال الغربى . وعبرنا نهراً يجرى نحو الشمال الغربى ، وبعده سرنا ميلا إلى الشمال ، ونصف ميل إلى شمال الشمال الشرقى ، وثلاثة أميال نحو الشمال ، حتّى وصلنا إلى جدول عرضه نحو ياردتين ، وبعد عبوره عسكرنا على بعد ثلاثين ياردة منه . لم نر صيداً من أى نوع كان » .

كان يستعين بالبوصلة فى تعيين اتجاهاته ، ويحصى عدد خطواته ليحدد المسافات ، وكثيراً ما كان يكلف بعض الرجال بذلك ، وكان يسير جيئة وذهاباً على طول الصف ، أو يقف فى مكانه حتّى يمر به الرجال جميعهم ، وهم يسبّون لفرط ما يعانون من مشقة فى اختراق طريقهم بين الحشائش الميتة . وكنت أراه أحياناً يتسلق الأشجار ، أو يطوف بالفرقة فى دوائر واسعة ، ثم يعود برأى جديد يبلغه لجاكوبز ، فتصدر إلينا الأوامر بتغيير الاتجاه .

ولم تطأ أقدامنا طوال ذلك اليوم أرضاً جافة ، ولما حان وقت الطعام ، أكلناه وقوفاً فى الماء ، وأقبـــل الغروب وما زلنا نجاهد وسط المستنقعات . وكنت قد أصبحت فى حال يرثى لها : ثيابى مبللة ، وجسدى يرتعد برداً ، وعضلاتى تنوء بأوجاع كأنها ضربات مطارق . ولكنى لم أكن أتعذب وحدى ، فقد شاهدت من أمر برادلى وكروفتون من الرجال الذين يسيرون على مقربة منى ، ما يدل على أننا فى المحنة سواء؛ إذ كانت وجوههم زرقاء ، وعيونهم غائرة ، وأسنانهم تبرز وراء شفاه متراخية ... كانوا مثل المومياءات المحنطة .

أما الوحيد فينا – باستثناء روچرز – الذى لم تنل منه هذه المتاعب ما نالنا ، فكان العجوز چيس بتشام الذى تخطى الستين من عمره .

وعند ما أقبلت جحافل الظلام ، بعد مسيرة تسعة أميال ، كنا فى بقعة ترتفع فيها المياه إلى الركب ، ولا من سبيل إلى التخلص منها إلا باعتلاء غصون الأشجار ، أو إعداد أسرة تناسب طبيعة المنطقة . وتعاون كل اثنين منا على قطع جذوع الأشجار بالبُلط ، وثبتنا كل ثلاثة منها برباط من الغصون الرفيقة ، وبذلك هيأنا لأنفسنا فوق سطح الماء مصاطب ننام عليها .

www.ibtesama.com

وكان رفيقى فى ذلك العمل چيس بتشام ، وقد أدهشتنى سرعته الفائقة فى إعداد مرقدنا ، رغم تعذر الرؤية فى الظلام ولا أظننى أبالغ إذ أؤكد أنه أتم مهمته فى أقل مما يستنفده خادم الفندق فى تهيئة السرير ، وإعداد الحشية والغطاء .

وبسرعة اعتلينا أسرتنا هذه ، والبلل يغطينا من الرأس إلى أخمصى القدمين ، وكان جلد الغزال الذى نرتديه رقيقاً ، فحزت فى أبداننا الفروع التى ربطنا بها أسرتنا ، ولكننا لم نبال . إنما توسدنا حقائبنا ، ووضعنا البنادق فى متناول أيدينا ، ثم تناولنا عشاءنا المكون من دقيق الذرة والسجق والروم .

قلت لچيس : ألم تسأم نفسك بعد «السجق» ودقيق الذرة ؟

قال : كيف أسأمها وليس لدينا طعام غيرها ؟ لو كان الأكل موفوراً ، وسألونى أن أختار بين « السجق » بالدقيق و« السجق » بالفول ، ما اخترت الصنفين بلا أدنى تردد .

وأمام هذا المنطق الحكيم ، أقبلت على طعامى بلا نفور ، وأكلت فى صمت ، وأنا أدرك أننى أسعد من غيرى حظاً ، بصحبة هذا العجوز الطيب الذكى .

وجعلنا نتبلغ طعامنا ، ونحن نتسلى بالإصغاء إلى الأصوات القريبة التى نسمعها : فهذا صوت جسم يسقط فى الماء ، وذلك غصن ينكسر ، ومن بعده ينبعث صدى رشاش يثيره

www.ibtesama.com

رجال يخوضون فى الماء ، أو صوت جسم يهوى به فى المستنقع سريره المتداعى ، أو سعال ممن أصابهم البرد بعد طول نقيعهم فى المستنقعات ، وفوق كل هذا يعلو صوت روچرز الخشن ، وهو ينادى ضباطه چاكوبز ودانبار وتيرنر وآفرى وجرانت وفارنجتون ، ليحدد أماكنهم من المعسكر ، ويحفظها فى ذاكرته .

وحمدت الله أن استطعت فى النهاية ، أن أرقد فى فراشى ذى الفروع البارزة المعقدة . ورغم مافيه من أسباب الإزعاج وقلة الراحة ، وجدتنى أنام عليه متدثراً ببطانيتى المبللة .

قلت : چيس ... ليت لى مثل نشاط روچرز ... ألا تتمنى ذلك لنفسك أيضاً ؟

قال : لا وحق جهنم ! فالأفضل عندى ألف مرة أن أظل كما أنا .

www.ibtesama.com

الفصل الخامس والعشرون

فى اليوم السادس والعشرين من سبتمبر دخلنا إقليم المستنقعات وبقينا به تسعة أيام كاملة .

فنى اليوم السابع والعشرين أيقظنا روچرز من نومنا عند الفجر ، وانتزعنا من أسرتنا المتعبة . ولم تمض عشر دقائق حتى كنا نخب السير متجهين نحو الشمال الشمالى الشرقى ، فالشمال الشرقى بشرق ، ثم شمالا بشرق ، وأخيراً سرنا نحو الشمال ، كنا نمشى فى خضم من العرق والإجهاد ، نتعثر فى عشب المستنقعات فننكفئ على وجوهنا فى الماء ثم نقوم نواصل السير من جديد . وظل الطريق كله على هذه الحال لا فارق فيه بين ميل وميل ، ولا تغيير بين اليوم وأمس .

ومضى اليوم الثامن والعشرون من الشهر . ثم الثلاثون ، ثم اليوم الأول من اكتوبر ، ثم الثانى ثم الرابع ونحن فى ذات الحال : مياه آسنة ، وأشجار عالية ، وأعشاب متشابكة ، وعثرات وعقبات. ننام بالطريقة ذاتها على الأسرة المعهودة ، وننهض مع الفجر إلى المسير كما تعودنا ، وهدفنا الوحيد أن نسبق الفرنسيين والهنود الذين يجدون فى أثرنا .

www.ibtesama.com

ولم يتغير فينا شيء سوى شكل الرجال ... والواقع أن التغيير لم يصب چاكوبز وهنوده إلا قليلا ، فهم من الأصل نحيفو الأبدان ، مُرْدٌ لا ذقون لهم . ومنظرهم بطبعه على العموم خبيث ؛ أما الآخرون ، فكان تغيرهم ملحوظاً باطراد ، وكلما ازداد شعرهم نمواً فى رءوسهم وذقونهم ، وازدادوا بشاعة يوماً بعد يوم .

ولكن البشاعة لم تكن تشمل الجميع ، فبعضهم كان يتحسن شكلا عما يطرؤ عليه من تغيرات . ومن أمثلة ذلك الجاويش برادلى ، الذى أكسبته لحيته الحمراء سمة المرح وعدم المبالاة. أما چيس بتشام فقد لفتت لحيته البيضاء الناصعة أنظار رفاقنا كلهم ، وجعلتهم يفتنون فى اختيار الألقاب اللائقة به : مرة يسمونه الجد ، ومرة أخرى ملك الجليد أو شيطان نياجرا ، وكان يتقبل منهم هذه الألقاب بمنتهى السماحة ، كأنه حقيقة ملك طيب عجوز .

وتمزقت جلود الغزال التى نرتديها بفعل الغصون المدببة والبلل المستمر . ولكن الوقت لم يكن يسمح برتقها . فسرنا بها ممزقة مهلهلة .

والأدهى من ذلك ما آلت إليه أحذيتنا ، فقد صارت بمضى الرحلة مثل الورق المنقوع فى الماء . وكنا أمام أحد

www.ibtesama.com

أمرين : إما أن نخلعها ونربطها إلى أعناقنا ؛ أو نتركها فى أقدامنا ، فلا يبقى لها نفع عند ما نصل إلى اليابسة ، إذا قدر لنا أن نصل إليها .

وسألت چيس بتشام رأيه : هل ترى أن أخلع حذائى ، أو تفضل أن أظل به ، عسى أن تكون اليابسة باتت قريبة ؟

قال : لا أستطيع أن أفتيك قبل مهلة للتفكير ، ويستحسن أن أخلع حذائى الآن حتى أجده حين أقطع برأى فى الموضوع .

وحذوت حذوه ، فخلعت حذائى وسرت حافى القدمين . وكانت برودة الماء من القسوة بحيث جمدت قدمى ، وسلبتهما القدرة على الحساسية ، فلم أعد أشعر بألم إلا حين أتعثر بخشبة أو أطأ غصناً مدبب الطرف .

وفى تلك الفترة اختفى بعضنا بطريقة غامضة ، فلما خرجنا من خليج مسيسكوا ، وجدنا أن عددنا نقص ثلاثة ، وفى التاسع والعشرين من الشهر فقد رجلان من فصيلة الملازم جرانت ، وفى اليوم التالى اختفى آخر من فصيلة الملازم دانبار .

وعند ما علم روچرز بغياب الرجل الأول ، أرسل چاكوبز وكونكاپوت يبحثان عنه فى الطريق ، ولكنهما لم يعثرا له على أثر ، ولم نعرف إن كان الفرنسيون قد أخذوه ، أو أنه غرق فى حفرة عميقة .

www.ibtesama.com

وكان روجرز يرجح الافتراض الأول . فجعل يستحثنا على مضاعفة سرعتنا ، قال : إذا سبقنا الفرنسيون ، يصبح من الميسور لهم أن يهاجمونا من الأمام والخلف ، وهو ما لا يرحب أحدنا به ، فعليكم بالإسراع طلباً للنجاة من هذا المأزق . سيروا ولا تتوقفوا .

وأخذنا بنصيحته ، فسرنا نخوض الماء إلى الأمام ، بأقصى ما يمكننا من سرعة ، وفى اليوم الثانى من أكتوبر اختفى رجلان آخران ، أحدهما من فصيلة الملازم فارنجتون ، والثانى من فصيلتنا ، وهو الأومباشى الحزين وبستر ، الذى علم بوفاة زوجته قبل قيام الحملة مباشرة .

وكنت قد بدأت أتعلق بوبستر ، لصبره على احتمال المشاق ، وميله إلى مجاملة غيره ، وكان من عادته أن يتبرع بحمل بندقيتى حين يكلفنى روجرز بكتابة مذكراته . ولم أتنبه إلى غيابه إلا قرب الغروب ، فلما رأيت مكانه خالياً ، تلفتُّ ورائى أبحث عنه ، وقد ظننت أنه تخلف عن الصف ، وأخذ مركزاً آخر ؛ ولكنى لم أره على بعد النظر . فأخذنى القلق عليه ، وخشيت أن يكون مكروهاً أصابه ، وصحت أناديه بأعلى صوتى ، ولكنى لم أسمع جواباً سوى صوت أحذية الرجال ، وهم يخوضون الماء فى جد وتثاقل .

www.ibtesama.com

وسألني چيس بتشام : متى رأيته آخر مرة ؟

قلت : لا أذكر ، والأفضل أن أعود للبحث عنه .

قال چيس : أنصحك ألا تفعل ، ولو كنت منك لواصلت السير فى الصف بأسرع ما يمكن .

قلت فى استنكار : والله ما يصح أن نتركه وحده ، ونحن نعلم مدى حزنه على وفاة زوجته .

قال : لعلك محق ، ولكن قد يكون من دواعى الرحمة به أن نتركه وحده .

وسمع روچرز جدلنا ، فعاد إلينا يقول : من الذى فقد ؟

فلما أخبرناه بأمر وبستر ، أبدى أسفه ثم قال :

– ربما يئس من حياته ، واليأس يقود الرجال إلى التهلكة .

ونظر إلىّ فى حدة وقال : وماجدوى البحث عنه ، مادمت لا تستطيع أن تحمله ، وإلا وقعتما كلاكما فى أيدى الفرنسيين ؟

ولما رآنى لاأجيبه بكلمة ، قال فجأة : كان وبستر يعرف أى مصير ينتظره إذا تخلف عن الحملة . ولست أشك فى أنه يعلم مدى أسفنا لتخلفنا عن إنقاذه مكرهين . كلنا فى مثل هذا

الظرف العصيب ، ولو كنت أنا نفسي فى مكانه ، ما توقعت منكم أن تعودوا لإنقاذى .

وتركنى مسرعاً بعد هذه الكلمات ، وسار يلتحق بأوجدن . قلت لنفسى ، وأنا أحاول إبعاد الموضوع عن ذهنى : لعله صنع لنفسه سريراً . ورقد عليه يرتاح قليلا . وربما فات الفرنسيين وهنودهم أن يروه ...

عبرنا بعد ظهر اليوم الرابع من اكتوبر منطقة المستنقعات ، ووطئت أقدامنا لأول مرة أرضاً يابسة تغطيها الحشائش الطويلة ، وكانت تلك الأرض ربوة ارتفاعها نحو مائة ياردة ، وعرضها يقرب من ثلاثين ، ولم تكن لها أهمية خاصة ، ولكننا فرحنا بها بعد طول العذاب ، وأعادت إلينا صلابتها تحت أقدامنا ، بعضاً من الأمل والتفاؤل والإشراق .

ووقف الرجال فوق الربوة يحملقون بدهشة فى أقدامهم المتورمة المتقرحة ، ولكن روجرز أمر باستئناف المسير إلى المستنقع التالى ... قال مشجعاً :

— إلى الأمام ...لم يبق على نهاية الرحلة إلا قليل فأسرعوا بمغادرة هذا المكان ، ولا تخلفوا وراءكم أثراً لأقدامكم .

وعدنا نتعثر فى المستنقعات ، ولكنها بدت لى أقل عمقاً من

www.ibtesama.com

سابقتها ، وقد تأكد لى ذلك عندما وجدت المياه قبيل العصر تغطى قدمى فقط . وكانت اليابسة تعترضنا بين آن وآخر . إنما فى نتف ضئيلة لا تتجاوز مساحة الواحدة منها اتساع المنضدة أو القارب أو باب الدار .

وحلت أرض متماسكة تحت أقدامنا محل الجذور المتشابكة التى تعثرنا بها طوال الأيام التسعة الماضية . وعند ما أشرفت الشمس على المغيب ، كانت اليابسة تحيط بنا من كل جانب ، وانكمشت المستنقعات الواسعة إلى برك صغيرة تتناثر هنا وهناك .

هكذا انتهى إقليم المستنقعات . فتبدل أمر الرجال من حال إلى حال . وأخذهم النشاط من جديد . فساروا فى الظلام مجدين . وقد وجدنا فى النوم على أرض جافة نعمة جزيلة ، بعد ما عانينا من مشقة ونصب فى بناء تلك الأسرة البغيضة ، التى أذاقتنا الأمرين ليالى متتالية ؛ وعند ماتوسدنا الثرى بعد عشاء لم يتجاوز حفنة من دقيق الذرة ، شعرنا براحة عظيمة بالرغم من ابتلال ثيابنا وأغطيتنا .

وأدركت من تصرفات روجرز أننا بتنا قريبين من هدفنا ، فقد أمر الملازمين تيرنر وجاكوبز باستكشاف المكان ، وتسلق معهم الأشجار العالية . وأرسل بصره حوله وتفقد

www.ibtesama.com

المنطقة ، وعند ماهبط إلينا بعد أداء مهمته هذه ، دار حول المعسكر يحذر الحرس واحداً بعد واحد ، وينبههم إلى وجوب الأخذ بأسباب الحيطة البالغة . قال : استعينوا بأنوفكم وعيونكم ، ولاتكفوا لحظة عن الشم والنظر ، فلو أسرع الأعداء فى ملاحقتنا ، تكون الليلة موعدهم معنا .

لست أدرى متى نام روجرز فى تلك الليلة . إذا كان قد نام على الإطلاق ، فقد ظللت طول الوقت أسمعه يتكلم ، مرة يأتينى صوته من قريب ، ومرة أخرى أسمعه من بعيد ، وعند ما دحرجنى برادلى من غطائى قبل مشرق الفجر . كان صوته أول مارن ّ فى أذنى ، وسمعته يحذر اليوزباشى چاكوبز من أن يفلت زمام هنوده . إذا دخلنا سانت فرانسس فجأة .

كان يقول : مُرْهم أن يشغلوا وقتهم كله فى القتل .... قتل سريع بلا تعذيب .

وقابلتنا طلائع الفجر ونحن نحث الخطى إلى هدفنا ، وكانت الأرض تزداد تحت أقدامنا ارتفاعاً وصلابة ، فبدأ الجفاف يدب فى سراويلنا وما تبقى من أحذيتنا . واستعدت بعض تفاؤلى ، وشعرت أن مرحلة السوء قد ذهبت مع

www.ibtesama.com

منطقة المستنقعات . أما الحرب التى تنتظرنا ، فهى حرب على كل حال ، والحروب لا تتغير بتغير الزمان أو المكان .

وما إن سرنا قليلا حتى أقبل كونكاپوت وسولومون على روچرز جرياً ، وقال الثانى فى نشوة : نهر ... نهر كبير ...

صاح روچرز فى اغتباط :

— والله لقد وصلنا !.... فهذا نهر سانت فرانسس !

www.ibtesama.com

الفصل السادس والعشرون

لما اقتربنا من مجرى النهر ، حشونا بنادقنا ، وانبطحنا بين الحشائش نستطلع أمر أعدائنا الهنود ، وندرس مدينتهم التى جئنا لتدميرها : ولكننا لم نر شيئاً سوى نهر يتراوح عرضه بين ثلاثين وأربعين ياردة . مياهه تهدر بين ضفتين صخريتين فى ارتفاع التلال . وكان النهر مليئاً ، والتيار يجرى بسرعة شديدة ، كأنما مياه المستنقعات التى مررنا بها ، قد لجأت إليه دفعة واحدة ، تطلب الخلاص من سجنها بين الأعشاب . وحين نظرت إلى النهر متأملا ، بدت لى الدوامات الهائلة التى يعج بها وسط المجرى ، مثل طوفان من الجليد البنى المخيف .

قال لى روجرز : دعنى ألق نظرة على دفتر الأحوال .

وجعل يقرأ ما دونته أثناء الرحلة ، وهو يتمتم بشفتيه الغليظتين ، ثم نشر الخريطة التقريبية ، التى سبق أن رسمتها بناء على طلبه ، وانكب عليها يفحصها بإمعان ؛ وأخيراً تسلق إحدى الأشجار ليكشف الموقع ، ثم هبط إلينا وقد قرر أمراً .

www.ibtesama.com

قال : لست أرى منخفضاً فى الأرض نحو الشمال ،والمدينة لا تبعد سوى ميلين عن بحيرة سانت پيتر ، وهذه مسافات طويلة ، فالأفضل أن نعبر النهر من هنا ، لنبدأ من الضفة التى تقع عليها المدينة .

قال أوجدن : وكم طوفاً يجب أن نبنيه ؟

صاح روچرز : اللعنة على الأطواف ، فليس لدينا وقت لبنائها ، وسبيلنا الوحيد أن نخوض النهر على أقدامنا ؛ فمر رجالك أن يسدوا فوهات بنادقهم ، ويحملوا الأمتعة على أكتافهم :

كانت أشجار البلوط والصنوبر تكسو ضفتى نهر سانت لورنس ، وكان الصقيع قد أحال خضرة أوراقها إلى حمرة شديدة وصفرة زاهية ، فتبدى لى رفاقى وهم يسيرون وسط هذه الألوان الجهنمية ، كأنهم شياطين يخرجون من فوهة الجحيم . وتنفيذاً للأوامر خلعنا سراويلنا ، وربطناها مع متاعنا عالياً فوق أكتافنا ، بحيث اشتد الضغط على أعناقنا فانحنت نحو الأمام ، وبذلك صرنا كالسلاحف التى تدب على الأرض .

وكانت أبداننا العارية تحملها سيقان نحيلة ابيض لونها وبهت ، لطول ما نقعت فى مياه المستنقعات ؛ والحق أن شكلنا كان عجيباً ونحن نقف بهذه الصورة فى انتظار الأمر

www.ibtesama.com

بالمسير . ولم يكن روچرز أحسن منا حالا ، وهو يركع على الشاطئ فى نصف ثيابه ، وبيده غصن طويل يسبر به غور النهر .... ومن ورائنا كان هنود ستوكبريدچ ، يستترون فوق مرتفع من الشاطئ ، ليراقبوا الغابة خشية وصول الفرنسيين ؛ ومن أمامنا كان النهر يهدر ويزأر بصوت رهيب .

وتلبية لأوامر روچرز نزل أوجدن إلى الماء فإذا به يغوص تحت الزبد الأصفر ، وهو يضرب بذراعيه وساقيه على غير هدى ، وعندئذ هب روچرز إلى إنقاذه وجذبه من يده إلى الشاطئ ، فخرج إلينا يسعل ويشهق ، لفرط ما عاناه من اختناق تحت الماء .

واستند روچرز إلى الغصن الذى كان يسبر به الغور ، ونزل به فى النهر مرتكزاً عليه ، فلم تتخط المياه ركبتيه وظل جسده طافياً ، وإذ ذاك انبسطت أساريره ، ونظر إلينا باسماً ، ولكنها لم تكن ابتسامة القائد المحنك ، بل ابتسامة الصبي حين يتفوق على أقرانه بفكرة صائبة .

وأصدر لأوجدن أمراً لم أسمعه لشدة هدير النهر وزئيره ، ورأيت متطوعاً فارع الطول يضع بندقيته على الشاطىء . وينزل بهدوء إلى الماء ، ثم يتشبث بحزام روچرز . وتبعه متطوع ثان أمسك بحزام الزميل الذى سبقه إلى الماء .

www.ibtesama.com

ومن بعده ثالث فرابع ، وهكذا استطال صف المتطوعين وعلى رأسهم روچرز ، وأخذ يمتـــد فى الماء ببطء يثير الأعصاب .

وكان الماء يصل إلى خصورهم . ويصطدم بمتاعهم، ولكنهم ظلوا يعترضون التيار الصاخب فى سلسلة آدمية تشق طريقها عبر النهر .

وعند ما وصل روچرز على رأس هذه السلسلة إلى وسط المجرى أصاب رشاش الماء رأسه ، فنظر إلينا بعيون منتفخة واسعة ، تدلت فوقها خصلات شعره كأنها حشائش بحرية شاردة .

وظل يتقدم إلى الأمام خطوة خطوة وهو يسحب وراءه صف المتطوعين : تارة يغوص إلى وسطه ، وأخرى إلى فخذه ، حتى إذا وصل إلى الشاطئ المقابل ضم ذراعيه حول شجرة قائمة عليه .

وبذلك امتد بينه وبين الشاطئ الأول ممر بشرى يشده التيار ، ويدور حوله فى غضب يثير رذاذ الماء ويقلب الزبد الأصفر .

وعلى هذا الممر سرنا تباعاً ، وأقدامنا تتعثر فى الحلقات الآدمية ، مثلما يحدث لمتسلقى الجبال حين يتخطون الصخور والعثرات .

www.ibtesama.com

وكأن كثير منا يحمل فوق متاعه الأساسى بندقية أحد الرجال الذين تتكون السلسلة منهم ، فكانت مهمة بالغة المشقة فى مثل هذا الظرف العصيب . ولقد حاولت أن أسهل الأمر على نفسى ، فأدخلت البندقيتين فى قميصى وثبتهما فى حزامى ، ولكنهما برزتا أمام وجهى بارتفاع لا يقل عن ثلاث أقدام ، هذا إلى مافعله زناداهما ببطنى من وخز موجع يتجدد مع كل خطوة أخطوها .

وشعرت بأحجار المجرى تنزلق تحت قدمى ، والتيار البارد يجذب نصفى الأسفل بعنف ، وأذهلنى التيار الشديد بهديره الغاضب ولطماته الشديدة .

وتعالى الصياح مراراً حين وصلت إلى منتصف النهر ، فظننت أن الفرنسيين قد لحقوا بنا ، ولكن المتطوع الذى كنت أمسك به فى تلك اللحظة قال يستحثنى على السير :

ـ إنه فويل ، انزلقت قدمه ، وسقطت منه بندقيته .

وفى آخر المرحلة جذبنى روچرز بنفسه ، وأصعدنى إلى الشاطئ ، وهو يصيح بضباطه قائلا :

ـ أخرجوا الرجال من النهر ، أخرجوهم أحياء أو أمواتاً فلست أريد أن يحمل التيار جثة إلى سانت فرانسيس ، فيعلم العدو بقدومنا .

www.ibtesama.com

ولمحنا جسداً فى الماء كقطعة من الخشب ، فاندفعت مع أوجدن نسابق التيار ، حتى أمسكنا الغريق عند منحنى النهر ، وكانت جثة فويل وقد فارقتها الحياة ، فوضعناه على الشاطئ وثنينا رأسه إلى أسفل ، على أمل أن يخرج الماء من جوفه فتتردد أنفاسه من جديد ؛ ولكنه كان ميتاً ، وما من سبيل إلى إنقاذه مهما فعلنا .

وعدنا إلى مكاننا ، فوجدنا السلسلة الآدمية لا تزال على حالها ، وهنود ستوكبريدج يغوصون فى الماء كالكلاب ، وراء البنادق المفقودة . وغرق متطوع آخر غير فويل ، وسقط ستة من السلسلة البشرية فى النهر عند بدء العبور ، ولكن التيار ردهم إلى الشاطئ الأول ، فرقد اثنان عند حافة الماء ، وتمكن الأربعة الآخرون من الصعود إلى الجرف عرايا ، وجعلوا ينظرون إلينا عبر النهر فى تخاذل وذهول ، وأشار إليهم روچرز يستحثهم على معاودة الكرة للالتحاق بنا ، ولكنهم ظلوا فى مكانهم بلا حراك ، وقد أقعدهم النصب عن السعى إلى النجاة بأنفسهم .

قال آقرى ، وهو يشير إلى أحدهم :

ــ هذا من رجالى وأنا أراه ينزف ، فيجب أن أذهب إلى إنقاذه .

www.ibtesama.com

فهز روچرز رأسه وقال : بل تبقى هنا ولا تتحرك ، وإلا غرقت فى طريقك إليه . نحن مضطرون إلى تركهم فى مكانهم ، والأفضل لهم أن يظلوا حيث هم ، إن هذه السلسلة البشرية لا تستطيع الانتظار حتى ننتهى من إسعاف المصابين .

والتفت نحو أول رجل فى السلسلة يقول له :

— دع المصابين يتجهوا شرقاً ، ليهربوا من طريق الفرنسيين ، وانقل هذا الأمر إلى جارك ، لينقله بدوره حتى يصل إلى آخر الخط ، وعندئذ مر الرجل الأخير بأن يفلت قبضته بمجرد تبليغ هذه الرسالة .

وعبر الرجال النهر ثم وقفوا فى وجوم ينظرون إلى إخوانهم الراقدين على الشاطئ الآخر .

قال روچرز — وكأنه أحس بما يعتمل فى نفوسهم :

— أمر مؤسف جداً . مؤسف للغاية . ولكن الأمل لم ينقطع بعد ، فقد تسنح لهم فرصة النجاة ، إذا أسرعوا بالتوغل نحو الشرق . علينا بالمسير أيها السادة .

وزحف اليوزباشي چاكوبز إلى الشاطئ يجر معه ثلاث بنادق ، وأبلغنا أن بنادق كثيرة مازالت غارقة فى النهر . ولن يعجز عن إنقاذها إذا أعطى الوقت الكافى .

www.ibtesama.com

قال روچرز : الوقت الكافى ؟ إننا نسير بالفعل ، وليس من الممكن أن نتوقف .

وخرج الرجال من الماء واحداً بعد واحد وهم يرتعدون برداً ، ثم صعدوا إلى أعلى الشاطئ يبحثون عن بنادقهم .

قال روچرز : اتركوا الشاطئ إلى المرتفعات والبسوا ثيابكم ، واحشوا بنادقكم .

قال أوجدن يسأل روچرز : ألا ندفن جثة فويل ؟

فرفض روچرز بهزة من رأسه وقال : أمامنا مرحلة قد تزيد على خمسة عشر ميلا ، فهيا بنا نسير .

واتضح بعد التفتيش أن عدد الرجال أصبح مائة واثنين وأربعين ، منهم خمسة بلا بنادق .

وارتدى روچرز سرواله الجلدى ، وثبت قبعة المشاة على رأسه وقال : الحال أفضل كثيراً مما كنا نتوقع . وباستطاعتى أن أفتح مدينة كويبك بمائة واثنين وأربعين رجلا مثلكم ، سنسير بنفس النظام السابق . هنود ستوكبريدچ فى المقدمة ، والملازم تيرنر مع فصيلته فى المؤخرة .

وكان السير فى الممر الهندى سهلا مريحاً . فالأشجار عالية ، والحشائش ناعمة ، والأرض مفروشة بأوراق الصنوبر اللينة تحت أقدامنا المتعبة ... ولولا دقيق الذرة الذى أحمله فى جعبتى

www.ibtesama.com

والفرنسيون الذين يجدون فى أثرنا ، ما وقف حائل دون تمتعى بجمال الرحلة إلى سانت فرانسيس .

وانساب الرجال إلى الغابة المعتمة ، فى ثيابهم الجلدية الخضراء ، وقلانسهم الاسكتلندية ، ملتزمين غاية الصمت كأنهم بكم لا يتكلمون .

وعند ما لاحت طلائع الظلام ، تسلق روچرز شجرة صنوبر عالية ، ليكشف موقعنا من العدو ، ثم أصدر أمره بالتوقف عن السير .

وتجمع الرجال حول الشجرة يتطلعون إليه بوجوه جعلتها أضواء الغسق باهتة ، وسرعان ما انزلق إليهم هابطاً ، وقفز كالقط فى وسطنا ، وقال وهو يصلح هندامه : لقد بلغنا هدفنا ، فنيران العدو على بعد ثلاثة أميال ، إنها المدينة التى نقصدها .

وكنا فى اليوم الخامس من شهر اكتوبر ، وقد انقضى على خروجنا من كراون بوينت خمسة وعشرون يوماً ، قضينا اثنين وعشرين منها بلا مأوى أو طعام مطهوّ ، نسير طول الوقت بملابس قذرة ، وننام بالليل فى مستنقعات نتنة ، ونستدفئ بأغطية مبتلة تزيدنا برداً على برد . وقبل شهر واحد ، قال والدى إن الحرب قد باتت فى حكم المنتهية .

www.ibtesama.com

الفصل السابع والعشرون

كان روچرز قديراً على إتيان أخطر الأعمال ، فإذا أتاها وانتهى منها ، ألقى بنفسه فى أحضان مغامرة جديدة ، قبل أن ينال ولو أبسط قسط من الراحة ، مخالفاً بذلك سنة الطبيعة واحتياجات الإنسان . وكانت شخصيته الفذة تضفى قوة على الرجال المكدودين ، فتلهبهم حماسة ونشاطاً، وتملأهم حركة وحياة .

كان هذا دأبه وهذه صفاته ، ولم يتغير بعد ما قطعنا رحلة تكاد تكون قاتلة ؛ فما إن انتهينا من بناء المعسكر فى تلك الليلة ، حتى نادى على الملازم تيرنر والأمباشى آفرى ، وسار ثلاثتهم فى الظلام بهدوء وسكون . وكان يمشى فى المقدمة بسرعة تكاد تبلغ مبلغ الركض ، ولم يترك من الأوامر سوى ما قاله لأوجدن :

مُرْهم بالنوم فسوف يحتاجون إلى راحته .

وظننت أن النوم مستحيل ، لكثرة ما يتضارب فى رأسى من أفكار : كانت المعركة فى انتظارنا بعد ساعات معدودات ولم يكن من سبيل إلى تحاشى التذبيح والتقتيل ، فندمت على

www.ibtesama.com

طيشى وما قادنى إليه . وتمنيت لو أمكننى أن أعود إلى بيتنا ، وأنعم بهدوء الحياة فيه ... لقد كانت هواية الرسم سر نكبتى ، فياليت شعرى ماذا تستطيع الأصباغ والألوان أن تفيدنى عندما أرقد فى إحدى الغابات قتيلا مسلوخ الرأس ؟ ، ألم يكن أفضل لو بقيت فى بلدى أتمتع بمغازلتى إليزابيث ، وأستدفئ فى مطبخنا وأمى بجوارى تعد الفطائر والخبز ؟

قال الحاويش برادلى وهو يوقظنى بهزة عنيفة :

قم نبدأ الهجوم ، فلقد عاد الصاغ . والأمور تسير على ما يرام .

وكان القمر الذى كاد أن يكتمل بدراً ، يلقى أشعته الفضية على أطراف الأشجار ، فترسل أضواء خابية تتسلل إلى أشد الأركان حلكة وظلاماً . ورأيت الرجال يتحركون حولى ، وسمعتهم يثبتون أمتعتهم ، ويضعون عصى القتال فى أحزمتهم ، فقلت أسأل برادلى : كم الساعة الآن ؟

قال إنها ساعة القيام ، فانهض بالله عليك . وتعال نتلق أوامر الصاغ .

وجمعت أمتعتى . وتحسست جسدى وما عليه لأتأكد من تمام معداتى : فهذا « دفتر الأحوال » ، وهنا الرمح « السنكى »

www.ibtesama.com

والبلطة والرصاص والبارود وحجر الصوان ، وهاهى ذى البطانية والسكين والكوب والشوكة والملح والموسى والصابون وكانت قطعة الصابون أصغر قليلا مما كانت عليه يوم تركنا كراون بونيت ، فشممتها وأنا أتساءل أيكون من نصيبى أن أستعملها مرة ثانية . وجذبنى برادلى بضيق ، ودفعنى نحو حلقة الرجال المتزاحمين ، فامتلأت خياشيمى برائحة حيوانية رطبة ، تنبعث من ثيابهم الجلدية وعرقهم المتصبب وشعرهم المتعجن بالدهن . وكان هناك مصباح كبريتى يمر نوره الأزرق من فوق أكتاف الرجال ، ينعكس على أنف روچرز الكبير وشفتيه الغليظتين . ورأيته يقارن بوصلته ببوصلتى ضابطيه أوجدن ودانبار ، ولما رفع رأسه سقط عليه مزيد من الضوء ، فبانت عيناه غائرتين ، وظهر وجهه بتجاعيده وتغضنه ، فتمثل لى كأنه جمجمة تكشر عن أنيابها .

قال : أهنا الرجال جميعهم ؟

هتف الجاويشية يجيبونه : كلهم موجود .

قال : إذاً انتبهوا جيداً لما أقول : لقد ألقينا نظرة على المدينة ، أنا وتيرنر وآفرى ، فوجدناها تمتد على الشاطئ المرتفع ، ولا شك أنها فى موقع نموذجى للهجوم ، سواء أكان ذلك من حيث الحجم أم المسالك التى تتجه إليها رأساً .

www.ibtesama.com

الظروف كلها فى صالحنا ، حتى الرياح ، فمن حسن الحظ أنها تهب من الغرب ، ولن تشم كلابهم رائحتنا .

قال أحد الرجال : بل من حسن حظ الكلاب ..

وسرت ضحكات خافتة اختلطت بحفيف أوراق الشجر .

قال روچرز وهو يتجاهل ما سمعه : وليس هناك حرس على وجه الإطلاق ، فقد ظلوا يرقصون طويلا ، وتركناهم فى منتصف الليل ومازالوا يرقصون ، ولعلهم أيضاً سكارى ولكنه احتمال لا يصح أن تعتمدوا عليه .

وسرت فى كتلة المتطوعين همهمة . قال روچرز :

– اسمعوا الآن كلامى واذكروه ، فالوقت ضيق ، وعلينا أن نتم مهمتنا فى مثل لمح البرق ، وإلا تبعونا كالزنابير . لقد صدرت إلينا الأوامر بمحو هذه المدينة من سجل الوجود فعليكم بالتنفيذ ، وليس أفضل من أن تقتلوا كل قادر على حمل السلاح ... اقتلوهم بسرعة ، ولا تتركوا نفساً يتردد فى أجسامهم ، وإياكم أن تدعوا واحداً من أولئك الملاعين يهرب على قيد الحياة ... ولكن احذروا أن تقتلوا أسراهم البيض أو تفتكوا بهنودنا ... هنودنا يتميزون عن الآخرين بخطوط بيضاء حول أجسادهم ورءوسهم ، أما الأسرى البيض ، فستجدونهم فى بعض أطراف المدينة .

www.ibtesama.com

وتوقف عن الحديث برهة ، فأحسست ببدنى يرتجف خوفاً ورهبة .

عاد يقول فى لهجة أكثر خشونة :

— لقد فرغ طعامنا ، وتمزقت ملابسنا ، ولابد لنا من الغذاء والكساء ، إذا كان فى نيتنا أن نعيش أسبوعاً آخر .

وارتجف ضوء المصباح الكبريتى ثم انطفأ ، فاختفى وجهه كما يختفى الشيطان فجأة فى عالم الأرواح . ولكن صوته مضى يقول : تذكروا كيف عذبوا فيليس وكروفتون ، وثقوا أننا إذا لم نبدهم اليوم عن آخرهم ، فعن قريب يأتون إلينا فى نيوإنجلند ، ويسلخون أهلنا أحياء ، كما فعلوا مراراً من قبل .

وخيم علينا السكون لحظة مضت رهيبة مثل الظلام الذى يحتضن الغابة .

وعاد الصوت الخشن يقول :

— وإليكم الآن خطة الهجوم .... سنقبع عند حافة الغابة حتى يشرق الفجر ، وحينئذ يهجم أوجدن ورجاله وجاكوبز وهنوده من اليمين ، وهو منحدر النهر ، أى طريقهم الوحيد إلى الهرب إذا استطاعوا إلى ذلك سبيلا .

وكانت بقية الخطة محكمة إلى أبعد حد : فعلينا أن نخرج

www.ibtesama.com

من الغابة فى صف طويل يتقدمه أوجدن وجاكوبز وفارنجتون وجرانت ، ويتوسطه دانبار وتبرنر وآفرى ويختمه جنكنز وكامبل وكورجل . وعند ما يعطى روچرز إشارة البدء ، يقوم الضباط والجاويشية بكسر أبواب البيوت ، ويقف بقية الرجال على بعد عشر خطوات فى انتظار خروج الجنود . وكانت الأوامر تقضى أيضاً بأن يخصص رجل من كل فصيلة للبحث عن المواد الغذائية ، والأوانى اللازمة لطهوها ، ، فإذا وجدها ، أسرع بإعدادها فى وسط المدينة حيث يلتقى الجميع عند نهاية المعركة .

وكان على روچرز أن يلزم جانب النهر استعداداً لتقديم المعونة ، أما المسجونون والأسرى ، فيؤتى بهم إلى الملازم دانبار حيث يقف مع فصيلته عند الطبل .

وسألت چيس عما يقصده روچرز بالطبل ، فأكد بلهجة الاطمئنان أن روچرز لا يلقى القول على عواهنه ، ومادام قد أشار إلى طبل . فلا بد أن نجد شيئاً يشبه الطبل عند دخولنا المدينة .

قال روچرز : استعدوا للسير فى صف مفرد ، ولسنا فى حاجة إلى كشافة فى المقدمة أو على الجانبين مادام حرس المدينة نياماً ، وكل ما أريده منكم أن تسيروا واحداً خلف الآخر . هذا ما عندى ، فهيا بنا !

www.ibtesama.com

وسمعت صوت أوجدن ينادى الحاويش برادلى . ودفعنى هذا من حمالة متاعى إلى الأمام . ثم شعرت بمن يمسك بحزامى من الخلف . وتوالت الأيدى تتحسسنى فى الظلام . وتناهت إلى سمعى همسات مكبوتة ، وأنفاس تتردد فى السكون بوضوح .

وأسرع الرجال السير فى الممر الضيق بين الأشجار ، منتظمين فى صف واحد ، ولا من صوت يعلو إلا احتكاك المتاع وهو يتوالى مثل فحيح ثعبان ضخم ينساب بين جنبات الغاب . وبين آن وآخر تنعكس أشعة القمر على الأسلحة ، فتلمع فى كبد الظلام ببريق خاطف .

وسرت فى الهواء برودة تبشر بقرب مطلع الفجر ، ثم هبت علينا رائحة الخشب المحروق .

ووقف أوجدن بالممر يقول : أنزلوا أمتعتكم على الأرض !

فأنزلنا كل ما لا نحتاج إليه من متاعنا فى القتال ، ثم جلسنا القرفصاء نثبت الرماح « السناكى » فى أطراف البنادق .

واختفى نور القمر عن أطراف الأشجار ، وأخذت المرئيات فى سيماء الخيالات الباهتة فى ضوء بواكير الفجر . وسقط ذلك النور الواهن على الأصباغ والخطوط التى طلى بها اليوزباشى چا كوبز وهنوده أجسامهم ، فبدوا للعين كأنهم

www.ibtesama.com

أشباح مقطعة الأوصال . أما بقية الفصائل فقد تعذرت علىّ رؤيتها ؛ ولكنى كنت أسمع صوت المتاع وهو يلقى على الأرض ، والرماح وهى تثبت فى أطراف البنادق .

ونعق غراب فى مكان ما أمامنا ، فتردد نعيقه عالياً خشناً .

وتلاشت بواكير الفجر ، وزادت الأشباح حلكة .. وعوى كلب من مكان قريب فى صوت متواصل حزين ، فهمهم الرجال وتهامسوا خشية أن يوقظ العواء أهل المدينة النائمة . وودت فى تلك اللحظة أن أحدث چيس بتشام فى أمر ذلك الكلب ، ولكنى خشيت أن تصطك أسنانى إذا فتحت فمى للكلام ، فقد كنت بردانَ جوعان ، بل كنت فوق ذلك خائفاً مرتعـــداً ... خائفاً من الكلب ، خائفاً مما ينتظرنا ، خائفاً من الخوف الذى أشعر به . وعوى الكلب ثانية ، فجاء عواؤه فى هذه المرة ملحاً موئلاً . وتنهد چيس بتشام ،مرتعداً ، وشعرت أنه مثلى بردان وجوعان وخائف .

وانبلج الفجر أخيراً ، فوقف روچرز وأوجدن أمام الأشجار السود يستكشفان فرجة متسعة بدأت تظهر فى الغابة أمامنا .

ورفع روجرز بصره إلى السماء يفحصها ، ثم ارتد عائداً

www.ibtesama.com

نحونا ، فنهض الجاويش برادلى إلى لقائه ، فقال له : اذهب فى هدوء إلى مجرى النهر عند طرف المدينة وإياك أن يفلت من الموت أحد .

ثم سار على طول الصف الممتد ، فرأيت فارنجتون ودانبار وجرانت ينهضون الواحد بعد الآخر ، لتلقى أوامره ، وبعدها عادوا إلى الجلوس فى أماكنهم .

وبدأ الضـباب الخفيف يتسامى فى بطء ، كأنه بخار يتصاعد من ماء النهر ، ومن خلال هذه الغلالة الرقيقة ظهرت بيوت سانت فرانسيس متناثرة حول كنيسة صغيرة ، ليس بها سوى هيكل هزيل لبرج معلق فى رأسه جرس . كان بعض البيوت مبنياً من جذوع الشجر ، وبعضها من الألواح الخشبية على طريقة مساكن البيض ؛ ولكنها كانت متراصة فى زوايا عجيبة ، كأن يداً قد أزاحت كلا منها عن مكانه الصحيح ، وبذلك اكتسبت طابع الأحلام المخالفة للواقع ... وكان من العسير أن يقرن الذهن بين هذه البيوت الهادئة والشياطين الذين بثوا الرعب فى نيوإنجلند ، أولئك الذين أسروا من جدادى ريتشارد وسارة ناسون ، وأبقوهما فى ربقة الذل سنوات وسنوات .

وبدت المدينة مهجورة لاحياة فيها ، فلا حركة فى الميدان

www.ibtesama.com

ولا قرب البيوت . وساهم الصقيع الذى كسا البيوت والمزروعات بغطاء ناصع فى إكسابها منظر الموت والفناء . وكانت بوسط المدينة رحبة واسعة ، بها أحواض منزرعة بالذرة والشمام والقرع ، وفى جانب آخر منها أكوام من الثمار .

وأقبل روچرز ، وأرخى البلطة المعلقة فى حزامه ، ثم أخذ بندقيته ، وأشار بيده يأمر بالمسير . وقام الرجال واقفين ثم اندفعوا إلى رحبة المدينة جرياً .

www.ibtesama.com

الفصل الثامن والعشرون

كنت أتوقع مع كل خطوة أخطوها . أن تفتح أبواب القرية ونوافذها ، لتقذف على صف المتطوعين المهاجمين وابلا من الرصاص .

وتصورت أن الضجة التي تصدر عنا كافية لإيقاظ الموتى ، فلقد كانت أحذيتنا تهرس الجليد على الأرض ، وأقماع البارود وأكياس الرصاص ترن في أحزمتنا .

لم أكن أشعر بأني أقوم بعمل غير عادى ،وإنما داخلنى ذلك الإحساس الذى طالما انتابنى في رحلات الصيد وأنا أجرى آخر مرحلة نحو النهر ، لأفاجئ البط البرى قبل أن ينتبه إلى وجودى ، فيطير بعيداً عن مرمى بندقيتى .

وأضاءت السماء بأشعة الشفق الوردية . فلمحت وأنا أجرى وألهث ، أعمدة تقوم أمام البيوت ، ومن أطرافها العليا تتدلى أقراص مغطاة بالشعر . وكان يفوح في الجو عبير لطيف تمتزج فيه رطوبة الأعشاب بروائح الدخان والعطور والدهون ، وكانت الأرض الممتدة أمام البيوت صلبة مستوية كشوارع المدن ، ملساء كحلبة الرقص ، وكانت الشواهد تدل على

www.ibtesama.com

أنها تستعمل بالفعل للرقص ، بدليل ما رأيته فى وسطها من طبل ضخم ، يكاد يبلغ ارتفاعه كتف الرجل .

كانت نوافذ البيوت المعتمة على شكل فتحات بسيطة بعضها أسود اللون ، وبعضها الآخر تغطيه أوراق عليها رسوم أسماك وطيور وحيوانات ؛ وعلى الجدران تستند إطارات شدت على جلود الحيوانات ، أما الأقراص المغطاة بالشعر فوق الأعمدة الخشبية ، فقد كانت جلود رءوس ضحاياهم ! ! وكان يوجد من هذه الجلود مئات ومئات ، يهزها نسيم الصباح فتتراقص فى الجو بهدوء ، فجعلت أتساءل : ترى أكان بينها جلد رأس شقيق كروفتون ؟

واخترقنا الرحبة راكضين ، وقد تعلقت أنظارنا بالبيوت القائمة على طول النهر ، وكنا نتوقع فى كل لحظة أن يخرج إلينا الهنود دفعة واحدة ، أو ينهالوا علينا برصاصهم من النوافذ . وكنت أجرى بالقرب من طليعة الرجال المكلفين بمهاجمة مؤخرة المدينة ، فمررنا بالكنيسة المتواضعة ذات الهيكل الصغير ، ثم بالمساكن التى تليها ، حتى وصلنا إلى آخر بيت فى المدينة . وتصدى لنا كلب نحيل الجسد أصفر الوجه ، كاشراً عن أنيابه ؛ ولكن بلطة انغرست فى جنبه ، فسقط صريعاً ، قبل أن تصدر منه زمجرة واحدة .

www.ibtesama.com

واصطف الرجال على استعداد للهجوم ، وأرسل روچرز من مكانه البعيد صفيراً حاداً وصل إلى أسماعنا المتوترة كأنه حد السكين . فانطلق الضباط والجاويشية يتسابقون نحو أبواب الدور ، وكمن چاكوبز وهنوده متربصين . وألقى الجاويش برادلى والملازم فارنجتون بجسميهما على باب البيت الخشبي الذى كنت أقف أمامه مباشرة ، فانخلع من «مفصلاته» بصرير عال .

ولم تمض ثوان إلا والقرية كلها تعج بضوضاء اختلطت فيها الضربات بصياح الآدميين . وانفلت من الباب الذى اغتصبه برادلى وفارنجتون هندى عجوز يلتحف بغطائه ، ولكنه لم يلبث أن تعثر فيه وسقط على الأرض . وقفز برادلى جانباً ، بعد أن غاصت بلطته بين كتفى الهندى الملقى على الأرض .

وانطلقت من ذلك الباب ثلاث نساء قلص الرعب وجوههن ، ولكن برادلى مد ساقه فى طريقهن ، فسقطن فى كومة آدمية ؛ وحاول صبي يافع أن يقفز من فوقهن ، فتعثر وسقط بدوره ، وعندئذ انقض عليه فارنجتون كالقط ، ولمحت بياض مقلتيه وهو يستدير بوجهه إلى أعلى ، ثم لمعت بلطة فارنجتون وهى تغوص بين هاتين العينين .

www.ibtesama.com

ونهض النساء الثلاث من كبوتهن ملطخات بدماء الصبي . فأمسك برادلى باثنتين منهن ، وشبك ملابسهما برمحه «سونكيه» ثم ساقهما خلف الخطوط وهما يتمتمان بكلام غير مفهوم ؛ أما الثالثة فقد أسرعت بالهرب كأنها إوزة فزعة .

وأطل رجلان آخران من فتحة الباب ، ودوت بندقية چيس بتشام بجوار أذنى ، فاختفى أحدهما وتهاوى الآخر فى بطء ، حتى تمدد على عتبة الدار . ودارت فتاة وصبيان حول الجثة الملقاة ، وانطلقوا يعدون نحونا فى خط متعرج ، وكان أحد الصبيين فى سن أخى الصغير أوديورن ؛ فلما صوب كرفتون بندقيته يبتغى قتله ، دفعت البندقية بعيداً ، وأمسكت بالصبى . وكان جسم الصغير مطلياً بالدهن فصار ينزلق فى يدى كثعبان يتلوى ويتثنى رغبة فى الإفلات من قبضتى . ووقف كروفتون أمامى يتحين الفرصة ليغرس رمحه « سنكيه » فى ذلك الجسد الأحمر المتلوى ، قلت له : إنه صغير جداً . وسنأخذه أسيراً .

ونظر إلى كروفتون نظرة وحشية ، ثم التفت يراقب باب الدار ، فلطمت الصبى بقبضتى على مؤخر رأسه ، ولما سقط مغشياً عليه ، التقطت البندقية . وجررته من ذراعه وسلمته لفصيلة دانبار .

www.ibtesama.com

كان دانبار فوق الطبل يصدر الأوامر ، ورجاله يعملون فى دائرة حوله . وتزاحمت النسوة داخـــل الحلقة ، وقد تمزقت ثيابهن وغطين بالأقذار ، ولم يكن معهن سوى فتيات قليلات ، منهن واحدة عارية من الملابس وبجانبها صبى صـــغير ، وكن يجلسن جميعاً على الأرض متلاصقات ، لا يتحركن ولا يتكلمن . ولا يرفعن أنظارهن عن الأرض .

وألقيت بالصبى عند قدمى أحد المتطوعين ، وعدت جريا إلى مكانى فى الفصيلة .

وتحولت أضواء السماء الوردية إلى حمرة قانية ، وما زال المتطوعون يهرعون من مكان إلى مكان ، مثلما تفعل الخنافس حين تتحرك فى مستنقع آسن بلا هدف ولا غرض . وتوالى صوت الطلقات سريعاً متواصـلا كأزيز النيران فى الغصون الخضراء ، وتصاعـــد دخان البارود فوق الرءوس فى طبقات ، ما إن تقع عليها أشعة الشمس حتى تتلاشى بلون وردى فى السماء .

وعند ما رجعت إلى مكانى أمام البيت المعهود ، رأيت على الأرض هندياً آخر وامرأة ، وكان كروفتون يصيح بجنون وقد احتقن وجهه :

— ما زال فى هذا البيت هنود آخرون ، لقد رأيتهم بعينى .. أؤكد لكم أنى رأيتهم بعينى !

www.ibtesama.com

وهزه اليوزباشي أوجدن من ذراعه ، ثم جرى إلى البيت ودخله ، وسمعنا صوت طلقتين فى وقت واحد تقريباً ؛ تراجع على أثرهما أوجدن إلى الخارج واحتمى بجانب الباب .. وانحنى على بندقيته يحشوها من قمع البارود المغطى بالدماء ، ولكنه لم يلبث أن جلس على الأرض فى تثاقل وهو يسعل فهرع إليه برادلى وكروفتون ، وما إن ألقيا عليه نظرة حتى استدارا وقفزا إلى داخل الباب الذى خرج لتوه منه .

وتعالى أنين مختنق ، أعقبه صوت سقوط جسم على الأرض ، ثم طلقة مكتومة .

وأقبل الملازم جرانت من وراء البيت يجرى ويصيح قائلا :
إنهم يهربون ، إنهم يفرون فى الزوارق من جهة النهر .

وجريت أنا وچيس بتشام حول البيت منحدرين إلى ضفة النهر . ورغم سرعتنا الفائقة استطاع روچرز أن يسبقنا وهو يصدر الأوامر فى صوت جهورى حازم . وأقبل على صوته اليوزباشي چاكوبر ، ومن خلفه اثنا عشر هندياً من رجاله يجرون كأنهم قطيع من الذئاب . وسمعت من ورائى أصوات رجال آخرين يجرون ويصيحون :

كان نهر سانت فرانسيس أعمق غوراً فى هذه النقطة عما كان حيث عبرناه ، ومياهه الداكنة تنساب فى صفحة

www.ibtesama.com

هادئة لامعة ، فتنعكس عليها صورة الأشجار القائمة على الشاطئ المقابل ، وهو ترفل فى حلة من أضــواء شمس الصباح المشرقة . وأبصرت رءوساً سوداء تســبح وسط التيار البطىء متجهة نحو الشاطئ البعيد ، وعلى بعــد منها خمسة زوارق تنزلق مسرعة صوب الشمال : زورق به ستة هنود ، وزورق به أربعة ، يجذفون فى همة ونشاط ، فتهتز الزوارق وتتأرجح فى سرعة تحت ضربات مجاذيف الرجال الحمر ؛ أما الزوارق الثلاثة الأخــيرة فكانت صغيرة ، ولم يكن بها مجاذيف ، فجعل ركابها المتوحشون يجذفون بأيديهم ، وهم ينشدون أغانى بدائية فيها تحدٍّ وبغضاء .

وركع روچرز على ركبته وأطلق النار ، وانتصب هندى من راكبي الزوارق الأول واقفاً ، ثم تهاوى على نفسه وسقط على المجذفين فى المؤخرة ، واختل توازن الزورق ودار حول نفسه دورة مفاجئة ثم انقلب ، فابتلعه التيار الجبار بمن فيه ، وغاب بركابه تحت الزبد الأصفر .

وسار روچرز على الشاطئ محاذياً الزوارق ، والرجال معه يركعون ويصوبون ويطلقون النار ، ثم يتبادلون التعليقات على طلقاتهم .

قال چيس : سآخذ الرجل الذى يتجه نحو الشاطئ .

www.ibtesama.com

وتصاعد الدخان من بندقيته ، وإذا بالهندى المقصود يتوقف وقد شارف على الوصول إلى الشاطئ البعيد ، ثم يميل إلى الأمام ، وينقلب فى المياه رأساً على عقب ، ثم يطويه التيار فى بطء .

وقلت دون أن أشعر : إصابة رائعة !

فقال چيس بهدوء : هذا ثالث من اصطدتهم اليوم . واحد أصبته وأنت تصارع ذلك الصبى ... ولم كانت رمية صائبة ؟ فما إن لمحته بين البيوت حتى أطلقت رصاصتى دون تصويب فقتلته .

وأسقط رصاصة جديدة من بين أنامله فى فوهة البندقية ثم دفعها فى رفق بالسيخ الحديدى . وكان يفعل ذلك وهو ينظر باهتمام نحو رأس يتحرك فى وسط النهر . كانت صفحة الماء تلمع فى لون اللهب تحت أشعة الشمس المنعكسة عليها فرفعت بندقيتى وصوبتها نحو ذلك الرأس وأطلقت الرصاصة فى يسر كأننى أصطاد قطاة . وتوارى الرأس تحت الماء . وثارت فى مكانه دوامة ، ثم برز ظهر الرجل فوق سطح الماء وهو يتقلب بطيئاً وأحسست بالدهشة من أعماق نفسى . وانتابنى ذلك الانفعال الذى كنت أحس به حين أصيب القطاة وأراها تسقط من الجو ميتة .

www.ibtesama.com

واستمر دوى الرصاص ، وتحولت الرءوس السابحة فى النهر إلى أجسام طافية وجوهها منكسة إلى أسفل . وتوقف الغناء بعد أن انتهى أمر الزوارق الأربعة التى فرغت من ركابها ، فتاهت فى المياه على غير هدى ، أما الزورق الخامس فلم يبق به سوى رجل واحد استمر يجذف بكلتا يديه بيأس ، والرصاص يتساقط حوله فيثير رشاشاً من الماء .

وهز چيس رأسه الأشيب وقال :

— أظن الرماة منفعلين ، وإلا ما طاشت رصاصاتهم ، ليتنى كنت فى مكانهم ، حتى أثلج صدرى بقتل هندى آخر .

وانتصب الهندى بالزورق الخامس على قدميه وأمسك بحافة الزورق فهوت حافته تحت سطح الماء وانقلب فيه . ولمحت امرأة وطفلا يسقطان من الزورق فى الماء ، ولعلها كانت ميتة طوال ذلك الوقت ، فقد كانت ممددة فى قاع الزورق ، ولم تصدر عنها عند سقوطها حركة أو محاولة للسباحة ، بل اختفت لتوها تحت سطح الماء . ورأيت الهندى يتقلب فى الماء مرتين ، كأنما يحاول عبثاً البحث عن المرأة أو يجرب السباحة تحت الماء لينجو بنفسه ، ولكنه بعد أن طفا فوق الماء مرة ، عاد وغاب فيه إلى غير رجعة .

وتعالى صوت روچرز ينادى الرجال الذين ابتعدوا عنا ،

www.ibtesama.com

واستدرت عائداً ، فإذا بقرص الشمس قد ارتفع فوق بيوت القرية ؛ ورمش چيس بتشام بعينيه كأنما أيقظته أشعة الشمس الذهبية . كان ظل المتطوعين ، رغم قاماتهم القصيرة وأجسامهم الصغيرة ، يمتد على الحشائش التي غطاها الصقيع ، طويلا هائلا ، وخيل إلى أن كل ما حول انكمش وضمر إلا قرص الشمس وتلك الظلال .

ووقف روچرز مع تيرنر وفارنجتون يقول وهو يلوح بذراعه غاضباً : استدعوا هؤلاء الرجال ! نادوهم للاجتماع حول الطبل ! أريد الآن أن أستعرض هذه الفصيلة !

وعدنا أدراجنا نجرى نحو القرية .

وصاح بى الصاغ قائلا :

— تاون ، أريدك هنا ، كن بجانبي عندما أستجوب الأسرى .

www.ibtesama.com

الفصل التاسع والعشرون

لم يكن قد مضى نصف ساعة منذ أن اخترقنا أرض الرحبة ، ولكن التغير الذى حدث فى ذلك الوقت القصير كان أعظم من أن يصدقه العقل ؛ فالرحبة قد تحولت إلى ساحة عامرة بالجثث ، والبيوت تجردت من أبوابها ونوافذها ، والأرض امتلأت بأكوام من الجلود والأغطية والأدوات المنزلية ، والأعمدة التى كانت تحمل فراء الرءوس منذ برهة ، تمايلت فى ذلة أو تحطمت فى قطع متناثرة . وفى ذلك النور الساطع الذى أرسلته شمس الصباح المشرقة ، رقدت مدينة سان فرانسيس فى خراب ما بعده خراب .

ووقف المتطوعون أمام البيوت فى جماعات يأكلون من قدور هندية ، وهم يراقبون بانتباه أسطح المساكن ونوافذها ، فقد كنا نعلم أن بقية من الأعداء ما زالت تختفى بين الأطلال الماثلة أمامنا . وسارت جماعات أخرى بين الجثث المنتثرة على الأرض ، تقلبها بالرماح « السناكى » بحثاً عن الأساور والحلى الفضية ، وتفحص وجوهها خشية أن تكون الحياة ما زالت تدب فى بعض منها . وشغل فريق ثالث من المتطوعين بأمر الملابس ؛

www.ibtesama.com

فمن الرجال من كانوا يلفون أشرطة من القماش حول سيقانهم ، ومنهم من انهمكوا فى تجربة أحذية الهنود وسراويلهم ، ليستعيضوا بما غنموه منها عن ملابسهم المهلهلة . أما الباقون فقد اجتمعوا حول القدور يعدون لنا من الطعام ما نسكت به عواء أحشائنا الجائعة .

وكانت فصيلة دانبار تحيط بالأسرى الذين يبلغ عددهم نحو عشرين بين امرأة وطفل ، يجلسون حول الطبل فى أردية زرقاء فوقها قمصان تنسدل إلى أفخاذهن . وكان بعض النسوة يحمل أطفالا قذرين ، وكانت الفتاة العارية قد ارتدت مايسترها وجلس أوجدن على الأرض بجوار الطبل مجرداً نصفه الأعلى من الملابس ، وبالقرب منه الصبى الذى لطمته على رأسه وأنجيته من كروفتون مع آخر أصغر منه ، وكان الصبيان يحملقان فى أوجدن بدهشة وذهول .

ورأيت على صدر أوجدن العارى ندبتين داميتين فوق ضلوعه من رصاصتين أصابتاه ، فعكف على تنظيفهما بخرقة بيضاء ، وماء ساخن فى غلاية .

وحين أقبل علينا روچرز من الساحة مسرعاً ، نهض الملازم دانبار ليلقاه ويقول له : لقد بدأ الرجال ينهبون البيوت وأخشى أن يثقلوا أنفسهم بأسلابهم ، فلا يمكنهم حمل كفايتهم

www.ibtesama.com

من الطعام ، ولذلك يجب أن نقفهم عند حدهم .

قال روچرز بمرارة : لو نهاهم الله عن نهب البيوت ما أطاعوه ، ولكنى سأعقد عليهم الأمور قدر المستطاع .

ثم التفت إلى فارنجتون وتيرنر يقول : هذه الأوامر تنفذ بمنتهى السرعة : على الحاويشية أن يكلفوا الفصائل بإحضار الأمتعة من الغابة ... الفصيلتان الأولى والثانية أولا . فإذا أحضر رجالهما متاعهم ، تذهب الفصيلتان الثالثة والرابعة ، ثم الخامسة والسادسة ... الأمتعة كلها تصف أمام الطبل لأراها بنفسى ، وبعد ذلك تستعد الفرقة بكاملها للعرض ... هذه أوامرى أيها الملازم تيرنر ، فأسرع بتنفيذها ولا تتأخر لحظة .

ثم قال لفارنجتون وهو يفحص سراويله الجلدية الممزقة : أما أنت أيها الملازم فارنجتون ، فعليك أولا أن تحضر لى بعض الطعام ، وبعد ذلك تحرق الأبنية كلها ما عدا المخازن الثلاثة ، فنحن فى حاجـــة إلى الاستيلاء على محتوياتها . ولكن قبل أن تشـــعل النار ، أريدك أن تبحث لى عن سروال وحذاء ، وإذا لم تجد ما يناسبنى حجماً ، فتكفينى بطانية زرقاء ألف ساقى بجزء منها ، ولكنى لا أريد بطانية موبوءة بالقمل ، وإلا تفشت الحشرات فينا ، وأصبح

www.ibtesama.com

من المستحيل أن نتخلص منها . وإذا وجدت أغطية جيدة ، أو «تزالك» وأحذية ، فكوّمها أمام المخزن ، وحاول أن تأتينا بجانب من ذلك القماش الأبيض ، لنصنع منه ضمادات للجروح .

ووضع إصبعه على شفته السفلى مفكراً ثم قال : هل دخل أحدكم الكنيسة ؟

ولم يجبه أحد ، فقال وهو ينقر بإصبعه راحة يده :

— فى هذه الكنيسة تحف فضية سمعت أنها كبيرة ثقيلة ، وسيندم كل من يحمل فضة بدل الطعام .... نعم ... سيندم ندما بالغاً .

وهز كتفيه القويتين ، كأنه يعلم ألا فائدة من إسداء هذه النصيحة .

قال لفارنجتون : أبلغ اليوزباشى چاكوبز أنى أريد استجواب الأسرى ، وعليه أن يكلف آمرى بإحصاء عدد جلود الرءوس المعلقة فوق الأعمدة . خذ الفصائل الثلاث الأخيرة ، لمساعدتك فى حرق القرية ، وأوقف الفصائل الوسطى أمام البيوت وخلفها ، لتتصيد الهنود المختبئين عندما يهربون من النار ، فلا بد أن يكون هناك بعضهم ما زال مختفيا داخل الأبنية .

www.ibtesama.com

وأومأ فارنجتون برأسه ، فقال روچرز وهو يصرفه بإشارة من يده الضخمة : حسنا ... هذا كل ما عندى .

وركض تيرنر وفارنجتون نحو المتطوعين الذين يجوبون بين القتلى ، ويقلبون جثثهم بالرماح ، كما يقلب الزارعون حزم القمح فى الأجران .

وسار روچرز إلى حيث يجلس أوجدن ، وركع بجواره يفحص إصابته ، وهو يقول : ماذا تحس ؟

قال أوجدن ضاحكاً : أحس كأنى سكبت على نفسى صابوناً مغلياً .

قال روچرز : وهل تستطيع السير ؟

قال : نعم ، إذا لم تسوء حالة الجرح .

قال روچرز : إذاً لا تدعها تسوء .

ونهض واقفاً وهو يأخذ الضمادات من برادلى ، ثم قال له :

ـ اذهب أنت أيها الجاويش برادلى واجمع رجالك ، ثم مُرهم أن يحضروا أمتعتهم ، وأحضر لى متاعى وأمتعة أوجدن وتاون أيضاً .

ورفع أوجدن عن الأرض ، وأقامه على قدميه كأنه طفل ، وقال له :

ـ أنت تعلم يا أوجدن أننا مضطرون إلى ترك هذا المكان.

www.ibtesama.com

بأسرع ما يمكن ، فجرب أن تسير قليلا ، لنرى إذا كان الجرح ينزف . وإن نزف . نحملك فى بطانية حتى تتحسن حالك .

فقال أوجدن : لا تشغل بالك بأمرى أيها الصاغ ، فلن تعجزنى الوسيلة إلى العناية بنفسى .

وأسرع روچرز بالعودة إلى الملازم دانبار ، وكان هذا يقف فوق الطبل ، يراقب النيران تشتعل فى آخر بيت بالمدينة ، وبالقرب منه اثنا عشر رجلا يحملون بنادقهم فى انتظار خروج المختفين .

قال روچرز لدانبار : أسرع بإرسال نصف رجالك لإحضار أمتعة الفرقة ، فليس لدينا وقت نضيعه ، وأبعد هؤلاء الأسرى عنا ، حتى لا يسمعوا حديثنا .... سأجلس على الطبل لاستجوابهم ، فعلىّ بهم واحداً بعد واحد ، وكن معنا ، لأنك خبير بأنجع الوسائل فى معاملتهم .

ونزل دانبار عن الطبل ، وحل روچرز مكانه ، فبدا بقبعته الضيقة ذات الحافة المعقوفة إلى أعلى ، وعيونه المنتفخة ، ولحيته المشعثة ، وملابسه الممزقة ، مثل طير جارح غاضب .

وازداد الشبه وضوحاً عند ما انحنى على صحن الطعام الذى أتاه به أحد الرجال ، يزدرد ما فيه من خليط الذرة والبقول ،

www.ibtesama.com

وهى الأكلة التى يسميها الهنود « سكوتاش » . وبينما هو منهمك فى الأكل بنهم شديد ، لمحنى أنظر إليه من بعيد ، فدعانى إليه ، وطلب إلىّ أن أشاركه فى طعامه ، وعندئذ أخرجت ملعقتى ، وجعلت أغترف من صحنه بسرعة لا تقل عن سرعته . ولما فرغ الصحن ، رأيته يمسحه بأصابعه ويلعقها إصبعاً إصبعاً ، ثم سألنى وهو ينظف يده فى سرواله :

— أين دفتر الأحوال ؟

وأعطيته إياه ، ففتحه ثم انطلق ضاحكاً وهو يقول :

— كنت أتوقع أن تنتهز الفرصة ، وتشبع هوايتك برسم الهنود ، ولكنك لم تفعل . انظر إليهم !

وأشار بيده إلى الجثث الحمراء الملقاة فى الرحبة الواسعة .

وكان آخر بيت فى القرية قد تحول إلى كتلة من النيران ، تبعث فى الجو ألسنة مندلعة تبدو داكنة اللون بجانب أضواء الشمس التى صبغت رءوس الأشـــجار القائمة على الشاطئ الآخر بحمرة قانية ، وجعلتها تظهر من بعيد كأنها ستار براق ترقد فى أحضانه القرية الميتة .

واندفع فجأة من بين ألســـنة اللهب شبحان ، هندى وهندية ، وقد علقت النار بملابسهما ، كأنها رءوس سهام مضيئة . ودوّى طلق نارى انكفأ الرجل بعده على وجهه ،

www.ibtesama.com

ثم استعاد وقفته لحظة قصيرة ، تهاوى على أثرها جثة هامدة ، أما المرأة ، فقد اندلعت النار فى ملابسها ، فجعلت تصرخ وتدور حول نفسها .

قال روچرز : ماكان فى استطاعتك أن ترسم هذا المنظر ، دون أن يصيبك الغثيان .

واندفعت المرأة نحو النهر تولول ، ثم سكت صوتها ولم نعد نسمعه . وفى أثناء ذلك ، اشتعلت النيران فى ستة بيوت أخرى ، وتصاعد الدخان من غيرها . وأقبل الرجال بالأمتعة التى كنا قد تركناها بالطريق قبل الهجوم ، وكانوا يسيرون بها فى بطء وظهورهم تكاد تنقصم تحت ثقلها الشديد .

صاح روچرز من فوق الطبل يستحثهم على الإسراع :

— كفى تلكؤاً ، ألا تقدرون قيمة الوقت ؟

ووضع إصبعين بين شفتيه ، وأطلق صفيراً حاداً ، ثم لوح بذراعه فى عنف ، فتحولت خطوات الرجال المتعبين إلى جرى سريع .

www.ibtesama.com

الفصل الثلاثون

كانت النار قد شبت فى بيوت كثيرة ، وأشاع لهيبها فى الجو سخونة خانقة ، لم يكن أسوأ منها ، سوى تلك الطلقات التى تدوى بغير انتظام ، فيختلط صوتها بزمجرة النار وصياح الألم وصرخات اليأس .

وضرب روچرز بقدمه على الطبل ، وقال لدانبار : أحضر الأسرى !

وأخرج ساعته الضخمة من عنق حذائه الطويل « تزلكه » ، وقال وهو يدفعها أمام وجهى : انظر ... لقد بدأنا الهجوم فى الخامسة والربع ، والساعة الآن السادسة وعشر دقائق ، وقد مضت عشرون دقيقة على شروق الشمس ، ومع ذلك نجلس بلا عمل .

ودونت الوقت فى دفترى . وأقبل دانبار يجر عجوزاً ذات شعر أشيب ، تلبس قميصاً أزرق وسروالا هندياً ، ولكنها كانت أفتح لوناً من الهنود .

قال دانبار : هذه أسيرة ولكنها ليست هندية .

وجاء اليوزباشى چاكوبز يجرى لاهثاً ، وقد احترقت أطراف ضفيرته ، واختلط الصباغ الأبيض على جسمه

www.ibtesama.com

بالرماد والسناج ، وتخضبت ساعداه وكذلك عنق حذائه « تزلكه » بالدماء . وظهر على كتفه جرح سكين . وتدلت من حزامه جلود ستة رءوس جديدة .

قال له روچرز : اسأل الأسيرة عن اسمها ومن أين أتت ؟

ولما ألقى چاكوبز سؤاله عليها ، انفجرت فى حديث ثائر ، لم يفهم منه روچرز أوچاكوبز كلمة واحدة .

قلت لروچرز : إنها ألمانية الأصل ، تتحدث فى خليط من الإنجليزية والألمانية ، وتقول إن الهنود أسروها فى مدينة ألبانى ، منذ نحو عشرين عاماً ولكنها تريد أن تبقى هنا .

قال روچرز : مستحيل ... الأفضل لها أن تعود إلى بلدها ...ترجم لها هذا السؤال : أكانت تتوقع قدومنا لغزو سانت فرانسيس ، وهل كان فى المدينة من يعرف بهذه الغزوة ؟

ومرة أخرى انفجرت المرأة فى حديث طويل ، كأنها تريد أن تعوض نفسها عن صمتها طوال السنوات العشرين الماضية .

وكان روچرز يقاطعها بين آن وآخر ، ليسألنى : ماذا تقول ، وعم تتحدث ؟

www.ibtesama.com

ولكن الأسيرة البيضاء . ظلت تتحدث وتتحدث لتبرر رغبتها فى البقاء مع الهنود . قال روجرز : فلتذهب إلى الجحيم، قيدوها إلى أن يحين وقت المسير .

والتفت إلى جاكوبز يقول :

— هدد الأسيرات بأنى سأطعنهن بالحراب فى أردافهن إذا لم يجبن على أسئلتنا البسيطة بكلام معقول ، أين الثانية ؟

قال دانبار : هناك أربع نساء بيض مثل هذه المرأة ، فهل آتى بهن معاً ؟

قال روجرز : طبعاً لا ، فمعظم أولئك الأسيرات متعصب للهنود أكثر من الهنود أنفسهم ، فالأفضل أن نأخذهن فرادى. إلينا بالأولى منهن .

وكانت النار قد شبت فى المبانى الممتدة على طول الصف، ماعدا المخازن الثلاثة ، وارتفعت سحب الدخان فى السماء ، وتعالت حتى أصبح من المستطاع رؤيتها عن بعد ، وتوقفت طلقات الرصاص إلا من واحدة أو اثنتين ، وتجمع الرجال فى الرحبة الواسعة كأنهم بسبيلهم إلى تنظيم أنفسهم فى طابور يستعد للمسير . ولمحت جيس بتشام يقف على مقربة، وهو يضع فى بطانية منشورة على الأرض ، لفافات الأمتعة ، ومن بينها أمتعتى ، وكانت مظاهر الطيبة والهدوء تشيع فى

www.ibtesama.com

وجهه ، فدهشت ، كيف أن هذا الرجل الوديع هو ذات الشخص الذى رأيته منذ دقائق يفرغ رصاص بندقيته فى رأس الهندى ، ويذبح اثنين آخرين دون رحمة أو شفقة .

وجاءنا دانبار بامرأة بيضاء أخرى ، أوقفها عند الطبل ؛ وكانت فى نحو الخامسة والثلاثين من عمرها ، ومع ذلك دب المشيب فى شعرها الملبد بالقذارة . وتقوس ظهرها ، كأنها عجوز أكل عليها الدهر عليها وشرب ، وكانت ترتدى ملابس هندية تشيع بالقذارة التى تظهر فى وضوح على وجهها وذراعيها وساقيها .

قالت إن اسمها سارة هاون . وقد أسرها الهنود منذ سبع سنوات فى بلدة على بحيرة وينتپسوكى ، كما رأت زوجها يقتل فى نفس الوقت . ولقد كانت معها طفلتها ، ولكن آسريها لم يرضهم ضعفها وسقمها ، فضربوا برأسها شجرة ، وقتلوها قبل أن يصلوا بها إلى ممفراماجوج .

قال روچرز : أتزوجت هندياً بعد ذلك ؟

فأشارت برأسها مجيبة ، سألها : أما زلت متزوجة منه ؟

فهزت رأسها نفياً . قال — وهو يحدق فيها بدقة :

— إنهم يكلفونك بخدمة المسنين ، أليس كذلك ؟

قالت وهى تحك فمها بظهر يدها الذى اخشوشن بطول

www.ibtesama.com

العمل وتعقد حتى غدا شبيهاً بلحاء الأشجار : إنى أقطع لهم الأخشاب وأحملها إليهم ، وأطهو طعامهم ، وآكل العظام مع الكلاب .

قال يسألها : اصغى إلىّ ! ألم تسمعى شيئاً عن جيش قادم لغزو هذه المدينة ؟

قالت : لا ، لم أسمع عن عزمك على مهاجمتنا ، ولكن ضباطاً فرنسيين ، جاءوا هنا منذ خمسة أيام وخطبوا فى الناس ، ثم ذهبوا فى صحبة خمسة عشر هندياً يقصدون ويجوام مارتينيك ، حيث ينتظر أن يذهب المتطوعون . ألستم متطوعين ؟

قال : اسمعى ! هل ذكروا أمامك عدد الفرنسيين الذى استقر الرأى على إرسالهم إلى ويجوام مارتينيك ؟

فأومأت برأسها وقالت : قالوا أربعمائة ، وقالوا إنهم أقاموا البلاد وأقعدوها ليقبضوا عليك ، وقد عثروا على قواربكم السبعة عشر ، فأصبحتم محاصرين فى هذه المنطقة بمكان ما لا يعرفونه على وجه التحقيق ، ولكنهم واثقون من عجزكم عن الإفلات منه .

قال روچرز : لحظة واحدة !

وأسار بيده إلى اليوزباشى فارنجتون ، وكان يقف خلف دانبار ، وقال له : إلىّ باليوزباشى تيرنر ، وقل للرجال

www.ibtesama.com

أن يملأوا أكياسهم بالذرة سريعاً . هل أحصيت عدد من قتلنا من الهنود ؟

قال فارنجتون : مائتان بمن قتلوا فى النهر ، أما الذين احترقوا فى البيوت ، فلا نعرف عددهم ، ولكننا نستطيع أن نشم رائحة لحمهم المشوى .

وضحكت المرأة ، ولوت يديها تحت ردائها ، وقال روچرز : وكم وجدتم من جلود الرءوس ؟

قال : نحو خمسمائة وعشرين جلداً .

فوضعت المرأة يدها على ركبة روچرز ، وقالت فى جد : كانوا سبعمائة جلد على الأعمدة ... سبعمائة ... اعتدت أن أفحصهم وأحصيهم وأنا أنقل الحطب ... سبعمائة جلد ... كلهم من البيض تقريباً ، وبينهم جلد رأس زوجى الذى قتلوه .

قال فارنجتون يدافع عن نفسه : بعض الأعمدة احترق بما عليه من جلود ، وقد أحصيت ما وجدت .

قال روچرز : نادِ تيرنر ، وأبلغ الضباط أن يستعدوا لعرض عام ، وبعد ذلك نعقد مجلساً عسكرياً . ابحث عن أوجدن ، وكلف هندياً بحمل أمتعته ، واملأ بالذرة حقائبنا أنا وهو وتاون ، وأحضرها مع الأغطية والأمتعة حتى نرحل بسرعة .

www.ibtesama.com

وعاد يقول للمرأة : أيعتقدون أنهم قبضوا علينا ؟ ولكن كيف يبعثون رجالهم إلى ويجوام مارتينيك ، ثم يأملون فى منعنا من العودة عن طريق آخر ؟

قالت : إنهم يعرفون مسالك الحرب كلها ، فليس أمامكم سوى هذا الشاطئ أو نهر نيشوديير ، وقد وزعوا قواتهم على مختلف المناطق بلا استثناء ، وهناك ثلثمائة فرنسى مع عدد من الهنود يقفون عند المصب ، ليقطعوا عليكم الطريق إذا عن لكم أن تهربوا من ذلك المنفذ .

قال روچرز دون اكتراث : أشك فى دقة هذا الكلام ، فليس من المعقول أن يبعثوا بكل هذا العدد من الرجال .

صاحت به تقول : بل هى الحقيقة ، وهناك ثلثمائة فرنسى وعصبة من شجعان هذه المدينة يعسكرون عند ملتقى سانت فرانسيس بسانت لورنس . إنهم على بعد أربعة أميال من هذا المكان ، ولا بد أن يقتلوك سواء أسرت مع النهر أم عكسه ، فبحق الله لا تدعهم يحاصرونك فى هذا الركن من الجحيم .

وأخرج روچرز ساعته مرة ثانية وقال لدانبار : ضعها مع الأسيرة الألمانية .. وأنت ياجاكوبز أحضر بقية الأسيرات الثلاث البيض معاً ، ودعنا ننتهى منهن .

www.ibtesama.com

وجثت المرأة على ركبتيها ، وتعلقت بساق روچرز ، وصاحت تقول : لقد صدقتك فى كل كلمة ذكرتها ، فخذنى معك ، ولا تذهب بدونى ، إن الحياة معهم كعشرة الخنازير ، وأنا لا أستطيع البقاء هنا . سأخدمك وأطهو لك طعامك ، هذا إلى قدرتى الفائقة على استعمال البندقية ، وأن ....

قال روچرز يقاطعها : سأنظر فى أمرك .... أين الأخريات ؟

وأحضر چاكوبز ثلاث نساء بيض ؛ إحداهن عجوز خائرة القوى ، والثانية نَصَفٌ فى وسط العمر ، والثالثة فتاة فى نحو الثامنة عشرة من عمرها ، شعرها أشقر ، وعيناها العسليتان تفيضان بنظرات غاية فى الجرأة والوقاحة .

قال روچرز دون أن يضيع الوقت : أنا روچرز ، وأنتن أسيراتى ، وسأكون رفيقاً بكن إذا لم تكذبن علىّ .

ونظرت إليه الفتاة الشقراء من طرف عينها بإغراء ، وسوت شعرها بيد جميلة ذات أظافر قصيرة نظيفة ، ونجحت حركتها هذه فى لفت نظر روچرز ، فانحنى إلى الأمام يقول لها : أتفهمين حديثى ، أتتكلمين الإنجليزية ؟

قالت : طبعاً أفهمها جيداً ، وأفهم أشياء أخرى كثيرة !

وكان صوتها خشناً مثل نساء پورتسماوث اللواتى يشتغلن بصيد الأسماك ، فتضطرهن الظروف إلى رفع أصواتهن

www.ibtesama.com

فوق هدير الأمواج ، ودوىّ العجلات السائرة فوق المراسى الخشبية .

وألقت عليها المرأة العجوز نظرة تفيض بالحقد ، وقالت لها : حاولى أن تكونى مهذبة ، ولو مرة واحدة فى حياتك .

والتفتت إلى روچرز تقول : لم تكن أكثر من طفلة صغيرة يوم جاءوا بها إلى هذا المكان ، ولكنها أصبحت أسوأ من آسريها الحمر المتوحشين .

قالت الفتاة الشقراء فى هدوء : أمسكى لسانك أيتها الساحرة .

وضرب روچرز بقدمه على الطبل وقال : كم كان عدد المقاتلين فى هذه المدينة ؟

وبدت الحيرة على وجه الكبيرتين ، وجعلت كل واحدة تعد على أصابعها بصوت خافت ، ولكن الفتاة الشقراء قالت فى ثقة : مائة وخمسون .

واستدارت العجوز إليها تقول بوحشية : لقد خرجت إلى الغابة مع عشاق يفوقون هذا العدد .

صاحت الفتاة فيها تقول : أنت كذابة ، وأنت ....

وضرب روچرز بقدمه مرة ثانية ، وقال وقد ضاقت عيناه : إننا قتلنا أكثر من مائتين ، فكم مقاتلا كانوا بالمدينة ؟

www.ibtesama.com

قالت الفتاة : ربما كانوا مائتين .

وأشار روجرز بيده فى غير مبالاة ، وقال : هذا العدد يقرب من الحقيقة ، ولكن لماذا لم يذهبوا مع الفرنسيين حين جاءوا فى طلب مساعدتهم .

أجابت : لم يطلب الفرنسيون سوى ثلاثين رجلا .

سألها : ولماذا لم يطلبوا أكثر من ذلك ؟

أجابت : قالوا إن هذا العدد يكفيهم ، ولقد خربوا زوارقكم ، ولم يعد فى مقدوركم أن تعودوا .

وضحك روجرز قائلا : زوارقنا ؟ ! وماذا يعرفون عن الزوارق ؟ لو أنهم حقيقة عثروا عليها ، لتبعونا فى الطريق !

قالت : نعم ، لقد ذهبوا وراءك ومازالوا يتبعونك ،أليس كذلك ؟ إنهم يحاصرونك من الأمام والخلف ، أليس كذلك ؟

ونظرت الفتاة واجمة إلى عمود الدخان المتصاعد ، ثم انفجرت ضاحكة ، وعندئذ أمسك روجرز بأذنها يشدها ؛ ولكنها نظرت إليه فى تحدٍّ سافر ، فهزها هزة شديدة أعقبها بصفعة على خدها ، وقال : ألا تعرفين من أنا ؟

فبصقت على الأرض وقالت : ووبى مادا أندو (الشيطان الأبيض) .

www.ibtesama.com

فأومأ برأسه وقال : ما دمت تعرفين كل هذا ، فعليك أن تناديني بالصاغ روجرز . أين بحيرة ممفراماجوج ؟

ونظرت إليه في دهشة ، ثم أشارت إلى منبع النهر ، فقال :

— حسنا ... سآخذك إلى ممفرا ماجوج ، وإذا لم نصل إليها سالمين ، فلن تسلمي أنت أيضاً ، ولذلك احذري أن تنسي المعلومات الصحيحة حين تتحدثين إلى .

والتفت يقول لدانبار : ضع أولئك الثلاث مع الآخرين ، وهات بقية الأسرى الهنود .

ونظر إلى الدفتر في يدي وقال : أعتقد أننا عرفنا ما نريد ، وهذه الأقوال يتفق بعضها مع البعض الآخر .

وخلع قبعته ، وحك رأسه بأصابعه ، واستطرد :

غريب أمر أولئك الهنديات البيض ! إذا بدأن الحياة مع الهنود في سن مبكرة ، يصبحن أسوأ حالا من الهنديات الأصيلات ، وأراهنك أن في استطاعة هذه الفتاة الشقراء ، أن تصيبك بأذى لا تنساه .

قلت : ولماذا لا نترك من تريد منهن البقاء ؟

قال : لا يمكن ، فليس من الحكمة أن نعترف بأن من البيض من يفضلن عشرة الهنود على العودة إلى ذويهن ، هذا إلى أن الهنود لن يتوانوا عن الفتك بهن بعد ذهابنا . وعلى أي

www.ibtesama.com

حال ، ما دمنا من الجنس الأبيض فالأفضل أن يعشن مع البيض إذا أمكن .

وأقبل دانبار يقود الهنديات نحو الطبل بمعاونة أربعة من رجال فصيلته ؛ وكنت أبصر من ورائهم سيلا من المتطوعين ، يروحون ويجيئون بين مخازن المؤن الثلاثة ، وبين أكوام الأغطية والحقائب والبنادق .

وكان مما يستدر العطف والإشفاق ، منظر الهنديات وهن يُدفعن نحو الطبل ، ومن ورائهن بيوتهن تتأجج ناراً ، ورجالهن يرقدون على الأرض جثثا هامدة ، وسيل المتطوعين ينوء بأحمال الذرة التى سلبت من مخازنهن . كان معظمهن يحتضن أطفالا عراة الصدور ؛ أما العجائز فلم يكن معهن أطفال ، وكنت لجهلي أظن أن المرأة الهندية إذا تقدمت بها السن ، صارت طريدة مجتمعها ، ولكنى رأيت ما يدل على عكس ذلك ، فقد كن سمينات شحيمات ، فى وجوههن علائم التغذية والقوة ، حتى يظهرن أصغر عمراً من حقيقتهن ، وإن كان بينهن أكثر من واحدة تقوس ظهرها ، وجف عودها ، حتى أصبحت مثل فاكهة امتص الصقيع رحيقها .

وقام اليوزباشى چاكوبز بمهمة ترجمة إجاباتهن على الأسئلة

www.ibtesama.com

التى يلقيها روچرز ؛ فعلمنا أن الفتيان المقاتلين ذهبوا مع الفرنســيين فى اتجاه النهر مستقلين الزوارق ، وأن الفرنسيين أنفسهم أقبلوا فى الزوارق وأن الإقليم الواقع بين نهرى سانت فرانسيس وسانت لورنس كله مستنقعات بها أخوار ومجار مائية كاذبة ، تصب فى سانت فرانسيس .

ونظر روچرز ساعته مرة أخرى ، وأدركت ما يشغل باله : لو أراد الفرنسيون وهنودهم المرابطون عند مصب النهر مهاجمتنا ، فطريقهم إلينا الملاحة فى النهر ضد التيار ، ولما كان الدخان المتصاعد من حريق البيوت لم يظهر إلا بعد شروق الشمس ، فلا ينتظر أن يصل هؤلاء قبل مضى ساعة من الشروق ، وبذلك يكون قد تبقى لنا نصف ساعة إذا كنا نبتغى الهرب قبل قدومهم .

ونظر روچرز إلى النساء فاحصاً ، وكانت مظاهر عدم الاكتراث بادية فى وجوههن ، كأنما لا يعنيهن أمر ما قد يحدث ؛ إذ لم تلق واحدة منهن نظرة على البيوت المشتعلة ، لا ولم تذرف عين من عيونهن دمعة ، بالرغم من أنهن فقدن فى هذه المعركة آباء وأزواجاً وأبناء ، وظللن واقفات فى جمود وهدوء ووجوم . قال روچرز فجأة :

— أطلق سراحهن جميعاً ، ففى وجودهن معنا تعطيل

www.ibtesama.com

لسرعتنا ، ولن نجنى من ورائهن فائدة بأى حال من الأحوال .

وضحك ثم قفز نازلا من فوق الطبل ، وثبت قبعته على رأسه ، ورفع ذراعه فى حركة آمرة ، وقال لجاكوبز بصوت عميق ، كأنه ممثل يؤدى دوراً على المسرح :

— قل للأسيرات الهنديات إنى أطلق سراحهن ، ليبلغن ذويهن أننى أنا وويى مادا أندو ، الذى أحرقت مدينتهم وقتلت رجالهم ؛ لقد فعلت ذلك ، ولكن ما كنت لأفعله قط ، لو أنهم احترموا الأب الأكبر الذى يسكن وراء البحار ، وتعاملوا بشرف مع أبنائه القاطنين فى هذه البلاد .... قل لهن ذلك ياجاكوبز .

وبينما كان اليوزباشى جاكوبز يترجم هذا الحديث ، وقف روجرز بجسمه القوى ، يحدق النظر فيما تبقى من المدينة . وكانت نظرته تطوف بالمنطقة كلها جزءاً جزءاً ؛ الرحبة الواسعة بأركانها المختلفة ، والسماء بسحبها المتعددة ، والحقائب واحدة فواحدة ، والمتطوعين متطوعاً متطوعاً ، ثم الضباط الذين تجمعوا لعقد المجلس الحربى حسب طلبه .

وعند ما انتهى اليوزباشى جاكوبز من ترجمته ، قال له روجرز : أخبرهم بأننى دمرتهم انتقاماً للخيانة التى ارتكبوها نحو العلم الأبيض الذى أرسله الأب العظيم ، ولا بد أن

www.ibtesama.com

يسحق الأب الأكبر من لا يكرم علمه الأبيض . لقد وجدنا هنا جلود ستمائة رأس من البيض ، معلقة فى الأعمدة أمام البيوت ، وللآن لم نقتل سوى مائتين من قومهم مقابل ذلك ، فإذا حدث وقامت هذه المدينة من أنقاضها ، وأرسلت شباباً ليأخذوا مزيداً من جلود أهلنا ، يعود روچرز إلى سانت فرانسيس لينزل بها من الدمار ما لا يعرف أبسط معانى العفو والرحمة .

ولما انتهى چاكوبز من ترجمة الحديث ، تقدم روچرز نحو النساء وفى وجهه سيماء النسر الغاضب ، الذى يريد أن يضرب ويضرب مادامت فيه بقية من حياة . قال :

وجدنا خمس أسيرات بيض فى هذه المدينة ، فاطلب إلى أولئك النسوة أن يبلغن قومهن أن لكل شىء ثمناً وسنأخذ ثمن الأسيرات الخمس ...

وأمسك روچرز بذراعى صبيين ، أحدهما الذى أسرته فى بداية المعركة ، والثانى أصغر منه سناً ، وكذلك جر بيده الأخرى البنت الهندية التى كانت تقف عارية عن الملابس ، ففزعت بنتان كانتا تقفان إلى جوارها ، وانكمشتا متباعدتين وسط النساء .

قال لچاكوبز : أحضر هاتين البنتين .

www.ibtesama.com

وخاض چاكوبز حلقة النساء وهو يدفعهن بذراعه عن طريقه ، فانكفأت البنتان على الأرض وحاولتا الزحف بين الأرجل ؛ ولكن چاكوبز جذبهما من شعرهما ، وقدمهما لروچرز ، وهما تتلويان وتضربان بأرجلهما وأيديهما . وأمسك هذا بالصبيين والبنات الثلاث بين ذراعيه ، فوقفوا ملتصقين بردائه فى صمت وقد ألجمهم الخوف .

قال روچرز : هناك أمر آخر أحب أن يعرفنه ! قل لهن أن يحذرن أهلهن من اقتفاء أثرنا ، وإلا كانت الطامة الكبرى . الطامة التى ما بعدها طامة ... وهذه كلمة ووبى مادا أندو نفسه ، ووبى يعنى كل كلمة يقولها لأنه لا يخافهم . قل لهم إننى سأعود بطريق بحيرة ممفراماجوج ، والويل لهم إذا تبعونى أو اعترضوا طريقى .

وأشار إلى دانبار أن يفرق النسوة ، فسرن متفرقات كأنهن دجاج ثقيل الوزن بطىء الحركة ، وتفرقن فى جوانب الرحبة ، والمتطوعون يشيعونهن بشتى عبارات السخرية والاستهزاء .

واجتمع الضباط حول روچرز ، وجعلوا يحملقون فى الهنود الخمسة الصغار . وكان أولئك الضباط قد أصبحوا أقرب إلى الشكل العسكرى منهم عند الهجوم ، وذلك بفضل ما استولوا عليه من ثياب الهنود ، التى استبدلوا بها سراويلهم

www.ibtesama.com

الممزقة وأحذيتهم البالية ، ثم قصّوا كفايتهم من الأغطية ولفوا بأشرطتها سيقانهم ليستعيضوا بها عن « التزلك » التى فقدوها خـــلال الرحلة المرهقة . وكان فارنجتون قد أحضر لروچرز سروالا وحذاء ، فجلس على الأرض يخلع ماعليه ، ويجاهد فى ارتداء ما جئ له به ...

قال وهو يجد صعوبة فى إدخال قدمه الكبيرة فى الحذاء الصغير : اللعنة على هؤلاء الشياطين الحمر ، أليس بينهم من له قدم فى حجم أقدام الرجال ؟

ثم سكت برهة وقال : أين أوجدن ؟

وأقبل أوجدن من خلف الرجال ، وهو يمشى بميل إلى جنب ، فسأله روچرز وهو يفحصه بنظراته : أتستطيع السير ؟

فقال بحماسة مفتعلة : أنا بخير ، ولست أشعر بتعب على الإطلاق .

وبلّ شفتيه بلسانه ، وأرسل نظرة خاطفة إلى زملائه .

وخفض روچرز رأسه ينظر إلى حذائه ، وتشاغل الآخرون بالنظر إلى السماء أو الأرض ، فقد كان أوجدن — على عكس ما ذكر — على أسوأ حال ، وكلهم يعرف أن رصاصة

www.ibtesama.com

ما زالت مستقرة فى جسده ، ولا شك أنها تفعل فعلها فيه ، بدليل الصفرة الفاقعة التى تشيع فى وجهه .

قال روچرز وهو يشير بإصبعه إلى الصبيين الهنديين الأسيرين : هاك صبيين ساعدانك أيها اليوزباشى ، فأعط متاعك الكبير يحمله ، واتكىء فى سيرك على كتف الصغير .

وقال الملازم فارنجتون : وأنا أيضاً تعب أيها الصاغ ، وقد تسهل علىّ شقة الرحلة إذا أعطيتنى إحدى البنات ..... الكبيرة منهن .

وضحك روچرز ، وصاح الضباط محتجين ، وحتى البنات الثلاث نظرن فى وجه روچرز وابتسمن كأنهن فهمن معنى الحديث .

وأومأ روچرز يدعو إليه اليوزباشى چاكوبز ، وكان قد أصبح فى حال يرثى له ، إذ لم يقتصر الأمر على احتراق ضفيرته وسقوطها فوق جبهته البيضاء الناصعة ، بل اختلط أيضاً صباغ صدره الأصفر مع الخطوط البيض ، وسال اللونان مع قطرات العرق نحو بطنه العارى .

قال له روچرز : إنى أعهد إليك بمهمة حراسة الأسيرات البيض ، وأعتقد أن السيدة العجوز فى حاجة إلى المساعدة ، لذلك يحسن أن تضم إليها الهنديات الصغيرات الثلاث ، ليقدمن

www.ibtesama.com

لها المساعدة ، بشرط أن تقيدهن بالليل ، حتى لا ينتهزن الفرصة ويهربن .

ونهض واقفاً وضرب الأرض بحذائه الحديد ، ثم لبس السروال وقال للضباط وهو يثبت حزامه : إذا أخذنا بالمعلومات التى استقيناها من الأسيرات ، تكون هناك قوتان فى انتظارنا : ثلاثمائة عند مصب النهر ، ونحو مائتين يتبعوننا من خليج مسيسكوا ، أى خمسمائة رجل ، فى حين أننا مائة واثنان وأربعون فقط .

فقال اليوزباشى چاكوبز : لقد فقدت أحد رجالى .

فسأله روچرز : مات ؟

فأومأ چاكوبز برأسه وقال : نعم ، ووضعنا جثته فى أحد البيوت لتحترق حتى لا ينال أحد جثته .

قال روچرز : وهل هناك خسائر أخرى ؟

فتكلم أربعة ضباط معاً . واتضح أن هناك ستة رجال أصيبوا بالسكاكين أو البلط ، ولكن حالاتهم ليست خطيرة .

فقال روچرز : هذا حسن ! أصبحنا مائة وواحداً وأربعين ضد خمسمائة ، مائتان منهم لا يحملون طعاماً أكثر مما كنا نحمل عند وصولنا إلى هذا المكان ، والثلاثمائة الآخرون ليس معهم فى الغالب بقدر ما معنا الآن ، ولن يتمكنوا من مطاردتنا

www.ibtesama.com

قبل أن يتموّنوا من جديد ، وإذا كانوا يعتمدون على هذه المدينة فى تموينهم ، فلن يجدوا شيئاً عند حضورهم ، اللهم إلا إذا كان فى نيتهم أن يأكلوا اللحوم البشرية المشوية .

وأطلق ضحكة أشبه بصهيل الخيل ، واستأنف حديثه قائلا :

— والآن نعود إلى موضوع رجوعنا ، ولقد أبلغت الأسرى أننى سأعود عن طريق نهر سانت لورنس ، وبذلك أعطيتهم فرصة إشاعة الخبر . وفرصتنا الوحيدة ألا يصدق الفرنسيون هــذا الخبر ، ويعتبرونه خدعة قررناها ، لأنهم لوكانوا فى مثل هــذه الظروف لخدعونا بكذبة كهذه ، فطبيعى أن ينتظروا الكذب من غيرهم ... ولكن المهم أن نجد مخرجاً لنا من هذا المكان ، فعليكم أن تسرعوا باتخاذ قرار حاسم عاجل .

قال دانبار يسأله : كم طريقاً يخرجنا من هنا ؟

فقال : قليل جداً ! أولا هناك الطريق الذى جئنا منه وإذا اخترنا أن نسلكه ، يجب أن نكون على استعداد لملاقاة المائتين القادمين فى أعقابنا من ميسيكوا ، ولا بد أن يكونوا قد اقتربوا كثيراً منا ، ولكنهم فى حالة من الإرهاق قد تسهل علينا القضاء عليهم ؛ ولكن من المحتمل أن تلحق بنا القوة

www.ibtesama.com

الزاحفة من جهة المصب وتشتبك بمؤخرة فرقتنا قبل أن ننتهى من الأولى ... وإذا حالفنا الحظ وانتهينا من القوة الأولى قبل وصول الثانية ، يصبح علينا أن نخوض المستنقعات مرة ثانية ، وما دامت الزوارق قد ذهبت ، فلا مفر بعد ذلك من السير على أقدامنا طول الطريق إلى كراون بونيت .

قال فارنجتون – بحدة : هذه ألعن خطة أيها الصاغ ! وإنى لأفضل أن نجرب أى مسلك آخر على خوض تلك المستنقعات الجهنمية .

وتمتم الضباط مؤمنين على كلامه ، فقال روجرز :

– لم يبق سوى طريق واحد آخر ، وهو المتجه إلى بحيرة ممفراماجوج ، وطوله يعادل المسافة من هنا إلى خليج مسيسكوا . والبحيرة المذكورة تقع على الطريق المتجه إلى مناطق الكوهيز عند مصب الأومونوساك ، الذى يبعد ستين ميلا عن القلعة رقم أربعة ... ولقد كنت أتوقع منذ بداية الأمر أن نعود من هذا الطريق ، ولذلك أمرت بأن تنتظرنا المؤن والذخائر فى مناطق الكوهيز ، فإن وافقتم على هذا الرأى نتبع النهر حتى يتفرع ، ثم نسير مع فرعه الغربى .

وكان يتكلم بمنتهى البساطة ، فتصورنا أن الطريق سهلا لا مشقة فيه .

www.ibtesama.com

قال فارنجتون : وأين يتفرع النهر ؟

قال – فى غير اهتمام : على بعد ثمانين ميلا من هنا !

قال الملازم جرانت : وكم تبعد نقطة التفرع عن مصب نهر الأمونوساك ؟

قال روچرز – وهو ينظر إليه بمنتهى الثبات : لست أدرى ؛ ولكننا ننجو بأرواحنا إذا تخطينا بحيرة ممفراماجوج .

فقال جرانت – فى إلحاح : أتبلغ المسافة ثلاثمائة ميل ؟

وسمعت ضابطاً يقول – وهو يصر على أسنانه : يا ألله ! ثلاثمائة ميل !

وقال روچرز – فى لهجة مطمئنة ، وقد رفع متاعه على كتفه : المسألة لا تستوجب القلق فنحن إذا تخطينا البحيرة بسلام ، تهون المسافة وإن طالت ، وإذا لم نتخطها تزول أهمية الطريق ، قرب أم بعد .

وأشاع كلامه هذا البهجة فى قلوب الضباط فانفجروا ضاحكين ، وهم يسخرون بزميلهم جرانت .

قال روچرز فى عجلة : ألم نعقد المجلس الحربى لنتفق على رأى ؟ وهل يرضيكم أن نذهب بطريق بحيرة ممفراماجوج؟

وهتف الضباط يقولون فى حماسة : نعم ، نعم ! ممفراماجوج ! .... ممفراماجوج ...

www.ibtesama.com

ولكنى شعرت بانقباض شديد ، إذ كان اسم ممفراماجوج يقترن فى ذهنى بصور العواصف والمستنقعات والأشباح المهلكة ، فتساءلت فى نفسي : ترى كم منا سيعيش ليرى تلك البحيرة السوداء البعيدة !

إنها ، على أى حال ، آخر هدف نقصده :

وصاح روجرز يقول: أحرقوا المخازن الثلاثة »

وعند ما سار الرجال فى صف طويل ، تاركين هذا المكان الرهيب ، كانت النيران تندلع بشدة وسط الدخان الكثيف »

www.ibtesama.com

** معرفتي **
www.ibtesama.com
منتديات مجلة الإبتسامة

www.ibtesama.com

هـــذا الكتاب

تعد قصة « الممر الشمالى الغـــربى » من أروع الأعمال الأدبية العالمية وقد ترجمت إلى جميع لغات العالم وعلق عليها جميع النقــاد ، وأجمعوا على أنها تستطيع أن تقف أمام أى عمل أدبى كبير فى العصر الحديث وعندما صـــدرت لأول مرة تلقفتها شركات السينما وعرضت مبالغ طائلة على مؤلفها كينيث روبرتس لانتـــاجها على الشاشة وأخيراً أخرجتها شركة مترو جولدوين ماير وقام بالدور الأول فيها الممثل الكبير « سبنسر تراسى » فقـــال « أدت رواية الممر الشمالى الغربى أكبر فضل فى حياتى فان دورى فيها كان من أحسن أدوارى الفنيـــة وعرضت رواية « الممر الشمالى الغـــربى » فى جميع دور السينما بالعالم ، وفى القاهرة استمر عرضها ستة أسابيع كاملة ، وكانت فيلم الموسم . . والقصة صراع بين فنان والمتاعب ، تحـــداه القدر ففرش طريقه — طريق السلام وطريق الحرب — بالمتاعب ، ولكنه عرف كيف يواجهها وكيف ينتصر عليها .

وقد اختارت الكاتبة المصرية المعروفة السيدة أمينة السعيد هـذه القصة بالذات لترجمتها من بين عشرات القصص التى عرضت عليها .

« كتاب لا بد أن يقرأ »

www.ibtesama.com

من القصص العالمي
٤

موعد مع الشدائد

أو

"الممر الشمالي الغربي"

** معرفتي **
www.ibtesama.com
منتديات مجلة الإبتسامة

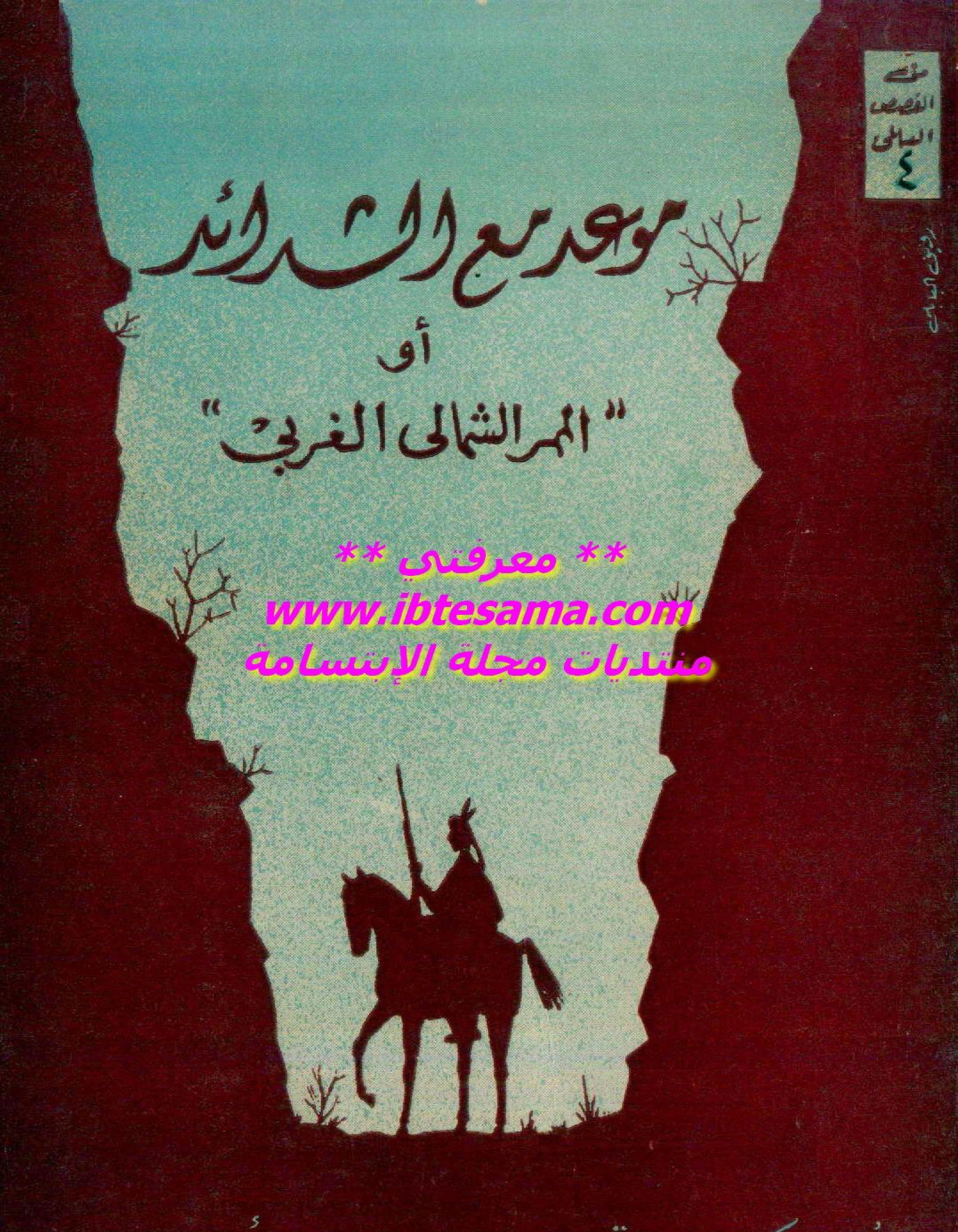

تأليف : كنيث روبرتس

ترجمة : أمينة السعيد

www.ibtesama.com

** معرفتي **
www.ibtesama.com
منتديات مجلة الإبتسامة

www.ibtesama.com

مَوعِدٌ مَعَ الشدائد

أو

الممر الشمالي الغربي

الجزء الثاني

www.ibtesama.com

نشر هـذا الكتـاب بالاشـتراك

مـع

مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر

القاهرة – نيويورك

www.ibtesama.com

موعد مع الشدائد

أو

الممر الشمالي الغربي

تأليف

كنيث روبرتس

ترجمة

أمينة السعيد

ملتزمة النشر والطبع

مكتبة النهضة المصرية

٩ شارع عدلي باشا بالقاهرة

١٩٥٩

www.ibtesama.com

هذه الترجمة مرخص بها وقد قامت مؤسسة فرانكلين
للطباعة والنشر بشراء حق الترجمة من صاحب هذا الحق

This is an authorized translation of NORTHWEST PASSAGE by Kenneth Roberts. Copyright, 1936, 1937, by Kenneth Roberts. Published by Doubleday & Company, Inc., New York.

www.ibtesama.com

الفصل الحادي والثلاثون

كنا أشبه برتل من المتسولين ، ونحن نغادر أطلال مدينة سانت فرانسس ، وليس ما يوحد بيننا سوى مظاهر الفاقة الشديدة ، والفقر المدقع : ملابس مهلهلة ، بعضها يتألف مما تبقى من أرديتنا القديمة ، وبعضها الآخر من شتات ما أنقذناه من المدينة التي لم تخبُ نيرانها بعد . . . حقائبنا الرثة منتفخة بالأطعمة والأسلاب ، وقلانسنا الخضراء المهشمة تقبع فوق رءوسنا ملتصقة بشعورنا الملبدة بالقذارة ؛ أما سيقاننا فلم يكن يسترها سوى « قلاشين » صنعت من جلود ممزقة ، أو نسائل من نسيج يشمئز منه أفقر المساكين وأقذرهم .

وارتفعت شمس الخريف باهتة وراء سحب الدخان ، وأرسلت ضوءها الواهن على مجموعة من جثث الهنود تناثرت على مقربة مني ، وقد تشابكت أشلاؤها ، واختلط بعضها ببعض ، فصارت أشبه ببقايا رجال كانوا يهمون بالسير ، ولكن الموت داهمهم فجأة ، فخروا على الأرض صرعى . وكان بعض الوجوه السُمر متجها نحوى كأنه يرقب مسيرنا بعيونه الجاحظة ، فلم أقو على منع نفسى من مبادلة الراقدين تحديقا بتحديق .

www.ibtesama.com

٢

واعترضت سيرى كومة أخرى من الجثث البشرية ، فاضطررت أن أحيد عن طريقى ، لأتجنب الخوض فيها . . . وتوالت أشلاء الجنود ، حتى خيل إلىّ ألاّ نهاية لها . . . ألوف وألوف من الضحايا الذين تلوثت يداى بدمائهم .

وتقلصت أحشائى لهول ما أرى ، كما تقلصت أحشاء كثيرين من زملائى .

كان هناك قتيلان يرقدان فى وضع متعامد ، وبرزت ساعد أحدهما منتصبة فى الهواء وقد أطبقت قبضتها ، كأنها تتهددنا بالويل والثبور . . . فأسرع كروفتون بالخروج من الصف ، وانحنى على الرسغ يثنيها فى وضع يليق بجلال الموت ، ولكن الساعد أبت أن تطاوعه ، وظلت على انتصابها معاندة ، فأسرع صاحبنا بالعودة إلى مكانه ، وعلى وجهه مسحة من الخجل الممتزج بالتحدى .

وغلبنى نعاس ثقيل ، وبدأت أتثاءب وأتثاءب بلا انقطاع ، كأنى لم أذق طعم الراحة منذ سنوات ، ولو أعطيت الفرصة لنمت عاما بأكمله . . . وخيل إلىّ أن هذا اليوم وحده أطول من أسبوع كامل ، وأنى أرزح تحت كابوس مروع ، وأن ما أراه من خرائب سانت فرانسس ودمارها ، وما اشتركت فيه من تقتيل وتعذيب ، ما هو إلا جزء من ذلك الحلم المخيف .

www.ibtesama.com

٣

وكان عسيراً عليّ أن أذكر كم مضى من الوقت منذ استولى الغضب على ماكنوت ، وهو يشرح لى ولهنك كيف لعب بنا هنود سانت فرانسس أقذر الألاعيب مرة بعد مرة ، ولا متى قال : وسوف تكون نهاية سانت فرانسس على أيدينا .

وظهرت الحقيقة أمام عينيّ لأول مرة ، فعرفت أننى لم أفهم معنى لتلك الكلمات فى حينها . . . سمعتها ونسيتها كأى طفل غرير ، ولو كنت استعنت بعقلى على تقصّى مدلولها ، لأدركت أنها تعنى الجوع والبرد والعناء الأزلى ... ثم الخراب والعذاب والموت . ولعلها كانت تعنى أيضاً احتمال موت من يدعى لانجدون تاون .

ونحوت باللوم على هارڤارد لأنها لم تعلمنى أساليب التفكير الصحيح ؛ وتذكرت يوم قال لى روچرز : سوف أعلمك ما لم تعلمه فى الجامعة .

ووصلنا فى سيرنا إلى نهاية الفضاء المحيط بالمدينة ، وكنا نسير على أرض صلبة تتعانق فوقها فروع الأشجار بأوراقها الصفراء والحمراء . ونظرت خلفى إلى ما بقى من سانت فرانسس ، فرأيت صف الرجال يمتد طويلا كثعبان مبقع بالبنّى والأخضر . . . ثعبان ينساب إلى الغابة ، ليحتمى بربوعها ويختفى فى ظلالها . . . لم يكن هناك مظهر واحد

www.ibtesama.com

للحياة أمام هذا الصف من الرجال أو وراءه ، أو على يمينه أو يساره . . . حتى الغربان والطيور اختفت ، ولم يبق لها فى السماء أثر . . . لم يكن هناك سوى النيران المتأججة ، وبينها جثث الأموات ترقد فى صفوف متتالية .

وكانت أرض الممر الممتد على الجانب المرتفع من شاطئ النهر ، قد عبدتها أقدام أجيال بعد أجيال من الهنود ، وكنا نخب السير تحت أشعة الخريف الذهبية البراقة ، فأحسست فجأة بحب شديد لهؤلاء الذين أسير معهم من الرجال المرهقين المكدودين : شعرت بحبى لروچرز ، وهو يستحث الخطى فى سهولة ويسر على رأس الصف ، فلا ترى منه سوى عنقه الغليظ الرابض فوق كتفيه القويتين . . . وشعرت بحبى لأوجدن الذى هدته جراحه البليغة ، فسار خلف روچرز مستندا إلى هنديين صبيين ، لا يستر جسدهما سوى غطاء صغير . . . وللجاويش برادلى وهو يتقدمنا بجد ، وبين آن وآن يلقى علينا نظراته الحادة الفاحصة . . . . ولجيس بتشام ، صاحب اللحية البيضاء ، الذى يسير ورائى مترنحا ... ثم پومپ هويپل الزنجى ؛ الذى يبتسم بلا سبب ... وكروفتون وهو يفحص رفاقه بحذر ... هؤلاء الرجال الذين ظللت أراهم طوال الرحلة مجرد أشباح باهتة مختلطة ، ظهروا الآن على حقيقتهم ، وشعرت أننى أصبحت أعرفهم وثيقا . . .

www.ibtesama.com

٥

ليس فقط فارنجتون ودانبار والضابط الهندى جاكوبز ... ولاكورجـــل وجرانت وتيرنر وأيفرى وقواد الفصائل الآخرين ، بل غيرهم أيضاً من الرجال الذين يسيرون خلفهم ، ولن أنسى ما حييت واحداً من هؤلاء الذين عبرت وإياهم فضاء مدينة سانت فرانسس .

لقد نجونا بفضل سرعتهم الفائقة وحزمهم العظيم ، ولولا شجاعتهم الفذة ، ومهارتهم فى إصابة الهدف برصاصهم ؛ ما خرجنا من المعركة سالمين ، وما تأتى لى أن أعود حياً . وإذا كان هناك سبيل واحد يوصلنا إلى أوطاننا ، فلست أشك فى أنهم لابد سالكوه ... إنهم خير المقاتلين كلهم ، ولن يستطيع رجال غيرهم أن يفعلوا مثل ما يفعلون ولا فى وسع قادة غير قادتهم أن يحرزوا هذا النصر العظيم ... كنت مؤمناً بهم ، لذلك أحببتهم ، وشعرت بينهم بالأمن والطمأنينة .

وكان المسير فى هذا الطريق الممهد ، رغم صعوده المطرد ، يعتبر عبث أطفال قياساً بما لقيناه فى رحلتنا المريعة ، وما عانيناه من الشدائد ، ونحن نسير فى المستنقعات تسعة أيام كاملة .

وبالرغم من نشاط النساء وجدهن فى ملاحقة الصف ، كان روجرز يقبل عليهن بين آن وآخر ، ليحفز عزائمهن ،

www.ibtesama.com

ويقول محذراً : من تتخلف عن الصف ، نتركها وشأنها ، ليكون الدمار نصيبها . كلنا يعرف أنهم لن يرحموا إنسانا سار فى ركاب هذه الحملة ، وإذا قبضوا عليكن ، فسيسلخون رءوسكن ، ويكوون جماجمكن بالنار .

ثم يلتفت إلى الرجال بأوامره ويقول : كلما سرنا ساعة ، نقف خمس دقائق للراحة ، ولكم فى هذه الفترة أن تفعلوا ما تشاءون ولكن بسرعة ؛ وإياكم أن تتوانوا ، فما زلنا بعيدين عن منطقة السلام .

وينفجر ضاحكاً بصوت كقصف الرعد .

وسارت النساء مجدات وراء الصف ، وركضت الفتيات الهنديات كأنهن كلاب هاربة . وكانت النساء البيض قد تعلمن فى الأسر طريقة الهنود فى المشى : يغرزن أصابع أرجلهن العارية فى الأرض ، ويهززن أردافهن كأنها زكائب مليئة بالبطاطس ، فيتقدمن دون أن يتعثرن . وإذا تصادف أن توانت إحداهن ، زجر فيها أحد هنود ستوكبريدج ، وشهر بلطته فى وجهها ، فتسرع السير مع رفيقاتها الخمس ليلحقن بالصف ، كأنهن سرب من القطا الفزع : كانت هناك المرأة الألمانية وسارة هدن القذرة ، التى تأكل العظم مع الكلاب ، ومسز كويت العليلة ، وابنتها چينى ذات الشعر

www.ibtesama.com

الأصفر ؛ ثم تلك المرأة المتوسطة العمر التى تمقت چينى كالسم ؛ وأخيراً الفتيات الهنديات الثلاث يتبعن مسز هدن ومسز كويت والسيدة الألمانية ، ويسرن فى أعقابهن كالظلال .

كانت المرأة المتوسطة العمر ،وتدعى مسز ويك ، مخبولة لا تعرف أين كانت تعيش قبل أن يأسرها الجنود ، وإذا سئلت عن اسمها تغير فيه وتبدل ، فمرة تقول إنها تدعى ديبورا ، وأخرى تؤكد أنها أبيجل .

أما چينى كويت ، ذات الشعر الأصفر ، فلم يكن يعنيها من الأمر كله سوى الرجال ... كانت تريد لنفسها رجلا ، أى رجل ، بصرف النظر عن شخصيته وشكله ، ولا بأس ان جاء زنجيا أو هنديا أو أبيض ،فجميعهم فى حكمها سواء ، لا فارق بين چيس بتشام أو روچرز ، فكلاهما رجل ، وذلك بيت القصيد ... فلما رأيت من چيس عطفا عليها ، شعرت بالقلق ، وخفت أن تهزمه بإغرائها ، ولكن الاطمئنان لم يلبث أن عاودنى حين سمعته يقول لها إنها تذكره بكلبة صيد عزيزة على نفسه ... كلبة بيضاء اللون صفراء العينين ، كان فى يوم من الأيام يقتنيها ، ويحبوها بعطفه ، ولكنها كانت مولعة بالهرب من بيته ، ولا تدع فرصة إلى الانطلاق إلا تنتهزها .... وكان ذكاؤها أقل كثيرا من براعتها فى

www.ibtesama.com

الهرب ، فلما رأت ذات يوم دبًّا كبيرا ، عنّ لها أن تتمسح به مغازلة ، فجاءت نهايتها على مخالبه وأنيابه .

ولفرط حرص روچرز على الابتعاد بناعن منطقة الخطر ، مضى يستحثنا على السير دون هوادة ، حتى أحسست أن رجلىّ تحولتا إلى كتلة من الجروح والقروح والآلام .

وقطعنا سبعة عشر ميلا خلال أول يوم تركنا فيه سانت فرانسس ، فقد ظللنا نسير ونسير ، حتى وصلنا إلى المكان الضيق الذى عبرنا منه النهر ذلك العبور العجيب ، ونحن مقبلون على المدينة الملعونة . وكان ذلك المكان على بعد خمسة عشر ميلا ، ولكننا لم نعبر النهر كما سبق أن فعلنا ، ولم نتلكأ رغم ما نعانيه من إنهاك شديد ؛ فقد أمرنا روچرز بالسير ميلين آخرين ،ولم يرض أن نتوقف قبل ذلك. وكانت خطتنا أن نستمر فى السير على الجانب الشمالى من النهر ، خشية أن يكون الفرنسيون ، الذين يتبعوننا من مسيسيكوا ، مقبلين من الشاطئ الجنوبى .

ولما حططنا الرحال لنعسكر ، خيل إلىّ أننى استنفدت قوتى إلى آخر ذرة منها ، واختلطت الأمور فى ذهنى ، وتعذر علىّ أن أتصور المسافة التى قطعناها ؛ أما كيف نيسر لليوزباشى أوبجدن أن يمشى ويتحرك طول هذه المدة ،

www.ibtesama.com

وفى جسده رصاصة ما زالت كامنة فى ثقبها ، فقد كانت معجزة لم أستطع تفسيرها . كنت إذ ذاك فتى ساذجا ، لا أفهم النفس البشرية ، ولا أقدّر مدى احتمالها ، أما الآن فقد علمتنى تجارب الحياة أن قوة احتمال الإنسان لا تقف عند حد ، ما دامت لديه الإرادة الكافية .

وما ان أمرنا روچرز بالتوقف ، حتّى تدثرنا بأغطيتنا استعدادا للنوم ، وكان التعب قد غلبنى فعجزت عن خلع حذائى ، وهجرتنى شهوتى ، فلم أشعر برغبة فى الأكل ، أو قدرة على استساغة طعمه . وبينما جلس الرجال يجرشون وجبة عشائهم المكونة من حفنة من حبوب الذرة الجافة ، قنعت بالرقاد على الأرض على حال يرثى لها . . . ومع ذلك لم يغمض لى جفن ؛ إذ كان الألم يكاد يعيي ذراعىّ ، وركبتاى وفخذاى ترتجف خورا ونصبا ، وجفناى المقرّحان لا يطيقان الحركة ، ومخى يهدد بالانفجار فى جمجمتى . وأمام عينىّ المتعبتين مرت صور سريعة خاطفة : قارب ينقلب بامرأة وطفلها ، فتسرع مياه النهر الباردة بابتلاعهما . . . أطفال يقفزون فزعاً فوق أجسام غارقة فى الدماء . . . هندى أحمر يطل من باب الكوخ ، وسرعان ما يتحول وجهه إلى كتلة دامية لا ملامح لها . . . صفوف وصفوف من الجثث ، التى تحملق فى الفضاء الأبدى بعيونها المفتوحة . وتوالت الصور

www.ibtesama.com

أمامى مسرعة ، واختفت الواحدة بعد الأخرى ، ولم يبق سوى تلك العيون . . . كانت تبتعد أحيانا حتى تتحول إلى نقط تضىء فى الظلام ، وأحياناً أخرى تقترب وتتسع ، حتى تصير كصحاف الطعام البيضاء اللامعة . . . مرة تتكاثر حتى يخيل إلىّ أننى أسبح فى بحر خضم منها ، ثم لا تلبث أن تنتظم فى صفوف لا ترى العين آخرها .

ويئست من أن يشملنى النوم براحته ورحمته ، وانطبق صدرى وتصورت أنى أختنق ؛ وعندما تكاثرت تلك العيون العمياء ، ثم اندمجت فى عين واحدة هائلة ، تحملق فىّ ، وتسلط علىّ أشعة نافذة ، تخزنى كالسهام ، أحسست ثقلا هائلا يجثم على صدرى ويخنق أنفاسى . . . ولا بد أنى صرخت لهول الفزع ، فقد وجدت چيس يهزنى ويقول : مهلا مهلا . . مهلا . . مهلا . . .

ومن خلال غصون الأشجار العالية ، كان البدر يتوسط كبد السماء ، ويرسل أشعته المضيئة على وجهى .

قال چيس : قُم . . . فروچرز يرى أن نور القمر يكفى لإرشادنا إلى طريقنا .

وعاوننى حتى وقفت على قدمى ، ولما انهرت جاثيا لفرط التعب ، حملنى إلى أن استقمت على رجلىّ مرة أخرى .

www.ibtesama.com

قال يشجعني : لا عليك ، فهذا كله لن يلبث أن يزول ، وسيكون مسيرنا هادئا مراعاة لجرح أوجدن .

وطوى أغطيتي ، وعلقها مع المتاع فوق كتفيّ .

قلت : يا إلهي ! ياچيس ! ألم تكلّ قدماك بعد ؟

قال في صوت هادئ : بلى .

وكأنما تذكر أمراً ، إذ قال بعد صمت قصير ، إنه لم ينعم بالنوم كما ينبغي ، وقد رأى أن يلين عضلاته بالسير قليلا حول المعسكر .

وهانت عليّ متاعبي ، حين تذكرت أن عمره ثلاثة أضعاف عمري .

وعلى ضوء القمر تبينت أوجدن وهو يستند إلى روچرز ، وبجانبهما برادلي والصبيان الهنديان يرقبونهما . قال برادلي : باستطاعتنا أن نصنع لك محفة من غصنين طويلين بينهما ملاءة مشدودة .

واحتج أوجدن قائلا : هذا ما لا أقبله أبداً ، وما دمت قادراً على الوقوف على قدميّ ، فباستطاعتي أن أسير معكم بذات السرعة .

وخطا روچرز إلى الوراء خطوة ، ثم دفع أوجدن برفق ، فترنح إلى الأمام قليلا ، وإذ ذاك قال له في مرح :

www.ibtesama.com

عند ما نصل إلى منطقة الجبال تكون قد استعدت قوتك ، وأصبحت كأحسن رجل فينا .

وأحسست ، وأنا أنظر إلى أوجدن ، بآلام قدمىّ تخف كثيراً .

قال روچرز لبرادلى : إياك أن يسقط على الأرض ، فاشترك مع الصبيين فى مساعدته ، حتى يستقيم سيره .

وهمس أوجدن يقول : لا . . لا تدعنى أسقط على الأرض . . لا أريد أن أسقط على الأرض . . فأنا بخير ما دمت منتصبا على قدمىّ .

وصاح روچرز فى الصف يقول : إلى الأمام .

وسار الرجال ، وعاد هو إلى الصف يفحصه بنفسه ، ليتأكد من انتظام الأمور على الوجه الأكمل .

وعلى ضوء القمر ، جعل يدقق النظر فى كل رجل يمر أمامه ، وبين وقت وآخر ، يقول على سبيل التشجيع والتنشيط : أسرع الخطى . . . أسرع الخطى . . . بعد قليل يطلع النهار ، فنتناول فطورنا .

وتضاءل صوته فى مسامعى ونحن نسير إلى الأمام ، وتبينت همهمة پومپ هوپيل الخافتة ، وزمجرة الملازم دانبار ، وكلمات مسزويك الغاضبة ، ودقات الأحذية وأزيزها على أرض الطريق

www.ibtesama.com

الصلبة ، وأصوات رجال يتعثرون فيسقطون . ثم ينهضون من كبوتهم مرة أخرى .

كنا نتقدم ببطء ، فلما انتهى روچرز من تفتيش رجاله ، وعاد إلى رأس الصف يسير بخطى سريعة ، اقتدى الرجال به ، ودب النشاط فى أقدامهم .

قلت لچيس : لو حرصنا على التبكير هكذا ساعتين عن المعتاد ، فلابد أن نصل ممفراماجوج فى لمح البصر !

قال : أعتقد ذلك .

وكانت لهجته فاترة ، فلم أشأ أن أتشاءم ، وطمأنت نفسى بأن الشيخوخة أبردت حماسته .

كان الطريق صلباً أملس ، تظهر معالمه واضحة فى ضوء القمر ، فلما طلع النهار ، ووقفنا برهة لنتناول إفطارنا ، رأينا النهر بجانبنا وقد ضاق مجراه ، وانبسطت الأرض بجانبه وأجدبت وخلت من مظاهر الحياة . وكان الجدب يزداد وضوحا واتساعاً ، كلما تقدمنا فى سيرنا ، وبدت على الطريق علامات قلة الاستعمال إذ اختفت نعومته وسهولته ، وكثرت فيه الحفر المليئة بالماء . . . ووجدنا أنفسنا تارة ننحنى لنمرق تحت أشجار متداعية تعترض سبيلنا ، أو نضطر أحيانا إلى المرور من فوقها . . . وحدث أكثر من مرة أن خرجنا عن

www.ibtesama.com

الطريق الأصلى ، لنتحاشى جرفاً منهارا يسد مسالكه . . .
وعلى مضى الطريق تكاثرت البرك الآسنة ، وازدادت الغدران ذات التيارات السريعة . كانت مشقة عصيبة ، فعجبت كيف ظل أوجدن قادرا على السير إلى الآن ، وظننت أن الفضل يرجع إلى عون الصبيين الهنديين ومعونتهما له .

وجاء الأصيل ، فأمرنا روچرز بالتوقف عند غدير يجرى منحدرا إلى نهر سانت فرانسس ، وسمح لنا بتناول الطعام ، فأخرج الرجال من أكياسهم حفنات الذرة الجافة ، وانشغلوا فى التهامها بنهم ولهفة ؛ أما روچرز فقد سمعته ينادى كونكاپوت واليوزباشى چاكوبز ، ثم رأيت ثلاثتهم يعبرون الغدير ، ويغيبون عن أنظارنا .

قلت لجيس ، وأنا أتمنى أن يخالفنى فى الرأى : ألا ترى معالم الطريق تتلاشى بالتدريج ؟

وقذف زميلى بحفنة من الذرة إلى فمه ، ثم مسح بيده على فوديه الأشيبين راضيا ، كأنه يتناول من الطعام وجبة كاملة ، قال : نعم ، وهذا لا يدهشنى .

كان الرجال كلهم فى قلق واضح .

وقام اثنان من هنود ستوكبريدج ، وتركا مكانهما من حراسة النساء ، وتوجها إلى ضفة الغدير ليفحصاها بإمعان .

www.ibtesama.com

وسألهما برادلى وهو يفك أربطة أوجدن لتغييرها ، عما إذا كان هناك ما يريب ؟ فهزا رأسيهما بالنفى ، واستمرا فى الفحص والبحث مثلما تفعل كلاب الصيد ، وهى تقتفى أثر فريستها .

وخلع أوجدن ملابسه عن نصفه الأعلى ، وأغمض عينيه وهو يقف مستندا إلى الصبيين ، ففك برادلى الرباط الذى اصفر لونه ، رغم خلوه من لطخ الدماء ، وذهب إلى الغدير يغسله ثم يعصر الماء منه .

كانت الرصاصة قد اخترقت صدر أوجدن من تحت ضلوعه ، وخرجت عند ترقوته ، وكان الثقبان قد ابيضت حوافيهما ، وصار لون اللحم فى وسطهما أحمر مخضراً ، فقلت لچيس : من حسن الحظ أننى لم أصب بهذا الجرح ياچيس .

قال : الحق معك ! ولكنه أتى فى مكان لطيف جداً ، ولو فكرت طول اليوم فى أعجب هدف لرصاصة ، ما اهتديت إلى أحسن منه .

وفتح أوجدن عينيه ، وألقى إلينا بنظرة عامرة بالصبر والاحتمال ، ثم سألنى قائلا : كم سرنا حتى الآن ؟

قلت : أتقصد فى يومنا هذا ؟

www.ibtesama.com

قال هامسا : نعم اليوم .

قلت : خمسة عشر ميلا بالتقريب .

وأغمض عينيه ثانية ، واستند إلى الصبيين ، كما يستند المخمور إلى جدار يقيه السقوط ... كان واضحا أنه ظل طول اليوم يجر قدميه جراً ، لا يكاد يعى شيئا مما يدور حوله .... وأعتقد أننا ، فيما عدا لحظات قصيرة من العطف والشفقة ، لم نكن نشعر بما يعانيه من عذاب أليم ، فقد عرف كيف يستر أوجاعه الرهيبة ، تحت مظاهر من البطولة والكفاح الصامت ! بل لعلنا كنا ننظر إليه فى غالب الأحيان نظرتنا إلى شئ عادى لا غرابة فيه ؛ أما الآن فلا أظن واحدا منا قد نسى تلك البطولة الرائعة فى احتمال الألم ، وكلما رأيت رجالا أشداء يضجون بالشكوى عند قيامهم بعمل شاق ، أو يتخاذلون فى منتصف الطريق ، ويعجزون عن إتمام ما عهد به إليهم ، أتذكر أوجدن بصدره العارى وجرحه البشع ... أتذكره وهو يترنح فى وقفته ، بين صبييه الهنديين ، حريصاً على حفظ توازنه فى صبر وجلد .

وعاد روجرز من مهمته مع كونكابوت واليوزباشى جاكوبز ، ثم تناول ضمادات أوجدن ، وطلب من برادلى أن يستدعى رؤساء الفصائل إلى أول الصف ومعهم النساء ....

www.ibtesama.com

وبعد ذلك انحنى يفحص جروح أوجدن ويشمها ، ثم ضمدها بنفسه ، وقال فى عجلة : عظيم ! ما دمت لم تمت أمس ولا اليوم ، فالأمل كبير فى أن تتغلب على جرحك ، وتتماثل سريعاً للشفاء .

وهمس أوجدن يقول ، دون أن يفتح عينيه : كم بقى على ممفراماجوج ؟

أجاب روچرز فى حدة : مازلنا بعيدين عنها ، وأمامنا مسافة طويلة ؛ فالأفضل أن تجلس قليلا لترتاح .

قال : لا .. لن أجلس ... لا أريد أن أجلس ، خشية أن أنهار وأعجز عن النهوض ثانية .

قال روچرز : إذاً استند إلى جذع شجرة ، وابق فى مكانك حتى أستفسر من هؤلاء الرجال عن بعض الأمور .

وأقبل علينا فارنجتون ودانبار وتيرنر وجرانت ومعهم بقية الضباط ، وفى صحبتهم چينى كويت وأمها ومسز ويلك والمرأة الألمانية . وكانت چينى تميل بجسدها على الصول آفرى ، وترميه بنظرات الإغراء ، فلما أومأ إليها روچرز ، تركت آفرى ، وأسرعت إليه .

قال لها : هيا اطحنى بعض الذرة لليوزباشى أوجدن ، وإياك أن تتوانى ، فأنا لا أحب الكسالى .

www.ibtesama.com

قالت بفتور : ليس عندى ما أطحن به الحبوب .

وابتسم لها روجرز فى قسوة مخيفة ، والتمعت عيناه بوحشية جعلته مثل « ووبى ماوا أوندا » أو الشيطان الأبيض بلغة الهنود . ولعل الفتاة ظنته الشيطان بالذات ، إذ تخلت عن توانيها فى مثل لمح البصر ، وهرعت إلى حيث يقف أوجدن ، ودست يدها فى حقيبته تبحث عن الذرة .

والتفت روجرز إلى ضباطه الصامتين وقال : إن الطريق يضيع منا ، ومعالمه تتلاشى باطراد ، وأرى شاطئ النهر مهجوراً ، كأن أحدا لم يستعمله منذ أعوام ، فإذا كان منكم من يعرف عن هذا المكان شيئا ، فليتقدم بما لديه من معلومات .

ولم يتقدم أحد بكلمة .

قال : من الجائز ألا يكون هناك طريق على الإطلاق ، بالرغم مما يؤكده اليوزباشى ستارك ، فقد أشار فى خريطته إلى ممر يقع فى مكان ما من هذه المنطقة ، وذكر أنه سار على الشاطئ الشرقى ، عندما أسره الهنود منذ عشر سنوات .

والتفت إلى اليوزباشى چاكوبز يقول : ما اسم هذين الغلامين الهنديين ؟ لقد شغلتنى الأمور فلم أسأل عنهما .

أجاب اليوزباشى : الكبير يدعى أبيسا نيهراو والصغير تاتا بيكا ما تيوزيس .

www.ibtesama.com

صاح روجرز : هذا كلام فارغ ! نحن فى عجلة من أمرنا ، وهذه الأسماء طويلة معقدة ، والأفضل أن نسميها بيلى روجرز وبوب روجرز .

وربت كتف الغلام الكبير وقال له : أنت بيلى !

وفاض وجه الصبي بالبشر .

ثم فرك أذن الصغير وقال : وأنت بوب !

وألقى الغلام علينا نظرة تفيض بالألم ، فلما لم ير منا اهتماما بأمره ، عاد ينظر إلى روجرز بعينين جاحظتين .

قال روجرز لليوزباشي چاكوبز : سل بيلى وبوب عما إذا كان قد سبق لهما الذهاب إلى ممفراما جوج ، الواقعة على الجانب الآخر من كونيكتيكات ، قريبا من القلعة رقم ٤ .

وخاطب چاكوبز الغلامين بسرعة ، وبادر بيلى يجيب بكلام مستفيض ، أما بوب فكان مقتصداً فى حديثه .

والتفت چاكوبز يقول لروچرز : لقد ذهبا إلى ممفراما جوج ، ويقول بوب إن له فى القلعة رقم ٤ صديقة قديمة تدعى مسز تشيني كانت تعطيه خبزا وعسلا .

قال روچرز : وهل كانا يذهبان إلى القلعة من هذا الطريق الذى نسير فيه ؟

وهز چاكوبز رأسه نفيا ، وقال : بل كانا يسيران على الشاطئ الآخر من النهر .

www.ibtesama.com

سأله : وهل يتبع الطريق هنا شاطئ النهر ؟

وبعد أن تداول چاكوبز والصبيان ، قال : إنه طريق غدق رطب ، يبتعد عن النهر بالتدريج فى خط مستقيم .

وحملق الضباط فى روچرز ، فقد كانت الأخبار التى يسمعونها سيئة ، بل أسوأ ما يكون ؛ ولكن لمحة من القلق لم تبد على أحد منهم .

قال روچرز : وهل الممر الواقع على الضفة الأخرى فى حالة جيدة ؟

وأقر الغلامان بأنه جيد .

وقرقعت مسز ويك بصوتها تقول : جيد ؟ أنتم لا تعرفون ما يقصده الهنود بكلمة جيد ! لقد سلكت هذا الطريق ذات مرة ، وكنا على وشك الغرق بعدما عذبنا الجفاف شهرين كاملين .... إن هؤلاء الأفاقين الحمر يربطون قطعا من الجلد فى عصيهم ، ويعتبرونها أقواسا جيدة ، وينامون فى أكواخ مليئة بالدخان ويزعمون أنها مساكن جيدة !

سألها روچرز : أو تذكرين معالم هذا الممر ؟

صاحت تقول : أذكرها ؟ لا طبعا . . . لقد نسيتها حرصا على حياتى !

قال لچاكوبز : سل الفتيات الهنديات ... سل كبراهن

www.ibtesama.com

هذه عما تفعل إذا كانت تبتغى الوصول إلى ممفراما جوج ... أتسلك هذا الطريق ، أم تعبر النهر إلى الشاطئ الآخر ؟

وسألها چاكوبز ثم زجر قائلا : إنها لا تعرف شيئا ، ولا تريد أن تفعل هذا أو ذاك ، إنما تريد العودة إلى سانت فرانسس .

قال روچرز ضاحكا : لا أظنها غبية إلى هذه الدرجة ! والتفت إلى الضباط يقول فى لهجة الثقة : أعتقد أننا نسير فى الاتجاه الصحيح ، وإذا كان ستارك قد أتى من هذا الطريق ، فلست أرى ما يحول دون عودتنا منه أيضا .... وأظن أن هذا الجانب من النهر أسلم عاقبة ، لأن الفرنسيين إذا كانوا قادمين منه ، فلن يتمكنوا من السير أسرع منا ؛ وإذا عن لهم أن يعبروا إلينا النهر من الشاطئ الآخر ، فسيلقون أشد العناء فى اقتفاء أثرنا .

ونظر إلى أوجدن ، ورأى چينى كويت تلبسه قميصه وتشد له الضمادات على صدره ، فقال كمن يؤكد حديثه : لا .. لن يستطيعوا اللحاق بنا مادمتم تتبعوننى بجد ، فكونوا معى دائما ، وهذا كل ما أطلبه منكم ... هيا إلى رجالكم وأمروهم بالاستعداد للرحيل ، فالأفضل أن نواصل السير ، حتى يعجزنا الظلام عن رؤية الطريق .

www.ibtesama.com

الفصل الثاني والثلاثون

فى اليوم التالى ، وهو ثالث يوم منذ بدأنا رحلة العودة ، تلاشى الممر الذى نسلكه ، وضاعت معالمه وسط أراض غدقة . وكانت المستنقعات فى هذه المرة أخف وطأة من تلك التى قضينا فيها تسعة أيام بعد قيامنا من مسيسيكوا ، ولكنها كانت سيئة غاية السوء ، ومتاعبها لا يستهان بها ... قيعانها مليئة بالحفر ، ومياهها عامرة بالنباتات التى تلهب وجوهنا بضرباتها كلما تحركنا .

وكان نهر سانت فرانسس يجرى بين هذه المستنقعات ، وينثنى فى انحناءات عنيفة . كان روچرز يتنبأ بأماكنها قبل أن نراها ... حقيقة أنه أرسل أمامنا أربعة من هنود ستوكبريدچ ، يكشفون المجرى ، ويبلغوننا أنباء تغيراته أولا فأولا .... وحقيقة أيضا أننا كنا نحمل معنا الخريطة التخطيطية « الكروكية » التى رسمها اليوزباشى ستارك من مخلفات ذكرياته أيام الأسر ، وكانت عليها إشارات إلى منحنيات النهر ؛ ولكن صاحب الخريطة لم يستطع أن يحدد المواقع بدقة ، ولم يدل بمعلومات واضحة عنها ، ولذلك كان روچرز يعتمد على ذكائه فى التكهن بها .

www.ibtesama.com

والواقع أنه كان يتمتع بتلك الغريزة المبهمة العجيبة التى ترشد الحيوان إلى طريقه الصحيح ، وتمكنه من تقدير المسافات بمنتهى الدقة ، وسأظل دائما أعترف له بتفوقه علينا فى هذه الحاسة الخارقة ، التى تقود الكلب إلى بيته ، مهما بعد به الطريق ، واختلطت معالمه .

كنت أومن بصواب رأيه دائما ، فلم أدهش حين أمرنا بالانحراف فى زاوية قائمة إلى قلب المستنقعات العامرة بالمشقات ؛ ولما عدنا ثانية إلى النهر الغاضب بعد كفاح مرير دام ثلاث ساعات ، بدا الأمر فى ظاهره طبيعيا ، ولكنه كان ، فى الحقيقة ، معجزة خارقة .

والقول بأنها كانت « ثلاث ساعات من الكفاح المرير » ، وصف لا يعبر عن الواقع ، ولا يصور بعض ما عانيناه فى تلك الفترة القصيرة من العذاب اللانهائى : أرجل يهرؤها الألم ... أغصان تلسع الوجوه بضرباتها ... عيون يكويها العرق المنساب من الجباه ... حفر وقنوات توجع الأقدام المقرحة ... أخشاب حادة تخز الأجساد المكدودة فتدميها ... أشجار تشتبك بأمتعتنا وبنادقنا فتضاعف عناءنا ، وتعطلنا عن المسير . . . أجسام تنحنى وتتلوى تحاشيا لمواطن الخطر من الطريق . . . وفوق هذا كله اضطرارنا إلى الإسراع فى المسير ، دون هوادة أو راحة ، لشعورنا الدائم بأن فى

www.ibtesama.com

أعقابنا رجالا يريدون تمزيق أبداننا برصاصهم ، وتحطيم رءوسنا بفئوسهم .

لقد كانت محنة لا يتصورها العقل ، ولا أظن أن أحداً يستطيع أن يقدر مشقة الأهوال التى مررنا بها فى تلك الفترة ، سوى من اضطرته الظروف مثلنا إلى اختراق غابات بكر ، لا طرق فيها ولا مسالك .... ووراءه أعداء يطلبون حياته ، وأمامه سهول لا أول لها ولا آخر ، وليس معه ما يحميه من الموت جوعا إلا كيس من حبوب الذرة .

ولولا مهارة روچرز وحسن قيادته وصدق تنبؤاته ، ما أمكننا أن نعود إلى النهر ثانية ، ونبيت ليلتنا على أرض جافة .

ولست أذكر الآن بعض ليالى عودتنا من سانت فرانسس ، فقد تداخلت الذكريات بعضها فى بعض ، وانتظمت كوابيسها فى حلم طويل مروّع ؛ ولكنى أذكر ليلتنا الثالثة بوضوح ، ففيها انقطعت چينى كُويت إلى خدمة أوجدن ، وكذلك قرر لنا روچرز جراية محدودة من الذرة ، وأمرنا ألا نتعداها .

وقفنا فى تلك الليلة لإراحة ظهورنا من عناء أعبائها الثقيلة ، وما إن بدأنا نتبلغ بحفنات الذرة الجافة ، حتى سمعنا صوت چينى الأجش يتعالى بكلمات من لغة الأبيناكى ،

www.ibtesama.com

ورأيناها بعد لحظة تجرى بين الرجال ومن ورائها كونكاپوت .

وسقط ضوء القمر عليها ، فبدا وجهها أزرق باهتا ، وشعرها الأصفر تشوبه الخضرة ، وكانت فى حالة غضب بيّن .

وكان روچرز قد قام يفتش على الرجال بنفسه زيادة فى الاطمئنان والتأكد ، وأقام الجاويش برادلى نائبا عنه ، فلما رأى هذا أن الفتاة تجرى بتلك الصورة ، صاح فيها يقول : ماذا تريدين ؟ عودى إلى مكانك يا ملعونة !

قالت : إنى ذاهبة إلى اليوزباشى أوجدن أصلح ضماداته .

قال : لا تتدخلى فيما لا يعنيك ، فالغلامان الهنديان يرعيان شئونه ، ولو رآك الصاغ روچرز هناك ، لا بد أن يجز شعرك .

وأطلقت چينى من بين شفتيها صوتا لا يليق بسيدة مهذبة ، ومرقت من برادلى تجرى نحو أوجدن ؛ ولكنه لحق بها وجذبها من ذراعها بشدة ، فاستدارت إليه وهوت بقبضة يدها الأخرى على أذنه فى لطمة عنيفة . وأرخى برادلى يده عن ذراعها ، وهو يترنح إلى الخلف ، وقد أمسك بجانب رأسه ، فانتهزت الفتاة هذه الفرصة ، وهرعت إلى أوجدن ، وركعت أمامه تساعده على خلع قميصه .

www.ibtesama.com

فقال چيس بتشام ببرود : جميل ! أرأيت كيف بدأت تتصرف بعنف وخشونة ؟

وسار براذلى وراءها ، ووقف يرقبها هى وأوجدن ، ثم استدار نحوكونكاپوت ، وقال له : لا بأس يا كونكاپوت ، لا تقلق بالك بأمر هذه القردة ، والأفضل أن تذهب إلى الصاغ ، وتحدثه بما فعلت ، فهو كفيل بتأديبها .

وخلعت چينى لأوجدن قميصه ، ومالت فوقه تحل ضماداته ، وتهدهده بكلمات عطف خافتة ، ثم كشفت عن الجرح ، وجعلت تدلك اللحم حوله بعناية . وأقبل روچرز فى تلك اللحظة ، يسير بخطوات غير مسموعة ، واقترب حتى وقف خلفها مباشرة .

وقامت الفتاة والضمادات فى يدها ، فاصطدمت به ، وارتدت إلى الوراء كأنها ارتطمت بحائط صلب .

قال لها مزمجرا : من أرسلك إلى هنا ؟

قالت وهى تكشر له عن أنيابها : من تظنه أرسلنى ؟ إن اللواتى أسير معهن من عاهراتك القذرات لم يرسلننى !

قال : ولا أظن أحدنا استدعاك ، ومن عادتى إذا أردت نساء حولى أن أرسل فى طلبهن ، فافهمى ذلك جيداً ، واحذرى أن تثيرى الفتنة بين هؤلاء الرجال ، وإلا أطلقتك فى هذه الغابات وحدك .

www.ibtesama.com

صاحت به تقول : هيا ! هيا أطلقنى ، فأنا لم أطلب منك أن تأخذنى معك . إن الموهوك والوحوش أفضل منك ومن رجالك ! أطلقنى مع اليوزباشى أوجدن ، ودعنى أعنى به ، فربما عثرت على بقرة وحشية تلعق له جروحه فتشفيها ، أما إذا بقى معكم ، فلن يجد من يعنى به سوى هذه الديدان التى تنهش جرحه ! . . . أنظر إليها !

ودفعت ضمادات أوجدن تحت أنف روجرز وهى تقول : أنظر ! لم لا تكلف أحداً بالعناية به ؟ من الذى غيّر له ضماداته آخر مرة ؟ لقد غيرتها فى الليلة الماضية ، ولم يلمسها أحد بعدى . . . كان الواجب أن تغير ثلاث مرات على الأقل ، حتى لا تجف وتلتصق بلحمه . . . ثم يجب أن يستحم أيضا !

قال : باستطاعة الغلامين أن يساعداه على الاستحمام .

قالت : أنت كذاب وشرير ، ولا عجب أن سموك « وو ماوا أوندا » ! كيف يستطيع الصبيان أن يساعداه على الاستحمام ، وهما لم يستحما مرة فى حياتهما ! . . انظر إليهما فى ضوء النهار تر بنفسك أنهما قذران والقمل يسرح فى بدنيهما . . . واليوزباشى أوجدن قذر بدوره ، والقمل يسرح فى بدنه بسبب استناده عليهما . . . يجب أن تخلع ملابسه ،

www.ibtesama.com

وتنظف جسده جيداً ، وكذلك تغسل ضماداته ، فتنح عن طريق أبيها العنكب الكبير ، ودعني أعني بأمره .

ودفعت روچرز من طريقها ، وسارت إلى النهر وسط الحشائش التي تلمع في ضوء القمر .

ورفع روچرز يده إلى رأسه يحكه بإصبعه الضخمة ثم اقترب من أوجدن وقال : أنا لا أثق بهذه الفتاة ، فعلينا أن نحترس منها .

قال أوجدن في تخاذل : إنها ماهرة خدوم ، وأعتقد أنني أرتاح أكثر إذا سمحت لها بأن تغير ضماداتي ثلاث مرات في اليوم عملا باقتراحها .

قال روچرز متهملا : حسنا ! سأتركها حتى تنتهي من تنظيفك ، وبعد أن تضمد لك جراحك ، أعيدها إلى أمها . لا أريدها قريبة من الرجال ، وإلا تضاربوا من أجلها .

سأله أوجدن هامسا : كم بقى على ممفراماجوج ؟

قال : اسأل الفتاة حينما تعود إليك .

وانطلق يضحك ملء شدقيه ، ثم قال : ممفرا ماجوج ! ألا يفكر أحدكم في غير ممفراماجوج ؟

وعادت چيني ، وركعت بجانب أوجدن تعاونه حتى أسندته إلى كتفها ، قالت لروچرز وهي تنظر إليه بتحد : لم لا تخبره كم تبعد ممفراماجوج ؟

www.ibtesama.com

كانت تتكلم وهى تضمد جروح أوجدن بالقماش الأبيض . وكانت تعامله وهو مستند إلى كتفها بحنان الأم على طفلها المريض ؛ فلما انتهت ألبسته قميصه الجلدى ، وساعدته على إدخال ذراعيه فى الكُمَّيْن . وأخذت حقيبته ، وحلت سيورها ونظرت فيها ، ثم قالت وهى تهز رأسها : إنك تأكل أكثر مما يجب ! كم أكلت من الذرة فى يومك هذا ؟

وبان الخجل فى وجه أوجدن وقال : أكلت حفنتين ! كنت جائعا فلم أقو على كفّ نفسى ، ولعله فعل الدم الذى فقدته .

صاحت به تقول : دعنا من السبب . فالمهم ألا تأكل سوى حفنة واحدة ... حفنة واحدة فقط ! أفهمت ؟

قال لها روچرز : أنت تهذين كالمجانين !

فقفزت الفتاة واقفة ، وقالت وهى تهز قبضتها فى وجهه : قل له كم تبعد ممفرا ماجوج ! أنت لا تعرف ، وجهلنا بما ينتظرنا يكاد يصيبنا بالجنون ؛ الفرنسيون وراءنا ، ولكننا لا نعرف أين هم ، وممفراما جوج أمامنا ، ولكننا لا نعرف أين موقعها ... لو كنت أعرف بعدها عن هذا المكان لأخبرته ، وفى نيتى أن أخبره بكل ما أعرف ، إذا بقيت معه .

www.ibtesama.com

قال روچرز فى غيظ : أنت ، وحق السماء ، مشاغبة مشاكسة .

وجلس على مقربة منها ، وأخذ من حقيبته حفنة من الذرة ، وبدأ يتبلغ بها فى لذاذة وسعادة .

ونادانى ، ثم قال : أحضر دفتر الأحوال .

وعلى ضوء القمر جعل يفحص الخريطة التى رسمتها منذ وقت طويل ، ليلة دخولنا منطقة المستنقعات ، بعد أن خلفنا وراءنا خليج مسيسكوا . وظل يتأملها بدقة ، وبعد أن انتهى من دراستها ، استلقى على ظهره ، وجعل يرقب السماء من بين فروع الأشجار الباسقة ، وشفتاه تتحركان ، كأنه يقرأ شيئاً لنفسه .

وغلب النوم أوجدن ، فبقيت چينى جالسة بجواره ، وهى تنعم النظر فى وجهه الهادئ . وبدت فى جلستها هذه وديعة رفيقة لا حول لها ولا قوة ، ولكنى كنت أعلم أنها على العكس تماما ، جريئة قاسية ، لا تحمل لنا ذرة من الحب أو العطف ، فقد كنا بالأمس أعداء لها ، ولسنا اليوم سوى عصبة تريد أن تمنعها من العناية برجلها الجريح .

قال لى روچرز وهو يعيد دفتر الأحوال : دوّن حديثى مع الجاويش برادلى ، حتى لا يبقى مجال للخطأ أو الالتباس .

www.ibtesama.com

وصفر لبرادلى يدعوه ، فأقبل هذا وهو يختلس النظر إلى چينى .

سأله روچرز : كم أكلت من الذرة أيها الجاويش ؟

أجاب : نحو نصفها ، فما زال بالكيس نصف المقدار تقريبا .

قال : هذا أمر سيئ ، فأنت مثلهم جميعا تسرف فى الأكل . ألا تدرك أننا لم نسر اليوم سوى ثمانية أميال فقط ؟

قال برادلى : أى ان الطعام لن يكفينا سوى أربعين ميلا أخرى ، أليس التقدير كذلك ؟

قال روچرز وقد جمد وجهه : كنت الآن أفحص خريطة ستارك ، فوجدت أننا قد نصل غدا إلى منطقة جبلية وعرة ، يصعب علينا أن نسير فيها بسرعتنا الحالية .

قال برادلى : نستطيع أن ننقسم إلى جماعتين ، ويذهب بعضنا للبحث عن طعام .

قال روچرز بسرعة : لا ، ليس هنا ، فأمامنا مسلك واحد بمحاذاة النهر ، ولا ينتظر لمن ينحرف عنه إلى الداخل أن يعود ؛ فالهنود لن يلبثوا أن يتلقفوه ، ليسلخوا رأسه ويشووه ؛ ولذلك أرى أن نسير فى جماعة واحدة حتى نترك ممفراماجوج .

www.ibtesama.com

قال برادلى بلهجة يشوبها التردد والشك . وسأطلب من الرجال أن يقللوا جرايتهم اليومية . ثم سكت برهة ، وعاد يقول : إنهم فى شدة الجوع .

قال روچرز : لا مفر من ذلك ، وعليهم بالطاعة وإلا ازدادوا جوعا على جوع ، فاطلب إليهم أن يقسموا ذخيرتهم من الطعام إلى ستة أقسام ... أو قل سبعة ... لا بل الأفضل ثمانية ، ومرهم ألا يأكلوا أكثر من قسم واحد فى اليوم مهما اشتد بهم الجوع . وضح لهم أن سلامتهم تتوقف على اقتصادهم فى الطعام .

قال برادلى : سأبلغهم ذلك أيها الصاغ ؛ ولكن هناك أمراً آخر ، فالجميع يتساءلون عن المسافة إلى الأمونواوزاك التى حدثتهم عن وجود المؤن فيها ... إنهم لا يكفون عن الكلام عنها ، ولأنهم لا يعرفون بعدها الصحيح ، يطلقون العنان لخيالهم فى التكهن والتقدير .

قال روچرز فى لهجة حازمة : امنع هذا الحديث فوراً ، وحذرهم من الخوض فيه ، وإذا كانوا يريدون معرفة المسافة بالضبط ، فأخبرهم أنها تزيد على مائة ميل إذا سرنا فى خط مستقيم من شمال ممفراماجوج إلى الأمونواوزاك . هذه هى الحقيقة ، ولقد سبق أن مشيتها بنفسى وأنا واثق مما أقول .

www.ibtesama.com

أجاب برادلى فى دهشة واضحة : تقول فى خط مستقيم ؟ وكيف بالله عليك نسير فى خط مستقيم ؟

قال روچرز وهو يهز كتفيه : أجل ! إنها لتبعد مائة ميل وعشرة أميال فقط .

وكانت كلمة « فقط » نموذجا حقيقيا لعقليته التى تستوى فيها عظائم الأمور وصغائرها ، لا فرق بين المخاطرة الكبيرة والحادث التافه ... كل المصاعب عنده سواء ... ولعله استقى هذه الفلسفة من ثقته بقدرته على تذليل الصعوبات مهما بلغت خطورتها .

وكانت حقيبتى كحقيبة برادلى ممتلئة إلى النصف بالذرة ، وهو ما يقدر بنحو اثنى عشر كوبا صغيرا ... اثنا عشر كوبا من الذرة علينا أن نعيش عليها حتى نصل إلى ممفراماجوج ، التى نجهل موقعها . . . وبعدها نسير مائة وعشرة أميال إلى الأمونوأوزاك .

وشعرت بجسدى يلتهب بالحرارة ، وصدرى يمتلئ بالرعب ، فقد كنت أعتقد أننا قطعنا ما يقرب من نصف المسافة إلى القلعة المليئة بالمؤن والطعام .

وانصرف برادلى مطأطئ الرأس ، ورقدت چينى كويت

(٣)

www.ibtesama.com

بجانب أوجدن ، وقد وضعت ذراعها فوق بدنه الملتحف بالأغطية ، ثم استسلمت لنوم عميق .

وزمجر روچرز قائلا : قردة لعينة ! أحضر أيها الجاويش حقيبتها وأغطيتها وضعها هنا ، فلست أعتقد أنها ستضايق أحدا خلال الأيام المقبلة ... لا لن تضايق سوى أوجدن وحده .

* * *

أما كيف تسنى لروچرز أن يتنبأ بوصولنا فى اليوم التالى إلى هذا المكان الوعر ، فذلك أمر يصعب تفسيره ، ولكننا وصلنا قرب الظهر فعلا ، وكنا فى اليوم الرابع لعودتنا من سانت فرانسس . ورأينا التلال بانحدارها الشديد ، تبدو أمامنا مثل نماذج مصغرة لمرتفعات تلك المنطقة التى نعرفها اليوم باسم « ڤيرمونت » . وضاق النهر وتضاءل اتساعه ، وهو ينحدر فوق مهد من الصخور والأحجار ، بين شاطئين قائمين تتخللهما جداول تصب ماءها المتدفق فى المجرى الرئيسى .

وما إن انتصف النهار حتى كنا وسط تلك الجداول نعبرها كلما اعترضت سيرنا . وكنا نكد فى تسلق جوانبها القائمة ، ومقاومة حشائشها المتشابكة ، ثم لا تلبث أقدامنا أن تنزلق فنتدحرج إلى الخلف ساقطين .. ومضت بقية اليوم فى عناء ما بعده عناء ، مرة نتسلق الصخور العالية ، وأخرى نتدحرج إلى غياهب الجداول الغادرة .

www.ibtesama.com

كنا قد سمعنا فى الليل أصوات البط والأوز البرى ، وهو يطير عاليا فى أسرابه ، وكذلك سمعنا نعيق البوم يتجاوب على الأشجار القريبة . ثم طلع النهار فلم نر شيئاً من ذلك ، أو نسمع صوتا سوى صياح غراب شارد أو صفير صقر جائع ، فطلب روچرز من الملازمين سولومون وكونكاپوت — وكانا يقومان بكشف الطريق أمامنا — أن يصيدا ما يعترضهما من حيوانات كبيرة كالغزال أو الدب أو البقر الوحشى ، وألا يضيعا الرصاص فيما هو أصغر من ذلك ؛ ولكن يبدو أن الضوضاء التى أحدثناها ونحن نصارع الصخور والحشائش ، أفزعت الصيد بأنواعه ، فلم يعثر الرجلان على شىء .

وأظهر أوجدن شجاعة فى احتمال إصابته : كان يسير مستندا إلى چينى ، ومن ورائه الغلام بيلى يدفعه إلى الأمام ، ويمنعه من السقوط إذا اعترضه أخدود ؛ أما الغلام الثانى بوب فقد سار فى المؤخرة يحمل له متاعه وبندقيته ...

وكان يبدو على أوجدن سمات من كتب عليه العذاب الأبدى : لا يتلفت حوله ، ولا يرفع عينيه عن الأرض ، ولا ينفك عن التعثر بين رفع غلامه وجذبه . ولم تكتف چينى بمساعدته على السير ، إنما كانت أيضاً تطعمه وتغسل ضماداته وتغيرها ... تقص له شعره ، وترتق ملابسه .

www.ibtesama.com

تعمل هذا كله خلال الدقائق الخمس التى نقفها كل ساعة لننال قسطاً من الراحة ، ونطمئن إلى أن أحداً منا لم يتخلف فى الطريق . لقد بات واضحا أن أوجدن أصبح شاغل الفتاة الوحيد فى الحياة ، ولم تكن لتتردد دون إعطائه ملابسها إذا قبل أن يأخذها منها ، وتطعمه بنصيبها الكامل من الذرة ، أو تفعل أى أمر آخر يعينه على السير .

ومشينا أربعة عشر ميلا فى ذلك اليوم ؛ أما اليوم الخامس فكان سيئا للغاية ، إذ ازدادت التلال ارتفاعا ، والأخاديد عُمقا ، وماء الجداول سرعة وانحداراً . وكبر حجم الصخور التى تعترضنا ، وأضحت أكثر ملاسة وأشد خطرا . وفى هذا اليوم تلفت أوجدن حوله يرقبنا لأول مرة منذ أصابته الرصاصة . وإنى أذكر تلك الأيام الأولى كجزء واضح من رحلتنا ، أما بعد ذلك فلم يكن فى الأيام ما يميز أحدها عن الآخر .

كان اليوم الخامس فى رحلتنا هو العاشر من شهر أكتوبر ، وفى اليوم السادس — وهو من الأيام التى أذكرها بوضوح أيضاً — شاهدنا نحو الجنوب جبالا كبيرة ، أطرافها حادة ، وقممها مسننة ، وقد حدث فى ذلك اليوم أن نفدت ذخيرة الذرة من عدد صغير من الجنود ، أولئك الذين أسرفوا فى

www.ibtesama.com

جمع الأسلاب يوم المعركة ، وفضلوا أن يملأوا أكياسهم بها دون الطعام ، فلما نفدت مئونتهم ، جعلوا يساومون على أسلابهم نظير ما يرد عنهم قسوة الجوع : طوق من الأصداف الغالية مقابل حفنة من الذرة ، وقلادة من الفضة بملء كوب صغير ..

وما زلت أذكر اليوم السابع لهول ما جرى فيه ؛ فقد عدت فى تلك الليلة إلى مرقدى بعد أن ملأت الزقاق بالماء ، فإذا بكروفتون يجثم على أربع كالكلب . وتقدمت من خلفه بهدوء ، ورأيته يخرج من حقيبته شيئا جعل ينهش فيه ويشده بأسنانه مثلما يفعل الكلب بالعظام ، فسألته : ماذا تأكل ؟

ودفع كروفتون ما بيده إلى الحقيبة بسرعة ، وجعل يمسح شفتيه بظهر يده ، ولكن حرصه على إخفاء الشىء بسرعة ، جعله يقع متدحرجا على الأرض ...

ويا لهول ما رأيت ! كانت قطعة من جسم رجل هندى !

ولست أذكر ما قلته له فى تلك اللحظة ، ولكن كروفتون اقترب منى .... اقترب منى كثيراً ، حتى تراجعت أمامه ، وأنا أحس برغبة ملحة فى الهرب بعيدا عنه .

قال هامسا : إنها ملكى ، ولست أرى مانعا من أن آكل ما يخصنى ، ألا تذكر ما فعلوا بأخى ؟

www.ibtesama.com

وانطلق يضحك بصوت يشبه نعيق البومة القرناء ، وهى تمسك بأرنب وقع فى براثنها .

ورغم ما اعترانى من ذعر ، بدا لى فى قوله بعض المنطق ، ولعله فعل الشذوذ الذى أصاب عقولنا ومعنوياتنا ، بعد شهر من الغذاء الضئيل الجاف ، والسير يوما بعد يوم فى ملابس يقطر منها الماء ، لا نعرف متى نصل إلى وجهتنا ، وهل ننجو من أعدائنا الفرنسيين والهنود ، أم نقتل على أيديهم شر قتلة ؟

خيل إلى فى تلك اللحظة ، أنه ما دام الهنود قد قتلوا شقيق كروفتون ومثلوا به أبشع تمثيل ، فلمَ لا يقتل كروفتون من الهنود من يشاء ؟ ولم لا يفعل بقتلاه ما يريد ؟ اعتبرته تعليلا مقبولا ، ولم أدرك إلا أخيراً أنها الحرب تسلبنا كل أسباب التعقل ، وتزين لنا أغرب الأفكار وأكثرها وحشية وشذوذا .

وفى اليوم التالى ، وهو اليوم الثامن بعد أن غادرنا سانت فرانسس ، رأينا ممفراماجوج : كانت بحيرة ضيقة جميلة ، ترقد وسط تلال وجبال ذات قمم مدببة تبدو كأنها أسنان وحش هائل فغر فمه لابتلاعنا . وكانت هذه المرتفعات قائمة الجوانب حادة الأطراف ، كأنما صاغتها يد جبار فى باطن الأرض ، ثم دفعتها إلى أعلى ، فاخترقت التربة اللينة ، وبرزت منها :

www.ibtesama.com

وظننت أن ذلك اليوم — وكان الثالث عشر من شهر اكتوبر — هو أسود يوم يحتمل أن يمر بحياتنا ، ولكنه لم يكن فى الحقيقة سوى بداية كابوس مروّع ، كلما عاودتنى ذكراه بعد ذلك وأنا نائم ، يطلق الفزع حنجرتى بالأنين والصراخ ، وأظل على هذه الحال حتى يطرق أحدهم بابى ، ويوقظنى ٥

www.ibtesama.com

الفصل الثالث والثلاثون

كان الوقت عصراً عندما اعتلينا تلا ، فلاحت لنا ممفراماجوج من بين رءوس الأشـــجار الداكنة . وكان الجو صحوا إلى أبعد حد : شمس لامعة وسماء صافية ، فرأينا صفوفاً وصفوفا من الجبال ، شمخت بقممها نحو سماء خالية من الغيوم ، ومن ورائها ، على الشاطئ الآخر للبحيرة ، صفوف أخرى من جبال أعلى ، تناثرت هنا وهناك ، فملأت الأفق وازدحمت بها الأرض .

كنا حقا مقبلين على أرض وعرة صعبة المسالك .

وعلت من خلفى همهمة الرجال العجاف الضامرين ، فقد كان مرأى ممفراماجوج ، التى طال انتظارها ، معناه الأمن والراحة ، وأهم من ذلك الطعام .... فلا بد أن البحيرة تزخر بالأسماك ، والغزلان تأتيها فى المساء لتروى عطشها بمائها وترعى الحشائش المحيطة بها . ولا بد أيضاً أن الشواطئ تعمر بالبط البرى الذى يقبل أفواجا مع كل فجر جديد .

كان الطعام قد أصبح هم الرجال الأوحد ، بعد أن خلت الحقائب منه كما خلت البطون ؛ أما أنا فكنت أسعد حالا من غيرى وفى حقيبتى ملء كوب من الذرة ، كلما

www.ibtesama.com

سقطت منه حبة ، جثا الرجال على الأرض يبحثون عنها ... لقد عشنا أياما وليالى بأمل وصولنا إلى ممفراماجوج ، حيث الطمأنينة من مطاردة العدو ، وحيث نستطيع أن نوقد نارا كبيرة ، نشوى فيها الأسماك بالآلاف ، ثم ننام ملء جفوننا فى دفء وهدوء واستقرار .

ومن العجيب أن چينى كانت ما تزال مصرة على السير بجانب أوجدن ، رغم أنه لم يعد فى حاجة إلى مساعدتها ، فالصبيان يحملان له متاعه ، ولقد أبى أن يترك لهما بندقيته ، فحملها وسار رافع الرأس يتلفت حوله كعادته .

وبدت الفتاة كجزء لايتجزأ من أوجدن ، فلم يعد رفاقه يلقون بالا إليها ، إذ كانت كالكلب الأمين تتبعه وعينها لا ترتفع عنه . ولما ظهرت البحيرة أمامنا قفزت فى سرور وهى تصفق بيديها . قالت بصوتها الأجش : سنتعشى الليلة سمكاً !

وما إن تفوهت بتلك الكلمات ، حتى استدار لها روچرز ، وألقى عليها نظرة تنطق بالغضب . كانت قبعته قد فقدت زينتها منذ أيام مضت ، وانكسر جانبها الأسود القاتم ، ونمت لحيته كالدغل الكثيف ، وتدلى جفناه تحت عينيه ، وازدادا تهدلا عن ذى قبل .

www.ibtesama.com

صاح بالفتاة يقول : سمك ! أتعرفين كيف تحصلين عليـــه ؟ لعلك تتصورين أنك ستجدين فى انتظارك قاربا وشصوصا وطُعْماً ؟

وأخرج صوتا من أنفه ، ثم طوح ذراعيه ، وسار متوغلا بين الأشجار ، فى خط مائل على البحيرة ، لا متجها إليها .

واسترقت چينى نظرة إلى أوجدن ، وسكتت ؛ فمنذ تحسنت صحته ، باتت حريصة فى إجابتها على روچرز ، تلافيا لإغضابه . وكنت أعلم أنها لا تخاف فى الدنيا شيئا ، ولكنها أصبحت الآن تخاف أن تفقد أوجدن .

وعند الأصيل أقبل الملازم دانبار ليتحدث مع روچرز . كانت سِحَنُ الضباط والجنود وأشكالهم قد تشابهت فى الأيام الأخيرة ، بحيث أصبح من المتعذر علىّ أن أميز الواحد من الآخر إلا بعد تريث وتدقيق . وكان شأن دانبار شأنهم جميعا : لم يعد ذلك البريطانى النحيل الذى عرفته فى قلعة كراون پوينت ، إنما تحول إلى شخص آخر : شعره الأشقر يتدلى من تحت قلنسوته الخضراء المهشمة ، ولحيته المشعثة تغطى نصف وجهه الأسفل ، وكان قد لف حول جسده قطعا من القماش الأخضر طلبا للدفء ، فبان أغلظ جسماً من حقيقته ، وحتى صوته انخفض عن ذى قبل ، وخفت حدته .

www.ibtesama.com

قال لروچرز : أما من أمل فى التريث قليلاً حتى نبحث عن صيد .

قال روچرز بلهجة يشوبها العطف : ليس الآن ، فما زال لدينا بقية من الطعام ، وأظن أن الفرنسيين قد أصبحوا فى شدة الجوع مثلنا .

قال دانبار : ومتى تظن أننا نستطيع الوقوف ؟ لقد كان الرجال يترقبون الراحة حالما نصل إلى ممفرا ماجوج ، ولكن القلق أخذ ينتابهم بعدما رأوا منك إصرارا على مواصلة السير .

قال روچرز : أنفد ما لديهم من الذرة ؟

قال : نفد من معظمهم ، وأصبحوا يخشون الموت جوعا ، ويؤكدون أن يوما واحدا بجوار البحيرة يمكنهم من صيد ما يكفيهم للسير إلى أى مكان .

وتقدم روچرز إلى الأمام وكأنه لم يسمع ، ثم قال : حسنا أيها الملازم ، لن نقف الآن ، وعليك أن تبث الشجاعة فى قلوبهم ، قل لهم إننا قد نعثر فى أثناء سيرنا على غزال نصيده .

قال دانبار : وهل يشبع غزال واحد مائة وأربعين رجلا ؟

www.ibtesama.com

وكأنما كره روچرز أن يجيبه على هذا السؤال ، فمضى فى سيره صامتا ، وبجانبه دانبار والملازم تيرنر والصول آڤرى .

ثم نظر إلى تيرنر بعينين متعبتين ، كأنه لم يذق طعم النوم منذ شهر ، وهى الحقيقة على ما أعتقد . قال : حسنا أيها الملازم ، ما الذى يشغل بالك ؟

قال تيرنر : أعتقد أن بعض رجالى لن يقوى على الاستمرار فى هذا السير طويلا .

قال روچرز : ولعلك تريد أن نقف للصيد ؟

قال تيرنر : لا يا سيدى ، ولكن الرجال يفضلون لو قسموا أنفسهم إلى فصائل تسعى وراء الصيد متفرقة ، إذ ليس من المحتمل أن يعثروا على فريسة ، وهم يسيرون هكذا فى صف واحد طويل.

وأضاف آڤرى قوله : وهذا رأى رجال فصيلتى أيضا .

وكان آڤرى قد تغير عما كان عليه يوم رأيته فى كراون پوينت ، فبعد أن كان له وجه صبيانى مستدير ، أسمر اللون صافيه ، امتدت التجاعيد فى خطين عميقين على جانبى أنفه ، وابيضت بشرته فى زرقة واضحة ، وتراخى جفناه على مقلتيه ، كأنه نصف نائم .

وكنت أعلم أن روچرز يحترم تيرنر وآڤرى ، ويقدر

www.ibtesama.com

آراءهما ، بعد أن خبرهما فى رحلته الكشفية يوم هجومه على سانت فرانسس .

سألهما روچرز قائلا : إذا كان رجالكما يرون هذا الرأى ، فهل توافقان على ذلك ؟

أجاب الاثنان ومعهما دانبار بصوت واحد : نعم يا سيدى .

وأقبل من ورائنا الملازمان فارنجتون وجرانت ، وقد بدا عليهما التعب والهم . وكنت أرى فى كل فرد من هذه المجموعة ما يذكرنى بقصة روبنصون كروزو : شعر طويل مشعث ، وملابس عجيبة ، وسط طبيعة قاسية وأشجار عالية . وتبين لى فجأة أننى بدورى لا أختلف فى شىء عن أى منهم .

قال روچرز يحدث فارنجتون وجرانت دون أن يلتفت وراءه ، كأنه رآهما بعينين خلفيتين : وهل يتذمر رجالكما أيضاً ؟

قال فارنجتون ، إنهم لا يتذمرون يا سيدى ، ولكنهم جياع يريدون شيئاً يأكلونه .

قال روچرز : حسنا ! ما دام هذا شعورهم جميعاً ، فمن المستحسن أن نعقد مجلسا للحرب ؛ ولكننا لا نستطيع أن نعقده قبل المساء ، فاطلبوا إلى الرجال أن يجدوا فى سيرهم

www.ibtesama.com

قدر طاقتهم ، وحالما نعسكر الليلة ، ننظر فى الأمر ونتفق على رأى .

ورفع نظره إلى السماء ، وجعل يشم الهواء بأنفه الضخم الذى يشبه المنقار ، ثم قال : ولكن تذكروا أن عاصفة على وشك الهبوب ، بدليل أن جروحى تؤلمنى ، وسيكون الصيد متعذرا لمدة يوم أو يومين .

ولم ينبس أحد من الرجال بكلمة .

وقفوا ينتظرون فصائلهم حتى تمر عليهم ، فيلتحقوا بها ؛

وكانت هذه أول مرة أرى رجال روچرز يفعلون ذلك ؛ فقد كان من عادتهم أن يهرعوا عائدين إلى فصائلهم ، لا أن يقفوا فى انتظار قدومها .

* * *

وتوقفنا تلك الليلة فوق ربوة ذات سطح منبسط ، تشرف على جدول تجرى مياهه إلى بحيرة ممفرا ماجوج ؛ والتف الرجال ، عدا الحراس ، فى دائرة حول روچرز ، ولست أدرى أقد جمعهم حوله هكذا ليتقى هجوما مفاجئا ، أو ليبعث فيهم شعورا بالدفء والطمأنينة .

وانعقد مجلس الحرب فوق الربوة السوداء فى حمى الظلام الحالك ؛ إذ كانت الليلة محاقا ، والنجوم ضعيفة الضوء لا تلمع ، فبدا الرجال كأنهم أشباح لا تتبين العين من ملامحهم شيئا .

www.ibtesama.com

قال روچرز : اقترح بعضكم أن ننقسم إلى جماعات صغيرة تسعى كل جماعة وراء الصيد وحدها ، ولكننا لا نستطيع أن نتخذ فى هذا الأمر قرارا قبل أن نسمع آراء الآخرين ؛ فهل مازلت عند رأيك أيها الصول آ قرى ؟

وكان العرف يجرى بأن يؤخذ رأى أصغر الرؤساء سنا فى مجالس الحرب ، وكان آ قرى أصغرهم ، فقال : نعم يا سيدى . لن يستطيع رجالى المضى فى الرحلة دون طعام ، فقد بدأت تشنجات المعدة تتفشى فيهم .

وهمهم الضباط بالموافقة ، مما يدل على شدة استعدادهم لتأييد الفكرة .

قال روچرز : وأنت أيها اليوزباشى أوجدن ، ماذا ترى ؟ أنت أسوؤنا حالا ، وقد يكون لتوجيهك فائدة .

وسكت أوجدن طويلا فى ذلك الظلام الدامس ، حتى ظننت أنه انسل مع چينى إلى مكان بعيد عنا . وأخيرا ناداه روچرز مرة ثانية ، فقال : من أشد الأمور وأقساها أن تكره رجالا على السير وبطونهم خاوية ، ولو كانوا فى مثل حالى لاقترحت أن نمضى فى سيرنا معاً يوما أو يومين آخرين ، فهذا ولا شك أفضل .

وتكلم الملازم دانبار فقال : عندما بدأنا رحلة العودة

www.ibtesama.com

أيها الصاغ ، قلت لنا إن متاعبنا تنتهى حالما نصل إلى ممفرا ماجوج ؛ وهانحن أولاء قد وصلنا ، ولا دليل على أن الفرنسيين يتبعوننا ، ولعلهم بالفعل تركونا وشأننا ، إذ ربما يكون قد تعذر عليهم الحصول على المؤن التى تسمح لهم باقتفاء أثرنا كل هذه المسافة ، أو ظنوا أننا اتخذنا طريقا آخر ... فهل جد من الأمور ما يدعوك إلى الرجوع عن الرأى الذى أبديته فى سانت فرانسس ؟

قال روچرز : لقد أسأت فهم كلامى ، أيها الملازم ، لقد قلت إننا نسلم من الخطر عندما نترك ممفرا ماجوج ، وممفرا ماجوج ما زالت أمامنا ، ولم نخلفها وراءنا بعد .

وسكتوا جميعا .

واستأنف القائد حديثه فقال : والآن دعونا نأخذ الأصوات ، ولكنى أحب أن أوضح لكم بعض الأمور قبل ذلك . أولا : يستطيع الرجل الجائع أن يسير أكثر كثيرا مما يتصور ، لو تذرع بالشجاعة ... واليكم مثلا حيا فى اليوزباشى چاكوبز ورجاله من هنود ستوكبريدج ، فهم لم يتغيروا عما كانوا عليه يوم غادرنا سانت فرانسس ، علما بأنهم لم يأكلوا غير ما أكلنا ، ولقد رأيت فتياناً من الهنود يسيرون عشرة أيام دون طعام على الإطلاق . ثانيا : إن لهذا الإقليم

www.ibtesama.com

طبيعة خداعة ماكرة ، لأنه ملىء بالغدران والأخاديد ، طرقه ذات زوايا حادة ، ومستنقعاته متعددة واسعة ... فهو بالاختصار أنسب مكان يكمن لنا العدو فيه ، ويأخذنا على غرة . وأنا لم أطرق هذه المنطقة سوى مرة واحدة ، ولذلك لا أعرف عنها إلا قليلا ، ولكن أولئك الذين يتبعوننا يعرفون كثيرا :

وارتفع صوت هادئ من حافة الدائرة يقول : دعونا نأخذ الأصوات .

فقال روچرز : ليكن ! من منكم يرى متابعة السير فى جماعة واحدة ؟

ولم يرتفع سوى صوت أوجدن يقول : أنا . . :

ولعل آمال روچرز فى رجاله خابت فى تلك اللحظة ، ولكنه لم يظهر ما ينم عن شعوره ، إذ قال : فى هذا الكفاية .. غداً عند الظهر نتفرق فى جماعات ، فمن المستحسن أن نوغل فى الشرق قليلا ، لنبتعد عن المستنقعات المتصلة بالبحيرة ، ولكى أعيد تنظيم الحملة ، حتى تحظى كل مجموعة من الرجال بقيادة طيبة على قدر الإمكان . وسأرسم لكم الليلة خرائط تسترشدون بها فى طريقكم . ولا يغيبن عن بالكم أمران على غاية من الأهمية ، أولهما : أننا نقصد مصب

www.ibtesama.com

الأمونو أوزاك في نهر كونيكتيكات بمناطق الكوهيز بجوار نهر ولز، وسوف أرشدكم إلى موقع هذا المصب على الخريطة، فلا تنسوا الأمونوأوزاك ، إذ فيه الطعام الذى تريدون ، ولعله موجود الآن هناك فى انتظاركم ، فما عليكم إلا أن تثابروا على المسير حتى تصلوا إليه . . والأمر الثانى : أوصيكم أن تبذلوا جهدكم فى السير صوب الجنوب الشرقى ، فنهر كونيكتيكات ينساب فى ذلك الاتجاه ، والطريق الجنوبى أطول ولكنه أصلح للسير . إن مناطق الكوهيز التى تقصدونها أجمل بقاع الدنيا ، وأرضها خصبة ، والهنود يزرعونها كلها . . وفى نهاية الكوهيز تجدون نهر الأمونواوزاك ، حيث الأمن والسلام والطمأنينة ... فهل وعيتم كل كلمة من حديثى ؟

وتمتم الرجال بالإيجاب .

وفى الهدوء الشامل الذى تلا ذلك ، سمعت روجرز ينهض واقفاً ، ورأيته بعين الخيال يدك قبعته المهشمة فوق شعره المنفوش .

قال : حسناً أيها السادة . . لقد اتفقنا على الخطة ، وعند الفجر يبدأ السير كالمعتاد ، فأخطروا رجالكم بأنى سأقيم ناراً على المنحدر الجنوبى للربوة ، لأرسم لكم الخرائط المطلوبة .

www.ibtesama.com

ونادانى وأوجدن ، فزمجرت چينى وهى تعين صديقها على الوقوف . ولما أوقدت النار وسُترت أشعتها جيداً ، جلست الفتاة وراء أوجدن ، وجعلت من ظهرها مسنداً لظهره .

وظل روچرز وأوجدن يفحصان الخريطة مرة بعد مرة ، ويتتبعان الطريق الذى سلكه روچرز مع اليوزباشى پاورز ، عند ما اكتشفا مناطق الكوهيز عام ١٨٥٥ ، وكانت لروچرز ذاكرة لاينضب لها معين ، لكثرة ما وعت من معلومات وتفاصيل .

قال وهو ينقر الخريطة بإصبعه الغليظة : لو أنك تركت كونيكتيكات من هذه النقطة ، وسرت صاعداً مع نهر الأمونو أوزاك ، لأمكنك أن تختصر عشرة أميال من مسيرك .

وجعلت أكتب وصف الطريق الذى يعتزمون السير فيه ، وأبيّن علاماته المميزة : فهنا تل مميز الشكل يشبه قمع السكر ، وهناك تل آخر ترك الجليد عليه آثارا دائمة ، ومن بعده جرف هائل على شكل الضفدع ، ثم شجرة بلوط أحرقتها صاعقة .

كان يذكر أعجب التفاصيل عن الطريق : يعرف

www.ibtesama.com

أين تعترض شجرة ميتة سير جدول صغير ، وأين تقع الشلالات ومدى ارتفاعاتها وأطوالها ، وأين توجد فى التلال أوكار النسور ومهابط الأوز وأعشاش العصافير . . . لم يكن قد نسى شيئاً مما رآه ، وأدهشنى كيف لم ينفجر رأسه لكثرة ما حشاه بالمعلومات ، التى يستحيل على أى رأس آخر أن يحتفظ بها على توالى السنين .

ورسمت عشر نسخ من الخريطة المطلوبة ، ولما انتهيت منها تناولها روچرز ، ونزعها من الدفتر ، ثم دسها فى عب سترته .

فسألته : ألا يحسن أن أحتفظ مغى بالدفتر ؟

قال وهو يهز رأسه : لا . . لأنى سأبعث بك مع الصول آقرى ، فأنت أكثر منه خبرة بقراءة الكرونومتر ومعرفة الاتجاهات ، وأخشى أن يضل الطريق إذا سار وحده .

وحاولت أن أتظاهر بعدم الاكتراث .

أردف يقول : لقد نلت من العلم مالم ينله آقرى ، والعلم يكسب صاحبه ثقة بنفسه ، وأظن أن فى خروجك معه مصلحة مشتركة ؛ فآقرى ضابط نشيط ، وبودى أن يصل سالما ، ولكن إذا أصابه مكروه ، يكون فى مقدورك أن تحسن قيادة جماعتك .

www.ibtesama.com

وأردت أن أقنعه بأنني لست متعلما كما يتوهم ، ولكن اختلاط الأمور شتت أفكارى ، فوجدتنى مرة أفكر فى ماكنوت ، الذى وصفنى ذات يوم بالجهل المطبق ، وأخرى أستعيد ذكرى هنك مارينار ، الذى غابت صورته عن ذهنى أياما طويلة . . . تارة أفكر فى الزبابيث ، ثم فى بيتنا ، وتارة أخرى أفكر فى أخى أوديورن ، الذى أوصانى بأن أحضر له هنديا مستأنسا .

وكان روچرز يرقبنى باهتمام ، ثم لم يلبث أن قال وهو يبتسم فى عطف : دع القلق واطمئن ، فأنت تتميز عن الآخرين برغبتك فى الحياة . هؤلاء جميعهم لا هم لهم سوى أن يعيشوا ، ولكنك تريد أن تحيا لترسم ، ومن العسير على الموت أن ينال رجلا يستهدف بالبقاء غايات واضحة .

www.ibtesama.com

الفصل الرابع والثلاثون

تحققت نبوءة الصاغ عن الجو ، فقد كان الصفاء الذى تمتعنا به نذير عاصفة قادمة . ولما طلع الفجر ، هبت ريح شمالية شرقيّة عاتية ، تسوق أمامها ضبابا داكناً ، لم يلبث أن أحاط الأشجار بغلالة رمادية مقبضة ، وأسقط أوراقها إلى الأخاديد والغدران فى سيل جارف .

وغلبنى التشاؤم من هذا الإقليم بأشجاره المتداعية ، وأرضه الوعرة ، وضبابه الأسود ، ورياحه المولولة . . ثم غدرانه التى تهدر فى كل الاتجاهات ، بحيث لا يستطيع أحد أن يعتمد عليها فى اكتشاف طريقه . . وفوق هذا كله شعرت بالانقباض لقرب افتراقى عن چيس بتشام وأوجدن وبرادلى وروچرز ، وغيرهم من أولئك الذين رافقتهم أياماً كثيرة ، وتوثقت عرى الصداقة بينى وبينهم ، على عكس أفراد الجماعة الأخرى .

وكانت وجبة إفطارى تتألف من اثنتى عشرة حبة من الذرة ، فأكلتها ، ولكنها لم تبعث فى نفسى إحساساً بالرضا ، وأنا أتبع أوجدن وچينى فى رحلتنا الشاقة : نصعد التلال ،

www.ibtesama.com

ونهبط الأخاديد ونخوض الأراضى الغدقة . وجاء الظهر وكأننا لم ننتقل من مكاننا قيد خطوة : فالتلال هى التلال ، والأشجار هى الأشجار ، والأخاديد لا تختلف فى شدة انحدارها وصلابة أحجارها . . ولم يتغير مما حولنا سوى العاصفة ، فقد استحال الضباب مطرا باردا ، ينهمر فوق الأوراق الميتة ، التى كانت عالقة بأشجارها المبتلة ، فلم تلبث الرياح أن انتزعتها من فروعها ، وأسقطتها على الأرض فيما يشبه السيل المنهمر .

وأوقفنا روچرز فى حمى جرف قائم ، وأرسل چاكوبز وكونكاپوت إلى الربوة للحراسة والاستطلاع . ولم أر داعياً لتشديد الحراسة على هذا النحو ، لأننا لم نكن نعتزم الوقوف فى مكاننا طويلا ، ولكنى لم ألق بالا لما جال بخاطرى ، فقد علمنى طول معرفتى بروچرز كيف أثق بإصراره على اتخاذ أسباب الحيطة ، وأسلم بكل ما يفعل ، حتى إذا بدا لى سخيفاً لا معنى له .

وجاءت وقفتنا فى بقعة من الأرض ضالة المعالم : فأمامنا أربعة تلال قائمة ، بينها أخاديد تقود إلى مزيد من التلال المتشابهة ، وتتخلل هذه التلال جداول وأخاديد أخرى تتلوى وتنثنى فى اتجاهات لا تحصرها العين .

www.ibtesama.com

وعندما أمرنا روچرز بالوقوف ، اصطف الرجال أمامه فبدوا مثل قطيع أفسد الإنهاك حاله : كانت ملابسهم قد اسودت بعد ابتلالها بالأمطار ، وقلانسهم الاسكتلندية مشدودة فوق رءوسهم إلى أقصى ما يمكن أن تصل إليه . . ولحاهم وبنادقهم يقطر الماء منها ، وسيقانهم تبدو مشوهة الشكل لكثرة ما انحشر فى أحذيتها وقلاشينها من أوراق الشجر . . . وبانت الرقع الملونة التى رتقوا بها ثيابهم فى سانت فرانسس ، فتنافرت الألوان ، وانعدم الانسجام . . وظهر أثر الإرهاق واضحاً فى وجوههم الضامرة ، ولحاهم المشعثة ، فأصبحوا كأنهم صور لقديسين رسمتها أقلام فنان بدائى . . . ووقف البيض من الجنود يحملقون دهشة فى هنود ستوكبريدج حين رأوهم يجلسون القرفصاء ، ثم يُخرجون مراياهم وأصباغهم ، استعداداً لتزيين أجسادهم وطلى وجوههم .

وأقبل الضباط والتفوا حول روچرز .

لم يكن فى مظهرهم ما يميزهم عن جنودهم ، فملابسهم ممزقة ولحاهم مشعثة ، شأنهم شأن بقية المتطوعين ... باستثناء كروفتون ، الذى دأب أخيرا على السير منحنيا ، وذراعاه متدليتان أمامه ، كأنه يعتزم تقليد القرود فى سيرها على الأربع . وكان كحيوان

www.ibtesama.com

الغاب يسترق النظر إلى ماحوله ، والروائح الكريهة تنبعث بشدة من حقيبته المنتفخة ، حتى اشمأز رفاقه وتقززت نفوسهم ،رغم جهلهم بما يحمله بين طياتها . كان أسوأ الرجال شكلا ، ومعنى ذلك أنه كان على حال لايمكن وصفها :

ولم يبد على المرأة الألمانية ورفيقتها مسز كويت وسارة هاتون سوى علائم التعب ووهن السنين ، وكانت شعورهن المبتلة تتدلى على وجوههن الضامرة فى خصل رفيعة كأذناب الفئران . أما مسز ويلك ذات الأقدام الحافية ، فكانت تذكرنى بقطة متهالكة ، وكانت بالفعل تحرك قدميها العاريتين مثل القطة ، وفى ذات الوقت ترقب الفتاة جينى كويت بعين لا تغفل .

ومسح روچرز بظهر يده قطرات المطر عن خديه وأنفه ، وبقيت قطرات أخرى تنـدى جفنيه المتهدلين تحت عينيه .

قال يسألنا جميعا : أما زلتم عند رأيكم ؟

ولم يجب أحد على سؤاله ، مما يدل على تمسكهم برأيهم الأول .

قال : حسنا ! أرى أن نُقسم أنفسنا إلى اثنتى عشرة مجموعة ، والأفضل أن يسير عدد من المجموعات على مسافات

www.ibtesama.com

متقاربة ، حتى إذا عثرت إحداها على صيد تستفيد به الأخريات ، ففي مثل هذه العاصفة تختفي الحيوانات ، ويصبح الصيد متعذرا . أما النساء فيسرن مع خمسة من المتطوعين وخمسة من الهنود إلى كراون بوينت رأسا ، لأن الطريق إليها ، وان كان دربا طويلا ، غير أن الصيد فيه أكثر وفرة وأسهل منالا . ولا أظن العدو يهتم بمطاردة عدد ضئيل منا .

ونظرت النساء بعضهن إلى بعض فى استسلام وخضوع ، أما چيني فقد اقتربت من أوجدن وأسندت خدها إلى ظهره .

قال روچرز : الملازم سولومون والجاويش كلارك يقودان النساء ، وعلى كل منهما أن يختار خمسة رجال لمرافقته فى هذه الرحلة .

والتفت إليهما يقول : خـــذا رجالكما ، وابدأوا الرحيل فوراً ، وإياكم أن تتمهلوا فى السير حتى تنتهوا من الدوران حول ممفراماجوج ، ثم تتجهوا صوب الجنوب الغربى ، لازموا الغدير الواقع هناك ، وبعدكم بلحظات نبدأ نحن أيضا .

واختار كل من كلارك وسولومون أتباعه الخمسة ، وشدوا جميعا متاعهم وتأهبوا للسير فى طريقهم : وساقت

www.ibtesama.com

المرأة الألمانية الهنديات الثلاث أمامها ، وحملت مسز كويت إبريقها الذى لم تستعمله مرة ، وظلت مسز ويك تحرك قدميها العاريتين بين أوراق الأشجار المبللة ، ثم قالت وهى تشير إلى چينى فى حقد وضغينة : هذه الفتاة يجب أن تأتى معنا .

وحملق روچرز فى أوجدن لحظة ثم قال بحدة للفتاة ذات الشعر الأصفر : ماذا تنتظرين ؟

ورفعت الفتاة عينيها إلى أوجدن ، وجذبت ذراعه ، ولكنه استمر ينظر فى الفضاء أمامه .

وعادت تشد ذراعه مرة أخرى ، ولما لم يبد منه اهتماما بأمرها ، طوحت متاعها فوق ظهرها ، وتقدمت إلى الأمام وانية ، كأنها لا تقوى على السير . وضحكت مسز ويك فى صوت كالعويل ، وجعلت تضرب ركبتيها بيديها سروراً ، فسارت چينى الهوينا حتى وصلت إليها ، ثم أمسكت بشعرها فجأة ، وجذبته إلى أسفل . وانكفأت العجوز على الأرض تئن ، وعندئذ أكملت عليها الفتاة بركلة شديدة .

وأسرع روچرز يجرى نحو چينى ، وجذبها بعيدا عن عدوتها العجوز ، وشد مسز ويك وأوقفها على قدميها ، ثم أدار الاثنتين ، ودفعهما فى ظهرهما بيديه الكبيرتين .

www.ibtesama.com

قال : لو كنت منكما ما استنفدت جهدى فى العراك ، فأنتما فى أشد الحاجة إلى كل ذرة من قواكما لتصلا إلى كراون بوينت ، ومن الخطأ أن ترهقا نفسيكما فى الكراهية والبغضاء . اقتصدا قواكما ، وهيا إلى الأمام .

ولم تنطق واحدة منهما بكلمة ، أو تلتفت خلفها ، إنما سارت الاثنتان تتعثران وراء الجماعة التى كانت قد بدأت تختفى خلف ستار الأمطار الهاطلة .

ولم تمض برهة حتى تحرك صف طويل ينتظم أربع مجموعات متتالية ، وكان يقود هذا الجيش الصغير الملازمون فارنجتون وكامبل وكورجل ثم أحد الجاويشية ، كل منهم يسير على رأس مجموعته المكونة من رجال عشرة ، ووجههم روجرز صوب الجنوب الشرقى فى طريق الأمونو أوزاك ، وما إن ابتعد آخر جندى منهم مائتى ياردة عن الربوة ، حتى غاب عن عيوننا وراء غلالة الأمطار المنهمرة .

وجاء نصيبى مع العصبة التالية ، وكان علينا أن نتجه إلى شرق المجموعات الأولى ، ومن بعدنا تجىء عصبة روجرز ذات الثمانية والثلاثين رجلا . وكان قوام عصبتنا أربع مجموعات تحت قيادة دانبار وتيرنر وجنيكنز وآفرى ، فانضممت إلى الصول آفرى ، وذهب بقية الضباط ليقرروا مع أى مجموعة يسير جنود ستوكبريدج الخمسة .

www.ibtesama.com

وكان آفرى فتى صغير السن لم تنبت لحيته إلا حديثا ، قال يهمس فى أذنى : أنت لا تعرف رجالى حق المعرفة ، ولولا ما يعانون من جوع ، لأدهشك تفوقهم على جنود الجيش كله ؛ ولكنهم يضعوننا الآن فى مؤخرة الصفوف لأنى أصغر الضباط سنا ، فآه لو أمكننا أن نتقدمهم بطريقة ما ، حتى ترى كيف يجيد رجالى التسعة إصابة أى هدف يلوح أمامهم .

ثم عاد يقول بلهجة الفخر الزائد : فى استطاعتهم أن يصيبوا السنجاب الطائر فى ظلام الليل ... يردونه قتيلا وهو طائر !

ولم أكن أتتبع حديثه بانتباه ، لما يعتمل فى نفسى من ضيق وقلق ، نتيجة لابتعادى عن مجموعة روچرز . ويبدو أن آفرى كان أيضا فى شدة الضيق ، فقد صاح مرتين بحدة يستحث دانبار على البدء بالسير ، ولم يكن هذا تصرفا لائقا ، فقد حرص روچرز على معاملة البريطانيين — ودانبار أحدهم — بمنتهى اللباقة والأدب .

وصاح روچرز يقول بصوته الأجش : هيا ... هيا إلى الأمام ..

وبدأنا نتحرك .

كنت وآفرى فى مؤخرة جماعتنا المؤلفة من عشرة

www.ibtesama.com

رجال ، ونظرت إلى روچرز على أمل أن أسمع منه كلمة وداع ، ولكنه خيب رجائى ، فقد بدا أنه نسى كل ما يتصل بوجودنا ، وسار فى طريقه لا يبالى ، حتى استدار فى اتجاه الربوة ، ثم جعل يصفر من بين أصابعه ليدعو چاكوبز وكونكاپوت .

وأخذ الماء يتسرب إلى ظهرى من فتحة الرقبة ، وكان آڤرى يسير بجوارى متثاقلا ، بسبب الوحول التى تحيط بقدميه وتعرقل خطواته .

قال يطمئننى : سوف تحمد الله على أنك معى ولست معهم ، فرجالى الآن جياع ، ولكنك سترى منهم العجائب حالما يجلدون ما يسدون به رمقهم .

وشاءت الأقدار ألا أرى هذه العجائب المنشودة منهم .

www.ibtesama.com

الفصل الخامس والثلاثون

لم أر أرضا أسوأ من شرق ممفراماجوج ، ولا إقليما أوعر منه على رجال تضطرهم ظروفهم إلى الإسراع ؛ فالعادة أن تكون هناك علامات يستدل بها السائر على اتجاهه حين هبوب العواصف ، كغدير أو نهر يسير بجانبه ، صعوداً أو هبوطاً بمعونة البوصلة ، ولكن ممفراماجوج كانت غير ذلك : تلالها متقاربة متشابهة ، والريح تنحرف بينها ثم تدور فى دوامات ، وبدل أن ينزل المطر على جانب واحد من التل ، تراه يسقط فى كل الاتجاهات ، فتنمو الطحالب أيضاً فى كل مكان ، بدل أن تقتصر على الجانب الشمالى كالمعتاد ؛ أما غدران الإقليم فترى أربعة منها فى مدى نصف ميل ، كل منها يسير فى اتجاه مخالف ، وقد ينحرف الغدير فى زاوية قائمة لغير سبب ، أو يستكمل فى سيره دائرة كاملة فى مسافة قصيرة ؛ وكانت الوديان التى تجرى فيها الغدران شديدة الانحدار متغيرة الاتجاه وعرة المسالك ، كما لو كانت يد صانع مجنون هى التى حفرتها ؛

وسرنا بقية اليوم فى خط ثعبانى الشكل : نلف مع

www.ibtesama.com

الأخاديد ، وندور حول التلال والجروف . وبدأ الرجال يخرجون عن الصف بين آن وآن سعيا وراء الصيد ، مما جعل مهمة القيادة عسيرة فى السيطرة على شرودهم ، وإعادتهم إلى صفوفهم . وشعرت كأننا لم نتقدم شيئا مذكورا ، فثارت نفسى وتجددت هواجسى ، لبطء المسير وعويل الرياح وقسوة الأمطار وآلام التعب ، وتصورت أننى إذا تقاعست عن التقدم لحظة فلا بد أن تطأنى أقدام القادمين ورائى .

ولم تطل فترة العصر فى ذلك اليوم كثيرا ، فسرعان ما حولته سُتُر المطر وظلال السحب المنخفضة إلى غسق يبعث الحزن ويقبض القلب . ولحقت جماعتنا بجماعة چنكنز ، فإذا هم يتهيئون للمبيت ؛ عندئذ نظرت إلى الكرونومتر الذى أحمله معى ، فوجدت الساعة قد تعدت الثالثة بقليل ، ولما أخبرت آقرى بالوقت ، انطلق فمه بسيل من اللعنات ، وقال يسأل رجاله : ما هذا ؟ لماذا تتوقفون ؟

قال أحدهم : سنعسكر هنا ..

صاح آقرى فيهم بحدة : دعوا متاعكم على ظهوركم حتى نستقر على رأى .

وأسرع إلى حيث كان دانبار وتيرنر يساعدان رجالها على الاستقرار فى المعسكر ، وقد اختاروا مكانا تنحدر بعده

www.ibtesama.com

الأرض نحو أخدود عريض ، لا تكاد العين ترى جانبه الآخر ، من وراء غلالة المطر ولقلة النور .

قال لدانبار : ألا نستطيع أن نتقدم قليلا ، فالساعة لما تبلغ النصف بعد الثالثة .

قال دانبار فى صوت خفيض متعب : الساعة لا تهم ، فالظلام يكاد ينتشر . ألم تر الأخدود الذى يمتد أمامنا ؟

وقادنا نحو حافة الأخدود ، وكان حقيقة أخدوداً وعرا ، عمقه نحو مائتى قدم ، وشاطئه من ناحيتنا شديد الانحدار قليل الأشجار ، أما من الناحية الأخرى فكان صخريا أشد وعورة وانحدارا . وكانت المسافة بين الحافة التى نقف فوقها والأخرى المقابلة لها ، لا تقل عن ستمائة ياردة ، وبين الحافتين يجرى نهر فضى اللون ، سريع الاندفاع .

قال دانبار : لو أقدمنا الليلة على عبور هذا النهر ، لتعرض بعضنا للغرق ، أوقد تضيع بنادقنا أو يبتل بارودنا على الأقل ، أما لو بقينا إلى الصباح ، فالراحة تعيننا على احتمال المشقات ، ونور النهار يساعدنا على تلافى الأخطار .

واستدار آفرى ورفع عينيه يفحص السماء ، ثم عاد ينظر إلى الأخدود فى تأمل وتدقيق .

وأقبل الملازم تيرنر يفحصه معنا ، وأخيراً التفت آفرى

www.ibtesama.com

إلى تيرنر ، وقال فى حيرة واضحة : لماذا تريد المبيت فى هذه البقعة ؟ إنها مكان لعين .

قال تيرنر : ربما كان ذلك ، ولكن الرجال أصبحوا على أسوأ حال ، وليس أسهل من أن تتحطم سيقانهم فى هذا المنحدر الوعر .

وسألنى آفرى عن رأيى ، فقلت : إنه مادام الضوء كافيا ، فالواجب أن نعبر الأخدود الليلة ، إذ أن استمرار هطول الأمطار بهذه الشدة ، لابد أن يرفع مستوى النهر بعد وقت قصير ؛ وإذا انتهينا الليلة من هذه المهمة الشاقة ، فإن الرحلة تهون غداً ، فنستطيع أن نقطع مسافة أطول .

والتفت آفرى إلى دانبار ، وقال له بلهجة الاعتذار : وهذا رأيى أيضا أيها الملازم .

قال دانبار وهو يومئ برأسه : أنت وشأنك أيها السيد آفرى ، لن أحاول أن أمنعك من السير ، فكل منا مسئول عن جماعته ، وليس هناك ما يلزم أحدنا بطاعة الآخر .

ورأيت فى كلمته الأخيرة غمزة ، فقد كان يريد أن يفهمنا أنه حر فى تصرفاته ، وليس فى نيته أن يعمل بمشورة آفرى أو غيره .

قال آفرى : حسنا ! حسنا !

www.ibtesama.com

ثم أردف يقول بعد تردد قصير : سنحاول الصيد على الجانب المقابل من الأخدود ، ونبقى هناك حتى تتمكنوا من اللحاق بنا فى الصباح .

فقال دانبار : لا داعى لانتظارنا ، فربما حاولنا أن نصيد أسماكا من النهر لإفطارنا ، أو بعض الحيوانات التى تهيم فى هذه المنطقة . . . لا تشغل بالك بأمرنا ، وسوف تجدنا على مقربة منكم قبل حلول الظلام .

وصاح آفرى فى رجاله يدعوهم إلى التقدم ، فلما رأوا الأخدود ، دكوا قلانسهم فوق رءوسهم ، وشدوا أحمالهم إلى ظهورهم بحرص .

قال لهم : لابد أن نعبر هذا الأخدود الليلة ، فخذوا حذركم فى النزول ، وتأكدوا من مواطئ أقدامكم قبل أن تتحركوا .

وتقدمنا آفرى إلى الأخدود ، وهبط على الجانب المنحدر منزلقا ، وقد أمسك بفرع شجرة حتى لا يسقط .

وانزلقت خلفه ، وحاولت أن أغرس قدمى فى شبكة من الفروع الجافة ، فانكفأت على وجهى ، واصطدمت بإحدى الأشجار صدمة موجعة . وبينما كان آفرى يساعدنى على الوقوف ، لمحت وجهى دانبار وتيزنر ، وهما يرقباننا

www.ibtesama.com

من فوق حافة المنحدر ، فقلت فى نفسى : لعله منتهى الجنون أن نعبر الأخدود الليلة ، ولكن لا فائدة الآن ، فقد فات الوقت ، ولم يعد فى الإمكان أن نعود على أعقابنا .

وهبط الرجال وراءنا ،وهم يتعثرون ويسقطون مرة بعد مرة على المنحدر المنزلق المبتل ،وكنا كلما تعمقنا فى الأخدود ، يهدأ صوت الرياح ، ويرتفع هدير المياه ، فلما وصلنا فى النهاية إلى قاعه ، رأينا التيار الأبيض يغمر الصخور ويمر فوقها مسرعا ، كما اتضح لنا من شكل تلك الصخور كم هى ملساء ناعمة زلقة .

وخيل إلى ، عندما جذب تيار الماء قدمىّ من تحتى ، ثم ألقانى على صخرة فى برودة الثلج ،أن دانباركان أرجح عقلا منا ، ولكنى وصلت بالرغم من ذلك إلى الشاطئ المقابل دون أن تزداد ملابسى بللا عما كانت عليه فى البداية .

ونظرت خلفى إلى المنحدر الذى تركناه وراءنا فلم أر أحداً عليه ، وكانت قمم الأشجار الرمادية تكاد تختفى وراء ستار المطر المنهمر ، فلا تستطيع العين أن ترى منها شيئا فى عتمة الغسق .

وانحنى بعض الرجال على الصخور الواقعة عند حافة الماء ، يقلبها عسى أن يجد بينها ما يملأ به بطنه الخاوى ، ولكن

www.ibtesama.com

الجهود ذهبت سدى ، ولم يعثر أحد على ما يسد به رمقه .

وسمعنا اقتراحات بإقامة المعسكر على جانب النهر ، حتى يتأتى العثور على السمك فى ضوء النهار ، ولكن آقرى عارض الفكرة .

قال : ثقوا أن الصيد فى هذا النهر مستحيل ، ولن تجدوا فيه شيئا مهما فعلتم ، فالسمك لا يقبل على ابتلاع الطعم فى عاصفة كهذه ، والصيد لا يتحقق إلا فى برك هادئة التيار ، ولعلنا نمر غداً ببعض منها .

قال أحد الرجال فى تعجب : وهل توجد البرك فى منطقة كهذه ؟

وضحك آخر بصوت ضعيف لسخافة السؤال بعد ما مررنا ببرك لا حصر لها ، وظل يضحك ويضحك ، مثلما تفعل الفتاة الصغيرة حينما تصيبها نوبة ضحك لكلمة سخيفة لا معنى لها .

وضحكنا معه جميعا على سبيل العطف والمجاملة .

قال آقرى : حسنا ، لسنا فى أسوأ الحالات بعد ، فكلنا بخير ، ولم يمت منا أحد إلى الآن .

وبدأنا نشق طريقنا صاعدين الجانب الثانى من الأخدود ، فنتشبث بالأعشاب والفروع القليلة ، ونثبت أقدامنا بين

www.ibtesama.com

صخور حادة الأطراف موجعة . وكان الضوء أضعف من أن يكشف لنا أكثر من خطوات قليلة أمامنا ، وكنا كلما اشتدت وعورة الأرض وازداد انحدارها ، نتوقف برهة حتى تكف أرجلنا وعضلاتنا عن الارتجاف .

وعندما اعتلينا المرتفع ، نظرت خلفى ، فإذا بوهج أحمر ينبعث من الحافة الأخرى .

صاح آقرى يقول : انظر ! والله إنه لمشهد لم نره منذ وقت طويل ! ! لابد أنهم يطهون أحذيتهم القديمة وسراويلهم المهلهلة ! ! ولو أن روچرز رآهم يفعلون ذلك ، لثارت براكين غضبه ، وصب عليهم من اللعنات أفظعها وأقبحها .

وزحف إلى الأمام يبحث عن مكان نعسكر فيه ، فوجد مخبأ صالحا وسط دغل فى حمى الصخور . ولعلمنا بصعوبة الحصول على حطب للوقود ، لم يمر ذكر النار على لسان أحد ، بل تزاحمنا جميعا فى المخبأ الصغير ملتصقين بعضنا ببعض ، ومن فوقنا الأغطية المبللة . وقد يتبادر إلى الذهن أننا نمنا بهذا الشكل طلبا للدفء ، ولكننا لم نكن نقاسى من البرد بعض ما نقاسيه من التعب والإرهاق ، فالعادة أن الجو إذا خلا من الصقيع ، لا تلبث الأجسام أن تحيط نفسها ببخار دافئ مقبول ؛

www.ibtesama.com

وكان معى نحو نصف كوب من حبوب الذرة ، ومع آقرى عشرين حبة تقريبا ، أما الآخرون فلم يكن معهم سوى القليل . فجمعنا الموجود كله ، ووزعناه على الجماعة حبة حبة ، حتى نفدت الكمية ، فنال كل منا ثمانى حبات ، ونال ثلاثة أنا منهم ، تسعا .

وبالرغم من شعورى بما فى امتيازى هذا من خسة ونذالة ، وجدتنى ألتهم حباتى التسع جميعا .

* * *

ظلت الريح تزأر طول الليل ، والأمطار تنهمر ، وتضرب الأشجار فتسقط أوراقها . وقبل أن ينبلج الفجر بوقت طويل ، كنا قد نلنا كفايتنا من النوم ، واستيقظ الرجال ، وأخذوا — وهم ما زالوا تحت أغطيتهم — يخففون من بؤسهم وتعاستهم بالحديث المثير عن أصناف الطعام التى تنتظرهم فى الأمونوأوزاك ، وما اعتادوا أن يأكلوه فى مثل هذه المناسبات . . ذكروا چون آسكن بائع المؤن الخاص بالمتطوعين ، وتمنوا لو جاء مع الرجال إلى القلعة ... تذاكروا النبيذ الأحمر الذى اختص آسكن ببيعه ، ثم « السجق » الطرى ولحم الخنزير الدسم ... فطائر الشكولاته وأقراص الجبن الأحمر . . . ثم السيجار اللذيذ الوارد من جزر المحيط الهادى ... ثم الروم المركز الذى يشرب من الزجاجة مباشرة ، فيبعث فى الأبدان والعقول نشاطا ونشوة .

www.ibtesama.com

ولما بانت أضواء الفجر ، وأمكننا أن نرى أيدينا أمام عيوننا ، كنا قد استرحنا قرابة ثلاث عشرة ساعة ؛ فزحف آفرى من وسطنا إلى الخارج ، وعصر الماء من قلنسوته المبتلة ، ثم طوى غطاءه فى لفة يقطر الماء منها .

قال : سنحاول الصيد من أول بركة نقابلها ، ولكنى أشك كثيرا فى فائدة ذلك ، فالريح ما زالت على حالها لم تتغير .

وكأنما طرأت فى رأسه فكرة ، إذ جعل يحصى على أصابعه بسرعة ، ثم قال : يا إلهى ! ما تاريخ اليوم ؟ أهو الخامس عشر حقا ؟

قلت : إنه كذلك .

قال : إن الهلال الجديد على وشك الظهور ، وإذا لم تهدأ هذه العاصفة خلال الساعات المقبلة ، فسيظل الجو سيئا طوال رحلتنا إلى الأمونو أوزاك .

وتعالت من الرجال المشغولين بطىّ متاعهم أنات الضيق ، وبصق بعضهم على الأرض غضبا .

وسار آفرى صوب حافة الأخدود ، وتوقف صوت خطواته على الأرض المغطاة بأوراق الأشجار ، وكان توقفها مفاجئا ، فساورتنى الشـــكوك ، وقمت واقفا أستطلع الخبر .

www.ibtesama.com

ووجدناه على بعد خمس عشرة خطوة منا ، يقف جامداً ، وقد أسند إحدى يديه على فرع شجرة ، وظلت الأخرى منتصبة فى الهواء قرب قلنسوته . كان فى وقفة الصياد حين يقع بصره فجأة على غزال قريب . وظننت أنه عثر بالفعل على الغزال المنشود ، فالتقطت بندقيتى وتسللت نحوه ؛ ولكنه مرق فى لمح البصر متواريا وراء الدغل ، وسقط على ركبتيه ، وجعل ينظر إلى بوجه شديد الامتقاع .

وترامى إلى سمعى صوت مريع ينبعث من الأخدود الذى نقف أمامه ... صوت بشرى حاد ، تلته صرخات نصفها عويل ونصفها يشبه عواء الذئاب ، فاقشعر بدنى ، وأحسست بجلدى ينكمش على جسدى .

ووصلت إلى جانبه ، فأخذ بندقيتى ، وأفرغ ما بها من البارود والرصاص ، حتّى لا تنطلق .

ونظرت إلى الأخدود ، فرأيت قاعه يعج بأشباح تتحرك ، واستطعت أن أتبين رجالا يرتمون منحدرين بين الأشجار على الجانب المقابل ،وآخرين يهرولون فى هرج على حافة النهر .

وهمس آقرى فى أذنى يقول : لقد نالوهم جميعا ! إنه كمين لن ينجو منه أحد !

www.ibtesama.com

وتكشفت فوضى الأخدود أمام عيني ، فرأيت فى أوله وآخره جماعتين من الهنود المصبوغين بالأسود والأحمر ، رجالها يختفون وراء الصخور وخلف جذوع الأشجار ؛ أما الجماعة التى تهبط المنحدر مسرعة فكانت من رجال دانبار وچنكنز وتيرنر ، وقد انبث بينهم بعض الهنود والجنود الفرنسيين فى ملابس أزهى خضرة من ملابس المتطوعين .

كان هناك ما لا يقل عن مائتى رجل بين هندى وفرنسى . وإذا أفلت متطوع من النطاق المحيط به ، وانطلق إلى الأخدود يبتغى الهرب ، ينبرى له أحد الهنود الكامنين وراء الصخور وخلف الجذوع ، ويشق جسده ببلطته .

ورأيت دانبار على حافة النهر يقاتل ثلاثة من الفرنسيين ، ويحاول أن يدافع عن نفسه بالسونكى ، والظاهر أن بارود البنادق كان مبتلا ، إذ لم تنطلق رصاصة واحدة من الفريقين على السواء . وفجأة خرج هندى من بين أمواج النهر المتدفق ، وانسل خلف دانبار ، وشج رأسه ببلطته ، ثم قفز فوقه قبل أن يسقط على الأرض ، وضغط بإحدى ركبتيه على جسده ، وفى مثل لمح البصر فصل رأسه عن جسده .

ومن بين هذا الجمع المختلط ، والفوضى السائدة ، انطلقت صيحات ألم ارتج لها قلبى . وتفصد العرق من بدنى . . .

www.ibtesama.com

كان هناك هنديان فى طرف الأخدود يمسكان متطوعاً من قدميه ورأسه ، وبينهما ثالث يقطع أوصاله وهو ما زال حياً يصرخ .

قال آثرى : لا تسمح لأحد من الرجال بالقدوم إلى هنا ، وعليك أن تستحثهم على السير لفورهم ، فليس فى وسعنا سوى الابتعاد بأسرع ما يمكن ، وإلا ....

ولم يتم جملته ، إذ لم يكن هناك داع لإتمامها .

ولقد توالت هذه الأحداث كلها بمنتهى السرعة ، حتى إننى عندما عدت إلى المعسكر ، كان الرجال يحشون بنادقهم ، وهم ينحنون فوقها ، ليستروا البارود بأجسامهم من المطر المنهمر .

قلت وقد أقبلوا نحوى : أسرعوا بشد رحالكم وطى أغطيتكم .

فقال واحد منهم : ألا نمد لهم يد المعونة ؟

قلت : أعداؤنا مائتان ، ونحن أحد عشر ، ثم إنهم أبعد من مرمى رصاصنا ، ولو لحوا شعرة منا ، فلن يكون نصيبنا سوى الدمار الماحق . إن آثرى يأمر بالرحيل فوراً .

وأقبل علينا آثرى فى تلك اللحظة أصفر اللون متخاذلا .

قال وهو يتناول بندقيته : لم ينج واحد منهم ! لقد قضوا عليهم جميعا ، وهم الآن يلعبون الأكر برءوسهم !

* * *

www.ibtesama.com

من المستحيل أن يتنبأ الإنسان بالغيب ، فقد كان محتملا أن نصل بسلام ، لو لم نصد تلك البقرة الوحشية ، فلولاها لأمكننا أن نلحق بروچرز ، ولو حدث ذلك ، لقاسى هو المحنة ، الأمر الذى لا يرضى به واحد منا .

والواقع ألا فائدة ترجى من فرض مثل هـــذه الاحتمالات ، ثم تقدير نتائجها ، فالتفكير فيها يملأ القلب بالجبن ، ويمنع الإنسان من الإقدام على أى عمل ينطوى على خطورة .

بدا لنا أنا وآقرى أنه من الأفضل لوغيرنا اتجاهنا إلى الشرق ، فمن المؤكد أن روچرز سلك هذا الاتجاه ، وإذا أسرعنا المسير قليلا فيمكننا أن نلحق به ، ونبلغه بما فعل الفرنسيون والهنود ، ليكون على بينة ، فيأخذ حذره .

ولقد ظلت الريح شمالية شرقية طوال اليوم ، وقطرات المطر تضرب وجوهنا ، فتضاعف ما نعانيه من مشقة فى سيرنا نحو الشرق . وكان الجوع قد صور لى أننى لم أشبع يوما فى حياتى ، ولن أشبع يوما إلى مماتى . وعلى الرغم من خلو بطوننا ، كنا نسير بلا توقف : نخوض مجارى الماء ، ونهبط المنحدرات زاحفين . . . نتعلق بالصخور والأشجار صاعدين ، وننتزع أرجلنا انتزاعا من الأراضى الغدقة ...

www.ibtesama.com

نفعل هذا كله ونحن لا نكف عن الالتفات وراءنا ، خيفة أن يكون العدو فى أعقابنا .

ولم نطرق حديث السمك مرة أخرى ، إذ كنا قد فقدنا رغبتنا فى أكله ، ولم يعد لدينا وقت لصيده ، ولا وقود لطهوه . وكانت مشكلة النار تقلقنا ، فرائحتها تسير أميالا مع الرياح ، وإذا أوقدناها ونحن فى اتجاهنا الشرقى هذا ، يشمها الفرنسيون الذين قتلوا دانبار ورجاله ، فيسرعون إلينا ليفعلوا بنا ما فعلوا بهم .

كانت رائحة النار بمثابة الفنار الذى يقودهم إلينا .

وتوقف المطر فى اليوم التالى ، وكان السادس عشر من شهر أكتوبر ، ولكن الرياح ظلت تهب من الشمال الشرقى عاتية ، فيتردد لها من بين غصون الأشجار وقممها عويل شديد . ورأينا بعد الظهر آثار أقدام تتجه إلى الجنوب الشرقى ، وكانت تدل على أنها جماعة يتراوح عدد أفرادها بين ثلاثين وأربعين ، فتأكدنا أنها جماعة روچرز المكونة من ثمانية وثلاثين رجلا . وزاد يقيننا لصحة ذلك حين رأينا آثار بعض الأحذية فى الوحول ؛ وقد برزت أصابع أصحابها من ثقوب نعالها .

وتتبعنا تلك الآثار ، وقد طغى علينا سرور عظيم ، وعاودنا بعض الاطمئنان ، وازدادت سعادتنا حين أخذت

www.ibtesama.com

الرياح فى الهدوء تدريجا ، حتى سكنت تماما عند الغروب . وعندما تزاحمنا معا ونحن نرقد تلك الليلة ، لننال ما نستطيع من راحة ، لمحنا بعض النجوم تلمع من بين شتات السحب ... وكانت نعمة من الله ، فمنذ أن رأينا نهاية دانبار ، ونحن لا نجروء فى نومنا على تغطية رءوسنا وأيدينا ، خوفاً من المفاجآت ، وزيادة فى الحذر .

ولكن صفاء الجو جلب معه الصقيع ، فتجمدت أغطيتنا المبتلة ، ولكى ننقذ أنفسنا من تلك المحنة ، كسونا أغطيتنا بطبقة سميكة من أوراق الشجر .

وأقبل الصباح ، فخرجنا من تحت أغطيتنا زاحفين ، وسرنا نترنح كالسكارى . وكانت الرياح قد انقلبت جنوبية دافئة ، فأسرعنا السير مرحين ، يملؤنا الأمل فى قرب لحاقنا بروچرز ، واحتمال عثورنا على صيْد عند ما يزداد الدفء ، بالإضافة إلى سهولة الرحلة إلى الأمونو أوزاك .

ولم ير واحد منا أى فأل سيئ فى عثورنا على البقرة الوحشية ، إذ لم تكن فى نظرنا أكثر من حيوان خرج يبحث عن غذائه ، بعد أن هدأت العاصفة وساد الدفء .

وكان آفرى أول من رآها وهى تصعد ربوة أمام الدغل ، فرماها برصاصة أصابت رأسها ، وما إن تهاوت

www.ibtesama.com

على الأرض ، حتى كنا نحن الأحد عشر رجلا نجثم فوقها في مثل لمح البصر .

ومع أن لحم البقر الوحشى عديم الدهن قليل الغذاء ، غير أنه لحم على كل حال ، ولم نكن قد تذوقنا لحما منذ أتينا على آخر ما معنا من السجق البولونى ، قبل هجومنا على سانت فرانسس بيوم واحد . وظللنا بلا طعام خلال هذه الأيام الأحد عشر الماضية ، لا نأكل شيئاً سوى قليل من حبوب الذرة ، فما إن سقطت البقرة حتى كان آفرى ينحرها ، والرجال يعملون مديتهم فى أكفالها .

قال آفرى وهو يحاول أن يمنعهم : تعرفون أن أكل اللحم النيء طازجا يورث المرض ، ولن تستطيعوا السير وأنتم مرضى .

قال أحدهم : لقد أكلت ما هو ألعن من هذا وأسوأ !

واستمر ورفاقه فى تقطيع البقرة .

كانوا يعتزمون ملء بطونهم الخاوية ، ولم يكن من سبيل إلى منعهم من تحقيق هذه الغاية .

قال آفرى : الأفضل أن نسلخ جلدها لنصنع منه أحذية ، ونخرج الكبد لنطهوها ونسد بها رمقنا ، ثم نقسم الباقى فيما بيننا ، لنأكله الليلة حين نلحق بجماعة الصاغ . وبهذه الطريقة لا يمرض أحد منا .

www.ibtesama.com

وتراجع رجل عن الذبيحة وجلس القرفصاء ، وبين يديه قطعة من لحم تقطر دماً ، ثم قال : ليذهب الطهو إلى الجحيم ! كل ما حولنا خشب أخضر لا يصلح وقوداً .

وصاح به آفرى يزجره : اترك هذا اللحم يا هيجنز .

وأطاع الرجل فى تردد وتراخٍ .

قال آفرى : أستحلفكم بالله ألا تأكلوا شيئاً من هذا اللحم النيئ ، لقد مررنا بمنطقة فيها حطب يصلح وقُودا ، ولم نبتعد عنها بعد ، فتعال معى يا هيجنز أنت وبيترز وتاون نجمع نحن الأربعة بعض الفروع الجافة .

واستمر الرجال يسلخون أرجل البقرة فى بطء .

وصاح بى آفرى يقول : هيا بنا !

وكان بيترز وهيجنز أكثر الرجال تصميما على التهام اللحم نيئاً ، ولذلك تبعانا فى تراخٍ وكسل .

ونصحنا آفرى بحشو بنادقنا ، ثم قال : قد يكون ذكر هذه البقرة قريبا منا فى انتظار أنثاه ،وقد يثيره غيابها فيهاجمنا بوحشية .

وسرنا فى الطريق الذى جئنا منه ، وما إن قطعنا نحو مائتى ياردة ، حتى وصلنا إلى المكان الذى وصفه آفرى .

واخترنا شجرتين وبدأنا نشذب فروعهما ليسهل علينا حملهما ،

www.ibtesama.com

وكان عملا شاقا على رجال يفتك بهم الجوع . ومضينا فى عملنا حتى كدنا ننتهى من مهمتنا ، وفجأة رفع آفرى نظره إلى وقال متسائلا : ماذا تقول ؟

ولم أكن قد تكلمت .

قال : خيل إلى أنك جرحت نفسك !

ونظر إلى بيترز وهيجنز وهما يعملان بجد فى قطع الفروع ، ثم اقترب منهما وقال : ماذا حدث ؟ سمعت أحدكما يصيح ألما .

وتطلعا إليه فى دهشة واضحة .

وأدار آفرى رأسه نحوى ببطء ، وفى عينيه نظرة عجب ، ثم تركنا وخرج يعدو من الدغل متتبعا الطريق الذى جئنا منه ، ثم رقد خلف نشز من الأرض .

ورأيته يسترق النظر نحو المكان الذى ترقد فيه البقرة الوحشية ، وعندئذ تبلجت الحقيقة المروعة أمامى فجأة ، حين رأيته يرتمى على الأرض .

لقد وقعنا فى كمين ، كما وقع من قبلنا دانبار وتيرنر وچنكنز .

وألصق آفرى بطنه بالأرض ، وعاد زاحفا إلى الوراء ، ليستتر معنا بالدغل .

www.ibtesama.com

قلت : اقضوا عليهم ؟

قال وهو يهز رأسه نفيا : لا ... لن يقتلوهم ومعهم هذا اللحم كله ... سيأخذونهم أسرى ليحملوه لهم ، ثم يقضون عليهم عندما تنتهى مهمتهم .

وقام محنى القامة ، واتجه إلى اليسار .

قال : علينا الآن أن نلحق بروچرز . .

روچرز ! ...

كان مجرد ذكر هذا الاسم يبعث فى النفس شعورا بالأمن والطمأنينة .

www.ibtesama.com

الفصل السادس والثلاثون

زحفنا نعبر الطريق الذى جئنا منه كأشباح أربعة : نستتر بالمنخفضات ، ونحتمى بالصخور ، ونحرص على ألا نترك خلفنا آثارا تدل علينا ، حتى توارينا وراء ربوة صخرية ، وارتمينا على الأرض فى هذا المخبأ ، وجعلنا نرقب العدو من بين شجيرات الدغل : كانوا ثلاثين فرنسيا ، ومعهم اثنا عشر هنديا ، يسوقون رفاقنا السبعة نحو الشمال الشرقى . لقد جعلوا من زملائنا دوابَّ ، وحملوهم قطعا ضخمة من لحم البقرة ، وحُزما من جلدها ، وكذلك رأسها وأرجلها ، فى حين اكتفى الفرنسيون بحمل بنادقهم ، وساروا خلف رجالنا ينخسونهم بسنا كيهم ، وسط عاصفة من الضحك والتهليل .

ولم يكن فى وسعنا أن نفعل شيئا ، فلو أننا هجمنا عليهم لننجد منكوبينا السبعة ، ما توانوا لحظة عن شج رءوسنا بالبلط .

قال آفرى بمرارة : هذا يفسر ظهور البقرة أمامنا .. كانت تفر من طريقهم .

www.ibtesama.com

ونظر إلىّ فى يأس ظاهر وقال : من كان يتوقع أن يسبقونا هكذا .

قلت : أتعنى أننا كنا نتتبع آثارهم ؟

قال : لا ، طبعا ! لقد أقبلت علينا البقرة الوحشية من اتجاه مائل على خط سيرنا ، وهو بلا شك الاتجاه الذى قدمت منه هذه الجرذان الفرنسية . إنهم جزء من الجيش الذى أحاط بدانبار ، وقد أُرسلوا فى أعقابنا عن هذا الطريق المختصر ، ولولم يقابلونا هنا لواصلوا السير حتى يلتقوا بجماعة روچرز .

قلت : كنا سنلتقى بهم على أى حال ، فلماذا تلوم نفسك على صيد تلك البقرة ، ماكان لإنسان آخر أن يفعل غير ما فعلت .

وزادت تجاعيد الهم عمقا فى وجه آثرى الفتىّ ، فلم يكن فى الواقع أكثر من صبى ، لا يهمه الوقوع فى كارثة قدر ما يهمه ألا يرتكب خطأ .

وعندما غابت آثار الفرنسيين والهنود ، وتلاشى كل صوت لهم ، عدنا زاحفين إلى مكان البقرة ، نبحث عما يكون قد بقى منها ؛ ولكننا لم نجد شيئا ، ولو أن قطيعا من الذئاب انقض على تلك الفريسة ، ما نهش عظامها فخلاها من كل نسيلة من اللحم أو نتفة من الدهن ، مثلما فعل هؤلاء الناس ...

www.ibtesama.com

فقد أخذوا من رأس البقرة أنفها ولسانها ومخها وعينيها وأذنيها ، ولم يتركوا سوى جمجمة خالية من كل شيء .

قال آفرى : أعتقد أنهم أشد منا جوعا وبؤسا ... لكم تمنيت أن يقضى عليهم الجوع ويقتلهم عن آخرهم ؛ ولكن يبدو لى أن المحنة قد أصبحت من نصيبنا .

قال هيجنز بمرارة : لو أنك سمحت لنا بأكلها نيئة ، لامتلأت بطوننا الآن بما يسد رمقنا .

والتفت إليه آفرى يقول فى غضب شديد : أنت سنجاب غبى ، عديم العقل والتفكير ، بل إن السنجاب أرجح منك عقلا لأنه يفكر فى غده .... نعم كان من الممكن أن تملأ بطنك باللحم النيئ ، ولكنك لو فعلت ذلك ، لأصابك المرض ووقعت أسيرا ، ولن يطول بك المدى فى الأسر ، فغدا يمزقون جسدك بالبلط ... والله إن هذه الدنيا مليئة بالأغبياء ، الذين لا يحمدون الله على نعمة الحياة .

وكأنما خففت هذه الغضبة من ثورة نفسه إذ بدا بعدها أحسن حالا ، وبمنتهى اليقظة والنشاط تولى قيادتنا فى درب يتجه نحو الجنوب الشرقى . وتجلت لنا ضرورة الإسراع ، إذ بدت الرياح تغير اتجاهها عائدة إلى ما كانت عليه وقت العاصفة الماضية ، واكتست السماء بسحب داكنة تنذر بأمطار قادمة .

www.ibtesama.com

ولحقنا بجماعة روچرز قبل حلول الظلام بساعة ، وعرفنا بوصولنا إليهم ، حين مرقت رصاصة تصفر فوق رءوسنا ، ثم تلاها طلق يدوى بين الأشجار ، فيتردد له صدى وسط التلال . ووقفنا فى مكاننا ، ورفعنا البنادق عالية فوق رءوسنا ، وتلفتُّ حولى أبحث فى كل مكان عن حارس المؤخرة الذى أطلق هذه الرصاصة ، ولكنى لم أر أحداً ، حتى خرج كونكاپوت من وراء شجرة ، وأشار بيده إلى شخص خلفه . ولبى الإشارة الجاويش برادلى ومعه چيس بتشام ، إذ خرجا من مخبئهما يعدوان . ووقف ثلاثتهم فى انتظارنا ... والحقيقة أن منظرهم هز مشاعرى بعنف ، فما كنت آمل مطلقا أن أرى هذه الوجوه العزيزة مرة ثانية . وعندما اقتربنا منهم نظروا فى دهشة إلى جمجمة البقرة التى يتأبطها آفرى .

وتطلع برادلى إلى ما وراءنا وقال : وأين بقية جماعتك ، يا سيد آفرى ؟

أجاب : وقعوا فى الأسر !

ثم أردف يقول بلهفة : كم يبعد الصاغ عنا ؟

والتفت برادلى إلى كونكاپوت وقال له : اذهب إلى الصاغ ، وأخبره بأن القادمين هم آفرى ولانجدون تاون ومتطوعان آخران .

www.ibtesama.com

ثم تناول رأس البقرة من آڤرى وقربه من أنفه ، ثم قال فى تعجب : إنه طازج ، فأين بقيته ؟

أجاب : أخذها الفرنسيون .

وانطلق فم برادلى بسيل جارف من السباب المقذع ، ثم أشار لآڤرى أن يسير أمامه ، فتبعتهما أنا وچيس .

سألتُ چيس : أما عثرتم على طعام إلى الآن ؟

قال فى بطء وتأمل : لا ..

وسار بجانبى صامتا ، ثم قال بعد تفكير : لا .. لم يكن الجو ملائما للصيد .

ورمانى بنظرة سريعة من تحت حاجبيه الغزيرين ، وقال : كيف هربتم منهم ؟

قلت : مجرد حظ ! ولقد نجونا مرتين : الأولى عندما قضوا على دانبار وتيرنر وچنكنز .

قال چيس فى رنة الحزن : دانبار وچنكنز والرجال جميعهم ؟ أمر محزن للغاية ! ولكنى سعيد أن تمكنتم من الهرب أنتم الأربعة ، ويحسن الآن أن تخبر الصاغ بما عندك .

ووجدنا المتطوعين يعيدون تنظيم صفوفهم ، وكان الصاغ قد أمرهم بالتفرق على شكل هلالى حين سمع طلقة كونكاپوت ، ووقف روچرز مع أوجدن والملازم جرانت فى الوسط ينتظرون قدومنا .

www.ibtesama.com

كان للمصاعب والمحن التى اعترضت طريق حياتنا خلال الأيام القليلة الماضية أثرها المضنى فينا ، فما إن وقفت أمامهم حتى غمرتنى موجة عارمة من الحب والفرح ، كتلك التى كنت أشعر بها حين أرى أبى وأمى بعد غيبة طويلة .

وشملنا روجرز بإحدى نظراته الفاحصة .

وتأملته بدورى : كانت عيناه أكثر اتساعا من أى وقت مضى ، وفقدت قبعته ما بقى عليها من زينة ، ورُتق حذاؤه الممزق بشرائط من قماش؛أما أوجدن فكان أحسن حالا . . . أصبح ضامرا نحيلا فحسب ، ولم يعد وجهه يشبه الجمجمة الخضراء .

قال روجرز : كيف نالوكم ياسيد آڤرى ؟

أجاب آڤري : قتلنا بقرة وحشية ، ولما رجع أربعة منا للبحث عن وقود ، انقض الفرنسيون على الباقين .

سأله : أتقول رجع أربعة منكم ! لقد كان الفرنسيون إذاً أمامكم . . .

وأومأ آڤرى برأسه إيجابا .

قال روجرز : وكم كان عددهم ؟ وكم كنتم تبعدون عن مكان الحادث ؟ وأى طريق سلكوه بعد ذلك ؟

وأخبره آڤرى بكل ذلك ، فصاح بحدة فى برادلى يأمره بإرسال أربعة رجال يحرسون المؤخرة .

www.ibtesama.com

وعاد يسأل آفرى : أنستطيع اللحاق بهم ؟

وهز آفرى رأسه نفيا وقال : لا أظن ذلك ، فلديهم لحم البقرة يأكلون منه ، ثم إننا لا نستطيع التكهن بالمكان الذى قد نقابل فيه الجيش الأصلى ، ذلك الجيش الذى ذبح دانبار وتيرنر وجميع من معهم من الرجال ، ومثل بهم أبشع تمثيل .

وانتفض الصاغ وصاح : ما هذا الذى تقول ، وماذا تعنى ؟

وندت عنه أنة ألم ، كأنه أصيب بضربة قاصمة ، وقال : متى حدث ذلك ؟ وهل قضوا عليهم جميعا ، وكيف عرفتم بما حدث ؟

قال آفرى : رأينا الموقعة فى الصباح التالى لافتراقنا عنكم . . كنت قد عبرت الأخدود مع رجالى وبقى دانبار ومن معه على الضفة الأخرى ، وعند الفجر هجم العدو عليهم ، واضطرهم إلى الاحتماء بالأخـــدود حيث كمنت لهم بقية الجيش . . ولم ينج واحد منهم .

وحملق روجرز فى آفرى وقال له : أكنت من القرب بحث رأيت الموقعة ؟ كم كان عدد رجال العدو ؟

قال آفرى بصوت يرتجف ، وقد بانت عليه امارات الإغماء : رأينا نحو مائتين ، وكنا أحد عشر رجلا .

وشعرت أن الوقت قد حان لأدلى بنصيبى فى المسئولية .

www.ibtesama.com

فقلت : كانوا أبعد من مرمى رصاصنا ، فلم يكن لمعونتنا قيمة على الإطلاق ، ولو أنهم رأونا ، لقضوا علينا بدورنا .

وأومأ روجرز برأسه ، ثم نحّ ليجلو صوته ، وقال : هل أمعنوا فى تعذيبهم ؟

قلت : نعم يا سيدى إلى أبعد الحدود .

وسمعت همهمة بجانبي ، فالتفتُّ نحوها ، وإذا بكروفتون رابض على الأرض كالدب الصغير ، وقد قيدت يداه ورُبط بحبل طويل . وكان يهز جسده كالدب من جانب إلى جانب ؛ وهو ينبش الأرض بأظافره .

قال روجرز غاضبا : ألم آمركم بأن تبقوه دائما فى المؤخرة ؟ خذوه واربطوه فى شجرة ، ودعوه يحفر الأرض ما شاء .

قلت أسأل چيس : هل جُنّ ؟

أجاب : نعم . . عثر الصاغ على ما كان يخفيه فى حقيبته من لحم بشرى ، فأخذه منه . . ومنذ تلك اللحظة تملكه شيطان النبش فى الأرض ، وأصبح لا يفكر إلا فى حفر الأرض بيديه بحثا عن قطعة اللحم . ولولا ذلك الحبل الذى يسحبونه به كلما ساروا ، ما ترك مكانه ، وظل ينبش ويحفر دون انقطاع .

www.ibtesama.com

ورفع روجرز عينيه إلى السماء ، ثم أنزلهما إلى جمجمة البقرة التى يمسكها برادلى ، وقال : عظيم . . . إليكم خطتنا الآن . . . أمامنا تلاّن بينهما وادٍ صغير ، وليس بيننا وبين حلول الظلام أكثر من ساعة ، فهلم بنا نسر إلى نهاية الوادى ، ثم نوقد ناراً ونهيئ بجوارها المعسكر . وفى خلال الساعة الباقية من النهار نحاول أن نصيد شيئا نطهوه مع هذه الجمجمة ونصنع منه حساء . وإذا كان أحد رجال آقرى قد تمكن من الهرب ، فسيعرف مكاننا من وهج النار وأصوات الطلقات . أما إذا كان الفرنسيون قد أصروا على متابعتنا إلى هذا المكان ، فلن نبخل عليهم بكافة صنوف الأذى قبل أن يتمكنوا من إلقاء نظرة واحدة علينا .

وكنا فى حاجة إلى طعام يكفى اثنين وأربعين رجلا ، فانطلقنا إلى الصيد فى دائرة واسعة حول المعسكر ، حتى جاء الظلام تصحبه أمطار غزيرة . . ولما التأم شملنا حول النيران ، كانت حصيلتنا من الصيد تتألف من ثلاثة أزواج من القطا وخمس بومات وصقر وغراب وقنفذ وثلاثة سناجب حمر . . . جميعها ممزقة الأوصال بفعل رصاص البنادق . . . ووضعنا الصيد كله مع رأس البقرة فى ثلاثة قدور مما جئنا به من سانت فرانسس ، وسلقناه على النار ،

www.ibtesama.com

ثم قسمنا السليق على الرجال بالتساوى على قدر الإمكان ؛ فكان نصيب الفرد منا ملء ثلاثة أقداح من الحساء . . . ولم يكن الحساء فى الواقع من الدسامة بحيث يضر من أسقمه الجوع مثلنا ، ولست أشك أيضا فى أنه كان يثير التقزز فى نفوس زملائى بهارفارد ، الذين أقاموا الدنيا وأقعدوها بسبب الفطائر المحشوة بلحم الأرانب ... ولكنه كان شرابا ساخنا أفادنا كثيرا ، وبعث فى أوصالنا قوة على تحمل الأمطار المنهمرة دون تذمر ... بل إننا كنا أقرب إلى الشعور بالشبع حين جلسنا حول النيران نجرش ما بقى فى القدور الثلاث من عظام صغيرة .

وجعل روچرز يدور حول الرجال ، وهو يحذرهم بقوله : لا تبتلعوا هذه العظام وبطونكم خاوية . وإلا ثقبت معداتكم ونفذت منها ... لا تبتلعوا العظام ... لقد أصبحنا قريبين من الأمونوأوزاك ، فاصبروا قليلا ...

وعبثا حاول چيمس بتشام أن يقرض قطعة من جمجمة البقرة ، فلما أعيته الحيلة ، جعل يؤكد أنه على استعداد لبيع نفسه مقابل صحن ملئ بالثريد الساخن ، وسيكون الرابح فى هذه الصفقة .

* * *

كان المعسكر وسط دغل من أشجار الجوز البرى ، فلما طلع الصباح ذهبنا نبحث عما قد يكون باقيا من ثمارها ، وهى ثمار صغيرة ذات قشرة سميكة صلبة . وكان عملا شاقا ،

www.ibtesama.com

خصوصا عقب سقوط المطر ، فلم يكن فى استطاعة الرجل منا أن يجمع حفنة منها إلا بعد ساعة من العمل الشاق ؛ فإذا أزال قشورها لا يبقى من ذلك القدر ما يشبع عصفورا .

وبينما نحن فى بحثنا عن الجوز ، سمعنا صيحات الحراس القادمين بصحبة أندرو ماكنيل وأندرو وانسنت ، وهما متطوعان من السبعة الذين أسرهم الأعداء فى اليوم السابق . وكانا خلواً من البنادق والأغطية والقلانس وأكياس البارود وأقماعه ، ولم يكن عليهما من الملابس سوى السراويل ، أما نصفهما الأعلى فكان عاريا مليئا بالجروح والخدوش ، كأنهما وقعا فى براثن قطط متوحشة .

وتكأكأنا حولهما نصغى لقصتهما . وبادرهما روجرز بالسؤال عما إذا كان الفرنسيون ما زالوا جادين فى البحث عنا ، وأجاب ماكنيل بالنفى ، وقال إنهم فى طريق عودتهم شمالا ، وإنهم جياع لم يذوقوا طعاما منذ أيام ، وملابسهم ممزقة كملابسنا ، حتى إنهم استولوا على ثياب وانسنت وماكنيل ليرتقوا بها ثيابهم .

وقال ماكنيل إن المتطوعين الخمسة الباقين لم يقتلوا بعد أو يعذبوا ، وانه على الرغم من جهله بلغة الفرنسيين والهنود ، استطاع أن يفهم من إشاراتهم أنهم يعتزمون الإبقاء عليهم أحياء ليحملوا لهم اللحم والمتاع على طول طريق عودتهم إلى

www.ibtesama.com

كندا، ثم يتركوهم بعد ذلك لعجائز القرية يفتنّون فى تعذيبهم .

وقال أيضا : إن الفرنسيين أعطوهم بعض قطع من العظام يقرضونها ، ثم ربطوا كل اثنين معا ظهرا إلى ظهر ، وقد تمكن ماكنيل من إخفاء جانب من عظمة حادة الطرف ، ولما أقبل الليل جعل يحك بها الحبل الذى يقيده مع وانسنت ، حتى تمكن من قطعه بعد ساعتين ، ثم حل وثاقه وانسل مع زميله مستتريْن بالظلام بعيدا عن الجنود النائمين .

قال : لولا ضوضاء الأمطار والرياح ما أمكننا أن نفلت منهم

وقال وانسنت : لست أدرى إلى هذه اللحظة كيف أمكننا الهرب .

وأردف ماكنيل يقول : ونحمد الله أن الصاغ أوقد تلك النار ؛ فبعد أن ابتعدنا عن العدو مرحلة كافية ؛ تسلق وانسنت ؛ عند منتصف الليل ؛ شجرة عالية ؛ فرأى وهجاً ضعيفاً يبدو من بعيد، وقد بعث فينا هذا الوهج قوة جديدة ، ومنحنا مزيداً من الجلد على احتمال السير إليكم .

وشعرنا ونحن ننظر إليهم كأنهم أموات واريناهم التراب ، ثم إذا بهم يشقون قبورهم ويبعثون منها أحياء .

قال ماكنيل يسألنا : ألديكم ما نأكله ؟

وأعطيناهما قليلا من الجوز البرى ، وكانت يدا ماكنيل

www.ibtesama.com

على أسوأ حال ، إذ تآكل اللحم من فوق أصابع يده اليمنى ، حتى بانت العظام وما حولها من أربطة العضلات .

وما إن تناول الجوز حتى رماه فى فمه ، وجعل يجرشه بأسنانه ، ثم يلوكه لبنًا وقشرا .

* * *

فى ذلك اليوم ، وكان الثامن عشر من شهر أكتوبر ، بدا الإقليم الذى نخترقه على شر حالاته : فالغدران ومجارى المياه تسير فى كل اتجاه ، ومهب الريح يتغير مرة بعد مرة ، حتى لم نعد نثق بدلالته . ومع أن بعض الناس يسترشد فى اختراق الغابات باتجاهات الطحالب النامية ومواقع المجارى المائية ، إلا أن معالم هذه المنطقة لم تكن تدل على شىء ، ولولا البوصلة التى نحملها ما أمكننا أن نسير فى الاتجاه الصحيح .

قال روجرز لأوجدن ، وهو يهز رأسه حيرة من أمر الأمطار التى تأبى أن تنقطع : الأفضل أن نبنى معسكرنا هنا ، ثم نحاول أن نطعم هؤلاء الرجال شيئا . دع نصفهم يصيد سمكا ، وكلف الآخرين بإشعال النار والحراسة . . . وعلينا أن نجفف أغطيتنا المبتلة ، حتى إذا تحولت هذه الزوبعة إلى موجة من الصقيع ، أمكننا أن نتقى بعض المتاعب المقبلة .

www.ibtesama.com

قلت لجيمس بتشام ألفت نظره إلى حديث روجرز : متاعب ! بعض المتاعب المقبلة !

قال جيمس بعد تفكير : الحقيقة أننى لا أفهم قصده ، ولكنه مصيب فى رأيه دائما ؛

ولمح روجرز سنجابا ، فأرداه ببندقيته ، ليتخذ منه الرجال طعما للسمك . .

وعند أول نهير وصلنا إليه ، أخرج الرجال الخيوط والشصوص ، وبدأنا نصيد فيه ؛ ولكن الأسماك كانت صغيرة لا يزيد طول أكبرها على خمس بوصات ، وأفواهها الصغيرة لا تتسع لشصوصنا الكبيرة . وبعد طول عناء أمسكنا بضع مئات منها . ولصغر حجم هذه الأسماك وضآلة قيمتها الغذائية ، أمرنا روجرز أن نطهوها بنوع من الطحالب له لون رمادى مخضر . وكانت هذه الطحالب ذات رائحة كريهة وطعم مقيئ ، ولكنها معروفة بدسامتها ، ويقال إن سلقها مع الطعام كطهوه بالدهن والدسم .

وأمضينا مساء ذلك اليوم فى صـــيد السمك وجمع الطحالب ، وكان الجوع قد أنهك قوانا وشل أصابعنا وأيدينا ، فكانت الأسماك تفلت منا ونحن نحاول تخليصها من الشصوص ، ثم تنزلق من الشاطئ إلى الماء قبل أن

www.ibtesama.com

تسعفنا أيدينا البطيئة بإمساكها ثانية . وكان من المألوف أن ترى الرجال يجثمون على أربع عند حافة الصخور يحاولون استعادة الأسماك الساقطة، فإذا بهم ينزلقون إلى النهر ويتخبطون فى مياهه . ولم يكن فى ذلك المنظر المتكرر ما يبعث على الضحك ، إذ كان همنا كله ينحصر فى القبض على أى سمكة صغيرة كانت أو كبيرة .

وأخيرا نضج سليق السمك مع الطحالب الصخرية ، فإذا بالحساء يشبه حمأة فى أرض سوق السمك . . ولم نقبل على ذلك الطعام تلذذا بطعمه ، ولكننا أكلناه ليبعث فى أبداننا من القوة ما يوصلنا إلى الأمونو أوزاك . . . ومهما كان طعمه كريها ، فقد كان طعاما يملأ البطون على أى حال .

وظل حديثنا طوال الوقت مقصورا على الطعام الذى ينتظرنا فى الأمونو أوزاك . . . نوعه وصنفه ، وشكله وطعمه . . . وهل نجد هناك چون آسكن ، مورد الطعام المشهور ، وهل يأتى معه بما لذ وطاب من المآكل التى اعتاد المتطوعون أن يشتروها منه ؟ . . . وأكد بعضهم أنه لا بد قادم ، وتنبأ الآخرون بغير ذلك ، وذهبوا فى تشاؤمهم إلى القول بأن الطعام المنشود لن يزيد عن الجراية المعتادة للجنود : لحم مقدد وكعك وبن وشكولاته وسكر وروم .

www.ibtesama.com

ولكن هذه التفاصيل كلها لم تكن ذات بال ، وكل ما كان يعنى الرجال أن يجدوا فى انتظارهم طعاما .. أى طعام ..

* * *

.. فى اليوم التالى وصلنا إلى نهر أثار مرآه فى صدر الغلام الهندى بيلى ذكريات قديمة ؛ ولكنه أبى ، ككل بنى جنسه ، أن يعترف بما يخالج نفسه قبل أن يتأكد منه . وكان بيلى طيبا وكذلك كان زميله بوب ، فقد دأب الاثنان على حمل أغطية أوجدن وأمتعته مع بعض متاع روچرز ، وكانا ودودين كجروين صغيرين ، نحيلين من قلة الطعام .. بطناهما منتفخان لكثرة ما يأكلان من حشائش وبراعم وقواقع وثعابين صغيرة .. وكانت تبدو عليهما مظاهر السعادة ، كأنهما نسيا دنياهما القديمة تماما ، وتعلقا كل التعلق بعالمنا الجديد عليهما .

وكان النهر الذى لاقيناه رقراقا له خرير مسموع ، يختلف عن غيره بصفاء مائه البلورى ، وجريانه فى اتجاه واحد نحو الشمال الغربى ... ووقفنا فى حيرة أمام ذلك ، إذ كيف يجرى هذا النهر نحو الشمال فى اتجاه ممفراماجوج ، بعد أن بعدت بنا الشقة عن مرتفعاتها ، وشارفنا مياه كونيكتيكات المنحدرة إلى الجنوب ؟

www.ibtesama.com

وأخيرا أقر بيلي بأنه يعرف هذا النهر ، فقد سافر ذات صيف مع أمه من كونيكتيكات إلى ممفراماجوج متخذين هذا الطريق . وقال للصاغ إننا لو سرنا مع هذا المجرى ، نصل إلى بحيرة جميلة تتوسطها جزيرة ، وبعدها بميل واحد نجد نهر نولهيجان الذى ينحدر إلى نهر كونيكتيكات . وأكد الفتى أن المسافة بينهما قصيرة ، ثم وضع يديه على كرشه البارزة ، وقال فى رنة الاعتذار ان البطن الخاوى يعطل التفكير وقتا طويلا .

* * *

يعرف كل صياد أن هناك فترات من الركود يختفى الصيد فيها اختفاء تاما ، حتى ليصبح أمهر الرماة بلا حول ولا قوة أمام قسوة الغابة التى تبدو مجردة من حيوانها وطيرها ؛ وتحدث فترات الركود هذه إذا طال الوقت برداءة الجو ، واستمر المطر أو الجفاف مدة أطول من المعتاد ؛ عندئذ تهجر الحيوانات والطيور مراعيها المألوفة ، وتتجه إلى أخرى لا تطرأ للصياد على بال ... فالقطا مثلا قد يهجر طعامه من براعم الجوز وأوراق التفاح الشائك وحسلاته ، ليتغذى على أوراق البلوط وثمارها ، الأمر الذى لا يمكن لصياد أن يتصور حدوثه ، ولهذا قد يموت صيادو الهنود جوعا وسط غابات مليئة بحيوانات وطيور لا يعرفون مكانها .

www.ibtesama.com

كنا نمر بإحدى فترات الركود هذه ، إذ لم يكن بالغابة سوى صنفين من البوم ، نوع صغير صوته كصرير المبرد فى الحديد ، وآخر كبير له عيون وحشية صفراء ... وكنا نعرض عن صيد البوم بنوعيه خشية أن تفزع طلقاتنا ما قد يكون موجودا من صيد أهم ، فضلا عن أن البوم أحقر أنواع الصيد شأنا ، وأقلها قدرة على تغذية آكلها :.. فثلاثة أخماسها رأس ، وخمسها عظام ، ومعظم الباقى نعيق مزعج ... ولو أردنا أن نقدم لرجالنا الأربعة والأربعين شبح وجبة منها ، لاحتجنا إلى ثمانين بومة على الأقل ... ليس فيها من الغذاء أكثر مما فى الأسماك الصغيرة .. فكلا الصنفين لا دهن فيه ولا دسم :

ومع ذلك انتشر الرجال على جانبي النهر ، يسيرون فى بطء وحذر ، لعلهم يجدون غزالا أو بقراً وحشياً ، ولكن الحيوانات لم يظهر لها أثر ، وظلت البوم وحدها تطاردهم أينما ساروا ، وبين حين وآخر يلمحون نسراً يرفرف بجناحيه نحو هدف بعيد .

وظلت السحب الكثيفة تحجب السماء طول اليوم ، واكتست الغابة بحلة من العتمة المقبضة ، فانعكست كآبة الجو على نفوس الرجال كلهم إلا روچرز وأوجدن والصبيين ، فقد ظلوا على حالهم مستبشرين متفائلين ؛ ولكن استبشارهم

www.ibtesama.com

لم يجد صدى فى نفسى . وأدركت فجأة أنى لم أعد أومن بشيء : فقدت الأمل فى عثورنا على صيد ، وفى خروجنا من هذه الغابة ، وفى وصولنا إلى نهر كونيكتيكات . . . فقدت إيمانى بدفء الشمس ، واحتمال ارتداء ملابس جافة . . . ضاع أملى فى السعادة والراحة ، ويئست من العودة إلى بيتى وأهلى والبزابيث . . وحتى فى أثناء الراحة كنت أجلس شارد اللب حزينا ، كارها كل ما فى هذه الدنيا الكبيرة .

وكانت أحوال چيس بتشام وآفرى وبرادلى لا تختلف عن حالى : كنا لا نرد على ما يوجه إلينا من حديث ، وحتى إذا حدثنا روچرز بصوته الخشن وهو يسير باسما على طريقته القرصانية ، مؤكدا قرب خروجنا من الغابة إلى الأمونوأوزاك ، كنا لا نعلق على ما يقول بكلمة ، ونكتفى بالإطراق إلى الأرض صامتين .

وتحقق ما قاله الصبى بيلى ، وعثرنا على البحيرة والجزيرة وسطها ، ثم لقينا نهر نولهيجان الذى ينحدر نحو الجنوب الشرقى ، وسرنا واجمين صامتين ، كأننا أنصاف أحياء ، آمالنا معلقة بظهور غزال أو مهاة ، وعيوننا تبحث عنها دون جدوى .

www.ibtesama.com

وفى اليوم العشرين من الشهر ، انبعث أمل جديد ، رفع الروح المعنوية المنهارة : فبعد ما عبرنا أحد المرتفعات ، رأينا وراءه وادى كونيكتيكات ، يجرى النهر فى وسطه طويلا لامعا ، تعترضه المساقط المائية والمنحدرات السريعة .

كان ظهور هذا النهر يعنى قرب الوصـــول إلى الأمونوأوزاك وما فيه من طعام ، فضج الرجال بضحكات خائرة ، وتبادلوا الملح والفكاهات ، وهم يسيرون متعثرين نحو النهر البعيد .

* * *

تختلف سهول الكوهيز المجاورة لنهر كونيكتيكات عن سهول أى نهر آخر ، إذ تقع فى مستويين عظيمين على يمينه ويساره ، كأن النهر قد جرى مرة فى أعلاهما ورسب أرضا غرينية خصبة على جانبيه ، ثم انخفض بمجراه مرة أخرى إلى المستوى الأسفل ، ورسب أرضا ثانية عند قاع الوادى... فالشرفة العليا المستوية عريضة فى بعض الأماكن ، ضيقة فى الأخرى ، بتأثير مجارى النهيرات التى تنحدر نحو النهر الأصلى فتأكل بعض أجزائها وتترك الآخر ، مما يخلف مصاطب مرتفعة وسط السهل المنخفض .

كان السهل ضيقا متقطعا عند ملتقى نهرى نولهيجان

www.ibtesama.com

وكونيكتيكات ، ولكنه التأم واتسع نحو الجنوب ، حتى أصبح بعرض الوادى كله ... وكان جانب من هذه السهول ممهدا بطبيعته ، وجانب آخر مهدته أيدى هنود الشمال من قديم ، بعدما تبينوا أن أرض هذه المنطقة أخصب الأراضى التى يجوبون فيها وأغناها وأجملها .

ولما خرجنا من الغابة إلى السهل الضيق الذى يحف بمصب نولهيجان ، رأينا الوادى ينحدر أميالا عدة ، تحده سلسلة من الجبال تشبه فى قممها الحادة المدببة ، جبال ممفراماجوج . وكانت السحب الداكنة ما تزال تغطى السماء ، ولكن ضوء النهار ، رغم ضعفه ووهنه ، بهر عيوننا وكاد يعميها ، فمنذ أن خرجنا من حلبة الرقص بسانت فرانسس ونحن نسير فى ظلال الغابات الكثيفة المعتمة .

وبينما نحن وقوف نحملق نحو الجنوب ، ونتساءل من أين ينحدر نهر الأمونوأوزاك وسط هذه الجبال ، حدث هرج فى مؤخرة الصف ، وإذا بكروفتون قد قرض قيوده وقطعها ، وعاد يجرى إلى الغابة التى خلفناها لتونا ... وكان يجرى كالحيوان على يديه وركبتيه . وصاح الرجال معا ينادونه ، فالتفت ينظر إليهم من خلف بعض الشجيرات ، كما يفعل الكلب العاصى ، ثم سار متباطئا نحو حافة الغابة ، وبعد أن تلفت حوله فى حذر ، انحنى على الأرض ينبشها بيديه ،

www.ibtesama.com

قال الملازم جرانت يستطلع رأى الصاغ : أأذهب لإحضاره ؟

وكان جرانت ضابطا طيب القلب دمث الأخلاق ، له عينان صغيرتان فيهما حوَل ، وكان دائما بدينا مستدير الوجه ممتلئ الخدين ، وظل كذلك حتى ذهبنا إلى سانت فرانسس ، أما الآن فقد ذهب شحمه وضمر لحمه وجف وجهه وتهدلت وجنتاه ، فأصبح أقرب إلى المومياء منه إلى الإنسان الحى .

وهز روچرز رأسه نفيا وقال : لن تتمكن من القبض عليه . . ولن يستطيع أحد اللحاق به ، فهو مجنون وباستطاعته أن يعدو إلى ما شاء الله دون توقف . .

واستقام كروفتون على قدميه عند حافة الغابة ونظر إلينا : كان كالدب فى وقفته ونظرته ، ولما لم يجد منا اهتماما بأمره ، ولم ير أحدا يتبعه ، قبع على الأربع مرة أخرى ، وجعل ينبش فى الأرض قليلا ، ثم التفت الينا فى توجس وحذر ، وبعدها توغل فى الغابة ببطء ، حتى اختفى فى غياهبها .

وكان لهذا الفراق المؤلم أثر سيئ فى نفوسنا ، فجعلنا يحملق بعضنا فى بعض فى شكل لا يبعث على الاطمئنان . ولأول مرة لاحظت أن روچرز محنى الظهر ، وكذلك كان أوجدن منذ مدة . وكنت أعزو ذلك إلى جروحه ، ولكنه

www.ibtesama.com

ظل منحنيا بعد أن تم شفاؤه . . وتلفتُّ حولى ، فرأيت أن الانحناء شائع بين الرجال ، فالملازم جرانت وچيس والجاويش برادلى پومپ الزنجى ومعظم الآخرين فى قاماتهم انحناء ملحوظ . . واتضح لى بعد إمعان أننى أيضا مثلهم ، وقد كنت كذلك منذ مدة لم أستطع تحديدها ، ولكنى لم ألاحظ ما أصابنى إذ لم يكن من عادتى أن أهتم بمظهرى . وأدركت السر فيما يدعونى إلى الانحناء على هذا النحو ، فقد كنت أشعر بألم ممض فى معدتى ، كأن أعصابها مشدودة لا ترتاح إلا بالانحناء . . . وحاولت أن أقيم ظهرى وأقف منتصبا ، ولكنى أحسست بتشنج فى أحشائى لم تخف وطأة آلامه حتى عدت إلى الانحناء ثانية .

ولم تكن ظهورهم المحنيّة كل ما لفت نظرى فى تلك اللحظة ، فقد اعتدت خلال الرحلة أن أرى رفاقى بلحاهم الطويلة وسوقهم العارية وملابسهم العجيبة ، وما لفوه حول أقدامهم من خرق وأسمال تحميها من الأشواك ؛ أما عيونهم فلم أرها على حقيقتها إلا فى هذه اللحظة : كانت غائرة تحيط بها دوائر حمراء داكنة ، حتى ليخيل إليك أنها ضغطت فى جماجمهم بحديد محمى . . . ومن وسط الدوائر الحمراء الداكنة كانت عيونهم تحملق فوق أنوف ذاب لحمها ،

www.ibtesama.com

فبانت كمناقير الطيور الجارحة ، وبين الحواجب تجاعيد عميقة توحى بهموم لا حدّ لها . . . وبهذه العيون الغائرة ، فوق الأنوف العجاف اكتسب الرجال — حتى جيس بتشام صاحب القلب الطيب — منظراً وحشيا مخيفا .

وتساءلت فى نفسى : هل تكون الوحشية التى نراها فى وجوه بعض الناس من فعل ما يعانونه من متاعب لا طاقة لهم بها ؟

www.ibtesama.com

الفصل السابع والثلاثون

سرنا بعد ذلك اليوم هابطين مع النهر إلى أقصى مدى في استطاعتنا .

وكان سيراً عسيرا بسبب فيضان النهيرات التى تعترض طريقنا ... ولم نصادف صيداً طوال الوقت ، كما لم نحاول صيد السمك من النهيرات الفياضة ولا النهر العكر ، خشية أن نضيّع الوقت بلا جدوى ، وعلى ذلك جعلنا نسير ونسير بأمل ذلك الطعام الذى ينتظرنا فى الأمونو أوزاك .

قال روجرز يجيب على سؤال لأحد الرجال : لم نعد بعيدين عن هدفنا الآن .

كان يتكلم بمرح ، فآمنا بقوله ، وجعلنا نستحث الخطى ونتعثر ونسقط ، ثم نقف لنسير من جديد .

وفى اليوم العشرين من شهر أكتوبر وصلنا إلى سهول الكوهيز الأصيلة ، وكان السير فيها أكثر مشـــقة على أبداننا الجائعة المنهكة من اختراق مجاهل ممفراما جوج . . . ولاقينا الأمرّين فى تسلق المرتفعات ثم الهبوط منها ، وفى الدوران حول النهيرات والأخوار وخوضها . ٥ . وكانت

www.ibtesama.com

نظرة منا إلى الأفق البعيد توجع قلوبنا وتثبط هممنا ، بسبب البطء الشديد الذى نسير به ، ولم يكن مثل هذا اليأس ينتابنا ونحن نخترق الغابات ، إذ كانت الأشجار تحجب المسافات عن عيوننا ، ولكن السهل الذى خرجنا إليه ، كان يكشف أميالا لانهائية أمام عيوننا ، فنشعر أننا نسير ببطء القواقع :

وفى ذلك اليوم فقدنا الجاويش برادلى ، إذ جاء إلى روجرز يقول إنه ورجاله قد أشرفوا على الهلاك جوعاً ، ولذلك يفضل أن يجرب حظه فى الصيد بين التلال المتاخمة للسهول .

وكان فى منظره تحدٍ واضح ، ولكنى لم أدهش لذلك ، فقد كانت الظروف المحيطة بنا ترسم على وجود الرجال تعبيرات عجيبة لا تدل أحياناً على ما يعتمل فى صدورهم .

قال له روجرز : الأفضل أن تبقى فى صحبتى ، فلقد سرنا معاً وقتاً طويلا ، ومن المستحسن ألا نفترق ، فأنا لا أرى فى هذا الإقليم معالم المناطق الغنية بالصيد :

قال برادلى : ومع ذلك سنحاول الصيد فيها ، أيها الصاغ .

وانفصل رجاله عنا مبتعدين . . .

www.ibtesama.com

وكنا نتوقع أن يعود إلى اللحاق بنا مع هبوط الظلام ، أو يأتى فى اليوم التالى على الأكثر ، ولكن المساء أقبل وما زالوا غائبين . وكنا قد وصلنا إلى مخاضة سبق أن حدثنا عنها روجرز منذ أسابيع ، وقال إنها تقع بجوار جبل له قمة تشبه سرج الحصان ؛ وكان الجو بارداً ، وبدت التلال التى نعتزم اختراقها فى صباح اليوم التالى كأنها بحر خضم تجرى فيه أمواج زرقاء تنذر بالخطر . وبانت لعينىّ المقرحتين كأن الجبال تعلو وتهبط ، وقممها الحـــادة تتلوى وتماوج .

وأقمنا فى الصباح كومة من الأحجار ، يستدل بها برادلى ورجاله على المكان الذى عبرنا منه النهر . ثم نزلنا إلى المياه الرقراقة السريعة نخوضها حتى وصلنا إلى الشاطئ الرملى المقابل . ونظرنا من موقفنا الجديد إلى المكان الذى خلفناه ، فإذا بصف صغير من الرجال يتجه نحو العـــلامة التى أقمناها للإرشاد .

قال روجرز : ها هو ذا برادلى قادم مع رجاله ، فيحسن أن ننتظره .

ووقفنا نرقب حركاتهم المتخاذلة وتقدمهم الوئيد ،

وكان من العسير أن نتصور أننا نحن أيضا كنا نسير ونتقدم فى تلك المنطقة بذات الإرهاق والبطء .

قال جرانت : إنهم ثمانية فقط !

وأمن أوجدن بقوله : نعم ، وليس بينهم برادلى ! !

ولما كانوا فى الأصل عشرة غير برادلى ، فمعنى ذلك أنهم فقدوا ثلاثة رجال .

ورأيناهم يعبرون النهر فى أسوأ حال : إذا وقع أحدهم فى الماء ، يلقى عناءً شديدا حتى يعود إلى الوقوف على قدميه ، ثم يمضى به الوقت وهو يسعل ويلفظ ما ابتلع من ماء . وكثيرا ما كان الرجل منهم يتعثر ، ويعود إلى السقوط مرة بعد مرة .

وأخيرا وصلوا إلى شاطئنا ، وخرجوا من الماء يزحفون فى ضعف كأنهم كلاب أوشكت على الغرق .

سألهم روجرز : أين برادلى ؟

أجاب كيلى الإرلندى ذو الشعر الأحمر : عاد إلى بيته وأهله أيها الصاغ . .

صاح روجرز يقول : بيته وأهله ! ! ؟ عم تتكلم ؟

أجاب كيلى : لقد ظل برادلى يؤكد أن سهول الكوهيز لا تبعد عن بيته فى مدينة كونكورد أكثر من يومين . . وأسرع

www.ibtesama.com

طريق إليها أن يتجه رأسا إلى كونكورد .. ووعدنا إذا سرنا معه بعشاء عظيم فى بيت أبيه !

قال روچرز : كونكورد ! ترى أين توهم موقعها ؟

أجاب كيلى : لقد أكد لنا الجاويش برادلى أن سهول الكوهيز تقع غرب الشمال الغربى لبيت أبيه فى كونكورد ، ولذلك حدد اتجاهه بالبوصلة نحو شرق الجنوب الشرقى .

قال روچرز بصوت مبحوح : ولماذا لم ترافقوه فى رحلته ؟

أجاب : لم نأنس لمنظر الجبال التى تعترض ذلك الاتجاه ، ولذلك قررنا أن نعود إلى طريقنا الأصلى ونتبع الصاغ .

والتفت روچرز نحو الشمال الشرقى ، ونظرنا معه من فتحة بين التلال ، فطالعنا الأفق البعيد وبه سلسلة من الجبال ، غطاها الجليد بطبقة فضية قاتمة ؛ فبدت كالسحب اللامعة ،

وعاد روچرز يسأل كيلى : ومن رافقه من الرجال ؟

أجاب : پومپ هويپل وليوپوت

ونظر روچرز إلى الجبال الجليدية البعيدة وقال : حسنا ! هيا بنا نستأنف مسيرنا إلى الأمونو أوزاك .

فقال كيلى فى صوت خافت : ترى ماذا يكون مصيرهم أيها الصاغ ؟

أجاب : فى غياهب التلال البيضاء !

www.ibtesama.com

وسكت برهة ثم قال : لقد لاحظت أخيرا أن براولى يربط شعره بشريط جلدى ويتزين ببعض الحلىّ الهندية ، ولعل أحداً من الناس يعثر فى الصيف القادم على قطعة من الجلد وبعض الخرز ، فلنضرع إلى الله أن يكون فى قلب ذلك الشخص بعض الإيمان ، فيدفن تلك الأشياء مع ما يجده بجوارها من بقايا العظام ... هيا بنا !

* * *

وتحققت نبوءة روچرز ، فوجدنا أنفسنا نسير فى درب مطروق لأول مرة بعد ذلك الدرب الذى سلكناه عند خروجنا من سانت فرانسس .

وسار بنا الدرب إلى سفح جبل مرتفع ، فرأينا وراءنا إقليما لا حياة فيه ، وأمامنا أرضا لا تقل عنه قفراً ، وبين هذا وذاك ينساب نهر كونيكتيكات وسط سهول خالية من كل كائن حى ...

وتذكرت فارنجتون وكامبل وكيرجل ، وتساءلت أين يكون مكانهم فى هذا الإقليم ، وهل ما زالوا ورجالهم أحياء ؟ أم تراهم يرقدون بلا حراك فى ركن بعيد . وأدهشنى كيف نسيت أمر هؤلاء الضباط ولم أعد أتذكر أسماءهم إلا بصعوبة...

وكان أمامنا وادٍ مشتجر يختلف منظره عن بقية الوديان التى مررنا بها ، وفى استطاعة العين أن ترى من بين أشجاره

www.ibtesama.com

مسافات طويلة نحو المكان الذى ننشده ، والطعام الذى أصحبنا فى مسيس الحاجة إليه .

قال روجرز : هاكم الأمونو أوزاك ... هاكم إياه ! !

ثم شبك يديه فى حزام سترته الجلدية الممزقة ، وسار يخطر فى خيلاء من انتصر فى معركة طاحنة بعد جهاد شاق .

وأسرع كونكابوت واليوزباشى چاكوبز يتسللان نحو النهر ، لعلهما يباغتان غزالا أو صيدا سمينا ، وكانا أكثر منا احتمالا للجوع ، فاحتفظا بنشاطهما وخفة حركاتهما ، فى حين أننا كنا نتعثر متثاقلين ، ودبيب أقدامنا على الأرض يحدث أصواتا عالية تنذر الطريدة وتدفعها إلى الفرار .

وأخيرا وصلنا إلى الأمونوأوزاك الموعود ، أو كدنا نصل إليه .

كان خيالى قد صوره لى جنة تجرى أنهارها بالشهد واللبن ، جنة يتخلص المرء فيها من كل أسباب الشقاء والتعاسة والجهاد الأليم ، فلما رددت الأجواء صدى طلق نارى ، أسرعنا نهبط المنحدر منزلقين ، كما لو كنا دعينا إلى وليمة عظيمة . وارتسمت فى مخيلتى وأنا أهبط المنحدر ، صورة غزال سمين ارتفاعه عشر قبضات على الأقل ، ووزنه يزيد على مائتى رطل . . غزال طويل عريض شحيم ، يصيب

www.ibtesama.com

منه كل واحد من رجالنا الثمانية والثلاثين رطلين كاملين من اللحم الخالص ، وكانت هذه الصورة التى رسمها خيالى أجمل مقدمة لما ينتظرنا من ألذ الأطعمة وأوفرها .

ولكن اليوزباشى چاكوبز لم يستطع أن يصيد أكثر من نسر من نسور السمك ، وهو طائر حقير تفوح منه رائحة كريهة ، فسلقنا النسر جميعه برجليه وجناحيه وأحشائه فلم ينضج قبل نصف ساعة ، وصنعنا منه حساءً ساخنا ناله كل رجل منه ملء قدح . وجاء دور تقسيم اللحم ، فوقف روچرز فوق صخرة مسطحة يرسم على جثة الطائر علامات يمكن معها تقسيمه إلى ثمان وثلاثين قطعة . وكان يمسك القطعة بيده المرتجفة ، ويخفيها وراء ظهره ، وعندئذ يصيح أوجدن باسم أحد الرجال ، فيقبل صاحبه ليأخذ نصيبه ... والنسر بصفة عامة ، لا يختلف عن كثير من الآدميين الذين يتمتعون بصيت عريض على غير أساس ، فهو بريشه وجناحيه رائع الصورة كبير الحجم ، فإذا تجرد من هذه المظاهر الخداعة ، يفقد ميزاته شكلا وموضوعاً ... وكان الجزء الأكبر منه يتألف من منقار ضخم وعظام وعضلات ورجلين ... فلم يستطع أحد منا أن ينال أكثر من قطعة لحم ضئيلة الحجم كريهة الطعم ، ولكنه كان لحما جامدا مطاطاً

www.ibtesama.com

يدوم فى فم الجوعان خمسة أمثال الوقت الذى يدوم فيه اللحم الطيب ، ولذلك وجدنا فى مضغه والتهامه متعة ترضى خيالنا الخصيب ، ولا ترضى بطوننا الخاوية .

وهبطنا الوادى ، فلم نجده — كما تخيلناه — يفيض بالشهد واللبن ، بل كان على العكس قفرا لا زرع فيه ولا ضرع ... وخضنا النهر مرة ثانية عائدين إلى نهر كونيكتيكات ، وسلكنا بعد ذلك دربا مهجوراً غسلته مياه الأمطار ، وسرنا فيه نجر أقدامنا بمشقة عظيمة ، فلم نقطع أكثر من اثنى عشر ميلا فى ذلك اليوم . وكان الرجل منا إذا تعثر وسقط على الأرض ، يظل جاثيا على يديه وركبتيه حتى يجد شجيرة يستعين بفروعها على الوقوف .

وكان ذلك اليوم هو الحادى والعشرين من شهر أكتوبر ، ولم نر فيه ولا فى اليوم الثانى والعشرين شيئاً يصاد ، لا نسراً ولا بومة ولا طائراً لا وحيواناً من أى نوع كان . ومضينا فى طريقنا نتعثر ونسقط ... ننكفئ على وجوهنا غير آبهين بما يصيبنا ، فكل خطوة نتقدمها تدنينا من الطعام المنشود فى الأمونو أوزاك . وبفضل تشجيع روچرز وصور الطعام التى تملأ خيالنا ، أمكننا أن نسير خمسة عشر ميلا فى ذلك اليوم .

www.ibtesama.com

كان روجرز يروح ويغدو أمام صف الرجال المتعرج ، وبين لحظة وأخرى يقول بصوت خشن كصرير المنشار : نظم خطاك يا كيلى ... ساعد زميلك فى النهوض من عثرته ... وأنت هناك يا ونسنت ، انهض وسر ... لقد أوشكنا على الوصول ... غدا نكون هناك بالتأكيد ... ماكنيل ! استيقظ من نومك يا ماكنيل ! ... لقد هانت المسافة وبتنا قريبين ...

وأمام تشنجات الجوع التى أصابت الرجال ، فأفقدتهم القدرة على الاتزان فى السير ، اضطررنا أن نعسكر بعد الظهر وكنت طول اليوم ، إذا ما اقترب الدرب الذى نسير فيه من حافة النهر ، أجد نفسى أميل بجسمى إلى الناحية الأخرى ، خيفة أن أسقط فى الماء . ولما حان وقت النوم ، ومددت جسدى على الأرض ، كانت يداى قد فقدتا حساسيتهما تماما وشعرت أن بالأرض قتادا يسبح فوقه جسدى المتعب ، وأردت أن أسأل چيس بتشام أهو يشعر بما أشعر به ، ونظرت من ركن عينى إليه ، فإذا به يرقد كالجثة الهامدة ، وقد برزت لحيته البيضاء قائمة فوق وجهه ، فعدلت عن سؤالى بعدما عجز لسانى عن وصف ما يدور بخلدى من أفكار .

www.ibtesama.com

وسمعت صوت روجرز يأتى من بعيـــد ... من بعيد جداً ... ولكم سمعت مثل هذا الصوت البعيد أيام مرضى فى صباى ، وكنت أسمعه يأتى من وراء الستر التى تحجب فراشى ، كأنه آت من خارج البيت .

كان يتكلم عن دخان ، وترددت كلمة « دخان » فى مسامعى مراراً ، ثم صحوت من نومى ، فقمت أزحف إلى المكان الذى يتحدث فيه روجرز مع أوجدن وجرانت وآفرى .

سمعته يقول بإصرار : أؤكد لك أنها رائحة دخان ... افتح فمك وأنت تتنفس ... تنفس بهدوء وبطء ... أليس هذا دخاناً !

وجعلت أشم الهواء وأستنشقه ، ثم وجدت الرائحة ... كانت رائحة خفيفة عطرية ... رائحة خشب يحترق .

قال أوجدن : يا للقديسين ! إنى أشمها الآن ، أيها الصاغ ! هى حقيقة لا شك فيها ... إنه دخان نار !

وسمعت جرانت يضحك فى عصبية ، ثم يشهق ليريح أعصاب أمعائه الخاوية .

قال روجرز بصوت يفيض سروراً : هناك مكان

www.ibtesama.com

واحد يأتى منه هذا الدخان ... لقد وصلنا ، وكنت على صواب ... ان الطعام هناك فى انتظارنا ! .. وبعد ظهر غد يصبح فى متناول أيدينا ! . . . كنت واثقا من النصر فى النهاية ، وبفضل الله تمكنا من الوصول .

www.ibtesama.com

الفصل الثامن والثلاثون

وطلع اليوم الثالث والعشرون من شهر أكتوبر بسماء رمادية معتمة ، وريح صرصر تنذر بالثلوج ، وزحفنا الأميال الثلاثة الباقية من ذلك الدرب ، وتعثرنا غير آبهين برياح أو ثلوج ، بعد أن سمعنا طلقة بعيدة أعقبتها طلقتان سريعتان .

ولم يكن من سبيل إلى الشك فى أنها طلقات بنادق ، وأننا عدنا ثانية إلى أرض متحضرة ، تضم أصدقاءً ودفئاً ومأوىً .

ورفع روچرز ذراعيه انتصارا ، وأجاب على الطلقات البعيدة برصاصة أطلقها من بندقيته .

وسرت روح النصر فى الرجال ، حتى إن چيس بتشام صاح يقول بانفعال : ها نحن أولاء قادمون !

ثم أطلق رصاصة رأسية فى الهواء .

وصاح آفرى وهو يصوب رصاصة نحو غراب يطير فوقنا : أسرعوا بإعداد القدور للطعام !

وانحرف الغراب فى طيره ، وابتعد عن طريقنا فزعاً .

ومن بين الطلقات ، تعالى ضجيج الرجال وهم يصيحون

www.ibtesama.com

فرحا ، وجعل ماكنيل – الذى سلبه الفرنسيون بندقيته – يتوسل إلى زملائه أن يعيروه إحدى بنادقهم ، حتى يطلق رصاصة للتحية . وظل يطالب بحقه فى الاحتفال بالمناسبة السعيدة ، مع أنه كان أسوأ الرجال حالا ، فقد اضطر بعد أن سلبه الفرنسيون ملابسه ، أن يقضى النهار كله ملتحفا بغطاء آفرى ، حتى تقرحت كتفاه الضامرتان .

ومن شأن الجوع أن يشحذ حاسة الشم فى الرجال ، لذلك امتلأت خياشيمنا برائحة الدخان ؛ وكان باستطاعتنا أن نرى نهاية وادى الأمونوأوزاك ، وقد اعترضتها سلسلة من التلال ناحية الوادى الأكبر للكونيكتيكات ، وكانت المياه الهدارة لذلك النهر تطالعنا من بين الأشجار العارية البعيدة ، مع سحب الدخان التى تتصاعد أمام الأعشاب الداكنة ، كأنها غلالة عروس سمراء البشرة ، سوداء العينين .

وتقدمنا روچرز وهو يصيح بصوت أجش يلفت نظر الرجال الذين ينتظروننا بالمؤن ، وعندما وصل إلى ملتقى النهرين ، تعالى صوته يقول : روچرز ! إنها فرقة الصاغ روچرز عائدة من سانت فرانسس .

ومر برأسى خاطر عجيب : ماذا لو ظننا الرجال الواقفون على الجانب الآخر قطيعا من حيوانات الغابة ، فأطلقوا رصاصهم علينا من وراء الأشجار !

www.ibtesama.com

وصاح روچرز مرة ثانية ، واضطربت لصيحته ، فقد كان فيها رنين غريب . . . رنين من الشك والتوجس ، وهرعت بأقدام متخاذلة إلى ربوة عالية تشرف على السهول ، وتكشف ملتقى النهرين ، حيث وقف أوجدن وجرانت واليوزباشي چاكوبزوكونكاپوت . وكان بوسط الربوة حصن خشبي متداعى الأركان ، بليت أخشاب أسواره ، وانتشرت الثقوب فى سقفه . ولم يكن فى هذا الحصن ما يهمنا ، إنما تركزت أنظارنا فى الدخان المتصاعد من الضفة المقابلة .

وتدحرج روجرز منحدرا إلى الشاطئ ، والأحجار تتبعه فى دوى عالٍ ، ثم قام من سقطته المؤلمة ومن خلفه الصبيان الهنديان كأنهما هيكلان عظميان ... ووقف ثلاثتهم يرقبون الشاطئ الآخر .

ونظرنا إلى ملتقى نهر الأمونو أوزاك بنهر كونيكتيكات ، فإذا بالمنطقة كلها خالية إلا من الأرض والماء ، وليس بالسهل أثر لآدمى . وفى مواجهة هذا المصب من الناحية الأخرى ، حيث يجرى نهر ولز بين شاطئين مرتفعين ، كان الدخان يتصاعد من الضفة الجنوبية متجها نحو الضفة التى نقف فوقها .

ولم نر بالقرب من النيران شيئاً : لا قوارب ولا مراكب ولا طعاما ولا آدميين ، فما معنى هذه النيران

إذاً ، وليس بجوارها أكداس المؤونة وصناديقها ؟ ... هل مرضت عيوننا المنهكة فلم تعد ترى سوى النيران المهجورة ؟ ... أم هي مجرد رؤيا مفزعة وليس هناك نار على الإطلاق ؟ ..

ولكن الرياح الباردة الرطبة حملت إلى أنوفنا رائحة الدخان حادة نافذة وكلنا يعرف أن الروائح لا تأتى فى الأحلام ولا فى الرؤى المفزعة .

وأقبل الرجال الآخرون من الغابة يتعثرون ويئنون ويلهثون .

ونظر روچرز إلى أعلى النهر ثم إلى أسفله ، ورفع عقيرته يصيح بصوت أجش : إننا متطوعون ! نحن المتطوعون !

ثم خطف بندقيته من بيلى ورفع زنادها وأطلقها .

قال وفى عينيه يأس وقنوط : لقد ذهبوا ! وأخذوا مؤننا معهم ... جاءوا بها ثم عادوا لأمر يعلمه الله .

وحشا بندقيته بالبارود من جديد ، ثم أطلقها ثانية ، وصاح ينادى : عودوا ! عودوا إلينا .

وأحسست أن رجلىّ وركبتىّ تحولت إلى عجينة طرية ، وشعرت أن ذراعى أضحت من هشيم . ولست أذكر كيف هبطت إلى الشاطئ ، وأظننى انزلقت رأساً على عقب ،

www.ibtesama.com

مع عشرة رجال آخرين ، وزحفت من وسط هذه الكومة البشرية وأنا أشبه بجرو طريد .

صاح فينا روچرز يقول : أطلقوا بنادقكم ، ونادوا بأعلى أصواتكم ... انظروا إلى النيران ، إنها ما زالت تشتعل ، ولا يمكن أن يكونوا قد ابتعدوا أكثر من ميل واحد ! لابد أن نسمعهم أصواتنا ! ويجب أن نحصل على المؤن ... آه لو كان معي زورق الآن !

وتقدم إلى حافة الماء ، وخاض فيه إلى ركبتيه لعله يرى من سطح النهر مسافة أبعد .

وجعلنا نصيح ونصيح ، ونطلق الرصاص بعد الرصاص .

وكان روچرز يأمرنا بالصمت والإصغاء على فترات ، فنقف على أرجلنا المتهالكة نصيخ السمع فاغرى الأفواه ، ولكننا لم نسمع سوى خرير المياه المتدفقة فى النهر .

وترنح عمود الدخان المتصاعد من الشاطئ المقابل ، ثم حول اتجاهه مع مجرى النهر ، وبدأت قطرات المطر الباردة تسقط على الحشائش الجافة فيسمع لها هسيس يختلط بتمتمة الرجال وزمجرتهم .

وجلس اليوزباشي چاكوبز مع كونكاپوت القرفصاء على حافة الماء منكسي الرأس ؛ وتهاوى الرجال على الأرض

www.ibtesama.com

جالسين واحدا بعد واحد ، كأنهم تحولوا إلى أكوام صغيرة من العظام والخرق البالية .

وخرج روچرز من الماء ، وجعل ينعم النظر فى الرجال بعينيه الحمراوين المنتفختين ، فبدا فى تلك اللحظة مثل حيوان وقع فى الفخ . وبقى المتطوعون يحملقون فى الفضاء بنظرات تائهة ، بعضهم يئن من الألم ،وبعضهم يتمتم بصوت خفيض ؛ واستلقى الباقون على الأرض كالأموات .

وبدوا لعينى كأنهم حقيقة جثث هامدة ...

* * *

وتزايد المطر فى إصرار حتى غدا سيلا فى برودة الثلج ؛ ونظر اليوزباشى أوجدن إلى السماء القاتمة ، وقد أطبقت على الوادى فحجبت التلال المجاورة لنهر ولز ، ثم اقترب من روچرز وقال له : أتعنى أن حفنة من الجرذان القذرة حملت إلينا الطعام هذه المسافة كلها ، ثم لم تنتظر مجيئنا ؟

قال روچرز : بل انتظرونا ! انتظرونا إلى اللحظة التى سمعنا فيها طلقاتهم ... بل انتظرونا حتى سمعوا طلقاتنا ردا عليهم .. وقد تكون طلقاتنا هى السبب فى عودتهم ! فلعلهم ظنونا أعداء ، أو لعلهم لم يسمعوها ، لأن الرياح كانت تهب من ناحيتهم إلينا ... ولا أستبعد أنهم أطلقوا الرصاص وهم يغادرون المكان !

www.ibtesama.com

قال أوجدن : أيعودون ويتركوننا نموت جوعا هنا ؟ أيفعلون بنا ذلك بعد كل ما جرى لنا ؟

وكنت أرقب روجرز فى تخاذل ، فرأيت فى وجهه مظاهر غضب شديد ، خيل إلى أنه افتعله ليستر شعوره الحقيقى باليأس ، لعلمه بأنه لو سمح لهذا اليأس أن ينعكس علينا ، ويتملك نفوسنا ، لكان مصيرنا الموت جوعاً كما قال أوجدن .

صاح روجرز يقول فى خشونة : لا .. وعليهم اللعنة ! لا تكن غبيا .. فهم ما زالوا على بعد ميل على أكثر تقدير ، ولا بد أنهم سمعوا طلقاتنا كما سمعنا طلقاتهم ، ولسوف يعودون.

فصاح أوجدن يقول : إذا كان الأمر كذلك ، فلماذا لا يردون على طلقاتنا ؟ إن القانون يحتم عليهم أن يجيبوا على طلقات المفقودين متى سمعوها .

وأمسك روجرز بذراع أوجدن يهزها ويقول : قلت لك إن الطعام سيعود ... سيعود إلى هنا ..

ورفع صوته عاليا يقول : إنى أضمن لكم عودته ، فاطمئنوا إلى كلمتى ... والآن أيها اليوزباشى أوجدن هيا بنا نسير جميعا إلى الحصن ، ونوقد النار ... هيا ... هيا .. أقم الرجال على أقدامهم وسر بهم إلى القلعة .

وأجابه أوجدن بنظرة صامتة ..

كنت أعرف ما يعتمل فى نفسه ؛ فقد بقينا فى الجحيم

www.ibtesama.com

يوما بعد يوم بأمل الوصول إلى هذا المكان الذى يرمز إلى النعيم ، ثم جئناه بعد أن فتك بنا الجوع ، فإذا بنا نجده قاعا صفصفا ، ليس فيه سوى نذر اليأس والهلاك .

وحلقنا فى الصاغ بدورنا كما حلق أوجدن ، فرأينا فى نظرته التى شملنا بها جميعا سخرية بنا واستصغارا لشأننا .

ولم أدرك أنه لم يعطهم تأكيداته بقرب عودة الطعام إلا كآخر سهم ينقذهم به من اليأس ، حتى رأيته ينهال عليهم ضربا وركلا ، لينهضوا على أقدامهم واقفين .. وكان يصيح بهم حينئذ قائلا : هيا .. قفوا على أقدامكم ! .. اصعدوا الربوة .. هيا إلى القلعة .. أوقدوا نارا عظيمة ... ألا تريدون الدفء على الأقل ؟ هيا قفوا ! .. هيا ! هيا !

وجعل يجذب الرجال من أذرعهم ، ويشدهم ليقفوا على أقدامهم ، وهو يقول مرددا : هيا قفوا .. إلى القلعة والنيران ! ... إنه مكان مريح على أى حال .. هيا قفوا .. هيا .. هيا ..

وظل يسوقنا ويصيح فينا ، ويجذبنا ويدفعنا ، حتى صعدنا الربوة ، ودخلنا أسوار الحصن المهدم .

وبهذه الكلمات الخشنة والهمسات المبتورة ، استطاع ذلك القائد الباسل أن يجمع رعيته من الهيا كل البشرية المتداعية ، ويعيد إليهم بعض مظاهر الحياة .

www.ibtesama.com

قال لاهثا : سأقوم بواجبى ، وعليكم أن تقوموا بواجبكم ، لقد نلتم من الطعام نصيبا كنصيبى ، وستقفون على أرجلكم كما يقف الرجال ، وتؤدون واجبكم على أتمه ، وإلا فضحتكم فى طول البلاد وعرضها . أنتم متطوعون فيجب أن تسلكوا مسلك المتطوعين ... الطعام آت لا ريب فى ذلك ... وأنا لم أحنث بوعد قطعته لكم على نفسى ... لقد وعدتكم بإحضار الطعام ... وعلىّ أن آتيكم به فى أقرب وقت . فحاولوا أن تخلقوا من هذا المكان مأوى صالحا لإقامتكم حتى أعود به إليكم ... لقد بتم على حال لا تستطيعون معها السير ، ومن حقكم أن تستريحوا ما دمتم عاجزين مرهقين .. فهيئوا هذا المكان للراحة ، واجعلوه صالحا لإقامتكم ...

وتوقف عن الحديث كأنه على وشك الانهيار لفرط التعب والإنهاك ، ونظر مليا إلى السور المتهدم والحصن المتداعى ، ثم عاد يقول : نظفوا هذا البيت .. إن أخشابه بالية من الناحية الجنوبية ، فاخلعوها من مكانها ، وأوقدوا بها نارا أمام الواجهة ، اجعلوا موقد النيران طويلا ، ولا تستهلكوا سوى الخشب البالى فقط ؛ أما السليم فأبقوا عليه لأننا فى حاجة إليه ... هيا ... لينهض القادرون على العمل ... دعونا نر منكم من لا يزال يستحق لقب المتطوع ...

www.ibtesama.com

دعوا العاجزين وشأنهم ... فلا يهمني إن هم رقدوا إلى ما شاء الله ..

وسار إلى باب الحصن الخشبي ، ثم وقف مستنداً إلى جانب منه ، وجعل يفحص المكان من الداخل .

وقام جيس بتشام ، وقد احدودب ظهره ، وغطى الشعر الأبيض وجهه ، ثم سار خلف روجرز ، وهو يئن لفرط ما به من ألم .

قال له روجرز : أترى هذه المحفة الخشبية ؟ اضغط بها على الحائط الجنوبي حتى تهدمه ، ثم اسحب المحفة بعيداً ، وأوقد نيرانك .

واستدار ينظر إلينا بعينين غائرتين .

ولم يبق رجل في مكانه ، حتى أندرو ماكنيل الذي كانت يداه على أشد ما تكونان من التقيح ، نهض هو الآخر يتعثر نحو الحصن الخشبي .

قال روجرز : هـذا جميل ! تولّ أيها اليوزباشي أوجـدن مسألة الحصن ، وأنتما أيها الملازمان آفرى وجرانت ، خذا بقية الرجال إلى السور ، واخلعوا ما به من أخشاب بالية ؛ أما السليمة فدحرجوها إلى الشاطئ ، لأني أريدها هناك .

www.ibtesama.com

وفرك عينيه بيديه ، وكانتا من الغور بحيث تعلقت قطرات المطر بجفنيهما المتهدلين .

... قال : اصغوا إليّ ... إنى فى حاجة إلى من يعاوننى ، وسآخـــذ معى اليوزباشى چاكوبز وتاون وبيلى وبوب وكونكاپوت .

وقمنا مبتعدين عن الجماعة ، وسرنا نحن الخمسة نتعثر وراءه منحدرين إلى الشاطئ ، ثم إلى نهاية السهل عند ملتقى النهرين ، وكانت أرضاً منخفضة بها ماء رقراق ... وظل روجرز طول الوقت يتحاشى النظر إلى الشاطئ المقابل الذى أطفأت الأمطار بقية ما كان به من نيران .

وركع روجرز على ركبتيه عند حافة الماء ، وجعل ينبش الأرض بأصابعه وسط مجموعة من النباتات الجافة ذات الأوراق المثلثة ، ثم نزع من وسطها حزمة من الجذور تبدو كثمار البطاطا الصغيرة ، وعرضها علينا ، ثم قال يسأل اليوزباشى چاكوبز : أتعرف هذه النباتات ؟

وهز چاكوبز رأســـه نفيا ، وكذلك كونكاپوت وبيلى وبوب

قال : عظيم ! إنها جذور نبات اسمه الكاتنيس ويمكن أكلها عند الضرورة القصوى ، ولكنى لا أوصي بها ... نعم هى جذور الكاتنيس ...

وكررنا الاسم بعده ، وقطع كونكاپوت من الحزمة بعض ورقاتها ، ورفعها إلى شفتيه ، ولكن روجرز أخذها منه وقال : لهذا السبب لا أوصى بها الرجال الجائعين .. فالجوعان يتسرع عادة فى التهامها ، وهنا الخطر ! لا تأكلها كما هى وإلا أحرقت معدتاك .

وحملقنا فيه مبهوتين .

قال : هيا انبشوا الأرض ، واجمعوا ما استطعتم من هذه الدرنات ، ولكن احذروا أن تأكلوا الآن شيئاً منها ،

ورحنا نخوض المستنقع نبحث عن الدرنات ونقتلعها ، ومضينا فى هذا العمل حتى لم يبق بالمستنقع شىء منها ..

قال روجرز وهو ينظر إلى كومة الجـــذور : هذا لا يكفى ، ونحن فى احتياج إلى كمية أخرى .

والتفت إلى چاكوبز وكونكاپوت يقول : أتعرفان التواهو ؟

وأجابا بالنفى ...

قال متضايقا : ولكن نساءكم يعرفنه ... لمَ لا تصغون أحيانا لأحاديثهن ؟

وحملنا كومة الدرنات من الماء إلى الشاطئ ، وهناك انحنى روجرز على أطرافه الأربعة ، وجعل يزحف بين

www.ibtesama.com

الحشائش الرطبة التى هرأها الصقيع ، كأنه كلب صيد يبحث عن أرنب ضائع .

وشققنا طريقنا وراءه وقد نكسنا رءوسنا تحت وابل المطر المنهمر .

وتوقف روجرز فجأة ، وجعل يحملق فى حزمة من الأوراق الطويلة الرفيعة تبرز من وسطها نورة عالية . وكان منظره أشبه بكلب صيد قذر منهك لا يستطيع مقاومة غريزة الصيد حتى آخر لحظة من حياته .

قال : هذا هو التواهو أو زنابق النمر .

وسحب سكينه وارتكز على مرفقيه ، وجعل يشق الأرض تحتها حتى استخرج بصلة كبيرة فى حجم التفاحة .

قال : هذا هو التواهو ! لا تأكلوها نيئة وإلا قتلتكم ... ادفنوها مع درنات الكاتنيس تحت عمق قبضة من التراب ، وأشعلوا النار فوقها طول الليل ، فيزول سمها . وفى الصباح أخرجوها وكلوا منها ، ولسوف تمدكم بشىء يقيم الحياة .

وبهذه الكلمات بدأنا زحفنا وراء أبصال زنابق النمر ، كأننا ماشية تسعى وراء ما يسد رمقها ؛ ولقد كنا بالفعل كالماشـــية ... لا ذكريات للماضى ... ولا آمال فى المستقبل ... كل همنا أن نأكل لنعيش .

* * *

www.ibtesama.com

وعدنا إلى الحصن بدرنات الكاتنيس وأبصال زنابق النمر ، فوجدنا الحائط الجنوبي كله قد أزيل من مكانه ، والنار يندلع لهيبها بطول الفتحة التي خلفها الحائط .

وكان أوجدن واقفاً يحرك النيران ، فلما رأى الدرنات ، لعق شفتيه .

قال روجرز : أين جرانت وآفرى ؟

أجاب أوجدن : نائمان . . . جميعهم نيام كالأموات . .

ثم أردف يقول وهو يزدرد لعابه : أتصلح هذه الأشياء للأكل ؟

وهز روجرز رأسه نفيا وقال : ليس الآن . . . ما عدد الكتل السليمة فى الخشب الذى خلعتموه ؟

أجاب : اثنتا عشرة كتلة . . .

قال روجرز وقد بدا عليه الارتياح : ساعدنى أيها اليوزباشي على حفر خندق طويل ندفن فيه ما أتينا به من بطاطس الكوهيز ! وهذا آخر عمل نقوم به الليلة .

والتفت إلى اليوزباشي چاكوبز وكونكاپوت يقول : إذا كنتما تأنفان من حفر الأرض معنا ، فلا أقل من أن تخرجا إلى الغابة بحثاً عن صيد . .

ودلف الاثنان خارجين كأنهما هيكلان عظميان محطمان .

www.ibtesama.com

وبدأنا أنا وروچرز وأوجدن نحفر فى الأرض خندقا طويلا ، وجعل الصبيان يرفعان التراب وراءنا ، حتى انتهينا من الحفر ، ودفنا الأبصال فى الخندق ، وكومنا الجمر فوقها .

قال روچرز وهو يجلس القرفصاء : بديع ! ستمنحنا هذه الأبصال من القوة ما نحتاج إليه فى بناء العائمة .

وردد أوجدن الكلمة ، وقال بغباء : عائمة ! عائمة !

قال روچرز : وهل أستطيع بغيرها أن أصل إلى القلعة رقم ٤ ؟ لقد عادت مئونتنا إلى رقم ٤ ، وعلى أن أستعيدها ولو كلفنى الأمر حياتى . . . ولسوف أسوى حسابى مع أولئك الجرذان الذين عصوا أوامرى ، فلم يأتوا إلى المكان الذى حددته لهم ... إنهم لم يصلوا إلى مصب الأمونو أوزاك كما أمرت . . . إنما جاءوا إلى الضفة الأخرى من النهر ، حيث رأينا نيرانهم اللعينة ، وعلى ذلك لا بد لى من الذهاب إلى رقم ٤ .

فقال أوجدن بحدة : إنها تبعد ستين ميلا ، أيها الصاغ ، ولن تستطيع الوصول إليها وحدك .

قال روچرز بهدوء : سآخذ بيلى معى ، وربما اصطحبت رجلين آخرين على سبيل الاحتياط . . . هذا إذا وجدت من يقبل الاشتراك معى فى هذه المخاطرة .

www.ibtesama.com

قال أوجدن فى تأن وروية : حسنا ! أعتقد أننى قادر على الذهاب معك .

وقلت أنا : واعتقد أننى قادر على مرافقتك أيضاً .

وظننته لم يسمع حديثى ، إذ كان يقف ساهما يدلك بيده ظهر يده الأخرى ، فتنفصل القذارة فى فتات مستدير ، انكشف تحته أثر رصاصة قديمة التأم جرحها على شكل نجمة حمراء . .

وأخيرا نظر إلىّ وقال فى ابتسامة متعبة : جميل ! ولسوف نصنع منك متطوعا فى يوم من الأيام .

www.ibtesama.com

الفصل التاسع والثلاثون

مضت بقية ذلك اليوم ، كما مضى اليوم التالى كحلم مزعج : فالأمطار تنهمر فى ستار رمادى على أشجار معتمة وجبال داكنة ، والنهر العكر يجرى وسط أرض قاتمة ، والسهول الموحلة تبدو فى لون قذر يقبض النفوس .

ورقدنا بقية اليوم الثالث والعشرين فى شبه غيبوبة ، وفى باكورة الرابع والعشرين أخرجنا الأبصال والدرنات الساخنة ، ووزعناها بيننا بالتساوى ، فكان نصيبى أربعا منها فقط ، مع أننى كنت قادرا على التهام زكيبة منها ... ولو أن خبيرا بالطعام الفاخر رآها ، لتقززت نفسه منها ، ولكننى لا أعرف خبيرا ذاق ما ذقناه من جوع .. ولو أن أكثر الناس تخصصا فى التهام الأطعمة اللذيذة تعرض لما عانيناه من مسغبة ، لوجد فيما تمجه النفوس عادة من طعام — كلحم الكلاب والخيل ، أو الحيات والنوارس ، أو القطط الوحشية ، أو المنتن والسمك النيئ — ألذ ما فى الدنيا كلها .

وكرس روچرز ذلك اليوم بطوله للترفيه عن رجاله : فما إن انتهوا من التهام التواهو والكاتنيس ، حتى طلب منهم

www.ibtesama.com

أمرا عظيما ....طلب أن يتزينوا ويحلقوا لحاهم ويقصوا شعورهم ، ويشذبوا شواربهم ..

قال : أحب ، حين أحضر الطعام ، أن أراكم فى مظهر لائق .. إنى لا أكاد أعرف أحدكم من الآخر .. وإذا استمرت الحال على هذا المنوال ، وازداد شعوركم عمقا فى أثناء غيبتى ، فقد يظنكم من يأتون معى قططا وحشية ، فيلقمونكم بدل الطعام رصاصا من بنادقهم .

وكانت مهمة شاقة أن يتحرك الرجال من مكانهم إلى الشاطئ ، وكان أشق منها أن تجعلهم يغسلون وجوههم بالصابون الذى لولا طعمه الكريه ، ما ترددوا فى التهامه منذ وقت طويل . وكانت خيبة آمالنا فى أمسنا قد سلبت الرجال قواهم ، وشفراتنا علاها الصدأ لطول عهدنا بإهمالها ، إذ لم نكن قد أخرجناها من قُرُبها منذ الثالث عشر من شهر سبتمبر ، فضلا عما أصاب اللحى من تلبد بالحصى والرمال والقاذورات ، مما يعوق الحلاقة ، ويجعلها عذابا أليما .

ولما انتهى الرجال من غسل وجوههم الدامية ، وقص شعورهم الطويلة وتشذيبها ، أصبح منظرهم يدعو إلى غاية الدهشة ، إذ بدت الرءوس المقصوصة كالجماجم العارية ، وانكشف نحول الوجوه وضمورها المخجل بعد إزالة اللحى

www.ibtesama.com

عنها ... ومع ذلك فقد بعثت عملية التزيين فى الرجال روحا جديدة ، وجعلتهم يستعيدون شعورهم بآدميتهم رغم كل ما أصابهم .. وحين طلب منهم روچرز أن يعودوا إلى البحث عن أبصال الزنبق ، استطاعوا أن يجمعوا منها أضعاف أضعاف ما جمعناه فى اليوم السابق .

وسمح لهم روچرز بالعودة بعد ذلك إلى الكوخ الخشبى ، وهناك قضوا المساء راقدين بين نوم ويقظة . وبينما المطر يهطل فى الخارج مدرارا فيعلو له دوىّ على السقف الخشبى ، كان روچرز منهمكا فى حديث جدى مع آقرى وأوجدن وجرانت .

قال فى صوت مرتفع يقصد أن يصل إلى أسماع الرجال الآخرين : طبعا سأعود بالطعام فى مدى عشرة أيام ، ولكم أن تطمئنوا إلى وعدى . . . وإذا لم يوفقكم الحظ إلى غزال أو بقرة وحشية ، فأمامكم هذه الزنابق تقتاتونها ، وتأكدوا أنكم لن تصادفوا فى هذا المكان متاعب ذات بال .

والتفت إلىّ يقول : لقد أخبرتنى يا تاون ، ونحن فى كراون پوينت ، أنك درست الإنجيل ، أفلم تقل لى إن الإنجيل يروى قصة رجل سار أربعين يوما بلا طعام أو شراب ؟

قلت فى تثاقل : أربعون يوما ؟ . . أربعون يوما ؟ . .

www.ibtesama.com

أجل . . . أظن أننى قرأت فى الإنجيل قصة رجل صام أربعين يوما . . . ولكنى لا أذكر من هو . . . قد يكون عيسى أو موسى أو ليشع . . . أولعلهم جميعا صاموا أربعين يوما . . .

صاح روجرز بلهجة الفوز والانتصار : أسمعتم ؟ أسمعتم جميعكم كلامه ؟ يقول تاون إن فى الإنجيل رجالا ساروا أربعين يوما دون أيسر طعام . . . دون أن يأكلوا جذورا مشوية مثلكم ، ولا درنات الكاتنيس اللذيذة ، ولا أبصال التواهو الغضة . . . لا ياسادة . . . لم يتذوقوا شيئاً من هذا كله . . . هل تذوقوا شيئا منه ياتاون ؟

ونشط الحديث عقلى الراكد ، فأسعفتنى ذاكرتى ببعض آيات من الإنجيل ، وقد جاء فيها على لسان موسى انه سار أربعين يوما بلياليها دون أن يتناول خبزا أو يشرب ماءً .

وسألنى روجرز والحيرة تبدو على وجهه : خبزاً ؟ لم يتناول خبزاً ؟ هل يعنى هذا أنه كان يأكل البطاطس ، أو اللفت ، والخس ، والجرجير ؟

قلت أفسّر له الآية : لا . . لا . . . بالتأكيد لا . . . إن كلمة الخبز ترمز إلى الطعام بجميع أنواعه ، وهذا ما كان يعنيه موسى . .

وبان الارتياح عليه ، وقال بصوت عال : أتسمعون

www.ibtesama.com

ذلك ؟ إن موسى سار أربعين يوما بلياليها دون طعام أو ماء . . . طبعا لم يكن فى وسعه أن يسير طول ذلك الوقت دون ماء على الإطلاق ، فهذا فوق قدرة الإنسان ، وأنا لا أريد أن أوهمكم بالمستحيل ، ولكن موسى نبى ، والأنبياء لا يتكلمون إلاّ صدقا ، ولذلك أعتقد أن المعنى المقصود بحديثه أنه لم يشرب من الماء سوى قليل لا يروى عطشه . . . على كل حال هذا كلام الإنجيل ، ونحن لا نستطيع أن نناقشه ، إنما المهم أنه ظل أربعين يوما بلا طعام . . . أتصدق يا أوجدن ؟

قال أوجدن : أنا ؟ . . إنى . . .

وصاح روجرز قائلا : طبعا ! إن أوجدن يصدق هذا الكلام ، وجرانت يؤمن به وكذلك آفرى ، بل كلنا نؤمن به . . والأمر كما ذكر تاون عن موسى تماما . . . والآن قارنوا بينكم وبينه . . . انظروا إلى الماء الذى عندكم . . . تذكروا كيف لم يمض عليكم يوم واحد دون أن يجد كل رجل من الماء كفايته وأكثر . . حتى هذه اللحظة . . انظروا إلى الماء الذى لدينا . . ماء عذب من المطر المثلج الجميل . . . ترى كم كان يعطى موسى لقاء ملء كوب من هذا الماء البديع . . . ولا أقول ملء دلو منه ؟ تصوروا

www.ibtesama.com

البحارة حين تغرق سفنهم ، فيتعلقون بالأخشاب الطافية ، وتمضى بهم الأيام وهم على أتم الاستعداد لدفع أرواحهم ثمناً لقطرة ماء مما لديكم .. تذكروا موسى وليشع والبحارة الغرقى ، ثم احمدوا الله على أكداس التواهو الكاتنيس المشوية ...

وقاطعه جرانت بضحكة مكبوتة ، فانتقلت العدوى إلى الآخرين ، وإذا بالضحكات الخافتة تتردد هنا وهناك، ثم تعلو شيئاً فشيئاً ، حتى تحولت إلى ضحك جماعىّ حقيقى ، دوّى له بين أرجاء الكوخ الخشبى صوت كالرعد .

ومثل هذا الضحك يقلب الجحيم نعيما ، وهذا ما حدث بالفعل ، فقد زال شعور الرجال باليأس ، وحل محله هدوء واطمئنان ، وشعرنا أن الأرض التى قادنا فيها روجرز هذه المسافات كلها ، لم تكن أسوأ كثيراً من تلك التى قاد فيها موسى شعبه من بنى إسرائيل ، ومثلما قاد موسى قومه إلى أرض السلام ، سوف يقودنا روجرز أيضاً إلى نفس المصير .

www.ibtesama.com

الفصل الأربعون

توقف المطر عن الهطول فى اليوم الخامس والعشرين من اكتوبر ، فبدأنا نبنى العائمة . وشعرنا فى بداية الأمر أن نقل كتل الأخشاب الاثنتى عشرة من مكانها عبر السهل إلى النهر ، مهمة تفوق طاقتنا ؛ إذ كانت عضلاتنا ترتجف ثم ترتخى لأبسط مجهود ، وأيدينا تلين أمام الحمل الثقيل ، وأقدامنا تأبى أن تثبت على الأرض .

وكانت كل كتلة منها تقاوم حركتنا كأنما قدت من صخر ثقيل وأخيرا تعلمنا أن نصطف أمامها راكعين على ركبنا ، ثم نشدها وندحرجها نحونا ، فلا نكاد نحركها بوصات معدودات ، وكنا نخصص لكل كتلة خمسة رجال ، مع أن الرجل العادى يستطيع وحده أن يحركها بسهولة وبساطة .

وكُلِّف أكثر الرجال ضعفا ووهنا بأن يجمعوا فروع الصفصاف الغضة وجذور الحور الأحمر ، ليفتلوا من الجذور حبالا متينة تربط الكتل الخشبية بعضها ببعض ، ويجدلوا من الفروع لحمة لسداة الجذور .

وأقمنا بوسط العائمة بعض الفروع ، وثبتناها بالحبال ،

www.ibtesama.com

لتكون مقبضا نتشبث به فلا نسقط فى الماء ، ومشجبا نعلق عليه بنادقنا وبارودنا وأغطيتنا لتكون فى مأمن من البلل . كما صنعنا مجاذيف بدائية من الفروع المجدولة وربطناها معا بجذور الحور .

وسار العمل بطيئا بين أنين الرجال وهمهمتهم ، حتى خيل إلينا أنه لن ينتهى ؛ ولكنه انتهى بالفعل صباح اليوم السادس والعشرين ، وخرجت العائمة تطفو جيداً فوق الماء ، بفضل جفاف العروق الخشبية التى صنعت منها . وجلس بيلى مكان الكشاف فى المقدمة ، وتربع روجرز فى المؤخرة ، أما أنا وأوجدن فقد أخذنا الجانبين ومعنا المجاذيف نجربها ، فوجدنا العائمة على حال لا بأس به ، تطفو ثابتة ولا تميل كما يحدث عادة فى العائمات الصغيرة .

وفى اليوم السادس والعشرين قمنا بمحاولة أخيرة لصيد غزال أو قنفذ أو أرنب ، ولكننا لم نعثر على شىء منها .. ولعل التوفيق خاننا بسبب تبلد إحساساتنا ، أو تكون حركاتنا الخشنة قد أفزعت الصيد الموجود ، أو أن روح اليأس التى ترفرف على جماعتنا التعسة نشرت ظلها على المكان وجردته من كل كائن حى .

وعندما أرخى الليل سدوله ، وعاد اليوزباشى جاكوبز

وكونكاپوت صـــفر الأيدى ، قرر روچرز الإسراع بالرحيل ... وفى فجر السابع والعشرين خرج معنا آڤرى وجرانت حتى العائمة ، فى حين وقف الباقون وراءنا يتسكعون ، كأنهم قطيع ضال ؛ ولما وصلنا إلى حافة الماء استدار روجرز فجأة إلى جرانت وقال له : أتنْلُ علىّ الأوامر . .

قال جرانت وهو يحاول أن يقف منتصباً . إننى الرئيس المسئول هنا ، وعلىّ أن أبقى الرجال أحياء حتى يأتى الطعام ... سأجعلهم يجمعون الدرنات والأبصال بعد ظهر كل يوم ... وأرسل بعثات للصيد كل صباح .

وتوقف عن الكلام ، وجعل ينظر إلى قدميه فى جمود .

قال روچرز بحدة : أكمل الأوامر ! سواء أرضى الرجال أم لم يرضوا ...

قال : نعم ... سواء رضى الرجال أم لم يرضوا .

قال روجرز : ومهما كانت الفريسة ، فعليك أن تحتفظ بنصيب منها لفارنجتون وكورجيل وكامبل وأيڤانز ورجالهم ... إنهم أربعون رجلا يحتاجون إلى ما يأكلونه حين وصولهم إلى هذا المكان ، ولذا يجب أن يُحتفظ لهم بنصيب من الصيد ، أبقهم فى ذهنك دائما ... وإياك أن تدع أمرهم يغيب عن بالك ... هل فهمت ؟

www.ibtesama.com

وأومأ جرانت وآڤرى برأسيهما إيجابا ...

ثم عاد روجرز يسأله : أما من شيء آخر ؟

قال جرانت : وإذا عدت بهؤلاء الرجال سالمين ، فسوف تمنحنى رتبة اليوزباشى .

فقال روجرز : أريد تلاوة الأوامرفقط ، أيها الملازم ! لا تحاول التفكير فى غيرها ! ما هى بقية أوامرى ؟

كان الرجال يقفون فى ضوء الفجر الرمادى على حافة الشاطئ وهم يرقبون روچرز بعيون متبلدة وشفاه مدلاة وقامات مقوّسة .

وحك جرانت وجهه بأصابع كالمخلب ، وقال : علىّ أن أبقى هنا عشرة أيام ، وأن أخبر فارنجتون وكورجيل وكامبل وإيڤانز بأنك عائد فى بحر تلك المدة .

قال روجرز : عشرة أيام ابتداء من اليوم .

فردد جرانت قوله : نعم . . . ستعود بعد عشرة أيام ابتداءً من اليوم .

وعاد روجرز يقول : سأعود إليكم بعد عشرة أيام من اليوم ، وبعد هـــذه الأيام العشرة ، سيكون لكم كل ما تريدون من طعام .

فسأله آڤرى : وماذا نصنع إذا لم تعد ؟

www.ibtesama.com

أجاب : لقد سمعت قولى ، ولسوف أعود ! ليس عليكم سوى الانتظار ! الانتظار فقط ؟

وأشار إلىّ وإلى أوجدن والصبى الهندى أن نعتلى العائمة ، فلما ركبنا ، دفعها إلى المياه العميقة وتعلق بها ، ثم صعد إلى مؤخرتها ، وقال لأوجدن : ادفع بها إلى وسط النهر .

وخرجت العائمة إلى التيار ، ولم ينبس واحد من الرجال التعساء المرتمين على الشاطئ بكلمة ، وظلوا يحملقون فينا ونحن نبتعد ، ثم تبعتنا عيونهم المجهدة بنظرات جامدة ، فيها لهفة وإرهاق ... ولعلهم كانوا يفكرون فى ذات الخاطر الذى يجول برأسى : ترُى ، هل يُقدّر لهذه العائمة الحقيرة الصغيرة أن تظل متماسكة أمام شدة التيار الذى يجرى وسط النهر ؟

وجعلنا نوالى ضرب الماء بمجاذيفنا الشبكية ، ولكن الماء كان ينفذ منها دون أن تتأثر العائمة بجهودنا ، فاضطررت إلى الركوع على ركبتى ، حتى لا أنزلق من حافة العائمة .

قال روجرز : لقد اتزنت الآن ، فدعها تسير !

وتوقفنا عن التجذيف ، وراحت العائمة تدور فى بطء ، ثم أخذت تسرع بالتدريج سائرة مع التيار .. وفوجئت بأن المسافة التى تفصلنا عن الرجال ، تزداد

www.ibtesama.com

بسرعة ويغشاها ضباب خفيف . ولمحت بعضهم ينحنى على الأرض كالدببة ، وبدا الباقون فى أشكال شوهتها المسافة المتزايدة ، فصارت عجيبة ضخمة ، لا تمت إلى الآدميين بصلة ...

كانوا كقطيع من حيوانات عاجـــزة تزحف فى أقفاصها ، أو حفنة من السجناء لا حول لهم ولا قوة .

* * *

وتسرب الماء من بين الكتل الخشبية ، وتطاير رذاذه علينا عندما تماوجت العائمة فى منحدر سريع الاندفاع . كنا على أسوأ حال : إذا وقفنا أصابنا الدوار ، وإذا رقدنا ابتللنا بالماء ، وشعرنا بالبرد يكاد يجمد أجسامنا . كنا نتناوب إمساك المِدْرأة ، وعندما نتحرك من أماكننا لهذا الغرض ، نشبك أذرعنا فى الحبل الوسط كأننا مصلوبون . وقد يدفع التيار العائمة صوب أحد الشاطئين ، فنجذف بشدة كالمجانين ، حتى تعود إلى مكانها من وسط النهر .

وكثيراً ما كانت العائمة تدور حول نفسها وتتلوى . تارة نواجه مصب النهر ، وتارة منبعه ... وعندما ينحرف مجرى الماء يدفعنا التيار إلى الشاطئ ... نطفو مرة بين سهول ، وأخرى بين شاطئين صخريين قائمين كجدارين مرتفعين .

www.ibtesama.com

كانت السماء فى لون اللبن ، وضوء الشمس لا يصل إلينا أكثر مما يصل إلى كهف مهجور ، وبرودة الهواء المريرة تنفذ مع كل نفس ألتقطه ، فترسل فى مآقى آلاما حادة ... حتى خيـــل إلى أننا نمر فى وادٍ من جليد غير منظور .

قال روچرز : إن الجو ينذر ببرودة قارسة ، فعلينا إذا ما هبطنا الشاطئ للمبيت ، أن نربط العائمة فى ماء جار ، حتى لا يتجمد ما حولها فلا نستطيع الخلاص بها من الجليد .

ولما حل المساء هبطنا شاطئاً رمليا يجرى بجانبه نهير صغير ، وحاولنا عبثاً أن نثبت العائمة فى الماء الجارى ، وذهبت جهودنا سدًى ، مما اضطرنا إلى إرسائها فى ماء ضحل ، ولم يتحدث روجرز ولا أوجدن بما قد يحدث لو تجمد الماء حولها أو أخذها التيار فى أثناء الليل ، بل إن واحداً منا لم ينطق بكلمة ، إذ لم يكن هنـــاك داعٍ للحديث ... ولكنى كنت على يقين بمصيرنا إذا وقع هذا الأمر أو ذاك .

قال روچرز : إن أفضل ما يمكن عمله الآن ، أن نقطع خشباً نوقد به النار ، ونقيم سياجا من الحشائش ، ثم نصنع

www.ibtesama.com

حبلا بطريقة ما لأربط العائمة بأحد طرفيه ، وأثبت طرفه الآخر حول وسطى .

وكانت طريقة النار والسياج تعمل عندما يخشى خطر التجمد : فالسياج يقام من الحشائش بارتفاع قدمين ، والنار توقد أمامه ، فتصير المسافة بين الاثنين دافئة طالما النار موقدة .

وبدأنا نوقد النار ونقيم السياج ، وذهب بيلى يجمع الأغصان الرفيعة الغضة ... وفى دفء النار جدلنا من الأغصان حبلا يصل إلى العائمة ، وربطنا طرفه فى عمودها الأوسط ، ولف روجرز طرفه الآخر حول خصره .

كانت ليلة مريرة البرد كما تنبأ روچرز ، فما إن انتهينا من قطع الحشائش للسياج ، وبدأنا نقطع الأخشاب للنار حتى بدأت متاعبنا ؛ إذ تجمدت ملابسنا المبتلة وتصلبت من شدة البرد ، وصار العمل بالبلطة عسيراً شاقا ، مع أن المجهود يبعث الدفء فى الأجسام . كانت ضرباتنا بطيئة متباعدة ، وأمكننا بعد عناء أن نسقط شجرة ميتة جافة ، فلما انتهينا منها انتابنى شعور بالضعف ، وأدركت السر فى بكاء النساء بعد انتهائهن من عملهن المضنى أمام طست الغسيل ، الذى يقصم الظهر .

واحترقت الشجرة عن آخرها قبل طلوع النهار ، وكان

www.ibtesama.com

من العسير علينا أن ننهض فى مثل تلك الساعة ثم نحرك أقدامنا بعثا للدفء ؛ فجعلنا نلتف فى أغطيتنا ونقترب من بقايا النار شيئاً فشيئاً ، حتى إذا أصبح الصباح كنا نرقد بالفعل فوق رمالها .

ولم تتركنى الأحلام المفزعة طول الليل ، وكانت حلما متصلا لا يتغير فى جوهره : فالعائمة قد أفلتت من مرساها ، واندفعت مع التيار بعيدا عنا ، وفوقها كومة من جثث الهنود تغطيها آلاف من العيون البيضاء المحملقة فى الفضاء . . ورأيت قبل أن أصحو من النوم مباشرة چون سنجلتون كوپلى يشير إلى تلك الجثث المغطاة بالعيون المحملقة ثم يعلمنى كيف أرسم أمواج النهر ، لا بفرشاة ، وإنما بمجـــذاف مغموس فى الدماء ! !

* * *

استمر الصقيع المرير إلى صباح اليوم الثانى ، فاضطررنا إلى المثابرة على إزالة الجليد المتراكم فوق كتل العائمة ، حتى لا ننزلق فوقه فنسقط فى الماء ؛ ولكننا قطعنا رغم ذلك مسافة طيبة ، وصلنا إلى شلالات هوايت ريفر على نهر كونيكتيكات عند الظهر . وكان وصولنا تكتنفه الأخطار إلى أبعد حد . . . إذ كان روچرز غير واثق من متانة العائمة وقدرتها على المرور من تلك الشلالات ، ولذلك ظل ينبهنا

www.ibtesama.com

فى صرامة إلى وجوب الاحتراس .. وجعل يكرر تحذيره بصوت رتيب ، وبين وقت وآخر يقول : احترسوا من الشلالات ! احترسوا من الشلالات ! حتى صارت تلك الكلمة تطن فى أذنى طول الوقت ، وتصورت أن خرير الماء وضربات الأمواج تقول هى أيضا : احترسوا من الشلالات ! احترسوا من الشلالات !

أما كيف نجونا بأرواحنا من وحشية تلك الشلالات ، فأمر لا أستطيع إدراكه ... فبعد أن كان النهر أمامنا هادئا واسع المجرى ، سمعنا بيلى يصيح بصوت حاد رفيع : فإذا بروچرز يقول : جذفوا ! جذفوا بشدة ! إلى اليسار ! ادفعوا العائمة نحو اليسار !

ورأيت سحابة من ضباب أبيض تصعد من بين الرذاذ ، ومن تحتها المياه تفور وتهدر ، وهى تتسابق فى سرعة مخيفة .

واندفعت فى تحريك المجداف الضعيف بأقصى قوة وسرعة ، حتى خلت أن عينى ستقفزان من محجريهما ، ووصل إلى أذنى صوت أوجدن خشنا مكتوما ، ورأيت روچرز راكعا على ركبتيه يعمل بالمدرأة فى نشاط جنونى .

واهتزت العائمة ، وانخفضت مقدمتها ثم ارتفعت ، ودارت حول نفسها فى سرعة مفزعة ؛ ومن أمامنا تعالى

www.ibtesama.com

هدير النهر وهو يهبط من منسوبه المرتفع إلى مجراه التالى العميق . وكان الشاطئ قريبا ، ولكنه لم يكن من القرب بحيث نستطيع الوصول بالعائمة إليه قبل أن تدرك الشلال .

وصرخ روچرز يقول : خذوا البنادق واقفزوا ! خذوا كل شيء ! خذوا أشيائى معكم واقفزوا !

وحاول أن يوقف العائمة بوضع المدرأة فى قاع النهر ، ولكن الضغط العظيم كسرها فى قرقعة مسموعة .

وخطفت أنا وأوجدن البنادق والأغطية والبارود من مشاجبها بوسط العائمة ، وقفز بيلى كسهم أسود وسط التيار الداكن المثلج . وأحسست بجسدى يصطدم بالماء القارس ، ثم بصخور غير مستوية تحت قدمى ، ثم بالماء يغمرنى وأنا متشبث بحمل ثقيل من البنادق والأغطية ، مفروض علىّ أن أنقذها من الضياع سواء أغرقت فى سبيل ذلك أم نجوت .

وإذا بيد تمسك بقميصى وتقيمنى على قدمىّ . لقد لحقنى روچرز كما لحق أوجدن .

وعندما وصلنا إلى الماء الضحل قريبا من الشاطئ ، أخذ بيلى حمولتنا من البنادق والأغطية . وبعد لحظات كنا جميعا نقف على الشاطئ الموحل المثلج ، وهدير الشلالات يدوى فى آذاننا ، ويملأ نفوسنا بالحزن والأسى .

وصاح روچرز يقول : انظروا !

www.ibtesama.com

كانت العائمة تسير وسط المياه المنحدرة ، وقد ارتفع جانب من جوانبها ، ثم انقلبت رأسا على عقب . وطفت مرة ثانية بعد أن انشطرت إلى ما يشبه رقم ٧ ، وانفصلت كتلة منها ، وظلت طافية على الماء . . وسرعان ما تفككت الكتل الباقية ، وجعلت تتقلب وتتمايل إلى أن وصلت إلى حافة انشلال ، ثم اختفت إلى غير رجعة .

قال روچرز : من حسن حظنا أن تركنا العائمة فى اللحظة المناسبة . . هذا بشير خير !

www.ibtesama.com

الفصل الحادي والأربعون

أذكر أنني سمعت ذات مرة حكمة تقول : إن الصائم يفقد شهوته للطعام بعد ثلاثة أيام من صومه ، فإذا أكمل ثلاثين يوماً ، يزول تعبه ويصفو عقله ويتطهر بدنه ، وتزيد مقاومته إلى ما لا نهاية له تقريباً ؛ ولكنى لا أومن بهذه الحكمة ، ولا أعترف بفوائد الصوم ، ولا أظن أننى سأصوم يوماً بعدما عانيته مع الصاغ روبرت روچرز فى أثناء حملة سانت فرانسس .

فبعد أن رأينا الماء يبتلع كتل العائمة عند حافة الشلالات ، جررنا أنفسنا على الشاطئ جراً ، وارتمينا على الأرض كالجثث الهامدة . وحتى روچرز غلبه الإجهاد فاستلقى على ظهره مدة قصيرة ، ثم قام على ركبتيه وقال : هذا المكان لا يصلح لإقامتنا ، فلن نستطيع البقاء دون نار وإلا تجمدنا من البرد . لا بد أن هناك كثيراً من الأخشاب والوقود عند مهبط الشلالات .

ووقف يتمايل ثم قال : هيا بنا إلى الشاطئ المنخفض عند المهبط !

www.ibtesama.com

وتحاملنا على السير وراءه ، فإذا الشاطئ يمتلئ فعلا بالأخشاب وجذوع الأشجار ، ولكنها لم تكن تصلح لبناء العائمات ، إذ كانت جذوعا من الخشب الصلب أو المتعطن ، رقدت بين صفوف من الفروع والأغصان وشظايا أشجار الصنوبر المختلفة حجما وعمراً ؛ وكلها مهشمة بفعل جليد العام السابق .

وصعد روچرز كومة من هذه الأخشاب ، ثم قال وهو يهز رأسه : كل ما نستطيع عمله اليوم ، أن نوقد ناراً نستدفئ بها ، وغدا نفكر فيما هو أفضل من ذلك !

وبنينا سياجا من الحشائش كسياج اليوم السابق ، وأقمنا ناراً عظيمة من قطع الخشب ، وخلعنا ملابسنا المبتلة المهلهلة ، ونشرناها مع الأغطية أمام النيران لتجف ، وكانت الملابس والأغطية فى حال يرثى له من التمزق والرتوق ، حتى لتبدو عديمة الفائدة فى ستر الأبدان وتدفئتها .

وكانت أجسامنا العارية لا تقل سوءاً عن ملابسنا ، حتى لقد خجلت من النظر إلى روچرز وأوجدن ، حين رأيت جسديهما أشبه برسم كاريكاتورى لما يجب أن تكون عليه أجسام الرجال ، أو كأنهما تمثالان نحتتهما يد مثال لا يفقه شيئاً فى علم التشريح ، عضلات رفيعة كعضلات

www.ibtesama.com

القطط البرية ، ورُكب ومرافق مدورة فى عقد كبيرة ، وبطون ضامرة مجوفة ، وضلوع بارزة كسلسلة فقرية لسمكة متحللة لفظها البحر على الشاطئ .

كانت الندوب تغطى جسم روچرز : بعضها أحمر ، وبعضها أزرق ، وبعضها أبيض . . . منها ما يشبه أثر الرصاص ، ومنها ما يبدو كأنه ضربات مخالب أو نهشات أنياب ، أما جسد أوجدن فلم يكن به سوى أثرين لرصاصتين حديثتين ، لونهما أرجوانى ملتهب ، وحولهما دائرتان قرمزيتان .

ولما جفت الخرق التى نسميها ثيابا على المجاز ، ارتديناها وتقاربنا حول النيران ، نصغى لشلالات هوايت ريڤر وهى تهدد بلا انقطاع . . وبعثت النيران فى جسدى دفئا مخدّرا ؛ وملأ دوىّ الشلالات مسمعى فلزمت مكانى ساهما ، لا يهمنى إذا كنت أستطيع التحرك غدا ، أو لا أستطيع . . .

* * *

كان من حسن حظنا أن تحطمت العائمة عند شلالات هوايت ريڤر ، فلولا هذه المساقط ، ما وجدنا كميات وفيرة من حطب الوقود ، ولو أننا نزلنا ببقعة أخرى

www.ibtesama.com

نضطر فيها إلى قطع أخشاب للنار ، لكان من المحتمل أن يقضى علينا البرد والإجهاد ، إذ كانت قوانا نفدت بعد الجهد المضنى الذى بذلناه فى العائمة ، ولم يعد فى طاقتنا أن نضرب بلطة أو نكسر جذع شجرة . كان البرد مريراً بحيث تغطت جميع الأخشاب والفروع والأوراق والصخور بطبقة من الجليد الذى ظل يهبط طول الليل بفضل ما ترميه الشلالات من رذاذ .

ورقدنا جوار النيران حتى علت الشمس فوق الأفق ، وجففت بحرارتها لسعات الهواء البارد .

قال روچرز : يجب أن نأكل شيئاً ، لأننا لن نستطيع الصمود فوق العائمة وبطوننا خاوية .

وتساءل روچرز : أية عائمة ؟

قال : سفينى واحدة !

فقال أوجدن : لست أعرف كيف نبنيها وأنا عاجز عن استعمال بلطتى ، ولو حاولت ذلك لهوت البلطة على رجلى فتقطعها !

قال روچرز : لا تشغل فكرك بذلك ! وسأصنع العائمة إذا وجدتم لنا الطعام ! أنصت ! !

وسمعت صوت سنجاب أحمر يأتى من منحدر الوادى

www.ibtesama.com

المعتم خلفنا ، وتجاوب معه سنجاب آخر بعيد ، وكان صوتهما يصل إلى أسماعنا واضحا . ورأيتهما بعين الخيال يحركان ذيليهما عاليـــا ، ثم ينزلقان على الفروع فى سرعة وخفة .

قال روچرز : ها كما الطعام ! حقيقة أن السنجاب الأحمر المشوى لا يكفى لقمة واحدة ، ولكنا فى أشد الحاجة إلى ما نضعه فى بطوننا !

قال أوجدن : أظننا قادرين على إصابة عدد منها ؛ أما كيف نحضرها فأمر لا أعرفه ، إذ ليس باستطاعتى أن أحمل أكثر من سنجاب واحد ! واحد فقط !

وأردف يقول وهو يأخذ بندقيته : أرى أن نغير حشو البنادق بارود جديد ، فالظرف لا يسمح بالخطأ فى إصابة الهدف .

قال روچرز : أريد معونتكما فى جمع الحطب قبل أن تذهبا ، إذ ليس هناك سوى طريقة واحدة لإسقاط الأشجار التى نحتاج إليها فى صنع العائمة ، هى طريقة احراق جذوعها عند سطح الأرض .

وجمعنا أكواما من الحطب حول جذوع ست شجرات قريبة من مجرى النهر وتركنا روچرز وبيلى يضرمان النار

www.ibtesama.com

فيها ، وجررنا أقدامنا على الشاطئ صاعدين ، لعجزنا عن الانحناء لمساعدتهما فى إشعال النار .

وأردينا خمسة سناجب فى ذلك الصباح . وكانت مهمتنا شاقة ، لا لعجزنا عن الإسراع عند سماع صوتها فحسب ، وإنما لعجزنا أيضاً عن إصابتها وهى تتحرك ، فكنا نقبع حتى يقف السنجاب منها ساكناً ، ثم نركز البنادق والأذرع قبل إطلاق الرصاص . وكانت نوبات التشنج من الجوع أكثر حدوثاً عن ذى قبل ، فإذا ما انتابت الواحد منا وهو يصوب بندقيته ، لا يملك إلا أن يحنى قامته ، حتى تمر بسلام .

وعدنا قبل الظهر فإذا بروجرز وبيلى ما زالا يرعيان النيران حول جذوع الشجرات الست .

وسلخنا السناجب الخمسة وشويناها ، وأخذ كل منا واحدا ، وقسمنا الخامس بالتساوى بيننا . وبينما كنا نلتقط اللحم من هياكلها التى تشبه الفئران ، هوت أولى الأشجار فى دوى شديد .

وما إن انتهينا من أكلتنا ، حتى أمرنا روجرز بالعودة إلى الصيد ثانية ، وقال : استمروا فى الصيد وثابروا عليه ... أطلقوا الرصاص على ما تلاقون من طير وحيوان ،

www.ibtesama.com

وسأكون عند عودتكم قد انتهيت من قطع الشجرات الست إلى كتل تصلح للعائمة .

كنت أتصور أننى لن أستطيع صعود الوادى ثانية ، ولكنى صعدت ، متخذاً من بندقيتى عكازا أستند إليه ، أو أتشبث بجذوع الأشجار التى تقابلنا فى الطريق . . . وأحسست أن السنجاب المشوى لم يبعث فى القوة المرجوّة ، فقد كنت فى حاجة إلى نصف كبش أو فخذ ثور على الأقل ، لأسكت ما يعتمل فى أحشائى من آلام الجوع ... وتذكرت بشوق ما قاله كاب هوف عن الأوزة البرية ، من أنها تزيد على وجبة لرجل ، ولاتكفى لرجلين ! كم كان جهله بالجوع عظيما ! إن أوزة برية لا يمكن أن ترد عنى بعض آلام الجوع !

وخرجت قطاة عظيمة من بين شجيرات غير بعيدة عنا ، وكان لأجنحتها دوى كالرعد ، لم تلبث أن هبطت وارتطمت أجنحتها بغصون شجرة قريبة ؛ مما أكد لى أنها حطت فيها .

وهمست لأوجدن قائلا : إنها على هذه الشجرة !

ويعتبر صدر القطاة عادة ، مقدمة تفتح شهوة الطعام لأكلة خفيفـــة ، أما عن أكلة كاملة ، فالقطاة كلها

www.ibtesama.com

لا تستحق الذكر ؛ ولكنها كانت أكثر إغراء فى هذه اللحظة من أى شىء فى الوجود .

وسألنى أوجدن إن كنت أراها ، فقلت : إنى لا أراها فعلا ، ولكنى أعرف مكانها .

فقال : اذهب وأت بها ! سأسير أنا إلى اليسار محدثاً بعض الضوضاء لألفت نظرها ، وتسلل أنت إلى اليمين ، فتستطيع رؤيتها وإصابتها من الخلف .

ورقد أوجدن على ظهره بين أوراق الشجر ، ورفع يديه وساقيه يلوح بهما ، ويطلق صوتاً متحشرجاً كالأنين ، وزحفت نحو اليمين وأنا أدعو الله أن ترى القطاة فى أعمال أوجدن ما يسليها ، فتصدر منها حركة ترشدنى إلى مكانها ... وكانت الأشجار عارية عن أوراقها ، ولم يكن بينها شىء يشبه الطير من قريب أو بعيد ، فكدت أنادى أوجدن أن نعتبر الأمر منتهياً ، لولا حركة بدت عند شجرة بلوط كبيرة ... وإذا بالقطاة تنظر إلى أوجدن ، وتتأمل حركاته العجيبة .

وأسندت البندقية جيدا ، وأحسنت التصويب ، وأطلقت النار . . . وطارت القطاة المصابة فى عجز ، وانحدرت مائلة إلى الأرض ... وأسرعنا إلى المكان الذى سقطت فيه ، وكان بقعة صخرية خالية من الحشائش ، قليلة

www.ibtesama.com

الأشجار ، فلم نعثر على أثر للقطاة ، ولم يظهر لها شبح فى الأرض كلها .

قال أوجدن : أواثق أنت من سقوطها هنا ؟

فقلت : إننى متأكد من أنها سقطت فى المكان بعد إصابة قاتلة ..

قال مؤمنا على قولى : نعم ، لقد أصيبت فعلا ، ولكنى لا أظنها سقطت هنا ، وإلا رأيناها ... لا بد أنها حطت خلف هذه الصخور .

وذهبنا وراء الصخور ، وبحثنا عنها دون جدوى ، كنا ندور فى حلقات ، ولا نترك شجيرة أو صخرة إلا نظرنا تحتها ، ولكنها كانت قد اختفت تماما ...

قال أوجدن : أواثق أنت أنها أصيبت ؟

فأومأت برأسى فقط ، ففكرة ضياع هذه القطاة أعجزتنى عن النطق ، وخفت إذا فتحت فمى بالكلام أن أنفجر باكيا من اليأس .

وحملق أوجدن فى الأرض بعينين غائرتين ، وهمس قائلا : أظنك أخطأت الهدف !

واتسعت حدقتاه فجأة وصاح : هذا والله أغرب ما رأيت !

كان يحدق فى مجموعة من أوراق البلوط وقد اشتبكت

www.ibtesama.com

فى طرف شجيرة صغيرة ... وتحولت تلك الأوراق فى نظرى إلى قطاتى الضائعة ، كأنما مستها عصا سحرية .. كانت قطاة هائلة الحجم ، ولا بد أننا مررنا بها فى أثناء بحثنا لا أقل من عشرين مرة دون أن نراها .

وملت عليها وأخرجتها من مكانها، فإذا هى ما زالت دافئة .

كانت أسمن ما رأيت من القطا فى حياتى وأجملها وأقدسها ، وقد أصابتها الرصاصة فى عنقها ، وأبقت على صدرها وجسمها سليمين .

ورفعت نظرى إلى أوجدن وقلت : إنى مدين لك بشكر عظيم إذ وجدتها أيها اليوزباشى ! إن شكرى لا نهاية له...

قال : كنت أعلم يقينا أنك أصبتها ! إنها إصابة بارعة ، يا لانجدون ! أجمل وأدق إصابة آمل أن أراها فى يوم من الأيام ...

* * *

كانت الأشجار الست قد سقطت على الأرض عند عودتنا ، وتحت كل شجرة ثلاث كومات من الحطب الذى أشعل لقطعها إلى كتل ملائمة نصنع منها العائمة .. وجلس روجرز على الشاطئ عاقدا يديه حول ركبتيه ، والصبى بيلى مستلقٍ بجواره فى سبات عميق .

ورفع الصاغ وجهه إلينا ، وكان منظره عجيبا : فالسناج

www.ibtesama.com

يغطي وجهه ويديه بلون أسود ، وعيناه البيضاوان تبرقان وهو ينظر إلينا مستطلعا أخبار الصيد . فأخرجت القطاة أريه إياها ، فهمس قائلا : يالله ! هيا نأكلها قبل أن ينقلب الحظ علينا !

وأكلنا أحشاء القطاة أولا ، بعد تنظيفها وطهوها على الأحجار الساخنة ، ثم أكل كل منا نصف سنجاب مشطور بطوله . وجاء دور القطاة ، وكان تقسيمها بالتساوى أمراً عسيرا : إذ كنا نعرف أن لحم هذا الطير خشن جامد من العسير أن يمضغ إذا كان قد ذبح حديثا .. فقطعناها إلى نسائل رفيعة ، وقسمناها بما يرضينا جميعا ؛ أما هيكلها العظمى فقسمناه دون نقاش كثير إلى أربعة أقسام : ربع لكل منا .

وقبل أن ننام تلك الليلة ، كانت النيران قد أدت عملها فى الشجيرات الست ، وانفصلت الكتل الاثنتا عشرة ، ولم يعد ينقصها لتكون عائمة ، سوى أن ندفعها إلى الماء ، ونثبت بعضها ببعض .. وبدت لى تلك المهمة ، مهمة صنع العائمة ، أكثر صعوبة وتعقيدا من إدخال قنفذ فى ماسورة بندقيتى .

www.ibtesama.com

الفصل الثاني والأربعون

ما زلت إلى اليوم أحلم أحيانا ببناء تلك العائمة الثانية ، فأستيقظ من نومى على أنينى وتوجعاتى ، إذ أننا احتملنا فى أداء هـــذه المهمة جهوداً لا يتصورها العقل ، وماكنا لنستطيع أن نحرك الكتل الثقيلة بأذرعنا الواهنة ، لولا علمنا بأن العجز معناه الموت المحقق .

وغرسنا أوتاداً فى قاع النهر الضحل لنمنع الكتل من الاندفاع مع التيار ، ثم بدأنا نحرك كتلة منها بوصة بعد بوصة ، عبر الشاطئ المغطى بالحصى والأحجار ، وبعد ذلك دفعناها إلى الماء دون أن ندحرجها ، حتى لا تتحطم الفروع التى أبقينا عليها لنربطها بالحبال بعضها مع بعض ، فلا تنفصل بسهولة .

كنا نستخدم كل الطرق الممكنة : مرة نستعمل الروافع ، وأخرى ندفعها فوق كتل صغيرة مستديرة ، وأحيانا نرقد على ظهورنا — تحاشيا لتشنجات الجوع — ثم ندفعها بأقدامنا أو أكتافنا ، حتى غطانا السناج من رءوسنا إلى أقدامنا .

www.ibtesama.com

فإذا أوصلنا كتلة إلى النهر ، ثبتناها فى الأوتاد المغروسة فى القاع ، إلى أن نأتى بالثانية ، ونربطها بحبل طويل مجدول ، لكى نجذبها ثانية إلى الشاطئ إذا حدث أن أفلتت من مربطها ... وإمعاناً فى الحيطة كلفنا بيلى بحراسة الكتل فى مربطها ، حتى لا يسحبها التيار على حين غفلة منا .

وانتهينا من العائمة عند الظهر ، فعلقنا البنادق والأغطية المبلهلة فى قوائم بوسطها ، وصنعنا مجاذيف جديدة ، كما جدلنا حبلا طويلا من الفروع الغضة على سبيل الاحتياط .

وكان روچرز مصراً على أن نجدل هذا الحبل الطويل ، وظل يقول مرة بعد مرة : لا نريد أن نفقد هذه العائمة ! يجب أن نحتفظ بها !

وكنا مؤمنين بصواب ما يقول من أننا لن نستطيع أن نصنع عائمة ثالثة . . .

ولست أدرى إن كان البرد المتزايد الذى ينذر بالصقيع ، أو كان الجهد العظيم الذى بذلناه فى بناء العائمة ، هو السبب ، ولكن الذى أعرفه ، أن كل ما أكسبتنيه قطعة القطاة ولقمة السنجاب من نشاط ، تلاشى عن آخره ولم يبق له أثر ... ولو أن حياتى توقفت على السير ميلا واحداً ، ما استطعت أن أقطعه بحال من الأحوال .

www.ibtesama.com

وعندما حان وقت الرحيل ، كان بيلى التعس يقاسى نوبة من التشنجات أعجزته عن الجلوس معتدلا ، فأرقدناه على فراش من الفروع بوسط العائمة . . فبدا بأنفه الحاد ، وعيونه المسبلة ، وشفتيه المتقلصتين على أسنانه ، أشبه بمومياء نُزعت عنها أكفانها . .

وفككنا العائمة ودفعناها ببطء إلى وسط التيار ، ثم ارتمينا فوقها كالأموات من فرط الجهد ، غير آبهين بالمياه الباردة التى تتسرب من بين كتل الخشب ، فتبلل أجسادنا المرتجفة . . وجال بذهنى فى تلك اللحظة أن أرسم فى يوم من الأيام صورة لنا أسميها « المطرودين » ولكنى عدت فتذكرت أن أعظم صورة فى الدنيا لا يمكن أن تعطى سوى فكرة ضئيلة عما نحن فيه ، فلن تظهر فيها الرحلات التى لا تنتهى ، ولا البلل والارتجاف الأزليان ، ولن يحس الناظر إليها بوجيعة الجسم والروح ، ولا بالجوع الدائم والجهد المستمر والإنهاك الذى لا حدود له ولا نهاية .

ونهض روجرز على ركبتيه ، وسمعته يذكر شيئاً عن « شلالات » فأيقظنى حديثه من سباتى ، وصحت أسأله : شلالات ؟ ! أهناك شلالات أخرى ؟

قال بلهجة هادئة : ليست شلالات خطرة ! إنها منحدرات واتوكويتشى ، وتقع على سبعة أميال من هنا . . .

www.ibtesama.com

طولها خمسون ياردة ، وربما أمكننا المرور فيها بالعائمة ...

وتحاملت وأوجدن على أقدامنا واقفيْن .

وقال أوجدن : ولماذا ، بحق الله ، لم نذهب إليها ثم نبنى العائمة بعدها ؟

أجاب روجرز : وهل كان فى مقدورك أن تسير سبعة أميال ؟ ثم ماذا كان يحدث لهذا الصبى ؟ فضلا عن أننى شخصياً ، لم أكن واثقاً من قدرتى على السير مسافة بهذا الطول .

سألته : وهل نستطيع رؤية تلك المساقط قبل الوصول إليها ؟

قال : نراها ؟ طبعاً ! إن واجبنا يقضى علينا أن نراها ، وعلينا أن نراها ! !

وأنعمنا النظر ، وأجهدنا العيون فى فحص مجرى النهر الواقع أمامنا ... وبدأت السماء الملبدة بالغيوم ترمينا بقطرات صغيرة من الثلج ... وتصاعد من سطح الماء المتموج ضباب خفيف ، يشبه ذلك الضباب الذى رأيناه قبيل وصولنا إلى شلالات هوايت ريفر . . . وبعثت ذكرى تلك الشلالات فى نفسى شعوراً بالإغماء ، إذ لو زاد سقوط هذا الثلج وتكاثف ، فقد لا نرى تلك المساقط إلا بعد فوات الأوان .

www.ibtesama.com

وبعد أميال ثلاثة ، قطع روجرز السكون بقوله : قد نستطيع المرور فيها فوق هذه العائمة !

وبعد ربع ساعة ، عاد يكرر نفس العبارة ؟ . . وتأكدت أن هذه المساقط لم تغب عن باله لحظة طوال اليوم ، فهى سبب إلحاحه الشديد فى جدل حبل طويل يثبت بالعائمة ... ورحت أتساءل فى نفسى عما عساه قد يحدث إذا لم نستطع المرور بالعائمة عبر المساقط ؛ ولكنى لم أجرؤ على التوجه إلى أحد رفاقى بهذا السؤال .

* * *

وفى نحو الثالثة مساء ، لمحنا المساقط من خلال ستار الثلج المتساقط ، فنحونا بالعائمة إلى الشاطئ الأيسر ، حتى تتسنى لنا فرصة دراسة المنحدرات المائية عن كثب .

وظننت لأول وهلة أننا نستطيع عبور المساقط بسهولة ، فالمياه السريعة لا يزيد طولها عن خمسين ياردة ؛ ولكن الأمل لم يلبث أن تبدد حين اقتربنا منها ، إذ تبينت أن العائمة لا يمكن أن تهبط سليمة إلا إذا أفرغت حمولتها إلى آخر أوقية منها ... ورأينا وسط الماء المنحدر زبداً يتصاعد مما يدل على انتشار الصخور الخطرة تحت سطح الماء ، وإذا اصطدمت العائمة بصخرة منها ، يذهب آخر أمل فى نجاتنا .

www.ibtesama.com

وأرسينا العائمة على بعد ياردات من المنحدر ، وأسندنا جانبها فوق الشاطئ ، وبقوة مجاذيفها أبقيناها فى مكانها ، لكى تتسنى لنا دراسة المسقط الرئيسى القائم وسط النهر ، وكان عميقا داكنا تغطيه طبقة من الزبد .

قال روجرز : الأصوب ألا نجرب الهبوط ونحن بالعائمة !

فقال أوجــدن : ولكن لابد من شخص عليها ، وإلا ضاعت فرصتنا الوحيدة ...

قال روجرز : لا ! ليست فرصتنا الوحيدة ! فالطريقة المثلى أن أسير أنا إلى ما بعد المنحدر ، ثم أقف عند مسقط المياه ، لأمسك بها بعد أن تهبط فارغة .

وفاجأ أوجدن تشنج فى أمعائه ، فوضع يده على بطنه ، وقال : لن تستطيع ذلك !

وتظاهر روجرز بأنه لم يسمع كلامه ، وقال : وهذا ما يجب أن نعمله ... فخذوا بيلى إلى الشاطئ ، وأفرغوا العائمة من المتاع والبنادق ؛ وسأمسكها لكم حتى تنتهوا من مهمتكم !

وتردد أوجدن قليلا . .

فصاح روجرز يقول بحدة : أيها اليوزباشى أوجدن ، لقد سمعت أوامرى !

www.ibtesama.com

وأسرع أوجدن ينفذ الأمر ، فجمعنا حوائجنا فى عجلة ، ثم حملنا بيلى من ذراعيه النحيلتين ، وسحبناه إلى الشاطئ ، حيث رقد منطويا على نفسه ، كأنه جثة هامدة . . وثبتنا الحبل الطويل ، كما أمر روچرز بأقوى فرع بالعائمة بعد أن خبر أوجدن متانته ، ثم ربطنا المجاذيف بالأفرع البارزة منها . . . وكان الحبل متينا قويا كأحسن ما يكون .

إذ ذاك قال روچرز : والآن ، أستحلفكم بالله ألا تتركوا الحبل قبل أن أعطيكم إشارة بذلك . . فأنا فى حاجة إلى بعض الوقت حتى أصل إلى مهبط النهر ، وأخلع ملابسى وعندما أرفع ذراعى ، أطلقوا العائمة من عقالها مع التيار ، ودعوا الحبل مدلى وراءها ، حتى أمسك به إذا عجزت عن الإمساك بها .

وربط مجذافه بجانب مجاذيفنا بالعائمة ، ثم سار على الشاطئ مبتعداً .

وتعاونت مع أوجدن على وقف العائمة فى مكانها ، وتعلقنا بحبلها وهى تشـــدنا بإصرار ، كأنها تتوق إلى الإفلات منا . .

وأخذ روچرز بندقيته وباروده وحوائجه ، وسار ببطء حتى غاب من أنظارنا وسط الغابة العتمة . . وتكاثفت قطرات الثلج المتساقطة كأنها تريد المساهمة فى إخفائه عن

www.ibtesama.com

عيوننا . . . وخطر لى أنه من المحتمل جداً ألا أراه أو أسمع صوته مرة أخرى . . وأخذت العائمة تشدنا بإلحاح ، كأنها مصممة على الخروج إلى وسط التيار رغم أنوفنا . . وخشية أن تنتزعنا من موقفنا ، جلسنا على القاع الضحل وغرسنا أقدامنا وسط الصخور .

وتمتم أوجدن يقول : أراهنك أن طريقتى أحسن ! وكان من الأفضل أن يجلس أحدنا فوق العائمة ، إذ لو أصاب الصاغ تشنج وهو يسبح نحوها . . .

ولم يكن هناك ما يدعو إلى تتمة الحديث ، فسكت عن الكلام فجأة .

وتحركت أغصان الشجيرات فى دغل قريب من مهبط النهر ، وبرز روچرز من خلال ستار الثلج المتساقط ، وجعل يتلفت يميناً وشمالا يبحث عن مكان يصلح لمهمته . وعاد إلى الدغل ثانية ، ثم خرج إلى موقع صخرى أقرب إلينا من موقفه الأول . . وفى بطء يثير الأعصاب ، وضع بندقيته وغطاءه وباروده على الأرض ، ثم راح يخلع ثيابه . .

واقترب من حافة الصخر يتأمل الشلال بإمعان ، فكان أشبه بذرّة وحيدة عارية لاحول لها ولا قوة ، أمام ذلك العالم الصاخب بالماء والثلج والغابات والتلال العالية المعتمة . . ثم رفع ذراعه يعطى الإشارة . .

www.ibtesama.com

وأفلتنا حبل العائمة وقمنا واقفين . . . واهتزت العائمة فى بطء وهى تتجه نحو التيار وتسير معه ؛ ولما وصلت إلى المنحدر ، ارتفع جانبها فوق الأمواج البيضاء ، ثم اندفعت إلى الأمام .

وسارت تهتز وتمايل ، حتى وصلت إلى منتصف المسافة ، فانخفض مقدمها ومرت فوقه موجة عالية غمرتها كلها من مقدمتها إلى مؤخرتها . . ولكنها طفت ثانية وسط الأمواج . . ثم بدت كأنها تلقى بنفسها لاهثة صوب منحدر المياه المسرعة . . وغطست متثاقلة فى دوامات المهبط ، ووقفت لحظات وقد مالت قليلا : نصفها فوق الماء ونصفها تحته . . . وانتظرنا أن نراها تتفكك إلى أجزاء ، ولكنها صمدت وعادت تطفو ثانية على سطح الماء فى بطء وجهد ، وهى تدور بخفة وسط خطوط الزبد المتدفقة .

ودلى روچرز نفسه من فوق الصخرة ، وسبح فى عناء وحركات عنيفة ، حتى بدا كأن نصفه الأسفل يريد أن يطفو على حساب رأسه الغاطس . . وتوقف مرة ليمسح الزبد عن عينيه ، ثم انقلب على جانبه ينظر إلى العائمة ، التى صارت الآن فى قبضة التيار تطفو مسرعة .

وغير اتجاهه . . وجعل يسبح نحو العائمة ، حتى اقترب جداً منها ، ومد ذراعه يمسكها ، ولكنه أخطأ الهدف ،

www.ibtesama.com

فضرب الماء بقدميه ثانية ، وأمسك العائمة بإحدى يديه ثم بالأخرى . . وبقى على هذا الوضع لحظات ، وقد أسند ذقنه على حافة العائمة وترك جسمه يحمله الماء وراءها . . وتوترت أعصابى فى تلك اللحظة ، إذ لم أكن أتصور أن إنسانا فى هذه الدنيا الواسعة يستطيع أن يصمد طويلا أمام عائمة كهذه ، بعد أن هرأه الثلج ، وامتص الجوع قواه ، وأضعف الجهد أطرافه . .

وكأنما أراد روچرز أن يرد على مخاوفى ، فشد نفسه بذراعيه ، وشبك يده فوق العائمة وتشبث بأحد فرعها ، ثم رفع نفسه قليلا حتى صار نصفه الأعلى فوقها . . . ورقد زمناً طويلا هكذا بلا حراك ، حتى ظننته فى غيبوبة ، ثم ثم تبينت أنه يحاول أن يرفع ركبته إلى حافة العائمة ونجح فى النهاية ، وزحف إلى وسطها ، ورقد منبطحا فوقها . . .

وهمس أوجـــدن : ما كنت أتصور أن ينجح فى الإمساك بها . . .

أما أنا فقد كنت أرتجف من قمة رأسى إلى إخمص قدمى ، وجف حلقى وجمد لسانى ، فلم أستطع أن أرد على ملاحظة أوجدن .

وأقام روچرز على ركبتيه ، وحل مجذافا من عمودها الوسطى ، وبدأ يدفع العائمة ببطء نحو الشاطئ .

www.ibtesama.com

الفصل الثالث والأربعون

تمتعنا بالدفء والحياة فى تلك الليلة بفضل الأخشاب المتراكمة بجوار مساقط واتوكويتشى ، وما إن بزغت أضواء الفجر الرمادية فى اليوم التالى التعس — وكان الأخير من أكتوبر ، وهو يوم خالد رغم تعاسته — حتى أرقدنا بيلى وسط العائمة متوسدا بعض الأغطية ومتلحفا بعضها الآخر ، ثم دفعنا العائمة إلى وسط النهر . . . وكان سقوط الثلج قد انقطع وأعقبته رياح عاتية شديدة البرودة تخز الأبدان كسكاكين مثلجة .

لم يكن — كما قال روجرز — بين واتوكويتشى ورقم ٤ شلالات أو مساقط ماء ، بل لم يكن هناك سوى البرد الخبيث الذى أصر على الفتك بما بقى منا ، بعد كل ما بذله الفرنسيون والهنود من جهد للقضاء علينا ، تعاونهم شياطين الغابات وأرواح الغدران الشريرة .

وكنا كلما أوغلنا فى السير تزداد السهول اتساعا والتلال بعدا عن جانبى النهر . . . وظلت الرياح تعوى حولنا دون هوادة ، فيتردد صوتها فى أسماعنا كأنه عويل جن

www.ibtesama.com

الفلاة ، وقد أغضبها أن ترانا نفلت من قبضتها الرهيبة ،

وحدق روچرز فى السهول المتسعة حوله بعيون أدمعها البرد ، وقال : سوف نصل ! والله ، أعتقد أننا سنصل !

وما إن انتصف عصر ذلك اليوم ، حتى رأيته يقبض ذراع أوجدن ، ويقول فى صيحة عالية : انظر ! انظر ! !

ثم انحنى بسرعة وقد فاجأته نوبة التشنج ، ومع ذلك ظل يشير بذراعه كممثل يقوم بدور أحدب . . .

كان هناك على ضفة النهر ، وعلى بعد مائة ياردة ، رجلان يحتطبان ، ما لبثا أن قاما واقفيْن لمرآنا . . .

قال أوجدن ــ وهو لا يصدق عينيه ــ : يا للعجب ! إنهم الآدميون مرة أخرى ! !

ولم يتكلم روچرز ، لأن لسانه ــ على ما أعتقد ــ انعقد مثلما انعقد لسانى .

وكان الغريبان رجلين كما يجب أن يكون الرجال ــ لا هياكل بشرية مثلنا ــ يرتديان الملابس الكاملة ، ويطوحان فأسيهما فى قوة وصحة . . .

ورآنا الرجلان فاقتربا من الضفة مسرعين . .

www.ibtesama.com

قال روچرز يحذرنا بصوت مبحوح ، ونحن نوجه العائمة نحو الضفة : اسكتوا ، ولا تقولوا لهما شيئاً ! دعوا الحديث لى . . . لا تنطقوا بكلمة حتى أعرف كل شيء عن الحيوانات الدنسة التى هربت بطعامنا !

وخاض أحد الرجلين الماء وأمسك حبل العائمة ، وسحبها إلى الشاطئ . . وسأله روچرز : أين رقم ٤ ؟

ولم يردا على السؤال وظلا يحملقان فينا . . .

وعاد روچرز يقول : إننى روچرز ، فأين قلعة رقم ٤ ؟

وبدا الرعب عليهما ، وأجاب أحدهما : روچرز ؟ أتقول إنك روچرز ؟

وقال روچرز : نعم . . .

قال الرجل وهو يزدرد لعابه : لقد رأيتك كثيراً ، ولكنك تغيرت بشكل يدعو إلى العجب !

وهز رأسه ثم أردف يقول : لقد سمعنا أنك ميت ، أيها الصاغ ؛ وأظنها الحقيقة ! لقد قتلت ! وعلى أى حال ؛ أنت الآن فى رقم ٤ ، أيها الصاغ . . إن القلعة هنا ، وسنعاونكم حتى تصلوا إليها .

وبين حركات الانزلاق وخوض الماء التى يغشاها

www.ibtesama.com

الانفعال ، أعاننا الرجلان بأذرع قوية لا عهد لنا بها ، حتى أخرجانا من العائمة ، وحملا بيلى إلى الشاطئ وصفا حوائجنا فى كومة عالية ، ثم ربطا العائمة إلى وتد على الضفة . كانا ينظران بمنتهى العجب إلى أطراف الكتل المحروقة والحبال المصنوعة من الفروع ، ويحملقان فى روچرز بلا انقطاع كأنه أعجوبة من أعاجيب الزمن .

وجلسنا على الشاطئ حتى انتهيا من ربط العائمة ، ثم سألهما روچرز : ترى هل معكما شيء من الطعام ؟

ونظرا إليه مليا بضع لحظات ، ثم نهضا إلى الشاطئ يعدوان ، وعادا بعد دقائق خمس ومعهما ثلث زجاجة من الروم ، وقطعة من خبز فى حجم قبضة اليد ، وقالا : هذا كل ما لدينا يا أيها الصاغ ! كنا نحتطب ولم نحضر معنا طعاما كثيرا ! ولكن القلعة عامرة بالمؤن وفيها كثير من اللحم الطازج واللفت .

وكسر روچرز الخبز إلى أربع قطع وهو يقول : عجبا ! إنه خبز ! !

وأعطى كلا منا قطعة ، وأخذ لنفسه جرعة من الروم ، ثم ذهب إلى بيلى ونحصه ، وسكب قليلا من الشراب بين

www.ibtesama.com

شفتيه ؛ فلما فتح الغلام عينيه وسعل ، ناوله قطعة الخبز ، وناولنا زجاجة الروم ...

وكان للقمة الخبز المشبعة بالروم فى أفواهنا حلاوة ونكهة لا يتصورها العقل ... كنت أحس بها تهبط إلى أحشائى فترسل فيها دفئا لذيذا ، كأنها تطمئن معدتى المتقلصة وقلبى الخفاق ورئتى المتعبتين ، وجسدى المرتجف ، إلى أن زمن العذاب قد ولى وراح ...

وقال روچرز للحطابيْن المذهوليْن : هيا بنا الآن إلى القلعة ، ويحسن أن تعاونانا قليلا على المشى . دعا المتاع هنا مؤقتا ، وليحمل أحدكما الغلام الهندى ، وسنستند عليكما فى السير .

وحمل أحدهما بيلى ، وأسلم الثانى إحدى كتفيه لأوجدن والأخرى لى . . وسار روچرز خلف الأول متحاملا ، يصطدم به مرة بعد مرة .. ومشينا إلى القلعة ، وظهر مبناها أمامنا مربعا منخفضا ، وسط رحبة من الأرض غطاها الجليد ... كانت نفس الفسحة التى رسمتها فى تكاسل ذات يوم من أيام سبتمبر الدافئة منذ أقل من شهرين .

ولم يكن على باب القلعة حرس ، وخلا من الجند ميدان تدريبها الذى اختلط جليده بطينه فتحول إلى وحول لكثرة

ما وطئته الأقدام . وقادنا مرشدانا عبر الميدان إلى ثكنة الجنود الخشبية التي يقوم فى طرفها الشمالى برج خشبي للمراقبة . . وجذب الرجل الذى يستند إليه أوجدن حبل المزلاج . ورفس الباب بقدمه فانفتح . .

كان بوسط القاعة وأمام بابها موقد حجرى عريض تشتعل النيران فيه ، وعلى الجانبين اصطفت أسرّة الجند ، وعلى الأرض المفروشة بالبطاطين جلس اثنا عشر من جنود المقاطعات يلعبون النرد .

ورفع الجند أنظارهم إلينا ، وصاح أحدهم غاضبا : أغلق هذا الباب !

فقال أحد الحطابيْن بصوت يخنقه الانفعال : لقد جئناكم بالصاغ روچرز .. إنه هنا !

وقام الجنود فى بطء واقفين يحملقون غير مصدقين ، ثم تغيرت تعابير وجوههم إلى رعب كأنهم رأوا عفريتا يقف أمامهم .

وسأل روچرز : من القائد فى هذه القلعة ؟

وأجاب أحدهم بصوت مبحوح : إننا غرباء عن هذا المكان ، ولا نعرف اسمه ، أيها الصاغ !

قال بلهجة آمرة : إذاً نادوه وأحضروه إلينا ...

www.ibtesama.com

وقفز ثلاثة منهم معا ، وهم يتعثرون لفرط سرعتهم ، فيتصادمون فى طريقهم إلى باب القاعة ..

وسار روجرز يترنح إلى الأريكة ، والجند المذهولون يفسحون الطريق أمامه .

قال للحطاب : ضع بيلى فوق البطانية ، وعد لإحضار ما تركناه من المتاع والبنادق ..

وسرت مع أوجدن إلى الأريكة الخشبية بصعوبة .. وقد كدت أختنق بالشعور العجيب الذى انتابنى حين وجدتنى فى غرفة مقفلة لها سقف وجدران ، وفيها نيران موقدة ..

وانفرج الباب بسرعة ، ودخل منه ضابط قوى البنية ، يرتدى حلة زرقاء مجعدة الثنايا ، وراح يفحصنا بعيون تطرف ، ثم قال : أيهم ؟ أى رجل فيهم ؟

وتقدم منا قائلا : أخبرونى بأن الصاغ روجرز هنا ! ولست أراه بينكم !

فقال الصاغ : أنا روجرز .. والآن ، أصغ إلىّ واكتب ما أمليه عليك من الأوامر فورا ، إذ ليس باستطاعتى إعادة الكلام .. قل لى ، ما اسمك ؟

أجاب الضابط : اسمى بيلوز ، ومهمتى أن أحرس مخازن الملك هنا ..

وضرب بيده على جيوبه ، وبدا الارتباك عليه ، ثم

www.ibtesama.com

أسرع خارجاً من القاعة وعاد بورقة وقلم ، ثم أردف يقول : لم نكن نعرف . . . .

وتلعثم فى الحديث ثم قال : لقد سمعنا ... أين كنتم ؟!

فقال روچرز : أحضر زوارق وحملها بالمؤونة ، ثم اصعد بها النهر إلى مصب الأمونواوزاك .

قال بيلوز معتذرا : هؤلاء الرجال من جنود المقاطعات وهم فى طريقهم إلى العودة ، وليس هنا سوى ...

فقاطعه روچرز قائلا : هات رجالا من المزارعين ! هات أحسن من يجذف فى الزوارق ! استأجرهم إذا اقتضى الأمر .

فقال بيلوز متشككا : إن الجو سيئ ، وربما لو تحسن ..

وقام روچرز يتمايل على قدميه ، وانتصب فى وقفته ، وشد جسمه إلى أطول ما يستطيع ، حتى بدا كأنه يملأ فراغ القاعة ، وقال بصوت متوتر مبحوح : اليوم ! اليوم ! بل الآن ! استأجر رجالا وادفع لهم أجورهم فى هذه اللحظة ! أحضر كل مزارع إلى القلعة ! ألا تدرك أن هناك مائة متطوع يموتون جوعا عند مصب الأمونواوزاك ؟ ناد المزارعين هنا ! اضرب الطبول لجمعهم .. وسوف أتحدث إليهم ! هيا وحق الله ، أسرع !

وحملق بيلوز دهشاً ، واندفع نحو الباب ينادى أحد

www.ibtesama.com

الرجال .. وصرخ بأعلى صوته يقول : اجمعوا الصفوف ! .. اجمعوا الصفوف !

ودخل ثلاثة جنود بينهم ضارب الطبل ، وأشار بيلوز إليه فعاد يجرى إلى وسط الميدان ، وهو يعلق طبله حول عنقه . . ولم تمض ثوانٍ حتى كان دوى الطبل يبعث الرعدة فى جسدى .

وصرخ بيلوز فى الجندى الثانى قائلا : أسرع إلى مسز بيلوز ، وأحضر منها دلوا من اللبن وزجاجة من الروم الخاص بى .

فقال أوجدن : وبعض الخبز . .

فصرخ بيلوز فى الجندى : وكل ما لديها من خبز !

وارتمى روچرز على الأريكة ، وحك وجهه الضخم بيد كبيرة بارزة العظام ، ثم مرر أصابعه خلال شعره ، وقال : اكتب أمرا بإرسال المؤن إلى أعلى النهر . . . خبرنى عما لديكم من أصناف الطعام . .

قال بيلوز : لحم خنزير مقدد ، ولفت ولحم بقرى طازج . .

فسأله روچرز : وما مقدار ما عندك من الخبز ؟

أجاب : ليس كثيراً ، فجنود المقاطعات هؤلاء . . .

وقاطعه روچرز قائلا : عليهم اللعنات ! ليذهبوا

www.ibtesama.com

دون خبز .! ضع كل ما تجده عندك من طعام فى زوارق ، ثم ابعث فى طلب المزيد ... هات الموجود كله ! يجب أن يُطعم رجالى ، وإلا فقسما بالله لأغيرن على كل بيت فى هذه المحلة !

وظل الطبل يدوى ويرعد . .

وخط بيلوز الأوامر على الورقة بسرعة . وبعث بها مع الجندى الثالث الذى خرج بها من القاعة يعدو ... وتجمع عدد من الناس عند الباب ، وراحوا ينظرون إلينا بعيون جاحظة ...

ورفع روجرز صوته ليعلو فوق دوىّ الطبل المستمر ، قائلا لبيلوز : أخبرنى ! لقد كان المفروض أن يلاقينا الطعام عند مصب الأمونو أوزاك ، أفلمْ ترسلوا الرجال به ؟

أجاب هذا وقد بان عليه الوجل : طبعاً ! لقد كلف الملازم ستيفنس بهذه المهمة .

وسأله : وماذا صنع به إذاً ؟

أجاب : لقد عاد به بعد أن انتظر عدة أيام ، ظن فى آخرها أنكم قتلتم عن آخركم ؛ فلما سمع طلقات رصاص ذات صباح ، تصورها صادرة من الفرنسيين أو الهنود ، فاستقر رأيه على العودة بها ...

www.ibtesama.com

فقال روجرز يحدث المجتمعين كما يحدث بيلوز : أصغوا إلىّ ! لقد محونا مدينة سانت فرانسس من الوجود لأجلكم ، ويمكنكم أن تتقدموا إلى أعلى النهر ما شئتم ؛ حيث تعيشون فى سلام وأمان ؛ أما ذلك الملازم ، الذى أفزعه الرصاص الذى أطلقناه إعلاناً عن وجودنا ، وجعله يفر بمئونتنا منا ، فلى معه حساب عسير ... أهو موجود هنـــا ؟

فقال بيلوز مرتجفاً : لا .. لقد عاد إلى كراون پونيت .. إنك ذاهب إليها ، كما أعتقد ، أيها الصاغ ؟

قال روجرز بصوت مخنوق : لا ! لم يحن الوقت بعد !

وظل الرجال جميعهم يحدقون فيه مبهوتين ، وقد وقف فى ضوء النيران كالعملاق ، عارى القدمين تغطى جسده السحجات والكدمات ، لا تستره إلا نسائل متهدلة هى كل ما تبقى من ملابسه ، فسرواله الجلدى قد اتسع بضمور ساقيه وفخذيه ، وبقايا سترته لم تعد تكفى لتغطية الضلوع البارزة فى صدره النحيل ، ويداه تغطيهما آثار العائمة من ندوب وجروح وسناج .

قال بعد لحظة : لا ! سوف نرى الملازم ستيفنس فى كراون پونيت فيما بعد ! أما الآن ، فأعطونى بعض اللحم ... لحم بقرى سمين ، فسوف أعود ثانية إلى مصب الأمونو اوزاك ! !

www.ibtesama.com

الفصل الرابع والأربعون

كان مستحيلا أن يصدق عقلى أن ذلك الرجل الذى أيقظنى من نومى صباح اليوم التالى ، هو نفس الرجل الذى كان على شفا الموت جوعا وإرهاقا منذ أربع وعشرين ساعة فقط ! كان قد بكر ، قبل إيقاظنا ، إلى الزوارق يطمئن على حمولتها من المؤن ، ويتأكد من قيامها فعلا إلى الأمونوأوزاك . . . وآمنت فى نفسى بأنه رجل لا يقهر ، وليس فى الوجود قوة تستطيع أن تدمره ، فهذا روچرز صاحب فرقة المتطوعين وقائدها ، وهو البطل الذى دمر سانت فرانسس ومحاها من الوجود . . . وهو الذى قادنا إلى الجحيم ثم أخرجنا منه . إنه الجبار الذى لا يمكن أن يقتل أو يغلب على أمره . وأحسست وأنا أنظر إليه أن روحه القوية هى السر فى عظمته ، وحتى إذا قدر لجسده أن يفنى ، فستبقى روحه معنا تقودنا وتدافع عنا وتحارب فى صفوفنا ، إلى أن تصل بنا إلى بر الأمان . . .

وكان الوقت قد حان لأفترق عنه ، ولم يكن لذلك معنى سوى أنى سأسير منذ الآن فى حياة أكثر دعة

www.ibtesama.com

وهدوءاً . . . فأحسست كأنني أدير ظهرى للمجد ، وأهجر ميدانه . . كنت شابا حديث السن مررت بمحن شديدة ، ومثل هذه الظروف تجعلنا نعترف بالبطولة فيمن قادنا وأنقذنا . . . أما اليوم فالذى أعرفه أننى لم أكن قد رأيت من روچرز فى ذلك الوقت سوى نواحى العظمة فى شخصيته ، وما كنت لأصدق أنه يستطيع فى أى موقف من مواقف الحياة أن يكون أقل شأنا مما عهدته فيه خلال رحلة سانت فرانسس .

وأيقظنى روچرز ثم قال : تعال ! إنى فى حاجة إليك بعض الوقت .

كان قد استعار حلة من الجلد أضيق من مقاسه ، وهو أمر طبيعى : إذ كان أضخم من عرفت من الرجال حتى كاپ هوف . وجلسنا نحن الأربعة نتناول وجبة فُطورنا : روچرز وأوجدن وبيلى وأنا . . وبدأنا بفخذ كاملة من اللحم المقدد ، ومسحنا دسمها بالخبز ، وغسلنا حلوقنا بإبريق كبير من الشاى المركز . . وأحسست بعد هذا الإفطار أننى قد ازدردت كيسا مليئاً بالرصاص .

قال روچرز يحدثنى : سأترك بيلى هنا ليسترد قوته ويسمن قليلا ، وعليك إذا ما رجعت من كراون پوينت أن تأخذه معك وتحتفظ لى به . . إنى أذهب إلى پورتسماوث

www.ibtesama.com

من آن إلى آخر ، وسأطلبه منك عندما أحتاج إليه . وقد تستفيد به فى ذات الوقت كنموذج لرسم الهنود ، فإن لهم جميعاً لونه وشكله .

وبعد أن انتهينا من الإفطار ، بدأنا نعد التقرير الذى سيقدم إلى القائد آمهرست .

كنت قد سمعت كثيرا أن تقارير روچرز يكتبها دائما غيره ، لأنه أمىّ لا يقرأ ولا يكتب . . ولكنها كانت شائعة لا أصل لها من الصحة ، والحقيقة أنه كان ضعيفاً فى الهجاء إلى حد كبير ، ولست أذكر أننى قابلت فى حياتى من يضاهيه فى هذا النقص سوى اثنين فقط ، هما وليام پوند التاجر ، ووليام شقيق چون ستارك . . ويعتبر الاثنان أجهل من تهجى الكلمات ، لا فى پورتسماوث وحدها ، بل فى العالم كله . . وفيما عدا هذا الجهل ، كان روچرز قديراً فى كتابة أفكاره بأسلوب سلس ولغة بسيطة مفهومة . . وهى موهبة لا تجدها فى كثير من الكتاب الذين اشتهروا بالقدرة الأدبية . . . وفضلا عن ذلك ، كانت أفكاره منطقية ، وإذا وضعنا فى اعتبارنا الظروف التى كتب فيها روچرز تقريره ، وأن أكلة طيبة أو أكلتين لا تعيد القوة الذهنية الكاملة لرجل ظل الجوع يهدمه يوما بعد يوم وليلة بعد ليلة ، نجد أن تقريره لا يقل دقة ووضوحا

www.ibtesama.com

عن أى تقرير يكتبه عدوّاه العظيمان القائد توماس جيدج وسير ويليام چونسون ، وهما على أحسن حالاتهما .

وأملانى ثمانى صفحات ، سرد فيها باختصار كل ما قام به من أعمال ، وما كان مفروضا أن يقوم به . وكان يراجع دفتر أحوال الرحلة كل لحظة ، ويصحح هنا جملة ، أو يزيد هناك كلمة ، حتى وصلت عند الظهر إلى الفصل الختـــامى ، وأنهيته بالعبارات التالية على لسانه إلى القائد آمهرست :

« سأصعد النهر بنفسى حالا ، لأنقذ من بقى من رجالى وأعيدهم معى ، وينتظر أن أتغيب فى تلك المهمة نحو ثمانية أيام ، أعود بعدها مع الحملة إلى كراون پوينت . . وإذا أردتم سعادتكم مزيدا من المعلومات عن الرحلة ، فلديكم اليوزباشى أوجدن الذى يحمل هذا المكتوب إليكم ، فقد رافقنى فى كل لحظة خلال هذه الحملة ، وكان فيها أطيب مثل للجندى القدير .

وإنى ، ياسيدى ، أقدم لسعادتكم أعظم الاحترام .

خادم سعادتكم المطيع

ر . روچرز

قلعة رقم ٤

أول نوفمبر ١٧٥٩ »

وما إن انتهيت ، حتى أخذ التقرير منى لينسخه بخطه . . كان لا يكل عن العمل ولا يمل . .

واستمر الرجال يفدون علينا ويزدادون عددا حوله ، ويتقدمون منه محدقين فيه طوال الوقت الذى قضاه فى نسخ التقرير . كانوا ينظرون إليه نظرتهم إلى رجل عظيم . . وأظنه كان يضمر الغبطة بتقديرهم هذا ، إذ لاحظت اهتمامه الخفى بجموع الزوار المتزايدة طول الوقت الذى قضاه فى الكتابة ، فلما انتهى من توقيع التقرير بإمضائه ، طواه بعناية ، ثم وقف ينظر حوله بعيون تلتمع بالرضا . .

قال يخاطب القوم : والآن ، يا أصدقائى ، أظنكم تعرفون أن خطر الهنود قد زال ، فهل منكم من يريد استغلال هذا الظرف الطيب ؟

واستجاب عدد منهم بلهفة واهتمام قائلين باستعدادهم للتوغل صعودا مع النهر حتى سهول الكوهيز العليا ، التى يتحدث الناس بخصبها وجمالها .

صاح فى دهشة : الكوهيز ! : إنها لا شىء إذا قورنت بغيرها ! !

وجال بعينيه المضيئتين فى الواقفين بالقاعة ، وانطلق يصف بحيرة چورج والإقليم الواقع شمال الموهوك . . واستعاد

www.ibtesama.com

صوته قوته وحماسته ورنينه ، فجاء حديثه بليغا فى وصفه ، رائعا فى تصويره ، حتى جعلنا نشعر كأننا نرى النسور وهى تحلق فوق الجبال الشاهقة ، والغابات المليئة بأجمل الأخشاب وأمتنها ، والبحيرات الزرقاء الرائعة ، والغدران البلورية التى تزخر بأنواع السمك الممتازة ، والأرض الخصيبة التى تثمر أشجارها خير التفاح بعد عام من زراعتها ، والمراعى المفروشة بأفضل الكلأ لرعى الأبقار ، وتحويل ألبانها إلى قشدة ، وأعواد الذرة التى ترتفع كالأشجار طولا . . . أرض الضحك والسعادة والشمس الذهبية ، بلاد الصيف المعتدل والشتاء الدافئ ، بل هى جنة الله فى أرضه . .

وكان يسير فى القاعة جيئة وذهابا ، يلوح بيده فى أثناء الوصف ، ويتحدث فى ثقة كأنما كلامه وحى من الله ... قال إنه شخصيا سيقيم فى أرض العجائب هذه ولاية صغيرة ، وسيطلب من الحكومة لنفسه ولضباط فرقته خمسة وعشرين ألف فدان كدفعة أولى ، فإذا ما انتهت الحرب فسيذهب إليها مع أحسن ضباطه وعائلاتهم وأفضل متطوعيه وأسرهم .. وسيكون له فى تلك الولاية جيشا قوزيا أكثر تنظيما وأخطر شأنا من أى جيش فى البلاد . ولن يكون الرجال الذين يرافقونه ضباطا فى جيشه فحسب ، بل سيعين منهم محافظين ومشرعين ليقيموا قانونهم الخاص . وسيعمل الجميع

www.ibtesama.com

معا فى مساعدة بعضهم بعضا . فيزدهر فى تلك البرارى مجتمع مستقل متحد ، يحبوه الرخاء ويسوده الرضا ... سيكون مجتمعا مستقلا بموارده عن كل تدخل أجنبى ، فيعيشون فيه آمنين من شر الاعتداء والطغيان ، ويأتيهم التجار من مونتريال وفيلادلفيا وشمال أمريكا ، ليشاركوهم متعة الحياة فى رغد وطمأنينة ، ويرسلوا البضائع إلى الغرب الأقصى ويأخذوا بدلها الفراء الثمين .. وستكون ولايته فى ملتقى الطرق الأمريكية ، فتنافس فى مركزها الحيوى ولايات البانى وبوسطون ونيويورك ..

ولم أر روجرز من قبل مثلما رأيته فى هذه اللحظة : خطيباً مفوهاً ، ورجل أعمال لا يبارى فى تنظيم المشروعات وإدارتها ، ثم مصوراً فذا يعرف كيف يخرج الآمال والأحلام فى أشكال ملموسة .

وانعكس سحر كلامه على الواقفين ، فظلوا يصغون إليه بعيون جاحظة وأفواه فاغرة ..

قال رجل له لحية كثة : ألا يوجد عندكم مكان لغير المتطوعين ؟

أجاب : بلى ! سنجد لك مكانا معنا ، ليس لك وحدك ، وإنما لكل رجل شريف يريد أن يلقى بنصيبه معى .. سوف أعمل على أن تنال أرضا بشروط طيبة سخية .

www.ibtesama.com

ووضع يده فى خصره وابتسم فى حياء ، وقال : كم منكم يريد الذهاب معى ؟

ولم يدهشنى ، بعد السحر الذى تركته كلماته فى النفوس ، أن أرى الرجال والنساء ، وحتى الغلمان الواقفين فى نهاية القاعة ، يتطلعون إليه من خلف أكتاف الكبار ، يقولون بالإجماع إنهم على أتم الاستعداد لمرافقته .

ولا غرابة فى ذلك ، فقد كنت أنا نفسى أريد الذهاب معه .

* * *

صحوت فى اليوم التالى عند الفجر على دبيب خطوات على أرض الغرفة العارية التى بتنا فيها مع روچرز وأوجدن . كان روچرز قد قام يطوى غطاءه ويشده إلى ظهره . ورأيته يتوقف عن عمله ويرفع زجاجة بنية اللون إلى شفتيه ، ويبتلع منها جرعات كبيرة باحتراس ، ثم يعود إلى جمع حاجاته . . وشرب مرة ثانية ونظر نحونا فى شرود ، ثم سار نحو الباب وهو يتمايل قليلا فى مشيته . وما إن وضع يده على مزلاج الباب ، حتى قام أوجدن من رقدته ، وقال : ألا من كلمة وداع ، أيها الصاغ ؟ وهل من أوامر أخرى ؟

وضحك روچرز ضحكة أخشن من المعتاد ، وقال: عودا إلى نومكما ثانية ! ناما يومين آخرين ؛ فالجو أسوأ

www.ibtesama.com

من أن يسمح بالمسير إلى كراون پونيت ؛ أما أنا فسأجلس بالزورق مرتاحا ، وأجرع ما يحلو لى من الشراب . . . استرح أنت وتاون حتى يصفو الجو ، وعند ما تصل إلى كراون پونيت ، أخبر القائد آمهرست بأنى سأغيب ثمانية أيام .

قال ذلك فى بساطة ، كأنه فى طريقه إلى الجانب الآخر من القلعة ، ثم تركنا وخرج ، وسمعناه يدعو بيلوز ليملأ له الزجاجة الفارغة ، وبعد لحظة رن دبيب خطواته على أرض الميدان المغطاة بالثلوج ، ثم سمعنا صوته الغليظ يضعف شيئاً فشيئاً حتى تلاشى تماماً بابتعاد الزورق .

وبهذا الفراق ترك رفقتنا مؤقتا .

وصحت نبوءة روچرز عن الجو ، كما تصح نبوءاته عادة ، وكان المفروض حسب توصيته أن نظل فى مكاننا حتى يصفو الجو فنبدأ رحلتنا إلى كراون پونيت ؛ ولكن أوجدن أصر على المسير فى نفس الصباح . واعتقد أن خيال چينى كويت كان يلعب دورا كبيراً فى هذا الإصرار .

ولم تكن هذه الرحلة القصيرة الآمنة صعبة علينا . لولا الأمطار والثلج والأرض الموحلة . والحقيقة أن هذه المتاعب ما كانت تؤثر فينا ، إلا بما كنا نعانيه من ضعف

www.ibtesama.com

شديد بعد طول الجوع والإرهاق ، فما إن حل الظلام حتى كانت رجلاى قد تورمتا بشكل مخيف ، وحدث ذات الشىء لأوجدن . بل وازدادت آلامه عن آلامى بسبب جروحه التى لم يكمل التآمها بعد .

واستغرقت الرحلة التى لا تزيد عن أربعين ميلا خمسة أيام وخمس ليالٍ . . وفى اليوم السابع من نوفمبر ، كانت شمس الخريف الصفراء تسقط على وجوهنا ، حين وقفت للمرة الثانية ، بعد سبعة أسابيع من اليوم الذى وقفت فيه مع هنك مارينار وماكنوت وكونكابوت ، ننظر إلى شبه الجزيرة الذى تقوم عليه قلعة كراون پوينت .

كان المنظر حزينا كئيبا ، فالثكنات الجديدة مغطاة بالثلوج ، حتى يخيل إليك أنها فطيرة هائلة عليها طبقة من السكر . . والخيام تلمع فى اصفرار باهت تحت أشعة الشمس الآفلة . . والأشجار التى لا عداد لها قد تغطت كلها برداء من الثلج الناعم .

واستبد الضيق بأوجدن ، ونحن نقف فى انتظار الزورق الذى سيقلنا إلى القلعة ، ونفد صبره إذ جعل يذهب ويجىء وهو يعبث بما يحمل من متاع ، أو يتحسس ذقنه الشائكة . . ولما استقر بنا المقام فى الزورق أخيراً أصبح

www.ibtesama.com

كالثعلب السجين : تارة يقفز ليحملق فى الشاطئ ، وتارة أخرى ينقل البارود والرصاص من مكانهما إلى الجانب الثانى ، ثم لا يلبث أن يعيد الحمل إلى مكانه الأول . مرة يحك جلد بدنه ، وأخرى يسعل لينظف حلقه . . . وكان شارد اللب لا يجيب على أسئلة ربان الزورق ، ولا يبادلنى الحديث إلا لماما ، وطول الوقت يركز أنظاره على الشاطئ ، كأنه يرى المكان للمرة الأولى . .

وما إن رسا الزورق حتى كان يتعثر كالأعمى فى طريقه على الشاطئ ، لا يلقى بالا إلى الضباط الذين وقفوا مشدوهين لمنظرنا كأنه لا يراهم ، ويقينى أنهم لو كانوا وقفوا فى طريقه ، ما تردد عن السير مخترقا جموعهم ، دون اهتمام أو إدراك لما يفعل .. كانت رغبته العارمة فى الوصول إلى القلعة ومقابلة القائد ، أشبه برغبة رجل يهرع إلى مورد الماء ، بعد أن كاد العطش يقتله .

كانت خيمة القائد آمهرست عند أول ميدان التدريب ، الذى تحيطه الثكنات العالية . وكانت خيمة كبيرة مزدوجة ، يصل جزئيها ممر مشترك ، وعلى جانبيها نصبت خيمتان أخريان ، إحداهما لمساعديه والثانية « لياوره » ، ووقف الحراس أمام الخيام فى ملابس رائعة الجمال ، تمنيت معها

www.ibtesama.com

أن تنشق الأرض وتبتلعنى لما أرتدى من ثياب مهلهلة أحسن بها علىّ بعض المزارعين الطيبين .

كانوا يرتدون معاطف قرمزية لها أحزمة بيضاء موشاة بالذهب .. صديرياتهم صفراء ، وقلاشينهم تكاد تخطف الأبصار ببياضها الناصع .. شعورهم المخضبة بالمساحيق تغطيها قبعات مدببة تحمل شارات براقة ترمز إلى فصائلهم ، وحول رقابهم بنيقات من جلد أسود لامع .. وأشهد أن عينىّ لم تقعا على أجمل من هذه الملابس ، رغم ما كان فيها من برود منفّر .

وتقدم أوجدن من باب الخيمة الوسطى ، وقال : معى رسالة إلى القائد آمهرست .

وخطا نحو ستار الباب ، فإذا بالحارسين يسدان الطريق فى وجهه بسنكيهما ، ثم زجر أحدهما ، وقال الثانى : اذهب إلى خيمة الياور أولا !

وتلاشى شعورى بالخجل من ملابسى ، عندما رأيت من ركن عينى نظرات الازدراء التى ألقاها علينا حراس الخيمتين الأخريين .

وتراجع أوجدن أمام الحراب المتقاطعة ، ونظر إلى الحارسين من قمة رأسيهما إلى أخمص قدميهما ، وقال وقد اختفت الابتسامة من وجهه : إنى أطلب منكما أن تخطراه

www.ibtesama.com

بوجودى . . فأنا اليوزباشى أوجدن من فرقة متطوعى جلالة الملك ، وقد عدت توا من سانت فرانسس ومعى رسالة من الصاغ روچرز إلى القائد آمهرست . . فهيا أبلغاه بوصولى ! أعيدا عليه ما قلته لكما . . .

وأرخى الحارسان حربتيهما ، ورفعا يديهما بتحية عسكرية أنيقة ، وقد احمرّ وجهاهما حتّى صارا فى لون معطفيهما ، وانتصب ظهراهما فى استقامة ، ورفعا وجهيهما حتّى بدا كأنهما يشيران إلى السماء بأنفيهما . . أما الحراس الآخرون فقد تسمروا فى أماكنهم ، وهم يتطلعون إلى الفضاء ، كما تقضى التقاليد العسكرية .

وصاح الجندى الذى جاء يرشدنا إلى خيمة القائد بأعلى صوته يقول : اليوزباشى أوجدن من فرقة متطوعى جلالة الملك عائد من سانت فرانسس .

وأزيح ستار الخيمة ، وظهر من ورائه وجه ضابط شاب وسيم ، وصاح قائلا : يا للداهية ! أوقفوا هذه الضوضاء !

ووقعت عيناه على أوجدن ، فأردف يقول فى صوت خفيض يفيض بالدهشة : يا إله السموات ! تفضل أيها اليوزباشى !

ورفع الستار أمامه ، ثم عاد يقول : أقصد ، انتظر لحظة واحدة ! هل أنت موبوء بالقمل ؟

www.ibtesama.com

ونظر إليه أوجدن باشمئزاز وقال : لم يحدث بعد ! وشكراً على هذه الملاحظة ، ولكننا جئنا لنرى القائد ، وسنراه ولو كنا موبوئين بالقمل !

وحملق الشاب فينا وقال : لا . . لا . . لقد أسأت فهمى ! سأخطر القائد فى هذه اللحظة بحضوركما . . ومن حسن الحظ أنه انتهى من عشائه ! فمنظركما — ولا مؤاخذة — يسلب شهوة الطعام ، ويقتل الرغبة فى الأكل ! أيها اليوزباشى ، لقد قمت بعمل عظيم ! عمل عظيم جدا !

واستدار نحو الباب الثانى للخيمة ، فإذا به وجها لوجه مع رجل نحيل الجسم ، له حاجبان بنيان غزيرا الشعر ، وخدان تشيع فيهما تجاعيد عميقة كأنها حفرت بآلة حادة . . وكان يرتدى شعرا مستعارا ، ويضع فوق سترته العسكرية معطفا أخضر محلى بالفراء . .

قال له الياور : اليوزباشى أوجدن ، ياسعادة القائد ، وهو . . .

وأسكته القائد ، وتقدم منا وهو يمد يده إلى أوجدن ، الذى وقف جامداً كعمود مثبت فى الأرض ، وقال له : إننا سعداء بعودتكم أيها اليوزباشى !

وتراخى أوجدن فى وقفته ، وصافح اليد الممتدة

www.ibtesama.com

نحوه ، وقال : شكرا لكم ، أيها القائد ، شكراً لكم يا سيدى !

وجعل يعبث فى حقيبته بحثاً عن خطاب روچرز .

وتناول آمهرست الرسالة ورفعها إلى أنفه يشمها دون أن يرفع بصره عن أوجدن ، ثم قال له : در أمامى ، أيها اليوزباشى ، لأنى أحب أن أحتفظ بصورة حقيقية لك ، كما أنت الآن !

وأطاع أوجدن الأمر .

وصفر القائد صفيراً طويلا خافتا ، ونظر إلىّ وقال : ومن هذا ؟

أجاب أوجدن : هذا لانجدون تاون من كيتارى ، ياسيدى ، وكان يعمل كاتما لسر الصاغ .

وسألنى القائد : أجندى أنت أم متطوع ؟

قلت : متطوع ياسيدى .

قال : متطوع ! لقد انتهت الحملة ، ويمكن تسريحك الآن ، . . . حسنا !

وجلس إلى مكتب الياور ، وفض أختام الرسالة ، وجعل يقرؤها وهو يتمتم ببعض الألفاظ بين وقت وآخر .. قال وما زال يقرأ : كشفتم المدينة من فوق شجرة ؟ حسناً ! كان الهنود يعربدون ويرقصون . . . وفاجأتم

www.ibtesama.com

لمدينة عند ما نام سكانها جميعا . . جميل ! خربتموها تماما ! عظيم ! عظيم ! خربتموها وحطمتم القوارب . . ها . . . وأشعلتم النار فى بيوتها . . يا إلهى ! قتلتم مائتى هندى على الأقل ، وأسرتم عشرين من نسائهم وأولادهم ؟ نعم . نعم .. نعم ، واستعدتم خمس إنجليزيات من أسراهم . . .

ورفع وجهه إلى أوجدن ، وقال : حدث ليلة أمس شيء مهم أيها اليوزباشى ، فقد جاء أحـــد هنود ستوكبريدج ، وعرفنا بأن النساء الخمس اللواتى ذكرهن الصاغ قد وصلن إلى مصب نهر أوتر ، ومعهن خمس هنديات . . فأرسلت إليهن الزوارق على الفور ، والمنتظر أن يصلن صباح غد .

وأفلت من حلق أوجدن صوت مختنق كأنه شهقة حادة ، فنظر إليه القائد نظرة حادة .. وتعالى صليل أسلحة الحراس خارج الخيمة ، وأزيح الستار ، ودخل ضابط فى ملابس أنيقة ، كلها قرمزية وذهبية وبيضاء ، ولمحت من ورائه جمعا من الجنود على مقربة منا ، ومن ورائهم عدد آخر يتقدم نحو خيمة القائد فى سرعة ..

قال آمهرست : أهذا أنت يا داركى ؟ لقد كنت يوما من المتطوعين ، ولدينا هنا ما يهمك . هذا اليوزباشى أوجدن عائد من سانت فرانسس ، وهو يرتدى آخر طراز للملابس

www.ibtesama.com

المتطوعين ! كلها ثقوب ! لعلك تحب أن تأخذ نسخة منها لتلبس مثلها ونحن ذاهبون إلى مونتريال ! !

وصافح داركى أوجدن ، وتراجع خطوة إلى الوراء كما فعل آمهرست ، ليلقى نظرة فاحصة على هندامنا .. وأقبل خادم يحمل شمعتين ، وعلى ضوئهما صاح داركى قائلا : غير معقول هذا ! غير معقول !

قال آمهرست بلهجة جافة : صدقت !

وعاد إلى خطاب روچرز يقروءه ويتمتم : آه .. نعم .. وجرح اليوزباشى أوجدن جرحا خطيرا فى بدنه .

والتفت إلى أوجدن قائلا : وكيف حدث ذلك أيها اليوزباشى ؟

أجاب : الحقيقة يا سيدى أننى لم أكن واثقا من خلو أحد تلك البيوت من الأعداء ، فلما ذهبت أتبين الأمر ، وجدت أنه لم يكن خاليا ! !

قال آمهرست : هكذا ... هكذا ... !

وعاد إلى الخطاب يقروءه ويقول : وأصيب بجرح خطير .. نعم ، نعم .. واستجوب الأسرى والمسجونين .. فرقة قوامها ثلثمائة فرنسى وهندى عند النهر .. وفرقة أخرى من مائتين .. نعم ، نعم .. ثم العودة إلى رقم ٤ .. الملتقى عند مصب الأمونو أوزاك .. عظيم ! .. هذه رحلة طويلة !

www.ibtesama.com

ونظر إلى أوجدن وقال : كيف تمكنت من اختراق هذه الغابات كلها ، وأنت مصاب بجرح خطير ؟ هل حملوك؟

أجاب أوجدن : لا .. لا ..

قال آمهرست بضيق : ألم تنزف جروحك ؟ كيف أمكنك ذلك ؟

قال : لست أدرى ياسيدى ، ولكنى كنت مضطرا إلى السير بأى ثمن ، فسرت !

قال آمهرست وهو يتنهد دون انتباه : بلا شك .. بلا شك ! دعنا نر ما حدث بعد ذلك .. وصلتم إلى سهول الكوهيز .. نعم ، وجئتم على عائمة إلى هنا . أما المئونة المرسلة إلى أعلى النهر ... ما هذا ؟؟

وقام واقفا وقال وهو يقلب الخطاب ليرى آخره : الخطاب مكتوب فى قلعة رقم ٤ ، وفى أول نوفمبر ؟ ماذا يقصد بقوله إنه سيصعد النهر بالمئونة بعد وصوله إلى رقم ٤ ؟؟ لقد أرسلت الملازم ستيفنس بها .. أرسلت مئونة تكفيكم جميعا ! ألم تجدوها ؟

أجاب أوجدن : لا سيدى ! لقد صعد الملازم ستيفنس النهر بالمؤن ، ولكنه عاد بها ، لقد سمع رجاله طلقات بنادقنا ، فلم يهتموا بالأمر ولم ينتظرونا .. ولقد وجدنا

www.ibtesama.com

النيران التى خلفوها وراءهم مازالت مشتعلة ، وسمعنا صوت بنادقهم أسفل النهر ، وأطلقنا بنادقنا لنلفت أنظارهم فلم يهتموا بها . .

وأردف بصوت منخفض : على أننا كنا على وشك الهلاك جوعا . .

واحتقن وجه آمهرست حتى صار أحمر داكنا ، ونفر عرق فى جبينه المقطب ، وقال : داركى ! اقبض على الملازم ستيفنس وضعه فى الحجز . . نفذ هذا الأمر فوراً . .

وألقى على أوجدن نظرة باردة من عينيه الزرقاوين ثم قال : لا . . لا تضعه فى الحجز ، وإنما ضعه فى حجرة الحرس بالقلعة ، حيث يكون فى منأى عن الزائرين . .

وضرب داركى كعبيه أحدهما بالآخر ، وقال : سمعا وطاعة أيها القائد . .

قال القائد لياوره : خذ مذكرة ياچون باسم ستيفنس هذا . . . إن الحياة مليئة بأمثاله ، ومهما احتطنا واحترسنا ، فلن نحول دون وجود مئات من أمثاله معنا . . إنه وأمثاله يستحقون الموت ، وروچرز وأمثاله يستحقون إقامة تماثيل لهم . . اكتب هذه الأوامر بعد أن تضعها فى الصيغة المناسبة ، ياچون !

www.ibtesama.com

وانطلق الياور الوسيم الشاب يكتب فى سرعة ، وشفتاه تتلفظان بالكلمات .

وعاد القائد ينقل نظره بينى وبين أوجدن ، وقال : جرت العادة أن تقدم مكافأة على مثل هذه الأعمال للرجل الذى تثبت كفايته ويتم نجاحه . . سينال اليوزباشى أوجدن حقه فى الوقت المناسب ؛ ولكنى أقترح أن أهديكما الآن طاقمين كاملين من ملابس المتطوعين . . داركى ! أكون شاكراً إذا تفضلت بتنفيذ هذا الأمر . . ملابس كاملة وما يتبعها يادارکی من قلانس اسكتلندية وقلاشين خضراء ، وحليات الأكتاف . . كل شىء . . هدية من صاحب الجلالة . .

وعاد إلى رسالة روچرز وقال : نعم . . لقد كنت مثلا طيبا . . نعم ، أيها اليوزباشى أوجدن . . ولقد وصلت إلى رقم ٤ فى آخر أكتوبر ، ولم يكن فى مقدورك أن تنال كفايتك من الطعام على ما أظن ؟

قال : لا ، ياسيدى ، كنا نستطيع السير فقط ، حتى البلطة لم نكن نقدر على استعمالها !

قال : ورغم ذلك سرت ثمانين ميلا بهذه الملابس ، وسط تلك العاصفة ؟

www.ibtesama.com

قال : أجل يا سيدى . .

قال : وهل توجعك قدماك ؟

قال : نعم يا سيدى . .

قال آمهرست : حسن جداً ! ولسوف أكتب للصاغ روچرز . . فاحضر لمقابلتى عصر غد ، بعد أن ترتدى ملابسك الجديدة ، وتسترد قدرتك على التفكير الصحيح . .

وأشار إلىّ وأردف : خذ هذا السيد ياداركى ، واصرف له مرتبا كاملا منذ اليوم الثالث عشر من سبتمبر ، فقد حارب معنا متطوعا منذ ذلك التاريخ . . والآن ! رافق السيدين إلى خيمتك ، ومر لهما بما يريدان ، فلعلهما فى أشد الحاجة إلى كأس من الشراب ! . .

وحنى داركى رأسه وقال : تفضلا ، أيها السيدان . .

وتنحى جانبا يفسح لنا الطريق . . وعندما خرجنا من الخيمة ، كان فى انتظارنا مئـــات من الجنود النظاميين والمتطوعين ، يرتدون ثياب العمل أو ملابسهم العسكرية ، ويقفون على بعد منا ينظرون إلينا فى احترام عظيم .. ولم تكن نظراتهم هى تحيتهم الوحيدة لنا ، إذ بدأوا يهتفون لنا ، ويهتفون بلا انقطاع . . .

www.ibtesama.com

الفصل الخامس والأربعون

كنت أومن بأن طلبة كلية هارڤارد خبراء بشرب الخمر ، وكنت أعجب من قدرة صديقى كاپ هوف على احتساء كميات غير معقولة منها ؛ ولكنى ما إن رأيت كيف يشرب اليوزباشيان چيمس تيوت وجوناثان كارڤر ، اللذان كلفهما داركى بالعناية بنا ، حتى أيقنت أن طلبة هارڤارد وكذلك صديقى كاپ هوف ، لا يزيدون جميعا عن أطفال مبتدئين فى بدعة شرب الخمر .

لم يتسلمنا اليوزباشيان تيوت وكارڤر إلا بعد أن مررنا بمحنة الاستحمام فى ماء البحيرة المثلج ، وقص لنا مساعد الحلاق شعورنا المشعثة ، ثم ارتدينا سترات جلدية جديدة خضراء ، تحلى أكتافها الأشرطة والعلامات الفضية ، وانحرفت القلانس الاسكتلندية فوق رأسينا بالزاوية الملائمة .. ولما تم كل ذلك ، أخذنا الضابطان للترفيه عنا .

وأعد اليوزباشى كارڤر الشراب بمنتهى الوقار : خلط الجعة بالروم ، وعطرهما بالسينامون ، ثم أضاف إليهما الزبد الساخن ، ليزيل سم السينامون على حد قوله .. وبدأ الضابطان

www.ibtesama.com

يشربان شاردى اللب . . . كانا يشربان كما ينفض الرجل منا رماد سيجارته دون انتباه .. وشربنا قبل العشاء قليلا ، وشربنا مع الأكل أكثر قليلا ، وشربنا بعده كثيرا جداً .. ورغم أننى كنت أشرب كأسا مقابل ثلاث لكل منهما ، فقد ثملت دونهما ،وأصبحت لا أعى ما يقال أو يحدث حولى ..

ولم أهتم فى الواقع بأمرهما ، إذ لم أكن أتوقع أن أقابلهما مرة ثانية ، وهو شعور إن دل على شىء ، فعلى أننى رجل غير موهوب فى قراءة الغيب .

كان تيوت شابا طويل القامة ، أشقر الشعر مختالا ، له رأس كالكمثرى وخدان بارزان ، وعليه سيماء الشباب المتهور الذى جرب فى شبابه ما لا يستطيع أن يجربه رجل فى حياته كلها .. كان قد وقع أسيرا فى أيدى الفرنسيين قبيل رحيلنا إلى سانت فرانسس ، وأطلق سراحه أخيرا عندما تبادل الفريقان أسراهما ، فانصب حديثه كله على وسائل الهرب التى كان يعدها قبل الإفراج عنه . وبالرغم من أن روجرز كان يضعه فى مصاف خيرة متطوعيه ، فقد كان تافه التفكير مدعيا كذاباً .

أما كارفر فقد ذكرنى حديثه الناعم بحائك ثياب أعرفه فى كمبريدج ، وكان يعرف كيف يقنع الطلاب بأناقة ما يصنعه

www.ibtesama.com

لهم من ثياب تشبه الزكائب .. وكان فى صوته الناعم ونظراته المنكسرة فى أثناء الحديث ، ما يذكرك بقط مدلل يمد لك ذقنه لتدغدغها مداعبا ..

وعرفت منهما أن اليوزباشى ويليامز عاد إلى نيويورك بحروق بشعة فى وجهه وأن الجاويش ماكنوت فقد إحدى رجليه وتم شفاؤه ، ولكنى لم أسمع منهما شيئا عن هنك مارينار .

ولمحت شيئا من الارتباك والخجل يبدو على أوجدن وهو يتصنع عدم الاهتمام فى استفساراته عن قوارب النجدة التى أرسلت إلى خليج أوتر ، لتحضر من أسرناهم فى سانت فرانسس .

قال اليوزباشى تيوت يسأله فى براءة : أتقصد النساء الأسيرات ؟

فلما علت الحمرة وجه أوجدن ، انفجر تيوت وكارفر فى عاصفة من الضحك ، وكل منهما يضرب صاحبه على كتفه مرحا .. وجعلا يستفسران منا عن أشكال هنديات سانت فرانسس ، وكيف وزعناهن على الرجال ، فلما قلت لهما إننا طردنا الأسيرات وأرسلناهن وحدهن ، علا ضجيجهما أكثر من الأول فى شك من صدق قولى . وبدأ الاثنان نقاشاً ثملا حول مزايا نساء الهنود المختلفة ، وكان فى التنافس ما يقطع

www.ibtesama.com

بأنهما خبيران فى تلك المسائل ، وأن لنساء كل موطن مزايا على غيرهن فى المواطن الأخرى ..

وسألانا عما أحضرنا من أسلاب ، وهل جئنا بشىء مهم ثمين ، فلما أجبناهما بالنفى ، تعجبا لأمرنا ، واستفسرا لم لمْ نحضر فراءً من السنجاب الأسود الممتاز ، أو قلادة هندية ثمينة .

وأمام زجاجة جديدة من الخمر ، دخلا فى مناقشة حامية طويلة حول غيرة الهنود على زوجاتهم ومداها ، وقبل أن يصلا إلى رأى قاطع ، كان غطيط أوجدن ، وهو يجلس فى مقعده ، قد علا فوق حديثهما .. ورأيت من الأدب ألا نثقل عليهما أكثر من ذلك ، فهززت أوجدن حتى استيقظ ، وسار يتعثر ورائى ، ثم ارتمينا فوق كومة من الأغطية فى جانب من الخيمة ، ونمنا كالأموات .

وعند الفجر فتحت عينى فى نعاس غالب ، فرأيت تيوت وكارڤر يمزجان مزيدا من الخمر على ضوء الشمعتين الموقدتين ؛ وكان تيوت يقص على زميله كيف تدلهت حسناء هندية فى حبه ، حتى كانت تتبعه كالكلب الأمين أينما حل أو ذهب .. فيعقب الآخر بقصة هنديتين جميلتين تدلهتا فى غرامه هو الآخر ، وظلتا تتبعانه مثل كلبتين أمينتين أينما حل أو ذهب .

www.ibtesama.com

وأغمضت عيني وغطيت أذنيّ ، ورحت في سبات عميق ، حتى علت الشمس في كبد السماء .

* * *

كان الوقت أصيلا حينما صعدت مع أوجدن إلى الشاطئ المرتفع ، فتطلع إلى القوارب القادمة إلى كراون پوينت .

كان المسكين يرتجف انفعالا بعد ما قضى في الانتظار يوما طويلا وهو شارد الذهن حائراً ، لا يبادلني الحديث إلا لماما ، ولا ترتسم على وجهه سوى بسمات مغتصبة . .

وتهادت القوارب نحو الشاطئ المنحنى الذى قامت عليه خيام المتطوعين . . فلما اقتربت تبينت عقدة الشعر التي تعلو رأس سارة هادن ، ووجه السيدة الألمانية السمين المكتنز ، ثم شعر مزويك المشعث ، وجدائل چيني كويت المنسدلة على ظهرها المستوى ، وأخيراً رأيت رءوس الفتيات الهنديات الثلاث تلتمع في ضوء الشمس . . . لقد وصلت الحمولة كلها سالمة . .

وازدحم الشاطئ بالجند والمتطوعين الذين أقبلوا لمشاهدة الأسيرات . ورغم لهفة أوجدن ، وجدته يجفل متراجعا إلى الوراء عندما احتكت القوارب بحصباء الشاطئ ، ورفع الرجال مجاذيفهم عن الماء .. وبدأ الركاب ينزلون إلى الأرض ، وقامت چيني من مقعدها ، وطوحت صرتها فوق كتفها ،

www.ibtesama.com

وأمسكت إبريقها بيدها ، ثم قفزت إلى الشاطئ ، ويممت نحو الطريق تشق لنفسها ممرا بين الجموع الضاحكة الصاخبة .

قال أوجدن بصوت مرتجف : حسناً !

وهبط الشاطئ يقابلها فى خطوات متصلبة غير متزنة ، ولكنها لم تعرفه بذقنه الحليق وسترته الجديدة ، ورمت من عينيها البنيتين نحوه نظرة جريئة ، ولو لم يمسك بذراعها لاستمرت فى سيرها غير عابئة به .

قال : چينى ! چينى ! !

وألقت بصرتها على الأرض وصاحت بدهشة : ياللعجب ! كيف جئت إلى هنا ؟ وكيف حال جرحك ؟

قال : إنى بخير . . بخير ياچينى . . فكيف حالك أنت ؟ لست أدرى والله كم داعبنى الأمل ، ولكنى كنت أيأس من نجاتنا أحياناً ، فينحصر تفكيرى فيكم . . . وكنت خائفاً . . خائفاً . .

فقالت باستهانة : لقد كنا على أحسن حال ، وتيسرت لنا الأمور . . . كنا نحتمى من الأمطار بالمخابئ . . ولقد صدنا خمسة غزلان ودباً وستة سنانير وحشية .

وكان أوجدن يمسك بذراعها كمن يخشى أن تفلت منه ، ولكنه ترك ذراعها ليحمل عنها الصرة والإبريق .

قالت : هيا نصعد الشاطئ . .

www.ibtesama.com

وألقت نظرة غاضبة على مجموعة من المتطوعين وحفنة من النظاميين التفوا حولها يحملقون فيها ويسخرون منها .

سألها أوجدن : ماذا تحوى صرتك هذه ؟ إنها ثقيلة ، وما كان يجب أن تحملى شيئاً ثقيلا كهذا ياچينى . . هاتها أحملها عنك . .

قالت : لا . . سأحملها أنا . . إنها بعض حاجاتى ، أتيت بها من سانت فرانسس . . عقود وفراء .

وصعدت الشاطئ تتعثر مقبلة نحوى ، ثم التفتت وراءها إلى فتى هندى من ستوكبريدج ، كان يسير على مقربة منها .

قال أوجدن وهو يتبعها : لم يكن معك شيء من هذه الأشياء عندما تركنا سانت فرانسس . . وعلى كل حال ، سيحملها لنا أحد الجنود ونحن فى طريقنا إلى الوطن .

صاحت : الوطن !

وعادت تنظر خلفها إلى الفتى الهندى ، ثم التفتت إلى أوجدن وضحكت فى وقاحة وجرأة .

قال : لقد حصلت على إذن بترك الجيش ياچينى ، وباستطاعتنا لو أردتِ أن نسير اليوم إلى وطنى بولاية چيرسى .

قالت : چيرسى ؟! چيرسى ! لن أستطيع الذهاب إليها ، فقد قررت أن أرافق أمى .

www.ibtesama.com

قال : لقد خطر لى أنك قد تريدينها معنا ؛ ولست أرى مانعا يمنعها من مرافقتنا ، فنى بيتى متسع لها . .

قالت : لا . . لا . . لا أستطيع الذهاب معك .

صاح : لاتستطيعين الذهاب معى ؟ ! ولمَ ؟ أصغى إلىّ ياچينى . .

ودحرجت الفتاة مقلتيها الى أعلى فى دلال ، كما فعلت أمام روچرز فى حلبة الرقص بسانت فرانسس ، ولكنها فى هذه المرة كانت توجه إغراءها إلى الفتى الهندى وتبسم له .

وتتبع أوجدن نظراتها ، ثم التفت إلىّ فى يأس ، وعاد ينظر إلى چينى فى ارتباك وغباء ، وقال :لا ، يا چينى ! لا . . . انتظرى ! انتظرى ياچينى . . لا يمكن أن تفعلى ذلك ! أنت . . أنت . .

واستدارت إليه تقول : لا يمكننى أن أفعل ماذا ؟ إنى أعمل ما أحب كما أريد ، وليس لأحد على حق ! لم أطلب من واحد منكم أن يأتى بى من سانت فرانسس ! إنى ذاهبة إلى ستوكبريدج لأعيش فيها . .

وهمس أوجدن : ستوكبريدج ! . . ستوكبريدج !

ونظرت إليه متحدية ، فلما لم ينطق بكلمة ، نادت الفتى الهندى فأقبل مسرعاً . . وحملت صرتها تحت إبطها

www.ibtesama.com

اليسرى وأمسكت ابريقها بيمناها ، وأسرعت تجرى وراء الفتى ، وقد ناء جسدها تحت حملها الثقيل . .

وتحسس أوجدن حزامه وبلطته وقلنسوته ، كأنما يشك فى وجود هذه الأشياء ، ثم أطلق ضحكة عالية ، وقال : ما رأيك فى هذا ؟! إنها بيضاء فى ظاهرها ، هندية فى قلبها ! لعنها الله من فتاة قذرة !

والتفت إلىّ فى توجس ، كأنما يحس بالعار لمجرد ذكره لاسمها ، وقال بصوت خافت : لقد كانت . . . لقد كانت تعطف علىّ كل العطف . . وأعتقد أنه لولا عنايتها بى ، ما بقيت حيا إلى اليوم .

وانتابنى فى تلك اللحظة شعور ظل يراودنى مرة ، بعد مرة ، وهو شعور خانق يحس به كل من اشترك فى الحرب أو انتظم فى سلك جنودها ، أى الحنين للأهل والوطن . .

لقد سئمت نفسى وحشية الحرب ، ولم أعد أفكر إلا فى الوطن والأهل والأصدقاء . . إنهم الوحيدون فى هذه الدنيا الذين أضع ثقتى فيهم ، وأيقنت بأنه لأهون علىّ أن يقتلونى ويمثلوا بى أبشع تمثيل ، من أن أشترك فى أى حرب أخرى . .

www.ibtesama.com

الفصل السادس والأربعون

وعندما أخذت بيلى من قلعة رقم ٤ ، تبعا لأوامر روچرز ، لم يبد على الصبى شيء من الاستياء لتركه أصدقاءه الجدد بالقلعة ، بل تبعنى فى استسلام ، شأنه فى ذلك شأن غلمان الهنود الذين إذا وقعوا فى الأسر بحثوا عن سيد يتعلقون به ويتبعونه دون تذمر ..

وتقدمت مع بيلى إلى الشرق بسرعة وسهولة ، وكنا نسير وسط غابات أشجارها جرداء .. ووقفت عند تقاطع وانبارتون لأستفسر من حانة فلنتلوك عما إذا كان الجاويش ماكنوت قد عاد إلى بيته أم لا .. وتبين لى أنه لم يعد بعد ، كما لم يستطع فلنت ، صاحب الحانة ، ولا خادمها ، أن يرشدانى إلى أخباره .. وكل ما قالاه أنهما سمعا بأنه أرسل إلى المستشفى فى ألبانى .

وكان فلنت يعتبر ولاية ألبانى وسكانها الهولنديين ، أشد خطرا من الفرنسيين والهنود ؛ فلما قلت له بما سمعت من أن ماكنوت فقد إحدى ساقيه ، أومأ برأسه فى حزن وقال : لست أشك فى ذلك ؛ فهؤلاء الهولنديون يأخذون كل ما يمكنهم أخذه ممن يقع فى براثنهم من أهالى نيو انجلند ،

www.ibtesama.com

فإذا كان ماكنوت قد فقد ساقا واحدة هناك ، فمعناه أنها كل ما استطاع الهولنديون أن يسلبوه منه .

ثم قال فى تيه وإعجاب : هناك شخص واحد من نيو انجلند يجب على الهولنديين أن يبتعدوا عنه . إنه الصاغ روچرز وأيم الحق .. ففى مقدوره أن يسلخ جفون عيونهم ، وإذا حاولوا أن يغشّوه فى التجارة ، فلن يتورع عن حشو جيوبهم بسندات لا قيمة لها ..

وأنعمت النظر فيه ، فلم أر فى وجهه سوى آيات الإعجاب والفخار .

قلت : وكيف يحصل الصاغ على هذه السندات ؟

قال ضاحكا : يطبعها بنفسه !

قلت : اسمع ! إن الصاغ صديقى ، ولقد أنقذ حياتى من موت محقق .. وطبع السندات الذى تتكلم عنه يعتبر تزويرا ، ولكن ، لعلك لا تدرك ما فى قولك من إهانة للصاغ ..

قال بلهجة الاعتذار : لم أقصد بكلامى سوءا .. ولكنها الحقيقة . فكثيرون فى هذه المنطقة يقومون بطبع سندات مالية ، ومنذ أربع سنوات أو خمس وقف الصاغ أمام محكمة بورتسماوث العليا متهما بهذه التهمة .

صحت : الصاغ روجرز ؟ هل حوكم الصاغ على ذلك ؟

www.ibtesama.com

قال يطمئنني : إن القضية لم تأخذ مجراها ، فقبل رفعها أسرع الصاغ إلى پينچ ونيتورث العجوز وأخذ ترخيصا منه بطبع السندات ، وفى ذات الوقت بدأ ينظم حربه على الهنود .. ولم يعد هناك من يهتم بفعلته السابقة ، فنسى الناس أمرها .. والله إن الصاغ لأمهر من أن يقع فى مأزق كهذا .

قلت غاضبا : إنك مخطئ ولا شك ، ولعل الأمر اختلط بينه وبين شخص آخر ..

وألقى علىّ فلنت نظرة تعجب ، وأنا أغادر الحانة غاضبا مستاءً لأستأنف رحلتى مع بيلى .

وهدأ غضبى بالتدريج ونحن نخترق المحلات والمزارع فى طريقنا إلى إيپنچ ونيو ماركت .

وبالرغم مما كنت أشعر به من حنق على فلنت وأمثاله ، ممن يروجون هذه الشائعات المضحكة على البطل العظيم ، أخذت بوادر الشك تتسرب إلى قلبى فتقلقنى .. قلت فى نفسى : على كل حال ، أنا لم أعرف من ذلك البطل سوى جانبه العظيم ، والأبطال رجال ، ولم يخلق الرجال الكاملون بعد.

* * *

يممت مع بيلى شطر خليج جريت باى ، حيث سبق أن تركت أنا وهنك مارينار قاربنا مع مزارع فى دورهام على نهر أويستر ، وكل أملى أن يكون هنك قد عاد واسترد القارب

www.ibtesama.com

وهو فى طريقه إلى بورتسماوث .. فإذا لم يكن ذلك ، وإذا لم يكن المزارع قد سمع خبرا منه ، فمعناه أن هنك قد أصبح في حال لا تسمح له باستعمال القارب ، وفى هذه الحالة لاتعود هناك حاجة لتركه ، ويمكننا أن نأخذه أنا وبيلى لأنفسنا :

كانت صدمتى عنيفة عندما وجدت المزارع ما يزال يحتفظ بالقارب ، فقد كنت أحب هنك حبا عظيما .. ولما سألت الرجل عما إذا كانت لديه أخبار من صديقى ، هز رأسه نفيا ، وقال : ولا كلمة .. الحقيقة أننى فقدت الأمل فى رؤية أحد منكما مرة ثانية .

وأردف يسألنى ، وقد بدا الاهتمام عليه عندما رأى بيلى : من أين جئت به ؟

قلت : من سانت فرانسس .

قال : أعرف ذلك ؛ ولكن أين عثرت عليه ؟

قلت : كنت هناك ... ولقد أعارنيه الصاغ روچرز .

قال : يا إلهى ! يا إلهى ! أكنت مع الصاغ روچرز فى سانت فرانسس ؟ لقد سمعنا كثيرا عن هذه الحملة .

وكان يجد مشقة فى البحث عن كلمات لأسئلته ، فأدار دفة الحديث إلى أحوال الجو أثناء رحلتنا :

فقلت له : كان فظيعا جدا .

قال فيما يشبه السرور : لقد نزل عندنا مطر غزير أيضا ؛

www.ibtesama.com

وبعد برهة من التفكير قال : وماذا حدث لزميلك الذى سألتنى عنه ؟ ذلك الرجل الذى جاء معك فى القارب ؟

قلت : لقد أصيب بحروق شديدة من جراء انفجار البارود .

وهز الرجل رأسه وقد تأثر لحديثى ، ثم سألنى فى حياء إن كان بيلى يحب أن يأكل قطعة من فطير التفاح .

وأكلنا الفطيرة بعد أن نقلنا القارب من الجرن إلى النهر ، وكان الرجل وزوجته يقفان قريبا منا ويتظاهران بالانشغال عنا .. وعندما عرضت عليه أجراً نظير حفظه للقارب ، لم يرفض عرضى رفضا قاطعا فحسب ، بل احتج أيضا على شكرى له ..

قالت لى الزوجة بعد أن ركبنا القارب : لو جئت مرة ثانية إلى هذه الجهة ، فاعتبر بيتنا بيتك ، ولا تتردد فى قبول ضيافتنا ، وعندما ترى صاحبك الذى أحرقه البارود أبلغه أسفنا الشديد لما أصابه .

ووقف الزوجان صامتين عندما تحرك القارب بنا ؛ وكان فيهما شىء يبعث الراحة فى النفس . وأسعدنى أن أعود لهؤلاء القوم ثانية ، فأهالى نيو انجلند قوم كرماء طيبو القلوب ، بالرغم مما عرف عنهم من ميل إلى الصمت والتحفظ ..

* * *

www.ibtesama.com

انزلق القارب على صفحة الماء مسرعا ، وقد جلس بيلي فى مؤخرته ممسكا بالدفة ، حتى دار موغلا فى مياه پيسكاتاكوا ، وبان لنا بيت جدّى أمام مرساة پاپيستوف فى أعلى النهر .. وكان أمرا من الغرابة بمكان أن أعود بالصبي بيلي من سانت فرانسس ، كما صنع أجداده يوم اختطفوا عمتي من بيتها ، وحملوها عبر فيافى ممفراماجوج وأخاديدها ..

يعتبر البيض وقوعهم فى أسر الهنود أمرا بشعا ، ومع ذلك لم أر شيئا من تلك البشاعة وأنا أعود ببيلي أسيرا إلى موطني ، بل لعلى كنت أعتبر بيلي سعيد الحظ بهذا الأسر ، وكانت السعادة بالفعل تبدو فى نظراته .. وأدركت أن أولئك الهنود الذين أسروا أهلي لم يروا فظاعة فيما يفعلون ، بل ربما ظنوا ، كما ظننت الآن ببيلي ، أن أسراهم أسعد حظا مما كانوا عليه قبل الأسر .. ترى هل وَجَدَ أجدادى الذين أسرهم الهنود فى تلك المغامرة بعض السرور والغبطة ؟ وهل كان تصرف أولئك المتوحشين القادمين من سانت فرانسس أقل بشاعة من تصرف البيض من أمثالنا ؟

وانتويت أن أسكت على ما يجول بذهني ؛ إذ كنت أعلم أن مثل هذه الخواطر والآراء تتنافى مع عقائد البيض ، ولا يجوز لى الجهر بها ، إذا أردت أن أتجنب مزيدا من المتاعب فى بورتسماوث .

www.ibtesama.com

واهتزت مشاعرى لمرأى المراعى الممتدة على جانبى النهر العريض ، رغم ما فعله الخريف بنضرتها وجمالها ؛ فالنهر يختلف عن غيره من الأنهار بما يخلفه من أثر على كل من عاش على شاطئه : كان عميقا سريع الجريان ، لا تتجمد مياه موانيه فى بورتسماوث ، وعلى ضفتيه خلجان واسعة تحيطها مراع خصيبة الأرض ... وكانت مياهه الرمادية المحْمَرّة تندفع إلى البحر ثم تعود وترتد فى دوامات يعلوها الزبد والموج، كأنها تغلى وتفور بلا انقطاع . وكان فيها شبه بمياه المحيط ، لا فى حركتها الدائمة وبرودتها القاسية ، ولكن فى جوها المنعش الباعث للنشاط . وكان للنساء على شاطئيه شعر أسود كشعر البزابيث ، أما ذوات الشعر الأشقر فكن أندر من الكبريت الأحمر .

كان أول ما صنعت ، عندما عدت من مزرعة جدى منذ شهرين ، أن ذهبت لأرى البزابيث مباشرة ، ولو كانت لدى الجرأة الكافية ، لفعلت ذلك مرة أخرى ، ولكنى تغيرت ، فقد تعودت فى هذين الشهرين أن أطيع الأوامر ، لا أعمل ما أريد ، وإنما أعمل ما يراد منى . . كانا شهرين من الطاعة فى فرقة المتطوعين .

لقد قيل إن النظام يقوّم الشخصية ، ولكنى لا أظن

www.ibtesama.com

ذلك ، فقد رأيت جنودا فشلوا كل الفشل ، عندما رفع عنهم نير النظام .

وعلى أى حال ، كنت أحس برغبة ملحة فى رؤية أمى وأبى ، كما كنت أتوق لمقابلة أم هنك مارينار ، لأعرف ما لديها من أخباره .

* * *

ما إن مرّ القارب مخترقا مصب نهر جريت كرف ، حتى لاح أمامى الشاطئ تغطيه البيوت الرمادية ، ومن وسطها برز برج الكنيسة عاليا يتوج جزيرة هيرون ، وعلى صفحة الماء انتثرت الجزر الصغيرة تحمى ميناء بورتسماوث من طغيان المحيط .

ولطالما اشتهيت طوال الشهرين الماضيين أن أمتع عينى بهذا المنظر ، ولكنه بدا لى الآن أصغر مما كنت أتخيل ، وأقل شأنا .

وأدرت القارب شرقا صوب خليج مندام حيث يقيم هنك . ولم يكن بيته شيئا عظيما فى يوم من الأيام ، ولكنه ظهر لى الآن كأنه يسبح فى بحر من الوحدة والسكون ... وأرسى بيلى القارب وقبع فيه يحرسه ، ولم أر أحدا من سكان البيت ، فتقدمت إلى الباب وطرقته . . وفتحت لى أخت هنك ،

www.ibtesama.com

وكانت تدعى ليدى على اسم ليدى پيپريل زوجة سير ويليام پيپريل .. ولم تحدثنى الفتاة بكلمة ، ولكنها أفسحت لى الطريق لأدخل .

سألتها : هل مسز مارينار بالبيت ؟

قالت : لا ، ولكن هنك موجود هناك .

وأومأت برأسها نحو غرفة صغيرة تجاور المطبخ .

ودخلت غرفة لا تزيد على مخزن صغير ، وكان هنك يرقد على سرير خشبي إلى جوار الحائط ، يحملق فى السقف ، وملاءات السرير معلقة فوقه كشباك الصيد .

قال بصوت رفيع باهت ، دون أن يحول عينيه عن سقف الغرفه : أهلا ! متى عدت ؟

قلت : عـــدت لتوى ، ولقد جئت بالقارب ، إذ قد نحتاج إليه .

وأغمض عينيه وقال : لا .. لا أريده ... خذه .

سألته : أيؤلمك الحديث ؟

قال دون أن يحرك شفتيه : لا يؤلمنى الحديث إلا إذا تحركت .. لقد نقلونى إلى هنا فى العربات على مراحل ... كانت رحلة طويلة ... طويلة جدا !

كان شروده يعصر قلبي بقبضة من الجليد ، فقلت وأنا

www.ibtesama.com

أحاول أن أبعث السرور فى نفسه : هنك ! هيا أسرع بالشفاء لنعود إلى الصيد ثانية ، إنى أرى الطيور هذا الموسم أكثر مما فى كندا كلها .

قال بصوت مجهد : نعم .. أتمنى ذلك .. وسوف أشفى .. كنت أومن بأنك ستعود ، وظللت أعلل النفس بذلك ، كما كان كاپ هوف يتوقع مجيئك بين يوم وآخر .

سألته : وكيف حاله ؟ أما زال يقنع بأتفه الأعمال كعادته ؟

قال : بلى ..

وأحسست فى لهجة حديثنا عن كاپ ، كأننا غبنا عن كيتارى دهرا ، لا شهرين فقط ..

قلت : أيقوم على علاجك طبيب ماهر ، ياهنك ؟

قال : ليس هناك أطباء ماهرون ، كلهم جهلاء ! يقول الواحد منهم إن خير دواء للحروق أن تطليها بالزيت ، ويجىء الآخر فيدعى أن الزيت أسوأ دواء ، ويؤكد أن العلاج الوحيد هو نسيج العناكب . وألعن هؤلاء كلهم أطباء الجيش .. ليتنى ما عرضت نفسى على أحد منهم ..

قلت : أهى الحروق التى تسبب آلامك ؟

أجاب : نعم ، إنها تأبى أن تندمل مهما صنعت بها .

www.ibtesama.com

ولم يسعفنى عقلى بما أقول ، فبقيت صامتا .

قال يستأنف كلامه : إنها تؤلمنى الآن ، أقصد أن آلامها خفت كثيرا عن اليوم الأول ، ولا أشعر بها إلا إذا سعلت . . . ماذا جـرى لليوزباشى ويليامز والجاويش ماكنوت ؟

قلت ، وأنا لا أرى ما يدعو لمضاعفة آلامه بذكر الحقيقة : إنهما بخير . . على أحسن حال .

قال : جميل ! لقد خيل إلى أن لا مفر من بتر ساق الجاويش . . كما أنى أكره أن يكون مصيرى كويليامز ، فقد ذهب وجهه ولم يبق منه سوى القليل . . خبرنى بأحوالك منذ افترقنا .

قلت بإخلاص : أحوالى كانت طيبة . . . طيبة جدا !

قال : ماذا تقول ! لقد سمعنا أنكم فقدتم قواربكم ، وبعد ذلك انقطعت أخباركم عنا . .

قلت : أى نعم . . لقد ضاعت القوارب . . تصور ! ولم تكن رحلتنا سهلة بأى حال من الأحوال .

فتمتم هنك : هذا ماسمعه كاپ . . وبودى لو أمكنك أن تروى لى أخبار الحملة كلها . .

قلت : لقد جئت بصبى هندى من سانت فرانسس ، وقد

www.ibtesama.com

أطلق عليه روچرز اسم بيلى ، أما اسمه الحقيقى فأصعب من أن يُنطق .

وابتسم هنك فى وهن ، وقال : أحب أن أراه .. بالتأكيد .

قلت : إنه يجلس فى القارب . . وسأحضره لك الآن .

قال : لا . . أحضره مرة أخرى . . والآن ارو لى أنباء رحلتك ، فهذا أحب الأحاديث إلى نفسى . . هذا — طبعا — إن كان وقتك يسمح لك بذلك .

وأحضرت مقعداً من المطبخ ، وجلست أقص عليه كل شىء .

كان يرقد تحت الملاءات المنشورة مغمض العينين ، لا يكاد المرء يشعر بخجلات تنفسه .

وأخيراً أقبل أهل البيت من صيدهم ، بعد أن باعوا حصيلة يومهم ، ووقفوا بالباب ينصتون إلى القصة فى سكون . . وذهب الأمر بواحد منهم أن هبط إلى المرساة يغرى بيلى بالصعود إلى الشاطئ ؛ ولكن الصبى دفع القارب بعيداً ، وهو ينظر إليه فى شك وريبة .

وكان الليل قد أرخى سدوله عندما انتهيت من القصة ، فقلت : وأظن أنى نسيت كثيراً من الحوادث ، ولكنى سأتذكرها وأرويها لك فى زيارة أخرى .

www.ibtesama.com

قال : نعم . . سأعرفها منك فيما بعد . . لقد مررتم بأوقات عصيبة ، وأنا سعيد بعودتك ؛ فقد غلبنى الخوف ، وكدت أيأس من نجاتك . . . إنى سعيد بعودتك .

وانصرفت من البيت فى سكون بعد أن أخبرنى أهل هنك بأنهم أرسلوا خبر وصـــولى إلى أمى ، وأنها تنتظرنى للعشاء .

وناديت بيلى ، فأقبل بالقارب من غياهب الظلمة . . ورحنا نجذف حول منحنى النهر فى طريقنا إلى مرساة بيت أبى . ولما اقتربنا ، شاهدت نارا موقدة لإرشادنا ، فحولت القارب نحوها ، ورأيت أبى وإخوتى فى انتظارى على الشاطئ .

وصاح أخى أوديورن يقول : إنه هندى أليف ! لقد أحضر لى هنديا مستأنسا !

وأمسك أبى بمقدم القارب يمنعه من الاصطدام بالمرساة وهو يقول : مرحبا بك فى بيتك يا ولدى . . لقد ذبحنا لك ديكا روميا ، عندما علمنا بوصولك ، مع أننا كنا نحتفظ به لعيد الشكر يوم الخميس القادم . .

www.ibtesama.com

الفصل السابع والأربعون

ومات هنك مارينار في فجر اليوم التالي ... وارتاحت نفسي لخلاصه من آلامه ، فليس من العدل لمن أغرم بالغابات ، وعاش فيها طول حياته ، أن يُسجن بين جدران أربعة ، لا تؤنسه سوى الآلام ، ولا تربطه بالحياة غير أنفاس واهنة تتردد في جسد محطم .

وذهبت أشيع جنازته مع أسرتي ، واستحال على أن أبعد بيلي عني في تلك المناسبة ، فصحبته معي .. ورآه أحد المشيعين فهمس لزميله يقول : متوحش قذر سفاك ! آه لو كان الأمر بيدي لذبحتهم جميعاً ! !

وأدهشني قوله ، فلم يكن قد أصاب هذا الرجل ، الذي يفخر بأنه مسيحي طيب ، أي ضرّ من الهنود .. وعجبت لنقيض ذلك الشعور الذي يتبدى في حب بيلي لي وعطفه عليّ ، رغم أنني ساهمت في إبادة قومه وإفناء أفراد عائلته .

وكان الصبي يحيرني في أمور أخرى : فقد علمه أخي أوديورن كثيراً من الأشياء في وقت قصير ، ومع ذلك تعبت كثيراً في نهيه عن استعمال الألفاظ البذيئة التي تعلمها من

www.ibtesama.com

المتطوعين ، وكان يجد منتهى الصعوبة فى التمييز بين ما يقال فى حضرة الرجال ، وما يقال فى حضرة النساء .

كان يتبعنى أينما سرت فى شوارع بورتسماوث وطرقاتها .. وأعترف هنا ، أنى كنت أتعمد الإكثار من هذا السير متبختراً فى ملابس الجيش البراقة ، يطربنى أن يحملق الناس فى ، ويسرنى أن يستوقفنى المهنئون ببطولتى ، ينادوننى بالضابط تاون .

وتقابلت يوما وجها لوجه مع عدوىّ اللدودين : النائب العام كلاجيت والعمدة پاكر ، فضحكت منهما ساخرا .. واحمر وجهاهما ورقبتاهما كأنهما ديكان روميان ، ولم ينبسا بكلمة .. كنت مطمئنا إلى أنهما لن يستطيعا عمل أى شىء ضدى ، وليس فى وسعهما أن يتدخلا فى أمرى الآن ، بعد أن صرت بطلا من أبطال المتطوعين ، وعدت إلى الوطن وسترتى تزينها شارات الشرف ، بعد نصر عظيم فى سانت فرانسس . هذا ، إلى أنى زميل للصاغ روچرز العظيم ، وصديق للقائد آمهرست نفسه ! !

كنت أفكر خلال تجوالى هذا وأعجب ، ترى كم من الوقت سيمضى حتى ألتقى بالبزابيث ، لترى ما حل بى من تغير ، فتعض بنان الندم على سابق معاملتها السيئة هى وأهلها

www.ibtesama.com

للمقاتل الشجاع الذى عاد من الحرب يتبعه أسير أحمر يجرى فى أعقابه طائعا مستأنسا ؟ ترى هل رأتنى من نافذة بيتها مثلا ؟ وهل أثار مرآى شجونها ، فقضت سواد الليل تبلل وسادتها بدموعها ؟ وهل تمنت أن يرق قلبى لها ويعود إلى سابق عطفه عليها ؟!

كنت أعلل النفس بأنها ستكتب لى خطابا كله خشوع وخضوع تدعونى لزيارتها .. فلما مضى أسبوع دون أن أسمع منها خبرا ، قررت أن أكون أكرم منها خلقا ، فاتخذ نحوها الخطوة الأولى ..

والحقيقة أنى لم أعد أطيق الصبر على بعدها ..

عندما ضربت المطرقة النحاسية اللامعـــة طرقات عسكرية ، على باب السيد المبجل آرثر براون ، فتحت لى أم البزابيث . . واستقبلتنى بدهشة وقور فيها بعض من حرارة الترحيب ، وصحبتنى على الفور إلى المطبخ ، حيث البزابيث وجين تفرمان اللحم وتطهوان الفطائر استعداداً لعيد الشكر ، شأنهما شأن نساء نيو انجلند أثناء هذا الموسم . .

وكانت حرارة الأفران قد أكسبت وجه البزابيث حمرة وجمالا أدارا عقلى . . . كانت أجمل كثيراً من صورتها التى ارتسمت فى خيالى طوال غيبتى عنها . .

www.ibtesama.com

وألجم لسانى فسكت . . ولم يكن بى حاجة للحديث ، فقد بدأت الفتاتان تثرثران فيما يشبه تغريد الطيور ، وتصفان كيف علما بقرب عودتى من سام ليڤرمور ، وكان قد ذهب لعيادة هنك المسكين ، فعلم منه باحتمال رجوعى . . وجعلتا تصفان كيف عم السرور البلاد عندما نشرت صحف بورتسماوث أنباء تخريب سانت فرانسس ، وكيف كان الأصدقاء يسألونهما عن أخبارى مرة بعد مرة ، ظانين أن لابد قد وصلتهما أخبار منى .

وقالت مسز براون فى لهجة التأكيد : وسيكون باستطاعتنا الآن أن نقدم لهم ذخيرة وفيرة من الأنباء المثيرة .

وقالت اليزابيث وهى ترمينى من ركن عينيها بنظرة جعلت قلبى يقفز من ضلوعى : كيف كانت ، وما شكلها يا لانجدون ؟؟

قلت : شكل ماذا ؟

قالت : الأمور كلها . . شعوركم وأنتم تقطعون الطريق الطويل ، وتقومون بهذا العمل الرائع !

قلت : لم يكن فى الأمر روعة أكثر مما فى الخروج إلى الصيد .

وخيم الصمت على النساء الثلاث ، وأدركت وجوب

www.ibtesama.com

الحرص فى إجاباتى ، وإلا أثرت مشاعرهن ضدى . . لذلك أردفت بسرعة : ولكن الهنود طبعا جعلوا الأمر يختلف عن الصيد فعلا . . . لقد جئت بواحد منهم معى . .

وصاحت مسز براون متعجبة ، وعصرت اليزابيث كفها انفعالا ، وحملقت فىّ بعينين كالليل الأسود الحالك ، وقالت : هندى !! أأحضرت هنديا معك ؟ أين هو ؟

قلت : إنه فى القارب على مرساة سبرنج . .

وارتسم الفزع فى نظراتهن ، فأسرعت أقول : إنه لايزيد عن صبى ، وقد صحبته وأنا قادم إليكن وتركته فى القارب .

وصاحت اليزابيث تقول : ولمَ تركته يا لانجدون تاون ؟ سيتجمد من البرد هناك . . أتقــول إنك صحبته طول رحلتك من . . . ؟

وقاطعتها مسز براون تقول فى صرامة : سيغضب أبوك جداً ، يا اليزابيث ، إذا شرع مستر تاون يقص أخبار مغامراته فى تلك الفيافى ولم يكن الصبى حاضرا هنا . .

والتفتت إلىّ تقول : لقد دعونا مستر ليفرمور للعشاء معنا ، وسوف يزداد سرورا هو ومستر براون بوجودك . . وأقترح أن تذهب اليزابيث معك إلى المرساة ، لتأتى بهذا الـ . . . الهندى ، وسنبقيه فى المطبخ فى أثناء العشاء .

www.ibtesama.com

وكان واضحاً أنها تكره أن تذكر أى إنسان بلفظ بسيط مثل كلمة هندى مجردة من أى نعت أو لقب .. وجعلت أتخيلها وهى مع زوجها فى حرم غرفة نومهما وأعجب .. أتراها تصر على مخاطبته بمستر براون ؟! وانتهيت إلى أنها لابد فاعلة ذلك ..

ولم يكن بوسعى إلا أن أبدى ابتهاجى بدعوتها للعشاء ، واستعدادى لإحضار بيلى حالما تتهيأ الزبابيث للخروج .

وغمرتنى السعادة وملأنى الكبرياء ، عندما انفردت بها ، رغم وجودنا فى الطريق العام .

قلت : لا يمكنك أن تتصورى كيف كان خيالك يتجسم فى أحلامى ، ونحن نمر بأحلك الأوقات ، ونكاد نموت جوعا وضعفا !

قالت : عجبا ! أكنت تحلم بى حقيقة ؟

صحت : أحلم بك ؟ لقد مرت أيام ، خصوصا قرب نهاية الحملة ، كانت أحلامى تتجسم كالحقيقة ، حتى لأكاد ألمسك وأسمع حديثك . وكم كان حديثك عذبا جميلا !

وتلفتت حولها خشية أن يسمع أحد حديثى .

وأردفت أقول : وعندما اشتدت المحن ، ونفد الطعام ،

www.ibtesama.com

وخيل إلى أن نهايتى قد حانت ، حاولت أن أبعث إليك برسالة من أفكارى عبر الأثير ، لعلك تشعرين بما أنا فيه ، وتمنيت إذا انتهت حياتى ، أن يسمح لروحى بأن ترفرف عليك وتراك ، قبل أن تصعد إلى مستقرها الأخير.

وتمتمت تقول : لا تتحدث بمثل هذه الأقوال :

فسألتها : ألم تشعرى باقتراب روحى منك يا البزابيث؟

ولم تحر جوابا .

ولست متأكدا أفهمت ما أعنيه بكلامى أم لم تفهمه ، ولكنى كنت سعيدا بوجودى معها ، مثلما كنا قبل تلك الليلة المشئومة التى أفلت فيها الزمام ، وتحدثنا بما لا يصح أن يقال .

ولما وصلنا إلى المرسى ناديت بيلى ، فأقبل من غياهب الظلام كشبح قائم صامت يلتحف رداءً أخضر . وأرادت البزابيث أن تربت رأسه ، ولكنه أجفل منها مبتعدا :

قلت : أرأيت إلى أى حد يصل غباء الهنود ؟

وسرنا عائدين إلى بيت آل براون ؛ وبيلى فى أعقابنا ملتفا بملاءته الخضراء .. وكان الناس يديرون رءوسهم ليشهدوا هذا الموكب الغريب .. وملأ السرور نفس

www.ibtesama.com

البزابيث ، وقالت : لن يكون للمدينة حديث غداً غير هذا ، يا لانجدون . .

وأحسست بكتفها ترتكز على ساعدى . . كانت فى سعادة عارمة ، وكنت أنا أيضا فى سعادة لا نهاية لها .

واستقبلنى مستر براون بالترحيب مثلما فعلت زوجته وبنتاه ، وقال فى لهجة تمثيلية حادة : أعدتَ من الحرب ؟ لقد استحققت شكر المجتمع وتقديره ! لقد أمنتم حدودنا من عدوان ذلك البلاء الأحمر ، وانتصرتم لله على المشركين والكفرة . .

ولم أشعر بوجود ذرة من الإخلاص فى كلامه ، وارتحت عندما حول اهتمامه إلى بيلى ، وقال فى بشر : كافر صغير أعمى البصيرة ، أقصاه جهله وسواد قلبه عن معرفة الله !

قلت : ولكنه لقيّة مفيدة ، فقد حمل بندقية اليوزباشى أوجدن وأغطيته مائتى ميل دون تذمر .. ليس لبيلى مزايا مطلقا ، ولكنه صبى ككل الصبيان . .

قال : بيلى ؟ أممكن أن يتخذ هؤلاء المتوحشون أسماء مسيحية ؟ أكان يدعى ولم ؟

قلت لا يا سيدى ، إن اسمه الحقيقى صعب النطق جدا ، ولذا أطلق عليه الصاغ روچرز اسم بيلى .

www.ibtesama.com

قال مستر براون فى جد : الصاغ روجرز ! إنه يحارب فى سبيل الله ، ويرفع سيفه من أجل غرض أسمى .. اسأل الغلام عن اسمه الأصلى ..

قلت : إن الهنود لا ينطقون بأسمائهم يا سيدى ، إذ يعتقدون أن النطق بها مجلبة للشؤم .

ووجه إلى مستر براون نظرة استنكار لأنى أتحدث عن عوائد الكفرة بهذه البساطة ، وحمدت الله أن أقبل سام ليڤرمور فى تلك اللحظة ، وضربنى على ظهرى مرحبا ، وهو فى عجب من أمر بيلى .

ولزم الصبى مكانه جانبى وظل يقف فى كبرياء ، رغم النظرات التى تكتنفه من كل جانب ، والأحاديث التى لم تنته عنه .. فقد وصفته مسز براون بأنه مسلٍّ للغاية ، وأكدت ابنتاها أنه غاية فى الجمال والظرف .. وسألتنى اليزابيث عما إذا كنت أهبه لها عبدا رقيقا .. وظننتها فى بداية الأمر تمزح ، ولكن نظرات مستر براون وزوجته المتسائلة ، أكدت لى جدية المطلب .

وقال مستر براون : إنه يكون عطية من الله .. وسنلقنه كلمة الحق ، فتسمو روحه إلى الخلود ..

قلت أعتذر وأشرح الموقف : المشكلة أنه ليس ملكى ، وإنما ملك الصاغ روچرز ، وقد أراد أن أحتفظ به له حتى

www.ibtesama.com

يعود :. والأوامر يجب أن تطاع ، ولذلك فإنى مضطر للاحتفاظ به تحت مسئوليتى .

وزمت البزابيث شفتيها قليلا ، ونظرت إلى بطرف عينيها ، وهى عادة لها تثير كوامن إعجابى . . وظل مستر براون يحملق فى الصبى كأنما يريد أن يخرج بضربات السياط شياطين الجهل والكفر من قلب المتوحش الصغير ..

وكنت أشعر بمزيد من القلق فى حضرة أمثال المبجل آرثر براون من المتدينين المستقيمين ، ولكنى صبرت ، وعزيت نفسى ، كما يفعل الشباب أمثالى ، بأنى لا أبغى الزواج من مستر براون شخصياً ، إنما تنحصر آمالى كلها فى بنته .

واقترحت ربة البيت أن يجلس الصبى فى ركن المطبخ حتى ينتهى العشاء ، ولكن مستر براون احتج بأن الطاهيه الزنجية العجوز ستنفر من وجود كافر مثله معها . ثم عاد وأذعن عندما وعدته بأن أخفى الغلام وراء مقعد بالمطبخ ، فلا تراه الطاهية . ولكن لم يكن هناك داعٍ لإخفائه ، فعندما أخذت بيلى إلى المطبخ ، هللت العجوز مرحبة ، وقبل أن أغلق الباب ورائى ، وأنا عائد إلى المائدة ، كان الاثنان يثرثران كل بلغته ، فلا يفهم أحدهما كلمة مما يقوله الآخر ، ولكنهما كانا سعيدين جداً .

www.ibtesama.com

وما إن استقر بنا المقام أمام المائدة ، حتى أرسل مستر براون وزوجه وابلا من الأسئلة . كانا أشبه بغولين شرهين يتلذذان بأخبار ما أتيناه فى سانت فرانسس من تعذيب وقسوة ووحشية . ولكن أعصابى ارتاحت حين أبدى سام ليڤرمور والفتاتان شوقهم لسماع مالدىّ من أنباء بطولة الصاغ روچرز .

كان الحديث عن الصاغ يطلق لسانى ، فتكلمت بعاطفتى ، ورأيت سحر الحديث يستولى على ألباب الجماعة . . كانت الزبائن تصغى بأنفاس مبهورة وعيون لامعة ، وقد انفرجت شفتاها قليلا ، مما أرضى غرورى وكبريائى ، لأنى أجدت الحديث فى حضرة حبيبتى ، فاستجابت معى وشاركتنى فى تقديسى لذلك البطل العظيم .

قال سام فى وقفة من الحديث : إنهم هنا يقدورن روچرز أعظم تقدير ، وكذلك آمهرست .

وقال مستر براون مؤمنا : نعم . . نعم ، ورغم أن روچرز من جيش المقاطعات ؛ فقد وصل إلى القمة !

قال سام : إن الضباط النظاميين لم يقدروا جيش المقاطعات حق قدره ، حتى أثبت لهم روچرز كفايته .

www.ibtesama.com

إنه رجل عظيم ! كل فرد هنا يعرف أنه قام فى هذه الحملة بما يعجز الضباط البريطانيين جميعاً .

قلت : بل ويعجز أى جيش آخر ، فما من رجل حىّ يستطيع أن يفعل مثله .

وقالت البزابيث فى لهجة استعطاف : ما شكله ؟ صفه لنا يا لانجدون .

قلت : ليس وصفه بالأمر الهين . فعلىّ أن أصور لكم رجلا يقف فى النار ولا يحترق . يُدفن فى الجليد ولا يتجمد . يُقيد بالسلاسل تحت الماء ولا يغرق . . رجل يخرج من النار والجليد والماء حيا ، لينقذ معه رفاقه أجمعين ، ثم ينبرى لأعدائه ، فيفنيهم عن آخرهم . لست أدرى كيف يبدو فى شوارع بورتسماوث وطرقاتها ، ولكنى أعرف أنه يبدو كإله عظيم وسط المستنقعات الكندية التى يصل طينها إلى الأعناق ! !

قالت وهى تضم كفيها : إنك تبدع الوصف .

قلت : ربما استطعت أن أرسم لك صورته بالباستيل . أتعرفين الباستيل ؟ إنها أقلام ملونة تعمل من خليط أبيض الرصاص بالأصباغ المطحونة . كنت أرسم به أخيراً ، ولعلى أتمكن من أن أرسم به الصاغ فى يوم من الأيام .

صاحت : أرجوك ! ومتى تأتينى بها ؟

www.ibtesama.com

وقال السيد المبجل آرثر براون بصوت قاسٍ ونبرات عامرة بالتحذير : البزابيث !

وأدركت أنه ما كان من اللياقة ومن الأدب أن أتكلم عن الپاستيل والتصوير فى حضرته وأمام زوجته وبناته ، لأنه موضوع شائك غير مأمون العواقب .

قالت مسز براون تخفف وقع ما حدث : ما كان يجب أن تغرى لانجدون بإضاعة وقته فى البدع والتوافه ، خاصة بعد أن تفتحت أمامه أبواب المستقبل الباهر ، وأصبح المجتمع كله ينتظر منه خدمات جليلة .

وقاطعتها قائلا : أستميحك عذراً يامسز براون ، ماذا تقصدين بحديثك عن المستقبل الباهر ؟

وانبرى زوجها يرد على سؤالى ، وهو يحنى رأسه لى فى عطف واضح علىّ : لقد حصلت ياولدى العزيز على أوسمتك ، وأصدقاؤك يأملون أن يظل صدرك دائما عامراً بأوسمة الشرف والفخار ، وأن يزداد عددها يوما بعد يوم يا لانجدون . . إنه ليسعدنا جميعاً أن الطريق متفتح أمامك ، وعن قريب تصبح ضابطاً نظامياً بجيش صاحب الجلالة . .

وكرهت أن أثير ذلك النزاع مرة أخرى ، فقد وطنت نفسى على أن أصير مصوراً ، واليوم أصبحت أكثر تصميما على تحقيق غايتى ؛ ولكنى كنت فى ذات الوقت أعتزم

www.ibtesama.com

الزواج من البزابيث ، ولذلك آثرت أن أسلك طريق السلام فى تلك اللحظة ، فقلت : إنى شاكر لك طيب تمنياتك ، يا سيدى ، وأظن أن عمل الصورة التى وعدتُ بها البزابيث لن يعطل مستقبلى بأى حال من الأحوال .

وانتصرت لى البزابيث فقالت لأبيها : يجب عليه أن يفى بوعده ، لقد عقدت آمالى على تلك الصورة ، ولن يضير لانجدون أن يستعمل ألوانه ، ليبعث السعادة فى قلب سيدة . . . ألا ترى ذلك يا سيدى ؟

فقال مستر براون فى تسامح وكرم : لا . . لا . . لا ضرر مطلقا ما دام الأمر يقتصر على إرضاء السيدات ، أو التسلية فى وقت الفراغ . . لا تتوان يا ولدى العزيز عن إحضارها حالما تنتهى منها .

قلت : سأفعل ذلك . .

ووفيت بوعدى . .

وأظننى رسمت ما لا يقل عن مائة صورة بالباستيل لروچرز ، قبل أن أخرج واحدة أرضتنى بعض الرضا . . وكانت البزابيث لا تكف عن سؤالى متى أنتهى منها ، وكنت لا أكف عن التسويف . . فطول تلك المدة لم أنقطع عن الذهاب إلى بيت السيد المبجل آرثر براون . لا أقل من

www.ibtesama.com

اثنتى عشرة مرة فى الأسبوع ، ألقى فيها من أهل البيت ترحيبا عظيما . .

كنت أرسم من ذاكرتى ، وأعتقد أنى نجحت فى إبراز شخصية روچرز وتصوير ملامحه فى ضوء نيران المعسكر . . وهو الوضع الذى اخترت أن أرسمه فيه . . وكانت الصورة تمثل رجلا هائل الجسم يجلس على صخرة ، وهو مستسلم للتفكير أمام النيران الموقدة . . وأعتقد أنى وفقت فى شرح غرضى لالبزابيث ، ففهمت أننى أردت أن أقدمه لها كما كنت أراه دائماً : يقظا عندما ينام الجميع ، يفكر فى كل صغيرة وكبيرة ، ويحسب فرص النجاح والخيبة ، والحياة والموت ، ويعمل على أن يكون الفائز دائماً . .

وفرحت اليزابيث بالصورة الصغيرة فرحا عظيما ، وجعلت تتطلع فيها بعيون لامعة ، ولمست خدى باصبعها إعزازا وتقديرا . .

قالت : صورة رائعة تدل على موهبة عظيمة ، يا لانجدون ، لأنها تروى قصة روحه الفذة . . والآن ارسم لى صورة أكبر من هذه لأتبين فيها ملامحه الحقيقية .

وكان فى إطرائها هذا ، نوع من التسليم بأنها لن تعترض على احترافى التصوير ، وبعثت موافقتها المقنعة فى نفسى سعادة غامرة ، فضحكت ، ووعدتها بالصورة ، وخرجت وأنا أتحرق شوقا للبدء فى عملها . .

www.ibtesama.com

الفصل الثامن والأربعون

كثيرا ما تؤثر الحرب فى مصاير الناس ، فترفع بعضهم إلى مراتب النبل ، وتدفع القليل منهم إلى الدمار ، أما غالبيتهم فقد لا يشعرون بوجودها ، شأن السياسة والتجارة التى لا يهتم بأمرها سوى المتصلين بها ؛ وعلى الرغم من قصر تجربتى فيها ، فقد خلقت فى نفسى رغبة فى مواصلة العمل دون كلل ، ما دام وراءه هدف أسعى إليه ، عازفاً عن توافه الدعة والمسرات ، بعد ما كنت فيما مضى أعنى بها غاية العناية ، وأعطيها من الأهمية قدراً عظيما .. كنت إذا قارنت أشق عمل فى الحياة ، بما لقيت من عناء ونصب فى مستنقعات كندا اللانهائية ، تزول مشقته فى نظرى ، ويبدو أهون ما يكون .

وشيدت بمعونة بيلى قاعة للرسم فوق مرتفع بمزرعتنا ، يشرف على جبل أجامانتيكاس وتلال روفر .. وبنينا القاعة من كتل خشبية ، وسددنا ما بين الألواح من فُرَج ، ثم غطينا جدرانها بالقش والملح ، لنعزل برودة الشتاء ونمنع لسعات رياحه القارسة .. ومع هذه الحيطة كلها ، وعلى الرغم من الموقد المشتعل باستمرار ، كانت رياح الشمال العاتية تنفذ

www.ibtesama.com

إلى القاعة ببرودتها الموجعة ، لتبعث الرجفة فى أبداننا ، وتجمد الألوان السائلة إذا ما أبعدتها عن دفء الموقد قليلا .. ولم يسلم من قسوة هذا البرد سوى ألوان الباستيل الجافة .

وابتعد الزوار عن معزلنا ، فنلت ما يتمناه كل فنان من هدوء ؛ وفى ذلك المخبأ النائى الخشن رسمت أولى لوحاتى بالطباشير الأحمر والپاستيل .. كانت لوحة نصفية لروچرز بحجمه الطبيعى .. رسمت أجزاءً منها من ذاكرتى ، وأجزاءً أخرى من الرسوم الصغيرة التى كنت ألتقطها فى أثناء الحملة . وكان البرد يشتد علىّ أحيانا فتتصلب أصابعى على الأقلام وأكاد أتوقف عن العمل ؛ ولكن ذكرى روچرز وهو يسعى من شجرة إلى شجرة عند شلالات هوايت ريڤر ، ليغذى النيران ، التى أنقذت حياتنا ، بالأغصان الجافة ، ثم ذكرى أوجدن وهو يترنح بين الغلامين رغم جراحه القاتلة ، وذكرى أندرو ماكنيل وهو يحك قيوده بشظية العظم الحادة ، حتى تعرت أصابعه من الجلد واللحم وانكشفت أربطة عضلاتها .. هذه الذكريات وغيرها كانت تمر أمامى فتهون علىّ آلامى ، وتعيدنى إلى التصوير أعمل فيه بلا كلل ولا ملل .

كنت فنانا مبتدئا ، فاعتمدت على تجاربى المحدودة فى اكتشاف أسرار الألوان ، وأفضل الأساليب فى استعمالها ،

www.ibtesama.com

ومع ذلك أعتقد أننى أحسنت رسم روچرز بردائه الأخضر وقبعته السوداء ذات الحلية المعقوفة ، وقد شد على صدره حزام متاعه ، وأمسك بندقيته بقبضته الضخمة .

واستنفدت الصورة من وقتى شهورا وشهورا ؛ إذ كان اليأس يتملكنى أحيانا فأتركها مدة طويلة ، ثم يستيقظ الأمل فى نفسى ، فأعود إليها بهمة جديدة . . وجاءت أنباء هزيمة الفرنسيين فى مونتريال قبل أن أنتهى منها ، فبلغ من تقديسى لبطولة روچرز حدا لا مزيد عليه ، واعتبرته صاحب الأمجاد كلها فى انتصارات بلادنا . . أما القائد آمهرست فلم يعد فى نظرى سوى عجوز مغمور عديم الحيلة والقوة .

وكنت أوزع عملى وجهدى بين صورتين : صورة روجرز وصورة أخرى غير كاملة لااليزابيث فى ثوبها الصوفى ذى اللون البرتقالى . . تمثلها كما رأيتها فى المطبخ يوم عيد الشكر ، وهى تنظر إلىّ من طرف عينيها اللامعتين الصافيتين . كنت أقبل على العمل فى هذه الصورة كلما أرهقنى الجهد فى صورة روجرز ، وشعرت بالحاجة إلى الراحة والترفيه عن نفسى . . وكان الشبه بين الصورة وصاحبتها قوياً جداً ، حتى كنت أديرها إلى الحائط خيفة أن تشغلنى نظراتها الخلابة ، ثم أستدير إلى بيلى أرسمه فى أوضاع وأشكال لا حصر لها .

www.ibtesama.com

ولم تكف إليزابيث لحظة عن سؤالى ، متى أنتهى من صورة روجرز ، ثم تزم شفتيها لطول الوقت الذى أستغرقه فى عملها . وأخيراً نلت جزائى عندما انتهيت منها وقدمتها إليها . . إذ راحت تنظر إليها فى إعجاب يثلج صدر أى فنان عاشق .

صاحت تقول : ما هذا يا لانجدون ؟ لم أكن أتصور يوماً أنك على هـذه القدرة فى التصوير ! إنها فى جودة اللوحات الحقيقية التى يرسمها مصورون حقيقيون !

قلت باسماً : إنها لوحة حقيقية .

قالت تفصح عن غرضها : أقصد اللوحات الزيتية . . . ولعلك فى حاجة إلى بعض دروس فى الزيت لترسم به أيضاً .

قلت : إن للرسم بالپاستيل ، يا إليزابيث ، مزاياه العديدة ، فألوانه لا تتغير بمضى الزمن ، ما لم تطمسها الأيدى ، فى حين أن الزيت لا يلبث أن يتشقق ، وينطفئ بريقه .

قالت بلهجة طربتُ لها واهتز قلبى : لن تطمس يد لوحتك هذه . .

وعادت تقول بعد لحظة : لقد ضخمت أنفه ووسعت فمه ، يا لانجدون .

قلت : أنا ؟ لقد كنت أشعر وأنا أرسمه ، يا اليزابيث .

www.ibtesama.com

أنني جاملته على حساب الحقيقة ، وهذبت قسمات وجهه بدرجة ملحوظة ، فلقد خيل إلى يوم رأيته لأول مرة ، أنه أشد دمامة من أى مخلوق رأيته فى حياتى كلها .

قالت : ما هذا الكلام ؟ لا . . لا ! لست أراه دميما على الإطلاق . . إن وجهه يفيض بالعظمة : فم واسع دليل الكرم ، وأنف ضخم عنوان الأرستقراطية . . أنوف العظماء كلها كبيرة وضخمة . . لا . . لا أحب أن تصفه بالدمامة ، أو تهين لوحتى مرة أخرى ! وسأخفيها فى مكان لا يصل إليه نظرك .

ثم ضحكت فى حبور ، وربتت كتفى ، وجرت تصعد السلم مسرعة .

وعادت بعد لحظات متوردة الخدين فاتنة ، يلفها الضحك والسرور ، مما سُرّ له قلبي واهتز وجدانى .

قالت : أرسمت لوحات أخرى يا لانجدون ؟

قلت : نعم . . رسمت بيلى مرات عدة ، وخططت دراسات كثيرة للهنود ، وهو ما كنت أتمناه دائماً كما تعلمين .

ونظرت إلى وقالت فى ضيق : هنود ! ظننتك ترسم لوحات لأشخاص !

قلت أعترف : لقد رسمت شخصا . . من الذاكرة . .

www.ibtesama.com

قالت : شخص أعرفه ؟

فلما نظرت إليها فى هدوء وثبات ، أسـبلت جفنيها وسألتنى بلطف : أهى لوحة جميلة ، يا لانجدون ؟

قلت : أكثر من جميلة . . . بديعة ! صـورتك وأنت تنظرين إلىّ من فوق كتفك . كلما رأيتها قفز قلبى بين ضلوعى . .

قالت باحتجاج لطيف : لا نجدون ! !

ثم عادت تقول : وماذا أرتدى فيها ؟

قلت : ثوبك البرتقالى . .

وتقطب جبينها بسرعة وقالت : لا ، لا . . إنه ثوب من الصوف حقير . .

قلت : أعرف ذلك يا البزابيث ، ولكن لونه يكسب الصورة تناسقا جميلا فى الألوان ، خصوصاً مع اللون الأزرق الجميل للقدر الموضوعة على نضد المطبخ . . .

وشهقت تقول : فى المطبخ ! ! المطبخ ! يا لانجدون ! كيف يطاوعك قلبك على إتيان عمل كهذا ؟ لدىّ أثواب جديدة . . . هناك الثوب الحريرى الأصفر ، الذى ينوى مستر بلاكبورن أن يرسمنى به .. إنه لونه بديع ! فلماذا لم تصورنى به ؟

www.ibtesama.com

قلت محتجا : ولكنى لم أرك ترتدينه مطلقا يا الزابيث ! أما البرتقالى فقد ظهرت به أمامى عشرات المرات ، ولونه يوحى بالدفء والاستقرار العائلى ، وليس به شيء من التصنع أو الافتعال ..

ورأيتها ، لعظيم دهشتى وبالغ يأسى ، تنفجر باكية .

وأخذت يدها المنقبضة بين يدى ، وقلت أستعطفها : الزابيث ! انتظرى حتى ترى الصورة ، وستغيرين رأيك بعد ذلك بلا شك ، وإنى فخور بما فعلت .. إنها أول ما أنظر إليه عندما أدخل قاعتى ، وآخر ما أمتع النظر به وأنا خارج منها .. سآتيك بها .

والتفتت إلىّ وقالت : لا أطيق أن تقع عينى عليها ، لا تأت بها ، فقد يراها أحد ، ويرى ذلك الثوب الشنيع ! ويرى المطبخ ! . . . المطبخ !

قلت : ولكنك لا تكفين عن دخول المطبخ والخروج منه طول النهار ، ولذلك أعتبره أحب غرفة فى البيت كله .

ولم يُجدْ منطق فى إقناعها .

قالت : سيقتلنى العار ! سأموت عاراً لو رأى الناس صورتى فى المطبخ ..

قلت : أى ناس ؟

قالت : آل وينثويرث أو آل أتكنسون أو آل وارنر

www.ibtesama.com

وماسون وميزرف .. ترى ماذا يقول الصاغ روجرز نفسه لو رآها ؟

قلت : أستحلفك بالله . .

وقبل أن أتم حديثى فتحت كفها المطبقة بين يدىّ وقالت ضارعة : عِدْنى أن تمزقها . . عدنى أن تحرقها !

قلت : إنى لا أفهمك . . الصورة جميلة جداً .

قالت : أرجوك يا لانجدون . . أرجوك . .

واستجبت لرجائها بطبيعة الحال .

وفى اليوم التالى مزقت الصورة إلى أربع قطع ألقيتها فى ركن القاعة ، بين الصور الأخرى التى أرميها جانبا قبل أن تتم

* * *

كانت لوحتى لروجرز سبب مجئ كوبلى إلى كيثارى ، إذ أقبل على بيت أبى يوم أحد من شهر مارس ، وطرق باب قاعتى المنعزلة .. وعندما دخلها صاح يقول : يا إلهى ! منذ متى وأنت فى هذا العمل ؟

كانت القاعة مليئة باللوحات التى عُلِّق أغلبها على الجدران : فهذا كونكاپوت فى حالة سُكر بيِّن وحلية الحذاء تزين ضفيرة شعره ، وهنا صف من المتطوعين المتشابكى

www.ibtesama.com

الادرع وسط التيار الصاخب ، وهناك زورق مقلوب فى دوامات النهر الصفراء بعد أن لفظ جثتى امرأة وطفلها .. وذلك صف من الجثث الحمراء ترقد بين خرائب سانت فرانسس .. ثم هذا أسطول من الزوارق ينزلق بسرعة فوق صفحة الماء تحت سماء الخريف ذات الألوان الحمراء والقرمزية والصفراء .. وذلك هندى يقطع أوصال عدوه فى قاع أخدود ، وبجانبه آخر يشهر خنجره فى وجه رجل أعزل يختفى وراء بقرة وحشية مسلوخة . . . ثم متطوعان نحيلان منفوشا الشعر كالحيوانات ، يحفران الأرض بحثا عن الأبصال المختفية فى مستنقعات كونيكتيكات ..

ودار كوبلى بالصور يتأملها ، ثم عاد يقول : كُنْتَ والله فى شغل شاغل ! آه ! لقد رأيت الصورة التى رسمتها للصاغ ، إذ تعطفت مس براون علىّ برؤيتها .. فأين تعلمت الرسم بالپاستيل .

قلت : من الكتب .. وما رأيك فى صورة الصاغ ؟

قال متعجبا : من الكتب ؟ إنك لا تتعلم هذه الأشياء من الكتب ، وإنما تكشفها بنفسك ! ماذا عندك غير هذه المجموعة ولوحة روجرز ؟ أمن لوحات أخرى ؟

قلت : أشياء لا أهمية لها .. لا يصح عرضها عليك .

قال : هكذا !

www.ibtesama.com

وسار إلى نضد التحضير ، وشم الحجر الذى أطحن فوقه الألوان ، وتناول قلما وحكه على يده .. ثم سألنى قائلا : كيف تمزج هذه الألوان ؟

قلت : هذا مزيج من رواسب الصلصال الأبيض مع مادة لاصقةمن مستحلب شمع التوت البرى . .

قال : من علمك صنعها ؟

قلت : لم يعلمنى أحد . . إنى أعد ألوانى بنفسى ، وقد وجدتها لاتزهو بغير هذه الطريقة . والقلم الذى تمسكه الآن إحدى تجارب كثيرة أستعين فيها بمواد تتوافر فى بلاد الهنود التى أعتزم زيارتها يوم أشرع فى تصويرهم .

فأنعم النظر فى مفكرا ، وقال : هكذا ! هكذا ! وعمّ أسفرت تجاربك ؟

قلت : نتائج لا بأس بها . . هاك صورة صنعتها بتلك الألوان .

وأخرجت من درج المكتب صورة فتاة هندية عارية ، تركع أمام الطبل العظيم بساحة سانت فرانسس ، وعلقتها على الحامل البدائى الذى أرسم عليه . وحكّ كوپلى فكه بيده ونظر إليها مقطبا ، وعاد ينظر إلى القلم الذى بيده ، ثم وضعه على النضد وسار إلى الحامل ، وأنعم النظر فى الصورة عن

www.ibtesama.com

قرب • فقلت معتذرا : إنى لا أستعين على الإطلاق بالمواد المثبتة للألوان .

وتراجع إلى الوراء خطوة ، ثم هز رأسه وقال بلهجة قاسية : أرنى غيرها .

وهوى قلبى بين ضلوعى . . إن الصورة لم تعجبه ، مع أننى أعتبرها أفضل ما صنعت يدى . وقدمت له صوراً أخرى أقل أهمية ، ووضعتها على الحامل ، الواحدة تلو الأخرى .

ولكنه استوقفنى قائلا : أهذه أولى صورك ؟

قلت : لا . . لقد سبقتها محاولات عدة .

قال : وماذا تصنع بتلك المحاولات ؟

وأشرت إلى ركن القاعة خلف الموقد ، فسار إليه وأخذ قبضة من تلك الرسوم وجعل يستعرضها . وبعد سكوت طويل اقتربت منه أنظر فوق كتفه ، فإذا بى أراه يفحص صورة البزابيث بعد أن أعاد تنظيم قطعها ووضع كل قطعة فى مكانها .

قال : لماذا مزقت هذه الصورة ؟

قلت : إنها لا شىء . . انس أنك رأيتها ، أرجوك . .

www.ibtesama.com

وألقى بالصورة إلى ركنها وتمتم فى غيظ ، وعاد يفحص الصورة المعلقة على الحامل من قرب ، حتى كاد أنفه يلمسها ، وكانت تمثل خمسة قوارب مشحونة بالهنود . .

قال فى انفعال : أصغ إلىّ : لايصح أن تعمل هذا . .

قلت : آسف جدا . . كنت أظنها جيدة ! . أين مواضع الخطأ فيها ؟ .

قال : خطأ ؟ مواضع الخطأ فيها ؟ إنها مخيفة . . ماذا تبتغى من رسمها ؟ أتظن أن أحداً يدفع مالا فى مثل هذه الصور ؟ يا إلهى ، يا رجل ! يا إلهى !

قلت : أهى صور جيدة أم رديئة ؟

قال : لاتجدون . . يجب أن تغادر هذه البلاد فورا ! يجب أن تذهب إلى لندن بلا أدنى تردد . .

وحسبته يتفكه بالحديث فضحكت قائلا : ومتى تريد أن أسافر ؟

قال : كلما أسرعت كان أفضل .

ورأيته جاداً فى حديثه ، فقلت : وكيف أسافر إلى لندن ؟ ومن أين لى المال الضرورى للرحلة ؟

وعادت فكرة الزبابيث إلى خيالى فى مثل لمح البصر فقلت : ولكنى لا أرغب فى السفر .

www.ibtesama.com

قال : سيان أرغبت أم لم ترغب ، يجب أن تذهب بسرعة . أرنى بقية تلك المجموعة .

ورحت أضع الصور واحدة بعد واحدة ويدى ترتعش ، ثم قلت : هل ترى فيها جمالا أو فناً ؟

فصاح يقول فى ضيق : يا إلهى ! طبعاً فيها كثير من الفن والجمال ، ولست أدرى كيف استطعت أن تخرجها بهذا الشكل ! لقد أصبحت تعرف عن ألوان الباستيل الآن ، أكثر مما يستطيع أحسن خبير فى هذه البلاد أن يعلمك . نعم . . يجب أن تذهب إلى لندن يا لانجدون .

قلت : دعنا من هـــذا الموضوع ، والأفضل ألا نعيد الكلام فيه .

ولم يعر قولى التفاتاً وقال : هل رأى هذه الصور أحد غيرى ؟

قلت : بيلى ، الصبى الهندى ، وهو لا يهتم بأمرها كثيراً . . وفيما عدا كما ، لم يرها إنسان .

وضرب كوپلى صدرى بسبابته ، وقال : لا ترها لأحد وإلا اتهموك بالجنون . المفروض علينا ألا نرسم الأشياء كما نراها ، وليس مسموحاً لها أن تظهر على الورق كما هى فى الحقيقة . . فالرجال لا يموتون كما يموتون فى الطبيعة ،

www.ibtesama.com

والجندى لا يستطيع الموت كما يجب أن يموت ، وكما يموت فعلا .

وتناول اللوحة التى بها صف الموتى الجنود بسانت فرانسس ، وقال : انظر ! انظر كيف تصلبت هذه الذراع وارتفعت فى الهواء ؟

قلت أدافع عنها : ولكنها كانت هكذا ! !

صاح : طبعا ، طبعا . ولكنه محرم عليك أن ترسمها كذلك ! إنك تعرف كيف يموت أحد الضباط عادة فى المعركة : راكعا على يديه ورجليه يلفظ الدم تحت شجرة ، أو وراء دغل ، حيث جرّه زملاؤه بعد أن تلطخ بالطين والأوساخ . ولكن مثل هذا المنظر – وإن كان حقيقياً وواقعياً – لا يجوز تصويره مطلقا . فالموت يجب أن يحدث بجمال وروعة ، وفى وضع متناسق متناسب . فالقائد يجب أن يموت فى درع رومانية ، مستنداً إلى ضابطين عظيمين يلبسان خوذتين يونانيتين ، ومن ورائه دخان كثيف وأعلام مرفوعة ومدفع مقلوب . ويجب أن يكون هناك سبعة جنود على الأقل يرفعون أيديهم إلى السماء بسيوف مشرعة قصيرة . هذا إلى صورة إله الحرب يسبح على ستار حريرى أصفر معلق بالحبال ، وتتدلى منه شذائب طويلة . فإذا رسمت ذلك كله

www.ibtesama.com

يا بنى ، نلت استحسان النقاد كلهم . عليك أن تتعلم كثيراً ، يا صديقى !

قلت فى تهكم أسأله : فى لندن ؟

قال : لا . إنى أحدثك بقليل مما يعلمونه فى لندن ، ولك بعد ذلك أن تنسى منه ما تشاء .

وهززت رأسى نفيا لفكرة لندن ، وأصر كوپلى على عناده فقال : ترى هل تعرف أين توضع اللوحات عادة فى بلادنا ، يا لانجدون ؟ وفى أى القاعات تعلق ؟

قلت : أعتقد أنها توضع فى أحسن البيوت ، وتعلق فى أوسع القاعات وأجملها .

قال فى تأن وتأكيد : إن اللوحات محكوم عليها بالتعليق فى قاعات الجلوس ، وما من أمريكى يتصور لوحة فى غير ذلك المكان ، والقيمة الوحيدة التى يعترفون بها ، هى مدى الشبه بينها وبين صاحبها . فهل يرضيك أن تنال شهرة على هذه الأسس ؟

ولما ترددت فى الإجابة ، سألنى رأيى فى لوحات جرينوود ، وهو من أعظم الرسامين الأمريكيين ، وقد اشتهر بتصوير أغنى أهالى پورتسماوث ، ومنهم چون لانجدون وآل كات وآل موفات .

www.ibtesama.com

قلت إنى لا أرى فى لوحاته سوى الجمود والصلابة .

صاح : جمود فقط ؟ إن الأجسام التى يصورها تبدو كأنها صنعت من جليد قُدّ بالفئوس ! الشعر مثل حديد مصبوب ، والعيون كخشب الأبنوس !

ثم قال وهو يقبض يده فى عصبية وضيق : تأمل الملابس التى يصورها فى لوحاته .. حرير حقيقى ! حرير يغطى الأجسام العاجية ! أغلى الحرير وأثمنه ! ثمن الياردة منه لا يقل عن اثنين وأربعين شلنا ! .. ولو أن سيدة ممن يرسمهن جرينوود اشترت جوربا حريريا لهذه المناسبة ، تجده يحرص على إبراز تلك الحقيقة فى وضوح .. وإذا ارتدت واحدة شيئا من الدنتله ، تراه يخرجها فى لوحته من أحسن الأنواع وأثمنها ! لقد أرضى كل رجل رسمه بإبداعه فى تصوير ملابسه ، وجعلها تنطق بارتفاع أثمانها وجودة نسيجها ! إن لوحات جرينوود ورسومه تبرز الثراء والجاه والملبس الثمين ، ولذلك اشتهر الرجل بأنه أحسن رسامى أمريكا !

وأنهى حديثه بتمتمة غيظ كالحشرجة .

وسار بعد لحظة من السكوت إلى صورة كونكاپوت المثبتة على الحائط يفحصها بعينين شبه مغمضتين ، وهو

www.ibtesama.com

يترنم بأغنية معروفة ، ثم قال : أكاد أشم رائحة الروم تفوح منه !

وكأن خاطرا مر بفكره ، فطلب ورقة ووضعها على النضد ، ثم رسم « بالطباشير » الأبيض خطوطا بسيطة عليها ، تمثل مدخل بيت ذى سلم أنيق يصعد إلى شرفة واسعة ، بها نافذة عالية مقوسة ، وخطّ على جانبي النافذة مستطيلين ، وقدم لى القلم ، وقال : املأ هذين المستطيلين بصورة هندى .. هندى نموذجى .. هندى وسيم فى أبهى زينـــة .

ورسمت ما طلب ، ووضعت بضعة خطوط ملونة على درجات السلم فازداد جمالا وحياة ولمعة .

وأخذ كويلى الرسم ولفّه ثم وضعه بجانب قبعته ، وقال : والآن .. لنفرض أننى أطلقت يدك فى لوحة لترى من أهل هذه الجهة ، وطبعاً لا بد أن يكون من رجال الجيش ، فمن تختار لهذه اللوحة ؟

قلت على الفور : السير ويليام فيپس أو السير ويليام پيپريل .

قال : لقد طلبت إليك أن تختار من أهل هذه الجهة ، فلماذا تذهب بعيداً إلى محافظ مساشوستس ؟

www.ibtesama.com

قلت : إن فيپس مولود هنا فى كينّابِك . كان مربيا للماشية ، ثم تحول إلى بناء السفن فى نهر شيپسكوت فى ميان ، فهو أصلا من هذه الجهة .

ودهش كوپلى وقال : أحقيقة ما تقول ؟ ظننته مغفلا من بوسطون عجز عن القضاء على أعمال السحر بالحسنى ، فقتل مئات ومئات من الأبرياء .

قلت : ولقد كان فوق ذلك أسعد رجل فى العالم : تزوج أولا سيدة ثرية ، وعثر ثانيا على مركب غارق استطاع أن ينقذ منه ذهباً قيمته ثلاثمائة ألف جنيه ، ثم استولى أخيراً على بورت رويال من الفرنسيين .

فقال كوپلى بعد تفكير : ترُى لو أعطيت الفرصة لتصويره ، فكيف ترسمه ؟ وفى أى وضع ؟

قلت : أرسمه نحيلا صبغته أشعة الشمس بلون داكن ، يقف على ظهر سفينة عارى الصدر ، وأمامه بحارة يخرجون الذهب من قاع البحر ، وهم شبه عرايا ..

وهز كوپلى رأسه ، وقال : ها قد عدت إلى سخفك مرة ثانية .. لو رسمته هكذا ما أمكن لأصدقائه أن يميزوه من بين بحارة السفينة ! ألم تفهم أسس التصوير الأمريكى بعد ؟ ألم يكن فيپس قائداً فى يوم من الأيام ؟

قلت : بلى ، ولكن ..

قال : ليس هناك مكان لكلمة « لكن » ! فالقائد الميت

www.ibtesama.com

يجب أن يكون محمولا على الأذرع ، والقائد الحى يجب أن أن يمتطى صهوة جواد ..

قلت محتجاً : ولكن فيپس كان فى البحرية ! واستولى على پورت رويال من البحر ، ثم إنه ..

قال فى عناد : كلامك لا فائدة منه ، وليس من حقك أن تعمل ما تحب ، عليك أن تعمل ما يريده الناس ، لا ما تريده أنت ! وقد تحب أن ترسم فيپس يرعى غنما أو يروى عطشه من برميل ماء ، ولكن قل لى ، ما مصير صورة كهذه ؟ لن يعجب بها أحد ، وسينتهى بك الأمر إلى تمزيقها ، مثلما فعلت بصورة الزابيث براون فى الثوب البرتقالى ! فالسيدة يجب أن تكون مرتدية أحدث ما عندها .. الثوب الذى يظهر أكبر كمية من لحمها ؛ والقائد يجب أن يمتطى صهوة جواد لا مثيل له فى الجمال .. وأظنك مقتنعاً أنه من العبث أحياناً أن تقف أمام الرأى العام وتعانده .

قلت مصدقا على قوله : نعم .. أفهم ذلك .

قال : أريد أن أعرف رأيك إذا كلفت برسم پيپريل على صهوة جواد مطهم .. هل تقبل أداء المهمة المطلوبة منك ، أم تعارض ؟

قلت : بل يسرنى أن أعطى فرصة لرسم أى شىء .

قال كوپلى : جميل .. جميل جداً .. إن معظم الفنانين

www.ibtesama.com

يشكون من إصرار الأغنياء على إظهار مزاجهم السقيم ، ولكن غنيا سقيم المزاج ليس أسوأ حالا من فنان عنيد يصر على أن يموت جوعا ، ولا يرسم لوحة تدخل السعادة على قلب إنسان آخر .. وأعتقد أن الفنان الذى يريد بلوغ غايته ، عليه أن يستغل يده فى أى عمل يعرض له ، ويرسم ما يريده الناس منه ، إلى أن تستقر به الأحوال ، ويشتهر اسمه ؛ وعندئذ يصبح فى مقدوره أن يعطيهم ما يعتبره فنا صحيحا .. إن الرجل الصغير هو الذى يتمسك بأهداب الفن ، ويرفض الفرص المتاحة له ؛ ولكن الرجل الصغير لا ينجح فى حياته مطلقا .

قلت : ماذا تريدنى أن أفعل ؟ لابد أنه أمر فظيع ..

قال كوبلى ضاحكا : إنها وسيلة إلى غاية .. لقد بدأ مستر بلاكبورن فى رسم جوناثان وارنر وزوجته وحماته .. وجوناثان – كما تعلم – تزوج حديثا بابنة ماكفيدريس .

وهززت رأسى مؤمنا على كلامه ، فقال : ثلاثتهم فى غاية السرور لانتقال ثروة ماكفيدريس إليهم .. ومسز وارنر أكثرهم سروراً . إنها ما زالت طفلة على كل حال ، وقد رسمت بضع صور تريد أن تنقل على جدارن بهوها الأمامى ، بشرط أن تنقل كما رسمتها تماما ..

www.ibtesama.com

قلت : وهل تحسن الرسم ؟

قال : طبعا لا ، ولكنها فتاة لطيفة ، وعن قريب تضع طفلها الأول .. وأخشى أن تجن إذا لم تجد من يرسم لها صورها بسرعة .. ولذلك فى نيتى أن أريها رسومك ، وأقنعها باختيارك لرسم جدران بهوها ، حتى يأتيك المال الكافى ، فتسافر إلى لندن .

www.ibtesama.com

الفصل التاسع والأربعون

كانت رسوم مسز وارنر أسوأ ما يتصوره العقل ، ولكنى وضعت نصيحة كوپلى نصب عينى ، وتتبعت الرسوم البدائية حرفياً ، ولفرط دهشتى وجدت أننى أستمتع بهذا العمل ، وأزداد إقبالا عليه ، والأيام تمر سراعا كأنها تطير بأجنحة فى الهواء .

وخيل إلىّ أننى أشعر بالرضا أكثر من أى وقت آخر فى حياتى ، فقد ظللت يوما بعد يوم ، من الصباح المبكر إلى هبوط الظلام ، أعمل بمنتهى الجد فى رسم الصور على الجدران بالزيت ، فلم يمض شهر إلا وكان الهنديان يقفان على رأس السلم ، يتأملان البهو الواقع تحتهما فى نظرات واجمة ، مثلما كانا يفعلان فيما مضى بعد أن يغشهما والد مسز وارنر ، فيبيعهما من الروم المخلوط بالماء ما لا يزيد ثمنه على أربعين شلنا ، مقابل ثمانين رطلا من جلد القندس الثمين . . وفى نهاية الشهر كان السير ويليام پيپريل يجلس فى أبهى حلة على صهوة حصان ممطوط ، يمد أنفه نحو السماء ، بشكل تعتقد مسز وارنر الشابة أنه وحشى مثير .

وبعد شهرين آخرين كنت قد انتهيت من رسم الحقول

www.ibtesama.com

الممتدة ، وقمم الجبال المغطاة بالغابات ، ثم القلعة الزاهيــة وأمامها سير ويليام يفتش طابور الشرف . . . وكان آخر ما رسمته ، امرأة تغزل وحدها فى حقل واسع ، وكلب أقرب فى شبهه إلى الخنزير ، ثم منظر عجيب يمثل ابراهيم وهو يقدم ابنه إسحق قربانا . .

قلت لكوپلى : لست أدرى والله لماذا اختارت مسز وارنر أن تحلى جدرانها بهذا المنظر المقبض قبل أن تضع ابنها ؟

قال كوپلى وهو ينظر إلى واجما : وماذا يغضبك من إبراهيم ؟ ألم تتقاض أجراً طيباً لرسمه ؟

قلت : لقد نسيت ذلك ، فاسمح لى أن أسحب كلامى . . لا بد أنه كان رجلا عظيما على كل حال .

قال : طبعا يا لانجدون ، ولسوف ترسم أسوأ من ذلك قبل أن تبلغ غايتك .

وكنت أشعر فى قرارة نفسى بالرضا ، وعرفان الجميل لمسز وارنر وسير ويليام پيپريل وحصانه الممطوط ، فبفضلهم جميعا ، أصبح فى مقدورى أن أكتسب من المال ما يكفى لزواجى باليزابيث .

* * *

وفى نهاية شهر مايو جاء كوپلى ليرانى أضع اللمسات

www.ibtesama.com

الأخيرة فى صورة الكلب ذى الشكل الخنزيرى ، وكان أسوأ جزء مما كلفت بنقله من نتاج مخيلة مسز وارنر . . ولما انتهيت من الكلب البشع وظهرى يكاد يتحطم لطول ما انحنيت ، قادنى كوپلى إلى الجانب الأمامى من حديقة البيت ، حيث ترسو على مقربة منا أحدث سفينة فى الأسطول البحرى التجارى الذى يملكه وارنر . . وكانت السفينة تشحن حمولتها من البضائع المزمع إرسالها إلى انجلترا ، فتحرك قلبى لمرآها ، إذ كانت تلك السفينة — لا إبراهيم وإسحق — ما أود أن أرسمه على جدران بيت وارنر .

قلت : ما كان يصح أن أقوم بعمل تلك الرسوم ، فأنا لا أستطيع أن أنظر إلى الكلب دون أن يقشعر بدنى .

قال كوپلى: لا عليك ، فهذا الكلب من صنع مسز وارنر لا صنعك . . ولست أنكر أنك تعذبت فى رسمه ، وأصبح من حقك أن تنال بعض الراحة . . فلمَ لا تقوم برحلة لصيد السمك ؟

ورحبت بالفكرة بشرط أن يصحبنى .

قال : غير ممكن ، لقد كان الواجب أن أسافر إلى بوسطون من أيام ، ولكنى تأخرت مضطراً ، فاذهب أنت ولا تعد قبل أسبوع ، وإياك أن تدع ضميرك نهبا للعذاب

www.ibtesama.com

بسبب كلب مسز وارنر أو إبراهيم وإسحق أو الحصان الذى يمتطيه سير پيپريل . . أنت أحسن حالا من غيرك ، فليس كل من يبدأ حياته بمهمة بغيضة ؛ يتيسر له الأجر السخى الذى يكفيه للسفر إلى لندن .

ورأيت بعين الخيال الزابيث ترمينى بإحدى نظراتها الخلابة ، فقلت : لن أسافر أبدا !

قال باشا : أتظن ذلك ؟ دعنا الآن ، فالمهم أن نذهب للصيد ، وعندما نعود نتحدث فى الموضوع مرة أخرى .

هكذا خرجت مع أخى أوديورن للصيد ومعنا قصابنا وبنادقنا وسلالنا وأغطيتنا ، وحمّلنا بيلى حاجتنا من الملح والسكر والدقيق والبن ولحم الخنزير وأوانى الطهو ، ثم وضعنا هـــذه الأشياء كلها فى قارب هنك ، وأبحرنا إلى أعالى نهر سالمون .

وفى خلال هذا الأسبوع شاءت آلاف الأشياء أن تذكرنى بصديقى هنك : البراعم الحمراء على الفروع الرمادية . . الظلال الخضراء على غصون الصفصاف . . الانسجام العجيب فى أنغام الضفادع الصغيرة وهى تنق معا عند الفجر كأنها سمفونية وضعها أعظم الموسيقيين . .والسحب البيضاء الصغيرة ، والأضواء اللامعة المميزة لجو منطقة ماين فى موسم الربيع . .

www.ibtesama.com

زقزقة العصافير على شجيرات التوت ، وصياح القنافذ البرية بالليل ، وهسيس الأسماك عند قليها في الدهن . . كان هنك يحب هذه الأشياء كلها ، فظللت طول الوقت أفكر فيه ، وتدفقت الذكريات بقوة في فكرى ، حتى عجبت كيف أننا نحس أحياناً بأصدقائنا الأموات أكثر حيوية في نفوسنا مما كانوا في حياتهم !

ولم تكن ذكرى صديقى هى الصورة الوحيدة التى تطالعنى بها أضواء الربيع الجديد ، وأراها بين لهيب النيران الموقدة بالليل أمام خيمتنا . . فقد كانت هناك أيضاً صورة المرأة التى أعتزم الزواج بها ، وكانت تظهر لى هنا وهناك وفى كل مكان . . ولم يكن الهواء يتحرك مطلقاً ، مع ذلك خيل إلى أننى أسمع صوتها يهمس فى أذنى قائلا : لاتبعد ، أيها العزيز .

ولما عدنا بعد نهاية الأسبوع إلى خليج پيسكاتاكوا ، وقد لفحت الشمس وجوهنا ، وشعث الهواء شعورنا ، وامتلأت بطوننا بالسمك . . كان القارب محملا بنصف غزال وخمسة أرطال من الصمغ ، وصندوق ملئ إلى حافته بالأسماك الضخمة . . وعندما اقتربنا من البيت ، رأينا أمى تهرع إلى المرسى وهى تلوح لنا بيدها ، لتستحثنا على الإسراع بالوصول .

www.ibtesama.com

قالت حين رسونا بجوارها : كنت أخشى ألا تعودوا في الوقت المناسب ، فلقد زارنا ضيف لا يمكن أن يطرأ لك على بال . . احدس من هو ؟

ثم أردفت بسرعة ، كأنها تخشى أن أعرف الضيف دون معونتها : الصاغ روجرز !

قلت في حماسة : أهو هنا ؟ وهل جاء لزيارتكم ؟ ماذا قال ، وماذا فعل ؟

قالت أمي : جاء لرؤيتك ، وكان ذلك منذ خمسة أيام مضت ، ولما أخبرته باحتمال عودتك يوم السبت ، قال إنه سينتظرك يوم السبت في حانة ستودلى ، ويريد أن تتناول العشاء معه . . ويوم الأحد يسافر إلى كونكورد .

قلت وأنا أقفز إلى الشاطئ : سأغير ثيابي ، وأذهب إليه حالا . . تصوري لو كنت تأخرت ، لفاتتني رؤيته !

صاح أوديورن يقول : هل أستطيع أن أذهب لرؤية الصاغ روجرز يا أمي؟ هل تأخذني إلى الصاغ ، يا لانجدون ؟

قلت أعده : ستراه ، ولكن في يوم آخر .

قالت أمي في قلق : لا أظن ، فالصاغ روجرز يتمتع بمكانة الملوك ، وأينما يذهب يتجمع الناس حوله ، ويسيرون وراءه : : وقد سمعت أن الجماهير تقف في انتظاره أمام بيت

www.ibtesama.com

آل براون إلى ما بعد منتصف الليل .

قلت فى دهشة : بيت آل براون ؟ أينزل فى ضيافتهم ؟

قالت أمى تدافع عن الفكرة : وما المانع يا لانجدون ؟ إن الصاغ روجرز ماسونى ، وكذلك المبجل آرثر براون . . ورجل الدين أول من يفتح بيته لجندى حارب فى سبيل الله . . فما بالك إذا كان الاثنان ماسونيين ؟

وآمنت فيما بينى وبين نفسى بصدق ما تقول ، ولم يكن هناك داع مطلقاً لشعور الانقباض الذى انتابنى فى تلك اللحظة .

قلت : وهل رأى رسومى ؟ أظنه يغتبط لرؤيتها !

قالت أمى : أظننا اتفقنا على ألا يدخل أحد مرسمك إلا فى وجودك ، ثم إنه لم يبق طويلا ، فقد أتت البزابيث بصحبته ، وكانت تريد العودة بسرعة لتصفيف شعرها على الطريقة الفرنسية الجديدة ، استعداداً لحضور الوليمة التى أقيمت تكريماً للصاغ . .

قلت فى جمود : أكانت البزابيث معه ؟ البزابيث وحدها . . كلاهما فقط ؟

قالت وهى تضع يدها على كتفى . . وأى مانع يا ولدى فى أن يخرج رجل مهذب مثله مع إحدى السيدات ؟ وكيف يكونان وحدهما وآلاف العيون تتبعهما طول الطريق ؟

www.ibtesama.com

وغيرت ثيابى بسرعة ، ونظمت هنــدامى على قدر المستطاع ، ثم خرجت بالقارب أجذف فى ضوء الغسق . ؛ وكنت متوتر الأعصاب ، فشعرت بجفاف فى حلقى ، ولم تطاوعنى ذراعاى على التقدم بالسرعة المنشودة ، فبذلت جهداً مضاعفاً ، وما زلت أحتال على القارب بشتى الوسائل ، حتى وصلت أخيراً إلى مرساة حانة ستودلى ، وقد تقطعت أنفاسى لفرط التعب .

وما إن دخلت الحانة ، حتى سمعت ذلك الصوت الخشن الأجش الذى تعلمت أن أحفظ كل نبرة فيه عن ظهر قلب ، خلال مغامراتنا فى مستنقعات كندا ، وأثناء رحلتنا على العائمة الرهيبة . . ودفعت باب قاعة الشاى ، فإذا به يجلس على رأس مائدة ، وحوله عدد كبير من الرجال ، بعضهم يجلس ، وبعضهم الآخر يقف ، وكلهم ينظر إليــه فى إعجاب وتقدير . وكان وايزمان كلاجيت بين الجالسين وكذلك باكر عمدة البلد ، ثم آخرون من التجار الذين أعرفهم بالشكل دون الاسم .

وكان روجرز يقول لهم بصوت أجش مرتفع : وهناك عملية صغيرة قد لا تسمعون بها مطلقاً ، وهى استيلائى على حصن سانت ديستريس فى الربيع الماضى . . كانت المراعى

www.ibtesama.com

المحيطة به جرداء تماماً ، وسمعنا أن تحصيناته لا يمكن التغلب عليها ، ولكنى كنت مصمماً على دخوله بأى ثمن ، فلقد أراد آمهرست أن نستولى عليه ، وكان على أن أفعل ما يريد . . فانتظرنا فى الغابات ، وانتظرنا طويلا ، حتى بدأوا يضمون حصادهم ، ويرسلونه على عربات خارج البوابة الكبيرة ؛ وبينما الجيـــاد تتوسط البوابة ، هجمنا كالشياطين ، ولما أرادوا إرجاعها إلى الداخل أردينا برصاصنا حصاناً منها ، حتى يتعذر عليهم إغلاق الأبواب .. وهكذا نفذنا إلى الداخل واستولينا على الحصن .

وألقى على الجالسين نظرة ، فلما رأى عيونهم تفيض بالإعجاب ، ضحك فجأة ، ورفع كأسه إلى فمه وأفرغها إلى آخرها . . ودون أن يلتفت نحوى ، هب واقفاً على قدميه ، وأخذ كلتا يدى ، وظل يهزهما مراراً بحرارة عنيفة .

صاح : لانجدون ، يا ولدى ، كنت أخشى أن تعود بعد سفرى فلا أراك . .

وطوق كتفىّ بذراعه الضخمة ، ثم التفت إلى المعجبين به يقول : أظنكم تعرفون هذا السيد المحترم . . لقد ساعدنى فى صنع العائمة وقيادتها إلى القلعة رقم ٤ . . . وصدقونى

www.ibtesama.com

أنه لولا لانجدون ما أمكنني أن أعيش لأراكم اليوم . فحينما كاد الجوع يقتلنا ، اصطاد لنا قطاة كبيرة ، وبذلك أنقذ حياتنا . . أنقذها المدة المطلوبة .

وعصر كتفي بقبضته التي تشبه قبضة الدب ، ثم أجلسني على مقعد بجواره ، وقال : ماذا تحب أن تشرب؟

قلت : روم . .

وانزاحت مخاوفي الغامضة ، وأنا أنظر إليه فيما يشبه العبادة ، وقد انعكست عليّ أضواء مجده العظيم .

قال روچرز لستودلي : آتوني بقنينة روم .. ليس في العالم كله روم أفضل مما تصنعون في نيو انجلند .. باستطاعتي أن أشرب جالونا منه .. أقصد جالوناً آخر غير الذي شربته .

وانفجر ضاحكا ، فضحك الآخرون معه .

كان من الواضح أن الجالسين جميعهم ينظرون إليه كأعظم رجل قابلوه في حياتهم .

وكان يشبه النسر في ضخامته وذكائه : ملابسه لم تر پورتسماوث لها مثيلا . . معطفه الأخضر الكبير مصنوع من نسيج مزركش ، وصديريته الصفراء الطويلة من الدمقس الخالص ، ومن أطرافها يتدلى ما لا يقل وزنه عن خمسة

www.ibtesama.com

أرطال من « الدنتلة » المذهبة . . كان شعره المصفف يلمع بالدهون ، والروائح العطرية تفوح من رأسه مثلما تفوح من ملابسه .

وكان يبتسم لى فى انشراح ملحوظ ، وظل يشرب نخبى مرارا وتكرارا ، وفى كل مرة يحتسى قدحا كاملا ، ثم لا يلبث أن يملأه من جديد .

قال : كيف حال رسومك ؟

وقبل أن أجيبه ، التفت إلى الجالسين يصفنى بأننى أعظم فنان فى الوجود ، قال : لن تقدروا قيمة الرسم ، حتى تروا ما يصنعه لانجدون تاون .

وجاملونى بنظرات سريعة فارغة ، ثم عادوا يتطلعون إلى روچرز بإجلال وتقدير . . وحرص كلاجيت على أن يكون مهذبا معى ، وكلما التقت عيناه بعينى ، يشيح بنظره إلى الناحية الأخرى فى ارتباك واضح .

وجلست أستمتع بصداقة الرجل العظيم ، وكان يوجه إلىّ أحاديثه كأننى أهم واحد فى الحاضرين ، قال ضاحكا : أتعلم يا لانجدون أننى منذ استوليت على كويبك ومونتريال وكندا كلها ، أصبحت شخصية ذات شأن خطير ؟ أى والله ، شخصية كبيرة !

www.ibtesama.com

قلت وأنا أضحك أيضا : ما هذا بجديد ، أيها الصاغ ، فقد كنا دائما نعتبرك عظيما .

قال فى حماسة : ليتك كنت معى ، يا بنى ، حين بعث بنا القائد آمهرست غربا إلى البحيرات الكبرى ، لنستولى على أراضٍ جديدة رائعة ، ونقبل تسليم المواقع الفرنسية .. كنا مائتى متطوع نستقل خمسة عشر زورقاً ترفع العلم الإنجليزى .. ومررنا بتورنتو وشلالات نياجرا وجزيرة بريسلك وپيترزبورج وديترويت . . وقابلنا مئات من الهنود بل آلافا منهم . . شاهدنا أعجب الأماكن : غزلانا فى قطعان لا نهاية لها . . بحيرات تزخر بأحسن أنواع السمك وأشهاها طعماً . .

ولعق شفتيه ، ثم تطلع إلى غرفة الشواء بالحانة التى كانت تفوح منها فى تلك اللحظة رائحة تسيل اللعاب .

قال : هنود فى كل مكان يصطادون الأسماك بحرابهم ، وهنود يصطادونها بشباكهم . . آه لو كنت معى لترى ما لا تعرفه من أمر الهنود .

وصب لنفسه مزيداً من الروم ، واستند إلى المائدة وهو يدق عليها بسبابته الضخمة وقال : أما ديترويت فقد تم تسليمها فى صورة رائعة : حصن يقوم على تل صغير ، ومن فوقه يرفرف العلم الفرنسى ، ومن حوله حقل مغطى

www.ibtesama.com

بالحشائش ينحدر إلى بحيرة فى لون المخمل الأزرق . . وأمام الحصن يقف سبعمائة هندى فى أجمل حللهم . أجسادهم مطلية بالأحمر والأزرق والأصفر والأسود والأبيض ، ورءوسهم كلها حليقة . . ثم يهبط العلم الفرنسى عن ساريته ليرتفع مكانه العلم الإنجليزى ، ويخرج الفرنسيون فى زيهم العسكرى الأبيض ، والهنود يقفزون ويصرخون ويصيحون . . كانوا أشبه بلهيب يتحول إلى رجال . .

وأغمضت عينى أتخيل منظر اللهيب وهو يتحول إلى رجال . . وأحسست كأننى أرى اللون الأحمر يلمع مثلما تلمع أوراق الخريف ، وتمنيت لو كان الحظ قد أسعدنى بمشاركته فى تلك الرحلة ، لأرى اللهيب يتحول إلى رجال . . لقد شاهد روجرز هذه المناظر الرائعة ، وأنا حبيس فى بيت آل وارنر أرسم على جدرانه صور إبراهيم وإسحق والكلب الذى يشبه الخنزير ، وسير ويليام پيپريل يمتطى صهوة جواده الممطوط .

واستأنف روجرز حديثه وكلنا آذان صاغية لكل كلمة ينطق بها . . قال : لا ، أيها السادة ، من المستحيل أن تتخيلوا جمال هذه المنطقة حتى تروها بعيونكم . . فأنتم تعيشون على قطعة ضيقة من ساحل البحر لا تزيد عن . . لا تزيد عن . .

www.ibtesama.com

وتلفت حوله يبحث عن التشبيه المناسب ، ثم قال : لا تزيد عن شريط مما أحلى به صديريتى . . أنتم لا تعرفون ما وراء هذا الساحل الضيق . . هناك بحيرات كالمحيطات فى سعتها ، وجبال شامخة تمتد آلاف الأميال حتى تتلاشى أشباحها فى الأفق الذهبى . . وعلى طول البحيرات تمتد جروف من معدن النحاس الصلب .

وأخرج من جيب صديريته قطعة صدئة من النحاس فى حجم ثمرة الجوز الكبيرة ، وألقى بها على المائدة وهو يقول : ينابيع تتفجر بالمياه الحلوة ، وعلى سطح الأرض يسيل نفط كثير تستطيعون إذا شئتم أن تشعلوا النار فيه لتطهوا طعامكم . . أنهار طويلة قد تقطع السفن فيها شهوراً قبل أن تصل إلى نهايتها ؛ هناك عظام تخلفت عن حيوانات أضخم حجماً من أن تسعها هذه الحانة . . إنها منطقة عجيبة من العسير أن تروها حتى فى أحلامكم .

وتوقف عن الحديث ومد يده إلى قدحه فوجده فارغاً ، وكذلك كانت القنينة ، حينئذ مسح شفتيه بيده الضخمة وابتسم لى فى تخاذل . ثم نهض واقفاً ، وقال : معذرة أيها السادة ، لقد دعوت مستر تاون لتناول العشاء معى ، وأظن أن الطعام فى انتظارنا الآن . » إننا زملاء حرب قدامى ، ولدينا أكثر من أمر نتحدث فيه .

www.ibtesama.com

وانفجر يضحك فجأة .

وتجمع الموجودون حوله يهزون يده فى حماسة ، وهم يؤكدون له عظيم شرفهم بلقائه .

ولو كان الصاغ روچرز ممن يطربهم الثناء ، شأنه فى ذلك شأن معظم الناس ، فقد نال كفايته فى تلك الليلة ، كما نالها فى أيام وليال كثيرة أخرى .

قال للواقفين حوله : سأعود إليكم بعد العشاء يا سادة ، لنشرب مزيداً من الروم ، ونجعلها ليلة هنيئة . . فقد رأيت أنكم لا تقلون عنى إقبالا عليه . .

وضحك ، وضحك الحاضرون معه ، كأنهم سمعوا أعظم ملحة فى الوجود .

قال وهو يأخذ ذراعى : هيا بنا يا لانجدون .

وبين أنظار الإعجاب المحيطة به قادنى فى تيه إلى ذات الغرفة التى هربت من نافذتها ذات ليلة ، بعد أن طردنى والد البزابيث وأغلق أبواب بيته فى وجهى ؛ ولكن شتان بين تعاستى بالأمس وسعادتى اليوم ! !

وتجمع خدم الحانة حولنا ، وأخذتهم الحماسة فى خدمة الصاغ ، حتى غلبهم الارتباك وجعلوا يتحركون بسرعة فيصطدمون بعضهم بعض .

www.ibtesama.com

قال الصاغ لديوك الخادم الزنجى الفاحم السواد : نريد « ربعين » من الجعــة و « صحنا » مليئا بسرطانات البحر الكبيرة السمينة . . وإياك أن تأتينا بها عجوزاً نحيلة .

وأسرع ستودلى بنفسه إلى المطبخ يهيئ الطلب . . وأضاف روجرز : وقنينة من الروم . امزجها بنفسك ياديوك، ولا تبخل عليها بما عندك .

وفى إعجاب بالغ بالصاغ ازدرد ديوك لعابه فى صوت خفيض ، وهرول إلى الخارج ينفذ الأمر .

واستأنف روجرز ما انقطع من حديثه بخروجنا من الغرفة ، وقال : لو كنت حقيقة جاداً فيما حدثتنى به عن رغبتك فى رسم الهنود ، فعليك أن تذهب إلى الغرب ، إذ لن تجد بغيتك هنا ، فكل ما تراه فى الشرق مجرد عبث أطفال ، وما أشبه أهالى نيوانجلند بنمل يسير على عود صغير ويظن أن العالم كله ينحصر فيه .. خذ بنصيحتى وتعال معى إلى الغرب .

قلت : ومتى تذهب ، أيها الصاغ ؟

قال : هذا فى علم ربى. وكل ما أعرفه الآن أننى استدعيت لأكون قريبا من القائد إذا ما احتاج إلىّ ؛ ولكنى عائد فى يوم من الأيام ، فلا تشغل نفسك بالتفكير فى ذلك .. هل سمعت بمكان يسمى مايكيليماكيناك ؟

www.ibtesama.com

وأجبت بالنفى .

قال : سوف تسمع به عن قريب . إنه أعظم ما رأيت ، وهو يقع فى شمال ديترويت ويعتبرونه عنق الزجاجة إلى البحيرات الكبرى . مكان لا تعيش فيه بعوضة واحدة ، ولكنه يزخر بصيد البر والبحر ، وكل صغيرة أوكبيرة من بضائع التجار لا بد أن تمر من مايكيليماكيناك ، فما رأيك فى ذلك ؟

قلت : لا بد أنه مكان عامر بالحركة والتجارة .

قال وهو يهز رأسه فى تأكيد العالم بحقائق الأمور : عامر بالحركة والتجارة ! ؟ إنه منجم ذهب ! لا يمكن لعقلك أن يتصور مابه من كنوز . ولقد قابلت هناك زعيما اسمه يونتياك وأراهنك بعشرة دولارات على أنك لم تسمع به ؟

وهززت رأسى نفيا .

قال : وهـــذا دليل على ما ينقصك من المعرفة . إن ذلك الهندى الأحمر أكفأ رجل قابلتـــه فى حياتى . ولولا ما جبل عليه الهنود من التواء التفكير ، لأمكن ليونتياك أن يبزّ يوليوس قيصر أو اسكندر الأكبر ، ولدانت لسلطانه هذه القارة كلها . . ولست أدرى أفى استطاعته أن ينظم أتباعه ،

www.ibtesama.com

ويجعل منهم قوة يحسب لها حساب .. ربما ! ولكنى أشك فى ذلك .

وأقبل علينا ديوك فى تلك اللحظة بقنينة من الروم وملأ كئوسنا ، فشرب روجرز نصف كأسه دفعة واحدة ، ثم مسح شفتيه ، وقال وهو يرمينى بنظرة العارف بخبايا الأمور : أكبر مشكلة فى الهنود أنك لا تستطيع إخضاعهم للنظام ، فهم كالأطفال يلعبون كما يحلو لهم ، فإذا نهيتهم عن أمر ، يجمعون أدوات لعبهم ويعودون إلى بيوتهم غاضبين .. ولا بأس من أن يقطعوا بعض الرءوس فى طريق عودتهم . ولو أمكن ليونتياك أن ينزع منهم هـــذا الطبع الهمجى ، ما وقفت فى طريقه عقبة دون استيلائه على شمال أمريكا كله ، وما تأتى لفرنسا وإنجلترا أن تدعيا ملكيتهما لهذه البلاد ، وتتاجرا فيها كأنما العالم بأجمعه قد أعطى لهما بحق سماوى.. والله إنه لفى مقدوره أن يطردهم بأسرع مما تسعفهم أقدامهم .

والتمعت عيناه بوميض حمـــاسى ، وقال فى لهجة الازدراء : شتان بينهم وبين هنود الشرق التافهين !

قلت : وهل يرتدون أزياء مختلفة ؟

قال ضاحكاً : فى استطاعة يونتياك ، إذا أراد ، أن

www.ibtesama.com

يحكم رجالا على بعد آلاف الأميال ، وأن يكون جيشاً من عشرة آلاف هندى . ولقد رأيتهم على أشكال مختلفة : منهم القوى الوسيم ، ومنهم القزم الصغير الذى يعجز عن السير إذا أنزل عن جواده . بعضهم له بشرة بيضاء وشعر طويل يكاد يصل إلى قدميه فيعوقه عن المسير ؛ أما أسماء عشائرهم فلا حصر لها ، وكلها أسماء مضحكة مثـــل « العفنين » و « ذوى الكروش » و « أصحاب الأنوف المثقوبة » .

واسترق روجرز نظرة إلى الخلف كأنه يخشى أن يصل حديثنا إلى الأسماع ، ثم قال : بعضهم يأتى من وراء جبال شاينج فى أقصى الغرب .

ثم خفض صوته ، وقال يهمس فى أذنى : وبعضهم رأى المحيط الغربى ! !

قلت متعجباً : إذا كانوا قد رأوا المحيط الغربىّ ، فهذا يعنى أن . .

وقاطعنى قائلا وهو يتظاهر بعدم المبالاة : لا يعنى شيئاً . . إنه سرٌّ بينى وبينك ، فلا تذكره لأحد على الإطلاق . لقد حدثتك به لما أعرفه من رغبتك فى رسم الهنود ، ولأنى بصراحة قد أحتاج لبعض رسومك فى وقت ما .

ورمانى بنظرة تحذير من عينيه الجاحظتين ، إذ كان

www.ibtesama.com

ستودلى وديوك وكنج وبرنس قد أقبلوا علينا بالجعة والخبز والزبد وسرطانات البحر المشوية .

قال روجرز لستودلى : أبق على الروم دافئاً ، حتى ننتهى من طعامنا .

وأقبلنا على سرطانات البحر نلتهمها كالذئاب .

وبعد أن أجهزنا على قدر منها ، سألت روجرز عما أتى به إلى بورتسماوث .

قال فى اشمئزاز : لقد جئت فى محنة أشق من حملة سانت فرانسس . إنى أحاول الحصول على الأجر الذى كان يجب أن أتقاضاه منذ خمس سنوات . . إذا أردت نصيباً من المتاعب ، فما عليك إلا أن تقوم بخدمة جليلة لبلادك . . وبقدر ما تحسن أداءها ، تلقى مزيداً من الجحود .

قلت : ولماذا لا يعطونك أجرك ؟ أهناك من يشكو منك أو يعترض على عمل أتيته ؟

قال : لا ، ولكنها اللجنة التشريعية تتصرف دائما على هذا النحو . . تبعثر النقود فيما لا يستحق الذكر ، ولا تدفع شيئا من التزاماتها المشروعة . . فولاية ماساشوستس تزعم أننى كنت أحارب لحساب التــاج لا لحسابها ، وولاية نيو هامبشاير تسير على منوالها ، ولكن حكومة صاحب الجلالة

www.ibtesama.com

تؤكد أننى كنت أحارب لمصلحة هاتين الولايتين . . كل ما أعرفه أننى كنت أحارب وهؤلاء المشرعون يتمتعون بالدفء فى أسرتهم . .هذه حقيقة لا تقبل الشك .

ورفع ذراعه أمامى وكشف عن أثر الرصاصة الذى رأيته كالنجمة الحمراء يوم وقفنا عند مصب الأمونو أوزاك تحت وابل المطر المنهمر .

قال : لم يكن أعضاء المجلس التشريعى معى يوم أصبت بهذا الجرح . . كانوا راضـين بأن أقوم عنهم بواجب القتال ؛ ولما زال الخطر ، تركونى غارقا فى ديون تزيد على ثمانمائة جنيه ، فضلا عن ست وثلاثين قضية يطالب فيها الضباط وأهالى القتلى منهم بحقوقهم المشروعة ، وبما أنى كنت قائدهم فالمسئولية تقع على عاتقى . ثمانمائة جنيه ، لن أحصل عليها . . إنها دين شريف ، ولكن هؤلاء المشرعـين القذرين جُبلوا على إنكار الديون الشريفة . ولعل الجنود أكثر من هضمت حقوقهم على هذا النحو ،وستظل حقوقهم مهضومة دائما ، وكان من الغباء أن أنتظر من المسئولين معاملة استثنائية .

قلت مرتاعا لفداحة المبلغ الذى ذكره : ومتى تعرف النتيجة ؟

www.ibtesama.com

قال باستهانة : فى شهر يونية . . سأكون مضطرا إلى الوقوف بنفسى أمام المجلس التشريعى لمقاطعة نيو هامبشاير . إن معى القوائم المطلوبة ، وكذلك رسالة توصية من القائد آمهرست ، ولكنى لن أحصل على المال . . فقبل هذا التاريخ ستكون القضايا قد تراكمت فوقى بما يكفينى إلى نهاية عمرى . على أى حال ، لن أعرف النتيجة قبل يونيه .

ويبدو أن كلمة شهر يونيه ذكرته بأمر ما ، إذ قال : أما زلت تحتفظ ببيلى سليما معافًى ؟

قلت إنه بخير ، ولقد كان فتى ممتازاً استفدنا به كثيراً ، واننا علمناه القراءة والكتابة ، ونرجو أن نخلق منه مواطنا صالحا .

قال روجرز : إننى على استعداد لاسترداده ، ولكنى مسافر غداً إلى كونكورد ، ولن أعود قبل أسبوع ، فما رأيك أن تبعث به إلىّ عند عودتى ؟

وصدمت بقراره هذا ، إذ كان بيلى قد أصبح عضواً فى أسرتنا ، ولم يكن يفترق عن أوديورن لحظة واحدة ، كل منهما يعلم الآخر أمراً جديداً ، وكنت قد أبعدت عن ذهنى احتمال فراق الصبى .. فتأنيت فى الرد على كلامه .

قلت ببطء : نعم . ولكن فراقه يؤلمنى كثيراً ، فهو نموذج

www.ibtesama.com

طيب لرسومى،وأخى مولع به ، وقد أفلح فى إشعال جذوة ذكائه . ولو استمر بيلى فى طريقه هذا ، لأمكنه أن يصبح إنساناً مفيداً .

ونظرت إليه لعله يكون قد اقتنع بكلامى ، ولكنه تشاغل عما أقول بتحطيم أرجل سرطان البحر ، واستخراج لحمها بطرف سكينه .

ولم أشأ أن أستسلم لليأس ، فقلت : لقد قمت برسم جدران بيت وارنر ، وأنا فى انتظار أجر طيب ، ويسرنى أن أشترى بيلى منك بالسعر الذى تطلبه . وإذا لم تكف نقود آل وارنر أسدد لك الباقى صوراً ، وأعتقد أننى أستطيع أن أعطيك من رسومى ما يرضيك .

وهز روجرز رأسه وقال فى رنة الاعتذار : هذا مؤسف للغاية . ما كنت أنتظر أن تتعلق بالصبى إلى هذا الحد ؟ والحقيقة أنى وعدت به الآنسة اليزابيث براون ، فقد طلبته منى .

وغاص قلبى بين جنبىّ ، وقلت : أنت ! أنت تعطيه لاليزابيث ؟

ورن صوتى فى مسامعى عالياً ، وخيل إلى كأن الغرفة قد تحولت إلى فضاء يردد صدى كلماتى . فضاء يضمنا

www.ibtesama.com

نحن الاثنين : روچرز وهو يلوك لحم سرطان البحر فى نهم ، وأنا وقد دوّخنى التوجس .

قال وهو يضحك عالياً : نعم ، أعطيتها إياه . وإليك السر فى ذلك ، فبيلى هدية الزواج .

وظننت لأول وهلة أن اليزابيث كاشفته بنيتنا على الزواج ، وكان الأمر مفهوماً ، وإن لم نكن قد تكلمنا فيه بصراحة . وخيل إلى أنها طريقة لبقة أراد بها أن يرضينى ويرضيها ؛ ولكنى لم ألبث أن تبينت خطئى .

قال وهو يضحك عاليا : إنى أسميه سرّا ، وإن كان آل براون وجيرانهم وأقاربهم يتحدثون به فى كل مكان ، فناولنى هذه القنينة التى لم نأت عليها بعد ، يا لانجدون ، ولا بأس من أن تشرب نخبى ونخب حبيبتى بتسى . أنت أدرى منى بظرفها يا بنى ، ولقد حدثتنى أنك أعز صديق لها فى هذه الجيرة .. نعم يا سيدى ، لقد حدثتنى عنك كثيراً .

ثم ضرب كتفى بيده الضخمة وأردف : وهى تؤكد أن صورتى التى أعطيتها إياها ، كانت فى الواقع أول سبب فى حبها لى .

قلت : وأنا أجد صعوبة فى النطق : حبها لك ! إذن أنت واليزابيث ..

www.ibtesama.com

صاح فرحا : نعم يا ســيدى .. اعتبرنى رجلا منتهيا يا لانجدون . ما كدت ألقى نظرة على عينيها الساحرتين ، حتى انتهى كل شيء . لقد اتفقنا على الزواج فى نهاية شهر يونيه ..

ثم ضرب على المـائدة بيده ، وصاح يقول : إلينا يا ستودلى ، واملأ القنينة بالروم ، وإياك أن تبخل علينا مما عندك .. ستكون اشبينى فى الزواج يا لانجدون .. أليس كذلك ؟

وملأت قدحى ، ثم وقفت لأشرب نخبه أنا والبزابيث .

قلت : لا ، لن أستطيع ذلك أيها الصاغ . لن أكون اشبينك يوم زواجك ، فقبل نهاية شهر يونيه أكون عبر المحيط ، فى طريقى إلى حيث أتعلم المزيد من فنى . فاقبل تهانئى الآن . . وفى حفظ الله أنت والبزابيث .

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

www.ibtesama.com

** معرفتي **
www.ibtesama.com
منتديات مجلة الإبتسامة

www.ibtesama.com

www.ibtesama.com

هـــذا الـكتاب

تعد قصة « الممر الشمالى الغربى » من أروع الأعمال الأدبية العالمية وقد ترجمت إلى جميع لغات العالم وعلق عليها جميع النقاد ، وأجمعوا على أنها تستطيع أن تقف أمام أى عمل أدبى كبير فى العصر الحديث وعندما صدرت لأول مرة تلقفتها شركات السينما وعرضت مبالغ طائلة على مؤلفها كنيث روبرتس لانتاجها على الشاشة وأخيراً أخرجتها شركة مترو جولدوين ماير وقام بالدور الأول فيها الممثل الكبير « سبنسر تراسى » فقال « أدت رواية الممر الشمالى الغربى أكبر فضل فى حياتى فان دورى فيها كان من أحسن أدوارى الفنيـة » وعرضت رواية « الممر الشمالى الغربى » فى جميـع دور السينما بالعالم ، وفى القاهرة استمر عرضها ستة أسابيع كاملة ، وكانت فيلم الموسم .. والقصة صراع بين فنان والمتاعب ، تحداه القدر ففرش طريقه ـ طريق السلام وطريق الحرب ـ بالمتاعب ، ولكنه عرف كيف يواجهها وكيف ينتصر عليها .

وقد اختارت الكاتبة المصرية المعروفة السيدة أمينة السعيد هذه القصة بالذات لترجمتها من بين عشرات القصص التى عرضت عليها .

www.ibtesama.com

من القصص العالمي
2

موعد مع الشدائد

أو

"الممر الشمالي الغربي"

** معرفتي **
www.ibtesama.com
منتديات مجلة الإبتسامة

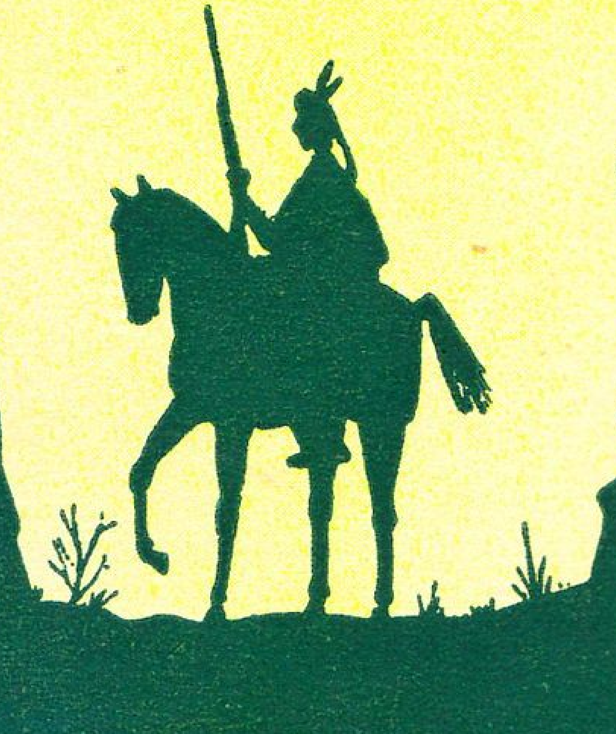

تأليف : كينيث روبرتس

ترجمة : أمينة السعيد

www.ibtesama.com

** معرفتي **
www.ibtesama.com
منتديات مجلة الإبتسامة

www.ibtesama.com

مَوعِدٌ مَعَ الشدائد

أو

الممر الشمالي الغربي

الجزء الثالث

www.ibtesama.com

نشر هـــذا الكتـــاب بالاشـــتراك
مـــع
مؤســـسة فرانكلين للطباعة والنشر
القـــاهرة – نيويورك
ابريل سنة ١٩٦٢

www.ibtesama.com

موعد مع الشدائد

أو

الممر الشمالي الغربي

تأليف

كنيث روبرتس

ترجمة

أمينة السعيد

ملتزمة الطبع والنشر

مكتبة النهضة المصرية

لأصحابها حسن محمد وأولاده

٩ شارع عدلي باشا بالقاهرة

www.ibtesama.com

هذه الترجمة مرخص بها ، وقد قامت مؤسسة فرانكلين للطباعة
والنشر بشراء حق الترجمة من صاحب هـــذا الحق :

This is an authorized translation of NORTH-WEST PASSAGE by Kenneth Roberts. Copyright, 1936, 1937, by Kenneth Roberts. Published By Doubleday & Company. Inc. New York.

www.ibtesama.com

الفصل الأول

كلما فكرت فى مدينة لندن تتمثل لذهنى صورة قاتمة تجمع بين الأسود والرمادى ، فكل ما فيها يصطبغ بهذين اللونين : الأبنية ، والأعمدة ، والقباب ، والتماثيل ، وقد غطاها الزمن بطبقات من السناج الداكن ، تتخلله خطوط لامعة متعرجة حيث غسلت الأمطار طريقها فوق الصخور.

أفكر فى لندن فيتمثل أمامى ضباب كثيف ، يطوى أشجارا سوداء ، تظلها سماء باهتة اللون . . . أرصفة رمادية يتدفق عليها فيضان من الناس ، جميعهم يرتدون ثيابا رمادية . . . وجوه لامعة ؛ ومناديل بيضاء كبيرة تلف أكتاف النساء . . . نهر مياهه القاتمة تزخر بما لا حصر له من البق المائى ، تلك الظاهرة المألوفة فى التيمز . . . معدّيات وصنادل متنوعة الأشكال ، متعددة المجاذيف ، وعلى ظهورها تلمح قمرات المسافرين ذات الطلاء الأبيض . . . نهر تبعث الحياة فيه سفن تجارية وحربية ، ترفرف فوقها أشرعة عالية ، تبدو — بالمقارنة إلى لون البيوت الرمادية القائمة خلفها — كأنها ناصعة البياض .

ويخيل إلىّ أننى لا أرى لندن فحسب ؛ بل أشمها

www.ibtesama.com

أيضاً وأسمعها ... أشم دخانها اللاذع وهو ينبعث من السفن ، يعلو ثم يعود فيهبط ، حتى يجثم على الأرض بفعل ما طبع عليه جو المدينة من هدوء وثقل .... وأسمع عجلات العربات وهى تضج دون انقطاع على الأرض الحجرية ... وصياح من تمتلئ بهم الشوارع من المشاة والحمالين وسائق العربات والمحفات والناقلات ... وقرقعة « الكعوب » العالية والنساء يخطرن على الأرصفة ... وصرير اللافتات الضخمة ، وهى تهتز فوق الجدران فى كل مكان .

نعم ، مازلت أرى لندن وأشمها وأسمعها ؛ ولكنى لا أستطيع ، مع ذلك ، أن أصفها على النحو الصحيح ... فليس فى الدنيا كلها مدينة مثلها تجمع بين جنباتها أعجب المتناقضات ؛ وما من خلية إنسانية أخرى يعيش فيها ذلك العدد الهائل من الأشراف والطيبين مع ذلك الجمع الحاشد من الأنذال واللصوص ... بيوت جميلة لا حصر لها ، وأكواخ حقيرة لا نهاية لها .. حكام على ذكاء خارق ، وسياسيون فى منتهى الغباء ... أمانة لاتضارع ، وخداع لايبارى .. ثقافة تنتزع الإعجاب ، وجهل يستدر الرثاء ... نظافة وقذارة ... وطنية وخيانة ... صحو وسُكر ... فضيلة ورزيلة ... رحمة وقسوة ..

www.ibtesama.com

إننى أفكر الآن فى لندن بعطف شديد ، ولكن شعورى كان على النقيض مس ذلك يوم دخلتها لأول مرة . . ففى ذاك الصباح نزلت من السفينة إلى الشاطئ أتجول فى شوارع المدينة ، فلما وجدتها مزدحمة قذرة صاخبة ، أخذ قلبى يزداد هبوطا مع كل خطوة إلى الأمام . . . وخيل إلى أننى لو عشت ألف عام ، وطُفْت بالعالم أجمع ، فلن أجد مدينة تضاهيها فى بردها ووجومها وقسوتها . .

والحقيقة أننى كنت أعانى داء الحنين إلى الوطن ، ولفرط ضيق بغُرْبتى أتصور أننى سوف أمرض وأموت ، وما من أحد يحس بى ، أو يدرى بما دهانى .

ولكنى لم ألبث أن انشغلت عن وجيعة الغربة حين قادتنى قدماى على غير هدى إلى حىّ ستراند ، ورأيت الناس يهرعون إلى الأمام ، تارة مرتفعين وتارة منخفضين . . إذ أن أصحاب المبانى هناك لهم مطلق الحرية فى رصف الطريق إلى أبوابهم على أى ارتفاع يرضيهم ، وكثيرون منهم يؤثرون أن يعلوا بأرصفتهم فوق مستوى الشارع ، تلافيا لقذائف الوحل والأوساخ التى تتناثر بشدة عند اصطدام عجلات العربات بالحفر المنتشرة فى الأرض .

وبدت واجهات الحوانيت أمامى كأنها معارض مسرحية ،

www.ibtesama.com

فيها من أجمل البضائع ما لم أكن أعرف بوجوده من قبل . . . واجتذبتني تلك الواجهات ، فجعلت أتنقل من واحدة إلى أخرى ، حتى ألفيت نفسي أمام المنظر الساحر لكنيسة سانت بول ، وهي ترتفع فى عظمة وجلال وسط منطقة لم أر فيها ، قبل لحظات ، سوى شوارع قذرة ضيقة ، وبيوت حقيرة متداعية . . . ولما ذهبت لرؤيتها عن كثب ، تبينت أن بناءها الضخم يتوسط ساحة واسعة ، تطوقها حوانيت أنستني الكنيسةَ وجمالَها بما يباع فيها من رسوم ، وما يعرض فى واجهاتها من نسخ مطبوعة لأشهر اللوحات .

وأخذت أتنقل من نسخة إلى نسخة ، ومن لوحة إلى لوحة ، يخامرني شعور قويّ بأنني أستطيع أن أجيد فى الرسم مثلما أجاد معظم راسميها .

ثم طالعني نوع آخر من الرسوم . .

رأيت وسط إحدى الواجهات لوحة رُسم فى مقدمتها جندى فى زى عسكرى ، يشبه ثياب الحرس الذين تصدوا لى وأوجدن ، عندما حاولنا أن ندخل خيمة القائد آمهرست ، فى طريق عودتنا من سانت فرانسس . . وتجلت روعة هذه اللوحة فيما تضمنته من عرض متقن لرحيل الحرس الإسكتلندى . . جنود يسير فى ركابهم باعة وأتباع

وجواسيس ومتفرجون . . جمع صاخب يتقدم إلى الأمام في هرج بين الصياح والقبلات واللكمات . . وكانت الصورة تتضمن مئات الوجوه ومئات الأجسام ، كل منها ينطق بالكمال الفني . . كانت قطعة من الطبيعة الإنسانية بنزواتها الأزلية ، وحماقاتها المستعصية . . . فيها أصدق التعبير عن الاسم الذي اختير لها ، وهو « رحيل الحرس إلى اسكتلندا » .

وفيما أنا مشغول بالصورة ، أحسست بنظرات تسلط عليّ ، فالتفت لأرى رجلا يقف بباب الحانوت وهو يتأملني ببرود . . وخيل إليّ أنه يقول في سرّه : « اذهب إلى الشيطان » ، فعدت إلى الصورة أدرسها بدقة ، ومن التوقيع المطبوع على طرف منها ، عرفت أن اللوحة الأصلية من صنع هوجارث . . ولم أكن قد سمعت بهوجارث من قبل ، ولكني تأكدت ، وأنا أقف أمام الصورة الرائعة ، أنه فنان عالميّ .

وتكلم الرجل الواقف بالباب . قال في صوت يشوبه الترفع : لم تطبع هذه الصورة إلا في الأسبوع الماضي فقط . . قطعة لطيفة !

قلت في احتجاج : لطيفة ! إنها وحق الله رائعة !

قال : وهو يتأملني مدققا : آها . . أنت إذن تعرف

www.ibtesama.com

كثيراً عن هوجارث . .

قلت : لا ، لا أعرف عنه شيئا ، ولم أسمع به من قبل .

قال : وكأنه لا يصدقني : ألم تسمع بلوحته الشهيرة « درب الخمر » ؟

فهززت رأسى نفياً . .

قال — وقد ازدادت لهجته ترفعاً : هل لى أن أسألك عن جنسيتك ؟

قات : أمريكى .

قال : طبعا . . طبعا . . تُرى هل تصادف أن قابلت صديقا لى اسمه هارمون ؟ أعتقد أنه من أهالى شمال فرچينيا ، أو منطقة ما قريبة من نيو انجلند .

ولم أكن قد قابلت الرجل ، فأخبرته بذلك .

قال وهو يتنفس الصعداء : تعال معى إلى الداخل ، فعندى « درب الخمر » ، وعندى أيضاً غيرها من أشهر لوحات هوجارث .

قلت فى رنة الاعتذار : ظروفى لا تسمح الآن بشراء شيء مع الأسف الشديد !

قال بلهجة الازدراء وبريق الغضب يلمع فى عينيه : أف !

www.ibtesama.com

ثم استدار إلى داخل الحانوت ، ولما وجدنى ما زلت مترددا ، نادى يدعونى أن أتبعه ، وقال : تعال ، تعال . . إلى متى تريد أن تظل على جهل بفنان مثل هوجارث ؟

وتبعته إلى الداخل ، فرأيته يبحث باهتمام بين المجلدات المصفوفة على رفوفه . . . ففتح مجلدا بعد مجلد ، حتى وجد بغيته ، فاختار لى منه صورة معينة ، وثبتها فى إطار تضىء على جانبيه شمعتان ، وبعد أن انتهى من مهمته ، رجع إلى الوراء خطوات ، واكتفى بأن قال : هاك « درب الخمر » .

وكانت اللوحة تمثل الخمر وفعلها فى الحياة : حىّ بأكمله يبدو كأنه غارق فى الشراب . . بيوت متداعية . . أطفال مشردون . . فقر جامع شامل . . فساد ويأس . . موت وشقاء . .

صورة رائعة ، ولكنها فى ذات الوقت رهيبة مخيفة ، فجعلت أفحصها بدقة . .

قلت أسأله : بأى مادة يرسم هوجارث ؟

قال : آه . . . أتريد أن تعرف المادة ؟ . . إنه يرسم بالطباشير الأحمر . .

قلت فى دهشة بالغة : الطباشير الأحمر ؟

والواقع أن هذا الخبر أثلج صدرى : إذ ما دام هوجارث يستطيع أن يبدع هكذا بالطباشير الأحمر ، فهناك أمل كبير

www.ibtesama.com

فى أن أحقق غايتى فى الرسم بأقلام الپاستل . .

قال الرجل : ألست رساما ؟

قلت : أمكننى أن أرسم بالپاستل بضع قطع صغيرة . . بضع قطع لا أكثر .

وندت عنه « تنهدة » تختلط فيها الحيرة بالشك ، وعاد إلى مجلداته ، وأخرج من أحدها مجموعة تتألف من ست صور وصفّها أمامى ، وقال وهو يعود القهقرى مبتعداً عنها : إليك عملا فنيا آخر أقل رهبة وقسوة . . مجموعة اسمها « زواج على الطراز الحديث » .

وتنحى جانبا يفسح لى الطريق ، فرأيت أمامى ست صور أقسى فى حقيقتها المرة من « درب الحمر » ، فيها تتجلى روعة الفن حين يصور خيبة الجشع والرزيلة ، وطريقهما الأكيد إلى الدمار النهائى .

قال بائع الصور فى رنة التحدّى : والآن ما رأيك فى هذه المجموعة ؟ الناس يعتبرونها رسوما رديئة ، خصوصا تلك التى تصوّر رجلا يسقط ميتا فى غرفة الاستحمام ، نتيجة لإفراطه فى حب عشيقته . .

قلت : وما وجه الرداءة فيها ؟ ولماذا ينتقدونها ؟

قال : يستحيل أن يسقط إنسان ميتا بهذه الطريقة . .

www.ibtesama.com

قلت : سخف ، ولا يزعم ذلك سوى من لم ير فى حياته أحداً يموت . . فالرجال قد ينهارون بهذه الطريقة تماما ، ومع آخر أنفاسهم ينساب ما فيهم من حياة وروح وأمل ووعى . . . وهذا الرجل يمثل الحقيقة أصدق تمثيل . . . إنه يموت بالفعل ، وعندما يصل إلى الأرض سيكون جثة هامدة ، والاستهانة بهذا العمل الفنى الفذ دليل على الجهل والغباء . . لقد كنت أعتقد أن هوجارث يرسم صوراً فكاهية ، ولكن الرجل الذى صنع هذه اللوحات لاشك عظيم . . . فنان عظيم .

قال البائع — وهو يهز رأسه : الإنجليز لا يقدرون هوجارث ولا يعترفون بفنه . . . رسومه فى نظرهم رديئة ، وألوانه أردأ . . . تافه وشعبى ، والنقاد يضعونه دون المرتبة الثالثة لأحقر المقلدين الأجانب . . . إن أصول هذه المجموعة رسمت بالزيت ، وبيعت بمائة وعشرين جنيها . . أى عشرون جنيها للوحة الواحدة ، فما رأيك فى ذلك ؟

قلت ثائراً : رأيى ؟ رأيى أننى جئت مدينة لندن وراء ما سمعته عن تشجيع مجتمعها للفن الأصيل ، ولكن يبدو أننى أخطأت المكان ، فنقاد هذا البلد أغبى الأغبياء . .

والتفتّ نحو الباب وقلبى مفعم باليأس ، فأى أمل لى

www.ibtesama.com

فى إنجلترا ، إذا كان الإنجليز لا يعترفون بهوجارث سيدا للفن الرفيع !

وتبعنى البائع إلى الباب ، وقال يقدم نفسه : اسمى هايت . . جون هايت ، فأين تسكن ؟

قلت : على ظهر السفينة التى حملتنى إلى بلادكم ، ولولا أنها جاءت لتباع هنا ، ما ترددت لحظة فى العودة معها إلى وطنى .

قال : لا ، لا يمكن أن تفعل أمراً كهذا إذا كنت حقيقة فنانا . . فالفنانون لا يثنى عزمهم فقر أو جحود ، ولهذا يستغلهم الناس ويسيئون معاملتهم . . . الأغنياء يعهدون إليهم بأعمال ، ثم يأكلون حقوقهم . . . الناشرون يشترون كتبهم بأبخس الأثمان . . . التجار يطبعون نسخا رخيصة من صورهم ، وبذلك يسرقون مجدهم ومالهم ، مثلما حدث لهوجارث على مضى الأعوام . . إن إيمان الفنانين بفنهم هو السبب فيما يعانون دائما من فقر وانحلال : يعيشون فى أحقر الغرف ليصنعوا بدائع لمن يتقلبون فى الذهب والجواهر . . . يتهالكون على الخمر علها تنسيهم غباء من يستهينون بهم وينكرون أفضالهم . . . لا ، لن تعود إلى وطنك إلا إذا

www.ibtesama.com

كنت تاجراً لا فنانا . . . فأين تنوى أن تسكن بعد ما تنتقل سفينتك إلى مالكها الجديد ؟

ولم أكن أدرى . فلما أخبرته بذلك ، دخل الحانوت ، وعاد بخريطة لمدينة لندن غاية فى الوضوح والإتقان . . ولم أكد ألقى عليها نظرة أو نظرتين ، حتى تبينت موقع السفينة ، وأين أقف فى هذه اللحظة ، وكيف تقع لندن بمختلف أحيائها وشوارعها .

قال هايت : أنت فى حاجة إلى خريطة ، وهذه أحسن ما صنع للمدينة .

قلت : وبكم تريد بيعها ؟

قال : إنها ممزقة قليلا من حافتها ، وعملائى لايشترون غير أفضل الأنواع ، ماعدا الرسوم ، فمن عادتهم أن يختاروا أسوأها . . . وعلى ذلك فالخريطة غير نافعة لى ، وإذا سمحت فإننى أقدمها إليك هدية .

قلت : أعرف أنك مزقتها منذ برهة قصيرة ، لتتظاهر أمامى بأنك لست فى احتياج إليها . . ولقد سبق أن قابلت كرماء مثلك فى بلدى بأمريكا . . . بعضهم كافأه الله على صنيعه ، فكتب له التوفيق فى حياته ، واستطاع أن يملك

www.ibtesama.com

حانوتا كحانوتك ، ويعيش بقية عمره مستورا . . . وبعضهم الآخر سلبه الكرم ما يملك ، فانتهى فى شيخوخته إلى فقر مدقع ، وأصبح يعيش على ما يتصدق به جيرانه من لحم وخبز . . . أنت رجل كريم يامستر هايت ، ويسرنى أن أقبل هديتك .

قال — وهو يتأملنى ببرود : لست أفهم ما تعنيه بهذا الكلام ، فأنت كغيرك من الفنانين الذين لا يكفّون عن ترديد أقوال عجيبة . . . دعك من هذا ، وانظر إلى الخريطة . . . هنا بجوارنا تماماً ، تر السجن القائم بشارع فليت . . وشارع فليت يقودك إلى حىّ ستراند بيننا وبين پيكاديلى . . . ستجد هناك أشكالا وأنواعاً من دور النشر . . . . حوانيت تبيع اللوحات الأصيلة ، وحوانيت أخرى تبيع الصور المطبوعة . . . ولكن ليس بينها واحدٌ فى جودة حانوتى ولا أمانته . . . فمعظم بائعى الصور من أكبر اللصوص فى الدنيا . . . أمر فظيع ! ولكنه حقيقة مع الأسف . . . طبعا الأمانة موجودة هناك ، وإنما بنسبة ضئيلة جداً . . . هذا هو الواقع ، ولا مفر من الاعتراف به . . . وعلى كل حال ، لا بأس من أن تسكن فى تلك المنطقة ، فهى تناسبك وليست رديئة . . . معظم أبنيتها أنشئت حديثا ، ولن تتسخ فيها لوحاتك بسرعة ، لأن الهواء يتخللها بوفرة .

www.ibtesama.com

وسكت برهة ثم أردف يقول : والآن ، لوكان لى قريب يبحث عن مسكن يصون كرامته دون أن يكلفه نفقات كثيرة . . . مكان هادئ نظيف ، يستطيع فيه أن ينصرف إلى أداء رسالته بكل جهده وإخلاصه . . لوكان لى هذا القريب ، لنصحته أن يختار لسكناه إحدى منطقتين : ميدان كافنديش أوحىّ لسترفيلدز . . وكافنديش ، على الأخص ، بقعة محبوبة جداً فى هذه الأيام ،والكل يقبل عليها ، وستجد فيها چون ووتون أشهر رسامى الحيوانات ، ويكون رائعا حقا ، إذا حالفك الحظ وعرفته ، فهو صاحب نفوذ ضخم ، الأمر الذى يحتاج إليه رجل مثلك فى هذا البلد . . . ثم هناك أيضاً فرانسيس كوتس . . فنان عظيم ، وله حظوة لدى المهيمنين على الحكم .

قلت : وما حاجتى إلى النفوذ ، وغايتى أن أنصرف إلى دراسة فن الپاستل ، وأتعلم ما أجهل منه ؟

قال بلهجة الاستنكار : عقلية الفنان كما أعرفها تماماً ! ! ومن العسير أن تخضع للمنطق !

ثم هز كتفيه باستسلام ، وعاد يقول : ما دمت تفكر بهذا الأسلوب ، فالأفضل أن تبحث عن مسكن فى لسترفيلدز ، قريباً من پيكاديللى .

www.ibtesama.com

وانحنى على الخريطة يرسم بقلمه الرصاص حلقة حول نقطة صغيرة تمثل موقع الميدان ، وقال : ليست منطقة أنيقة ، ولكنها هاوية وأسعارها معقولة . . جنيه فى الأسبوع لغرفة بالطابق الأرضى ، وعشرة شلنات للدور الأول ، وخمسة إذا ارتفعت فوق ذلك . . هوجارث يعيش هناك . . هوجارث ورينولدز . . هل سمعت برينولدز ؟

قلت : لا ، لم أسمع به ، ولكنى أحب أن أسكن فى لسترفيلدز ، لكونها قريبة من بيكاديللى .

ومرة أخرى انحنى على الخريطة يحدد بقلمه موقع المنطقة التى أريدها ، وقال بلهجة اليائس :

تذكر أن هوجارث لا نفوذ له ولا حظوة . . رجل فظيع يسخر برسومه من البلاد ، ويندد بالحياة الاجتماعية . . مجرد الحديث عنه يثير اشمئزاز أصحاب السلطان فى هذا البلد .

ونظرت إلى هايت فى تدقيق ، عسانى أتبين ما يعنيه بهذا الكلام ، ثم انفجرت ضاحكا حين تبين لى بوضوح أنه يحمل لهوجارث أعظم التقدير والإجلال .

قال فى استهانة : اضحك كيفما يحلو لك ، ولكنى أعطيك الحقيقة ، وخذ هذه على سبيل المثال . .

وأشار إلى اللوحة المسماة « رحيل الحرس إلى اسكتلندا » ،

www.ibtesama.com

وقال : أراد هوجارث أن يقدمها هدية إلى الملك چورج الثانى ، ولكن صاحب الجلالة — حفظه الله — رفضها . . لا ، لم يقبلها ، وأعلن أن هوجارث يستحق السجن جزاء سخريته من سادة الجيش .

قلت : لست أرى فيها أدنى سخرية . . . إنها تمثل الحقيقة كاملة ، فهل كان الملك يجهل أحوال جنوده ؟

قال هايت — وهو يهز كتفيه دون مبالاة : لست أدرى ، ولكنى أعرف أن هوجارث لم يحزن لتصرف الملك . . بل على العكس ، انتهز أول فرصة وقدم لوحته إلى إمبرطوار بروسيا ، باعتباره راعيا للفنون . . . هذا الرجل هوجارث يتصرف على هواه ، ولا يهمه أحد ، ولسوف يموت فى السجن مدينا . . . تأكد من ذلك ! . .

وطافت بذهنى أفكار لا يصح أن تنشر عن الملك چورج ، فأبقيتها لنفسى . وبعد أن شكرت مستر هايت ، اتجهت إلى الباب منصرفا .

صاح هايت ينادينى : اسمع .. ماذا قررت بشأن حىّ لستر فيلدز ؟

قلت : سأذهب إليه الآن أبحث عن غرفة لسكنى .

قال : حسنا ، لكن تذكر أننى حذرتك ، ولم أخف

www.ibtesama.com

عنك حقيقة الحياة فيه . . . وعندما يستقر بك المقام هناك ، وتبدأ عملك الفنى ، تعال لزيارتى أحيانا كى أرشدك إلى أنجع الوسائل إلى صيانة الروح والبدن معا . .

* * *

فى خلال الأيام الأولى من إقامتى بلندن ، لم أكن فى احتياج إلى أكثر مما يشتاق إليه أى مغترب فى مدينة جديدة عليه . . . أى شيء يزيح عنى لعنة الشعور بالوحدة ، ويبدد بعض ما أحس به من وحشة الغـُربة . . فمع أنه ليس فى الدنيا كلها مدينة كلندن ، تملك هذا العدد الهائل من المتاحف والمسارح ودور اللهووعظماء الرجال والنساء ، وغير ذلك من أعجب خصائص الحياة ، الأمر الذى يوفر للمغترب أسباب المتعة من الفجر إلى منتصف الليل . . . غير أن هذه المتعة تزول تماماً إذا قضت الظروف بأن يشاهد المغترب هذه الأماكن وهو وحيد لا رفيق له ولا أنيس . . فالوحدة تضاعف عذاب الاغتراب ، وقد حدث لى ذلك ، فوجدتنى أكتوى بنيران الحنين إلى الوطن ، وأتصور أننى لن أشفى من عذابه قط . . . وبلغ بى التعس أن قضيت الشهور الأولى كلها حبيس غرفتى بالطابق الثالث من أحد الأبنية القائمة فى لسترفيلدز . . . أعمل . . وأعمل . . وأعمل فى رسم

www.ibtesama.com

صورة لإليزابيث ، تظهرها بثوبها الحريرى الأصفر الذى وصفته لى ، ذلك الثوب المحلىّ بورود من المخمل ، وعلى طرفه طبقات من « الدنتلا » .

وظللت أقول لنفسى مراراً بأن ما أعمله تجربة . . مجرد تجربة . . . والوقت الذى يضيع فيها لا يذهب هباءً . . . والواقع أنها كانت حقيقة تجربة جديدة فى التلوين : فالأصفر لم يشغل من الثوب ســـوى الأجزاء الواقعة تحت الضوء مباشرة ، أما البعيدة عنه فتتحول تدريجا من الأحمر إلى البرتقالى ، مع احتفاظ المظهر العام بالظل الأصفر . . . وبذلك خرجت على التقاليد المتبعة فى تلوين أرضية الصورة ؛ فقد اعتاد الرسامون أن يجعلوا هذا الجانب مظلما ؛ ولكنى آثرت أن أملأه بالضوء ، حتى تبدو إليزابيث فى هالة من النور .

وغرقت فى لجة العمل بروحى وجوارحى ، فلم أحس بما يدور حولى إلا لماماً ؛ أو هكذا خيل إلى فى ذلك الوقت .

وبعد أن انقضى الشهر الأول بقسوته وعذابه ، أخذت فى التعرف إلى بعض من كنت أقابلهم كل صباح فى المقهى ، حيث أتناول فطورى وأقرأ جريدة الصباح . . ولكنهم لم يرتاحوا إلى زهدى فى الحياة ، ولما عرفوا أننى أصرف فى الرسم أيامى

(٢)

www.ibtesama.com

وليالىّ ، اعتبرونى غبيًّا ، فتباعدوا بقدر ، مؤثرين أن يظلوا معارف لا أصدقاء . . وكنت مضطرا إلى مواصلة العمل لأعيش ، إذ لولا الصور التى أرسمها للكتب بإرشاد هوايت ، ما أمكننى أن أدفع ثمن طعامى وأجر غرفتى بالطابق الثالث .

وبين حين وحين ، كنت أقف بباب هوجارث ، عله يخرج فأبادله الحديث ، ولكن الحظ خاننى ، فضى الوقت ، ولم تقع عينى عليه مرة واحدة .

ولم أر بارقة من الأمل فى تحقيق ما أتمناه من رسم صور للهنود الحمر ؛ فالإنجليز لم يظهروا أدنى رغبة فى اقتناء هذا اللون من الرسوم ، كما ثبط هايت عزيمتى حينما قال : إن اهتمام لندن ينحصر الآن فى تتويج الملك جورج الثانى ، وفى الثورة على استقالة حبيب الشعب ويليام بيت ، وملء مكانه بالأيرل أوف بيوت ، أغبى من عُرف فى ميدان السياسة . . وقد ترتب على تكليف هذا الغبى إدارة دفة الحكم ، أن ازدادت ثورة الناس واشتدت ، حتى أصبح الوزير لايستطيع الخروج إلا فى حراسة رجلين من أقوى المحاربين وأقدرهم على حمايته من غضب الجماهير .

وكانت أحاديث الإنجليز كلها تدور حول هذا الموضوع

www.ibtesama.com

وغيره من الأمور الهامة ، مثل عودة كلايف أخيرا من الهند ، وفى جعبته ثروة خاصة تقدر بثلاثمائة ألف من الجنيهات . . فضلا عن استعدادات فرنسا لغزو انجلترا بأسطول يتألف من ستة آلاف سفينة حديثة الطراز ، ورغبة پيت فى مهاجمة إسپانيا قبل أن تهاجم إنجلترا ، الأمر الذى بات محققا من دلائل الأمور وظواهرها . . وكذلك المحظيات الثمان اللواتى يصطحبهن أحد الأمراء معه أينما ذهب . . فهل كان يُعقل أن يرضى الناس فى هذه الآونة العصبية بترك ثرثرتهم جانبا ، ليدفعوا شلنين ثمنا لصورة هندى أحمر ؟ قطعا : لا . فبالشلنين يستطيع الإنجليزى أن يجلس فى إحدى الحانات ، ويناقش إخوانه فى شئون السياسة وفظائع الحاكمين ؛ أو إذا أراد الترفيه عن نفسه ، يدخل بالشلنين مسرحا يشاهد فيه تمثيلية سخيفة ، ويمتع نظره بالراقصات الإيطاليات ذوات السيقان المكتنزة .

أما الفنانون ، فقد بدت المدينة كأنها تضيق بمختلف أنواعهم ، ومعظمهم من النوع التجارى الرخيص ، الذى لا يجد متنفسا لفنه إلا فى رسم سقوف القصور وجدران المقاهى وطلاء أبنية المصالح الحكومية . . بعضهم يدرس بكلية الفنون أو مدرسة الفنانين المجانية ، وبعضهم الآخر يعرض لوحاته

www.ibtesama.com

فى قاعة الأكاديمية الملكية القائمة بحىّ ستراند . . . وطبيعى أن كل فنان من هؤلاء كان له ــ أو يتمنى أن يكون له ــ راعٍ يشمله بجاهه ، ويرفعه بنفوذه إلى مراتب الشهرة والمجد .

وطُفت بجميع تجار الصور أعرض عليهم ما رسمته للهنود ، فجانبنى الحظ على طول الخط ؛ إذ ضحك الكثيرون سخرية منى ، واعتذر القليلون بأدب ؛ وأراد بعضهم أن يثبت حسن نيته ، فاحتفظ بالصور أياما عله يجد لها مشتريا ، ولمّا تعذر عليه ذلك أعادها مع أسفه الشديد ... والحقيقة التى صارحونى بها جميعاً ، أنها رسوم شعبية رديئة ، وإذا اعتمدت عليها فى توفير طعامى ، فلا بد أن أموت جوعا بعد عام على أكثر تقدير .

أقنعتنى هذه الظروف بأن الفنان لا يستطيع أن يعيش بلا راعٍ من أهل النفوذ يحميه بجاهه ويمكنه من أسباب الرزق ، فجمعت شجاعتى ، وذهبت أبحث عن ممثل مقاطعة بنسلفانيا فى إنجلترا عله يمد لى يد العون ... وأظن من الأفضل أن أوضح كيف كانت الحياة فى إنجلترا تخضع فى ذاك الوقت للمحسوبية ، وبغيرها يستحيل أن يتم عمل من الأعمال ؛ ففيما عدا عهد پيت ، وما عرف عنه من تقدير للكفايات ، بصرف النظر عن أى اعتبار آخر ، كان الرجل الذى يطمع

www.ibtesama.com

فى مركز مرموق بالجيش أو البحرية ، مضطرا إلى الاستعانة بصديق له مكانة مرموقة باعتباره صديقا لشخص آخر يعطف الملك عليه ويلبى رغباته . . . واتسع نطاق المحسوبية واستفحل أمرها حتى شملت رجال الدين أيضاً ؛ فلم يعد العيش ميسوراً للقس إلا إذا عرف كيف يخطب ودّ أسرة ثرية ، ونجح فى اكتساب عطفها عليه ، فتبنى له وسط ضياعها الواسعة أبرشية يشغلها مجانا ، وتخصص له فوق ذلك معونة مالية سنوية ، تتراوح بين مائة وألف من الجنيهات .. والأمر كذلك فى النواحى الأخرى كافة ... فصداقة أمير التجارة أو المستشار الملكى الخاص ، كانت بمثابة الباب الذهبى إلى فردوس من يحلمون بمنصب رفيع فى إحدى المستعمرات ، أو يريدون إقطاعية زراعية تملأ جيوبهم بالمال ، أو يطلبون الإذن باكتشاف المناطق المجهولة أملا فى الثراء ... كله بالمحسوبية واستغلال النفوذ فى تحقيق الأمانى والأطماع ..

وكان بنيامين فرانكلين هو ممثل بنسلفانيا بإنجلترا فى تلك الأيام ، وقد جاء لندن هو الآخر سعيا وراء محسوبية لبلاده ؛ إذ بعدما أعيته الحيل فى تحقيق الخير بالأساليب القويمة ، لم يجد مقرا من أن يجند نفسه فى صفوف المحاسيب ، ويستعين بأصحاب النفوذ على بلوغ مراده . . . ولما اقتنعت بأننى سأظل

www.ibtesama.com

ضعيف الحيلة ما دمت أعيش بلا راعٍ ولا صديق ، توجهت إلى مكتبه أطلب الزيارة ، وما زلت أطرق أبوابه مرة بعد مرة ، حتى أمكنني أن أقابله فى آخر الأمر بعد طول إلحاح .

ووجدته سيدا بدينا لطيف الشكل ، تلوح فى وجهه سيماء الطيبة . . . طيبة القط حين ينتهى لتوه من التهام طبق عامر بالأسماك ... وظل يصغى إلىّ من وراء مكتبه ، يسبل جفنيه ويزم شفتيه . ولولا زمّة شفتيه هذه لظننته يغط فى نوم عميق !

ولما انتهيت من كلامى ، فتح عينيه ، وأخذ يفحصنى بنظرات تفيض بالطيبة والذكاء .

قال : إنى أقدر اهتمامك برسم الهنود ، ولكنى أتساءل عمن تظنه يستفيد بمثل هذه الرسوم ، أهى الحكومة ؟

قلت : ولم لا ؟ من مصلحة الحكومة أن تحتفظ بسجل لهنود مستعمراتها . . . هناك قبائل مختلفة ، ولكل قبيلة خصائصها وظواهرها .. وإذا لم ترغب الحكومة فى مثل هذا السجل ، فقد يهم المتحف البريطانى أن يحصل عليه ... والواقع أننى غير واثق من شعور الإنجليز نحو أشياء من هذا القبيل ، ولكنى قرأت فى الصحف أنك صديق حميم لوليام روبرتسون ،

www.ibtesama.com

وكذلك آدم سميث وديفيد هيوم ، وهم طليعة أصحاب النفوذ ، وأكثر الناس دراية بالأحوال . .

قال - وهو يرفع حاجبيه فى دهشة : كنت أظن أن سبيل الفنان إلى رسم الهنود ، هو توفره على رسم الهنود ، فهل تريد أن يساعدك الأغراب على إنجاز عملك ؟

قلت - وسخونة الخجل تطفو على وجهى : لقد رسمت من أعرف من الهنود ، ولكن أحدا لايريد أن يعترف بلوحاتى ، وأنا فى مسيس الحاجة إلى الاعتراف ، والتقدير ، قبل أن أعود إلى أمريكا ، وأسافر إلى غربها لأرسم هنود تلك المنطقة . . . إنها مهمة عسيرة ، وليس فى طاقتى أن أنجزها دون عون ، فرحلة كهذه تستغرق ثلاثة أعوام كاملة ، وكذلك تتطلب زورقا مليئا بالهدايا . . . فمن أين لى بالمال الكافى لتغطية النفقات ؟

قال مستر فرانكلين : أى نوع من الهدايا ؟

قلت : ما يحبه الهنود ، مثل عقود الخرز والمرايا المضحكة ، ثم بعض الصور التى تظهر زعيما هنديا يقف منتصراً ، وقدمه فوق رأس أكبر دب فى الدنيا .

قال مستر فرانكلين - وهو يحك ذقنه فى حيرة واضحة : فكرة عظيمة . . . حقيقة عظيمة . . . ويقينى أن

www.ibtesama.com

الهندى لا يتردد عن قتل أمــه مغتبطا فى سبيل مرآة مضحكة . . وعلى ذكر ما قلته من أنك رسمت الهنود الذين تعرفهم ، فأى هنود تقصد بذلك ؟

قلت : هنود سانت فرانسس .

وأخرجت من حافظتى صورة بالپاستل لبحيرة واسعة ، ينزلق على مياهها الهادئة زورق كبير يحمل أربعة عشر هنديا فى صحبة جنديين فرنسيين ، وجميعهم ينظرون نحونا بوقار يمتزج بالتحفز الشديد ، مما يدل على أنهم يقتفون أثر عدوّ لهم ، وفى نيتهم أن يمثلوا به أبشع تمثيل .

وتناول مستر فرانكلين الصورة ، وانحنى عليها يفحصها بتدقيق . .

قال : رسم جيد يظهرهم طبيعيين إلى درجة مخيفة . . . نعم . . . نعم . . . كانت لى بعض التجارب مع هؤلاء السادة منذ خمس سنوات ، أيام صلتى بالقائد المسكين برادوك ولكن كيف تأتى لك أن تقابلهم . ؟

قلت : ذهبت إلى سانت فرانسس فى حملة الصاغ روچرز . .

صاح فى عجب يقول : هل اشتركت حقيقة فى هذه الحملة المجيدة ؟ دعنى إذاً أسمع ما لديك .

www.ibtesama.com

وأخذت أروى له القصة ، وهو يصغى بغاية الاهتمام والانتباه ، وبين حين وآخر ، يلقى نظرة على صورة الزورق العامر بالجنود ، ولما انتهيت من كلامى ، قال يسألنى بأدب : أتحب أن أشترى هذا الرسم ؟

قلت : لا يا سيدى ، فهو واحد من مجموعة يجب أن تظل كاملة ، فالرسوم كلها تمثل سجلا لكشف واحد مهم ، ولعلنى أحتاج إليه يوما فى إثبات قدرتى على بلوغ غايتى وتوفيقى فى عمل ما أريد .

قال فرانكلين ضاحكا : صدقت .. ولكن كيف يتوقع الفنان أن يعيش إذا رفض أن يبيع رسومه حينما تحين له الفرصة ؟

قلت ـ وأنا أضحك بدورى : أنا معك فى أننى لا أتصرف بعقل !

عندئذ رفع فرانكلين ناظريه إلى السقف ، وقد ارتسمت على شفتيه بسمة باهتة ، وعقد ذراعيه على صدره ، وأخذ يدندن لنفسه وينقر بأصابعه على كوعيه . . . ومضى وقت وهو ، يجلس على هذا الوضع . . . وقت طويل . . حتى خيل إلىّ أنه شرد بذهنه إلى أمور أهم ، فتنحنحت بهدوء لأذكره بوجودى . . . ولما لم يتحرك نهضت خجلا أعتزم الانصراف . . .

www.ibtesama.com

قال فجأة ــ وهو ينظر إلىّ بعطف شديد : لقد قابلت آمهرست ، وذهبت إلى كراون پوينت ، وأعتقد أن هذا الرجل قدم لإنجلترا أجل الخدمات ، ومن حقه بعد ذلك أن تعلق له صورة فى قاعة ڤوكسهول . . . صورة تمثله فى كراون پوينت . . . إنها ضرورة لا مفر منها مثل الرعد بعد البرق . .

قلت بصوت أجش : ولكنهم لا يسمحون بالرسم فى ڤوكسهول إلا لعظماء الفنانين من أمثــال هايمان وهوجارث . . .

قال : صدقت . . ولكن لا هايمان ولا هوجارث يعرفان الهنود وكراون پوينت . . وأشك فى أن عظماء الفنانين لديهم فكرة عن شكل آمهرست . . والواقع أننى لست على صلة برجال الإدارة فى ڤوكسهول ، وإن كنت أعتقد ، بمنتهى التواضع ، أنهم سمعوا بى . .

وفتح قمطره « درجه » ، وسحب منه ورقة ، وتناول ريشته ، ثم قال وهو يبتسم فى وجهى بعطف : لا مفرّ من أن ألجأ إلى صديق عزيز . . فنان اسمه وليام هوجارث ، وبعد ذلك نترك الأمور تسير فى مجراها الطبيعىّ . . .

* * *

www.ibtesama.com

الفصل الثانى

كانت رسالة من بنيامين فرانكلين تعتبر فى أى بلد أوروبى مفتاحا لمغاليق الأبواب ، ولم يخرج باب هوجارث عن القاعدة العامة .

فبعد أن قضيت يومين بليلتين أرسم صورة تخطيطية لآمهرست فى كراون پوينت ، حملت رسالة فرانكلين ، وتوجهت بها إلى بيت هوجارث . . . ولم أنتظر أكثر من عشر دقائق ، ثم قادونى إلى الطابق الأعلى ، وأدخلونى غرفة الرسم حيث وجدت إنسانا عجيب المنظر ينحنى فوق صفحة معدنية وبيده أزميل الحفر ... رأسه — وقد عرفت فيما بعد أنه أصلع كحبة البطاطس ويشبهها أيضا فى اللون — غارق فى عمامة حمراء كبيرة ، وشكل الرجل عموما يميل إلى الاستدارة . . فأنفه مكوّر ، وخدّاه مكوران ، وكذلك بطنه ويداه وركبتاه وعقباه . . جسده يتألف من عدة كور رُكِّب بعضها إلى بعض بمنتهى المهارة والإتقان . . . وحتى صوته تفجر من فمه مكوّرا مثلما تتفجر فقاقيع الصابون من إحدى الأنابيب .

www.ibtesama.com

واعتدل فى مجلسه وقال ، وهو يحدجنى بنظرة من عينيه النافذتين : ما دمت صديقا لفرانكلين فأنت صديق لى ، ويسرنى أن أكون فى خدمتك .

وانتزع يدى يهزها مصافحا . حينئذ وقعت أنظاره على الحافظة التى أحملها ، فقال فى امتعاض : آه . . . فنان !

وبحركة عنيفة مفاجئة أجلس نفسه على مقعد مرتفع ، وقال باستهانة يشوبها الاحتقار : أظنك قرأت « أثينيان ستيوارت » وتريد أن تثرثر فى موضوعه مع الآخرين . . ماذا ؟؟ ألم تقرأ كتابا اسمه « دراسة فنية وتخطيطية لآثار أثينا » ؟ .. عرض سخيف تافه .. عامر بالنفاق والتهريج .. قائم على النصب والاحتيال ... عمل لا يقوم به سوى المجانين والأغبياء . . . ومع ذلك فعبقرية هذا الأثينيان ستيوارت صعقت النقاد وأصابتهم بما يشبه الإغماء ، فخرجوا من قراءته – مثل البط إذا أدركته العاصفة – يترنحون مأخوذين !

وهززت رأسى ، وأخبرته بأننى لم أقرأ الكتاب ، فأخذ يضرب على ركبتيه بقلق واضح ، وقال وهو يؤرجح مقعده بين الأمام والخلف : إذن فلست فنانا عظيما ... الدنيا كلها قائمة على قدم وساق بصدد هذا الكتاب ... عبقرية ... نبوغ .. لقد قام ستيوارت بقياس جدران معبدين ، فأصبح

www.ibtesama.com

معجزة الزمن فى علمه الفذ . . . أغدقوا عليه من أسباب التكريم ما جعله يسير محنىّ الظهر لكثرة ما ينوء به كاهله من الأوسمة والمكافآت .

وبمثل السرعة التى قفز بها إلى المقعد ، تركه إلى الأرض ، وقال – وهو ينقر صدرى بإصبعه المكورة : ما دمت فنانا فأظنك قمت بقياس جدران بعض المبانى !

وقبل أن أجيب ، اختطف حافظتى ، وقال وهو يفتحها ويخرج ما بها من صور : هيا دعنا نر .

واتجه إلى النافذة ، وسمح للضوء أن يقع على دراستى التخطيطية لآمهرست ..

وكنت قد رسمت فى أرضية الصورة لسان الأرض الذى تقوم عليه قلعة كراون پوينت ، وكذلك التحصينات المتاخمة للحصن الجديد ، ومن خلفها أغرقت معالم الجبال المحيطة ببحيرة تشاپلين فى لجّة من الضباب . . . وفى وسط الصورة وضعت زوارق مختلفة الأحجام يتحرك حولها جنود يرتدون ثيابا عسكرية ، بعضها أحمر االون ، وبعضها الآخر أخضر وأزرق . . . أما آمهرست فاحتل المقدمة ، وظهر وهو يخطو نحو زورق عامر بهنود ستوكبريدچ المصبوغين بألوان

www.ibtesama.com

الحرب . . . وحاولت فوق ذلك أن أضفى على الصورة جوًّا من القلق والحركة يوحى بأن الجيش الذى جمعه آمهرست بجهوده فى تلك القفار ، وضمنه بريطانيين ووطنيين وهنودا ومتطوعين ، على وشك أن يتحرك وراء قائده إلى الشمال فى طريقه إلى غزو كندا .

ومضت مدة طويلة وهوجارث يفحص الصورة فى ضوء النافذة ، فخشيت أن يكون أمرها قد اختلط عليه ، وقلت أوضح له قصـــدى من الخروج على التقاليد المتبعة فى الرسم — : ربما لم أنجح فى التعبير عن غرضى كما يجب ، فدعنى أشرح الموضوع . . . إن معظم اللوحات الكبيرة التى رأيتها تتألف من مقدمة واضحة خلفها أرضية مختلطة العناصر داكنة اللون ، وأنا أفضل أن أركز اهتمامى على الوسط والأرضية ، وأعطيهما من الشخصية الواقعية مالا يقل عن المقدمة .

قال هوجارث وهو يهز رأسه فيما يشبه اليأس : يالهذا الفرانكلين من رجل عجيب . . مظهره يدل على أنه هادئ الطبع قليل الذكاء عديم الطموح ، يوحى إليك بأنه يسير فى طريق الحياة بمحض المصادفة وقوة الدفع ، ثم إذا به يفاجئك بما لا تتوقعه ، ويصنع أشياء خارج اختصاصه وليس من

www.ibtesama.com

شأنه أن يحشر أنفه فيها . . يظل يبحث حتى يهتدى إلى أسباب الزلازل والرعد والبرق . . . ينقب إلى أن يصل إلى الوسائل التى تمنع المدفأة من التدخين ، وتحول دون تراكم السناج على مصابيح الطريق . . . يصمم أفرانا سريعة الاشتعال وخزانات غير قابلة للرشح . . . يخترع مانعات للصواعق ، ومراسى عائمة ، وصحافاً لا ينسكب منها الطعام . . . والآن يخترع فنانا يرسم الهنود !

وتطلع إلىّ وقال ، وقد التمعت عيناه : وأنت أحد اختراعات فرانكلين ، أليس كذلك ؟

قلت : ليتنى كنت كذلك حتى أجد من يُعنى برسومى .

قال : يُعنى برسومك ؟ من الذى يُعنى أو يهتم ؟ الإنجليز لايقدّرون سوى الفن الإيطالى . . .

ثم التقط رسالة فرانكلين من المنضدة ، وعاد يتصفحها من جديد ، كأنه يريد أن يستعيد فحواها :

قال فى تمتمة : ها . . نعم . . لوحة كبيرة لآمهرست توضع فى فوكسهول . . ها . . رسم تخطيطى جيد . . تجربة ناجحة بالقلم الرصاص ، ولكنى أحب أن أطمئن إلى كفايتك فى استعمال الألوان ، فأين مرسمك أيها الشاب ؟

www.ibtesama.com

وأعطيته عنوانى ، قال — وهو يحك رأسه بأصابعه : لك أن تذهب الآن لشأنك ، وبعد ساعتين سألحق بك .

وكان عند كلمته ، فبعد ساعتين رأيته يصعد السلم إلى غرفتى ، ويدخل وهو يتلفت حوله ، ويفحص بنظراته الثاقبة ماحملته الجدران من رسومى . . . تماماً كما فعل كوپلى ذات يوم . . وطاف بالصور واحدة فواحدة ، ولدهشتى وجدته يركز اهتمامه على صورة إليزابيث روجرز . . اللوحة التى رسمتها بوحى من حنينى إلى وطنى فى بداية عهدى بالحياة فى لندن .

قال — وهو يتأملها بتدقيق : رائعة . . حقيقة رائعة . . وأعتقد أنها تشبه صاحبتها .

وأطلق ضحكة مكبوتة وأردف يقول : شخصية عجيبة . . طموح إلى إعجاب الدهماء . . خبيثة لا يؤمن لها جانب . . وجهها جميل ، ولكنه من النوع الذى يتأثر بالزمن ، ويحمل طابع الشيخوخة قبل الأوان . . فيها مكر وخداع و . . .

وفجأة تنبه إلى نفسه ، فالتفت نحوى يقول معتذرا : لم أقصد إهانة . . وأرجو ألا تكون أختك . .

قلت : لا . . ليست أختى يا مستر هوجارث .

www.ibtesama.com

قال — وهو يغالب ضحكة أخرى : حسنا . . عندما تجدهن هكذا ، فالأفضل أن تقنع برسمهن دون وُدِّهن ، فالبعد عنهن غنيمة . . . والآن ، أين بقية رسومك ؟ أريد أن أرى إنتاجك كله . .

وقدمت إليه لوحاتى جميعها ، فأثلج صدرى بما أبداه من صبر فى دراستها وفحصها . . وظل طول الوقت يغمرنى بعثات من الملاحظات القيمة التى تفيدنى فى تحسين فنى ؛ بل ذهب إلى أبعد من ذلك ، فوعدنى بالسعى إلى تكليفى بصنع صورة ضخمة لآمهرست تعلق فى قاعة فوكسهول . . . وكنت أعرف أنه يحترم كلمته ، ولا يلقى بالوعود جزافا ، فاطمأنت نفسى ، وشعرت بعد انصرافه كأن مستقبلى استقر نهائيا ، وأصبح لدىّ من الفرص ما يحقق لى الكسب الفنى والمادى .

ولم يخب ظنى فيه ، فبفضل مساعدته تحسنت أحوالى عموما ؛ ولما أقبل الربيع ، وخرج أهل الأناقة من سكان لندن إلى الحدائق الجميلة الواسعة ، وجدتنى أتحرك بينهم مطمئنا ، وليس بى أدنى خوف من أن أعجز عن دفع إيجار غرفتى ، فقد أتتنى لوحة آمهرست بصفقات أخرى عالجت عسرى ، ويسرت لى سبيل الحياة .

والواقع أننى لا أذكر اليوم كثيراً عن هذه الصفقات ، فيما عدا حالتين فقط : إحداهما عندما كلفنى ناشر معروف

www.ibtesama.com

برسم مجموعة من صور الهنود على ذمة طبعها فى كتب مدرسية ، واشترط أن تكون وجوه الهنود جميلة مرحة ، حتى لا يخاف منها الأطفال . . . ثم رسوم أخرى وضعتها لقصة غرامية بطلها ضابط إنجليزى يقع فى حب أميرة هندية ، اعتاد فى لحظاته العاطفية أن يمنحها لقب « الأنثى المبجلة » .

وضاقت نفسى بهذه الرسوم ، إذ كنت مضطراً إلى التغيير فيها مراراً إرضاءً للناشر ، الأمر الذى استنفد وقتاً طويلا ، فلم أستطع أن أنتهى منها قبل نهاية عامى الثانى فى لندن . . . وبعدها تحولت بجهودى إلى الرسم على الجدران ، وقمت بعدة أعمال ناجحة فى هذا الميدان ، وأعتقد أن بعض البيوت الإنجليزية القديمة — إذا لم يكن ملاطه قد تآكل أو سقط بعد — ما زالت جدرانه تحمل إلى اليوم ما رسمته عليها من صور القناصة والهنود .

ولمّا طالت إقامتى بلندن ، وجدتنى أفكر على طريقة الإنجليز ، وأتصرف مثلهم فى شتى المناسبات ، ومن ذلك ما فعلته حين قدم بيوت استقالته عام ١٨٦٣ ، فقد شاركت الإنجليز فى الاحتفال بذهابه ، وشربت فى ذاك اليوم حتى طربت .. وفى الصباح التالى ذهبت إلى إحدى الحانات بصحبة فنان أمريكى اسمه بنيامين وست ، وهناك دعيت إلى الغناء ،

www.ibtesama.com

أو دعوت نفسى بعبارة أوضح ، فقمت بين الناس أنشد أغنية فاضحة الألفاظ والمعانى .

وعلى مضىّ الوقت ظلت الرسائل تأتينى من أهلى بانتظام ، فيخيّل إلى أنها قادمة من عالم بعيد غامض لم أعرفه فى واقع حياتى ، إنما رأيته فى أحلام طفولتى . . ومع ذلك لم أكن أكثر من صبى ، فرغم حركة الزمن ، وتجارب الحياة ، كانت سنى فى تلك الآونة لا تتجاوز الخامسة والعشرين ...

ثم حدث ذات يوم ما ردّ إلى ذهنى ذكريات الوطن المؤلمة ، وجعلها تبدو حقيقة ماثلة أمام عينىّ .

* * *

فى صباح يوم من أيام الصيف ، ذهبت إلى مقهى « تركس هيد » بشارع چيرار ، أتسلى مع أصحابى الرسامين بالتحدث فى شئون الفن ، ولكنى لم أجد من أعرفه عند وصولى إلى المقهى ، فاخترت مائدة جانبية ، وجلست أقطع الوقت بقراءة الصحف .

وفجأة انتصب ظهرى ، وتسمرت أنظارى على فقرة منشورة بالجريدة ، وأخذت أقرؤها بلهفة وأنا لا أكاد أصدق عينىّ .

www.ibtesama.com

وكانت الفقرة تقول :

« لقاء غير منتظر فى مرج هونثلو »

« حدث مساء أمس أن كان الصاغ روچرز ، القائد الأمريكى الشهير لفرق المتطوعين بجيش صاحب الجلالة ، يسير بعربته عبر مرج هونثلو ، عائدا من زيارة صديق له من أعضاء المجلس الاستشارى الخاص ، فتصدى له قاطع الطريق الذى طالما أنزل الرعب بقلوب عابرى هذه المنطقة ... وتوهم اللص أنه عثر على ضحية سهلة المنال ، فتقدم إلى العربة حتى بلغ نافذتها ، عندئذ مدّ الصاغ ذراعه فجأة ، وبمنتهى السرعة انتزع قاطع الطريق من فوق جواده ، وجذبه داخل عربته ، واحتفظ به أسيراً على طول الرحلة ، حتى وصل به إلى فندق « هوايت بير » حيث يقيم . . . وبمعونة أصحاب الفندق قيد الصاغ أسيره بالحبال ، وألقى به فى القبو ، وأبقاه هناك إلى أن وصل رجال الشرطة وتسلموه . . وقد تقرر أن يحاكم قاطع الطريق أمام القاضى فيلدنج ؛ أما الصاغ روچرز ، فيقال إنه تراهن مع أحد الوزراء على استعداده التام لتطهير البلاد خلال ثلاثة أشهر لا أكثر من وباء قطاع الطرق ، لا فيما يحيط بمدينة لندن فحسب ، بل فى أنحاء انجلترا كافة » .

www.ibtesama.com

ولما انتهيت من قراءة هذا الكلام ، سقطت الجريدة على المائدة أمامى ، وتناولت كوب الشوكولاته بيد بلغ من ارتجافها أن ظل الكوب يصطدم بأسنانى طول الوقت . . . روچرز فى لندن ! . . روچرز يصاحب الوزراء وأعضاء المجلس الاستشارى ! وإليزابيث معه بالطبع ! أمر لا يصدق !

وتذكرت فى تلك اللحظة ما قاله هوجارث حين رأى صورتها : طموح إلى إعجاب الدهماء . . خبيثة لا يؤمن لها جانب .. ماكرة خداعة ...

لا ، لا يمكن أن تكون إليزابيث بهذه الأخلاق !

www.ibtesama.com

الفصـــل الثالث

كان فندق « هوايت بير » مريحاً لمن يميلون إلى ضجيج الأحياء المأهولة من لندن . . . واجهته بسيطة المنظر ضيقة المساحة ، توحى بأنه مكان صغير ؛ ولكن البناء يمتد خلفها فى جناحين طويلين يحيطان بفناء فسيح . . . وفى داخل الجناحين أبهاء واسعة تزدان جدرانها بالرسوم والنقوش ، ولهذه الأبهاء أبواب منزلقة يمكن إغلاقها عند برودة الجو . . وتتبع كل غرفة من غرف النزلاء شرفة فسيحة مغطاة بالزجاج يمكن استعمالها قاعة للجلوس . . . ويتميز الفندق بما تتميز به فنادق لندن عموما من نظافة تامة ، فضلا عن شهرته الواسعة فى جودة الطعام ، خصوصاً حساء السلحفاة ، فليس فى المدينة كلها من ينافسه فى إتقان طهوها . . . ثم شرائح الضأن البالغة فى ضخامتها ، حتى لكأنها قطعت من خروف عملاق ؛ وكذلك البيض المضروب باللبن ، فطريقة صنعه تجعله غاية فى اللذة .

وكان هذا الفندق محبوبا من الأمريكيين بصفة خاصة ، وفيه يعيش صديقى الفنان بنجامين وست ، وقد اتخذ من شرفته الزجاجية مرسماً له ؛ وما كنت لأتردد فى الإقامة به

www.ibtesama.com

أيضاً ، لولا رغبتى فى ادخار النفقات اللازمة لما أحلم به من رحلة إلى أرض الهنود الغربيين .

وعند وصولى وجدت صاحب الفندق وزوجه يشرفان على أعمال النظافة بالطابق الأسفل ، ولما سألتهما أن يعلنا الصاغ بحضورى ، بدا عليهما الامتعاض .

قالت المرأة بلهجة الاستنكار : ألا تعلم ياسيدى أن الساعة لم تبلغ الثامنة بعد ، والصاغ أحياناً لا يدق جرس إفطاره قبل الرابعة مساء ؟

قلت فى ارتباك : ما دام الأمر كذلك ؛ فربما تكون مسز روچرز . . أقصد زوج الصاغ . . أهى ؟

وشهقت المرأة فى دهشة ، واكتسى وجه زوجها بالجمود والشرود ، ثم قال — وكأنه يجمع شتات فكره : زوجه ؟ زوجه ؟ لا ، ياسيدى . . لا توجد زوج له . . لا زوج له على الإطلاق !

وقبل أن ينتهى من كلامه أقبل علينا من الطابق الثانى أحد الخدم وبيده صينية فارغة ، فقال له الفندقى : أذهبت إلى خدمة الصاغ هكذا مبكراً ؟

قال : أجل . . دق جرسه منذ نصف ساعة ، فحملت إليه طلبه كالمعتاد ، وبكل همة ونشاط أفرغ الطعام فى

www.ibtesama.com

جوفه . . . واجترأت على سؤاله عما إذا كان ينوى دعوة أصدقائه إلى مشاهدة الحسناء نيد عند قدومها للرقص فى تايبورن هول ، فرفع الصاغ يده فيما يشبه التحية العسكرية ، ثم عاد يستأنف الأكل .

قال صاحب الفندق : اذهب إلى عملك يا أندروز ، ولا تكثر من الثرثرة .

والتفت نحوى يقول : أنت سعيد الحظ يا سيدى ، فتعال أرشدك إلى غرفته . . إنه يرحب بالزائرين . . أى زائرين !

وفيما أنا أصعد السلم وراء صاحب الفندق ، استيقظت الذكريات القديمة ، وأصبحت حقيقة لا تقبل الشك . .

وسرنا إلى باب الغرفة وطرقناه ، فلما علا الصوت الأجش المعهود يقول : « ادخل . . ! ادخل ! » ، أخذنى الطرب ، وأحسست بقلبى يهتز بين جنبى .

وفتحت الباب ، وخطوت إلى الغرفة الجانبية الكبيرة ، فوجدتها فى فوضى لم أر لها مثيلا فى حياتى ، مع أننى أعيش بين الفنانين المشهورين بفوضاهم . . فالحقائب والصناديق مكومة بجوار الحائط ومعظمها مفتوح . . والملابس مبعثرة

www.ibtesama.com

على الأرض والكراسى . . وفى أحد الأركان ترقد صينية عامرة بالأقداح والكئوس والأطباق ، وعلى مقربة منها نحو ست زجاجات فارغة . . وبين النافذتين تقوم منضدة عليها أكوام من الورق وبقايا الطعام . وكان الصاغ يجلس إلى هذه المنضدة فى حلة منزلية مطرزة بالألوان الفاقعة ، وشعره الأشعث يحمل آثار التجاعيد التى صففها له أشهر حلاقى چيرم ستريت .

وتقدمت منه خطوات ، فلما رآنى قفز واقفا ، وصاح يقول مرحبا : لانجدون تاون . . هذا أنت والله . . لانجدون ، يا بنىّ العزيز ، مرحباً بك . . لكم أنا سعيد برؤيتك ، وأمس كنت أفكر فيك ، وهذا الصباح أيضاً . . بل كنت أفكر فيك كلما التقيت بدوپس دوپس . . والممر الشمالى الغربى ، أتذكر ؟ أنت صاحب الفضل ، فلولا ما حدثتنى به عن دوپس ، ماعرفت شيئا مطلقا . . ولكن اجلس أولا . . اجلس هنا .

ومن أجل أن يفسح لى مكانا أجلس فيه ، رفع عن الكرسى معطفا أنيقا ونحو ستة ثياب ، ورماها على الأرض ، ثم أتى بمقعده ، واختطف زجاجة الروم من بين بقايا

www.ibtesama.com

فطوره ، وصاح ينادى بصوته القوى الحازم : ناتى . . ناتى . .

قال وهو يشير إلى الورقة الملصقة بالزجاجة ، وقد كُتب فيها أنها خمر معتقة منذ أربعين عاماً : انظر . . هذا روم سان چورچ ، فخذ لك رشفة وتذوقه . . الروم أفضل دواء وضعته الخليقة منذ الأزل ، فلا تظنه خمراً . . اشرب مطمئنا وتأكد أنه لن يضرك . . يالها من مدينة يالانجدون ! . . يا لها من مدينة لاينقصها شيء .. فيها أفخر الروم ، وأشهى الطعام ، وأحسن الصحبة ، وأجمل النساء . . .

وفجأة أمسك عن الكلام ، وعاد يصيح مناديا : ناتى . . ناتى . .

قال يتمّ حديثه : لا ، يالانجدون . . لندن مدينة ممتازة ، وكان من الممكن أن تصبح مثالية لوأنهم عنوا قليلا بإزالة زرق الحمام المتراكم على وجهات مبانيهم .

وفى هذه اللحظة ، فتح الباب الثانى ودخل منه شاب نحيف الجسم ، كتفاه تميلان بعض الميل إلى الانحناء .

ونظر الشاب إلى روچرز بمنتهى الاحتقار ، وقال فى حدة : دائما تصرخ وتصيح وتهلل .. ليس فيك ذرة من الأدب والرقى ... ماذا تريد ؟

www.ibtesama.com

قال له الصاغ : اسمع يا ناتى .. هذا لانجدون تاون ، أحد جنودى المتطوعين ، وهو رسام عظيم .

وكأن هذا الكلام ذكره بأمر ما ، فالتفت نحوى فجأة وقال بلهجة الأسف والاعتذار : كان يجب أن أسألك أولا عن رسومك ، فكيف حال الفن ؟ حدثنى بما فعلته منذ تركتك ، ولكن لا .. دعنا من هذا الموضوع ، فلا لزوم له الآن ، ولدينا متسع من الوقت لعلاجه فى مناسبة أخرى.. أمّا أنت يا ناتى ، فآتنا كأسين نظيفتين . أرجوك . . وخذ معك هذه الأوراق لتحملها إلى ميلان ..

والتفت الصاغ نحوى يقول لى بابتسامة يشوبها الخجل : إننى أؤلف كتابا ... لا بل أؤلف كتابين ، ولهذا فكرت فيك أمس ، وأنا أروى قصة حملتنا على سانت فرانسس .. انظر ، ها هى ذى الفقرة ، وهناك تقريرى لآمهرست مع معلومات أخرى كثيرة عما فعلناه حين هرب منا ستيفنس بالمؤن والذخيرة ، وكيف بنينا العائمة ونحن جياع عراة ... لم أكن أتوسم فى نفسى القدرة على التأليف ، حتى اضطرتنى الظروف إلى ذلك ، فما رأيك ؟ طبعا تعلمت هجاء كلمات كثيرة ، وفى مقدورى الآن أن أكتب كل شىء تقريباً .

قلت ــ وأنا ألقى نظرة على الورق : أراك تؤرّخ

www.ibtesama.com

التقرير باليوم الخامس من نوفمبر ، فهل نسيت أننا كتبناه فى فى أول الشهر ؟

قال روچرز باستهانة : وهل تهم الأيام ؟ إننى أسجل أحداثا تاريخية ، وما دمت أحسن تسجيلها فليس للأيام أدنى دخل فى الموضوع .. فضلا عن أنهم سيحتفلون بعيد الشعب فى أول نوفمبر ، وأنا أريد احتفالا مستقلا باليوم الذى عاد فيه روچرز من سان فرانسس .

وجاءنا ناتى بثلاثة أقداح نظيفة وضعها على ركن المنضدة ، وهو يسعل بصوت يشبه ضربات الباطه فى سيقان الأشجار .

وملأ روچرز الأقداح إلى ثلثها ، ثم التفت نحوى يقول : هذا ناتى پوتر أمين سرى .. رجل مفيد للغاية ، ولولاه ما استطعت أن أفعل شيئا يذكر ... وجدته فى بورتسموث ، فجئت به معى ... لا ، لا أظنك تعرفه ، فقد نزح إلى بلدتكم بعد سفرك بمدة طويلة ... من كان يتوقع أن أقابل ابن أخى رئيس أساقفة كانتربرى فى مقاطعة نيو هامپشاير ! نعم ، ناتى ابن أخته ، ورئيس أساقفة كانتربرى خاله .. هل تظهر عليه سمة من هذه القرابة النبيلة ؟ ... قطعاً لا !

وغمز لى پوتر بعينه ، ورفع كأسه وشرب مابها من روم

www.ibtesama.com

جرعة واحدة ، فأدركته نوبة السعال مرة أخرى .

قال حين هدأت أنفاسه : رئيس أساقفة كانتربرى . . رئيس أساقفة كانتربرى . . لقد ضقت ذرعا بقرابتى له ! فلماذا لا تزعم للناس أننى الأسقف نفسه ؟ الأمر يتطلب أن أحدث بعض التغيير فى شعرى المستعار ، وأعلق أشرطة حول عنقى ، ثم الروم بالپورت ، عندئذ قد يصدق الناس أننى حقيقة هو . . فمعظمهم لا يرى قسا بعد تنصيره إلا على فراش الموت .. أين المخطوطات التى أعددتها لميلان ؟

قال روچرز – وهو يعطيه الأوراق التى انتهى لتوه من تنظيمها : أبلغ ميلان أننى سأبعث إليه ببقية الفصول فى نهاية هذا الأسبوع ، واسأله عن آخر موعد يستطيع تحديده للتقرير المختصر ، وإذا احتاج إلى معلومات عنه ، فلك أن تخبره بكل ما لديك ... وأستحلفك بالله يا ناتى أن تضع لى مجموعة من الأسئلة أوجهها إلى كامپل وأنا أتناول معه العشاء الليلة ... ورجائى أن تكتبها قبل أن تلعب الخمر برأسك ... ثم لا تنس أن تبعث إلى الصحف ببعض الفقرات ، فجريدة الأوبزيرڤر لم تنشر هذا الصباح كلمة عنى ..

قلت : بل نشرت .. ومنها عرفت بوجودك فى لندن .

www.ibtesama.com

نشرت قصة قاطع الطريق الذى تصدى لك فى مرج هونثلو ، كما أشارت إلى رهانك مع أحد الوزراء .

هتف روچرز – وهو يضرب المائدة بقبضته فرحاً : عظيم .. عظيم جداً .. ويسرنى أننى قبضت على الوغد .. أهى الأوبزيرڤر التى نشرت الخبر ؟ جميل . . فلسنا نبغى سوى الدعاية .. الدعاية لبطولة روچرز وأعماله الفذة .. ناتى .. اطلب من الفندق أن يشترى لنا عشر نسخ من الأوبزيرڤر ، وخذها بنفسك إلى من يهمنا أمرهم .

والتفت إلىّ يقول : أتصدق أن ناتى تخرج فى جامعة كمبردچ ، وله اتجاهات أدبية ؟ لا منظره يوحى بذلك ولا حديثه ، ولكنها الحقيقة يا لانجدون ، وسأسعى حتى أرفعه إلى مصاف المثقفين فى هذا البلد ، فالفرص هنا لا تحصى ولا تعد .. أكثر من أى بلد آخر .. أتعرف أين يقضى الناس سهراتهم كل ليلة ؟ فى الأوپرا الإيطالية حيث يصرخ المطربون كالهنديات المولدات . . وهم يرتادون المسارح أيضاً بكثرة ليمتعوا أنفسهم بتوافه لا قيمة لها ولا معنى . . تمثيليات غاية فى السخف « كالزوج المهمل » أو « الخادمة المغرية » ، والله إنه لنى مقدورى أن أؤلف أحسن منها .. على كل حال ، ناتى يستطيع ذلك بسهولة ،

www.ibtesama.com

ولسوف يفعل إذا بقينا فى لندن مدة أطول ، وإلا فسيكون لى معه حساب عسير .

قال ناتى بلهجة التسخيف ــ وإن بدت عليه مظاهر الرضا واضحة : افعل ما يحلو لك .. انفجر .. اغضب .. ثُر .. أصرخ .. مُت !

وألقى روچرز بجسده على المقعد ، وبعد أن سكب لنفسه قدراً لا يستهان به من الروم ، ناولنى الزجاجة ، وجعل يتأملنى بعطف أبوىّ .

قال : لقد أصبحت نسخة طبق الأصل من شباب لندن : أنيقاً مهذباً .. معطفك بُنى وصديريتك رمادية .. وعموم مظهرك يوحى بالمرح واللطف .. ولعلك تزوجت من عجوز ثرية مثلما يفعلون .. لا ؟ .. لم تتزوج بعد ؟ .. إذن أين تسكن ؟ وهل تعيش من الرسم ؟

وأعطيته عنوانى ، وأخبرته بأننى نجحت فى كسب عيشى بإحدى الطرق الفنية ، ولكنها ليست الطريقة التى كنت ، وما زلت ، أحلم بها ، أى رسم الهنود فى بلادهم .

قال ــ وهو يضرب ركبتى بيده الضخمة : مشكلتك فى أنك هادئ أكثر مما يجب ؛ ولندن لا تعترف بالهادئين . اخرج عن وقارك ، وانطلق إلى الشارع . . حطّم النوافذ وخرّب الساعات العامة . . اكسر البيانو أو ارتكب حماقة ما .

www.ibtesama.com

فهذه سبيلك الوحيدة إلى الشهرة ، وبغيرها لن يعرفك أحد أو يشعر بوجودك إنسان . . من حسن الحظ أننى فى لندن لأساعدك ، وسأقوم عنك بمهمة تدبير الوسائل لرسم الهنود الحمر . انتظر ، وسترى كيف أمكنك من تحقيق غايتك . . لقد تذكرتك وأنا فى ڤوكسهول تلك الليلة . . رأيت رسما ضخما لآمهرست والمنظر حوله يشبه كراون پوينت تماماً . . وكنت إذ ذاك مع إليس حاكم چورچيا ، فقلت له : إليس ، أنا أعرف رجلا يستطيع أن يرسم مثل هذا بالضبط وبذات الإتقان . . إنه متطوع فى فرقتى واسمه لانجدون تاون . .

قلت : ولكنه رسمى . .

قال : ماذا ؟ صورة آمهرست من صنعك ؟ أنت الذى رسمتها ؟ والله إنها أجمل لوحة فى القاعة كلها ، فماذا رسمت أيضاً ؟

قلت : أشياء من هذا القبيل ، ولكنى أفضل أن أسمع ما لديك من أخبار پورتسموث . .

ثم أردفت أقول فى صوت أجش خشيت أن يثير اهتمامه : كيف حال . . كيف حال مسز روچرز ؟

قال ولم ينتبه إلى حالى : تركتها فى صحة جيدة . . . فتاة

www.ibtesama.com

جميلة ولطيفة ؛ ولكن أباها حمار كبير ، ومن سوء الحظ أنه لم يسقط على عنقه فيدقها بعد . . بودى لو أخمد الشيطان أنفاسه ، فهو رجل صغير . . أتعلم ما فعل بى منذ سنتين ؟ كنت وإليزابيث نعيش معه طوال إقامتنا فى پورتسموث . . هو الذى رجانى أن أفعل ذلك ، وألحّ علىّ بمنتهى الحماسة ، زاعما ما لا أول له ولا آخر من واجبات الضيافة .. ونزلنا على رغبته مجاملة له ، فكانت النتيجة أن تقدم إلىّ بقائمة حساب ، وطالبنى بألفين وستمائة من الجنيهات مقابل إقامتنا وطعامنا وغسل ثيابنا وأشياء أخرى عجيبة . . ألفان وستمائة جنيه بالتمام والكمال ! . . ولما ناقشته فى الأمر ، لم يتورع عن الالتجاء إلى المحكمة . . قاضانى ورمانى فى قبضة القانون !

قلت متعجبا : غير معقول أن يطالبك بألفين وستمائة من الجنيهات مقابل الأكل والإقامة ، فهذا « مبلغ » ضخم يغطى نفقات فرقة المتطوعين عاما كاملاً !

قال : وهل أجهل ذلك ؟ على كل حال ، هذا ما فعله ولم يرعَ حرمة لابنته . . استولى على ثروتى كلها مقابل جانب من الدين ، وأنا ملزم قانونا بدفع الباقى . . مستحيل أن يعيش الإنسان سعيدا إذا كان حموه تلك السمكة المقددة .

قلت : صدقت ، فالرجل غريب الأطوار ، وتصرفاته لا تبعث على الارتياح .

www.ibtesama.com

صاح يقول مغيظا : غريب الأطوار ، وتصرفاته لا تبعث على الارتياح ؟ أنت تكرمه بهذه الأوصاف ، والواقع أنه أقذر من الوحل . . ولكن ، دعنا من الحديث عنه ، واستمع إلىّ . . أمامى فرصة لا تعوض ، ولسوف أطلعك عليها مادام ناتى غير موجود ، فهو يكثر من الكلام عندما يشرب ، وأنت فى هذا البلد مضطر إلى الشرب أينما ذهبت .

قلت أسأله باهتمام : هل رئيس أساقفة كنتربرى حقيقة عمه ؟

قال — وقد بدا عليه الألم لتشككى فى صدقه : طبعا ، ولكن رئيس الأساقفة غير راضٍ عن هذه القرابة ، وأهله كلهم تبرأوا منه وطردوه إلى الشارع لخروجه على طاعتهم . . كان فى وقت ما يكتب للصحف ، ثم تحول إلى لاعب أو ممثل متجول . . . ولست أدرى كيف ذهب إلى أمريكا ، وأظنه لايدرى أيضاً . . . لقد روى لى القصة ذات يوم ، ولكنى نسيتها ، فالواقع أننى لا أعير ناتى اهتماما حينما يتحدث عن نفسه ، إذ من عادته أن يخلط بين الصدق والكذب بشكل مخجل .

وانفجر روچرز ضاحكا ، وأردف يقول : على كل

www.ibtesama.com

حال هو يساعدنى كثيرا على الكتابة ، فالتأليف كما تعلم أمر جديد علىّ ، وقد يصعب عليك تقدير مشقته لأنك لم تمارسه فى حياتك . . عمل متعب للغاية ، فما بالك إذا كنت مضطراً مثلى إلى تأليف كتابين فى وقت واحد !

قلت : أى نوع تكتب ؟ لقد رسمت صورا لبعض الكتب .

قال : لن يكون فى الكتابين أى نوع من الرسوم ، فالناشر الذى أتعامل معه شحيح للغاية . . لا ينفق بنساً ما لم يكن واثقا من أنه سيأتيه بأرباح مضاعفة . . والله إن أولئك الناشرين لأعجب من رأيت فى حياتى . . همهم الوحيد تحقيق أجزل الربح بأقل نفقة ممكنة ، ولو ألفت لهم إنجيلا ما تورعوا عن التعلل بالكساد والضرائب لشرائه بخمسة جنيهات . . ليس بينهم من يتردد دون ذبحك فى سبيل شلنين . . ولكن كامپل له رأى آخر . . يقول : إن كتبي ليست للقراءة ، وإنما هى وسيلة لإثبات قدرتى على القيام بأعمال عظيمة . . وكامپل هو الذى أتانى بناشر من هوايت هول . . . نفس الرجل الذى اعتاد أن يطبع أفضل المؤلفات السياسية والعسكرية . . . كتابى الأول اسمه « يومياتى » ، والثانى « تقرير مختصر عن شمال أمريكا » ،

www.ibtesama.com

وهذا الأخير وضعته بإيعاز من كامبل ، وفى اعتقاده أننى إذا استطعت أن أثير به اهتمام الملك يكون أهم حدث فى تاريخ إنجلترا ، بل فى حياتنا نحن أيضا .

وساورتنى الدهشة ، إذ كان وجود روچرز فى لندن ، واشتغاله بالتأليف ، أكثر مما يحتمله عقلى . .

قلت فى استحياء : ومن يكون كامبل ؟

قال : كامبل ؟ كنت أظن أن كل إنسان يعرف الدكتور كامبل . . العالم الاسكتلندى . . المؤلف الفذ . . الرجل الذى يعرف كل شىء عن كل شىء . . وأنت السبب فى معرفتى به ، يا لانجدون .

قلت : أنا يا سيدى الصاغ ؟

قال بلهجة التأكيد : طبعا أنت .. أنت السبب فى معرفتى بكامبل ودوبْس وإليس وموضوع الممر الشمالى الغربى كله .. ألا تذكر حديثك معى عن كتاب دوبس عند التحاقك بفرقة المتطوعين .. يوم بدأنا رحلتنا إلى سانت فرانسس . . دوبس الذى وضع كتابا عن الممر الشمالى الغربى ؟

قلت : بل أذكر يا سيدى ..

قال روچرز : تأمل الأمر العجيب .. بعد ستة أيام من

www.ibtesama.com

زواجى ببتسى ، أرسلنى آمهرست إلى جنوب كارولينا لأعاون قواته على مقاتلة قبائل شيروكيز .. وفى طريقنا إلى هناك توقفنا بشمال كارولينا ، فذهبت إلى الحاكم أقدم له تحياتى ، وإذا بى أكتشف أن اسمه آرثر دوبس . . وفجأة تذكرت حديثك ، فسألته عما إذا كانت له صلة بمن وضع كتابا عن الممر الشمالى الغربى .. وظهر أن الحاكم هو المؤلف بذاته ، وقد سره أن يجد من يقدر آراءه ، فقفز نحوى يحتضننى ويحيينى . . كانت فرحته بحديثى أعظم من أن توصف ، ولو طلبت منه إذ ذاك أن يهبنى نصف الولاية التى يملكها ، لأعطانيه دون تردد .. ولايته فى الواقع جميلة ، ولكنها موبوءة بالبعوض .

قلت : وهل تحدثت مع الحاكم دوبس فى موضع الممر الشمالى الغربى ؟

قال : طبعاً ، وعلمت منه أموراً كثيرة ... فبعد أن وضع كتابه ، أقنع ثلاثة أو أربعة من أثرياء لندن بالفكرة ، فتبرعوا له بخمسة عشر ألفا من الجنيهات تنفق فى الكشف عن الممر الشمالى الغربى . . واشترى دوبس بالمال سفينتين ، وأقلع بهما إلى خليج هدسن سعيا وراء الممر . وأبحر برفقتهم أحد السادة المتبرعين واسمه هنرى إليس ، ولكنهم

www.ibtesama.com

لم يعثروا على بُغيتهم .. ولما عاد إليس وضع هو أيضاً كتاباً يؤكد فيه وجود الممر ... أتعرف ماذا يفعل إليس الآن ؟ إنه حاكم چورچيا ، ومن حسن المصادفات أنه موجود بلندن فى هذه اللحظة .

ورفع روچرز زجاجة الروم إلى الضوء ، ولما وجدها فارغة ألقى بها على سريره .. وقال : وهل تذكر حديثى عن پونتياك ، وكيف علمت من رجاله أنهم أتوا عن طريق المحيط الغربى ؟

قلت : أذكر ذلك .

قال : حسناً : لما تأكد لى أن دوبس هو مؤلف الكتاب ، قلت له : « يا سيدى الحاكم ، أنت تبحث عن الممر فى غير موقعه ، وكان طوافك بخليج هدسن مضيعة للوقت ، وفى مقدورى أن أرشدك إلى هنود أتوا من المحيط الهادى عن طريق بحيرة متشيجان . . . وأنا أعرف كيف أذهب بنفسى إلى هناك ، ولست أطلب سوى أسطول من الزوارق ، أبحر به من نهر هدسُن إلى المحيط الهادى ، بشرط أن أقطع المسافة كلها بالطرق المائية ، أو أقطع معظمها على الأقل ، بحيث لا أضطر إلى المسير على الأرض سوى أميال معدودات . . . وهذا أكثر مما استطاع أن يفعله

www.ibtesama.com

الباحثون عن الممر جميعهم ، بما بذلوه على مضى السنوات من جهد ، وما استهلكوه من سفن ، وما أنفقوه من مال .

ونهض روچرز على قدميه ، وأخذ يقطع الغرفة جيئة وذهابا ، فبدا عجيب الشكل فى ثيابه المطرزة بالألوان الفاقعة .

قال : والله إن لفى استطاعتى أن أذهب حيث يذهب الهندى . . . وبيدى أن أحل مشكلة الممر الشمالى الغربى بصورة نهائية ، وأعلّم إنجلترا كيف تأتى ببضائع الهند واليابان عن أقصر طريق وأقله نفقة .

وكان يتكلم بحماسة بالغة ، فأخذتنى الحماسة أيضاً بعد أن فهمت من هذا الحديث ما كان يعنيه حين وعد باصطحابى إلى مختلف أنواع الهنود .

قلت : وبماذا أجابك دوبس ؟

قال : أجاب ؟ لقد أراد أن يقبلنى ، وظل طول الليل يتكلم ... يا لقدرته على الشرب ! فى وسعه أن يشرب نصف ما أشربه تقريباً ، وليلتها سكرنا كما لم نفعل من قبل ... ونصحنى بالسفر إلى لندن لأتحدث مع إليس فى الموضوع ، وهو يعتقد أننى ما دمت أعرف موقع الممر الشمالى الغربى ، فمن أقدس واجباتى الوطنية أن أثبت ذلك عمليا ، وعلى إليس

www.ibtesama.com

أن يرشدنى كيف آتى بالمال اللازم لتغطية نفقات الرحلة .. إليس ودكتور كامبل أيضاً .

قلت : وما دخل كامبل فى هذا الموضوع ؟

قال : المسألة غاية فى البساطة ، فكامبل وضع مؤلفات كثيرة عن جنوب أمريكا وجزائر الهند وكاليفورنيا وغيرها من بقاع العالم ، وقد خص بالذكر الممر الشمالى الغربى ، وبذلك أصبح مرجعاً يلجأ إليه الراغبون فى الكتابة عن الممر ... كامبل رجل عالم ... يعرف أكثر من الدكتور صاموئيل چونسون ، ويأكل بشراهة مثله .. ومنذ أيام تناولت معه العشاء فى كوين سكوير ، ورأيت كيف أكل الوغد الاسكتلندى كميات هائلة من الطعام ، واحتسى تسع زجاجات من شراب البورت ... تسع زجاجات كاملة ! .. الواقع أنها ليست كمية كبيرة ، ففى وسعى أن أشرب ذات القدر من الروم ، ولكن البورت لزج منفر . . وبمناسبة حديثنا عن هذه الأمور ...

وتسمرت نظراته على زجاجة موضوعة فوق رف الموقد ، وظل يتطلع إليها لحظة ، ثم سار نحوها ، وبعد أن فتحها وشمها قال فى ابتسامة عريضة تفيض بالرضا : الروم شراب ممتع ، وإذا لم تخلطه بالبورت اللزج الخبيث ،

www.ibtesama.com

فلا يمكن أن يضرك ... احترس من اليورت ، فهو ألد أعداء الروم الصحى اللذيذ ..

قلت : ما زلت لا أفهم دور دكتور كامپل فى موضوع الممر .

قال : بل تفهم يا لانجدون .. إنه ممثل لولاية چورچيا فى إنجلترا ، وإليس حاكمها .. أعنى كامپل مرءوس إليس ، ويتلقى منه الأوامر . . أفلا ترى الآن ؟ . . إليس صديق حميم لدوبس ، ودوبس هو الذى سعى حتى عينه حاكما لجورچيا .. ولما استقر دوبس فى منصبه ، سعى بدوره حتى عين كامپل ممثلا للولاية فى لندن ... وكامپل رجل اسكتلندى يعرف الناس كلهم ، ومن بين أصدقائه الأعزاء تاوسند صديق الملك ... وسبب الصداقة أن زوج تاوسند اسكتلندية مثل كامپل ، والاسكتلنديون بطبعهم متضامنون ، يلتصق بعضهم ببعض مثل الغراء .. وتاوسند كان فى يوم ما أمير التجارة والزراعة ، وهو الذى رصد عشرين ألفا من الجنيهات لاكتشاف الممر الشمالى الغربى ... ومعنى ذلك أنه يعرف أهمية المشروع لإنجلترا ، ويقدر ضرورة اكتشاف طريق مختصر إلى اليابان وجزر الهند ... أفهمت الآن ؟ .. لقد بعث دوبس برسالة إلى إليس يطلب إليه فيها معونتى على

www.ibtesama.com

تحقيق مشروعى . . واستجاب إليس بلا أدنى تردد ، فاصطحبنى إلى كامپل ، وطلب منه أن يساعدنى ... وجميعهم الآن يسعون لدى تاوسند من أجلى ، وعندما تظهر كتبى فى السوق ، سيضاعفون ضغطهم على تاوسند ، حتى يتحدث إلى الملك فى الموضوع ، ونذهب أنا وأنت يا لانجدون تاون للبحث عن الممر الشمالى الغربى !

قلت وقد غلبتنى الدهشة : أنا وأنت ، ياسيدى الصاغ ؟ أنا وأنت ؟

قال : أجل يا بنىّ .. أنا وأنت ... ألم تكن السبب فى إثارة اهتمامى بالمشروع ؟ ألم ترافقنى إلى سانت فرانسس ، أنت وكراسة الملاحظات ؟ أجل . . أنا وأنت ، يا بنىّ !

قلت وأنفاسى تكاد تنقطع : وكم تستغرق هذه الرحلة ؟

قال : قد تستغرق ثلاث سنوات ، وربما أكثر يا لانجدون ... ولكن المسألة تستحق .. تصور ما ينتظرنا هناك من عجائب وغرائب ... تصور ما نصيبه من خبرات جزيلة ... سنكون أول بيض يذهبون على طول الطريق إلى المحيط الهادى ... وسنقيم بعرض أمريكا قلاعاً ومراكز للتجارة ... نيويورك من ناحية ، وأوريجون من الناحية الأخرى ...

www.ibtesama.com

وقفزت إلى ذهني فى تلك اللحظة ذكرى الساعات الطويلة التى قضيتها فى مناقشة نفسى فيما أحتاج إليه من مال لشراء زورق يحملني إلى أرض الهنود ...

قلت : ومن أين تأتى بنفقات رحلة تستغرق ثلاث سنوات ؟ الأمر يحتاج إلى ثروة ضخمة ..

قال روچرز : لا ، فحملة من مائتى رجل لا تتكلف كثيرا بالقياس إلى ما تجنيه إنجلترا من أجزل الخيرات .. نفقاتها لا تزيد عما ذهب عبثا فى الطواف بخليج هدسن ... ولقد أرسلت إنجلترا عشرات من مثل تلك الحملات الفاشلة ، ولعلك تذكر مغامرة صديقك سير وليام فيپس حين ذهب للبحث عن سفينة غارقة ... حقيقة أنه وجدها فى محاولته الثانية ، ولكن ماذا كانت الغنيمة فى النهاية ؟ مليونا من أنصاف الدولارات ... شيء تافه لا يستحق الذكر إذا قورن بهدفنا الكبير .. نحن يا بنىّ لا نغامر ولا نقامر ... ففى استطاعتى أن أجد الطريق إلى المحيط الهادى ، وأفتح لإنجلترا أبواب الخير على سعتها ... أتعلم ما تجنيه هذه البلاد إذا توافر لها طريق أقصر إلى اليابان ؟ مئات أضعاف ما وجده فيپس ، بل مليون ضعف ، فهل تهم النفقات فى سبيل ذلك ؟

www.ibtesama.com

وكان صادقا فى تقديره ، فقلت : ما أوريجون ياسيدى الصاغ ؟

قال : نهر يجرى إلى المحيط الهادى ، ويؤكد الهنود أنه فريد فى عظمته ، وستبنى عليه مدينة كبيرة تأتيها السفن من اليابان ، لتفرغ شحناتها فى زوارق ضخمة ، تتجه إلى نيويورك مباشرة .

قلت : وهل وضعت هذه المعلومات فى كتابك ؟

قال : طبعا لا ... الأفضل ألا نبوح بهذه التفاصيل ، حتى لا يسرق الفكرة أحد ضباط الملك ويسبقنا إلى الحصول على إذن بالحملة ، ثم يتوجه إلى أمريكا بفرقة كاملة من جنود الحرس ، يسير بهم إلى المجاهل والأحراش وهم فى كامل أناقتهم وحذلقتهم .. أتعرف إلى أين يصل مثل هذا الضابط ؟ .. إلى لا شىء تقريبا ... قد يبلغ شلالات نياجرا على أكثر تقدير ، وعندها يطلب العودة إلى العالم المتحضر محمولا على الأعناق ... لا ، يا بنىّ .. إنها رحلة شاقة لا يقوى عليها سوى روجرز ! !

وتسارعت أنفاسى لروعة ما أسمع ، وخيل إلىّ أن أحلامى أخذت تتحقق ، وبات من الميسور أن أسافر إلى

www.ibtesama.com

المناطق الغربية ؛ ولكن الأمر بدا أجمل من أن يكون حقيقة ، وبخفقة مفاجئة من قلبي ، تذكرت مشروعا آخر من مشروعاته الحماسية ...

قلت له : حدثني يا سيدى الصاغ بما تم فى أمر الإقطاعيات الزراعية على شواطئ بحيرة چورچ ... فعند وصولنا إلى القلعة رقم ٤ سمعتك تعد المتطوعين بخمسة وعشرين ألف فدان يستقرون فيها مع أسرهم ، وكان وعداً رائعا فى إغرائه ، فإلام انتهت الفكرة ؟

وأحكم روچرز غطاء الزجاجة ، وقال ، وهو يعيدها إلى رف الموقد : لقد لمست نقطة حساسة ، وسأخبرك بما حدث فى أمر الإقطاعيات ، وأوضح لك حقيقة الأسباب فى عدم حصولى عليها ... كانت الأرض تقع فى الشمال ، وسط مناطق الموهوك ، ونمى الخبر إلى الموهوك ، فأقاموا الدنيا وأقعدوها .. قرروا ألا أحصل عليها ، وعقدوا عزمهم على ذلك ، فرفض طلبى . وكان سير وليام چونسون وراء الموهوك يحرضهم ضدى ، لأنه لا يريد إقطاعيات أو ملاّكا فى شمال أمريكا ... هو والقائد جيج يطمعان فى السيطرة وحدهما على المنطقة بكاملها ، فتكاتفا علىّ .

وأردف يقول فى غضب واضح : چونسون وجيج

www.ibtesama.com

يتحالفان معا ، ولا يضيرهما أن يشنقا من يقف فى طريق أطماعهما ... ألم أقدم استقالتى بسبب چونسون لما رفض أن يعطينى ترخيصا بالسفر إلى لندن ؟ نعم ، دفعنى بتعنته إلى الاستقالة ، واضطرنى أن أنزل عن رتبتى ونصف مرتبى ، وهأنذا أحاول أن أعيش فى لندن بخمسة شلنات يوميا .. من حسن الحظ أن چونسون وجيج ليست لديهما أدنى فكرة عما أعتزمه بخصوص الممر الشمالى الغربى ، ولو بلغهما الخبر ماتوانيا عن منعى ، ولكنى أستطيع أن أبطل حيلهما بالوصول إلى أذن الملك ... وسأصل إلى أذنه ولو اضطرنى الأمر إلى قطعها بيدى ... وعندما يأتينى تصريحه بالحملة ، سأدخل به على چونسون وجيج ، وأقول لهما : « أترياان هذا أيها الفتيان ، أو تعلمان لمن هذا أيها التافهان ؟ والله إنه لى أنا ؛ فتنحيا عن طريقى أيها الطفلان ، تنحيا عن طريقى ... »

وعاد إلى الزجاجة ، ففتحها من جديد ، وملأ لنفسه قدحا ، ثم قال فى صوت خفيض بعد أن كان يصرخ عاليا ليسمعه الفندق : . . الموضوع الآن فى مسامع الملك يا لانجدون ، وهو يسمع بأذنين ، ولابد أن أقنع إحداهما على الأقل ، فأنال غرضى . . أجل ، وقسما بهذا الروم الأمريكى الأمين ، لابد أن أقنع إحداهما وأنال غرضى .

www.ibtesama.com

وعلا ضجيج خارج الغرفة ، وعلى أثره فتح الباب بشدة ، واندفع منه ناتى پوتر مترنحاً ، وكان يحمل فى يده مجموعة من الصحف والمظروفات ، فتبعثر بعضها على الأرض .

قال ، وقد ركع على ركبتيه يجمع ما سقط منه : دعوات . . . دعوات . . الناس كلهم يتشرفون بدعوة الصاغ روچرز إلى حضور حفلاتهم واجتماعاتهم لشجاعته الفائقة فى ملاقاة قاطع الطريق . . .

قال روچرز : عليك اللعنة ، ألم آمرك أن تبقى صاحيا حتى تنتهى من وضع أسئلتى لكامپل ؟

ونظر ناتى پوتر إليه فى وجوم ، وقال والكلمات تتعثر بين شفتيه : سيان إن كنت سكران أم صاحيا ، فعقل ناتى الفلسفى الجبار لا يكف لحظة عن العمل ، ولا يتعطل لسبب وإن عظم . . . فعبقرية ناتى لا تعرف الكلل ولا الملل ، ومهما حدث ، تجدها ماضية فى سبيلها فى استيعاب المثل والمبادئ . . وكل ما فى الأمر أننى احتسيت قدحا وأنا خارج . . . ولكن ، خبرنى بالله عليك ، أى فائدة فى هذا الفنان الذكى الواقف معك ؟ . . إذا كنت تنوى مساعدته ، فعليك أن تطلب منه

www.ibtesama.com

خدمة يؤديها مقابل ذلك . . . أنت فى احتياج إلى من يرسم صورة لك ، ويُعلق نسخاً منهما فى واجهات الحوانيت . . حتى تمتلئ المدينة بصور الصاغ روچرز البطل . . الشجاع . . الباسل . . حاكم . . ميشلا . . ميسكا . . . مسيسيكا . . . ياله من اسم ! اسم لا يسهل النطق به إلا فى قصيدة . . وهى مهمة مستحيلة ، لأنه اسم قبيح لا يتسق مع الأوزان . .

ونهض عن ركبتيه ، وهو يغنى ويقول : حبيبتى تنتظرنى فى حلة بهية . . تحت أضواء القمر الفضية ؛ ولكنى راحل هناك . . إلى ميكيلماكيناك !

والتفت إلينا يقول : ميكيلماكيناك . . . أجل ، هذا هو الاسم الملعون . . فأى عقلية وحشية منحلة ، تلك التى تفتقت عن هذا الاسم الصوتى المدمر لأصول النغم وقواعد اللغة . . ألا تسمونها أسماء الأصوات ، أم ترانى أخطأت ؟ على كل حال من واجب صديقك الفنان أن يرسم صورة لك ، تعلق فى واجهات الحوانيت . .

قال روچرز فى رضا واضح : فكرة لا بأس بها . . لا بأس بها على الإطلاق .. استمر فى الشراب يا ناتى ، وابقَ مخموراً إلى الأبد .. اسمع يا لانجدون ، أظنك تستطيع

www.ibtesama.com

أن ترسم لى صورة أبدو فيها عملاقاً ، ومن حولى يقف جنود قصار القامة يرفعون أنظارهم إلى ، وفى عيونهم أجلى مظاهر الذعر والرهبة . . . لا أخالك تعارض فى ذلك . . . فلن يضير حوانيت لندن أن تزين واجهاتها ببضعة آلاف من نسخ من هذه الصورة ..

قال ناتى پوتر : يضيرها ؟ إنه كسب لها .. كسب عظيم .. خصوصاً إذا لم يتقيد صديقك الفنان بحقيقة شكلك ، واكتفى بإبراز مظاهر العظمة فى تقاطيع تشبه تقاطيعك .. سيعرفك الناس كلهم من الصورة ، فيصفقون تحية لروچرز الشهير . . . أوليس ذلك عاملا على بعث الثقة فى نفوس التجار ؟

ويبدو أن جملته الأخيرة نالت استحسانه ، إذ ظل يتمتم بها مرة بعد أخرى فيقول لنفسه : بعث الثقة فى نفوس التجار .. ثقة التجار .. ثقة التجار ..

والتفت إلينا يقول بأسلوب خطابى : وإنى لأتوقف لحظة لأتساءل عما يجنيه الشهيران روچرز وپوتر بهذه الطريقة ، وأى عطايا رائعة تسبغها السماء الخالدة عليهما .. أجل ، ثقة التجار ذات أهمية بالغة .. طبعا ، لأن التجار

www.ibtesama.com

إذا لم يمنحونا ثقتهم ، فسنضطر بدورنا إلى التوقف عن التعامل معهم .. نتوقف تماماً .. ولماذا نتوقف ؟ لأن لدينا من الأسباب الجوهرية ما يبرر ذلك ... وما هى الأسباب ؟ إننا نرفض التصريح بها لما تسببه لنا من ألم شديد ، وليس من داعٍ يدعونا إلى إيلام أنفسنا ... إلى الأمام إذاً ، فعندى فكرة أخرى غير اللوحات العالمية لروچرز العظيم ..

هتف روچرز متحمسا : فكرة أخرى ! فكرة أخرى ! إلينا بها ياناتى !

قال : إليكم بها ؟ .. من دواعى سرورى وفخرى أن أدلى إليكم بها أيها الصاغ .. سرورى وفخرى بعبقريتى .. إنها القصة المثلى لموت أبيك الباسل فى ميعة الصبا وعنفوان الشباب . فهذه القصة يجب أن تنشر على الناس فى طول البلاد وعرضها ، تطالع كل قارئ حين يفتح جريدته الصباحية المفضلة . فأى أهمية لغزو سانت فرانسس فى تقدير سكان هذه الجزيرة ؟ أهمية ضئيلة ، بل ضئيلة جداً ، ولكن قصة مصرع أبيك يا سيدى الصاغ ، تأتيك من الشهرة بما يحيطك بدوىّ البطول .. اللبوط .. الطبول .. نعم الطبول .. يعنى حناجر تدوى كالطبول وهى تهتف لك من

www.ibtesama.com

أعماقها : مرحى .. مرحى .. المجد لروچرز العظيم !

وقام روچرز إلى سترته فارتداها وعلى وجهه سيماء الزهو والفخار ، وأخذ ينقر بإصبعه على صديريته المطرزة فى صوت مسموع ، ثم قال : أى والله ، إذا لم تصل مطالبي إلى أذن الملك ، فلن يكون ذلك إلا لأنه عديم الأذن !

** معرفتي **
www.ibtesama.com
منتديات مجلة الإبتسامة

www.ibtesama.com

الفصل الرابع

استجبت لرغبة الصاغ ، فرسمت له صورة بالطباشير الأحمر ، يظهر فيها بملابس المتطوعين ، وعلى رأسه قلنسوته العسكرية الصغيرة . . ذراعه ترتكز إلى بندقية كبيرة ، ومن خلفه يقف هندى مذعور يختلس منه نظرة سريعة . . . ولم يكن فى شكل الصاغ مايوحى بالجمال . . لاأنفه الذى يشبه منقار الصقر ، ولا شفتاه الغليظتان ، ولا عيناه المنفوختان . ولما طبعت نسخا من هذه الصورة ، اكتشفت لفرط دهشتى واشمئزازى أن بعضهم سطا على فنى بقصد التجميل ، فعدل فى ملامحه ونقح ، حتى انمحت من الوجه مظاهر شخصيته القوية . . والأدهى من ذلك أن النسخ القبيحة غمرت الأسواق ونالت الإقبال ؛ وظهرت فى واجهات الحوانيت المنتشرة فى مختلف الأحياء . .

وربما تكون الصورة أتت فعلها ، وأذاعت صيت الصاغ فى لندن كلها ، حتى أصبح الناس يعرفونه مثلما يعرفون بيوت وجاريك ودكتور جونسون . . أو لعلها طريقته فى المشى بنصفه الأسفل دون أن يحرك نصفه الأعلى ، هى التى استوقفت الأنظار وجعلت شكله مألوفا لجماهير

www.ibtesama.com

الناس . . وعلى كل ، فقد أصبح الصاغ علماً فى المدينة ، وكنت إذا سرت فى صحبته أحيانا أجد عابرى الطريق يلتفون حوله ، وأسمعهم يتمتمون قائلين : « الصاغ روچرز » أو « الهنود » أو « روچرز العظيم » . . ويغتبط الرجل باهتمامهم ، فيلتفت إليهم فى ابتسامة يشوبها الحياء – وهى إحدى عاداته الطيبة القليلة – ثم يرفع يده إلى قبعته يحييهم بغاية الأدب .

والواقع أن لندن كانت حقيقة تحبه ، وما من حدث هام وقع فيها إلا واقترن به اسم الصاغ ، فحين نفذ حكم الإعدام فى قاطع الطريق ، وشنق علنا بميدان ثايبورن ، طُلب إلى روچرز الحضور ، فوقف هناك يبتسم للجماهير المحتشدة . . . ولما كتبت الجرائد عن المدعوين إلى الحفلات الراقصة بالقصر الملكى ، ورد اسم روچرز فى مقدمتهم . . أما هو فظل طول الوقت يشكو من تفاهة التمثيليات التى تعرض فى المسارح الكبيرة مثـــل هاى ماركت ودرورى لين ، ويقضى لياليه فى المقامرة مع أثرياء المجتمع بنادى هوايت . . ويتحرك دائما فى صحبة علية القوم ، فقد رأيته ذات مرة يسير فى پيكاديللى بين چيلى وليام وسير چورچ سيلوين ، وكان صديقا حميما للورد مارش ولورد كوفنترى ولورد ساندوتش وغيرهم من أعضاء نادى هيل فاير ، وهم

www.ibtesama.com

رجال اشتهروا بالإباحية والاستهتار .

ولم أستطع قط أن أهتدى إلى مصدر الأموال التى ينفقها على متعه المختلفة ، والواقع أنه كان ينفق بلاحساب : يشترى أفخر ماتعرضه الأسواق من السراويل والمعاطف والقبعات والأحذية والعصى . . ويكثر من إقامة الولائم الضخمة . . ويقضى لياليه مع الشباب المستهترين فى مغامرات صاخبة ، تشترك فيها فتيات النوادى الليلية المنتشرة حول حدائق كوفنت وميدان بيركلى .

وطبيعى أن دخله لم يكن يتسع لنفقات هذه الحياة ، خصوصا بعد تقديم استقالته ؛ ونزوله إلى رتبة يوزباشى بنصف مرتبها . . . والأرجح أنه كان يعيش على مراهناته الناجحة ، إذ كان مقامرا بطبعه ، ولكنه مقامر خطير يخفى حقيقته وراء مظهر برىء خداع . . فالناس حين يرون وجهه الضخم الطيب وابتسامته المشوبة بالحياء ، يخيل إليهم أنه فريسة ساذجة من السهل أن تقع فى شباك حيلهم الماكرة . . مع أنه أمهر منهم وأمكر : عجيب فى سرعة ملاحظته . . عبقرى فى دقة أحكامه . . مغامر لا يخامره الخوف أو التردد .

وجاءتنى أنباء مراهناته بتفاصيل جولتين كسب منهما كسبا وفيراً ، فى إحداهما تراهن مع خمسة من أصحابه الأثرياء

www.ibtesama.com

على حضور حفل راقص أنيق ، وهو حافى القدمين .. بدون شاراته العسكرية أو ملابسه الرسمية . . بلا صديرية مطرزة ولا قميص مهفهف ولا مخمّل أو حرير أو نسيج من أى نوع كان .. وفى الموعد المحدد ذهب إلى المرقص يرتدى جلد الغزال مثل الهنود ، وعلى رأسه قلنسوة جلدية ... وفى قدميه خف بدائى ، وحول خصره منطقة تتدلى منها بلطة كبيرة وسكين طويلة .. وحقق بزيه هذا نصراً ساحقاً ، فكسب الرهان ، وأثار إعجاب الحاضرين .

وفى المرة الثانية كان يجلس مع عشرة من أصحابه فى مطعم مشهور بشارع نيوجيت ، وأسرفوا جميعاً فى الشرب ، حتى أخذتهم نشوة الخمر ، وتعالى صخبهم فى المكان .. وبدأت المراهنات كالعادة ، فتحدى بعضهم بعضاً ، وأخيراً اتفقوا على أن يدفع كل منهم عشرة جنيهات لمن يروى أكبر كذبة .. ولما جاء دور روچرز ، وقف بين الحاضرين متحدثاً ، واستهل كلمته بالاعتذار عن نشأته العائلية المتدينة ، وما ترتب عليها من ضعفه الشديد فى الكذب ، الأمر الذى يعجزه عن منافسة سادة لندن فى هذا الفن الذى اشتهروا به وتضلعوا فيه .. وبعد ذلك روى لهم قصة والده ذلك الرجل المتواضع البسيط ، وكيف حببت إليه بساطته

www.ibtesama.com

أن يرتدى جلد الدب بدل الثياب ؛ ولما كان شكله عجيباً إلى حدما ، ووجهه تغطيه طبقة كثيفة من الشعر ، فقد حدث ذات يوم أن أخطأه أقرب أصدقائه إليه ، وظنه دباً حقيقياً ، فصرعه برصاصة أصابته فى مكان حيوى من جسده .. وزعم روچرز أنه حادث حقيقى ، وليس الوحيد من نوعه فى تاريخ أسرته ، ولهذا يكتفى بذكره كواقعة أكيدة لا تدخل ضمن مباراة الكذب التى افتن زملاؤه فى تأليف القصص الخيالية لها .. وما دامت الفرصة سانحة ، فجدير به أن ينتهزها فيصف للحاضرين بعض ما تزخر به بلاده أمريكا من عجائب خارقة لا يوجد لها شبيه فى أوروبا .. ففى غرب أمريكا مثلا مناطق غنية بالينابيع الطبيعية المتقاربة ، الواحد منها لا يبعد عن الآخر أكثر من خطوات معدودات .. منها المثلج ومنها الساخن ومنها ما تصل مياهه إلى درجة الغليان .. وما على المسافر إذا مر بها سوى أن يخلع ثيابه ، ويضعها مع قطعة من الصابون فى الينبوع الساخن ، فتقوم المياه من تلقاء ذاتها بغسلها وعصرها وطيها ، ثم تضعها فوق صخرة ساخنة لتجف .. وإلى أن تنتهى هذه العملية ، يستطيع المسافر أن يصيد من الينبوع البارد سمكة ضخمة ، ودون أن يخلعها من الشص أو يتحرك من

www.ibtesama.com

مكانه ، يطوح بها إلى الينبوع الثالث ، فتقوم المياه المغلية بسلقها فى دقائق معدودات ، وبذلك يتأتى له عشاء شهىّ بأقل مجهود ممكن .. وفى أمريكا نوع آخر من الينابيع بعضها معروف بحساسيته البالغة ، وإذا ألقى فيه بحجر يزمجر غاضباً ، ويلفظ الحجر إلى ارتفاع قد يتجاوز عشرين قدماً .. وبعضها الآخر لمفاوى الطبع ، وقد ظل منذ الأزل يعمل بانتظام ، فكل ثمان دقائق بالتمام والكمال يلفظ عموداً من الماء أعلى قليلا من أبرشية وستمنستر وأقل هونا من كنيسة سانت پول ..

ولما انتهى الصاغ من حديثه ، استبدت الحيرة بزملائه وأخذوا يتجادلون فيما سمعوه منه ، ولكن حججهم انهارت بسهولة أمام براعته فى الكذب ، وانتهى الموقف إلى حقه الكامل فى الجائزة وقيمتها مائة جنيه .. وفى اليوم التالى نشرت الصحف قصة مصرع أبيه ، وكيف ظنه صديقه دبّا فرماه بالرصاص ... ونالت القصة من ذيوع الشهرة ما تنبأ به ناتى پوتر حين أوعز إلى روچرز بسردها على الناس ... وهكذا أصبح قاهر سانت فرانسس شخصية مرموقة فى إنجلترا ، بفضل مصرع أبيه ، لا بفضل دحره الهنود .

وبالرغم من مرحه ولعبه وسهره وعبثه ، ظل مجدّا فى

عمله ، ولم يحدث مرة أن دخلت غرفته بفندق « هوايت بير » ، ولم أجده منكبا على أوراقه يكتب ما تبقى من « يومياته » و« تقريره المختصر » .

ولكنى لم أسمعه يتحدث عن الزابيث بعد زيارتها الأولى ، ولم أجد الشجاعة على سؤاله عما أتحرق شوقا إلى معرفته من أخبارها وأحوالها ، ولماذا لم تأت معه إلى إنجلترا ، وكيف تصرفت حيال أبيها حين قاضاه واستولى على أملاكه ، وهل ما زالت تحبه وما زال يحبها ؟

وبالعودة إلى تاريخ زواجهما ، تبين لى أنه صرف معظم وقته فى رحلات أخذته بعيداً عنها ، وحسبت جملة ما قضاه معها ، فوجدتها فترة لا تكاد تبلغ أربعة أشهر .. ومع ذلك كان يكتب لها بانتظام ، ويملأ رسائله بعبارات الشوق والمودة ، وكثيرا ما رأيت بعينىّ عبارات العطف واضحة فى تلك الخطابات التى كان يتركها أحيانا ملقاة على المنضدة بطريقة لا يخطئها النظر .. فدائما يستهلها بمعنى جميل مثل : « ياملاكى الصغير » أو « يا حياتى الغالية » أو « بتسى ، يا أعز الأعزاء » .. وكذلك الأمر فى ختامها ، فما من رسالة إلا وينهيها بما يؤكد حبه لها ، فمرة يكتب : « زوجك الأمين

www.ibtesama.com

ما دامت فيه أنفاس تتردد » وأخرى « زوجك المعطوف » يقصد العطوف !

وكانت كلمة « العطوف » تتعبه وتحيره ، وكثيرا ما عذبنى بالسؤال عن طريقة هجائها ، وسمعته مرارا يستفسر عنها من پوتر أيضا ، ثم ينتهى الموقف دائما كما بدأ ، فيكتبها « معطوف » ، وكأننا لم نصححها له .

ولا بد من الاعتراف بأن كفاحى المرير فى سبيل تقرير مستقبلى الفنى بلندن ، أخفى معالم حبى لإليزابيث ، وصور لى فى وقت ما أننى نسيتها ، أو بعبارة أصح كدت أنساها .. ثم جاءت عودة روچرز إلى حياتى لتكشف لى عن خطأ تصوراتى ، وأحيت ذكرها فى قلبى بكل وضوح وقسوة .. وكانت الرعدة تسرى فى جسدى حين أسمعه يتحدث عن مغامراته الصاخبة فى الملاهى والنوادى الليلية ، وكلما أسرف فى وصف أنباء مجونه ، أزداد اقتناعا بأن رجلا مثله لا يصلح زوجا طيبا لأى امرأة فى الوجود ، ولكن شعورى بالنفور من أفعاله لم يضعف من إعجابى الشديد بمثابرته العظيمة على بلوغ أهداف كثيرا ما تبدو فى ظاهرها مستحيلة التحقيق .. بل إننى ازددت إعجابا به حين رأيته فى تلك الآونة يعمل

www.ibtesama.com

فى وضع كتابيه بجهد لا يعرف الكلل ولا الملل ، ويحتمل أشق المتاعب فى سبيل الحصول على المال الكافى للكشف عن الممر الشمالى الغربى .. فضلا عن أننى كنت أقدر جميله علىّ ، لا لمجرد أنه أنقذنى من موت محقق فى سانت فرانسس ، فقد أثبت فى لندن أيضا أنه صديق صدوق لا مثيل له فى الإخلاص والكرم .. وإزاء ذلك لم أكن أملك سوى العطف عليه ، والتجاوز عن أخطائه ، وكلما وجدتنى ثائراً على بعض تصرفاته الحمقاء أعود وأذكّر نفسى بأفضاله علىّ ، فتهدأ ثورتى ، ويغلب شعورى بالتقدير له .

* * *

كان ناتى پوتر أبسط شخصية من مخدومه ، وأقل تناقضا فى تصرفاته . . . مجرد نقيض له ، أو هذا ما لمسته ذات صباح من شهر أغسطس حين أتى لزيارتى برسالة من روچرز .

قال : إن الصاغ بطلنا المغوار يرجو أن تشرفه بصحبتك هذا المساء ، لتناول العشاء فى بيت الدكتور كامپل . . هكذا الصاغ دائما . . مثل فى كرم الضيافة على حساب غيره . . فكن عند حسن ظنه بك ، ولا تتخلف عن الموعد ، وإياك

www.ibtesama.com

أن تنسى حافظتك العامرة بما رسمته من تحف خالدة للزحف الرائع على سانت فرانسس . . رائع ، رائع ، ثم انطلق من القيود متحررا . . لا مؤاخذة ، هذه الجملة الأخيرة نبذة شعرية من ديوان البجعة .

قلت : ألست مخموراً إلى حد ما ؟

قال : أصبت . . . وما دمت تسألنى بصراحة ، فلا مفر من الاعتراف بالحقيقة ، ولست أنكر أننى مخمور قليلا . . قليلا . . أقل مما ينبغى . . بضع كئوس من الجن تتابعت إلى حلقى البرىء فى سباق محزن .. هكذا قال شكسبير .. ولكنى ما زلت أحتفظ بما اشتهر به پوتر من حكمة وفلسفة .. حكمة پوتر ، وبصيرته الثاقبة .. بصيرته الثاقبة ...

وظل يردد هذه العبارة فى تأمل وهو يجول بأنظاره بين أرجاء الغرفة محملقاً فى رسومى المعلقة على جدرانها ، فعدت إلى عملى وأنا أحمد الله على أننى أخفيت صورة إليزابيث يوم عرفت بوجود روچرز فى لندن .

قلت : وذاكرة پوتر ، أما زلت تحتفظ بها أيضا ؟ أنا لا أعرف دكتور كامبل ، أواثق أنت من أن الصاغ يدعونى لتناول العشاء معه ؟

www.ibtesama.com

قال مؤكداً : إن الصاغ المغوار خص مسألة العشاء بالذكر ..

ثم سعل بطريقته الخشنة المعهودة ، وقال فى صوت متخاذل : أظننى مضطرا إلى مضايقتك بطلب دواء منه :

ولاعتقادى أنه يحاول استغلالى بأحد أساليبه الملتوية المعروفة ، تجاهلت طلبه ومضيت فى عملى دون أن ألتفت إليه :

قلت : فى أى ساعة يريدنى ؟ وهل بين المدعوين سيدات ؟

ولما لم أسمع جوابا من پوتر ، التفت نحوه فوجدته قد تهالك على مقعد ، ووجهه الممتقع يتصبب بالعرق ، وقد تجمعت قطراته فوق جبينه وشفته العليا .. وأسرعت إلى زجاجة الچن وملأت منها الكأس إلى نصفها ، وأدنيتها من فمه ، فشربها فى جرعة واحدة ، ثم ارتجف فى تخاذل شديد .

قلت : الأفضل أن ترقد فى سريرى ، ودعك من الچن ، فأنت فى أشد الاحتياج إلى طعام ، ولست أدرى كيف شربت هذا السم على معدة خاوية .

وأردفت أقول — وأنا أعنى به وأساعده : ألا تفهم يا رجل ؟ ألا ترى وتتعظ ؟ والله لو سرت إلى سانت جايلز فى صباح أى يوم لوجدت فى المجارى جثث أطفال ألقت بهم أمهات أضاع الخمر صوابهن .. إن شعبكم ينتحر بالچن ،

www.ibtesama.com

وهذا ما يؤكده هوجارث وسير جون فيلدنج ، ولا أظنهما كاذبين !! ماذا دهاكم جميعا ؟ أفقدتم عقولكم ؟

ومسح پوتر العرق عن وجهه بكم معطفه ، ومد إلىّ يداً مرتجفة يبتغى مزيداً من الشراب ، فأعطيته الزجاجة ، وبعد أن أصاب منها قليلا ، وضعها بجواره على الأرض وقال : إنها إغماءة بسيطة لن تلبث أن تزول ، اللهم إلا إذا مضيت فى وعظك ، فوفر على نفسك الجهد واطمئن إلى أن أهلى أسمعونى كفايتى وأكثر .

وعاد إلى الجن يرتشفه بلذة ، ويلوكه فى فمه كأنه أفخر شراب .

قلت غاضبا : أنت حرّ فى نفسك ، فأبلغنى ما تبقّى من رسالة الصاغ ، وتفضل بالانصراف لأننى أريد أن أعمل فى جو من الهدوء .

قال : دعنى أرتاح برهة إن سمحت ، فهذه النوبات تعاودنى بين آن وآخر ، وبعدها أشعر بضعف شديد .. سألزم الصمت حتى لا أعطلك عن عملك .. إن بيت كامبل يقع فى كوين سكوير ، والعشاء فى تمام الرابعة مساء ، ولن يحضر المأدبة نساء ، والأمر بالغ الأهمية .. فدكتور كامبل يستقبل اليوم رجلا ذا نفوذ كبير بوسعه أن يساعد

www.ibtesama.com

الصاغ إذا راق له . . فتسلح بجمالك ، ودع حسنك يضيء على خد الليل مثلما تضيء الجوهرة فى أذن حبشى . . هذه فقرة أخرى من ديوان البجعة .

وبعد تأمل فيما أبلغنيه نانى پوتر ، عدت إلى لوحتى فانتزعتها من إطارها ، وثبت فى مكانها ورقة جديدة . . فقد أعاد الحديث إلى ذهنى ذكرى الحقل المنحدر الفسيح بديتروويت ، وجماهير الهنود المتجمعة فيه ، والحرس الفرنسى ينصرف مسلماً . . وتذكرت روچرز حين قال لى إذ ذاك : لكأنى أرى اللهيب يتحول إلى رجال . . وأثار وصفه الجميل مشاعرى وازداد على مضىّ الزمن تمكنا منى ، فلما عرفت برسالة الصاغ ، تملكتنى رغبة مفاجئة فى أن أترجم وصفه السابق إلى لوحة تستحق الإعجاب .

ولم أشأ أن أترك حماستى تفتر ، فعكفت على الورق أعمل بغاية الاجتهاد ، وانهمكت فى الرسم بقلبى وروحى وعقلى ، حتى نسيت الوقت ، بل نسيت الدنيا ومن فيها .

وبعد أن مضت ثلاث ساعات ، تذكرت الطعام فتركت القلم جانبا ، وبسطت ذراعىّ أريح عضلاتى ، ثم تراجعت إلى الوراء خطوات أفحص الرسم عن بعد . . وإذا بى أقفز منزعجا ، فپوتر الذى اختفى ذكره من ذهنى

www.ibtesama.com

طوال الساعات الماضية ، ارتفع صوته من خلفى يقول : حقل اللهيب . . لا ، إن لوحتك تستحق وصفا أسمى من هذا ، وأظنك ياسيدى على موهبة حقاً !

كان ما يزال متهالكا على المقعد وزجاجة الجن بجواره فارغة ، ولما جلبت من خزانتى رغيفا وقطعة من الجبن ، أقبل على الأكلة بنهم الذئب . . ولكنه لم يرحب بكوب الماء الذى أتيته به .

قال وهو يشربه باشمئزاز شديد : أتعطينى ماء وأنت تعرف ما يفعله بمواسير البنادق ! قلت : أليس من الأفضل أن تعود إلى الصاغ ؟

قال وهو يهز رأسه نحو الصورة التى رسمتها : لا ، لن أعود قبل أن تنتهى من الحقل النارى .

وأخذ يردد الوصف مرة بعد أخرى فى حيرة واضحة ، كأنه يبحث عن نغم هرب منه .

قلت : لم تبق سوى اللمسات الأخيرة .

قال : ضعها إذاً ، وبعدها أخبرك بما أريد . . إنه جميل أطلبه منك .

وعدت إلى الرسم أُتمه . قال پوتر وهو يسعل بطريقته

www.ibtesama.com

الخشنة المعهودة : إنى أراك ياسيدى رجلا كثير الفضائل كريم الأخلاق ، ولذلك أحب أن أسألك عما إذا كنت تعرف كيف يشعر الإنسان عندما يجد نفسه وحيداً طريداً شريداً . . لا من يحبه أو يحترمه أو يعنى بمصيره . . إنه إحساس رهيب يملأ القلب جزعاً لا سبيل إلى التخلص منه إلا بالسكر والنوم . . وهذاما يلجأ إليه الطريد فى معظم الأحيان . . يغرق همومه فى الشراب ويستسلم للنوم ساعات يستيقظ بعدها كالطفل فى صفاء القلب وهدوء النفس ، ثم تعود الحقيقة فيعود الجزع بلهيبه الحارق . . الجزع من الواقع الأليم . . أهلك يتمنون موتك بعد ما خابت مساعيهم فيك . . جهودك دائما فاشلة تنتهى بعكس ما تريد . . لعنة تطاردك فتجعلك نقمة على نفسك . . كلما لمست خيراً تحول إلى شر ، تشعر وترى محنتك بعينيك ، ويؤمن بها عقلك ، فتموت إرادتك ، ويتملكك شعور بأنك مخلوق ضائع لا فائدة فيك ولا أمل يرجى منك . . لا ، لا يا سيدى . . لا أظنك تتصور ظلام حياة كهذه ، لأنك رجل سعيد تعرف ما تريد !

قلت : إن شئت الحقيقة ، فأنت مريض بداء الخمر ، ومثلك لا يستطيع أن يكون حكما صادقا على أحواله .

www.ibtesama.com

قال پوتر كأنه يتحدث إلى نفسه : هكذا يسخر من ندوب لم يُصب يوما بجراحها !

وذكرنى كلامه بما قاسيته من عذاب حين تبينت أننى فقدت إليزابيث إلى الأبد ، وما لقيته من هوان وأنا أرى آمالى تتبدد فى الهواء .

قلت : إليك عنى ، فلن يتأتى لى أداء عمل مفيد وأنا فى صحبة مخمور يصدع رأسى بهرائه السخيف .

وقفز إلى حافة مقعده متجاهلا كلامى . قال — وهو ينظر إلىّ بحزم وجد : دعنى أتكلم ، فالأمر يعذبنى منذ سنين ، ومع كل صباح جديد يستيقظ ضميرى ، لينشب مخالبه فى قلبى فيدميه . . ولست أجهل أن لا فائدة من هذا الصراع ، ولكنها قوة خفية فوق طاقة عزيمتى . . إنها بقايا حياة أخرى تختلف كثيراً عما انتهيت إليه . . كنت أمثل على المسرح حين تزوجت . . أمثل بدافع من رغبة دفينة تنبثق من صميم روحى ، فلا أقوى على مقاومتها . . رغبة أقوى من عقلى وحكمتى وإرادتى . . ولكن أهلى اعتبرونى مجلبة للعار ، فكرهونى لفعلتى الشائنة . . وثارت ثائرة برمنجهام وباث ، فلم يجد جاريك مفراً من نقلى إلى لندن بعيداً عنه . . كنت أحفظها عن ظهر قلب . . أقصد

www.ibtesama.com

تمثيليات شكسبير وكونجريف وفيلدنجز وچونس . . أحفظها كلها ، وأستطيع أن أؤدى أى دور فيها بمنتهى الإتقان . . كنت أرى الجماهير وهى تهبّ واقفة ، وأسمعها تهتف لى وتهتف من حناجر ألهبها الإعجاب .

قلت باستهانة : بودى لو أعرف ما تفكر فيه كل صباح . .

قال — وقد بدت عليه الدهشة : ابنتى . . إنها محور تفكيرى ومجلبة عذابى . . فحين هجرتنى زوجتى ، تركتها لى . . ومن دواعى الأسف أننى لم أستطع الاحتفاظ بها . . لم يكن فى استطاعتى ذلك وأنا أشتغل بالمسرح وأعيش فى بلدة صاخبة . . غير معقول طبعاً ، بل هو أمر مستحيل . . !

قلت : ومن كانت زوجك ؟ وماذا حدث لها ؟

قال : طفلة جميلة . . زهرة تتألق كخضراء الدمن . . أبوها تاجر مجوهرات صناعية بمدينة برمنجهام فاحش الثراء ، يملك الذهب بلا حساب ، ولا غرابة فالإنسان حليفه الغرور ، وإذا أعجزته وسائل العظمة يصطنع شبهها لها . .

وخيّل إلى أنه يمثل أمامى ليجتذب عطفى عليه ، فقلت

www.ibtesama.com

فى ضيق : كفاك بالله ، وأخبرنى بما جرى لزوجك وابنتك .

قال بمرارة : زوجى ؟ لقد استعادها أبوها بعد خمس سنوات ، ولجأ إلى الكنيسة فألغت زواجنا . . النقود تفعل العجائب يا سيدى ، وفى مقدورها أن تمحو كل شىء . . حتى حبنا . . محت ذكراه من قلب المرأة التى أعبدها . . محت طفلتنا الوحيدة من حياتى وحياتها .

وتطلعت إلى وجهه المحتقن النحيل ، فتمثل لى فيه الضعف والمرض ، وربما بعض الجنون . . ! ولكن عينيه ظلتا تواجهاننى فى مكر ملحوظ .

قلت : لا أصدق كلمة مما تدعيه . . لا أصدق أن أباها اشترى طلاقها بالمال ، وأغلب الظن أنك تزوجتها فى فى فليت ستريت !

وكان فليت ستريت شهيراً بنوع فاضح من الزواج . . يعقد فى جيرة السجن دون مراعاة للموانع الشرعية ، وبلا رخصة أو إعلان . . وكل حرام يحلل فيه لقاء ثمن قد يبلغ خمسة آلاف من الجنيهات . . وتصوّر لى أن الرجل الجالس أمامى تزوج على هذا النحو بغرض ابتزاز أموال

www.ibtesama.com

حميه الثرى ، فمعظم زيجات شارع فليت تستهدف هذا الغرض الدنىء .

قال پوتر : تزوجتها فى شارع فليت ؟ هذا كذب وبهتان .

وسعل بطريقته الخشنة ، وأردف يقول — وفى عينيه تحدٍّ واضح : أكذوبة دنيئة شريرة .

وازدادت ثورته فصاح يقول : ولنفرض أننى تزوجتها هناك ، فما الضرر فى ذلك ؟ ما الضرر ؟

قلت : دعك من الثرثرة ، وأفصح عما تريد .. اعترف بالحقيقة ، ولا لزوم للف والدوران !

قال بوداعة : حسناً .. إننى . .

وبدا عليه التردد ، وبعد أن تطلع نحو الأرض برهة ، رفع رأسه ثم قال فى غضب يمتزج بالتوسل : إننى بالفعل أريد منك شيئاً ، ولكنى لا أبتغى نقوداً .

قلت : استمر .

قال : الأمر كما ذكرت لك ، فحماى الخطاف استرد ابنته بعد أن اقتنص لها باروناً من الأشراف الأثرياء ، وزوجه إياها بدون الطفلة طبعاً ، حتى لا تفسد الصفقة الرابحة .. ولم يجد لتذليل العقبة أفضل من محو الطفلة ، فتركها لى . . ولما غادرت إنجلترا تعذر على اصطحابها

www.ibtesama.com

معى ، واضطررت بدورى إلى تركها فى رعاية إحدى المربيات .

قلت فى دهشة واستنكار : مربية ! فى رعاية مربية ؟

وكنت أعرف كثيراً عن المربيات من كتاب قرأته للمؤلف جوناس هانواى ، وقد وصف فيه شقاء الأطفال فى الطبقة الفقيرة .. آلاف البؤساء الذين يرمى بهم أهل قساة فى رعاية سكيرات فاجرات يستترن بلقب مربيات .. وأكد هانواى أن الأغلبية الساحقة من هؤلاء الأطفال تموت قبل بلوغها الخامسة من عمرها .

قال پوتر – وهو يلوح بيده : أديت واجبى ، وفعلت ما فى مقدورى ، فعهدت بها إلى امرأة طيبة فاضلة .

قلت : ومن أدراك أنها طيبة فاضلة ؟

قال : هكذا أكد لى من يعرفونها .. جميعهم شهد لها بالطيبة والوقار .

قلت ساخرا : كلام معقول ، ولعل لندن كلها أقسمت بأغلظ الأيمان على حسن سلوك المربية .. ولكن ، خبرنى بالله عليك ، كم تقاضت منك هذه المخلوقة .. كم أعطيتها لقاء رعاية ابنتك ؟

قال : لا أذكر !

قلت : بل تذكر ، ولكنك تخجل من الاعتراف

www.ibtesama.com

بالحقيقة .. فلقد كنت فى ذلك الوقت مفلساً لا تملك شلناً واحداً ، والجنيه يبدو فى نظرك أضخم من أبرشية وستمنستر . . فالأفضل أن تعترف بالحقيقة ، وتخبرنى كم تقاضت المرأة منك لقاء رعاية البنت . قال پوتر مقطبا : نسيت !

قلت : إذا كنت تطمع فى معونتى ، فعليك أن تنشط ذاكرتك يا پوتر . . ذاكرة پوتر الشهيرة . . فمتى تركت ابنتك مع تلك المرأة ؟ منذ كم سنة ؟

قال بسرعة كأنه يريد أن يتلافى مزيداً من الإحراج : لا بد أنها بلغت الآن الرابعة عشرة من عمرها ، وغايتى أن أجدها ، وأعرف مكانها . . وإذا كانت ما تزال على قيد الحياة ، أحاول أن أفعل شيئاً من أجلها . . لا أحب أن أذهب بنفسى حتى لا تنشب المرأة أنيابها فىّ ، ولعلك تعرف ما ألاقيه من المتاعب فى كل أمر أقدم عليه .

وانهمكت فى الرسم وأنا أفكر فيما قاله روچرز من أن پوتر بارع فى الاختلاق ، وإذا كنت صادقا فى حكمى على أخلاقه فيقينى أنه ليس من النوع الذى يعذبه ضميره . . وما دام قد أهمل ابنته طوال السنوات التسع الماضية ، فأغلب الظن أنه أهل لإهمالها تسعاً أخرى . . ومع ذلك أحسست بالصدق فى

www.ibtesama.com

لهجته ، ورأيت فى نظراته ما ينم عن رغبة صادقة فى العثور عليها . أو بعبارة أوضح ، رغبة فى أن أعثر له عليها .

والتفتّ إليه أقول : أتخاف أن تذهب بنفسك يا پوتر ؟ أنت تخشى أن تجدها هناك ، وتلقاك من تسميها المربية ، فتطالبك بأجرها عن السنوات التسع الماضية .. وإذا امتنعت تلجأ إلى القضاء مطالبة بحقوقها ، فيكون مصيرك السجن لتخلفك عن دفع ديونك . أليس الأمر كذلك يا پوتر ؟

قال — وفمه يتقلص فى عصبية شديدة : أجل . . هى الحقيقة مع الأسف . . ولكنى أتحرق شوقاً إلى معرفة أنباء ابنتى ، يا مستر تاون ، فهل تجدها لى ؟ لا أستطيع أن أطلب هذه المكرمة من الصاغ لأنه ليس . .

وتوقف عن الكلام برهة وقد أسبل عينيه ، ثم أردف يقول : لأنه ليس من الطراز الذى يصلح لمهمة كهذه . . لا ، لا يصلح مطلقا . . فهى فى الرابعة عشرة من عمرها الآن ، وأنت تعرف شغفه الأحمق بالفتيات الصغيرات .

ونظر إلىّ فى توسل شديد ، وقال : إننى فى أشد الاحتياج إلى صديق فاضل ، فهل تجيب رجائى يا مستر تاون ؟

www.ibtesama.com

ووجدتنى أمام التزام أدبى لا ترتاح إليه نفسى .

قلت : وما اسم المربية ، وأين كانت تسكن حين عهدت إليها بابنتك ؟

قال : اسمها سارة جارفن ، وكانت تعيش فى شارع كاسل بين حدائق كوفنت وميدان سانت جايلز . . وستجد فى الجيرة من يرشدك إلى مقرها فيما إذا كانت قد غيرت بيتها القديم . . فهل تؤدى لى هذه الخدمة ؟

وأومأت برأسى موافقاً وأنا أشعر بضيق شديد ، فنهض يبتغى الانصراف ، وقال وهو يصافحنى بحرارة : أنت رجل طيب ، فشكراً لك يا صاحب القلب الكبير .

وهدأ انفعاله ، وبدت عليه مظاهر الارتياح والطمأنينة ، وبعد أن صافحنى بحرارة مرة أخرى ، انحنى أمامى برشاقة ، وقال بأسلوب السادة المهذبين : إذا احتجت فى يوم ما إلى صديق ، فاطمئن ياسيدى العزيز إلى ما يحمله لك ناتى پوتر من الاعتراف بجميلك . . وحين تشفق الحياة على ناتى پوتر ، ويقبل الحظ بعد طول إدبار ، فلن يسعده أكثر من أن يتفانى فى الإخلاص لمن أخذوا بيده فى محنته ، وأحسنوا إليه فى أشد أوقات الضيق .

واتجه إلى الباب ، ثم توقف قليلا ويده على المقبض . . ومرة أخرى تغير سلوكه بذلك الإتقان الذى تعلمه من

www.ibtesama.com

مهنة التمثيل ، قال وهو يتنحنح بأسلوب مسرحى : تذكر أنها ابنتى . . تذكر أن أباها يتعذب فى انتظار خبر منك .

قلت — وأنا أذكر أى نوع من الآباء كان ، وإلى أى حياة ألقى بابنته : سأذكر ، ولكن ، ما اسمها ؟

قال : مثل أمها . . آن . . آ ن پوتر . لا أكثر ولا أقل !

** معرفتي **
www.ibtesama.com
منتديات مجلة الإبتسامة

www.ibtesama.com

الفصل الخامس

كان الدكتور كامبل يعد مفخرة للأدب الإنجليزى بفضل حياته الأنيقة فى ميدان كوين ، وكذلك موسوعاته الثمينة فى وصف أمريكا وإسپانيا وغيرهما من أهم بلاد العالم المعروف .. وقد فاقت مكانته العلمية والاجتماعية كثيرين من من أعلام عهده مثل لورنس ستيرن ، ذلك القس التافه الذى لا يهمه سوى استعراض نفسه فى ولائم الموسم . . أو أوليفر جولد سميث من آثر أن يعيش مع أحد رؤساء الخدم فى غرفة واحدة ، مكرساً جهده ووقته للتهرب من دائنيه .

وبلغ من تقديرى لعظمته أن وقفت فى ذلك المساء متردداً أمام بابه المطعَّم بالنقوش النحاسية .. أخشى أن أدق الجرس ، فأجدنى وحيداً معه ، الأمر الذى قد يعقد لسانى عن الكلام لشدة الارتباك ، فأخيب آمال روچرز فى لباقتى وكياستى .

ولم يكن من مبرر لهذا القلق ، فحينما قابلنى الخادم ، أخذ حافظة رسومى ، وأخفاها فى مكان ما ، ثم صعد بى إلى

www.ibtesama.com

غرفة عليا يجلس فيها أربعة رجال حول منضدة فوقها زجاجة وكئوس .. ولما أعلن الخادم عن وصولى ، لزم ثلاثة من الأربعة مجالسهم ، ولم ينهضوا إلى استقبالى أو يلتفتوا إلىّ ، فى حين أخذ رابعهم يحرك جسده الضخم بصعوبة فى مقعده ، وبعد أن زفر أنفاسه مرة أو مرتين ، تهالك مستسلما وهو يشير إلى الزجاجة الموضوعة أمامه .

وفهمت من هذه الحركة أنه مضيفى ، ولكنى لم أدهش لتقصيره فى تقديمى إلى الآخرين ، فقد علمتنى الحياة فى لندن جوانب طريفة من أخلاق الإنجليز ، أبرزها أنهم يجدون غاية المشقة فى تعريف الناس بعضهم ببعض ، ومعظمهم يفضل أن يترك لضيوفه مهمة التعارف بالتدريج .

وكان أحد الضيوف الثلاثة ، هنرى إليس ، الذى سمعت من روچرز قصة توليه حاكما لجورچيا ، وكيف أبحر إلى خليج هدسون بحثا عن الممر الشمالى الغربى .. وهو رجل أسود الشعر ، نحيل الوجه ، تشيع الندوب فى بشرته خصوصا حول فمه ، مما يجعله أشبه بتمثال نحت من خشب الموهوجانى .. والثانى وليام فيتز برت ذو الظهر الأحدب والنظرات المتعبة ، وكان قد نصب فى العهد الأخير أميرا للتجارة والزراعة ، وأصبح له نفوذ عظيم يستمده من صلاته

www.ibtesama.com

الوثيقة بكبار القوم مثل سير جوشوا رينولدز ومستر جاريك والدكتور جونسون .. والثالث أدمون برك ، أصغرهم سنا ، وأكثرهم أناقة ومرحا ، وأشدهم قدرة على متابعة أحاديث غيره .. وفهمت من سياق الكلام أن فيتز برت توسط لدى الجهات العليا حتى أمكنه أن يعين بيرك سكرتيراً أول لرئيس مجلس الوزراء ، وهو منصب له قيمته الرفيعة فى إنجلترا .

ومن حسن الحظ أننى لم أجد بينهم أحداً من المصابين بداء الحذاقة .. أو سرعة البديهة ، على حسب التقليد الشائع إذ ذاك ، فالواقع أنى كنت أضيق بصحبة هذا النوع من الناس ، ولا أشعر بأدنى لذة فى مجالستهم .. فقد جمعتنى بهم الظروف مراراً ، وبعد أن سمعت أحاديثهم فى المقاهى تبين لى أنهم يعدّون الأقوال البارعة قبل حضورهم ، ثم يوجهون المناقشات إلى الغرض الذى يريدونه ، وعندما تحين الفرصة يخرجون على الجالسين بما لديهم كأنه من وحى الساعة ، الأمر الذى يصبغهم بالتصنع والافتعال ، ويجعلهم أبعد ما يكونون عن التأثير فيمن يستمعون إليهم .

وجلست فى صمت أصغى إلى حديث السادة الأربعة ، فتبين لى أنهم مشغولون بغلطة ارتكبها الدكتور جونسون حين أخذ

www.ibtesama.com

منهم – قبل سبع سنوات – مبلغا كبيراً من المال لقاء كتاب عن حياة شكسبير ، ولكن الوقت مضى ولا من بادرة لاهتمامه بوضعه .

قال فيتز برت بلهجته المتعبة : سبع سنوات ولم يظهر الكتاب بعد ! ! هذه على كل حال فترة لاتحتمل .

وقال برك : خصوصا إذا لم يكن لدينا كتاب آخر فى الموضوع المطلوب .

قال الدكتور كامبل ، وهو ينفخ بشفتيه الغليظتين فى صوت مسموع : أجل ، لوأنه اقتصد فى أحاديثه بعض الاقتصاد ، وكتب على الورق ما ادّخر له من كلام ، لفاضت مكتبة المتحف البريطانى بمؤلفاته ، ولم يبق لكتبى مكان بها . . تصور كم يضيع من وقته بالإجابة عن أسئلة ذلك المدعى الصغير بوزويل !

وسكت برهة ، ثم أردف يقول بهدوء وفتور : آه يا سيدى ، بودى لو أعطيت ذراعا ثالثة تستعين بها على مضاعفة إنتاجك ، رحمة بالأدب الصريع على باب ذلك الحمار السكير . .

قال إليس يبدى رأيه الرزين : الواقع أن الناس

www.ibtesama.com

بالغوا كثيراً فى امتداح أحايث چونسون ، والإطراء مدعاة إلى المبالغة ، شأن المرأة حين يسرف المعجبون فى وصف جمال ساقيها ، ألا يدفعها غرورها بهما إلى مداومة الكشف عنهما مهما كلفها الأمر ؟

قال برك : هذا تشبيه مخفف ، فالمرأة تكتفى بالكشف عن ساقيها ، وتتركك تنظر إليهما بمحض إرادتك واختيارك .. إنها لتطاردك بهما حتى تفقدك النطق ، والساق الجميلة التى تنال هذا الإعجاب كله ، لا يمكن أن تكون لبغل !

وأعجب الحاضرون بما قاله مستر أدموند برك ، فأخذوا يحورونه بطريقة فاضحة . .

وفى هذه اللحظة أقبل الخادم يعلن قدوم اللورد بريمرتون والسير چوشوا رينولدز ، وبعد قليل عاد يعلن قدوم أيرل أوف كلونز والصاغ روچرز .

وما كنت أتوقع قط أن يسعدنى الحظ بمقابلة السير چوشوا فى هذه الجلسة ، فلما أقبل على غير انتظار ، غلبتنى المفاجأة ، فأخذت أنظر إليه ببلاهة وهو يتأبط ذراع برك ويهنئه بمنصبه الجديد .

واستوقف نظرى وجهه العامر بالطيبة والوداعة ، وكان

www.ibtesama.com

متوسط الطول يغطى عينيه بنظارة سميكة الزجاج تضفى عليه جوّا من الهدوء والاستسلام . . بشرته تحمل آثارا واضحة لمرض الجدرى ، وفى شفته العليا ندبة يخيلّ معها أنه يزم فمه عن عطف وإشفاق .

ولما انتهى السير چوشوا من تحية برك ، التفت إلى وليام فيتزبرت يقول له بذلك الصوت الخفيض الغائر المعهود فى الصمّ : وليام ، أيها الصديق العزيز ، ليتنا نجد من أمثالك فرقة ترعى مصالح هذا البلد .

ثم أخرج من جيبه مسماعا ، وبعد أن وضعه فى أذنه ، التفت إلى الجالسين فى استعداد لسماع ما يقولون .

قال كلونز بحدة : فرقة ! نحن فى احتياج إلى عشر فرق تنقذ إنجلترا من الفوضى الضاربة بين أطنابها .

قال بريمرتون : سمعتكم عند دخولى تتحدثون عن ساق السيدة ، فأى ساق تقصدون ؟ إنى أُصِر على معرفة الحقيقة ، فإلىّ بها . .

وكان منتصب القامة كالعود ، ضخم الجسم حتى ليخيل إليك أنه إذا تراخى ولو قليلا ، يغوص رأسه بين كتفيه . وسمعت المجتمعين ينادونه على سبيل التدليل بكلمة « بريمى » .

قال كامبل — وهو يتحرك بصعوبة فى مقعده : لغز

www.ibtesama.com

يا سيدى اللورد . . لغز عويص . . ألا تعرف الفرق بين ساق السيدة وحديث صديقنا الدكتور چونسون ؟

قال بريمرتون — وهو يتلفت حوله متحمسا : رائع . . عظيم . . جميل . . انتظروا قليلا ودعونى أفكر فى الصلة بين ساق السيدة وحديث الدكتور چونسون . . هل اهتديتم جميعاً إلى حل هذا اللغز ؟ والله ، لقد اشتد بى الشوق إلى معرفة ما تقصدون . . فأخبرنى يا كامبل ، وأسرع بالكلام . .

قال كامبل فى تؤدة : أحدهما يجعل نفسه ملموسا ، يا سيدى اللورد !

قال بريمرتون — وهو يضرب جبينه بيده مفكراً : يجعل نفسه ملموسا ! . . يجعل نفسه ملموسا ! أيهما يا ترى ؟ يبدو أنها مسألة معقدة ، فهل أطمع فى أن ترشدونى إلى الملموس منهما ؟

وتقدم روچرز إلى دكتور كامبل يحييه ، وانحنى بأدب للباقين ، ثم سار نحوى ووقف بجوارى . . . ورأيتهم يختلسون النظر إليه ، ففهمت أنهم يعرفونه ، بل ويهتمون بأمره أيضا .

وسرنى مظهره فى ذلك اليوم ، إذ كان يرتدى سترة

www.ibtesama.com

من الحرير الأخضر تحتها صديرية فضية اللون ، ولم يبالغ فى أناقته ، فأضفت عليه بساطة ثيابه وقاراً مستحبا . . وكنت أخشى أن ينتابه الارتباك فى حضرة هؤلاء السادة اللندنيين ، ولكنه ظل هادئا رابط الجأش كأنه وسط مجموعة من متطوعيه .

سألنى قائلا : هل جئت برسومك كما طلبت منك؟

فهززت رأسى مجيبا ، وذكرته بوجود رينولدز سيد الفنانين ، ورجوته ألا يعرضنى للسخرية .

همس فى أذنى يقول : اعتمد علىّ ، وكن مطمئنا ، فهذا يومنا يا لانجدون ، ولا أظنك تعرف ما فعله كامبل الذكىّ . . هؤلاء الرجال من أصحاب النفوذ ، ومعظمهم يعرف كثيرا عن أمريكا .

وفتح الخادم الباب ، وهتف يقول فى إجلال : صاحب الفخامة المستر تاوسند . .

قال روچرز بصوته الأجش : هذا آخر القادمين ، وأعظم الموجودين !

ولم يجانب روچرز الحقيقة فى وصفه لتاوسند ، فقد شغل الرجل عدة مناصب هامة مع كثيرين من رؤساء الوزارات ، الأمر الذى جعله علما فى شئون السياسية الإنجليزية . .

www.ibtesama.com

وكان وجهه مستديرا ناعما فيه مرح وجرأة ، وعيناه براقتين جوّالتين . . ثيابه منمقة ضيقة مثل ثياب النساء ، ومشيته وحركات يديه تتسم بالتصنع والتخنث .. ومع ذلك كانت نظراته تفيض ذكاء وحنكة .

وسار عبر الغرفة متجها إلينا وهو يعتذر عن تأخيره ، وبلهجة ملؤها الاستعلاء والاستخفاف أخذ يسرد علينا ما لقيه من متاعب الطريق ، ويصور الحوادث التى وقعت له بين هوايت هول وميدان كوين بأسلوب فكاهى لا يبارى ، جعل الحاضرين يغرقون فى الضحك ، حتى كادت أنفاسهم تتقطع . .

واستوقف نظرى هذا المنظر الفريد : منظر الرجل العظيم الذى يقف منثنيا كالغوانى ، ويستعين فى التعبير عن نفسه بيديه وحاجبيه وعنقه ، ومن حوله مجموعة من الأفذاذ يتابعون كل حركة من حركاته وكل كلمة من كلماته بمنتهى السرور والغبطة . .

ومع ذلك لم يكن سيد الموقف طول الوقت ، فحين نزلنا إلى غرفةالطعام ، واجتمعنا حول المائدة ، انتقلت القيادة من تاوسند الذكى إلى كامبل السمين ، فأمسك الأخير بدفة الحديث ، وأخذ يديرها بغاية البساطة ، حتى إن أكثرنا

www.ibtesama.com

رغبة فى الاستفادة بما يقال ، نال غايته من المعرفة دون أن يشعر بدور مضيفنا فى ذاك السبيل .

وجاء العشاء على الطريقة الإنجليزية التقليدية : حساء فى أول المائدة ، وحساء فى آخرها .. فخذ ضأن من ناحية يقابلها سمك من الثانية .. ديك شحيم بجواره طبق ملئ بالحمام ، ثم أربعة ألوان من المثلجات صنعت من العنب والتوت والأناناس والليمون .

وعندما وصلنا إلى المثلجات ، استرعت انتباهى مناقشة بين روچرز وكامبل ، وسمعت الدكتور يقول : لست أشك فى أن عشاء كهذا إذا أكله الإنسان وهو جائع ، فالموت مصيره المحتوم .

قال روچرز : ربما تكون مصيبا يا سيدى ، ولكنى أعرف رجالا لا يصيبهم أدنى ضرر من أكله مهما بلغ بهم الجوع ، وقد رأيتهم يتحولون إلى ما يشبه الحيوانات أو الهنود حينما طالت بهم فترة الحرمان من الطعام .

والتفت نحوى يقول مبتسما : أتذكر يا لانجدون كيف كان الرجال يوم وصلنا إلى مصب الأمونو أوزاك ، ولم نجد المؤونة فى انتظارنا ؟

www.ibtesama.com

وتوقف الحاضرون عن الكلام ، واستمعوا إلى روچرز ، ولكن باهتمام قليل ..

قال : أجل ، سيمضى وقت طويل قبل أن أنسى ما أصابهم إذ ذاك ، وكيف أصبحوا كالدببة المريضة .. أى والله .. كالدببة المريضة ، وهو التشبيه الصحيح .. ولو أنك ياسيدى الدكتور وضعت هذا العشاء أمامنا فى ذاك اليوم ، لأتينا عليه ولم يصبنا ضرر .. اللهم إلاّ إذا مات بعضنا لفرط السرور .

قال إليس : وكم بقيتم بلا طعام ؟

قال روچرز : والله ما جئت اليوم يا سادتى ، لأتكلم عن نفسى ، وأصف ما عرفته من عهود الجوع والحرمان ، وإلا لأحضرت معى مغرفة خشبية عليها علامات مميزة تذكّرنى بما كنت آكله من مختلف اللقيمات . . لقد عشنا أسبوعين كاملين على حفنة من الذرة فى اليوم ، وفى الأسبوع الثالث فرغت ذخيرتنا من الحبوب ، فلم نجد ما نأكله . . وذات مرة وزعنا أربعة سناجب على خمسين رجلا ، واضطررت يومها إلى توزيعها بنفسى ، فأبديت فى تقطيعها من المهارة ما لا تجده فى ڤوكسهول . . وفى مرة أخرى اصطاد لنا تاون قطاة ، وليتكم رأيتمونا ونحن الأربعة

www.ibtesama.com

منكبون عليها نقسمها بمسطرة صنعناها خصيصاً لهذا الغرض ، خشية أن يخدع أحدنا إخوانه ، فيسلبه عشر بوصة من نصيبه فى فخذ القطاة .

قال ايرك كونز فى حدة : أربعة منكم ؟ سمعتك تقول إنكم كنتم خمسين .

قال روچرز : كنا بالفعل خمسين ، ولكن ستة وأربعين منا عجزوا عن مواصلة السير ، فذهب الأربعة الباقون على عائمة لإحضار النجدة .

قال بريمرتون فى تساؤل : على عائمة ؟ إذن كنتم فى الماء ، وأينما يوجد الماء يوجد السمك ، أفلم يكن فى مقدوركم أن تأكلوا شيئاً منه ؟

قال روچرز : بلى يا سيدى ، ولكننا لم نجرؤ على التوقف خشية أن نعجز عن استئناف المسير .. ثم إن السمك غذاء عديم الفائدة لمن هدهم الجوع . وكنا قد قطعنا فترة طويلة بلا طعام .. ونصيحتى لك يا سيدى ، إذا قدّر لك أن تجوع يوماً ، ألا تضيّع وقتك فى السمك ، فقطعة من العظم بنخاعها ، لأكثر دسماً من سمكة تزن خمسين رطلا .

قال فيتز برت : وكيف كان شعوركم وأنتم على وشك الهلاك جوعا ؟

www.ibtesama.com

قال روجرز فى مرح : شعور لا بأس به . . شيء يشبه الكابوس حين يصيب النائم ، فيجعله عاجزاً عن ثنى أصابعه واستعمال يديه . . يضرب بذراعه فتنثنى رغم إرادته كأنها تجردت من القوة أو صنعت من عجين .

وهز الجالسون رؤوسهم مؤمّنين على كلامه .

قال : هكذا يشعر الجائع ، وهناك أيضاً التقلصات المعديّة التى تزداد بالرقاد . . فإذا أردت أن تخفف عن نفسك بالسير ، تضطر إلى الانحناء نحو الأمام تخفيفا للألم ، وترتجف ساقاك من تحتك ، وتخذلك قواك فلا تقوى على دفع شيء أو حمله . . صدقنى أنه شعور يدعو إلى الضيق الشديد .

ووضع يديه الكبيرتين على المائدة ، وقال وهو يحدق النظر فى الجالسين : هكذا الجوع أيها السادة . . أجل هكذا الجوع !

ثم ضحك فى وجوههم باستحياء .

والتفت الجالسون نحوى وفى وجوههم تساؤل وترقب ، فرويت لهم ما حدث لنا فى أثناء عودتنا من سانت فرانسس ، عندما ضاعت منا أول عائمة بعد أن سرنا بين الأحراش ثلاثمائة ميل .. وكيف بلغ الضعف بالصاغ أن عجز عن

www.ibtesama.com

رفع بلطته ليقطع الأخشاب التى نحتاج إليها فى صنع عائمة جديدة ، فاضطر إلى حرق الأشجار حتى تسقط جذوعها بلا مجهود .. وكيف تركته يقوم بهذه المهمة ، وذهبت أبحث عن صيد لطعامنا .. وخيل إلى وأنا أروى هذه التفاصيل أن الجالسين يستمعون إلىّ فى شك من صدق ما أقول ، وهو ما شعر به روچرز أيضا فى تلك اللحظة .

قال لهم : لست أحب أن أرهقكم بكلامى أيها السادة ، ولكن ثقوا أن أمريكا تختلف عن بقية البلاد ، ومن اليسير على الإنسان أن يتصور حقيقتها قبل أن يزورها ويراها بعينيه . . وكثيرا ما يراها الزائر فيتوهم له أن البقعة التى يعيش فيها تمثل القارة كلها فى صورة مصغرة ، ولقد أسعدنى الحظ بمتابعة عدد لا يستهان به من الإنجليز الذين أتوا إلينا فى قيادة الفرق والجيوش ، فأدهشنى جهلهم المطبق بما يجرى وراء التلال المحيطة بهم .. ومن المؤسف أنهم يتمسكون بجهلهم هذا ، ويرفضون الاقتناع بما نرويه لهم مراراً وتكراراً من حقائق الأحوال .. ومواطنونا لا يفضلونهم فى هذا الباب ، فأمريكا فى نظر الكثيرين منهم تنحصر فى نيويورك وبوسطون ، ولا شىء غيرهما .. ومن حسن المصادفات أننى طلبت إلى مستر تاون أن يحضر معه الليلة بعض الرسوم حتى يراها

دكتور كامبل .. إنها الرسوم الوحيدة التى تعطى صورة صحيحة لجانب من بلادنا .. وإذا كان الأمر يهمكم ، فلا بأس من أن تلقوا عليها نظرة قبل انصرافكم .

وعلت من الجالسين همهمة الرضا ، إنما بطريقة تدل على مجرد رغبة فى المجاملة ، فأحسست بالخجل والارتباك ، خصوصاً حين رأيت تشارلز تاوسند يرمى سير جوشوا بنظرة ساخرة ، كأنه يقول له : وهل قدّر علينا أن نضطر إلى مشاهدة معرض آخر لفنان ناشئ ؟

قال روچرز — وهو يميل فى مقعده إلى الأمام : إن أكثر ما يعجز الإنجليز عن فهمه ، هو حجم بلادنا واتساعها .. ولست ألومهم فى ذلك .. ففى أمريكا كلها لا يوجد سوى مائة شخص على أعظم تقدير يدركون مدى هذا الاتساع ، والجانب الأكبر منهم تجار جهلة لا يستطيعون وصف ما يرونه أو الإرشاد إلى ما يرتادونه من بقاع .. والله ، يا سادتى ، إن الرحلة التى كنا نحدثكم عنها الآن .. الرحلة التى كدنا نموت فيها جوعا .. قطعناها عبر مجاهل بكر لم تطأها قدم إنسان من قبل ، وليس فيها على سعتها طريق أو بيت .. ولقد سرنا فيها مسافة لا تقل عما يفصل بين اسكتلندا والشاطئ الجنوبى لإنجلترا .. مسافة طويلة .. طويلة جداً وشاقة ..

www.ibtesama.com

ومع ذلك فهى لا تزيد عن نتفة من أمريكا .. إذا شئنا أن نقارنها ببقية البلاد ، تكون بمثابة كلمة واحدة من معجم الدكتور چونسون . .

وكان النبيذ على المائدة ، فأخذ الدكتور چونسون يشرب منه بلهفة واضحة ، كما لو كان عطشان لم يبتل حلقه منذ أسبوع .

قال فجأة : يعتقد الصاغ أنه يعرف ممرا إلى المحيط الهادى عبر الشمال الغربى من البلاد .

قال تاوسند : يدهشنى أن تعود إلى الحديث عن هذا الموضوع بعد أن اتفقنا على دفنه عند عودة مستر إليس من خليج هدسون .

قال إليس ، وقد اربد وجهه فازداد سمرة على سمرة : لن ندفن هذه القصة قبل أن ندفن معها اليابان والصين . . لا بد من طريق أقصر إلى هذا الجانب من العالم ، وكلما أسرعت إنجلترا فى العثور عليه ، تأتى لنا أن نتخلص من جبال الديون التى تكاد تسحقنا تحت ضغطها الشديد .

قال مستر بيرك ، وهو يرفع كأسه ، وينظر من خلالها إلى لهيب إحدى الشموع : وكذلك أسرعنا أيضاً فى تخفيف الضرائب عن مستعمراتنا المسكينة .

www.ibtesama.com

قال روجرز : أحسنت ، يا مستر بيرك ، وأصبت . . ولدىّ ما أريد أن تسمعوه فى هذا الموضوع ، ولكنى أحب أولا أن أصحح ما ذكره صديقنا العالم الدكتور جونسون منذ لحظة ، فهو يتصور أن حديثى عن الطريق إلى المحيط الهادى مجرد وهم أو اعتقاد شخصى قد لا يقوم على أساس من الواقع . . وهذه مشكلة المشكلات يا سادتى ، فكثيرون قبلى وقعوا فى هذا الخطأ ، وتوهموا أنهم يعرفون ، ومنهم مستر إليس – وأرجو ألا يعتبرها إهانة – فقد توهم له ذلك فى وقت من الأوقات ، مثلما حدث لمستر دوب . . وهناك أيضاً الضباط لوكفكس وجيمس وسكروجرز . . جميعهم حصروا اهتمامهم فى خليج هدسون ، فطافوا به مراراً وتكرارا بحثا عن ممر مائى إلى المحيط الهادى ، والنتيجة أن ضيعوا المال والجهد سدى ، وأنفقت إنجلترا نحو مائة وخمسين ألفا من الجنيهات فيما لا يجدى أو يفيد . . ولكننى ، أيها السادة ، على يقين مما أقول . . فلست أعتقد أننى أعرف ، بل أنا فى الحقيقة أعرف أين يوجد الطريق المنشود ، وأعدكم إذا أعطيتمونى مائتى رجل ، وأطلقتم يدى فى هذا الموضوع ، أن أعود إليكم بعد ثلاث سنوات بخريطة للممر الشمالى الغربى .

www.ibtesama.com

قال مستر إليس بحماسة : ثق ، يا سيدى ، أن كشفاً كهذا يعد أعظم خدمة لمصالح إنجلترا . . وهو ما ذكرته فى تقاريرى المختلفة إلى المسئولين ، ومرة أخرى أقول إن من يملك القدرة على هذا الكشف ، يشرفنا غاية الشرف أن يبذل ما فى وسعه لتحقيقه .

قال له تاوسند — وهو يتظاهر بالتعالى على سبيل المزاح : أتراك تعنى بهذا الكلام مستر تاوسند ، نائب أمير الخزانة ؟

وضحك إليس لحديث صاحبه ، وقال فى رنة البراءة : لقد انسقت مع رغبتى فى ترديد رأيى القديم ، حتى نسيت أننى أجلس فى حضرة تشارلز تاوسند .

قال بيرك : ولابأس من أن تردده لمصلحتنا جميعا . .

والتفت إلى روچرز يقول : وما الذى يجعلك على ثقة من معرفتك الطريق إلى المحيط الهادى ؟

وروى روچرز قصة حديثه مع پونتياك ورجاله الذين أتوا من شواطئ المحيط الغربى .

قال وصوته الأجش يشيع الحماسة فيمن حوله : إن الممر حقيقة واقعة لاشك فيها مثل العشاء الموضوع أمامكم الآن . .

www.ibtesama.com

وضرب المائدة بقبضته الضخمة وعاد يقول : وفى استطاعتى أن أسلكه إلى المحيط الهادى بذات الثقة التى أشرب بها هذا النبيذ .

وأفرغ محتويات كأسه فى فمه دفعة واحدة . .

قال إليس : وكم تبلغ المسافة فى رأيك من نيويورك إلى المحيط ؟

قال روچرز : درست هذه النقطة مرارا مع الدكتور كامبل ، وأعتقد أنها ستة آلاف ميل على نحو التقدير .

قال أيرل أوف كاونز : ستة آلاف ميل ! إنه لا يصدق !

قال روچرز : إنها بلاد لايصدقها العقل ، ولقد طفت بها أكثر من غيرى ، وذهبت إلى الغرب والجنوب ، وتحدثت مع التجار والهنود الذين توغلوا فى الداخل ، وباستطاعتى أن أقول صراحة إنها غلطة لا تغتفر ، بل جريمة بشعة أن تعجز إنجلترا عن كشف ما وراء الغرب ، والاستيلاء عليه .

ثم انحنى إلى الأمام ، وقال يوجه كلامه إلى مستر تاوسند : أتستطيع ياسيدى أن تُفهمنى لماذا لم تستول

www.ibtesama.com

إنجلترا على منطقة لويزيانا فى الحرب الماضية ، وتطرد منها الفرنسيين بالغزو أو الاتفاق ؟ لماذا لم تطهر المنطقة نهائيا منهم ، لتضع حداً لألاعيبهم وحيلهم ؟ لماذا لا تتركنى أزحف إلى المحيط الهادى ، وأكشف لها عن أعظم الكنوز بدل أن تستنفد جهودها فى فرض الضرائب وإثارة النفوس ؟ يحتمل ألا تصدقنى ، ولست أملك مع الأسف ما أقنعك به ، ولكنها الحقيقة والله . . فالبلاد التى أحدثك عنها ، أغنى بقاع العالم ، وأكثرها ثراءً . . وثق أن مناجم المكسيك وبيرو لا يمكن أن تقاس بجانب منهـا . . وهو ما ذكرته فى كتابى بصراحة ووضوح ، وأراهن بمستقبلى كله على أنها كذلك . . أغنى بقاع الدنيا وأكثرها ثراءً .

قال بيرك : يدهشنى ، أيها الصاغ ، أنك غير راض عن الضرائب .

قال روجرز : ويدهشنى أن تدهش لذلك ، فكلكم ، على ما أقرؤه فى الصحف ، صديق لمستر جاريس ، ولا أظنكم تجهلون ما لقيه من متاعب حين تدخل فى حرية شعبكم الإنجليزى ، ولعلكم تذكرون كيف حطم الناس مسرحه لمـا

www.ibtesama.com

طالبهم بدفع ثلاثة شلنات فى المقاعد التى اعتادوا أن يجلسوا عليها لقاء شلنين . . إنها أبرز ظاهرة فى خلق الإنجليز ، فكلما تصوّر لهم أن أحداً يعبث بحريتهم ، يظهرون غضبهم لفورهم بالتحطيم والتمزيق .

قال تاوسند ضاحكا: والعادة أن يبدأوا برئيس الوزراء .

قال روچرز – وهو يبتسم بطريقة مؤثرة : وهكذا نحن أيضاً ، يا سادتى ، فالأمريكيون فى قرارة أنفسهم يشبهونكم إلى حد كبير . . إننا أيضاً نحب حريتنا بقدر ما تحبون حريتكم ، فضعوا أنفسكم فى مكاننا ، واحكموا بما ترون . . لقد فهمت أن صاحب الجلالة من أصل ألمانى .

وتشاغل بيرك بنبيذه .

وقال تاوسند فى لهجة من يقترح أسلوبا ألطف تعبيراً : لعلك تقصد أنه يمت بصلة إلى بيت هانوڤر ؟

قال روچرز : وهذا ما أقصده بالضبط ، فتصوروا الآن ما يحدث إذا قامت أسرة هانوڤر – على أساس صلتها بحاكمكم – بفرض ضرائب على الإنجليز . . هل تدفعونها ، أم تمزقون ما تصل إليه أيديكم ؟

وكان المتوقع أن يضايقهم هـــذا الكلام ، ولكن

www.ibtesama.com

الأمر جاء بالعكس ، إذ ضجّوا بالضحك وهم يضربون الأرض بأقدامهم .

قال فيتزبرت : باعتبارى وزيراً للتجارة والزراعة ، أرى من واجبى أن أذكرك ، أيها الصاغ ، أن أى طلب لتمويل الكشف عن الممر الشمالى الغربى ، لا بد من عرضه علىّ ، ونحن فى هذه الآونة غاية فى الفقر ، وظروفنا لا تسمح بالإسراف ، فهل هى رحلة ضخمة النفقات ؟

قال روچرز : ليست ضخمة فى تقديرى ، فأنتم تكافئون القائد المنتصر بأكثر مما أحتاج إليه . . لقد حسبت النفقات مع دكتور كامپل ، فوجدنا أنها لا تزيد على تكاليف سفينتين تطوفان بخليج هدسون ، ويدخل ضمن ذلك ثمن هدايانا للهنود ، وبضع مئات من الفخاخ التى نستعين بها على توفير الطعام .

صاح لورد بريمرتون يقول : هدايا . . هدايا للهنود . والله إنى لأعجب من أولئك الذين يسافرون إلى أمريكا ، فلا يأتون من عمل سوى توزيع الهدايا على الهنود . . كلام فارغ ، وما فى ذلك من شك . . هيا . . هيا ، يا سيدى ، اعترف بالحقيقة . . فلست أفهم لماذا ينال شياطينكم الحمر هدايا على الإطلاق .

www.ibtesama.com

قال روچرز ، وهو يهز كتفيه : ولماذا ، أيها السادة ، تديرون دائماً قنينة النبيذ إلى اليسار ؟

قال بريمرتون : وما دخل هذا فى ذاك ؟ إنها مسألة غاية فى الاختلاف .

قال روچرز فى تصميم : لا ، يا سيدى اللورد ، ليست مختلفة على الإطلاق . . فقنينة النبيذ قد توجد أمام السيد الجالس إلى يسارى ، وحينما أطلبها منه ، لا يعطينيها مباشرة ، إنما يجعلها تمر حول المائدة من يد إلى يد ، لتأتينى من اليمين . . ولو حركها نصف بوصة نحوى دون أن تأخذ دورتها التقليدية ، يعتبر جاهلا بآداب المائدة ، فيفقد سمعته ويلفظه المجتمع الأنيق . . إنها غلطة لا تقل قبحاً عن التهجم على امرأة . . فلماذا هذا التقليد ؟ لماذا تعتبرونها فى إنجلترا جريمة لا تغتفر أن يمر النبيذ إلى اليمين بدل اليسار ؟

قال بريمرتون فى حيرة : إنه التقليد المتبع دائماً ، ولم يهتم أحد بالبحث عن معناه . . ولكنك يا كامپل تعرف كل شىء ، فحدثنا عن السبب الذى جعلنا نمرر النبيذ إلى اليسار بدل اليمين ، ولا تؤاخذنى على هذا السؤال السخيف .

قال كامپل ، وهو يفرغ زجاجة أخرى : لست أدرى ، يا سيدى اللورد ، وأغلب الظن أنها بدأت وسيلة

www.ibtesama.com

للدفاع عن النفس ، مثل كثير من تقاليدنا المتوارثة .

قال روچرز : لقد أجبتم عن سؤالى ، أيها السادة ، فتقديم الهدايا للهنود مثل تمرير النبيذ إلى اليسار . . عادة لا يعرف أصلها ، ولكنها أصبحت تقليداً لا مفر منه . . وبهذه المناسبة لا يضيرنى أن أعلن استيائى لتقصير إنجلترا فى مد الهنود بالهدايا . . على عكس فرنسا التى تحترم هذا التقليد ، وتحرص على اتباعه . . إنها سياسة خاطئة ، فمن أجل رغبتكم فى اقتصاد قليل من المال ، جلبتم على أنفسكم عداوة آلاف من الهنود ، وخسرتم معارك هامة ، وفقدتم أراضى تقدر بالملايين .

قال إيرل كونز فى بطء : أى نوع من الأصدقاء ذلك الذى يشترى بالهدايا ؟

قال روچرز : نوع متعب ، ولكنك فى أشد الاحتياج إليه ما دمت تعيش فى القفار ولا من معين سواه .

قال تاوسند : هذا ماكنا نسمعه دائماً من سير ويليام چونسون ونحن على ظهر السفينة متجهين إلى خليج هدسون . . هدايا للهنود . . هدايا كثيرة .. أعطوهم مزيداً منها ، وإلا هجرونا إلى الفرنسيين . وظل طول الوقت يردد هذه الحكاية ، حتى ضاقت صدورنا بكلامه .

www.ibtesama.com

قال لورد بريمرتون : لا بد أنهم قوم غاية فى البشاعة ، ومن حسن الحظ أننى لم أر واحداً من هذه المخلوقات التعسة ، فهيا . . هيا يا روچرز ، أين تلك الرسوم التى حدثتنا عنها ؟ دعنا نلقى عليها نظرة حتى نعرف شكل هنودك المفزعين .

وأصدر كامپل أوامره إلى خادمه ، فجاء بالحافظة .

ورأيت ما فى نظرات تاوسند وفيتزبرت من معانى السخرية ، فغلبنى الخجل وأنا أفتح المحفظة وأخرج منها أول لوحة فى المجموعة ، وهى الصورة التى رسمتها فى الصباح .. ولما لم أجد لها مكانا على المائدة العامرة بالصحون والأقداح ، التفت نحو روچرز وناولته إياها . .

وألقى الصاغ نظرة على الرسم ، ثم صاح بى يقول فى دهشة وعجب : إنها مدينة ديترويت ، فكيف والله رسمتها ولم تكن معنا حين سافرنا إليها ؟!

قلت : ولكنك وصفتها لى ..

قال ، وما زال فى دهشته العظيمة : والله ما كنت أتوقع أن تفلح فى رسمها !

وضحك فى مرح واضح ، وأردف يقول وهو يشير بيده إلى أجزاء مختلفة من الرسم : هاكم صورة تعبر عن

www.ibtesama.com

جانب من بلادنا .. فهنا تجدون هنود وينيباجو .. وهنا هنود أتاواس .. وهنا هنود تشيپواى ، وفى هذه المنطقة الخضراء يقف المتطوعون وعلى رؤوسهم القلانس الأسكتلندية .. إنهم أعظم المحاربين ، لا فى بلادنا وحدها ، بل فى الدنيا كلها .. وعن قريب يأتى اليوم الذى تسير فيه الحروب وفق الأساليب التى علمتها لرجالى الأفذاذ .. هؤلاء الذين أعتزم أخذهم معى فى بحثى عن الممر الشمالى الغربى .

قال سير چوشوا : أتسمح لى بنظرة ؟

وأعطاه روچرز الرسم ، فأخذه منه ، وأمسكه بحيث يستطيع الحاضرون كلهم أن يروه ، ثم تركه للآخرين يفحصونه واحداً بعد الآخر .

قال لى ، وهو يدفع مسماع أذنه أمام وجهى : كم مضى عليك فى استعمال الپاستل ؟

قلت : خمس سنوات ، يا سير چوشوا .

قال : وهل ذهبت إلى إيطاليا أو فرنسا ؟

قلت : لا ، إنما علّمت نفسى بنفسى .

قال : إنى أرى أسلوب ليونارد فى هذه اللوحة .. هل أقمت فى لندن معرضا لرسومك ؟

www.ibtesama.com

وأجبت بالنفى .

قال رينولدز : لا أظن أهل لندن يرحبون برسوم من هذا القبيل ، فأسلوبها غير مألوف لهم .. غير مألوف إلى حد ما ، والناس يفضلون الطريقة الإيطالية الهادئة .. المعدة إذا تعودت السوائل ، فمن العسير أن تهضم اللحم الخشن .. أجل .. أجل .. إنها الحقيقة مع الأسف ، وليس أمرٌ مذاقا من الحقيقة لمن اعتادوا أن يهربوا منها .. ولكن تجار الصور باعوا لك بعضا من إنتاجك ، أليس كذلك ؟

قلت : لا ، يا سيدى .. لم يقبلوا عليها ، فقد اعتدت أن أرسم صورى فى مجموعات مترابطة ، وربما أجد يوما من الهواة أو المؤسسات من يفضل المجموعات على الصورة المفردة .

قال رينولدز : لست أشك فى ذلك ، ولكن كيف تعيش ؟ لا بد أنك تعتمد على مورد آخر .

قلت : رسمت أبوابا لعربات .. وجدرانا لأبهاء ، وبفضل معونة مستر هوجارث وفقت إلى رسم لوحة كبيرة بفوكسهول .

قال : كذا ! أجل . . أجل .. صورة آمهرست . . إنه موضوع جيد .

www.ibtesama.com

ثم تنهد وقال : لم أكن وهوجارث على أطيب الصلات ، ومع ذلك أحزننى موته ، وحين قرأت نعيه فى شهر أكتوبر الماضى ، اعتبرتها خسارة شخصية جسيمة .. بل خطباً عظيما لإنجلترا أيضاً .

قلت فى تأثر : صدقت يا سيدى .. إنه خطب قادح .

وتطلع إلىّ فى ابتسامة عامرة بالعطف ، وربت كتفى بسماعه ، ثم مد يده إلى الحافظة ، وأخذ يخرج لوحة أخرى . وتصادف أن كانت صورة زورق ينقلب فى نهر سانت فرانسيس لافظا جثتى هندية وطفلها .

وعاد سير چوشوا يقول : أجل .. أجل .. ألوان الأشجار فيها جمال وجرأة مع اعتدال لا تفسده المبالغة .. أهذه واحدة من مجموعة ، يا مستر تاون ؟ وكم يبلغ عددها ؟

قلت : نحو أربعين يا سيدى .

قال : أربعون ؟ طموح جميل يا صديقى ، فهل تسمح لنا برؤية الأخريات ؟

وبغاية السرور أخذت أخرج الصور من أغلفتها ، وأقدمها لسير چوشوا ، فيفحصها بإعجاب واضح ، ثم يناولها لجاره اللورد بريمرتون ليمررها على الحاضرين كل بدوره .

www.ibtesama.com

وهكذا طافت الصور بالجالسين حول المائدة ، وهى تحمل لهم مختلف المناظر : زورق كبير ملئ بالهنود .. مراكب للصيد تسير إلى كهف بين طبقات الضباب .. هنود ستوكبريدج وأجسامهم مطلية بأصباغ الحرب .. وهكذا .

ومن الناحية الأخرى للمائدة صاح روجرز يقول فى حماسة : انظروا إلى بحيرة تشاپلين ، أيها السادة .. هاكم إياها ، وقد تخفى الأكمات المتناثرة حولها عشرات من الشياطين الحمر ، ينتظرون اللحظة المناسبة لينقضوا عليكم .. وهذه السحب الزاحفة نذير عاصفة قادمة .. بلاد رائعة يا سادتى .

ودار الحديث حول المائدة ، وكله إعجاب بالصاغ وتقدير لرسومى .

والتفت سير چوشوا إلى لورد بريمرتون ، وربت ذراعه منبها إياه إلى بعض ما أعجب به فى هنود ستوكبريدج المطليين بأصباغ الحرب ، وسمعته يقول له : صديقنا الشاب ذو موهبة تدعو إلى التقدير ، وهو يرسم فى مجموعات من أربعين ، ومن دواعى الكسب أن يستغل هواة جمع الصور القيمة فنانيهم منذ نشأتهم ، ويحاولون اقتناء

www.ibtesama.com

إنتاجهم من أوله . . وأظنها صفقة رابحة لمن يشترى هذه المجموعة مهما بلغ ثمنها ، فالزمن كفيل بمضاعفة قيمتها .

وعلا صوت روجرز فقطع عليّ بقية الحديث ، وسمعته يقول فى حبور : صدقت ، يا مستر تاوسند ، فاللسان مهما أوتى من فصاحة لا يرقى إلى فصاحة القلم حين يحسن الرسم . . وما حدث الآن أصدق دليل على ذلك ، فلقد تأتى لك فى لحظات قليلة أن تعرف عن بلادى ما لا أستطيع أن أرويه لك فى سنين . . فالحمد لله . . الحمد لله أن أقنعتك هذه الرسوم بتأييد المشروع العظيم .

ونهض الدكتور كامپل واقفاً ، وقال للحاضرين : اشربوا معى نخب المشروع العظيم . . إنى أعطيكم الممر الشمالى الغربى ، ومعه قائد عظيم اسمه الصاغ روبرت روجرز .

وقام الرجال وقوفا لكلامه ، وخيّل إلىّ كأن أصواتهم تهز السقف وهم يتبادلون الأنخاب ، ويهتفون للممر الشمالى الغربى ، والقائد العظيم روبرت روجرز .

وظل روجرز جالساً فى مقعده يصغى إليهم وقد ازداد ضخامة وتوردا وسعادة بما أحرزه من نصر عظيم .

وامتلأت الغرفة بروح التفاؤل ، وبدا كأن الممر الشمالى

www.ibtesama.com

الغربى قد تم كشفه وأصبح حقيقة واقعة ، وكان من حسن حظى أن نالنى نصيب من هذا النجاح الشامل ، فبينما وقفت بجوار المائدة أعيد تغليف رسومى تمهيداً لوضعها فى الحافظة ، أقبل لورد برنمرتون يقول لى : أريد يا مستر تاون أن أرى هذه الرسوم مرة أخرى ، فسير چوشوا ناقد فنى ممتاز ، ولرأيه وزن كبير فى تقديرى ، وأنا شخصيا أميل إلى الپاستل بصفة خاصة ، ويسرنى أن أشترى لوحاتك ، فتعال يوما إلى قصرى نبحث الأمر معا . .

وأحسست بدماء الفرح تطغى على وجهى ، وقلت — وأنا لا أصدق سمعى : تشتريها ؟ تشترى هذه الرسوم ؟

قال : هذا ما أفكر فيه ، وقد حدثنى سيرچوشوا عن مجموعة من أربعين لوحة ، وأعتقد أن عشرين جنيها للواحدة منها ليس ثمنا هزيلا ، فإذا كنت راغبا فى بيعها ، أعطيك ثمانمائة جنيه لقاء المجموعة .

قلت متلعثما : مع مزيد الامتنان ، يا سيدى اللورد .

قال : شكرا ! هراء ! إن سير چوشوا لا ينصح بغير الثمين ، وقد تعودت أن أطمئن إلى صواب رأيه ، فهيا بنا نحن الاثنين نذهب إليه ونشكره .

www.ibtesama.com

قلت ـ وأنا أبذل جهوداً جبارة فى السيطرة على مشاعرى : بكل سرور .

ولكن لما تلفتنا حولنا نبحث عن سيرچوشوا ، وجدناه قد انصرف خلسة بعد أن اعتذر لمضيفه بضرورة عودته إلى مرسمه ، لإتمام صورة ما زالت تنتظره هناك .

وانسحب السادة بعيداً عن المائدة ، والتقوا حول جسد روچرز الضخم ، وأخذوا يتبادلون الأنخاب مرة أخرى ، احتفالا بالممر الشمالى الغربى .

وبقلب يفيض بالغبطة ، شربت معهم فى صحة سير چوشوا رينولدز ولورد بريمرتون الكريم ، وقد استقر عزمى على مرافقة روچرز فى رحلته إلى الممر الشمالى الغربى ، لأحقق أملى العزيز فى رسم الهنود .

www.ibtesama.com

الفصل السادس

عثرت على آن پوتر بما يشبه المعجزة ، وكانت تعيش في كاسل ستريت حيث تركها أبوها قبل ثماني سنوات :

وكنت قد تعلمت من صداقتي لهوجارث ، أن الإنجليز من أهل الحسب والجاه ، وكذلك حواريوهم وأتباعهم ، يكرهون بشكل واضح أن يعترفوا بالشقاء المهين الذي يعيش فيه الجانب الأكبر من الشعب . . ولست أدري في الواقع لماذا يتنكرون للحقائق بهذه الصورة ؟ فعصابات اللصوص التي يعيش أفرادها في الأقبية والحظائر والجحور . . نساء الطريق ،و هن يقطعن الشوارع جيئة وذهابا في جموع لا حصر لها من العصر إلى مطلع الفجر . . ألوف المساكن البشعة حيث يعيش كل ستة أشخاص أو ثمانية على سرير واحد قذر . . حانات الجن الممتدة على طول الأحياء الفقيرة ، والسكارى يضجون فيها طول الليل بالصراخ والمزاح البذيء . . هذا البؤس كله الذي كان موضوع الهجوم الدائم من سير چون فيلدنج وأنصاره القلائل، يغمض عليه القوم في إنجلترا عيونهم ، ويصممون على أن أهل

www.ibtesama.com

الطبقة الدنيا فى بلادهم يفوقون شعوب العالم بأجمعه سعادة ورضا . .

وكنت أعرف ، منذ بداية إقامتى بلندن ، أنه زعم على غير أساس صحيح ، فقد ثبت لى مما رأيته خلال جولاتى العدة بالأحياء الشعبية ، أن عناصر الحياة اليومية المألوفة فيها تتكون من الرعب والبؤس والشقاء . . ولكنى لم أقدر خطورة الأمر وبشاعته حتى عثرت على آن پوتر بكاسل ستريت ، فنظرتى الأولى إلى البؤس الشائع فى هذا الجانب من العاصمة الكبيرة ، لم تكن تخرج عن نطاق الفنان . . أنظر إليها بعينى دون قلبى ، ولا تهمنى المتاعب ما دمت لا أستطيع علاجها . . فلما عثرت على آن پوتر ، تغير شعورى نحو الشقاء المتمكن من الإنجليز ، وأخذ اهتمامى به طابعا شخصيا واضحا .

وكاسل ستريت جزء من المجاهل الواقعة شمال حدائق كوفنت ، وفى هذا الحىّ الذى يشبه جحراً ضخما ، تنتشر أحط الحانات حيث يستطيع الإنسان لقاء بنسين أن يشرب كفايته من الجن ، ثم يقضى ليلته مع عشرات المتشردين أمثاله ، راقدا فى الطابق الأعلى على أرض غرفة عارية من الأثاث . . وكانت المنطقة كلها تفوح بعفن القاذورات

www.ibtesama.com

والفضلات وبقايا الأطعمة الفاسدة . . الأبواب والنوافذ سوّدها السناج ، وألواح الزجاج المحطمة سدت فجواتها بخرق تبدو كأنها حشرت فى أمكنتها تلك منذ عهد وليم الفاتح . . وفيما بين أبواب المبانى تمتد المجارى المفتوحة مليئة بأقذر أنواع القمامة المتعفنة . . وفى عرض الطريق تجد النساء جالسات على مقاعد صغيرة يغسلن ثيابا حقيرة : جميعهن يرتدين صديريات جلدية سوّدها العرق ، وجوارب خشنة ممزقة ، أو لا جوارب على الإطلاق ، ثم ميادع « مراول » يبسّتها القذارة فبدت كأنها منشّاة . . وبعرض الطريق يعلق أصحاب الحانات الرخيصة لافتاتهم ، فتتوالى وتتشابك فى ستار سميك تتخلله أشعة الشمس فى أشرطة ضيقة تسقط على الأرض الحجرية البشعة . .

والرجال فى هـذه المنطقة غاية فى الخبث والشر والقحة مثل الكلاب المتوحشة .

ولما وقفت أمام إحدى اللافتات أرسمها — باعتبارها أكيس وسيلة للتحدث مع الناس . لم أنل من المارة سوى أقذر الألفاظ ، يرمونى بها ثم يمضون فى طريقهم مبتعدين . . وكان يقوم تحت اللافتة التى أرسمها باب متداعٍ يقف فيه

www.ibtesama.com

رجل سقيم المنظر ، طويل الشعر ، يضع ميدعة « مرولة » ربما كانت بيضاء اللون منذ سنين .

قال — وهو يرميني بنظرات ملؤها الشك : أترسم هذه اللافتة لرجل غنيّ يقتني مجموعة ، أم أنك تسعى بهذا العمل إلى اتصالات من نوع ما ؟ أفصح عن غرضك الحقيقي ، أيها الأبله !

ثم بصق على الأرض بعنف .

قلت — وأنا أبصق بدوري لأرضيه : سمعت أن رجلا هنا يقتني لافتة جميلة . . اسمه جارڤين ، فأين يسكن هذا الجارڤين ؟

صاح الرجل قائلا : آه .. جارڤين .. إنه صاحب هذا البيت ، وهو رجل ثري يملك ست حانات ، أو ربما أكثر . . ولكنه لا ينفق بنسا في إصلاح حالها ، وهكذا يجمع المال .. أقطع ذراعي إذا لم يكن دخله اليومي عشرة شلنات على الأقل ..

قلت : وأين أجده ؟

قال الرجل بوقار — بعد أن بصق على الأرض مرة ثانية : إذا وجدته سكران ، فاحذر أن تناقشه في رأي يبديه ، وطاوعه حتى إذا طلب إليك أن تقبل حذاءه .. إنها وسيلتك الوحيدة إلى

www.ibtesama.com

الاحتفاظ برأسك سليما من التحطيم ، فجارفين رجل قاسى القلب فظ .

وقادنى الرجل إلى بيت يتألف من ثلاثة طوابق ، لا يفضل البيت الذى كان يقف أمامه ، ومن فوق بابه تتدلى لافتة كتب فيها : « خان العامل المرح .. مبيت ومرطبات » :

وهبطت سلما زلقاً إلى باب القبو ، حيث يقف يهودى ضيق العينين .. فلما رآنى ، قال بصوته الناعم الخداع : لدينا نبيذ طيب ، وفتاتان شحيمتان وصلتا لتوهما من الريف .. خدودهما فى نضرة الورد وحمرته ..

وفى تلك اللحظة مرت باليهودى صبية صغيرة كسيحة .. إحدى ذراعيها ملتوية بشكل محزن ، وساقها المعوجة أقصر من الأخرى . . وقلبت الفتاة سحنتها لليهودى ، ثم صعدت السلم درجة درجة حتى اختفت عن أنظارنا .

قلت أسأل اليهودى : أهنا يسكن جارفين ؟

قال فى لكنة أجنبية : مستر جارفين فى الخارج يجمع نقوده ، فاذهب إلى أول غرفة تقابلك وانتظره . . ولكن ما رأيك فى أن تلقى نظرة على فتاتى الشحيمتين ؟ لن يكلفك النظر مالاً ، وستأسف إذا ضيعت الفرصة سدًى .

www.ibtesama.com

وتركته يتكلم وسرت إلى الداخل فى أعقاب الفتاة الكسيحة ، فهاجمتنى رائحة خبيثة تقلب المعدة ، كأنها تنبعث من رجال وفئران ماتوا ودفنوا معاً بين الجدران .

ولما نقرت الباب ، فتحت لى الفتاة الكسيحة ، فرأيت من خلفها الغرفة وما تحتويه : سرير قذر ، ومقعد محطم الظهر ، ومائدة بثلاث أرجل .. وعلى السرير ثلاثة أطفال ، بنت فى الثامنة من عمرها تتوسط خدها قرحة حمراء ، ورأسها ملفوف بضمادات سودتها القذارة ، والاثنان الآخران صبيان تعلو وجهيهما صفرة الأموات ، وبجوار الثلاثة تجلس امرأة هزيلة الجسم غائرة العينين ، تحمل فى يدها قدحا ، وتضع عند قدميها زجاجة چن .

قالت المرأة – بعد أن رمتنى بنظرة سريعة : جارڤين غير موجود ..

وقربت كأس الخمر من فم أحد الصبيين الراقدين فى الفراش ، فرمانى بنظرة عداء وهو يرشف من الكأس ، ويبلع بصعوبة ، ثم يسعل بفظاعة .

قلت : أوفدنى أحد الأصدقاء إليكم من أجل آن پوتر .

واعتدلت المرأة فى مقعدها ، وأخذت تفهق لفرط

www.ibtesama.com

ما احتست من الخمر . . قالت — وهى تعيد السدادة إلى الزجاجة بيد مرتجفة : وماذا تريد من آن پوتر ؟

قلت : أين هى ؟

قالت : من ذا الذى أوفدك إلينا ؟

قلت : أبوها .

صاحت تقول : طبعا . . هكذا هو . . يتركنى تسع سنوات طويلة أبرى أصابعى فى خدمتها ، ثم يرسل فجأة ليسأل عنها دون كلمة شكر لمسز جارفين .

وندّ عن حنجرتها صوت ملئ بالاحتقار ذكّرنى بنعيق غراب يهتز على غصن شجرة ، وهو يصرخ معلنا غضبه على العالم بأجمعه .

قلت لها : ألم يدفع لك أبوها نفقات رعايتها ؟

قالت : ها . . دفع لى .. طبعا دفع ، ولكن كم ؟

قلت : إذا كنت قد أحسنت رعايتها ، وتكبدت فى سبيلها نفقات استثنائية ، فلن ينكر أبوها جميلك ، ولكن يجب أن أراها أولاً . .

قالت — وهى تتأملنى بنظرات خبيثة : عد فى المساء تجدها فى انتظارك .

www.ibtesama.com

قلت : فى المساء ؟ إذا كانت تعيش بعيداً فلن تستطيعى إحضارها فى المساء ، ولست أرى دليلا على ما تزعمينه من تفانيك فى خدمتها . .

وبدت مظاهر الألم فى وجه مسز جارڤين ، وأخذت تهدئ جأشها بجرعة أخرى من الجن ، ثم قالت : لا تظن نفسك ذكيا ، أيها السيد . . والأفضل أن تنزل إلى حانة سام الهولندى ، فلديه زكيبتان جديدتان يمكنك أن تتسلى بمغازلتهما حتى آتيك بآن . . ولكن ، أتحب أولا أن تشترى قدحا ببنسين ؟

ووضعت الزجاجة على المائدة ذات الأرجل الثلاث ، وانتزعت نفسها من مقعدها بصعوبة ، وترنحت إلى الركن تبحث عن قدح .

واجتذبت نظرى حركة ، فالتفت لأرى الفتاة الكسيحة تجلس على صندوق فارغ بجوار الباب ، وهى تشير بإصبعها إلى صدرها ، وتهز رأسها بعنف . . ولفرط ذعرى فهمت ما تريد أن تبلغنيه بهذه الحركات من أنها الفتاة التى أبحث عنها . . كانت آن بوتر ! !

ولما التفتت مسز جارڤين نحونا ، لزمت الفتاة الصمت ، وعادت إلى سابق سكونها : تجلس على الصندوق مسبلة

www.ibtesama.com

الجفنين ، وذراعها وساقهـا المشوهتان تنفرجان على غير هدى .

قلت للمرأة : من دواعى الأسف أن معدتى ضعيفة لا تحتمل الخمر فى الصباح ، فاشربى هذا القدح عنى ، وإلى أن تنتهى منه سأجلس هنا أتسلى برسم صورة لك وأولادك .

وفتحت كراستى ، فقالت المرأة — وقد أدركت غرضى : صورة ؟ صورة لى ؟ إذن أرجوك أن تنتظر لحظة . .

وذهبت إلى الخزانة ، وأخرجت منها قلنسوة ممزقة وضعتها على رأسها ، وحشرت فيها بعض خصلات شعرها الرمادى . .

قالت — وهى تجلس أمامى باسمة : إذا أحسنت صنعها ، أعطيك كأسا أخرى ، وأحفظها هدية لجارفين فى عيد ميلاده .

قلت مشيرا إلى الفتاة الكسيحة : أجلسيها على حجرك . .

قالت : بل أفضل أن أظهر فى الصورة وحدى .

قلت : ولكنها ليست الطريقة الحديثة فى الرسم ،

www.ibtesama.com

فالناس فى هذه الأيام يطلبون الصور الجماعية ، الصور التى تجمع شخصين أو ثلاثة على الأقل .. وسيدات الطبقة الراقية يرفضن أن نرسمهن وحدهن .. كلهن تفضل أن تظهر فى الصورة مع أطفالها .. أحدهم على حجرها والباقون عند قدميها ، وأحيانا يقف زوجها بجانبها .

قالت مسز جارفين للصبية — وهى ترميها بنظرة عامرة بالوعيد : تعالىْ هنا .

وسارت آن نحونا ، ولكنها وقفت فجأة على بعد خطوات من مربيتها .

وهتفت بها مسز جارفين فى صوت مخيف : تعالى هنا .

ومدت نحوها ذراعا كمخلب حيوان مفترس ، وقبضت على رسغ الفتاة النحيلة ، وبهزة عنيفة ألقت بها على حجرها .

قالت : هيا .. ارسم الصورة !

وبدأت أرسم .. ولأول مرة منذ دخولى الغرفة تأتّى لى أن أدرس وجه الفتاة التى أفهمتنى بإشاراتها المحزنة أنها آن پوتر : كانت مخلوقة صغيرة نحيلة .. ضمور الجوع يبدو فى جسدها من تحت ثوبها الممزق .. أو الجلباب الفضفاض الذى صنع فى يوم من الأيام لشخص آخر أكبر

www.ibtesama.com

حجما منها . . تلبس فى قدميها حذاء رجل شدّته برباط إلى مفصليها حتى لا يفلت منها . . وهو حذاء ممزق ، عقبه مكسور ، ونعله قد تلاشى أو كاد . . ساقاها المعروقتان يغطيهما جورب كان فى بداية عهده أسود اللون ، ولكنه أصبح مع الزمن أخضر مليئا بالثقوب . . وجهها مخطط بالقاذورات ، ومن تحت القذارة يبدو خداها – لفرط ما ضربت عليهما – فى لون بنى . . عيناها الجميلتان تلمعان بذلك النضج المبكر المعروف فى نظرات أبناء الفقراء .

وحينما جذبتها مسز جارڤين إلى حجرها بخشونة ، رأيتها تصر على أسنانها الصغيرة ، وتزم شفتيها فى نصف ابتسامة من ذلك النوع الذى يتقوى به أهل الشجاعة على احتمال الألم .

ورأيت فى الفتاة شيئاً حيرنى وبلبل أفكارى :

فقد كانت خطتى أن أبحث عنها ، فإذا وجدتها أعود بأخبارها إلى پوتر – ولكن بعد أن أشارت إلىّ وجدتنى أعقد العزم على رسمها فى صورة تعطى فكرة عامة عن بؤس حياتها ووحشية مربيتها . . ظننت أن صورة كهذه قد تغير أحوال پوتر وتبعث الحياة فى ضميره الميت ، وتورثه الندم على ظلمه لها .. الأمر الذى يضمن للصغيرة المسكينة مستقبلا أفضل . . ولم أكن – بالطبع – واثقا من هذه النتيجة ،

www.ibtesama.com

فرجل مثل بوتر لايمكن الوثوق به أو الاطمئنان إلى ضميره ، ولكن الصورة التى رسمتها جعلتنى أزداد مع حركة القلم ثورة على الأب المجرم وإساءته البالغة لابنته .

وعادت إلى ذهنى ذكريات اللوحات التى رسمها سير چوشوا رينولدز لأبناء النبلاء والأثرياء ، وهم يرفلون فى الدمقس والحرير ، ووجوههم تفيض بما أسبغه الفنان عليهم من آيات النبل والطهارة والملائكية . . وخيل إلىّ أن ذلك الشعر المتهدل على جبين آن بوتر ، لو وجد من يعنى بتنظيمه وتصفيفه فى تموجات أنيقة ، ثم يُحلّيه بالأشرطة الجميلة ، ما بدت الفتاة أقل جمالا من السادة الصغار الذين تحملهم العربات المذهبة إلى مرسم چوشوا العظيم ، ليخلدهم بريشته الساحرة .

ولما انتهيت من الصورة الأولى ، عكفت على ورقة أخرى أرسم فيها مسز جارڤين بطريقة جميلة ترضى غرورها ، ولكن قبل أن أنجز هذه المهمة ، تناهت إلى سمعى خطوات ثقيلة تدب على أرض البهو الخارجى ، ولم يلبث الباب أن فتح بعنف ، ودخل علينا رجل بغيض الشكل : أنفه محتقن ، وملابسه قذرة ، وعلى وجهه تنتشر بقع بنية اللون تشبه

www.ibtesama.com

الطين . . وكانت تفوح منه ريح بغيضة ، يختلط فيها عطن الطباق بروائح البصل والكحول ، فازدادت الغرفة بدخوله عفنا على عفن .

ووقف بالباب يترنح ، وهو ينظر إلىّ بعينين تكادان تختفيان وراء جفونه المتهدلة .

وصاحت مسز جارفين تقول له : جاءنا هذا السيد يسأل عن آن پوتر ، وطلبت إليه أن ينصرف ثم يعود بعد وقت ، ولكنه بقى ليرسم لى صورة .

ودار جارفين بنظراته حول الغرفة ، ثم صاح فى نبرات الوعيد : اخرجوا من هنا . . خذوا صناديقكم واغربوا لفوركم عن وجهى .

وانسل الأطفال الثلاثة من وراء ظهر جارفين المخمور ، وفى طريقهم إلى الباب التقطوا من الأرض صناديق صغيرة . . صناديق التسول ، واختفوا بها خارج الغرفة .

وبقيت آن ، فقال لها وعيناه تقدحان شرراً : وأنت أيضاً . . اخرجى !

فابتعدت عن مسز جارفين ، وسارت نحوى وهى تراقب جارفين بفزع شديد ، فذكرتنى نظراتها فى تلك

www.ibtesama.com

اللحظة بما كنت أراه فى عيون المتطوعين حين أخذوا يتسللون من شجرة إلى شجرة ، على أثر اقتراب الأعداء من مخبئهم .

وقفز جارڤين نحوها ، فقفزت بمنتهى الخفة من فوق السرير ، ثم حاولت أن تهرب إلى الخارج ، ولكنه أمسك بها ، فتعثر الاثنان وسقطا على الأرض . . وقبل أن ينهض الرجل على قدميه ، أسرعت أنا إلى الباب وأوصدته بالمزلاج .

قلت لمسز جارڤين : هذه الفتاة ليست كسيحة ، فقد رأيتها الآن تسير بمنتهى النشاط والاعتدال ، فما معنى ذلك ؟

وانتصب جارڤين واقفا ، وقال : ليس هذا من شأنك ، وأنصحك ألا تتدخل فيما لا يعنيك .

قلت : ولكن أمرها يعنينى ، فهذه آن پوتر ، وقد أتيت اليوم من أجلها .

وربتُ رأسها حانيا ، فابتعدت عنى بخفة توجع القلب ، ولكنى قبضت على معصمها ، ورفعت كُمها ، فبانت ذراعها المعروقة مليئة بما كنت أتوقعه من كدمات قديمة وحديثة . . الأصفر منها والأزرق والأخضر والبنى . .

www.ibtesama.com

وفتحت صدر جلبابها الفضفاض الممزق ، وكشفت عن كتفها ، فوجدتها مليئة بخدوش حمراء كبيرة ، كأنما فعلتها مخالب وحش مفترس ؟

ودفعت الفتاة خلفى ، ثم تقدمت نحو جارفين أقول : لقد أوفدنى أبوها إليكم ، فوجدتكم تضربونها وتسيئون معاملتها .. علمتموها أن تصطنع الكساح ليسهل عليها التسول فى الطرقات ، فتأتيكم بالمال .. ويدهشنى أنها عاشت طول هذه المدة .. وإذا بقيت معكم فلا مفر من أن ينتهى الأمر بموتها ضربا على أيديكم ، أو تشنق فى سجن تايبورن .. وإذا ماتت من الضرب يكون الشنق نصيبك أنت ، فالأفضل يا مستر جارفين أن تعيدها إلى والدها .

وألجم الغضب لسانه ، فوقف مكانه صامتا يتنفس بصعوبة .

قالت زوجه — وهى تمسح بكمها دموعا كاذبة : ويرسمنى بلا فائدة ! ماكنت أتوقع أن يقسو علىّ بهذه الصورة .. أنا التى ربيتها ورعيتها وأعطيتها عناية الأم الحنون .. آويتها وأطعمتها بعد أن نسيها أهلها وانقطعوا عن الإنفاق عليها .. أفهذا جزائى ؟ !

وفجأة رأيت المرأة تتخلى عن ذلتها واستكانتها ، وتقفز

www.ibtesama.com

واقفة على قدميها ، ثم تقول ووجهها يقطر خبثا : تظن نفسك قويا عظيما ، أليس كذلك أيها الأبله ؟ تتوعدنا بالويل والثبور وعظائم الأمور . . أليس كذلك ؟ تهددنا بسجن تايبورن ، أليس كذلك ؟ كن على حذر ، فأمر هذه الفتاة لم يكن يعنينا من قبل ، ولكن الوضع يختلف الآن ، ولن تستطيع أخذها قبل أن تشترى خروجك من بابنا .

قال جارفين وهو يضحك بخشونة : وهذا رأيى أيضاً ، فللعمل والعمال قوانين فى بلادنا ، ومحاكمنا لا تسمح بانسحاب العامل من عمله دون إذن رسمى .

قلت أصطنع الثقة بنفسى : ليس بين قضاة لندن جميعهم نزيه واحد سوى سير چون فيلدنج ، وهو صديق حميم لى .. وإذا كنت تفضل أن تحتكم إلى العدالة فهيا بنا إليه ، ولكنك لن ترضى بذلك لأنك تعلم ما اعتاد أن يفعله بأمثالك . . وآن — على كل حال — ليست عاملة . . إنها طفلة عهد إليكم برعايتها ، ونلتم أجراً لقاء إقامتها والعناية بأمرها ، فماذا كان مصيرها ؟ انظر ما أصابها ! .

والتفت نحو آن ، وسألتها : هل علّموك القراءة والكتابة يا بنيتى ؟

قالت الطفلة : اللعنة ! !

www.ibtesama.com

وكنت أعرف أن السوقة يستعملون هذه الكلمة كأشد تعبير عن الاحتقار . . وكأنها أرادت بها أن تقول : ولماذا لم تسألنى أيضاً عما إذا كانوا يصنعون ثيابى من المخمل ، ويطوقون جيدى بالمجوهرات ؟ !

قال جارفين : أعطنى حقوقى ، فلن أتنازل عما أستحق . .

قلت : لست تستحق سوى السجن جزاء ما فعلته بها ، ولكنى أسألك لمجرد حب الاستطلاع : كم تطلب لقاء تنازلك عن الفتاة ؟

قال : عشرون جنيها لا تعوضنى عن خسارتى بفقدها .

قلت ــ وأنا أنزع ورقة من كراستى وأضعها أمامه : اكتب لى هنا مفردات المبلغ ، وأثبت لى بالأرقام أنك تستحق بنسا واحدا لقاء فقدها . . أسرع وسجل لى مقدار خسارتك فيها . .

وحين رأيته يلعق رصاص القلم بلسانه ، ويختلس النظرات من زوجته فى تردد واضح ، عرفت أننى كسبت المعركة ، وأصبح فى مقدورى أن أسترد الفتاة بلا عناء يذكر . .

قالت مسز جارفين : تسعة جنيهات لقاء طعامها خلال

www.ibtesama.com

السنوات التسع التى قضتها معنا . . السنة بجنيه . .

قلت : مهلا . . ألم ينقدك پوتر أجر رعايتها ، بما فيه الطعام ؟

قال جارفين فى صوت متخاذل : وهل نسيت كسوتها ؟ إن الملابس التى جاءتنا بها كانت تلائم حجمها خلال الشهور الأولى من عمرها ، ولكنها كالخنزير تكبر باطراد ، وكلما أتينا لها بحذاء لا يلبث أن يضيق بعد وقت قصير . .

قالت مسز جارفين بغية إقناعى : انتظر حتى ترى بنفسك كم يكلفك شراء حذاء لهذه الحدأة التى لا تساوى ثمن البارود الكافى لإعدامها . .

وأحسست أنها بدأت تلين ، فقلت فى لين مماثل : فليكن . . عشرة شلنات سنويا لقاء أحذيتها وثيابها ، ويكون المجموع أربعة جنيهات . . وماذا أيضا ؟

قالت : ماذا أيضا ؟ . . إنها أمهر فتيات المنطقة فى التسول وأكثرهن ربحا ، فتظاهرها بالكساح يستدر شفقة الناس ويدفعهم إلى السخاء فى التصدق عليها . . لقد جاءتنى ذات يوم بخمسة شلنات . . خمسة شلنات قطعة واحدة ، فبأى وسيلة تعوضنى عن هذه الخسارة ؟

www.ibtesama.com

قالت آن : ما هذا الكلام ؟ ألم أخبرك ألف مرة أن الرجل كان سكران فأعطانى الشلنات الخمسة على أنها بنس ؟

والتفتت الطفلة إلىّ ، وقالت — وهى ترفع يديها فى ضراعة : إنك تفاوضهم فى شرائى ، أليس كذلك ؟ لست أستحق ما يطلبان منك ، ولسوف يتركاننى أذهب بسلام لقاء أى مبلغ تعطيهما إياه .

قلت لجارفين : ثلاثة بنسات فى اليوم عن السنتين الماضيتين . . ومثلها عن السنتين القادمتين . . أى ثمانية جنيهات . . ثمانية جنيهات هى كل ما تخسره بتوقفها عن التسول ، فإذا أضفت إليها الأربعة السابقة . . مصروفات الكسوة ، يكون المجموع اثنى عشر جنيها ونصف جنيه سأعطيك أربعة عشر إكراما للفتاة ، ولن تنال بنسا أكثر ، فإما أن توقع لى إيصالا ببيع الفتاة ، وإما أن أسوقك غدا صباحا إلى سير چون فيلدنج .

وأخرجت النقود من حافظتى ، وأبقيتها فى يدى ، فنظر إليها جارفين بجشع رهيب ، ودون أن ينطق بكلمة مدّ يده إلى القلم ، وانحنى على الورقة التى وضعتها أمامه ، وحرر الإيصال فى الصيغة التى أريدها .

ومدت مسز جارفين يدها القذرة إلى الفتاة ، وقالت :

www.ibtesama.com

قبلى أمك . . أعطى أمك العزيزة قبلة الوداع .

وتراجعت آن عن اليد الممدودة ، واختفت ورائى ، بحيث أصبحت أقف حائلا بين الاثنتين . .

قال جارفين فى ابتسامة بغيضة : ألا تجعلها خمسة عشر جنيها يا سيدى ؟

وأعطيته ما يريد ، فأخذ يحصى الأوراق المالية بإصبعه ، وهو يرمى زوجه بنظرات تفيض قسوة ، ثم ولاها ظهره ، وبعد أن عبث بملابسه بعض الوقت ، التفت إليها يقول : سأضع النقود فى جيبى ، يا عصفورتى الحبيبة . وإذا استيقظت بالليل ومخالبك علىّ ، فلن تأخذنى بك شفقة . . سأقطع رأسك من العنق ، وألقيه من النافذة ، وسيظنه الناس بطيخة فاسدة ، فيبتعدون عنه مشمئزين : مع السلامة يا سيدى ، وإلى الجحيم أيتها الملعونة !

وبهذه العبارة ودع الرجل آن پوتر .

وأعطيت مسز جارفين صورتها ، فانفجرت تبكى بحرقة ، ولكنى لم أستطع أن أقطع برأى فيما يدعوها إلى البكاء : أهو إتقان الصورة ، أم عطف زوجها عليها ؟

قلت — وأنا أفتح مزلاج الباب : هيا بنا ، يا آن .

www.ibtesama.com

ولما خرجنا إلى الشارع ، عادت الفتاة تعرج من جديد كأنها كسيحة .

قلت لها : لا ، يا بنيتى . . لا أريد أن أراك تعرجين مرة أخرى . . لا كساح بعد اليوم ! فنظرت إلىّ فى دهشة شديدة .

** معرفتي **
www.ibtesama.com
منتديات مجلة الإبتسامة

www.ibtesama.com

الفصل السابع

كان صاحب البيت الذى أسكنه رجلا فرنسيا اسمه مارتن ، نزح إلى لندن مع زوجته وولديه ، ليشتغل طاهيا بالمطاعم الملكية ، ولكن هؤلاء الأربعة كانوا يعتبرون أنفسهم إنجليزاً بقدر ما هم فرنسيون ، ويتكلمون اللغتين بذات السهولة والإتقان .

وأخذت آن إلى مسز مارتن ، ولقاء عملة ذهبية مما أعطانيه لورد بريمرتون مع وعد منى بأن أرسم لها صورة مع طفلها ؛ أفسحت الفرنسية الطيبة للفتاة مكانا من غرفتها الخاصة ، وأشرفت على تنظيف شعرها من القــذارة والحشرات ، وحضرت بنفسها أول حمام لآن منذ سنين ، واشترت لها ثوبين : أحدهما بنيّ اللون ، والآخر عسليّ . . كذلك أحذية وجوارب ومراول ومناديل . . وبعد أن فرغت من هذه المهمات الشاقة ، أتتها بمدرّسة تقضى ثلاث ساعات يوميا لتعليمها القراءة والكتابة ، وتهذيب أسلوبها فى الحديث .

وفى أول يوم ، قلت لمسز مارتن : ابدئى بإطعامها . .

www.ibtesama.com

أعطيها وجبه شهية تعالج بها جوعها ، ثم افعلى بها بعد ذلك ما تشائين ، وعندما تفرغين منها ، ابعثى بها إلىّ أرسمها وأسليها بالحديث . . لقد رسمتها صورة بالقلم الرصاص، وأريد أن أصنع أخرى بالپاستل .

وحين جاءت آن إلى مرسمى ، قامت هى بمهمة الحديث طول الوقت ، وكانت فى بعض المناسبات تبدى عظيم دهشتها لجهلى .

وعرفت منها أن ذوى العاهات من الأطفال — ويسمونهم المشوّهين — لهم قيمة عالية لدى أهلهم أو من يمتلكونهم . والمتسولون يتسابقون على استئجارهم لقاء بنس فى اليوم ، ليصطحبوهم معهم فى جولاتهم، ويحركوا بهم قلوب الناس .. وأصحاب المشوهين لا يؤجرونهم لكل من هب ودب ، فالمنحطون من المتسولين يبيعون ثياب الأطفال فى آخر اليوم ، ليشتروا بثمنها خمراً ، ويتركون المشوّه المسكين يعود وحده إلى بيته عاريا كما ولدته أمه .

وعلمت منها أيضا أنهم يعتبرون جارڤين ملك الحرفة بلا منازع ، فمهارته فى صنع المشوهين لا يتصورها العقل .. ومن آيات عبقريته أولئك الأطفال الثلاثة الذين رأيتهم يرقدون على الفراش عند زيارتى لمسز جارڤين . . فالصبيان

www.ibtesama.com

الهزيلان اكتسبا امتقاع وجهيهما بوساطة قطع من الطباق تلصق تحت أبطيهما . . والقرحة الظاهرة فى وجه أختهما ، صنعت بالشمع المغلى ، وبعد ذلك طليت بالسناج والألوان .

وتحدثت آن عن نفسها ، فوجدتها تميل إلى التباهى بما لقنها جارڤين من فنون التسول ، وتفخر بمهارتها فى تطبيق تعاليمه . . وكان يبدو عليها الضيق بملابسها الجديدة ، وظلت طول الوقت تتحرك فى مكانها بقلق ، كأنها لا تجد المتعة فى الجلوس على مقعد مريح . . أما اللغة التى استعملتها فى تنمية معلوماتى عن المتسولين ، فقد جعلتنى أرتجف خوفا من أن تكون قد تحدثت بها مع مسز مارتن الفرنسية المهذبة .

وكانت تجلس أمامى فى ثوبها البنى ؛ وعلى كتفيها منديل أزرق ، ينعكس لونه على ملامحها الصغيرة المتعبة ، فيضفى عليها لونا من السماحة والهدوء .. شعرها ، بعد أن غُسل ونظف ، تغير فى شكله ومنظره ، فأصبح غزيرا مموجا ترتاح إليه العين .. وفيما أنا أنظر إليها وهى على هذه الحال الجديدة ، تمثلت لذهنى صورة كيتى فيشر ، الممثلة الصغيرة ، التى أخذ سير چوشوا فى العهد الأخير يرسمها فى مختلف الجلسات والوقفات .. وبالرغم من بذاءة ألفاظ هذه الطفلة

www.ibtesama.com

التى انتزعناها من الوحل بعد طول عهدها بالجوع والحرمان والإهانة ، وجدت فيها لمحة من الجاذبية والجمال .. ولا غرابة فهى صغيرة لرئيس أساقفة كنتربورى ، والوردة مهما أهملت العناية بها ، تظل مختلفة عن الأعشاب ..

ولم تبال الفتاة بأفكارى وقلمى ، وظلت تتحدث دون انقطاع ، وسمعتها تقول : فإذا وجدته يحشرك فى الركن ، ويسد عليك طريق النجاة ، فعليك أن تصرخ وتولول .. وإذا وضع يده على فمك ، فلا تتردد فى عضه ، حتى تتمكن من الفرار ..

قلت : أتتكلمين عن جارڤين ، يا آن ؟

قالت : أجل ، ولكنهم جميعا على شاكلته ، ومن السهل أن ترى فى عيونهم متى يضمرون لك الشر ..

قلت : إذن ، لن تشعرى بوحشة لآل جارڤين يا آن ..

قالت : عليهم اللعنة .. لن أشعر بوحشة لهم ، بل ولم أشعر بوحشة فى يوم من الأيام ، حتى عندما عجز جارڤين وامرأته عن تسديد ديونهما ، فألقى بهما فى سجن نيوجيت . .

قلت : كيف يعجز جارڤين عن تسديد ديونه ، وهو رجل ثرى يملك مالا وعقاراً ؟

قالت : لست أدرى ، وأغلب الظن أنها وسيلة للتحايل ،

www.ibtesama.com

فهو بارع فى اختراع أعجب الأساليب لتحقيق رغباته .. عليه اللعنة .. هو وسام الهولندى أخبث النصابين فى لندن كلها .. وحينما سمع أن الحكومة تعتزم الإفراج عن جميع المسجونين بمناسبة عيد ميلاد الملك ، انتهزها فرصة ، وانطلق يقترض من الناس ، ثم حرض أحد أعوانه على مقاضاته بدعوى عجزه عن السداد ، فألقى به فى السجن ، وبعد أيام أفرج عنه مع الآخرين .. وهكذا استولى على أموال الناس مقابل أيام فى السجن . . عليه اللعنة ألف مرة !

وأسقط فى يدى ، وأنا أسمعها تنطق بألفاظ السوقة دون حرج ؛ إذ كان واجبى أن أعلمها الأساليب المهذبة فى الحديث ، ولكنى وجدتها مهمة شاقة لا يقوى عليها سوى مسز مارتن .

قلت لها : تعرفين أن لك أبا ، أليس كذلك يا آن ؟

قالت : أنا ؟ ولماذا يكون لى أب ؟

قلت : ألم ترى أطفالا غيرك لهم أب ؟

قالت : بلى ، ولكن هل من الضرورى أن يكون لى أب أيضاً ؟

وأحرجنى سؤالها ، فسكت عن الإجابة وأنا أفكر فى

www.ibtesama.com

ناتى پوتر ، وأى نوع من الآباء كان .. أخلاقه وحطته وانحلاله ، وما يحتمل أن يفعله فى المستقبل .. فشعرت بالضيق ورأيت من الأفضل أن أشغلها بموضوع آخر .

قلت ، وأنا أريها صورتها التى رسمتها بقصد إعطاء أبيها فكرة عنها قبل لقائها : أتعجبك ؟

قالت فى لهجة تنم عن الرضا : اللعنة !

ومضى ذلك اليوم ، والذى يليه ، دون أن أخبر ناتى پوتر بوجود ابنته فى ضيافة مسز مارتن ، إذ كلما شرعت فى إخباره ، أحس بغُصة فى حلقى ، وتثور مشاعرى على ذلك الرجل ، فأقطع الغرفة ذهابا وإيابا فى حيرة ممتزجة بالحنق . . وأظل هكذا ، حتى يهدأ جأشى وأنتهى إلى حال من الجمود .

ولكن حدث فى اليوم الثالث أن جاءنى خادم يحمل رسالة من پوتر ، ويطلب الرد . . وكانت الرسالة مقتضبة إلى درجة تدعو إلى الإشفاق ، وقد كتب فيها : « يا أعز الأصدقاء وأكرمهم . . إننى ألازم فراش المرض ، فهل وجدتها ؟ ليس فى مقدورك أن تتصور مدى قلقى ، فأسعفنى بكلمة مطمئنة تزيح عن قلب أب معذب عبئاً ثقيلا . . ودمت للمرتجف . . ن . پ » .

www.ibtesama.com

وشعرت أنه أحسن اختيار كلمة « المرتجف » لتتمشى مع ارتجافة خطه الذى يبدو كأنه جاء عن قلم تعثر على الورق ، مثلما تعثر صاحبه عند انصرافه من بيتى بعد حديثه عن ابنته .

ولم يداخلنى شك فى أنه حقيقة مريض ، فأخذت القلم وكتبت على ظهر الرسالة « نعم وجدتها » ، واكتفيت بهذا القدر من الإجابة ، وأعدت الرسالة إلى الخـــادم يحملها إليه .

وفى اليوم التالى رجع الخادم إلى بابى يدقه مرة أخرى ، ولما أذنت له بالدخول ، قال وهو يعطينى رسالة ثانية : يبدو أنها مسألة حياة أو موت يا سيدى ، فرجائى أن تسرع بقراءتها ، وتتبعنى إليه بأسرع ما تستطيع . لقد وعدنى بستة بنسات إذا عدت جريا لأبشره بقدومك .

وأخذت أقرأ الرسالة ، فوجدت فيها ما يأتى : « أيها الرجل الكريم . . دعنى أضرع إلى الله أن يحسن جزاءك على ما فعلت من خير جزيل . . لقد أنقذت عقل رجل مذنب ، ولسوف تنقذ حياته أيضاً من العذاب الذى يعيش فيه منذ أحرقه بتخليه عن لحمه ودمه .. ثق أن نبأ عثورك على ابنتى كان له أجمل الوقع فى نفسى . . أزحت نصف

www.ibtesama.com

العبء عن ضميرى وبقى أن تعفينى من النصف الآخر بحضورك لزيارتى . . فأسرع بالله عليك ، وأكمل جميلك . . قل للرسول إنك آت فى أعقابه حتى يطمئن قلبى . . وختاما أرجو أن تتفضل بقبول أخلص الشكر الأبدى من خادمك المطيع المعجب بكرمك . . ناتى پوتر » .

قلت للرسول : سأذهب لفورى !

فانصرف الرجل مسرعا . عندئذ وضعت صورة آن فى حافظة رسومى ، وتبعته وأنا فى حيرة يشوبها الحنق ، مما يجب أن أقوله لهذا الأب الملهوف الذى لم يبد من مظاهر شوقه إلى ابنته سوى مبادلتى الرسائل .

وأمام الجناح الذى يشغله روچرز من خان هوايت بيى ، وقفت برهة وقد تناهى إلى سمعى صوت پوتر يعلو فى لهجة خطابية مهذبة . . ولم أتمكن من تمييز كلماته ، فطرقت الباب ودخلت معتقداً أنه يتحدث إلى الصاغ . .

ووجدت پوتر يعتلى ركنا من منضدة الصاغ ، وأمامه يقف رجل قصير القامة ، نحيف الجسم ، متحذلق .. شعره بنى ، وثيابه بنية ، وعلى كتفيه ينتثر مسحوق أبيض يضفى على مظهره العام مزيدا من الحذلقة .. وبفضل خبرتى الطويلة بحياة الإنجليز ، فهمت أنه محام من الأقاليم .

www.ibtesama.com

ولما دخلت ، التفت الرجل الصغير نحوى ببالغ الحدّة ، وعلت وجهه مظاهر الاستنكار الشديد ..

قلت : كنت أظن أن الصاغ موجود ، ولم أقصد تطفلا عليكما ، فمعذرة ..

واستدرت نحو الباب أعتزم الانسحاب ؛ ولكن پوتر أشار إلىّ بالانتظار ، وقال دون أن يتحرك من مكانه على المنضدة : تعال .. تعال ..

قال الرجل المتحذلق فى لهجة الاحتجاج : كيف تبقيه ، يا مستر پوتر ، ونحن فى حديث خاص ؟ .

قال پوتر فى عظمة : لعلك تذكر ، يا هوايتلى ، أن الفتاة الصغيرة بنتى وبنت زوجتى العزيزة . ولست أرى ما يمنعنى من التحدث عنها كما أشاء ، حتى إذا كانت أمها ليدى ديڤز .

قال هوايتلى وقد امتقع وجهه : رجائى يا مستر پوتر ، ألاّ تدخل الأسماء النبيلة فى هذا الموضوع ..

صاح پوتر يقول : يا سيدى العزيز ، لا داعى مطلقاً لهذا المسلك .. فمستر تاون يعرف تفاصيل الأمر كله .. يعرف أننى عهدت بابنتى إلى أيد فاضلة ، ووضعتها فى

www.ibtesama.com

أسرة كريمة .. كريمة جداً جداً .. ولقد أخبرتك من قبل أنه قام بالبحث عنها .

والتفت يقول لى بعينين لامعتين : رجائى أن تؤكد له أنك قمت بالبحث ، ووفقت فيه .

قلت ، وأنا أرميه بنظرات حادة : أجل .. أنا الذى بحثت عنها ، ووجدت الأسرة الفاضلة التى عهدت بها إليها ، كما وجدت الفتاة أيضاً !

قال هوايتلى بدهشة : وجدتها ؟ أكانت مفقودة ؟

ثم جعل ينقل نظراته بينى وبين پوتر ...

قال پوتر بعظمة : مفقودة ، يا صديقى العزيز ؟ أيوجه مثل هذا الكلام إلى أب حنون ضيع حياته فى خدمة ابنته ؟! لا .. لا .. لا يمكن أن أقبل هذا ، فأرجوك أن تفهمه الموضوع يا مستر تاون .

قلت فى سخرية ــ وأنا أخرج صورة آن من حافظتى : لم تكن مفقودة تماما .. وهاك صورتها ، فربما يحب والدها أن يراها ..

وتجاهل پوتر سخريتى ، وقال فى عطف شديد : كم تشبه أمها .. أم صغيرتى العزيزة آن .. يقينى أن أمًّا فاضلة

www.ibtesama.com

مثلها لا بد أن تكون فى غاية الشوق إلى ضم صغيرتها الحبيبة إلى صدرها .. واحتوائها بين أحضانها .. عجيب أمر هذه الحياة ، إنها صورة طبق الأصل منها !

وتألقت عيناه ببريق النصر وهو ينظر إلى الصورة ، وازداد البريق وضوحا حين التفت إلى المحامى يقول : أرأيت كم تشبه ليدى ديفز ابنتها ، ألستَ معى فى أنها صورة طبق الأصل منها ؟

قال مستر هوايتلى وقد يرمى الصورة بنظرات حادة : من سوء الحظ أنها تشبهها !

قال بوتر فى استنكار : سوء الحظ ؟ سوء الحظ ، يا مستر هوايتلى ؟ بالعكس ، يجب أن تفرح ليدى ديفز بهذا الشبه . . تفرح عند ما أصطحب إليها ابنتها لتراها بعد طول الفراق ، فأنا رجل مسيحى مهذب ، وضميرى لايسمح لى بحرمان ليدى ديفز من رؤية ابنتها . . إن لم يكن إكراما لها فمن أجل الرابطة المقدسة التى جمعت بيننا فى وقت من الأوقات ، وكانت ثمرتها . .

قال هوايتلى يقاطعه بحدة : كفى يا سيدى : فالليدى التى تتناولها الآن بحديثك لها أطفال آخرون لا يصح أن

www.ibtesama.com

نخرجهم من حسابنا ، ولها زوج أيضا من واجبنا أن نحميه من . . من معرفة بعض الحقائق . . وباعتبارى موكلا عن ليدى ديفز ، أعترف بهذا كله ، وأعتقد – بعد ما رأيت الصورة – أننى أكثر استعدادا لقبول بعض مطالبك . . ولكن لاتظن أنك غلبتنا على أمرنا ، ففى استطاعتنا أن نتخذ ضدك إجراءات معينة إذا اخترت أن تتمادى معنا . .

قال پوتر بأدب : أجل ، فى استطاعتكم أن تتخذوا ضدى إجراءات معينة ، ولكن الإجراءات التى تشير إليها قـــد تثير الأقاويل ، وربما ورد ذكرها بالصحف الكبيرة ، و . . .

قال المحامى يقاطعه فى لهجة تنم عن القلق : ثق ، ياسيدى ، أننا مثلك نفضل اتفاقا وديا ، ولكنك طلبت فى رسالتك مبلغا جنونيا .

قال پوتر : لماذا تعتبره جنونيا ؟ أليس من حقى أن أسدد ديونى ؟ أقسم بشرفى ، يا مستر هوايتلى ، أن المبلغ الذى أطلبه لايكفى ديونى ، فهل يرضيك أن أسجن ؟ هل يرضيك أن يضطرنى مأزق كهذا إلى إرسال الطفلة إلى أمها ؟ من يعولها غيرها إذا دخلت السجن وعجزت عن الإنفاق عليها ؟ انظر إلى الصورة مرة أخرى ، يا مستر

www.ibtesama.com

هوايتلى ، وتأمل بإنعام هـــذا الشبه العظيم بين البنت وليدى ديفز . .

ونظر هوايتلى إلى الصورة مرة أخرى ، إنما باشمئزاز شديد ، وقال فى لهجة الشك : وأين الضمان ، من يضمن لى أنك . . ؟

قال بوتر : كلمة الشرف ، يا مستر هوايتلى . . عهد يقطعه لك سيد مهذب . . وثق أنكم إذا أجبتم مطالبى ، فلن تقترب الفتاة من الأسرة المبجلة التى تنتمى إليها . . ولن يكون بيننا اتصال كتابى بعد اليوم . . وأظنك تسلم الآن بمطالبى ، فدعنا ننته من هذا الموضوع .

قال مستر هوايتلى ، وقد تجلت فى نظراته مرارة الدنيا كلها : عليك اللعنة .

ثم وضع يده فى جيبه الداخلى ، وأخرج حافظة نقوده ، وانتزع منها رزمة كبيرة من الأوراق المالية ، رمى بها فى حنق إلى يد بوتر الممدودة . .

وظللت على مضى الحديث أقف مشدوها ، لا أفهم معنى لما يحدث أمامى ، ولكن النقود كشفت لى الحقيقة ، وتبين لى أن بوتر الدنىء يتخذ من ابنته وسيلة للابتزاز بالتهديد ! !

www.ibtesama.com

وغلبنى النفور ، فصحت بپوتر محاولا إصلاح الموقف : قلت حانقا : أعدها إليه . . أعدها إليه ، فلن أقبل أن تشركنى فى صفقة دنيئة ، ولن أكون وسيلتك إلى ابتزاز أموال الناس .

ولم يؤثر كلامى فى مستر هوايتلى ، فبكل احتقار تناول عصاه ، وولانا ظهره إلى الخارج . .

قلت أناديه : انتظر ، يا مستر هوايتلى ، ودعنى أوضح الموقف . . هذا الرجل لا يستحق منكم نقوداً ، ولو كنت أعرف بحقيقة نواياه ، ما سمحت لنفسى بمساعدته فى هذه اللعبة الحقيرة . . أريدك أن تفهم .

قال هوايتلى – وهو يرمينى بنظرات فى برودة الثلج : لو كنت حقيقة على هذه الفضائل التى تدعيها الآن ، فكلامك بعد أن أخذ منى النقود ، يدل على أن أمانتك من ذلك النوع الذى يختار أن يظهر بعد فوات الأوان .

ولما وصل إلى الباب ، التفت نحوى وقال باحتقار بالغ : أجل ، أمانة لا تظهر إلا بعد فوات الأوان !

وانصرف غاضبا ، وصفق الباب خلفه بعنف .

والتفت إلى پوتر ، فوجدته أمام المرآة يصلح رباط عنقه ، ويرمينى من خلال المرآة بنظرات عامرة بالهدوء والسماحة .

www.ibtesama.com

قلت له : أظنك فخوراً بما فعلت اليوم .

قال ، وهو يغمز لى بعينه : ولمَ لا ؟ لماذا لا أنال حقى ؟ أنا لم أطلب إليهم أن يوجدونى فى هذه الحياة ، وما داموا قد أوجدونى فيها رغم أنفى ، فمن واجبهم أن ييسروا أسباب الحياة الكريمة لى ، الدنيا مدينة بهذا القدر على الأقل ، ولست أفهم لماذا ينال أولئك الأثرياء كل شيء ، وأظل أنا مُمْلقا خالى الوفاض .. أهذه عدالة ؟ كلا .. بالطبع ..

قلت بمرارة : وماذا تنوى أن تعدّ لابنتك بعدما جاءتك النقود ؟

قال ، وهو يبتسم فى وجهى : أريد أن أعبر لك عن تقديرى العظيم لنبلك وطيبتك ، فما رأيك فى عشاء صغير ؟ نحن الثلاثة فقط : أنا وأنت والصاغ ، أفلا تحب أن تحتفل بهذه المناسبة ؟

قلت : دعنا نعالج أمر ابنتك أولا ، فماهى مشروعاتك بشأنها ؟

صاح يقول فى مرح واضح : صدقنى أن الحديث عن المشروعات غير مستحب فى هذه اللحظة ، فأنا رجل مثقل بالديون ، وأينما ذهبت أجد من يطاردنى بمطالبه ، ولعلك

www.ibtesama.com

اقتنعت عن خبرة بأن ظروف الفتاة تجعلها فى غير احتياج إلى أكثر مما هى فيـه الآن ، فلماذا تضيع الوقت بلا فائدة ؟ . . دعها وشأنها ، وعلى كل حال أنا شاكرلك صنيعك . . شاكرلك ما بذلته من جهد فى رسم الصورة . . جهد لم أكن فى الواقع أحتاج إليه .

وانفجر ضاحكا وقال — وهو يضرب بيديه على فخذه : يا إلهى . . لماذا أتعبت نفسك بالتنقيب عنها ؟ لو كنت منك ماذهبت إليها على الإطلاق ، فأنا لست فى حاجة إلى وجودها لأحقق غرضى ؛ ولو أردت لهـا صورة ، ما أعجزنى الأمر عن وصفها لك بمنتهى الدقة ، بحيث تستطيع رسمها غيابيا ، وتضع فى وجهها شبه أمها ! !

قلت : ولكنى ذهبت للبحث عنها ؛ وبالفعل وجدتها وأحضرتها معى ، فماذا تنوى أن تفعل ؟

قال — وقد علت وجهه علامات القلق : أحضرتها ؟ ! يا للمصيبة ! على كل حال بوسعك أن تعيدها ، والأفضل أن تسرع بذلك . . اليوم ، أو غداً على أكثر تقدير .

وراعنى كلامه ، فنظرت إليه بمنتهى الحنق والدهشة . قال : لست أطلب منك سوى تقدير موقفى . . فأنا رجل أقضى حياتى متجولا على ظهر الأرض . . ميولى الأدبية

www.ibtesama.com

والتزاماتى الاجتماعية ، تفرض على أن أعيش دائما حرًّا طليقا ، فكيف أحمل نفسى أعباء العناية بفتاة صغيرة ؟ الحق أننى كنت فى البداية قلقا على مصيرها ، أما وقد اطمأن قلبى إلى أنها تعيش حياة طيبة فى أحضان أسرة فاضلة . .

صحت أقول : أسرة طيبة ؟ ! أتزعم أن آل جارفين أسرة طيبة ؟ ياللهول !

قال پوتر — وقد استخفه الطرب بما يحمل فى جيبه من نقود : إذا كنت تعتقد أنها غير مرتاحة عندهم ، فلك الحرية أن تفعل بها ما تراه مناسبا . . إننى أأتمنك على حياتى وحياة ابنتى أيضا . . ضعها فى أى مكان آخر تختاره . . أهى معك فى مسكنك ؟

قلت : لا . . بل فى رعاية صاحبة البيت .

قال : عظيم . . رائع لقد وكلت إليك أمرها ، فافعل بها ما تشاء . .

قلت : والمال الذى ابتززته من أهلها ، أليس فى نيتك أن تخصص جانبا منه للإنفاق عليها ؟

واكتسى وجهه بمظاهر الألم الشديد ، وطوّح بيده فى حركة تنم عن اليأس ، ثم قال — وهو يضرب على جيبه العامر بنقود مستر هوايتلى : كيف أنفق عليها وأنا لا أملك شيئا ؟

www.ibtesama.com

ألا ترى أصحاب الديون يلاحقونني كالكلاب المسعورة ،
والسجن يتثاءب فى انتظارى ؟ هذا يا صديقى مبلغ تافه . .
مبلغ حقير . . ويعلم الله كم صارعت فى الحصول عليه
لأنقذ نفسى . . لا ، ياعزيزى تاون ، . . ليس من المطاع
غير ما يستطاع ، ولوكان عندى ، ما ترددت دون
إعطائك ما تريد .

قلت : تعطينى ما أريد ؟ عليك اللعنة ! أنا
لا أطلب شيئاً لنفسى ! !

قال : طبعا ، وأنا أعرف ذلك ، ولكنى أحب أن
تقدر محنتى ، وتفهم موقفى ، ولا أظنك ترضى بالضغط
علىّ . . إن ثقتى بقلبك الكبير لا نهاية لها ، لذلك أترك
لك الأمر تصرفه على النحو الذى يرضيك .

قلت : أتريد أن تترك لى ابنتك ؟

قال : رغم أنفى !

ومع براعته فى التمثيل ، رأيت فى عينيه وميضا خبيثا يحاول
أن يخفيه حتى لا أكشف عن غبطته الدفينة بنجاح خطته .

قال — وهو يضع يده على كتفى ، ويسند إليها
رأسه ، كأنه يبتغى الراحة من تعبه : يا أفضل الرجال
وأعز الأصدقاء ، إنى أترك لك الأمر كله ! !

www.ibtesama.com

وخامرنى فى هذه اللحظة شعور غريب من العسير تفسيره . . لم يكن كراهية ، فالإنسان الفاضل لا يستطيع أن يكره مخلوقا كهذا جُبل على الدناءة بكل ما فيها من أقبح المعانى وأبشعها . .

قلت – وأنا أدفع يده النجسة بعيداً عنى : كفاك تظاهرا بالبكاء فوق كتفى .

وسرت إلى الباب أبتغى الانصراف مسرعا ، ولما خرجت إلى الممر ، سمعته يغنى ويقول : عندما كنت صغيرا فى زهرة العمر . . لم أكن أفكر أو أحمل همًّا . . أعيش خالى البال سعيدا . . أشرب وأمرح . . وأنتقل من حسناء إلى حسناء . . حتى قلب لى الدهر ظهر المجن . . تزوجت وا أسفاه ، فانقلبت الدنيا ، وبت فى غم دائم ! !

وأخذ يغنى بصوت مرتفع ، لا يهمه أن أسمعه .

والواقع أن عقله الملتوى أدهشنى بخبثه ، فلقد دلّنى على حقيقتى : أبله . . طيب القلب . . حىّ الضمير . . فانتهزها فرصة ، وقرر أن يستغلنى ، ويمضى فى طريق الاستغلال إلى آخره .

كان يعرف أننى لن أرضى بعودة آن إلى سيرتها الأولى المحزنة مع آل جارفين ، فأوقعنى فى فخ لا أستطيع

www.ibtesama.com

منه الفكاك . . ألقى بعبء رعايتها على عاتقى ، مطمئنا إلى أنها ستجد فى كنفى أفضل حياة ، دون أن يكلفه الأمر شيئا .. وهو ما حدث بالفعل .. وهكذا وجدت نفسى — وما زلت فى السادسة والعشرين من عمرى — مكبلا بوصايتى على حفيدة كبير أساقفة كانتربورى ، وابنة محتال دنىء .

** معرفتي **
www.ibtesama.com
منتديات مجلة الإبتسامة

www.ibtesama.com

الفصل الثامن

أقبل الحظ على الصاغ روچرز ، وأغرقه بطوفان من الخيرات .

ففى أكتوبر من ذلك العام ، ظهر فى السوق كتاباه : « يومياتى » و « تقرير مختصر عن شمال أمريكا » ، وأدهشنى أن أقرأ عنهما فى جميع المطبوعات أطيب التقريظ . . فالواقع أننى لم أكن أتوقع أن يعطف الإنجليز على أحد منا ، بعد ما نشرته صحفهم من أقبح المعلومات المشوهة عن الأمريكيين بمناسبة ضريبة الدمغة ، وما سمعته فى پورتسموث من سخريتهم بنا . .

ولكنهم أحسنوا معاملة الصاغ ، واستقبلوا كتابيه بتقدير عظيم ، ووصفته الصحف بأنه « ضابط باسل .. نشيط حكيم ، وليس بين قرائنا من يجهل اسمه وفتوحاته .. وتقريره المختصر يعتبر أصدق دراسة للقارة الواسعة ، التى ضُمت أخيرا إلى ممتلكات الإمبراطورية البريطانية .. ويومياته أخطر وأهم مرجع لما وقع أخيرا فى شمال أمريكا من عمليات حربية وتجارية تبدو كالخيال ، وما كنا لنصدقها

www.ibtesama.com

لولا تأكيدات أهل الثقة من المتصلين بحقائق الأمور .. الخ » .

وأشارت الصحف بصفة خاصة إلى حديثه عن خيرات بلاده .. تلك الخيرات التى لا تقاس بها كنوز العالم بأجمعه ثم تنبؤه بما سوف يجده الأنجلو سكسون فى أمريكا من وطن جديد ، غنى بالفرص والموارد .. كذلك أبدت الصحف رضاها عن صدق فهمه للهنود ، وما ذكره عن ولعهم بالخمور ، ذلك الداء الكفيل بتدمير القارة خلال قرن واحد ..

وذهبت إلى فندق هوايت بير أهنئه بنجاحه ، فوجدته وبوتر يجلسان أمام أكوام من الصحف ، يقطعان منها التعليقات الواردة عنه .. وحيانى بوتر فى مرح وترحيب كأننا على أطيب العلاقات .. ولم يحدث بيننا ما يضايق أحداً ..

قال روچرز فى زهو : والله لا أعتقد أن شكسبير نال تقديراً كهذا على أشعاره .. أين كنت يا صاحبى طول الوقت ؟ . . لقد انتابنى القلق عليك ، وكنت على وشك أن أذهب إلى بيتك مستفسرا عنك .. هل سمعت أخبارنا ؟

قلت : قرأت عنها فى الصحف ، ولم أدهش ، فأنت أهل لكل كلمة ذكرت فى تقديرك ..

قال : لا . . ليس هذا ، إنما أقصد ميكيليماكيناك !

www.ibtesama.com

ولما تطلعت إليه فى حيرة صامتة ، قفز عن مقعده واقفا ، وقال — وهو يضرب يديه الواحدة بالأخرى فى مرح بالغ : ألا تعلم أننى نلتها يا صديقى ؟ أجل نلتها ، ونصبونى حاكما عليها .. وأنا الآن حاكم ميكيلماكيناك .. حاكم الباب الموصل إلى منطقة الشمال الغربى .. ألم أعدك بتوفير الفرصة لرسم الهنود ؟ لقد حانت الفرصة ، وبوسعى الآن أن أفى بوعدى لك ..

قلت — وأنا لا أصدق سمعى : عظيم ، ولكن هل أجابوا مطالبك الأخرى ؟

قال روچرز — وهو يضحك عاليا : ليس بعد .. المهم أننى أصبحت الحاكم ، والباقى يأتى فى حينه .. وأنا لا أريد سوى الوصول إلى ميكيلماكيناك ، حيث لا يستطيع أحد أن يتدخل فى شئونى .. هذا لب الموضوع ، ومن رأى كامبل أن أذهب إلى هناك أولا ، وبعدها تهون المتاعب .. وقد وعدنى هو وإليس وفيتز برت بالسعى أثناء غيبتى لتحقيق مطالبى ، ويؤكد كامبل أنه الكفيل بنجاح هذا المسعى ، بل سوف يعمل على إقناع الملك وتاوسند بتشجيعى قبل رحيلى .

قلت : ومتى تعتزم الرحيل ؟

www.ibtesama.com

قال : أريد أولا أن أكتب تمثيلية ، وعندما أنتهى منها ..

صحت به أقول : تمثيلية ؟ وهل تعرف كيف تكتب تمثيلية ؟ لا تؤاخذنى ، فلست أبتغى إيلامك ، ولكن كتابة التمثيليات تحتاج إلى خبرة ومعرفة ، وقد تجدها مهمة شاقة ..

وابتسم روچرز ببساطة وقال : وأى مشقة فى عمل كهذا ؟ باستطاعة الإنسان أن يفعل أى شىء ما دام حرًّا وليس هناك من يتدخل فى شئونه .. لم يكن يصدق أحد أن نفلح فى الذهاب إلى سانت فرانسس بالطريقة التى اتبعناها .. ومع ذلك ذهبنا وتحقق المستحيل . والأمر كذلك فى التأليف ، فبالرغم من أننى لم أكتب شيئا فى حياتى ، فقد أصبحت مؤلفا لكتابين غاية فى الأهمية والخطورة ..

قلت : ولكن التمثيلية تختلف . . ترى أى موضوع اخترته لها ؟

قال پوتر — وهو يناولنى قصاصة : لا أظنه رأى هذه النبذة يا سيدى الحاكم .

كنت أتوقع أن يبدو بعض الخجل على روچرز لهذا النداء ، ولكنه تقبل اللقب بمنتهى الثبات والبساطة ، كما لو كان حاكما طول حياته .

www.ibtesama.com

وأخذت القصاصة ، وقرأت فيها ما يلى : « إن الصورة التى قدمها الصاغ روجرز لشخصية الإمبراطور بونتياك ، جديدة وطريفة ، ومن الممكن أن تتحول إلى قطعة فنية خالدة على يد قصاص عبقرى . . »

قلت : أجل . . ولكن كاتب هذا التقريظ يطلب قصاصا عبقريا ، يا سيدى الصاغ .

قال : أعرف ذلك ، ولكن العبقرية لا تكتشف إلا بالتجربة ، ولا بد أن أجرب كتابة التمثيلية ، حتى أتبين ما إذا كنت عبقريا أم غير عبقرى . . وهو ما أنوى عمله . . !

قلت : صحيح ، ولكن . .

قال ــ وهو يضحك عالياً فى غرور بالغ : كفاك اعتراضات يا بنىّ ، ولا تثبط عزيمتى ، فناتى بوتر يعتقد أنها مسألة غاية فى البساطة ، وقد وعدنى الناشر ميلان بخمسين جنيها مع طبع التمثيلية على حسابه فور انتهائى منها . . وفى نيتى أن أضمنها شخصيات ذات صبغة واقعية . . . أضع مثلا تاجرين يخدعان الهنود ، وصيادين إنجليزيين يمعنان فيهما تقتيلا وتعذيبا . . ضابطين بريطانيين مدعيين ، على غرار كيج وبرادوك . . . اثنين أو أربعة

www.ibtesama.com

من حكام المستعمرات يختلسون الهدايا المرسلة إلى الهنود . . ثم هنودا لا عداد لهم تحت قيادة پونتياك . . هذه فكرتى العامة ، ويعتقد كامبل أنها كفيلة بإثارة اهتمام لندن كلها بالهنود . . ألا ترى ما تعرضه المسارح فى هذا البلد من سخافات وتوافه ؟ هل تتوقع من روچرز ، القصصى البارع ، أن يكتب أقبح من ذلك ؟ طبعاً ، مستحيل . . سنجعلها تمثيلية من النوع المحزن . . تراچيديا . . كل شخص فيها يبكى ويصرخ لبضع ساعات على الأقل . . ثم يأتى بعد الصراخ دور الطعن بالخناجر . . طعن . . طعن . . طعن . . بوم . . بوم . . بوم . . حتى يقتل الجميع . . والمجد لروچرز !

ومضت برهة وهو يقضم أظافره مفكراً ، ثم التفت نحو پوتر يقول له فى لهجة الجد : أتظن أننا نستطيع تكليف جاريك بأداء دور پونتياك ؟ إنه أصلح من يؤديه ، واسمه يجتذب الأنظار .

ورأيته يتقمص شخصية پونتياك ، فيمد ذراعه إلى الأمام بعظمة ، ويقول فى صوت أجش : تعالوا أيها الإخوة الحمر . . تعالوا يا أهل الغرب والشمال . . اشهروا فئوسكم ، وضموا صفوفكم ، وقفوا أمام اللصوص البيض القادمين إليكم من الشرق . .

www.ibtesama.com

ثم همهم وتمتم ، وأردف يقول : إذا كان السلام الشريف رائدكم .

وحملق فى وجهى ساهما .

وسرت الحماسة فى پوتر ، فطاف بالغرفة ، وعند أحد الأدراج وقف يلمس زجاجة ، ثم قال فى نبرات منغمة : تمثيليتنا هى سبيلنا الوحيد إلى الحصول على رعاية الملك النبيل !

قال روچرز : خذ الزجاجة يا پوتر ، وأسرع إلى الغرفة الأخرى ، وحاول أن تضع لى مقدمة الفصل الأول . تاجران يعدان العدة لخداع الهنود . . يغشان الموازين . . ويخلطان الروم بالماء . . لا أريد سوى خطوط رئيسية للفصل الأول ، واترك لى مهمة وضع التفاصيل . .

ودون أن يجيب پوتر بكلمة ، اختطف الزجاجة ، واختفى بها فى الغرفة المجاورة . .

حين انفردت بروچرز ، قال فى ابتسامة الخجل : لعلك تفكر فى الممر الشمالى الغربى ، يا لانجدون ؟ أليس كذلك ؟ ولم أكن أفكر فى موضوع الممر ، إنما كنت أعجب بينى وبين نفسى ، لما جبل عليه پوتر من استهانة تامة بابنته ،

www.ibtesama.com

وقلة إحساس بوجودها ، كأنه لم يرزق يوماً من الأيام بطفلة اسمها آن .

ومضى روچرز فى حديثه فقال : الحقيقة أننى تعمدت إغفال الموضوع فى حضرة پوتر ، ولم أشأ أن يسمع عن الممر الشمالى الغربى ، خشية أن يسرقه ذلك الأفاق السكير . . ورجائى أن تفعل مثلى ، وتتجنب الإشارة إلى الممر فى وجوده ، فهو يعتقد أننى لا أبتغى سوى منصب الحاكم ، وإذا اكتشف الحقيقة ، فلن يتورع عن تزوير المستندات التى تثبت أنه اكتشف الممر من سنوات . . ناتى رجل مفيد ، ولكنه خبيث وشرير ، ومن الحكمة أن نأخذ حذرنا الشديد منه .. على كل حال ، اطمئن . . إننى أسعى بكل جهدى ، وأملى أن أوفق .

وفتح درجا موصدا ، وأخرج منه وثيقة ألقى بها إلىّ ..

وكانت الوثيقة التماسا موجها إلى وزراء الملك ، وفيها يطلب روچرز أن يسمحوا له بقيادة بعثة تقوم بالكشف عن الممر الشمالى الغربى .. وقرأت الالتماس فوجدته يتضمن جميع ما أثاره دوبس وكامبل وإليس من حجج وأسانيد تؤيد ضرورة البحث عن الممر ، وتبين الفوائد المترتبة على التوفيق فى كشفه .

www.ibtesama.com

وجاء فى الالتماس أن البعثة ستكون عاملا فاصلا فى أمر المستقبل ، ففشلها فى العثور على الممر يضع حدا لما يبذل من محاولات متكررة لكشفه ، ويوفر الأموال الطائلة التى تنفقها الدولة فى هذا السبيل دون طائل .. أما نجاحها فمعناه فتح طريق مباشر إلى اليابان وغيرها من بلاد الشرق الغنية بالخيرات . وهو عمل يعود على إنجلترا بغنائم لا تحصى ولا تعد ، وكذلك يفتح أمامها سوقا جديدة تصرّف فيها بضائعها بأثمان مرتفعة ، وتدعم آفاقا تجارية واسعة لرعايا صاحب الجلالة . .

وورد فى الالتماس أيضا ، أنه فى مقدور الصاغ — إذا اطمأن إلى عدم تدخل چونسون وكيج فى أموره — أن يجند مائتى رجل تبدأ بهم الرحلة من البحيرات العظمى ، متجهة إلى رأس المسيسپى ، ومنه إلى نهر أوريجون ، ثم المحيط الهادى ، حيث يستطيع كشف معالم الشاطئ الغربى للقارة الأمريكية .

وضمن روچرز التماسه أسماء الضباط والرجال الذين يعتزم اصطحابهم معه ، وكذلك الميزانية المطلوبة لتمويل الرحلة خلال ثلاث سنوات . وبالإضافة إلى القوة المذكورة آنفا ، اقترح أن يوضع تحت إمرته أربعة نقباء

www.ibtesama.com

« يوزباشية » ، وأربعة ملازمين أول ، وأربعة ملازمين ثوان . . وحامل للعلم ، وعامل للإشارة ، وياور لمساعدته ، وجراح للبعثة وثلاثة من الممرضين . . ثم طلب أيضاً قسا ، وثمانية « جاويشية » ، وخبيراً فى إصلاح الأسلحة ، بشرط أن تدفع مرتباتهم جميعاً على مستوى الجيش . . وأبدى روچرز رغبته فى أن تزود الحملة بثمانمائة فخ من الصلب لصيد الحيوانات فى أثناء الطريق . . وهدايا للهنود بثلاثة آلاف من الجنيهات . . وفى النهاية وضع تقديراً عاماً لنفقات الحملة يبلغ ثلاثة وعشرين ألفاً من الجنيهات ، وهو رقم ضخم فى حد ذاته ، ولكنه لا يقارن بما خسرته الدولة فى إرسال برادوك إلى نهايته الرهيبة ، ولا ما تكبدته خزانتها فى تمويل جيش ابركرومبى ، الذى دُمِّر عن آخره عند تيكونديروجا . . فبالمقارنة إلى الحملتين ، تعتبر مطالب روچرز معقولة ، بل معقولة جداً . .

قال روچرز : ما رأيك فى هذا الكلام ؟

قلت : كله مقبول ما عدا الهدايا . فرجل عظيم مثلك لا يليق به أن يعطى أشياء تافهة ، فهل تكفى ثلاثة آلاف من الجنيهات لإرضاء آلاف الهنود الذين لابد أن يعترضوا طريقك على مضى سنوات الرحلة ؟

www.ibtesama.com

قال الصاغ مؤمنا على كلامى : صدقت ، إنه مبلغ ضئيل لا يكفى احتياجات سنة واحدة ، فما بالك بثلاث . . ولكن ما حيلتى ؟ بذلت أقصى جهودى فى إقناع كامبل بضرورة التوسع فى هذا الباب ، فأبى أن يستمع إلىّ . . وأخبرنى أن لديه مستندات من وزارة الحربية تثبت أنهم اتهموا سير وليام چونسون بالجنون حينما طلب خمسة آلاف للهدايا . . ويؤكد كامبل أن وزراء الملك يعارضون أشد المعارضة فى شراء هدايا للهنود ، لذلك لن أستطيع الحصول منهم على أكثر من ربع ما أحتاج إليه لهذا الغرض .

وغمز لى بعينه وقال : المهم أن يبدوا موافقتهم على الالتماس ، وبعدها نتدبر الأمر بوسيلة ما .

قلت : وإذا لم توافق الحكومة على التماسك ؟

قال — وهو يضع يده الضخمة على كتفى : خذ بنصيحتى يا لانجدون ، ولا تقلق بالك مهما حدث ، فلقد عينت حاكما على ميكيليماكيناك ، وسأجد طريقة لإرسال رجالى فى الكشف عن الممر ، وستكون بينهم بلا أدنى شك ، فهل يرضيك هـــذا ؟

قلت : يرضينى كل الرضا ، فشكراً أيها الصاغ .

قال : اصبر يا بنىّ . . اصبر شهرا أو أكثر . . وأعدك

www.ibtesama.com

بعد ذلك أن تترك الجنس الأبيض لسنوات قادمة .

وسار إلى الشرفة ، ورفع رأسه نحو السماء ، وأخذ يضرب صدره بيده ، وهو يستنشق من هواء الليل الدافئ ، الذى يسرى بين أفنية الدور محملا بروائح الخيل والصابون والدخان والنشادر .

قال فى صوت أجش : يا إلهى ! كم يسعدنى أن أعود إلى الغابات ! لقد سئمت الاستيقاظ كل صباح برأس مصدع وحلق فى جفاف جلد الجاموس .. سئمت الضباب والسناج والتراب . . سئمت التهريج والوقاحة والسياسة . . سئمت هراء أنصاف الرجال وأرباعهم . . إن هذا البلد اللعين يكاد يخنقنى .

والتفت إلى يقول : ألم تشعر يوما بالاختناق ؟

قلت : كثيرا ماشعرت به ، وبعد عودتنا من سانت فرانسس ظللت مدة طويلة لاأستطيع النوم فى فراشى . . كنت ألتف فى غطائى وأرقد على الأرض .

قال ضاحكا : ومع ذلك كنت أسعد حظا م٠ ، فلقد قضيت خمس سنوات كاملة أنام على الأرض ، وبعدها وجدتنى لا أحتمل بالليل سقفا فوقى ، فكنت أخرج إلى العراء ، لأنام تحت الأشجار . . ويعلم الله كم فرحت حين

www.ibtesama.com

استدعانى آمهرست بعد أسبوع من زواجى ببيتسى ، وأرسلنى بعيدا فى مهمة إلى كارولينا الجديدة .

وذكره حديثه عن زواجه بأمر ما ، فقطب جبينه بشدة وقال : أتعرف يا لانجدون أن بعض الأنذال كتب إلى بيتسى ببورتسموث يزعم أننى أعيش فى لندن حياة حافلة بالصخب والسكر والعربدة ؟ ! الناس لا يتركون أحداً فى سلام ، وإذا بدت عليك أبسط مظاهر المرح ، تسرع عناصر الشر إلى تحطيم حياتك الزوجية . . فى لندن أقارب لآل براون ، ولكنى تعمدت الابتعاد عنهم خشية أن يكونوا مثل حمىً ، ومع ذلك التقطوا الشائعات الكاذبة ، وبعثوا بها إلى زوجتى . . اسمع ما قالته فى هذا الخطاب . .

والتقط من درجه خطابا ، وأخذ يقرأ لى ما فيه بصوت مرتفع .

قال : « سمعت من أوثق المصادر أنك تختلط بحثالة القوم ، وتقضى أوقاتك فى لهو وفوضى ، حتى أصبحت فضائحك مثار الحديث فى لندن كلها .. ألا تعلم أننى لم أرتد ثوبا جديداً طول هذا العام ، إلا ما صنعته من ملابسى القديمة ؟ ألا تعلم أننى أقضى معظم الليل فى عمل شاق ، وغيرى من النساء يرتاد الحفلات ويستمتع بنسيم البحر العليل فى شارع

www.ibtesama.com

پاك ؟ . . ما زلت أتزين بالأشرطة والدنتلا التى استعملتها طوال السنين الأربع الماضية ، فهل يرضيك هذا ؟ أين الوعود التى قطعتها لى ؟ أين الأقسام المغلظة على الوفاء والرعاية ؟ أريد أن أعرف الحقيقة ، فأنت تبعث لى فى رسائلك بآلاف من القبلات ، ثم تنطلق بصحبة السفلة إلى المحال المشبوهة ، حيث تجلس مع أكثر نساء لندن فساداً . . تنفق عليهن بغير حساب ، وأنا هنا أذوق مرارة الحرمان .. فكيف أعيش وأبى يرفض أن يقوم عنك بواجب الإنفاق علىّ ، بعد أن امتنعت عن تسديد بعض ديونك الباهظة له ؟ ! ويقول أبى أيضاً . . . . »

وهنا ألقى روچرز بالخطاب على المنضدة ، وقال فى اشمئزاز شديد : وهكذا . . وهكذا . . وهكذا . . شكوى بعد شكوى بعد شكوى . . أستحلفك بالله ، يا لانجدون ، ألا تسرج ظهرك بامرأة . . امتنع عن الزواج إذا استطعت ، فليس وراء النساء سوى الهم والغم ، ويوم تطلق لنفسك عنان السرور ، يمسكن بخناقك ، ويُحلِنْ حياتك جحيما .

وأدرت وجهى عنه إلى النافذة ، وقد عادت نيران الحب تكوى قلبى . . نيران حبى لإليزابيث التى تركتنى

www.ibtesama.com

وتزوجته . . ولكنى لم ألبث أن تذكرت كلمات هوجارث حين نظر إلى صورتها ثم قال : « ستصبح امرأة ذلقة اللسان عندما يتقدم بها العمر » . . أجل ، إنها على حق فى تأنيب زوجها كما تشاء ، ولكن تفكيرى فيها أزعجنى إلى حد كبير .

قال روچرز ، ولم يلحظ ما اعترانى : عليهن اللعنة !

وأخذ يذرع الغرفة مفكراً ، ثم قال : عندما تكتب إلى أهلك ، يا لانجدون ، فلا تنس أن تخبرهم بما أقوم به من عمل متواصل شاق . . حدثهم عن أصدقائى النبلاء العظام ومراكزهم السامية ، فقد تصدق ﭘيتسى هذه الأنباء إذا أتتها من شخص سواى . . اللعنة ! كيف لا تدرك أن رجلا مثلى ألف كتابين ونشرهما فى خلال ثلاثة أشهر ، لا يمكن أن يتسع وقته للهو والعربدة ! كيف أصاحب السفلة وأنا أقضى معظم ساعات اليوم مع كامپل وإليس وفيتزبرت . . أرفع التماسات إلى الملك . . وأكتب التمثيليات عن پونتياك . . أقوم بمهمات لا يعلم بخطورتها سوى الله . . عجيب أمر هذه السيدة ! كان من واجبها أن تفخر برجل مثلى ، بدل أن ترميه بأقذع الاتهامات !

ونظر إلىّ فى مرارة ، فوجدته قد تغير فى لحظة

www.ibtesama.com

خاطفة من حال إلى حال . . ذهبت ثقته بنفسه ، وزال غروره بعبقريته . . لم يعد ذلك الإنسان الجرىء الذى كان منذ برهة قصيرة يفخر بقدرته على اختراق المجاهل والقفار ، ويتشدق بما سوف يفعله لمضاعفة ثروة إنجلترا ، حين يكشف لأول مرة فى التاريخ أسرار الشاطئ الغربى للقارة الأمريكية . . ذهب هذا كله ، ولم يبق أمامى سوى طفل كبير حزين ، لتأنيب زوجته له ، وغضبها منه !

ولكنى عدت وتذكرت أنه الجانب الثانى من أخلاق روچرز وطباعه ، فشخصية هذا الرجل ذات وجهين يختلف الواحد منهما عن الآخر تمام الاختلاف ، ومع ذلك فكلٌ من الوجهين صادق حقيقى ، لا زيف فيه ولا خداع . . كان أشبه بالممثل جاريك ، وهو يؤدى عشرة أدوار مجتمعة : البطل ، والسكير ، والمغامر ، والعربيد ، والكريم ، والمدعى ، والثائر ، والشاعر ، والثرثار ، والمنتصر . . نعم ، كان مثله حين يقوم بهذه الأدوار جميعها وينجح فى إقناع الناس بأنها تصور شخصية واحدة لرجل واحد .

ومرة أخرى وجدتنى أتعجب لأمره ، كما سبق أن تعجبت فى مناسبات كثيرة .

www.ibtesama.com

قال فى صوت عامر بالحياء : أحيانا أشعر بحبى لها قويا كما كان قبل زواجنا ، ولكن ، يلعننى الله ، إذا سمحت لأحد بإهانتى . . إننى رجل مسالم بطبعى ، وأريد زوجة مسالمة مثلى .

* * *

عاد پوتر إلى الغرفة ، وهو يحمل فى يده مخطوطات كثيرة ، فانصرفت إلى حال سبيلى ، وعدت إلى مسكنى لدى مسز مارتن ، وفى غرفة المسكن وجدت آن تنتظرنى .

والواقع أننى كنت دائما أجدها فى انتظارى كلما عدت من الخارج ، وأحياناً أشفق عليها من الوحدة ، فأمتنع عن الخروج إكراما لها .

وكانت العادة أن تتلقى دروسها فى غرفة مسز مارتن ، وبعدها تحمل أوراقها وتطريزها ، وتصعد إلى شقتى بالطابق الثالث . . . وتجلس بجوارى معظم الوقت فى صمت تام ، كأنها قطعة من الأثاث ، وكلما تملكتنى الرغبة فى احتساء قدح من القهوة ، أنهض إلى قبعتى استعداداً للخروج . . فتنظر إلىّ آن بطريقة مؤثرة تذهب بحماستى ، وتجعلنى أعدل عن الخروج ، وأبقى معها فى البيت . . وإذا عنّ لى أن أروّح عن نفسى بالسير إلى كوبرى لندن أو كنيسة

www.ibtesama.com

هوايتشاپل ، يتكرر ذات الأمر أغلب الأحيان . فيلين قلبي ، وأبقى إكراماً لها .

ولكن جلوسها فى الركن القصى من الغرفة صامتة ، لم يخلُ من المتعة ، فوجودها بقربى جرّد بيتى من وحشته السابقة ، وأفاض جوّا من الأنس والصحبة ، خصوصاً بعد ما وجدتها تتغير بسرعة ، وتتحول بالتدريج إلى إنسان آخر : زال نحولها الشديد ، وامتلأ جسدها هوناً . . ولم تعد فى ثيابها الجديدة تبدو أقل حجما مما يتناسب مع سنها ، كذلك تهذبت لغتها بفضل توجيهات مدرستها مسز پينيكر ، وأصبحت فتاة مهذبة لا تنطق بألفاظ السوقة إلا نادراً .

وانكببت فى ذلك الوقت على مجموعة لورد بريمرتون أتمها ؛ ولما توقفت عن هذا العمل اتخذت من آن أنموذجا لى .. فكانت تجلس أمامى صبورا على عكس ما حدث فى المرة الأولى .. ورسمت لها صورتين أعتقد أنهما أجمل ما أنتجت فى حياتى : واحدة تجلس فيها بوداعة ، والأخرى تبتسم لقطتها . . وتمشيا مع الطريقة الحديثة ، أعطيت الصورتين اسمين مناسبين : الأولى « روح عائلية » ، والثانية « القطة » .

وأخذت الصورتين ذات يوم إلى التاجر ، وهناك قابلت لورد بريمرتون مصادفة ؛ ولما رآنى جذبنى من

www.ibtesama.com

ذراعى ، واستوقفنى بطريقته الحماسية العنيفة ، وهكذا جلبت لى آن حظاً جديداً سعيداً .

قال لورد بريمرتون دون مقدمات : أريد ، يا سيدى العزيز ، رأيك الصريح فيمن يسمونه روچرز . أظنه إنسانا شديد المراس من العسير أن يغلب على أمره ، فهل تثق به يا مستر تاون ؟

قلت : أجل . . أثق به ، فهو فى الغابات إنسان لا يضارع . . فوق مستوى الرجال كثيراً . . حقيقة أن له أخطاءه بطبيعـــة الحال ، ولكن قدرته فى الغابات لا يتصورها العقل .

قال : يحتمل .. يحتمل جداً .. هل حقيقة أنه إذا ذهب إلى هناك ، يكون فى مقدوره أن يسير ستة آلاف من الأميال فى تلك البلاد ؟ أتظن أن فى استطاعته ذلك ؟

قلت : بلا أدنى شك . . فهو فى الغابات يتحول إلى ما يشبه الساحر ، ويأتى بمعجزات خارقة . . وأعتقد أنه فريد فى نوعه ، وليس فى الدنيا كلها رجل مثله . . إنه كالولڤرين يعرف الأشياء بالغريزة .

قال بريمرتون فى حيرة واضحة : وُلڤرين ؟ ما هذا الولڤرين ؟

www.ibtesama.com

قلت : حيوان يشبه ابن العرس . . كبير الحجم . . عظيم المهارة . . وفى أمريكا يسمونه « الشيطان » لخبث أساليبه فى التحايل على تحقيق أغراضه . . فهو يدور حول الفخاخ ويعالج لوالبها بمنتهى الإتقان ، وإذا أعددت له كمينا ، يسرق الطُّعم ويهرب منه سالما .

قال : ولڤرين ! بلد عجيب ! أعجب من أن يستطيع ساستنا أن يهضموه .

قلت ، تأكد يا سيدى أن روچرز يعرف من الأمور ما نجهله جميعا ، وإذا أجيبت مطالبه ، فلا بد أن يصل إلى المحيط الهادى أو يموت فى طريقه إليه . . وأعتقد أن التاريخ سوف يضع اسمه بجانب أشهر المستكشفين فى العالم أمثال دريك وكولومبس .

صاح بريمرتون يقول فى حيرة : أعرف أنهم سيجيبون بعض مطالبه لا كلها . . هذا شأنهم دائما ، وصدقنى أن بلادكم أكبر من أن تتصورها عقليات ساستنا الأغبياء . . خذ وزراءنا من أولهم إلى آخرهم ، ما عدا بت . . جميعهم فاسدون . . عاجزون . . منحلون . . بله . . سفهاء . . وكلما وجدوا رجلا قديراً ينشطون فى القضاء عليه . . يلفقون له أشنع الجرائم ، ويحاكمونه بتهمة سوء السلوك . .

www.ibtesama.com

لا يكافئون سوى الخونة والأغبياء والنصابين . . يحبون المال بجنون ، ويستميتون فى الحصول على الوظائف المريحة ، ولهم فى تحقيق الرغبتين وسيلتان لا تتغيران : السرقة أو الزواج . كأنهم أطفال أشرار ، لا يتورعون عن تحطيم كل لعبة تأتيهم بها . . ووزراؤنا يفعلون ذلك الآن .. يحطمون لعبهم بتخليهم عن خيرات أمريكا . . يفرضون الضرائب الفاحشة على أهلها ، ولا من سبيل إلى إقناعهم بخطأ تصرفاتهم . . ليسوا أهلا للاحتفاظ بها ، ولسوف يفقدونها عن قريب ، فيخسرون بذلك ما يسميها صديقك روچرز ، أغنى البلاد على وجه الأرض ، وأعظم من كنوز المكسيك وپيرو .

قلت : قد يتغير حالهم .

قال : وقد لا يتغير . . فالبغىّ تظل بغيًّا دائما . . والعاجز يبقى عاجزاً إلى مماته . . مشكلة لا حل لها . . ساسة يدمرون وطنهم ، ولا من وسيلة إلى وقفهم عند حد . . أمرنا لله . . إنها المحنة الأزلية التى لابد أن يمر بها كل بلد فى يوم من الأيام . . ولكن ، هل فى نيتك حقيقة أن تسافر مع روچرز ؟

قلت : أجل يا سيدى .. وأنا أحلم بزيارة أرض الهنود .

www.ibtesama.com

قال بريمرتون : صدقت . . صدقت . . فهى مغامرة رائعة تمكناك من رسم الهنود .

وفجأة تنبه إلى الحافظة التى أحملها ، فقال – وهو يضع يده عليها : ماذا لديك ، ماذا لديك ؟

وتبعته إلى داخل الحانوت ، حيث فتح الحافظة ، وأخرج منها إحدى الصورتين ، وأزاح عنها غطاءها الواقى .

قال : آه . . هناك صورة أخرى .

وأخرج الثانية من الحافظة ، وأخذ يتأمل الاثنتين بإعجاب شديد ، ثم أعادهما إلى مكانهما من الحافظة .

قال : الروح العائلية . . والقطة . . فن جميل رفيع . . خصوصا القطة ، فإنها حقيقة ممتازة . . أليست الصورتان لشابة واحدة ؟

قلت : إنها ما زالت صبية صغيرة ، ولم تصبح شابة بعد .

قال : بل هى بين الصبا والشباب . . عظيم . . ولكن أرجو ألا تنسى مجموعتى ، فأنا أريدها قبل سفرك فى رحلتك الكشفية العظيمة . أليس كذلك ؟

قلت : أجل ، يا سيدى اللورد .

www.ibtesama.com

قال — وقد بدا كأنه يمعن فى التفكير : حسنا . . ولكنى أراك ترسم الآن لوحات لوجوه ، وما دام الأمر كذلك ، فمن مصلحتك أن تبقى فى لندن بعض الوقت . . إن الپاستل إذا غُطِّى بالزجاج ، يحتفظ برونقه مائة عام ، فيستطيع أحفادك أن يروا كيف كنت فى أيامك . . وأنا شخصيا أفضل الپاستل على الزيت الذى يفقد رونقه بمضى الوقت ، فهل يتسع وقتك قبل السفر لرسم صورة ؟ نريد صورة لليدى بريمرتون . . بل نريد صورتين فى الواقع . . واحدة نحتفظ بها ، والأخرى نعطيها لابنتنا . . ويحسن أن ترسم صورتين أيضا لابنتى . . ثلاثون جنيها عن كل قطعة ، فهل يرضيك ذلك ؟ فرصة تحصل فيها على نفقات رحلتك مع الشقى روچرز حين يبدأ مسيره إلى الممر الشمالى الغربى .

وهذا ما كنت أعنيه ، بأن آن جلبت لى حظا جديداً سعيداً .

www.ibtesama.com

الفصل التاسع

انتهيت من المجموعة التى طلبها لورد بريمرتون ، وكذلك من اللوحات الأربع الخاصة بزوجه وابنته ، ونقدنى الرجل الطيب أجرى كاملا .

وفى بداية شهر ديسمبر ، بعث إلى روچرز بأنباء الرحيل فى رسالة قال فيها : « أما وقد أتممت الفصل الأخير من تمثيليتى ، فلم يبق أمامى سوى أن أقيم بضع ولائم تحية لمن أكرمونى ، وبعدها نقلع إلى الوطن . . »

وأخذت أعد العدة للرحيل ، فاشتريت ألفا من العدسات الرخيصة ، الواحدة بستة بنسات . . وألفا من الصور الملونة الواحدة بنصف بنس . . وكراسات للرسم من الحجم الكبير والصغير . . وأقلاما مختلفة الأنواع . . وأقراصا من الألوان الجافة . . ثم حزمت هذا كله فى أكياس صغيرة يسهل نقلها بالزوارق .

وحين انتهيت من هذه المهمة ، ذهبت لأقابل روچرز ، فوجدته منكبّا على تمثيليته ، يصحح أصولها ، ويضبط أوزان الأشعار التى وضعها فيها . .

www.ibtesama.com

وخاف أن أتحدث فى موضوع الممر الشمالى الغربى قبل أن يتأكد من وجودنا وحدنا ، فرمانى بنظرة تحذير ، وصاح بأعلى صوته ينادى پوتر .

ولما لم يتلقّ إجابة على ندائه ، قال – وهو يغمز لى بعينه : أخبار سارة . . أخبار سارة . لقد قابلت تاوسند مرة أخرى . .

ثم عاد إلى أوزانه يحصيها على أصابعه مثل طفل يتعلم الجمع .

قال فى غبطة : سنبحر مجانا ، فقد أمر المحافظ بأن أسافر على أول سفينة حربية تقلع إلى أمريكا ، ولسوف تأتى بصحبتى . . أنت وناتى پوتر والفتاة الصغيرة بصفتكم أسرتى الكريمة .

قلت : الفتاة الصغيرة ؟ أى فتاة صغيرة ؟

قال – وهو يتطلع إلىّ بدهشة : أى فتاة صغيرة ؟ ابنة ناتى بالطبع ، وقد علمت منه أنك تبنيتها تقريباً .

قلت : أهو الذى أنبأك بذلك ؟

قال : أجل ، فهل صدق فى كلامه ؟

قلت ضاحكا وقد أسقط فى يدى : أظن ذلك .

وأردت أن أغير الموضوع ، فقلت له : هل وافق الملك على التماسك ؟

www.ibtesama.com

قال : يؤكد لى كامبل أن المسألة تعتبر فى حكم المنتهية . . فتاوسند يؤيد الموضوع ، ولكن الحكمة تقضى بالمداومة على تذكيره ، لأنه رجل مشتت الذهن ، ينسى اليوم ما قاله بالأمس .

وضرب بيده على الأصول الموضوعة أمامه ، وأردف يقول : ستعلمهم هذه التمثيلية نوع المعاملة التى يلقاها الهنود من ضباطهم . . ففى الفصل الأول نرى تاجرين أيرلنديين يغشّـــان الهنود ، وفى الثانى نجد صيادينْ انجليزييْن يقتلان الهنود بغية الاستيلاء على ما يملكون من فراء . . وفى الثالث قلعة إنجليزية بها ضابطان لا يكفان عن شتم الهنود ولعنهم فى وجوههم . . ولكن الفصل الرابع هو الأهم ، فحوادثه تقع داخل قلعة بها ثلاثة حكام : شارپ . . وجريپ . . وكاتشام . . والثلاثة يسرقون هدايا الملك للهنود . . الهدايا التى أرسلها صاحب الجلالة لقاء الحصول على صداقة الحمر وتأييدهم . . . وبينما الثلاثة يقتسمون الغنيمة ، يدخل عليهم پونتياك ومعه أربعة من أتباعه ، فيحاول الحكام أن يخدعوه بألفاظ معسولة . . عندئذ يتكلم الزعيم الهندى ، ويواجههم بالحقيقة .

www.ibtesama.com

وعاد روچرز إلى الأصول الموضوعة أمامه يقرأ منها الفقرة المطلوبة ، وهو يهز يده متوعداً .

وتجلت الرهبة فى شكله وصوته ، فخيل إلىّ كأنه أصبح رمزاً لجميع الأخطاء التى يرتكبها الإنجليز فى حق هنود أمريكا .

واستمعت إليه وهو يقول على لسان پونتياك :

« رجالكم يشيعون الفساد فى الهنود . . . يسكرونهم ويخدعونهم ويسرقونهم . . وضباطكم على مختلف رتبهم سيئو الخلق مغرورون ، وضيعون . . يعاملوننا باستهانة واحتقار وازدراء ، ولكن ثقوا أنه خطأ جسيم ، فالفرنسيون لا يأخذوننا بهذا الأسلوب ، ولقد كنا نعتبرهم أشراراً ، فوجدنا أدهى منهم وأضل سبيلا . . »

وانتقل روچرز إلى شخصية أحد الحكام الثلاثة ، فتقمصها ، وقال بصوت يفيض ذلة واستعطافاً : « فى كل أمة توجد عناصر الخير والشر سواء بسواء ، فأنتم مثلا لديكم هنود طيبون وهنود أشرار . . والأمر كذلك فى الإنجليز ، فمنهم من يضل طريقه إلى الخير ، فيسلك سبيل الشر » . .

www.ibtesama.com

وعاد يمثل پونتياك ، فارتفع صوته ، وامتلأ بنبرات الوعيد إذ قال : « إذا كان لديكم إنجليز طيبون ، فلماذا لا تأتوننا بهم ؟ إننا لا نرى منكم سوى الأشرار والنصابين والبله . . كلهم يعتبرنا أحقر من الكلاب . . لقد سمعت أن ملككم رجل فاضل ، يحترم كلمته ، ويعطف على الناس . . ليس مغروراً ولا وقحاً ولا خشناً ولا حقوداً مثل جنوده وخدمه وأتباعه . . فدعه يعلم أن رجاله فى هذه البلاد أشرار . . يذلون الهنود ويسرقونهم وينزلون بهم أشد الأضرار . . أنصحه بأن يرسل إلينا ضباطاً أفضل ، ويسحب من أرضى هذه الحثالة القذرة » . .

وانحنى روچرز على الورق وكتب فى الهامش تصحيحاً ، ثم قال : إنها ذات الكلمات التى سمعتها من پونتياك فى يوم من الأيام ، والأفضل أن أستدعى ناتى ليساعدنى فى صياغتها بأسلوب أقوى . . فوالله إن الوقت قد حان ليواجه الإنجليز بالحقيقة المرة ويعرفوا ما يفعله رجالهم بالهنود . . أسمع هذه الفقرة التى تأتى عندما يسرق الحكام الهدايا الثمينة ، ويوزعون التوافه الباقية على الهنود ، فيقول أحدهم محتجاً : « هذه أشياء قليلة ، فأين

الباقى ؟ . . إن زعماءنا ومحاربينا ليسوا معنا ، وهم ينتظرون أن نعود إليهم بنصيبهم » . . ويقول آخر : « هذه الأشياء لا تكفى نصف رجالنا ، وقليلون من زعمائنا سينالون هدية واحدة مما تتشدقون به من عطية ملككم ! » ويقول ثالث : « سيغضب رجالنا وسيعتبرون حرمانهم من الهدايا مظهراً لاحتقاركم ، ودليلا على بخلكم ، وتأكيداً للصوصية حكامكم ، الذين يسلبون الهنود حقهم ، ويستولون على الهدايا لأنفسهم » . . عندئذ يتكلم الحاكم شارپ — والواقع أن دوره يليق تماماً بسير وليام چونسون — منافق حقير ، يسرقك دون أن تحس . . وعندما يتهمه الهنود بسرقة الهدايا ، يقول لهم : « اطمئنوا إلى أمانتنا ، فنحن أخلص أتباع الملك العظيم . . وليس أدعى إلى احتقارنا من الجهل المسيطر على عقولكم . . إننا نكره فنون الخديعة والنفاق ، ولقد أرسلنا عاهلنا العظيم بهذه الهدايا ، ولا جدال فى أنه شهم كريم نبيل . . ولو كان يعلم بعدد زعمائكم ما تأخر عن غمركم جميعاً بما يثلج قلوبكم من آيات سخائه الملكى . . ومع ذلك ، فأمامكم الآن خيرات تستحق التقدير ، وتأكدوا أن

www.ibtesama.com

ملوكاً قلائل على وجه البسيطة ، يستطيعون أن يحذوا حذوه ، فيجزلوا العطاء بهذا الكمال والجمال والإبداع وحسن الاختيار » . .

والتقط روچرز أنفاسه ، ثم قال وهو يضع الأصول جانبا : ألا يليق هذا الدور بچونسون ؟ لقد نصبوه مراقبا للشعوب الهندية الستة ، وغيرها من سكان المناطق الشمالية .. وبجانبه جيچ القائد الأعلى لقوات صاحب الجلالة فى أمريكا . . وليس الاثنان سوى سنجابيْن شحيميْن لهما ذيل واحد . . وهذا ما قلته لكامبل بصراحة ، ورجوته أن يطلق يدى ، وحذرته من أن يضعنى تحت إمرة أحد هذين الاثنين . . وإذا كانوا قد عينونى حاكما لمنطقة ميكيليماكيناك ، فسوف أكون حاكما بالمعنى الصحيح ، ولن أقبل تدخلا من أى نوع كان . .

* * *

وقبل عيد الميلاد بأسبوع ، أبحرنا أنا وروچرز وپوتر وآن ، على ظهر البارجة الحربية « ريزوليوت » ، وكانت تحمل ثمانية وثلاثين مدفعا ، ويقودها الكابتن نولان . .

ولما صعدت مع آن إلى ظهر السفينة ، رأت الفتاة روچرز يودع الجماهير ، فسألتنى عنه ، ثم التفتت نحو

www.ibtesama.com

بوتر ، وقالت وهى مقطبة الجبين : من يكون هذا الرجل ، وما اسمه ؟

قلت فى صوت يرتجف بعض الارتجاف : اسمه كاسمك يا آن . . اسمه بوتر !

ورفعت أنظارها إلىّ ، وقالت : وهل ذهب يوما إلى المكان الذى كنت أعيش فيه ، هل فعل ذلك ؟

وكانت آن قد انقطعت عن النطق باسم آل جارفين بعد أول يوم قضته مع مسز مارتن .

قلت : أعتقد أنه ذهب مرة واحدة .. برفقتك يا آن !

وقدتها إلى الجانب الآخر ، بعيدا عن صخب المسافرين وضجيج وداعهم ، وفى هدوء جاف عرفتها أن بوتر أبوها . .

وتقبلت الفتاة الخبر بثبات ، وقالت ساهمة : أجل ، كان أولئك الناس يلعنونه كل يوم لتقصيره فى دفع نفقاتى ، وأخبرونى أن لى أما أيضا ، ولكنها لا تريدنى . . فهل تحب أن أناديه « أبى » ؟

قلت : لست أدرى فى الواقع ، ولكنه حقيقة أبوك ، فلا مانع من أن تناديه كذلك .

www.ibtesama.com

قالت : سأفعل يا مستر تاون .

ورأيت پوتر فى هذه اللحظة يرمينا بنظرات جانبية ، وما إن شرعنا فى الابتعاد عن سور البارجة ، حتى أقبل علينا ، وقال للفتاة وهو يضع يده على كتفها : أتعرفيننى ، يا آن ؟

قالت بصوت يخلو من أدنى تعبير عاطفى : أجل ، يا أبى !

قال : مرحى . . إننى الآن مشغول يا عزيزتى ، ولكننا سنجد خلال الرحلة أوسع الفرص لزيادة معرفتنا . .

وتمنيت فى قرارة قلبى ألا يحدث ذلك .. تمنيت ألا تسنح الفرص لآن بمعرفته على حقيقته ، لا خلال الرحلة ، ولا بعدها !

ولكنى شعرت بالارتياح حين انتهت المقابلة الأولى بسلام ، وتأتى لكل منهما أن يواجه الآخر ، ويبادله كلمة ، دون إحراج أو انفعال من أحد الطرفين . .

وكانت الرحلة على العموم مرضية ، والمرح يسودها حين نجتمع ثلاث مرات فى اليوم حول مائدة القائد ، ولا تضعف معنوياتنا أمام البرد القارس . . ولا الأمواج الرمادية الضخمة التى تهاجم البارجة باستمرار فترجها

www.ibtesama.com

رجّا .. ولا طبقات الجليد التى تراكمت فوق جوانب السفينة وصواريها ومدافعها وحبالها .. فهذه المتاعب كلها ، لم تؤثر فينا ، ولم تقلل من رغبتنا فى الاستمتاع بالرحلة ..

وأعتقد أن پوتر شعر بسعادة مضاعفة ، لتحرره من قيود الشاطئ ، خصوصا فيما يتصل بالشراب .. فهذا الرجل الذى جردته الطبيعة من القدرة على الحب ، فانعدمت عاطفته نحو كل إنسان وكل شىء فى الدنيا حتى بيته ووطنه ، . كان يحب الروم من أعماق قلبه ، وبمنتهى الصدق والإخلاص .. وعندما تقع عيناه على زجاجة الشراب ، يومض فيهما بريق الهيام ، وينشرح صدره ، وترن ضحكاته عامرة بالسعادة .. وإذا اختفت الزجاجة ، يذوى ويذبل مثل العاشق المهجور .. فالرابطة الوحيدة الصادقة التى عرفها فى حياته ، كانت مع الزجاجة ، لذلك سعدت حياته على البارجة حيث يكثر الروم !

وكانت آن سعيدة أيضا ، لأن السعادة طابع هذه المخلوقة الصغيرة ، فالاضطهاد الأسود الذى لقيته فى كنف آل جارفين ، انقشعت غيومه عنها ، وتركتها هادئة ودوداً ، تميل إلى المجاملة ، وتتحمس للطاعة .. وتعلمت

كيف تبتسم عن رضا ترتاح إليه العينان ، ولم تُبدِ بعد اليوم الأول أدنى اهتمام ببوتر ، ولا أظهرت ما ينم عن تفكيرها فى أمره ؛ ولم يكن يحلو لها أكثر من أن تجلس بجانبي وأنا أقرأ لها فى كتاب « رحلات جليڤر » ، فإذا أسمعتها فقرة طريفة ، تضحك بطريقة جميلة ، تجعلنى أعيد قراءة الفقرة مرتين ، لأسمعها تضحك مرتين !

وبينما نحن نجلس فى القاعة الكبرى عصر ذات يوم ، والمقاعد تتأرجح تحتنا بفعل ثورة البحر وغضب الأمواج ، سألنى پوتر قائلا : ألا تجد يا صديقى العزيز ما تقرؤه سوى جليڤر ؟

قلت : ما من كتاب آخر يرتقى إلى جودته ، فبمجرد أن تعى المعانى الواردة فيه ، يتكشف لك الستر عن العالم ومن فيه ، فترى الناس على حقائقهم ، ويظهر لك سخف أفعالهم .. تدرك غباء الحرب وتفاهة بناء البوارج والقلاع .. جنون الأحزاب السياسية ، ومهزلة الطبقة الراقية ، وحطة نكران الجميل ..

قال پوتر — وهو يصب فى قدحه مزيدا من الروم : ما أطيبك ، ياصديقى .. ولكن كيف يتأتى لطفلة مثلها أن تفهم هذه الأمور العويصة ؟

www.ibtesama.com

قلت : بذات الطريقة التى يفهمها الكبار . . بالتكرار .

والتفت إلى الفتاة أسألها : ماذا نعنى ، يا آن ، حين نصف رجلا بأنه يرقص على الحبل ؟

قالت : نعنى أنه يفعل أمام الناس أموراً بغيضة تكسبه رضا أسياده .

قلت : صدقت . وهل فى إنجلترا من يرقص على الحبل ؟

قالت : علمت منك أن وزراء الملك يفعلون ذلك ، ولكن ألا يرقص على الحبل غيرهم من الناس ؟

قال پوتر فى رنة الاغتباط : بلى ، يا عزيزتى . . كثيرون غيرهم يرقصون على الحبل .

ولكن اهتمامه بابنته لم يدم سوى هذه اللحظة القصيرة ، وبعدها تحولت نظراته العامرة بالعطف إلى الزجاجة الماثلة أمامه ، فمد يده إليها يملأ قدحه من جديد .

وعدت إلى كتاب جليڤر أقرأ لآن مرة أخرى ، وكوفئت على جهدى بضحكة جميلة رنت صافية خالصة ، كأن صاحبتها لم تعرف فى حياتها شارع كاسل ، ولم تقض يوماً واحداً فى جحيمه المستعر .

* * *

www.ibtesama.com

عاش روچرز طوال الرحلة فى مرح شديد ، وهو أمر طبيعى بعد أن انتهى غزوه لمدينة لندن بنصر ساحق ، وأصبح الآن فى طريقه إلى رحلة مثيرة يتوقع أن تأتيه بالشهرة والمجد والثراء .

ولو كنت ممن يحسدون غيرهم على نعم الله ، لشعرت بالغيرة من روچرز أكثر من أى إنسان آخر فى الدنيا . فالواقع أنه نال نصيب الأسد من نعم الظروف .. فقد استطاع أن يقفز فجأة من صاغ فى قوات المتطوعين إلى مكانة عالية يُحتمل أن تحيطه بهالة من العظمة والشهرة ، وتضعه جنبا إلى جنب مع أمثال كلايف وبيت . . وفوق ذلك ألف كتابين وتمثيلية ، وعين حاكماً لأهم مناطق شمال أمريكا ، وإذا تحققت آماله ، يدخل التاريخ من ذات الباب الذى دخل منه بناة الإمبراطوريات وعظماء المستكشفين . . فضلا عما يتميز به من صفات قلما تجتمع فى رجل واحد . . فقد كان قوياً جريئا . . مرحاً . . شجاعاً . . مثابراً على العمل ، لا يكل ولا يمل . . قديراً على تحقيق أبعد الآمال . . شديد المراس لا يغلب على أمره . . وإنها لشخصية تستحق أعظم التقدير ممن يعرفون قيم الرجال .

www.ibtesama.com

وجدير بالذكر أنه على طول الرحلة لم يكف عن الاحتفال بمشروعاته الزاهرة .. وفى كل مرة ينتهزها فرصة ، ويفتح زجاجة جديدة من الروم .. لا لجنونه بالشراب مثل بوتر ، ولكن لأن الشراب على حد قوله يجعله أرق طبعا ، ويزيده حبًّا فى كل شىء وكل إنسان ، خصوصا نفسه .. وكنت أراه ليلة بعد ليلة ، يجلس إلى المائدة ، وكئوس الروم لا تنقطع من أمامه ، ثم تميل مقدمة البارجة بفعل الأمواج ، فيسقط بوتر من مقعده إلى الأرض ، ويظل مكانه غير قادر على الحركة ، حتى ينهض إليه روجرز ، وينتزعه من رقدته ، ويرمى به إلى فراشه .. وبعد ذلك يعود إلى المائدة .. وإذا وجد منى أو من القبطان استعدادا لمجالسته ، يواصل الشراب إلى ساعة متأخرة من الليل .

وفى ليلة عيد الميلاد ، ارتدى ملابس « بابانويل » وطاف بالركاب ضاحكا صاخبا . مهللا ، وعبير الروم يفوح من فمه .. وفى الصباح استيقظ مرحا منتعشا ، وتسلق الحبال المستعرضة مع البحارة ، وساعدهم بقبضته الهائلة على تهشيم الجليد المتراكم على الصوارى ، وساهم فى طى القلوع بمهارة الجندى المدرب .. ولا غرابة ، فالرجل

www.ibtesama.com

كان دائما معجزة : يغالى فى إتقان كل ما يأتيه من عمل ، ويفرط فى الأكل مثلما يفرط فى الشرب ، وينام لفوره حالما يرقد على فراشه ، ويظل نائما حسبما يشاء ، ويتكلم بحماسة ترهق السامعين .

* * *

وغمرتنى السعادة مثل غيرى . . السعادة بقرب عودتى إلى وطنى ، وبقرب بلوغى غايتى التى توجهت إليها بكل جهودى طوال السنوات الأربع الأخيرة . . وسعدت أيضا بثقتى فى قدرتى على إتيان عمل مجيد . . وبهدوء مشاعرى بعدما عانيته من عذاب على أثر زواج روچرز بإليزابث .

ولو سألونى فى ذاك الحين عن الأسباب الحقيقية لهدوء مشاعرى بعد ثورتها ، ما استطعت أن أجد للأمر تفسيرا واضحا سوى الواقع الذى أعيش فيه . . وهو أن شعورى لم يعد موجعا متغلغلا . . محرقا . . وإحساسى بالحرمان من مباهج الحياة خفت حدته . . وزايلنى القلق المستمر . . وباتت الأيام تمضى وذهنى بعيد عن حبيبتى ، ولا أذكر أننى فكرت فى إليزابيث ، ولو مرة واحدة خلال ، الرحلة . إنما عشت تلك الأيام خالى البال راضيا ، مثل أكثر الناس مرحا فى هذه الدنيا .

ووجدت فى الرحلة ما أنشده من أسباب المتعة .. البحر

www.ibtesama.com

الصاخب الذى يمتد طويلا ، حتى يغسل شواطئ كيتارى أمام بيت أبى . . وأصوات البحارة وهى تعلو فى نبرات جشاء . . وشعرت بالرضا وأنا أقرأ لآن وأستمتع بضحكاتها البريئة العذبة . . ويوم نجحت فى إبعادها عن أبيها حتى لا تتألم برؤيته فى أحط حالات سكره وعربدته ، خيل إلىّ أننى اهتديت إلى السبب فى حزنى الشديد على فراق بيلى ، الصبى الهندى ، الذى انتزعه روچرز منى . . فقد كان مصدر عذابى حرمانى من مسئوليته . . حرمانى من الشعور باعتماده الكلىّ علىّ ، الأمر الذى تكرر فى آن ، وجعلنى أعيش سعيدا بلذة مسئوليتى الكاملة نحو فتاة فقيرة بائسة .

* * *

بفعل الرياح الشمالية العاصفة ، قست أيامنا فى عرض البحر ، وطاردتنا الأمواج والأنواء العاتية ، ومع ذلك قضينا وقتا جميلا ، وبدت لنا الأيام أقصر ما قضيناه طوال عمرنا .

وفى مساء يوم أغبر من شهر يناير ، وبعد أربعة أسابيع كاملة منذ غادرنا لندن ، طالعتنا شواطئ لونج أيلاند المنخفضة الكالحة ، فأطلقت بارجتنا مدفعا من بطاريتها تحية لوصولنا إلى ميناء نيويورك ، وألقت بمرساها

www.ibtesama.com

بين أسطول من المراكب التجارية والسفن الحربية .

قال روچرز : لن نستطيع الإقدام على أى عمل قبل أن أقدم نفسى للقائد جيج ، فدعنا نذهب إلى فندق فراونسيز ، وبعد المقابلة نرسم خططنا . .

وما إن وضعت قدمىّ على الأرض ، حتى تبينت أننا ما زلنا على مبعدة من بيوتنا ، وليس فى الإمكان أن أعرف أخبار أهلى . . وسلط بحارة السفن الصغيرة أنظارهم علينا ونحن نهبط من البارجة إلى الميناء ، ولابد أنهم ظنّونا إنجليزاً ، وإلا ما صاح أحدهم قائلا : « لعنة الله عليكم ، وعلى ضريبة دمغتكم » . وشعرنا بالضيق أثناء إقامتنا بفندق فراونسيز ، لشعور العداء الذى غمرنا به الناس جميعهم ، من الخادم إلى النزيل . .

وظل الأمر على هذه الحال ، حتى تبينوا أننا أمريكيون ، خلاف ما تدل عليه ملابسنا ، ولما عرفوا أن أحد القادمين الجدد هو الصاغ العظيم روچرز ، دهشنا لما أبدوه من حماسة فى تحيته وخطب وده ، ولم يترددوا فى الإفصاح له عن حقدهم العظيم على إنجلترا ، بسبب ضريبة الدمغة ، التى أوغرت صدورهم على الحكومة الإنجليزية ووزرائها .

www.ibtesama.com

وعجبت حين اكتشفت أن الناس جميعهم ، حتى خدم الفندق ، يعرفون أكثر منى أسماء المسئولين عن ضريبة الدمغة ، ويحمّلون القائد آمهرست وزر الظلم الواقع على الأمريكيين من كافة النواحى .. وكانوا يظهرون أشد الاحتقار والكراهية لتشارلز تاوسند ، ويعتبرون بت أخبث منه وأقبح ، ويتحدثون عن دراية تامة بأمر الضريبة على الشعب ، وكيف أنها رفعت ثمن استمارة التأمين من جنيهين إلى مائة وثمانين جنيها ، الأمر الذى يضر أبلغ الضرر بأحوال اليتامى والمحتاجين والأرامل .

ووجدت الثورة على هذا الظلم جامعة شاملة ، والناس لا يملّون التحدث فى موضوع ضريبة الدمغة ، ويعيدون الكلام مرة بعد أخرى ، ولا يضيرهم أن يقضوا فيه الساعات الطويلة .. فغضبهم الشديد لهذا الظلم ، جعلهم يتصورون أن التكرار يأتيهم بجديد من أسباب التعبير عن أنفسهم ، ويرفع أصواتهم عاليا إلى آذان المسئولين وعقولهم . ومن صميم هذه الثورة الشاملة ، انبعثت عزيمتهم قوية راسخة ، واجتمعت رغبتهم على مقاومة أطماع الوزراء الإنجليز الأغبياء ، والحيلولة بينهم وبين تبديد أموال

www.ibtesama.com

الأمريكيين في ضرائب لا فائدة منها . .

* * *

عند عودة روجرز إلى الفندق على أثر زيارته للقائد جيج ، لم ترتح نفسى إلى النظرة التى ارتسمت على وجهه . . فقد ابتسم لى بفمه فقط ، وظلت عيناه الباهتتان فى جمود قاسٍ مثلما رأيتهما يوم أخذه اليأس وهو يثبت العائمة على سطح البحيرة عند شلالات داتوكيتشى . .

وانتحى بى ركنا بعيداً عن پوتر وقال : الأفضل أن تذهب إلى أهلك بكيتارى ، فأنا مضطر إلى مقابلة چونسون حيث يوجد الآن بأرض الموهوك ، وعندما أتكشف نواياه فى شئون الهنود ، أعود إلى پورتسموث .

وسكت برهة ثم سعل وقال : لا تنطق بكلمة عن الممر الشمالى الغربى ، لا تُشِرْ إليه من قريب أو بعيد ، فالمصلحة تقضى فى الوقت الحاضر بالتكتم الشديد .

قلت: هل تشاحنت مع القائد جيج ؟

قال متجاهلا سؤالى : لست أقصد بالطبع مسألة تعيينى حاكماً لميكيليماكيناك ، فأنت حر فى ذكرها للجميع ، والأفضل أن تخبرهم بكل ما لديك عن هذا الموضوع ، ويحسن أن تنشر الصحافة شيئا عن منصبى الجديد .

www.ibtesama.com

قلت : يسرنى أن القائد جيج لم يضع العراقيل فى سبيل تعيينك .

قال روچرز ، وهو يضحك بمرارة : جيج ؟ هذه البومة الشحيمة ذات الرأس الفارغ الحقير ؟ لم يكن فى مقدوره أن يقاوم تعييننا صدر من الملك . . إنه أتفه من ذلك . . ولو كان الأمر بيده لحرمنى من المنصب ، ولكننى أقوى منه فى هذه الآونة ، وقد وافق على التعيين مرغما . . وافق حتى يحين الوقت المناسب فيظهر على حقيقته . . إن الأسلوب الذى اتبعه معى يدل على مكيدة خبيثة يبيتها مع الآخر .

واستطرد – وعضلات فكّيه تتصلب : إنهما فى أشد الشوق إلى قطع رقبتى ، فأمنيتهما الوحيدة أن يستأثرا بالاستيلاء على أمريكا كلها . . يريدان أن ينسب إليهما الفضل فى كل ما يحدث هنا ، ولعلهما اليوم ناقمان على الملك ، لإقحامه رجلا شهيراً مثلى ، يعرف أضعاف ما يعرفان فى فن التعامل مع الهنود .

قلت : أليس فى المستطاع أن تكتسب مودتهما وتتعاون معهما ؟

صاح روچرز يقول : مودة چونسون ؟ لك الله ، أيها

www.ibtesama.com

الرجل الساذج . . إن مودة الثعابين أسهل منالا وأسلم عاقبة ! . . ألم أحدثك بمدى كراهية چونسون لآمهرست؟ . . هذا الرجل حقود بكل ما فى هذه الكلمة من معنى ، ومتى كره أحداً ، يظل يكرهه إلى آخر لحظة من حياته . . يكرهه ، ويكرهه ، ويكرهه . . ويكره أصدقاءه وأعوانه والمتصلين به من قريب أو بعيد . . ويكفى أن أكون على صداقة بآمهرست ، ليصب جام حقده على رأسى . . هذه طبيعة الهندى التى اكتسبها لطول ما عاشر النساء الهنديات . . فالهندى لا ينسى ولا يغفر . . يحتفظ بالبغضاء فى قلبه سنين وسنين ، ويأبى أن يتخلى عن حقده وإن طال الزمن ، وقد يدمر نفسه تدميراً فى سبيل الانتقام إذا اضطره الأمر . . وجيج مثلهم تماماً ، يفكر بأسلوبهم ، ويتخلق بأخلاقهم ، والقمر أقرب إلى من تسامحه وغفرانه .

والتمعت عيناه ببريق الغضب الشديد ، وقال — وهو يهز كتفيه : لست أطلب من الله سوى أن يوفقنى لإقناعهم بتعيين مساعد لى . . فمنصبى الجديد يحول دون سفرى إلى الممر الشمالى الغربى ، وسبيلى الوحيد إلى ذلك أن يكون لى نائب يقوم عنى بالعمل إبان غيبتى ، ولسوف أنتزعه منهم بأى ثمن ! .

* * *

www.ibtesama.com

حينما سافر روچرز وناتى إلى أعالى نهر الهدسون لزيارة چونسون ، استقللت سفينة منتصف الأسبوع ، وأخذت آن معى إلى بوسطون . . وبالرغم من قسوة البرد فى ميناء بوسطون ، وتراكم الجليد على الجزر الصغيرة المتاخمة لها ، بدت لنا المدينة واسعة مترامية الأطراف . . وهبت علينا نسائمها منعشة نظيفة ، الأمر الذى جعلنى أستهين بالبرد ، وأواجه لفحاته ضاحكا مستبشراً . . واستيقظت فىّ روح الصخب ، فوجدتنى أبالغ فى الضحك وأثرثر بصوت أعلى مما يجب . . وأعتقـــد أنها أمريكا ، فعناصر الحياة فيها تدفع إلى المبالغة فى الناس والأشياء سواء بسواء . . لهذا تلمع أوراق الأشجار فى الخريف ، ويتصاعد عبير النبات فى الربيع . . البرد يزداد قسوة عنه فى البلاد الأخرى ، والحر يرتفع إلى درجة غير معقولة . . النشاط يرتقى ببعض الرجال إلى السماء ، والكسل ينحدر ببعضهم الآخر إلى أسفل السافلين . . الكرم يفوق الوصف ، والبخل لا يماثله بخل . . الثقة المفرطة وبجانبها الشك الفظيع . . وفى بلادنا — دون غيرها — تتضخم إنجليزية الإنجليز ، وتظهر فردية الإيرلنديين ، وتنكشف خصائص اليهود والألمان والفرنسيين . فعناصر الحياة فى أمريكا لها قدرة على إظهار خصال الناس

www.ibtesama.com

وطبائع الأشياء فى إطار أشد وضوحا منه فى العالم أجمع .

وما إن هبطت إلى الشاطئ ، حتى أسرعت فى البحث عن صديقى كوپلى ، لأطمئن على أحواله ، وأسمع منه أخبار پورتسموث دون أسئلة محرجة .

وعلمت أنه أصبح علماً مشهورا ، وبهذه الصفة أمكننى الاستدلال على مسكنه بسهولة ، ذلك البيت الصغير المبنى من القرميد الأحمر ، فوق ربوة تطل على المنحدرات الجليدية الممتدة إلى منطقة كومنون ، ومنها إلى جبال دوشستر وروكسبارى .

ووجدته على حاله القديم لم يتغير .

هيئته كما كانت يوم رأيته لآخر مرة فى پورتسموث ، ولم يبد فيه جديد سوى شعره المصفف بعناية ، وصديريته ذات الألون الزاهية . . ولما هبط الدرج ورآنى أقف فى البهو ، خيل إلىّ كأن عينيه تقفزان من محجريهما . . ولعله تصور فى نعيم وحدته ، أننى عدت إلى الوطن فقيرا حزينا ؛ إذ كنت أندثر بمعطف أسود طويل على الطراز اللندنى الحديث ، ولكن الناس فى البلاد الأخرى يعتبرونه جلبابا للنوم . . وكذلك آن ، فقد ظهرت من بين طيات شالها

www.ibtesama.com

المضفور ، وملحفتيها السميكتين ، نحيلة الجسم ، ضامرة الوجه والذراعين .

صاح بى كوپلى يقول : أيها الصديق العزيز ، من أين أتيت ؟ وماذا فعلت ؟ وكيف كنت ؟

وتسلطت نظراته على آن فى دهشة لم يلبث أن تغلب عليها ، وقال لها : لعلك فى احتياج إلى قدح من الشاى ؟

قلت أجيبه عنها : بل لبن . . لبن وفطيرة أمريكية . . هذه الآنسة الصغيرة ابنة سكرتير الصاغ روچرز .

التفت إليها أقول : أتعلمين ، يا آن ، أنه لولا مستر كوپلى ما عثرت عليك ، ولا تأتى لك أن تعرفى الفطائر الأمريكية ! .

ورفعت آن الملحفتين عن جسدها ، وانحنت لمضيفنا بطريقة رشيقة ، كأنها تعلمت أصول الأناقة منذ نعومة أظفارها .

وتركناها تجلس بجوار الموقد فى الغرفة الخارجية ، وأمامها كوب اللبن وثلاث فطائر شهية ، وصعدنا نحن الاثنين إلى الرسم بالطابق العلوى .

قال كوپلى ونحن نصعد الدرج : فهمت من حديثك

www.ibtesama.com

أنك كنت مع الصاغ فى لندن ، فلعلك لم تقرضه شيئا من مالك !

قلت : بل أنا الذى كنت فى أشد الاحتياج إلى النقود ، وقد عاملنى بمنتهى الرفق والمودة ، وأتى بى معه على ذات البارجة .

قال : أملى ألا تطول إقامته بين ظهرانينا !

قلت : لا تكن قاسياً فى حكمك على الصاغ ، وتذكر أنه جندى باسل ، وعن قريب يسترد مجده ويعود بطلا مرة أخرى . . فقد نصبوه حاكما لمنطقة ميكيلماكيناك .

قال كوبلى – وهو يفتح باب المرسم : لسوف يسعد زوجته أن تعرف بهذا الخبر .

ولما انفتح الباب أمامى ، وجدتنى – دون أن أشعر – أركز اهتمامى فى الصور المعلقة على مختلف الحوامل ، تحت الأضواء الخافتة المنبعثة من النوافذ الشمالية . . وفى صورة منها طالعنى رجل كهل ، عيناه زرقاوان ضيقتان ، وشعره الأبيض المستعار مرشوش بمسحوق أبيض سقط جانب منه على كتف معطفه ذى اللون البنى ؛ وكان يسند ذراعه على ما يشبه الجدار الحجرى ، ويضع يده على صدره . .

www.ibtesama.com

ورأيت فى يده مظاهر الرخاء والأناقة ، من أصابع ناعمة ، وأظافر مطلية ، وجلد شديد الشفافية ، حتى لتظن أن وخزة دبوس تدميه .

وكانت الصورة الأخرى لامرأة عجوز ، تغطى رأسها بقلنسوة بيضاء ، وترتدى ثوبا حريريا فى لون الزيتون . . حول عنقها بنيقة شفافة مطرزة ، وعلى كُمَّيها سواران منقوشان يختفى تحتهما الجانب الأكبر من قفازها الأبيض . . فى شكلها العام ما يوحى بالأصالة والعراقة والكمال ، مع سماحة أهل نيوانجلند وتقشفهم .

وطفت بعينىّ حول الجدران ، فاسترعت اهتمامى لوحة لصبى صغير ، يقف بجوار منضدة عليها سنجاب من النوع الطائر .

قلت — وأنا أتطلع إلى كوبلى بغاية الإعجاب : والله ما رأيت فى لندن أجمل من هذه اللوحات ، ولا أظنك استقيت هذا الفن الرفيع من بلا كبورن ، فما رأيه فيها ، وبماذا علق عليها ؟

قال فى وجوم : لم تعجبه ، وقد أفصح لى عن ذلك بصراحة . . وخُيِّل إلىّ أنها أغضبته ، إذ بعدها ترك بوسطون ، واختفى فى مكان ما .

www.ibtesama.com

قلت : وهذا لا يدهشنى ، فقد رأى أمامه معجزة فنية ، والمسكين ليس من أهل المعجزات . . إن لوحاتك أمريكية صميمة . . والناس الذين يظهرون فيها ولدوا فى نيوانجلند ، وشبوا بين ربوعها . . فيهم تظهر شخصية المنطقة ، وإحساس أهلها ومشاعرهم .

قال : يسعدنى أن تعجب بهذه اللوحات .

قلت : وهل كنت تشك فى ذلك ؟ لك الله ، يا سيدى .. فأنت الذى أقنعتنى بالسفر إلى لندن ، و علمتنى أن الفن لا يتأتى فى غرف الجلوس .. لماذا لم تذهب أنت إلى هناك ؟ والله لو ذهبت لأغرقوك بما تستحق من إعجاب وتمجيد .

قال كوپلى — وهو يهز كتفيه : لماذا أذهب والرزق هنا يأتينى بسخاء ! ثلاثمائة جنيه فى العام ، أى ما يعادل تسعمائة فى إنجلترا .. إن التوفيق هناك غير مضمون ، ويحتمل أن أسافر وأنفق ألف جنيه ، وأضيّع من حياتى سنتين ، ثم أعود على أعقابى خائب الأمل مقهورا ! !

قلت : لن يضيع الوقت عبثا ، فمشاهدة لندن تجربة عظيمة فى حد ذاتها .. ولكن كم تتقاضى ثمنا للصورة ؟

www.ibtesama.com

قال : ثمانية جنيهات ، وأحياناً أربعة عشر .. ولكن المتوسط ثمانية ..

قلت : إصغ إلىّ ، واسمع ما يدفعون هناك .. أنا لم أكن معروفا فى لندن ، والپاستل الذى أرسم به لا قيمة له فى تقديرهم ، فالإنجليز لا يحبونه ولا يعترفون بقيمته .. ولكن الحظ أسعدنى بصديق واحد أعطانى ثلاثين جنيها لقاء الصورة الواحدة ، ورسمت له جميع أفراد أسرته .. وأنت تعلم كم أكره هذا النوع من الرسم ، ما لم يكن الشخص الذى أرسمه صديقاً عزيزاً ..

صاح كوپلى فى دهشة عظيمة : الصورة بثلاثين جنيها ؟ !

قلت : إن رينولدز يتقاضى ثلاثين لقاء الرأس وحده ، مائة وخمسين لصورة فى الحجم الكامل .. ولكثرة العروض التى تأتيه يستأجر اثنى عشر رجلا لطلاء أنسجة الصور بالألوان الأساسية .. إذا أردت أن ترسم أشخاصاً ، وتنال شهرة ذائعة ، فاذهب بالله عليك إلى لندن فى أقرب فرصة ..

قال — وهو يهز رأسه فى شك : لست أدرى !

ثم أشار بيده نحو جبال بيكون المائلة أمامه من بعيد ، وأردف يقول : لقد دفعت أول قسط من ثمن هذا السهل

www.ibtesama.com

الممتد إلى الجبل ، وعن قريب يصبح كله ملكى ، وفى نيتى أن أقيم هناك مزرعة أربى فيها ما يحلو لى .. فلست أريد أن أقضى حياتى أحمل الريشة وأحملق فى وجوه النساء ، وقلبى يحدثنى أننى لن أجد السعادة فى لندن .. فهل وجدتها أنت ؟!

قلت : فى آخر المدة فقط .. ومع ذلك لم تكن سعادة كاملة ، ولا يمكن أن تقارن بهذه البهجة العارمة التى أشعر بها الآن ، لعودتى إلى الوطن .. ولكننا لم نكن نتناقش فى موضوع السعادة ، ولا أظنك أغريتنى بالسفر إلى لندن رغبة فى إسعادى !

قال مؤمنا : الحقيقة أننى أفكر فى السفر إلى هناك ، وكثيرا ما أدهشنى كيف دفعتك إلى الذهاب ولم أذهب بنفسى .. قد أرسل صورة الصبى والسنجاب ذات يوم إلى بنچامين وست ؛ لأعرف مدى تقديره لها .. إنه رجل كريم ، شديد العطف على الفنانين الناشئين ، و ..

وفجأة انقطع عن الحديث ، وانفجر ضاحكا وقال : دعك من أمورى ، فلست أشك فى أنك أشد شوقا إلى أخبار كيتارى ، وتريد أن تعرف أنباء أهلك وأصحابك ..

قلت : طبعا ..

www.ibtesama.com

قال : وصلتنى آخر الأنباء هذا الأسبوع من كابتن هوف ، وعلمت منه أن أهلك جميعاً فى صحة جيدة .. وقال : إن كيتارى لم تعد المكان الذى يجد فيه الإنسان المرح حاجته من المتعة ، ولعلك تذكر كيف ثارت عليك إحدى جميلات بورتسموث ، وأقامت الدنيا وأقعدتها لعلاقتك بهذا الرجل ، فهل تريد أن تسمع أنباءها أيضا ؟

وخشيت فى هذه اللحظة أن تبدو علىّ مظاهر الحرج ، فالحقيقة أننى منذ أصبحت قريبا من البزابيث ، شعرت بنبضات قلبى تسرع قليلا عن المعتاد .

قلت أصطنع الفتور : يسرنى أن أسمع أنباءها ، فهى صديقة قديمة عزيزة ..

قال فى عطف : ألم تبرأ من حبك لها بعد ؟ أو لعلك برأت تقريبا لا تماما ؟

ثم أردف يقول بسرعة : على كل حال ، عندما تراها ستجد ..

قلت أقاطعه : أتغيرت كثيرا ؟

قال : لا ، لم تتغير ، ولكن النواحى الخفية من أخلاقها ، أصبحت اليوم واضحة للعيان .. وقد تشعر بالأسف على زوجها بعد أن تراها ..

www.ibtesama.com

قلت دهشا : ماكنت لأصدق يا كوپلى !

قال : لا . . لا . . ما كنت لتصدق . . إنها ما زالت على عهدها فى التقوى والفضيلة . . ما زالت تتيه عجباً لكونها تزوجت بطلا شهيراً . . من كان يصدق أن تتهاون إلى هذا الحد سيدة فى ظروفها ومركزها ، وتفرض نفسها على رجل ، كما فعلت ، لمجرد أن تصبح زوجة البطل .. وتتجلى المحنة فى هذه الأحوال حينما تكتشف المرأة بعد زواجها أن بطلها رجل غريب الأطوار ، وقد يكتشف هو أيضا فيها ذات العيب . . من دواعى الأسف أنها مخلوقة غير مريحة . . لو كان الصاغ هو الذى زارنى اليوم بدلاً منك ، وأتى بها فى رفقته ، فهل كان يستطيع أن يتركها فى الطابق الأسفل مثلما فعلت برفيقتك اللطيفة الوديعة ؟ مستحيل . . فإليزابيث لا تقبل هذا ، ولا يمكن إلا أن تصعد معه ، وتقضى الوقت كله فى تنظيم شعرها . . تستأثر بالحديث ، ولا تسمح لغيرها أن ينطق بكلمة ، مصممة على إثارة الاهتمام بها ولو بالقوة ، فكل ما يهمها أن تكون أبرز شخصية فى الجلسة . . صدقنى يا صاحبى ، إن جميلتك إليزابيث حقيقة هكذا !

www.ibtesama.com

قلت وقد استيقظ ضميرى : كدت أنسى أننى تركت الصبية وحدها بالطابق الأسفل ، ولقد حان موعد انصرافنا ، فدعنا نذهب إليها .

قال كوپلى ونحن نهبط الدرج : لا تظننى قاسيا على حسناء بورتسموث ، فلست أقصد بكلامى سوى أنها فخور بكونها زوجة الصاغ ، ولكنها ليست فخوراً بالصاغ نفسه !

ثم ضحك فى مودة ، وأردف يقول : لا تؤاخذنى إذا هنأتك بالخلاص منها . . فهل تغفر لى صراحتى ؟

قلت فى تمتمة سريعة : طبعا . . طبعا . . أنا .

وكنا قد وصلنا فى هذه اللحظة إلى باب غرفة الجلوس ، فاستوقفنا من ورائه صوت لا جدال فى أن صاحبته امرأة تافهة الشخصية ، فارغة العقل ، وكانت تقول : أرجوك . . حقيقة أرجوك ، فهذا أمر لا يقبله العقل . . كيف تشربين زجاجة من الجن ، زجاجة كاملة ؟ ! هذا جنون . . هذه وحشية خطيرة . ففى أعياد التتويج شربت قدحاً واحداً لا أكثر ، ومع ذلك دار رأسى ، ورأيت النجوم بالنهار . . لا . . لا . . أنا مضطرة لطردك ،

www.ibtesama.com

فأنت خطر على ياتى . وربما تسقطينها من فوق الدّرج العالى .. لقد رجوت الأيرل أن يأمر بتغطية الدرج بمادة أكثر لينا من المرمر ، ولكنه لم يستمع إلىّ . . والآن أخشى أن تسقطى فوقها ، فتشوهى رأسها ، وتجعليه مثل رأس والدها الأيرل ؟!

وحملق كوبلى فى وجهى فى دهشة بالغة ، ولما مدّ يده إلى قبضة الباب ، أوقفته عن الحركة ، فمن داخل الغرفة المغلقة أتانا صوت آخر لامرأة أثقل الخمر لسانها ، وسمعناها تقول ، إهانة . . هذه إهانة حقيرة شريرة . . فطوال السنوات الخمسين الماضية لم أنقطع ليلة عن شرب قدح أو قدحين ، ومع ذلك ربّيت . . نعم ربيت أبناء وبنات ، وأحسنت تربيتهم . . والآن تأتى امرأة سخيفة . . زوجة أيرل . . وتتهم سيدة فاضلة مثلى . . أنا مسز چارڤن . . بسرقة خمرها !

قال كوبلى — وقد عقدت الدهشة لسانه : من . . .

ولم يتم كلامه ، بل فتح الباب دفعة واحدة ، فوجدنا الغرفة خالية إلا من آن . . وكانت تجلس حيث تركناها معتدلة القامة . وحينما فوجئت بدخولنا ، قفزت واقفة على قدميها ، وبنظرة إلى وجهينا ، عرفت أننا سمعناها ،

www.ibtesama.com

فغلبها الخجل والارتباك ، ولكن لما وجدتنا نضحك ، ضحكت هي الأخرى معنا .

قال كوپلي – وهو يهز رأسه في وجوم : فنانان في أسرة واحدة ! هذا أمر خطير . . خطير جداً . . وقد يجلب المتاعب .

ونظرت آن إلى وجه مضيفنا فيما يشبه الخوف ، ثم لم تلبث أن ضحكت مرة أخرى .

** معرفتي **
www.ibtesama.com
منتديات مجلة الإبتسامة

www.ibtesama.com

الفصل العاشر

عند عودتى إلى بورتسموث وكيتارى ، كنت أتوقع أن أجد تغيّراً فى كل شىء ، ولو بقدر ما تغيرت أنا خلال السنوات الخمس الماضية .

تصورت أن المدينة لا بد قد اتسعت مثلما اتسعت نظرتى إلى الحياة وازدادت تسامحا ، وبنيت من الأوهام قصورا لا وجود لها ، فخيل إلىّ أننى ما دمت قد اكتسبت إبان غيبتى مزيداً من القدرة على المعرفة ، وتضاعفت خبرتى بالناس والكتب والفن والسياسة ، فلا بد أن تلقانى كيتارى بذات الشوق الذى أعود به إليها . .

ولكن خاب أملى حين تبينت أنه — فيما عدا أسرتى — لم يبدُ على أحد أنه شعر بغيبتى . .

وكان أولهم سيلاس ماسون ، البحار الذى نقلنى وآن عبر النهر إلى شاطئ كيتارى ، فقد وجدته يقود ذات السفينة التى تركته فيها قبل خمس سنوات . . شكله لم يتغير . . وأنفه مازال على احمراره وانتفاخه كعهدى به من قبل . .

www.ibtesama.com

وتطلع إلى السماء بطريقته المألوفة ، وحيانى ببساطة كأننى لم أغب عنه سوى يوم واحد .

قال بفتور – وهو ينظم حقائبنا فى سفينته : كيف حالك ، يا لانجدون ؟ البرد مازال يقبل من الجنوب الغربى ، ويحتمل أن يسقط مزيد من الثلج . .

ولم يتكلم ثانية حتى صرنا فى عرض النهر ، وعندئذ قال : كيف الأحوال فى بوسطون ؟

فبوسطون كانت فى نظره آخر حدود العالم الذى يعرفه . .

قلت : صافيةُ السماء ، شديدة البرد . .

قال فى امتعاض : حقا ؟ . . من حسن حظى أننى لا أكثر من التردد عليها مثلك ، فأنا لا أحب الضجيج ، وبوسطون أصبحت غاصة بالناس فى هذه الأيام ، وكلما سرت فيها خطوة تصطدم بغيرك ، ويدهشنى كيف تحتمل الحياة فيها .

قلت أرضيه : صدقت ، فالحياة فيها قاسية متعبة .

وبدت عليه علائم الارتياح لإجابتى .

وبعد قليل ظهرت لنا معالم كيتارى ، فوجدتها على حالها القديم لم تتغير . . بيوتها البيضاء تتناثر بين أرجائها

www.ibtesama.com

دون انتظام ، شأن الأبنية المؤقتة التى تقام على شواطئ الأنهار فى فصل الشتاء . . ولم أر بينها بيتاً حديثاً واحداً . . فجميعها عتيقة الطراز مغبرة ، الأمر الذى جعلنى أشعر كأننى أنا أيضاً تقمصت روحها ، وعدت إلى سيرتى الماضية : فتى يمضى فى الحياة بلا أمل أو هدف .

وأخذ هذا الشعور يزداد فى نفسى شيئاً فشيئا ، حتى غلبنى تماما ونحن نرسو أمام بابنا ، وخيل إلىّ أننى لانجدون الشاب ، أعود إلى البيت بعد أسبوع قضيته فى صيد السمك .

وأعتقد أن أهلى ، بعد ما انتهوا من الترحيب بى ، خامرهم ذات الشعور نحوى ، واعتبرونى ، فيما بينهم وبين أنفسهم ، كما كنت يوم تركتهم فقيراً حزيناً مخدوعاً ، لا أعرف لى طريقاً أو مصيراً .

هكذا نيوانجلند ، وهذا طابع أهلها ، فالواحد منهم قد يغيب عن قريته سنين طويلة . . وقد يتغير إبان غيبته تغيراً شاملا ، ولكن أهل قريته — ومن بينهم أفراد أسرته — يتجاهلون غيابه وتغيره ، ويأخذونه على سابق عهده بهم ، الأمر الذى يدل على فرط تعلق أبناء نيوانجلند

www.ibtesama.com

بوطنهم ، ونفورهم من الاعتراف بأى تغير يطرأ على أحد منهم .

والواقع أننى شعرت بمزيد من الحيرة إزاء هذه الفلسفة القروية العجيبة ، وظللت فى حيرتى حتى بدأ أبى يتحدث عن ضريبة الدمغة ، وعلا صوته فى غضب وهو يسألنى عما يقصده وزراء إنجلترا بظلم الأمريكيين ، وهل لم يدركوا بعد أن الناس لن يحتملوا طويلا مثل هذه التصرفات الجائرة .

وتبينت أن الحنق الذى لمسته فى نيويورك ، لا يعتبر شيئاً مذكوراً بالقياس إلى ثورة أهل نيوانجلند على الحكومة الإنجليزية الفاسدة ، وقصر نظر ساستها ، وضعف تقديرهم للأمور . . ووجدت صدرى يفيض بالغبطة حين روى لى أخى أودريون بغاية الحماسة كيف تجمع أهالى بورتسموث ، وساروا بقيادة كامب هوف إلى مكتب چورچ ميزرف مدير الدمغة ؛ وبعد أن ألزموه بالاستقالة ، صلبوه على سيف ، وطافوا به شوارع البلدة . . وسررت غاية السرور بما سمعت ، وشعرت بالفخار لانتمائى إلى هذه البلدة الباسلة ، وعندئذ فقط عرفت أننى لم أتغير فى

www.ibtesama.com

عناصرى الرئيسية بالقدر الذى كنت أتصوره فى أثناء وجودى فى لندن . .

وتعهدت أمى بآن ، ومع أننى رأيت الفتاة تستغرب ما حولها فى بداية الأمر ، وتعمل جهدها على ملازمتى ما استطاعت إلى ذلك سبيلا ، غير أنها لم تلبث أن روضت نفسها على حياتها الجديدة ، واقتبست طبائع أهل نيوانجلند وعاداتهم بمهارة تستحق الإعجاب . . والفضل فى ذلك يرجع إلى قدرتها على التقليد . . تلك الموهبة التى جعلت كوپلى يسميها فنانة ؛ فالواقع أنها كانت موهبة غريزية فيها ، تؤديها ببساطة مثلما تتنفس . .

ولم يمض على وجودها فى كيتارى أكثر من يومين ، حتى أصبحت تتكلم بلهجة أمى ، وتحاكيها فى تصرفاتها . . وفى صباح الأحد التالى لوصولنا ، ذهبت الفتاة إلى باب المطبخ ، وتطلعت منه إلى السماء ، وقالت : البرد يقبل من الجنوب الغربى ، ويحتمل أن يسقط مزيد من الثلج !

وكانت بهذه الجملة تقلد سيلاس ماسون ، وجاء تمثيلها متقنا إلى درجة جعلت أودريون يضحك حتى انسابت دموعه . . وتطلعت إليه آن بكل ثبات وبلا أدنى ارتباك .

www.ibtesama.com

فاطمأنت نفسى إلى أنها أصبحت من أهل نيوانجلند بالمعنى الكامل . .

وأخذت آن تماشى الظروف بلباقة ، وعندما يكون بالبيت ضيوف ، تهدأ وتتحرك بين أرجائه فى صمت كأنها شبح ، ثم تنطلق على سجيتها فى الأوقات الأخرى ، وتسلى أمى بالحديث ، وتمثل لها الكلام فى حوار يتغير فيه صوتها على أنواع مختلفة . . فمرة تقلد مسز پينيكر ، وأخرى تتقمص شخصية مسز مارتن أو الصاغ روچرز ، أو ربان البارجة . . وتفعل ذلك ببراعة تامة ، حتى ليخيل إليك أنها لا تقلد ، إنما تتحول بطريقة ما إلى الشخص الذى تقلده . .

ويبدو لى أنها أسرت إلى أمى بما كنت أعمله فى لندن ، ولا بد أن أمى حملت بدورها الأخبار إلى أبى . . والذى حدث على كل حال ، أنه فى رابع ليلة من وصولى ، سعل أبى بطريقة تدل على الارتباك ، ثم سألنى عما إذا كنت أحتفظ ببعض اللوحات التى رسمتها فى لندن . . وأخبرته بأننى بعت أفضل ما عندى ، ولم يبق معى سوى صورتين لآن قد يجد فيهما شبها كبيرا بها . . وأتيته

www.ibtesama.com

بالصورتين ، فحمل كلا منهما فى يد ، وأخذ يدرسهما تحت ضوء المصباح القائم فى وسط المائدة . .

قال أخيرا : آه . . لم أكن أتوقع هذا !

وجاءت أمى ووقفت خلفه ، وتأملت الصورتين طويلا ، ثم قالت : ماذا تنوى أن تفعل بهما يا لانجدون ؟

قلت : لا شىء ، يا أمى . .

قال أودريون : لا شىء ؟ لماذا رسمتهما إذا لم تكن بك حاجة إليهما ؟

قلت ــ وأنا واثق من أنه لن يستطيع فهم غرضى الحقيقى : الإجابة على سؤالك عسيرة ، فأحيانا أتقاضى نقودا لقاء صورة كهذه .

قال أبى : وكم تتقاضى لقاء واحدة من هذا القبيل ؟

قلت : قدر ما أستطيع . . وأحيانا لا تأتينى اللوحة بنقود على الإطلاق ، فالذين لا يحبون رسوم الأشخاص ، لا يشترونها مهما قلّ ثمنها . .

قال أبى ــ وهو ينظر إلىّ من فوق نظارته : سمعت من آن أن الناس لا يدفعون فى لوحاتك أكثر مما يكفى ضرورات حياتك ، فلماذا ظللت توافينا بأنباء رخائك ما دام حظك كان هكذا سيئا ؟

www.ibtesama.com

قلت : ولكنى كسبت ما يكفينى .

قال : أجل ، من حيث المبدأ ، ولكن لا تنس أنك قضيت هناك مدة ليست قصيرة ، وقد سمعت أمك من آن كيف وصفت لها صاحبة البيت الذى كنت تعيش فيه مرحلة ضيقك ، وكم مضت عليك أيام وليس لديك ما تشترى به طعامك .

وجرى هذا الحديث وآن تجلس فى ركن الغرفة ، تقبض يديها الواحدة بالأخرى على حجرها ... ولما التفتّ إليها غاضباً ، اعتراها خوف شديد ، فأخذتنى بها الشفقة وانفجرت ضاحكا . . وقلت بلا مبالاة : كلما ازداد الإنسان انهماكا فى العمل ؛ تضاءلت رغبته فى الطعام .

قال أبى — فى لهجة ساخرة : طبعاً . . طبعاً . . كثيرا ما سمعت أن الفنانين مجانين . . جميعهم بلا استثناء . . ثم هناك أمر آخر سمعته أمك من آن ، فالصبية تحب أن تتكلم عنك دائما ، وكان فيما ذكرته بحماسة ، أنك تمكنت من بيع رسومك كلها للنبلاء وتقاضيت ثمانمائة جنيه لقاء صور الهنود ، وثلاثين عن صورة لأحد اللوردات ؛ ومثلها عن لوحة لزوجته .

قلت : هذا ما حدث بالفعل ياسيدى . .

وتململ أبى فى مقعده وهو يتأملنى بتدقيق .

www.ibtesama.com

وصفر أخي في دهشة ، وانحنت أمي على تطريزها وتشاغلت به ؛ واكتسى وجه آن بمظاهر الهدوء والراحة .

وقفز أودريون واقفا . قال — وهو يشهق متعجباً :
ثمانمائة جنيه لقاء صور الجنود ؛ وثلاثون أخرى من أجل شخص واحد ؟

ثم صاح مهللا ، وأردف يقول : لو كنت منك ماتركت لندن طول عمرى !

والتفت أبي يقول له : أعتقد ذلك ، يا أودريون . . لوكنت مكانه ما عدت إلينا ، ولقضيت أيامك هناك تبيع الصور بحيث لاتترك لنفسك وقتا ترسم فيه . .

وعاد إلى الصورتين يتأملهما من جديد ، وقال — وهو ما زال ينظر إليهما : حسنا ، يا لانجدون . . أرانى مضطرا إلى الاعتراف بالحقيقة ، فلقد كنت أعتقد أن رغبتك فى الرسم تعود إلى كسلك وزهدك فى إرهاق نفسك بالعمل . . تصورت أن كرامتنا لاتسمح بأن يحترف ابننا الرسم ، ولكنى كنت مخطئا .

وخلع نظارته ، وأردف يقول وهو يمسحها : أما عن هاتين الصورتين فبودى لو أدفع ثروتى كلها مقابل أن تنسبا إلىّ .. إنه عمل عظيم . . عظيم جداً . . ويبدو لى أنك

www.ibtesama.com

تعرف مهمتك فى الحياة أكثر منا جميعاً ، ولست فى احتياج إلى توجيهنا على الإطلاق . .

* * *

بذلت غاية جهدى فى الابتعاد عن إليزابيث أطول وقت مستطاع ، ثم اضطررت فى آخر الأمر أن أذهب إليها ، راجيا أن تعيرنى الصبى الهندى بيلى ، لأجعله نموذجا لرسوم جديدة .. وقادتنى مربيتها الزنجية المعهودة إلى البهو الأمامى من بيت آل براون ، فطلبت منها ، تمشيا مع واجب اللياقة أن أقابل مسز براون .. لا إليزابيث .. مع أننى كنت أفضل لو ألقى الشيطان ولا ألقاها .. فالشيطان وإن كثرت ذنوبه مُسلٍّ ، بعكس هذه السيدة المملة السمجة ..

وأراد الحظ أن تكون مسز براون موجودة بالبيت ، وعند دخولى رأيتها تقف على رأس السلم ، وهى تكاد تعوم فى ثوب خوخىّ اللون واسع فضفاض زادها انتفاخا على انتفاخ ، حتى بدت كأنها ما زالت تحتفظ فى أحشائها بوجبات الشهر الأخير كلها ..

ووقعت أنظارها علىّ ، فأخذها الارتباك ، واستدارت لتعود على أعقابها ، ثم لم تجد فائدة من ذلك ، فغيرت رأيها

www.ibtesama.com

وأقبلت عليّ تحيينى بعصبية شديدة ، قالت : آه .. لانجدون .. إننى ..

وقبل أن تتم جملتها ، انسحبت إلى الجانب الخلفى من المنزل ، وسمعتها تنقر باب غرفة المكتب ، وتقول لزوجها : مستر براون .. مستر براون .. لقد جاءنا مستر لانجدون تاون .

وعجبت فى نفسى من هذا التكلف ، وتساءلت كم تحتاج هذه السيدة يا تُرى من السنين فى عشرة زوجها ، حتى يمكنها أن تناديه باسمه مجرداً من اللقب ؟

وفيما أنا أفكر فى هذا الأمر متضايقا ، تناهت إلى سمعى حركة آتية من أعلى الدرج ، ورأيت وجها يطل عليّ ، وكان وجه إليزابيث !

وهتفت بى تقول : سمعت أمى تردد اسمك ..

وهبطت الدرج مسرعة بطريقتها الرشيقة التى ما زلت أذكرها جيداً .. وكانت على عهدها لم تتغير ، فتعذر عليّ أن أفكر فيها كمتزوجة .. وأحسست بيدها فى يدى دافئة ناعمة .

قلت هامسا ، والعواطف تتضارب فى صدرى ، فتعقد

www.ibtesama.com

لسانى إلا عن ترديد اسمها : إليزابيث .. إليزابيث .. إليزابيث .

وظللت ممسكا بيدها ، حتى عادت أمها عائمة فى ثوبها الجوخى الفضفاض .

قالت مسز براون — وهى تقودنى إلى غرفة الجلوس : سيأتى زوجى بعد لحظة ، فدعنا نسمع أخبار الصاغ .. أين هو ؟ .. وماذا يفعل ؟ .. ثق أن تصرفاته هذه تسبب لابنتى .. مسز روچرز أشد القلق ..

قلت أسأل اليزابيث : ألم يكتب لك ؟ ألم يبعث إليك برسالة من نيويورك ؟

قالت فى ضيق : لم أتلق منه كلمة واحدة طوال الشهور الثلاثة الأخيرة .. فهل تعنى أنه حقيقة فى نيويورك ؟ .. متى ترك إنجلترا ، ولماذا تركها ؟ والله لست أفهم كيف يتجاهل مكانتى بهذه الصورة !

ورفعت منديلها إلى أنفها وهى تنشج ، ولفرط ذعرى تبينت أنها تتصرف مثل امرأة متزوجة ، وحتى نشيجها كانت له رنة الزواج ! !

قالت لها مسز براون : أرجوك ألا تستثيرى نفسك ، يا عزيزتى ..

www.ibtesama.com

والتفتت إلىّ تقول – وهى تزم شفتيها : ربما استطعنا أن نعرف منك الأسباب التى دعت الصاغ إلى المرح وتبديد المال فى لندن طول هذه المدة .. كأنه خالٍ من الديون ، وكأن زوجى لما يقاضه من أجل حقوقه . . ومع ذلك لم يستطع أن يحصل منه على شيء . . لماذا طالت إقامته هناك .. وكيف لم يكتب لابنتى ولو كلمة واحدة يبرر بها غيابه ومسلكه .. يا للعار .. يا للعار .. لقد جعل من سيرته حديث بورتسموث كلها ، ويمكنك أن تتصورى مدى الحرج الذى وضعنا فيه ..

وأقبل مستر براون مسرعا ، وصافحنى بيده الندية بالعرق ، قال – وعيناه تلمعان بالغضب : ما هذه الأخبار التى يرددونها عن الصاغ ؟ .. والله إنه كالشيطان يذرع الأرض جيئة وذهاباً ، ونحن آخر من يسمع بأنبائه ،ومن حقنا أن نكون أولهم .. فلقد أعلن أنه مسافر إلى الشرق الأقصى ، وإذا به يبحر إلى لندن . . أخجلنا أمام الناس وفضحنا وأحرجنا ، فأين هو الآن ، وهل بعث بك اليوم رسولا إلينا ؟

قلت : لا ، ياسيدى .. إنما جئتكم أستأذن إليزابيث أن تعيرنى بيلى لبضعة أيام .. أحب أن أجعله نموذجا للوحاتى الجديدة .. ولكنى أطمئنكم على الصاغ ، فهو على خير

www.ibtesama.com

حال ، وعما قريب تصلكم رسائله ، وأظنكم تعرفون أنه أصبح حاكما ..

قال مستر براون فى دهشة صادقة : أصبح حاكما ؟

وصاحت إليزابيث تقول : آه . . لقد نالها أخيراً . . نال أمنيته وأصبح حاكما ! . .

وأسرعت تلوذ بأمها ، ثم التفتت نحوى تقول باستعطاف : لماذا لم تخبرنى بذلك ؟ لا يمكنك أن تتصور مدى ما عانينا من قلق . . والله ، لقد احتملنا كثيراً ، وكنا كلما خرجنا من بيتنا ، نسمع الناس يتهامسون علينا . . وعلى أى منطقة أصبح حاكما ؟ . .

قلت : ميكيلياكيناك .

صاح مستر براون منزعجا : الله أكبر ! أليست هذه المنطقة فى آخر الدنيا ؟ دعنى أتذكر أين تقع هذه الميكيلياكيناك . . أظن . . أظن . . ولكن . . أتعرف كم يتقاضى الحاكم فيها ؟

قلت : لا ، لم أسمعه يتحدث عن راتبه .

قال براون فى ألم واضح : هكذا هو . . وهذه طبيعته الإيرلندية المجبولة على التهاون وعدم المبالاة . . ولكنه أصبح حاكماً على أية حال . . حسنا . . حسنا .

www.ibtesama.com

وسار إلى ابنته ، وقرصها فى خدها مدللا ، وقال : زوجة الحاكم !! لسوف تتغير الأمور يا عزيزتى .

وطوقت إليزابيث أمها بذراعيها ، ورسمت قبلة على عنقها ، ثم سارت إلى مقعد قريب ، وبعد أن نظمت ثوبها ، جلست منتصبة القامة . . وطافت بأصابعها الأنيقة على شعرها تنظمه فى عظمة وجلال .

قالت فى تعالٍ وتسامٍ : أسمعنا أخبار الحاكم يا لانجدون .. هل ذكرتمانى فى أحاديثكما كثيراً ؟ أم شغلتكما حسان لندن عن زوجة الحاكم ، فنسيتما تلك المسكينة التى بقيت وحدها فى بورتسموث ولا من ينبئها حتى بأنها أصبحت زوجة الحاكم ؟

وانحنت إلى الأمام قليلا ، وأردفت تقول فى صوت حاد ذهبت عنه رنة الوقار الأولى : أرأيته فى صحبة نساء ، وأى نوع من النساء كُنّ ؟

قلت : لم أره مع أحد .

قالت : يحتمل . . ولكنك سمعت أخباره بالطبع . . والله إنه لأمر مخجل . . ألا تعرف ماذا كتب چورج ميزرف لأهله عن الصاغ ؟ روى كثيراً عن مجالسه مع حسان لندن ، ومغامراته فى حاناتها المختلفة .

www.ibtesama.com

قلت ضاحكا : چورج ميزرف ؟ لا أظنه قابل الصاغ فى مكان من هذه الأمكنة . . وطبيعى أن يعرف الإنجليز نساءً ورجالا بوجود رجل شهير مثله فى لندن ، ولكن أحداً لم يحس بوجود چورج ميزرف . . لقد قام الصاغ هناك بتأليف كتابين وتمثيلية .

صاحت تقول فى رنة الدهشة : ألّف كتابين وتمثيلية ؟

وتساءل مستر براون فى دهشة مماثلة : ألف كتابين ؟ ! هـــذا والله أمر غير معقول ، ولكن ، هل لقى مؤلفاه نجاحا ، وكم يا ترى تقاضى عليهما ؟

قلت : لست أدرى .

ونظرت إلى وجوه الجالسين : مضيفى وزوجته وابنته ، فهبط قلبى لمظاهر الجشع الفظيع المتجلية فيها .

قلت — وأنا أستأذن فى الانصراف : بودى لو أعرتمونى بيلى لمدة أسبوع أو أسبوعين .

قال مستر براون — وهو يحاول أن ينتزع نفسه من جو الجشع الذى يعيش فيه : بيلى ؟ آه . . طبعا . . طبعا .. لو كان الصبى موجودا ما ترددنا لحظة فى إجابة طلبك ، ولكنى أرسلته إلى كونكورد . . فزوج ابنتى . .

www.ibtesama.com

الحاكم . . كان كما تعرف مغرقاً فى الإسراف ، الأمر الذى اضطرنى إلى التنازل بقبول ضيعته فى كونكورد . . أخذتها وعبيده الثلاثة مقابل جانب من حقوقى . . ومن أجل أن أتلافى متاعب الإجراءات القضائية ، نقلت ملكية الضيعة بمن عليها إلى ابنى ، حتى يشرف عليها لصالح ابنتى بالطبع .

قالت إليزابيث وقد استعادت جلال زوجة الحاكم : ولسوف أستعيد بيلى مراعاة لظروفى الجديدة . . وألبسه خير ثياب ، وأكلفه بفتح الباب لضيوفنا . . بل الأفضل أن أستعيده وأحد الزنجيين الآخرين ، حتى يسيرا لحراستى عند خروجى إلى الطريق ، فزوجات الحكام لسن كغيرهن من النساء . . ظروفهن تتطلب بعض الاعتبارات . .

قلت — وأنا أبلع ريقى بصعوبة : هل جعلتم من بيلى عبداً ؟

قالت : ما أعجب حديثك يا لانجدون ؟ أفلا تذكر أنه ملكى ؟

قلت : بلى !

وسرت إلى الباب ، ولكن مستر براون أوقفنى وقال : لحظة إن سمحت يا مستر تاون . . ماذا عن الرأى

www.ibtesama.com

العام هناك ؟ كان موقفك ولاشك محرجا ، فليس من السهل على الرجل الأمريكى أن يعيش فى إنجلترا رافع الرأس ، وأهل بلاده يحاسبون رجال التاج حسابا عسيراً .

قلت : بالعكس ، ولم أجد فى موقفى هناك أدنى حرج ، فعظم أصدقائى الإنجليز يستنكرون تصرفات وزرائهم ، ويضيقون بحماقاتهم ، ولم أجد بينهم من يوافق على ضريبة الدمغة . . كلهم يراها سياسة قصيرة النظر خطيرة ، ولا بد أن تنتهى بذهاب المستعمرات الإنجليزية إلى الأبد ، وهو ما تستحقه إنجلترا جزاء غبائها . .

وتطلع إلى مستر براون مقطبا ، ورمانى بنظرات ملؤها الشك ، ولكن البزابيث ثارت غاضبة ، ونهضت عن مقعدها واقفة ، وقالت لى — وهى محتقنة الوجه : لابد أن رجالك كانوا من رعاع القوم يا لانجدون تاون ، وأملى أن يكون الحاكم قد خالط طبقة أرقى . .

وتذكرت فى هذه اللحظة ما قاله هوجارث عنها حين رأى صورتها فى مرسمى ، وأدهشنى صدق فراسته ، فلقد بدت إلبزابيث فى هذه اللحظة سليطة اللسان قليلة العقل والحكمة . . وأسفت على أحلام الصبا ، وأحزننى أن أرى روعة الأنوثة تتبدد بهذه السرعة . .

www.ibtesama.com

وكنت قد تعلمت فى لندن كثيرا من تقاليد الأناقة ، وأتقنت الانحناء على طريقة سان چيمس المشهورة . . فلما وصلت إلى الباب انحنيت بهذه الطريقة ثلاث مرات ، واحدة لمسز براون ، والثانية لزوجها ، والثالثة لإليزابيث . .

وفى عرض الطريق تنهدت عميقا ، وخيل إلىّ كأن تنهدتى ترنّ فى أذنى بصفير ملوءه الدهشة . . . صفير ينطق باسم إليزابيث آسفا حزينا على ضياع فتاة صباى الجميلة اللطيفة . . وعجبت فى هذه اللحظة كيف أحببتها فى يوم من الأيام ! فهل هذه إليزبيث براون التى هام بها قلبى ؟ وهل كانت هكذا دائما ؟ ولماذا لم أرها على حقيقتها من قبل ؟ . وشعرت أن أيام الشباب ولت إلى غير رجعة ؛ وأننى أصبحت إنسانا آخر . .

* * *

وحل شهر ابريل قبل أن يعود الصاغ روجرز . حاكم ميكيليما كيناك . . إلى حظيرة أسرته ، وطال غيابه دون أخبار ، ثم علمت أنه وصل ، فذهبت إلى بيت آل براون أسأله عن خططه .

وكان قد أتى ببوتر معه ، وعند دخولى وجدتهما يتخذان من الغرفة الخلفية مركزا للقيادة ؛ والبيت كله فى فوضى

www.ibtesama.com

شاملة . . وأمام باب القيادة وقف مستر براون مع مجموعة من أصدقائه يتناقشون فى أمر الهنود بغاية التفاؤل . . وبدا واضحا أن المنصب الجديد وما يكتنفه من آيات التقدير والشرف ، قد بدّل من مركز الصاغ فى نظر حميه ، وجعل مستر براون يغفر له ذنوبه ، أو ينساها فى الوقت الحاضر على الأقل .

وجلس الصاغ فى الغرفة الخلفية يتغنى بمحاسن ميكيليماكيناك ، وأمامه خريطة لمنطقة البحيرات الكبرى . . وعن يمينه يوتر ، وعن يساره تجلس إليزابيث ووجهها يفيض بالجلال والوقار .

وحين دخلت الغرفة ، سمعته يقول : انظرى يا بتسى . . هنا تقع ميكيليماكيناك . . من بحيرة ميتشيجان وبحيرة هورن . . على حافة أجمل بقعة مائية فى الدنيا . . وهذا الموقع الفريد يجعلها تسيطر على المسالك المائية المؤدية إلى ديترويت ومونتريال وبحيرة سوبربيير وجراند بورتيج .. وسنكون أنا وأنت حاكمين لمملكة من أعظم . .

ورفع رأسه فى هذه اللحظة ، ليرانى أقف بالباب أمامه ، فدفع الخرائط بعيداً عنه ، وصاح فرحا وهو يضرب المنضدة بقبضة يده ، قال : لانجدون . . لقد جئت

www.ibtesama.com

فى الوقت المناسب . . وكانت بتسى تخشى ألا تسافر معى ، ولكنى أكدت لها خطأ ظنها . . كيف حالك ، يا رجل . . وما أخبار الصبية الصغيرة ؟

قلت : فى خير حال .

وقبل أن أتم حديثى ، صاحت إليزابيث فى صوت يشوبه الألم : لماذا لم تحدثنا عن ابنة پوتر ، يا لانجدون ؟ أترانى مضطرة دائماً إلى استقاء الأخبار من الآخرين ؟ لماذا لم تأت بها الآن معك ؟ . . يدهشنى أن يتركها لك پوتر ، بدل أن يرسلها إلينا . . على كل حال ، نحن فى احتياج شديد إلى معونتها ، ووجودها معنا يخفف من أعبائنا الكثيرة .

قال الصاغ — وهو يجلو صوته : دعينى أحدثك عما يوجد فى القلعة ، فمن داخل هذه الأبواب الخارجية الكبيرة . .

قالت إليزابيث تقاطعه فى صوت حاد : متى تأتينا بالفتاة ، يا لانجدون ؟ ما دام أبوها سكرتير الحاكم ، فمكانها الطبيعى معنا ، ولا يصح أن نتركها خلفنا فى كيتارى ، حتى لا يحرم مستر پوتر من رؤيتها .

www.ibtesama.com

وأخذت أتمتم بكلمات أعبر بها عن أملى فى عودة الصاغ وپوتر قريبا ، وكيف يقتضى صالح الفتاة أن تستمر فى دراستها ، ثم التفتّ أسأل روچرز عما إذا كانت ميكيليماكيناك تشبه كراون پوينت .

صاح روچرز يقول : كراون پوينت ؟ لا مجال مطلقنا للمقارنة بينهما . . فميكيليماكيناك من كراون پوينت بمثابة قصر سانت چيمس من حظيرة الدجاج . . لسوف ترى بنفسك وتتأكد من صدق قولى . . إن موقعها يفوق الوصف : ففيها هذه المضايق التى تقود إلى بحيرة هورن من ناحية ، وبحيرة متشيجان من الناحية الأخرى . . وحولها كنوز من الخيرات لا يحلم بها الإنسان . . لا ، لا . . كراون پوينت لا شىء بالمرة . . لا أكثر من كشك حراسة يقع فى حارة ضيقة . . أما قلعة ميكيليماكيناك فنقطة الفصل بين إمبراطوريتين . . إمبراطورية الرجل الأبيض فى الشرق ، وإمبراطورية الرجل الأحمر فى الغرب .

ووقفت أصغى لوصف روچرز مأخوذاً ، فلقد كانت لديه قدرة عجيبة على الخطابة ، ولا أذكر أننى قابلت رجلا مثله يستطيع أن يعبر عن الجمال بهذا الكمال فى أقل ما يمكن من الكلمات . . وأسرنى بحديثه ، فوجدتنى أعيش فى

www.ibtesama.com

وصفه بقلبي وجوارحي ووجداني . . أتصور ما لا بداية له ولا نهـاية من أساطيل الزوارق التي تمر تباعاً بميكيلماكيناك . . الجو الصحي المعبق بعبير أشجار السرو . . الهواء النقي الخالي من الذباب والبعوض . . هنود بالآلاف يحملون أعظم الهدايا لملك إنجلترا . . التجار الغشاشين . . والسياح الماجنين . . القلعة الجديدة التي بنيت خلال السنوات الثلاث الأخيرة . . البيوت المريحة لمن يسعدهم الحظ بالذهاب إلى هناك .

قالت إليزابيث بلهجة العظمة : وفي بيتنا . . بيت الحاكم ، قاعة كبرى للبلياردو . فتصوروا كيف يشاء الحظ أن أسافر إلى ميكيلماكيناك كي أتعلم هذه اللعبة ؟ !

وبدا كأنها تجد في لعبة البلياردو تسلية عظيمة .

قلت — وأنا أكذب سمعي : أنت تلعبين البلياردو ؟ !

فهزت رأسها بوقار ، وقالت : لا مفرّ من ذلك مادمت أعتزم الوقوف بجانبه دائماً . . لن أدعه يهرب مني مرة ثانية . . سأرافقه لأكون رقيبة على أفعاله في ليالي فراغه . . لقد ضقت ببقائي وحيدة بعيداً عنه . . أنتظر منه رسالة كل ثلاثة أشهر . . تصور الحياة هناك بلا بعوض أو ذباب . . تصور العظمة والجلال . . إن زوجة

www.ibtesama.com

الحاكم وأهل بيته يتلقون من ملايين الهنـود آيات الخضوع والاحترام . . يشربون الشاى مع كبار الضباط . ويلعبون البلياردو مع علية القوم . . ها ها . . يا له من مستقبل عظيم . .

ونظرت إلى الصاغ ، فوجدته ينكمش فى مقعده خجلا مما تقول . .

وأدهشنى كلامها غاية الدهشة ، فلكم قاسيت من غضب إليزابيث وثورتها بسبب خروجى مع هانك مارينار فى رحلات قصيرة . . وكانت تتعلق بذراعى خائفة إذا رأت ضفدعاً يقفز على الحشائش أمام بيتهم . . ولكنها تعد اليوم نفسها للسفر إلى القفار ، وتعتزم مرافقة زوجها إلى ميكيلما كيناك ! .

قالت — وهى تهز إصبعها فى وجهى : لا نجدون تاون ، أيها الصبى الكتوم ، لماذا لم تحدثنا بما أصبت من مجدٍ وجاهٍ بدل إثارتنا بحديثك عن بيلى ، وإزعاجنا بكلامك العامر بالعصيان ؟ كان حريا بك عندما زرتنا أن تروى لنا أنباء ما نلته من شهرة فى لندن ، وكيف أصبحت فنانا عظيما تباع رسومك بأثمان خيالية . . لم تذكر لنا ولا كلمة واحدة عن صداقتك بلورد بريمرتون ، مع أننا كنا فى

www.ibtesama.com

غاية الشوق إلى أخبار الطبقة الراقية . . من كان يتوقع أن تبيع الصورة بثلاثين جنيها . . عظيم . . ولكن ترى ماذا فعلت باللوحة التي رسمتها لى ذات يوم ؟

قلت : تلك الصورة ؟ محوتها مع الأسف الشديد !

وقفزت واقفة ، وقالت – وهى تربت على يدى : حسنا . . ما دامت الظروف لم تسنح لى برؤيتها ، فعليك أن ترسم لى أخرى بدلا منها . . أليس كذلك أيها الصاغ ؟

وسارت إلى الباب ، ورمتنى بنظرة من فوق كتفها ، وأردفت تقول : سنجعلك فناناً لقصرنا ، فلا تجرؤ سيدة فى ميكيليماكيناك على الوقوف أمام فنان غيرك .

* * *

وشعرت بالارتياح حين انصرفت إليزابيث من الغرفة .

قلت ، وقد استقر رأيى على مناقشة پوتر فى أمر آن : يظهر أن الجو فى هذه المناطق يلائم الفتاة ، وكذلك الطعام ، ولسوف يسعدك أن تراها بعد ما كبرت بسرعة ، وأوشكت أن تصبح سيدة صغيرة . .

قال پوتر : عظيم ، يا صديقى . . ورجائى أن تعنى بتغذيتها . . أطعمها بقدر ما تستطيع حتى تسمن ، فقد نضطر إلى الصيام ونحن فى طريقنا إلى ميكيليماكيناك . .

قلت – فى دهشة واستنكار : فى طريقك إلى أين ؟

www.ibtesama.com

لا أظنك تفكر فى اصطحاب صبية مثلها إلى الفيافى والقفار . . إنها فى احتياج إلى العلم والثقافة والصحبة الملائمة ، ولا يمكن أن أسمح لآن بالسفر . .

قال پوتر فى تعجب : الصحبة الطيبة ، يا تاون ؟ ألا تعتبر مسز روچرز صحبة طيبة لفتاة مثل آن ؟

وأحسست بنظرات الصاغ تسلط علىّ ، كأنه يريد أن يتغلغل فى أعماقى ، قلت بسرعة : لا شك فى أنها صحبة طيبة . .

ثم أضفت بهدوء : كنت أقصد السن . .

قال پوتر فى ابتسامة ساخرة : ولكن ، ألم تقل إنها كبرت يا صديقى ، وكادت تصبح سيدة صغيرة ؟ الواقع أننى عقدت مع زوج الحاكم الجميلة معاهدة صلح ، ووعدتها بأن ترافقها آن كصديقة ووصيفة . .

قلت بمرارة : صديقة ووصيفة !

وكدت أقول : بل وصيفة وخادم . .

لم أكن أبله لتغيب عنى الحقيقة ، فصفقة كهذه لا يعقدها پوتر دون مقابل ، ولا بد أنه نال من إليزابيث شيئاً . . أو وعدته بشىء . . لقاء تخليه عن ابنته .

www.ibtesama.com

وكبحت جماح لسانى ، وتمالكت نفسى ، وقلت بلهجة جافة : أفضل لو بقيت آن بكيتارى ، فهى تتقدم فى دراستها باطراد ، ومن مصلحتها أن تتم تعليمها .

قال پوتر ضاحكا : تفضل لو بقيت ؟ إننا نتكلم عن ابنتى ، وأرجو أن تتذكر ذلك !

ومن حسن الحظ أننى أفلحت فى السيطرة على غضبى ، قلت أصطنع الهدوء : ألم تتنازل لى عنها ؟

قال : قطعا لا .. لم أفعل سوى أن تركتها فى عهدتك لفترة من الوقت ، وقد انقضت هذه الفترة وانتهينا .

ولما رأى وجهى يحتقن بالغضب ، قال فى برود : إذا كنت تفضل أن نلجأ إلى القضاء ، فلا مانع عندى .. إن أتفه محكمة فى الدنيا لا ترضى بحرمانى من ابنتى ، فدعنا نجرب لتقتنع !

ولم أكن أملك سنداً قانونيا واحداً يحل لى الاحتفاظ بآن ، فحل الغضب عقدة لسانى ، وقلت له : اسمع يا پوتر .. لقد رأيتك ترتكب جريمة الابتزاز بالتهديد ، وتنحدر إلى أسفل السافلين من أجل النقود ، ولكنى لم أكن أتصور حتى هذه اللحظة ، كم أنت غشاش ومخادع ولئيم ..

صاح يقول : ماذا ؟ أتوجه مثل هذا الكلام إلىّ ؟

www.ibtesama.com

والله لأقاضينّك على هذا التطاول ، وأجرُنّك إلى المحاكم جزاء إهانتك إياى !

وثارت ثائرة الصاغ ، وقال — وهو يضرب على المنضدة بيده العملاقة : لا ، لن تفعل ذلك ، فأنا لا أسمح بخلاف أو نزاع . . الزما الصمت ، أنتما الاثنين . . ولا كلمة أكثر .. إننى حاكم ميكيليما كيناك ، وأنتما من الآن تحت إمرتى ، وإذا تشاحنتما فلن يذهب أحدكما معى .. لن يخطو أحدكما خطوة إلى الأمام .. وأنت يا تاون .. ما هذا الكلام الذى تقوله ؟ يظهر أنك ساذج لتظن أن من حقك التحكم فى ابنته .. ولسوف تسافر مع زوجى ، أليس كذلك ؟ أما أنت يا پوتر ، فكن على حذر وإلاّ دمرتك .. وإذا سمعتك مرة أخرى تهدد بمقاضاة رجل من رجالى ، فأقسم بالله أن أتبعك إلى المحكمة ، وأفضحك على رءوس الأشهاد .. ألا تكفينى متاعب أرض الموهوك ، لتزيدانى هما بعراككما ؟ أين الرسائل التى أمرتك بكتابتها ، يا پوتر ؟ وأين سجل التّموين ؟ أغرب عن وجهى ، عليك لعنة الله ! . .

وأتت الشدة بفعلها فى پوتر الجبان ، فاستكان إلى نفسه ، وبدا عليه الهدوء ؛ وخرج من الغرفة بعد أن رمانى بنظرة تفيض بالشماتة والسخرية ، فعرفت ألا مفر من سفر الفتاة المسكينة إلى ميكيليما كيناك .

www.ibtesama.com

الفصل الحادى عشر

حينما أشار روچرز إلى المتاعب الآتية من أرض الموهوك ، كان يقصد سيروليام جونسون الذى يعيش فى قصر منيف يطل من فوق جبل چونسون على وادى الموهوك .

وبعد أن انصرف پوتر ، قال لى روچرز بخشونة : اجلس .. اجلس .. فلى معك حديث طويل .

وروى لى تفاصيل زيارته لجونسون بعد سفرى من نيويورك ، وكيف أخبره القائد بعزمه على استدعاء الزعيم پونتياك ، وأتباعه من رؤساء العشائر الهندية ، إلى أسويجو فى شهر يونية القادم ، ليقدموا فروض الطاعة لملك إنجلترا .. ولما كان وجود روچرز ضروريا فى هذا الاجتماع ، فقد طلب إليه چونسون أن يؤجل سفره إلى ما بعد هذا التاريخ .

قلت : وهل كلمته فى مشروع الممر الشمالى الغربى ؟

قالى روچرز — وهو يضحك بغيظ : كيف أخبره قبل أن أتسلم خطاب الملك بيدى ، وأضع فى جيبى نفقات الرحلة كلها بالجنيهات الذهبية ؟ وقد لا أخبره بعد ذلك حتى أنتهى من إعداد الحملة ، فأنا فى احتياج إلى مائتى رجل

www.ibtesama.com

يحموننى من هذه الأفعى العجوز الرقطاء .. ولعلك تعرف أى نوع من المخلوقات هذا ال.. ال.. هذا ال..

ومد إصبعه الغليظة إلى بنيقته يرخيها قليلا ، وبصق باحتقار فى سلة المهملات الموضوعة بجواره ، ثم أردف يقول وقد جمدت نظراته : أتعرف ماذا يريد هذا العجوز المتكرِّش المنفوخ ؟ يريد أن يمنعنى من توزيع الهدايا ، عندما أصبح حاكما على ميكيليماكيناك .. يريد أن يسلبنى جميع السلطات المالية .. وممن يصدر هذا الكلام ؟ .. من چونسون أكثر الناس سفها وإسرافا ، وأشهرهم بهداياه لجميع الناس ما عدا الجنود !

قلت : ربما أسأت فهمه ، يا سيدى الصاغ .. فرجل كبير المقام مثله ، لا ينحدر إلى مهاوى هذا التفكير المنطوى على منتهى الجهل والغباء ..

قال : ألا تصدق كلامى ؟ ليتك تعرف كيف يُجن أصحاب المناصب حين يرون منافسيهم يقتربون منهم .. تطيش عقولهم فيذهبون إلى أبعد مما تتصور .. يسرقون ويكذبون ويخدعون ويخونون .. قد تكون الحرب مهمة شاقة ، ولكن السياسة أدهى وأضل سبيلا .. وچونسون بحكم عقليته السياسية ، يستبيح لنفسه أى تصرف تسوله له

www.ibtesama.com

روحه الخبيثة .. ويرى من حقه أن يرسلنى إلى ميكيليما كيناك خالى الوفاض .. بلا نقود أو هدايا أو بنس واحد ملعون ..

قلت : ولكن جونسون أكثر الناس إلماما بشئون الهنود ، وهو يدرك أن الهدايا أهم عامل فى اكتساب صداقتهم ومعونتهم ..

قال : يدرك ؟! طبعا يدرك ، وكثيراً ما كتب إلى وزارة التجارة فى هذا الموضوع ..

ثم حك وجهه بيده ، وقال : اسمع يا لانجدون . . فى أول سنة قضاها آمهرست هنا ، بلغت نفقات الهدايا سبعة عشر ألفاً من الجنيهات . . ونصف هذا المبلغ يكفينى . والله . . لشراء مودة هنود الغرب جميعهم ، وضمان معونتهم وولائهم . . ولكن هذا المبلغ الذى دفعته الدولة من حر مالها لم يذهب كله فى الهدايا ، فبعضهم استولى على قدر مذكور منه ! أى والله ، بعضهم استغل الموقف ، يا لانجدون ، وأخذ جانبا من هذا المال لنفسه . .

قلت : چونسون ؟

قال — وهو يدق على المنضدة فى عصبية : بعضهم استغل الموقف ، والله يشهد على أن السلطة كانت لجونسون ولا أحد سواه . . فهل يدهشك بعد ذلك أن ينقلب

www.ibtesama.com

آمهرست عليه ، ويقرر منعه من الحصول على هدايا للهنود ، بل ويأمره بتأديبهم بدل إكرامهم ؟

قلت : وبماذا أجاب چونسون ؟

قال : قال كلاما كثيراً . . قال لآمهرست إن شراء مودة الهنود بالهدايا أقل نفقة من إرسال الجيوش لتأديبهم ، وإن الفرنسيين أغدقوا عليهم عطاياهم ، فسبقونا إلى قلوبهم ، وإذا كانت إنجلترا تريد أن تسترد مكانتها بينهم ، فعليها أن تفعل مثل فرنسا وأكثر .

وانحنى فى مقعده بعض الانحناء ، وأردف يقول : كلام معقول يا لانجدون ، ولكن آمهرست معذور . . فالهنود لا يتفاهمون إلا بالهدايا ، ولا يناصرون إلا من يعطيهم أكثر . . وقد تنجح القوة فى إخضاعهم دون أن تتكبد انجلترا نفقات ضخمة ، إنما بشرط أن يعهد بهذه المهمة إلى النوع الملائم من القوات العسكرية . . وليس فى مقدور چونسون أن يحقق هذه الفكرة بفرقه الإقليمية ، ولا آمهرست بجيوشه الملكية . . إذ لن يمضى شهر حتى يقع الجنود جميعهم فى قبضة الهنود ، فيذبحونهم عن آخرهم . . المتطوعون هم القوة الوحيدة القادرة على علاج الموقف ، ويجب أن يتولى قيادتهم رجل ضليع فى أساليب

www.ibtesama.com

الهنود وفنون محاربتهم . . يعنى أنا . . وأنا فقط . . فهل تفهم الآن يا لانجدون ، لماذا يناصبنى چونسون العداء ، ويتخذ منى موقف الخصم العنيد ؟ إنه يقر بعجزه وتفوق عليه ، ولذلك يرفض أن يترك لى الفرصة . . يزعم أن آمهرست انتقده دون وجه حق ، وهو كالهنود حقود لا ينسى ولا يغفر . . وما دمت صديقا لعدوه آمهرست ، فلن أخلص من حقده ونقمته . . أضف ذلك خوفه من ازدياد نفوذى وقوتى ، والغيرة يا لانجدون شعور بغيض مألوف ، وكثيرا ما تدفع الناس إلى ركوب رءوسهم ، أفلا ترى الآن لماذا يتمنى لى چونسون الشر ، ويرجو أن ألاقى المتاعب ؟

قلت : الأمر واضح مع الأسف ، يا سيدى الصاغ .

واعتدل روچرز فى مقعده ، وقال — وهو يستند إلى ظهره : وأفضل طريقة للقضاء على حاكم يعيش وسط الهنود ، أن تفرض عليه سياسة آمهرست . . تمنعه من توزيع الهدايا وتأمره باستعمال القوة . . فهل ترى الآن ما يدور بخلد چونسون ؟ وهل تدرك ما يضمره بمؤامرته الخبيثة ؟ أجبنى بصراحة يا لانجدون ، فأنت رجل عادل فى أحكامك وتقديراتك . .

www.ibtesama.com

قلت : واضح أنه سيئ النية ..

قال — وهو يصر على أسنانه الكبيرة : سيئ النية دون شك .. يريد أن يحطمني ، ولسوف يفعل ذلك إن استطاع ، ولكن عليه اللعنة ، فأنا لا أخاف ثعلبا عجوزا مثله .. ووالله إنّ لفي مقدوري أن أقضي عليه هو وجيج بمنتهى السهولة .. فهدفي أكبر كثيراً مما يجول بخاطرهما ، وأنت تفهم ما أعني ، يا لانجدون .

قلت : إنه الممر الشمالي الغربي ، يا سيدي الصاغ !

قال : أجل .. أقصر طريق إلى الصين واليابان .. آه ، يا بني .. إنه الطريق السحري إلى كنوز الهنود وماساتهم ولآلئهم .. سأكون كولمبس آخر ، يا لانجدون .. ولكني لن أفعل مثله ، فأقف عند سان دومنجو إذا اعترضت طريقي . . لا ، لن يكون ذلك ، فبحق مالك السموات والأرض لأنسفهما ، وأمضي إلى الأمام دون تردد .

قلت : عظيم . . حياك الله ومنحك القوة على تحقيق آمالك .

قال — وقد تورد وجهه بالرضا ، وانتفخ صدره تيها بنفسه : حيِّني ما بدالك . فنحن نرسم الخطة ، ونعد العدة

www.ibtesama.com

لكل يوم فى الرحلة . . وقد أرسلت فى استدعاء اليوزباشى توت والملازم آفرتون . . أفضل جنود المتطوعين وأكثرهم طاعة وبسالة . . سأصطحبهما معى إلى ميكيليماكيناك ، ليكونا على مقربة منى فى الوقت المناسب . . وفى بوسطون قابلت اليوزباشى كارفر ، ووعدنى برسم الخرائط المطلوبة . . لقد ظل المسكين طوال العامين الآخرين يعمل مدرسا ويتقاضى راتبه ستة أشهر فى السنة لا أكثر . . وليس أحب إليه من هجر مدرسته التى يشقى فيها دون طائل . . لا ، لن يتردد فى هجرها ، ولو اضطره الأمر إلى البحث عن جنة عدن ، ورسم خريطة لها . . غلطته الوحيدة أنه يصدق كلام الناس بسهولة . . وعندما يتحقق شىء يطالب بالفضل كله ، ولكنه يأبى أن يتحمل نصيبه من الغرم إذا انقلب الموقف . . وما دمنا فى احتياج إلى جهوده ، فلا مفر من الاستعانة به ، يا لانجدون . . بشرط أن يمتنع عن ألاعيبه الصغيرة . . لا ، لن أسمح له بأكثر من ألعوبة واحدة . واحدة فقط ، وبعدها أوقفه عند حده . . ولدينا أيضاً رجل نختفى وراءه حتى لا يشك الفرنسيون فى نوايانا . . إنه ستانلى جووارد ، التاجر الشهير بمنطقة الشمال الغربى ، وصاحب أقوى نفوذ لدى

www.ibtesama.com

الجنود . . ولسوف يكون الحال على النحو الآتى : توت ينوب عنى أثناء غيابى . . وآفرتون يتلونى فى القيادة . . وكارفر يرسم الخرائط اللازمة لرحلتنا . . وجووارد يتاجر مع الهنود ويتحدث إليهم . . وأنا أقود الفرقة إلى الأمام ، وأسير بها حتى تلمع مياه المحيط الهادى مبتهجة بانتصارنا .

قلت : جميل .

ونهض روچرز من مقعده ، ومدد جسده ، ثم مسح فمه بظهر يده ، وكأن هذه الحركة حركت أشجانه ، إذ قال فى وجوم : لقد ضقت ذرعاً بهذا البيت وأصحابه . . يقدمون مع العشاء قطرة خل ويسمونها خمراً . . قطرة ضئيلة يضعونها فى كأس صغيرة ، باستطاعتى أن أبلعها بما فيها دفعة واحدة . . أما الروم فلا وجود له على الإطلاق . . وكلما شرعت فى الخروج للترفيه عن نفسى ، يخرجون معى ، ويسيرون بجانبى خطوة خطوة . . جميعهم . . حتى مستر براون المبجل . . فآه . . آه .

وأشاح بوجهه فى حركة تنم عن اليأس ، وانفجر يقول : آه ، يا ربى . . كم يسعدنى أن يطول بى الأجل ،

www.ibtesama.com

حتى أستعيد حرية المشى فى الطريق مرة أخرى ! . .

* * *

بفضل ما اصطلح عليه حكام صاحب الجلالة من تبادل المجاملات فى المناسبات الهامة ، بعث الحاكم ونتورث باليخت المسمى « كيرفيو » ، ليحمل الصاغ روچرز من ميناء نيويورك إلى أعالى نهر هدسون بولاية ألبانى .

وفى أوائل شهر يونية ، عندما بدأت تباشير الحر تملأ الجو برائحة الحشائش والأعشاب البحرية ، أخذ اليخت يبتعد عن الأرصفة المكتظة بجماهير المودعين ، وهو يحملنا على ظهره .. أنا ، وروچرز وإليزابيث وآن وپوتر .

ولا شك أن روچرز ، بوصفه حاكما ، خيب ظنون الكثيرين ؛ إذ كان الناس يتوقعون أن يروه فى الزى العسكرى الرسمى السترة القرمزية والحذاء الأسود اللامع . . ولكنه خرج إليهم بثياب المتطوعين وعلى رأسه قلنسوة المشاة المحلاة بشىء يشبه ذيل السنجاب . . وعملت بنصيحته ، فارتديت أنا أيضا ثياب المتطوعين بملحقاتها ، وهو الزى « الطاقم » الذى أعطانيه آمهرست عند عودتى من سانت فرانسس .

وكان روچرز قد قال لى : ربما لا تكون ثياب

www.ibtesama.com

المتطوعين أجمل ما يرتديه العسكريون فى هذه الدنيا ، ولكنك ستجده مفيداً ومريحا ، والجنود يحترمونه أضعاف ما يحترمون السترة الملكية القرمزية .

وما كاد اليخت يتحرك ، حتى بدا واضحا أن إليزابيث تعتزم القيام بدورها كاملا ، حتى يقتنع الجميع بأنها زوج الحاكم لفظا ومعنى . . فرأيتها ترسم على ثغرها ابتسامة دائمة ، وتتمسك بأسباب الوقار فى تصرفاتها ، وعندما كنا نجتمع حول مائدة الطعام فى غرفة المدفع الصغيرة ، تأخذ فى التحدث باستمرار ، ولا تدع لأحد غيرها فرصة . . وإذا اجترأ رجل من الجالسين على النطق بكلمات قليلة ، تجد فى كلماته ما يذكرها بموضوع آخر ، فتبدأ من جديد ، وتمضى فى ثرثرتها دون توقف .

ومن ذلك ما حدث مع الملازم بريزتنج ، ربان اليخت ، ونحن ما زلنا على مرمى النظر من جزائر شولز .

قال الملازم : أتعرفون أن هذه المنطقة تشبه كثيراً جزر اليونان الشهيرة . . والواقع أن شهرة تلك الجزر مبالغ فيها ، وحقيقتها ليست بالعظمة التى يرددها الناس عنها . . وحينما كنت مساعداً لقبطان الباخرة باخوس ، ذهبنا إلى هناك . . وأدهشنى أن أرى . . .

www.ibtesama.com

وتدخلت إليزبيث بسرعة ، وقالت مقاطعة : باخوس ؟ أتراها سميت باسم أسرة أيرلندية كبيرة ؟ . . كثيراً ما سمعت أبى يتحدث عن آل باخوس المقيمين بمدينة دبلن ، ويتغنى بلطفهم وظرفهم وأناقتهم . . والعجيب أن جميع نساء هذه الأسرة يتقن العزف على الهارپ . . وما دمت قد زرت دبلن ، أيها الملازم ، فلابد أنك قابلت بنات آل باخوس فى حفل أو وليمة .

ولم تترك له فرصة للإجابة ، إنما مضت فى حديثها تقول : وسمعت من أبى أن أفراد أسرة باخوس يتمتعون بصوت جميل . . يطرب الأسماع ، ويقينى أنك استمتعت بمعرفتهن .

هكذا إليزابيت ، إذا بدأت حديثا فلا مفر من استمرارها فيه ، وما من قوة فى الوجود تستطيع أن توقفها.. ويحدث أحيانا أن يقاطعها أحدهم بكلمة ، فتتجاهل ما يقول وتمضى فى ثرثرتها غير مبالية . . ولكنى لم أر من المستمعين إليها ما ينم عن ضجرهم بثرثرتها هذه .. حتى الملازم بريزتنج ، فعندما كانت تلقى إليه بإحدى نظراتها الجانبية الجذابة ، وتسرق منه الحديث بطريقتها المعهودة ، يسلم الرجل بواقع الأمر راضيا ، ويكتفى بالصمت فى ابتسامة مهذبة .

www.ibtesama.com

وإزاء ثرثرة إليزابيث ، ازدادت آن – الصموت بطبعها – صمتاً على صمت ، وبدت عليها مظاهر الضيق والإرهاق لكثرة ما تكلف به من مهام تافهة ولكنها متعبة فى ذات الوقت . . فلقد كانت إليزابيث مغرمة بممارسة سلطانها على الفتاة . . تختلق آلاف الأسباب لتجندها فى خدمتها . . . فمرة تقول لها : آن . . يا صغيرتى ، أظننى تركت منديلى فى القمرة ، فاجرى إلى هناك ، وأتينى به . . . وأخرى تقول : يظهر أنى فقدت صندوق الأشغال ، ولست أدرى ما إذا كان فى مقدورك أن تعثرى عليه ، فما رأيك فى أن تبحثى لى عنه يا طفلتى ؟

وتظل طول النهار على هذا النحو ، لا تكفّ عن إصدار الأوامر : مناديل . . صندوق الأشغال . زجاجة الأملاح . . المنعشة . . علبة المساحيق . . زجاجة الكلونيا . . مرآة . . مقص .. حقيبة الحياكة .. كتاب .. إلى آخر هذه التوافه .. دائما تطلب هذه الأشياء من آن ، ودائما تكلفها بالبحث عنها .

وبعد خمسة أيام كنا فى طريقنا إلى أعالى الهدسون ، وهى منطقة مائية تجارية لا تقل حركة عن نهر التيمس . . فالأسماك الضخمة على أنواعها تقفز على جانبى السفينة . . والحمام يحلق فوقها فى أسراب لا نهاية لها . . وعشرات

www.ibtesama.com

المراكب المحملة بأنواع الأطعمة الطازجة تسير إلى نيويورك فى قوافل متتابعة . . والعائمات المشحونة بالأخشاب والبراميل والغراء لا تكف عن المرور بنا ، فنرى بحارتها الهولنديين ذوى الوجوه المتوردة الشحيمة ، ينظرون بعداء بالغ إلى العلم الإنجليزى المعلق فوقنا . . والشاطئان – فيما عدا البقع الصخرية ذات الانحدار الشديد – تغطيهما مزارع منظمة ، تقوم بين أحضانها بيوت مبنية من الحجر أو الآجر . . وهنا وهناك بساتين مورقة ، تحيط بها حقول القمح الممتدة إلى الأفق . . وبالليل تتراقص اليراعات فوق الأجزاء المنخفضة من الشاطئ ، فيبدو مكانها لامعا ، كأنه قد كُسى بالدمقس المذهّب .

وحذرنا روچرز من الهولنديين الذين استحقوا احتقار أهل نيوإنجلند لتباعدهم عنا أثناء حربنا مع الفرنسيين ، ثم تهالكهم على الاتجار مع الهنود فيما سلبوه من بيوتنا . . ولقد كنا حقيقة نكرههم من صميم قلوبنـــا ، وكانوا يبادلوننا هذا الشعور ، ولكنهم يكرهون الإنجليز أضعاف أضعاف ما يكرهوننا .

قال لنا روچرز : إياكم أن تشتروا شيئاً من نيوإنجلند ، فالهولنديون لا يبارون فى الخداع والغش ، وفى مقدورهم

www.ibtesama.com

أن يعطوا البنس حتى تظنوه شلنا . . احذروا من حيلهم فهم أمهر من اليهود . . وليس فى نيويورك كلها يهودى واحد يستطيع أن يقف صامداً أمامهم . . وإذا وقعت أيديهم على إنجليزى أو مواطن من نيوإنجلند ، يستغلونه بوقاحة ، ويبيعونه بضاعتهم بأربعة أمثال ثمنها الحقيقى . . ومع أننى أمهر الناس فى شئون الشراء ، غير أننى أحرص على التعامل مع حانوت واحد يملكه چون أسكن الأسكتلندى ، وإذا لجأت إلى حانوت غيره ، أخرج عاريا خالى الوفاض .

ولم نشأ أن نتذوق مرارة هذا الجانب من مقاطعة ألبانى ، فألقينا مراسينا بعيداً عن الشاطئ بحيث نستطيع أن نرى عن بعد أطراف المدينة بمبانيها الحمراء وسلالمها النظيفة اللامعة ، التى تنتهى دائما بمنصة يجلس عليها أفراد الأسرة فى بداية المساء . . وبقينا على ظهر اليخت كيرفيو ، فى حين نزل روچرز إلى الشاطئ ، ليساوم على وسائل النقل ، ثم عاد إلينا فى الصباح التالى بعد الشروق بقليل ، على رأس أسطول من الزوارق والمراكب التجارية يملكها ثلاثة من أصدقائه . فقام البحارة بنقل أمتعنا من اليخت إليها . . ولما استقر المقام فى الزوارق ، أطلق كيرفيو مدفعا

www.ibtesama.com

لوداعنا ، وبذلك بدأنا الجانب الثانى من رحلتنا إلى نهر الموهوك وبحيرة أويندا ؛ متجهين إلى مساقط أونوداجا الموصلة إلى أوسويجو ، ومنها إلى شواطئ أونتاريو . .

* * *

كانت أوسويجو أبعد محطات الشرق التجارية فى الطريق الموصل من المسيسبى أو إليه ، حيث يبذل الفرنسيون أقصى جهودهم فى حمل القبائل الهندية على نقل الفراء بوساطة النهر العظيم إلى المراكز الفرنسية بدلا من نقلها إلى ميكيليما كيناك وديترويت ونياجرا وغيرها من المناطق الخاضعة للإنجليز . . . وقد تعود أهل ألبانى أن يشدوا رحالهم مع هبوط الدفء كل عام إلى أوسويجو ، ليخدعوا الهنود ويسرقوا بضاعتهم بأرخص الأثمان . . وفيما عدا هذه الحركة التجارية التى تتكرر مع بداية الصيف دائما ، كانت أوسويجو تعتبر منطقة متوسطة الأهمية ، ولكنها أصبحت ذات شأن كبير فى هذه الأيام بالذات لقربها من وادى الموهوك ومقر سير وليام چونسون ، فلقد أرسل فى استدعاء پونتياك وأتباعه من رؤساء القبائل الهندية ليعقدوا مؤتمرا مع ممثلى الأب العظيم الذى يعيش عبر البحار ، وأعطى روچرز كامل السلطة لتنظيم الاجتماع وإدارته إلى حين وصول چونسون .

وفى ذات مساء دافئ من شهر يونية ؛ انزلقت قواربنا

www.ibtesama.com

تهبط الأونوتراجو إلى أوسويجو ذات القلعتين القائمين عند فوهة النهر والبحيرة اللامعة الرقراقة ، فطالعنا معسكر هندى ضخم ، خيّل إلى كأنه يحوى هنود العالم بأجمعه .

وبدا المكان كله مثل سوق لا بداية لها ولا نهاية . . فعلى الضفة اليسرى من النهر تقوم قلعة جميلة الشكل تبرز أفواه المدافع من فتحات على جانبيها ، وفوقها العلم الإنجليزى يرفرف فى تكاسل بفعل نسيم البحيرة الهادئ . . وتفصل بين حدود القلعة والنهر ساحة للعرض تتخللها مجموعات من الأشجار البالغة فى ضخامتها ، مما يؤكد أنها كانت جزءاً من الغابة القديمة التى كانت تطل على المبشرين اليسوعيين ، الذين أنشأوا هذا المركز قبل مائة سنة .

وإلى يمين هذه القلعة الجميلة ، يوجد حصن آخر غير مسلح أو مسكون ، أمامه مساحة واسعة من الأرض الطيبة المهجورة ، أقام الهنود عليها أكواخهم المغطاة بالجلد والحصير ولحاء سيقان الأشجار الكبيرة . . ومن حولها رُشِقَت فى الأرض حراب وعُلِّقت فوقها فراوى رءوس الأعداء ، وقد ركبت فوق هياكل تشبه الجماجم . وامتلأت الأرض هنا وهناك بالخرق الممزقة وحقائب العقاقير وحزم الريش . . وحول هذه المساكن المخروطية الشكل

www.ibtesama.com

يتحرك عدد لا حصر له من الهنود المطلية أجسامهم بالأحمر والأزرق والأبيض والأصفر . ومن بينهم يتعالى ضجيج يتألف من نباح الكلاب وصراخ الأطفال ، وثرثرة العجائز ، وتفاخر الفتيان الشجعان .

وكان روچرز يعرف كيف يمكن أن يؤثر مثل هذا المنظر فى نفسى ، ويحفزنى إلى حمل القلم ، فصاح بى يقول فى حماسة : أمامك الآن ، يا لانجدون ، أربعة شعوب على أتم العدة والاستعداد .. أوتاوا .. وهورن .. وبوتا واتومى .. وشيبوى . . فاملأ عينيك من جمال أهلها وارسمهم ما شئت .

وتأملت ما حولى ، فرأيت خلف المعسكر الهندى بالقرب من النهر ، مدينة صغيرة ، خيامها البيضاء مفتوحة الأبواب ، مما يدل على أنها مركز التجار .

وبينما قواربنا تدنو من المرسى الواقع على الضفة اليسرى ، خرج من القلعة اثنان من حاملى الطبول ، ووقفا منتصبين بأناقة ، ثم أخذا يضربان طبولهما فى نغم طويل متصل . . وأطلقت حامية القلعة أحد مدافعها تحية لنا ، فأجفلنا لشدة الصوت ، ولم تمض لحظة بعد ذلك حتى امتلأت الساحة بذوى السترات الحمراء من الجنود .

* * *

www.ibtesama.com

تجمع ضباط الحامية حول الصاغ والبزابيث ، وقادوهما نحو القلعة ، وتبعهما پوتر ، ولكن آن بقيت معى فى انتظار الزورق الذى يحمل كراساتى وأقلامى ، وكان ذلك الزورق ما زال عند أعالى النهر على بعد منا . . وكانت، عشرات القوارب قد انزلقت من المعسكر الهندى إلى النهر ، حينما أعان المدفع خبر وصولنا ، فاستوقف أنظارى قارب منها تقوده امرأة مولدة ، وفى مقدمته يقف رجل منتصب القامة . . قوىّ الجسد . . مهيب الطلعة . . كأنه قائد منتصر . . ذراعاه معقودتان على صدره ، وإحدى ساقيه تتقدم الأخرى . . شامخ الأنف فى عظمة وجلال وعلى رأسه قلنسوة من جلد القندس ، أطرافها المرفوعة يحليها شريط مذهب عريض ثيابه مصنوعة من جلد الغزال وعلى صدر سترته صورة طائر أزرق يقف على رجل واحدة . .

ووقفت أنظر إلى الرجل فى احترام عظيم ، وخيل إلى أنه أحد ملوك الهنود ، أو رئيس وزراء پونتياك على الأقل ، ولما اقترب زورقه ، سمعته يصيح غاضبا ، فتصور لى أنه يريد أن نخلى له المرساة ، فسحبت آن من يدها ، وشرعت فى الابتعاد بها إلى بقعة أهدأ . .

www.ibtesama.com

ولكنها قالت ، وهى تضغط على أصابعى : إنه يتحدث إليك . . إنه يعرفك . .

ولفرط دهشتى ، وجدتها على حق ، إذ كان الرجل العظيم يوجه حديثه إلى ، ويشير بجلال إلى المرساة فى ذات الوقت .

صاح بى يقول : عد إلى هنا . . ألاتعرف من أنا ؟

وخلع قبعته الأنيقة ، ولوح لى بها ، وبذلك كشف عن شعره ذى اللون الأحمر القانى . . ولم أكن قد رأيت مثل هذا الشعر الأحمر سوى مرة واحدة فى حياتى . . وكان ذلك منذ سنين . . . وحين لمعت الذكرى فى رأسى ، وجدت أن شعر الرجل الواقف فى الزورق يكاد يكون نسخة طبق الأصل من ذلك الشعر الذى رأيته فى الماضى البعيد . . . ولما اقتربت الزوارق ، واستطعت أن أرى من فيها بوضوح ، تبين لى أن هناك خطأ فى التركيب الجثمانى لصاحب الشعر الأحمر ، إذ كانت إحدى ساقيه خشبية . . . ولم ألبث أن عرفت فى الرجل الضخم – رغم تشويهه – صديقى القديم الصول ماكنوت ، الذى رأيته آخر مرة ملقى على الأرض فوق تل صغير ، عند فم نهر أونز ، وحول ساقه الممزقة ضمادة مشبعة بالدم .

www.ibtesama.com

وأسرعت بالفتاة عائدا إلى المرساة ، وقفزت نحو القارب أجذبه من مقدمته ، فاستند ماكنوت إلى كتفى ، ونزل إلى الأرض يعرج . .

صاح بى يقول : والله إنها لأعظم مفاجأة . .

وعقد الانفعال لسانه ، فسكت عن الكلام مكتفياً بالتربيت على ظهرى .

وجذبته من ذراعه ، وانتحيت به جانبا ، وأخذت أنظر إليه بحنان وتدقيق ، فوجدته مثلما رأيناه أنا وهنك أول مرة . . يوم قابلناه فى حانة فلنتلوك ، وسمعنا منه قصة روجرز ومتطوعيه . . ولم يكن قد تغير فى الجوهر أو التفاصيل . . . هو . . . هو . . . فى الشكل والمنظر والرائحة .

قلت له : ثق أننى بذلت المستحيل فى البحث عنك بعد عودتنا من سانت فرانسس ، وسألت من يعرفونك فى كراون پوينت ودابنارتون ، ولكن أحدا لم يستطع أن ينبئنى بأخبارك .

قال ماكنوت — وهو يومئ برأسه : كنت لدى الطبيب أعالج جراحى ، وأطباء الجيش لا يعرفون شيئاً ، وما كان

www.ibtesama.com

فى استطاعتك أن تستقى منهم أخبارى . . ولكن ، ماذا جرى لصديقك هنك ؟

قالت : مات فى اليوم التالى لعودتى إلى كيتارى . . كأنه كان يحبس الأنفاس فى صدره حتى يودعنى . . وقد سألنى عنك . .

وأومأ ماكنوت برأسه ، وبصق فى النهر ، ثم مسح بيده على ملابس المتطوعين التى يرتديها ، ونظر إلى قلنسوتى الخضراء الاسكتلندية ، ثم قال : كدت ، والله ، أسقط فى النهر حين رأيت هـــذه القلنسوة ، وغمرنى التأثر من قمة رأسى إلى نهاية هذه الساق الخشبية .

ووقعت أنظاره فى هذه اللحظة على آن التى تقف صامتة بجوارى ، فقال : من هذه ؟

وأخبرته بأمرها ، فهز رأسه مرة أخرى ، واختبر نسيج ثوبها بأصابعه ، ثم مسح بيده على شعرها وهو ساهم .

قال : لم يكن من المعقول أن تكون زوجتك ؛ فالرجل فى بقاع كهذه يحتاج إلى امرأة أقوى منها عوداً . . فالشتاء هنا يقسو إلى أبعد حد .

واتجهت نظراته إلى المولدة التى تجلس القرفصاء فى

www.ibtesama.com

وسط قاربه ، وهى تتشبث بالحبل الممدود من الشاطئ ، لتبقى القارب فى مكانه . . وندت عنه همهمة غير مفهومة تشبه زمجرة الديك الغاضب ، فإذا بالمرأة تخرج من الزورق ، وتتجه إلى الشاطئ ، ثم تجلس بجواره دون أن تعيرنى أدنى اهتمام .

قلت أسأله فى دهشة : أكنت تتحدث إليها بلغة الهنود ؟

أجاب فيما يشبه الغضب : وهل يفيد الحديث بالإنجليزية مع مخلوقة مثلها ؟ . . والله ، لقد اضطررت إلى تعلم لغة الهنود لأفهمها وتفهمنى .

قلت : أهى . . . أهى . ؟ ؟

قال ماكنوت فى حدّة : أهى . . ؟ طبعاً هى كذلك . . لقد دفعت فيها منذ سنتين حربتين وجوادا وستة من أفضل الأغطية الصوفية ونصف زق من الكحول . . ومن ذلك اليوم وأنا أحس أنها جعلتنى نسيب شعب شيپوى بأجمعه .

ثم تطلع إلىّ فى قلق وقال : أتعرف الشيپوى جيدا ؟

وهززت رأسى بالنفى ، فقال : إنهم شعب طيب الأخلاق ، ولا جدال فى هذه الحقيقة . . لا يحقدون كغيرهم من الهنود ، ولكن مصيبتهم فى كثرة عددهم ، وهو عدد مرهق لمن يصاهرهم . . وليس هذا أقسى ما فى

www.ibtesama.com

موضوع هذه السيدة ، فالواقع أنها شيپوى بالتبنى فقط . . ولكن عملية التبنى نجحت فيها كما لم تنجح فى إنسان آخر . . حتى أصبح كل شيپوى يدّعى قرابتها . . والحقيقة أنها سيوكس . . والشيپوى والسيوكس أعداء ألداء منذ الأزل ، والحروب بينهما لا تنقطع . . ولما أسر الشيپوى امرأتى هذه فى إحدى حملاتهم ، كانوا فى عجلة من أمرهم ، فلم يتسع وقتهم لقتلها ، لذلك تبنوها . . ومحنتى فى أن عدد السيوكس أضعاف الشيپوى ، وأنا مضطر إلى مجاملة الفريقين إكراماً لها ، الأمر الذى يسوّد عيشتى ويجعل الحياة مستحيلة . . لا ، يا سيدى . . إنها حال لا تحتمل ، والسجن المؤبد أفضل كثيراً . . فاتعظ بى ، يا لانجدون ، وإذا فكرت يوما فى الزواج من هندية ، فنصيحتى أن تختارها من قبيلة صغيرة . . جرب حظك مع الماندان أو البلاكفيت . . أما السيوكس والشيپوى فابتعد عنهما قدر ما تستطيع ، وإلاّ أطبقوا على أنفاسك مثلى . . يزورونك كل لحظة ، ويرتدون ثيابك بغير إذنك ، ويشاركونك فى وجباتك يوميا . . كن على حذر يابنىّ . . فثلاثون ألفاً من الأنسباء أو أربعون ألفاً ، لامتحان عسير يُقهر فيه أشجع الرجال وأصلبهم عوداً . .

www.ibtesama.com

وطمأنته إلى أننى أتيت هذه البقعة لأرسم الهنود لا لأتزوجهم .

قال فى دهشة : ألم تُشفَ من مرض الرسم بعد ؟ كنت أظن أن الإنسان يصاب بالجنون إذا أكثر من رسم الهنود .

وسكت لحظة ، ثم قال ـ وهو يجول بنظراته فى أرجاء ساحة العرض : لقد جئت مع روچرز أليس كذلك ؟

قلت : أجل ، وهل نعرف بتعيينه حاكما لميكيلماكيناك ؟

قال ماكنوت ـ وعيناه تفيضان بنظرات عجيبة : أعرف ؟ طبعا أعرف . . وليس من هندى واحد فى هذا الجانب من نهر المسيسبى يجهل هذه الحقيقة . . . ألم تقابل الملازم روبرتس . . بنچامين روبرتس ؟

قلت : لم أقابل أحداً بعد ، فقد وصلت من لحظات معدودات ، وخرج الضباط جميعهم لاستقبال روچرز ، ولعلمى بأنهم لن يفتقدونى ، بقيت هنا فى انتظار الحقائب .

والتفت خلفى نحو ساحة العرض ، حيث كان الصاغ وإليزابيث يسيران إلى القلعة وسط مجموعة كبيرة من الضباط ، فى حين وقف الهنود والتجار على الضفة الأخرى من النهر ينظرون إلى الموكب فى إعجاب شديد .

www.ibtesama.com

قلت لماكنوت : تعال بنا نقابل الصاغ .

فقفز إلى المرساة ، وهو يطوح بساقه الخشبية فى حركة دائرية واسعة .

قال : أترى هـذين الرجلين اللذين يسيران فى نهاية الركب . . أحدهما يحنى رأسه إلى جنب مثل عصفور يصغى إلى دودة فى الأرض . . . إنه الملازم بنجامين روبرتس ، أقذر مخلوق على وجه البسيطة .

قلت له : والآخر الذى يتحدث إليه ، هو ناتى پوتر والد هذه الصبية ، وأمين سر الصاغ .

ويظهر أننى أزعجته بهذا الكلام ، إذ قال متراجعاً : ربما كنت أظلم الرجل ، فمعلوماتى عنه استقيتها من أحاديث الهنود ورأيهم فيه ، ولعلهم يفترون فيما ينسبونه إلى روبرتس .

ثم أردف يقول ، وغرضه أن يغير الموضوع : انظر إلى يسار الصاغ تر ضابطا نحيلا ... إنه اليوزباشى بيك فوللر ، وهو المسئول عن هذا المكان . . . أما الرجل النحيل الآخر ذوالفلك البارز ، فهو إدوارد قائد الحملة المقيمة بقلعة شارتر على المسيسبى . . لقد كان بكباشيا ثم رقاه صديقه الحميم چونسون . . ولكن ، من تكون هذه المرأة التى تصحبهم ؟

قلت : زوجة روچرز .

www.ibtesama.com

وأخذ ماكنوت بهذا الخبر ، فتوقف عن الكلام لحظة وهو يحملق فىّ مدهوشا ، وأخيراً قال : أفى نيته حقاً أن يأخذها معه إلى ميكيليما كيناك .

ولما أكدت له ذلك ، بصق على الأرض بسخاء ، وقال : هناك رجلان يقفان على جانبيها . . أحدهما يسير متعثراً . . والآخر ممتقع الوجه . . الأول اسمه جيهوهاى المندوب السامى فى ديترويت . . إنه « بكباشى » أيضا . . والثانى فورمان ماكلويد المندوب السامى لمنطقة نياجرا . . وجميع هؤلاء الضباط أصدقاء لجونسون ، وكانوا يذهبون معه لصيد البط ، وينامون فى سرير واحد ، و . .

وفجأة لزم الصمت ، وأخذ يسترق النظر إلى آن ، وبعد أن سعل مرة أو مرتين فى حرج ، عاد يقول : وأتباع چونسون هؤلاء مغرمون بالمولدات ، وعلاقاتهم بهن معروفة . . أصدقاء بالمعنى الصحيح .

ونظر إلىّ فى تدقيق ، وقال بحدة : ألم تسمع بالمشروع الجديد الذى وضعه چونسون للمندوبين السامين ؟

قلت : لم أسمع شيئاً بعد ، فلقد وصلنا لتونا من پورتسموث ، فحدثنى عن هذا المشروع .

قال ماكنوت : مشروع طيب . . فلقد وضع چونسون

www.ibtesama.com

وجيج طريقة جديدة لتقسيم البلاد . . جيج يتكفل بتعيين المحافظين والحكام ، ويخلى يده تماما من الشئون التجارية . . وچونسون يتولى التجارة ، ويعيّن أصدقاءه فى مختلف المراكز كمندوبين له فى توجيه التجار ، ورسم السياسة لهم فى تعاملهم مع الهنود .

قلت : وماذا ترك هذا التقسيم للمحافظين والحكام ؟

قال ماكنوت دون تردد : لا شىء . . لم يبق لهم سوى أن يتلقوا الأوامر من المندوبين السامين . . أفلا يعجبك ذلك ؟ ألا يعجبك أن تعين حاكما على إحدى المناطق ، وتتلقى الأوامر من صاحب حانوت ؟

قلت : ولكنه إجراء لا يبعث على الاطمئنان ، فلماذا وضعه چونسون ، وأى هدف يرمى إليه ؟

قال : لماذا وضعه وأى هدف يرمى إليه ؟ . . چونسون تاجر بطبعه ، ويفكر بأسلوب التجار ، وهدفه الوحيد أن يستولى على جميع أراضى الهنود ، ويضعها فى قبضة يده .

وكنا قد أوشكنا عل اللحاق بالمتفرجين السائرين خلف موكب الضباط إلى القلعة ، ومن فوقنا يطل الحصن الكبير بمن فيه من الحراس والديدبانات .

www.ibtesama.com

قلت : لست أرى المكان بالقبح الذى وصفته .

قال ماكنوت — وقد احتقن وجهه : أنت . . أنت . . حسنا . . دعنى أقل لك . .

ثم ألقى نظرة سريعة على آن ، التى كانت ما تزال تسير بجانبى ويدها فى يدى ، وقال : إننى أعرف كيف أؤدب زوجتى المولدة إذا أكثرت من الثرثرة فى موضوع لا يعنيها ، ولكنى نسيت كيف تُعامل المرأة البيضاء فى مثل هذا الموقف . . فما رأيك فى هذه السيدة الصغيرة . . هذه الآنسة پوتر ؟ أهى ثرثارة لا تؤتمن على حديث تسمعه ؟ . . أم تراها تعرف كيف تصون لسانها ، وتمنعه من النطق فى الوقت المناسب ؟

وتذكرت فى هذه اللحظة ما قالته آن لأمى عن تفاصيل حياتى بلندن ، فالتفتّ إليها ، وبنظرة واحدة ، تأكد لى أنها فهمت ما يجول بخاطرى ، وأدركت غلطتها .

قلت لماكنوت ، وقد اطمأنت نفسى إليها : لا ، أيها الصول . . باستطاعتك أن تتكلم دون حرج ، فلن تحدث أحداً بما تستمعه .

وأحسست بأصابعها تضغط على يدى ، كأنها تشكرنى .

قال ماكنوت : حسنا ، فأنا لا أحب أن يعرف الملازم

www.ibtesama.com

روبرتس بحديثنا ، والذى سمعته أن چونسون يعد العدة ليضع روبرتس فوق أنفاس الصاغ .

قلت : فوق أنفاسه ؟ يضع ملازما فوق أنفاس الحاكم الملكى ؟ والله إنه لتفكير عجيب ، ولسوف تنقلب الدنيا رأسا على عقب إذا حقق چونسون فكرته هذه .

قال ماكنوت : أجل ، ولعله الغرض الذى يستهدفه چونسون ، فليس أحب إليه من أن يغضب الصاغ ، ويثير المتاعب .

** معرفتى **
www.ibtesama.com
منتديات مجلة الإبتسامة

www.ibtesama.com

الفصل الثانى عشر

كانت سياسة روجرز فى معاملة متطوعيه ، لا يمكن أن ترضى إخوانه من الضباط الرسميين أو تحببهم فيه ، فقد اعتاد فى غير أوقات العمل أو القتال ، أن يعتبرهم أنداداً له ، فيعاملهم دون كلفة ، ويتحدث إليهم بأسلوب الصديق الحميم . . وهى طريقة تختلف تمام الاختلاف عما اصطلح عليه الجيش النظامى فى ذاك العهد ، فضباطه كانوا يلجأون دائما إلى الضغط على مرءوسيهم بيد من حديد ، لعجزهم عن السيطرة عليهم بالمودة واللين ، فلما رأوا روجرز يلقى ماكنوت بالأحضان كأنه أخوه الشقيق ، ويسير معه إلى القلعة ضاحكا مداعبا ، أصيب أصحاب السترات القرمزية بصدمة عنيفة ، وبان عليهم الاستنكار الشديد .

ولو أتيح لأولئك الضباط أن يروا الصاغ بعد ساعة من هذا اللقاء ، لتألموا أكثر وأكثر . . فقد جلس فى غرفة من جناحه الخاص أمام زجاجة من الروم ، ومن حوله أنا وپوتر وماكنوت . . ومن الغرفة المجاورة سمعنا إلزابيث

www.ibtesama.com

تصدر مختلف الأوامر إلى آن ، فتقول : أظنك تعرفين أين أضع دبوسي الماسى ، فابحثى عنه بين أدوات زينة شعرى فى الحقيبة الصغيرة ، وأتينى به إن استطعت .

وكنت أعرف أن الفتاة تستطيع أداء هذه المهمة بمنتهى السهولة . .

وسمع روجرز كلام زوجته مثلما سمعناه ؛ فلاحت على فمه ابتسامة باهتة ، ولكنه آثر أن يتظاهر بأنه لم يسمع شيئا ، فانحنى على كأسه يرشف منها ، ونظر إلى ماكنوت يقول له بخبث : أحسنت بهجر الجندية ، فالتجارة أفضل كثيرا ، وفى وسعك أن تجمع منها ثروة إذا عرفت كيف تدبر الأمور على الوجه الصحيح . .

قال ماكنوت — وهو يهز رأسه آسفا : لا ، لم أصنع ثروة أو أجمع مالاً ، لأننى زوجت نفسى من إحدى نساء الشيپوى ، وأهلها يأكلون معظم الربح ، ولولا أننى تعلمت لغتهم فأصبح فى مقدورى أن أوقفهم عند حدهم ، لأكلوا ساق الخشبية من زمن طويل . . ولكنى أكسب ما يرد عنى غائلة الجوع ويوفر لى الكساء الضرورى . . وهذا كل ما أحتاج إليه ، فلست أطمع فى الترف ورغد العيش :

www.ibtesama.com

وأحسست من لهجته أنه يصطنع الطيبة والتواضع ، فلم تطمئن نفسى إلى صدق كلامه . .

واعتقد أن روچرز خامره ذات الإحساس ، إذ تطلع إليه بتأمل عميق ، وبعدها انتقلت نظرته فى بطء نحوى ، ثم نحو پوتر . .

وكانت الخمر قد لعبت برأس أمين سر الصاغ ، فتورد وجهه وانفكت عقدة لسانه ، وأخذ يقول : أتذكرون الضابط الذى كان يسير بجانبى ونحن فى طريقنا إلى القلعة . . الملازم روبرتس ؟ . . يبدو أنه رجل غاية فى اللطف والظرف ، وفى رأيه أن الزوجة الهندية عامل مساعد لا معطل . . وفهمت من كلامه أن الهنود يعبدون الأرض التى يسير عليها . . وذات مرة أراد أن يرفّه عن جنود الحامية فى شينكتارى ، فأعد لهم تمثيلية عطيل، وقام بدور البطولة فيها . . وتصادف أن كان بين المدعوين عدد كبير من الموهوك ، فسرهم تمثيله ، وأبدوا إعجابهم الشديد به . . ومن حسن حظه أن تعلم لغة الهنود وأصبح يتكلمها كأبنائها تماما ، وقد ساعده ذلك فى الزواج بأميرة هندية . . أعظم وارثة فى الشعوب الستة . . إنها قصة غرامية تستحق الذكر . .

www.ibtesama.com

قال ماكنوت – وهو ينظر إلى پوتر : أنت لا تعرف أولئك الأميرات الهنديات يا مستر پوتر ، ولسوف يخيب ظنك حين تقابلهن ، فزوجة روبرتس مثلا . .

قال الصاغ مقاطعاً : أجل . . أجل . . دعوا پوتر يكشف الحقائق بنفسه حين يزور النساء الهنديات لأول مرة . . وحدثني أنت عن روبرتس . . فما رأيك فيه ؟

قال ماكنوت – وهو يتطلع نحو پوتر بحذر : روبرتس ؟ إنه إنسان تافه ، وما ذكره لصديقك هذا من حب الموهوك له ، مجرد ادعاء لا يقوم على أساس من الصحة ، ففي اتصالاتي الكثيرة بهم ، لم ألحظ يوماً ما ينم عن تعلقهم به أو احترامهم له . . وزوجه الثرية عجوز ضامرة ، في وجهها من التجاعيد أضعاف ما في عجز البقرة من الشعر . . ولكني أشهد أنها لا تسكر أكثر من مرة واحدة في اليوم ، وألفاظها لا تزيد قذارة عن أربعة من متطوعينا الضليعين في فنون السباب . . ومعذرة إذا كنت قد آلمت صديقك بهذا الكلام . .

وألقى على پوتر نظرة مليئة بالضيق ، ثم أردف يقول : وأنا معه في أن قصة غرامهما تستحق الذكر

www.ibtesama.com

بالفعل ، باعتبار أن سن أميرته الهندية تقل قليلا عن ثلاثة أمثال سنه . .

قال روجرز : لا ، لا . . ليس هذا ما أريده ، إنما أسألك عن روبرتس نفسه ، فأى نوع من الرجال هو ؟

قال ماكنوت فى استهانة واضحة : روبرتس نفسه ؟ . آه .. إنه لا شى .. لاشىء يستحق الذكر .. وأظنهم حدثونى عن صداقته الوثيقة بجونسون العجوز . . أجل . . أجل . . أذكر أن أحدهم روى لى قصة الضباط الذين عينهم جونسون فى هذا المكان ، وكيف يلتصقون به مثل قطيع من الخنازير حشروه فى عربة نقل صغيرة .. ولست فى الواقع أعرف الحقيقة ، ولكنه كلام الناس ..

ومرة أخرى ألقى على پوتر نظرة تفيض بالحذر والشك . .

ورأى روجرز هذه النظرة ، وفهم معناها ، فتجهم وجهه وقال : ناتى . . بودّى أن تذهب لتطمئن على الحقائب ، وترى ما إذا كانوا قد نقلوها إلى القلعة فى أمان . .

www.ibtesama.com

ونهض پوتر متلكئا ، فقال له روچرز : واصنع فىّ جميلا يا پوتر ، فلا تسرف فى احتساء الخمر ، حتى لا يضطروا أن يحملوك إلى سريرك ، إننا نريد إعطاءهم فكرة طيبة عنا ، فاحتفظ بوقارك ، وابق صاحياً . أتعدنى بذلك ، يا بنى ؟

قال پوتر : أقسم بشرفى أن أحقق رغبتك ، وأشرب أقل ما يمكن . .

وحين انصرف پوتر من مجلسنا ، اكتسى وجه روچرز بمظاهر الجد ، وتطلع بحدّة إلى ذى الساق الخشبية . . جاويشه القديم العزيز . . ثم قال له : كفاك تلميحاً ، فأنا أريد منتهى الصراحة . .

وقرب ماكنوت كرسيه إلى المائدة ، وقال هامسا : أتعرف ما يبيته لكم روبرتس ؟

قال روچرز : أعرف ما سمعته عن نواياه ، فقد حدثونى بعزمه على إقناع الشعوب الهندية الستة بنقل بضائعها إلى المحطات التجارية ، وبيعها هناك . . وغرضه من ذلك أن يحول دون اختلاطهم بالتجار . . ولكنى لا أصدق هذا الكلام . . فچونسون يعرف عن يقين أن الهنود لن

www.ibtesama.com

يقبلوا السفر إلى ميكيليماكيناك ، وإذا لم يذهب التجار إليهم ، فلن يرضى هندى واحد بقطع هذه المسافة الطويلة .

قال ماكنوت : هذا أقل كثيراً من الحقيقة ، وأنت لم تسمع إلا جانباً صغيراً من الخبر اليقين . . فهل تعدنى يا سيدى الصاغ ، إذا أخبرتك بالباقى ، أن تحتفظ بالمعلومات لنفسك ، ولا تذكرها لمخلوق على وجه البسيطة ؟

قال الصاغ فى صرامة شديدة : ومن أين أتيت بالمعلومات التى تشير إليها ؟

قال : من أين أتيت بها ! من أين تظننى أتيت بها ؟ . . لقد أصدر جونسون أوامره إلى روبرتس ، فذهب هذا وحدث زوجته الهندية بها ، فلم يكن منها سوى أن نقلت الخبر إلى كل هندى أحمر فى الدنيا . . وأنا أيضا تزوجت أميرة هندية ، إنها أجمل وأصغر من زوجة روبرتس . . وقد علمتها أن تحدثنى بكل ما تسمعه وإلا أذقتها ويل هذه الساق الخشبية . . ليس أسهل من أن أخلعها ، وأنهال بها عليها ، حتى ألهب جسدها . . وأنا أعرفك يا سيدى الصاغ ، رجلا مهذبا تكره ضرب النساء ، لذلك أرجوك ملحاً أن تكتم المعلومات عن أقرب الناس إليك ، فقد ينالنى ضرر شديد إذا عرف أحد بأننى مصدر الخبر ، وعندئذ

www.ibtesama.com

أضطر إلى تأديبها جزاء ما نالنى بسبب حديثها . . فهل تعدنى ، يا سيدى الصاغ ، بالكتمان ؟

قال روچرز : لك ذلك ، فإلىّ بما عندك من أخبار .

قال ماكنوت فى لهجة التواضع : لم يبق سوى القليل . . فهذا الروبرتس مكلف بالعمل هنا فى أوسويجو . . وأنت تقوم الآن بمهمة الحاكم ، ولسوف تظل حاكما حتى يأتى چونسون .. ومعنى ذلك أنك ستظل طوال هذه الفترة رئيسه .

قال روچرز : أجل ، فماذا فى ذلك ؟

قال ماكنوت : المسألة أن الهنود يراقبون الموقف بمنتهى الدقة . . ينتظرن ما يحدث بين الرئيس ومرءوسه . . بين الحاكم ومبعوث چونسون . . إنهم يهتمون بما سوف تسفر عنه العلاقة بينكما .

قال الصاغ فى حيرة واضحة : ما تسفر عنه العلاقة بيننا ؟ وما شأن الهنود بأمر كهذا ؟

قال ماكنوت : المستقبل يهمهم . . أقصد عندما تذهب إلى ميكيليماكنياك . . فقد يحدث فى وقت ما أن يرقى چونسون صديقه روبرتس إلى مرتبة المبعوث السامى ، ثم يرسله إلى ميكيليماكيناك ، ويعطيه فوق ذلك من السلطات ما يجعله فوق الحاكم .

www.ibtesama.com

صاح روچرز — وهو يضرب المائدة بقبضته : فوق الحاكم ؟ !

قال ماكنوت فى تنهدة : إنه مجرد فرض يسترعى اهتمام الهنود ، ويغريهم بمتابعة الموقف بينك وبين روبرتس ، ومراقبة ما ينتهى إليه . .

ونظر روچرز إلى « جاويشه » القديم بغاية الجد ، ثم نهض من مقعده ، ووقف منتصبا وهو يضع قبعته العسكرية فوق رأسه . . فوجدته فى هذه الهيئة يعود إلى صورته القديمة . . حين سار بالمتطوعين إلى سان فرانسس وعاد بهم منها . .

قال روچرز : لسوف ترى . . إننى الآن قائد هذه المنطقة . . ومن واجبى أن أخرج إلى القلعة ، لأتفقدها ، وأبحث عن مواطن الخطأ فيها . .

* * *

أعتقد أن البيض يشتركون معا فى خاصية واحدة : فهم يحبون أن يروا كبارهم يسلكون سبيل العظمة فى كل تصرفاتهم ، وإذا تساهل أحدهم فى إبراز أهميته ، فما أسرعهم إلى الاستهانة به ، والإقلال من قدره ..

www.ibtesama.com

ولقد كان روچرز يدين بمذهب البساطة ، ويكره التعالى والتكبر . . تراه فى معاملاته العادية مع الناس باسم الثغر ، حلو المعشر ، بعيداً كل البعد عن التمسك بمظاهر الرسميات ومقتضياتها ، فجعلتنى أخلاقه المطبوعة على التواضع ، أعتبره إنسانا عاديا . . وأكاد أنسى وأنا فى صحبته أن العالم لم ينجب بعد مثيلا له فى قدرته على مقاتلة الهنود ودحرهم . . وأنه قضى خمسة أعوام بأصيافها وشتاءاتها يطارد الهنود المعادين لإنجلترا ، وينزل بهم الخراب تلو الخراب ، كأنه روح الغابة المنتقمة . . أجل ، كاد ببساطته ينسينى أنه مقاتل لا يبارى ، وأنه ألف كتابين وتمثيلية ، واستحق أعظم التقدير من القائد آمهرست وأكبر حكام إنجلترا . .

ولكن الهنود لم يُجبَلوا على سرعة النسيان مثل إخوانهم البيض ، فظلت بطولات روچرز حية فى أذهانهم ، ولم تلههم بساطته عن عظمة شخصيته فى حقيقتها . . فلما حملنا قارب ماكنوت إلى معسكرهم ، تجمعوا حولنا فى حشد كبير من الرجال والنساء والشباب والأطفال . . وازداد الجمع بسرعة مطردة ، فأخذنا نبطئ فى سيرنا

www.ibtesama.com

بالتدريج ، حتى اضطررنا إلى التوقف تماماً عند ما اعترض طريقنا خمسة من زعماء قبيلة الأوتاواس يرتدون ثياباً أنيقة صنعت من جلد الغزال ، وتبدو عليهم مظاهر العظمة والجلال . . وفهمت من سياق الحديث أن ثلاثة منهم كانوا برفقة الزعيم پونتياك فى اجتماعه بروچرز قبل خمسة أعوام ، يوم ذهب للاستيلاء على بعض المواقع الفرنسية ، فانتهزها فرصة وتفاوض مع الهنود .. أما الاثنان الآخران ، فقد بعث بهما پونتياك مع مائة من مقاتليهم الأشداء لمرافقة روچرز فى رحلته بين جزيرة بريسك ومدينة ديترويت .

وحينما وقعت أنظار روچرز على أصدقائه القدامى ، فتح لهم ذراعيه مرحبا ، وربت على أكتافهم الواحد بعد الآخر ، وهو يناديهم بأسمائهم . .

قال مهللا : مرحى . . مرحى .. مرحى . . والله ماكنت أتوقع أن أقابلكم هنا . .

ولم يكن من شك فى أنه حقيقة سعيد بلقائهم ، ففاضت وجوه الزعماء بالرضا والاغتباط . .

www.ibtesama.com

وأخذ روچرز يتفحص بأصابعه ثيابهم الجلدية الجميلة المطعمة بأشواك القنفذ المصبوغة ، وظل يهز رأسه فى إعجاب شديد ، فى حين حاول الزعماء أن يتظاهروا بالهدوء . . .

قال لى : أليست هذه الثياب جميلة ؟ يقينى أنك لم تر لها مثيلا فى حياتك . .

والتفت إلى ماكنوت يقول : أبلغهم ، أيها الجاويش ماك ، كم أنا سعيد بلقياهم . . أبلغهم أن ذكراهم لم تبرح ذهنى لحظة واحدة ، لاهم ولا زعيمهم العظيم بونتياك . . وأننى وصفتهم جميعاً فى كتاب ألفته أخيرا ، ولسوف يصبحون إلى الأبد من أشهر الناس . . قل لهم إننى أطوف اليوم بمعسكرهم لمجرد المشاهدة ، وغداً أزورهم بصفة رسمية . . قل لهم إننى أرجوهم الاهتمام بصديقى لانجدون تاون ، فهو رسام بارع ، وقد صنع لهم صوراً جميلة تجعل أبونا الكبير الأبيض يرى كيف يكون زعماء الهنود ، وماذا يرتدون . . ودقق فى ذكر هذه النقطة ، يا ماك ، وأبرزها بمنتهى الفصاحة والوضوح .

وتحول اهتمام الهنود من روچرز إلىّ ، ومروا بأيديهم على شعورهم الطويلة يعيدون تنظيمها ، وأعادوا وضع

حقائب العقاقير على ظهورهم بطريقة أفضل ، وكسوا وجوههم بمسحة جديدة تزيدهم عظمة ونبلا . .

قال روچرز حين انتهى ماكنوت من ترجمة حديثه للهنود : اسألهم عما إذا كانت أمورهم تسير على ما يرام . . لا أريد شكاوى رسمية ، فأنا على أتم الاستعداد للاستماع إليهم بصفة ودية إذا كانوا يجدون فى التصرفات المحلية ما لا يرضيهم . .

قال ماكنوت فى لهجة القلق : ولماذا لا تأتى بمترجم من القلعة ؟ ما أنا سوى تاجر لا أكثر ولا أقل . .

قال روچرز : بل اسألهم أنت ، أيها الجاويش . .

وتكلم ماكنوت مع الزعماء الخمسة باختصار ، فأجاب « كابيس كانك » بصراحة ووقار . . وارتفعت أصوات المتجمعين حولنا فى تمتمة مبهمة ، وامتلأ الجو بروائح العقاقير ودهن الدببة وزيوت الشعر ، واختلط هذا كله بالعطر المألوف لدى الهنود وقد امتزج برائحة فراء الحيوانات المتوحشة . .

ولما سكت الزعيم الهندى عن الكلام ، قال ماكنوت : إنها شكواهم المألوفة ، فهم يعارضون فى مجىء التجار إلى هذا الجانب من النهر ، ويرون من الأفضل ألا يقتربوا من

www.ibtesama.com

معسكر الهنود إلى هذا الحد ، فالتجار لا يكفون عن بيع الخمور لشباب الهنود ، وكل ليلة يسكرونهم ببضاعتهم الخبيثة ، الأمر الذى قد يؤدى إلى وقوع حوادث عنيفة . . ويقول أيضا إن الخمر تخرج رجال قبيلة هيورون عن وعيهم ، وتدفعهم إلى التطفل على معسكر الأتوتاداس لسرقة فراء رءوس الأعداء ، ويحتمل أن تنشب الحرب بين القبيلتين نتيجة لهذا الاعتداء . .

قال روجرز : أعتقد أنه كلام معقول ، ولسوف أبحث شكواهم بنفسى ، وأبذل جهدى فى تحقيق رغباتهم .. ولكن ذكرهم بأننا لا نملك السلطة على التحكم فى التجار ، أو منع الهنود من شراء الخمر . . لا ، إننا لا نملك هذه السلطة ، ولست أستطيع إبعاد التجار إلى الجانب الآخر من النهر حيث يكونون تحت رقابة حامية القلعة . . أما إذا أصر شباب الهنود على اللحاق بهم سعياً وراء الخمر ، فلن يكون فى مقدورنا أن نمنعهم ، والأفضل أن يتولى الزعماء الموقف بأنفسهم ، فيأمروا رجالهم بالإقلاع عن هذه العادة السيئة . .

وبينما نحن فى الانتظار حتى ينتهى ماكنوت من ترجمة كلام روجرز ، رأينا الملازم روبرتس واليوزباشى فوللر

www.ibtesama.com

يهبطان من قاربهما إلى الشاطئ ، ويشقان طريقهما بين الجماهير المحيطة بنا . .

قال فوللر بلهجة أراد أن تبدو عادية : لم نكن نعلم بنيتك على زيارة معسكر الهنود بهذه السرعة ، ولو أخبرتنا لأرسلنا معك الحرس اللائق بمكانتك ، حتى يعرف الهنود من أنت .

قال روچرز : لا عليك ، أيها الملازم ، فقد انتشر الخبر سريعا بينهم وكثيرون منهم يعرفوننى منذ جئت إلى هذه المنطقة قبل سنوات ، حين استوليت للقائد آمهرست على مواقعها .

وابتسم بطريقة ساذجة ، أفسدت حيل فوللر ، وجعلته يقف فى مكانه عاجزاً عن التصرف .

قال روچرز : يبدو أنك أبعدت التجار عن القلعة ، وزعماء الأوتاداس يشكون من هذا الوضع ، ولهم الحق . . فالتجار يجب أن ينقلوا إلى الجانب الآخر من النهر حيث نستطيع أن نخضعهم للرقابة العسكرية الواجبة . . ويحسن أن يتم النقل فوراً ، قبل أن تحين لهم فرصة التلاعب ، فالتجار كما تعلم أصحاب ألف حيلة وحيلة ، ولديهم أمهر الوسائل لتحقيق مآربهم .

www.ibtesama.com

قال الملازم روبرتس بهدوء : أخشى أن أكون المسئول عن وجودهم فى هذه المنطقة ، فلقد أصدرت أمرى إلى اليوزباشى فوللر بوضعهم فى هذا المكان ، وذلك تلبية لرغبة سير وليام چونسون ، فعندما قابلته لمناقشة الموضوع قبل حضـــورى إلى هنا ، كان من رأيه أن يبقى التجار على الضفة الشرقية قريبين من شاطئ البحيرة . . إنها تعليمات سير وليام ، يا سيدى الصاغ ، وقد تلقيتها منه شخصيا .

وكان الملازم روبرتس قصير القامة ، عصبياً فى حركاته ، إذا تكلم يعُضّ شفتيه باستمرار ، وينقل نظراته البراقة بسرعة بين وجوه الحاضرين ، وجها بعد آخر . . ومع ما كان يبديه من حرص على الاحتفاظ بمودة جميع المتصلين به ، لمست فى صوته رنة حادة تنم عن غضب مكتوم .

وتركه روچرز حتى انتهى من حديثه ، ثم هز له رأسه وقال : لسنا على استعداد لمواجهة حرب بين مختلف القبائل ، وهو ما لابد أن يحدث إذا سمحنا للشبان الحمقى بالاستمرار فى شراء غايتهم من الروم ، لذلك يتحتم علينا

www.ibtesama.com

أن نسرع بنقل التجار من هذه المنطقة .

قال روبرتس – وقد احتقن وجهه : إنى أحتج على هذا القرار يا سيدى الصاغ ، أجل أحتج ، وليكن الصاغ فوللر شاهدا على ما أقول . . فمن واجبى أن أحتج ، وهذا ما أفعله الآن . .

وتطلع إليه روچرز بدهشة واضحة ، وكذلك تطلع إلى الهنود المتجمعين حولنا فى نصف دائرة ، فوجدهم فى صمت مطبق يتابعون المناقشة بدقة وكأن على رءوسهم الطير . . وبلغ من حدة السكون الذى خيم علينا فى هذه اللحظة ، أن سمعت بمنتهى السهولة صوت كلب يحك عنقه بأظافر رجله ، ولما هز الكلب جسده فى آخر الأمر ، خيل إلى أن الاهتزاز يصدر عن حيوان عملاق . .

قال روچرز : وعلى أى أساس تحتج ؟

قال روبرتس فى صوت يرتجف انفعالا : أساس ؟ أساس ؟ أحتج لأنها أوامر سيرجونسون وتعليماته ، وبناءً عليها كلفت الملازم فوللر بوضع التجار فى هذه المنطقة . .

قال روچرز بحدة : هذه المنطقة لا تتسع لهم فى الظروف الحاضرة ، فعليك أيها الملازم فوللر أن تبلغ التجار التعليمات

www.ibtesama.com

الحديدة ، وتأمرهم بنقل خيامهم وبضائعهم عبر النهر ، ولسوف أحدد لك المنطقة التى أريدك أن تضعهم فيها ..

قال فوللر : حسنا ، يا سيدى الصاغ . .

واستدار فى خطوات بطيئة نحو قاربه .

صاح روبرتس فى صوت ازداد الانفعال وضوحاً فيه : وأنا ألغى هذه الأوامر ، أيها الملازم فوللر ، فسير وليام چوتسون كلفنى بتصريف أحوال التجار ، ومنحنى كل السلطات فى هذا الموقع ، ومن حقى أن أبقى التجار فى مكانهم ، وهو ما أنوى عمله . .

قال روچرز – وقد اكتست نظراته بصلابة رهيبة : لقد كلفت بالمجىء إلى هذا الموقع للإشراف على مجلس الهنود ، وتحقيق مفاوضاتنا معهم ، ولن يلام غيرى إذا اشتبكوا مع التجار . . وأنا لا أنكر إخضاع الشئون التجارية لسلطة الحامية ، ولكنى إذا سمحت لفرد من هذه الحامية بممارسة سلطاته على حساب سلطاتى ، فقد ينتهى المجلس المرتقب بمذبحة تسلخ فيها الرءوس . . وإن وقعت الكارثة فقد تجد تفسيرا يرضى القائد جيج ، أما أنا فلن يمكننى تبرير الموقف بحال من الأحوال . . لقد كُلفت

www.ibtesama.com

بالإشراف على المجلس ، وأعتقد أن وسيلتى إلى ممارسة سلطاتى هى أن أمارسها بالفعل ، ومادمت موجودا فرجائى ، أيها الملازم ، ألا تتدخل فى شئونى .

وترك روبرتس محنقا ، وسار الصاغ فى طريقه إلى قارب ماكنوت ، وأجلس نفسه فى مكان مريح منه ، فتبعناه ، أنا وماكنوت ، إلى الجانب الآخر من القارب . .

وألقيت نظرة على الملازم روبرتس ، فرأيته يقف فى مكانه ذاهلا ، وقد انفض الهنود من حوله ، ورجعوا على أعقابهم يسيرون إلى معسكرهم . .

وسمعت فوللر يقول وهو يتقدم نحو قاربه : أسرع ، أيها الملازم ، فلدىّ أعمال كثيرة يجب أن أنجزها قبل الغروب .

قال روچرز ضاحكا : هذا الملازم روبرتس لا يصلح لمهنة سوى التمثيل ، ولو كنت منه لركزت نشاطى فى الكلام عن شكسبير ، بدل التهريف فى الشئون العسكرية .

* * *

نفذت أوامر روچرز ، ونقل التجار إلى المكان الجديد ، وأخذت الأحوال مظهر الهدوء ، حتى لتظن أن

www.ibtesama.com

ضباط الحامية جميعهم على أحسن العلاقات . . وبدا كأن روبرتس تقبل هزيمته بصدر رحب ، أما الهنود فقد اعتبروا الصاغ ملكاً هبط من السماء لرعاية مصالحهم وإنقاذهم من المتاعب . . وعبروا النهر ، وجلسوا أمام مسكنه فى انتظار خروجه إليهم ، وبادلهم روچرز مودة بمودة ، فكان يزورهم يوميا فى معسكرهم ، ليدخن النرجيلة معهم ، ويأكل معهم أعجب ألوان طعامهم ، ويناقشهم فى الطرق المؤدية إلى آلاف المدن والبلدان .

وبمساعدة ماكنوت ، تأتّى له زيارة المعسكر يوما بعد يوم ، وفى أول مرة اصطحبت آن لتحمل لى أقلامى وكراساتى ، ولكن حينما ذهبت لاستدعائها فى اليوم التالى ، خرجت إلىّ إليزابيث وأخذت ترمينى بتلك النظرات الخبيثة التى بدأت أكرهها ، لما تعودت أن ألقاه بعدها من أمور غير مرضية .

قالت : أليس من الأفضل ، يا لانجدون ، أن تبقى الفتاة معى اليوم ، ألاتعرف أيها العفريت كم انتابنى القلق عليها أمس ، وأنا أفكر فيما قد يحدث لها بين الهنود ؟

قلت ولماذا القلق ؟ إنها تحب الذهاب معى ، ولسوف تتعلم بزيارتها للهنود كثيرا من أساليب حياتهم .

www.ibtesama.com

قالت : تتعلم ما لا يسر ، ففتاة فى مثل سنها الصغيرة لا يصح أن ترى أجسادا عارية ، فالهنود كما تعلم لا يستترون إلا بالقليل .

قلت أقاطعها : ولكنه أمر طبيعى ، فهم يغطون أجسامهم عندما يستدعى الأمر ذلك ؛ وفى الأوقات الأخرى ..

قالت إليزابيث فى تعال : هذا يكفى يا لانجدون ، فالعرى حتى بين المتوحشين ليس بالموضوع الذى يليق أن يناقشه الجنسان . الفتاة أمانة فى عنقى ، وقد حملنى أبوها مسئوليتها ، ومن واجبى أن أمنعهـا من الذهاب .. لن تذهب ، فنحن نحتاج إليها فى أداء خدمات كثيرة .

ولم يكن فى وسعى سوى الانحناء أمامها ، والنزول على إرادتها ، والذهاب إلى الهنود مع ماكنوت دون آن .

وعدت فى العصر إلى قواعدى ، فأسرعت الفتاة إلى الباب تلقانى ، وسألتنى عما إذا كنت انتهيت من رسم الزعيم « كا — بيس — كانك » ؟ وهل أعجب بصورته ؟ وكم من الرجال تجمعوا حولنا ليشاهدونى ؟ وهل فغروا أفواههم دهشة كما فعلوا فى اليوم السابق ؟ وهل قال الجاويش ماكنوت كلاما مضحكا ؟ وماذا قال ؟ وهل حملنى رسالة إليها ؟ وهل اصطحب زوجته الهندية ؟ وهل

www.ibtesama.com

تكلمت أم بقيت على عهدها صامتة ؟

وأعطيتها حافظة رسومى لترى بنفسها ما تريد ، وكذلك أعطيتها سترة من جلد الغزال الناعم ؛ حملتنيها إليها زوجة « كا – بيس – كانك » هدية للفتاة . . وركعت الصبية على ركبتها فوق حشائش الأرض ، ووضعت السترة بجوارها ، وفتحت الحافظة تفحص ما فيها من رسوم ، فنالت صورة الزعيم الهندى إعجابها ، وبكل عناية واهتمام أخذت تدرس الصورة التى رسمتها لزوجة ماكنوت ، وهى تجلس القرفصاء فى وسط القارب ، وأمامها المجداف موضوعا بالعرض . . وبلغ من اهتمامها بهذه الصورة ، أن تغيرت التعبيرات على وجهها ، وخيل إلىّ أنها أصبحت تشبه المرأة الجالسة فى الرسم . . وكان أكثر ما أدخل السرور إلى نفسها ، صورة زوج « كا – بيس – كانك » .

وكنت أنا أيضاً معجباً بهذه الصورة ، التى بدت المرأة فيها وهى تجلس أمام خيمة ملونة . . شعرها مقصوص بعرض جبينها ، ومن أذنيها يتدلى قرط مرصع بالخرز الأزرق اللامع . . وحول عنقها عقد من الأحجار الملونة بالأبيض والأحمر والأزرق . . ثيابها تتكون من سترة جلدية طويلة ، تحلى أطرافها أشواك القنفذ الملونة ، وقد رصت

www.ibtesama.com

فى أشكال هندسية ، وعلى حجرها مهد صغير يشغله طفل هندى ينظر إلى الدنيا من حوله فيما يشبه التعالى والاستهانة . . ويتدلى من خباء المهد شريط قذر يهبط حتى يكاد يصل إلى أنف الطفل ، فلا يفصله عنه سوى بوصة على الأكثر .

وأخذت آن تفحص الصورة بمنتهى الحماسة والاهتمام ، ثم سألتنى وهى تشير إلى الشريط المدلى : ما هذا ؟

قلت : إنها إحدى عادات الهنود ، فبمجرد أن تضع الأم مولودها ، تعلق حبله السرّى فى مهده ، ليطرد الأرواح الشريرة عن طفلها ، ويحميه من الأمراض . .

وبدت الحيرة فى وجه آن . وأخذت تتفرج على الرسوم بعناية شديدة ، فسرنى اهتمامها العظيم بإنتاجى ، وقضينا معاً ساعة ممتعة انتهت حينما ارتفع صوت إليزابيث من الداخل يناديها لتناول العشاء . .

ولم يكن يجلس حول مائدة العشاء فى ذلك المساء سوانا نحن الأربعة ، ولما انتهينا من تناول طعامنا ، انصرفت إليزابيث وآن ، وبقيت أنا والصاغ وحدنا نحتسى كئوس النبيذ فى ضوء الشموع . وبعد عشر دقائق ، ارتفع صوت إليزابيث من الداخل ، وطلبت من الصاغ أن يذهب إليها .

قال : اللعنة ! .

www.ibtesama.com

وأفرغ ملء كأسه فى فمه دفعة واحدة ، ثم قام إلى زوجته بمنتهى الطاعة والاستسلام .

وارتفعت الأصوات من الداخل ، وتناهى إلى سمعى صراخها الحاد يعلو من وراء الأبواب المقفلة ، ثم صوته يسترضيها ويهدئها ، كأنها غاضبة وهو يصالحها .

وبعد وقت عاد والضيق الشديد واضح فى وجهه .

ومد يده إلى زجاجة النبيذ يملأ كأسه من جديد ، وقال فى صوت يشبه الأنين : آه لى .. آه لى ..

قلت فى عطف : هل من خدمة أستطيع أن أقدمها إليك يا سيدى الصاغ ؟

قال : أجل يا لانجدون ، فبحق الجحيم أنت السبب فى هذا الإشكال كله ..

قلت : أنا السبب ، يا سيدى الصاغ ؟

قال يحذرنى بانفعال : أجل .. ولو كنت منك ، لابتعدت عن إليزابيث فى الأيام القليلة القادمة ، فقد تسببت فى توتر أعصابها وإثارة براكين غضبها .

قلت – ولم أفهم ما يعنيه : كيف أثرت براكين غضبها ، ولماذا ؟

قال : إنها تريد أن أبلغك استنكارها ، وتصر على

www.ibtesama.com

ضرورة إبعاد رسومك عن آن . . فلقد كنت السبب فى أن الفتاة سألتها عن الحبل السرى !

قلت : ماذا ؟

قال ووجهه يتورد : هذا ما قالته لى . . قالت إن آن أرادت أن تعرف ماهو الحبل السرى بعد أن رأته فى إحدى صورك يتدلى من سلة ، وتعتقد إليزابيث أنه ليس من الكياسة والأدب أن تفعل ذلك ، و . .

ثم أمسك عن الحديث فجأة ، وقال وهو ينظر إلىّ باهتمام : ماذا كان يفعل الحبل السرى فوق السلة يا لانجدون ؟ الأمر يبدو غير مألوف حتى فى صورة ، ولقد كانت إليزابيث فى ثورة جامحة فلم تترك لى فرصة للتفكير ، ولكن ذهنى هدأ الآن نوعاً ، وأحب أن أعرف . . فأى نوع من السلال ذلك الذى رأته آن فى رسمك ، وحبل سرة من ؟ . .

وشرحت له الموضوع ، فتأملنى بنظرة عجيبة ، وبعدها انفجر يضحك بأعلى صوته .

قال : آه . . طفل هندى . . فهمت الآن . . أى والله فهمت . . أفهذا ما أثار براكين غضبها ؟ تصور كم يقاسى الأزواج المساكين من نسائهم . . ولكنك لست زوجها على

www.ibtesama.com

كل حال ، فاحمد الله على هذه النعمة . . إذ فى وسعك أن تبقى على بعد منها ، الأمر الذى لا أستطيعه أنا . وطبيعى أنها لم تجب الفتاة على سؤالها ، فالسيدات المهذبات فى رأيها لا يصح أن يكون لهن حبل سرّى . . وقد بذلت مافى وسعى لأقنعها ببساطة الموضوع ، وأفهمها أن السيدة المهذبة مادامت تقبل السفر إلى ميكيليماكيناك ، فهى عرضة لأن تسمع سباب البحارة وهم يسبحون إلى الشاطئ بعد انقلاب زورقهم ، أليس كذلك ؟ .. وقلت لها : « والله يا إليزابيث إن صور الحبال وما شابهها لا يصح أن تعتبر وقاحة أوخروجا على الأدب » . . ولكنى لم أستطع النطق بكلمة « سُرّية » ، فقد رفضت أن أكررها على مسامعها ، وبعد أن قلتها مرة ، وضعت يديها على أذنيها ، وصرخت فى وجهى . . على كل حال يحسن أن تبتعد عنها لفترة من الوقت ، يا لانجدون .

ووافقته على نصيحته ، ووعدت بالابتعاد عن آن على قدر الإمكان ، وكنت مصمما على ذلك ، فلم يكن مما يرضى كرامتى أن يعتبرنى أحد صحبة سوء لفتاة صغيرة ، خصوصا إذا كانت آن . . وخيل إلىّ أن تصرفات إليزابيث ، ومضايقاتها المتكررة ، جعلتنى أكره الفتاة الصغيرة ، وأوثر البعد عنها .

www.ibtesama.com

وفى صباح اليوم التالى ، جلست على الحشائش خارج مسكننا ، أتسلى بتنظيم أقلامى فى انتظار ظهور رأس ماكنوت الأحمر عند مدخل القلعة . فإذا بآن تخرج من الباب مندفعة كأنها طلقة بندقية . . ووقفت أمامى وهى تمد ذراعيها ، وأخذت تدور حول نفسها لتلفت أنظارى إليها . . وكان شعرها مدلى فى ضفيرتين على جانبى وجهها ، وحول رأسها شريط أحمر مثل نساء قبيلة أوتاواس . . وارتدت السترة الجلدية التى بعثت بها إليها فى اليوم السابق زوج « كا — بيس — كانك » ، وانتعلت خُفًّا جلديا ، ولفت ساقيها بقلاشين ذات ذوائب بنية اللون ، وكانت السترة واسعة فضفاضة تصل أطرافها إلى ركبتيها ، وعلى صدرها نقوش تشبه حيوان القندس ، وذلك لانتماء زوج « كا — بيس — كانك » إلى عشيرة القندس التابعة لشعب أوتاواس . .

وتأملتها فى دهشة ، وخيل إلىّ أن الفتاة نمت وكبرت فجأة خلال الأيام القليلة الماضية ، فأصبحت أطول وأرق وأنضج ، ولعله الأثر الذى عكسته عليها السترة الهندية ذات الألوان الفاقعة .

قالت تسألنى بحماسة : هل تعجبك ثيابى ، أوَلست تراها جميلة ؟ .

www.ibtesama.com

قلت – وأنا أكتم إعجابى الشديد بها : أظنها على ما يرام .. فقط تنقصها بعض الأحجار الملونة . . بعض الخرز الأحمر . . الأحمر الزاهى . . وسأحاول أن آتيك بجانب منه .

وقفزت طربا . . ثم رأيتها تنكمش فجأة فى نفسها ، وقد اكتسى وجهها بالجمود والبرود ، واتخذ ظهرها مظهر الثقل ، والتوت قدماها ، وتراخت ساقاها ، وعقدت ذراعيها على معدتها ، ولوت جسمها بشكل جعلها تبدو كأنها تميل إلى الوراء . . وعلى هذا النحو أخذت تسير حولى بخطوات بطيئة ، فأدهشنى كيف أمكنها أن تتحول فى لحظة خاطفة من فتاة بيضاء جميلة رشيقة ، إلى نسخة طبق الأصل من الأميرة الهندية زوج ماكنوت .

وقمت واقفاً وأنا أشهق متعجبا . .

فرمتنى الفتاة بنظرة هادئة مخيفة ، وأطلقت من فمها صوتا يشبه صياح الديك ، ثم التفتت إلى الناحية الأخرى ، وسارت مبتعدة عنى ، فبدا لى ظهرها كأنه لهندية مولدة شحيمة .

وكان منظراً مضحكاً للغاية ، فانفجرت مقهقهاً بأعلى صوتى .

www.ibtesama.com

ثم لم ألبث أن رأيت نظراتها تتخطانى إلى البيت ، واعتراها تغير فجائى ، جعلنى ألتفت بدورى . . فإذا بإليزابيث تقف عند الباب ، وقد ارتدت سترة قصيرة تحتها مجولة مخططة ، وعلى رأسها قلنسوة مطرزة . . وتجلت فى نظراتها مظاهر الغضب الشديد .

قالت فى صوت أبرد من الثلج : آن . . عودى لفورك ، وارتدى ملابسك .

قالت الفتاة فى حيرة واضحة : كنت أعتقد . . كنت أريد . .

وخانها لسانها، فلم تكمل حديثها . .

وتبخرت حيويتها ، فقالت فى تخاذل تام : ألا يمكننى . . ألا يمكننى أن أذهب اليوم معه ؟

صاحت إليزابيث تقول مرة أخرى : عودى لفورك .

وكان يحسن بى أن ألزم الصمت ، وألا أتدخل فى الموقف حتى لا أعطى إليزابيث فرصة تظهر فيها سلطتها ، ولكنى اندفعت دون أن أدرى إلى ارتكاب غلطة أخرى ، وبمنتهى البلاهة وجدتنى أقول لها : لماذا لا تسمحين لها بمرافقتى ، يا إليزابيث ؟ ليس هناك أدنى ضرر فى ذهابها

www.ibtesama.com

معى ، فلسوف يسعد أسرة « كا – بيس – كانك » أن تزورهم الفتاة فى ثيابهم . . بل الهنود جميعهم يغتبطون بلمحة كهذه ، وقد يستفيد الصاغ من ذلك فى تحقيق أغراضه .

وظلت إليزابيث منتصبة فى مكانها ، وهى ترمينى بنظرات حافلة بالعداء السافر .

قالت فى صرامة : إننى فى احتياج إليها ، وحتى إذا لم أكن كذلك ، فليس فى نيتى أن أسمح لها بالذهاب معك . . يجب أن تعود الفتاة إلى البيت لفورها . . وتخلص نفسها من هذه الملابس الفاضحة .

قلت : فاضحة ؟ ماذا . .

قالت تقاطعنى : هذه الثياب فاضحة ، وإذا كانت أمك لم تعلمك إلى اليوم يا لانجدون أن المرأة الفاضلة لا يصح أن تكشف عن ساقيها ، فقد حان الوقت لأن تتلقى هذه الأصول من شخص آخر ، وأخشى أنك لست بالصحبة الطيبة لفتاة مثل آن .

ثم التفتت نحو آن تقول لها : هل سمعتنى آمرك بالعودة إلى البيت فوراً ؟ .

www.ibtesama.com

ونكست الفتاة رأسها ، وسارت إلى الباب فى خطوات ثقيلة .

فالتقطت من الأرض حافظتى وصندوق أقلامى ، واتجهت إلى أبواب القلعة أقابل ماكنوت ، وأنا أسب فى نفسى إليزابيث براون بألفاظ لو سمعت أحداً يصفها بها منذ سنوات ، لقتلته رمياً بالرصاص ! . .

** معرفتي **
www.ibtesama.com
منتديات مجلة الإبتسامة

www.ibtesama.com

الفصل الثالث عشر

بعد أن قضينا أسبوعا فى أسويجو ، وصل الزعيم بونتياك وبصحبته أهم قواده وأكثرهم نفوذاً وسلطة .

ومنذ مجيئه ، كاد روچرز يختفى تماما عن بيته ، لأن بونتياك لم يكن يطلب رؤية أحد سواه ، ومن أجله فقط تكبد مشقة السفر إلى أسويجو . . وكان يبعث فى استدعاء الصاغ مع بداية كل نهار ، ويبقيه فى صحبته إلى ما بعد الواحدة صباحا ، فأدهش فى نفسى وأتساءل عن الأحاديث التى يمكن أن تشغلهما أربع عشرة ساعة يوميا .

ورأى رجال الحامية هذه الصداقة الوطيدة بين قائد المتطوعين وزعيم الشعوب الهندية ، فانتابهم أشد القلق ؛ إذ كانوا يتوهمون أن بونتياك لا يمكن أن يظهر اهتماما بأحد من البيض سوى سير وليام چونسون . . وأعتقد أن القائد الإنجليزى هو الذى أوعز إليهم بهذه الفكرة ، وصور لهم أن الهنود جميعهم ملك خاص له ، وليس لغيره أن يقترب منهم أو يتعامل معهم .

وثارت إليزابيث على غياب زوجها عنها ، وأظهرت احتجاجها بعنف شديد . وحدث ذات يوم ، وأنا منهمك

www.ibtesama.com

فى رسم صورة لآن بثياب الهنود ، أن سمعت صوت إليزابيث يأتى من النافذة المفتوحة ، وكانت تقول لزوجها بحدة : لقد عدت فى الثانية صباحا ، وهأنتذا تخرج مرة أخرى قبل السادسة دون أن تتناول إفطارك . . تخرج دون أن تودعنى أوتبادلنى الحديث . . ولن أراك ثانية قبل منتصف الليل ، وحتى إذا احتجت إليك ، فلن أستطيع العثور عليك . . تتركنى أقاسى الوحدة يوما بعد يوم ، لا أنيس لى ولا جليس كأننى امرأة غير متزوجة . . فأى عيشة هذه ؟ وماذا أفعل ولا رفيق لى سوى فتاة صغيرة تصرعلى التزام الصمت فى أثناء غيبتك ؟ إلى أين تذهب ، وأى نوع من الناس تقابل ؟ الله وحده يعلم ما تفعله طوال غيبتك عنى ، وكل ما أسمعه منك هو بونتياك . . بونتياك . .بونتياك . . فليكن فى علمك أننى سئمت هذا المخلوق الأحمر القذر ، ولو كنت أهمك حقيقة ، ما توانيت عن قضاء بعض الوقت فى بيتك بدل تسكعك عبر النهر فى أماكن قذرة مدخنة . لماذا لا تترك أمر هذا المخلوق الأحمر القذر للملازم فوللر أو الملازم روبرتس ؟ لماذا لا تبعث برسول إلى سير وليام چونسون يبلغه برغبتك فى مجيئه ، حتى ينهى هذا المؤتمر ، ويريحنا من بلواه ؟ مادام يريد أن يعقد مع الهنود مؤتمرا ،

www.ibtesama.com

فأولى به أن يتولى المهمة بنفسه ، ولا يلقى بها على عاتقك . لماذا تسمح له بتسخيرك فى أعماله ؟ . . ألست وحق السماء رجلا ؟ ! .

عندئذ اندفع الصاغ خارجا من بيته وأزرار سترته مفتوحة . . حزامه على ذراعه . . وقبعته على جانب من رأسه .

وتنهد روجرز فى حنق ، وبعد أن مسح العرق عن جبينه بكم سترته ، أشار إلىّ ، فلما اقتربت منه قال لى : سأقضى اليوم كله فى اجتماع مع بونتياك وقواده الثمانية ، وسيقوم ماكنوت بمهمة الترجمة ، وقد أمر الزعيم الهندى بوضع الحرس حول مكان اجتماعنا حتى لايدخله سوانا ، وإنها لفرصـــة عظيمة تمكنك من أن ترسم بونتياك ، فيحسن أن تأتى معنا .

وأخرجت من الدرج صورة آن التى لم أنته منها بعد ، وقلت للفتاة : أنا مضطر إلى الخروج مع الصاغ ، فاحتفظى بهذا الرسم حتى تحين فرصة أخرى لإتمامه .

وهزت الصبية رأسها مؤمنة على كلامى ، ثم ركعت على ركبتيها ترتب حافظتى وصندوقى ، قالت : لست أرى هنا سوى حامل واحد للأقلام ، وأصبعين من

www.ibtesama.com

الطباشير الأصفر ، أفلم تقل إن أولئك النسور الحمر يحبون طلاء أجسامهم باللون الأصفر ؟

وعدت جريا إلى البيت ، وصعدت السلم بأسرع ما يكون ، وأتيت بمزيـد من حوامل الأقلام وأصابع الطباشير الأصفر ، ولما رجعت بعد أداء هذه المهمة ، وخرجت فى صحبة الصاغ ، تعلقت الفتاة بذراعىّ ، وسارت معنا إلى شاطئ النهر .

ومن خلفنا ارتفع صوت إليزابيث الحاد يقول فى مقاطع منغمة : آن . . آن .

وهبطت يد آن عن ذراعى ، وأمسكت أصابعها بأصابعى لحظة .

نادت إليزابيث مرة ثانية : آن . . آن . . الإفطار يا آن !

ودارت الفتاة على أعقابها ، ورجعت إلى البيت فى خطوات بطيئة .

والتفت روچرز نحوها ، وألقى عليها نظرة ثم قال ونحن نحث الخطى إلى الجهة الأخرى : لقد كبرت وأصبحت جميلة ، فكم تبلغ من العمر ؟

قلت : ستة عشر عاما على وجه التقريب .

www.ibtesama.com

وصفر روچرز دهشة ، واتسعت عيناه وازداد جفناه تدليا .

قال : أعتقد أنها أخذت جمالها عن أمها ، وأعتقد أن ناتى خسر صفقة رابحة ، حين ترك زوجه تفلت من يديه .

قلت : وأين يذهب الرجل ؟ لم أره منذ قدومنا سوى مرة فى الأسبوع على أكثر تقدير .

قال روچرز : عليه اللعنة . . إنه يقضى معظم أوقاته مع الملازم روبرتس . . روبرتس يسقيه الروم مجانا .

ثم هز رأسه وأردف : أتعرف يا لانجدون أن أحكم إجراء اتخذته فى حياتى ، هو الاحتفاظ بموضوع الممر الشمالى الغربى سراً بينى وبينك ، لا يعلم به سوانا . . وقد أشركتك معى لكونك صاحب الفضل فى إرشادى إلى كتاب دوپ . ولو علم ناتى ، لأفشى السر فى جلساته العربيدة مع روبرتس . . ولن يتردد روبرتس فى إبلاغ چونسون بالموضوع ، الأمر الذى ينسف المشروع ويقضى عليه نهائيا . إنها الحقيقة ، يابنىّ .

* * *

www.ibtesama.com

عرفت فى ذلك اليوم ما يدعو الصاغ إلى قضاء ساعات طويلة فى صحبة پونتياك . . فبينما نحن مجتمعون فى جزيرة صغيرة تبعد ثلاثة أميال عن أسويجو ، توهم لى فى بداية الأمر أن پونتياك وقواده الثمانية لا يعنيهم من شئون الدنيا سوى تدخين النرجيل ، ومص الشفاه ، والحملقة فى الفضاء الواسع أمامهم صامتين .

والواقع أن پونتياك رفض أن أرسمه بزيه اليومىّ البسيط : بل إنه كان يشك فى حكمة المبدأ على الإطلاق ، ويكره أن يسمح لأحد برسمه ؛ خشية أن يستغل أعداؤه الصورة فى الإساءة إليه ، فيغرسوا الدبابيس فيها ، أو يضربوها بالرصاص ، أو غير ذلك من الوسائل السحرية التى يؤمنون بفائدتها فى التنكيل بخصومهم .

ولكنه غير رأيه حين بدأ روچرز بنفسه ، فجعلنى أصنع له رسما تخطيطياً قدمه بيده هدية لپونتياك .

قال لماكنوت : أبلغه أننى أهديه صورتى ، وأطلق له حريته فى ضربها بحرابه ، فلن يصيبنى ذلك بضرر كثير أو قليل .

وقلب پونتياك الصورة بين يديه ، وأخذ ينظر متأملا فى الوجه المرسوم ، ثم وضعها فى حقيبة العقاقير التى

www.ibtesama.com

يعلقها على كتفه ، واقترح أن يبعث بأحد رجاله إلى خيمته ليأتيه بغطاء رأسه الرسمىّ . . ولما أفهمته ألا داعى لذلك ، جلس على ملاءته متصلب القامة ، ينظر أمامه فى صمت .

وكان فى پونتياك ما يستوقف النظر ويدعو إلى الإعجاب ، ووجدت فى كل لمحة من لمحاته وحركة من حركاته من دلائل الوقار والعظمة والجلال ما وصفه روچرز فى تقريره المختصر ، وأبرزه فى التمثيلية التى كتبها فى لندن .

وقد ذكره روچرز كأعظم من أنجب الهنود على وجه البسيطة ، وأقدرهم على توحيد كلمة الشعوب الهندية ، وجمع شملها تحت لواء واحد . . ولولا تساهله فى عقاب المتمردين على النظام من رجاله ، ما صعب عليه أن يدحر الإنجليز ، وينصب نفسه إمبراطوراً على المناطق الغربية بكاملها لسنين قادمة .

وجاء هذا الوصف متفقا مع الحقيقة بحذافيرها ، فلم يكن من هندى سوى پونتياك يستطيع بقوته وخبرته وحنكته أن يوحد صفوف الشعوب المتخاصمة مثل الأوتاواس والشيپوى ووانيدوت وميامى وپوتاواتوى

www.ibtesama.com

وميسيسوجو ومشوانير وسوكى وأوتاجوى وونتباجو . .
فبعض هذه الشعوب كان متحالفا ، وبعضها الآخر متخاصما ، ومع ذلك أمكن پونتياك أن يضم شملهم ، ويصفّهم جميعاً تحت لوائه وزعامته . . ومما يؤكد قدرته الفذة وذكاءه العظيم ، تلك العبقرية التى أظهرها فى تنظيم حملة عام ١٧٦٣ خلال أسبوعين فقط ، واستطاع بهذه الحملة الاستيلاء على مختلف مواقع الإنجليز فى فينانجو وجزيرة پريسك ومدينة لابوف وسان چوزيف وميامى وأوتشتامون وساندوسكى وميكيليماكيناك . . وكان يحتمل أن يستولى أيضا على ديترويت لولا أن تصدى روچرز لهجومه ، ورده بمهارته الفائقة فى مقاتلة الهنود . . وفوق هذا كله أظهر پونتياك قدرة على تنظيم الشئون الداخلية لرعاياه ، فيسر لهم عقد القروض بشروط سهلة ، أقنعت الشعوب المتحدة بضرورة مقاطعة البضائع الأوروبية ، والاعتماد التام على مواردهم الخاصة فى توفير مأكلهم وملبسهم وحاجات معيشتهم .

كان ولاشك هنديا ذكيا . . أذكى من معظم الساسة البيض ، وقطعا أكثر منهم أمانة ونزاهة . .

وبينما كنت منشغلا برسم پونتياك ، تبينت من سياق

www.ibtesama.com

الحديث غرض روجرز من اجتماعه بالزعيم الهندى وقادته الثمانية . فلقد كان الصاغ يسعى وراء معلومات ليس فى وسع هندى آخر أن يمده بها . . فالاجتماعات الهندية العادية تفتح أبوابها دائما لمن يريد أن يدخلها من الهنود . . لأن الهندى سيد نفسه وليس أدعى إلى إثارة غضبه من أن يتدخل أحد فى حريته . . يذهب حيثما يريد ، ويحل أينما يحلو له ، وإذا عنّ له أن يدخل بيتا لا يعرف أصحابه ، يفعل ذلك بلا أدنى تردد ، فيقابل بالترحيب . .

ولم يسبق لروجرز أن عقد اجتماعا خاصا مع پونتياك ، لأن الهنود لم يألفوا هذا اللون من الاجتماعات ، ولولا ما يحمله الهنود لزعيمهم من أعظم الإجلال والاحترام ، ما أمكن للصاغ أن يخلو إلى پونتياك وقادته الثمانية فى جلسة يحرسها عشرون محاربا ، مهمتهم أن يمنعوا دخول أحد من الهنود سوى التسعة الكبار . .

وتبين لى الغرض الذى يرمى إليه الصاغ ، فلقد كان يريد أن يعرف من پونتياك رأيه فى تصميم سيروليام چونسون على منع التجار من السفر إلى مواطن الشعوب الهندية ، وحصر التعامل التجارى بين البيض والحمر فى

www.ibtesama.com

المواقع البريطانية ، حتى يضطر الهنود جميعهم إلى المجىء بأقدامهم إلى القلاع الإنجليزية من أجل استبدال فرائهم ببنادق ورصاص وسكاكين وخرز وأوان للطهو ، وغيرها من السلع التى يحتاجون إليها . .

قال روچرز لماكنوت : عليك أن توضح لهم أن تصميم سيروليام چونسون على قراره هذا ، يدل على أنه قرار حكيم ، وليس من مصلحتهم أن يخالفوه ، وإذا كانوا يكرهون أن يغضب چونسون منهم ، فعليهم بطاعته وتنفيذ رغباته . . سحقاً له . . وأكد له أننى أنشد صداقتهم ، ومن أجل هذا الغرض النبيل أريد معرفة آرائهم ورغباتهم . . وغاية أملى أن يصدقونى القول ، ويصارحونى بحقيقة شعورهم ، وليطمئنوا تمام الاطمئنان إلى حسن نواياى . . ڤيونتياك يعلم أننى حاربته منذ أربع سنوات ، ولكن الرجال قد يتقاتلون ويتخاصمون ، ثم لا يلبثون أن يصبحوا أصدقاء أعزاء . . أبلغه أننى ذكرته بالخير فى لندن ، وأحسنت الحديث عنه ، وقد أسبغت عليه أكرم الأوصاف فى كتاب ألفته هناك ، حتى يعرف الإنجليز كلهم أن صديقى الزعيم الهندى رجل عظيم . . إنه يعلم بمنصبى الجديد فى ميكيليماكيناك ، فقل له إننى أحترم

www.ibtesama.com

مصالح الملك ومصالح الهنود سواء بسواء ، ولولا فرط رغبتى فى إرضائه وتحقيق رغباته ، ما سألته عن رأيه ورأى زملائه فى قرار سير ويليام چونسون .

ولما ترجم ماكنوت كلامه هذا ، التفت پونتياك نحو قواده ينظر فى وجوههم بتدقيق ، فقابلوا نظراته بعيون ملئها البرود والجمود . . ومضى بعض الوقت والجالسون فى صمت تام ، ثم بدأ الزعيم يتكلم ، وهو ينقر بأصبعه على ركبته تأكيداً لما يقول . وأخذنى الإعجاب بشكله فى هذا الوضع : ساقاه تحيط بهما القلاشين الحمراء ، وذراعاه تطوقهما الأساور الفضية ، وحول عنقه عقد من مخالب النسور ، ورأسه الحليق إلاّ من خصلة حمراء فى الوسط ، تعلوها ثلاث ريشات قرمزية ، مربوطة بشريط من ذات اللون .

قال پونتياك ، وفهمت من تقلص وجه ماكنوت شدة ما يبذله من جهد فى ترجمة الكلام الهندى : لقد جئناكم هنا ننشد صداقة الإنجليز ، ولسوف نتقبل قرارات سير وليام چونسون راضين ، ونترل على إرادته مسلمين . . لن نناقشه ، فقد سمعنا أنه يتضايق كثيراً إذا ناقشه أحد فى قراراته . . وربما يستفيد بعضنا من حمل فرائه إلى المراكز

البريطانية ، ويحتمل أن تنخفض أثمان السلع بعد هذا الإجراء ، ولسوف ننتظر حتى تظهر النتيجة . .

وتطلع بونتياك إلى روچرز فى تأمل وتفكير ، ثم أردف يقول : لن يصاب أحد فى أسويجو بسوء ، فجميع الهنود الذين يتاجرون فى هذه المنطقة أصدقاء لسير وليام چونسون ، وهم يعيشون على مسيرة يومين من القلعة ، فاجتماعهم هنا للتجارة تحقيق لمصلحة عامة . . والأمر كذلك فى نياجرا وديترويت . . فالهنود الذين يشتغلون بالتجارة فى هاتين المنطقتين ، يعيشون قريبا من القلعتين ، وسواء لديهم أباعوا بضاعتهم فى أرضهم أم ساروا بها إلى مواقع الإنجليز ، ومادام سير وليام چونسون يجد السعادة فى استدعاء الهنود إلى قلاعه ، فله ما يريد ، ولسنا نرى ضررا فى تنفيذ رغباته . .

وانحنى فى جلسته إلى الأمام ، واستطرد بلهجة أكثر حماسة ، فقال : ولكن ميكيليماكيناك يا صديقى تختلف فى ظروفها عن جميع المواقع الأخرى ، ولسوف نشك فى حكمة سيرچونسون وذكائه إذا أدخلها ضمن قراره . .

قال روچرز لماكنوت : وأنا معه فيما يقول ، فهناك

www.ibtesama.com

أسباب قوية تجعل لميكيليماكيناك وضعاً يختلف عن غيرها من المواقع ، ولكنى أحب أن تسأله عما يدعوه إلى هذا الكلام ، إذ يهمنى أن أسمع رأيه الصريح . .

وترجم ماكنوت سؤال روچرز ، فالتزم پونتياك الصمت برهة ، ثم التقط من الأرض ثلاثة أحجار مسطحة ، ونظمها أمامه فى شكل دائرى بحيث تجتمع أطرافها فى نقطة واحدة من الداخل ، وتتجه أطرافها الأخرى إلى الخارج . . وفى وسط الدائرة غرس عوداً صغيرا ، ونقره بإصبعه ، ثم نقر الأحجار الثلاثة كذلك ، وهو يطلق على كل منها اسماً معينا . .

قال : هنا فى الوسط ميكيليماكيناك . . وهنا بحيرة هورن ، وبعدها بحيرة متشيجان ، والثالثة بحيرة سوپيريور . .

ومد يده إلى الأرض ، وملأ قبضته بحفنة من الحصى أخذ يرميها واحدة بعد واحدة حول المثلث المرسوم أمامه . . وكلما ألقى حصاة أطلق عليها اسم قبيلة هندية أوشعباً من الهنود : ليكويلى . . وينيپك . . وكيكليستينو . . وأسينپويل . . وكامانستيكا . . ونپيجون . . ولاپوانت . .

www.ibtesama.com

وميشيپكوتين . . وأوتاداس . . وميلواشي . . وونباجو . . وسوكي . . وأوتاجاميس . . الخ .

وأخذ ما يرميه من الحصى يبتعد بالتدريج عن المحور الذى يمثل به ميكيليما كيناك ، يبتعد كثيرا ، وپونتياك ما زال يحدد مواقع القبائل الهندية ، ويقول : وهذه بونيز . . وشينيز . . وكونزاس . . وبونشاز . . وكروز . . وبلاك فيت . . وسيوكس . .

ولما وصل إلى كلمة سيوكس ، نثر ما تبقى من الحصى فى نصف دائرة واسعة ، تبعد تمام البعد عن المنطقة كلها .

ورفع قواد پونتياك الثمانية أنظارهم إلى روچرز ، وفى عيونهم أبلغ معانى الانتصار ، وانفرجت شفاههم عن أصوات مبهجة . .

قال پونتياك : لسوف أستجيب لرغبة أخى ، وأصارحه بأفكارى كما يريد . . فميكيليما كيناك تختلف عن بقية المواقع الإنجليزية فى الجوهر والتفاصيل . . فهى من حيث الأهمية بمثابة الشمس إذا قورنت بوهج ثمار الصنوبر . . إنها أبعد المواقع ، ومنها يطل جنود الملك العظيم على ما لا نهاية له من الأراضى التى يجهلون أسرارها .

www.ibtesama.com

وفى هذه الأراضى التى تبعد عن الشرق مسيرة أيام وأسابيع وشهور ، تعيش القبائل الهندية التى ذكرتها الآن ، وهناك كثير غيرها . . فماذ يحدث ، يا أخى ، إذا تمسك سيروليام چونسون بقراره ، ومنع التجار الإنجليز من السفر إلى هذه القبائل ، وزيارة أهلها فى أرضهم ؟

ولزم روچرز الصمت ، تاركا پونتياك يجيب عن سؤاله بنفسه . .

قال پونتياك فى ابتسامة هادئة : فى وسع أخى أن يجيب عن سؤالى إذا أراد . . فهو يعلم أن منع التجار من تخطى حدود ميكيليماكيناك ، يجعل من المستحيل على آلاف الهنود أن يذهبوا ببضائعهم إلى ميكيليماكيناك . . ليس لديهم من وسائل النقل ما يكفى لحمل فرائهم إلى الشرق . . وسفرهم إلى موقع على هذا البعد ، يضطر الكثيرين منهم إلى ترك نسائهم وأطفالهم دون حماية أو رعاية نصف السنة على الأقل . . وإذا طالت غيبة الرجال تجوع أسرهم ، ويصبح النساء والأطفال عرضة للقتل والسبي ، فهناك قبائل معادية تعيش على مقربة منهم ، ولن تدع الفرصة تمر فى غيبة الذكور . . لا ، إنه أمر مستحيل ، وهنود الغرب لن يقبلوا مطلقا السفر إلى ميكيليماكيناك . .

www.ibtesama.com

واعتدل القادة الثمانية فى أماكنهم ، وشدوا قاماتهم ليسهل على حناجرهم التعبير عن تأييدهم لكلام پونتياك ، وسمعتهم يزمجرون قائلين فى نفس واحد : أوه . . أوه . . أوه . .

وعاد پونتياك إلى حديثه يكرره ، فيقول : لا ، ليس فى استطاعة الهنود أن يذهبوا إلى ميكيليماكيناك . . ولكنهم فى الوقت ذاته لا يستطيعون الاستغناء عن بضائع البيض . . لأنهم فقراء ، ومواردهم لا تسمح باستغنائهم عن الأدوات الضرورية . . وقد ينجم عن حادث عارض أن تحرم أسرة كاملة من الصيد طول الشتاء . فمن الخطر أن ينكسر زناد بندقية ، إذا خلت المنطقة من تاجر لديه أزندة جديدة أخرى . . والأمر كذلك فى البلطة والسكين . . وقد ينقلب زورق وتبتل زكيبة واحدة من البارود ، فتكون النتيجة أن يحرم قوم من صيد السنة كلها . . ولكن الوضع يختلف إذا أمكن تعويض الخسارة بشراء بارود جديد من تاجر يتعامل مع الهنود . . فهل ترضى أسرة هندية بالسير ثلاثة أشهر ، حتى تصل إلى ميكيليماكيناك من أجل تغيير زناد البندقية المكسور ، أو تبتاع ملء زكيبة من البارود ؟ إنك تطلب المستحيل ، يا أخى ، وما من هندى يرضى بهذا التهريف . .

www.ibtesama.com

الموضوع كله سخيف ، والفكرة طائشة . بل أكثر من طائشة . . إنها مجردة من العقل ، وتنطوى على قسوة بالغة ، ولن يترتب عليها سوى متاعب أبشع من أن توصف .

وسكت برهة ، ثم أردف يقول : إذا تمسك سير وليام چونسون بقراره ، فستكون النتيجة أن يلجأ الهنود إلى التجار الفرنسيين والإسپانيين ، ويدعوهم إلى قضاء الشتاء معهم فى أرضهم .. ولعل أخى يعرف أننا نمنح صداقتنا لمن يعيش تجارهم معنا ، فإذا منعتم تجاركم من تخطى حدود ميكيليما كيناك يفقد ملككم فرصة التعامل مع القبائل القريبة . . ومعناه أن يذهب فراؤنا إلى الفرنسيين والإسپانيين المقيمين وراء المسيسبى . . والتعامل التجارى بيننا وبينهم ، يقوى صلاتنا بهم ، ويزيدنا مع الأيام عطفا عليهم ، فلا يمضى وقت طويل حتى يصبح الهنود أخلص أصدقاء فرنسا ، وألد أعداء ملك إنجلترا العظيم .

ومد پونتياك يده إلى نرجيلته الحمراء ، وقال وهو يعيد ملئها بالتبغ : وما رأى أخى فى هذا الموضوع ، هل يصدق كلامى ، أم يعتبره تافها لا قيمة له ؟ إذا كان يعتقد أن كلامى تافه ، فمعناه أننى ورجالى هؤلاء تافهون !

www.ibtesama.com

قال روچرز : رأيى الشخصى لا حساب له فى الموضوع ، فالقائد العظيم پونتياك يعرف تماما أنه أتى إلى هذه المنطقة من أجل التفاهم مع سير وليام چونسون ، ولسوف يأتى سير وليام عن قريب ، ويوضح الأمور . . إننى لا أريد سوى معلومات ، وهنا ، وهناك أمر آخر أحب من أخى أن يصارحنى القول فيه . . هل إذا سافر تجارنا إلى الغرب يتعرضون لمتاعب ؟ وهل هناك احتمال لنشوب حرب ، أو استعداد لقتال من أى نوع ؟

وبدأ الجهد الذى يبذله ماكنوت فى الترجمة يثقل عليه ، فأخذ يجفف العرق عن جبينه بمنديله الأحمر ، وقال بتخاذل : الزعيم پونتياك يريد أولا أن يعرف ما بلغك من أنباء . .

قال روچرز : بلغنى أن رجال شيپوى وسيوكس يعدون العدة لحرب كبيرة . . حرب تضع نهاية للخلافات الدائمة بينهما .

قال پونتياك فى ابتسامة : إنها معلومات صحيحة تلك التى بلغت أخى ، فهم يعتبرونها حماقة أن تتكرر الحرب بينهما مرة بعد مرة دون الوصول إلى نتيجة حاسمة ، ويرون من الأفضل أن يقضى أحد الطرفين على الآخر . . وهو رأى لا يخلو من الحكمة ، ولكن إذا اشتبك الشـيپوى

www.ibtesama.com

والسيوكس فى حرب من هذا النوع ، فالقبائل الأخرى مضطرة إلى الحرب أيضاً ، حتى تحد من قوة المنتصر ، وتبقى بمأمن من طغيانه . . فلايمضى وقت طويل إلا وتشتبك الشعوب الهندية كلها فى حرب طاحنة لا تبقى ولا تذر . . لأن الهنود كالبيض فى أخلاقهم ، إذا ركبهم شيطان القتال ، يفقدون عقولهم فيرتكبون شتى الحماقات . . يهاجمون التجار بلا داعٍ ، ويتحينون الفرص لسرقة ما يحلو لهم الاستيلاء عليه ، ولا مانع لديهم من أن يحنثوا بجميع عهودهم للآخرين .

وبإشارة من روچرز ، أتى ماكنوت بزجاجة الروم ، فحدد پونتياك بإصبعه القدر الذى يريده منها ، وشرب نصيبه بدقة ولم يتعده ، ثم ناول روچرز الزجاجة ، فكان منظراً مسليا حقيقة حين جحظت عيون القواد الثمانية وهى ترقب شفتى الصاغ أثناء الشرب .

وقال روچرز لپونتياك بعد أن أعطى الزجاجة للقواد المتلهفين : ياصديقى ، إن أحداً من السيوكس لم يسافر إلى ميكيليماكيناك لسبب من الأسباب ، فما رأيك فى أن نبعث إليهم برسلنا وسفننا هذا العام ، ونطلب منهم القدوم إلى ميكيليماكيناك فى الصيف القادم ، لمناقشة موضوع السلام ، والاتفاق على ما يرضيهم من شروط . . هل يسكتهم

www.ibtesama.com

ذلك عن حديث الحرب ، وهل يقبلون الابتعاد عن بيوتهم هـــذه المسافة الطويلة ، من أجل مؤتمر بخصوص هذا الموضوع ؟

وأخذ پونتياك ورجاله يتداولون فيما بينهم ، ومن أجل أن يفكروا بارتياح ، استلقى بعضهم على بطنه ، ومال البعض الآخر إلى الوراء ، وقد التفت السواعد حول الركب ، واستندت إليها الجباه . . وطال الحديث بين الزعماء التسعة ، فتناقشوا ، ورسموا بأصابعهم خرائط على الأرض أمامهم ، وأخيرا وصلوا إلى اتفاق .

قال پونتياك : إن دعوة منك للسيوكس تعتبر شرفا يعتزون به ، ولسوف يحققون رغبتك ، فيسافرون إلى ميكيليماكيناك . . وإذا فعلوا ذلك ، فمن المؤكد أن يؤجلوا حربهم إلى ما بعد المؤتمر . . نحن الهنود ، يا أخى ، مثل البيض تماما ، نكره أن نحمّل أنفسنا تبعة إعلان الحرب ، ونزعم دائما أننا لا نقاتل إلا مُجْبَرين . . ولهذا السبب نعتقد أن السيوكس سيوافقون على بحث موضوع السلام ، بالرغم من أنهم قد يبدأون القتال بمجرد انتهائهم من الكلام . . والأمر كذلك فيما يختص بالشيپوى والشعوب الأخرى ، فجميعهم يرضون بالسفر الطويل ، ليتكلموا

www.ibtesama.com

فى السلام ، وقد تتضاعف حماستهم إذا وعدتهم بهذا قيمة . ومن يدرى ؟ لعل أخانا ينجح فى مهمته ، ويقنعهم بضرورة التصافى والوئام ، وبذلك يأتى عملا عظيما . . فالخير موفور للجميع ، ومتى انتشر الهدوء فى ربوعنا ، تكثر الأرزاق ، ويصبح فى مقدور القبائل المختلفة أن تصيد كل يوم ، وطول اليوم . . والنتيجة أن تتضاعف كمية الفراء ، فيستفيد الهنود ، ويستفيد التجار ، ويستفيد الملك العظيم فى إنجلترا .

وأخذ روچرز يصغى لحديث پونتياك دون أن يسمح لوجهه بالكشف عما يجول بخاطره ، ولكنى تبينت فجأة مايسعى إليه . . فلو أن بعثتنا سافرت من ميكيليما كيناك للبحث عن الممر الشمالى الغربى أثناء حرب القبائل المنتشرة فى نصف دائرة ضخمة بين الشرق الغرب ، فلن يتأتى لواحد منا أن يعبر التحصينات . . وأغلب الظن أن نلقى حتفنا هناك ، فتسلخ رءوسنا ، ويعلق فراؤها فوق الأعمدة الخشبية فى مدن السيوكس ، مثل مئات الرءوس التى رأيناها تهتز مع نسائم الفجر فى سانت فرانسس .

الفصل الرابع عشر

لم يصل سير وليام چونسون إلى أسويجو إلا فى اليوم العشرين من شهر يولية ، أى قبل موعد انعقاد المؤتمر بثلاثة أيام . وأحيط مجيئه بمظاهر العظمة التى تليق بالملوك ، وجاء معه عشرة من زعماء الموهوك يرتدون ثيابا مطرزة بالخرز والريش ، وكان رجالهم الأشداء الذين يسيّرون قواربهم ، غارقين فى الألوان كأنهم قضوا أياما فى طلاء أجسامهم .

وفى القارب الأكبر جلس سير وليام چونسون بعظمة ما بعدها عظمة ، فبدا مثل كتلة لامعة من الثياب الحمراء الموشاة بالذهب والمحلاة بالأزرار النحاسية .. ولما ظهرت طلائع قاربه عند أعلى المجرى المائى ، أعلن مرافقوه الهنود عن وصوله بإطلاق الرصاص فى الهواء ، فأطلقت القلعة مدافعها على سبيل التحية ، وظلت كذلك حتى وصل الأسطول الصغير إلى المرساة ، فتقدم للترحيب بالقائد الكبير جميع الضباط والتجار والهنود .

وأعتقد أننى كنت متحاملا على وليام چونسون دون داع ، فمنذ وقعت عيناى عليه ، شعرت بالنفور منه .. كرهت وجهه المكتنز الباهت ، وعينيه النادرتين ، اللتين يخيل إليك

www.ibtesama.com

أنهما لاتلمعان إلاّ لآلام الآخرين .. كرهت صوته الخشن المرتفع ، وغروره الواضح فى تعاليه ونفخته .. ولعل أحداً لم يصفه على حقيقته مثل توبياس سمولت الذى قال عنه فى كتاب له : « إن چونسون وصل إلى منصبه الرفيع بمحض المصادفة ، وكان ذلك حين حالفه الحظ فصد حفنة من الأعداء ، واستولى على مخزن قديم للغلال كانوا قد حصنوه » .

ووقفت مع ماكنوت وآن فى نهاية الجمع المحتشد على شاطئ النهر ، نراقب وصول الموكب البالغ فى فخامته .

قال ماكنوت باشمئزاز ، وهو يشير إلى الرجل العظيم : انظر إليه ، لقد أتى هو أيضا بزوجه وحشد كبير من أهلها . . وليلعنّى الله إذا لم أنتهز أول فرصة وأهرب من أميرتى الحمراء إلى مدينة دانبارتون ، حيث يستطيع الرجل منا أن يتزوج دون أن ينكب بخمسين من الأنسباء يجثمون على أنفاسه ، ويستعملون فرشاة حلاقته كلما حلا لهم أن يحصلوا على ملء أفواههم من الصابون .

قلت له : إذا لم تكن تريدها ، فلماذا لا تتركها ؟

قال مزمجراً : الكلام سهل ، ولكن تنفيذه أمر آخر . ولوكنت تاجراً ولديك شحنة من البضائع يهمك أن

www.ibtesama.com

تصرفها ، لقدّرت صعوبة موقفى .. المسألة أعقد كثيرا مما تتصور .. ولنفرض أننى ائتمنت مائتين وثمانية من الهنود على ثلاثين بالة من البضائع ، يحملونها معهم إلى مناطق صيدهم ، ثم يعودون فى موسم الربيع ليعطونى بثمنها فراء ، فإذا هجرت زوجى قبل حصولى على فرائى ، يضيع علىّ مالى .. والمصيبة أننى كلما انتهيت من صفقة أجدنى أطمع فى أخرى ، فأرجع عن فكرة السفر ، وأقرر البقاء إلى الموسم الثانى ، وهكذا دواليك .. هكذا دواليك .

قالت آن : لست أرى زوجك سيئة إلى الحد الذى تصفه ، وأظنك تفضل أن تحتفظ بها والفراء معا ، على أن تفقد الاثنين .

قال : ماذا تعنين بهذا الكلام ؟ كيف أفضل الاحتفاظ بها والفراء معا ، على أن أفقد أحد الاثنين ؟

قالت مصححة : بل تفقد الاثنين .. لو كنت حقيقة ترغب فى السفر ، فما الذى يمنعك من الذهاب دون الفراء على أن تأتيك به زوجك فى الوقت المناسب ؟

صاح ماكنوت فيها قائلا : تأتينى به فى الوقت المناسب ! وما الفائدة إذاً ؟ هذا الحل يبقيها على أنفاسى

www.ibtesama.com

إلى أبد الآبدين ، وكأننى لم أفعل شيئا .. أنت كغيرك من النساء تحبين أن تنصحى الرجال بما يجب أن يفعلوه ، فإذا أخذوا بالنصيحة يسوء الموقف وتتعقد الأمور . . ثم انظرى إلى ساقى الخشبية . .

قلت أسأله : وما دخلها فى الموضوع ؟

قال : كلما شعرت زوجتى برغبتى فى هجرها ، تسرق ساقى ، وتتركنى جالسا على الأرض أرجوها وأستعطفها أن تردّها إلىّ . . أيعجبك هذا ؟ . . لا ، طبعا . . صدقنى أن هذه المرأة تملك حاسة سادسة . . تعرف متى أسكر للمتعة ، ومتى أسكر للعمل . . وكلما احتسيت الخمر للترفيه عن نفسى ، أستيقظ فأجد ساقى الخشبية قد ذهبت . لم أفلت منها مرة خلال السنوات الثلاث الماضية ، حتى ونحن فى قارب يمخر عباب النهر . . فكثيرا ما كنت أستيقظ لأجدها تجلس على الطرف البعيد من القارب وقد وضعت ساقى الخشبية على حجرها ، وربطتها إلى حجر ثقيل . . وتظل تهددنى بإلقائها فى الماء حتى أخضع لها وأنفذ أوامرها . . والله ، لقد قاسيت منها وساقى الخشبية ما لم يقاسه أهل جهنم .

وسكت برهة ثم أردف يقول فى رنة المرارة : انظر

www.ibtesama.com

إلى سير وليام چونسون ، وكيف ينتفخ سعادة وحبوراً . . عليه اللعنة ! من يراه على هذه الصورة يتصور أن الحياة مع الهنود ربيع دائم !

وفى هذه اللحظة هبط چونسون من قاربه ، ووقف بين ضباط القلعة فى تعالٍ وغطرسة .. أنفه شامخ .. وصدره منفوخ . . ويده فى خصره . . وكان روچرز يستقبله بثياب المتطوعين المصنوعة من جلد الغزال ، فبدا وسط لابسى الثياب الحمراء مثل نسرٍ بين سرب من البط .

وتقدم روچرز ، فصافحه سير چونسون بسرعة ، ثم التفت بطريقة تمثيلية إلى ضابطيه المفضلين اليوزباشى الستّرات كول والملازم روبرتس .

ووجدت أمامى منظراً ممتعا ، فأعددت حامل الرسم ، ووضعت عليه الورق ، واقتربت آن منى تحمل الأقلام .

قال ماكنوت : لا أظنك تنوى رسم صورة لهـذا المخلوق المكرّش !

قلت : بل هذا ما أريده . . فلقد أستقبل روچرز بمنتهى البرود ، ويهمنى أن أسجل تعبير وجهه ، الذى ما زال حاضرا فى ذهنى .

وانحنيت على الورق ، وبدأت أرسم ، فقال ماكنوت

www.ibtesama.com

يستأنف حديثه السابق : لست أزعم بالطبع أن زوجى جحيم على طول الخط ، فلها فضائلها مثلما لها نقائصها . . ومما لا يمكن إنكاره أنها طاهية ماهرة تصـنع الحلوى ولا تسقط فيها شعراً أو قشا ، مثلما تفعل الأخريات . . وقد علمتها كيف تمتنع عن غسل يديها فى مياه الشرب ، وهى ميزة أخرى تستحق الذكر . . ثم إنها قوية الأسنان قوة غير عادية ، إذا احتجت فجأة إلى جانب من جلد الغزال ، أعطيته لها ، فتظل تمضغه وتمضغه حتى ينعم ويلين ويصلح للاستعمال . . لا يهمها الوقت ، فقد تقضى فى أداء هذه العملية ثلاثة أيام دون أن تكل أو تمل . . وأنا لا أنكر أن عشرتها تبعث على الضيق فى بعض الأحيان ، ولكنها أمهر الهنديات جميعهن فى قطع الأخشاب . . وقدرتها على التجذيف تفوق الرجال ، وليس لها مثيل فى جمع المعلومات ، وكلما كلفتها بمهمة من هذا القبيل ، تأتينى بأسرارها كاملة ، ولا تخفى عنى خبراً سمعته . . إنها غاية فى المهارة ، ويدهشنى أن بونتياك لم يسألها عن حقيقة الأسباب التى تختفى وراء قرار چونسون بمنع التجار من السفر إلى أرض الهنود . . فوالله إنها لتعرف السر منذ شهرين على الأقل !

وتطلع من فوق كتفى إلى الرسم ، وقال : لا بأس ، لقد بدأت تظهره على حقيقته وهو يحملق بعينيه مثل صبى

www.ibtesama.com

شحيم نهم ، يتشبث بفطيرة كبيرة ، خوفا من أن يشاركه أحد فى أكلها . .

قلت : أتعتقد حقيقة أن چونسون يستهدف النكاية بروچرز من قراره الخاص بالتجار ؟ .

قال مزمجرا : وهل من شك فى ذلك ؟ لقد وضع القانون نكاية بالصاغ ، فالقائد يعلم تماما أن هنود شمال أمريكا لا يخافون مخلوقاً حيا فى هذه الدنيا الواسعة مثلما يخافون روچرز ، لذلك يريد أن يتخلص منه قبل أن يقوم بعمل ما يريد . .

قلت : ولماذا لم تخبر روچرز بهذه الأمور ؟ لماذا تحتفظ بهذه المعلومات لنفسك ، ثم تبوح بها جزءا جزءا بعيدا عن مسامعه ؟ .

قال ماكنوت فى لهجة ازدراء : لوكنتَ فى مكانى ما أخبرته .. فروجرز سريع الغضب ، وإذا عرف بما سمعته من امرأتى ، يعلنها حربا شعواء على چونسون ، والنتيجة أن يخسر المعركة فى ثلاث دقائق لا أكثر . . صدقنى إن چونسون رجل حقير ، وفى جعبته ما لا أول ولا آخر له من الحيل والمكائد ، وصداقته الوثيقة بجيج تمكنه من القضاء على الصاغ فى مثل لمح البصر ، ثم هل سمعت بجندى يكسب من عدائه للقائد العام ؟

www.ibtesama.com

قلت أسأله : وماذ يبتغى چونسون من وراء هذا كله ؟

قال بعنف ودون تردد : ما يبتغيه أمثاله من القادة الكبار . . يبتغى أرضاً واسعة لايشاركه أحد فيها . . الجشع يا صديقى ، يفقد أصحابه عقولهم ، والأثرياء لا تقف أطماعهم عند حد ، ولايمكن أن ينالوا كفايتهم فى يوم من الأيام ، فكلما اتسعت ممتلكاتهم ، تزداد رغبتهم فى مضاعفتها . . ولعلك تعرف أن چونسون يملك فى مناطق الموهوك من الأراضى ما لا يستطيع أن يستغله بقية حياته . . وهذه البقية أصبحت قصيرة ، ولاينتظر أن يعيش الرجل طويلا بعدما استنفد قواه وأنهك صحته فى كثرة زواجه بالمولدات الهنديات . . وإذا حكمنا بما بقى له من العمر ، نجد أنه لايحتاج من الأرض فى الواقع إلى أكثر من قطعة طولها ست أقدام وعرضها ست . . ولكنه كالآخرين يطمع فى كل ما يستطيع الحصول عليه . . بل يطمع فى أمريكا كلها إن أمكن . . يريد أرضا لن يمهله القدر حتى يراها . . أرضا لا تمنحه سوى الأحزان والآلام .

وخفض ماكنوت صوته حتى غدا همساً ، وقال : أتعرف ما يعتزمه هذا الوغد العجوز ؟ يريد إنشاء شركة للأراضى مع نجل حاكم مقاطعة نيوچيرسى ، والقائد نجيج ،

www.ibtesama.com

وسير هنري مور حاكم نيويورك ، وبمعونة هؤلاء الشركاء الثلاثة ، يقتنص الأراضى الممتدة بين نهر المسيسبي ومدينة ديترويت ، أى نحو مائة مليون من الأفدنة . . أتذكر كيف ثرنا حين علمنا باستيلاء پنيخ ونتوورث على مائة ألف فدان ؟ أجل ، لقد ثرنا والله ثورة عارمة ، ولكنى أرى ونتوورث الآن مجرد صبي جاهل إذا قورن بچونسون . فالأول قنع بمائة ألف ، والثانى يطمع فى مائة مليون . . جشع فظيع لا يقوى على تحطيمه سوى روچرز ، فالهنود يثقون به ويحبونه ، ولسوف يستغيثون به إذا شرع چونسون فى سلبهم أرضهم ، فيقيم الأرض ويقعدها حتى يحول دون تحقيق هذا الجنون .

قلت : وكيف يستطيع روچرز أن يقيم الأرض ويقعدها ؟

قال ماكنوت فى حدة : وما أدرانى ؟ . . لن يقف مكتوف اليدين إزاء رغبة چونسون فى الاستيلاء على نصف أمريكا . . لابد أن يتكلم ويحتج ويشكو ، وفى إنجلترا آذان تصغى له . وخيل لى فى البداية أن ماكنوت يهذى ، فلقد كان يذكر أرقاما خيالية لايصدقها العقل ، ويتهم شخصية عظيمة بالشروع فى سرقة إمبراطورية ضخمة ،

www.ibtesama.com

ثم لم ألبث أن وجدتنى أصدقه فيما يرويه حين تذكرت كلايف ، وكيف مجده الإنجليز واعتبروه غاية فى الاعتدال بعد أن استولى على أغنى مناطق الهند لشركة الهند الشرقية ، وعاد إلى وطنه بثروة خاصة تقدر بثلاثمائة ألف من الجنيهات ، ولا غرابة ، فعظماء المغامرين كثيرا ما يقعون فى أسر الجشع الفظيع .

قلت لماكنوت : أرجو أن تكون مخطئا فيما تظن .

قال : وهذا ما أرجوه أنا أيضا ، فليس من مصلحتنا أن يتحقق كلامى ، إذ لو انقلب الموقف على رأس روچرز ، فلا بد أن ينقلب على رءوس أصدقائه جميعهم بلا استثناء ، فينال كل منا كفايته من المتاعب ، ويدفع ثمن وقوف روچرز فى طريق چونسون . . ولو كانت هذه الفتاة ابنتى ، ما ترددت لحظة فى إعادتها غـــداً إلى بورتسموث .

قالت آن بحماسة : لست بطفلة حتى أحتاج لمن يعنى بأمرى ، ومادمت عاجزا عن منع زوجك من سرقة ساقك الخشبية ، فكيف تكون أهلا لنصح الناس ، وتوجيههم إلى الطريق الصحيح !

قال ماكنوت ، وهو ينظر إليها فيما يشبه الاحترام :

www.ibtesama.com

ليس لى ، من حسن الحظ ، بنات نصف كبيرات مثلك !

وعاد إلى الصورة يتأملها ، ويقول فى إعجاب واضح : الشبه يزداد لحظة بعد لحظة ، ويخيل إلىّ أننى أسمع فى الرسم طقطقة ركبتيه وغرغرة الغازات فى بطنه . . على كل حال ، لن يطول الوقت حتى تصلنا حقائق الأخبار ، فنعرف بما يُعده چونسون لهزيمة روچرز .

* * *

كشف المؤتمر عن شعور چونسون نحو روچرز ، وأخذت غيرته منه تزداد مع الأيام وضوحا ، فكلما سعى زعماء الهنود إلى الصاغ على قديم عادتهم ، يسرع القائد بإرسال ضابط من أتباعه لحضور الاجتماع . . وظل يرقب غريمه بعين لا تغفل ، ومن أجل أن يبعده عن الاشتراك الفعلى فى المؤتمر ، أخذ يكلفه بتوافه المهمات ، كما لو كان جنديا صغيرا .

وأثار هذا السلوك غضب إليزابيث ، وسمعتها فى ثانى يوم للمؤتمر تقول لزوجها عند رجوعه إلى مسكنه : كيف تقبل هذه المهانة ، وتتركه يعاملك كما لو كنت خادماً له ؟ لماذا لا تدافع عن حقوقك ، وترفض أداء ما يكلفك به من مهمات حقيرة ؟

www.ibtesama.com

قال روچرز فى لهجة تنم عن شرود ذهنه : أستحلفك بالله أن تخفضى صوتك ، وتتكلمى بهدوء . . أين نانّى ؟

قالت : يسكر كعادته ، وقبل عودتك جاء يترنح ، ثم لم يلبث أن رجع يتطوح إلى صديقه الملازم روبرتس ، وأغلب الظن أنه عبر النهر ، ليقضى الليلة مع صديقه . . أفّ له من مخلوق حقير منفر !

وهز روچرز رأسه محذراً وهو ينظر إلى آن التى كانت تجلس بجوارى مشغولة بقراءة رحلات جاليڤر .

قالت إليزابيث : دعك منها ، ولا تخش أن تسمع كلامى ، فلقد عزّ عليها مجيئه إلينا سكران ، فتصدت له عند الباب ، وحاولت منعه من الدخول .

وزمجر روچرز فى وجهنا جميعاً ، ثم قال يوضح الموقف لإليزابيث : تذكرى أن چونسون رئيسى ، والجندى ملزم بطاعة الأوامر ، وإذا خالفها يحاكم فى مجلس عسكرى . . دعك مما يحدث هنا ، واهدئى بالاً ، فستطيب الأحوال عندما نسافر إلى ميكيليماكيناك . . وهناك أصبح الرئيس وأصدر الأوامر .

وكانت هذه عادته . . فكلما كثرت المتاعب ،يقول : ستطيب الأحوال بمجرد سفرنا إلى ميكيليماكيناك ، الأمر

www.ibtesama.com

الذى جعلنى أراها فى خيالى مثل الجنة التى كنت أتصورها فى طفولتى . . ظلال وارفة . شمس ساطعة تسبح وسط سحب خفيفة يجلس عليها ملائكة يرتدون ثيابا زرقاء ، ويلعبون بأصابعهم على أوتار القيثارات .

وتذكر روچرز حديثاً جرى بينه وبين اليوزباشى كول ، فقال وقد انشرح صدره : سألت كول كيف نكتسب صداقة الهنود بلا هدايا . . ولم أكن أتوقع منه إجابة أمينة عن هذا السؤال ، فإذا به يتكلم بمنتهى الصراحة ، ويقرر أنه أمر مستحيل ، ولكن چونسون يعاند فى التمسك به ، فلا فائدة من مناقشته فيه ، والأفضل أن نسلم بواقع الأمر ، وننتظر حتى يهديه الله إلى الحق ، فيرى المسألة فى ضوئها الصحيح . على كل حال ، ستطيب الأحوال عندما نسافر إلى ميكيليماكيناك !

* * *

مضت ثمانية أيام وپونتياك ينفخ مع قواده فى أبواق السلام المقدس ، ويتبادلون مع چونسون التحيات والمجاملات . . . ثم جاء اليوم الختامى العظيم . . وكان القائد قد كلف جنوده ببناء منصة فى ميدان العرض ، وُضعت فوقها عريشة من غصون الأشجار لحماية الجالسين من قسوة

www.ibtesama.com

الشمس ولفحات الحر . . وبعد أن مضى الصباح فى ولائم وحفلات ، اعتلى چونسون المنصة ، ووقف عليها منتصبا ، وكان ، بالرغم من شدة الغيظ ، يلتف بملحفته القرمزية الرسمية ، فشعرت وأنا أنظر إليه ، كأن الحرارة تكاد تخنقنى ، وجبينى يزداد تصببا بالعرق .

وتجمع الضباط حوله ، وأحاطوا به مثل باقة قرمزية لامعة . . وأمامه وقف پونتياك يتصدر زعماء القبائل الغربية ، ومن خلفهم رجال قبائل شـيپوى وأوتاداس وهورون وبوتادا تومى . . أما الأرض المكسوة بالحشائش على الجانبين ، فقد احتلها الموهوك الذين أتوا مع چونسون لا لسبب سوى إرضاء غرورهم ، وإقناع أنفسهم بأنهم مازالوا أصحاب المكانة الأولى فى تقدير القائد الإنجليزى العظيم . . ولم يكن لهؤلاء الموهوك دور فى المؤتمر ، ولكن غيرتهم الشديدة من القبائل الأخرى دفعتهم إلى السفر هذه المسافةالبعيدة عن أراضيهم تشبهاً ببقية الهنود . . وقد قال ماكنوت فى وصف الاجتماع إنه يسير وفق أسلوب الموهوك ، وبما أن سيرچونسون عاش طويلا بينهم ، وتشبه بكثير من أخلاقهم ، فطبيعى أن يغار من كل إنسان ناجح خصوصا روچرز .

وبدأت مرحلة الخطابة ، فاستهلها چونسون وفى وجهه سيماء السيد النبيل الذى يعتبر نفسه فوق الجميع ، ولكنه

www.ibtesama.com

يرضى بالنزول إلى مستوى الناس رغبة منه فى تشريفهم بوجوده . . وكان بطبعه يميل إلى اختيار الألفاظ المنمقة ، ولكنه نحا فى تلك اللحظـــة إلى النفاق كل النفاق بغاية البساطة والوضوح ، فذكّر الهنود بواجبهم فى الإخلاص للملك أبيهم العظيم الذى يرعاهم ويحميهم ويمنحهم أثمن الهدايا . . وما دام واجبهم أن يحبوا الملك ، فعليهم بالتبعية أن يحبوا سير وليام چونسون ، نائب الأب العظيم ، ورسوله المكلف بحمايتهم وتسليمهم الهدايا .

وتكلم چونسون ما يقرب من ساعة ، وظل يكرر هذا المعنى ويعيده فى صيَغ مختلفة ، ولما انتهى جاء دور پونتياك ، فنهض هو الآخر للخطابة ، وقال بعشرة أساليب متنوعة : إن الهنود على بكرة أبيهم يحملون أصدق الوفاء للأب العظيم ونائبه الجليل ، ويشكرونهما على هداياهما صادقين ، بل — وعندئذ فترت حماسته — ويقدرون لهما جميل رعايتهما لشئونهم ، ولقد حقق المؤتمر أغراضا خطيرة ، ولسوف يظهرون ، بمجرد تسلمهم الهدايا ، من آيات الوفاء ما يثلج قلب سير وليام وملكه العظيم .

ووزعت الهدايا بعد ذلك ، فأخذ كل قائد وساماً

www.ibtesama.com

فضيا نقشت عليه الجملة التالية « عهد سلام وصداقة مع بريطانيا العظمى »

وفى أثناء التوزيع ، مال ماكنوت على أذنى ، وهمس يقول : هذه الأوسمة ليست مصنوعة من الفضة كما يزعم ، بل من الصفيح المطلىّ بطبقة رقيقة مفضضة . . . ولكن لا بأس ، فالهدايا الأخرى المعدة للزعماء كلها حقيقية لا زيف فيها ولا خداع : عقود الخرز ، والأقراط الزجاجية ، والمرايا الصغيرة ، والسراويل والملاءات والبارود ، والأصباغ الحمراء وشصوص الصيد والخمور !

وبعد نصف ساعة من توزيع الهدايا ، جمع پونتياك محاربيه ، واستقلوا قواربهم متجهين إلى البحيرة ومنها إلى الغرب .

ووقفنا نرقب رحيلهم ، فقال ماكنوت ، وهو يهز رأسه ساخراً : انظر كيف ملأوا قواربهم بالهدايا الثمينة ، حتى بات يخشى عليها أن تنقلب لثقل حمولتها . . هذا طبعاً مظهر لطيبة قلب چونسون وكرمه ، فهو يعلم أن الهنود لا يتفاهمون إلا بهذا الأسلوب ، ولو لم يعطهم ما أعطاه ، لفتحوا له أبواب الجحيم من فوقه ومن تحته ومن حوله . . من ذا الذى يزعم أن حاكم ميكيليماكيناك يستطيع أن يسيطر

www.ibtesama.com

عليهم بلا هدايا ؟ لا أحد سوى چونسون نفسه . . والله ، إنى لأتمنى له ولأبيه العظيم فى إنجلترا ، أن يحكم عليهما بتقبيل امرأتى بعد أن تكون قد انتهت لتوها من أكل سمكة نيئة !

* * *

فى باكورة اليوم التالى أبحرنا بالسفن الصغيرة إلى ميكيليماكيناك ، ورافقنا ماكنوت وزوجه التى أصبحنا نعرفها جميعاً باسم الأميرة ماكنوت ، وقد بدت خلال الرحلة كأنها تزوجت القارب وما فيه ، لا ماكنوت .. فبالليل كانت تحتضن البضائع بذراعيها ، وتنام تحت القارب المقلوب ، وبالنهار تجلس بجوارها ، وهى تحملق فى الفضاء .

وأبدت آن بعض القلق على الهندية الصامتة ، وتصور لها أنها حزينة ، فقال ماكنوت يطمئنها : هل رأيت جواداً يبتسم فى يوم من الأيام ؟ الجياد كلها تحمل على وجهها طابعاً حزيناً ، ولكنك لا تقلقين عليها ولا تنزعجين ، لأنك تعلمين أنها ليست حزينة . . هكذا امرأتى . . شكلها دائماً حزين ، ولكنها ليست فى الواقع حزينة . . إذ ما الذى يحزنها ؟ لقد أكلت كفايتها ليلة أمس ، وسوف تأكل كفايتها هذا المساء ، ولديها من الملابس أكثر مما تحتاج

www.ibtesama.com

إليه ، فاطمئنى إلى أنها قريرة العين ، راضية بالرخاء الذى ترفل فيه :

وحملتنا السفينة عبر بحيرة أونتاريو إلى نهر نياجرا ، حيث كانت فى انتظارنا عربات النقل التابعة لنياجرا ، فنقلنا إليها أمتعتنا ، وسرنا بها حول الشلالات ، حتى وصلنا إلى مرسى البارجة « جلادوين » التى أعدت لحملنا إلى أعالى النهر . . وشقت بنا البارجة مياه بحيرة إيرى إلى ديترويت ، ثم عبرت بحيرة سانت كلير ، وخرجت منها إلى نهر سانت كلير ، و منه إلى بحيرة هورن ، وبعدها اتجهت شمالا نحو مضايق ميكيليماكيناك . . وحين أخذنا نقترب من تلك المضايق ، طالعنا منظر رائع فى جماله . . فإلى يسارنا كانت الفوهة الواسعة للممر المائى الموصل بين هورن ومتشيجان . . وإلى يميننا الشواطئ الصخرية العالية لجزيرة ماكيناك ، وقد علت رءوسها نحو السماء الصافية ، تغمرها أضواء صيف الشمال النقى . . وحول الأفق — بعد المضايق وخلف جزيرة ماكيناك — هضبة زرقاء ضخمة ، خلفها بمسافة قصيرة تبدأ القوات المتفرعة إلى بحيرة سوپيريور ، وهى الطريق الموصل إلى أراضى هنود الغرب ونهر أوريجون العظيم ، ثم الممر الشمالى الغربى .

www.ibtesama.com

ولما دخلنا المضايق ، رأينا على يسارنا قلعة ميكيليما كيناك تحوطها تحصينات واستحكامات وتبدو الكثبان الرملية العالية مثل الأقزام ، أو كما قالت آن فى وصفها : كأنها لعب أطفال . ولم نجد فى المكان ، كما ظهر لنا من السفينة ، شيئاً يشبه الوصف الأخاذ الذى سمعناه من روچرز فى غرفة جلوس آل براون منذ شهرين . فالقلعة مجرد فناء حصين يقع قريباً من الشاطئ ، وحول الفناء تنتشر أبنية صغيرة كصوامع الغلال ، وقد علمت أنها المخازن التى يحفظ التجار فيها بضائعهم خلال إقامتهم بهذه المنطقة . . وعلى مسافة قريبة منها ، تقوم مساكن بيضاء تنتظم فى حلقة تطوّق قطعة صغيرة من الأرض المنزرعة . . وبعدها ثلاثة معسكرات هندية تفصل الواحد منها عن الآخر مسافة مذكورة .

ومع أننى لم أكن أتوقع أن أجد فى ميكيليما كيناك منطقة تستحق الذكر ، فقد فاجأتنى الحقيقة بأبغض ما كنت أتصور وانقبض صدرى لمرأى المكان القفر الذى نصب روچرز حاكما عليه ... والتفتت نحو إليزابيث أستطلع وقع الأمر عليها ، فوجدتها تقف متصلبة الجسد ، وهى تنظر إلى الشاطئ فى دهشة كأنها لا تصدق عينيها ..

أما الصاغ فكان غاية فى المرح ، ولما ظهرت فى الجو نتفة من الدخان تندفع من بين جدران الحصن ، وأعقبها

www.ibtesama.com

صوت مدفع ثقيل ، صفق بيديه فى مرح شديد ، وانفجر يضحك بأعلى صوته . .

وكأنما فك صوت المدفع خيوط هذه الاستحكامات التى تشبه اللُّعب ، فعلى أثره رأينا أجساما صغيرة تتحرك داخل التحصينات وخارجها عند حافة الماء .. وانزلقت القوارب والمراكب من الشاطئ إلى صفحة الماء متجهة نحونا ، فخيل إلىّ أنه سرب من البق المائى فاجأه الخطر ، فاندفع هاربا من مأواه الهادئ الأمين .. وباقترابها منا رأيناها محملة بالتجار والرحالة الفرنسيين والهنود من مختلف العشائر . .

وتجمعوا حولنا فى حلقة ، وأخذوا يطلقون بنادقهم تحية لنا ، ويهتفون لمقدمنا فى أصوات هادرة ؛ وحينما وصلوا إلى بارجتنا ، التصقوا بجوانبها كالديدان ، ثم استمروا فى التجذيف ، فسحبونا إلى المرساة الخشبية المقامة على طول المسافة إلى القلعة ..

وأخذ المكان يزداد وضوحا باقترابنا ، فيظهر الشاطئ أكثر ازدحاما بالناس ، وخيِّل إلىّ كأن قوارب الدنيا كلها تجمعت قريبا من الماء فى أكوام هرمية الشكل ، تنتظم صفوفها بعضها وراء بعض .. وأقبلت من القلعة

www.ibtesama.com

مجموعتان من الجنود فى معاطف قرمزية اللون ، ثم دقت الطبول ، واصطف الحرس عند المرساة ، وأتى الناس لاستقبالنا فى حشود لست أدرى من أين أتت ، اللهم إلا إذا كانت الأرض قد انشقت عنها ...

وبعد أن ربطت البارجة إلى الشاطئ ، قفز روچرز منها إلى المرساة ، ليصافح الضابطين الواقفين على رأس الجنود ، فتعالت الصيحات تحيي قائد المتطوعين ..

وابتسم روچرز للناس ، ولوح لهم بيده مسلما ، ثم فتّش القوتين العسكريتين بسرعة ، وتحدث إلى جنودهما بلطف ، وكذلك فعل مع الضابطين ، وفى النهاية أذن للعسكريين بالانصراف .

وظل عشرات التجار فى الانتظار ، حتى رأوا روچرز ينتهى من الرسميات ، عندئذ هجموا عليه بحماسة ، وأحاطوا به من كل الجهات ، وأخذوا يتكلمون معه ، ويلوحون بأيديهم فى غير نظام ..

قال لهم روچرز فى مرح : هوناً . . هوناً . . اهدأوا أيها السادة قليلا ، وامنحونى فرصة ، فأنتم تقفون فى طريق زوجى ، وتمنعونها من الحركة .

www.ibtesama.com

وازدادت صيحاتهم ارتفاعا ، وتضاعف تلويحهم بأيديهم ، ودبت الفوضى فى المكان حين اندفع الواقفون فى نهاية الصفوف ، ونحّوا الآخرين عن طريقهم واحتلوا أماكنهم .. ومن بين ضجيج الصخب الشديد ، كنا نسمع جُملاً مقتضبة لا معنى لها ولا ارتباط بينها : « منذ شهرين ونحن هنا . . سيفاجئنا الشتاء . . الثورة الملعونة . . اضطررنا إلى إطعام المسافرين . . »

وأمسك روجرز بأكثر التجار ضجيجا وإلحاحا ، واتخذ منه أداة لكسح الواقفين فى طريقه ، وجعل يدفعه أمامه ، وهو يقول فى مرح : دعونى أصل إلى القلعة وأنظم أمورى ، وإلا دفعتكم إلى الوراء بأسنة الحراب .

وتقهقر التجار فى تردد ودهشة ، وشقوا له طريقا بينهم ، فجذب روجرز قبعته على رأسه بيديه الاثنتين ، وأعاد تنظيم سترته بهزة غاضبة من كتفيه .. وصاح قائلا : أين الملازم كريستر ، ومستر چونس ؟

واخترق الضابطان حشود الواقفين ، وتقدما إليه .

قال روجرز فى حدة : أين الضابط المكلف بالقيادة ، ولماذا لا أراه هنا حتى يخضع هؤلاء التجار للنظام ؟

www.ibtesama.com

قال الملازم كريستر : قائدنا اليوزباشى سبيسميكر يوجد الآن فى مدينة مونتريال ، وقد أخرته عن العودة ظروف طارئة ، ونحن ننتظر قدومه بين لحظة وأخرى . . لم تكن لدينا أوامر بالمطلوب على وجه التحديد ، فلم نستطع التصرف من تلقاء أنفسنا وآثرنا أن ننتظر وصولك أو وصوله . .

قال روچرز : ولكنك تعرف أن الأوامر تقضى بمنع التجار من مغادرة هذا الموقع طول العام .

وضاعت إجابة الضابط بين ضجيج التجار واحتجاجهم الشديد .

قال روچرز ضاحكا : والآن ، أيها السادة ، أرجوكم أن تخلوا طريقنا إلى القلعة ، لننظم أمورنا ونضع بعض الطعام فى بطوننا ، وننال قسطا من الراحة . . أعطونى ساعتين لا أكثر ، ثم أقابلكم وأسمع رأيكم فى الموضوع . . وإذا كانت لديكم شكاوى معقولة ، فلن تجدوا منى تعنتاً ، إذ لست أبتغى سوى تسيير الأمور فى هذا الموقع بما يحقق مصالح حكومة جلالة الملك .

وأشار لنا بيده ، فسرنا وراءه إلى القلعة ، وعندما وصلنا إلى كشك الحراسة بجوار المدخل الرئيسى ، أطل علينا رجل

www.ibtesama.com

جاحظ العينين ، مزموم الشفتين .. ثم خرج إلينا مستر جوناثان كارفر بجسده الضخم .

صاح روچرز به يقول : أين كنت تختفى طول الوقت ؟ ظننت والله إنك لم تصل بعد !

وكشف كارڤر عن أسنانه فيما يشبه الابتسامة ، وقال بصوت هادئ : لم أشأ أن أتطفل عليك ، خشية أن تكون قد نسيت أمرك بمجيئى إلى هذا المكان .

** معرفتي **
www.ibtesama.com
منتديات مجلة الإبتسامة

www.ibtesama.com

الفصل الخامس عشر

كانت قلعة ميكيليماكيناك عبارة عن مدينة قذرة بدائية مقفرة . . يحميها سور مسدس الأضلاع في غير انتظام ، رأسه يمتد إلى المضايق ، حيث المدخل البحري الذي يتوسطه البرج الأمامي للحصن بين صف من المدافع عيار تسع بوصات . وفي الناحية المقابلة له يقوم المدخل البري ، ومنه يخرج طريق ضيق طويل ينتهي قريبا من مساكن الفرنسيين ومعسكرات الهنود . . أما الحصن فيتألف من عشرة أبنية تنتثر حول ساحة للعرض ، أرضها مغطاة بالحشائش التي جففتها شمس أغسطس الحارقة ، فجعلت منها بساطا بُنِّيا واسعا . . وفي وسط الساحة يوجد بئر تقف عنده نساء الهنود ، وهن يرفعن الدلاء ويخفضنها ، فيتعالى لهذه الحركة صرير صارخ .

والواقع أن تخطيط البرج كان يناسب التجار أكثر من الجنود ، فطرفه الأقصى القريب من المدخل البري تطوقه مخازن للبضائع والفراء ، في حين خصص الجانب الآخر – حيث يوجد المدخل المائي الذي جئنا منه – للحامية العسكرية . . ويتصدر هذا الجانب مسكن القيادة ، الذي يعتبرونه هناك أعظم مباني ميكيليماكيناك ، مع أنه مكان

www.ibtesama.com

خشبي غاية فى الحقارة ، يشبه قبح منظره الخارجى سجن بورتسموث ، الذى تغلب عليـــه كاپ هوف بمنتهى السهولة ، ولكنه يقلّ عنه تماسكا وقوة .

ويقع خلف بيت القائد ، وعلى مقربة من السور ، مسكنان خشبيان للضباط ، وفى الجانب الآخر عبْر ساحة العرض كنيسة صغيرة بجوارها أكواخ للجنود . . وكانت المساكن كلهـــا ، صغيرها وكبيرها ، لا يسر العين مرآها . . جدرانها غير المطلية مغبرّة متآكلة بفعل حرارة الصيف القائظة وبرودة الشتاء القارسة . . ومع هذا كله ، مضافا إليه ما أثارته أقدام آلاف المستقبلين من أتربة تسربت إلى الغرف ، فأحالت غرفنا إلى طين ، بدا الصاغ فى غاية السعادة والرضا ، والتمعت عيناه بالغبطة والسرور ، كأنه يرى الدنيا حوله من غلالة ذهبية .

وعلت ثغره ابتسامة واسعة وهو يتفقد الغرف المتربة المعتمة ، وازداد مرحه حين رأى جموع النساء والرجال تقف صامتة فى انتظار المثول بين يديه . . وأخذ يقطع المكان جيئة وذهابا ، وهو يلقى بتعليماته وإرشاداته إلى ناتى پوتر والملازم چونستون .

وسمعته يقول للضابط : أريد طاهية ووصيفا لى ،

www.ibtesama.com

وأفضل أن تكون الطاهية فرنسية ، والوصيف من الجنود . أما مسز روچرز ، فلسوف تحتاج إلى خادم هندية ، فعليكم أن تختاروها فى مقتبل الشباب ، لا حيزبوناً إذا نظرت إلى اللبن تفسده بدمامتها . . ويحسن أن تسرع باستدعاء هؤلاء الثلاثة ، أيها الملازم ، حتى ينظفوا البيت ، ويعدوا لطعامنا بعض السمك الأبيض . . وابحث لدى التجار عن غرفة لپوتر ، ولا تشغل نفسك بأمر الاثنين الآخرين ، فمسز روچرز تريد استبقاء الفتاة الصغيرة فى البيت لمساعدتها ، ولدينا غرفة البلياردو ينام فيها مستر تاون حتى يحين موعد رحيله عن قريب . . ولسوف أتفقد المعسكر الليلة ، وأزور المدينة صباح غد .

والتفت إلى ناتى يقول : أحضر كراسة الخطابات ، واكتب لمخازن صاحب الجلالة أمراً بصرف برميل من الروم وآخر من النبيذ . . واعمل على تزويد البيت بحاجتنا من الأوانى الزجاجية والأدوات الفضية . .

ولاحظت أنه يكلم پوتر بلهجة يشوبها الاحتقار .

وفى داخل البيت ، وقفت إليزابيث ثائرة على الغرف الصغيرة الحارة ، والجو المعطن الخانق ، وأخذت تقول بازدراء ، وهى تتفقد أرجاء المكان : بيت مريح !

www.ibtesama.com

وغرفة للبلياردو ! .. وحصن يقوم بين محيطين . .

مسكينة إليزابيث ، كانت تردد الأوصاف الرائعة التى سمعتها من روچرز فى بورتسموث .

وظلت تطوف بالمكان فى قلق وتعاسة .. تخرج من غرفة معتمة إلى أخرى معطنة ، ومن تحت أقدامها ترتفع أخشاب الأرض وتنخفض فى صرير مسموع .. وأمامها النوافذ محملة بالقاذورات ، مبقعة بمخلفات الذباب ..

وأخيرا غلبها اليأس ، فجلست على مقعد خشبي صامتة حزينة حائرة ، وقالت إنها تعانى من الصداع .. ولست ألومها !

ولما عاد الصاغ بطبق كبير ملىء بالسمك الأبيض ، بعثت به زوج أحد الجنود ، خفضت إليزابيث رأسها ، وأطرقت نحو الأرض ، وقد اكتسى وجهها بالحزن الشديد ..

قال لها روچرز : تعالى ياحبيبتى واملئى معدتك بجانب من هذا السمك .. إنه أفضل أنواع السمك فى الدنيا كلها ، ولسوف تنتعشين بعد أكله ، فتعالى ياحبيبتى ، لا تدعى اليأس يتسرب إلى نفسك لمجرد أن اليوم جاء حاراً بالصدفة ..

ووضع الطبق على المائدة ، وتناول منه سمكة أمسكها

www.ibtesama.com

بيديه من رأسها وذيلها ، وأخذ ينهشها فى صوت مسموع ..

وارتجفت إليزابيث اشمئزازاً ، ثم لم تلبث أن تنازلت عن كبريائها حين رأتنى وآن نحذو حذو الصاغ ، فنأكل السمك راضيَيْن مغتبطيْن ..

واقتربت حتى وقفت بجوارنا ، وقالت أنها لا تشعر بالجوع ، ولكن لا بأس من أن تجرب هذا السمك .

فربت الصاغ كتفها ، وقال مشجعا : تقدمى وكلى ياحبيبتى ، ولسوف تجدينه لذيذ الطعم شهيا .. وإذا لم يعجبك ، فعليك أن تروضى نفسك على الرضا به ، إذ لن تجدى بميكيلما كيناك طعاما سواه طوال الشتاء .

والتفت نحوى يقول : أريد رؤية اليوزباشى كارڤر قبل مقابلته للتجار ، فاذهب وآتنى به . .

ولما عدت بكارڤر إلى غرفة البلياردو القائمة بالطابق الثانى ، لاحظت أنه يزداد شبها بالقط فى نظرى : يمشى بخفة مثله ، ويتسلل من مكان إلى مكان ولا من يحس به ، وحتى صوته الهادئ ، يخيل اليك حين تسمعه أنه هرير ..

ووقف الصاغ أمام منضدة البلياردو يدفع كوره فوق سطحها المنبعج ..

وسمعته يقول ونحن ندخل الغرفة : ترى من أين أتوا

www.ibtesama.com

بهذه المنضدة ؟ لكأن الرهبان اليسوعيين كانوا يلعبون البلياردو ..

قال لكارڤر باسما ، وهو يثبت « الأستيكة » فى طرف العصا الطويلة : حسنا ياجوناثان .. خبرنى كيف جئت ، وأين اليوزباشى ثيوت ، وما رأى التجار فى الموقف ؟

قال كارڤر بفصاحة من يقرأ فى كتاب : استجابة لدعوة مستر ستانلى جودارد رحلت مع اليوزباشى ثيوت إلى مونتريال ، وبينما نحن هناك ، قابلت مستر بروس التاجر ، فاقترح أن أسافر بأسطوله التجارى ، وأخذت باقتراحه على أن يتبعنا ثيوت فى أقرب فرصة .. ولما علم مستر بروس أننى سأكون فى خدمتك وعلى صلة بك ، رجانى أن أتوسط له .. إنه رجل لطيف المعشر ، عظيم السخاء يا سيدى الصاغ ...

قال روچرز : ولعله يرغب فى السفر سريعا ؟

قال كارڤر : لقد تعوّد أن يقضى الشتاء مع قبيلة نودووسيس .

قال روچرز مصححا : تقصد السيوكس !

قال كارڤر باسما : السيوكس أو نودووسيس .. لقد اعتاد أن يقضى الشتاء دائما معهم .. إنه على أتم الاستعداد

www.ibtesama.com

لتقديم تسهيلات استثنائية ، إذا سمح له بالسفر قريبا ..

قال روچرز : كذا ؟ ولكن أتعتقد أنه حقيقة سخيّ ؟

قال كارڤر : أظن ذلك ، ياسيدى الصاغ ، ولسوف تجد منه غاية التقدير لصنيعك ..

قال روچرز : جميل ،وأعدك بمعونته على قدر الإمكان ، وعليك أن توضح للتجار كلهم أننى أنتظر غاية التقدير ممن يسافر إلى الغرب هذا العام ..

قال كارڤر : حسنا ، يا سيدى الصاغ .

وهز روچرز رأسه موافقا وقال : مجرد الإشارة تكفى ، ولا ضرورة للتوضيح . .

وأشار لنا أن نتبعه ، وسار نحو السلم ، فانتحى كارڤر جانبا ، ليتقدمه الصاغ ، فخيّل إلىّ أنه حتى فى حركته هذه ، يتمسح بمنضدة البلياردو على طريقة الهر . .

وهبطنا إلى الطابق الأسفل ، فوجدنا إليزابيث قد التهمت سمكتين كاملتين ، وبذلك استردت حيويتها ، وأخذت تصدر الأوامر لآن ، وتفهمها كيف تفتح الحقائب ، وتخرج منها ثياب السهرة التى أتت بها من پورتسموث لتبهر أنظار من كانت تتخيل وجودهم من أهل

www.ibtesama.com

الطبقة الراقية فى ميكيليماكيناك ..

* * *

لما اعتادت عيناى على الرؤية فى العتمة ، أدهشتنى ضخامة الجمهور الذى اجتمع فى مخزن التاجر جروسبك لمقابلة روچرز .

كان هناك ما لا يقل عن مائتى رجل فى ذلك المخزن الذى يفوح منه عطن الجلود وروائح الزيت والدهون والصدأ .. بعضهم يرتدى ثيابا فضفاضة صنعت من التيل ، وبعضهم الآخر فى ملابس خشنة تشبه زى الحطابين .. معظمهم خليط عجيب من الفرنسيين والهنود ومختلف الجنسيات الغامضة .. وجوههم ممتقعة ، وأجسامهم متراخية ، ولحاهم نامية بشكل لا يدل على أنهم ينتمون أصلاً إلى شعوب متمدينة .

وأمام الجالسين ، وضع صندوق مقلوب ، فوقه برميل ملئ بالخمر ..

وحين دخل الصاغ المخزن ، فاجأت العتمة أنظاره مثلى ، فلم يتبين تفاصيل المكان لأول وهلة ، ولكن أنفه قادته إلى الخمر مباشرة فسار إلى الأمام دون توقف ،

www.ibtesama.com

حتى وقف أمام البرميل ، وانحنى على فوهته يشمها ، للتأكد من جودة الصنف ونوعه . .

قال فى حماسة : براندى . . مشروبى المفضل بشرط أن يكون أصيلاً . .

أجاب من بين الجالسين صوت مرح يتكلم بلهجة اسكتلندية : اطمئن إلى أصالته ، يا سيدى الصاغ ، فلقد كنت أعرف بمزاجك ، فاخترته بنفسى احتفالا بقدومك .

صاح روچرز يقول : هذا صوت چو أسكين .

وتقدم إلينا شاب متورد الوجه ، شعره أشقر مجعد . . فصافحه الصاغ بحرارة وإخلاص ، وقال — وقد وضع يده على كتفه : چون أسكين . . أعظم ممول فى تاريخ المتطوعين ، ولسوف أكوّن فرقة من المتطوعين هنا يا أسكين ، حتى أمنحك فرصة البيع لهم !

وتعودت عينا الصاغ عتمة المخزن ، فبدأ يرى أصدقاءه القدامى بين المجتمعين ، فسمعته يصيح قائلا : هذا أنت يا پيتر بارتى ، كنت أظنك سافرت إلى شلالات نياجرا . . وهنا چون ما كريجر . . وچون تشين . . وإليك باكستر . . وأنت موجود أيضا يا فورست أوكس ؟ لم نشرب قطرة معاً منذ كنا فى نيويورك نحاول القضاء على برميل كامل من

www.ibtesama.com

الخمر ! والله إنها لمناسبة تستحق التمجيد ، فدعونا نشرب نخبها ، إلاّ إذا كنتم تريدون الاحتفاظ بهذا البرميل إلى العام القادم ! . .

وتجمع التجار حوله يصافحونه ، وأتى من الغرفة الخلفية رجل له أنف معقوف ، تتبعه هندية تحمل سلة مليئة بالأقداح الفارغة . . وأخذ الرجل قدحا منها ، وملأه من فوهة البرميل ، ثم قدمه للصاغ وهو يقول : مادمت معنا ، يا سيدى الصاغ ، فالأمور على ما يرام . . لسنا فى احتياج إلى ادخار شيء ، فبفضل معونتك نستطيع فى العام القادم الحصول على خمور أفضل . .

قال روچرز باسما : يعنى أن ستيڤن جروسباك يعاون من يعاونوه ؟

قال الرجل بحماسة وهو يرفع كأسه : ستيڤن جروسباك وكل واحد من الموجودين . . جميعنا فى خدمتك . .

ثم التفت إلى الجمهور يقول : اصغوا إلىّ أيها السادة ، لقد ظللنا ننتظر الحاكم شهورا طويلة ، وها هو ذا يقف اليوم بيننا ، فأنعم به وأكرم من صديق حميم للتجار لا تخفى عنه من شئونهم خافية ، وليس فى هذه الدنيا الواسعة من يبزّه فى فهم أحوال الهنود . . رجل لا يعرف الخوف

www.ibtesama.com

ولن يعرفه .. فاشربوا نخب حاكمنا الجديد روبرت روچرز .. إن وجوده بيننا يعيد الطمأنينة إلى نفوسنا ، وينعش التجارة بعد أن كادت تموت .. اشربوا فى صحته بإخلاص وسخاء ..

وهتف التجار تحية لروچرز ، وأخذتهم الحماسة فظلوا يضربون الأرض بأقدامهم ، حتى علت الأتربة وملأ الغبار أنحاء المكان ..

وشق الزحام رجل صغير القامة يرتدى ثيابا أوسع من مقاسه ، وتقدم إلى روچرز ، ووقف أمامه...

قال وهو يفرك يديه فى مظهر حزين : يا سيدى الصاغ ، لقد جئت من مونتريال مع بواكير الربيع ، حتى أتمكن من السفر فى الوقت المناسب إلى قبيلة أسينوبوينز .

سأله روچرز : ما اسمك ؟

قال الرجل الصغير : اسمى أزيكيل سولومون ، ولما طلبت من الملازم إذناً بالمرور ، رفض متعللا بالأوامر الجديدة . وأفهمته أن حرمانى من الإذن يكبدنى خسائر جسيمة ، ويضطرنى إلى التضحية ببضاعتى ، وبيعها بأقل الأسعار .. فضلا عن قلة الفراء فى الربيع القادم . أفهمته

www.ibtesama.com

أننا إذا لم نحصل على الفراء لانجلترا ، فلسوف يحصل عليه آخرون مثل الفرنسيين والإسپانيين الذين . . .

قال روچرز مقاطعا : دعك من هذا الكلام كله ، وحدثنى بموقف حاكم كندا منكم . . أريد أن أعرف إذا كنتم قد وجدتم صعوبات فى التعامل معه ، وهل حاول أن يضع العراقيل فى سبيل التجار ، ليمنعهم من الانتقال بين مونتريال ومناطق الهنود ؟

وبدت الحيرة فى وجه سولومون ، ولكن الأصوات تعالت من كل جانب تقول : لا . . لا . . لم يحدث هذا على الإطلاق ، ولم نجد أدنى صعوبة فى التعامل معه .

وتقدم من روچرز رجل نحيل ، وقال : إننى من أهل مونتريال ، وبصفتى هذه أستطيع يا سيدى توضيح الأمور . . اسمى بروس . . وليام بروس ، وأعمل فى المتاجرة مع قبيلة نودووسيس ، قريبا من شلالات سانت أنتونى الواقعة على المسيسپي . . وأعرف أن حاكم كندا تلقّى من قبائل الغرب الهندية ما لا أول له ولا آخر من الالتماسات ، وقد بعث بها إلى حكومة صاحب الجلالة . راجياً أن يسمح للتجار بالسفر على سابق عادتهم . . ومن

www.ibtesama.com

رأيه أن قرار المنع يكبد انجلترا خسارة فادحة ، ويحرمها من معظم البضائع الهندية .

صاح سولومون فى حماسة : ألم أقل هذا الكلام للملازم ؟ لقد ظللت أسبوعاً كاملا أعيد هذا الحديث وأكرره ، فكان جوابه دائماً : إنها الأوامر ، وليست لديه السلطة الكافية للتصرف فى الموضوع . .

وزمجر التجار ، وتمتموا بلعنات خافتة .

قال روچرز : ولكنها الحقيقة ، فالملازم فى موقف لا يسمح له بمخالفة الأوامر ، وأنا الإنسان الوحيد الذى يملك السلطة لإصدار الأذون بالسفر .

ولزم التجار الصمت ، وساد بينهم السكون ، حتى سمعنا زقزقة العصافير القابعة فى عشوشها فوق الجدران الخــارجية .

أردف روچرز يقول : وأظنكم تعرفون ، أيها السادة ، كيف اختلفت الآراء فى ضرورة سفر التجار لقضاء الشتاء مع الهنود . . بعضهم يرى من الأفضل أن يأتى الهنود بأنفسهم ، وبين أصحاب هذا الرأى أشخاص يتمتعون بقدر لايستهان به من النفوذ والسلطان . . ولكنى لا أوافق على

www.ibtesama.com

تغيير القوانين وسط المعمعة وقبل انتهاء الموسم . . لذلك أميل – بالرغم من تضارب الرأى فى هذه المسألة – إلى التصريح لكم جميعاً بقضاء الشتاء مع الهنود .

وتهامس التجار فيما بينهم بحماسة شديدة .

قال مستر بروس : لو أبقيتنا هنا ، ياسيدى الصاغ ، يصيبنا خراب محقق لا سبيل لأحدنا إلى الفكاك منه . . فتأكد أن السماح لنا بالسفر ، هو غاية أملنا وأقصى ما نتمناه . . ولقد سمعنا أن سير وليام چونسون ضد الفكرة ، فهل هى الحقيبة يا سيدى الصاغ ؟ وإذا كان ذلك . . .

قال روچرز يقاطعه : قد أتجاوز سلطاتى إذا سمحت لكم بالسفر ، ولكنى سأفعل يا مستر بروس . . وفى نيتى أن أسمح لكم بالسفر . . لكم جميعاً ، وأظنكم توافقوننى على صواب هذا الإجراء .

ثم سكت برهة ، وأردف يقول كأن فكرة طرأت له : ويقينى أننى أستطيع الاعتماد على تأييدكم إذا اقتضى الأمر .

وصاح التجار يؤيدونه ، وأخذوا يتدافعون نحوه بحماسة شديدة ، فلكزنى ماكنوت مداعباً ، وقال : هكذا

www.ibtesama.com

الصاغ دائما ، وهذه طريقته التقليدية . . يهاجم ، ويهاجم . . ويهاجم . . ، وذائما يسدد الضربة الأولى .

قلت ، ولكنه تصرف خطير ، أفلا ترى معى أنه بمخالفته أوامر چونسون يعرض نفسه للخطر ؟

قال : الخطر ؟ كأنك تسألنى عما إذا كان من الخطر وضع النار فى البارود ! لا شك أنه أمر غاية فى الخطورة ، وأنت تعرف ذلك يا لانجدون ، ولا يخفى عليك كم عارض چونسون فى تنصيب روچرز حاكما لميكيلماكيناك .. لقد كان دائما ضد هذه الفكرة ، ولو استطاع أن يعرقلها ما تردد ، ولسوف يوقع به چونسون فى يوم من الأيام ، وروچرز ليس بالمقاتل الذى يقف هادئا فى انتظار العدو .. لا ، إنه يفضل أن يبدأ بالهجوم ، ومن عادته أن يسدد ضرباته بقوة رهيبة تدمر ضحيته إلى أبد الآبدين ، فلعله يوفق فى هذه المرة ... أو هذا ما أتمناه على كل حال ، رحمة بنا جميعا يا لانجدون ..

وانتهزت فرصة انشغال الصاغ بتبادل الأنخاب ، وحاولت أن أستفسر من ماكنوت عن أمر يقلقنى . . قلت له : سمعت الصاغ من برهة يدلى لكارڤر بكلام عجيب ... يحدثه عن ضرورة اعتراف التجار بجميله إذا

www.ibtesama.com

سمح لهم بقضاء الشتاء مع الهنود ، وأظنني سمعته يطلب إليه أن يذكرهم بضرورة إظهار هذا الشعور ...

قال ماكنوت : ولم لا ؟ ألا تعترف بجميل رجل ينقذك من الإفلاس ؟

قلت : وهل فى ذلك من شك ؟ إنما يخيل إلى أن الصاغ يريد أن يقدموا له شكرهم بأسلوب مادى مُشبع ..

قال مكنوت وقد تورد وجهه : لقد عينوه حاكماً هنا ، أفليس لهذا المنصب مظاهر والتزامات مثل المناصب الكبيرة الأخرى ؟ . . الهنود يقدمون الهدايا عادة ، وكذلك التجار ، وفى وسع الحاكم أن يساعدهم على الكسب ، وإذا كان هناك حاكم يستحق الهدايا ، فهو الصاغ . . . أتعرف كم تعطيه الحكومة كمرتب لهذا المنصب الذى يقتضيه رعاية عشرات الأماكن ، ويلزمه بإكرام كل من يحلو له القدوم ، بجانب أجور خدمه ، وطعام أسرته ، وغيرها من الضروريات ؟

قلت : لا أعرف ، ولم يطرأ لذهنى يوما أن أسأله ..

قال : بل الأفضل أن تعرف ، فمن حيث المرتب ، لا يعتبر روچرز صاغاً على الإطلاق .. إنه صاغ بالاسم فقط .. أما القوائم العسكرية الإنجليزية ، فتخصص له

www.ibtesama.com

مبلغا زهيدا لا يزيد على نصف مرتب يوزباشى .. أى خمسة شلنات فى اليوم ! .. هل يستطيع الإنسان أن يعيش بخمسة شلنات ، ويؤدى المهمات الموكول بها إلى الصاغ ؟ فلماذا ، بحق السماء ، لا يظهر له هؤلاء التجار شكرهم بطريقة مادية مشْبِعة ؟ وكيف يعيش إذا لم يفعلوا ذلك ؟ من المستحيل أن يكفيه مرتبه إلا إذا كان قادرا على صنع المعجزات ..

قلت : ولماذا يقبل منصب الحاكم بمثل هذا المرتب الحقير ؟

قال : أمرك والله عجيب ! .. هل تظن أن أحداً فى الدنيا يبلغ به الغباء أن يقول لكبار رجال الحكومة : لا ، يا سادتى ، أشكركم كثيرا ؛ ولكن المرتب حقير ، لذلك أرجوكم أن تعفونى من قبول المنصب الذى قضيت فى السعى إليه عاما كاملا ! ما من رجل يستطيع أن يتصرف على هذا النحو خصوصا الصاغ ، فليست هذه طريقته فى معالجة الأمور .. إنه جندى ، ومن طبع الجندى أن يستولى على ما تصل إليه يده ، ثم يناقش التفاصيل فيما بعد .. والجنود جميعهم سواء ، يا لانجدون .. يخضعون للأوامر مهما كان الثمن ، ولا حيلة لهم فى ذلك ..

www.ibtesama.com

وخيل إلىّ ، وأنا أسمع هذا الحديث ، أن الصاغ ينزلق على طبقة رقيقة من الثلج . . وكاشفت ماكنوت بشعورى فقال : صدقت . . ولكن الصاغ ، يا لانجدون ، عاش عمره كله ينزلق على طبقة رقيقة من الثلج ، بل على طبقة أرق مما صادفته طوال حياتك . .

وارتفع صوت الصاغ ، وقد أكسبه الشراب قوة وحماسة ، يقول : أول ما أرغب فى عمله كحاكم لهذه المنطقة ، أن أؤمّن المناطق الغربية للتجار والمسافرين ، فأظنكم تعرفون أن رجال شيپوى وسيوكس يستعدون لحرب كبيرة ، وإن حدث ذلك تكون الطامة الكبرى عليكم جميعا ، فالهنود لن يتوانوا عن سلخ رءوسكم وسلب بضائعكم وأموالكم ، ولسوف تشغلهم الحرب عن بيع الفراء للباقين منكم . . فالمصلحة تقضى بمنعهم من الحرب ، وسبيلنا إلى تحقيق هذا الغرض أن نشغلهم عن القتال بشتى الوسائل الممكنة . . لذلك أريد منكم جميعا ، عندما تذهبون لقضاء الشتاء معهم ، أن تبلغوا زعماء القبائل فى مختلف أنحاء الغرب رسالة منى . . قولوا لهم ألا يحاربوا قبل أن أتحدث إليهم . . اطلبوا منهم الحضور إلى ميكيليماكيناك فى بداية الربيع القادم ، وابذلوا ما وسعكم فى إقناعهم بالمجىء . .

www.ibtesama.com

إنه واجبكم لأنها مصلحتكم .. فقد نمى إلىّ أن قبائل الغرب أخذت فى إرسال فرائها عن طريق المسيسپي إلى الفرنسيين ، وأنتم تعلمون معنى ذلك . . معناه أننا إذا لم نوقفهم بسرعة ، فلن يمضى وقت طويل حتى يتمكن الفرنسيون من السيطرة على تجارة المناطق الغربية ، والنتيجة حرمان الإنجليز من خدمات هذه البلاد ، ولن تتمكن انجلترا من استرداد مكانتها التجارية بعد ذلك إلاّ بحرب شعواء تزهق فيها آلاف الأرواح . . فضموا صفوفكم ، ووحدوا جهودكم ، وابذلوا المستحيل فى سبيل إحضار الهنود إلى ميكيليماكيناك . . . قولوا لهم إننا أعددنا لكل واحد منهم هدايا فاخرة . . هذه أوامرى ، وعليكم أن تطيعوها !

صاح التجار فى صوت واحد : سنحضرهم جميعاً ، والمجد لك ، يا سيدى الصاغ ، والله إنك لحاكم بالمعنى الصحيح .

قال الصاغ — وهو يسكتهم بإشارة من يده : تصوروا كم يأتيكم من خير إذا استتب السلام فى ربوع الهنود . . تصوروا الثروات الطائلة التى تتدفق بها كنوز هذا المخزن الطبيعى للخيرات . . فهل يتردد أحد بعد ذلك فى العطاء والسخاء لقاء ما ينتظره من نعم لا تقدر ؟ أين الغبى الذى

www.ibtesama.com

يسنهين بضرورة السلام فى هذه المناطق ؟ السلام بين أيديكم ومصيره وقف عليكم ، وقد عهدت إليكم بمهمة صيانته وتدعيمه لقاء استيلاء انجلترا على كنوز الغرب السحرية .

وبوجه متورد اشترك ماكنوت مع التجار فى الهتاف للصاغ ، ولفرط حماسته أخذ يضرب الحائط بساقه الخشبية !

قلت : ومن أين له بالهدايا التى يتحدث عنها ، يا ماك ؟ إنه لا يملك شروى نقير ، وقد أمره چونسون بالامتناع عن تقديم الهدايا للهنود .

ونظر ماكنوت إلىّ بحنق ، وقال : أنت غبى يا لانجدرن ! ماذا يهمك من أين يأتى بها ؟ حتى إذا سرقها ، فنى استطاعته أن يرد ثمنها من كنوز المخزن الطبيعى الذى أشار إليه الآن فى حديثه ، أليس كذلك ؟

* * *

ما زلت أذكر تلك الليلة ، حين جن جنون التجار بوعود الصاغ ، فاحتشدوا فى الغرفة الأمامية من بيته ، وأخذوا يقدمون له دلائل عرفانهم بجميله ، وتقديرهم لصنيعه ، وهم يصخبون ويضحكون .

أتوه بأفخر براميل الخمر المعتق ، وأندر أنواع

www.ibtesama.com

الجلود ، وأغلى أصناف الفراء ، وأفخر الأوانى الزجاجية والخزفية . أعطوه مصوغات غالية . . وأسلحة كثيرة ، ولفائف من الأقمشة المتنوعة . . علباً مايثة بالسيجار . . وحزما من الطباق . . وقلانس ومعاطف من الفراء . . وسجاجيد من جلد البقر . . سروجا وأدوات للطهو . . وقدم أحدهم جارية هندية جميلة الشكل ، بإشارة من سيدها تقف بجوار الكرسى ، أو تزحف على الأرض ، أو تلزم مكانها مثل كلب أمين ..

وأتوه أيضا ببرميل ملىء بالروم ، وخلطوه بأنواع أخرى من الخمور ، وصنعوا من الخليط مشروبا يسمونه كاليبوجس .. ولم تمض ساعة حتى كان البيت يحتشد بضعف طاقته من الناس ، وعشرات من الضيوف يتجولون أمامه فى ساحة العرض ، وهم يغنون ويتناقشون ويتعاركون .. وثمل عشرة منهم بينهم ناتى ، فاستلقوا على الأرض غائبين عن الوعى ..

وكنت أتوقع أن تنكمش إليزابيث مشمئزة من هذا الجمع المسرف فى طلب اللذة ، ولكنى وجدتها لفرط دهشتى تهبط من الطابق الأعلى إلى المعمعة ، وتقف على آخر درجات السلم ، وقد أسندت إحدى ذراعيها إلى السور

بأناقة ، ووضعت الأخرى على صدرها المغطى بالدنتلا ..

وجاء نزولها إلى الجمع هادئا جميلا ، وكان الضيوف إذا مروا بها يلزمون الصمت احتراما لها ، فتحييهم بابتسامة عامرة باللطف والمجاملة ، حتى لتظنها ملكة وقفت تتلقى آيات الولاء من أتباعها المخلصين ..

وبدت حينئذ رائعة الجمال ، أنيقة الهندام : ذراعاها العاجيتان تلمعان فى ضوء الشموع ، وثوبها الأخضر الباهت ينسدل على جسدها فى انسياب أخاذ ، ومجولتها المنقوشة تمتد أطرافها إلى ماتحت قدميها . .

كانت وقفتها الرائعة مثل دمية جميلة ، فلما رأيتها على هــذا النحو ، تحركت عواطفى القديمة نحوها ، ووجدتنى أضرع إلى الله مخلصا أن يلهمها السداد ، فتوفق فى إثبات لياقتها للرجل العجيب الذى تزوجته .

وحين رآها روچرز تقف على السلم ، رفع كأسه عاليا ، وصاح بضيوفه يقول وقد أثقلت الخمر لسانه : اسمحوا لى ، أيها السادة ، أن أقدم لكم جميعا أجمل امرأة فى نيوإنجلند ، إنها زوجة الحاكم ، أيها السادة ، مسز روچرز ، فهيا بنا نشرب نخبها .. حماها الله من كل سوء ..

وشربوا نخبها ، وأخذوا يلقون الخطب فى تكريمها ،

www.ibtesama.com

وقد تهذبت ألسنتهم المثقلة بالخمر وحنّت ألفاظها .. وحملق الفرنسيون عيونهم فيها مأخوذين بجمالها ، وتهامسوا فيما بينهم إعجابا بها ، ولكن همسهم كان عاليا بحيث لا يمكن لأذنها أن تخطئ سمعه ، ما لم تكن صماء .. وسمعتهم يقولون : وحق السماوات إن جمالها يقطع القلوب كالسكين .. ياللرشاقة .. يا للأناقة .. انظر إلى كمال رسغها ، وكيف تنقلك نظرات عينيها إلى النعيم المقيم !

واجتمع التجار الإنجليز حولها يتحدثون إليها فى أدب واحترام ، ولدهشتى وجدتها تتقبل من كارڤر قدحا من الكاليبُوجَس ، وترتشف منه بأناقة ، وهى تبتسم بجلال جميل للوجوه المتطلعة إليها ..

وبفضل وقارها ركز الناس اهتمامهم فيها ، ثم ازدادوا إعجابا بها حين أخذت تتلطف فى الحديث مع تجار بورتسموث الذين عرفتهم من بين الحاضرين .. ولم تكن تعرفهم شخصيا ، ولكنها أحسنت استقبالهم ، وجعلت تقلب معهم ذكريات بلدتها وبلدتهم : كيف فقد النقيب « اليوزباشى » وليام هويپل تقدير المجتمع له فى وقت من الأوقات لانغماسه فى تجارة الرقيق ، ثم لم يلبث أن استرد

www.ibtesama.com

اعتباره ، وأصبح محط إعجاب خيرة أهل البلد وأعلاهم مقاماً ..

وظلت تتحدث طويلا إلى التجار الذين وقفوا من حولها مترنحين .. وعلا الضجيج فى الغرفة الأمامية ، حيث وقف الصاغ بين المعجبين به يروى لهم قصة ما رآه فى انجلترا من غرائب ومفارقات ...

وسمعته يقول لهم : بلد يدعو إلى غاية الدهشة والعجب .. مساحته لا تزيد عن ربع نيو إنجلند ، وليس فيه جبل يستحق الذكر ، ولا نهر أكبر مما يستطيع أن يفعله كلبان حين يرفعان رجليهما إلى شجرة ... وانجلترا كلها قيود بغيضة فيما عدا النسل ، فالناس يتكاثرون فيها بسرعة النباتات الفطرية ... وهم من جميع الأنواع : وكل نوع منهم تجده فى لندن أكثر عددا من أى مكان آخر فى الدنيا ... فيها أغنى الأغنياء وأفقر الفقراء .. جنود لا حصر لهم ومتسولون بالآلاف .. بغايا لا أول لهن ولا آخر ، وكلما وصلت الميناء سفينة ، يحتشدن فوقها حتى يقلبنها .. وكلما أبحرت أخرى ، يعثرون على عشرٍ منهن مختبئات بين جوانبها ... وإذا سارت فصيلة من الجنود ، فلا أقل من مائة عاهرة بين الحقائب والصناديق ... ومن المستحيل أن تعبر طريقا

www.ibtesama.com

دون أن تطاردك حشودهن ... فى لندن وحدها خمسون ألفا منهن .. والمصيبة أنهن يلدن بكثرة شأن بقية أفراد الشعب .. أتعرفون رأيى فى الإنجليز ؟ .. إنهم مثل الهنود تماما ... فالهنود يقتلون أنفسهم سكراً ، والإنجليز يقتلون أنفسهم دعارة !

وأبدى التجار مزيد دهشتهم لكلامه ، وتهالك اثنان منهم لفرط ثملهما ، فسارا يترنحان إلى الباب ... ولم يتمالك أحدهما نفسه ، فتعثرت خطواته على الدرج ، وسقط يتدحرج إلى أسفل ... وكان صاحبه أكثر ثباتا ، فعاد إليه ، وعاونه على الوقوف ، ثم صعد به الدرج ثانية ...

وذكرنى صعوده بآن ، القابعة وحدها فى الطابق الأعلى ، وقد هجرها الجميع . . أبوها وإليزابيث وأنا . . فالمرح الذى شملنا فى هذا المكان الغريب البدائى ، أنسانا الطريدة الصغيرة المحرومة من الصديق والحبيب .

وضاق صدرى حين تذكرتها ، وشعرت بالخجل الشديد لانشغالى عنها ، فصعدت السلم جريا لأطمئن على سلامتها ، ولكنى توقفت فجأة فى منتصف الطريق . . إذ عندما وصل رأسى إلى ما فوق مستوى الطابق الثانى ، سمعت صوتا يُنادينى همساً . . ولم ألبث أن رأيت فى العتمة السائدة وجهها

www.ibtesama.com

بموازاة وجهى تماما . . وكانت تقف بين الأعمدة بجوار سور السلم ، يداها تمسكان بالعمودين القائمين على جانبي وجهها . . مثلما يفعل السجين حين ينظر من بين قضبان زنزانته . .

قلت لها هامسا : هذا الصخب لا يلائمك ، وما كان ينبغى أن تبقى هنا ، فلماذا لم تذهبي إلى فراشك ؟

تمتمت تقول : وجدت الجو حاراً ، وشعرت بالرغبة فى الترويح عن نفسى بما يقولون من أحاديث تستحق السمع !

قلت — وأنا أصطنع الصرامة : حسنا . . لعلك سمعت الآن ما فيه الكفاية . . فعودى إلى فراشك .

وندمت على صرامتى ، وأردت أن أخفف من قسوة لهجتى ، فانحنيت عليها وقبلتها . . وظلت على وقفتها لا تتحرك . . وجهها فى مكانه بين العمودين ، وعيناها مغمضتان . . ولم أشعر إلا وأنا أقبلها ثانية . . ثم قلت لها بسرعة : اذهبي فورا إلى سريرك . . ماذا تفعل إليزابيث إذا عرفت أنك كنت هنا تتحدثين إلىّ هكذا ؟

ومضت لحظة أخرى وهى صامتة مسبلة الجفنين . . قالت وهى تفتح عينيها ببطء : لن تعرف ، ولن أخبرها

www.ibtesama.com

بشيء على الإطلاق . . سأدعى أننى كنت فى سريرى طوال الوقت ، ولم أتحرك منه . . إنها لا تقدر الصدق ، وكلما اعترفت لها بالحقيقة ، تنقلب علىّ وتشتد فى تأنيبى . . ويوم سألتها عن الحبل السُّرى ، أقامت الدنيا وأقعدتها . . غضبت لأنك حدثتنى بشيء كهذا ، وزعمت أنك شرير . . قالت إننى مادمت قد استمعت إليك ، فأنا شريرة أيضا . . إنها تسيء الظن ، وتجعلنى أشعر بأننى دائما شريرة . . شريرة على طول الخط . .

وارتفعت الضجة فى الطابق الأسفل ، ورأيت إليزابيث تهرع نحو السلم ، وقد رفعت بيديها الطرف الأمامى لثوبها الأخضر المنفوخ . . ودارت حول نفسها ، وتعثرت فى سيرها ، ثم صاحت تقول فى غضب شديد : حثالة من السكارى الخشنين المتوحشين !

وأولت ضيوفها ظهرها ، وأخذت تصعد السلم بسرعة ، حتى وصلت إلى حيث أقف . .

والتفت بقلق نحو آن ، فوجدتها قد اختفت فجأة كأنها تبخرت فى الهواء . .

وانتحيت جانبا أفسح الطريق لإليزابيث ، ولكنها توقفت عندى ، وصاحت فى وجهى تقول بحنق ومرارة :

www.ibtesama.com

وأنت . . ماذا تفعل هنا ، ولماذا صعدت هذا الطابق ؟ . . أتتسلل وراء آن ؟

قلت : لقد أخرجك الضغب عن وعيك ، يا إليزابيث ، فماذا حدث ؟

قالت : ماذا حدث ؟ ماذا حدث ؟ . . حيوان مخمور سكب قدحه على ثوبى الحريرى الأخضر . . أفسده تماما . . ولكنك صعدت وراء آن ، أليس كذلك ؟ . . هل دخلت غرفتها ؟

قلت : لا ، ولكنى لا أرى ما يمنعنى من دخول غرفتها ، يا إليزابيث . .

وأطلقت فى وجهى ضحكة ساخرة وقالت باحتقار : طبعا ! ! . . قد تستطيع هذه الفتاة أن تخدعك ، أما أنا فحِيلـُها لا تنطلى علىّ . . إنها . . .

ولم أنتظر مزيداً . . صَممت أذنىّ عن بقية كلامها ، وأسرعت أهبط السلم مبتعدا عنها . . وفى طريقى إلى الباب ، ارتفع صوتها الخشن يأمرنى بالوقوف . . وصاحت بى تقول : لاتجدون تاون . . أبعث بالصاغ فوراً ، فأنا لا أقبل أن يتحول هذا البيت إلى حظيرة خنازير . . مُرْه

www.ibtesama.com

أن يطرد هؤلاء المتوحشين إلى بيوتهم إذا كانت لهم بيوت تأويهم .

والملاحظ عموما أن المرأة إذا غضبت يخشُن صوتها ، وتمتلئ نبراته بأقسى معانى الثورة والاحتجاج .. وهذا ما حدث فى تلك اللحظة .. فحين سمع الضيوف كلامها ، هبط السكون على البيت الذى كان من برهة يضج بصياح السكارى وضحكهم .. وأخذ التجار يتسللون إلى الباب على أطراف أصابعهم ، فيصطدمون بالجدران والأثاث .. ولما سعيت إلى الصاغ برسالتها ، رفع إصبعه محذرا ، وقال : سمعت حديثها إليك ، وليلعنى الله إذا حققت رغبتها .. هؤلاء السادة فى احتياج إلى معونتى ، ولا يمكن أن أتخلى عنهم ، ومن واجبى أن أرافقهم إلى البلدة ، وأكمل السهرة معهم .. مجرد رياضة على الأقدام لا أكثر . وأظنه من حقى بعد يوم عصيب كهذا أن أرفِّه عن نفسى قليلا ، بدل أن أسمع تأنيبها طول الليل .. فقل لها إننى استدعيت فى مهمة .. مهمة عسكرية ! ..

قال أحد التجار فى ضحكة عالية : رحله تفتيش ، فمن واجب الصاغ أن يطوف بعدد من النساء الاخصائيات فى الترفيه العسكرى بهذه المنطقة ..

www.ibtesama.com

ولم يرحب الآخرون بكلامه الصريح ، فقطبوا فى وجهه ، ولوحوا بأيديهم مهددين .

قال الصاغ وهو ينظر إلى السلم : أخبرها أنك لم تجدنى ، يا لانجدون . . أخبرها أننى استدعيت فى مهمة عاجلة .

قلت : ولكنها لن تصدقنى يا سيدى الصاغ ، فالأفضل أن تكلمها بنفسك .

قال : لا . . لو وضعت يدها علىّ ، فلن أتمكن من الخروج ثانية . . ثم ما الفائدة من كلامى معها ؟ سوف تكذّبنى مثلما تكذّبك تماما . . فالمصيبة أنها لا تصدق أحداً ، لو جاءها سيدنا جبريل ، وأقسم ألف مرة إنه كان يتمرن على مزماره ، فلا بد أن تكذّبه ، وتتهمه بأنه كان يختفى وراء سحابة ، ليطارح الغرام إحدى إناث الملائكة ! !

وجاءنا صوت إليزابيث يقول بخشونة من الطابق العلوى : لانجدون تاون . . نادِ الصاغ بسرعة ، وأبلغه أننى أريده فوراً . .

وتسلل الصاغ بخفة القط إلى نافذة قريبة ، وقفز منها إلى الخارج ، ثم أشار فى صمت إلى رفاقه أن يتبعوه . . ولم يلبث أن ابتلعه الظلام .

وتبعه التجار وهم يتدافعون ويتمتمون بأصوات خافتة .

www.ibtesama.com

وعادت إليزابيث تصيح بي قائلة : لانجدون تاون ، أين الصاغ ، ولماذا لم يأت ؟ كم مرة نبهتك باستدعائه ؟

وعدت مسرعا إلى الباب . .

كان الضيوف قد هربوا جميعا من البيت ، ولم يبق بعدهم سوى رائحة الروم وأقداح مبعثرة ، وعلى الدرج الأمامى جلس خادم الصاغ مطرقا ، والحارسان على جانبيه . .

قلت لها : لم أجد الصاغ يا إليزابيث ، فقد اضطر إلى الخروج مع المسافرين صباح غد ، لمعونتهم فى إنجاز بعض المهام الضرورية . .

وأسرعت الخطى نحو مخزن جروسبك حيث يختفى ماكنوت ، ولكن صوتها كان أسرع منى ، وخيل إلىّ كأنه يقطع سكون الليل بسكين حادة . .

صاحت بى تقول : لست أصدقك ، فأسرع خلفه لفورك ، واطلب إليه أن يعود بسرعة . . إنها أول ليلة أقضيها هنا ، وهو يعلم أننى فى احتياج إليه ، ومع ذلك يتركنى ويهرب ، ليسكر مع تجاره الرعاع القذرين . . أتسمعنى يا لانجدون ؟ لماذا لا تجيب ؟

www.ibtesama.com

ووجدتنى أرتجف رغم حرارة الجو ، وقد تمثل لى الخطر الذى أسعدنى الحظ بالنجاة منه فى الوقت المناسب ، . . ففيما يشبه المعجزة أنقذ روبرت حياتى حين عودتنا من سانت فرانسس ، ولكنه بزواجه من إليزابيث أنقذنى من نكبة أفدح !

** معرفتي **
www.ibtesama.com
منتديات مجلة الإبتسامة

www.ibtesama.com

الفصل السادس عشر

فى صباح اليوم التالى ، هبّ النسيم منعشا من الشمال عبر المياه الثلجية لبحيرة سوپيرير ، فوقفت أملأ رئتىّ بهذا الهواء العليل ، وأمتع نظرى بجمال المياه الزرقاء المنسابة بين المضايق فى حيرة بين الصخور البيضاء القائمة على الطرف الشرقى للجزيرة .

وخيل إلىّ فى تلك اللحظة أن أحداث الليلة الماضية لم تكن سوى حلم محموم صنعته حرارة الجو ومتاعب الرحلة الطويلة المرهقة ، التى قطعناها حتى وصلنا إلى القلعة القائمة وسط القفار . .

وفعل تحسن الجو فعله فى رفع معنوياتى ، فبدا لى كأن النسيم البارد المقبل نحونا من البحر الخضم غيّر ميكيليماكيناك بما فيها ومن فيها : لم تعد ساحة العرض متربة ، فانعكاس أشعة الشمس الذهبية عليها فى بواكير الصباح ، ضيّع قبحها ، وأظهرها فى ثوب أخضر ترتاح إليه العين .. وشمل التغيّر بيت الصاغ أيضا ، فبعد أن كان أجرب اللون أغبر ، تناولته أيدى الخدم بالتنظيف والتلميع ، فأصبح

www.ibtesama.com

مسكنا لا بأس به . . وأخذت الجارية الهندية مكانها فى المطبخ تشق الأخشاب وتقشر البطاطس وتأتى بالماء من البئر وتساعد الطاهية الفرنسية العجوز ذات الوجه الشبيه بالساحرات . .

وعند شروق الشمس استيقظ الصاغ منتفخ العينين ، وصبّ على رأسه ملء دلو من الماء البارد ، وشرب جانبا من دلو آخر ، ولما أحس بالانتعاش ، توجه فى خطى سريعة إلى مخازن التجار ، حيث تجمع مئات من العمال ، وانهمكوا فى تكديس البضائع ، تمهيدا لنقلها إلى الزوارق ..

ومع أن الوقت كان مبكرا ، فقد تسلمت إليزابيث أربع دعوات لتناول الشاى فى بيوت التجار الذين أسعدهم الحظ ، فلم يتزوجوا بهنديات .. وسرها اهتمام الناس بها ، فانشرح صدرها ، وضحك ثغرها ، وأخذت تلاطفنى وتجاملنى كأنها لم تقسُ علىّ بكلمة طول حياتها ...

قالت : ما رأيك فيما يصح أن أرتديه هذا المساء ، يا لانجدون ؟ أيهما أفضل : الثوب الأخضر ، أم البنفسجى ؟ البنفسجى على أحدث طراز ، وقد يكون بالغا فى أناقته ، ولكن أليس من الرحمة بنساء هذا البلد البائسات أن أسعدهن برؤية أحدث الأزياء ؟ تصور كيف يعشْن فى هذه القفار

www.ibtesama.com

محرومات من أبسط المتع .. والله ، إنى لأرتجف إشفاقا عليهن ..

وارتجفت بطريقة جميلة .. ولما امتدحت لها ثوبها البنفسجى ، صعدت الطابق الأعلى وهى فى غاية الرضا والانشراح ، الأمر الذى شجعنى على انتهاز الفرصة ، فناديت آن ، وحملتها صندوقى وأقلامى ، وسرنا معا إلى المدخل المائى للقلعة ..

وحين وصلنا إلى الشاطئ ، تبيّن لى أن حماسة الصاغ لميكيلماكيناك لم تكن كلها مبالغة .. إذ كان الماء فى صفاء الزجاج ، والبحيرة تسبح من بعيد فى زمرد مفضض الأطراف ، وجموع الهنود والعمال والتجار يصيحون فى مرح أثناء قيامهم بعملية صيد الأسماك ، أو انهماكهم فى إعداد القوارب للإقلاع ...

وبجوار الشاطئ أخذ العمال ينقلون القوارب بخفة ، حتى لا يحتك قاعها الجلدى بالأرض فيتمزق .. ووقف التجار يشرفون على شحن البضائع ، وتنظيمها فى كميات ضخمة يدهشك كيف احتملتها القوارب دون أن تغرق . .

وكانت هذه القوارب أضخم حجما مما رأيت فى حياتى .. طولها لا يقل عن خمس وأربعين قدما ، وعند طرفيها

www.ibtesama.com

رسوم ترمز إلى أسمائها : فواحد عليه صورة قندس .. والثانى علم ... والثالث حصان .. والرابع دب .. والخامس رأس هندى .. وهكذا ..

واستيقظت فىّ روح الفنان لمرأى هؤلاء العمال ، فتمنيت لو استطعت أن أقضى اليوم كله فى رسمهم : كانوا قصار القامة ، سمر الوجوه .. صدورهم عريضة ومن تحتها تتضاءل أجسامهم بالتدريج حتى تصبح لا شىء ... يغطون رءوسهم بقلانس من الريش دليل طول خبرتهم بشئون البحر ... ويلفون سيقانهم بقلاشين مربوطة بأشرطة ملونة تحت الركب ، ويضعون على أكتافهم ملاحف تتدلى منها أكياس مطرزة بالخرز اللامع ... وكانوا فى مرح عظيم ... يضحكون ويغنون ويتسامرون ويرقصون ، حتى ليخيل إليك أنهم يروْن الحياة ملحة كبرى ..

وبينما كنت أرسم هذا المنظر الجميل ، وآن بجانبى تناولنى حاجتى من الأقلام ، وتدفع عنى المتطفلين ؛ أقبل روجرز وبصحبته پوتر وچوناثان وكارڤر ، وساروا من المدخل المائى متجهين نحو أسطول الزوارق ... وتحدث الصاغ قليلا إلى مستر بروس ، ثم رأيت العمال يحملون على أكتافهم

كارڤر وبروس ، ويخوضون بهما الماء إلى الزوارق ، ويضعونهما بين طرود البضائع ..

وألقيت بأقلامى ، وتوقفت عن الرسم أقول : أرى كارڤر يتأهب للسفر معهم الآن ، فلماذا لا أسافر أنا أيضا ؟

وأسرعت إلى الصاغ ، ولكنه تجاهلنى ..

وأشار بروس إلى رجاله ، فضربوا الماء بمجاذيفهم ، وفى نبرات مرتجفة ارتفعت عقائرهم بالغناء ... واشترك فى الغناء بحارة الزوارق الخمسة الأخرى التى يملكها بروس ، وعلى وقع أنغامهم أخذت المجاذيف الحمر ترتفع فوق صفحة الماء ، ثم تغيب تحته بسرعة ، كأنها ألسنة اللهب .. وتحركت صفوف الزوارق متقاربة نحو الغرب .. مجاذيفها تتحرك فى انتظام آلى ، وبسرعة ستين ضربة فى الدقيقة ، فخيل إلىّ أنها حشرة مائية هائلة تسبح بأرجلها المتعددة فى نشاط ...

وارتفع عويل الهنديات من الشاطئ حزنا على فراق أزواجهن المسافرين مع بروس ، فجاء نحيبهن صدى لما يعتمل فى قلبى من خيبة الأمل ، لتخلفى عن هذا الموكب المرح ...

www.ibtesama.com

وعدت واجما إلى لوحتى ، فوجدت آن راكعة على الأرض تجمع الأقلام التى رميتها عند ذهابى ، وعندما اقتربت منها ، نهضت واقفة ، وقالت تسألنى : إلى أين يسافر مستر كارڤر ؟

قلت : إلى الغرب ..

قالت : ومتى يعود ؟

قلت وأنا أهز رأسى : لست أدرى ، ربما يعود بعد عامين أو ثلاثة ...

قالت : وكنت تريد الذهاب معه ، يا لانجدون ؟

قلت : بلا شك ... أما كنت تعلمين أننى جئت لهذا الغرض .. جئت لأسافر إلى الغرب ؟ ألم أخبرك بذلك : يا آن ؟

ولما لم أتلق منها إجابة عن هذا السؤال التفت أنظر إليها ، فإذا بها تبتسم فى غموض ، وقد زمت شفتيها بطريقة ذكرتنى بأول مرة رأيتها فيها ، حين جذبتها مسز جارفين بخشونة ، وأجلستها على حجرها ، لأرسم صورة لجسدها النحيل ، ووجهها الملطخ بالأقذار .

www.ibtesama.com

قالت وهى تقدم لى صندوق الأقلام : الصورة لم تنته بعد .

قلت : أعرف ذلك . . ولكنى فقدت الرغبة فى الرسم .

قالت وهى ما زالت تحمل صندوق الأقلام : لم يبق سوى القليل ، يا لانجدون . . لم يبق سوى تلوين المجاذيف والريش باللون القرمزى . . إنها فرصة لا تعوض ، فقد لا يتأتى لك رؤية هذا العدد من الزوارق مرة أخرى . . سمعتهم يقولون إنه أمر نادر الحدوث .

وأخرجت من الصـــندوق قلماً أحمر ، ووضعته فى يدى .

قالت : انظر إلى القوارب ، يا لانجدون ، وكيف تبدو كالسهام .

ونظرت حيث أشارت ، فرأيت نحو مائتى قارب تقف فى المياه الضحلة ، وقد أخذت عشر مجموعات منها تنزلق إلى الشرق والغرب ، فى طريقى بحيرتى سوپيريير ومتشيجان .

وكانت المجاذيف الحمراء ، كما قالت آن ، تكسب الزوارق شكل سهم هائل . . رأسه يخترق القفار ، ربما لآلاف الأميال قبل أن يصل إلى هدفه .

www.ibtesama.com

وأثارنى التشبيه ، وأيقظ رغبتى فى الرسم من جديد ، فعكفت على الصورة أتمها بمنتهى النشاط .

وفى نشوة العمل ، نسيت روچرز وكارفر وآن ، بل ونسيت معهم خيبة أملى .

* * *

توالت الأيام حتى كاد الأسبوع يكتمل ، وما زالت أساطيل الزوارق تمخر عباب الماء مبتعدة عن ميكيليما كيناك إلى المناطق الشمالية الغربية ، حيث اعتاد التجار أن يقضوا الشتاء مع الهنود كل عام . . وظل روچرز طول هذه المدة فى شغل شاغل ! يكتب آلاف الأوامر . . ويصدر مئات التعليمات . . يفتش محتويات الزوارق . . ويحتسى الخمر بإفراط . . ويفكر فيما يجب أن تفعله القوتان البريطانيتان المقيمتان بميكيليما كيناك . . يعمل ليل نهار ، فلا يأخذه الكلل ولا الملل ، كأن جسده الضخم يضم عشرة رجال .

وأصبح من العسير أن نعثر عليه ، ومضى نحو أسبوع قبل أن أتمكن من اقتناصه قبيل الفجر جالساً وحده يسجل فى كراسته الصغيرة دخله ومنصرفه ، وبين الفينة والفينة يهرش رأسه بنشاط .

www.ibtesama.com

وكان شعره مدهنا مشعثا ، وسترته الخضراء معفرة مبقعة ، وبنيقته مرتخية حول عنقه الغليظ .

قال حين رآنى أدخل عليه : تعال يا لانجدون ، وأخبرنى أين كنت تختفى طول هذا الوقت؟ لعلك ترسم . . ألم أعدك بما تشتهى نفسك من رسم الهنود ؟ . . لن تجد مكانا كهذا يجمع أكبر عدد منهم ، وإذا بقيت مدة أطول ، فسوف ترى مزيداً من أشكالهم وأنواعهم .

قلت : ولكنى أريد أن أرسمهم فى مناطقهم الطبيعية . يصيدون ويعملون ويلهون . . والحقيقة يا سيدى الصاغ ، أننى أشعر بمزيد من القلق فى الأيام القليلة الأخيرة ، فإذا كنت قد صرفت النظر عن السفر إلى الغرب . . .

صاح يقاطعنى : ما هذا الهراء يا بنى ، وكيف أصرف النظر عن مشروعاتى ؟

ورمانى بنظرة مليئة بالتشكك وأردف يقول : ما الذى وضع مثل هذه الفكرة فى رأسك ، وهل بنيتها على أخبار سيئة سمعها ماكنوت من أميرته الحمراء الملعونة ؟

قلت : لا ، ولكنى قضيت السنين فى انتظار سفرى إلى أرض الهنود ، وكان أملى أن أذهب سريعا فلما رأيت بروس يبحر وحده ، ظننت . . .

www.ibtesama.com

قال يقاطعنى مرة أخرى ، وقد بدا عليه الارتياح : ظننتنى نسيت ؟ . . أو تخليت عن مشروعى العظيم ؟ . . والله إن الممر ، يا لانجدون ، بمثابة حدقة عينى ، ولن أنساه ما حييت . . إنه روحى وحياتى ، وسيظل هكذا ولو عشت ألف عام . . لا ، لم أنسه ، يا صديقى ، فهو أملى العظيم الذى أرجو أن يخلد اسمى ، ويحيى ذكرى روبرت روچرز إلى أبد الآبدين . .

قلت : يسرنى أن أسمع منك هذا الكلام ، ولكنك سمحت لكارڤر بالسفر ، فلماذا لم ترسلنى معه ؟

قال روچرز : عليك اللعنة ، يا لانجدون ، . . لستَ أكثر منى تحمسا للذهاب بعيدا عن هذا الجحر المعطن برائحة الروم . . ولكنى لا أستطيع التحرك بوصة واحدة قبل وصول التعليمات من لندن ، ومجىء نائب يصرف الأمور فى غيبتى . . وستكون معى عندما أتحرك . . أما كارڤر فوضعه يختلف ، ولست أريد منه سوى رسم الخرائط ، والأفضل أن يبقى على جهل بما أسعى إليه . . عيب كارڤر أنه يميل إلى العظمة ، وأمثاله يسرفون فى الثرثرة ، ويتشدقون بما يعرفون ، وهذا خطر شديد . . فلن يتردد

www.ibtesama.com

الفرنسيون – إذا علموا بمشروعنا – عن إرسال جواسيسهم لتأليب الشعوب الهندية علينا ، فتكون الطامة الكبرى : لا ، يا لانجدون . . الأفضل أن تسافر معى إلى الغرب ، أنت وستانلى جودارد وماكنوت . . وأعدك أن تكون رحلة هادئة مُتئِدة ، نقف فيها بمختلف الشعوب الهندية ، لنتفاهم معها على حريتنا . . لاتحمل هما يا لانجدون ، فأنا مهتم بالموضوع ، وعندما تحين اللحظة المناسبة أستدعيك .

ونهض واقفا ، ومرر أصابعه بين خصلات شعره المشعث ، وأخذ شهيقا قويا ، ثم أخرجه زفيرا متفجرا ، وقال : حماستك يا سيدى لا تكاد تبلغ نصف حماستى ، وأنا أريد مغادرة هذا المكان بأسرع ما يكون ، فالحياة هنا لا تحتمل . . أرقام . . أرقام . . أرقام . . لا من عمل سوى تفتيش الزوارق والمخازن واحتساء أقداح الروم ، وإنى لأفضل السير عبر المستنقعات ألف ميل على قضاء يوم واحد فى التسكع بين مخازن التجار . .

وسكت برهة ثم قال : أتصدق ، يا لانجدون ، أننى أحس كأن قدمىّ مربوطتان إلى مقلاة ساخنة . . رائحة الفراء تجثم على أنفاسى عندما أدخل فراشى . . طول المساء أشعر بالنعاس ، فإذا أتى الليل ، يهرب النوم من عينى ،

www.ibtesama.com

وأجدنى أرقاً إلى الصباح . . وتثور براكين الغضب فى صدرى ، وأحس برغبة شديدة فى تحطيم إحدى الحانات ، . . ولكننى لا أستطيع تحقيق هذه الغاية لعدم وجود حانات فى هذه البقعة المنسية من الأرض . . وحتى إذا وجدت الحانات ، فهناك إليزابيث التى تغضب كلما رفعت ذراعىّ ، وتثور كأننى قتلت والدها رميا بالرصاص . . والله ، لأهربن من هذا المكان بمجرد وصول مطالبى إلى مسامع الملك . .

قلت : وهل أنت واثق من وصولها إليه ؟

قال : المسألة مجرد وقت ، يا لانجدون ، والرسائل الرسمية التى ننتظرها من لندن ، فى طريقها الآن إلى مونتريال . . أشعر بذلك ، مثلما كنت أشعر دائما باقتراب الهنود ، وبقرب هبوب العواصف الشمالية الشرقية . . الرسائل لا بد آتية مع سپيسميكر وثيوت ، ولسوف تتأكد من صدق حدسى حين يصل بهما الأسطول عن قريب ، عندئذ نرحل عن هذا المكان سواء رضى چونسون أم كره . . انظر إلى هذه . .

وتناول الكراسة الصغيرة التى كان يسجل فيها

www.ibtesama.com

حساباته عند دخولى ، وقال وهو يفتحها : هذا سجل بما أقرضنيه جروسپك من بضائع ، وفيه الكفاية من الهدايا المطلوبة للهنود ، وكذلك مصروفات إليزابيث فى أثناء غيبتى . . إننى مدين لجروسپك بثلاثة آلاف من الجنيهات ، فعلينا أن نطمئن تماما إلى هذا القدر .

** معرفتي **
www.ibtesama.com
منتديات مجلة الإبتسامة

www.ibtesama.com

** معرفتي **
www.ibtesama.com
منتديات مجلة الإبتسامة

القاهرة
مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر
١٩٦٢
www.ibtesama.com

www.ibtesama.com

هذا الكتاب

تعد قصة « الممر الشمالى الغربى » من أروع الأعمال الأدبية العالمية ، وقد ترجمت إلى جميع لغات العالم وعلق عليها جميع النقاد ، وأجمعوا على أنها تستطيع أن تقف أمام أى عمل أدبى كبير فى العصر الحديث . وعندما صدرت لأول مرة تلقفتها شركات السينما وعرضت مبالغ طائلة على مؤلفها كينيث روبرتس لإنتاجها على الشاشة . وأخيراً أخرجتها شركة مترو جولدوين ماير . وقام بالدور الأول فيها الممثل الكبير « سبنسر تراسى » فقال : « أدت رواية الممر الشمالى الغربى أكبر فضل فى حياتى ، فإن دورى فيها كان من أحسن أدوارى الفنية » . وعرضت رواية « الممر الشمالى الغربى » فى جميع دور السينما بالعالم ، وفى القاهرة استمر عرضها ستة أسابيع كاملة ، وكانت فيلم الموسم .. والقصة صراع بين فنان والمتاعب ، تحداه القدر ففرش طريقه - طريق السلام وطريق الحرب - بالمتاعب ، ولكنه عرف كيف يواجهها ، وكيف ينتصر عليها .

وقد اختارت الكاتبة المصرية المعروفة السيدة أمينة السعيد هذه القصة بالذات ، لترجمتها من بين عشرات القصص التى عرضت عليها .

مجلة الابتسامة

سنة ١٩٦٢

www.ibtesama.com

www.ibtesama.com

من القصص العالمي

موعد مع الشدائد

أو

"الممر الشمالي الغربي"

** معرفتي **
www.ibtesama.com
منتديات مجلة الإبتسامة

تأليف: كينيث روبرتس

ترجمة: أمينة السعيد

www.ibtesama.com

** معرفتي **
www.ibtesama.com
منتديات مجلة الإبتسامة

www.ibtesama.com

موعد مع الشدائد

أو

الممر الشمالي الغربي

الجزء الرابع

www.ibtesama.com

نشر هـذا الكتـاب بالاشـتراك
مـع
مؤسسـة فرانكلين للطباعة والنشر
القـاهرة – نيويورك
سبتمبر سنة ١٩٦٢

www.ibtesama.com

موعد مع الشدائد

أو

الممر الشمالي الغربي

تأليف

كنيث روبرتس

ترجمة

أمينة السعيد

ملتزمة الطبع والنشر
مكتبة النهضة المصرية
لأصحابها حسن محمد وأولاده
٩ شارع عدلي باشا بالقاهرة

www.ibtesama.com

هذه الترجمة مرخص بها ، وقد قامت مؤسسة فرانكلين
للطباعة والنشر بشراء حق الترجمة من صاحب هذا الحق .

This is an authorized translation of NORTH-WEST PASSAGE by Kenneth Roberts. Copyright, 1936, 1937, by Kenneth Roberts. Published By Doubleday & Company. Inc., New York.

www.ibtesama.com

الفصل الأول

بعد ستة أيام ، وذات صباح يوم من شهر أغسطس ، قسا الجو فيه منذرا بقدوم الخريف قبل الأوان ، أطلق ديدبان البرج الشمالى مدفعه ، وقبل أن يعبر الدخان الأبيض طرف السور ، كان أهل ميكيليماكيناك من هنود وجنود وفرنسيين قد اتجهوا صوب شاطئ المضيق ، يستقبلون أسطول مونتريال ، القادم تحت قيادة ضابط من الجيش الملكى . .

وأخذت القوارب التسعة ، التى يتألف منها الأسطول ، تدنو من الشاطئ ، ولما استطاعت عيوننا أن تتبين وجوه المسافرين فيها ، رأيت بينها رأس اليوزباشى تيوت المدبب ، وكنت قد قابلته آخر مرة فى كراون پوينت ، وسمعته يومها يتشدق عن إعجاب الهنديات به . . وتدلههن فى غرامه . . فكرهته إذ ذاك لغروره الشديد . . ولكنى سعدت اليوم لمرآه ؛ إذ أقنعنى وصوله بأن مشروع الممر الشمالى الغربى لم يعد حلما غامضا يداعب خيالنا ، بل أصبح حقيقة واقعة توشك أن تخرج إلى حيز الوجود . .

www.ibtesama.com

وحيا روچرز قائد أسطول مونتريال تحية حارة ، وكان هذا القائد ضابطا شاحب الوجه .. أشقر الحاجبين ، أزرق العينين .. يضع فوق شعره المستعار المرشوش بمسحوق أبيض ، قبعة يتدلى منها شريط .. معطفه قرمزى ، وصديريته صفراء ، وسرواله ضيق ناصع البياض ، أما حذاؤه فأسود لامعٌ .. تظهر فى جبينه ندبة طويلة من أثر طعنة سيف .. وكانت لصديريته بنيقة منشّاة عالية ، تضطره إلى رفع رأسه بطريقة عجيبة ، كأنه يشيح بوجهه عن رائحة كريهة ..

ومد الصاغ يده الضخمة للضابط القادم ، وقال له : أنا روچرز ، وأنت على ما أعتقد اليوزباشى سپيسميكر .. لقد قضينا أياماً طويلة فى انتظارك مع الرسائل التى يجب أن تحملها إلينا ، فأين هى ، يا سيدى الضابط ؟ .. إنها معك ، أليس كذلك ؟

وانحنى اليوزباشى أمام الصاغ وهو يضرب عقبيه بالطريقة العسكرية المألوفة ، واستل لفافة من الجيب الداخلى لمعطفه القرمزى ، وقدمها قائلا : مع تحيات سير چى كارلتون .. هذه الرسائل لم تفارقنى لحظة واحدة

www.ibtesama.com

طول الرحلة ، ومن دواعى فخارى أن أكون فى خدمة جندى ممتاز مثلك . .

وأخذت عيناه الزرقاوان تتأملان الصاغ بتدقيق ، كأنه يريد أن يقرأ ما يجول بخاطره . .

قال الصاغ باسما : اطمئن إلى أننى أقدر جهودك ، فهذه الرسائل تهمنى أكثر مما تظن . . والله ، لنجعلن من هذه البقعة مركزا خطير الشأن . .

والتفت إلى اليوزباشى تيوت ، وقال له ملوّحا بالرسائل فى إشارة ذات مغزى : جاءت فى وقتها المناسب . . نعم ، فى وقتها المناسب . .

ثم سار إلى رفاق تيوت ، وكان بينهم چيمس ستانلى جودارد ، وميان ڤينهاس اثرتون . . الأول شاب بالغ فى وقاره كأنه وُلد كبيرا ، والثانى تبرز من عنقه تفاحة آدم بروزاً غير طبيعى ، وله أذنان كبيرتان تضفيان عليه لونا من الطيش وعدم النضج . .

وتذكرنى تيوت ، فصاح بى يقول : آه . . الرسام . . كيف حال الرسم فى هذه الأيام ؟

وقلت له بأدب : إننى ما زلت ألعب بالألوان كلما

www.ibtesama.com

أتيحت لى الفرصة ، فاقترح أن أعيد رسم النقوش الموضوعة على قوارب المسافرين .. ولكن روچرز أنقذنى من سماع بقية آرائه الفنية ، فقد جذبنى إذ ذاك من ذراعى ، وساقنى صوب القلعة . .

قال فى انشراح : لانجدون .. أنت أول من حدثنى عن آرثر دوبس والممر الشمالى الغربى ، فمن حقك أن ترى الستار يرتفع عن الإمبراطورية الغربية ، التى وكلت إلينا مهمة العثور عليها .

* * *

دخلنا قاعة البلياردو ، فجذب الصاغ مقعدا إلى جوار المنضدة ، وألقى بمعطفه على ظهر المقعد ، ثم قال : أوصد الباب بالمزلاج يا لانجدون ، فلست أريد أن يتطفل أحد علينا حتى أنتهى من دراسة هذه الرسائل ، وأعد الخطط اللازمة . . ونصيحتى يا صديقى ، إذا اعتزمت الزواج ، أن تختار امرأة تعرف كيف تمسك لسانها فى أثناء تفكيرك فى موضوع هام ، وإلا اضطررت إلى القيام بعمليات التفكير خارج بيتك .

وفض روچرز غلاف اللفة وألقى نظرة سريعة على محتوياتها ، وأخذ يقول بحماسة وهو يتصفح ما بين يديه من

www.ibtesama.com

بريد كثير : أجل .. هذه رسالة من فيتزجرالد .. وأخرى من كامپل .. وإليك فاتورة حساب . . بل فاتورتين من الترزى اللعين .. ثم خطاباً من إليس .. وخطاباً من تاوسند .. تاوسند نفسه ، فيا لسعدنا .. فاتورة ثالثة .. بئست وقاحة هؤلاء التجار . . ورسالة من إدموند بيرك .. وأخرى من صديقك بريمرتون .. آه يا ولدى ، لقد خلقنا رجالا .. خذ رسالة تاوسند ، وفض لى أختامها برفق ، وحاذر أن تفسدها ، فلسوف تصبح هذه الرسائل فى يوم من الأيام ثروة طائلة . .

ونزعت الشمع عن الغطاء ، وفتحت الرسالة ، وناولته إياها فى اضطراب لا يقل عن اضطرابه . .

صاح يقول : كنت واثقا من أن تاوسند لن يتأخر عن الكتابة لى بنفسه . .

وأخذ يتلو الرسالة قائلا : السيد المحترم روبرت روچرز .. حاكم كذا .. كذا كذا .. كذا كذا .. وكذا كذا .. عزيزى الصاغ ، اتصلت اليوم بدكتور كامپل ، وبناءً على المحادثات التى جرت بيننا حين وجودك فى لندن ، طلبت إليه أن ينصحك بالقيام فورا

www.ibtesama.com

إلى المناطق الداخلية بحثاً وراء الممر الشمالى الغربى . . ولقد تفضل صاحب الجلالة . .

وتوقف الصاغ فى منتصف الجملة ، وقال لى بحماسة : أتسمع هذا الكلام ، يا لانجدون ، لقد وصلنا إلى مسامع الملك أخيرا . .

ثم عاد يقرأ بقية الرسالة ويقول : « تفضل صاحب الجلالة ، وأبدى غاية اهتمامه بالمشروع ، وثقته بوجود الممر الشمالى الغربى ، وإنى لأرجو مخلصا أن تصلك هذه الرسالة ، وكذلك رسالة كامبل فى وقت يسمح لك باختيار قوة من الضباط الجديرين بثقتك ، وإرسالهم لإنجاز المهمة على عجل . . وما زلت يا سيدى ، خادمكم . . شارلز تاوسند . .

ورفع روچرز رأسه عن الورق ، وتطلع إلىّ ساهماً ، ثم عاد إلى الخطاب يقروءه من جديد فى صوت خفيض ، ولما انتهى منه ، ألقى به جانبا فى حيرة واضحة . .

قال فى صوت مضطرب : إنه يأمرنى بإرسال قوة للبحث عن الممر . . فما معنى ذلك ؟ . . دعنا نقرأ رسالة كامبل ، لعلنا نجد فى مضمونها تفسيرا لهذا الكلام . .

وكانت رسالة كامبل ضخمة ، وصفحاتها مليئة

www.ibtesama.com

بالكلمات الصغيرة المتلاصقة ، فقال روچرز وهو يتصفحها بارتياح : والله ، إن كلام تاوسند بعث الرعب فى قلبى . . ولكن دعنا نقرأ ما يقوله كامپل . . « عزيزى الصاغ . . لقد تحدث تاوسند مع الملك ، فأبدى جلالته غاية الاهتمام بمشروع الطريق المختصر إلى اليابان . . »

واجتاحت روچرز موجة من الغيظ ، وقال وهو يجفف عرقه بكم سترته : الأمر واضح غاية الوضوح ، فالملك يعضدنا ، وأوامره تأتينا مباشرة ، ولم يبق داعٍ للخوف من جيبچ وچونسون . . والله ، إن خطاب تاوسند أطاح بى إلى الأرض ، أما الآن ، فالموقف يختلف . .

وعاد إلى الرسالة يستأنف قراءتها : « . . وجلالته يؤمن بوجود الطريق المختصر ، ويرغب فى الكشف عن الممر الشمالى الغربى ، ولعلك تعرف ما فى ذلك من تدعيم لمركزك لدى الملك ووزرائه . .

وضرب روچرز مائدة البلياردو بقبضته الضخمة ، وصاح يقول فى صوت كالرعد : أخيرا هداهم الله إلى الحق ، فآمن الملك ووزراؤه بضرورة الكشف عن الممر الشمالى الغربى . . كنت أعلم أنهم سيستمعون إلىّ إن عاجلا أو آجلا ، وإذا بدأت رحلتى فلن تستطيع قوة على ظهر

www.ibtesama.com

الأرض أن تمنعنى من بلوغ غايتى . . والآن دعنا نر نهاية كل هذا . .

وأخذ يمر بإصبعه المضطربة على سطور الرسالة ، وقبل أن يجد المكان الذى توقف عنده ، سمعنا إليزابيث تنادينا من الطابق الأسفل ، وتصيح قائلة : أيها الحاكم . . أيها الحاكم . . أين أنت ؟ روبرت ، أأنت بالطابق العلوى ؟

واكفهر وجه روچرز غضبا ، وقال مزمجراً : إياك أن ترد . . دعها تَعْو . . لعلها تظننا غير موجودين . . هذا ، والله ، حال لا يحتمل . . إنها لا تتركنى أستمتع بالهدوء فى منزلى . .

وفى السكون المخيم علينا ، سمعت وقع أقدام إليزابيث على السلم ، ثم أخذ الباب يهتز ويد مزلاجه ترتفع وتنخفض . .

صاحت تقول من خارج الغرفة : روبرت روچرز . . أأنت فى الداخل ؟

وتفرس الصاغ فى وجهى متردداً . .

عادت تقول : روبرت روچرز . . ماذا تفعل فى هذه الغرفة . . افتح الباب بسرعة . .

www.ibtesama.com

واستسلم الرجل أخيرا ، فدفع مقعده إلى الخلف ، وقال لها : عزيزتى إليزابيث . . إننا نقرأ الآن خطابات هامة جاءتنا من لندن ، وعلينا أن ننتهى منها . .

قالت : من معك ؟

قلت : أنا معه . .

قالت فى صوت يشوبه الضيق : لماذا لم تجيبا ندائى من بداية الأمر ؟ لقد تعمدتما أنتما الاثنين أن تتوقحا علىّ ، وأنا لم أتعود هذه المعاملة ، فافتحا الباب بسرعة ، لأدخل . .

قال روچرز يتوسل إليها : دعينا ننته من أمر هذه الخطابات ، يا عزيزتى ، فمن الضرورى أن أعرف مضمونها ، حتى أصدر الأوامر اللازمة . . نصف ساعة فقط ، فماذا تريدين يا حبيبتى ؟

قالت إليزابيث فى غضب : سمعت من ناتى پوتر أنك دعوت أصدقاءك لتناول العشاء معنا . . وكان يجب أن تستطلع رأيى قبل أن تدعو أحدا إلى البيت ، فما هذه الأنانية العجيبة ، ومن هم ضيوفك ، وكم يبلغ عددهم ؟

قال روچرز — وهو ينظر إلى الباب المغلق : أربعة فقط يا عزيزتى . . اليوزباشى تيوت والملازم أثرتون ومستر جودارد ، ولانجدون طبعا . فأرجو أن تعدى

www.ibtesama.com

لهم طعاما شهيا ، حتى يكافئك جودارد بقطعة من الحرير المطرز الفاخر . .

وسمعتها تقول بازدراء : تجار ، قذرون ، لا همّ لهم سوى التفكير فى الهنديات الحقيرات . .

وهبطت السلم ، وتركتنا لحالنا . .

والتقط روچرز خطاب كامپل . وقال : دعنا نواصل موضوعنا . . أين توقفنا ؟ أجل . . هنا . . فلنر ماكتبه بعد ذلك . .

وعاد إلى القراءة : « ونصيحتى أن تنتهز الفرصة ، وتطرق الحديد وهو ساخن . . استغل كل دقيقة من وقتك فى البحث عن الممر . . ووافينا بأخبار نجاحك أولا فأولا . . حتى يسهل علينا إقناعهم برصد الاعتمادات اللازمة . وسيجد رجال بعثتك فى كثرة الصيد هناك ما يوفر لهم أسباب الحياة بعيدا عن بلادهم . .

وسكت روچرز عن القراءة ، وقال فى حيرة : لست أفهم ما يعنون بهذا الكلام ، فبحق السماء ماذا يقصدون يا ترى ؟

وعاد يقرأ الخطاب : « وعندما تتأكد من وجود الطريق المختصر إلى المحيط الهادى ، يصبح من السهل علينا تنصيبك

www.ibtesama.com

حاكما للغرب ؛ وقائداً لميكيليما كيناك ، فيسترشد أولياء الأمور بآرائك فى مختلف الشئون . . . »

واعتراه الذهول ، وبدا كأنه لا يصدق ما جاء بالرسالة ... وعاد يقرؤها مرة بعد مرة .. من بدايتها إلى نهايتها .. وأخيرا ألقى بها على المائدة ، ودس إصبعه فى بنيقته يُرخيها ، وأخذ يجذبها بعنف ، وهو شارد النظرات مبلبل الفكر .

قال بهدوء : هؤلاء البلهاء الأغبياء لم يمنحونى مالاً .. يقامرون بملايين الجنيهات فيما لا يجدى أو يفيد ، ويبخلون بالقليل على مشروع لا شك فى نجاحه ، ومهما فعلت فلا تستطيع أن تفهمهم الحقيقة ... تصور الشهور التى ضيعتها فى الحديث معهم .. الشهور الطويلة ... والنتيجة هى ما يطلبونه الآن من ضرورة موافاتهم بأخبار النجاح أولا فأولا . . . يريدون أن أبعث إليهم بالتقارير تجتاز القفار والبحار . . آلاف الأميال . . ويظنون أننا بكلمة منهم نستطيع أن ننعم بالعيش فى مجاهل الأرض بعيداً عن بلادنا .. والله ، لست أفهم كيف أتيح لهذه التوافه أن تظل على قيد الحياة .. بئسوا من أغبياء قصيرى النظر ... ولكن ماذا تنتظر من قوم عاشوا فوق جزيرة من الصِغَر بحيث تعبرها بصقة .. !! ومع ذلك يتصورون أنه ليس فى الدنيا كلها مكان أكبر من عش

الدجاج الذى يسمونه بلدهم . . ولكن دعنا الآن منهم ، وافتح لنا الرسائل الأخرى .. وافتح رسالة بيرك وبريمرتون وإليس ، واقرأ لنا ما بعث به فيتز روبرت ، فلا يمكن أن يكون الجنون قد أصابهم جميعاً ... مستحيل ...

وفضضت الرسائل ، فوجدت مرسليها جميعا يهنئون روجرز على اقتناع الملك بمشروعه ، وثقته بقدرته على النجاح فى مغامرته الكبرى ، وما سوف يترتب عليها من بدء صفحة جديدة ناصعة فى تاريخ الكشف الإنجليزى .. وقد كتب بيرك يقول : « وعندما تنجح فى مهمتك — وهو أمر أكيد لا شك فيه — تصفو العلاقات بين إنجلترا ومستعمراتها الأمريكية ، فتقدير إنجلترا لاتساع الإمبراطورية الأمريكية يحسن سياستها نحوها ، وينفرها من أى تصرف يحتمل أن يثير الخلاف بينهما ... »

وقال الصاغ وهو يضحك بمرارة : لقد أدركت الآن ما يريده الملك وتاوسند . . فعلىّ أن أجد الممر الشمالى الغربى .. بلا مال أو رجال أو مئونة . . وحتى بدون أن أذهب بنفسى .. يبخلون على بنائب يصرّف الأمور فى غيبتى وتركونى حيث كنت يوم سافرت إلى إنجلترا ... صاغا بنصف

www.ibtesama.com

راتب ! .. وبخمسة شلنات فى اليوم يريدون أن أعد جيشاً يبحث لهم عن إمبراطورية واسعة ؟

قلت له : لا ، يا سيدى الصاغ . . لا يمكن أن يبلغ بهم الغباء هذا الحد .. ولا بد من وجود رسائل أخرى تمنحك رتبة أعلى ، وتوفر لك الاعتمادات اللازمة للحملة ، فليس من المعقول أن يعطوك أملا بيد ، ثم يستردوه باليد الأخرى .. كيف يحطمون خططك بهذه الطريقة ؟!

وهزّ الصاغ رأسه ، وقال : ما من رسائل أخرى . . فلقد كانت مهمة كامبل أن يحصل لى على الرتبة والاعتمادات ، ولكنه لم يفعل شيئاً .

ثم هبّ واقفاً وقال : حسناً .. والله إن أخطاءهم مهما بلغت لأضعف من أن تثنى عزيمتى وتفسد خططى ؟

وسار يتعثر فى سرواله الضيق ، مثلما حدث فى يوم مضى ، حينما قاد تراجعنا من سانت فرانسس .

وأردف يقول : لم أكن أنتظر سوى الأوامر ، فهى ضرورة لكل جندى ، ولقد فزت بها . . وما دام الملك يريد أن يجد الممر الشمالى الغربى ، فهذا يكفينى !

وأخذ يدور حول المنضدة بخطوات كلها قوة وثقة ، قال : سأكلف تيوت بالقيادة ، وأدبر لكم حاجتكم من

www.ibtesama.com

المؤن .. وهدايا الهنود أيضا .. أما أنا ؛ فالجحيم عندى أفضل من هذا الحجر البغيض ، ولكنى مضطر إلى البقاء مؤقتاً ، فاذهبوا أولا أنتم إلى السيوكس ، وأقنعوهم بضرورة المجىء فى الربيع القادم ، وبعدها ألحق بكم ومعى هدايا تكفينا حتى نصل إلى نهر أوريجون والمحيط الهادى .

قلت : لنفرض أنهم لم يعطوك مالا ، فكيف تأتى بالهدايا ؟

قال متسائلا : كيف آتى بالهدايا ؟ ألجأ إلى وسائل أخرى . . . أفعل مثل بقية الجنود . . أتكفف وأستدين وأسرق ، ويوم أنجح فى أداء مهمتى ، تقوم بلادى بتسديد ديونى كلها ..

وهزّ رأسه غاضباً وقال : أرأيت حظاً أسوأ من هذا ؟ جميعكم لا تعرفون عن المناطق القريبة قليلا أوكثيراً ، وأنا الوحيد بينكم الذى درس كل شبر منها ، ومع ذلك يمنعوننى من الذهاب . . والله إنها لصدمة لم أتلق مثلها فى حياتى . . حتى عندما وصلنا للأموتواوزاك ولم نجد فى انتظارنا الطعام المنشود . .

ولزم الصمت ساهماً ، وخيمَ علينا السكون برهة ، ثم لم نلبث أن سمعنا صوت إليزابيث الغاضب ، وعلا وقع

www.ibtesama.com

أقدامها على الدرج ، وأخذت تعالج يد المزلاج بعصبية مفرطة . .

قالت بانفعال : روبرت روچرز ، افتح الباب . . افتحه ولا تتأخر . .

قال هامساً : يا للجحيم ! . . دعها تدخل . . أظنها جادة فى هذه المرة ..

وأزحت المزلاج ، وفتحت لها الباب ، فتلفتت حولها والشك يملأ عينيها ، ولما اطمأنت إلى وجودنا وحدنا ، صاحت تقول فى غضب : لست أفهم معنى لإغلاق الباب عليكما فى مثل هذه الساعة .

وضربت الأرض بطرف حذائها ، وأردفت تقول : ماذا تتوقع أن أقدم لضيوفك فى العشاء ، وليس بالبلد كله سوى السمك الأبيض ودجاجة واحدة ؟

وتطلعت إلىّ برفق ، وقالت . . وهى تنظم منديلا أبيض لفته حول عنقها : أرأيت ثوبى الجديد ، يا لانجدون ؟ صنعته لى مسز بيدل الحائكة الخاصة لآل أتكنسون وفيولى ليڤرمور أخت صديقك . . وتقاضت فيه مبلغاً طائلا . . ثلاثة جنيهات كاملة لحياكته ، وخمسة ثمناً للقماش . . ومع ذلك خانها التوفيق ، فلم تحسن صنعه . .

www.ibtesama.com

أليست خسارة فادحة أن تفسد مثل هذا الحرير الفاخر؟

قلت ـ وأنا أحاول أن أتلطف فى إجابتى : ولكنه ثوب جميل .. يلائمك تماماً . .

قالت ـ وهى غير مقتنعة بكلامى : بل يلائم امرأة أكبر منى سناً . .

وتقدمت ببطء إلى المنضدة ، فوقعت أنظارها على الأوراق المكدسة ، قالت : رسائل ! رسائل من إنجلترا .. هل عرفت متى تبدأ المسير يا روبرت ؟

قال الصاغ : يؤسفنى يا حبيبتى أن أبلغك أخبارا سيئة ، فعلىّ أن أبقى هنا طول الشتاء . . والله وحده يعلم لماذا لم يوافونى بالأوامر التى كنت أرجوها . . الملك يريد أن أبحث له عن الممر الشمالى الغربى ، ويطلب منى أن أنجز له هذه المهمة فى أقرب فرصة ، ولكنهم لم يرقونى إلى رتبة أعلى ، ولم يعتمدوا مالاً لمصروفات الرحلة . . ومعنى ذلك أن يظل راتبى على حاله . . خمسة شلنات يوميا ، وهذا المبلغ الضئيل لا يكفيك بطبيعة الحال ، فالأفضل يا حبيبتى أن تعودى إلى پورتسموث فى أول رحلة قادمة .

قالت فى دهشة : أعود إلى بورتسموث ؟ أعود وأتركك هنا وحدك ؟

www.ibtesama.com

وأخذها الانفعال فأردفت تقول بحدة : كنت فى لندن تتقاضى خمسة شلنات فى اليوم ، وظللت تتقاضى خمسة شلنات طول الشتاء الماضى بعد عودتك إلينا ، وعهدى بك أنك تعرف كيف تأتى بالمال إذا احتجت إليه ، ولن تعجز عن الإتيان به الآن إن أردت . . ألا تراعى كرامتى ؟ ألا تعمل حسابا لكبريائى ؟ ماذا يقول أصدقائى إذا عدت إليهم وحدى ؟ أتريد أن تجعلنى حديث پورتسموث وأضحوكة بوسطون كلها ؟ ! ومن يدرى ماذا يظنون بى وبك ؟ لا ، لن أعود وحدى مهما فعلت . .

قال روچرز معترضا : ولكن البرد قارس هنا ، ولن يجدى ما تفعلينه طول الشتاء .

قالت بحدة : وأنت ؟ . . لماذا تقضى الشتاء هنا ، وماذا تنوى أن تفعله ؟ ؟ لعلك تريد أن أتركك وحيدا تمرح على هواك ، وتصادق هندية قذرة مثلما يفعل أصدقاؤك التجار . . تريد أن تتخلص منى ، لتأتى إلى هذا البيت بهندية ، وتضعها مكانى . . نواياك مكشوفة يا روبرت روچرز ، ولكنى لن أمكنك منها ، حتى لا يقال إننى أشجع العبث وأرضى بالفساد . . لا . . لا . . لن أسافر إلى پورتسموث ، وإذا بقيت فأنا باقية معك !

www.ibtesama.com

وهرولت إلى الباب بعد أن ألقت علينا نظرة كلها ازدراء ، وسمعنا وقع أقدامها على الدرج .

ونظر الصاغ إلىّ في جمود وذهول ، وقال : اللعنة ، يا لانجدون . . ! ظننتها سترحب بالعودة إلى پورتسموث لتحضر احتفالاتهم بعيد الميلاد . . ولكن خبرني بالله عليك ، كيف عرفت أنني أدبر أمري للحصول على هندية جميلة تريحني طول الشتاء وتبعث الدفء في قلبي ؟

** معرفتي **
www.ibtesama.com
منتديات مجلة الإبتسامة

www.ibtesama.com

الفصل الثانى

بعد أسبوعين من هذا الحادث ، وفى ليلة رحيلنا عن ميكيليماكيناك لاكتشاف الممر الشمالى الغربى ، جمعنا الصاغ نحن الخمسة : أنا وتيوت وجودارد وأثرتون وماكنوت . . لتناول العشاء معه ، وتلقى أوامره .. وخشية أن يتطفل أحد على اجتماعنا ، فيعرف أسرارنا ، ويفضح خططنا ، تقرر أن نتناول العشاء على منضدة البلياردو ، وتبقى إليزابيث مع آن بالطابق الأسفل للتخلص من الضيوف .

وتعجب ناتى پوتر عندما أهداه الصاغ فى العصر زجاجة خمر معتقة ، وتركه يعب منها على هواه ، فلم تلبث الخمر أن أتت بفعلها المنشود ، إذ استغرق الرجل فى نوم عميق ، بعد أن شرب كمية لا بأس بها ، وبذلك عجز عن حضور اجتماعنا .

وأمام ديكين روميين على المنضدة ، جلسنا نشرب نخب نجاح الصاغ فى مهمته .

قال يذكرنا بما يصيبه من خير عميم إذا وفقنا : عشرون ألفاً من الجنيهات فى انتظارنا . . ستعطيكم

www.ibtesama.com

الحكومة عشرين ألفاً إذا نجحتم فى الوصول إلى الممر .. وحتى إذا أخفقتم فى العثور على الطريق المائى ، ونجحتم فى عبور جبـــال شاينتج فى أوريجون والوصول إلى المحيط الهادى ، فلن تتردد الحكومة فى مكافأتكم بسخاء . : لقد وعدنى تاوسند بذلك ، فمن حقكم أن تعتبروا كأن المال فى أيديكم . .

كان الصاغ يتحدث إلينا بصوت حماسىّ عميق ، وما إن انتهى من كلامه حتى بدت المهمة غاية فى السهولة . . وتصور لنا أننا لا بد موفقون فى بلوغ غايتنا . . وخامرنى شعور كالذى عرفته فى يوم مضى . . حينما كنا نعانى الأمرّين من الجوع والبرد والضعف وخيبة الأمل ، ومع ذلك بعث تشجيع روچرز فينا القوة والحياة ، . . فاستطعنا أن نبنى عائمة جديدة ، ونقاوم الموت ، ونعود إلى قواعدنا سالمين . .

قال الصاغ : هذه أوامرى ، وستجدون فيها العوض عن أى نازلة تصيبكم . . عند موتى ، أو عجزى عن اللحاق بكم لسبب من الأسباب . . اتبعوها بإخلاص وعناية ، تصلوا إلى بغيتكم . . واسعوا إلى إقناع هنود

www.ibtesama.com

الغرب بضرورة إرسال زعمائهم فى الربيع القادم ، وسأكون معكم بعد اجتماعى بهم . . استعينوا بالحزم والعزم فى تذليل متاعبكم ومصاعبكم ، فهذه سبيلكم إلى النجاح الأكبر . .

وملأ كأسه بالخمر ، وشربها دفعة واحدة ، وأردف يقول : عندما تصلون إلى غرب المسيسبي ، ستجدون الهنود هناك يحبون الفرنسيين والإسپانيين أكثر مما يحبوننا ، وقد يحدث ما لا تحمد عقباه إذا عرفوا أنكم تمثلون ملك إنجلترا . . فاحرصوا على إخفاء هذه الحقيقة ، وازعموا أنكم لا تنشدون سوى التبادل التجارى معهم ، واظهروا دائما فى صورة التجار ، وابتعدوا عن الهنديات ، ولا تقربوهن إلا بإذن من زعمائهن ، حتى لا يمحوكم من الوجود . . فالاتصال بالنساء دون موافقة الكبار سبيلكم الوحيد إلى الفشل الذريع . .

صاح ماكنوت بصوته الأجش : بل هناك سبيل آخر ، فأنا مثلا لا أستطيع الفوز بهندية دون موافقة الأميرة ماكنوت ، وإلا طردت شر طردة . .

قال له تيوت بدهشة : أتريد اصطحاب زوجك معك فى هذه الرحلة ؟

www.ibtesama.com

قال ماكنوت : ولم لا ؟ إنها أفضل زوج لقيتها ، ولا يمكننى الاستغناء عنها قبل أن أجد أخرى أحسن منها .

قال تيوت : ولكن مؤونتنا محدودة ، وأخشى أن تستنفد جانباً منها . .،

قال ماكنوت فى ضيق : أنت لا تعرف امرأتى . . لقد مرنتها على الحياة معى . . علمتها كيف تخدمنى ، ولا تأكل حتى أنتهى من طعامى ، ويكفيها أن تلعق أصابعها وما تبقى فى صحنى . . دعك منها على كل حال ، ولا تشغل بالك بطعامها ، فهى زوجى ، ولسوف أذهب بها فى صحبة لانجدون تاون ، ومعنا مؤونتنا . .

وشرب روچرز كأسا أخرى ، ثم ألقى بها على المائدة فى صوت مسموع ، وصاح بنا يقول : الزموا الصمت ، وتذكروا أن عشرين ألفا من الجنيهات تنتظركم إذا نجحتم فى أداء مهمتكم . . وهناك أيضا من الشهرة والمجد والامتيازات ما يكفى ألف رجل . . ليتنى أستطيع قيادتكم بدل أن أبقى هنا لأقترض من الناس مؤونتكم ، وأوفر لكم سبيل البقاء فى رحلتكم . . أتعرفون ما ينتظركم إذا تنازعتم ؟ سيكون مصيركم هكذا . .

www.ibtesama.com

ومد يده إلى فخذ الديك الرومى ، وانتزعها عن الجسد بجذبة واحدة . .

قال فى صوت كالرعد : مهمتكم أن تصلوا إلى الممر الشمالى الغربى ، أو نهر أوريجون ، فتشبهوا بى ، واضبطوا أعصابكم حتى تبلغوا غايتكم . . تمسكوا بالخلق العسكرى ، ولا تنتهجوا سبيل القطط والفيران . .

ونهض واقفا على قدميه، وقال – وهو يلوح بالفخذ الثانية للديك الرومىّ : تذكروا ما ينتظركم إذا وفقتم فى أداء مهمتكم . . جبال مليئة بالذهب . . وأنهار تحمل خيرات الغرب إلى السفن الملكية الراسية فى الموانئ التى نسعى إلى اكتشافها . . تصوروا مدناً تحمل أسماءنا ، وجبالا شامخة تراها الأجيال بعدنا . . تخيلوا أنهارا تفوق التيمز طولا وعرضا . . تمخر السفن عبابها محملة بالكنوز ، فيقول من عليها : هذا نهر روچرز ، والثانى نهر تيوت ، والثالث نهر جودارد . .

وتساءل ماكنوت . وأين نهر ماكنوت ؟

وغضب الصاغ لاعتراضه ، ولوّح بيده فى وجه ماكنوت مهددا . .

قال يواصل حديثه : سفن تمخر عباب الأنهار عامرة

www.ibtesama.com

بالمسافرين . . ألسنة تردد بحماسة : « هنا عسكر الصاغ روچرز عندما اكتشف الممر الشمالى الغربى . » .

صاح ماكنوت يقول مرة أخرى : وهذا نهر ماكنوت ، فالمجد لمكتشفه العظيم . .

قال روچرز دون أن يعيره اهتماما : أنتم الطليعة والرواد الأول . . وبفضلكم يتحقق أعظم كشف فى التاريخ ، فيرى العالم من الثراء ما لم يعرفه منذ بداية الخليقة . . لقد أبحر كولومبس إلى الغرب ، وقطع أياما طويلة ، ليلقى بمراسيه عند جزيرة رملية ، لا زرع فيها سوى الأعشاب البحرية ، ومع ذلك أسبغوا عليه ما لا أول له ولا آخر من آيات المجد والشهرة ، مع أنه كان يتمتع بالراحة ، ينام طول الوقت فى قمرة ، ويتناول الطعام ثلاث مرات يوميا . أما أنتم فلن تنعموا بالنوم أو الطعام ، وعليكم أن تذللوا آلاف العقبات وتهزموا أشد المخاطر ، . فتكافأوا بسخاء . . ولسوف يتطلع إلينا ملوك العالم ، وتغمرنا الأميرات والدوقات بعطفهن ، ويفخر الساسة والنبلاء بالسير فى ركاب الأبطال المغامرين الذين رافقوا روبرت روچرز فى اكتشافه العظيم . .

ونهضنا واقفين ، ورفعنا أيدينا بالكئوس نشرب

www.ibtesama.com

الأنخاب فى تحية نهر أوريجون والممر الشمالى الغربى .. وتملكنا السرور ، فأخذنا نهلل ونصيح ، ولكن ماكنوت بقى صامتا ، ولم يشاركنا فى فرحتنا .. وعندما أتينا على كئوسنا ، استوى فى مقعده قائلا : انتظروا حتى يسمع الملك عن نهر ماكنوت !

* * *

خشى الصاغ أن يتسرب الخبر ، فيعلم غيرنا بسر حملتنا ، لذلك أصدر أوامره بالرحيل مع شروق اليوم التالى ، قبل أن يستيقظ الناس ، ويذهبوا إلى الشاطئ ..

وكانت آن قد بدأت مع الفجر تساعدنى على ترتيب أدوات الرسم فى الخروج ، وأخذت حقيبة كبيرة ملأتها بما لا أحتاج إليه خلال السنوات الثلاث القادمة ، من ثياب وأشرطة وأقمشة وقبعات ، وأخفتها فى ركن بغرفة البلياردو ، وغطتها بالدفاتر المليئة بما رسمته فى اسويجر وميكيليماكيناك من الصور .

قلت — أخفف عنها مشقة الفراق : لقد بذلنا جهودا جبارة فى رسم هذه الصور ، فحافظى عليها يا آن ، وإذا

www.ibtesama.com

تشب بالبيت حريق ، فحاولى أن تنقذيها ، لأنها أعز ما أملك فى الوجود .

وأغلقت الحقيبة ، وخبأت مفتاحها خلف حجر بجوار المدفأة ، وقلت لها : تذكرى موضع المفتاح ولا تنسيه يا آن . .

وهزت رأسها فى صمت ، فبدت فى عتمة الفجر مثل شبح حزين . .

قلت : انظرى حولك يا آن ، وتأكدى من أننى أخذت جميع ما أنا محتاج إليه . .

والتقطت خُرجى ، وأخذت أهبط الدرج مسرعا إلى الشاطئ حيث يقوم ماكنوت بمراجعة بضائعه الغامضة ، ولفائف متاعنا ومؤننا .

والتحق بنا تيوت ، وفى وجهه من معانى الثقة ما يوهمك بأنه اكتشف الممر وحده ، ولا من شريك له فى الجهد العظيم . .

قال لى : أرى فى قاربك مكانا خاليا يتسع لبعض حقائبى ، يا مستر تاون .

www.ibtesama.com

قلت : ولكنى أحتاج إلى هذا الفراغ للرسم فى أثناء الرحلة .

قال غاضبا : كيف ذلك ؟ !

والتفت إلى الصاغ وزوجه ، وكانا يقفان على مقربة منا يتبعان الحديث ، وقال يسأله : أحب أن أعرف وضع تاون فى هذه الحملة ، أهو تحت رياستى أم لا ؟

قال روچرز بهدوء ، وهو يفرك عينيه بإبهامه الضخمة : ستجد لاتجدون على أتم الاستعداد لمعونتك فى تنفيذ اقتراحاتك ما دامت معقولة ، ولكنه يسافر من أجل رسم الهنود حسب الاتفاق المبرم بيننا منذ مدة طويلة . . ولقد اشترى مؤونته من ماله الخاص ، فليس من العدل أن يخضع لرياستك . . والحرية ضرورية للفنان ، أليس كذلك يا سيدى الضابط !

وبدا الضيق على وجه تيوت . .

أردف روچرز يقول : وأوامرى أن يتمتع الفنان بحريته ، ويتصرف على هواه . .

وسار نحونا حتى اقترب من حافة الماء ، وقال : تجنبوا الخلافات حتى أنضم إليكم فى الصيف القادم ،

www.ibtesama.com

وعندما أكون معكم ستجدون أنها مسائل أتفه من أن تستحق الخلاف . .

ثم شد على أكتافنا مودعا . .

* * *

شكرت الصاغ على ما أبداه نحوى من أطيب الشعور ، ثم ذهبت إلى إليزابيث أودعها . .

قلت لها : اعتنى بآن ، فهى أثمن ما عندى فى الوجود . .

وفجأة تنبهت إلى أمرين فى وقت واحد : فلقد اختفت آن عن أعيننا فى هدوء ، وإن وصيتى لإليزابيث تشمل ذات الكلمات التى قلتها للفتاة عن رسومى . .

قلت متسائلا : لم أودع آن بعد ، فأين ذهبت يا ترى ؟ ظننتها جاءت خلفى . .

قالت إليزابيث : سأبلغها رسالتك .

قلت بانفعال : لا ، لا يكفى هذا ، يجب أن أراها بنفسى ، فأبلغى ماكنوت أننى عائد لفورى . .

وأسرعت الخطى إلى مورد الحياة ، غير مبال بغضب ماكنوت ، أو صياح إليزابيث وهى تنادينى غاضبة :

www.ibtesama.com

لانجدون تاون ! لانجدون تاون !

ولم أقف للفتاة على أثر فى ساحة العرض ، أو فى رواق البيت ، أو حجرات الطابق السفلى .. فصعدت الدرج إلى غرفة البلياردو ، حيث تركتها عند خروجى . . وفى ضوء الفجر المتسلل من النافذة ، وجدتها تركع بجوار حقيبتى ، وقد ارتسمت على شفتيها ابتسامتها الهادئة المألوفة . . فحملتها بين يدىّ ، وأقمتها فوق الحقيبة ، عندئذ تلاقت أنظارنا . . كانت هادئة كالحمل الوديع . .

قلت لها : لماذا لم تأت معنا إلى الشاطئ ؟ وما الذى أبقاك هنا بدلا من اللحاق بى ؟

ولم تجب . .

ورجعت خطوة إلى الوراء ، لأتمكن من رؤية وجهها جيداً ، فلم تتغير ابتسامتها . . وظلت شاخصة ببصرها نحوى ، وفى عينيها هدوء الجدول الرقراق . .

وأنسانى الموقف ماكنت عازما على الإفضاء به إليها ، ثم ثبتُ إلى رشدى ، فقلت لها : لا تصدقى ما قلته عن دفاتر الرسم ، فقد كنت أهزل ، لا يهمنّك أمرها . . فليست أغلى ما أملك فى الوجود . .

وضممتها إلى صدرى وقبلتها . .

www.ibtesama.com

وظلت الفتاة على صمتها لا تنطق بكلمة ، فسحبتها من يدها ، وهبطت بها السلم ، ثم عبرت ساحة العرض إلى الشاطئ . . وكان تيوت وجودارد وأثرتون قد استعدوا مع بقية المسافرين للرحيل إلى بحيرة متشيجان ، وبدأت المجاذيف الحمراء ترتفع وتنخفض ، والبحارة يغنون فى مرح . . أما ماكنوت فبقى فى مكانه غاضبا ، ولما رآنى قادماً ، صاح يتعجلنى ، وهو يلوح بقبضته مهددا . .

وأمسكت إليزابيث بكتفى آن تشد أزرها ، وقالت لها : أين كنت ، يا حبيبتى العزيزة ؟

ولم تنطق آن بكلمة واحدة ، وظلت شاخصة نحوى بعينيها الشاردتين . .

وربت على كتفها ، وقلت لها : وداعاً يا آن . . سآتيك بأجمل هدايا الغرب عند عودتى . .

ونظرت إليها يائسا ، ففى قلبى كانت الكلمات الحلوة تريد أن تنطلق ، فينعقد لسانى عن النطق بها . .

وقالت لها إليزابيث وهى تهزها بعنف : لماذا لا تشكرين مستر تاون ، أيتها الفتاة الجحود ؟

ولم أشعر إلا وأنا ملقى على الحقائب فى مقدمة السفينة ،

www.ibtesama.com

وماكنوت يصيح بى قائلا : ألا تعلم أننا نسافر مع فرنسيين ، وهم يكرهون الفراق ويتألمون له ، وأغلب الظن أنهم لن يسمحوا لنا بتناول الطعام قبل أن يعالجوا أحزانهم ، ويحتمل أن يستغرق ذلك أسبوعين ؟

وأخذت أتطلع إلى الشاطئ والسفينة تبتعد بنا حثيثا عن الشاطئ ، فتتضاءل قلعة ميكيليماكيناك أمام أنظارنا بالتدريج ، حتى لم يعد يظهر لنا منها سوى أطرافها تلمع فى ضوء الشمس المشرقة . . ورأيت إليزابيث تسير إلى المدخل البحرى ، وآن تقف مع الصاغ عند المرسى ، ثم لم يلبث أن تركها وعاد على أعقابه إلى القلعة . . وبينما كانت السفينة تعبر المضيق إلى الشمال الغربى ، فى طريقها إلى بحيرة متشيجان ، لمحت آن بقوامها النحيل تقف وحدها على الشاطئ ، ساكنة لا تتحرك . .

وشعرت بمزيد من القلق على مصيرها مع إليزابيث التى لا تكف لحظة عن زجرها وتأنيبها . . وانقبض قلبى وأنا أتخيل حياتها الفارغة بعد سفرى ، وعذابها فى وحدتها بحرمانها من حنان الأب وعطف الصديق . . وتمنيت أن تلين خيبة الأمل من قلب روچرز ، فيكلأها برعايته ،

www.ibtesama.com

ويمنحها الحنان الذى لا تعرفه إليزابيث . .

وظللت أفكر فيها طويلا .. أفكر فى المسكينة الصغيرة .. وابتسامتها الدائمة .. واحتمالها العظيم .. حبها لخدمة الناس .. وحسن تقديرها للأمور .. وشجاعتها فى تقبل العذاب دون أن تشكو أو تتذمر . .

مسكينة آن ! . .

** معرفتي **
www.ibtesama.com
منتديات مجلة الإبتسامة

www.ibtesama.com

الفصل الثالث

تيوت . . وجودارد . . وكارڤر . .

كارڤر . . وجودارد . . وتيوت . .

ظلت هذه الأسماء الثلاثة عالقة بذهنى لسنوات . . ذكراها تحدث فى رأسى دويًّا يشبه الأغانىّ الهندية التى تضرس لها الأسنان . . وكلما حاولت أن أنساها ، تذهب جهودى هباءً . . وكان بودى أن أهمل الإشارة إليهم فى معرض هذا الحديث ، ولكنهم عنصر هام فى قصة رحلتنا ، وإذا تغاضينا عن ذكرهم أكون بمثابة من يسرد تاريخ يوليوس قيصر دون أن يذكر بروتس أو پومپى . .

وكان كارڤر قد سبقنا بشهر ، ولكننا وجدنا أثره فى انتظارنا أينما توقفنا على طول المسافة حول الطرف الشمالى لبحيرة متشيجان . . ابتداءً من خليج جرين باى ، إلى نهر فوكس . . ومن وسكونسن حتى المسيسبى . . ففى كل موقع من هذه المواقع ترك لنا قصة لا تتغير . . هى قصة الهندى والحية ذات الأجراس !

سمعنا هذه القصة من هنود وينباجوس ومن رجال قبائل الساكس . . سمعناها أيضا من الفرنسيين المرحين ،

www.ibtesama.com

والتجار الإنجليز الوقورين . . وقبل وصولنا إلى المسيسبي كنت أكاد أنفجر غيظا . لكثرة ماردها الناس على مسامعى ، وخيّل إلىّ أنه لم يبق سوى أن تطل العصافير علينا من بين الأغصان ، وتسألنا هى الأخرى : هل علمتم كيف صدق اليوزباشي قصة الهندى والحية ذات الأجراس ؟

وقد سرد تاجر فرنسىّ ، اسمه بيناشون ، القصة لكارفر ، فدوّنها الأخير فى مفكرته ، كدليل على حكمة الحية ذات الأجراس . . ومضمون القصة أنه بينما كان بيناشون يعبر الوادى ذات يوم من شهر أكتوبر ، التقى بهندى يحمل صندوقا ، فلما سأله عما فيه ، قال : إنها حية ذات أجراس ، وحيث إن موسم الصيد قد اقترب ، فعليه أن يطلق سراحها لتعود إليه فى الربيع الثانى . . وسأله بيناشون : كيف يتوقع رجوع الحية من تلقاء نفسها فى الوقت المحدد ؟ ! فأكد له الهندى الأحمر أنها لابد عائدة عندما يطلب إليه ذلك . .

وأكد بيناشون لمن تحدث إليهم ، أنه لم يصدّق القصة ، ولثقته باستحالة عودة الحية من تلقاء نفسها فى الموعد المحدد لها ، راهن صاحبها على جالونين من الخمر . .

www.ibtesama.com

وقبل الهندى الرهان ، وأمر الحية بالرجوع فى اليوم الخامس من شهر مايو القادم ، ثم أطلق سراحها ، فخرجت تسعى فى طريقها ، واختفت بين الأحراش .

وفى اليوم الموعود ، تقابل الرجلان مرة أخرى حسب الاتفاق ، وفتح الهندى صندوقه ، ووضعه على الأرض ، وجلس بجواره فى انتظار عودة الحية ، ولكن الوقت مضى دون أن يظهر لها أثر . . وكسب بيناشون الرهان ، ولكن الهندى لم ييأس ، وأكد أنها لابد عائدة قبل غروب شمس اليوم التالى ، وراهن الفرنسى على ذلك بعشرة جالونات من الخمر . .

وفى عصر اليوم التالى ، التقى الرجلان فى المكان ذاته ، وفتح الهندى صندوقه ، ووضعه على الأرض ، ثم أخذ ينادى الحية . . ولفرط دهشة بيناشون وذعره ، رآها تظهر أمامه ، وتحتل مكانها فى الصندوق وهى تفحّ عاليا . .

قال أولُ من روى لنا القصة ، وهو تاجر معروف : ودوّنها كارڤر فى مذكرته ، وراح يرويها لجميع الناس ، مؤكداً أنه سمعها من فرنسىّ مهذب ..

وضحك التاجر عاليا ، وأردف يقول : وبيناشون

www.ibtesama.com

فرنسيّ لا شك فى ذلك ، أما كونه مهذبا فأمر لم نسمع به من قبل ، ولسوف يدهش حقيقة إذا علم أن أحدهم أسبغ عليه هـــذا الوصف الطريف ! . . والعجيب أن كارڤر صدّق هذا الصعلوك الفرنسيّ ، ولم يطرأ على ذهنه أن يسأله عن الأسباب التى أخرت عودة الحية من الغروب إلى الشروق .

ونظر التاجر إلينا منتظراً أن نتوجه إليه بالسؤال ، فقال ماكنوت يرضيه : حسنا . . لسنا ككارڤر محرومين من حب الاستطلاع ، فخبّرنا لماذا تأخرت الحية عن الرجوع فى موعدها الأول ؟

قال التاجر : هذا بيت القصيد ، فلقد استغرق بيناشون فى دهشته ، حتى نسى أن يسأل الهندى عن أسباب التأخير .

قال ماكنوت ببرود : ولكنك لم تجبنى عن سؤالى . .

قال التاجر : تأخرت لأنها أنثى ، ولا يخلف الميعاد سوى الإناث !

* * *

بعد شهر من رحيلنا عن ميكيليماكيناك ، تجمعت أمامنا جزر وسكونسن واتحدت فى سهل كبير . . وشاهدنا على مرمى البصر دخانا ينبعث من بيت هندى ، تحيط به

www.ibtesama.com

بيوت أخرى متباعدة . . تتلوها مجموعة ضخمة من المساكن الهندية ذات السقوف المدببة ، فصاح المسافرون قائلين : بريَّة الكلب . . هذه برية الكلب . .

وكانت البيوت تمتد بالآلاف من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب ، مشيدة على الضفة العليا لنهر آخر يحملنا إليه الوسكونسن . . نهر من الاتساع بحيث تظنه بحيرة ضخمة تتقلب مياهها الغاضبة فى هدير شديد . . وكان هذا المجرى المائى العظيم ، هو نهر المسيسپي . . آخر ما نعرفه من الحدود الأمريكية . .

وعندما ألقينا بمراسينا على الضفة اليمنى ، وجدنا المكان مألوفا لنا . . يشبه ميناء بورتسموث فى ضجيجه وعجيجه — ولم يثر وصــولنا اهتماما ، وقابلنا الناس دون مبالاة ، كأننا عائدون من نزهة بحرية قصيرة . .

وأدهشنا الضجيج . . ففى كل مكان بين الأكواخ والخيام ، وجدنا الهنود — ذكورا وإناثا — سكارى يصرخون بأعلى أصواتهم . . وبصحبتهم خليط من البيض ، فيهم المسافرون والتجار وكتبة الحسابات وصيادو الغابات . . هؤلاء يصيحون ضاحكين ، وأولئك ينادون معلنين عن بضاعتهم . . يتشاتمون بأبذأ الألفاظ . . وعلى جانب

www.ibtesama.com

من المكان ، أخذ بعض الهنود يرقص ويغنى ، ويدور مع دقات الطبول فى دائرة واسعة . . والبعض الآخر يمارس ألعابا مختلفة بأدوات من ابتكاره ، مثل الحبوب والصحون والكور والمضارب الخشبيـــة الطويلة . . وارتفعت الأصوات بالثرثرة والنقاش ؛ واختلط بهذا كله نباح الكلاب وصراخ الأطفال وزعيق الأبواق .

وقادنا جودارد إلى الحىّ الذى يحتله التجار الإنجليز ، وفى أثناء الطريق أخذ يعرفنا بأنواع من الهنود يختلفون تمام الاختلاف عمن رأيناهم من قبل . . مثل المينيتاريس . . والپيورياس . . والكيكاپوس . . والشينز . . ثم المحاربين الذين أطلقوا شعورهم حتى بلغت أطرافها الأرض ، وزحفت خلفهم . .

وعندما وصلنا إلى صَفَّيْن طويلين من الخيام التى صنعت من الجلد الأبيض ، وزينت برسوم الشمس والنجوم والمها والطيور ، أدهشنى تصرف الأميرة ماكنوت ؛ إذ وضعت إصبعها فى فمها كما يفعل الطفل إذا لسعته النار ، ثم أخذت تقفز كأنها تنطّ الحبل . . ورأيت إحدى النساء تحذو حذوها ، فتمص إصبعها أيضا . .

www.ibtesama.com

قال ماكنوت متململا : مزيد من الأنسباء ، فرحمتك يارب !

وطوقت كل من الهنديتين خصر الأخرى بذراعها ، وانفجرتا فى البكاء .

ولم يلبث الهنود أن تجمعوا حولهما ، النساء يبكين والرجال ينظرون فى حزن شديد . .

وكان الرجال والنساء على السواء يرتدون ثيابا من الجلد الأبيض الناعم ، الصغيرات منهن جميلات ، والكبيرات رشيقات لا يتسمن بطابع الترهل مثل هنديات الشرق ؛ أما الرجال فطوال القامة منتظمو القسمات ، فيهم وسامة لم أعهدها فى غيرهم من البيض أو الحمر . .

قال جودارد موضحا : إنهم السيوكس ، أو بالأحرى ناودوسيوكس . .

قال ماكنوت : لك يا أخى أن تسميهم كما تشاء مادمت بعيدا عنهم ، أما فى حضرتهم فإياك أن تستعمل كلمة غير داكوتا ، اللهم إلا إذا كنت تبحث عن المتاعب .

وظهر من خلف الخباء هندى فاره القوام ، ووقف يبتسم للأميرة ماكنوت ، وقال شيئا دفع النساء إلى النط

www.ibtesama.com

مرة أخرى . . وأثار منظره رغبتى فى الرسم ، فدسست يدى فى خرجى أبحث عن الأقلام . .

كان وسيم الوجه ولا شك ، وازدادت وسامته بطاقية من الفراء الأبيض ، يضعها فوق رأسه ، فتلتف أطرافها حول وجهه . . وانسدل شعر الفراء فوق جبينه فيما يشبه الحلقات ، وامتد على الجانبين طويلا حتى وصل إلى كتفه .

ولم أكترث لاختلاف الأسماء التى يطلقونها على عشيرة هذا الرجل ، فسيان عندى إن كانوا سيوكس أو ناودوسيوكس أو داكوتا . . المهم أننى وجدتهم بغيتى فى الرسم ، وأجمل من أتمنى تصويرهم على الورق . .

* * *

كان الهندى الوسيم — واسمه وانوتان — من قبيلة البانكتون ، وهى إحدى القبائل السبع التى يتألف منها شعب الداكوتا . . وقد أطلق الفرنسيون على هذا الشعب اسم الناودوسيوكس ، واختصر الإنجليز الكلمة وجعلوها سيوكس . . أما الهنود أنفسهم ، فتمسكوا باسمهم الأصلى ، ولم يقبلوا بديلا عن داكوتا ، ومعناها « المتحدة » . . فشعب الداكوتا يتألف من مجموعة من

www.ibtesama.com

القبائل تعيش معاً فى محبة ووئام ، وتتحد دائما أيام الحرب ضد الأعداء .

وأفراد هذا الشعب على أنواع ؛ فالذين يسكنون منهم مناطق الصيد البعيدة عن نفوذ البيض وتجارتهم فى الخمور ، يتميزون بالشجاعة والإقدام . . والأدب . . والكرم . . وحسن الضيافة . . والتفانى فى خدمة الأصدقاء والحلفاء ، وليس لهم مثيل فى القدرة على سرقة جياد الأعداء . أما أهل منطقة المسيسبى فكسالى سيئو الخلق . . يفرطون فى شرب الخمر ، ولا يتورعون عن سرقة أتفه ما تقع عليه أيديهم . .

تلقيت هذه المعلومات كلها من ماكنوت ، فقد كانت زوجه من الداكوتا قبل أن يأسرها الشيپوى . . والمرأة التى قابلتها بالنط ابنة الزعيم وانوتان . . وذات يوم اختطفها الشيپوى أيضا ، وحملوها معهم إلى الشرق ، ولكنها استطاعت أن تهرب ، وتعود إلى أهلها . . ويعزى سبب النط إلى أن وانوتان أبلغ الأميرة ماكنوت نبأ وفاة والدها ، وأكد لها أنها أصبحت بمثابة ابنته ، فعليها أن تعتبر بيته بيتها ، وتعيش تحت سقفه مكرمة معززة .

ومن أجل ذلك ، تأتّى لنا نحن الثلاثة : أنا وماكنوت

www.ibtesama.com

وزوجه . . أن نقضى الشتاء فى بيت الزعيم وانوتان وبمنطقة صيده الواقعة بين سانت پيتر وأنهار الميسورى . . فى حين عاش جوناثان كارڤر مع قبيلة أخرى تعسكر قريبا من منبع سانت پيتر . . وبفضل وجودى مع الزعيم الهندى الكريم ، أمكننى أن أرسم لوحات عدة ، نشرتها جمعية الأجناس البشرية بلندن تحت عنوان « الحياة بين الداكوتا » . وبفضله أيضا عثرت على الطريق الحقيقى إلى نهر أوريجون ، ذلك الاكتشاف الذى سرقه منى جوناثان كارڤر ، وادعاه لنفسه فيما بعد . .

www.ibtesama.com

الفصل الرابع

يبدو أن تيوت وجودارد كانا سعيدين بالتخلص منا ؛ إذ قال لى تيوت ذات يوم : لقد ذهب كارڤر مع بروس فى رحلة عبر النهر ، وفى نية بروس أن يقضى الشتاء بالقرب من شلالات سانت أنتونى على بعد أربعة أميال من ملتقى سانت پيتر بالمسيسبى . . وعندما تصل إلى سانت بيتر ، ابعث إلى كارڤر برسالة تذكره بضرورة عودته إلى برية الكلب فى الربيع القادم ومعه زعماء الهنود ، الذين أقنعهم بالسفر إلى الصاغ . . وعليك أنت أيضا أن تقوم بذات المهمة ، إذ تقنع الهنود بالاشتراك فى مؤتمر السلام ، ثم تعود بهم فى الموعد المتفق عليه ، وبعدها ترافقنا فى بحثنا عن نهر أوريجون والممر الشمالى الغربى . .

وتخلينا عن المسافرين معنا ، واشترينا من الشيپوى قاربين صغيرين . . حملناهما بالمؤن ، ثم بدأنا رحلتنا . . واستقل ماكنوت وزوجه وبرفقتهما اثنان من مقاتلى الداكوتا أحد القاربين . . وذهبت أنا والزعيم وانوتان ومقاتلان من رجاله فى القارب الآخر . . وأمسك وانوتان بالدفة ،

www.ibtesama.com

وقادنا بين الجزر الكثيرة الواقعة بمنطقة المسيسپي ، وخرج بنا إلى المجرى الفسيح المتاخم لأخطر منحنيات بحيرة پيپين ، وبعدها دار بنا حول الجزيرة المشجرة التى تخفى مصبّ نهر سانت پيتّر عن أعين المسافرين فى النهر الرئيسى . . وكان الجو باردا ، ولما بلغنا مياه سانت پيتّر الزرقاء ، وجدنا الثلوج قد تجمعت فوق سطح المناطق الضحلة ، فلم نبذل أدنى جهد فى الذهاب إلى الشلالات ، سعياً وراء كارڤر ، واكتفينا بإبلاغه رسالة تيوت مع رسول خاص ، بعثنا به خصيصا لهذا الغرض ، وبعد أن أنجزنا هذه المهمة ، أسرعنا بالمسير إلى مناطق الصيد قبل أن تداهمنا الثلوج ، وتعوقنا عن التقدم . .

كانت المراعى المحيطة بنهر سانت پيتّر ، أجمل ما رأيت فى حياتى ، ومازلت إلى اليوم أذكر روعة الأحراش المتناثرة بين جنباتها ، ومن فوقها تطل قباب البيوت المبنية فى خط متماوج على أرض فسيحة ، تفصل بين وادى سانت پيتّر ووادى ميسورى . . ويخيل إلىّ أننى مازلت أسمع صياح فرسان الزعيم وانوتان ، وهم يمتطون ظهور جيادهم ، ويقفزون بها فوق صخور الشاطئ ، تحية لنا وترحيبا بقدومنا . . ومن المناظر الساحرة ، التى شغلت قلمى

www.ibtesama.com

بالرسم طوال الشتاء . . رجال وانوتان الشجعان ، وصقور الصيد فوق رءوسهم ، والأوراق الملونة مدلاة من شعورهم ، والمرايا مثبتة على صدورهم . . خيامهم البيضاء القائمة على أرض بنية اللون ، وبجوارها العجائز مشغولات بطهو لحم الجاموس والكلاب فى قدور تشتعل النار تحتها بقوة . . وكلما اتسخت أصابعهن يمسحنها فى شعورهن ، أو شعور الكلاب الجالسة معهن ، ويغسلن أيديهن فى مياه الشرب الدافئة . . الجاموس يتجمع فى قطعان هائلة ، يخيل إليك معها ، كأن المراعى القاحلة تحولت إلى بساط بنى واسع . . الفرسان الأقوياء يلهبون ظهور جيادهم بسياطهم ، ليستحثوها على محاصرة القطعان ، وإبعادها عن مئات الحيوانات الميتة على الحشائش الجافة ، حتى يتمكن الرجال والنساء والأطفال من تقطيعها إلى كتل كبيرة . .

أحس أننى مازلت أعيش مع العواصف العارمة ، التى كادت تطمس معالم القرية ، وبحور الجليد المتخلفة عنها ، وقطعان الجاموس الهائمة وراء طعامها فوق المساحات البيضاء الشاسعة ، ومن خلفها رجال القبيلة يتبعونها بزحافات الجليد ، ويعيدونها إلى قواعدها بأسنة حرابهم . . أحس

www.ibtesama.com

بدفء النيران المشتعلة داخل الخيام ، وفوقها قدور اللحم تخنق الجو بأبخرة الدهون المطهوة . . الكلاب وهى تقبع خلفى طلبا للدفء . . وأسمع نباحها عندما يطردها ماكنوت بضربة من ساقه الخشبية . . ثم الضحكات تعلو حولنا بالليل فى مرح زائد ، يتنافى تماما مع ما ينسبونه إلى الهنود من ميل إلى الصمت والوجوم . .

وكان شوقى يتزايد يوما بعد يوم إلى قدوم الربيع ، ومللى لا يخففه سوى اعترافى بكرم ضيافة وانوتان وزوجاته وأطفاله وفرسانه ، وتأثرى بصبرهم على الوقوف أمامى ساعات حتى أنتهى من رسمهم . . ومجاملتهم بالثناء المفرط على كل صورة أتمها . . ومع كل هذا ، ظللت فى قرارة نفسى قلقا ، أتوق إلى السير بقافلتنا غربا ، ومعنا الصاغ يستحثنا على الإسراع ، ويشجعنا بصوته الجهورى ، ويحفزنا بكلامه المثير على مواصلة السفر نحو كشفنا العظيم . . واستبدت بى الرغبة فى الترحال ، فوجدتنى رغم — جمال الكون حولى — أضيق برتابة الحياة مع الداكوتا ، وأنفر من انغماسهم التام فى لاشىء سوى الصيد والطهو والرقص والنوم . . وازداد بى الضيق على مرّ الوقت ، وبلغ أقصاه مع ذوبان الثلوج فى شهر مارس ، حتى

www.ibtesama.com

بت أشعر أن متاع الدنيا كلها لا يعوضنى عن هجر حياة الحضارة وما فيها من مصادر اللذات الذهنية . .

كنت فى شوق إلى رؤية الصاغ ، لإبلاغه سر اكتشاف توصلنا إليه بمحض المصادفة .

ولهذا الاكتشاف قصة ؛ فقد رحب وانوتان برغبة الصاغ فى تدعيم السلام فى ربوع القبائل الغربية . . ووافق مسرورا على إرسال زعمائه لحضور المؤتمر بميكيليماكيناك . . ووعد بإيفاد رسله إلى الجنوب حيث يعيش الماندان على ضفاف الميسورى . . وإلى الشمال موطن الأسينيبون ، وقال : ولن يرفض الأسينيبون طلبى ، لأننى أسمح لمحاربيهم بالمرور سالمين إلى الجنوب ، فى طريقهم نحو ميسورى وجبال شايننج .

وكان الصاغ قد أوضح لتيوت خطة بحثنا عن الممر الشمالى الغربى ، فأمره بقيادة حملتنا من منابع المسيسبى فى الشمال ، إلى « فورت لا بارى » غربا ، ثم نعبر جبال شايننج صوب نهر أوريجون العظيم ، وحذرنا أشد التحذير من خطأ الدخول فى الميسورى . . ولكن حديث وانوتان أقنعنا بأن الميسورى هو الطريق الوحيد إلى جبال شايننج .

ولما أوعزنا إلى زوج ماكنوت بسؤاله عن الأسباب

www.ibtesama.com

التى تجعل رجال الأسينيبون يسلكون طريق الجنوب ، ثم يعبرون الميسورى إلى جبال شايننج ، بدل طريق الغرب – وهو أسهل وأسرع – استنكر الزعيم سوءالها هذا ، وأكد أنه أمرٌ من السهولة بحيث يدركه الطفل الصغير . .

وقال وانوتان فى توضيح الأمر : إن قبائل الأسينيبون يقيمون فى منطقة مسطحة ، تغمرها فى الصيف مياه ثلاثة أنهار كبيرة ، أحدها سانت لورنس والثانى المسيسبى والثالث يجرى شمالا ليصب فى خليج هدسون . . وعلى هذا الاعتبار تصبح المنطقة غير صالحة للصيد ؛ فالمياه الراكدة فيها تقضى على الصيد ، وينتشر البعوض فى سحب لا يتصور العقل ضخامتها . وهنود المناطق الغربية يعيشون فى فقر مدقع يحميهم من غارات القبائل الأخرى . . لهذا يوءثر الأسينيبون وكذلك المينيتارى الالتجاء إلى أماكن أفضل فى الصيف ، فيعبرون هذا الوادى إلى الميسورى ، حيث الأراضى جافة خصبة ، غنية بملايين الجاموس والغزلان والديكة ، وأهاليها يملكون من الجياد قطعانا كثيرة ، تغرى غيرهم بمهاجمتهم كل عام ، لسرقة الجياد ، وأسر رجال الشوشينز المقيمين عند منابع الميسورى . .

قال ماكنوت فى تشكك : إذا كان الأسينيبون

والمينيتارى يفعلون ذلك كل عام ، فكيف لم يأتوا إلى الآن على جميع جياد أعدائهم ؟

قال وانوتان : لأن الشوشينز كلما فقدوا جيادهم ، يهبطون النهر إلى الجانب الآخر من جبال شايننج، ويأتون بحصيلة جديدة من الجياد البرية .. فالنهر يجرى نحو الغرب ، حتى يصل إلى البحيرة العفنة ، حيث تنتهى الأرض ..

وأدركت أن « البحيرة العفنة » هو الاسم الذى يطلقه الهنود على المحيط ، ولا بد أن يكون النهر الذى يصطاد شوشينز عنده جيادهم ، هو أوريجون العظيم ..

قلت له : وكم تبلغ المسافة بين منابع الميسورى ، وبداية النهر القائم على الجانب الآخر من جبال شايننج ؟

قال : سمعت من المينيتارى أنها دخانان ..

والدخانان نحو ثلاثين دقيقة ..

قال لى ماكنوت : إذا كان الهنود يقطعون هذه المسافة فى ثلاثين دقيقة ، ففى وسع الصاغ أن يقطعها فى أقل من لمح البصر ..

وفجأة خامرنى شعور مُقلق ، إذ تذكرت ما سمعته

www.ibtesama.com

من ماكنوت ذات يوم ، حين قال دون مبالاة : « وسوف تأتى حملتنا بنهاية سانت فرانسس » ، وكم تحملنا من العذاب والآلام فى بلوغ هذه الغاية !

* * *

عندما ذاب الثلج فى نهاية شهر إبريل ، رافقنا وانوتان وعشرة من رجاله فى رحلتنا إلى برية الكلب ، تمهيدا للاجتماع بالصاغ فى ميكيليما كيناك . . ولما تحولنا عن سانت بيتر فى طريقنا إلى المسيسبى ، استقبلنا زعماء الداكوتا بصيحات الترحيب . . ورأيت جوناتان كارڤر يقف بينهم .

قال لى ماكنوت محذرا : إياك أن تفضى إليه بما عندك ، ودعه يتكلم كما يشاء ، فهذا هو الأسلوب الوحيد فى معاملة من لا يعرفون السيطرة على ألسنتهم .

ونزلنا من قواربنا إلى الأرض ، فأحسست أننى أقابل كارڤر آخر غير الذى عرفته فى ميكيليما كيناك . . كانت مظاهر الثراء بادية عليه . . برزتا أكثر من ذى قبل ، ووجهه ازداد امتلاء . . وكان يرتدى صديرية جديدة أكثر أناقة مما نرتديه . . وحتى سلوكه تبدل ، فأصبح أقل ميلاً للعناد والمشاكسة . .

www.ibtesama.com

قال لى ماكنوت : عليه اللعنة ! ترى ماذا أصابه ؟ . . يظهر أنه اشترى هندية نشيطة ، عرفت كيف تطعمه بلحم الكلاب وذيول القنادس ، وتجعل منه جوادا فحلا . . والله ، ما فى الدنيا أغبى من الغبى الأصيل !

وحيانا كارڤر فى جلال واضح ، وقال : أهلا وسهلا ، ومرحبا بقدومكما . . رسالتكما وصلتنى ، فماذا فعلتما ، وهل وفقتما ؟ أتريان جهودى فى خدمة أغراض الصاغ ، وتحقيق مؤتمره ؟

وأشار إلى الهنود الواقفين بجوارنا ، وأردف يقول متباهيا : هاكما الزعماء المسافرين إلى ميكيليماكيناك ، وكلهم من النيودو سيوكس . .

صاح به ماكنوت يقول بحدة : ليكن فى علمك أنهم يكرهون هـــذه الكلمة ، فإياك أن تناديهم بها ونحن معك . .

قال كارڤر : أنت مخطئ يا سيدى الجاويش ، فلقد قضيت معهم الشتاء كله ، وشاركتهم فى متعهم وصيدهم . وجلست معهم بجوار النار ، وأكلت من طعامهم فى ألفة ومحبة ، وتبادلنا القصص فى لغتهم . .

www.ibtesama.com

قال ماكنوت : وهـــل تعلمت لغتهم وأجدتها لتحدثهم بها ؟

قال كارڤر ببساطة : لقد قضينا صباح اليوم نتكلم معا بلسان النيودوسيوكس . .

وحك ماكنوت ذقنه فى حيرة ، وفتح فمه لينادى الأميرة ماكنوت ، ولكنه لم يلبث أن أقفله ثانية ، وتريث قليلا . .

وقال بعد لحظة من التفكير : أين قضيت الشتاء ، ياسيدى اليوزباشى ؟

قال كارڤر : بأرض النيودوسيوكس عند نهر سانت پيتر . . . طفت بالمنطقة كلها ، ومسحتها ، وأعددت الخرائط اللازمة لنا . . .

قال ماكنوت : حسنا فعلت ، فهذه أعظم معونة تسديها لنا فى بحثنا عن نهر أوريجون العظيم . .

وبدت الدهشة على وجه كارڤر ، وأخذ ينقل نظراته بينى وبين ماكنوت ، وقال : نهر أوريجون العظيم ؟ لعلك تقصد نهر بوربون . . النهر الأحمر ، سمعت بعضهم يطلق عليه هذا الاسم ؟

قال ماكنوت يغير الموضوع : والله ، لقد نسيت أنك

www.ibtesama.com

لم تكن معنا حين أعطانا الصاغ أوامره بعد رحيلك .... تيوت تسلم الأوامر ، ياسيدى اليوزباشى ، ولهذا أرسل يستدعيك إلى برية الكلب . . . . سنقوم جميعاً فى رحلة للبحث عن نهر أوريجون العظيم والممر الشمالى الغربى . . . ولسوف يأتى الصاغ لقيادتنا فى الوقت المناسب ، وهناك جائزة تبلغ عشرين ألفـــا من الجنيهات إذا نجحنا فى أداء مهمتنا . .

قال كارڤر فى شرود : نهر أوريجون العظيم ؟ وكم يبعد عن هنا ؟ وماذا أفعل وقد نفدت مؤونتى ، ولم يبق شيء منها ؟

صاح به ماكنوت يقول باستنكار : نفدت مؤونتك ؟ كيف هذا وقد رحلت عنا بحمولة زورق كبير منها ؟ ماذا فعلت بالمؤن ، وأين ذهبت ؟

قال كارڤر : أردت أن أغرى قبائل النيودوسيوكس والساكس والفوكس والوتنباجو بحضور المؤتمر ، فأهديتهم ما عندى . . .

قال ماكنوت فى دهشة : وماذا أعطوك لقاءها ؟ أنا ولانجدون أهديناهم توافه لا قيمة لها ، فأعطونا ما لم نستطع الإتيان به من الأحمال الثمينة . . . كنا نهديهم قطعة

www.ibtesama.com

من الحديد لا تزيد مساحتها على ثلاث بوصات مربعة ، فيردون الجميل بثمانية جالونات من الذرة ، وست حقائب مليئة باللحوم المجففة . . . ومازلنا نحتفظ بمعظم الأشياء التى جلبناها معنا من ميكيليماكيناك . . . فكيف تزعم أنك استنفدت حمولة قاربك الكبير ؟

وزم كارڤر شفتيه ، وسكت برهة ، ثم قال : كانت الترامانى فوق ما تصدقون . . والآن أستأذنكما فى العودة إلى أصدقائى ، فاسمحا لى بالذهاب لأداء واجباتى . .

وتجهم وجهه ، واستدار على عقبيه كالقط الشارد ، وهو يتمتم بكلمة « أوريجون » ويرددها لنفسه . .

وأخذ ماكنوت يتأمل كارڤر فى تسلله بعيدا عنا ، وبعد صمت قصير قال لى : فى الأمر سرّ ولا شك فى ذلك ، يا لانجدون . . أتذكر ما حدثتك به حين انضممت إلى فرقة المتطوعين ؟

قلت : حدثتنى بأمور كثيرة . .

قال : أجل ، ولكن أهمها نصيحتى فيما يختص بسلوكك معنا . . قلت لك . . إن جيشا كاملا يتوقف مصيره على ما لدينا من معلومات . . فعليك بالصدق فيما ترى أو تفعل . . أنت جزءٌ فيما ترويه للأغراب من بنات خيالك عن الحملة

www.ibtesama.com

ومغامراتها ، ولكن إياك أن تكذب على جندى أو متطوع . . أتذكر هذه النصيحة ، يا لانجدون ؟

قلت : لم أنس كلمة مما نبهتنى إليه فى ذلك اليوم .

قال : وما رأيك الآن فى كارڤر ؟ إنه يكذب علينا ، وأراهنك ببقرة بيضاء على أنه لم يبتعد نحو سانت پيتر بأكثر من عشرين ميلا . . ولم يتكلم لغة الهنود ، وإلا ما استعمل كلمة النيودوسيوكس . يقينى أنه لم يكتشف شيئا ، وفوق ذلك يكذبنا القول حين ينكر أنه لم يتلق هدايا من الهنود مقابل عطاياه ومؤنه . . فلماذا كل هذا يا لانجدون ؟ إنه لا يكذب على سبيل التسلية . . قطعا لا . . بل هناك أمر يريد أن يخفيه عنا ، وما دعواه سوى ستار يبتغى به تضليلنا ، فهذا أسلوب الكذابين ، والآن أريد معرفة الحقيقة ، فماذا وراءه يا ترى ؟

* * *

سبقنا كارڤر إلى برية الكلب ، حيث تقرر عقد المؤتمر ، ولم نستطع الوصول إلى حقيقة نشاطه بين القبائل . . وأبلغتنا الأميرة ماكنوت أنها سمعت أحدهم يناديه بكلمة معناها « شارى القمر » .. وعندما سألنا الزعماء

www.ibtesama.com

تفسيرا لهذا الاسم ، هزوا رءوسهم فى حيرة ، وعجزوا عن الإجابة . .

قال ماكنوت : عليه اللعنة ، فالهنود لايطلقون عليه هذا الاسم بلا سبب . . أفهم أن يسموه « جاحظ العينين » ، أو « الرجل الذى يمشى على قشر البيض » ، أما شارى القمر فأمر آخر . . لابد أنه اشترى شيئاً استحق به هذا الاسم ، فماذا تظن ، يا لانجدون ؟ مهما كان هذا الشىء، فمن المؤكد أنه لا يحمله الآن معه .

ولم يكن فى وسعنا سوى ترك الموضوع ، ولكنى لم أقو على منع نفسى من التفكير فيه ونحن فى طريقنا إلى برية الكلب . . وحيّرنى التغير الفجائى فى سلوكه عقب حديث ماكنوت عن نهر أوريجون العظيم والممر الشمالى الغربى . . فبمجرد ذكر هذا الموضوع تبدل أمر كارفر من حال إلى حال . . تخلى عن وقاره وتعاليه ، وشرد ذهنه ، وتعثّرت الكلمات على لسانه . . وكنت كلما أمعنت فى التفكير ، تزداد ثقتى بأنه يخاف أمراً ما . . ولقد عرفت كارفر شجاعا رغم صفاته المرذولة الأخرى ، ولم أعهد فيه الجبن يوما من الأيام ، فلماذا يخاف الآن ؟ . ومم يخاف يا ترى ؟ . .

www.ibtesama.com

واشتدت حيرتى حين وصلنا إلى برية الكلب ، وقصدنا خيمة تيوت القائمة فى وسط العاصمة الهندية ، فوجدنا جودارد وزعماء القبائل ، وكذلك وجدنا كارفر ، وقد استعاد وقاره وتعاليه ، كأنه اطمأن بعد قلق .. واستقبلنا جودارد وتيوت بحفاوة بالغة ، الأمر الذى أدهشنى كثيراً ، فلقد كان تيوت يكرهنى دائما ، ولم يحاول مرة أن يخفى عنى حقيقة مشاعره نحوى ..

وبدأت بالسؤال عن الصاغ ، ولكن تيوت لم تكن لديه أخبار عنه .. عندئذ أنبأته بما قاله وانوتان من أن الوصول إلى نهر أوريجون العظيم يأتى عن طريق سانت بيتر والميسورى ، لا الطريق الذى رسمه لنا الصاغ .. واستمع إلىّ الثلاثة فى صمت تام ، وتحت إلحاح ماكنوت ، احتفظت ببعض المعلومات خصيصا للصاغ ، ولم أحدثهم ببقية ما عندى ..

قال تيوت : إنها أخبار مثيرة للغاية ، ولسوف أبعث بها إلى الصاغ فى رسالة أكتبها الآن ..

والتفت إلى كارفر ينظر إليه متسائلا ، فأدركت أنه لا يبتغى مزيدا من أخبارى ..

www.ibtesama.com

قلت له : ومتى تزمع السفر ؟

قال : حالما يصل الهنود سالمين إلى ميكيليماكيناك . . فالفرنسيون والإسپان يبذلون أقصى جهودهم فى منعهم من الذهاب ، ويحاولون بشتى الوسائل اجتذابهم إلى نيوأورليانز ، ولقد نجحوا صباح اليوم فى سرقة عشرة من زعماء النيودوسيوكس . أقنعوهم بالعدول عن حضور مؤتمر الصاغ ، فعلينا أن نرافق الباقين طول الوقت ، وألا نكف لحظة عن إغرائهم بالذهاب إلى ميكيليماكيناك .

قلت : ولكننا نريد أن نبدأ بأسرع ما يمكن ، فالوقت يمضى بسرعة ، وإذا لم نصل هذا الصيف إلى المكان المتفق عليه ، تطول الرحلة بلا داع ، وقد تستغرق عاما فوق المدة المخصصة لنا . .

قال تيوت بحماسة : اطمئن ، يامستر تاون ، ودعك من القلق . . اهتم أنت برسومك ، واترك لنا تذليل المتاعب وحل المشكلات . .

وابتسم تيوت ، فابتسم أيضا كارڤر وجودارد ، وأحسست أن ابتساماتهم هذه تخفى وراءها أغراضا غير المودة والمجاملة ، فقد لمحت فى عيونهم ما يشبه السخرية المقنّعة . . . وازدادت شكوكى وتضاعفت حيرتى ، ولكن أحداً فى

www.ibtesama.com

الدنيا ما كان يستطيع أن يتكهن بالسر الذى يخفيه هؤلاء الثلاثة . . جودارد وتيوت وكارفر . . السر الذى لم يلبث بعد ذلك أن عرفناه . . .

* * *

كنت أتمنى أن أجد فى برية الكلب رسالة من آن ، فلما خاب أملى ضاق صدرى إلى أبعد حد . . وكان فى نيتى أن أبعث إليها بكلمة مع الزعيم وانوتان ، أرفقها بالصور التى صنعتها خلال الشتاء ؛ ولكنى أخذت أؤجل هذه المهمة يوما بعد يوم ، أملاً فى وصول رسالة منها مع أحد الجنود القادمين من ميكيليماكيناك . .

والواقع أننى لم أجد وقتا للكتابة ، لكثرة ترددى على محطة ويسكونسن حيث تعسكر إحدى الفرق . . ففى كل مساء أعلل النفس بوصول رسالة فى الصباح مع بعض الجنود القادمين . . وعند شروق الشمس أذهب إلى الشاطئ ، وأقف عليه ساعات أتأمل الأفق عسى أن أرى قاربا حربيا مقبلا من وراء الجزر الصغيرة . . فإذا خاب فألى ، أعود وأمنّى النفس بأن الظهر أنسب وقت لوصول الجنود . . . . . وأقف على الشاطئ من جديد أنظر إلى الأفق فى شوق ولهفة ، حتى تغرب الشمس ويحل الظلام . . . . .

www.ibtesama.com

وانتابنى فى تلك الفترة العصيبة قلق لم أعرفه طول حياتى ، وظل الأمل يدفعنى إلى الشاطئ كل صباح وظهر ومساء . . ولم أستسلم لليأس إلا بعد أن قرر وانوتان السفر فجر اليوم التالى ، عندئذ جلست أمام أوراقى أكتب رسالة لآن . . .

وظللت أكتب حتى ظهرت تباشير الصباح وعلا الضجيج فى معسكر الهنود . . وسمعت ماكنوت يغسل أسنانه بالسناج ، ويشكو من أن أميرته لابد قد غذت النيران فى الليلة الماضية بابن عرس أو قميص قديم . . وسمعت تيوت يقدم لفريق من الهنود أوسمة من القصدير . . ولكن قلمى لم يتأثر بالأصوات ، ومضى فى طريقه يكتب بأضعاف سرعته المعتادة ، فتغمرنى سعادة لم أعرف لها مثيلا فى حياتى . . ولم يدهشنى أن امتلأت الصفحات أمامى بعشرات وعشرات من عبارات الإعزاز . .

وذكرنى السرور الذى أشعر به حينئذ ، بطول الأيام التى قضيتها بعد سفرنا من ميكيليماكيناك . ه وكيف طبعت فى ذهنى صورة آن وهى تقف على المرسى مثل شبح حزين . . وكم عذبتنى هذه الصورة والبحارة ينشدون الأغانى الغرامية فى أثناء سيرنا إلى ويسكونسن . . وعندئذ

www.ibtesama.com

فقط أدركت الحقيقة ، فتركت القلم ، وأخذت أسرع بقراءة ماكتبت ، وقد فهمت ما أصابني ، وعرفت السرّ فى قلقى طول الشتاء .

ولدهشتى تبينت أننى كتبت رسالة غرامية . . فلقد كنت أظن أننى مولع بآن ، مثلما يولع الأخ الأكبر بشقيقته الصغيرة العزيزة ، ثم ارتفع الستار عن قلبى ، فتجلت أمامى حقيقـــة مشاعرى نحوها ، وعرفت أننى أحمل لها من أعمق العواطف ، ما قد يصعب فهمه على فتاة قلية الخبرة صغيرة السن .

وجلست أتأمل الرسالة ساهما ، وكلمات الإعزاز تسبح أمامى على الورق بوفرة الجُزُر التى رأيناها فى حوض المسيسپى . . ونشب فى صدرى صراع ، وحاولت أن أقنع نفسى بالعدول عن هذه الرسالة ، ولكنى كنت أريد أن أرسلها إليها ، فآن لم تعد طفلة . . وليس من العدل أن أعتبرها قليلة الخبرة . . ثم إنها متسامحة حكيمة ، بدليل نظراتها الرحيمة إلى حيوانية الحياة فى أزقة لندن ، وإدراكها الذى يصل أحيانا إلى درجة الإعجاز لكل ماتراه من تصاريف الدنيا وأحوالها . .

ولكنى عدت أناقش نفسى وأراجعها ، حين استعدت

www.ibtesama.com

بذهنى صورتها يوم وجدتها فى ميكيلماكيناك تقف بين أعمدة البهو المظلم على رأس السلم . وكيف ظلت جامدة فى مكانها لا تتحرك بعد أن قبلتها . . فهل تتصرف على هذا النحو سوى طفلة ؟ أوليس مظهرا لطفولتها اختفاؤها يوم رحيلى دون كلمة وداع ؟ لو لم تكن طفلة ما وجدتها ، حين عدت للبحث عنها ، تقبع فى الركن المظلم ، محملقة العينين ، وعلى فمها ابتسامة شاردة . . ولولم تكن طفلة ما وقفت جامدة لا تستجيب ، عندما أخذتها بين ذراعىّ ، وقبلتها من شفتيها . .

وأعترف الآن بأن قبلتى هذه لم تكن أخوية . .

وعدت أقنع نفسى بأنها ما زالت طفلة . . ورغبة فى تأكيد هذا الاعتقاد فى نفسى ، تناولت ورقة أخرى ، وأخذت أكتب عليها رسالة جديدة ، بدأتها باسمها فقط . . دون كلمة إعزاز أو تدليل . . آن . . ولا أكثر من ذلك . . ولكن الاسم بدا على هذه الصورة غريبا . . بعيدا . . غير مألوف . . فأضفت إليه « حبيبتى » . . ثم لم ألبث أن طويت الورقة ووضعتها فى جيبى . .

ترى لماذا كانت إليزابيث تخشى من تأثيرى على آن ، وتخاف أن أدخل حجرتها ؟ . . لماذا أسرعت بملاحظة

www.ibtesama.com

نظرات الفتاة إلىّ ، وعلقت عليها بعبارات قاسية ؟ ولأى سبب ثارت غاضبة حين رأتها ترتدى الملابس الهندية التى تلقتها هدية من كا – بس – كنك ، وزعمت أنها فاضحة لا تليق بفتاة مهذبة ؟ . . لو كانت آن طفلة ما أشارت إليزابيث إلى هذه الأمور ، أو علقت عليها أدنى أهمية .. ولو كانت الفتاة ترمينى بنظرات الأطفال ، ما ثارت إليزابيث أو نطقت بكلمة . .

واختلطت الأمور فى ذهنى ، فزمجرت غاضبا ، ولكن زمجرتى رنّت عجيبة فى مسامعى ، فضحكت وقلت فى نفسى : حتى إذا كانت آن مازالت طفلة ، فلن تبقى كذلك دائما .. وربما تكون قد كبرت عندما تصلها رسالتى . .

ومرة أخرى أتيت بورقة جديدة ، وكتبت فيها « يا » ، ثم شطبتها وكتبت « حبيبتى » ، ثم شطبتها أيضا وكتبت « عزيزتى آن » ، وعندئذ ثار غضبى ، فألقيت بالقلم ، ومزقت الورقة إلى قطع صغيرة ؛ فإذا بصوت ماكنوت يعلو قائلا : ما هذا بحق السماء ؟

كان يقف بباب الخيمة ، ينظر إلىّ فى دهشة ، ولما لم أجبه ، سار نحوى ، وقال وهو يتطلع إلى الورق من

www.ibtesama.com

فوق كتفى : ما الذى تكتبه حتى يستغرق هذا التمزيق ؟

وأسرعت بوضع يدى على الصفحات أخفيها عن عينيه ، فقال وهو يحك ذقنه ويتأملنى باستهانة : وانوتان يريد أن يرحل ، وقد بقى فى انتظارك خمس ساعات طويلة ، وأظنها مدة كافية لكتابة أطول رسالة . . أراهنك بدولار على أنك كتبت عشرة أضعاف ما جاء فى الإنجيل عن خلق العالم . . فكفاك بالله ، وإلا سرق الفرنسيون منا وانوتان مثلما فعلوا بزعماء داكوتا العشرة . .

وتطلع إلىّ واجماً ، وأردف يقول : عجيب أن يهرب الزعماء العشرة على هذا النحو ، ولا بد من سبب لتخلفهم عن مرافقة إخوانهم إلى حيث تنتظرهم الهدايا فى ميكيليماكيناك . . أعتقد أنهم يخافون من أمر ما . . ويخيّل إلىّ . .

وتركته يتكلم ، وعدت إلى الرسالة مرة أخرى ، فنزعت منها الصفحات التى أودعتها شوقى ووصفت فيها عذاب اليأس بعيدا عنها . . وأضفت إلى الباقى سطورا جديدة أوصيها فيها بصيانة لوحاتى ، وحفظها مغلّفة فى حقيبتها ، حتى أعود ونستمتع بمشاهدتها معاً . .

ونظرت إلى هذه العبارات فى ضيق ، فقد كنت

www.ibtesama.com

أريد أن أكتب كلاماً آخر ، ولكن أفكارى أخذت تتضارب على غير هدى . .

صاح بى ماكنوت يقول : أستحلفك بالله أن تعفينا من هذه المسألة . . أسرع بكتابة ما تريد ، وإلا فضع توقيعك ، أو ارسم صورتك . . المهم أن تفعل شيئا وتخلصنا من هذه المشكلة . .

وأعجبنى اقتراحه ، فقلت راضيا : أظنها فكرة صائبة أن أختم خطابى بصورتى مع أعز صديقين لى فى الوجود : ماكنوت وأميرته .

وبمنتهى الهدوء ، وقف ماكنوت يراقبنى وأنا أرسم صورة زورقنا : الأميرة تجلس فى مقدمته ممسكة بساق زوجها الخشبية . . وماكنوت فى الوسط يلوح بقبضته . . وأنا فى المؤخرة أحمل مجذافا كتبت عليه : مع حبى لآن !

www.ibtesama.com

الفصل الخامس

ليس أبغض إلى النفس من الرجل الحقود ؛ فهو دائما ضيق الأفق ، قصير النظر ، يكره كل من يكشف أخطاءه ويفضحها ، ولا يتورع عن التذرع بأحط الوسائل فى شفاء غليله بالانتقام . . . هذا هو السبب الذى دفعنى إلى الإقلال من ذكر كارفر وتيوت وجودارد ، بالرغم من أن شكوكى فيهم كادت تبلغ حد اليقين . . . كنا واثقين من كذبهم علينا ، ولكننا لم نصل إلى الدليل القاطع ، فسكتنا راجين أن يثبت الزمن خطأ ظنوننا . . . وحتى لو كنا عرفنا الحقيقة فى ذاك الوقت ، ما أمكننى أن أواجههم بها صراحة ، خشية أن تدفعهم روح الانتقام إلى الكذب على الصاغ ، أو تضليله فى المعلومات التى توصلنا إليها ، أو إخفائها عنه . .

وفى اليوم الحادى والعشرين من شهر مايو ، أمرنا تيوت بالمسير إلى أعالى النهر نحو كشفنا العظيم ، فقمت مع الفجر أرتب أدوات الرسم فى خرجى . . وكان ماكنوت قد استيقظ قبلنا وتوجه مع زوجه الى الشاطئ يحمّل القارب أمتعتنا ، بمعونة مرافقيه الهنديين : توكانو وماوكوشكا . . .

www.ibtesama.com

وهما المحاربان اللذان وضعهما وانوتان فى خدمتنا حين رحلتنا عبر سانت بيتر وميسورى . وطلب أن نبقيهما معنا أطول مدة ممكنة . .

وعند وصولى إلى المرفأ ، وجدت تيوت وكارفر وجودارد وأثرنون يقفون مع مترجميهم بجوار زوارقهم والبشر يعلو وجوههم . . . فى حين جلس ماكنوت فى وسط زورقه ، جامداً صارماً واجماً ، مثلما رأيته ذات صباح تعس ، فى أثناء رحلتنا إلى سانت فرانسس ، يحاول غاضبا أن يعيد النظام إلى صفوف جنوده الثائرين عند نهر أوتر . .

وظننته متضايقا منى لتأخرى قليلا ، فقلت أخفف عنه : لا أكاد أصدق أننا نبدأ الآن رحلتنا إلى الممر الشمالى الغربى بعد طول انتظار . . إنها . .

فقال يقاطعنى : لا أظنك رأيت بحارتهم بعد . .

والتفت إلى زوارق الأربعة الآخرين ، فإذا جميع بحارتها من الشيبوى !

واعترانى اضطراب شديد ، فاحترت فيما أقول أو أفعل ، ثم أدرت ظهرى لماكنوت ، وسرت إلى اليوزباشى تيوت . :

www.ibtesama.com

قال وهو يستقبلنى بابتسامة عريضة : لقد أثقلنا حمولة قواربنا ، ولكننا سنسبقكم برغم ذلك ، وستجدون مشقة فى اللحاق بنا . .

قلت : ألسنا ننفذ أوامر الصاغ ؟ ألسنا نبتغى الوصول إلى نهر أوريجون العظيم ؟

قال فى ضحكة يريد بها إزالة شكوكى : طبعا ، وهل فى ذلك من شك ؟

قلت : ولكنى أراك تستعين برجال الشيپوى ، فبحارتك جميعهم منهم ، وكذلك رئيسهم . .

قال تيوت : صدقت ، ولهذا أعتقد أننا سنسبقكم ، فالشيپوى أمهر أهل الغرب فى التجديف ، ورئيسهم « أونجاو » أبرع المرشدين قاطبة ، بشهادة الجميع ، وليس من يباريه فى أى مكان آخر . .

قلت ثانية : ولكنهم شيپوى ! وليس لهم دراية بالمناطق الغربية التى تقصدها ، ولسوف نخترق أرض الداكوتا ، وأنت تعلم ما بين الداكوتا والشيپوى من خصومات شديدة . . ثم ، ألم ينبّهنا الصاغ إلى ضرورة

www.ibtesama.com

الاستعانة بمرشدين من الداكوتا .. بمرشدين من السيوكس ؟

واختفت الابتسامة عن وجه تيوت ، وقال : أظننى سمعت كلاما من هذا القبيل ..

ولزم الصمت بعد ذلك ، فالتفت نحو كارڤر وجودارد وأثرتون ، راجيا أن يؤيدونى ، ولكنهم تشاغلوا بالنظر إلى الأرض ، وكأنهم لم يسمعونى ..

ولم أر فائدة من الكلام ، فعدت إلى قاربى ، وأمسكت مجدافى ، وجلست فى مكانى ، منتظرا أن يبدأ تيوت بقيادتنا إلى أعالى النهر ..

* * *

راودنا الأمل فى أن تكون مخاوفنا على غير أساس ، فحاولنا أن نحتفظ بمرحنا على قدر المستطاع . أقفلنا أفواهنا عن الكلام ، وأبقينا عيوننا وآذاننا مفتوحة لكل ما يحدث أو يقال ..

وأثبت الشيبوى أنهم حقيقة أمهر الناس فى التجديف ، فقلت لماكنوت : لعلنا أسأنا الظن بتيوت وكارڤر !

ولكنه زجر فى وجهى ولم يجب .

www.ibtesama.com

ثم حدثت المفاجأة عند وصولنا إلى الطرف الجنوبى من بحيرة پيرپين ، حيث يصب نهر الشيپوى فى المسيسپى .

وكانت زوارق تيوت وكارڤر قد سبقتنا طول العصر بمسافة مذكورة ، وقبيل المساء رأيناها عن بعد ترسو فى ظل جرف عالٍ ، عند ملتقى النهرين . . ولما خرجنا بزوارقنا من مياه المسيسپى العكرة ، إلى تيار الشيپوى الرائق ، رأينا تيوت يقف على ضفة النهر فى انتظارنا . .

قال بوجوم : لدينا أخبـــار سيئة تضطرنا إلى تغيير خطتنا . .

ونظرت إلى ماكنوت فوجدت وجهه يحتقن ، فقلت له : لا تبرح القارب حتى يهدأ غضبك . .

وقفزت إلى الشاطئ ، وسرت مع تيوت إلى حيث يجلس كارڤر وجودارد وأثرتون بجوار النيران ، فما إن رأونى حتى أخذوا يتشاغلون بالنظر إلى أحذيتهم ، تلك الطريقة التى أصبحوا يلجأون إليها كلما أرادوا التهرب من الاشتراك فى أحاديثى مع زميلهم . .

قال تيوت : يأبى الشيپوى أن يستمروا فى رحلتنا عبر المسيسپى ، ورئيسهم يؤيدهم فى ذلك ، فليس أمامنا سوى

www.ibtesama.com

ترك المسيسپي ، والسير مع نهر شيپوى متجهين إلى نهاية بحيرة سوپيريور ، وهناك ننتظر إلى حين وصول المؤن . .

وأثار كلامه دهشتى البالغة ، فأخذت أنقل البصر بينه وبين زملائه الآخرين ، ولكن السكون ظل مخيما ، ولم يعكره سوى ضحكات الهنود ، وهم يحاولون صيد السمك الأبيض ...

قلت بصرامة : أستترك البحث عن أوريجون والممر الشمالى الغربى ؟ ؟ أوتتخلى عن الرحلة ومازلنا فى بدايتها ؟

قال تيوت : كلا بالطبع . . ولست أدرى كيف طرأت لك مثل هذه الفكرة . . فبحيرة سوپيريور أفضل مكان نبدأ منه رحلتنا إلى فورت لابارى . .

قلت : ولكنك بذلك تحيد عن الطريق . . ففورت لابارى تقع فى الشمال بعيداً عن وجهتنا . . وإذا توقفت عند بحيرة سوپيريور ، يتعذر علينا الوصول إلى جبال شاينج هذا الصيف ، أو حتى الاقتراب منها . . ولن تجد مفرا من العودة طول الطريق إلى شلالات سانت انتونى ونهر سانت پيتر . . رجائى ، ياسيدى اليوزباشى ، ألا تترك المسيسپي ، فلقد بتنا على بعد خطوات من سانت پيتر . .

www.ibtesama.com

قال تيوت برفق : أنت تطلب المستحيل يا صديقى ، فالبحارة يرفضون الذهاب إلى مناطق السيوكس .

قلت : إن كان هذا هو السبب الوحيد ، فدعهم ينكصوا على أعقابهم ، فباستطاعتنا أنا وماكنوت أن نذهب إلى شلالات سانت أنتونى ، ونأتيك برجال من الداكوتا . . من السيوكس . .

قال وهو يهز رأسه : يؤسفنى أننا فى احتياج إلى مؤن ، وبحيرة سوپيريور أفضل مكان للحصول عليها ، إذا كان فى نية الصاغ أن يبعث بها كما وعد . .

ونظرت يائسا إلى « الطرد » الكبير الذى أنزله من قاربه ، وكان يزن تسعين رطلا على الأقل ، وهناك حمولة قاربين غيره . .

قلت : ولكنك تحمل مؤنا كافية . .

وسمعت من خلفى أنفاس ماكنوت تعلو فى حنق ، وساقه الخشبية تضرب الأرض بشدة . .

قال : مؤن لا قيمة لها ، وتوافه لا يمكن الاستفادة بها فى أرض السيوكس . . واليوزباشى كارڤر لم يأت بشىء معه ، وما لدينا لا يكاد يكفينا إلى بحيرة سوپيريور . .

قال ماكنوت : ولماذا لا يمكنك الاستفادة بها ؟

www.ibtesama.com

السيوكس يزينون شعورهم بالورق ، ويسرهم أن ينالوا أبسط الهدايا وأتفهها . . ويكفيهم قطع من القماش أو بعض الأسنان الصناعية . . والله ، لأجعلنّ . .

ثم كفّ عن الكلام عندما سحبته من ذراعه . .

قات لتيوت : إذا كنت ترى الهدايا غير لائقة بالسيوكس ، فلماذا لا نبادل بها ما نريد عند شلالات سانت أنتونى ؟ عند مجىء التجار من ميكيليماكيناك ؟ ولسوف يصلون عن قريب ، ومن حق كارڤر أن يأخذ منهم ما يريد على حساب الصاغ ، مثلما فعلت أنت من قبل . .

قال تيوت : لماذا تظن يا صديقى أننا لم نفكر فى هذه الاحتمالات كلها ؟ لدينا سبب قوىّ يمنع كارڤر من أخذ بضائع على حساب الصاغ ، فالتجار لن يقبلوا إعطاءه . .

قلت : ولماذا يرفضون بعد أن أعطوك بهذه الطريقة ، وأجاز لنا الصاغ أن نأخذ مانريد على حسابه ؟

قال فى حلم : أجل ، ولكنهم أعطونى قبل أن يروا عدد الجنود المسافرين إلى ميكيليماكيناك . . . أكثر من سبعة آلاف منهم ذهبوا لحضور المؤتمر ، وإذا كان فى نية الصاغ أن يعطيهم هدايا ، فليس أمامه سوى التجار يشتريها منهم مقابل إيصالات على الوكالة الهندية ، أليس كذلك ؟

www.ibtesama.com

قلت : لست أدرى . .

قال جودارد : إنه السبيل الوحيد

قال تيوت : الوكالة الهندية فى يد سير وليام چونسون ، فإذا امتنع القائد عن اعتماد هذه الإيصالات ، تضيع حقوق التجار نهائيا . . ومعناه مزيد من الديون على الصاغ . . آلاف وآلاف من الجنيهات فوق ديونه الحالية . . ولهذا السبب يا مستر تاون ، يرفض التجار تمويل كارڤر . . ومادام الأمر كذلك ، فلا مفرّ من السفر إلى بحيرة سوپيريور فى انتظار ما يأتينا من الصاغ مباشرة . .

ولجأت إلى محاولة أخيرة يائسة ، قلت له : ولكنك تحمل من الهدايا ما يكفينا طول الرحلة . . وإذا اتخذنا طريق الميسورى ، تسهل علينا الحياة بعيداً عن المناطق الآهلة بالسكان . . فالأرض كلها غنية بالجاموس والطيور ، وليس أسهل علينا من صيدها . . وربما يكون الصاغ مدينا بآلاف الجنيهات ، وموقفه لا يحتمل مزيدا من الديون ، ولكن ، كيف تتوقع منه أن يدفعها ، ما لم نساعده على كشف الممر الشمالى الغربى ؟ يكفى أن نجد الدليل على وجود الممر ، أو تثبت فائدة البحث عنه فى منطقة نهر أوريجون العظيم . . وإذا استطعنا أن نفعل ذلك ، تنتهى

www.ibtesama.com

المشكلات كلها ، ولن يجرؤ شخص فى أمريكا كلها على رفض « إيصالاته » . . ستدفع ديونه مهما بلغت ، وإن امتنع سيروليام ينحّونه عن منصبه بلا أدنى تردد . . وصولنا إلى الممر يرفع الصاغ إلى سماء الشهرة ، ويجعله أعظم رجل فى القارة الأمريكية ، فلا يقوى أحد على إيذائه . .

قال تيوت — وهو يهز رأسه ببطء : ربما تكون على حق فى كلامك هذا ، ولكننا لا نخدم أغراض الصاغ إذا ذهبنا إلى الغرب ، وتوصلنا إلى اكتشاف الممر ، ثم عدنا بلا هدايا تؤمن طريقنا إلى بلادنا . . لم يبق مجال للمناقشة ، فرأينا استقر نهائيا على الخطة الجديدة . . إننى مكلف بقيادة هذه الحملة ، وعلىّ وحدى تقع المسئولية ، فلا يمكن أن أقامر بمصيرنا وراء حلم زائف . . وراء جاموس وطيور يحتمل ألا نجدها إذا ذهبنا . . لقد سبق أن خدمت فى فرقة المتطوعين ، وأظنك تعرف أن الصاغ يكره المخاطرة على غير أساس أكيد . . فن واجبى أن أحصل على التمويل الكافى لتأمين سلامتنا . . وبحيرة سوپيريور هي المكان الوحيد لحصولنا على بغيتنا . . ومادام

www.ibtesama.com

الأمر كذلك ، فعليك أن تعود إلى قاربك ، وتستعد للمسير مع شروق الشمس غدا .

قلت : أرجو أن تعيد التفكير فى الموضوع ، فالصاغ يكره المخاطرة بلا داع ، أما فى الحالات الاستثنائية فكان له رأى آخر . . مثلما حدث حين قادنا فى حملة سانت فرانسس ، ولم تكن أنت معنا ، فقد أقدم على مخاطرات لا يتصورها العقل . .

قال تيوت : لأنه لم يجد سبيلا غيرها ، فاذهب إلى قاربك ، يا مستر لانجدون ، وكن على أهبة الاستعداد للسفر إلى بحيرة سوپريور . .

ولست أدرى كيف تمكن ماكنوت من ضبط أعصابه ، فلم يخنق واحدا من قوادنا الأغبياء ؛ أما أنا فكنت أتمنى فى قرارة قلبي ، لو استطعت أن أرميهم برصاص بندقيتي . . أقتل تيوت وكارڤر وجودارد . . ومع ذلك بقيت صامتا ، ولم أجرُؤ حتى على إظهار امتعاضى . .

قلت : فى هذه الحالة ، يحسن أن أذهب مع ماكنوت

www.ibtesama.com

إلى سانت بيتر لإعداد الأمور قبل مجىء الصاغ . . ولسوف نترك له كلمة مع الداكوتا ، حتى يعرف أين يجدنا . . وحكما بما رأيته أثناء حملة سانت فرانسس من حرص الصاغ على كشف الطريق إلى المحيط الهادى ، أعتقد أنه يريدنا أن نتقدم إلى الأمام ، وأرجو أن نفعل ذلك ! . .

** معرفتي **
www.ibtesama.com
منتديات مجلة الإبتسامة

www.ibtesama.com

الفصل السادس

ظللنا إلى آخر لحظة نتمنى أن يعدل زملاؤنا الثلاثة عن رأيهم ، ويقتنع كارفر وجودارد وتيوت بضرورة التزام خطة الصاغ فى بحثنا عن الممر الشمالى الغربى . .

وفى صباح يوم الرحيل ، وقفت مع ماكنوت نراقب مسير قاربيهم المثقلين بالأحمال بين طبقات الضباب المتكاثف ، وعند تحركهم تبادلنا نحن الخمسة التحية بما وسعنا من أدب . . وخيل إلىّ أنهم يكتمون فى صدورهم غبطة شديدة . . مثل المقامرين حين تتكدس الأرباح على المائدة الخضراء أمامهم ، فيحاولون إخفاء سرورهم بها عن الجالسين معهم . .

ورجوت ماكنوت – واليأس يملأ قلبى – أن يكف عن شتائمه ولعناته ، وينصرف إلىّ تنظيم متاعنا فى القارب .

قلت له : نحن ذاهبون الآن إلى شلالات سانت أنتونى ، فوق منابع سانت بيتر ، فالصاغ أمر تيوت بقضاء الشتاء هناك ، ولذلك فهو المكان الوحيد الذى يحتمل أن نتلقى فيه كلمة من الصاغ مع أول تاجر يغادر ميكيليما كيناك .

www.ibtesama.com

قال ماكنوت – وهو يستحث زوجه على الإسراع فى تنظيم القارب بصفعة شديدة على وجهها : هؤلاء الصعاليك ، يا لانجدون ، يبيتون أمرًا . . ومكيدتهم واضحة فى نظراتهم وفى تصرفاتهم . . لقد اتفقوا على غرض فيما بينهم ، ومن أجل هذا الغرض يصرون على السفر إلى أرض الشيپوى . .

وأردف يقول بعد لحظة تفكير : تُرى لماذا يريدون الذهاب إلى أرض الشيپوى ، يا لانجدون ؟ وما دافعهم الحقيقى إلى الابتعاد عن المسيسبى ؟ تعللهم بقلة المؤن والعتاد أكذوبة كبرى .. ولست أعتقد أنهم يخافون من السيوكس ، فلقد رأينا كارڤر معهم على خير حال ، ولا جدال فى أنه يعرف مثلنا شهرتهم فى إكرام ضيوفهم ، فلا يعقل أن يخشاهم أو يتوقع الشر منهم . .

ثم تريث قليلا ، وعاد يقول : والله ، لست أفهم ! فكارڤر أعطى السيوكس هدايا كثيرة . . ولعلك تذكر كيف رأيناهم يرتدون الأقمصة الملونة ، ويعلقون المرايا فى صدورهم ، ويزينون رءوسهم بالسلاسل النحاسية . . ولكنهم لم يعطوه شيئاً مقابل منحه السخية ، وهو وضع

غير طبيعى ، فلابد من سبب وجيه لتصرفهم هذا . .

* * *

عند وصولنا إلى شلالات سانت أنتونى ، تكشف لنا السر الخفى ، وعرفنا ماكان يكتمه الثلاثة عنا ، ولكننا استطعنا - بمعونة أيزليل سولومون ، والرسائل التى جاءنا بها - أن نسترد ثقتنا بأنفسنا ، بعد أن كدنا نفقدها تماما . .

فقد كان من عادة الهنديات ، فى مقتبل الربيع من كل عام ، أن يجلسن فى جماعات كبيرة عند شلالات سانت أنتونى ، يملين عيونهن بجمال المياه المثلجة فى هبوطها إلى المسيسپى من ارتفاع ثلاثين قدما . . ويتسلين بصيد آلاف الأسماك من البحيرة القريبة . . أما السبب الرئيسى ، فكان انتظار طلائع التجار الوافدين من مكيلماكيناك بأحمال الأصباغ والثياب والخرز والأقمشة الحمراء العريضة . .

ومن أولئك النسوة ، سمعت الأميرة ماكنوت حقيقة الموضوع . . تلك الحقيقة التى خجل وانوتان من الاعتراف بها ، وخشى الهنود مغبة الإفضاء بها إلينا . . فعرفنا لماذا سُمّى كارفر « شارى القمر » ، وكيف هبطت عليه مظاهر العظمة فجأة ، ولأى غرض أصر هو وجودارد على تغيير طريقنا من المسيسپى إلى الشيپوى . .

www.ibtesama.com

وملخص القصة أن كارڤر — قبل التقائنا به فى شهر مايو عند منابع سانت پيتر — اجتمع بفريق من السيوكس يسمونه « عشائر النهر » . . وغمرهم بالهدايا ، ولكنه احتفظ لنفسه بقدر كبير من الأشياء التى يهمهم الحصول عليها . وأبلغهم عن طريق مترجمه ، رغبة الأب الأبيض بميكيليماكيناك فى تدعيم السلام بين السيوكس والشيپوى ، وأفهمهم أنهم إذا لم يوقفوا حروبهم ، فلن يسمح للتجار بزيارة أراضيهم . .

ويرجع النزاع بين الفريقيْن إلى الأراضى الممتدة وراء الضفة الشرقية لنهر المسيسپي ، وادّعاء كل منهما حق الصيد فيها . . وتقع هذه الأراضى بين شلالات سانت أنتونى ونهر شيپوى ، ثم تعبر المسيسپي إلى الداخل فى مساحات لا تقل عن مائة ميل مربع . . وكان للشيپوى مدن كثيرة تنتشر فى ربوع هذه المنطقة ؛ والسيوكس يعيشون على الشاطئ عند أطرافها ؛ ولما استفحل العداء بين الشعبين ، تعقد الموقف وأصبح خطيرا . . فكلما دخل السيوكس هذه المنطقة يعتبرهم الشيپوى معتدين ، وكلما مارس الشيپوى حقهم فى الصيد بين ربوعها ، يعتبرهم

www.ibtesama.com

السيوكس كذلك معتدين . . وتكررت الحروب بينهم لهذا السبب ، وفى كل مرة يعمل الطرفان على إغراء حلفائهم بالاشتراك معهم فى قتال أعدائهم فتتسع الشقة ، ويتفاقم الخلاف . .

ولما أبلغ كارڤر عشائر النهر رغبة الصاغ فى وقف الحروب بينهم وبين الشيپوى ، تقدم إليه اثنان من زعمائهم الشباب ، اكتسبا شهرة واسعة فى سرقة الجياد والتنكيل بالأعداء ، واقترحا رأيا جديداً : وهو أن يشترى كارڤر الأرض المتنازع عليها مقابل ما تبقى معه من الهدايا الجميلة ، بشرط أن يحتفظ للفريقين بحق الصيد فيها . . وكانت صفقة خيالية فى ربحها ، ففرح كارڤر ، وحرر شروطها باللغة الإنجليزية ، وجعل الزعيمين الشابين يوقعان عليها باسميهما . .

قال ماكنوت : هاك تفسير الاسم الذى حيرنا ، فشارى القمر الغبي يتوهم أنه اقتنص صفقة مربحة ، وأصبح بفضلها من أهل الثروات الطائلة :

قلت : ولم لا تكون صفقة حقيقية ، ما دام الزعيمان قد وقعا عليها ؟

www.ibtesama.com

وترجم ماكنوت السؤال لزوجه ، وبعد أن استمع إلى إجابتها ، قال : أجل ، وقعا ، ولكن باسمين خياليين ، لا وجود لهما فى الحقيقة !

وأخذ يتأمل زوجه لحظة ، وأردف يقول فى زفرة تفيض بالأسف : انظر إليها ، يا لانجدون ، انظر كيف تأثرت بأخلاق الشيبوى ، فانعدمت فيها القدرة على التمييز بين الخطأ والصواب . . إنها تعتبرها قصة مسلية ، وتضج بالضحك لفرط سرورها . .

ونظرت إليها ، فوجدتها على عكس ما يقول ، جامدة الوجه تحملق أمامها صامتة . .

قلت : ولكنها لا تضحك . .

قال : لا تضحك ؟ إنها ، يا صديقى ، تكاد تنفجر ضحكا . . لا تحكم بوجهها ، وضع يدك على معدتها ، تجد الضحك يرج جوفها رجًّا !

قلت مسلما برأيه : ولكن كيف يتصور هذا الغبى كارڤر أنه اشترى مائة ميل مربع . . منطقة تزيد فى مساحتها على مقاطعة نيوهامبشاير . . بقليل من الملاءات والمرايا والأوراق الملونة ؟

www.ibtesama.com

قال ماكنوت : ولمَ لا ؟ ألم يصدق قصة بيناشون عن الحية ذات الأجراس ؟ ولأى سبب يحنث عشرة من زعماء عشائر النهر بوعودهم له ، فيسافرون إلى نيو أورليانز بدل ميكيليماكيناك ، إلا إذا كانوا يريدون الهروب قبل أن يفتضح الأمر ؟ لو كنت منهم ما انتابنى أدنى قلق ، فكارفر أغبى من أن يكشف السر وحده ، ولن يصدقنا إذا حاولنا مصارحته بالخدعة . . وأنت تعرف كيف يشتط الأغبياء أمثاله على من يفضح لهم غباءهم . . ثم إن هذا الأبله ذا العينين الجاحظتين ، أبلغ أصحابه الثلاثة : تيوت ، وجودارد ، وآفرتون ، قصة صفقته الماهرة ، فاستبد بهم الطمع ، حتى تخلّوا عن مشروع الممر الشمالى الغربى . . إنهم مصرون على السفر إلى نهر شيپوى ، ليتفرجوا على ممتلكات كارفر !! . . اتفقوا على ذلك قبل أن يغادروا برية الكلب ، وأراهنك على أنهم وزعوا الثروة فيما بينهم بحيث يحصل كل منهم على مائة ألف من الجنيهات على الأقل ! . . احسبْها بنفسك إن شئت ، فمساحة المنطقة تزيد على ستة ملايين من الأفدنة ، ومن السهل أن يبيعوا الفدان بشلنين لأهل مقاطعة نيو إنجلند التى ينتمى

www.ibtesama.com

إليها كارڤر ، فأغلبهم من المغفلين أمثاله ! .

وتطلع إلىّ ماكنوت بوجوم ، وعاد يستأنف حديثه قائلا : أتعرف ما يعتزمون عمله ، يا لانجدون ؟ أراهنك أنهم لن يسيروا ميلا واحدا نحو الغرب . . وجدوا هذه الأرض بين أيديهم ، ففقدوا اهتمامهم بمشروع الصاغ ، واعتبروه مضيعة للوقت . . وإن صدق ظنى ، فالصاغ المسكين يقف الآن بين عدوين لدودين : تيوت وجودارد وكارڤر يطعنونه فى جنبه الأيمن ، وسير وليام چونسون وجنرال جيچ وذلك الفأر الخبيث روبرتس يطعنونه فى جنبه الأيسر . . إنه وضع سيئ . . سيئ للغاية ، يا لانجدون .

ولم يكن من المعقول أن ينحط كارڤر إلى هذا الدرك ، ولكنى عدت وتذكرت كيف رأيته مرارا يلجأ إلى أحقر الوسائل وأخبثها فى تحقيق رغباته ، وقد أخبرنى الصاغ أنه لا يتورع عن إتيان الكبائر فى سبيل التخلص من مهنة التدريس وما تجلبه عليه من فقر مدقع . . أما تيوت فكنت أعرفه دائما دنيئا ، ولا أتوقع منه غير الدناءة . . فهل أهل العالم كلهم بهذه الأخلاق ، يؤثرون

www.ibtesama.com

كومة من الشلنات اللامعة على اكتشاف عالم جديد عظيم ؟ !

قلت لماكنوت : مازال أمامنا رجل واحد لا يمكن أن ينسى الممر الشمالى الغربى ، أو يتخلى عنه ، إنه الصاغ ، والحمد لله أننا نستطيع الاعتماد عليه ، فدعنا ننتظر حتى تصلنا أنباء منه ، وبعدها نسير إلى هدفنا الكبير . .

* * *

كان أول من وصل إلى شلالات سانت أنتونى ، تاجر يهودى ضئيل الحجم ، اسمه أيزكيل سولومون ، قضى الشتاء عند بحيرة سوپيريور بالقرب من ميكيليماكيناك ، ثم عاد إلى القلعة فى الوقت المناسب ، ولم يلبث أن شد رحاله إلى المسيسپى ، مدفوعا بذلك النشاط التجارى المعروف عن أهل طائفته . . ولفرط سعادتى ، وجدته يحمل إلىّ رسالتين ، إحداهما من الصاغ والثانية من آن . . وأخبرنى أن الصاغ بعث بنسخة أخرى من رسالته إلى بحيرة سوپيريور ، خشية أن أكون قد رحلت إليها قبل وصول التاجر اليهودى إلى شلالات سانت أنتونى . . والواقع أننى لم أعِ نصف كلامه ، لانشغالى برسالة آن ، وتكهنى بما تتضمنه من أخبارها ، وتمنيت لو ن

يدير التاجر ظهره نحوى ، حتى ألقى نظرة على ما جاء فيها .

ومع ذلك سمعته يقول : إنها غاية فى اللطف . . سيدة مهذبة صغيرة . . لم أر لها مثيلا فى حياتى . .

قلت بحرارة : صدقت ، فهى كما تصفها تماما . . وخشيت أن أكون قد تماديت فى إظهار لهفتى ، فأضفت فى لهجة أودعتها نبرات العطف الأبوى : فتاة صغيرة مؤدبة . . وكيف كان حالها حين رأيتها ؟

قال سولومون : بخير . . وفى صحة جيدة . . ليتها كانت ابنتى !

وتأملنى مدققا بعينيه الضيقتين اللامعتين ، وقال : إلحاحها يجعلها ذات فائدة عظيمة فى الأعمال التجارية . .

قلت : إلحاحها ؟ ! إنهافتاة صغيرة هادئة يا مستر سولومون ، ولا أظن الإلحاح من صفاتها . .

قال سولومون : أنت لا تعرفها إذن . . فالفتاة ليست صغيرة كما تظن ، وليس من يباريها فى الإلحاح إذا كانت تريد شيئا . . كإرسال خطاب إليك مثلا ! !

قلت : لأأظنها تعمدت مضايقتك !

قال : لم تضايقنى قط . . ولكن من حسن حظى أن

وجدتك هنا ، حتى لا أضطر إلى قضاء الأسابيع فى الكتابة إلى الآنسة پوتر بما سمعته من أخبارك : من قابلت من الناس . . وماذا كنت تفعل . . وأين تذهب . . ومتى تعود . . وكم صورة رسمتها فى أثناء غيابك . . وهى كما ترى مهمه شاقة لا تترك أمامى متسعاً من الوقت للتجارة . .

قلت — وأنا أضحك فى حرج : لك الشكر على كل حال ، وكرم منك أن أتيتنى بهذه الرسالة .

قال فى تهكم : تشكرنى ؟ لا تشكرنى يا سيدى ، بل اشكرها هى . . ليتك رأيت وجهها عندما رفضت أن أحمل رسالتها ، وكيف حملقت فى وجهى وفى عينيها مشاعر عجيبة . . . مشاعر صامتة ، ولكنها نفاذة متغلغلة . . . أحسست كأنها تدخل هنا . . وهنا . .

وأشار بيده إلى حلقه وعينيه ، وقال : وبدون أن أسمع منها كلمة ، انهمرت الدموع من عينىّ ، ووجدتنى أبكى كالطفل !

وتجلت الحيرة فى وجهه ، وعاد يقول : إنها تملك قدرة عجيبة تختلف عن غيرها ، مثلما نملك نحن اليهود القدرة على تمييز البضاعة الأصيلة بمجرة لمسة من أصابعنا . .

www.ibtesama.com

وذكرني حديث سولومون بوجه آن العامر بالكبرياء ، وابتسامتها الهادئة الصامتة . فأحسست بغصة فى حلقى ، ولم أقوَ على النطق . . واشتدت بى الرغبة فى فتح رسالتها وإلقاء نظرة على محتوياتها مهما كانت ضئيلة ، فمددت أصابعى إلى المظروف ، وأزلت غطاءه ، وأخرجت الورقة من داخله ، فوجدتها تبدأ خطابها بهذه العبارة :

« لاتجدون ، يا أعز الأعزاء » .

وفى لحظة خاطفة زال كل ما كان يعترينى من قلق وحيرة ، ورأيت الدنيا جميلة حولى ، وشعرت كأننى لم أشهد فى حياتى منظراً أروع من شلالات سانت أنتونى بمياهها المثلجة الهادرة وخضرة الربيع المنبسطة على جانبيها . كانت الدنيا تضحك أمامى ، فلم أملك إلا أن أضحك لها بدورى والسعادة تغمرنى من رأسى إلى قدمىّ .

واكتفيت بهذا القدر فى تلك اللحظة : فطويت الرسالة ، وأعدتها إلى جيبى ، وكان سولومون قد أخذ يبتعد عنى نحو قاربه ، فقلت له : انتظر لحظة . تعال وحدثنى عن عن الصاغ ، فكيف تسير به الأمور فى ميكيلماكيناك ، وماذا لديك من أخبار المؤتمر ؟

www.ibtesama.com

قال : لم تصلنى الأخبار بعد ... ولكن بحيرة متشيجان تكتظ بالهنود ، وقواربهم تكاد تسد المضايق . . إنه حدث فريد فى نوعه ، حدث خطير لم يسبق له مثيل فى أى مكان آخر .

قلت : وما رأى الهنود فى الصاغ ؟

قال : إنهم يعتبرونه أعظم رجل على وجه البسيطة .

قلت : جميل . . جميل جداً . . فالصاغ حقيقة رجل عظيم . . لقد وُلد زعيماً ، ومهارته فى السياسة تدعو إلى الإعجاب .

فهز سولومون رأسه ، وتشاغل بشد سرواله الجلدى ، وأخذ يتمتم بضرورة تفريغ شحنة قاربه ، وهو ينظر نحو السماء ساهما .

قلت فى قلق : ماذا حدث فى ميكيليماكيناك ؟ وهل من متاعب تضايق الصاغ ؟

قال : كيف أنتقد الصاغ بعد ما تخطى أوامر چونسون وسهل لنا السفر ، فأنقذنا من الإفلاس .

قلت : كلامك ينطوى على معنى ، فكن صريحاً وحدثنى بما عندك .

www.ibtesama.com

قال : لست أعرف غير ما علمنيه جدّى . . كان حاخاماً . . حاخاماً عظيم الشأن .

وقرب يديه من ذقنه ، وفتح أصابعه كما لو كان يحمل فيهما كرة ضخمة الحجم ، ففهمت أن جده كان ذا لحية كثة .

وأردف يقول : سمعت جدى يؤكد أن السياسىّ أو الجندى إذا استقل برأيه ، وتصرف على هواه ، لا يكسب طول حياته سوى حقد الآخرين وضغينتهم .

قلت : ربما ، ولكن الاستثناء جائز فى الحالات الخاصة . . والصاغ ليس بالرجل العادى .

قال — وهو يهز يده فى تشكك : سمعت جدى يؤكد أنها قاعدة لا تقبل الاستثناء .

وسار إلى قاربه يفرغ حمولته ، وعنقه القصير يبرز من بنيقة قميصه مثل عنق الزجاجة الشحيمة .

وساورتنى المخاوف فاكتفيت بلمس خطاب آن من فوق صديريتى الجلدية ، وأخرجت رسالة الصاغ ، وفتحتها ، وأخذت أقرأ ما فيها .

* * *

كتب إلىّ روجرز يقول :

www.ibtesama.com

« صديقى المحترم . . .

يسرنى أن أهنئك بنجاح مسعاك طول الشتاء ، فالهنود يفدون علينا بالآلاف من الشمال والجنوب والشرق . وكذلك من الغرب . . والقلوب كلها تنطوى على رغبة فى السلام ، مما يوسع الآفاق أمام التجار ، ويؤمن رحلاتهم من الآن فصاعداً . . إنه منظر رائع ، وصدرى يفيض فخراً بتوفيقى فى تصفية الخلافات ، ورفع لواء السلام فوق ربوع إخواننا الحمر . . أنباؤنا ليست كلها طيبة ، فالثعبان المنافق روبرتس ، عينوه مندوباً عسكريا بهذه المنطقة ، ونحن نتوقع وصوله فى أى لحظة . . ولكنى لن أسمح لهذا المندوب أو لغيره بالسيطرة علىّ ولن أمكنه من مضايقتى بأوامره الغبية ، .ولسوف ترى كيف أنتصر عليه فى النهاية . . لقد كتبت إلى اليوزباشى تيوت أبدى له قلقى على تأخره فى موافاتنا بما حصل عليه من البضائع مقابل هداياه . . فأرجوك ، يا لانجدون ، أن تهتم بهذا الموضوع ، إذا لم يكن قد أرسل البضائع بعد ، فباشر المهمة بنفسك ، وأنجزها بسرعة . . والأمر كذلك فيما يختص بكارفر ، فأنا لا أستطيع السفر إلى الغرب قبل حصولى على ما جمعه الاثنان من بضائع ، وبغير هذه البضائع أكون مضطراً

www.ibtesama.com

إلى التأخير ، لعدم توافر المال الذى بذلت المستحيل فى تدبيره . . وحالما يتحقق الغرض ، ألحق بكم ، لنسير معا حتى نصل إلى هدفنا ، ولو زحفنا طول الطريق على ركبنا . .

وإلى أن تحين الساعة الموعودة ، أرجو أن تمضوا قدما فى طريقكم إلى كشفنا العظيم . . اعتبرونى معكم ؛ وإياكم أن تتهاونوا . . لا تدعوا عقبة تقف فى طريقكم ، ولا تسمحوا لشجاعتكم أن تخونكم ، حتى لا تمنوا بالفشل الذريع فى محاولتكم . . أما أنباؤنا الأخرى فعلى ما يرام ، وكل شىء هادئ عندنا ، ومسز روچرز تبلغك أطيب تمنياتها . . .

وختاما أرجو أن تتقبلوا ، يا سيدى ، أسمى عبارات التقدير من خادمكم المطيع . .

روبرت روجرز » .

* * *

وجلست أنظر إلى ما خطته يد الصاغ فى رسالته ، وقلبي عامر بذلك التقدير الذى انتزعه منى أيام حملتنا إلى

www.ibtesama.com

سانت فرانسس ... فهو ما زال ذلك الرجل الذى لا تهزمه الصعاب ، ولا تفرغ جعبته من الحيل ... ذات الرجل الذى دفعنى عن ظهر العـائمة الملطخة بالسناج ، فى أثناء دورانها الجنونى مع دوامات النهر الغاضب ، وبمعجزة قفز إلى البر خلفى بجسده الجريح الهزيل ، وصاح فى بلوز — ضابط القلعة رقم ٤ — يقول : رجالى فى حاجة إلى الطعام ، وقسما بالله إذا لم تبعثوا إليهم بحاجتهم منه ، فلسوف أسطو على كل بيت فى هذه القاعدة ! !

ووجدته لم يتغير . . لم يتغير فى قليل أو كثير ، فضحكت مسروراً ، وعدت إلى الرسالة أقرأ ثانية ما تضمنته من عبارات تتجلى فيها شخصيته الحقيقية : « القلوب كلها تنطوى على رغبة فى السلام » . . . « منظر رائع » . . « هـذا الثعبان المنافق » . . . « لا تسمحوا لشجاعتكم أن تخونكم » . .

وعادت بى الذكريات إلى الماضى ، فخيل إلى كأننا نجلس فى خان الدب الأبيض ، وروجرز يسألنى بصوته الأجش عن هجاء بعض الكلمات التى ما زال حتى اليوم

www.ibtesama.com

يخطئ فى كتابتها . . . كلا ، إنه رجل لا يتغير ، وما زال القائد العظيم الذى عرفته فى سانت فرانسس . . ويقينى أنه قادر على قيادتنا إلى وجهتنا ، حتى إذا اضطررنا على حد قوله ، إلى الزحف على ركبنا طول الطريق . . . فبروحه الغلاب يستطيع أن يُحيي أعظم المطامع والأمانى فى نفس أى إنسان حتى تيوت وجودارد . .

وشعرت بالاطمئنان على الصاغ ، فوضعت رسالته جانبا ، وأخرجت خطاب آن من جيبى ، وقد تذكرت سولومون حين قال عنها : « فى عينيها مشاعر صافية ، ولكنها نفاذة متغلغلة » . . . وإذا كان لى أن أحكم بارتجافة يدى ، فالرجل لم يذكر سوى بعض الحقيقة . .

كتبت تقول : « لانجدون ، يا أعز الأعزاء . . . يؤسفنى أن أبعث إليك بهذه الرسالة القصيرة ، فقد كان فى نيتى عند رحيلك ، أن أسجل يومياتى بالتفصيل ، وأوافيك بها ، حتى تعرف أخبارنا كلها : كيف كان الجو بارداً عندنا ، وأى نوع من الهنود أتوا إلى القلعة ، وهل يصلحون نماذج للرسم . . . وتعرف أيضاً شعورى

www.ibtesama.com

وأنا أكتب إليك ، وكم أفكر فيك بالليل والنهار وفى كل لحظة ، وكيف أحسست على أثر سفرك كأننى أموت . . . وظل هذا الإحساس ينتابنى على فترات متقاربة ، فأسجله دائماً فى يومياتى ، لعلك تقرؤها فى يوم من الأيام فتعرف حقيقة حالى .

أما لماذا لم أبعث إليك بيومياتى ، فلأننى فقدتها . . . كنت أخبئها تحت حشية سريرى ، وذهبت ذات يوم لإخراجها ، فإذا بها اختفت . . . واستبد بى الحزن الشديد ، وثقلت علىّ وطأة ضياعها ، لعدم وجود من أستطيع التحدث إليه عنها ، فتملكنى اليأس ، وشعرت كأننى أموت . .

جاءنا هنود كثيرون ، ولكنهم جميعاً فقراء لا يصلحون للرسم ، والذين سبق أن رسمتهم وأنا معك ، أنظف منهم وأجمل شكلا . . .

لا تتصور كم افتقدتك ، أيها العزيز . . افتقد الألوان التى ترسم بها الناس ، فتجعلهم ينبضون بالحياة على الورق . . وكلما رأيت هنديا من النوع الذى يعجبك ، يهبط قلبى ، وأحس كأننى أموت . . . فرجائى أن

www.ibtesama.com

تكون قابلت كثيرين ممن يصلحون للرسم ، وإلا فلدينا الآن منهم عدد وفير . .

لقد حزنت على ضياع يومياتى ، لأننى ذكرت لك فيها كيف أمكننى أن أتقن تقليد خادمتنا الهندية . . وكذلك طاهيتنا الفرنسية ، فأنا الآن أقلدها تماماً ، وأزمجر مثلما تزمجر عندما تذهب إليها مسز روچرز ، وتؤنبها على استهانتها بطهو الحساء . . . وأقلد أيضاً مسز كاردين ، وهى صديقة فرنسية للصاغ ، يستعين بها على ترجمة أحاديثه مع الهنود . . وأحيانا تحمل إليهم الروم . . وأظنك ستعجب بتقليدى لها ، فهى سيدة غاية فى النعومة ، ولها طريقتها الخاصة فى النظر إلى الناس ، ودائماً ترمش بجفنيها ، وتتكلم بتكلف ، وخاصة حينما تمتدح ثياب مسز روچرز ، وتؤكد أنها ترتديها بطريقة تشيع حولها جوا من العظمة والجلال . . . ومسز روچرز ، تحبها كثيراً ، وتزورها فى بيتها وتلبى دعواتها ، ولم أرها تغضب منها أو تثور عليها مثلما تفعل مع السيدات الأخريات . . .

www.ibtesama.com

من دواعى الأسف أن صحة مسز روچرز ليست على ما يرام ، فهى تشكو أحيانا . من ألم فى ظهرها ، وأحيانا أخرى يعذبها الصداع ، أو ينتابها الإغماء . . . وكلما شفيت من مرض تصاب بآخر ، مما يعكر مزاجها معظم الوقت ، ويجعل صحبتها غير مسلية . . . إنها تكره الحياة هنا ، وتحتقر الجنود وزوجاتهم ، وتعتبرهم رعاعاً . . . ولكن الصاغ يحبهم ، وتعجبه صحبة زوجات الجنود ، لأنهن مرحات يرقصن ويغنين ويشربن الروم ، وعند ما يصفعهن الصاغ على وجوههن لا يغضبن ، بل يضحكن عاليا ، ويصفعنه كذلك . . .

الشتاء يمضى بنا فى هدوء ، والصاغ فى ملل لا يجد ما يعمله سوى النوم من العصر إلى صباح اليوم التالى . . . وأحيانا يذهب إلى القرية ، فتعوقه الثلوج عن العودة ، ويضطر إلى المبيت هناك . . . بودى لو وجد عملاً فى مكان آخر ، فحياة الكسل تضايقه ، والناس هنا ليسوا فى مستواه . . . وعند ما يقف معهم يخفيهم بشخصيته فيتلاشون ، ولا ترى العين سواه ، مما يؤكد

www.ibtesama.com

أنه رجل عظيم . . ولكنه غير مرتاح ، ويخيّل إلىّ أحيانا أنه كإبريق الماء على النار ، ظاهره هادئ ، وباطنه غليان ، فالفراغ يحيِّره ، ولقلة المشاغل تراه فى أثناء وجوده بالبيت يطوف الغرف مراراً . . وقد لا تشعر بوجوده مطلقاً ، ثم تجده أمامك فجأة ، يحملق فيك ساهما . . وفى بعض الأوقات يستبدّ به الضيق ، فيصيح فينا غاضباً ، ثم يعود ويعتذر بأنها حالة طارئة لا تلبث أن تزول . . وأعتقد أنه قلق على أمرٍ يخشى أن يتعطل . . ومنذ أسابيع بعث بأبى إلى بحيرة سوپيريور ، ليتفاهم مع الهنود ، وأظنه فعل ذلك ليبعده عنا لسبب تهالكه على الخمر ، فقد دأب فى العهد الأخير على الإفراط فى الشرب ، حتى يفقد وعيه ويسقط أمام البيت فى العراء ، ويظل نائماً فى مكانه إلى مطلع النهار . . واشتد به السعال عن ذى قبل ، وساءت حاله ، ولم يكن لدينا من يُعنى به ، فاضطررت — باعتبارى ابنته — إلى تمريضه على قدر الإمكان . . وأتت جهودى ببعض النتائج الطيبة ، فتحسنت صحته إلى حدّ ما ، ثم بعث به الصاغ إلى بحيرة سوپيريور . . وربما تتحسن حالته بعد أن يعود ، إذا استطعت أن أبعده عن الروم ،

www.ibtesama.com

وأقنعه بضرورة العناية بصحته . ويقيني أنني لن ألتقط العدوى ، فصحتي كانت دائماً قوية ، ولم يسبق لى أن أصبت ببرد أو مرضت .

الصاغ يعاملنى بغاية العطف والحنان ، ويتحدث إلىّ برفق ، وفى بعض الأحيان أضيق به ، وأتمنى لو ابتعد عنى ، ولكنى واثقة من أنه لا يقصد سوءاً ، وغرضه الوحيد أن يسليني فى وحدتى .

لانجدون ، أيها العزيز . . آه لو تعلم كم أفتقدك ، وكم أشعر بالحزن لضياع يومياتى ، فلقد كنت أريد أن تقرأ فيها مدى حزنى لغيابك . . ولكنها ذهبت مع الأسف ، ولن تستطيع يوماً أن تعرف حقيقة المشاعر التى عذبتنى بعد رحيلك .

رجائى أن تكتب إلىّ إذا وجدت فسحة من الوقت ، وكان بودى قبل رحيلك أن أطلب إليك هذا التذكار العزيز ، ولكنى نسيت ، ولما تبيت غلطتى بعد فوات الفرصة ، شعرت كأننى أموت . . فهل أطمع فى أن ترسم لوجهك صورة فى ورقة صغيرة يمكن وضعها داخل الظرف ،

www.ibtesama.com

وترسلها إلىّ ؟ ؟ تأكد أننى سأخفيها فى مكان لا تستطيع يد أن تمتد إليه ، حتى لا تضيع كما ضاعت اليوميات .

إننى أفتقدك دائماً ، وأتمنى أن تكون بخير ، والجو عندكم طيب ، ونشاطك فى الرسم مستمر . . آه ، لو أمكننى أن أراك ، وأمتع نظرى بالصور التى رسمتها فى غيبتك !

المخلصة آن »

* * *

قرأت الرسالة مراراً وتكراراً . . وفى كل مرة تزداد العواطف تأججاً فى صدرى ، لصراحتها التامة فى وصف وحدتها القاسية بعد رحيلى . . وصراحتها فى إظهار اهتمامها برسومى وصحتى وسعادتى ، ورغبتها الملحة فى الحصول على رسم لى . . ثم يثور غضبى لما ذكرته بلباقة من ضياع يومياتها ، وكيف تشقى لعدم وجود من تحدثه عنها . . فلماذا تحرم الفتاة من الصديق الذى تركن إليه فى الضيق ؟ ولماذا ، بحق السموات ، تعجز إليزابيث عن منح الفتاة المحرومة بعضا من العطف الذى يتمتع به غيرها ؟

ورأيتها بعين الخيال تجلس وحيدة فى غرفتها المظلمة . .

www.ibtesama.com

بلا صديق أو أنيس . . تسلى نفسها بتقليد مسز كاردين ، وإذا ألح عليها الضيق تلجأ إلى المطبخ ، وتقضى فيه الساعات ولا شاغل لها سوى التقاط ما تقوله الطاهية ، وتقليدها فى نوبات غضبها .

والواقع أن قدرتها الخارقة على تقليد الناس ، أكسبتها مهارة ملحوظة فى وصفهم بقلمها ، حتى لتحس أن الكلمات التى تسطرها على الورق تحمل بين ثناياها من الأصوات الحية والمشاعر المجسمة ، ما يتغلغل فى النفس ، ويحدث الأثر المطلوب فيها . .

ولم أجد غرابة فيما تعانيه إليزابيث من متاعب صحية . . إنه وضع طبيعى لرغبتها فى استدرار عطف الآخرين عليها . . ولقد فهمت مسز كاردين أخلاقها على حقيقتها . . فأراحت قلبها بنفاقها فى الثناء عليها . . ولكن ماذا عن الصورة التى رسمتها آن للصاغ ؟ قلقه وصمته . . وقضاؤه الساعات فى الطواف بغرف البيت . . إرساله يوتر السكير المريض إلى بحيرة سوبريور ذات الجو القاتل فى برودته . . اختلاطه بزوجات الجنود الصغار . . وسكره معهن . . أتراه يلجأ إلى هذه التصرفات الحمقاء هرباً من نفسه ؟ هرباً مما

www.ibtesama.com

أصابه من خيبـــة الأمل ، باضطراره إلى البقاء فى ميكيليما كيناك طول الشتاء ؟ . . هل أثقل عليه الحزن حتى أخرجه عن طوره ؟ لا أظن ذلك ، ولا بد من سبب آخر ، فعهدى بروچرز شجاعاً فى محاربة الصعاب مهما بلغت . . فلا قلة العمل أو خيبة الأمل تستطيع أن تحطم البطل العظيم الذى قادنا بقدرته الفائقة عبر أحزان حملة سانت فرانسس ، وصارع أخطارها حتى وصل بنا إلى بر السلام آمنين . .

ولكن جملة فى رسالة إليزابيث أثارت قلقى وشجونى ، وجعلتنى أعود إلى قراءتها مراراً وأنا أتساءل فى حيرة عما خفى من معانيها ! ترى ماذا كانت ترمى إليه بقولها : « الصاغ يعاملنى بعطف — وفى بعض الأحيان أضيق به ، وأتمنى لو ابتعد عنى . . ولكنى واثقة من أنه لا يقصد سوءاً » . . ترى أى أسلوب يسلكه فى العطف عليها ؟ إنها محرومة من العطف ، فلماذا ترفض العطف عندما يأتى إليها ؟ وأى نوع من العطف هذا الذى يجعل الفتاة تخطئ فى فهمه ، ثم تعود وتؤكد ثقتها فى براءة أغراضه ؟

وساورتنى هواجس مزعجة ، فحاولت أن أضحك من

www.ibtesama.com

نفسى ، وأعلل قلقى بمنطق المحبين وديدنهم على التشكك فى أبسط الأمور وأتفهها . . وبهذه الروح طويت الرسالة ، وأحكمت وضعها داخل جيب قميصى ، ثم أخرجت أقلامى ومرآتى ، وجلست أرسم لنفسى الصورة التى طلبتها آن . . وشغلنى العمل ، فهدأت مخاوفى ، واطمأن قلبى . .

وأخذت أناقش نفسى فى خطأ هواجسها . . لماذا لا يبدى الصاغ عطفه على آن ؟ وأى غضاضة فى ذلك ؟ . . لقد كان أبدا عطوفاً علىّ ، يعاملنى برفق الأب وحنانه . . يفهمنى ويقدرنى ، هذا ، ولا شك ، شعوره نحو الفتاة . . العطف الأبوى البرىء . . يدفعه إليه سلوك زوجه نحوها ، وإهمالها شأنها ، واستهانتها بها . . ولعله أراد أن يعوضها عن ذلك إكراماً لصداقتنا .

إنها الصداقة ، ولا شك ، فالرجال يساندون إخوانهم دائماً . .

وغمرنى الهدوء النفسى ، فمددت يدى إلى صدرى ألمس رسالتها ، وأستعين بحرارتها على الصمود للرحلة الطويلة . . الطويلة جداً ، التى نعتزم بدءها فى الصباح التالى . .

www.ibtesama.com

الفصل السابع

انقضى شهر منذ رحيلنا عن نهر المسيسبي متجهين إلى أعالى نهر سانت پيتر ، والشعور يخالجنا بأن خطة الصاغ على وشك النجاح . . كنا واثقين بقدرتنا على بلوغ جبال شايننج واختراقها ، والنزول مع أوريجون العظيم حتى يصب فى المحيط الغربى . . وقوى هذا الأمل فى نفوسنا حين قابلنا امرأتين من هنود الثعابين ، أسرهما المنيتارى من المنطقة الواقعة عند صعود نهر ميسورى إلى جبال شايننج ، ثم هبطوا بهما النهر ، وباعوهما لأحد زعماء قبيلة أهناواى .

قال ماكنوت ، مادام المنيتارى يستطيعون قطع هذه المرحلة ، فلن يستعصى الأمر على الصاغ . . فالهنود ليسوا أكفأ من البيض ، والصاغ أكفأ منهم جميعاً . .

ولم نجد أدنى مشقة فى توفير الطعام ، إذ كانت البرارى الواقعة بين سانت پيتر والميسورى غنية بأوفر الصيد . . فيها من الجاموس قطعان لا حصر لها ، وكذلك الأرانب . .

www.ibtesama.com

وكلاب البرارى . . والمها . . والشرشير . . والخضارى . . والبط والأوز بالملايين . . ويكفى أن يخرج فى الصباح ثلاثة من الصيادين ، ليعودوا عند الظهر بطعام يكفى حملة قوامها خمسون رجلا . .

وبعد أن اخترقنا البرارى ، وخرجنا إلى وديان الميسورى الرملية الملتوية ، وجدنا على شاطئ النهر الغاضب ما لا أول له ولا آخر من الديّكة والدببة . . والوعول والقنادس . . كما وجدنا الممرات المشجرة التى تطوق البرارى كأنها سياج قوى ، مليئة بأشهى العنب والبرقوق . والجداول تكاد تفيض بالأسماك من كل نوع .

وأبدى لنا الهنود ، أينما ذهبنا – خصوصا الداكوتا – شديد رغبتهم فى مجىء التجار إليهم بالبنادق والبارود والرصاص والأباريق والبلط والأقمشة ، وكان إلحاحهم فى هذا الطلب ردًّا قاطعا على مزاعم سير وليام جونسون ، وإصراره على إحضار هنود الغرب إلى القلعة للتبادل التجارى . . واستقبلونا جميعهم بغاية الترحاب ، ونحروا كلابهم الشحيمة إكراما لمقدمنا ، وظلوا طول الليل حول

www.ibtesama.com

خيامنا ، يلقون الحطب فى تحيتنا ، ويرقصون ويغنون ابتهاجا بوجودنا . .

وشكا لنا الهنود همومهم ، فقالوا إنهم فقراء ، وإن معيشتهم المعسرة تمنعهم من التنقل ، ولم يستطع إلا قليلون منهم القيام بالرحلة الطويلة إلى مهابط الميسورى ، للمتاجرة مع الفرنسيين والإسبان . . وكثيرا ما باع هؤلاء القليلون فراءهم بسكاكين لا تلبث أن تتكسر ، وبارود لا يشتعل ، وبنادق تنفجر فى أيدى حامليها ، وأباريق تنشرخ بمجرد أن تمتلئ بالماء ، وأقمشة تبلى بعد وقت قصير . .

وطالب الهنود بمجىء التجار إليهم ، لأنها فرصتهم الوحيدة لمعالجة فقرهم ، وتحسين أحوالهم ، فالفراء عندهم وفير ، ومن أجود الأصناف ، ولكنهم لا يجدون من يبادلهم عليه . . وأكدوا أنهم على استعداد لعمل ما يأمر به الأب الأبيض ، وتقديم كل الضمانات التى ترضيه ، بشرط أن يأذن لتجاره بالمجىء إليهم وقضاء الشتاء معهم . .

ولما أخبرتهم أننا جئنا نبحث عن مراكز للتجارة ، وأن الأب الأبيض سيأتى بنفسه فى أعقابنا ، أشعلوا النيران فى البرارى كإشارة له تهديه إلى الطريق . . وكانت هذه

www.ibtesama.com

وسياتهم أيضاً إلى إبلاغ القرى الأخرى أنباء وصول أصدقاء . . فقد تعودوا أن يتخاطبوا بالدخان . . يشعلون النار فى أبسطة الحشائش التى جففتها شمس الصيف ، بحيث يمتد لهيبها فى طريق الرياح ، ويعكس شعاعا أحمر على حلقات الدخان المتصاعدة فى الجو . .

وظل ماكنوت يقول طول الوقت : إن نشاط الصاغ سوف يستحثنا على الإسراع ، ويحفز همتنا إلى التقدم ، الأمر الذى يمكننا ، بمنتهى السهولة ، من اختراق أراضى الهنود إلى جبال شاينج . . . ولكثرة ما ردد هذا الكلام ، استبد بى أشد الضيق ، إذ كان يظن أننى غير مطمئن إلى « البلاكفيت » من قبائل أعالى النهر ، وأشك فى أنهم يتركوننا نمر بهم سالمين ، فلجأ إلى هذه التأكيدات المتكررة ليطمئننى ويزيل شكوكى . .

وكثيراً ما كان يؤنبنى على وجومى عندما نعسكر بالليل ، فيقول : لم تعد صحبتك مسلية ، يا لانجدون ، ولولا أننى رجل مرح بطبعى ، ما استطعت احتمال جلوسى بالليل أحارب البعوض أمام دخان النار . . فوالله ، إن الحياة معك أنت والأميرة ماكنوت ، لمحنة تستدر الدموع .

www.ibtesama.com

ولقد أصاب ماكنوت فى أمر وأخطأ فى آخر ، فوجومى كان حقيقة يتزايد بمضى الوقت ، إنما كان لسبب غير ما يتصور له ، فأنا لم أكن أخشى على سلامتنا من الهنود ، ولكنى أشعر بأشد القلق من جراء تخلف الصاغ ، وعدم وصول رسالة منه تنبئنا بموعد قدومه . .

وكانت رسالة آن ، أيضاً ، تثير الهواجس فى نفسى ، وتطارد طمأنينتى فى يقظتى ونومى ، وكلما اشتدت على وطأة التفكير أخرجها من جيبى ، وأعيد قراءة الكلمات التى بت أحفظها عن ظهر قلب . .

وذبلت الرسالة وأصبحت ورقة مشققة مبقعة ، لكثرة ما فتحتها وطويتها بأصابعى التى لوثها دهن الطعام وشحم البنادق وسناج النيران ، وتراكمت عليها القذارة بفعل صراعى المستمر لإنقاذ قواربنا من الضياع فى رمال الكثبان المتنقلة أو الفناء تحت انهيارات الجروف المفاجئة . . . وخشية أن تبتل الرسالة بعرقى المتصبب أو بمياه المسيسبى التى تغمر أجسادنا باستمرار ، وضعتها فى حقيبة جلدية للعقاقير ، اشتريتها من أحد رجال الداكوتا . . . ولا أظن أن هنديا بذل فى سبيل صيانة عقاقيره التى تنقذه من سهام

www.ibtesama.com

أعدائه وسكاكينهم ، ما بذلته فى حفظ رسالة آن داخل هذه الحقيبة الجلدية . .

فبالرغم من تأكيدات آن بأنها لن تلتقط العدوى من أبيها فى أثناء تمريضها إياه ، أخذت الهواجس تتضارب بقسوة فى نفسى ، وأفكارى تقفز من احتمال إلى احتمال . . وكشأن العشاق فى لهفتهم على من يحبون ، لم أتصور سوى أسوأ الأمور ، فرأيت الفتاة بعين الخيال ترقد على سرير المرض ، والسعال يكاد يمزق صدرها . . . ضحية لأب تافه لم تستفد الدنيا من وجوده بأكثر مما استفدنا من جاموسة مريضة نحيلة ، ترقد فى المراعى الواسعة التى مررنا بها فى طريقنا الطويل . . .

ووجدتنى أتعذب أكثر بالتفكير فى جملة أثارت أسود المخاوف فى ذهنى ، فقولها « . . وأتمنى لو ابتعد الصاغ عنى . . » ، هـــذه الجملة أخذت على طول الطريق تتضخم ، حتى أصبحت مصدر ألم نفسىّ لا يحتمل . .

وبالرغم من إلحاح ماكنوت فى تشجيعى ، وتكرار تأكيداته بقدرتنا على الوصول إلى هدفنا ، كان هو — مع الأسف — السبب فى تعطيل تقدمنا البطىء العصيب ، ومن أجله اضطررنا إلى قطع الرحلة من منتصفها . .

www.ibtesama.com

فلقد كان الميسورى يتفرع فى بعض الأماكن إلى قنوات عنيفة فى التوائها ، فنضطر إلى التجديف أميالا وأميالا من أجل أن نتقدم فى طريقنا ياردات معدودات . . وفى مثل هذه الأوقات أنزل إلى الشاطئ لأصيد طعامنا ، فى حين يتولى ماكنوت شأن أحد القوارب ، وتتولى زوجه شأن الآخر . . وكانت هناك أيضاً التيــارات الرهيبة ، التى تدفع مياه النهر إلى الشاطئ الصخرى فى عنف مخيف ، يخيّل إليك معه أنها روح شريرة تبتغى القضاء على من يخاطرون بالاقتراب منها . . وفى لحظة خاطفة تجد المياه كشفت فجأة عن كثبان رملية تكاد تسد مجرى النهر ، وفى لحظة أقصر ترى جزُرا كبيرة قد اختفت فى جوف المياه الهادرة . . وهذه التحركات السريعة للكثبان الرملية شديدة الخطورة إلى درجة تفوق الوصف . لذلك يتحتم على المسافر أن يراقبها بغاية الحرص والاهتمام ، تلافيا لوحشية التيار الغاضب ، الذى يظهرها مرة ، ويبتلعها أخرى دون إنذار .

وعند مرورنا بإحدى هذه القنوات الملتوية ، أوقف ماكنوت قاربه ، وأنزلنى إلى الشاطئ ، ولم أكد أقف على قدمى حتى سمعت صراخا عاليا . . . فبينما القارب يعود إلى

www.ibtesama.com

وسط المجرى ، ثار النهر المجنون على غير انتظار ودفعه نحو جزيرة آخذة فى الذوبان ، وهاجم التيار القارب فمال على جنبه ، وسقط منــــه البحار الهندىّ توكاكو . . . ولكن قبل أن ينقلب القارب تماماً بمؤننا ومتاعنا ، قفز ماكنوت إلى بقعة رملية ، وقبض على مقدمة القارب ، وبكل ما أوتى من قوة ، أعاد توازنه ، ومنعه من الانقلاب . .

وبادرت إلى معونته ، فألقيت بنفسى إلى المياه ، وأخذت أضرب بذراعىّ الماء متجها إليه ، وكان توكاكو قد تغلب على التيار ، وعاد إلينا مبتل الشعر فاغراً فاه . . فما إن وصلنا إلى حيث يقف ماكنوت ، إلا ورأينا الجزيرة الرملية تختفى تماماً ، وثورة النهر تهبط ، ومياهه تعود إلى طبيعتها ، فيتأرجح الزورق فوقها بسلام .

صحت بماكنوت أقول : والله ماكنت أتوقع أن تنقذ القارب !

فظل فى مكانه صامتاً ينظر إلىّ ولا ينطق بكلمة .

قلت له : أدخل القارب ، ودعنا نعد إلى الشاطئ ، لنأكل البطة التى صدتها

www.ibtesama.com

ولم يتحرك . عندئذ تبينت أنه لايستطيع دخول القارب ، بل وليس فى مقدوره أن يتحرك قيد خطوة دون معونة .

وسرت برودة الرعب فى أطرافى ، وأحسست كأن يداً حديدية تقبض على معدتى ، وتكاد تحبس أنفاسى . فجمعت شجاعتى وطوقته بذراعىّ وأخذت أجذبه إلى الشاطئ . ولما أتى توكاكو بالقارب إلى الجرف ، تعاونت معه على نقل ماكنوت ، وأرقدناه على الحشائش . . وظل صامتاً لا يتكلم ، ولكن عندما أحس بالأرض تحت قدميه ، دار على وجهه ، وركع على ركبتيه ويديه ، واندفع الدم من فمه غزيراً ، مثلما يندفع من غزالة مذبوحة . . نزف ما لايقل عن ربع جالون ، حتى إن الدم تجمع على الأرض بين يديه فى بركة صغيرة ، مما اضطرنا إلى حمله ، ونقله إلى مكان آخر .

قال — وقد بدا كأنه ارتاح بعد خروج الدم من جوفه : لابد أن شيئاً انفجر فى جوفى ، فخير لى أن أرقد بقية اليوم ، وإذا أعدت لى الأميرة جانبا من شاى الشيپوى ، أصبح غدا بخير .

www.ibtesama.com

ولما انتهينا من إرقاده على الأرض فى البقعة النظيفة ، أسرع توكاكو يجرى نحو الأميرة ،وأشار إليها يستدعيها ، فجاءت على عجل . وبعد أن فحصت زوجها بدقة ، مزقت جلد الغزال عن صدره ، وبللته بمياه النهر وأزالت الرمال العالقة بشعر رأسه وجسمه . وتركتنا فى صمت وذهبت إلى بعض الشجيرات ، وانتزعت جانباً من أوراقها وفروعها ، وجمعت نوعا من العشب ينمو بجوارها ، وخلطت هذه الأشياء بالماء ، ووضعتها فى إبريق على النار ، وتركتها تغلى نحو ساعة ، ثم ملأت قدحاً من السائل البنى الناتج عن هذه العملية ، وقدمته لماكنوت ، فتناوله ومظاهر الاشمئزاز بادية فى وجهه .

وأخذ ماكنوت يرتشف السائل فى بطء وصعوبة ، حتى أتى عليه ، وتمدد على الأرض وأسبل جفنيه ، ولكنه لم يلبث أن انقلب على جنبه ، وقاء ما شربه . . عندئذ نهضت زوجته صامتة ، وذهبت إلى الإبريق ، وذاقت قطرة من محتوياته ، وعادت إلى مكانها الأول تجلس فيه ساكنة واجمة . .

وطلع الصباح التالى ولم تتحسن حاله ، فسلقنا له

www.ibtesama.com

قطعة من لحم الجاموس ، وقدمنا له حساءها ، ولكنه رفض أن يشربه ، وقال : إنه لا يستحق مشقة القيء . .

ولما حاول النهوض ، انهار فى مكانه ، ولم يستطع حتى الزحف على ركبتيه ، إذ كان عَجُزُه وساقاه فى حالة من الارتخاء التام ، مثلما يحدث لحيوان أصيب برصاصة فى عموده الفقرى . .

وفى ذلك اليوم قررنا أن نبقى معسكرين فى مكاننا لا نبرحه ، فجمعنا حاجياتنا ، وقلبنا عليها الزورق ليحميها من فعل التقلبات الجوية وبعثنا بتوكاكو إلى عشيرة هندية تسكن قريبا منا ، نعرض عليها نصف ما نصطاده ، مقابل معونة رجالها فى نقل صيدنا من داخل البرارى إلى المعسكر . .

واستبد بماكنوت ظمأ مخيف ، فلم يكف عن طلب الماء لحظة ، ولزمت زوجه جانبه تسقيه كلما أراد ، وبين آن وآخر تفتش فى ثيابه بحثا عن الحشرات التى تتفشى فى هذه المنطقة من شاطئ الميسورى . .

وعاد توكاكو بالداكوتا ، فنصبوا خيامهم البيضاء على مقربة منا ، وخرجنا معهم إلى البرارى نصطاد الجاموس

www.ibtesama.com

والغزال والدببة .. وعاونونا على نقل الحيوانات إلى المعسكر ، وسلخوها وقطعوا لحمها إلى شرائح ، وجففوها بتوابلهم الخاصة .. وتقدم من بين الهنود طبيب عجوز ، وبعد أن تحدث طويلا مع الأميرة ، قضى المساء كله يرقص حول ماكنوت ويضرب الطبل وينشد الأغانى السحرية بصوت يشبه صرير الحديد الصدئ .. ولكن جهوده ضايقت المريض وأثارت أعصـــابه دون أن تأتى بنتيجة ..

وكان ماكنوت يتىء معظم الماء الذى يشربه ، والأدهى من ذلك أنه فقد شهوة الطعام ، فامتنع عن الأكل تماما ، وخابت جهودنا فى إغرائه بتناول قليل منه .. وطهونا له صدور البط وذيول القنادس وألسنة الجاموس ، ولكنه لم يبد أدنى اهتمام بهذه الأصناف الشهية ، وظل راقدا على قطعة من الجلد يحملق فى سقف خيمته ، ومع كل ساعة تمر يزداد ضعفاً ونحولاً ..

واشتد بى القلق عليه ، وبالرغم من تقديرى لخطورة حالته ، ويأسى من احتمال شفائه إذا كان قد تمزق شىء فى جوفه ، ظللت أضرع إلى الله أن يأتى الصاغ ، لعله

www.ibtesama.com

يستطيع أن يسعفه ببعض العقاقير التى يحملها معه دائماً فى رحلاته . . .

وبعد ثمانية أيام من إصابته ، جاءتنى زوجه بعد غروب الشمس بقليل ، وأشارت برأسها نحو خيمته ، ولما ذهبت أستطلع الخبر ، وجدت ماكنوت فى النزع الأخير . . .

همس يقول لى : لانجدون ، أريد أن أملى عليك وصيتى ، فأنا أملك بمونتريال أربعمائة وستين جنيها وسبعة عشر شلنا ، وثمانية بنسات . . وهذا المبلغ . . .

قلت أخفف عنه : دعك من هـــذا الكلام ، يا ماك . . .

قال : ولماذا ؟ ألا ترى كيف باتت نهايتى قريبة ، فلا بد أن تقتلنى الحشرات الملعونة ، أو يقضى على البرد . . . جوفى كما تعلم خال تماماً ، وليست لدى أدنى قدرة على المقاومة ، ولقد بدأ الشفق القطبى يتوهج . . . رأيته ليلة أمس من خيمتى ، وتوهمت أن بعضهم أوقد نارا كبيرة ، ثم تبينت أنه الشفق القطبى ينذر بقدوم الشتاء سريعاً . .

www.ibtesama.com

قلت : كلام فارغ ! فبعد أسبوع أو أسبوعين تستعيد رغبتك فى الأكل وتقوى ، فنشد رحالنا ، ونمضى فى طريقنا . .

قال بسرعة : ما دمت أزهد فى الطعام وأعجز عن الحركة ، فهذه علامات النهاية . . وأنت تعرف ذلك ولكنك تكابر فى الحق . . فالزم الصمت ودعنى أتكلم . . . نقودى التى حدثتك عنها مودعة لدى وكالة كريج كائنجهام . . وأنا أحب أن أعطيك منها أربعمائة جنيه ، لأنك رجل متعلم وفى وسعك أن تحسن الاستفادة منها . . ثم إنك الإنسان الوحيد الذى يحبنى لشخصى ولا يطمع فى مالى . . فاكتب ورقة بذلك . . والباقى وقدره ستون جنيها وسبعة عشر شلنا وثمانية بنسات ، تأخذه الأميرة ماكنوت لعنها الله . . . فلقد حرمتنى رفقتها من متع كثيرة ، ولكنها لم تتدخل فى أعمالى التجارية ، ولم تسقط فى طعامى رمالا وأوراقا مثلما تفعل الأخريات ، ولم تطاردنى بثرثرتها فى أوقات تفكيرى ، وهى فضيلة يندر وجودها فى النساء ، يا لانجدون . .

والتقط أنفاسه ، وعاد يقول : لم تتركنى لحظة ، وقد وجدتها بجانبى كلما احتجت إليها ، وأعتقد أننى أسعد

www.ibtesama.com

حالا بها مما لو كنت تزوجت صغيرة عابثة ... لذلك أرى من حقها أن تحصل على بقية نقودى . . . ولكن إياك أن تعطيها نصيبها كله دفعة واحدة ، وإلا سلبه أقاربها منها ... الأفضل أن تنظم لها الأمور بحيث تأخذ جنيهين كل عام مدى حياتها . . فبهذه الطريقة تعيش بين الناس محترمة . . . وغير ذلك يعدّ مفسدة لها ، فكثرة النقود بين يديها تدفعها إلى الكسل والدعة ، وأنا لا أكره إنسانا مثل المرأة المترفة التى تقضى حياتها فى النوم والأكل والمتعة . .

قلت ــ وأنا أهز رأسى : لن أكتب شيئاً من هذا . . فأنت بخير ولا يصح أن تستسلم لليأس هكذا ... الأمل ما زال واسعاً أمامك . . ولقد تلقيت دروسا فى فرقة المتطوعين ، وتعلمت من روجرز أن سبيل النجاة دائماً موجود ، ومهما تقطعت بك سبل الخلاص ، فلا يجوز أن تكف عن النضال ما دام فى صدرك نفس يتردد . .

قال ملحًّا ، وفى صوته بعض عنفه السابق : اسمع الكلام ، واكتب ما أريده منك ، فلن تجد مكانا أنسب من هذا . . ألا ترى أننا على بعد مئات من الأميال

www.ibtesama.com

خارج مجاهل العالم ؟ ألا ترى كيف حلّ بى الضعف ، حتى بتّ عاجزا عن التنفس ؟ الأمل الوحيد فى بياتيير ، ولكنه ليس معنا ، إنه الطبيب الذى أنقذ ايزكيل سولومون من حمى ليس لها شفاء .

قلت : وأين أجد بيلتيير ، هل يعيش فى مونتريال ؟

قال : بل هو من أهل ميكيليماكيناك ، وإذا نجح علاجه فإنه يتقاضى بالة من الفراء ، وإذا أخفق فلا يأخذ شيئاً .. أجل يا سيدى ، إنه رجل ماهر ، ولينه كان معنا ! !

قلت : ما دمت تثق بقدرته على علاجك ، فلا يمكن أن تتردد فى الرجوع إلى ميكيليماكيناك . . طريق العودة أسرع كثيراً ، والمسافة إلى هناك تستنفد سدس الوقت الذى جئنا فيه ، إنما بشرط أن نبدأ لفورنا ، قبل أن يهاجمنا الشتاء ، وتتجمد مياه سانت بيتر . . فهل تحتمل الرحلة ، يا ماك ؟

قال — وهو يحاول الجلوس : أحتملها ؟ لأهون عندى أن أحتمل أعظم مشقة فى الدنيا من البقاء هنا حتى تأكلنى الحشرات حيّا .

ثم تهالك فى مرقده وقال : لا ، لا أظننا نستطيع

www.ibtesama.com

القيام بهذه الرحلة ، والأفضل أن ننتظر قدوم الصاغ كما اتفقنا .

ونظرت إليه بصرامة ، وقد عرفت السر فى استسلامه بعد حماسته الأولى .

قلت له : اسمع ، يا ماك . . لاتظن أن عودتنا إلى ميكيليماكيناك تضايقنى . . ولعلك ترى من العار أن نتراجع فى منتصف الرحلة . . ولكنك مخطئ يا صاحبى . . فالعمل الناجح لا يتحقق من أول مرة . . جميع صورى الجميلة أعدت رسمها مراراً ، ولو كنت ممن يستسلمون للغرور ويأنفون من الاعتراف بأخطائهم وتصحيحها ، ما تقدمت خطوة فى طريق الإتقان الفنىّ ، ولا تيسر لى أن أصنع شيئاً مذكوراً . . كيف تنتظر أن أنجز مهمتنا ، وأصل إلى هدفنا إذا تهاونت فى العودة بك ، وتركتك تموت فى مكانك هذا ؟

وعادت الحماسة إلى عينيه ، فتجاهلت اعتراضاته الواهنة ، وخرجت من الخيمة جرياً . . وناديت زوج ماكنوت ، وصحت أقول : هلمّ بنا نعد حالا . .

ولكى أفهمها ما أريد ، أعدت القارب إلى وضعه

www.ibtesama.com

الطبيعى ، وألقيت فيه بعض متاعنا ، وأدرت مقدمته إلى الناحية الأخرى ، وأخذت أشير لها نحو طريق العودة .

وفهمت ما أعنيه ، فارتجفت عضلات وجهها ، ورأيت شفتيها تنفرجان عن شبح ابتسامة .

وبسرعة لا يصدقها العقل ، طوينا الخيمة ، وأعددنا أنفسنا للرحيل . . وارتاحت نفسى لهذه الخطوة ، وزال ما بى من قلق عذبنى أسبوعاً كاملا ، وشعرت كأن قرب عودتى إلى آن ، سوطٌ يلهب ظهرى ، ويدفعنى دفعاً إلى الأمام .

ولم تمض عشرون دقيقة إلا وكنا نهبط النهر فى قواربنا ، ورجال الداكوتا يهيبون بنا أن نعود ، ويجرون بجيادهم على الشاطئ بموازاتنا .

* * *

وعندما وصلنا إلى مرسى الداكوتا الواقع على نهر ميسورى ، وجدنا الزعيم وانوتان ينتظرنا مع رجاله ونسائه وكلابه وخيله وأطفاله ، وبالغ الجميع فى الترحيب بنا كما لو كنا مندوبين لصاحب الجلالة ، وغمروا ماكنوت بعنايتهم ، ووضعوه على محفة خصصوا لحملها ستة من

www.ibtesama.com

رجالهم الأشداء . . وكان وانوتان قد أخلى بيته له ، فنقلناه إليه ، حتى يتمتع بأسباب الهدوء والراحة .

وانشغلت النساء بذبح كلب وطهوه لطعامنا ، وجلس الرجال أمام بيت وانوتان يتناقشون فى أمر مرض ماكنوت ، ويبدون اهتماماً صادقاً بحاله . . ولما تبينوا خطورة إصابته ، بكوا بأحر الدمع ، وأهالوا التراب على رءوسهم ، وبلغ الحزن ببعضهم أن أخذوا يجرحون صدورهم بالسكاكين ، ولكنى لم ألبث أن عرفت السر فى هذا الاهتمام كله ، فقد ظنوا أننا ممثلو الصاغ ، ومبعوثوه الرسميون إليهم .

وإكراماً للصاغ ، توافرت لماكنوت أسباب الراحة كافة ، إذ وضع وانوتان كل ما يملك تحت تصرفنا ، وأعطانا حاجتنا من الأغطية الجلدية ، وأحذية الجليد ، ومعاطف الفراء ، وكذلك جنّد نساءه فى حمل أمتعتنا ، ومساعدتنا فى الحصول على وسائل النقل على طول الطريق إلى المسيسبى . . وكنا بوصفنا سفراء للرجل العظيم الذى يحبونه ، نستطيع أن نأخذ أى شىء ، ونطلب ما نريد من أغلى مقتنياتهم ، فيعطونه لنا فرحين مغتبطين .

www.ibtesama.com

وأعلن وانوتان أن الأب الأبيض فى إنجلترا لم يسبق أن أوفد إنساناً عظيما مثل الصاغ لرعاية شئون أبنائه الحمر ، واعترف بأن كثيرين من الهنود ذهبوا إلى ميكيليما كيناك وهم يتوقعون أن يجدوا حاكمها الجديد كسابقيه : يتكلم كثيراً . . ويفعل قليلا . . لا تهمه احتياجات الهنود ، ولا يعمل إلا لتحقيق مطالب البيض . . يعطى قليلا . . ويأخذ كثيراً . . . يبدى عطفه على الهنود حتى ينال بغيته منهم ، ثم يدير لهم ظهره ، ويعاملهم معاملة الكلاب . .

وأكد وانوتان أنهم كانوا جميعاً يتوقعون ذلك ، فإذا بهم يجدون الحاكم الجديد يختلف تمام الاختلاف عن هذه الصورة . . . رجلاً طيب القلب . . كريما . . حكيما . . . بذل أشق الجهود فى دعوة الهنود من شتى الجهات البعيدة إلى أعظم اجتماع عرفوه فى تاريخهم . . ولم يطلب من إخوانه الحمر سوى أن يرفعوا لواء السلام فوق ربوعهم من قاصيها إلى دانيها ، حتى يستطيع التجار أن يسافروا إليهم فى أمان ، ويتعاملوا معهم باطمئنان ، الأمر الذى يعالج فقر الهنود ويحميهم من عذاب الجوع والحرمان . . وقال وانوتان : إن حكمة هذا الرجل العظيم ، وسخاءه فى توزيع الهدايا على الهنود حالا دون قيام

www.ibtesama.com

حرب هندية ضروس ؛ فلقد اقتنع الزعماء الذين اشتركوا في المؤتمر أنهم إزاء حاكم لا مثيل له في الصدق والذكاء ، يحس بمتاعبهم ويفهم مشكلاتهم ، ويعرف كيف يسوى الخلافات بينهم ، ويحكم في قضاياهم بمنتهى الرحمة والعدل . .

وشعرت بغاية الارتياح لحماسة وانوتان ، وطمأنتني لهجته العامرة بالثقة والتفاؤل على سلامتنا حتى نصل إلى ميكيليماكيناك . . فلا جدال في أننا قد نلاقي في طريقنا عقبات جساما ، وقد نذوق العذاب من الجوع والبرد والإرهاق ، ولكننا لن نتعرض للاعتداء على حياتنا من الهنود . . والفضل لحكمة الصاغ وإخلاصه العظيم . .

وسألت وانوتان عما سمعه من أخبار رحلة الصاغ إلى الغرب ، وهل بدأ هذه الرحلة ، وهل تقرر أين يقضى الشتاء ؟ ولكنى لم أحظ منه بمعلومات ، إذ لم تكن لديه أخبار عن خطط الصاغ في هذا الموضوع . .

وكان ماكنوت منذ إصابته يرفض الأكل ، وظل طول الطريق لا يتناول من الطعام سوى رشفات من سليق اللحم ، يشربها بين آن وآن ، ثم يلزم الصمت واجماً حتى

www.ibtesama.com

تزول عنه نوبات الغثيان . . ولكنى لاحظت عليه فى ذلك اليوم تغيراً ملحوظاً ، فقبل أن نجلس إلى الوليمة ، نادانى بصوته الواهن ، وقال إنه يشعر برغبة فى تناول قطعة من فخذ الكلب الذى ذبحه الهنود وطهوه احتفالا بقدومنا .

وأتيته بقطعة اللحم ، ولكن الأميرة قابلتنى عند الباب ، ولما رأت ما أحمله ، هزت رأسها محذرة ، وأخذت اللحم منى وأكلته ، وقدمت لزوجها قدحاً به سائل ما . .

قال ماكنوت — وهو ينظر إلى القدح متأففا : أين قطعة اللحم التى طلبتها منك ؟

قلت : كان الكلب صغير الحجم ، فأتوا عليه ، ولم يبقوا شيئاً منه .

قال — وهو يزيح القدح بعيداً عنه : هذا حساء أوزة على ما أعتقد ، ولكنى أشم فيه رائحة حذاء جلدى . . فالأفضل أن أنتظر حتى يذبحوا كلباً آخر ، ويكفينى الآن بعض الماء النظيف .

* * *

www.ibtesama.com

وصلنا إلى برية الكلب قبل أن تتجمد المياه بفعل برد الشتاء ، وكان الفضل فى ذلك لوانوتان وخدماته الجليلة ، فقد أصر على اصطحابنا جانبا من الطريق ، وقام رجاله الثمانية الأشداء بحمل ماكنوت فى محفة من الجلد ، كما قامت كلابه بجذب أمتعتنا عبر المرتفعات والمنخفضات ، حتى وصلنا إلى سانت پيتر . وكنا فى طريق ذهابنا قد دفنا أحد قواربنا فى بقعة من هذه المنطقة ، فأخرجناه من مخبئه ، وانتقلنا إليه . . ومن حسن حظنا أننا قطعنا هذه المرحلة قبل تقدم الشتاء ، فعند وصولنا إلى ملتقى سانت پيتر بالمسيسپي ، كان الجليد قد أخذ فى السقوط ، وتراكمت على الأرض كميات منه لا يقل ارتفاعها عن قدم ، ورأينا كتلا من الثلج تطفو على مياه النهر ، فآثرنا أن نعسكر فى مكاننا حتى يتحسن الجو .

وفى خلال هذه الوقفة حدثت ثلاثة أمور كان من شأنها أن ازداد أملى فى شفاء ماكنوت ، فبالإضافة إلى ما أخذ يبديه من رغبة فى تناول الطعام ، استطاع ذات يوم أن ينهض من رقدته ، ويقف ثابتاً على ساقه

www.ibtesama.com

الواحدة . . وحين أتت الأميرة ماكنوت تصرّفاً لم يرضه ، ثار عليها غاضباً كما كان يفعل فى عنفوان صحته .

وعند فوهة نهر سانت پيتر ، وجدنا معسكراً لهنود عشائر النهر ، وحدثهم وانوتان بأمرنا فأحسنوا وفادتنا ، وأخلوا لنا مسكنا خاصا بنا . . وكان بين هؤلاء الهنود ، بعض الزعماء الذين غرروا بكارڤر ، واستولوا على مؤنه مقابل عقد البيع المزيف . . فأبعدنا حوائجنا عن متناول أيديهم ، ووضعناها فى البيت بجوار ماكنوت ، وكلفنا زوجه بحراستها ، إلى حين عبورنا المسيسپي .

وفى هذه الفترة حدث ذات مرة أن أعطيت مسز ماكنوت عظمة من فخذ جاموسة عليها نتف من اللحم ، فجلست أمام زوجها تأكل اللحم وتنحت العظم فى لذة واضحة . فقال لى ماكنوت فى صوت واهن : هذه عظمة طيبة ، وسأطلب من الأميرة أن تشقها ، وتعطينى ما بها من نخاع .

وألقى على زوجه أوامره باللغة الهندية ، فظلت تمص العظمة وكأنها لم تسمع كلامه .

www.ibtesama.com

قال لى ماكنوت : عجيب . . عجيب حقا أننى لم أفكر فى النخاع طيلة مرضى . . إنه لذيذ ومفيد .

وعاد يتحدث إلى زوجه بصوت أقوى ، ولكنها بقيت على حالها صامتة ، حتى انتهت من أكلها ، ومسحت الدهن المتخلف على فمها بظهر يدها ، ونظفت يدها فى ذيل ثوبها ، ثم حملت العظمة ، وخرجت بها من الغرفة .

قال ماكنوت — وهو يمصّ شفتيه : النخاع أفضل طعام لمعدة المريض ، سهل الهضم ولا ضرر منه مطلقاً ، سواء أكان مسلوقاً أم محمّراً ، فطراوته تذيبه فى الفم دون حاجة إلى المضغ . . وحتى المخمور إذا أكله يقل شعوره بالغثيان . . إذ فيه من العناصر الهامة ما يسرى فى الجسد ، ويخفف وطأة الكحول . . أجل إنه طيب ، ويا ليتنى فكرت فيه من قبل .

وعادت زوجه تحمل قدحاً به السائل البنى المعهود وقدمته له فى سكون .

قال : ما هذا ؟ وأين النخاع الذى طلبته ؟

ولعله تصور أن زوجه تخفى النخاع وراء ظهرها ،

www.ibtesama.com

حتى ينتهى من شرب السائل الذىأتته به ؛ إذ رأيته يجرعه مستسلما ، ويمد يده فى ترقب ، ولكنها أخذت القدح منه ، ووضعته جانبا ، وجلست بجوار أمتعتنا فى هدوء .

صاح ماكنوت بأعلى صوته : ما هذا ، ما هذا الذى تفعله الملعونة ؟

وفى ضوء النيران المشتعلة ، رأيته ينظر إليها ووجهه يحتقن غضباً ، فتأكد لى أنه استعاد قدرته القديمة على الانفعال .

قال لى — وصوته يرتجف غضباً : عليها اللعنة ! فهى تريد أن أقنع بمائها القذر ، وترفض أن تعطينى طعاماً . . والله ، لأؤدّبنّها !

واستدار على ركبته ، واستند إلى جدار الغرفة ، واستعان به على الوقوف فوق رجله الوحيدة . . وقال لى : أعطنى ساق الخشبية ، يا لانجدون ، حتى أذكرها بأن رغباتى ما زالت أوامر لا تقبل النقاش .

وأخذ يقفزعلى رجله متجها إلى زوجه ، فأخرجت ساقه الخشبية من خلفها ، ورفعتها فوق لهيب النار .

قال لى فى غضب أشد : أترى كيف تهددنى ؟ تأكد

www.ibtesama.com

أنها لا تتورع عن حرقها فى سبيل حرمانى من قطعة نخاع شهية .. إننى ألغى هبتى السابقة ، فإياك أن تعطيها الستين جنيها والسبعة عشر شلنا والثمانية بنسات .. اعتبرنى حرمتها من الميراث .. خذ المال كله لنفسك ، واحذر أن تمنحها شيئاً منه ، حتى تتعلم كيف تطيع أوامرى ، وتخضع لمشيئة الرجل ، دون مقاومة أو اعتراض !

* * *

بعد ثلاثة أيام اختفت كتل الثلج من مجرى النهر ، وأراد وانوتان أن يتأكد من سلامة طريقنا ، فسبقنا إلى مصب سانت كروا ، يتبعه قارب آخر يحمل أربعة من رجاله ، ومعهم الزاحفة والكلاب التى خصّصها الزعيم لنقلنا فوق النهر المتجمد وما بعده من أراضٍ مغطاة بالجليد .

ولم يستطع ماكنوت أن يأكل النخاع الذى يشتهيه ، إلا بعد وصولنا إلى مصبّ سانت كروا . وكانت زوجه قد أتت معها بمجموعة من العظام كبيرة . . فشقت واحدة منها وأعطته ما بجوفها ، فجعل يمصها بلذة وشراهة ..

www.ibtesama.com

ولما انتهى ، نادانى يطلب نخاعاً آخر ، ولكن الأميرة تجاهلت طلبه ، ولم تحرك ساكناً .

وفى الأيام التالية سمحت له زوجه بمزيد من الأطعمة الطرية ، فكانت تقدم له أكباد القنافذ والغزلان ، أو قطعة من صدر بطة تدقها حتى تتحول إلى معجون طرى .

وفى مدينة الشيبوى الواقعة على سانت كروا ، تشجعت الأميرة ولجأت إلى الجرأة فى طلب ما تريد ، كأن البيت بيتها والمكان مكانها . . فأمرت بإعداد مرشدين وقناصة وزاحفات . . ووزعت على الزعماء حفنة من المرايا ، فبالغوا فى إكرامهم إيانا ، وكلفوا أربعة منهم مساعدتنا بقية الطريق ، وبالإضافة إلى هذا كله أهدونا كميات كبيرة من الذرة ، وخمسة أكياس مليئة بالتوابل .

وأخذت صحة ماكنوت تتحسن باطّراد ، واستعاد قابليته على الأكل ، وأصبح يشاركنا فى طعامنا ، ويلتهم قطعة من كل صيد . . وأفاده الغذاء ، فاسترد قوته ، وبات فى استطاعته أحيانا أن ينزل من الزاحفة إلى الشاطئ دون معونة ، ويسير خطوات بجوارها .

www.ibtesama.com

ويوم رأينا طلائع بحيرة متشيجان تظهر بعيداً نحو الجنوب ، طلب ماكنوت أن تطلق له الحرية فى الأكل ، ولكن زوجه رفضت أن تلبي هذه الرغبة ، فاستنزل عليها اللعنات ، وأسمعها كل ما يعرفه من سباب .

وكنا إذا اجتمعنا بنساء الشيپوى ، يقوم بينهن خطيباً ، ويلقى عليهن محاضرة فى حكمة تنحية شعورهن عن الأطعمة ، وكيف ينفر الرجل من إهمال زوجه فى الطهو ، ثم يختم مواعظه كل مرة بالحديث عن أحب الأكلات إليه .

حينئذ اطمأن قلبي عليه ، وعرفت أنه يتقدم حثيثاً فى طريق الشفاء التام .

www.ibtesama.com

الفصل الثامن

عندما هدأت العاصفة ، استأنفنا مسيرنا إلى الضفة الشمالية من مضايق ميكيليماكيناك ، ونحن نبحث فى الفضاء أمامنا عن لمحة من القلعة التى تقع على الشاطئ البعيد . . ولكننا لم نر سوى أسقف البيوت القائمة داخل نطاق الحامية ، وقد علت فوق طبقات الجليد التى كومتها رياح الشمال على الضفة الجنوبية من المضايق ، فتجمعت فى سياج ضخم تلمع أطرافه تحت أشعة الشمس مثل أسنة الحراب . . ومن بين هذه السقوف الكثيرة استطعت أن أميز الأطراف العليا لبيت الصاغ ، حيث تعيش آن ، فتمنيت أن أجدها فى أسعد حال .

وبعثت الذكرى حرارة فى قلبى ، وحفزتنى للإسراع ، فضاعفت قواى فى جذب الزاحفة ، حتى كدت أفوق الكلاب . . ولما عبرنا المضايق إلى مرتفع ثلجى ملئ بالعثرات ، خلعت الحذاء عن قدمىّ ، وقلت لماكنوت وأنا أدفعه إلى الزاحفة : اجلس هنا ، فليس من الحكمة أن تخاطر بالسير فى هذه الثلوج الوعرة ، والأفضل أن

www.ibtesama.com

تنتظرنى مع الأمتعة ، حتى أذهب إلى الصاغ وأعود إليك بمعونة من الرجال .

قال ماكنوت : بل أذهب معك ، فلقد سئمت حياة الهمجية فى هذه الفيافى والقفار ، ولن تستطيع قوة فى الوجود أن تمنعنى من السير فوق الثلوج . . سأظل برفقتك ولو ألهبت رأسى بالرصاص .

قلت : لن أسمح لك بالمسير مهما فعلت ، فلا تلجئنى إلى العنف . . ابق هنا بالحسنى . . ولاتضطرنى إلى تقييدك وإعطاء ساقك الخشبية لمسز ماكنوت . .

وتسلقت تلال الجليد متجها إلى القلعة ، وباقترابى منها رأيت مدخلها المائى مفتوح الأبواب ، وبجواره حارس سمين فى ثياب من جلد الدب ، وكان ينظر إلىّ ويرقب تقدمى البطىء فى وجوم . . وكدت أصيح به أن يذهب إلى الصاغ ويناديه ، ولكنى تراجعت عن هذه الفكرة ، وقد تذكرت فرحة روچرز يوم قابلته فجأة فى حانة الدب الأبيض . . فاشتاقت نفسى إلى لقاء حار آخر من هذا القبيل .

وزحفت فوق حاجز الجليد ، ونفضت الثلج عن ثيابى ، وسرت إلى الباب . . ومن خلف الحارس طالعتنى ساحة

www.ibtesama.com

العرض التى تركتها منذ عام فى يوم كثيف الضباب . . ووجدتها على سابق عهدها مع بعض التغيرات . . فإلى اليمين كان مخزن الحامية ما زال قائماً فى مكانه ، وكذلك بيت الحارس والكنيسة الصغيرة . . وبعدها بمسافة مذكورة عند نهاية الساحة مخازن التجار وبضعة أشخاص فى ثياب من الفراء يسيرون بينها . . وإلى اليسار بيت الصاغ ، وقد تجمعت الثلوج على ثناياه وأطرافه ، فبدا كأنه مهجور.. ولكنه لم يكن مهجوراً ، إذ كنت أعرف أن آن تعيش فيه .

ولعل الحارس ظننى مجنوناً ، حين ضحكت عالياً فى وجهه ، وقلت أقدم نفسى : لانجدون تاون ، جندى فى فرقة المتطوعين ، مكلف بمهة رسمية من قبل القيادة . .

وبدت الحيرة فى وجه الحارس ، ولكنه خفض بندقيته ، وتركنى أمر .

قلت له ــ وأنا أسير فى اتجاه بيت الصاغ : أهو موجود ؟

قال : اليوزباشى سپيسميكر ؟ لقد ذهب فى مهمة والملازم كريستى يقوم بعمله اليوم .

قلت ــ وقد توقفت عن السير : إنما أسألك عن الصاغ روچرز ، حاكم ميكيليماكيناك . .

www.ibtesama.com

ورمانى الرجل بنظرة عجيبة ، وقال : أجل . . موجود . . ولكنه مقبوض عليه ، ومكبل بالحديد .

وأشار ببندقيته نحو مخزن الحامية ، وقال : هناك !

قلت – ولم أصدق سمعى : هناك ؟ ولكنه المخزن !

وهزّ الحارس رأسه مصدقاً على كلامى .

قلت فى حيرة : هناك فى المخزن ؟ الصاغ مقبوض عليه ومقيد بالسلاسل ؟ ولكن لماذا ، بالله عليك ؟

قال الحارس – وهو يهز رأسه : لسنا ندرى ، ولم يكاشفنا أحد بحقيقة الأمر ، ولعلهم يؤدبونه على حسن معاملته للجنود !

قلت – وما زلت أشك فيما سمعته من الحارس : ولكنه حاكم المنطقة ، وغير معقول أن يفعلوا ذلك بأكبر شخصية فى الموقع .

قال : ولكن هذا ما فعلوه برغم كل اعتبار .

وانطلقت أجرى نحو بيت الحرس ، ثم توقفت وقد صفا ذهنى قليلا ، وعدت على أعقابى .

www.ibtesama.com

قلت للحارس : ولكنك لا تحمل ضغينة للصاغ أو أصدقائه ؟

قال ضاحكا : كيف أحمل له ضغينة بعد أن دعانى وزوجى فى الشهر الماضى إلى وليمة ببيته . ولقد أساءوا إلى الصاغ ، وأنا لا أخاف أن أعلن هذه الحقيقة على مسمع منهم جميعاً .

وسكت لحظة ، وأردف يقول بعد تفكير : ما عدا اليوزباشى سپيسميكر ، ، والملازم كريستى .

وانتابنى الشك فى سلامة قواى العقلية ، وخيل إلىّ أننى تأثرت بسفرى إلى ما رواء المسيسپى ، واختل ذهنى بما لقيت إبان العاصفة الثلجية ، وما هذا الحديث الذى أسمعه فى قلعة ميكيليماكيناك سوى كابوس مخيف .

وفركت عينىّ ، وعدت أنظر إلى الحارس مدققا ، فتبين لى أنها الحقيقة مع الأسف ، وهذا الذى يقف أمامى حارس من واقع الحياة ، وليس شبحاً من الأحلام . فأنفاسه الحارة ترطب شاربه ، وشعر أنفه يكاد يتجمد بفعل البرد .

www.ibtesama.com

قلت فى حيرة : لابد أن أتحدث إلى الصاغ ، ولكنى أريد أولا أن أطلب المعونة لرفيقى الذى تركته مع الأمتعة وبعض الهنود على الربوة فوق المرتفع الثلجى . . إنه صديق للصاغ ، وكان مريضاً فى الفترة الأخيرة ، فهل تقوم عنى بإبلاغ ستيفن جروسبك ؟

قال : اعتمد علىّ ، وأملى أن توفق فى خدمة الصاغ ، فجميع الضباط هجروه فى محنته ، ولم يزره أحد منهم مرة ، حتى بعد أن منعوا الطعام عنه ، ليميتوه جوعاً !

وتطلعت إليه ، والألم يعصر قلبى .

قال : أجل ، هذا والله ما فعلوه .

ولم أنتظر مزيداً من الأنباء المزعجة ، وفى لحظة خاطفة وجدتنى أجرى إلى المخزن ، دون أن يأخذنى التردد .

ولم أجد حارسا عند المبنى الصغير ، فتقدمت إلى الباب أفتحه ، ولكنه كان موصداً بالمزلاج . . ولما هززته وأنصتُّ ، سمعت من الداخل صوت الأغلال الحديدية تتحرك ببطء .

ودرت حول المبنى ، وفى الجدار الخلفى كانت نافذة

www.ibtesama.com

مرتفعة عليها قضبان حديدية ، ولكنها ليست مغطاة بالزجاج أو الجلد أو الورق أو أى شىء آخر يحمى ساكنها من البرد الزمهرير . . وظلّلْت عينىّ بيدىّ لأحجب عنهما أضواء الشتاء الباهرة ، ونظرت إلى داخل المخزن من خلال القضبان ، وهناك فى الجانب الآخر من الغرفة المهجورة ، رأيت محفة خشبية يرقد عليها جسد ضخم . .

قال الراقد بصوته الأجش المعهود : من هناك ؟

وحاول أن ينهض من رقدته ، فرنت الأغلال التى تقيـــد قدميه ، وأحسست لفرط حزنى كأن قلبى يهبط بين جنبىّ . .

ويبدو أنه كان يجد صعوبة فى التحرك ، إذ سمعته يزمجر فى صوت يشبه الأنين . .

قلت له : أنا لانجدون تاون ، أيها الصاغ ، فماذا جرى بالله عليك ؟

هتف يقول : لانجدون ! هل وجدته ؟ هل وجدت الممر الشمالى الغربى ؟

قلت : لا ، فقد مرض ماكنوت ، واضطررت أن أعود به ، ولكنك تستطيع أن تحقق مشروعك مع خمسين رجلا بينهم بعض بناة القوارب . . . لقد تأكد لنا

وجود الممر ، والطريق إليه كما ذكرت مع تغيير طفيف . . فعليك أن تذهب إلى أعالى سانت پيتر ، وتخترق الميسورى ، وتستمر فيه حتى تصل إلى جبال شاينج ، فنهر أوريجون يقع على الجانب الآخر منها ، على مسيرة نصف ساعة لا أكثر . . ومن السهل الوصول إليه ، ولو كنت معنا لوصلنا إليه بالفعل . .

قال الصاغ فى تساؤل : عن طريق سانت پيتر ؟ احذر أن يعرف كارڤر هذه المعلومات . . لا تحدث أحدا بها . . فوالله لأهزمنّهم جميعا ، وأكشف الممر . .

ومرة أخرى سمعتـــه يزمجر متألما ، والأغـــلال ترن فى قدميه . .

قال : هذه السلاسل الملعونة !

ومن صـــوته تأكد لى أنه يتصبب عرقا لفرط ما يعانيه من ألم . .

عاد يقول : هذه السلاسل الملعونة تمنعنى من الحركة ، يا لانجدون ، فلقد ضيّقوها حول رجلىّ حتى كادت تقطعهما . .

وكانت الأصوات الآتية من الغرفة ، والروائح الكريهة

www.ibtesama.com

التى تنبعث منها ، أكثر مما أحتمل ، فدارت الأرض تحت قدمىّ وشعرت بالغثيان . .

قلت له : ماذا حدث ، ولأى سبب وضعوك فى هذا المكان ؟

قال بلهجة تقطر مرارة : لست أعرف إلا أنها الأوامر . . الأوامر التى أصدرها ذلك العنكب الشحيم جيبج . . فلقد تلقى سپيسميكر منه أمرا بتنحيتى عن وظيفتى ، والتحفظ على حتى أُنقل لأحاكم فى ديترويت أو مونتريال . . وهذا ما فعله سپيسميكر بعد خمس دقائق من وصول الأوامر . . ولم يشأ أن يخبرنى أو يخبر أحداً من الحامية بالأسباب . . والمصيبة أنهم لا يستطيعون نقلى إلى ديترويت أو مونتريال قبل ذوبان الثلوج فى الربيع ، ومعناه أن أبقى هنا ثلاثة أشهر أخرى . .

وارتجف صوته ، ورأيت يده الكبيرة تضغط على جنبه .

قال : دعهم يبقونى هنا كما يحلو لهم ، ويعذبونى بقدر ما يريدون ، ويمنعوا عنى الطعام ، أو يحطموا عظامى بسلاسلهم الملعونة ، فمهما فعلوا بى لن أموت . . لقد بذلوا المستحيل فى قتلى ، فخاب فألهم ، ولن أمكنهم

من القضاء عليّ .. سأعيش رغم أنوفهم حتى يأتى الربيع ، وأخرج من هذا المكان ، لأواجه الكلب المسئول عن هذا العمل ..

قلت : كيف سوّلت لهم نفوسهم أن ينكلوا بك على هذا النحو ؟ من حقك أن تعرف الأسباب التى دعت إلى القبض عليك ..

قال الصاغ فى صوت أهدأ : من حقى أن أعرف هذه الأسباب ولكنهم أخفوها عنى ، ولما سألت سپيسميكر – لعنه الله – ولاّنى ظهره ، وذهب دون أن يجيب . . ولم أره من تلك اللحظة .. وبعثت مرارا أستفسر منه ، فلم يُعن حتى بمجرد الرد ..

وكانت عيناى قد تعودتا ظلام المخزن ، فرأيت حول قدمى الصاغ طوقين من الحديد ، كالتى تستعمل فى ربط الخيول ، وبينهما سلسلة مثبتة إليهما بقفل كبير .. وكان يعتمد بذراعه الضخمة على الحامل الخشبى ، ويسحب ركبتيه ببطء شديد ، فارتفع رنين السلاسل مرة أخرى ، مختلطا بأنينه وزمجرته ، ولكنه لم يلبث أن انهار فى مكانه ، وقد خابت جهوده فى التحرك ..

www.ibtesama.com

وأحسست ، وأنا أرقبه فى هذا الصراع ، كأن عضلاتى تتقلص مثلما حدث يوم وقفت مع أوجدون عند شلالات واتوكويتشى نشهد كفاحه الرهيب فى سبيل استرداد العائمة ، التى كان فى وجودها حياتنا ، وفى ضياعها موتنا الأكيد .

قلت له : سأذهب إلى سپيسميكر ، ووالله لـ . .

قال يقاطعنى : وفر على نفسك الجهد ، فلا فائدة منه . . . لقد سبق أن ذهبت إليه إلزابيث وعادت بخفّى حنين . . أجل ، عادت بخفّى حنين .

وضحك بمرارة ، وأردف يقول : أتعرف ماذا فعلوا بها حينما اكتشفوا أنها جاءت تتحدث إلىّ ، مثلك الآن ؟ طردوها من النافذة ، بل رموها منها ! . .

قلت فى همسة الخوف : رموها من النافذة ؟ رموا إلزابيث؟

واختلطت الأمور فى ذهنى ، فشوشت تفكيرى ، ولم أتبين معانى كلامه ، إلا بعد لحظة .

قلت : أحقيقة رموها لأنها جاءت إليك ؟ ألم تزل فى بيتها ؟ أين هى الآن ، يا سيدى الصاغ ؟ . أين هى ، وأين آن ؟

www.ibtesama.com

قال : إلبزابيث تعيش فى القرية بطبيعة الحال ، وهل كنت تتوقع منهم أدباً فى معاملتها بعد أن وضعونى فى هذا المكان ، وتخلى الباقون عنى ، ولم يشأ واحد منهم أن يذكرنى بكلمة طيبة .. ولا حتى كارڤر . أو غيره من الأصدقاء ؟ .. إننى ..

قلت أقاطعه ، وخوفى فى ازدياد : وهل تعيش آن مع إلبزابيث ، يا سيدى الصاغ ؟

وخيل إلىّ أن الصاغ لم يسمعنى ، إذ سكت عن الكلام برهة طويلة ، وعاد يقول : مع إلبزابيث ؟ آخر ما سمعت من أنباء إلبزابيث أنها تعيش مع مسز كاردين ، وهى فرنسية ماهرة ، أوفدتها فى الربيع الماضى إلى الهنود فى آربى كروش ..

قلت ملحّا : وآن ، أهى ...

قال الصاغ فى نبرات سريعة تشوبها رنة الاعتذار : كان وقع الحوادث شديداً على إلبزابيث ، يا لانجدون ، والإنسان فى مثل ظروفها يتكلم كثيرا . ويتصور أموراً ليس لها أساس من الحقيقة ، ولا يصح أن تؤخذ على محمل الجد . . إنه الضيق بطبيعة الحال ، وخير لك ...

www.ibtesama.com

وتوهم لى أن الصاغ يتكلم عن موضوع آخر غير آن .

قلت له : هذه المفاجآت أربكت تفكيرى ، وجعلتنى أحس كأن الأرض تميد تحت قدمىّ ، فالأفضل أن أبحث عن صديق مأمون أسأله عن الأسباب التى دفعتهم إلى معاملتك على هذا النحو ، وأتدارس معه الوسيلة إلى إنقاذك مما تعانيه . . دعنى أذهب الآن إلى آن ، وأعود فوراً ، إذا تمكنت . .

وخيّل إلىّ أن صوت الصاغ يشوبه الخجل حين نادانى ، وقال : انتظر ، يا لانجدون ، فأنا لم أخبرك . .

ولم أنتظر حتى أسمع منه بقية الحديث ، فقد سرت برودة الرعب فى أطرافى ، ووجدتنى لا أريد شيئاً سوى آن نفسها . . أين هى ، ولماذا هرب الصاغ من الإجابة على أسئلتى عنها . .

* * *

فى طريقى إلى القرية ، قابلت اسكتلنديا فى مقتبل الحياة ، يتدثر بثياب سميكة ويغطى رأسه بقبعة من الفراء . . ولما سألته عن مسكن مسز كاردين ، تأملنى ساهما وقال :

www.ibtesama.com

إذا كنت تقصد الأرملة كاردين ، فهى تسكن البيت ذا الباب الأزرق والنوافذ الزرقاء ، ومن السهل أن تميزه من بين البيوت الأخرى . .

وشكرته ، وأسرعت بالمسير ، ولكنه لحق بى ، وقال : هذه الثياب التى ترتديها تدل على أنك قادم من رحلة طويلة .

قلت : من قلب البلاد .

قال : وهل علمت بما أصاب الصاغ ؟

قلت باقتضاب : أجل . . أجل .

ولم أكن أريد أن أضيع وقتى فى الكلام معه أو مع غيره ، قبل أن ألتقى بآن ، وأقضى على الأفكار السوداء التى أخذت تتصارع فى رأسى بعد حديث الصاغ . . إنها حتما مع إليزابيث ، ولا بد أن أجدها هناك .

ولكن الرجل لم يدعنى أفلت منه ، وأصرّ على السير بجانبى ، وقال : لعلك تعرف ما حدا بهم إلى القبض عليه وتقييده بالسلاسل كالكلب العقور ؟

قلت : ألا تعلم أننى قضيت فى الغرب عاما كاملا ،

www.ibtesama.com

ولم أعد إلا فى هذه اللحظة ، فكيف أعرف ، ومن أين تأتينى الأخبار ؟

قال : والله ، إننا لنى أشد اللهفة على معرفة الحقيقة . . خمسة وأربعون تاجراً هنا يبحثون عن الأسباب . . وكل ما بلغنا أن سير وليام چونسون رفض اعتماد الإيصالات . . فلماذا يرفض اعتمادها ؟ لقد اشترى الصاغ منا بضاعة بخمسة آلاف من الجنيهات ، ولكنه فعل ذلك لينقذ البلاد من حرب هندية ضروس . . إنهم يظلمون الصاغ ، ولو كانوا يحكمون بالعدل لكبّلوا سير چونسون — لا روچرز — بالأصفاد .

قلت — وقد أذهلتنى صراحته ، وعجبت كيف يوصف الاسكتلنديون باللباقة والحرص فى الكلام : لست أدرى ، وأولى بمن قضوا العام الماضى هنا أن يتكهنوا بالأسباب .

قال الاسكتلندى : وهذا ما حدث ، فليس لديهم سوى التكهنات . . ربما يكون هذا الأمر أو ذاك . . ولكنهم جميعاً يجهلون الحقيقة الأكيدة ، ويستقون أخبارهم من ثرثرة النساء فى البيوت . . ولكم أكره هذه الثرثرة وأحتقر من يصدقونها .

www.ibtesama.com

ومدّ عنقة فوق بنيقته السميكة ، والتفت خلفه ينظر فى توجس ، وحين اطمأن إلى خلو الطريق من المتطفلين ، عاد ودفنها بين طيات الصوف من جديد .

قال : يزعمون أنه كان يدبر أمره للهرب مع زوجه ، فى هذا الشتاء ، إلى منطقة لويس كونستانس على المسيسپى ، ومنها يهبط إلى نيوأورليانز ، وينضم إلى صفوف الفرنسيين ، لذلك سجنوه ، ليمنعوه من الذهاب .

وكففت عن المسير وجمدت فى مكانى ، وأنا أحدق النظر فى الاسكتلندى الواقف أمامى ، فقد أخذ الأصل فى هذه الشائعة يتضح لذهنى ، فلو أن الصاغ لحق بنا كما وعد ، لتوقف فى طريقه ببرية الكلب التى يسمونها بالفرنسية لويس كونستانس .

ولعل الصاغ أشار فى أحاديثه إلى عزمه على السفر إلى لويس كونستانس ، واستعمل الاسم الفرنسى بدل الإنجليزى ؛ بقصد تضليل مستمعيه عن حقيقة الغرض الذى يسعى إليه . . فانتهز أعداؤه الفرصة ، واستغلوا الخبر للإيقاع به ، وهو أمر فى منتهى السهولة ، إذ يكفى أن يلمح أحدهم على مسمع من المسئولين إلى تفكير الصاغ

www.ibtesama.com

فى الذهاب إلى أراضٍ فرنسية ، فيصدقوه لفورهم ، وينكلوا بروچرز على هذا النحو .

قلت فى دهشة : والله ، إنه السبب !

ورمقنى الاسكتلندى بنظرة إشفاق وقال : يظهر أنك قليل الدراية بمناطق الغرب ، فالذهاب إلى الفرنسيين عن الطريق المذكور أمر مستحيل . . إنها مجاهل خطرة ، وليس فى وسع الصاغ أو غيره أن يرتادها دون هنود ومرشدين . . وما من هندى يقبل التضحية بصيده فى سبيل رحلة كهذه ، وما من مرشد يرضى بتعريض حياته للأخطار . . وحتى إذا وجد الصاغ من يصطحبه ، فهناك الجوع والبرد ، وكلاهما كفيل بالقضاء عليه ، فما بالك إذا سافر بامرأة بيضاء ؟ لا ، يا سيدى . . هذا كلام فارغ ، ومن الخطأ أن تصدقه ، فالصاغ لا يمكن أن يفكر فى رحلة كهذه .

وعدت أستأنف المسير مسرعا ، ولكنى لم أستطع أن أسبق الاسكتلندى ، وظل الرجل بجانبى رغم ما بذلته من جهد .

www.ibtesama.com

أردف يقول : لا ، لا . . إنها شائعة سخيفة . . ولا بد من سبب آخر غيرها . . وربما نشأت متاعب عما يرويه البعض من أمر خلافه مع الملازم روبرتس ، ذلك الجبان الحقير ، واضطرار الصاغ – عن حق – إلى القبض عليه وإبعاده عن هذه المنطقة . . ويقولون إن روبرتس بمجرد عودته إلى رؤسائه الكبار . . .

وكنا قد بلغنا ، فى تلك اللحظة ، المستعمرة الفرنسية ذات البيوت الصغيرة البيضاء . .

قلت فى ضيق : صدقنى إن الشائعات لا تهمنى مطلقاً ، فالصاغ صديق حميم .

قال فى مرح : طبعا ، ولو لم تكن صديقه ما ذهبت إلى مسز كاردين . . وأنا معك فى أنها شائعات لا يقبلها العقل السليم ، ورأيى أن معركته مع پوترهى أصل البلاء ؟ فالناس يؤكدون أنه الابن المفضل لدوق أو شخصية بارزة فى إنجلترا .

ويظهر أن الانفعال ظهر على وجهى ، إذ قال الاسكتلندى بلهجة سريعة : ليست هذه شائعة أرددها . .

www.ibtesama.com

فپوتر يعيش فى بيت بوستويك ، وأنا أعمل كاتباً لدى بوستويك ، ومعلوماتى مستقاة من مصادرها الأصيلة .

قلت : وهل تشاجر مع پوتر ؟ متى كان ذلك ، ولأى سبب ؟

قال : لم تكن مشاجرة ، يا سيدى ، بل معركة اشتبك الاثنان فيها بالأيدى والأقدام ، وأخذا يتدحرجان على الأرض كالقطط الوحشية .

قلت فى دهشة : ولماذا قامت المعركة بين الصاغ وپوتر؟

قال : كان ذلك بعد شهرين من المؤتمر الهندى ، وخرج الاثنان من بيت روچرز يتشاتمان ويتضاربان ويتدحرجان فى الطين . . وظل الناس أسابيع وأسابيع يتكلمون فى هذه الحادثة المؤسفة .

وتوقفت عن المسير مرة أخرى ، وقلت له : ولأى سبب نشب العراك بينهما ؟

قال : لا بد أنه كان أمراً فظيعاً ، وإلا لما اشتد الاثنان فى حرصهما على كتمانه ، فالواقع أن أحداً فى هذه المنطقة كلها لم يستطع الاهتداء إلى السبب ، حتى عند سفر پوتر وبصحبته..

www.ibtesama.com

وأخذنى الرعب ، فقبضت بيدى على ذراعه ، وقلت : هل ذهب پوتر ؟ هل هجره پوتر أيضاً .

قال : أجل ، وأخذ معه ابنته ، وسافر بها إلى مكان ما فى آخر سفينة أقلعت فى شهر أغسطس .

قلت — وأنا أهزه بعنف : وأخذها معه ؟

وسحب ذراعه منى ، وقال : أخذها معه دون شك ، أليس مكان البنت مع أبيها ؟

وحملقت فيه بذهول ، وقلت — والكلمات تتعثر بين شفتىّ : ذهبت معه ؟

ويبدو أن الاسكتلندى اعتبرنى مجنونا ، إذ امتلأت نظراته بالشك ، وقال — وهو يشير بيده نحو اتجاه قريب : هاك بيت الأرملة كاردين .

ومسح أنفه الأحمر فى كمه الصوفى ، ودار على عقبيه ، وابتعد مسرعاً ، وهو يلتفت نحوى بين وقت وآخر .

* * *

استقبلتنى مسز كاردين ، وقادتنى إلى داخل البيت ، ولما سألتها عن إليزابيث ، أجابت فى صوت كزقزقة

www.ibtesama.com

العصافير . . فتذكرت ما قالته آن فى وصفها ، وتوقعت أن تميل علىّ وترمش بعينيها ، مثلما جاء فى الخطاب . . وكانت ناعمة المظهر ، أنيقة الهندام ، ولكن عينيها السوداوين مثل عيون الصقور تفيضان بالحدة والصرامة . . وحين صافحتنى ، أحسست كأن يدها الطرية خالية من العظام ، ففهمت لماذا اختارها الصاغ سفيرة له عند الهنود فى آربى كروش ، ولماذا أيضاً قبلت إليزابيث أن تعيش معها . . مسكينة إليزابيث . . إنها سيئة التقدير دائما ، تطمئن إلى الأشرار ، وتشك فيمن يستحقون الإجلال !

قالت — وهى ترمق صديريتى العتيقة القذرة بإعجاب : يبدو أنك ضيف جديد على هذا البلد ، وصديق للصاغ المسكين . . ولعلك جئت من ديترويت بأنباء عن أسباب القبض عليه . . لا بد أن المسألة كلها مجرد غلطة ! أليس كذلك ؟

قلت : لا ، لم أكن فى ديترويت ، إنى قادم من الناحيـــة الأخرى للبـــلاد ، وأكون شاكراً لو أبلغت مسز روچرز . .

قالت — وهى ترمينى بنظرات الإغراء من عينيها

www.ibtesama.com

الواسعتين : عظيم ، وشجاعة منك أن تأتى فى هذا البرد القارس . .

ومالت برأسها على كتفها كما يفعل العصفور ، وابتسمت لى مشجعة . .

قلت : أرجوك يا مسز كاردين أن تسمحى لى بمقابلة مسز روچرز ، وحبذا لو تركتنا وحدنا لأهمية الموضوع . .

قالت : وهل فى ذلك من شك ؟ سأراك فيما بعد ، فهل تبقى لنتحدث معا بعض الوقت ؟

وضغطت بيدها على ذراعى ، وخرجت من الغرفة بخفة . . فتأكد لى أنها لم تستنفد وقتا طويلا فى التأثير على الصاغ . .

وأحسست كأن الحرارة المنبعثة من الموقد الكبير تكاد تحرقنى ، وروائح الحضارة من عطور وذرور ودهون وطهو توشك أن تخنقنى ، بعد ما تعودت حياة البرارى وبيوت السيوكس . . ودهشت لازدحام الغرف بعجائب الأثاث . . المقاعد الفرنسية . . والصور المعلقة على الجدران . . والستائر السميكة المطرزة . . والتماثيل الخزفية . . أجل دهشت لهذه الأشياء كلها ، وعجبت

www.ibtesama.com

كيف أتت من آلاف الأميال مع تجار يكسبون المـال ببيع أتفه الأشياء لأتفه النساء . .

وسمعت دبيب قدمى إليزابيث على الدرج ، وجاءت إلى الباب مسرعة ووقفت عنده ويدها على مقبضه . . وخيل إلى أن عينيها ازدادتا اتساعا ، وأنفها اتخذ طابع الحدة ، وشفتيها نحلتاعن ذى قبل . .

ورمتنى بإحدى نظراتها الجانبية المعهودة . . وربما تكون صديريتى البالية القذرة أثارت فى نفسها الاشمئزاز ، إذ ظلت تتطلع إلىّ صامتة ، فتركتها على هواها ، والتزمت الصمت . . وأخيراً دخلت الغرفة ، وتخطتنى إلى المقعد الفرنسى ، وجلست عليه ، ثم نظمت أطراف ثوبها الواسع حولها بعناية واهتمام . .

قالت : أنت آخر من كنت أتوقع رؤيته ، يالانجدون . . ولست أعنى أننى أتوقع رؤية أحد ، فقد نسينى الناس جميعهم منذ بدأت متاعب الصاغ . .

قلت : يسعدنى أن أكون فى خدمتك ، يا إليزابيث ، فلا تترددى فى طلب ما تريدين . . لقد رأيت الصاغ من خلال النافذة ، وأكد لى أنه لا يعرف لماذا قبض عليه ، فهل هذا صحيح ؟

www.ibtesama.com

قالت : ولم لا يكون صحيحا ؟ إنه لم يرتكب خطأً . . لم يرتكب خطأً ما . . والمسألة كلها من تدبير سير وليام چونسون ، ولكننا لا نعرف كيف جرؤ هذا الرجل البغيض على التصرف بهذا الأسلوب . . لا أظنها قضية الهدايا التى أعطاها روچرز للهنود ، وإلاّ لقبضوا عليه فى حينها ، أى بعد توزيعها مباشرة منذ ستة أشهر . .

وضغطت بمنديلها على أنفها ، وقالت : آه ، يا لانجدون ، من المهانة التى لقيتها ، ولست أدرى كيف يمكننى ، بعد ما حدث ، أن أرفع رأسى مرة أخرى فى پورتسماوث !

قلت : مادام الصاغ لم يخطئ ، فلا يصح أن تشعرى بالمهانة . . وعن قريب يمنحونه فرصة الدفاع عن نفسه ، فيثبت براءته . .

قالت : يمنحونه فرصة الدفاع عن نفسه ؟ كيف تأتيه هذه الفرصة وهم يقتلونه بالبرد والجوع ويحطمون رجليه بالأغلال ؟ . . إذا مات تضيع سمعة أسرتنا إلى الأبد . . فما ذنب المسكين أبى ليعانى هذا العذاب ؟ !

وأخذت تبكى ، وتقول : لست أفهم كيف جرؤ چونسون البغيض على الإساءة هكذا دون إنذار سابق إلى

www.ibtesama.com

حاكم ؟ . . حاكم . . ، والله ، لقد كنت أفخر بهذا اللقب وأعتز به . .

قلت فجأة : وأين آن ، يا إليزابيث ؟

ورفعت إليزابيث رأسها ، وامتلأت عيناها الدامعتان بالقسوة والجمود . . قالت : أرجوك ألا تذكر اسمها على مسمعيّ ، فإياك أن تنطق به مرة أخرى ، وكفانى ما لقيته بسببها من عذاب . .

قلت فى دهشة : ولكنى أسألك عن آن پوتر . . آن پوتر . .

قالت : لن أتكلم عنها . . لا تسألنى عنها !

قلت : ولماذا ؟

قالت — وقد ازداد غضبها : لأننى أرفض أن يأتى ذكرها على لسانى . .

قلت : هل أفهم من ذلك أنك غاضبة منها . . غاضبة من طفلة صغيرة لا . . .

صاحت بى تقول : طفلة ! أهى حقيقة طفلة ؟ هل تسرق الطفلة زوج صاحبة الفضل عليها ؟

وهبت واقفة ، وعلا صوتها وازداد حدة ، حتى كاد يتحول إلى صُراخ .

www.ibtesama.com

قالت : تحاول سرقة زوجى . . . زوجى أنا . . وترتكب جرمها تحت سقف بيتى الذى يأويها ؟ . . . بعد أن أطعمتها من أكلى ، وكسوتها بثيابى ، تتنكر لنعمى وأفضالى ، وأمام عينىّ ! . . .

وطار عقلى ، فجذبت إليزابيث من رسغها ، وأجلستها على المقعد بعنف ، وقد سرت البرودة فى جسدى كله ، كأنى فقدت آخر قطرة من دمى . .

قلت لها : أنت مجنونة لا تفقهين معنىً لما تقولين . .

واشتدّ بها الحنق ، فسحبت رسغها من قبضتى ، وقالت — وهى تواجهنى بنظراتها القاسية : مجنونة ؟ . . لست مجنونة ، يا لانجدون تاون ، فاطمئن . . وليكن فى علمك أنها كانت تلقى بنفسها فى طريقه وتغريه . . وكلما تركت الغرفة يجلسان جنبا إلى جنب ، وكلما عدت إليها أجدهما جنبا إلى جنب . . وكثيرا ما فاجأتها تنظر إليه بهيام . . وذات مرة ضبطتهما معا فى غرفة البلياردو أمام عينى ، وكانت تختبئ وراء حقيبتك ، وهى تتظاهر بالبحث عن شىء بين أمتعتك . .

واستندت بيديها على جانبى المقعد تهمّ بالوقوف ،

www.ibtesama.com

وارتفع صوتها ثانية ، وملأ أجواء الغرفة .. قالت : لا أفقه معنى لكلامى ! ؟ طبيعى أن تظننى مجنونة بعد أن ضللتك الخبيثة ببراءتها الزائفة .. ولكنى أذكى منك ، وأساليبها المكشوفة لاتخدعنى .. أنتم أيها الرجال جميعا سواء .. ضعاف أمام النساء ، وفى مقدور أى امرأة أن تريكم الأسود أبيض .. إنك لم تر ما حدث ، ومع ذلك تبلغ بك الجرأة أن تكذبنى مثلما كذبنى پوتر من قبل .. أليس من المضحكات المبكيات أن ينبرى أبوها الغبى التافه المخمور إلى الدفاع عنها .. ذلك المخلوق التعس الحقير !! إنها شريرة .. قذرة .. عا ...

وقبضت عل كتفيها بغاية العنف ، وصحت بها أقول : اسكتى يا إلزابيث ! وكفاك ما قلت ، فقد أسرفت فى الكلام وتماديت ..

ويظهر أننى كنت فى غاية من الانفعال ، إذ رأيتها تتهالك فى مقعدها ، وعيناها تمتلئان بالذعر ..

وتمالكت نفسى ، وجلست على المقعد الآخر ، وأنا أحاول السيطرة على تفكيرى بعدما أثارنى حديثها ، وتركنى فى أسوأ حال ..

www.ibtesama.com

وعندما استعدت بعض هدوئى ، تبينت لى أسباب المعركة التى نشبت بين روچرز وپوتر ، ولماذا حرص كل منهما على كتمان الخبر عن جميع أهل ميكيليماكيناك ، ولأى غرض حذرنى روچرز من زوجه ، ورجانى ألا آخذ كلامها على محمل الجد . .

وتذكرت ما حدث فى أسويجو ذات يوم ، حين نظر روچرز من فوق كتفه إلى آن ، وسألنى عن عمرها ، وما قاله يومئذ من أنها لا بد ورثت جمالها عن أمها . . واستيقظ الماضى فى ذهنى ، فتذكرت أيضا پوتر حين كلفنى بالبحث عن آن فى أزقة لندن ، وأشار فى حديثه إلى شغف الصاغ بالفتيات الصغيرات ، ثم التزم الصمت ، واكتفى بهذا التلميح . .

فيالپوتر من مخلوق مسكين . . لا بد أن بقية من رجولته الماضية . . أو ذرة من إيمانه القديم ، تحركت فجأة من مرقدها ، وأحيت ميت شعوره نحو بنته التى لم تتمتع يوما بحنان الأب . . وهذه البقية الباقية من عناصر الخير دفعت ذلك المخلوق التعس ، الذى قدر له أن يعيش إلى آخر حياته حقيرا مخموراً ، إلى الذود عن بنته ، بالهجوم

www.ibtesama.com

على مخدومه العملاق ، والاشتباك معه فى معركة لا سبيل إلى الخروج منها إلا جريحا ممزق الأوصال . .

وفهمت الوضع على حقيقته فى هذه اللحظة . . فهمت أن أجمل جانب من حياتى انتهى الآن . . فثقتى ، التى أوليتها الصاغ طوال السنين الماضية ، تحطمت تماما ، ودورى فى معونته على تحقيق أهدافه بلغ ختامه إلى أبد الآبدين . . وكيف أرضى بمعرفته أو صداقته بعد ما عذب آن — حبيبتى آن — بمطارداته الغرامية السقيمة ، وأذاقها الأمرّين بضعفه الشنيع أمام شهواته الرخيصة ؟ .

ونظرت إلى إليزابيث فى حيرة ، فرمشت بعينيها والتفتت إلى الناحية الأخرى ، وبذلك كشفت عن ضميرها المثقل بعذاب الافتراء ، ولم أعد فى شك من أنها فى سبيل إرضاء كبريائها التافهة الجريح ، قلبت الوضع وشوهت الحقيقة ، واتهمت آن بما هى بريئة منه ، ونسبت إليها المسئولية فى جموح شهوات زوجها ، وانحراف رغباته الحيوانية .

قلت فى اشمئزاز : أعتقد أننى فهمت الأمر على

www.ibtesama.com

حقيقته ، يا إليزابيث ، ولعل الصاغ يتوقع رؤيتى مرة أخرى ، ولكنى لن أذهب إليه ، ولسوف يعرف من تلقاء نفسه لماذا لم أعد لزيارته . .

ونهضت واقفا ، وقلت : إننى ذاهب للبحث عن آن ، فهل تعرفين إلى أين سافر أبوها ؟

وهزت رأسها فى صمت ، وقد شبكت أصابع يديها فى حجرها ، وأخذت تلويها بانفعال . .

قلت : ألم تترك لى رسالة أو خطابا يا إليزابيث ؟ ليس من عادتها أن ترحل دون كلمة . . ثم هناك أمر آخر ، فعند ما كنت فى شلالات سانت أنتونى ، جاءتنى منها رسالة أشارت فيها إلى يوميات . . .

وكأن ذكر اليوميات سوط ألهب إليزابيث ؛ إذ قفزت واقفة ، وصاحت تقول ، وهى تضرب الأرض بقدميها : لا ، لا ، لا . . لا تسألنى عنها ، ولا تحدثنى بأمورها ، وإياك أن تنطق باسمها أمامى مرة أخرى . .

واحتقن وجهها ، وتقلصت عضلاته فى شكل قبيح ، وخيل إلىّ كأن تقاطيعها تذوب ويختلط بعضها ببعض . .

www.ibtesama.com

صاحت بى تقول : كفانى ما لقيت ، فاتركونى لحالى ، ودعونى أذهب عن هذا المكان البغيض القبيح . . أريد أمى . . أريد أخواتى . . أريد أن أبتعد عن هذه الحياة الرهيبة : البرد . . الثلج . . الجليد الذى يحصب النوافذ ولا يكفّ عن الهمس . . يهمس . . ويهمس . . ثم الرياح . . الرياح . .

وتحول صوتها إلى أنين وعويل ، وأخذت تصرخ قائلة : وهذه المخلوقات البشعة التى تعيش فى كل مكان . . الهنود بقذارتهم ، وعفنهم ، وحملقتهم فى الوجوه . . والفرنسيون الحقـــراء بابتساماتهم الوقحة وتلميحاتهم البذيئة . . واليوزباشى سپيسميكر ، ذلك الحيوان الذى يريد أن يقتل زوجى . . ويقتلنى أنا أيضاً . . بل يريد أن يقتلنا نحن الاثنين . . لا ، لا . . هذا أكثر مما أحتمل . . الموت أفضل عندى من البقاء فى هذا المكان . . آه يا ربى . . ليتنى مت . .

وانهارت على مقعدها ، وأخذت تبكى وتنشج بعنف شديد . .

قلت : الأفضل يا إليزابيث . .

www.ibtesama.com

ولكنهـا لم تدعنى أتم كلامى ، وظلت تنتحب ، وتنتحب . .

قلت ثانية : الأفضل يا إليزابيث . .

وارتفع صـوتها بالعويل ، ففتحت البـاب ، وتركتها وانصرفت . .

** معرفتي **
www.ibtesama.com
منتديات مجلة الإبتسامة

www.ibtesama.com

الفصل التاسع

وقفت فى الطريق المغطى بالثلوج ، أمام البيت ذى النوافذ الزرقاء ، أحاول أن أستجمع شتات ذهنى ، وأستعيد بعض هدوء نفسى ، وأفكر فى كل ما حدث منذ لحظات .

كنت على ثقة أكيدة من أن آن لم ترحل عن ميكيلياكيناك دون أن تترك لى رسالة . . فى مكان ما . . أو مع أحد من الناس . . فأين وضعتها يا ترى ؟ . . أو لمن أعطتها ؟

وأخذت أناقش الاحتمال الأخير ، وأنقب فى ذهنى عمن تطمئن إليهم آن . . بحيث تكلفهم بأداء هذه المهمة . . ولكنى لم أجد أحداً . . فمن غير المعقول أن تأتمن خادماً على رسالتها إذا كانت ضمنتها أموراً شخصية تحب أن تظل سراً بيننا . . . ولا بد أن الآخرين من أهل ميكيلياكيناك ، تخلوْا عنها بعد أن تعارك أبوها مع الحاكم ، ومزق أواصر الصداقة . . الصداقة ؟ ؟ وأثارتنى هذه الكلمة من جديد ، فأحسست بغصة فى حلقى ، وأنا

www.ibtesama.com

أتصورها مختبئة خلف الحقيبة ، ترتجف ذعرا وعيون الباز ترمقها بنهم ورغبة . .

وفجأة طرأت الفكرة لذهنى ، فصحت قائلا : الحقيبة ! أجل . . والله إنها الحقيبة ، التى كانت تختبئ وراءها !

وأفزعت صيحتى رجلا ثملا ، تصادف أن مرّ بى فى تلك اللحظة ، فابتعد عن طريقى غاضبا ، وأخذ يعنفنى محتجا ، ولكنى تركته يفعل ما يشاء ، وسرت مسرعا نحو القلعة ، متجها إلى بيت اليوزباشى سپيسميكر . .

وعند مدخل القلعة ، وجدت الحارس يتأمل بيت ستيفن جروسپيك باهتمام . . ولما اقتربت منه رمانى بنظرة سريعة ، وقال : إنه التاجر ماكنوت . . . ذلك الجندى القديم بفرقة المتطوعين . . . وصل الآن من المسيسپى ، وسمعت أنه مريض ، ولكن بودّى لو رأيت قوته ، حين علم بما أصاب الصاغ ، وهجم على باب السجن يريد أن يحطمه بساقه الخشبية ، فأبعدوه بأسـنة الحراب ، ووضعوه تحت التحفظ . .

ورأيت حشدا من المدنيين والعسكريين يتزاحمون أمام نافذة جروسپيك ، وسمعت زمجرة خافتة عرفت فيها

صوت ماكنوت ، ولكنى لم أتوقف ، ومضيت فى طريقى إلى الكنيسة الصغيرة ، التى يقع خلفها بيت البوزباشى .

وأذن لى الحارس بالدخول ، وبعد لحظة أقبل سپيسميكر فى سترة جلدية ذات بنيقة مرتفعة تصل أطرافها إلى أذنيه . . . شعره القصير يقف فوق رأسه كالشوك ، وعيناه الباهتتان تفيضان بالقحة والبرود .

ووقف على عتبة الباب يرمقنى بنظرات ملؤها الحقد والكراهية ، فلم أعجب لسوء لقائه إذ كنت أعرفه دائما إنسانا بغيضا منفّرا ، ليس بين جميع أفراد الحامية على كثرتهم من يحبه أو يعطف عليه .

قال فى جفاء : خيراً ؟

قلت أذكره بنفسى : أظننا تقابلنا هنا منذ عام ، قبل سفرى إلى المسيسپى . . وعقد يديه خلف ظهره ، وقال بمنتهى البرود : ماذا تريد ؟

قال — وقد جمدت النظرات فى عينيه الرماديتين الضيقتين : آه ، أنت صديق آخر للصاغ العظيم . . ادخل من فضلك ، فلى معك حديث صريح .

ودار على عقبيه ، وتقدمنى مسرعا إلى غرفة الجلوس . . وهى قاعة صغيرة دافئة ، فى ركن منها موقد حديدى

www.ibtesama.com

كبير . . أرضها وجدرانها تغطيها جلود الجاموس والدببة منعا لتسرب البرد . . وفى وسطها منضدة على جانب منها مجموعة من الكتب ، وعلى رف الموقد قطع من المعادن الخام : النحاس والرصاص والحديد والفضة . . وكان يرقد أمام الموقد ، كلب بنّى اللون ، فلما رآنى أدخل الغرفة أقبل علىّ ، وأخذ يشم فى سترتى الجلدية ، التى ما زالت تحمل آثارا من رائحة كلاب السيوكس . . ولكن سپيسميكر نهره بعنف ، فعـــاد إلى مكانه ، وأخذ يرمقنى بنظرات حزينة ، كأنه يحس بما يعتمل فى قلبى من يأس شديد .

والتفت سپيسميكر نحوى وقال : أصغ إلىّ . . إذا كنت تفكر فى مساعدة صديقك الصاغ ، فأرح نفسك من الجهد . . لن تستطيع أن تفعل شيئا على الإطلاق . . إنها مسألة منتهية ، ولسوف يحاكم فى الوقت المناسب أمام مجلس عسكرى . . وهذا أقل ما يستحق . . فكن على حذر ، وإياك أن تقحم نفسك فى مشاكل لا تعنيك . . لقد كنت غائبا حين وقعت المتاعب ، وليس فى نيتنا أن ندخلك فى القضية ، فمن مصلحتك أن تكتفى بذلك ، ولا تضطرنا إلى استعمال العنف .

وكنت مشغولا بأفكارى ، فلم أعر كلامه اهتماما مذكورا .

www.ibtesama.com

أردف يقول : هذا الماكنوت تصرف بمنتهى الحماقة .. تصوّر له أنه أسد شجاع وفى مقدوره أن يتغلب بمفرده على الحامية كلها ، فنال ما يستحق ، وقبضنا عليــه . . إنه صديقك ، وكان مسافرا بصحبتك ، فالأفضل أن تتعظ بما حدث له ، واعلم أننى القائد هنا . . الكلمة كلمتى . . والأمر أمرى . . والذى يعصانى ينال جزاءه الحق .

قلت : أنا لا أريد يا سيدى الضابط سوى حقيبتى ، فهل تعاوننى على استردادها ؟

ويظهر أن سپيسميكر لم يصدقنى ، إذ عاد يقول : إياك أن تحاول مساعدة ماكنوت على إثارة المتاعب ، وإلا ندمت ! . . فأنت واحد ممن أساءوا استغلال المخازن الملكية ، وكنت فى منطقة المسيسپى تتاجر بالبضائع الحكومية لحساب صديقك الصاغ . . أجل ، أنت وماكنوت وچودارد وتيوت وآثرتون . . فإذا أثرت شغباً أو تدخلت فيما لا يعنيك ، أوقفك عن عملك ، فلا تستطيع أن تمارس التجارة فى هذه القارة إلى آخر يوم فى حياتك .

قلت : لست تاجراً يا سيدى الضابط ، ولم أسافر إلى الغرب للتجارة ، بل سافرت لأرسم الهنود ، وأقنعهم بضرورة الاشتراك فى مؤتمر السلام . . قمت بهذه المهمة

www.ibtesama.com

بناءً على تكليف رسمىّ . . كل ما حدث هنا لا يهمنى ، ولا شأن لى به ، ولست مسئولا عما أدى إلى القبض على الصاغ ، وإغلاق بيته على حقيبتى ، فهل تأذن لى باسترددادها ؟

قال سپيسميكر فى بسمة ساخرة : ذهبت تدعو إلى السلام ؟! سلام لا يستفيد بهسوى قلةمن التجار ! حيل مكشوفة ، وسخافة لا يقبلها العقل . . وإذا كنت قد سافرت حقيقة لرسم الهنود ، فأين رسومك المزعومة ؟

قلت : لست أحملها معى الآن .

قال فى تشفٍّ : طبعا ، وجهودك فى الدعوة إلى السلام لم تنجح ؛ والممر الشمالى الغربى الذى تبحثون عنه لا وجود له . . إنها مزاعم تقصدون بها تضليلنا ، ولكنا نعرف الحقيقة بكاملها . . نعرف أنكم سافرتم لتؤمنوا طريق الصاغ بين الهنود ، تمهيدا لالتحاقه بالفرنسيين فى نيو أورليانز ، وانضمامه إلى جيشهم برتبة أعلى .

قلت : هذا كلام فارغ لا يصح أن أضيع وقتى فى مناقشته ، فهلا أرسلت معى حارسا يساعدنى على استرداد حقيبتى ؟

قال بحـــدة : كلام فارغ ؟ ليس هذا الكلام فارغا يا صاحبى ، فلدينا الأدلة القاطعة على خيانة الصاغ ،

www.ibtesama.com

وخطته بحذافيرها معروفة لنا ، فلقد كان يعد العدة لقتلنا جميعا ، والحرب إلى الفرنسيين .

قلت : لحظة من فضلك . . هذه ثانى مرة تتهمنى فيها بالاشتراك فى مؤامرة تنطوى على الخيانة ، فعلى أى أساس تبنى كلامك ؟ أفلم تصادر جميع أوراق الصاغ ، وتبحث فيها ؟ علمت أنك فعلت ذلك .

وهز سپيسميكر كتفيه وزمّ شفتيه .

قلت له : ما دمت قد قرأت هذه الأوراق فلا بد أنك تعرف الآن لماذا سافرنا إلى الغرب . . فالأوامر الرسمية التى تتضمنها . . .

قال : أوامر؟ من السهل على أى إنسان أن يزوّر الأوامر التى تعجبه .

قلت : صدقت ، فالتزوير ليس بالأمر العسير ، ولكنك رأيت بين أوراق الصاغ رسائل من تشارلز تاوسند ودكتور كامپل . . من هنرى إليس وإدموند بيرك . . وفى هــذه الرسائل أوامر صريحة بالبحث عن الممر ، ولا إخالك تحسب روچرز أو غيره من الغباء بحيث يزوّر توقيع عظماء مثلهم .

www.ibtesama.com

قال : لم أجد بين الأوراق رسائل من هذا القبيل .

ورمقته بحدة ، فالتفت إلى الناحية الأخرى ، هربا من مواجهتى ، ولكن وجهه ظل على جموده وثباته ، ولم تختلج عضلة فيه .

قلت : لم تجد رسائل من هذا القبيل ؟؟ كيف تدعى أنك صادرت أوراق الصاغ ، وفتشت فيها ، ومع ذلك لم تجد بينها مكتوبا من تشارلز تاوسند وزير الحربية ومستشار الملك ؟

قال بجرأة : وهل يعقل أن يكتب عظيم مثله إلى متآمر كالصاغ بأسلوب يفيض مودة ومحبة ؟

وشعرت برغبة صادقة فى إجابته بما يستحق ، ولكنى آثرت المسالمة ، فقلت له : دعنا من المناقشة ، فلست أريد سوى حقيبتى . . لقد تركت فيها بعض المواد التى تستعمل فى الرسم ، وأريد أن أحتفظ بجانب منها ، وأبيع الباقى لأحصل على قليل من المال . . فرجائى أن تمكننى من استرداد حقيبتى ، حتى أتمكن من السفر صباح غد .

قال ــ وقد أشرق وجهه : أتنوى السفر من هنا ؟ أتحب أن تذهب الآن ؟ . . وهل تعتزم الاتجاه إلى الشرق ؟

قلت : أجل ، أريد أن ألحق ببوتر إذا أمكن ، فهل تعرف إلى أين ذهب ؟

www.ibtesama.com

وتبدل سلوك سپيسميكر تماما ، وسار إلى الباب ، ونادى حارسه ثم أخرج من أحد أدراجه مفتاحاً ، وقال لى : لست أعرف مع الأسف إلى أين ذهب ، فلقد مضى وقت طويل منذ رحيله . . وبعد معركته مع الصاغ ، التزم الصمت ، ولم ينطق بكلمة . . وأعتقد أنه كان يرغب فى العودة إلى إنجلترا ، وربما يبحر إليها من نيويورك ، أو من أى ميناء آخر .

ولما أتى الحارس ، أعطاه اليوزباشى سپيسميكر المفتاح ، وأمره باصطحابى إلى بيت الصاغ ، ومساعدتى على نقل الحقيبة إلى أى مكان أختاره ، ثم ودعنى بأدب . . ولم أره منذ ذلك اليوم . . لا ، ولم تخالجنى رغبة فى رؤيته مرة أخرى.

* * *

وقف الحارس ينتظرنى فى البهو المظلم المهجور ، فتركته فى مكانه هذا ، وصعدت الدرج مسرعاً إلى الطابق الثانى .. وكان البيت كله مازال يحمل آثار رحيل أصحابه المفاجئ . . فالحجرة الواسعة التى ينام فيها الصاغ والبزابيث تزخر بالملاءات القذرة ، والثياب المبعثرة : والرسائل الممزقة ، والصحف القديمة . . ومن أحد المقاعد تتدلى مرولة واسعة ..

www.ibtesama.com

وبجانب السرير ترقد زجاجة فارغة . . والحال كذلك بقية أنحاء البيت ما عدا غرفة آن ، فقد وجدتها مرتبة نظيفة ، وليس بها سوى أثاث قليل ، كأنها سجن صغير .

وقصدت غرفة البلياردو جريا ، وبحثت عن حقيبتى ، فعثرت عليها فى الركن حيث تركتها ، وقد فرشت عليها قطعة من جلد الجاموس ، وأعدت على شكل مقعد يصلح للجلوس .. وكانت السترة الجلدية التى تركتها عند سفرى ، مكومة على منضدة البلياردو ، ومفتاح الحقيبة ما زال قابعا فى مخبئه وراء الموقد .

وانحنيت على الحقيبة ، وأخذت أمسح بيدى الغبار المتراكم فوق الحروف التى رسمتها عليها بالألوان قبل سنة مضت ، فاحتكت أصابعى بطبقة خشنة ، عندئذ تذكرت الذباب الأسود الصغير ، حين سَفَتْه الرياح الشمالية الغربية ، والتصق بعض منه بالألوان اللزجة ؛ وكيف ركعت آن بجوارى فى آخر يوم ، وأخذت تحاول إزالته بسن دبوس .. ولم أشأ أن أتذكر أكثر من هذا ، ولم أحاول التفكير فى منظرها حين دخلت إليزابيث الغرفة ، ووجدتها مختبئة وراء الحقيبة .

www.ibtesama.com

وأخيرا استطعت أن أرفع الغطاء ، فوقعت أنظارى على معطفى المطوى بعناية فوق متاعى ، وبين ثناياه قطعة من النسيج الأحمر لابد أن تكون آن قد وضعتها فى مكانها هذا ، منعا لتسرب العثة . . ومددت يدى أبحث فى الحقيبة ، فوجدت آثاراً أخرى لعناية آن بحاجاتى ، ولكنى لم أعثر على الرسالة . . وتملكنى الفزع ، فأخرجت ثيابى وألقيت بها على الأرض ، وأخذت أفتش فى جيوبها جيبا جيبا ، ولكن جهودى ذهبت هباء ، ولم أجد بغيتى .

وأحسست بخيبة الأمل تعتصر قلبى ، وشعرت بجفاف فى حلقى ، ومع ذلك قررت ألا أستسلم لليأس ، وأن أظل أبحث وأبحث ، حتى أعثر على الرسالة التى تركتها لى آن فى مكان ما من هذه الحقيبة .

وأغمضت عينىّ ، وأخذت أتخيل ما تقوله آن ، لوكانت تركع الآن بجوارى .

كان يحتمل أن تقول : كيف أذهب ، يا لانجدون ، دون أن أترك لك كلمة ورائى ، طبعا كتبت لك رسالة ، ووضعتها فى مكان لا بد أن تهتدى إليه إن عاجلا أو آجلا .

وفتحت عينىّ ،وجعلت أتأمل الحاجات التى أخرجتها من

www.ibtesama.com

الحقيبة ، وكوّمتها على الأرض ، ولم يكن بينها ما لا أستغنى عنه سوى كراسة الرسم .

صحت أقول : أجل ، إنها الكراسة !

وسمع الحارس صيحتى ، وخشى أن أكون فى شدة ، فسألنى من خارج الغرفة : هل حدث شىء يا سيدى ؟

قلت — وأنا أحل الرباط من حول الكراسة : لا ، كل شىء على ما يرام ، فأمهلنى دقائق أخرى . .

وسرت إلى النافذة الوحيدة بالغرفة التى تطل على ساحة العرض الآخذة فى الظلمة ، وأنا أحتضن الكراسة . . الكراسة التى عنيت آن بوضع أوراق شفافة بين صفحاتها ، حتى لا يفسد ما بها من رسوم . . الكراسة العزيزة . . أغلى ما أقتنى فى الوجود .

وبيد مرتجفة أخذت أقلب صفحاتها . . صفحة بعد صفحة ، حتى وجدتها . . وجدت الرسالة المكتوبة بذلك الخط الأنيق الجميل ، الذى تعلمته آن من مدرستها الصارمة مس پينيكر .

وألقيت نظرة على مستهلها ، حيث كتبت : « عزيزى لانجدون » .

وتنفست الصعداء ، وانكمشت بجوار النافذة ، وأنا أشد الكراسة إلى صدرى ، عسانى أستمد منها بعض دفء آن وحرارة قلبها .

كانت تقول فى رسالتها : « نحن راحلون الآن . . وكان أملى أن يتسع الوقت أمامنا حتى تأتينى رسالة منك تخبرنى فيها بمكانك .. ولكنى سألت التجار العائدين واحدا واحدا ، فلم يستطيعوا أن يرشدونى إليك ، وأكدوا أنهم رأوك لآخر مرة فى برية الكلب ، وبعدها انقطعت أخبارك عنهم . . ولقد تقابلوا مع كارڤر وتيوت وجودارد وآثرتون ، ولكنك لم تكن بصحبتهم ، ونصحونى بعدم الكتابة إليك ، لأنك ذهبت ولن تعود . . ولم أصدقهم ، فلقد وعدتنى أن تعود ، وقلبى يحدثنى أنك لابد عائد ، لاحتياجك إلى فى إعداد الألوان ، ووضع الأوراق الشفافة بين رسومك . . بل إننى واثقة من عودتك لأنك إذا لم تعد أفقد رغبتى فى الحياة ، وأرفض أن أعيش ، لذلك يجب أن تعود .

« نحن فى طريقنا الآن إلى مونتريال ، لأن والدى يصر على مغادرة هذا المكان ، ويأبى أن نبقى هنا بعد اليوم . . ولقد اشتبك مع الصاغ فى معركة رهيبة ، وأخشى أننى كنت السبب فيها . . فمع الأسف الشديد أن الظروف جعلت الصاغ

www.ibtesama.com

يعيش حياة فارغة لا تلائمه ، ولم يبق له ما يفعله سوى شرب الخمر طول النهار مع التجار . . ويظهر أن خيبة أمله فى اللحاق بكم ، ومضـــايقات مستر روبرتس التى لا تنقطع ، أفسدت البقية الباقية من نفسيته ، فازداد تهالكا على الخمر ، ولم يعد يكف عن الشرب لحظة . . حتى أصبح من العسير علىّ أن أهرب من طريقه ، الأمر الذى كان يملأ قلبى بالخوف أحيانا ، ويجعلنى فى رعب دائم منه ، ولكنه خلق هكذا ، ولا حيلة له فى أمر نفسه .

« كم صليت إلى الله ضارعة أن تعود ، وكنت كلما سمعت مدافع القلعة تنطلق ، أظنه إعلانا عن رجوعك ، فأجرى إلى المرسى لعلى أجدك .

« أبى مازال مريضا ، وأعتقد أن أيامه فى هذه الدنيا باتت قليلة ، ولن يطول به العمر أكثر من أشهر معدودات . . ويقول إنه يستطيع الحصول على بعض المال فى مونتريال ، وإن كنت أشك فى صحة كلامه ؛ ولكن يبدو أنه يعتمد على معونة من الملازم روبرتس ، فقد رأيتهما يتهامسان معا ، ويتكلمان طويلا فى صوت خفيض . . ولاحظت أخيرا أنه يكثر من الحديث عن إنجلترا ، وينشد ماكتبه شكسبير فى

www.ibtesama.com

وصفها عدة مرات في اليوم الواحد . . لذلك أعتقد أنه يعتزم العودة إليها بمجرد حصوله على بعض المال .

« غدا فى باكورة الصباح نسافر على البارجة جلادوين ، وبهذه المناسبة أحب أن تعرف كيف تغيرت أخلاق أبى فى العهد الأخير . . فأصبح يرعانى ويهتم بأمرى ويحيطنى بعطفه الشديد ، . . وكل ما أتمناه من الله ، أن يوفقنى فى تمريضه ، حتى تتحسن صحته ولو قليلا على يدىّ . . وبذلك أكون قد أظهرت اعترافى بالجميل .. لم أكن أتوقع أن يعاوننى فى محنتى ، ولكنه وقف بجانبى ، وبذل جهده فى حمايتى ، فأرجو أن تحترمه لذلك ، فهل تفعل ذلك ، ياالانجدون ؟

« أشعر أن الظروف أبعدتنى عنك بمسافات شاسعة ، وهذه الرحلة تبعدنى أكثر ، فلعلك تلحق بنا ، ياالانجدون . . وبمجرد أن تعثر على هذه الرسالة ، فأسرع بالحضور إلينا فى مونتريال ، وسأكون فى انتظارك دائما بكل ما فى قلبى من الأمانى والآمال . . آن »

وعندما انتهيت من قراءة هذه الرسالة ، وقفت أمام النافذة جامدا ، أنظر من خلال العتمة السائدة إلى السجن القائم بالجانب الآخر من ساحة العرض ، فرأيت نافذته المغطاة بالقضبان الحديدية غارقة فى ظلام دامس . . ولابد

www.ibtesama.com

أن البرد القارس الذى ينفث الثلج فى رياحه الموجعة ، يهجم من خلال هذه القضبان الحديدية ، لينفذ كأنصال السكاكين الماضية فى جسد ذلك المخلوق البائس ، الذى يرقد فى الظلام مقيدا بالأغلال .

وتردد فى ذهنى قول آن : « ولكنه خلق هكذا ، ولا حيلة له فى أمر نفسه » . . ولقد صدقت فى هذا الكلام ، فمع الأسف أنه خلق هكذا ، ومن المستحيل أن نغيّره مهما فعلنا . . وكنت فى هذه اللحظة أحتقره غاية الاحتقار ، ومع ذلك شعرت أننى أرتكب خيانة لاتغتفر بتركه فى سجنه حزينا ، محطما ، معذبا ، مكبلا بالأغلال .. ولكن ما حيلتى أمام أفراد الحامية الأغبياء ... وحتى إذا كان مصيره يتوقف على إرادتى ، فهل كنت أنقذه ؟ . . لست أدرى فى الواقع ، لأن أفكارى كلها كانت مركزة فى آن .

www.ibtesama.com

الفصل العاشر

كان مسكن ستيفن جروسبيك يقع أمام مخزنه ، فيبدو بالمقارنة إليه كأنما المخزن الضخم قد تمخض فولد مبنىً قزما يشبهه تماما ، ولكن على صورة ضئيلة منه . وخُيِّل إلىّ وأنا أدخل المسكن الصغير الدافئ ، أنه المأوى الذى أستطيع أن أنام فيه إلى ما شاء الله ، لو كنت خالى البال . .

وكثيراً ما سمعت الناس يصفون الهولنديين بالبُخل والغباء ، ولكن جروسبيك الهولندى كان كريما راجح العقل . . . ولما طرقت أبوابه فى ذلك المساء ، ودخلت بهوه أجرّ حقيبتى خلفى ، قابلنى بغاية الترحيب ، ودفعنى أمامه إلى غرفة استقباله الأنيقة ، وأجلسنى بين الوسائد على مقعد مريح ، ثم ذهب يأتينى بزجاجة الروم من غرفة الطعام . .

وقدم لى كأساً ، وتركنى أرشف من الشراب بهدوء ، وظل واقفا أمامى فى قلق واضح يرفع رجلا وينزل أخرى . . .

قال : ألا تكفينا متاعبنا ، حتى يأتى هذا الماكنوت ،

www.ibtesama.com

ويخلع ساقه الخشبية ، وينهال بها على المبانى يريد أن يحطمها ؟ . . . من حسن الحظ أنه مريض وبساق واحدة ، وإلا لألقى بنا فى السجن تحت حراسة الجنود المسلحين . .

قلت له : عندى معطف بُنّى اللون صنع فى لندن ، ولم ألبسه سوى مرات معدودات ، وحقيبتى أيضاً متينة الصنع وفى حالة جيدة ، فهل تبيعهما لحسابى مع بقية متاعى مقابل ما يكفينى للسفر إلى مونتريال ؟

قال جروسبيك فى عطف : أظن من السهل أن نرتب هذه الأمور على ما تشتهى ، وأمامنا متسع من الوقت لبيع ما تشاء ، إذ لن تستطيع أن تسافر قبل شهر إبريل أو مايو ، فالبارجة جلادوين لا تعود إلينا قبل هـــذا التاريخ . . . والآن . . املأ كأسك من جديد ، وأسند ظهرك إلى المقعد ، واجلس مرتاحا ، وغدا نتكلم فيما تريد . .

قلت : غدا تفوت الفرصة ، فقد استقرّ عزمى على السفر إلى مونتريال عند الفجر . .

وصاح جروسبيك محتجا ، وتكلم باللغة الألمانية فى غضب شديد ، ثم استعاد هدوءه ، وقال : يظهر أنكم أصبتم جميعاً بالجنون ، ولم يبق من عاقل سواى . . .

www.ibtesama.com

كيف تريد أن تسافر إلى مونتريال فى مثل هـــذا الشتاء ؟ لا ، لا . . يجب أن تبقى معنا ، وتسلى نفسك بفتاة هندية صغيرة مثلما يفعل الآخرون ، وعند ما يأتى الربيع ، وتذوب الثلوج ، تسافر إلى مونتريال مجانا ، وتقوم برحلتك دون أن تتكلف درهما واحدا . .

قلت : لا تتعب نفسك ، يا مستر جروسپيك ، فقد استقر بى الرأى على السفر غداً عند الفجر . .

قال فى غضب شديد : رحمتك يارب ! . . . هذا الرجل يتكلم دون وعى . . يريد أن يسافر عند الفجر ، . . . أجل عند الفجر ، وفى هذا الطقس القاتل ! ! . . .

والتفت إلىّ يقول بانفعال : لماذا تصرّ على السفر غداً عند الفجر ، وهل تجنى من وراء ذلك سوى دمارك ؟ . . ألا تعرف أن مياه المضايق متجمدة الآن ، والسفر فى هذه الظروف معناه الموت الأكيد ؟ . . ألم تنل كفايتك من عذاب الثلج والجليد وراء المسيسبى لتُصرّ على الترحال فور عودتك وقبل أن ترتاح ؟ أتحب أن تتجمد أصابعك بالبرد ؟ أتحب أن يتجمد جسدك ، وتموت ؟ . . ولأى داعٍ تعرض حياتك لكل هذه الأخطار ؟ ؟ . .

www.ibtesama.com

قلت : إنها أسباب شخصية ، يا مستر جروسپيك ، . . . أسباب شخصية هامة . . .

قال : إذا كنت تريد أن تسافر إلى مونتريال من أجل الصاغ ، فوفر عليك الجهد ، حتى تسمع بقية القصة . . .

قلت : لا يهمنى أن أسمع شيئاً ، يامستر جروسپيك ، والحقيقة أننى زعجت كثيراً حين علمت أن پوتر . .

قال يتاطعنى : أتظن أن أحداً يصدق هذا اللص السكير الحقير ؟ . . إنه رجل قذر شرير ، فلا تخاطر بحياتك من أجل صعلوك مثله .

قلت : إنك لن تفهم قصدى ، يا مستر جروسپيك ، فكل ما تقوله عن پوتر صحيح ، ولكن ابنته . . .

قال : آه . . .

قلت : كانت هذه الفتاة فى رعايتى منذ سنوات لمدة قصيرة أيام طفولتهـــا ، وأنا أعرف أى نوع من الآباء پوتر ، لذلك يجب أن أسافر إلى مونتريال عند الفجر . .

قال : وهل فى نيتك أن ترى الصاغ قبل الرحيل ؟

قلت : لا .

فأخذ يذرع الغرفة جيئة وذهابا ، وبين آن وآخر

www.ibtesama.com

يرميني بنظرة حادة ويتمتم لنفسه بألفاظ غير مفهومة . .

وأخيراً ذهب إلى النافذة ، ورفع عنها ستارها السميك ، وتطلع إلى الخارج . . ثم التفت نحو الباب ، ونادى عاليا باللغة الهندية ، فدخلت علينا من غرفة الطعام امرأة هندية ... قصيرة القامة ، نحيفة القوام . . . ترتدى صديرية من المخمل الأخضر ، وسروالا أحمر اللون ، ومن أذنيها يتدلى قرط طويل مرصع بالماس الزائف .. وظلت تحدق فيّ وجروسپيك يلقى إليها بأوامره . ولما انتهى ، خرجت من الغرفة تسير فى جلال ووقار .

قال جروسپيك : إنها زوجتى ، ويؤسفنى أنك ترفض البقاء معنا إلى الربيع ، فعندى قرط ماسيّ آخر ، ويسرنى أن تأخذه هدية منى ، لتشترى به الهندية التى تعجبك . .

وعاد يذرع الغـــرفة جيئة وذهابا ، وهو يزمجر عاليا . .

قال : من المستحيل أن تقوم بهذه الرحلة وحدك . . . ولكن يحتمل أن توفق إذا سافرت برفقة مرشدين مؤتمنين . . . أجل . . إنه مجرد احتمال . . .

www.ibtesama.com

وفتح الباب فى تلك اللحظة ، ودخل منه ماكنوت تقوده الهندية الصغيرة ، ووقف أمامنا ، وفى وجهه علائم الشر ، أما الهندية فالتفتت فى المرآة تتأمل قرطها بإعجاب ، ثم انسحبت من الغرفة فى صمت .

قال جروسپيك لماكنوت : اجلس يا صديقى ، ولا ترفع صوتك بالكلام ، فلو اكتشفوا أنك تسللت إلى بيتى من الباب السرى الصغير ، فإنهم سيوصدونه لفورهم ، فتظل حبيس سجنك حتى يفرجوا عنك فى آخر الشتاء . .

قال ماكنوت : أين زوجى ؟

قال جروسپيك : ما زالت تأكل فى المطبخ ، وهذا الذى تتناوله الآن ثالث عشاء لها الليلة . .

وسار ماكنوت يعرج إلى المقعد ، وألقى بنفسه فيه ، وكانت ساقه الخشبية مخدوشة فى عدة مواضع ، وطرفها الأسفل مكسور . .

وقدم إليه جروسپيك كأساً من الروم ، فأخذ يشرب منها وهو يرتجف من البرد . .

قال له ماكنوت بحدة : أرأيته ، يا لانجدون ؟ أرأيت ما فعلوا به ؟ وأين وضعوه ؟ . .

www.ibtesama.com

وهب واقفاً ، وقد نسى أن ساقه الخشبية مكسورة ، فترنح وكاد يسقط على الأرض ، لولا أن استند إلى ظهر المقعد فى آخر لحظة . .

أردف يقول بحنق : لست والله أفهم كيف اجترأ عليه الأوغاد إلى هذا الحد . .

قال جروسپيك ، وهو يعيده إلى مقعده ، لا تصرخ هكذا ، فلن يفيدك الصراخ ! . .

قال ماكنوت : أنت رجل متعلم يا لانجدون ، وفى مقدورك أن تفكر فى وسيلة ننقذ بها الصاغ . . . بل يجب أن تفعل ذلك ، فأهل هذا البلد جميعهم جبناء ، وبمجرد أن رأوه يقع فى الإشكال ، هربوا منه واختفوا فى جحورهم كالفئران . . . نسوا أنه صان لهم أرزاقهم ، وحماهم من الإفلاس . . هؤلاء الناس ليسوا آدميين . . إنهم كالحيوانات مجردون من الشعور والإحساس . .

قلت له : ليس فى مقدورى أن أساعد الصاغ ، ياماك ، فغداً أسافر إلى مونتريال مع الفجر . .

قال ماكنوت فى دهشة بالغة : مونتريال ؟ لن تجد من يرضى بنقلك إليها فى هــذا الوقت من العام مهما دفعت . . ثم كيف تتنكر للصداقة بهذه الصورة ، وتتخلى

عن الصاغ فى محنته ؟ لقد أخبرنى أنك رأيته ، ووعدته بالعودة مرة أخرى . . فبحق السماء ماذا دهاك يا لانجدون ؟ . . أتراك . .

واحتبست الكلمات فى حلقه لفرط حنقه ، وانحنى على ساقه الخشبية يحاول أن يخلعها . .

أردف يقول ، وقد طيّر الغضب صوابه : أتترك أعظم مقاتل فى الوجود يرقد فى البرد مقيداً بالأغلال ، لتجرى وراء دمية نحيلة سخيفة ، ذات أنف أفطس ؟ ! . .

فضربه جروسپيك على ظهره بحدة ، وقال له : أنت تتكلم دون وعى ، فأصغ إلىّ . . ليس من حقك أن تتهم الناس بالجبن ، وتتطاول عليهم ، قبل أن تعرف الحقيقة ، فدعنى أخبرك بما تجهله ، يا صديقى . .

وشهر إصبعه فى وجه ماكنوت ، كما لو كان ينذر صبياً صغيراً ، وأردف يقول له فى صرامة : لا أنت ولا أى إنسان آخر فى هذا البلد يستطيع أن يخرج الصاغ من سجنه . . . فلقد أعد خصومه الخطة بمنتهى الإحكام والدهاء ، وظلوا ينتظرون الفرصة المواتية ، ولما تأكد لهم أنه وقع فى الفخ ، ولم يعد فى الإمكان إنقاذه ، انقضوا عليه بكل قوتهم ، وأحكموا حوله الرباط . .

www.ibtesama.com

وهز إصبعه فى وجه ماكنوت ، ومضى يقول : أنت تعرف بطبيعة الحال كم أعطيت الصاغ من مالى ، لأمكنه من تمويل تيوت وكارڤر فى رحلتهما إلى الممر الشمالى الغربى . . أعطيته أكثر من ثلاثة آلاف من الجنيهات . . ثلاثة آلاف ومائتين وسبعة جنيهات . . ضحيت بهذا القدر الكبير راضياً فى سبيل ما يحققه الكشف من خير عظيم لنا جميعاً . . ولقد دفع التجار الآخرون أيضاً بسخاء ، ولم يأخذهم التردد فى تقديم المعونة ، إيماناً منهم بضرورة السلام بين السيوكس والشيپوى . . . لم يدفعوا مثلى ، ولكنهم كبدوا أنفسهم فوق ما يطيقون . . . كلنا ضحى عن طيب خاطر . . . وفجأة . .

وضرب يديه الواحدة بالأخرى ، وقال : وفجأة ضاع مالنا وذهبت تضحياتنا هباءً . . أطبق الفخ على الصاغ دون إنذار ، فألقى به فى السجن ، وكبل بالأغلال . . ولأن تلجأ إلى رحمة الجنرال جيج ، يتحتم عليك أن تذهب إليه فى نيويورك . . وهى رحلة تستغرق شهرين على الأقل . . ومعنى ذلك أنها قضية خاسرة — فكأننا خسرنا أموالنا ، وضاع الأمل فى استردادها ثانية . . . ولكننا ما زلنا نملك جانباً قليلا ، وإذا تحدينا الكبار

www.ibtesama.com

بانتصارنا للصاغ ، يضيع الباقى كذلك ، فتكون النتيجة أن نموت جميعاً من الجوع ، أو يقاضينا دائنونا ، فنسجن جزاء حقوقهم الضائعة .

وألقى جروسپيك بنفسه على أحد المقاعد ، وقال : ولا إخالك تجهل يا صديقى أن ممارسة التجارة فى شمال كندا ممنوعة دون تصريح رسمى ، فهل تعرف المختص بمنح هذه التصريحات ؟ إنه دانيال كلاوز مراقب الشئون الهندية ، وهو صهر لسير وليام چونسون . . . ولقد خالف الصاغ أوامر سير چونسون ، وفعل ما نهاه عنه ؛ فارتكب بذلك جريمة العصيان ، واستحق العقاب على هذه الجريمة العسكرية الخطيرة . . . فهل ترى الآن ، يا صديقى أى مصير ينتظر التاجر الذى ينحاز إلى جانب الصاغ ضد رغبات سير چونسون ، وهل ترى أيضاً لماذا لا يستطيع أحدنا أن يبذل جهداً فى معونته ؟ ما دام الصاغ قد انتهى ، فكل من يعاونه لا بد أن ينتهى كذلك . . .

وحملق ماكنوت فى جروسپيك دون أن ينطق بكلمة .

قلت لجروسپيك : ولكنك تتجاهل أمراً غاية فى الأهمية ، فسپيسميكر اعترف بأنه صادر أوراق الصاغ ، وفتشها

بدقة ؛ ومع ذلك ينكر أنه وجد بينها رسالة من تشارلز تاوسند . . وهذا كذب صريح ، فلقد كتب تاوسند رسالة شخصية للصاغ ، وأمره فيها بالكشف عن الممر ، وأبلغه رغبة الملك فى تحقيق هذا المشروع بأسرع ما يمكن . . . فكيف يتهمون الصاغ بالعصيان ، لتنفيذه أوامر الملك ؟ الملك فوق الجميع ، وربما يكون تاوسند رجلا ملتوياً فى أساليبه ولكنه ليس كاذباً حتى ينكر رسالته ، وإذا سئل فى هذا الموضوع ، فلا بد أن يعترف بتكليفه الرسمى للصاغ . مما يوقع چونسون وكلاوز فى شر أعمالها ، ويضعهما فى مأزق حرج . . .

صاح ماكنوت يقول : هكذا الكلام وإلا فلا . . . ألم أقل لك إن لا نجدون تاون رجل متعلم ؟

قال چروسپيك — وهو يهز رأسه فى استهانة : لن يعترف تاوسند بخطابه ، فيتأكد للناس أنها كذبة من تأليف الصاغ . . .

قلت : مستحيل أن ينكر ، يا جروسپيك ، مستحيل . . ومهما يكن رأيكم فى ضريبة الدمغة التى وصفها ، فلا جدال فى أنه رجل جرىء لا تنقصه الشجاعة على الاعتراف بالحقائق .

www.ibtesama.com

قال جروسپيك : ربما كان جريئا فيما مضى ، ولكن ليس الآن . . لقد مات تاوســـند ، يا صديقى ، والموتى لا يتكلمون !

قلت غير مصدق : تشارلز تاوسند ؟ هل مات تشارلز تاوسند ، ومتى كان ذلك ؟

قال : ألم تسمعنى أقول : إن خصوم الصاغ ظلوا ينتظرون حتى وقع فى الفخ ولم يبق من أمل فى إنقاذه ؟ لقد مات تشارلز تاوسند فى سبتمبر الماضى ، ووصل الخبر إلى نيويورك فى الشهر التالى . . ولما اطمأن الجنرال جيج من هذه الناحية ، حرر أمرا بالقبض على الصاغ ومصادرة أوراقه ، وبعث بهذا الأمر إلى ميكليماكيناك مع آخر سفينة تأتينا قبل أن تتجمد مياه المضايق ، وقصده بذلك أن يتعذر إرساله للمحاكمة قبل حلول الربيع القادم ، فيظل طول الشتاء سجينا ذليلا . . وهكذا أطبق الفخ على الفريسة ، وتمت العملية حسب الخطة الموضوعة ، فقبض على الصاغ وأحكم وثاقه بالسلاسل ، وبعد أن أمنوا جانبه ، صادروا أوراقه وفتشوها ، وبأعجوبة يا صديقى اختفت رسالة تاوسند ، ولم يبق لها أثر ، فانعدم الدليل الوحيد على براءته ، وثبتت عليه جريمة العصيان العسكرى .

www.ibtesama.com

وملأ جروسپيك كأسه ، بالروم ، ومد ماكنوت يده المرتجفة إلى الزجاجة ، وملأ منها كوباً كبيراً شربه دفعة واحدة .

قال ماكنوت فى همس : لقد انتهى الصاغ ، يا لانجدون ، ولم يعد الرجل الذى عرفناه من قبل . . . سحقه چونسون بطريقة غاية فى الخبث والمهـــارة . . سحق الرجل الذى لم يستطع الكنديون والفرنسيون والهنود أن يمسوا شعرة من رأسه طوال خمس سنوات كاملة . . . الرجل الذى أنقذنا جميعاً من الموت مائة مرة . . ويعلم الله كم حزنت يا لا نجدون ، حين رأيته فى سجنه يحاول أن يجلس فتخور قواه . . . يحاول أن يتكلم فتتقطع أنفاسه لفرط ما يعانيه من ضغط القيود على رجليه . . حين رأيته على هذه الصورة ، عرفت أنه انتهى ، وانتهى معه الممر الشمالى الغربى . .

وزمجر ماكنوت ، وزم شفتيه ، وقلب سحنته ، ثم انهمرت الدموع من عينيه وانحدرت قطراتها على ذقنه ، وسقطت على يديه المعقودتين فى حجره . . .

عندئذ نهضت عن مقعدى ، وقلت : هل تتكرم ، يا مستر جروسپيك ، بمعاينة محتويات حقيبتى ؟ رجائى أن

www.ibtesama.com

تثمنها بسخاء ، وأعتقد أننى سأرد لك الجميل يوما ، إذا قدر لى أن أصل إلى مونتريال .

قال فى ضيق : أجل . . أجل . . أجل . . يسرنى أن أعطيك كل ما تحتاج إليه فى رحلتك . . معطفاً وقلنسوة وأغطية وأحذية وسلاحاً . . أما الذى لا أستطيع أن أعطيكه بحال من الأحوال ، فهم الرجال الذين يرضون بمرافقتك فى مثل هذه الرحلة الخطيرة ، وهذا مبعث قلقى الشديد . .

قال ماكنوت : لا داعى للقلق ، فسوف نذهب معه أنا والأميرة . .

وخلع ساقه الخشبية ، وألقى بها إلى جروسپيلك ، وقال : اطلب من رجالك أن يصلحوا لى طرفها المكسور ، ومرهم بإعداد ساق أخرى تصلح للسير فى الثلوج . .

قلت محتجا : ولكنك لم تر الطبيب بعد ، ولا يصح أن . .

صاح ماكنوت فى وجهى يقول : وما حاجتى إليه ؟ الإنسان لا يلجأ إلى الطبيب إلا إذا كان يخشى أن

www.ibtesama.com

تزداد حالته سوءاً ، ولقد بلغت حالتى من السوء أقصاه ، ولم يبق مجال لمزيد ، اللهم إلا إذا رأيت الجنود الأوغاد يرتكبون حماقة جديدة مع الصاغ ، عندئذ قد أفقد عقلى ، وأقدم على عمل يورثنى الندم . . فالأفضل أن أرحل معك ، وربما أمكننى أن أعين الصاغ بطريقة ما ، ونحن فى طريقنا إلى مونتريال .

www.ibtesama.com

الفصل الحادى عشر

لم نستطع المضى طويلا فى طريقنا إلى مونتريال ، وبالرغم من الظروف المحزنة التى أوقفت سيرنا ، وعطلتنا عن التقدم فترة من الزمن لا يستهان بها ، انتهى التأخير على مايرام ، مع أننى كنت أتصور أثناء المحنة ، أنه قضى علينا ، ولم يبق لنا أمل فى الخلاص . . ولقد أمكننى أن أسجل أحداث تلك الفترة الرهيبة بطريقتى الخاصة ، فرسمت صورا لآلهة الشيبوى التى تكمن فى بطن الأرض ، وتظل مختفية حتى تحين الفرصة ، فتظهر فجأة لتحمى البشرية أو تنتقم منها ، مثل « مانابوزو » الجد العملاق لبنى الإنسان . . و « ميتشى مانيتو » شيطان الشر الأكبر . . وعشرات الآلهة الصغيرة التى يزعم الهنود أنها تتنازع غاباتهم وغدرانهم ، وتقوم بأدوار فعالة فى تقرير مصائرهم وتكييف أحوالهم . . وقد اتخذت من هذه الصور قاعدة للوحاتى الكبيرة ؛ التى رسمتها فيما بعد على جدران القاعة الرئيسية لمبنى جمعية علم الأجناس البشرية بلندن .

www.ibtesama.com

عندما تركنا ميكيلما كيناك فى عتمة الفجر ، التزم ماكنوت الصمت وكذلك فعلت الأميرة ، وأكسبه الحزن والغضب مزيداً من الحيرة والقلق ، فظل طول الوقت يزمجر لنفسه بألفاظ غير مفهومة . . وأحيانا يطلب إلينا أن نضعه مع متاعنا القليل فوق الزحافة ، ثم لا تكاد الكلاب تسير ميلا واحداً ، حتى يهبط ثانية ، ويمشى خلف زوجه فى غضب واضح .

وكنت أقدر شعوره وأفهم ما يعانيه ؛ لكنى لا أقوى على التجاوب معه مراعاة لحالته ، فقد ملأنى خوفى الشديد على آن ، وما قد تتعرض له من أخطار إذا تركت وحدها بمونتريال دون مال أو صديق ، برغبة لا تقاوم فى الوصول إليها بأسرع ما يمكن ، فلم أعد أرضى بالتوقف لأى سبب مهما بلغت أهميته . . ولو كان الأمر بيدى ما اعترفت بضرورة الطعام أو الراحة أو مراعاة العواصف والأعاصير . . ولكن زوج ماكنوت أخذت على عاتقها مهمة تدبير أمورنا على الوجه الصحيح ، فكانت تجبرنا على التوقف للأكل والراحة ، وإذا ساءت الأحوال الجوية تختار لنا بقعة آمنة فى ظل جرف عالٍ

www.ibtesama.com

أو فى جبرة دغل كثيف يدفع عنا غائلة الرياح . . والحق أنها أبدت فى مختلف المناسبات غاية الحكمة والحصافة ، فلم يكن من العدل أن تنال نصيب الأسد من عذاب المحنة التى انقضت علينا . . ولكنها سنة الحياة فى دنيانا هذه مع الأسف ، فالطيبون الكادحون يذهبون ، ولا يبقى من بعدهم سوى العاطلين . .

ولقد بدأت المتاعب فى الليلة التاسعة بعد سفرنا من ميكيلماكيناك ، إذ أطبقت علينا الثلوج دون رحمة ، فاضطررنا إلى الاحتماء منها بنتوء من الشاطئ . . وبعد أن أقمنا معسكرنا بذلك المكان ، اكتشفنا أننا أتينا على ذخيرتنا من اللحم الطازج ، ولم يبق منه معنا سوى مؤونة يوم واحد . . وكان خروجنا للصيد بين الجليد المتراكم معناه هلاكنا المحقق ، فلزمنا معسكرنا ، وانكمشنا نحن الثلاثة وكلبانا تحت الأغطيـــة الجلدية ، ملتصقين بعضنا ببعض طلبا للدفء . . وأخذنا نأكل ما نحمله من الأغذية المجففة . . . وظللنا على هذه الحال حتى أشرقت الشمس ، وأرسلت أضواءها على الثلوج الممتدة حولنا إلى مسافات لا يدرك البصر نهايتها . .

www.ibtesama.com

وبطلوع النهار اشتد بنا الجوع إلى درجة موجعة ، فلم نجد بداً من ترك مخبئنا ، والخروج بحثاً عن طعام . . وقسمنا العمل فيما بيننا . . فذهب ماكنوت لجمع الأحطاب المطلوبة للوقود ، فى حين ارتديت أنا والأميرة أحذية الجليد ، وحملنا سلاحنا ، وسار كل منا مع أحد الكلبين فى جهة مضادة للآخر . . .

قال لنا ماكنوت عند خروجنا : إياكما أن تترددا فى إطلاق الرصاص على أى كائن حىّ . . ما عدا كما . . بوم أو غربان أو قطط برية أو ثعالب . . كلها تصلح ، فليس هناك ما أرفض أكله سواكما ، ولكن الكلبين لا يشاركاننى فى هذا الشعور نحوكما .

وكانت الكلبة « چينى » من نصيبى ، فأرسلتها إلى قلب دغل كثيف راجياً أن تعثر لنا على غزال يسعى وراء طعامه ، أو ثعلب ينقب عن طير مدفون فى الثلوج . . ولكن الأرض من حولنا بدت كأنها خلت تماماً من مظاهر الحياة ، ولم يبق بها سوى أكوام الثلوج الممتدة إلى الأفق . . ومضيت فى البحث دون أن أستسلم لليأس ، فلم أعثر للأحياء على أثر إلا مرتين . : حين سمعت صياح طائر من

www.ibtesama.com

ناقرى الخشب ، وحين لمحت سنجاباً أحمر اللون يقفز فوق أغصان شجرة عالية . . وفيما عدا ذلك حالفنى الفشل ، ومضى الوقت دون أن أجد فى طريقى ما يصاد .

وبينما أقف فى مكانى حائرا لا أدرى ماينبغى أن أفعله ، سمعت صوت طلقة يأتى من بعيد ، فتنفست الصعداء راجيا أن تكون الأميرة قد أصابت صيدا يستحق الذكر .. وعدت على أعقابى إلى الوجهة التى سارت فيها ، عساها تكون فى احتياج إلى معونتى ، ولكن الأرض الممتـــدة أمامى بدت ولا حركة فيها سوى الدخان المتصاعد من النيران التى أشعلها ماكنوت بجوار مخبئنا . . ولم تمض لحظة حتى رأيته يعرج مقبلا نحوى . . وسمعت كلبا ينبح فى ذعر شديد .

ورفعت « چينى » رأسها تنظر إلىّ ، ثم أخذت تنبح بطريقة ضايقتنى ، حتى ركلتها بقدمى لأسكتها .

وفجأة تحول العواء الآتى من بعيد إلى صوت حاد رهيب يشبه الصراخ ، فثارت ثائرة « چينى » ، وعادت تنبح من جديد .

ولوح لى ماكنوت بيده يدعونى إليه ، فلم أبال به ،

www.ibtesama.com

ودرت على عقبي واندفعت بأقصى سرعتي أجرى نحو مصدر العواء الآتي من بعيد .

وتبعتنى « چينى » ثائرة مزمجرة .

وفى لحظة ما خيل إلىّ أن العواء قد انقطع ولكنى لم ألبث أن سمعت صوتا كالذى يصدر عن كلب يصارع فى ضيق جنونى . . شيئاً يشبه السعال العصبي المخنوق .

وتبينت أن الصوت يأتى من دغل قريب . . ولما درت حول ذلك الدغل ، شاهدت حفرة كالتى يصنعها الغزال لسكناه إذا هاجمته الثلوج وقطعت عليه سبيل التحرك بين أرجاء الغاب . . وعلى الجانب الآخر البعيد مجموعة من إناث الغزال تقف فى حالة من القلق الشديد . . وفى قلب الحفـــرة ذكر هائل الحجم يجاهد بكل ماأوتى من قوة لتخليص نفســـه من كلبنا الذى أطبق أسنانه على عنقه . . وبالقرب من الحيوانين المتصارعين ، ترقد زوج ماكنوت على وجهها . . بندقيتها ملقاة على بعد خطوات منها ، والدماء تلطخ ثيابها وتغطى الأرض من حولها .

وكان الدم يسيل من فجوة بين ضلوع الغزال ، والكلب رغم الجراح المنتشرة فى جسده ، ما زال ينهش عنقه فى غضب مجنون . . حينئذ اتضح لى الأمر ، وفهمت حقيقة

www.ibtesama.com

ما حدث . . فلقد أطلقت الأميرة رصاصها على الغزال ، ولما رأته يكبو داخل الحفرة ،تصورت أنها صرعته ، فذهبت اليه بسكينها تجهز عليه . . ولكنه لم يكن قد أسلم الروح بعد ، فجمع شتات قوته ، وهاجمها وكلبها ، وأخذ يوسعهما ركلا بحوافره التي تفوق في شدتها بلطات الهنود .

ووقفت ألتقط أنفاسي بعد طول الجرى ، حتى يتأتى لى أن أحسن إصابة الهدف ببندقيتي . . فإذا بالكلبة « چيني » تتركني وتمضي في طريقها إلى الغزال الجريح ، لتنشب أسنانها في فخذه . . وتحوّل المكان إلى مسرح من الدماء الحمراء .

ولم يكن استعمال البندقيـــة مأمون العواقب في هذا الاشتباك ، فتركتها خشية أن تضيع الطلقة في الهواء أو تصيب أحد الكلبين وتجهز عليه . . وارتميت فوق حافة الحفرة ، وأخذت أزحف على يديّ وركبتيّ حتى وصلت إلى زوج ماكنوت ، وجذبتها بعيدا عن منطقة الخطر .

وعدت إلى ساحة المعركة ، فوجدت الحيوانات الثلاثة المشتبكة في معركتها الرهيبة قـــد خرجت من الحفرة ، وأخذت تقترب مني ، فرفعت بندقيتي أدافع عن نفسي ، ولكن الغزال ركلهـــا بحافره وأطارها من يدى . . ثم أحسست بضرباته البشعة تصيبني

www.ibtesama.com

فى كتفى وجنبى وفخذى ، وبعدها شعرت بالكلب الجريح يصطدم بوجهى . . ومع ذلك أمكننى بطريقة ما أن أنهض واقفا على قدمىّ وأستجمع كل قوتى ، لأرفع البندقية بين يدى ، وأهوى بها على ظهر الغزال . . وتوقف الحيوان لحظة عن الحركة ، فرفعت البندقية مرة ثانية وسددت إليه ضربة أخرى ، فإذا به يكبو على رجليه الخلفيتين وقد تراخت حركاته فى شكل يقطع بأننى حطمت عموده الفقرى .

ووقفت فى مكانى أنظر إليه ، وقد انكسرت البندقية نصفين ، ولم يبق بيدى سوى ماسورتها .

وأحسست بقدمىّ ترتجفان ، وذهنى يتوقف عن التفكير بالتدريج ، ووجدتنى أسأل نفسى عما أصاب ماكنوت ، ولماذا تخلف عن إغاثتنا .

فتأملت الغزال الراقد أمامى ، وتذكرت أننى يجب أن أذبحه ، فأمسكت برأسه ودفعته إلى الخلف ، وأخرجت سكينى ، ولكنى لم أستطع أن أؤدى مهمتى بسبب الكلب الجريح الذى كان يلفظ أنفاسه الأخيرة ، وما زالت أسنانه مطبقة على عنق فريسته .

واختلطت الأمور فى ذهنى ، ولم أعد أعرف ما ينبغى

www.ibtesama.com

أن أفعله ، ولكن الغزال جنبنى مشقة الحيرة ، وتهالك نهائيا بين يدى .

وعدت إلى حيث رقدت زوج ماكنوت ، فوجدتها كما تركتها تماما ، مستلقية على وجهها والدماء تنتشر حولها . . وقلبتها على ظهرها ، فإذا بها تنظر إلى بعينين مفتوحتين دون أن يبدو عليها أدنى استعداد للنهوض أو التحرك . . وفتحت ثيابها ، فوجدت الغزال قد أصابها بجراح بليغة فى صدرها وجنبها ، بل وكل مكان آخر من جسمها .

وتحركت عيناها إلى كتفى ، فتتبعت نظراتها ، لأتبين أن ضربات الغزال مزقت ثيابى ، وأسالت الدماء غزيرة من جراحى .

كنت ولا شك فى حالة خطيرة ، وإذا لم أعد من فورى ، فلن أتمكن مطلقا من العودة . . فماذا جرى لماكنوت ؟ وأين هو ؟ ولماذا لا يأتى لنجدتنا ؟

وانحنيت على حافة الحفرة . . ولا بد أن أكون قد نمت بعض الوقت ، فعندما سمعت ماكنوت ينادينى ، تنبهت إلى أننى أرقد وسط بحيرة من الدماء ، والألم يسرى فى قدمى مثل سيخ من الحديد المحمىّ .

www.ibtesama.com

صاح ماكنوت من فوق الحفرة يقول : لقد أتيتك بالزحافة ، يا لانجدون ، فهل تستطيع أن تنهض ، أم أحل زمام « چيني » لتسحبك ؟

وحاولت أن أنهض ، ولكن الحركة نكأت جرحي ، وعاد الدم يسيل منه بغزارة .

قلت له : دع الكلبة تسحبني ، ثم تسحب الغزال ، فنحن فى أشد الاحتياج إليه .

قال فى انفعال شديد : وجدت الأرض قد تجمدت على هذه الزحافة اللعينة ، فاضطررت إلى حفر الجليد حولها .. كنت واثقاً من أننا فى احتياج إليها .

واختفى عن نظرى لحظة ، وعاد بحبل متين ، ألقى إلىّ بطرفه ، فربطته حول قرون الغزال بعناء شديد ، وبعد ذلك ربطنى ماكنوت مع الحيوان الميت إلى الزحافة . .

كان واضحاً أن زوجه فى حال لايجدى معها إسعافها ، ففضل أن ينقذنا أولا ، ثم يعود إليها .

* * *

فى وسط غيبوبة الحمى التى أصبت بها ، تعالت غمغمة ماكنوت كأنها أصوات أشباح عملاقة تسعى إلى السيطرة

www.ibtesama.com

على ذهنى لتمنعنى من بلوغ أهداف عظيمة يعز على أن أتخلى عنها . . .

وكان روچرز أبشع هذه الأشباح ، وأكثرها مدعاة لفزعى . . فكنت أتوهم أننى أراه مقبلا نحوى بوجهه الضخم وعينيه الجاحظتين . . ويخيل إلى أنه باقترابه منى يزداد فى حجمه . . فيكبر . . ويكبر . . حتى تمتلىء به أرجاء المكان حولى . . وأنا أتضاءل أمامه ، وأصغر . . وأصغر . . إلى أن أصبح كالقزم العارى . . وأحاول الهرب منه ، فيلين جسدى وترتخى عضلاتى . . كل هذا وصوت ما كنوت يعلو من بين أشباح الكوابيس ، فيزيدنى حيرة على حيرة ، وتختلط الأمور فى ذهنى بحيث يصعب علىّ التمييز بين الحقائق والأوهام .

ويخيل إلىّ أننى سمعته يقول فى صوت باكٍ : عليها اللعنة ! فهذه أخلاقها دائماً . . تفعل ما يحلو لها ، ولا يهمها رأى الآخرين أو نصائحهم . . تشجع ، يا لانجدون ، أنت بخير ، وعن قريب تشفى وتسترد عافيتك . . نم على جنبك الآخر ودع « چينى » تلعق لك جروحك . . اطمئن ، يا لانجدون ، فأنا معك ،

www.ibtesama.com

وسأظل بجوارك . . أنا لا أستطيع أن أذهب ، فتأكد من بقائى . . جينى . . جينى . . أنت أيتها الضبعة الشريرة . . اسمعى الكلام ، واستمرى فى لعق جروحه .. أنا هنا ، يا لانجدون . . بجانبك ، فليس لدى ما أعمله سوى طرد الذئاب الملعونة . . آه ، لو أمكننى أن أمسك بواحد من الحيوانات اللعينة . . والله لأخلعن نابيه بأسنانى . . خذ هذا يا لانجدون . . اشرب قليلا منه . . اشرب !

واستمرت الأصوات ترن فى أذنى دون توقف ، فيزداد بها ذهنى ارتباكا على ارتباك ، ويمتلئ قلبى بحزن لا أعرف له سبباً . . ولما انقطعت الأصوات على غير انتظار ، وتلاشت الأشباح المخيفة معها ، رأيت الشمس تسطع فى كبد السماء ، وتغمرنى بأشعتها الدافئة ، وأمام معسكرنا يرقد غزال نظيف مسلوخ .

قال لى ماكنوت — وهو يعطينى قطعة من اللحم النيء :

خذ هذه القطعة الصغيرة الطرية ، وستجدها أفضل من هذه العجوز المعروقة .

وأشار بيده إلى الناحية الأخرى ، فالتفتُّ أبحث عن زوجه ، ولكنى لم أجد أحداً معنا .

www.ibtesama.com

قلت فى صوت ضعيف منخفض : كيف حالها ، يا ماك ؟

قال يتظاهر بعدم المبالاة : إذا كنت تسأل عن الأميرة ، فاعلم أنها ماتت . . وهذا أقل ما تستحقه على تهاونها فى أمر نفسها . . لقـــد كانت تعرف خطورة الاقتراب من غزال جريح ، ولولا إهمالها ما عانينا هذه المشقات كلها . .

ومددت يدى إلى چينى أربت على رأسها ، فوجدت يدى مغطاة بالقاذورات ، وجلدى يبدو من تحتها شديد الامتقاع فاقع الصفرة . .

قلت ــ وأنا أجد عناء فى النطق : متى حدث ذلك ، لقد . .

قال فى مرح مصطنع : ذهبت إلى حيث ألقت . . ولا يهمنّك ما أصابها ، فالهنود من الكثرة بحيث لا يضيرهم أن يفقدوا واحدا منهم . .

وقام إلى مدخل المعسكر ، ورفع وجهه إلى السماء يتشاغل بفحصها . .

قلت : يؤسفنى أن أعرف بموتها . . يؤسفنى غاية الأسف . . فلقد خسرنا امرأة طيبة . . امرأة بالغة فى

www.ibtesama.com

طيبتها ، يا ماك .. ولو كانت زوجتى هى التى ماتت ما حزنت لفراقها أكثر من ..

قال فى لهجة التحدى ، ليخفى ألمه الدفين على فراق امرأته : وجدتها على قيد الحياة ، فأنبتها بما فيه الكفاية على غلطتها ، ولكنها لم تجبنى بكلمة واحدة .. كان جسدها مثخناً بالجراح ، وكل جرح أسوأ من الآخر ..

ثم تهدج صوته ، وقال فى انفعال : فعلت المستحيل لإنقاذها ، فخابت جهودى ، يا لانجدون ، .. ليتنا كنا على مقربة من الشيبوى ، لينقذوها بوسائلهم الخاصة ..

وخنقته العبرات ، فتوقف عن الكلام ، وأخذ يسعل ليخفى انفعاله ..

قلت له : رحمها الله من امرأة طيبة .. هادئة .. مخلصة مهذبة ..

قال ماكنوت فى حزن طاحن : إنها الذئاب الملعونة التى وقفت أمام جسدها ، فلم أشأ أن أتركها وأذهب لنجدتك ..

ولكم سمعت فيما مضى عن قسوة « الجاويشية » وجمود قلوبهم ، ولكنى تعلمت من حزن ماكنوت أنها شائعات

www.ibtesama.com

يظلمهم الناس بها ، والحقيقة أنهم مثلنا تماما فى الإخلاص والعطف والإنسانية . .

* * *

مضى أسبوع كامل قبل أن يعثر الشيپوى على آثار ماكنوت فيقتفوها إلينا ، مسترشدين بصور رسمتها خصيصا لهذا الغرض ، وكلفت ماكنوت بتعليقها على لحاء الأشجار على مسافات منتظمة من طريقنا . .

وحققت الصور غرضنا منها . . إذ رآها الهنود ، فهبوا لنجدتنا . .

وأدهشنى احترامهم الشديد للموتى ، فحين علموا بموت زوج ماكنوت ، شدوا محفة عالية إلى أربع شجرات كبيرة ، ثم لفوا جسد الراحلة بثوبها الجلدى ، وأرقدوها على المحفة ، ووضعوا بجوارها أشياء هم فى أشد الحاجة إليها ، مثل الطباق والمساحيق والأصباغ . . كل واحد منهم تبرع بجانب من أغلى مقتنياته ، تعبيرا عن شعوره بالأسف على أختهم الميتة . .

ولقد ازددت تقديرا للهنود بعد ما رأيت من احترامهم للموتى . . ومع أننى أكره أن أشترك مع القساوسة فى جدال حول ما يزعمونه من حطة المتوحشين من بنى البشر ،

www.ibtesama.com

غير أننى أقرر هنا بمنتهى الصراحة أن إخواننا الحمر الذين حماهم الله من مفاسد الرجل الأبيض وشروره ، يفهمون روح الوصايا العشر ويستوعبون فلسفتها الأصيلة ، أكثر من أى قس قابلته فى حياتى ..

عندما انتهى الشيپوى من مراسم دفن الأميرة ، حملونا معهم إلى معسكرهم الشتوى على نهر ماتاوا ، لنعيش فى ضيافتهم إلى مطلع الربيع ، حين تذوب الثلوج ، وتتفتح الطرق . . وكنت فى بداية الأمر مصمما على استئناف السفر إلى مونتريال دون أدنى تأخر ، فلما وجدت الضعف يمنعنى من الحركة ، ثرت غاضبا على نفسى ومن حولى . . خصوصا تلك العجوز الهندية ، التى كلفوها برعايتى فى مرضى ، ففى كل يوم كانت تتحسس جروحى بأصابعها القذرة ، وتغطيها بالعقاقير البدائية المنفرة . .

وظللت وقتا طويلا ألوم العجوز المسكينة على عدم التئام الجرح الذى أصابنى به الغزال فى فخذى ، وخيل إلى مرة أنها مكيـــدة دبرها معها ماكنوت ، لمنعى من البحث عن آن . . . ولكنى لم ألبث أن تبينت سوء ظنى ، حين التأمت جروحى الأخرى تماما ، وأقنعنى ضعفى

www.ibtesama.com

وخطورة حالتى بحكمتهم فى منعى من السفر ، وإصرارهم على علاجى رغم ثورتى واعتراضى .

وبمضى الوقت تعلمت كيف أعترف بما أسدوه إلى من أفضال وجمائل ، فبجانب عنايتهم البالغة بصحتى ، وتوفرهم فى إخلاص على علاجى حتى التأمت جراحى ، وجدتهم قد أتاحوا لى فرصاً فنية لا تعوض ، ولولاهم ما أمكننى أن أرسم « ميتشى مانيتو » — شيطان الشر الذى يوعز إلى الناس بالسوء ويغريهم بارتكاب الحماقات والجرائم . وبفضل ما سمعتهم يروونه من أعجب القصص عن هذا الشيطان الجبـــار ، تجسمت الفكرة فى ذهنى ، فتناولت أقلامى وألوانى ، وأخذت أرسمه كما تصورته : مخلوق . . بشع . . مخيف . . عيناه جاحظتان ، وظهره أحدب . . فمه كبير ، وأسنانه السوداء ترتخى من تحتها شفته السفلى . . ولما انتهيت من رسم الصورة ، وأريتها للعجائز الجالسات حولى ، صرخن فى رعب شديد ، وخرجن جريا من الخيمة . . وعلم الرجال بما فعلته ، فأقبلوا علىّ فى شدة الغضب ، عندئذ لم أجد مفرّا من إصلاح غلطتى برسم صورة على نقيض الأولى . . تمثل « مانابوزو » ، ذلك

www.ibtesama.com

الإله العملاق ، الذى يدخل السرور على قلوبهم ، ويدفعهم إلى عمل الخير ، ويملأ قلوبهم رحمة .

وبعد هذا الرسم أصبحت أسيراً « لمانابوزو » ، فقد كان الشيبوى يأتون إلى كل يوم طالبين صـــورا أخرى لإلههم المحبوب . . وانتشر الخبر فى منطقة البحيرات كلها ، فأقبل الهنود من المعسكرات الأخرى لذات الغرض ، وكثيرا ما يقفون أمام خيمتى طول النهار ، حتى أسمح لهم برؤية الصورة . . وهكذا اضطررت إلى رسم « مانابوزو » فى أشكال عـــدة . . مانابوزو يبنى الجسور فوق مضايق ميكيليماكيناك . . مانابوزو يصنع الجو الجميل ويطرد الحر والبرد . . مانابوزو يخرج الطمى من قلب الأنهار ليبنى به أرضا خصبة . . إلى آخر المواقف التى ترضيهم وتلائم عقائدهم فيما هو مهم ومفضل . . وشغلنى الهنود بهذه المهمة ، حتى لم أعد أشعر بمضى الوقت . . وحين تنبهت إلى نفسى ، وجدت الشتاء قد ذهب ، والأرض من حولى تكتسى بخضرة الربيع اليانعة .

ومع ذلك ظلت ممرضتى العجوز على عنادها ، ولم تسمح لى بالسفر إلا فى أواخر شهر مايو . حينئذ فقط أعلنت أننى

www.ibtesama.com

شفيت وأصبح فى مقدورى أن أتحمل مشقة الرحلة إلى مونتريال . . فأقلعت فى قارب كبير ، ومضينا نشق عباب المياه الغاضبة ، حتى وصلنا إلى ميناء مونتريال فى شهر يونية ، فنزلت إلى الشاطئ مع ماكنوت نبحث عن ناتى پوتر وابنته آن .

* * *

كنت وماكنوت نتمنى العثور على پوتر دون الالتجاء إلى مكتب كلاوس مدير الوكالة الهندية ، ولكننا لم نلبث أن اقتنعنا بعقم جهودنا بعد أن خابت مساعينا فى تنسم أخباره . . فبالرغم من أننا طفنا بجميع البيوت والمتاجر ، ولم نترك فرنسيا أو إنجليزيا دون أن نسأله ، لم يستطع شخص واحد أن يمدنا بالمعلومات المنشودة .

وأخيرا قلت لماكنوت : ليس فى هذه المدينة على سعتها من قابل پوتر ، أو حتى سمع باسمه ، فلم يبق أمامنا سوى كلاوس . إنه الشخص الوحيد الذى يستطيع إرشادنا إلى مصيره .

قال ماكنوت فى قلق : صدقت ، ولكن الأفضل أن تترك لى أداء هذه المهمة .

www.ibtesama.com

قلت : أنت ؟ أنت تكسب رزقك من التجارة ، وقد يسألك فى أمور تضايقك ، فتفقد سيطرتك على نفسك ، والنتيجة أن تثير نقمته عليك ، فيسحب ترخيصك .

قال ماكنوت : اطمئن ، فأنا لا أفقد سيطرتى على نفسى بالسرعة التى تتصورها ، ومن عادتى أن أتشبث بهدوئى فى مناسبتين لا ثالث لهما : التجارة والقتال . . وتأكد يا لانجدون أنك لاتصلح لمقابلته ، لأنك لم تتعلم الكذب بممارسة التجارة . . وأبرز ما فيك من عادات سيئة أنك تقول الحق دون داعٍ . . وهذا الكلاوس عديل لسير چونسون ، ولو لم يكن سافلا مثله ما قلده منصبه الحاضر . . ويحتمل إذا قابلته أن تصارحه برأيك فى أمور كثيرة ، فيتعذر علينا الحصول على المعلومات التى نريدها . . لا ، يا لانجدون . . أنت فنان كبير ولا أنكر ذلك ، ولكنك لم تشتغل بالتجارة ، فالأفضل أن تدعنى أقابله وحدى .

وقام ماكنوت بزيارة كلاوس ، وعاد أكثر مرحاً مما كان عليه طوال الفترة الأخيرة ، وجلس باسما يروى لى تفاصيل المقابلة ، قال : لقد جاء ناقى مع ابنته فى

www.ibtesama.com

شهر سبتمبر الماضى ، ولم يقضيا فى هذه المدينة سوى يوم واحد ، ثم أبحرا إلى لفربول فى مركب شراعى تصادف وجوده فى ذات الوقت .

قلت — وأنا أنهض واقفاً : سأخرج للسؤال عن أول سفينة تسافر إلى إنجلترا ، وأحاول أن أحجز مكانا فيها .

قال ماكنوت — وهو يبتسم لى بطريقة أبوية : أول سفينة تقلع من هنا هندية اسمها « أدميرال ڤيرنون » — وقد استأجرتها شركة كريج كاننجهام وشركاه ، لنقل شحنة سريعة من الفراء ، وبعد غد تبدأ رحلتها ، ولعلمى برغبتك فى السفر سريعاً أتيتك بهذه .

وقدم لى مظروفا مختوما بالشمع الأحمر ، وأردف يقول : خذ هذه الرسالة الى ربان السفينة ، فينقلك معه مجاناً ، ويمنحك فوق ذلك ثلاث وجبات يوميا ، فما رأيك فى هذه الرحلة التى لن تكلفك شلنا واحدا ؟

قلت — وأنا أقلب المظروف فى يدى : وممن هذه الرسالة ؟

قال ماكنوت فى سماحة : وممن تظن سوى كلاوس نفسه ؟

قلت : ولكن لماذا يسدى لى مثل هذه الخدمة ؟ أنا لا أحب أن يقيدنى بأفضاله . .

www.ibtesama.com

قال ماكنوت حانقا : أمرك عجيب ، والله ! أتحب أن يستدعوك فى محاكمة الصاغ ، لتدلى بشهادتك ؟

ولما لم أجبه عن سؤاله ، أردف يقول : اسمع ، يا لانجدون ، ليس فى نيتى أن أعود إلى مناقشتك فى موضوع الصاغ ، لأنى ما زلت أحبه وأقدره ، وأنت لم تعد تحبه أو تقدره . . حقيقة أنك لم تذكره أمامى بكلمة سوء ، ولكنى لست غبيا لأعجز عن التكهن بالأسباب التى غيرت شعورك نحوه . . وأعتقد أنها مسألة تتعلق بآن ، ولا داعى للدخول فى التفاصيل . . فالمهم أننى تحدثت إلى كلاوس بطريقة قلبت له الوضع ، فتصور أننى أكره الصاغ وأنت تحبه . . إنها بعض المغالطات المفيدة التى نتعلمها من مهنة التجارة . . فاطمئن إلى أن هذه الرسالة لا تقيدك بالتزام ما ، وليس بها ما يتعارض مع ضميرك ومبادئك . . كل ما فى الأمر أننى أخبرته بوجودك فى مونتريال ، وأشرت بلباقة إلى تقديرك العظيم للصاغ ، وإصرارك على الإدلاء بشهادة تفيده فى محاكمته . . بل الواقع أننى تعهدت بمنعك من الإدلاء بهذه الشهادة مقابل سفرك مجانا على السفينة « ادميرال ڤيرنون » . . ولما كان كلاوس يتوقع وصول الصاغ من ميكيليما كيناك قريبا ، فقد رحب باقتراحى ، حتى تخلو

www.ibtesama.com

المحاكمة من أى اتجاه فى صالح غريمه . . وإذا أنت قبلت هذه التذكرة المجانية ، وسافرت إلى إنجلترا على السفينة أدميرال ڤيرنون ، يغتبط كلاوس لخلاصه منك ، دون أن تكون مدينا له أو لأى إنسان آخر بأقل جميل . . والذى أعلمه فوق ذلك ، أنه وچونسون يضطهدان أصدقاء الصاغ ، والأفضل أن تبتعد عن شرهما فى أقرب فرصة .

وفى صمت أخذت أفكر فى آن ، التى أسرعوا بإبعادها مع أبيها المريض ، رغم ما وعدتنى به فى رسالتها من انتظارى . . ولقد كنت فى البداية أتساءل : كيف استطاع پوتر المريض المفلس أن يدبر نفقات رحلته إلى إنجلترا ؟ وبأى وسيلة أمكنه أن يترك مونتريال بعد أربع وعشرين ساعة من وصوله إليها ؟ . . ولكن الرسالة التى أتانى بها ماكنوت أوضحت لى الموقف ، وأرشدتنى إلى المصدر الذى حصل پوتر منه على المعونة اللازمة . .

قال ماكنوت : أصغ إلىّ يا لانجدون . . خلافك مع الصاغ من شأنك وحدك ، وليس لى دخل فيه . . وأظنك تعرف أننى لم أحاول التطفل على أسرارك ، أو أعمل على استدراجك إلى الكلام فى هذا الأمر . . . فأظن من حقى أن تعاملنى بالمثل ، وتبدى لى من اللياقة

www.ibtesama.com

ما أبديه نحوك . . أنت حر فى فصم عرى صداقتك مع الصاغ ، ولكنك لا تستطيع أن تخاصمنى إلا بمعركة حامية ، وليس فى نيتى أن أمكنك من ذلك ، لقد سمعت من التجار أن چونسون وجيچ وكلاوس اتفقوا فيما بينهم على إبعاد جميع أصدقاء الصاغ عن مونتريال قبل وصوله إليها . . وفى نيتهم أن يستعينوا بالرشوة مع أصحاب الذمم الخربة ، ويطردوا الباقين من المدينة . . وأنا شخصياً لا أخشى أولئك الشياطين الثلاثة ، وأريد أن أساعد الصاغ ، ولكنى لا أستطيع أن أساعده إلا بتضليلهم وإيهامهم بأننى عدوه . . فكن عاقلا يا صاحبى ، ولا تسمح لضميرك الحى بإفساد خطتنا . . وأقسم بالله ، يا لانجدون ، أننى أفضل أن أصاب بالجدرى ولا أصاب بضمير مثل ضميرك . . فسحقا لهذا الضمـــير الذى يمنعك من التمتع بحياتك ، ويمنع الآخرين أيضاً من أن يتمتعوا بحياتهم . . فما رأيك فى هذا الكلام ، وماذا تنوى أن تفعل .

قلت : ليكن ما تريد . . سأقبل الرسالة وأسافر بها .

قال ماكنوت — وقد ارتاح لقرارى : هذه أول مرة أوفق فيها إلى إقناع إنسان بقبول شيء دون ثمن . . ولكنى لا أعرف فنانا غيرك ، ولعلها أخلاق الفنانين عموماً .

www.ibtesama.com

وتردد قليلا ثم قال : ربما يهمك أن تعرف بتفاصيل المؤامرة التى أعدها كلاوس وچونسون وجيج للقضاء على الصاغ .

قلت : لا ، يا ماك . . هذا الموضوع لا يهمنى ، وكفاك أننى وعدتك باستغلال الرسالة .

ومع ذلك جاءتنى الأخبار مع الأحاديث التى سمعتها من بعض الناس عرضا ، فعرفت ما لم أكن أحب أن أعرف ، وأكرهت على رؤية أمور أكثر مما يروق لى أن أذكره الآن . . ولم يكن معى سوى الثياب الهندية التى أتيت بها إلى مونتريال ، فاقترضت من ماكنوت نقودا تكفى لشراء طاقين كاملين . . وظل الخياط يعمل فى صنعها طول الليل ، حتى أستطيع الحصول عليها فى الصباح ، وأتمكن من السفر على السفينة « أدميرال ڤيرنون » .

وفى الموعد المحدد ذهبت مع ماكنوت لتسلم ثيابى الجديدة ودفع ثمنها ، وحملناها وسرنا إلى الميناء نتمشى على مقربة من السفينة . . وكان المفروض أن أسعد بفرصة السفر إلى إنجلترا ، ولكن الأصدقاء الطيبين قليلون فى هذه الدنيا ، وليس من السهل أن نفارقهم مسرورين .

www.ibtesama.com

وانفرجت أزمة الصمت المؤلم التى ألمت بنا ، عندما رأينا ثلاثة رجال يركضون نحو الميناء ، وتعالى من خلفنا صوت حوافر جياد تدبّ على أحجار الطريق ، ثم مرق من جانبنا فارسان يجريان خببا . .

وسمعت ماكنوت يهتف قائلا : يا إلهى ! .

قلت : من هذا ؟

قال : كلاوس . . ذلك الديك ذو الرقبة الحمراء البغيضة . . هو نفسه !

وخرجنا من الشارع الجانبى إلى ساحة الميناء بممراتها الموحلة القذرة ، ومبانيها المتداعية ، ومن ورائها تتعالى قلوع المراكب وساريات السفن . . وأمام أحد المراسى على بعد خمسين ياردة ، رأينا حشداً كبيراً يقف فى الانتظار ، والناس تجرى لتنضم إليه .

وأفلت رجل من بين الجموع المتزاحمة ، وصاح يحدث المطلّين من النوافذ قائلا : إنه الصاغ روچرز ، ولكنه غير قادر على السير .

وأقفل المطلون نوافذهم ، وخرجوا من بيوتهم إلى الطريق جرياً .

www.ibtesama.com

وعندما سمعت اسم روچرز ، اجتاحتنى موجة من الانفعال الشديد لم تلبث حرارتها أن بردت ، وانتابنى شعور بالمرارة البالغة . . وتوقفت فى مكانى ، ودرت على عقبىّ أريد أن أبتعد . . ولكن ماكنوت قبض على ذراعى ، وفى عينيه نظرة استعطاف جعلتنى أغير رأيى ، وأسير بجواره .

ورأيت من فوق رءوس الجمع فريقا من الجنود والبحارة نزلوا لتوهم إلى البر ، وفى وسطهم روچرز يسنده جنديان . . وكان فى حال يرثى لها . . رأسه عارٍ . . وشعره طويل . . ولحيته ملبدة . . عيناه الجاحظتان تحيط بهما هالتان داكنتان كأنهما طليتا بعنبر محروق . . سترته الخضراء ملطخة بالقاذورات ، وإحدى ساقيه ملتوية بشكل غير طبيعى . .

وانتابنى شعور مبهم لا أعرف إن كان رعبا ، أو شفقة ، أو اشمئزازا . . أو خليطا من هذه الأحاسيس كلها ، عندما رأيت أحد الجنود ينحنى ، ويلتقط من الأرض قبعة غبراء اللون ، ويضعها مائلة على رأس روچرز ، ثم يضربها بكفه ليثبتها فى مكانها . . وألقى روچرز على الجندى نظرة

www.ibtesama.com

عجيبة ، ورفع يده الضخمة ، وأصلح القبعة فوق رأسه بطريقته التقليدية التى كثيرا ما رأيتها خلال مسيرنا الشاق المرير إلى سانت فرانسس .

وأجفلت عيناى بالرغم منى ، ولم أجرُؤ على النظر إلى ماكنوت . .

وكان كلاوس يقف بجانب روجرز صامتا لا يبادله الحديث ، ولم يلبث أن أشار بيده فى ضيق ، ثم صاح بالجنود يصدر أمراً لم أسمعه ، وانتحى جانبا بفريق منهم . .

وتحرك الركب بروجرز : أربعة جنود أمامه . . وأربعة خلفه . . واثنان يسندانه على الجانبين ، وهو يسير بينهما ، مرة يعرج ، وأخرى يتعثر . .

وحاول أن يجتذب أنظار كلاوس إليه ، ولكن الرجل الفظ لم يتنازل حتى بالالتفات نحوه . .

وسار العملاق الكسيح يعرج فى ثيابه الرثة متجها نحو الطريق الموحل ، فتبعته جموع الناس ، وتعالت الأصوات تحييه وتهتف له . .

وامتطى كلاوس جواده ثانية ، وسار به وراء الركب

www.ibtesama.com

فى بطء ، وقد بدا عليه الضيق الشديد لحماسة الناس فى استقبال غريمه البطل المهزوم . .

وهدأ الهتاف قليلا ، وتوقفت الجموع فى مكانها تودع بنظراتها الرجل المحطم ، وهو يبتعد فى سترته الخضراء القذرة . .

قلت : يحسن بنا . .

وأمسك ماكنوت برسغى ، وصاح بى يقول : لا . . . لاتذهب الآن . . انتظرنى هنا حتى أذهب لاستطلاع الأخبار ، ثم أعود إليك . . قد يضطرنى الأمر إلى الاتصال ببعض الناس ، وأنت الصديق الوحيد الذى أستطيع أن أركن إليه وأطمئن ، فليس من المعقول أن أتحدث بصراحة مع ذلك المعتوه كلاوس . . . لعنه الله وأسكن روحه الخبيثة أعماق جهنم . . . فأرجوك أن تبقى يا لانجدون . . . انتظرنى ولا تذهب . .

وأجبته إلى طلبه بطبيعة الحال ، وتوجهنا معاً إلى حيث يقف البحارة القادمون مع روچرز ، فوجدناهم يفرغون حمولة زوارقهم ، ويكومون الأمتعة على أرض المرساة تحت إشراف جاويش يقف ممتعضا واجما . .

www.ibtesama.com

واقترب ماكنوت من الجاويش المتعض ، وأخرج من جيبه قطعة من التبغ ، وبعد أن مسحها بكم سترته ، قضم منها جانباً كبيراً ، ثم قدم الباقى للجاويش ، وهو يقول : أتحب أن تمضغ ؟

وغمغم الرجل فى برود . . .

قال ماكنوت يستدرجه إلى الكلام : أوصلتم لتوكم مع الصاغ من ميكيلماكيناك ؟

وتطلع إليه الجاويش فى غضب ، ولم يجب .

قال ماكنوت : كنت جاويشا قبل أن يسلبونى ساقى هذه !

وهدأت نظرات الجاويش بعض الهدوء ، وسأل ماكنوت قائلا : فى جيش المقاطعات ؟ واحمر وجـه ماكنوت وقال فى صوت أجش : جيش المقاطعات ؟ ! هل أبدو ممن يعملون بجيش المقاطعات ؟ يظهر أنهم لا يعلمونكم شيئاً فى الجيش الملكى الأمريكى . . . خذ قضمة من هذا التبغ قبل أن أحشو به فمك . . .

وأُخذ الرجل بخشونة ماكنوت ، وبدت عليه الدهشة ، ولكنه لم يتكلم ، واكتفى بقضم قطعة هائلة من التبغ ، وأعاد إليه الباقى . . .

www.ibtesama.com

قال ماكنوت : بل خذها ، فلم يبق منها ما يستحق العناء . . إن ما رأيته الآن من نهمك يفسر لى أسباب ضعف الصاغ ، ولماذا يبدو خائر القوى . . . أغلب الظن أنكم لم تتركوا له من الطعام سوى النزر اليسير .

وبصق الجاويش على الأرض ، ولم يرد .

قال ماكنوت : يظهر أن الأحوال قد تغيرت فى الجيش عما كانت عليه فى أيامى . . . حقيقة أننا لم نكن نولى المسجونين عناية مذكورة ، ولكن لم يحدث مرة أن بخلنا عليهم بنصيبهم المشروع من الطعام ، أو أسأنا معاملتهم كما تفعلون بالصاغ . .

صاح الرجل قائلا : نسىء معاملته ؟ أنت لا تفقه معنى لكلامك !

قال ماكنوت : لا أفقه معنى لكلامى ؟ لقد حاربت تحت لواء روچرز ، وتعلمت منه قوة الملاحظة ، وتكفينى نظرة واحدة لأتبين سوء المعاملة . . . وكثيراً ما رأيت رجالا يموتون تحت سياط جيشكم النظامى . ياللجحيم ! . . إن الصاغ فى حال يرثى لها . . قدمه تكاد تنخلع من مكانها . فهل من دليل أقوى على سوء معاملتكم له ؟ !

قال الجاويش : صدقت ، ولكنى أقسم بالله إننا أبرياء

www.ibtesama.com

من هذه الجريمة . . . لسنا قتلة مجرمين لنعذبه هكذا !

قال ماكنوت : ربما . . ولكنكم تواطأتم مع القتلة الذين نكلوا به على هذه الصورة . . . والمرء يعرف بقرينه . . إننى أقدس الصداقة ، ولا أحتمل أن يضارّ صديق بسببي . . ولو سنحت لى فرصة معونته فى محنته ، ما ترددت لحظة فى انتهازها . . . اسمى ماكنوت ، ومهنتى التجارة ، ولقد كنت جاويشا فى فرق المتطوعين ، وما دمنا فى مرتبة واحدة ، فلا مانع من أن أصارحك برغبتى فى مساعدته . .

وضحك الجاويش بمرارة وقال : لن تستطيع مساعدته ، لا أنت ولا غيرك ، فقد اعتزموا القضاء عليه ، ولن يسمحوا لأحد بالتدخل فى أمره . . عندما . . .

قال ماكنوت يقاطعه : من هم الذين اعتزموا القضاء عليه ؟ من هم ؟

أجاب : جيج وچونسون واليوزباشي والحيوان روبرتس ، وكل من يعمل لحسابهم . . عندما . .

سأله ماكنوت : اليوزباشي ؟ لعلك تقصد اليوزباشي سپيسميكر ؟

قال الجاويش : هو طبعا . . أتعرف ما حدث عندما

www.ibtesama.com

أرادوا نقل الصاغ إلى البارجة جلادوين ؟ . . اصطف هنود شيپوى بكامل عشائرهم عند المضايق ، وحاولوا منع سپيسميكر من نقله . . قالو : إن التنكيل بصديقهم روچرز معناه نهاية السلام بينهم وبين السيوكس ، فالصاغ هو الحاكم الوحيد الذى يفهم الهنود ويفهمونه . . . كانوا يقفون بالآلاف فى كامل حللهم وزينتهم .. يصيحون ويحتجون فى غضب بالغ ، كأن كل واحد منهم يودع أحب صديق له .

قال ماكنوت : هى الحقيقة ، فروچرز أحب صديق لهم جميعا ، ولكن كيف كان وقع كلامهم على سپيسميكر ؟ هل احتد فى مناقشتهم ؟

قال الجاويش : ظلوا يجادلونه وقد أصموا أسماعهم عن حججه . . قالوا إن البيض ينكلون دائما بأحكم مستشاريهم ، ويكافئون أكبر مغفليهم . . وأكدوا له أنه بأخذه روچرز منهم ، يزيدهم يقينا بحماقة البيض وسوء تصرفهم . . وأخيرا أصدر اليوزباشى أمره إلى الجنود بالاستعداد لإطلاق النار على الشيپوى ، ثم سحب البارجة بعيداً عن الشاطئ ، حتى يعجز الهنود عن الوصول إليها . . وألقى بالصاغ مكبلا

www.ibtesama.com

بالحديد فى أحد الزوارق ، وقذف به إلى البارجة ، ورفعه إليها كأنه زكيبة قمح . . والله ، لقد كان منظراً لاينسى . . هنود الشيپوى بملابسهم الحمراء والريش يعلو رءوسهم ، يصيحون بأصوات مفزعة ، وهم يرون الصاغ يرفع بالحبال عند مؤخرة البارجة .. وزوجه تحملق ذاهلة فى وجهه الممتقع المتصبب بالعرق .. وبجوارها يقف كارڤر غير مبال ، كأنه لا يرى ما يدور حوله . . لعنه الله من سمكة متعفنة !

قال ماكنوت فيما يشبه الأنين : كارڤر . . كارڤر !

وبصق الجاويش مرة أخرى ، وقال : لولم يسرعوا بإخفاء الصاغ فى سجن السفينة ، لوقعت أحداث خطيرة ، فلقد ثارت ثائرة الشيپوى حين رأوا صديقهم مكبلا بالأغلال مهينا . . وأفقدهم الغضب صوابهم ، فأخذوا يجرون على الشاطئ بموازاة البارجة وهم يصيحون ويصرخون . . وخلعوا الأحزمة والأوسمة التى أعطاها لهم ملك بريطانيا ، وألقوا بها فى البحر ، رافضين أن يحتفظوا بهدية من الأب العظيم ، الذى يسىء معاملة أحد أبنائه بهذه الصورة . . وحتى بعد أن توغلنا فى بحيرة هورن ، بقينا فى رعب من أن يهاجمنا الشيپوى فى زوارقهم ، لإنقاذ الصاغ .

www.ibtesama.com

قال ماكنوت فى تنهدة عميقة : لماذا لم أكن هناك ؟ لو كنت موجوداً فى تلك اللحظة ما ترددت فى إنقاذه .

وتملكتنى رغبة شديدة فى الاستفسار عن أحوال إلبزابيث . . ولكن الصورة التى رسمها لها الجاويش إبان حديثه : وقفتها على الميناء فاغرة الفم مشدوهة . . ترقب زوجها المريض الجريح ، وهم يحملونه بالحبال إلى ظهر السفينة . . هذا المنظر المفزع الذى ارتسم فى ذهنى ، أثار مشاعرى ، وشل لسانى عن الحركة ، فبقيت صامتا ، ولم أنطق بكلمة عن البطل المهزوم أو زوجه المنكوبة .

ونظر الجاويش إلى ماكنوت بعطف وقال : لو كنت معنا فى ذاك اليوم ما استطعت أن تفعل شيئا دون أن تصيبه بالضرر ؛ إذ كانوا يتمنون أن يتدخل أحد فى أمره ، لينتهزوها فرصة ويقتلوه . . وإلى الآن ليست لديهم حجة لقتله رغم ما يفعلونه به . . ولقد حاولوا أن يقضوا عليه فى ميكيلماكيناك . . وكرروا المحاولة خلال الرحلة . . تركوه على ظهر البارجة فى البرد القارس . . وحرموا على الجميع زيارته حتى زوجه . . وكانوا كل يوم يلقون إليه ببعض الطعام وقليل من الماء ، ويعتبرون أنهم أسرفوا بذلك فى إكرامه . . وكنا نسمع أنينه من نوافذ القمرات

www.ibtesama.com

وهم يعذبونه ، ولعلهم كسروا ساقه بوحشيتهم فى إيذائه . . والله ، لست أدرى كيف احتمل هذا العذاب كله . . إنه ليس بشراً .

قال ماكنوت — وهو يبلل شفتيه : ماذا حدث لساقه ؟.

قال الجاويش : كان القيد الحديد ضيقا ، وأثر الشد الشديد على شرايين الرجل فتورمت حتى أصبحت فى حجم فخذك . . وعندما وصلت البارجة إلى نياجرا ، وأنزلوه بالحبال ، انصدعت الساق وسال النخاع من عظامها .

قال ماكنوت فى أنفاس قطعها الحزن والهلع : يا للفظاعة ! وماذا فعلت زوجه من أجله ، وهل بذل كارڤر جهدا فى معونته ؟

قال الجاويش فى دهشة واضحة : طبعا لا شيء . . لم يكن فى استطاعة إنسان أن يساعده . كانت زوجه حاملا فى شهرها الرابع ، فأسرعوا بإعادتها إلى أهلها . . أما كارڤر فقد أخذ بنصيحتهم وسافر إلى نيويورك ليقابل جيج ، ويقنعه بإعطائه مرتبه الذى كان يستحقه من الصاغ ، ولكن چونسون أمر بوقفه .

وتسمر ماكنوت فى مكانه ، وأخذ يفتح قبضتيه

www.ibtesama.com

ويضمهما فى حركة عصبية تنمّ عن مدى انفعاله .

وكان فيما سمعته أكثر مما يحتمله قلبى ، فاستدرت مبتعدا ، ولكن صوت الجاويش الغاضب وصل إلى مسامعى ، وهو يقول : كان واضحا أنهم يبتغون قتله قبل أن يصل إلى نياجرا ، وسمعنا أن چونسون وجيچ يريدان القضاء عليه طمعا فى إقناع الهنود بالحضور إلى قلعة تشارتر ، حتى يتسنى لهما الاستيلاء على أراضيهم ، والإثراء عن طريق بيعها للمستوطنين بأسعار غالية . ولكنهما لم ينجحا فى تحقيق هذه الخطة ، فالهنود لا يمكن أن يذهبوا إلى قلعة تشارتر ، وإذا منعوا عن ميكيليماكيناك ، فإنهم يلجأون إلى الفرنسيين والإسپان دون تردد .. وسمعنا أيضا أن هذين الفأرين الخبيثين يعتزمان إلقاء الصاغ فى السجن حتى يموت ، وإذا لم يمت ، فإنهما يقدمانه للمحاكمة ويدبران الأمر بحيث لا يجد المجلس العسكرى شهودا لصالح المتهم ، فيخلو الموقف للملازم روبرتس ، ويقسم على أن الصاغ كان ينوى بيع ميكيليماكيناك للفرنسيين .

وصحت فى ماكنوت أناديه ، وأسرعت الخطى إلى السفينة « أدميرال فرنون » وقد تقلص حاقى لهول ما سمعت . . وشعرت أننى سئمت هـــذه البلاد . . سئمت المكائد

www.ibtesama.com

السياسية . . والجشع والنذالة والخيانة التى تقابلنى أينما ذهبت .

وتذكرت التمثيلية التى ألفها روچرز منذ سنوات مضت ، وكشف فيها عن سفالة شارب وجرايب وكاتشام ، ولكنى تأكدت فى هذه اللحظة أن جرائمهم مهما بلغت تعتبر بمثابة قطرة واحدة فى بحر الشرور الذى يسبح فيه چونسون وجيچ وسپيسميكر . . وتبين لى فوق ذلك أن أعظم شرير نراه على المسرح لا يمكن أن ينحدر إلى مستوى هؤلاء الحكام الثلاثة ، الذين وصلوا إلى مناصبهم الرفيعة بالخطة والخديعة والخيانة .

وعندما لحق بى ماكنوت كان وجهه شديد الامتقاع ، والشرر يتطاير من عينيه ؛ ولكنه سار بجانبى صامتا ، حتى وصلنا إلى المرساة ، ووقفنا فى ظل السفينة ذات القلوع الصفراء الشاهقة .

قلت له : تعال معى إلى ظهر السفينة أقدم لك كأسا من الروم .

وأخذ نفسا طويلا ، وقال — وهو يهزّ رأسه : لا .. لا . . لقد أثقلت الهموم قلبى ، ولن تجد فى صحبتى أدنى تسلية .

www.ibtesama.com

ثم أردف يقول فى هدوء : لوكنت هناك ، يا لانجدون ، ما استعصى علىّ أن أنقذه . . أما الآن فواجبى أن أبقى هنا بمونتريال ، حتى يقدموه للمحاكمة . . أجل ، سأبقى ولو اقتضى الأمر أن أقضى بقية حياتى فى هذا البلد . . سأجد طريقة تمكننى من الإدلاء بشهادتى لصالحه ، ولن أتورع عن الكذب فى سبيلها . . لقد علمنا روچرز ، يا لانجدون ، أن نحارب الهنود بطريقة الهنود ، وسأعمل بنصيحته وأحارب أعداءه بطريقتهم ، وربما استطعت بمعونة الله أن أضم كارڤر وتيوت إلى جانبى .

وربت كتفى وقال : لقد أمضينا معا أسعد الأوقات يالانجدون ، وكانت صحبتك متعة لا تنسى . . فانهض الآن إلى قمرتك ، وألق نظرة على أمتعتك وحاجاتك ، ثم عد لتطمئننى على أحوالك .

وتركته إلى السلم ، وهبطت مسرعا وأنا أتحاشى البحارة المشغولين بإعداد السفينة للسفر ، ولقيت الربان فى طريقى ، فأقرأته التحية ، ودخلت قمرتى الواسعة . . . وكانت حافظة الصور بما تحويه من رسوم الشيپوى موضوعة فى مكانها بجانب الفراش ، وكذلك كانت ملابسى الجديدة

www.ibtesama.com

التى أحضرتها من الخياط ، ونقودى التى اقترضتها من ماكنوت .

ووجدت هناك أيضاً ظرفا كبيراً عليه كتابة بالحبر الأحمر ، ويحمل طابع شركة كريج وكننجهام . . ولم يكن لى أصدقاء بمونتريال ، فاحترت من أين أتى هذا الظرف . . وأخذت أفض أختامه ، وأنا أقدح ذهنى فيمن يحتمل أن يكون صاحبه . . . ولما فتحته ، سقطت منه ورقة صغيرة . . . كانت إذناً من الشركة بصرف مائة جنيه من شركة آلان ماكپار بلندن . . . أما الخطاب فقد جاء فيه : « إكراما لصداقتنا الخالصة ، وتخليدا لذكرى الأيام السعيدة التى قضيناها معاً ، رأيت أن أمزق الإيصال الذى وقعته لى بثمن الملابس ، وأقدم إليك هذه الجنيهات المائة ، لأنك فى احتياج إليها أكثر منى ، وأرجو ألا تتردد فى قبولها ، إذ لست مستعدا لمناقشتك فى موضوعها . . . وإن احتجت يوماً إلى نقود أخرى ، فعليك بشركة آلان ماكپار ، ولسوف تسدد لى هذه الديون يوم أحضر إلى لندن ، لصنع ساق خشبية جديدة ، فترسم لى صورة مقابل ما أعطيتك من نقود . . وإن كنت أعتقد أننا بالفعل متخالصان ، ولكنى أعرف ضميرك الملتزمت الذى ورثته

www.ibtesama.com

عن أهالى نيوإنجلند ، ولا أظنك تجهل رأيى فى ضمير أهالى نيوإنجلند . . . ودمت لخادمك المطيع . . . روبرت ماكنوت ، الجاويش بفرقة المتطوعين »

وأسرعت أجرى من القمرة إلى سطح السفينة ، وقفزت إلى الحاجز الذى يشرف على المرساة كلها ، ولكنى لم أر أثراً لماكنوت . . .

صحت أنادى بأعلى صوتى : ماك . . . ماك . . .

وتسلقت الحبال إلى أعلى مكان أستطيع الوصول إليه ، وأخذت أنادى . . وأنادى . . فأخذت الأجواء تردد صدى صوتى . . ولا من مجيب .

www.ibtesama.com

الفصل الثاني عشر

لست أدرى لماذا يشعر المسافر عندما يزور لندن للمرة الثانية ، بالسرور يغمر قلبه كأنه يعود إلى وطنه . . ربما لأنها تثير الذكريات الماضية ، مثلما يثيرها وجه صديق قديم عزيز . . فروائحها وأصواتها ومناظرها العدة . . ضوضاؤها وسكونها . . ظلامها ونورها . . رنين أجراسها وصخب أبواقها . . متنزهاتها الخضراء وبيوتها المغبرة المتزاحمة . . جوها الذى يمتزج فيه عفن الحظائر وعطن الجلود بشذى العطور وأريج الأزهار . . سماؤها التى يختلط فيها دخان الفحم بنسيم البحر العليل . . هذه الخصائص كلها المميزة لمدينة لندن تثير فى نفس القادم إليها شعورا عجيباً يرده من حيث لا يدرى إلى الماضى السعيد .

وانتابنى هذا الشعور العجيب عند رؤيتى المدينة التى عشت فيها سنوات وحيدا فقيراً ؛ فشعرت بسعادة بالغة وأنا أقف على أرضها ثانية ، أما وقد جئتها هذه المرة

www.ibtesama.com

أبحث عن آن ، التى أشقانى القلق عليها شهوراً طوالا ، فقد بعث وجودى فى لندن الحرارة فى عروقى ، وجعلنى أحس بالسخونة تسرى كالحمى فى جسدى .

وكنت واثقاً من أن آن لا يمكن أن تأتى إلى لندن دون أن تزور صديقتها الوحيدة مسز مارتن .. لذلك بادرت بترك السفينة فور رسوها ، ونزلت إلى البر لاهث الأنفاس .. واستأجرت غلاماً يحمل عنى أمتعتى ورسومى ، واندفعت مسرعاً إلى حى هوايتشابل ، مخترقاً طرقاته الضيقة التى تفوح برائحة السمك .. حتى وصلت إلى المنحنى الصاعد إلى شارع فليت ، وخرجت منه إلى الستراند فحدائق كوفنت ، حيث الغوانى المتبرجات يذرعن المكان جيئة وذهاباً ، ويتحرشن بالمارة ، ويغرينهم بأساليبهن الماجنة .. وخرجت من الحدائق إلى منطقة لسترفيلدز ، وظللت أسير فى شوارعها الضيقة إلى أن بلغت بيت مسز مارتن ، الصديقة الوحيدة لآن .. ووقفت أمام بابه الأخضر المعهود ، أستعيد ذكريات الماضى العزيز ، أيام كنت أفتح هذا الباب ، لأعود لفراشى وأنا يائس جوعان .. وتمنيت ألا يكون اليأس والجوع

www.ibtesama.com

فى انتظارى هذه المرة أيضاً ، إن لم يكن إكراماً لى ، فمن أجل الفتاة التى أبحث عنها ، وغاية أملى أن أوفرلها أسباب الحياة الرغدة .

واشتدت ضربات قلبى ، حتى خُيِّل إلىَّ كأنها مطارق تضرب بين ضلوعى .. وفجأة وجدت مسز مارتن تقف أمامى محملقة العينين فى دهشة بالغة .. وظلت تحدجنى بنظراتها وهى تتمتم بألفاظ متقطعة متلاحقة ، ثم أمسكت بكتفى ، وضغطت خدها على خدى .

صاحت تقول : أنت .. أنت هنا ، يا لانجدون ؟ ادخل بربك ، فقد أخفتنى بوجودك على غير انتظار .. أسرع بالدخول ... أسرع ..

وأخذَت أمتعتى من الغلام ، وجرّتنى إلى القاعة ، ودفعتنى إلى حجرتها ذات الرياش البسيط المذهب والألوان الزاهية ، والشذى الجميل المنبعث من الأزهار المجففة .

ومن فوق المدفأة طالعتنى الصورة التى رسمتها ذات يوم لمسز مارتن اعترافاً بجميل عطفها علىّ ، حين أتيتها بآن جائعة قذرة عارية ، لا يسترِ جسدها سوى بقايا من

www.ibtesama.com

الثياب المهلهلة . . وقد سرنى أن وجدت الصورة فى إطار أزرق ثمين ، يدل على مدى اعتزاز مسز مارتن بها ، وتقديرها العظيم لقيمتها .

قلت : لقد جئتك ، يا مسز مارتن ، راجياً أن تؤجرى لى غرفتى القـــديمة ، ثم تخبرينى إذا كنت تعرفين مقر آن أو أخبارها .

وقفزت مسز مارتن على حافة مقعدها مرتين ، كأنما اللوالب التى تجلس عليها قد أفلتت من مكانها فجأة :

صاحت تقول : أجل . . أجل . . أجل . . يا له من موقف عصيب ! . . إننى فى حالة انفعال شديد ! لا . . لا . . لا يمكن يا لانجدون . . مسألة استئجار الغرفة أمر مستحيل . . الغرفة مشغولة . . رباه ! ماذا أفعل فى هذا المأزق ؟ !

وقبضت على ركبتها بيديها البضتين ، وأخذت تميل إلى الأمام وإلى الخلف ، وهى تطلق الضحكات واحدة بعد الأخرى .

قلت ــ وأنا أمسك بذراعها وأهزها : مادمت تعرفين مكانها ، فأين هى ؟

www.ibtesama.com

صاحت تقول : أنت لا تفهم الموقف يا صديقى . . إننى فى حرج بسببها ، فالمسكينة تعيش فى غرفتك القديمة . تسكن عندى هنا فى البيت . . رباه ! من كان يتوقع أن ينتهى هذا اليوم الطويل المرهق ، الذى أقدم فيه لنزلائى الضأن فى الغداء والفخذ فى العشاء ، بهذه المفاجأة العنيفة ؟ !

ونهضت على قدمىّ ، وقلت متظاهراً بالهدوء : ما دامت هنا ، فدعينى أصعد إليها . . أيقيم أبوها معها أيضاً ؟

وأمسكت مسز مارتن بيدى وقالت : لا ، يا لانجدون . أنت لم تفهم قصدى . . إنها ليست موجودة هنا فى هذه اللحظة . . لقد خرجت المسكينة منذ نصف ساعة . . أما أبوها فقد مات على ظهر السفينة قبل وصولها إلى إنجلترا ، ولم يكن معها نقود على الإطلاق ، فقطعت المسافة من بريستول إلى لندن مشياً على الأقدام .

قلت هامساً : وقلبى يقفز بين ضلوعى : ماذا تعنين بهذا الكلام ؟ ولماذا خرجت فى هذا الوقت من الليل ؟ أين ذهبت ، وكيف تعيش ؟

www.ibtesama.com

وهزت مسز مارتن إصبعها فى وجهى ، وقالت ضاحكة : هاها . . لا . . يالانجدون . . إنها تعيش بشرف ، أجل تعيش بشرف ، وتكسب رزقها بعرق جبينها . . لقد جاءت إلىّ خالية الوفاض ، ولكنها وجدت عملا منذ شهر ، ولسوف تكسب من هذا العمل ما يزيد عن حاجتها ويجنبها مشقة السير الطويل اقتصادا للنفقات . . . الوقت ما زال مبكرا ، فلماذا لا تذهب لرؤيتها فى عملها الآن ؟

قلت : وهذا غاية ما أتمناه ، فأين هى ؟ وماذا تفعل ؟

قالت : تلقى محاضرات عن المتوحشين . . الهنود !

وكنت أعرف أن آن آخر من يستطيع الوقوف أمام جمهور جاد ، لتحاضره فى موضوع جاد . .

صاحت مسز مارتن تقول : أجل . . إنها تلقى محاضرات ، ولكنها محاضرات من نوع جديد ، لم يسبقها إليه إنسان فى لندن . . والمستمعون يضجون بالضحك ، حتى العجائز اللواتى لم يعرفن الابتسام منذ سنين ، يصغين إليها ، ثم ينفجرن ضاحكات حتى تسيل دموعهن ، وتفسد

www.ibtesama.com

الأصباغ المكوّمة على وجوههن . . سأدلك على القاعة التى تحاضر فيها عن المتوحشين . . . إنها قريبة من هنا . . على مسيرة خمس دقائق فقط .

* * *

أخذت أعدو حتى وصلت إلى مدخل قاعة هافمون ، وتحت المصباحين المربعيْن المعلقين على جانبيه ، وقفت أقرأ لافتة كبيرة كتب فيها : « عرض تقدمه شابة من أسرة عاشت بين المتوحشين فى أمريكا الشمالية » ... وحول اللافتة وجدت صورى الپاستل معلقة بعضها بجوار بعض فيما يشبه الدائرة : صورة وانوتان يغطى رأسه بقبعته المصنوعة من الفراء . . الصيادون من رجال داكوتا بأحذيتهم المعهودة يقتلون جاموسا بالحراب . . . هندية تسلخ جلداً معلقاً فى سارية بيتها . . . طبيب الداكوتا يلبس درعاً كاملا من قرون الجاموس وجلود القنادس ، وبين شفتيه صفارة ينفخ بها فى أذن فتاة مريضة . . .

ولم تستوقف هذه الصورة أنظارى بقدر ما استوقفتها الجملةالمكتوبة تحتها ، وكانت تقول :

« صور بالپاستل لهنود أمريكا الشمالية

www.ibtesama.com

رسمها لا نجدون تاون فى مجاهل أمريكا
معارة من جمعية علم الأجناس البشرية
بلندن لهذه المحاضرة »

ولم أصدق عينىّ ، فجمعية علم الأجناس البشرية بلندن ، تعتبر أعظم أمل لكل فنان يحلم بالمجد والثراء ، لما تنفقه من الأموال الطائلة على إيفاد الفنانين إلى جميع أنحاء المعمورة ، وما تنشره من رسومهم فى هذه الرحلات . . . فضلا عن مبناها الفخم ، الذى صممه روبرت آدم ، وبدأ فى تنفيذه أيام إقامتى بلندن فى المرة الأولى . . .

علم الأجناس البشرية ! أهى حقيقة أم خيال ؟ !

واختلطت الأمور فى ذهنى ، وبدا لى كأن رحلة البحر الطويلة ، وسيرى السريع فى شوارع لندن ، وحديثى مع مسز مارتن ، وهذا المعرض بلافتاته وإعلاناته عن المحاضرة الشابة التى عاشت مع أسرتها بين المتوحشين . . . هذا كله مجرد أحلام لا نصيب لها من الحقيقة . .

ودنوت من صورة وانوتان ، ورفعتها من مكانها أفحصها ، وإذا بصوت غاضب يصيح بى قائلا : ماذا تفعل ؟

والتفتُّ ورائى ، فرأيت رجلا سمينا يرتدى سترة

www.ibtesama.com

حريرية سوداء ، ويغطى رأسه بشعر مستعار مصبوغ باللون الأزرق . . . وكان يقف خلف نافذة كتب عليها كلمة : « تذاكر » . .

صاح بى الرجل يقول فى صرامة : ألا تعرف أن الأعمال الفنية لا يجوز أن تلمسها يد ؟ انظر بعينيك كما تريد ، ولكن دعها وشأنها . .

وتردد برهة ، وأردف يقول : . . يا سيدى

وتبين لى فى هذه اللحظة أنها الصورة الأصلية التى رسمتها . .

قلت أعتذر للرجل : تملكنى العجب فنسيت نفسى . . . فتاة من أسرة عريقة . . مدهش ! هل أستطيع أن أشترى تذكرة ؟

قال الرجل – وقد هدأت ثائرته : انتهى الآن نصف العرض ، فخذ تذكرة بنصف الثمن . . شلن وستة بنسات . .

وأردف يقول ، وأنا أخرج النقود من حافظتى : هل لى أن أسألك ، يا سيدى ، عما يدعوك إلى الاهتمام بالعرض ؟ أهى المحاضرة ، أم الفتاة الغامضة ؟

قلت : كلتاهما . .

www.ibtesama.com

وأومأ برأسه راضياً ، وقال : هذا ما توقعته ... ولقد نصحتها بأن تضفى على شخصيتها غموضا يجتذب النظارة ، فراقت لها الفكرة من حسن الحظ . . إنها فكرة رائعة . . انظر كم نجح عرضنا السابق حين أعلنت عن السنيور باولو باتيستو ، وقلت : إنه وبهلوانه ينتميان إلى أعرق الأسر الإيطالية حسباً ونسباً ؟

وسمعت صوت آن يأتى من وراء الستار الفاصل بين المدخل والقاعة ، فشعرت كأن يدا تعتصر قلبى ، وتكاد توقفه عن النبض . .

وأزحت الستار جانبا ، فرأيتها تجلس فى وسط المسرح وحولها هالة من الضوء الأخضر مثل الشمس عند شروقها ... أما الضباب الذى كان يطويها ، فلست أدرى أكان من فعل الضوء ، أم كان بتأثير الدموع التى اغرورقت بها عيناى ؟ . . كان الجمهور يضج بالضحك فلم أتبين حديثها ... وتخاذلت ساقاى فاستندت إلى الستار أتشبث به . .

ورأيت آن تبتسم وتسير خارجة من المسرح بقوامها النجيل الذى يشبه الرمح الممشوق . . وانفجر النظارة فى

www.ibtesama.com

عاصفة من التصفيق . . وعثرت على مقعد خال بالصف الأخير من القاعة فجلست عليه ، وقلبي يدق عنيفا . . . حتى خيل إلى أن صوت ضرباته يصل إلى مسامع الجالسين بعيداً عنى . . واختلست النظر إلى من حولى ، فوجدتهم مشغولين عنى بمسح دموعهم وأنوفهم .

كان المنظر على المسرح بسيطا : فى وسطه جذع شجرة ملقى على الأرض ، يحيط به نصف دائرة من الشجيرات الصغيرة . . وعلى جانب من هذه الشجيرات يبرز مقدم زورق مرسوم عليه رأس هندى ، وعلى الناحية الأخرى ما يشبه كوخا هنديا ، بجانبه حامل ثلاثى يتدلى منه إبريق أسود فوق نيران مشتعلة .

وعادت آن إلى المسرح تلبس قميصا رمادى اللون وأربطة « قلاشين » من الجلد حول ساقيها ، وتحمل صرة بها متاع متنوع . . وسارت إلى جذع الشجرة وجلست عليه ، ووضعت الصرة على الأرض عند قدميها . . وبدأت تتحدث فى سهولة ، كما كانت تحدث أمى فى كيتارى ، وكما كانت تحدثنى مرات ومرات ، لتحكى كل ما تراه مسليا وممتعا لها .

وكانت فى أثناء حديثها ، تخرج من الصرة واحداً بعد

www.ibtesama.com

واحد من محتوياتها وترصه على الأرض : أربطة «القلاشين» .. ملفحة زاهية الألوان . . كيس طباق مطرز بالخرز . . « طاقية » مصنوعة من الصوف الأحمر . . وأخيراً قلنسوة فوقها ريشة قرمزية . . ولعجبى الشديد لم تعد آن التى تتكلم ، بل تقمصت شخصية سائح أجنبى يتحدث بلغة إنجليزية ركيكة . . يثرثر ويتفاخر بأعماله ، وبين آونة وأخرى يرفع صوته بالغناء أو بأقذع أنواع السباب الفرنسى .. يلوح بغليونه مؤكداً ما يزعمه من عظمة مكانته وأهمية شأنه . . يصف سرعة كلابه فى الجر . . والأحمال الثقيلة التى رفعها على ظهره عبر القفار ، وجمال زورقه وانسيابه ، والمهارة التى يهبط بها الشلالات ، وشجاعته التى تفوق شجاعة البشر .. إنه أعظم من دخل الشمال الغربى ، فقد أنقذ سبعة وأربعين رجلا ، وتزوج أربع عشرة امرأة ، له منهن اثنان وستون ولداً .. يصف شراهته فى الأكل ، وكيف لم تمض ليلة دون أن يتعشى ثلاث مرات على الأقل . . ثم مهارته فى كسب المال ، فلقد ربح آلافا مؤلفة من الجنيهات ، ولكنه أنفقها إلى آخر شلن منها على ملذاته وطباقه ومتعه وحبه وخمره . . لأنه يحب الحياة ، ويؤثر أن يفوق غيره فى الاغتراف من مباهجها الكثيرة . . ولو أنه عاد شابا مرة

www.ibtesama.com

أخرى ، ما سلك إلا نفس الطريق . . فهو سائح . . سائح عظيم ، وبطل مغوار . . لم ير فى حياته ذئبا صغيرا . . لأن أمثاله لا يلقون سوى أضخم الذئاب وأشدها فتكا وأقواها مراسا .

وضج السائح بالضحك ، فضحك النظارة معه . . ثم قام يتمايل ويغنى إحدى الأغانى التى طالما سمعتها فى ميكيليما كيناك . . وأخذ يختفى من المسرح ، وصوته يتضاءل بالتدريج . . ويتحول إلى صوت آن . . وأقبلت آن مرة ثانية وهى تغنى أغنية وداع مرحة . . تلك الأغنية التى سمعت الرجال ينشدونها حينما أقلعت متجها إلى الغرب فى ذلك الصباح من شهر أغسطس . . أجل حينما ذهبت من ميكيليما كيناك وقد انطبعت على قلبى الابتسامة التى رأيتها ترتسم على فم آن فى ذلك اليوم .

وذبلت الابتسامة على شفتيها ، وارتخى جسمها ، ومدت يديها فيما يشبه اليأس ، ثم شرعت تغنى مقطوعة كلماتها فارغة لا معنى لها ، ولكنها تبرز ما فى نفسها من وحدة وشوق إلى ذلك الحبيب الذى ذهب عنها ولم يعد بعد .

وعصرت الأغنية قلبى ، وكادت تخنقنى وتعمينى ،

www.ibtesama.com

ولم أعد أحتمل كلمة أخرى منها ، وخشيت إن بقيت أكثر من ذلك ، يغلبنى الانفعال ، فأرتكب حماقة تفضحنى بين الحاضرين .

ودون أن أحس ، وجدتنى أخرج متسللا من القاعة ، وأعود إلى البيت .

وقابلتنى مسز مارتن بعيون لامعة ، ورأيت سيلا من الأسئلة يتزاحم على طرف لسانها ، فأفهمتها باقتضاب أنى سأنتظر آن فى غرفتى القديمة ، ورجوتها ألا تخبرها بشىء عن وجودى .. قلت : أريد أن أخبرها أنا بنفسى ، وأنت تفهمين شعورى بالطبع .

وجدتنى أجلس ثم أقف عشرات المرات ، وكلما ضقت ذرعا بالجلوس والوقوف ، أطوف بأرجاء الغرفة التى عشت فيها أعواماً أمام حامل التصوير ، أرسم لوحات لا يريدها أحد . . وخيّل إلىّ أن هذه الأعوام الأربعة على طولها وقسوتها ، لم تكن سوى لحظة خاطفة بالقياس إلى هذه الدقائق التى قضيتها فى انتظار عودة آن من المسرح .

عندما سمعت صرير المفتاح وصوت باب المنزل يفتح ، كان حلقى قد جف ، وراحتاى ينديهما العرق ..

www.ibtesama.com

لم أكن مستعدا للقاء آن . . فلقد أنسانى الانفعال أن أفكر فيما سأقوله لها ، أو لعلى فكرت ونسيت .

واقفل الباب بهدوء ، وساد السكون ، كأن القادم توقف عند أول الدرج ، فحبست أنفاسى ، وأنا أحاول أن أهدئ من ضربات قلبى ، التى علا صوتها فى أذنىّ ، وأعجزنى عن السمع .

وأتانى دبيب خطوات سريعة على الدرج ، وتعالى صوت آن لاهثاً وهى تقول : لانجدون . .

وبللت شفتى ، وحاولت أن أجيبها ، ولكن لسانى خاننى ، وتجمد جسدى ، فبقيت فى مكانى صامتاً لا أتحرك .

وانفتح الباب على مصراعيه ، ووقفت آن فى فتحته . .

وأبقت يدها على مقبض الباب ، وأخذت تنظر إلىّ ، ثم تخاذلت ركبتاها من تحتها ، فدبت الحياة فىّ فجأة ، وأسرعت أسندها بذراعى قبل أن تسقط على الأرض . .

قالت لاهثة : رأيتك وأنت تخرج من القاعة ، فتأكد لى أنك عدت . . ولكن الجمهور المزعج عاقنى عن العودة

www.ibtesama.com

بسرعة ، فلقد اجتمع الناس حولى ، وظلوا يتحدثون ويتحدثون . . وكنت قد عرفتك ، يا لانجدون ، فتخاذلت ساقاى . . رأونى فى حاجة إلى مقعد ، ولكنهم لم يسرعوا بإحضاره . . ضع يدك على قلبى ، أيها العزيز ! .

وفى عبارات متقطعة حاولت أن أصف لها الأفكار والمشاعر التى ناء بها قلبى طيلة غيبتى عنها ، فظلت تهمس بين آن وآن : أجل ، يا لانجدون ؛ إننى أعرف ! أجل يا أعز الناس ! كنت أعرف طول الوقت . .

ويعلم الله ، أنه لولا مسز مارتن ، لقضيت الليل بأكمله ، وأنا أعيد وأزيد فى وصف المخاوف الرهيبة التى أنشبت أظافرها فى قلبى طوال رحلتى ، ولظلت آن تقول مرة بعد مرة : أجل يا لانجدون ، إنى أعرف ! إنى أعرف يا أعز الناس !

ولما سمعت مسز مارتن تصعد الدرج ، لعنتها فى سرى ، ولكنى لم ألبث أن غفرت لها حين رأيتها تقف أمامنا لامعة العينين ، فلقد ذكرنى وجهها الطيب بجميلها على آن . . وعطفها على الفتاة الفقيرة التى لجأت إليها وحيدة معدمة ، لا أهل لها ولا مال . . وتزاحمت الذكريات

والأسئلة التى أريد أن أعرف إجاباتها من آن : أبوها وما آل إليه .. جمعية علم الأجناس البشرية وكيف توصلت إليها .. اشتغالها بالتمثيل ، وإتقانها العظيم لهذا الفن ؟ .

صاحت مسز مارتن — وهى تدخل وتقف بجانبى : آه ! كم أنا سعيدة !

وتنهدت بارتياح ، واستطردت تقول : قلت لمستر مارتن الليلة : إننى رسمت هذه الخطة لكما منذ سنوات .. كنت أرى بوضوح أن هذه الصغيرة من نصيبك .. إننى أرلندية ، يا لانجدون ، وأهل بلادى ضليعون فى شئون الحب .

ثم اكتسبت لهجتها صبغة عملية ، وهى تقول : علام اتفقتما يا لانجدون ؟

قلت فى تردد : ربما أمكننا ... دعينى أفكر .. نذهب إلى مطعم الدب الأبيض .. لا ، بل نذهب إلى مطعم آخر أفضل منه .

صاحت مسز مارتن مستنكرة : والله إنكم يا أمريكيون

www.ibtesama.com

لشعب عجيب ، لاتفكرون فى المستقبل ، وتضيعون الوقت هباء . . إسراف لا داعى له . . فلماذا لاتتزوجان ؟

وبقيت آن متعلقة بى ، خدها على خدى .

قلت : أجل ، بالتأكيد . . سنتزوج بالتأكيد .

وضممت آن إلى صدرى ، وقلت : حالما تقبل آن . . وبمجرد أن تتم الإجراءات .

صرخت مسز مارتن قائلة : تقبل ! . . الإجراءات ! رباه ! يا لكم من شعب عجيب ! يا لكم من شعب بارد كالثلج ! دعنى أقل لك إن هذه الفتاة مريضة . . مريضة بالحب . . أنا ، أنا چانيت جريجوار مارتن تحدثت معها فى هذا الموضوع مرات ومرات ، ولقد رأيتها تقضى الأيام تلو الأيام فى انتظار ، تبنى الآمال والآمال على عودتك . . أتظننى عمياء ، يا لاتجدون ؟ إن قلبها يكاد ينفطر لانقطاع أخبارك عنها ، ولم يكن لديها مال تعود به إلى أمريكا للبحث عنك . . والآن تقول إنك ستتزوجها حالما تقبل ، وبمجرد انتهاء الإجراءات ! !

وضربت جبهتها بقبضتها ، وقالت : رباه ! كيف تتوقع منها أن تظهر لهفتها عليك وأنت بهذا البرود ؟

www.ibtesama.com

ثم كيف تتركها حالما وجدتها وتفكر فى الذهاب إلى حانة الدب الأبيض ؟ يا إلهى ! الدب الأبيض ! الدب الأبيض ! يا له من وصف صادق لكم أيها الأمريكيون . أين حماستك ؟ أين روحك لتفكر فى انتظار الإجراءات ؟ تذكر الوقت الذى تقتصده إذا تزوجت الآن . . هذا المساء . . هذه اللحظة !

وتنهدت آن ، وتحركت شفتاها على خدى .

قلت محتجاً : فى هذا الوقت من الليل ؟ بدون شهود ؟ وبدون ترخيص ؟

وفهمت ما تريده مسز مارتن . . فقد كانت تعنى زواج رجال البحر . . أمام قسيس من أولئك القذرين الذين يمارسون عقد الزيجات بشارع فليت فى ظلال السجن الذى يضم ضحايا الديون التعساء .

وتذكرت فى هذه اللحظة أن ناتى پوتر تزوج ذات يوم من أم آن أمام قسيس من هؤلاء الذين يسهرون الليل فى انتظار الفرص السانحة . . وهم لايطلبون لإتمامها ترخيصات أو شهوداً . . ولا يهمهم شرف الأزواج أو عفة الزوجات .

www.ibtesama.com

قلت : إنك تفكرين فى عقد الزواج بشارع فليت . . أليس كذلك ؟ لن أرضى لآن بمثل هذا العقد .

قالت مسز مارتن : ولم لا ؟ ألا يحسن بك أن تستطلع رأيها فى الموضوع ؟ انظر إليها ، يا لانجدون ، تعرف الحقيقة ! انظر ! ماذا تقوله عيناها بصراحة . . أتراها خائفة من أولئك القسس ؟ لا . . لا . . لا . . أتراها تكره مثل هذا العقد ؟ . . لا . . وألف لا .

وهزت إصبعها فى وجه آن ، وقالت لها بالفرنسية : ماذا تنتظرين ، يا آن ؟ لو كنت مكانك ما ترددت ! اذهبى معه يا عزيزتى وكفاك انتظارا ! هيا . . ولتحلّقى فى سماء البهجة والهناء .

وضحكت آن بارتباك ، وقالت : دعنى أغير قبعتى ، يا عزيزى لانجدون ، وبعدها أكون على أتم الاستعداد . .

www.ibtesama.com

الفصل الثالث عشر

ليس هناك ما يرفع الفنان إلى سماء السعادة أكثر من أن ينصرف إلى عمله بجانب حبيبة تزيل وحشته وتؤنس قلبه . . . وشكراً لآن فقد وفرت لى كل حاجتى من هذه المتعة التى لا تعوض . .

وعشنا عاما عند مسز مارتن ، حتى انتهى عقد آن مع قاعة هافون ، ورغم إلحاحى عليها باستمراره مدة أخرى ، رفضت أن تجدد العقد ، وآثرت الانسحاب . .

قالت : ألا تذكر حكمة كوپلى ؟

وغيرت صوتها فجأة بما يشبه صوت كوپلى ولهجته المرحة الهادئة ، واستطردت قائلة : إن وجود فنانين فى أسرة واحدة ، أمر متعب خطير . . .

وهكذا بقيت الفنان الوحيد العامل فى الأسرة . . .

وكنت عاملا مجدًّا . . . فبعد أن انتقلنا إلى بيت صغير اخترناه بميدان كافندش ، لسهولة المواصلات ، شغلت بإتمام مجموعة صور الداكوتا التى طلبتها منى جمعية علم الأجناس البشرية ، وانهمكت فى تنظيمها وإعدادها للنشر . .

www.ibtesama.com

وشكراً لآن التى جلبت لى هذا العمل ، عند ما عرضت مجموعتى على الجمعية عقب وصولها إلى لندن . . . فمن هذه الصور برزت فكرة تزيين سقف القاعة المستديرة بمجموعة من صور الشيبوى مع آلهتهم على مدار السنة . . . وقد استغرق إعداد مشروع الفكرة وتنفيذه وقتاً طويلا ، حتى خلت أنا وهى أننا سنشيخ قبل إتمامها . . . وهكذا كان الفضل لآن فى كل ما أنعم به من خير وسعادة . .

وسمعت من شفتى آن قصة رحلتها المخيفة مع أبيها . . وعرفت منها ما جعلنى أغير رأيى فى روچرز ، وتحولت المرارة التى كانت تملأ قلبى منه ، يوم غادرت ميكيليما كيناك فى فجر يوم بارد من أيام ديسمبر ، إلى ما يشبه الشفقة عليه . . . ورأيت كيف يعمى الرجل فى حكمه إذا أحاطت به الانفعالات العاصفة ، وأعجزته عن إدراك الأمور على حقائقها . .

قالت : تعلم يا لا نجدون أن فائدة البارود تتوقف على حسن توجيهه وتوقيته ، وإلا انفجر قبل الأوان ودمر من حوله ، مثلما حـــدث لصديقيك ماكنوت وهانك مارينار . . ولقد كان الصاغ روچرز بارودا آدميا . . فلا تقس فى لومه على تصرفه معى . . . كان يقاسى ويتألم

بسبب الأغراض التى وقفت فى طريقه ، ومنعته من الاحتفاظ بكرامته وتحقيق مشروعاته . . أراد أن يأتى أعمالا عظيمة نعرف جميعا أنه قادر عليها ، ولكن الأغبياء صدموه وحطموه وتركوه عاطلا بلا عمل ولا أمل . . فهل يدهشك بعد ذلك أن يدمر نفسه بنفسه ، وينفجر فى الطريق الخاطئ ؟

ورأيتها تصيب فى تفسير العوامل التى أغرت روچرز بارتكاب الأخطاء ، ووجدتنى مقتنعاً بكلامها ، ومع ذلك لم أستطع أن أتحرر تماماً من تحاملى عليه ، فأجبت قائلا : ربما . .

قالت : لم يكن مع أبى يوم وصلنا إلى مونتريال سوى بضعة شلنات أعطاه إياها صديقه الملازم روبرتس . . . ولم نكن نملك شيئا مطلقاً غير مجموعة صـــورك . . وقد حرصت طول الوقت على ربطها حول جسمى خشية أن يسرقها بالليل ويبيعها دون علمى . . . كان يمقت الصاغ ، يا لانجدون ، مقتاً شديداً ، فاستغل الخطاب الذى حمله من روبرتس إلى البكباشى كلاوس . . أتعرف كلاوس يا لانجدون ؟

وأومأت برأسى . .

قالت : إنه رجل شرير . . كان أبى مريضاً ، فى شدة

www.ibtesama.com

المرض . . وعلى طول طريقنا إلى مونتريال ظل يسعل ويبصق دما . . ولما وصلنا ، ذهب إلى البكباشى كلاوس وطلب منه أجر سفرنا إلى إنجلترا مقابل إقرار يثبت فيه خيانة الصاغ ، ويدلل على أنه كان يعد العدة للانضمام إلى الفرنسيين ، مما يثير الهنود إلى الحرب ، ويهدد بالدمار مصالح بريطانيا العظمى .

قلت : هكذا ، هكذا ، كنت واثقاً أنه قدّم خدمة ما لكلاوس ، ولكن لم أكن أعرف نوع هذه الخدمة . . ولكن هل كتب أبوك الخطاب ؟

قالت بحزن : أجل . . كتبه وقرأه عليّ . . فلم أجد فيه شيئاً ، ولكنه عرف كيف يصفه بطريقة تخدع من يجهلون تفاصيل الموضوع وظروفه الصحيحة . . وكتب أبي فى الخطاب أن الصاغ طلب منه الاشتراك معه فى خيانة بريطانيا ، فثار غضباً لهذا العرض المهين لشرفه ، ولعلك تذكر ضمير أبي المرهف ونفوره الشديد من الخداع والخيانة !

وضحكت وتناولت يد آن أقبلها .

قالت – وهى تشبك أصابعها بأصابعى : ولما رجوته ألا يسلم هذا الخطاب إلى البكباشى كلاوس . . جعل

www.ibtesama.com

يذرع الغرفة جيئة وذهاباً ، وهو يلوح بيديه ويقول بلهجة تمثيلية : « إنى رجل مظلوم . . الناس أخطأوا فى حقى أضعاف ما أخطأت فى حقهم . . . ضعى فى هذه اليد الشريفة سوطاً ودعينى ألهب به ظهر الوغد أمام العالم كله » . . ثم ضحك ، يا لانجدون ، فلم يلبث الضحك أن تحول إلى سعال شديد ، وأخذ الدم يتدفق من فمه .

وسكتنا أنا وهى ، وقد ألمّ بنا شعور حزين ، أمام تلك الصورة التى رسمتها لأبيها التعس ، الذى فارق هذه الدنيا ونفسه مثقلة بالأوزار . . وإذا كان شعورى هكذا ، تُرى ماذا يكون شعورها نحو الرجل الذى حكمت الظروف بأن تجعله أباها ؟

* * *

تعودنا فى خلال فترات الراحة أن نرجع إلى ذكريات الماضى ، ونتحدث فيما لاقيناه خلاله من صعاب وآلام ، فجرى اسم روچرز على لسانى ، وأصبح النطق به لا يضايقنى أو يثير نى ، والفضل فى ذلك لآن . . فوجودها فى قلبى وفى بيتى محا المرارة التى كنت أشعر بها نحوه بالتدريج ، كما يمحو الزمن أعظم الآلام ، وبتنا نعتبره مجرد ذكرى لن تعود ، كشخص خيالى لا يحتمل أن يمر بحياتنا مرة أخرى . .

www.ibtesama.com

وذات يوم قرأت فى جريدة الصباح أن روچرز عاد إلى إنجلترا ! وقرأت الخبر لآن فى صوت مرتجف ، ورحنا نتبادل نظرات العجب والاستغراب ، بل لعلها نظرات التوجس والخوف .

همست تقول : ترُى ما هى مشروعاته القادمة ؟

مشرعاته القادمة ! حقاً ، من يدرى ؟ ألم يقل يوم رأيته فى ميكيليماكيناك مهشما مقيداً بالسلاسل : « والله لن يقبضوا علىّ ! وسوف أهزمهم جميعاً » !

إنه أبعد ما يكون الآن عن الموت الذى دُبِّر له ، بدليل الشائعات التى ملأت الحانات والقهاوى بأنه حوكم أمام مجلس عسكرى ، ثم برُِّئ من تهمته فى أواخر عام ١٧٦٨ ، وها هو ذا يعود الآن إلى لندن ، ويسكن فعلا ببيت فى تشيرنج كروس ، أفخم أحياء المدينة وأبهاها .

والله وحده يعلم كيف تملص من ديونه الهائلة التى تعد بآلاف الجنيهات ، والأعجب من ذلك سكنه الفاخر فى تشيرنج كروس . . واستقبال الملك له فى قصره . . وإعجابه به إلى حد أن وضع ذراعه على كتف الصاغ أمام المدعوين ! . . روچرز الذى قبض عليه چونسون وجيچ ،

www.ibtesama.com

ثم ضرباه وركلاه ، وينجو من مكائدهما ويحظى برضا جلالة الملك چورج الثالث وعطفه !

وسمعنا الشائعات تتردد بأن مشروع چونسون وجيج لبناء إمبراطورية بوادى أوهايو قد أفسده عليهما روچرز بما له من دالة على الملك . . وأن كاڤر وآثرنون حضرا إلى لندن يسترضيان الرجل الذى خاناه ، كما سمعنا أن روچرز استأنف التماساته بأن يسمح له بالبحث عن الممر الشمالى الغربى ونهر أوريجون العظيم ، على أن يزود هذه المرة بخمسين رجلا يسيرون معه فى طريق نهر سانت بيتر والمسيسبى . . وأنه يحاول أن يسترد من الحكومة المبالغ الباهظة التى أنفقها على هنود الغرب للاحتفاظ بتجارتهم مع إنجلترا .

وظلت الأخبار تردد مثل هذه الشائعات ، حتى طلعت علينا جريدة مورننج أوبزيرڤر فى ذات صباح من شهر يونيه بخبر منشور فى صفحاتها الأخيرة ؛ ذات المكان الذى ظهر فيه قبل سبع سنوات ، خبر مقابلة الصاغ لقاطع الطريق وقبضه عليه فى هونسلو هيث . . وكان خبرا من ذلك النوع الذى يتلقفه رواد المقاهى بلهفة وشوق . . جاء به :

www.ibtesama.com

« كان من أحدث النزلاء فى سجن فليت ، الصاغ روبرت روچرز ، القائد الأسبق لمتطوعى جلالة الملك بأمريكا الشمالية ، والقائد الأسبق لحامية ميكيليما كيناك » .

ولم يذكر الخبر أكثر من ذلك . . ففهمنا أنه سجن من أجل ديونه . . وإذا كانت تلك الديون بالضخامة التى نتصورها ، فمعناه أن الصاغ قد ودع أيام الحرية إلى آخر حياته .

كنت أرى خلال السنوات الهادئة التى مرت بحياتنا العائلية ، أن آن صفحت عن زلته نهائيا ، أما أنا فلم أسأل نفسى إن كنت قد صفحت عنه أم لا ، لأنه ما من مرة تذكرت فيها خيانته لى وللفتاة الصغيرة التى ائتمنته عليها ، إلا وامتلأت نفسى باحتقاره . . أما الكراهية فتصور لى أنها ذهبت مع الأيام ، ولم يبق لهـا أثر فى نفسى . . . ولكننى كنت واهما ، ولم أتبين ذلك إلا يوم عرفنا بوجوده فى السجن ، فقالت لى آن : يجب أن تذهب لزيارته يا لانجدون ، ولا يصح أن تتركه يفْنَى وحده . . . عندئذ فقط وجدت قلبى يفيض بالكراهية مرة أخرى ، فقلت — وأنا أهز رأسى : أزور الصاغ ؟ مستحيل !

www.ibtesama.com

ونظرت إلى ، وقد ارتسم على وجهها ذلك التعبير الذى شاهدته فى ميكيليا كيناك ، يوم وجدتها تنظر إلىّ كالسجين من بين قضبان حاجز الدّرَج . . . لقد أصاب ذلك اليهودى الذى قابلته عند مساقط سانت أنتونى ، عند ما ضرب صدره بإحدى يديه وأمسك رقبته بالأخرى ، وقال : إنها لا تعمل شيئاً أكثر من أن تحرك عينيها ، فينبعث منهما شيء يغوص فى أعماقك . . . يدخل هنا . . وهنا . . . وهنا !

قالت آن – وهى تضع يدها على ذراعى ، وتنظر إلى بطريقتها المؤثرة المعهودة : إن الذين ركلوه بأقدامهم فى محنته ، كانوا حثالة وضيعة . . . وليس لنزلاء سجن فليت أصدقاء يمدون لهم يد المعونة . . .

ألم يستطرد أيزاكيل سولومون فى وصفها قائلا : لقد جعلتنى أبكى كالأطفال دون عناد . . .

نعم . . لقد صدق أيزاكيل سولومون فى قوله . . . فلأول مرة أحسست بأننى أحتقر نفسى . . .

www.ibtesama.com

الفصل الرابع عشر

كنت أتخيل أن سجن فليت كبقية السجون التى أعرفها ، يتألف من بناء حجرى ، فرشت زنزاناته بالقش ، ومن وراء قضبانه الضيقة يتطلع المسجونون المقيدون بالسلاسل والأغلال ، وأمامه يسير السجانون فى ملابسهم الرسمية ، عابسى الوجوه ، يهزون المفاتيح فتتعالى جلجلتها فى حلقاتها الحديدية . . ولكنه لم يكن كذلك . .

عندما وصلت إلى لادجيت هيل ، وانحدرت سائرا فى شارع فارنجتون ، وجدت نافذة حديدية تتوسط حائطا عاريا ، كتب فوقهـا : « تذكروا أن المدينين المساكين مفلسون لا إيراد لهم » ، ووراء القضبـان الحديدية ، وقف رجـل يلفت نظر المحسنين بعلبة من الصفيح بها بعض البنسات . . وما إن اقتربت منه حتى امتدت يده بالعلبة من بين القضبان ، فألقيت فيها شلنا . .

وعلى بعد خطوات من النافذة ، كان باب السجن الواسع ، وقد اكتظ الناس حوله بشكل لم أر له مثيلا من قبـل ، فالسعاة يجرون منـه وإليه ، وخدم المطاعم

www.ibtesama.com

يهرعون بالصوانى والسلال ، والنساء ذوات الطابع المعروف لمهنتهن يتبادلن الحديث مع حراس جادّين ينعمون النظر فى الخارجين والداخلين .

وذكرت مهمتى لواحد من هؤلاء الحراس ، فرمانى بنظرة جامدة باردة ، حتى منحته شلنا ، فإذا به يفيق فجأة ويصيح مناديا بصوت عالٍ : « أيها المنادى » . . وقام على ندائه رجل شحيم ، أسنانه سوداء قذرة ، وأنفه فى حمرة الكرز الناضج ، ووقف ببطء وهو يستند على خشبة طويلة كالعكاز ، وتقدم من مكانه على الإفريز ، ونظر إلىّ فى تقدير وإكبار . .

قال له الحارس : خذه إلى الصاغ روچرز الشهير ، فى الجناح العلوى رقم ١٢ ، وسوف تجده فى مطعم بارثلوميو ، إذا لم يكونوا قد أقفلوا حسابه الجارى به . .

وظلت عينا المنادى تحدقان فى جيبى حتى أعطيته هو الآخر شلنا ، فقادنى إلى دهليز طويل خرجنا منه إلى ساحة السجن التى تسطع فيها الشمس . . وكانت الساحة أشبه بمدينة ملاهٍ منها بالسجن . .

وكان المبنى الرئيسى ، الذى يقع فوق الدهليز الذى جئت منه ، مكونا من أربعة طوابق ، كل نافذة من

www.ibtesama.com

نوافذه يطل منها رجل أو امرأة ، أو رجل وامرأة معا ، وجميعهم يضحكون ويصرخون ويتغازلون ، ويصيحون صاخبين فيمن يملأون الساحة السفلى . .

أما حول الساحة فكانت الأبواب والنوافذ تعلوها أعجب اللافتات ذات الألوان الزاهية : « قهوة الدرمان » . « قاعة ستاركى للبلياردو » .. « حانة بارثلوميو » .. « خردوات كارترايت » . . « تعلم اللاتينية والفرنسية عند كيث » . . « شاى جارتر » « صالون چون فيج للحلاقة » . . « لاندس سيد الملاهى » . « ملابس بامبريدج » . .

ووجدت الساحة تموج بجمع من الرجال والنساء من كل الطبقات ، بعضهم فى ملابس مهلهلة ، وبعضهم فى أفخر الأزياء . . وعلى جوانب المدخل ارتمى رجال يستندون على الأسوار وقد ارتدوا — رغم حرارة الجو — معاطف أكل الدهر عليها وشرب ، مما يدعو إلى الاعتقاد أنهم يلبسونها على جلودهم ، ولا يرتدون تحتها ثيابا داخلية . . وفى الناحية المقابلة رأيت رجالا أنصاف عرايا أو فى ملابس قصيرة يلعبون بكور من العاج يضربونها على الأسوار بمضاربهم . . وهنا وهناك شاهدت جموعا تقامر وتلعب بالورق ألعابا ، منها ما أعرفه ، ومنها مالم أسمع به من قبل . . وفى جانب من الساحة نصبت خيمة

تقوم مقام حانة للجعة تجمع حولها الرجال ، بعضهم يغنى ، والبعض الآخر يتمرن على المصارعة . . وفى وسط هذا الزحام تقف النساء ضاحكات بأصوات خليعة تعلو على الضوضاء التى تملأ المكان .

وما إن وقفت عند فتحة الدهليز أحملق فى هذا الجمع العجيب ، حتى أحسست بالوجوه تلتفت نحوى ، وسمعت أحدهم يصيح : «الإتاوة ! ارفع أو اشلح ! » . . وفى لحظة قصيرة أصبحت هــذه الجملة تتردد على ألسنة الآخرين . . وسمعها اللاعبون والسائرون فتوقفوا واتجهوا نحوى ، وامتدت أيديهم إلى سترتى وأخذوا يشدونها ، كأنهم يريدون تمزيقها . .

وصاح مرافقى المنـــادى ، وهو يطوح عكازته دفاعا عنى ، وقال : إليكم عنه . . ألا ترون أنه زائر وليس نزيلا . . ابتعدوا من هنا !

وتفرق السجناء ببطء متذمرين ، إلا نفرٌ قليل منهم ظل يلح همسا فى طلب المال ، وتخلفت عن الركب امرأة بضة الجسم تلبس قميصا مخططا ذا فتحة واسعة على الصدر ، وانتهزتها فرصة وألقت إلىّ بابتسامة ، وهى تثبت أعلى

www.ibtesama.com

جوربها أمام نظراتى الباردة . .

ورفع المنادى حاجبيه لما رآنى أعرض عنها ، وضربها بعكازته على عجزها برفق ، متجاهلا صراخها ، والتفت إلىّ يقول : من حسن حظك أننى معك ، أيها السيد ، ولولاى لدفعت الإتاوة كاملة . .

قلت : لن أنسى صنيعك ، ولكن ، خبرنى ماذا يقصدون بالإتاوة ، وما معنى : ادفع أو اشلح ؟ !

قال : يظهر أنك لم تدخل هذا المكان من قبل ، أيها السيد ، فمن تقاليد السجن أن يدفع القادم الجديد مبلغا من المال يشرب به السجناء القدامى حتى يسكروا . . ومن لا يدفع يجردونه من ملابسه ، ويبيعونها لهذا الغرض . .

قلت : والنساء ؟ أيدفعن أيضاً هذه الإتاوة ؟

قال فى دهشة : نساء ! أى نساء ؟ هذا السجن للرجال ، والنساء لا يدخلنه . .

وكان بالساحة مالا يقل عن مائة امرأة ، فأدهشنى كلامه ، ولم أستطع التعبير عما فى نفسى إلا بإشارة من يدى نحوهن . .

قال المنادى : أتقصد هؤلاء ، لا لسن سجينات . .

www.ibtesama.com

بل زوجات للنزلاء أو صديقات ، وبعضهن يعمل فى غسل الثياب ، أو يؤدى شتى الخدمات ، والأخريات جئن للمتعة والترفيه عن النفس .

واستطرد يقول متبسطاً : أترى هذه الفتاة ذات القبعة الصفراء ؟ ! إن الجميع يمتدحونها ، وهى تبيع القبلة بربع بنس . . ألا ترغب فى متعة بريئة ؟

قلت : شكراً لك على عطفك ، ولكنى جئت لأقابل الصاغ روچرز . .

قلت : لكل إنسان مزاجه ! ! سأنادى الصاغ فى الساحة ، فإذا لم نجده ، نذهب إلى الحانة ، وإذا لم يكن بالحانة ، تدفع بنساً لبوب ، المنادى الخاص بجناح السادة ، لأنها مهمة شاقة ، أيها السيد ، أن تنادى شخصاً معيناً من بين مائتين وثلاثة وأربعين سجيناً يضمهم هذا المكان والأمر لا يكلفك سوى بنس واحد . . بنس واحد لا أكثر ، فهل يرضيك هذا ، أيها السيد ،

قلت : أجل . . أجل لا مانع . .

ولم أفهم معنى لكلامه ، ولكن حرارة المكان والروائح الكريهة المنبعثة من المجارى كانت تغلب على تفكيرى ، فوافقت أملا فى التخلص بسرعة من هذا الجو المنفر . .

www.ibtesama.com

وتقدمني المنادى واتخذ سمة السلطة ، وصاح بصوت حشرجة الخمر : الصاغ روچرز . . الصاغ روچرز مطلوب هنا .

ولم يبد أحد أدنى اهتمام ، ولم يحرك السجناء ساكنا للاسم الذى طالما بعث الرعب فى قلوب الفرنسيين ، وهز جيشهم هزاً . . الاسم الذى حظى باحترام كل هندى فى أمريكا الشمالية ، وأحيا الآمال فى قلوب تجار كندا ، ونال أعلى التقدير والرعاية من الملك ووزرائه وقواده .

والتفت المنادى إلىّ ، وأنفه القرمزى يكاد ينفث البخار ضيقاً ، وقال : تعال معى ، ففى ذلك توفير للوقت . . إذ ربما يكون نائماً فى أحد الأركان .

وتبعته إلى الدور الأرضى من البناء الكبير ، وهو الجانب المعروف بحانة بارثلوميو ، وجعل المنادى يطرق بعكاز ، كل باب نمرّ به ، وينادى بأعلى صوته . قائلا : الصاغ روچرز . . وظل يكرر هذا العمل ، فيقابل مرة بالصمت التام ، وأخرى بالشتائم المقذعة والضحكات الماجنة ، وأحياناً يضطر إلى الانحناء فجأة ليتحاشى ملء دلو من الماء القذر ، أو بعض بقايا الجعة .

قال يؤكد لى كلامه السابق : مهمة شاقة تلك التى

www.ibtesama.com

أقوم بها فى هذا المكان اللعين . . كلهم يمكن احتماله ، من عاشق المتع إلى المختال ، ومن العامل إلى السيد ، إلا هؤلاء النبلاء الذين لم يؤدوا عملا فى حياتهم . . إنهم لا يحترمون أى إنسان ! . . وكلما تفانيت فى خدمتهم ازدادوا احتقاراً لك وحقداً عليك .

كانت الغرف التى تتألف منها حانة بارثلوميو مقسمة إلى أغراض شتى . . فيها المطاعم ، والمقاهى : ومحلات لبيع التبغ ، وحوانيت للحلاقة ، وأبهاء «صالات» للقمار ، والمطابخ . . ولكن هذه الأقسام المختلفة تشترك معاً فى صفتى القذارة والإظلام . .وقد بحثنا فيها جميعاً عن الصاغ روچرز دون جدوى .

وقال المنادى — وهو يئن : ربما كان من الأفضل لصحتنا قبل صعودنا إلى الدور العلوى ، أن نتناول كأساً أيها السيد . . إن صعود هذا الدرج مرهق للغاية .

ولما رفضت رجاءه ، تقدمنى إلى درج متناه فى القذارة . . الأوساخ تتراكم عليه فى أكوام متجمدة ، تسد طريق الصاعد وتعرقل خطواته . . وطلعنا السلم طابقاً طابقاً ، والروائح الخبيثة بأنواعها تهاجمنا ، وتتميز فى كل طابق عن الطابق الذى يليه .

ووصلنا إلى الطابق الأعلى من البناء ، وكانت أصوات

www.ibtesama.com

مضارب الكرة فى الساحة ، وضحكات النساء وزمجرة المتسكعين الخشنة ، تصل إلينا ضعيفة مختلطة ، كأنما خنقتها الروائح الخبيثة التى تعبق البناء . . وتقدم المنادى فى ثقة إلى باب مغلق ، وطرقه بعكازه وصاح يقول : زائر لك أيها الصاغ روچرز !

ووضع الرجل أذنه على ثقب الباب ، وأومأ برأسه إلىّ فى مكر وهويقول باسماً : إنه هنا

وسمعت حركة فى الداخل ، وتلاها صرير أخشاب الأرض ، ثم ساد صمت عميق .

وطرق المنادى الباب بإبهامه مرة أخرى ، وفى هذه المرة صاح صوت متحشرج يقول : أجل . . أجل . . عليك اللعنة ! أتظن أننى أصم ؟

ودار المفتاح فى القفل ، وفتح الباب على مصراعيه ، ورأيت روچرز يقف على قدميه دون ثبات وشعره الملبد يتدلى طويلا على جانبى وجهه العريض ؛ وفوق رأسه قلنسوة بيضاء قذرة ، تميل نحو الجانب الأيسر ، وقميصه الداخلى مبقع بالقاذورات . .

ورأيت وراءه فراشا مشعثاً تغطيه بطانية رمادية ذات ذوائب من نفس اللون ، وإلى جانبها منضـــدة قديمة

www.ibtesama.com

ومقعدان خشبيان .. وعند النافذة المطلة على الواجهة الخلفية للسجن ، وقفت فتاة ترتدى قميصا مخططا باللون الوردى ، وميدعة زرقاء لامعة وحذاء ذا « كعب » برته كثرة الاستعمال ، ترتديه فى قدميها دون جورب .. وكانت الفتاة تنظر من النافذة ، متصنعة الاهتمام بما تراه فى الخارج ..

ووقف روجرز أمامنا مطأطئ الرأس متهدل الشفتين ، والأكياس التى تحف عينيه متضخمة لامعة كأنها منداة بالعرق أو مطلية بالدهن .. قال فى تثاقل : نعم ، ماذا تريد ؟ .. لا أحب أن يزعجنى أحد فى أوقات راحتى ..

وتحركت نظراته ببطء من المنادى ، حتى وقعت علىّ ، فقال — وهو يترنح قليلا : أوه ! لم أرك جيداً .. من أنت ؟ إن النور خافت هنا ..

وأمسكَ بمقبض الباب يستند إليه ، وأخذ يحملق مدققا فى وجهى ، ثم قال فى تردد : أهذا أنت يا لانجدون ؟ لانجدون تاون ؟

واختلس نظرة إلى مرافقى ثم إلى الفتاة المطلة من النافذة ، وأخيرا إلى الفراش المبعثر ، ومر بيده فى ارتباك على

www.ibtesama.com

شفتيه الغليظتين ، ثم قال للمنادى : حسنا ! ماذا تنتظر الآن ؟

واستدار المنادى إلىّ ، وابتسم حتى بانت أسنانه السوداء ، وقال : أظننا تكلمنا عن جرعة من الشراب لا تكلف سوى بنس واحد . .

وكان وجهه بشعاً ، وكل ما حولى مخيفاً ، . . فهذا روچرز يتلعثم ويترنح ، وعيناه فى حمرة الدم ، وهذه الزنزانة ذات الرائحة الخبيثة ، وتلك المرأة التى تتعامى عن وجودنا ، كأنها النعامة حين تخفى رأسها فى الرمال ، . . فأحسست أننى أعيش فى كابوس ، وارتباك ذهنى ، وتضاربت أفكارى ، مثلما يحدث للإنسان فى حلم مخيف . .

وبحثت عن بنس وألقيته فى كف المنادى . . قال : إنى خادمك ، يا سيدى ، وخادمك أيها الصاغ . . يسعدنى دائما أن أقدم خدماتى إلى أمثالكم من علية القوم . .

وانحنى حتى نظر من تحت إبط الصاغ إلى المرأة التى تقف بجوار النـــافذة ، وقال ــ وهو ينصرف : وأنت ، يا ساوى ، يسرنى أن أراك فى صحبة طيبة على سبيل التغيير . .

www.ibtesama.com

قال الصاغ – وقد أثقلت الخمر لسانه : عليه اللعنة . . ياله من حيوان ! لولا موت فيتز هربرت لوضعت حدا لكل هذه الوقاحات ! تعال ، يا لانجدون ، ادخل ! . . آه . . هذه ممرضتى التى تقف بجوار النافذة . . ممرضتى . . لقد مر بساقى وقت عصيب ، يا ولدى ، ولعلك سمعت بما فعلوه بى . .

قلت : أجل . .

قال : والله إنى لمثقل بديون لا يمكن لنزيل بهـــذا المكان أن يدركها ! لقد عصروا عظمة ساقى حتى أخرجوا نخاعها ، فكان لابد من ممرضة تعنى بى ، وتغير الأربطة باستمرار . .

وسار إلى الفتاة التى تحملق من النافذة بغباء ، ووضع يده على قفاها العريض الذى يشبه عنق البقرة ، وقال : لا ضرورة لانتظارك اليوم أكثر من هذا ، ولكن إذا كنت هنا غداً ، فلا بأس من أن تمرى بى . .

وسعل فى شدة ليثبت أن صحته ليست على ما يرام . .

فاستدارت الفتاة عن النافذة ، وأقبلت على الصاغ بوجه مكتنز جامد التعبير ، أبيض كوجوه الموتى ، وقالت : لا ضرورة لانتظارى أكثر من هذا ؟ لقد جئت مقابل

www.ibtesama.com

شلنين ، ولن أترك هذا المكان بدونهما !

وردد كلامها بلهجة جوفاء قائلا : شلنان ؟ شلنان !

ثم ضرب على جيوب سرواله ، وتظاهر بأنه تذكر شيئاً كاد ينساه ، وقال : اللعنة عليهم ! اللعنة ! لقد أهملوا فى إرسال المرتب فتأخر وصوله مرة أخرى ، أتستطيع يالانجدون أن تقرضنى بضعة شلنات أردها إليك فى الأسبوع القادم ؟

وأسرعت أعطيه كل ما معى من العملة الفضية ، فأخــذ يحصيها بمنتهى الحرص والاهتمام ؛ وشفتاه تتحركان بمخرج الأعداد : ثمانية عشر وستة بنسات . . أحد عشر شلنا وستة بنسات ، أحد عشر شلنا وستة بنسات يا لانجدون . . سأعطيك إيصالا بها .

وألقى إلى الفتاة السمينة بقطعة من النقود ، فالتقطتها وهى تتصنع الاحتقار ، ثم أخفتها بسرعة فى مكان من ثيابها .

قال روجرز للفتاة : أما وقد أخذت شلنيك ، فهل تتكرمين بالانصراف إلى غير عودة ؟

فسألته الفتاة بصوت عجيب فى خشونة : أخرج إلى غير عودة ؟ ألا تريدنى غداً كما قلت ؟

www.ibtesama.com

قال . لا . . لا أريدك ، إننى مصرُ على اتباع النظام .
وأنت ياسمينة يا وجه الفطيرة تفسدين النظام ! أتصرين على البقاء ؟ حسناً ، ياجميلتى ! إذا أنت حاولت مخالفة أوامر الصاغ روبرت روچرز رئيس فرقة المتطوعين ، وعدت إلى هذا المكان مرة أخرى ، ستجدين نفسك ملقاة من هذه النافذة . . ولعلك تتعلمين بعد ذلك كيف تراجعين نفسك مرتين قبل مخالفة أوامر رئيس المتطوعين .

فهرعت الفتاة هاربة من الحجرة إلى الدهليز ، و « كعب » حذائها المتآكل يدق على الأرض فى صوت مسموع .

وتمتم روچرز لنفسه بصوت خفيض ، وسار إلى الفراش وأخذ يبحث بين أغطيته ، ولما لم يجد بغيته ، جعل يجول بنظراته بين أرجاء الغرفة ، ثم فقد توازنه ، وارتمى جالساً على حشية الفراش .

قال — وأصابعه تتخلل شعره المشعث : عليهن اللعنة ! شرهات خائنات ، إذا أنت أريتهن زجاجة الجن ، يأتين عليها ولا يبقين على شىء منها ، ما لم تراقبهن . . وعندما ينتهين منها يسرقن الزجاجة الفارغة ، ويحملنها إلى بيوتهن

ليضعن الحل فيها . . أليس معك بعض من الحن يا لانجدون ؟

فهززت رأسى نفياً .

وتحامل روجرز على نفسه واقفاً ، وقال : اجلس . . اجلس ! لا تقف هكذا كأنك تنتظر الأوامر ، لقد زالت من بيننا فروق الرتب وأصبحنا متساوين . . فخذ راحتك ولا تكبد نفسك عناء الوقوف .

وفرك جبينه بيده ، وقطب كأنما يحاول أن يذكر شيئاً ، وقال : لقد كنت دائماً . . لقد كنت دائماً ...

وعاد يحك جبينه ، ويقول : اللعنة ! ماذا كنت أريد أن أقول ؟ فيم كنت أفكر ؟ آه . . تذكرت . .

وأشرق وجهه قليلا ، واستطرد قائلا : لقد كنت تحترمنى دائما . . وهذا أس البلاء . . لقد كنت دائما تقدرنى أكثر من قدرى . .

وعاد الوجوم إليه وهو يقول : لا لأننى لم أكن أهلاً لذلك ، بالعكس ، فأنا روجرز ! الصاغ روجرز صاحب فرقة المتطوعين . .

ثم ضحك وقال : ولكنك تعرف ذلك كله ، يا لانجدون تاون ، ولست أرى ما يدعونى إلى إقناعك

www.ibtesama.com

بمكانتي .. تعال يا بنى ، واجلس على هذا المقعد ، ريثما أنظف نفسى بعض الشىء ، وبعدها ننزل إلى محل بمبريدج لنشرب كأسا أو اثنتين نخب أيامنا الخوالى وصداقة الممر الشمالى الغربى ..

قلت : ما جئت لأبقى معك .. بل لأرى هل كنت بحاجة إلى شىء ..

صاح روجرز : لن تبقى معى ؟ كلام فارغ ! ستبقى هنا لنتناول العشاء معاً فى هذه المؤسسة الملعونة .. ستتعلم كثيراً من وجودك بهذا المكان .. فلدينا تجار كبار وضباط من البحرية .. ملاكمون ومهندسون ومثّالون وقواد ، وفرسان وشعراء .. كلهم غارق إلى أذنيه فى الديون ، وسيبقى هنا حتى يسدد ما عليه يا لانجدون .. مع أن هذا المكان آخر ما يستطيع المرء أن يسدد ديونه فيه .. اطمئن يا لانجدون إلى أنك ستتمتع بصحبة راقية فى سجن فليت ، فخيرة النـــاس موجودون بين حوائطه .. لا يا لانجدون لن أدعك تذهب .. لا ، يا سيدى ! لا أتركك قبل أن تمنحنى شرف استضافتك ، وحتى نفكر معا فيما نستطيع أن تفعله من أجلى ما دمت قد أبديت استعدادك لخدمتى .. وأعتقد أننى سأجد السبيل إلى ذلك .

www.ibtesama.com

وانحنى فوق صندوق ذى أدراج ، وأخذ منه شعرا مستعاّرا وسترة خضراء . . وفتح صرة من الدقيق وجعل يغمس فيها قطعة قماش ثم يرش الدقيق على الشعر المستعار وعلى الذوائب القذرة المطرزة فى سترته . . وأعاد تثبيت أربطة سراويله ، وفحص أكتاف السترة ، ونظر بغضب إلى قطعة من البطانة برزت من خرق فى الكم ، وجعل يتمتم لنفسه ، ثم دفع البطانة البارزة بإصبعه وأعادها إلى داخل الخرق . . وكانت رائحته مزيجا من العرق والنبيذ والجن والطباق الرخيص . .

قال : انتهينا !

ووضع قبعة مطرزة على رأسه ونظر إلى نفسه مرآة معتمة مشوهة ، وقال : هذا أحسن !

وقادنى إلى خارج الغرفة، وأقفل الباب خلفه بعناية ، واستمر فى حديثه فى أثناء نزولنا ، ولكن لسانه بدا عاصيا لرغباته فى النطق . . قال : كلما نظرت إلى نفسى فى المرآة ، وتذكرت ما مرّ بى خلال السنوات الخمس الماضية ، يا لانجدون ، يدهشنى أننى مازلت على حالى ولم أتغير مطلقا . . كل ما فى الأمر أننى أصبحت أطلب الجن أكثر من ذى قبل ، بسبب حادثة رجلى ومرضى بالملاريا ،

www.ibtesama.com

فضلا عن أنه يساعدنى على النوم .. والمصيبة عندما يتأخر وصول مرتبي ، فقلة النقود تمنعنى من شراء الجن على الحساب ، رغم احتياجى الشديد إليه كوسيلة للعلاج .. ومن حسن حظى أنك أتيت ، يا لانجدون ، لتيسر لى الحصول على الجن . . آه . . ماذا كنت أقول . . عمّ كنت أتحدث؟ .

قلت : كنت أقول : إنك لم تتغير عن ذى قبل .

قال : فعلا . . ويعلم الله أنها الحقيقة . . وأنا أحس بنفسى كأحسن ما يكون ، ولا يضايقنى سوى عجزى عن مغادرة هذا السجن اللعين لأبدأ مشروعاً جديداً . . مشروعاً عظيما . . آه ، يا ولدى ، إن لدى مشرعات رائعة ، وبوسعى أن آتى بالمعجزات إذا توافر لى المال اللازم .

وأسرع بى عبر الساحة التى أخذ الازدحام فيها يخف لاقتراب موعد العشاء ، وهبط بى السلم إلى الدور الأرضى ، حتى وصلنا إلى حانة بارثلوميو .

وراح يحاول فتح الباب الذى تعلوه لوحة كتب عليها « محل ملابس » ، وفى لهفته على الدخول ، كاد يقع على الأرض عندما فُتح الباب . . وكان المكان شبه فارغ ، ليس به سوى رجل يقف وراء منضدة عليها

www.ibtesama.com

رباطان للعنق وحامل يغطيه الذباب ونصف قالب من الآجر .

قال روچرز للواقف وراء المنضدة : أعطنى زجاجتين .

قال الرجل : ليس لك حساب عندنا ، أيها الصاغ !

قال الصاغ فى وحشية : عليك اللعنة ، يا بمبريدج ، إننى لا أطلبهما لنفسى ، بل لهذا السيد المهذب . . صديقى لانجدون تاون . . إنه متطوع سابق يابمبريدچ . . ياللك من حشرة حقيرة ملعونة . . إنه ليس متطوعاً فحسب ، ولكنه فنان أيضاً . . دعنا نقدم له تحية متواضعة يا بمبريدج . . بالله ، يا لانجدون ! ، أعط هذا الثعبان ثلاثة شلنات .

و أعطيت الرجل جنيها ذهبياً . . فلما عضه بأسنانه ورنه على قطمة الآجر ، واطمأن إلى صحته ، أحضر زجاجتى الجن من تحت الرفوف . . وانتزع روچرز إحداهما من يده ورفع غطاءها وأفرغ نصف ما بها فى حلقه ، ثم تنهد وقال : آه . . هذا صنف فظيع ، يا لانجدون ، ولكنه خير من لا شيء . . بمبريدج ، أيها الظربان اللعين ، لماذا لا تأتى للسادة الممتازين بأصناف جيدة من المشروبات !

www.ibtesama.com

أجاب بمبربدج : لنفس الأسباب التى تدعوك إلى التأخر فى الدفع .

قال روچرز فى حزن : وقاحة ! وقاحة لا تنقطع !

وضحك ضحكة خشنة ، وأتى على ماتبقى فى الزجاجة فى ثلاث جرعات طويلة بطيئة ؛ ثم قال آه . والآن ياصديقى الصغير لانجدون تعال معى !

وخرجت وراءه ، فسار أمامى فى خط متعرج متجهاً إلى نهاية الممر ، حيث يعلو ضجيج الأطباق مختلطاً بصياح السكارى وغناء المخمورين . . وكانت القاعتان الأخيرتان فى الممر تحملان لافتة ضخمة باسم « قهوة آلدرمان » .. ودخل الصاغ وهو يلقى بالتحيات المرحة يميناً ويساراً ، وقادنى بين الموائد التى جلست إليها جموع من الرجال والنساء ، يتميزون بشعورهم المشعثة وثيابهم المهلهلة .

وفى ركن من القاعة الصاخبة ذات الرائحة الخانقة والجو الملبد بسحب الدخان ، جلسنا إلى مائدة قذرة ، أرجلها تهتز كأنها على وشك السقوط . . وجلس الصاغ وأسند كوعيه إلى المائدة وبدأ يتحدث بسرعة . . . . فخيل إلى أنه لا يريد أن يتوقف عن الكلام خشية

www.ibtesama.com

أن أحدثه بما لا يريد . . وما إن أحضر الخادم الجعة والبطاطس المسلوق ، وقطعة من الضأن تسبح فى حساء شفاف له طعم الشعر ، إلا وأقبل الصاغ على الطعام يلتهمه بشراهة ، وهو يحدق فىّ بعينين حائرتين يتدلى جفناه من تحتهما فى احتقان ولمعان ، كأنهما تفاحتان معطوبتان .

قال — ولسانه لا يستقيم من أثر الخمر : دعنى أفكر ! فى بعض الأحيان يحلو لذاكرتى أن تداعبنى بألاعيبها الماكرة المعهودة . . خبرنى ، ألم نشتر زجاجتين من بمبربدج ؟ أذكر أننا اشترينا زجاجتين ، بل أنا واثق أننا فعلنا ذلك ! فماذا جرى للزجاجة الثانية يا ترى ؟

وأعطيته الزجاجة الثانية ،فقال وهو ينزع سدادها ، ويسكب بعضاً من محتوياتها على الجعة : آه ! .

ثم جرع كأسه دفعة واحدة ، كأنما يريد أن يطفئ نارا تعتمل فى جوفه ، وعاد يقبل على الطعام فى نهم شديد ، دون أن يشغله الأكل والشرب عن الاستمرار فى الحديث .

قال — ولسانه يزداد ثقــلا على ثقل : أجل ، يالانجلدون ، إنه لشىء محزن حقاً أن تحرم من الطعام والشراب ، لأنك لا تجد من النقود كفايتك . أتعرف بكم

www.ibtesama.com

أدين هذه الحكومة اللعينة ، يا لانجدون ؟ أقسم بالله إن لى عندها عشرة آلاف من الجنيهات ! أجل ياسيدى! لم آخذ منها سوى ألف جنيه ، فى حين أننى أنفقت عشرة آلاف فى خدمة الملك . . من أجل أن أحتفظ لبلاده بتجارتها مع الهنود . وانظر الآن كيف جوزيت على حسن صنيعى ! محاكمة عسكرية ، ومرض وغرفة فى القسم العلوى فى سجن فليت ، إيجارها شلنات ، وإفلاس مدقع ! إذا أردت أن تعيش مرتاح البال ، يا لانجدون ، فإياك أن تتعرض للحياة العامة ، واحذر أن تؤدى لبلادك خدمة .

كنت أرغم نفسى بصعوبة على النظر إلى ذلك التعس. . ذلك العملاق القذر المشبع بالخمر ، الذى كان فى يوم من الأيام كالرمح يشق الطريق لمصالح إنجلترا ، وينزل بالجيوش الفرنسية خسائر فادحة ، ويتحطم أملها فى ضم شمال أمريكا تحت لواء ملك فرنسا . . فهل هناك من يصدق أن هذا الثرثار المخمور هو نفس الشخص الذى عرفته فى وقت مضى باسم « وبى مادا أوندو » أى الشيطان الأبيض . . من أشاع الرعب فى قلوب الهنود وجعلهم يخافونه ، كما لم يخافوا إنساناً غيره من قبل ؟

وتقدم إلى حافة مقعده ، ودعك شفتيه الغليظتين بظهر

www.ibtesama.com

يده ، وقال: والآن أصغ إلىّ ، يا لانجدون . لست أريد سوى أن أبيّن لهم ما أستطيع أن أفعله إذا أعطونى عشرة آلاف من الجنيهات ، و . . .

ورغم ما أثقل صدرى ، لم أستطع أن أمنع نفسى من الضحك ، وأنا أقول : عشرة آلاف ؟ اطلب شيئاً معقولا .

قال مُصراً : لا . . اسمع . . الأمر ليس بالصعوبة التى تتصورها ! إن عندى مشروعات عظيمة ، يا لانجدون . عظيمة جداً . . ولقد قتلتها تفكيراً ، وأعددت كل تفاصيلها ! خذ مثلا هذا الممر الشمالى الغربى . إنه موجود بالفعل ، وأنت تعلم أنه موجود . . وكان باستطاعتى الوصول إليه لولا ذلك الظربان النتن چونسون عليه اللعنة ! أتعرف ماذا فعل ذلك الفأر الحقير ، وأنا مشغول بتوزيع الهدايا على الهنود ؟ . . كان يتآمر مع كلاوس ويعرض على الهنود حمولة عشرين قارباً ، لقاء نقلهم تجارتهم إلى قلعة تشارتر ! حمولة عشرين قارباً ! . . هذا والله ضعف ما أعطيته لهم . . ومع ذلك رفض الهنود عرضه ، وولوه ظهورهم .

وضحك فى مرارة واستطرد يقول : والله ، إن نفسى

www.ibtesama.com

لتتقزز كلما تذكرت ما فعله بى طمعاً فى الاستئثار بالفضل كله .

وتأوه الصاغ ، وجرع من كأسه بشغف ، ثم بدت عليه الحيرة ، وقال : حسناً . وكما كنت أقول لك ؟ . . ماذا كنت أقول ؟ إن الكلام على طرف لسانى . .

قلت : كنت تتحدث عن الممر الشمالى الغربى ، أيها الصاغ ، وكيف . .

فضرب المائدة بيده ، وقال : أكيد . . لقد منعنى چونسون مرة ، ولكنه لن يستطيع أن يمنعنى مرة أخرى . لا ، يا سيدى ! لن يمنعنى أحد فى المرة القادمة ، لأنى سآخذ رجالى جميعهم من الإنجليز ، حتى أبطل حيل الأمريكيين . . فالإنجليز يعتبرون الأمريكيين همجاً غير متمدنين ، ويعاملونهم المعاملة المناسبة لذلك . . الإنجليز يؤمنون بأنه شرف كبير للأمريكيين أن يسمح لهم بالاشتراك معهم فى أى عمل يقومون به . . وإنه لشرف فى الحقيقة عظيم .

أجل ، يا سيدى ، يجب أن تضع ذلك فى حسابك عندما تتعامل مع الإنجليز ! حسناً ، أتعرف من سيرافقنى فى المرة القادمة ؟ قسما بالله لن يكون سوى پيكرز جيل ! الذى كان يعمل فى وقت ما تحت إمرة چيمس كوك . . ولقد حاول

www.ibtesama.com

كوك أن يجد الممر الشمالى الغربى ، فأخفق ، وسيظل الإخفاق حليفه ما لم أعاونه . . أجل . . سأصطحب پيكرز جيل ، وسوف أجد له الممر ، فننال مكافأة تغنينا جميعاً . . سيذهب معنا دارسى أيضاً . . أتذكره ؟ إنه ياور آمهرست ! نعم ، يا سيدى ، پيكرز جيل ودارسى . . وسيقود پيكرز جيل الحملة لنا ، على أن يقابلنا اليوزباشى كوك بنفسه عند ما نصل إلى مصب نهر أوريجون .. ومن هناك نتجه إلى المحيط الهادى ونعود عن طريق اليابان وسيبيريا ؟ سنكون أعظم المكتشفين فى العالم ! وسنجىء بالذهب والعاج والأحجار الكريمة من الروسيا ، ونحضر العطور العربية التى وصفتها ليدى ماكبث بنفسها ، والتوابل بأنواعها من الشرق العظيم . . ياجهنم ، يا لاتجدون ! إن التتار الذين سنلقاهم يشبهون الشيپوى والونيپاجو ، لهم نفس الشكل وذات الطباع . . وسأعاملهم بنفس الطريقة التى أعامل بها الشيپوى ! وأجىء بجيش منهم إلى إنجلترا ! . . ولسوف ترى !

وضحك عالياً فى غيظ ، وقال : عشرة آلاف جنيه ! والله إنها لقطرة فى بحر . . فلسوف أعود بماسات فى حجم البيض ، وبلآلىء لم تر مثلها كليوباترة ، وبجمال يكفى

www.ibtesama.com

لشراء كل بيت فى لندن وكل لورد من لورداتها . . وسنقضى بذلك على قانون الدمغة ! إذ لن يجرؤ غبى ضيق الفكر مثل لورد نورث على المخاطرة بإغضاب أصحاب البلاد الممتلئة بأعظم خيرات الدنيا . . سيتغير الحال تماماً فى أمريكا إذا مكنونى من البحث عن الممر .

واستقام على مقعده ، وألقى على نظرة حازمة ، وقال : لماذا هذا الوجوم ، يا لانجدون ؟ لا تكن من دعاة الهزيمة ! سآخذك معى أيضاً ! وستنال الثراء على يدى كالعادة ، سيكون لك مكان فى هذه الحملة ، فلا تخف ! إننى أعدك بذلك ، فلماذا أراك هكذا حزيناً ؟

وحملق فى وجهى وقال : ألا تريد مرافقتى ؟

قلت : لا ، أيها الصاغ . .

فقطب وجهه وسألنى : لم لا ؟ ولماذا لاتريد ؟ إنك تعلم مقدار ما تجنيه من ثروة فى هذه الرحلة ! أنظر . . إن كارڤر بلندن . . ذلك القط الخبيث ! أتعرف ما يشيعه اللئيم بين الناس ؟ يدّعى أننى لم أفوض رسمياً بالبحث عن الممر الشمالى الغربى ! وأنها فكرته هو ، وأن فى نيته أن يؤلف كتاباً عن رحلاته يروى فيه كيف فكر بنفسه فى ذلك الكشف ، يا إلهى ! ! وعندما نمى إليه أننى أنوى

القيام بمحاولة ثانية ، بدأ يجثو على قدميه راجياً أن أصحبه معى . . ولكنى لن آخذه . . لن أسمح له بالمسير معى ولو بوصة واحدة ! لا كارڤر ولا آثرنون أيضا . . سأتركهما يذهبان إلى الجحيم . . إننى رجل عظيم . . ولقد أدركنا الآن أن هناك عدداً من الإنجليز يريد مرافقتى فى رحلتى .

سألته : هل جاء لزيارتك هنا ؟

وحدق روجرز فىّ بحزن وقال : جاء لزيارتى ؟طبعا لا ؟ إنهما مفلسان مثلى تماماً ؟ والمال وحده هو معينى . . وما أحتاج إليه منه أكثر بكثير مما يملكان .

وأشار إلى الخادم فى اهتمام ليأتى بمزيد من الجعة ، ولكن تلك الإشارة البسيطة كادت تسقطه من فوق مقعده . . واستعاد اتزانه و فهق وهو يقول : والآن أريد خدمة منك . أتعرف أخى چيمس ؟

فقلت له : إننى لم أحظ بذلك الشرف .

فقال: حسنا إنه غلام طيب . . حقيقة طيب . . ولكنه ليس فى كفاءتى كضابط ، لأنه من هؤلاء الذين يحبون الجلوس فى أماكنهم ويرسلون غيرهم للعمل بدلهم . . إنه مزارع يتمسك بأرضه الطيبة . . ثم إنه رفيق غير مسلٍّ . .

www.ibtesama.com

ليس مثلى أومثلك . . ظل يعمل ويكدح فى الأرض ، فى الوقت الذى كنت أحاول فيه الوصول إلى آذان الملك .. إنه رجل عديم الخيال ،وهذا عيب چيمس .. . رجل لاخيال له . . والآن ، أصغ إلىّ .

ورمشت عيناه ثم ركزهما على أظافره المشققة ، وفرك بسبابته الكبيرة ظهر يده ، حيث توجد الندبة النجمية الشكل . . ولمعت فى مخيلتى صورتى أنا وأوجدن ، ونحن نكاد نموت جوعاً وإعياء وارتجافاً ، أثناء وقفتنا تحت سيول الأمطار المنهمرة فى الأمونوأوزاك ، وروچرز يفرك الأقذار من فوق الندبة ذاتها ، ثم يقول لنا بأنه سيسير هابطاً نهر كونيكتيكات ليحضر الطعام لنا ويبقينا على قيد الحياة .

قال فى ثقل : دعنى أتذكر . . فيم كنت أحدثك ؟

قلت . كنت تحدثنى عن أخيك چيمس ؛ أيها الصاغ .

قال : تماماً . . چيمس . . لابد أن يكتب أحد لچيمس . . شخص يصدقه چيمس ، شخص غيرى ، لأنه لا يصدقنى . . . أليست مصيبة أن يكذب الأخ أخاه ؟ والله هذا الذى حدث . . ولقد صدق أخى تلك القصة التى اختلقها على پوتر بموازرة المأفون مزواج نساء الموهوك

www.ibtesama.com

روبرتس . . . وزعم الاثنان فيها أننى كنت أنوى الانضمام إلى الفرنسيين . . أخى أنا ! أنا أخوه ووالد ابن أخيه الوحيد . . ألا تعلم أننى صرت أباً لصبى جميل . . آرثر الصغير . . ولد بعد تلك المحاكمة الملعونة وأنا فى مونتريال . . تخيل ذلك ؟ طفل صغير برئ يخرج إلى الدنيا فى جو ملبد بالشكوك ، خلفه أولئك الكاذبون الملعونون الخنازير القتلة . . روبرتس وجونسون وكلاوس و . .

ولابد أنه كان ينوى ذكر اسم پوتر ، لأنه توقف فجأة مجفلا ؛ وقال يغير الحديث : مسكين آرثر الصغير ؟

ثم تنفس بصعوبة وتفصّد العرق حول عينيه الحمراوين .

وحاولت أن أوقف تفكيرى . حتى فى إليزابيث ، الفتاة التى ضاع شبابها ، وحاقت بها ظروف مفزعة ، وكيف أصبحت أماً لابن روبرت روچرز .

وأحضر الخادم آنية مليئة بالجعة ، ووقف ينظر إلى الصاغ .

قال روچرز للخادم — وهو يشير نحوى بعظمة : لا تزعجنا يا بنىّ . . هناك ما أريد أن أقوله لك يا لانجدون .

ودفعت ثمن الجعة .

قلت : أتريد أن تقول شيئاً لى أيها الصاغ ؟

قال : بالتأكيد . . ربما لاتصدقنى ولكنها الحقيقة . . إنه هنا ، هنا فى سجن فليت ؟

قلت : فى سجن فليت ؟ أخوك چيمس سجين هنا ؟

قال متسائلا : من ؟ چيمس ؟ يا للجحيم . . يا لانجدون ؟ إنه روبرتس ؟ إننى أتكلم عن البومة المشئومة روبرتس ؟ إنه هنا فى سجن فليت . . وفى القسم العام أيضاً . . قسم الفقراء النكرات . . وهو ما يستحقه القذر . . مزواج نساء الموهوك . . والله لأنكلن به فى حضرتك . . سأبعث فى استدعائه الآن ، لأستعرضه أمامك ، وأعطيك فكرة عما وصل إليه من درجات الانحطاط .

وضرب المنضدة « الطاولة » بقدح الجعة ، وعلا صوته فوق ضجيج القاعة وأغانيها ، كما علا يوم أمرنا بمغادرة العائمة عند شلالات هوايت ريڤر .

فلما أقبل الخادم ، قال : ماذا كنت أقول ؟ أريد بنساً . . فليس معى نقود .

وجعل يبحث فى جيوب سترته بأصابعه الخشنة ، ثم أردف يقول : أتعيرنى بنساً يا لانجدون ؟

www.ibtesama.com

وأخذ البنس وجعل يفحصه عن قرب، ثم مد يده به إلى الخادم وقال : أيها الصديق ، استمع لأوامرى ؟ عليك بالذهاب إلى القسم العام لتحضر بنچامان روبرتس .

فسأله الخادم: أهو ذلك السيد الذى سكبت عليه الجعة ؟

قال روچرز : هو بنفسه . . أحضره إلينا . . قل له إن عندى ضيفا يعرفه ، وإننا سنعطيه شيئاً من الجعة . . لا على رأسه ، بل فى حلقه هذه المرة ، وربما أصاب شيئاً من اللحم ، ونصف شلن بالإضافة إلى هذا كله .

وأخذ الخادم البنس وذهب ، وجعل روچرز يلعق شفتيه الغليظتين بلسانه ، وقال بلهجة الانتصار : أجل يا سيدى . . إن روبرتس القذر هنا بسجن فليت ، وفى القسم العام المخصص للفقراء ، . . يعيش مع عشرات الرجال ، ولا يأكل إلا من الحسنات التى يجمعونها لهم على باب السجن . . وسترى كيف يجرى خمسين ميلا لقاء ستة بنسات . . إنما المضحك فى الموضوع ، هو الشخص الذى أدخله السجن . . أتصدق أنه واحد ممن ضمتهم رسومك العديدة ؟ .

وضجّ بضحكة كالزئير ، قام لها رجل من المائدة

www.ibtesama.com

المجاورة وراح يحملق فينا ببرود ، ولكنه مالبث أن جلس عندما عرف روچرز .

قلت : إذا كنت ، أيها الصاغ ، تريد شيئاً بشأن أخيك ، فأسرع بإخبارى الآن ، لأن أبواب السجن كما أعلم ، ستغلق بعد لحظة .

وأسند روچرز نفسه بيديه الضخمتين على حافة المائدة ، وقال : ابق معى الليلة . . يسرنى أن تشاطرنى غرفتى .

ثم تاه فكرة لحظة ، وبصعوبة ركز أنظاره فىّ ، وقال : اكتب لأخى ، يا لانجدون ، إنه غنىّ ، يملك آلافا وآلافا من الأفدنة فى نيويورك . . شحيح لايفرط فيها . . قل له إنك رأيتنى ، وإن صحتى قد انهارت من السجن . . وانهارت حزناً على ضيعة مشروعات الممر الشمالى الغربى ، يا لانجدون ، وغيرها من جلائل الأعمال .

إن ذلك الرجل جيج ، لم يجد دليلا يقدمه ضدى للمحكمة العسكرية ، وكل ما فعله أن حاول قتلى ؟ لقد ظن هو وچونسون وسپيسميكر أن أقوى رجل فى الدنيا لابدأن يموت إذا وضعوه فى السجن مثلما وضعونى ، وعرضوه

www.ibtesama.com

بجوّ نياجرا مثلما عرضونى . . چيچ هو المسئول الوحيد عن هذه الجريمة ، فلقد أراد أن يقضى علىّ بالعذاب قبل موعد المحكمة العسكرية . . ولكنى ما زلت حياً ، ولى معه حساب ، والله لأقاضينه أمام المحاكم . . حتى يتعلم كيف يدفعنى إلى السجن من أجل عشرة آلاف . . .

ياللجحيم ! سأقاضيه فى المحاكم ، وأنال من صاحب الوجه المعجون والكرش المنفوخة تعويضا يتكافأ مع جريمته .. سآخذ خمسين ألفا على الأقل . . قل ذلك لأخى . . اطلب منه أن يدفع عنى ديونى ، ولسوف أردها مضاعفة ، بل أردها عشرة أمثالها . . بل أردها مائة مثل . . طمئنه الى أنه لن يخسر شيئا بمعونتى ، يا لانجدون .

ثم ، اسمع ماحدث أيضا ، فقد قابلت السفير الفرنسى للجزائر قبل دخولى السجن ، إنه رجل يشبه زكيبة محشوة بالتبن ، شاربه كالمدراة ، وسرواله مثل المنطاد . . أتعرف شيئا عن الجزائر ، يا لانجدون ؟

فهززت رأسى نفيا ، وقد سئمت حديثه ، وسئمت السجن ، وسئمت كل شئ . .

أردف يقول ، وهو يحرك وجهه ، كأنما يريد أن يشد عضلاته منعا لترهله : اسمع ، هذه الجزائر تريد محاربين ،

www.ibtesama.com

وستدفع لهم بسخاء .. تريد ضباطا أكفاء على سفنها ، وضباطا أكفاء فى جيشها .. لديها من الجنود ما يكفيها ، ولكن ينقصها الضباط القادرون على تدريب الجنود وتعليمهم .. ولم لا ؟ . ليس لديهم من هؤلاء الضباط سواى .

إن ذلك السفير الفرنسي رجل سديد الرأى ، وهو يعرف شهرتى فى القتال بالطريقة التى تعجبه .. جاءنى هذا السفير ذو الشوارب الشائكة وقال لى : « تعالى معى ، أيها الصاغ ، الى الجزائر ، وسأمنحك راتب جنرال ، وإن أسرت سفينة حمولتها عشرة آلاف جنيه ، فلك خمسة منها » . ثم قال لى : « سأعطيك بيتا تعيش فيه ، من حوله الحدائق والنخيل ترنو الى البحر .. ولك أن تتزوج كما شئت .. ست نساء فى وقت واحد ، تختارهن بنفسك .. وتستطيع أن تتجاوز هذا العدد إن شئت ، ولكننا لن ندفع سوى نفقات ست منهن والباقيات عليك .. فما رأيك فى ذلك ؟ ست زوجات جميلات معطرات يرتدين السراويل الحريرية ! »

وبدت فى عينيه لمحة الانتصار ، ولكنه عاد يقول فى جد : لا تشر فى خطابك لأخى إلى الزوجات الست .. يكفى أن تخبره بأننى سأذهب لأداء خدمات جليلة لجيش الجزائر ..

www.ibtesama.com

سأذهب بمجرد خروجي من هذا السجن اللعين . . أما إذا تأخر خروجي ، فلا مفر من أن أموت هنا لسبب أو آخر . . وأظنك تعرف الآن ما ستقول له ، وعليك أن تصوغ الخطاب وتدبجه ببعض من تلك العبارات البليغة التي تعلمتها في كلية هارڤارد . . فأنا أريد أن أخرج من هذا المكان ، ولا بد أن أخرج . . لا بد . .

ورفع كوب الجعة يرشف منه بصوت مسموع ، . وكان يتمايل في مقعده ، والجعة تسيل من جوانب فمه وتتساقط على ملابسه القذرة ، ثم ضرب الكوب على المائدة ، وجعل ينشب أصابعه فيما بللته الجعة من ملابسه ، وهو يزمجر في ضيق . . وأحسست بشيء من الراحة عندما سمعت صوتا يأتي من جانبي ، ويقول في تردد : أعتقد أنني سبق أن تشرفت بمعرفتكم .

ورفعت عيني فرأيت الملازم بنچامان روبرتس ، ولكن في صورة تختلف تمام الاختلاف عن روبرتس ذي السترة القرمزية ، محسوب سير وليام چونسون ، ورسوله في التنكيل بروچرز في أوسوچو . . كان معطفه وملابسه مثقلة بالقذارة ، وجوربه مثنياً إلى أسفل لتغطية الثقوب ، وحول عنقه منديل قذر وضعه بدلا من

www.ibtesama.com

رباط الرقبة . . شعره المتموج حول أذنيه ملئ بالغبار والقش ، وثيابه تشبه ثياب زملائه نزلاء القسم العام من سجن فليت . . وجهه القذر متعب نحيل ، وشفتاه جافتان ، . .وعلى كل حال ، لم يبق فيه من روبرتس القديم سوى عينيه الشبيهتين بعيون القطط ، ونظراته التى تلمع بالخبث والحقد والغيرة .

وعندما رآه روچرز قطب جبينه ، وفرك عينيه بيده الغليظة ، وأطلق ضحكة بلهاء وقال : لم أعرفك لأول وهلة أيها الملازم . . فماذا تفعل هنا ؟ هل تكرم أحدهم عليك بشيء من المال ؟

ومال إلى الأمام ، ثم استند بيديه ، واستقام ثانية .

قال روبرتس : أبلغنى الخادم أنك تريدنى .

فصاح روچرز يقول : من ؟ أنا ؟ أتظننى أطلبك أيها الخبيث ، أيها الحية الرقطاء ، يا مزواج نساء الموهوك ؟

قلت أذكّر روچرز بما نسيه : ألا تذكر أنك بعثت الخادم فى استدعاء الملازم روبرتس ؟ اجلس أيها الملازم وخذ كوباً من الجعة . . أتناولت عشاءك ؟

واختطف روبرتس مقعدا وجلس بالقرب منى ، وقال فى تمتمة مبهمة : عشائى ؟ . . عشائى .

www.ibtesama.com

وناديت الخادم وأمرته بأن يحضر طبقاً من الضأن والبطاطس ، وصفيحة من الجعة .

وقال الصاغ : عشاء ؟ له ؟ إنه لم يتناول عشاء منذ رفض سير وليام چونسون أن يعتمد له إذناً بصرف مائة جنيه . . مائة جنيه حقيرة . . رفض العجوز الأصفر أن يعطيه مائة جنيه لقاء تجسسه عليّ ونشره الشائعات الكاذبة عنى ! روبرتس ، إنك أقذر مأفون وأحقر مزواج لنساء الموهوك . . ولِحطّة شأنك سجنوك من أجل مائة جنيه ! انظر إلى . . إننى مدين بعشرة آلاف جنيه ، وأنت أيها المائع ، لا تستطيع أن تجمع مائة جنيه ، لأنك معدم لا تملك شروى نقير .

قلت : لست أوافقك على هذه الأقوال ، أيها الصاغ ، فلقد بعثت فى استدعاء الملازم روبرتس ، وأقل ما يجب عليك أن تعامله بشىء من الاعتبار .

قال روچرز بلسان ثقيل : أبداً ، لن أعطيه ولا ذرة من الاعتبار ، ولقد أحضرته لأريك كيف يسرع هذا القط القذر المأفون لقاء كوب من الجعة . . ولتشهد كم يبلع من الإهانات التى يرميه بها ضابط حاول جهده أن يقتله . . وهذا ما كنت تنويه بالفعل ، أيها الجندى الصفيق . . . لقد

www.ibtesama.com

رشوت پوتر ليشهد باعتزامي الانضمام إلى فرنسا . لست أعرف كم دفعت له ، ولكني واثق من أنه قليل ، فمثلك لا يدفع كثيراً . . ونفسيتان كنفسيتك ونفسية پوتر تكفيهما مائة جنيه على أكثر تقدير ؟ أجل . . لولا شهادتك أيها الظربان اللعين ، لمنحني مجلس التجارة ستين ميلا مربعاً من بحيرة متشيجان ، أعيش بها إلى آخر حياتي في غنى عن الديون .

ولم ينطق روبرتس بكلمة ، ولما جاء الخادم بالجعة ، ووضع أمامه صحفة الضأن والبطاطس الرمادية انقض عليها يأكل في نهم عظيم . . يلوك الطعام في فمه بصوت مسموع ، ويلقي من ركن عينيه نظرات عدائية إلى روچرز .

وضحك روچرز ضحكة ثملة ، وسكب لنفسه كوبا من الجعة . . وكانت يده تهتز ، فانسكب جزء منها على ملابسه . . وأفرغ الكوب في جوفه مرة واحدة ، ثم ترنح على مقعده وهو يتنفس بصوت عال . . وأمسك المائدة بيديه الضخمتين ، وأرخى رأسه الكبير ، وجعل يحملق في روبرتس بعينيه المتورمتين .

قال : هيا كل أيهـا المزواج . . إن كنت تظن

أنك أوقعتنى ، فقد خاب فألك . . أنت الذى وقعت . . أنت وچونسون وجيچ وكلاوس . . لن يستطيع أحد منكم أن يمنعنى . . كلها بضعة أيام فقط ، ولسوف تمضى سريعاً ، كما تمضى الأيام فى هذه الدنيا ! وبعدها يتغير الوضع . . أنت لا ترى ما أراه . . هناك . . بعيداً وراء الجبال . . أيها الثعلب الصغير . . سأريك وربى ! سأريكم جميعاً ، أيتها الثعالب العمياء الحقيرة .. الثعالب ذات الذيول عديمة الرءوس . يا إلهى ! . . أليس فى هذه الدنيا الواسعة سوى الثعالب العمياء الحقيرة ! أريد . . أريد . .

وسكت روچرز ، وقام نصف قومة من مقعده ، ودارت عيناه الزائغتان نصف دائرة فوق رءوسنا ، ثم تمايل ، وحاول أن يمسك بالمائدة ، ثم ارتمى على الأرض بدوىّ عظيم ، ورقد على البلاط المبلل بالجعة المسكوبة .

ولم يرفع روبرتس نظره عن صفحة الضأن والبطاطس ، أما الجالسون على الموائد المجاورة لنا ، فقد التفتوا فى تذمر نحو جسمه الملقى على الأرض ، ولكنهم لم يتحركوا من أماكنهم . .

ودفع روبرتس بصحفته الفارغة ، ومسح فمه فى كم

www.ibtesama.com

سترته اللامع ، وملأ كوبه بالجعة ، ثم مال نحوى كأنه يريد أن يُسر لى بسرٍّ خفى ، وقال بلهجة منمقة : أرجو ، ياسيدى ، ألا تعلق أهمية على كلمات الصاغ . . حقيقة أن السير وليام أساء معاملتى ، ولكننى لم أرشُ پوتر . . إنها لتهمة باطلة ، وخذها منى كلمة ضابط شريف .

فقاطعته قائلا : إنى أعلم كل ما صدر من پوتر .

فرفع روبرتس كوبه إلى فمه ، وظل ينظر إلىّ من فوق حافته . .

وطرقت المائدة أنادى الخادم ، فلما أقبل ، نظر إلى روچرز الملقى على الأرض ، وقال فى عجب وإعجاب : فلتصعقنى السماء ! إنها أول مرة أرى فيها الصاغ يصل الى هذه الحال !

قلت له : أرجو أن تعينه على العودة إلى غرفته .

قال : بكل سرور ، يا سيدى ، دعه الآن حتى ينصرف الحاضرون ، وعندئذ أساعده أنا وسالى . . فقد اعتادت أن تأتى للبحث عنه عند منتصف الليل ، وبمعونتها أستطيع أن أعيده إلى غرفته . . أما الآن ، أيها السيد ، فدعه فى مكانه هذا ، كأحسن ما يكون طفل فى مهده .

ووضعت يدى فى جيبى ، فإذا بعينى روبرتس تتبعانها

www.ibtesama.com

بلهفة . . قلت للخادم : خذ هذا الشلن لك ، وحافظ على الصاغ حتى تأتى سالى ، وقل لها أن تبلغه أننى سأترك له غدا بعض المال عند بوابة السجن ، ولن أنسى الخطاب الذى كلفنى بإرساله إلى أخيه . .

وأومأ الخادم برأسه موافقا . . واستدرت خارجا ، وإذا بالملازم روبرتس يتبعنى إلى الباب ، فلما تجاهلت وجوده تركنى وانصرف . . وخرجت إلى ضجيج حانة بارثلوميو ، وعبرت الساحة المعتمة ، وسرت فى الممر الطويل ، حتى خرجت إلى جو الحرية فى شارع فارنجتون ولادجيت هيل .

* * *

لقد عرفت روچرز عندما وصل إلى أعلى مراتب حياته ، ورأيته يرتفع إلى أوج العظمة الحقيقية فى ذلك اليوم العصيب ، حينما انسحبنا من سانت فرانسس ، وساعدنا اثنان من الحطابين على جر عائمتنا إلى البر والوصول إلى القلعة رقم أربعة . . ومازلت أذكره وهو يقف بجوار النيران فى القلعة ، شامخا بأنفه ، حافى القدمين ، ثيابه المهلهلة تكشف عن جسده الملىء بالكدمات ، وقلاشينه المتدلية لا تكاد تستر ساقيه النحيلتين . . عظامه ظاهرة ، وضلوعه بارزة من بين قطوع البقية الباقية من ملابسه . . وفى يده القذرة المغطاة بالندوب قطعة من الخبز . . ويخيل إلىّ أننى

www.ibtesama.com

مازلت أسمعه وهو يقول في ذلك اليوم : إلىّ بشيء من اللحم . . اللحم الشحيم . . إنى عائد . . عائد إلى رجالى فى الأمونوأوزاك .

والآن رأيته وقد انحطّ إلى أسفل الدرجات ، ومع سقطته الشنيعة هذه ، ما زال يحتفظ ببقايا جذوة من روحه القديمة . . تلك القوة الدفينة التى أفسدها رجال ضيقو الفكر وامرأة غبية ، ولكنها من حسن الحظ لم تتلاش تماما ، لأنها أقوى من أن يدمرها إنسان .

وشعرت فى قرارة نفسى أن وجود هذه البقية من روحه القديمة يدل على أن الحطام البشرى الذى رأيته يتمرغ فى أوحال سجن فليت .. ليس فى الواقع حطاما بالمعنى المفهوم . . فمن بين طياته ما زال يوجد جانب من روبرت روچرز القديم . . ولكنه حكم الظروف التى أودت به ودمرته . . حكم الظروف التى كان من المحتمل جداً أن تودى بى أيضا وتدمرنى ، لولا القدر وآن . . فلقد صانني الله برحمته وحمانى حبي لهذه الفتاة من التردى فى مهاوى الفناء الإنسانى مثله ، ولولا ذلك لانتهيت كما انتهى روچرز ، وتدهورت إلى قبر المواهب والآمال !

www.ibtesama.com

الفصل الخامس عشر

كنت أعتقد أن روبرت روچرز قد انتهى هذه المرة نهاية لا رجعة بعدها . . وأن الحطام البشرى الذى رأيته فى سجن فليت لن تقوم له قائمة أخرى ، وحتى إذا قدر له الخروج إلى عالم الحرية مرة أخرى ، فلا بد أن ينحدر إلى أسفل درك ، كما يغوص الحجر فى الماء . . ولكنى كنت مخطئا ، والأيام أثبتت ذلك . . فبعد أن كتبت لأخيه چيمس الخطاب الذى وعدته به ، وتصورت أننى أديت له آخر خدمة يستطيع إنسان أن يساعده بها ، فأبعدته عن ذهنى ، ونسيت أمره تماما ، وانصرفت الى عملى فى تصميم سقف القاعة الرئيسية بمبنى جمعية علم الأجناس البشرية ، ورسم آلهة الهنود عليه ، وهو العمل الذى استنفد عامين كاملين ، لم أفكر فى خلالهما مرة واحدة فى روچرز ، وما يحتمل أن يكون قد أصابه .

وحالفنى التوفيق فى عملى ، فأتممته بنجاح عظيم ، بالرغم من خطابات أبى التى كانت تزيدنى قلقا كل يوم ، لما تتضمنه من مرارة واضحة ضد الإنجليز ، ولكنى أقنعت نفسى بأن أبى يبالغ فى وصف الأمور ، ويضخم أهميتها على

www.ibtesama.com

غير أساس ، فالأخبار التى كنت أقرؤها فى الصحف ، والأحاديث التى أسمعها من الأصدقاء ، جعلتنى أعتقد أن القتال الدائر فى أمريكا ليس أكثر من شغب بسيط يقوم به حثالة الناس ، ضد أصحاب الأملاك . . وحين علمت أن وزراء الملك اجتمعوا فى أوائل عام ١٧٧٦ ، وقرروا إرسال لورد هاو وأخيه على رأس أقوى أسطول بحرى ، لعقد السلام مع هؤلاء الثوار ، وجدت الأمر فى الواقع عجيبا ، ولكنى عدت وطمأنت نفسى إلى أن الوزراء الإنجليز دائما أغبياء ، ومعظم تصرفاتهم بلهاء لا معنى لها .

وكان كوپلى هو الذى وضعنى وجها لوجه أمام ما كنت أحاول دائما أن أهرب منه . . فقد جاء إلى لندن ، حيث قوبل بحفاوة ملكية من بنچامان وست وسير چوشيا ، وكل من يعرف أعماله الفنية ويقدرها . . وسرعان ما انتشرت شهرته وذاع صيته ، حتى إننى رأيته مرات عديدة دون أن أجد الفرصة لأحدثه على انفراد . . ولقد بدا لى كوپلى فى صورة غير التى عرفته بها ، وآلمنى أن أجده أكثر تصنعا فى أخلاقه ، متكلفا فى تصرفاته مثل رجال البلاط .

قال لى : بلغتنى أخيرا أنباءٌ عن صديق قديم لك . . كنت مدعوا للعشاء عند لورد ما نسفيلد ، ودار الحديث بينى

www.ibtesama.com

وبين الأميرال سير تشارلز لامپتون ، وهو شخص بارز مرموق ، فسألني إن كنت قد سمعت باسم روچرز في أمريكا . . وطبيعى أننى حدثته بقائدك السابق الصاغ روچرز ، فقال على الفور : يا إلهى ! أعتقد أنه هو نفس الشخص . . وفهمت من سياق الكلام أن الأميرال وصل لتوه من البحر المتوسط ، وسمع من مسافر قابله فى رحلته أن حاكم الجزائر يستخدم قائدا أمريكيا جديداً ، اسمه روچرز . . وقد خاض هذا القائد معركتين لحساب الحاكم ، وخرج منهما منتصرا ، وهو يزأر ثملا فى كل مرة . . أفلا تعتقد أنه الصاغ ، . وهل تعرف شيئا من أخباره ؟

ولم أشكّ فى صدق حدسه ، وانبعثت صورة جديدة فى مخيلتى إلى جانب الصور الأخرى المحفورة فيها : مرة والصاغ ينبش الأرض فى الأمونوأوزاك بحثا عن أبصال التواهو التى أنقذتنا من الموت جوعا ، . . ومرة وهو يهدد بالإغارة على مخازن القلعة رقم أربعة إذا لم ترسل المؤن إلى رجاله حالا . . ومرة وهو يلوح بيديه فى عظمة ويقرأ قطعا من تمثيليته « پونتياك » . . ثم مرة وهو يرقد فى أقذار سجن فليت ويتمرغ فى أوحاله . . والآن برزت صورة جديدة له وهو يتربع ثملا على أريكة بالجزائر ، يداعب زوجاته ذوات

www.ibtesama.com

السراويل الحريرية الشفافة ، ويصيح فيهن ضاحكا بصوته الأجش ، ويضربهن فى محبة على ظهورهن .

ومضى كوپلى فى حديثه ، فقال : عجيب ! عجيب أن يتركه الإنجليز يكسب المعارك فى الجزائر ، ولا يرسلوه إلى أمريكا لتأديب حثالة العصاة فيها ! . . مع أنه لو ذهب إلى هناك على رأس متطوعيه ، ما تعذر عليه أن يقضى قضاء مبرما على الثورة فى لاكسنجتون وبنكرهيل .

وأدهشنى أن أسمع من كوپلى مثل هذه العبارات : تُرى كم من الأمريكيين يتكلمون عن مواطنيهم بهذه اللهجة ؟ تُرى هل يعتبرون أبى ضمن هذه الحثالة ؟ . .

قلت : ما هذا الكلام ؟ ! أتظن أن المتطوعين يحاربون مواطنيهم الأمريكيين ؟ . . لا . . لن يحدث هذا فى يوم من الأيام .

ونظر إلىّ كوپلى فى خبث ، وقال فى تساؤل : لا أظنك تفكر فى العودة إلى أمريكا . . أم تُرانى مخطئا ؟ !

قلت : الحقيقة أننى لم أفكر فى العودة بعد ، فقد شغلنى عملى عن التفكير .

وأضفت قائلا ، وغرضى أن أغير الموضوع : على أى

www.ibtesama.com

حال ، أعتقد أن الأمور ستهدأ بعد ذهاب لورد هاو ، وتقديمه الترضيات اللازمة .

قال كوپلى فى تشكك : أتظن ذلك ؟ إن شئت نصيحتى ، فابق حيث أنت ، وإياك أن تعود ، فالأحوال قد تغيرت فى أمريكا ، ولم يعد فى مقدور الرسام أن يُثرى هناك . . والأدهى من ذلك ما أصاب أهل الرأى ، فأنت لا تستطيع أن تصارح النـــاس برأيك ، ولا تجهر بما يجول بخاطرك .

ولعل الشك بدا علىّ فى وجهى ، إذ قال فى لهجة تأكيد : إنها الحقيقة المجردة عن الزيف والخداع ، ولو اشتبهوا ، ولو أدنى شبهة فى أنك تدافع عن مصالح الإنجليز مثلا ، يكون من حسن طالعك أن تنجو من تلويثهم لك بالقار والقاذورات . . وقد يصادرون أملاكك ويتركون أسرتك بلا مال ولا طعام . . يا إلهى ! أتعرف يا لانجدون ماذا فعل هؤلاء الرعاع الطغاة ؟ أشاعوا فى بليموث أن الكولونيل واطسون ينزل ضيفا علىّ . . وكانوا فى ثورة عليه لمجرد جهره بأنه يفضل حكم البرلمان على حكم الرعاع . . وما أشعر إلا وهؤلاء الأقذار يهجمون على بيتى لينهبوه ، فوقفت أجادلهم فى ذلك أكثر من ساعتين

www.ibtesama.com

حتى أقنعتهم بالانصراف ، ولولا ذلك ما أبقوا فى بيتى على صورة دون أن يدمروها ، ولأتوا على كل ما أملك .

ووجدت من العسير علىّ أن أصدقه ، ما لم تكن الساعة قد أذنت ، وجاء يوم القيامة !

وأردف كوپلى يقول : لا يمكن أن تتصور ما آلت إليه الأمور إلا عن تجربة شخصية . لقد ضاعت الثقافة فى أمريكا وانمحى الذوق ، وأصبحت الأغلبية تعيش فى رعب من شر الأقلية ونذالتها .. ونجح المهرجون فى طرد الأثرياء ذوى الذوق السليم ممن يطلبون الصور ويشجعون الفن .. لا ! لم يعد هناك مجال لفنان أو رسام ، أمام الفوضى التى ضربت أطنابها ، والاضطهاد الذى أخــذ مكان العدل والسلامة ! . . تأكد أننى لا يمكن أن أعود إلى ذلك البلد .. لا أنا ولا بنچامان وست ، فكن عاقلا ، يا لانجدون ، وابق حيث أنت .

وبدأت فى تلك اللحظة أفكر جديا فى العودة ، فلا شك أن أسرتى تعطف على من سماهم كوپلى بالرعاع الأنذال ، ولم يسعنى إلا أن أذكر أيامى الخالية فى بورتسموث ، عندما ضنت علىّ إليزابيث براون وأبوها بالعطف والرضا ، لإصرارى على صداقة أبناء الطبقات العاملة من أمثال كاپ

www.ibtesama.com

هوف وهانك مارينار . . فهؤلاء هم الذين يعتبرهم كوپلى رعاعا أنذالا . . إنهم ماكنوت وچيس بيتشام . . أبى وإخوتى . . جون لانجدون صديق أبى الذى سمانى أبى باسمه . . كلهم رعاع . . أما المثقفون فى رأيه ، المظلومون المضطهدون ، فأمثال وايزمان كلاجيت ، والعمدة پاركر ، وبنينج وينتو برث ، وسير وليام چونسون ، ودانيال كلاوس ، والمحترم آرثر براون وزوجه ذات الوجه المرير ، وابنته التعسة إليزابيث ! ! حثالة القوم فى حقيقة الأمر !

أجل . . زاد تفكيرى فى العودة ، رغم أنى لم أفاتح آن بما اعتزمته ، فلقد كنت أجد فى سعادتها منتهى سرورى ورضاى . . ولم أكن أحب أن أعكر صفو هذه السعادة ، ولو أعطيت مقابلها كنوز العالم أجمع . . فبفضلها أصبح بيتى الصغير فى ميدان كافندش جنة أسكن إليها بعد طول ساعات العمل الشاق التى أقضيها كل يوم مستلقيا على ظهرى ، أرسم السقف اللانهائى بالفُرش والألوان . . وأعود إليها بالليل متعبا ، لأجد فى حبها ورعايتها ما أنشده من راحة وهدوء ، فإذا أصبح الصباح ، وجدتنى أمضى إلى عملى بكل همة ونشاط ، وأؤدى ماكنت أعتبره فى الليلة السابقة مستحيلا ، بمنتهى السهولة والإتقان .

* * *

www.ibtesama.com

رحل صيف عام ٧٦ ، وعرفنا ماذا فعل هؤلاء الطغام من أمور مدهشة . . فلقد رفضوا عروض لورد هاو المغرية ، وفوق ذلك أعلنوا استقلال أمريكا ، متحدين جيش إنجلترا وأسطولها العظيم !

وأحسست ، وأنا أقرأ هذه الأنباء ، برغبة فى الضحك ... لا عن سخرية بهم ، أو غيظ مما يسمونه وقاحتهم ، بل لفرط إعجابى بشجاعتهم الفائقة . . ورأيت آن تنظر إلىّ فلم أضحك .. ولما لم أسمعها تعلق على هذه الأنباء بكلمة ، آثرت الصمت ، والتزمت السكوت .

ولم يطل الزمن بنا بعد ذلك حتى وقع ما جعلنا نناقش الموضوع .

فذات مساء ، قبيل أواخر الخريف ، وأشعة القمر تتسرب إلينا من خلال طبقات الضباب ، فتضفى على الكائنات سكونا ، وتظهرها فى صورة أشباح غير واضحة تسبح على طول شوارع لندن وميادينها ، دخل علينا سام ليڤرمور صديقنا القديم من پورتسموث . جاء فجأة وعلى غير انتظار ، حتى لم أصدق عينىّ ، وخلتنى أمام شبح انشقت عنه أرض الذكريات .

وعندما جلس بوجهه الباسم وشعره الأشقر أمام نيران

www.ibtesama.com

المدفأة بغرفة جلوسنا الصغيرة ، وجدت أن العمر لم يتقدم به على الإطلاق . . فلقد بقى على حاله لم يتغير منذ ذلك اليوم المشئوم ، عندما قادنى من بيت السيد المبجل آرثر براون ، وخرج بى إلى حانة ستودلى ، وهناك كتبنا تلك الخطابات التى دفعت بى وبهانك إلى الهرب إلى قلعة كراون پوينت ، ومنها إلى فرقة متطوعى روچرز .. ولم أر أدنى فارق بينه الآن وبين سام القديم سوى بطئه فى الحديث وحرصه فى الإجابة عن أسئلتى . . وهو تغير طبيعى فى رجل ارتقى إلى منصب النائب العام بولاية نيوهامپشاير .

وما إن قدم تهانيه وتحيته لآن ، حتى أمطرْته بأسئلتى : كيف عرف عنوان بيتنا ، ومتى زار پوتسماوث لآخر مرة ، وماذا جاء به إلى لندن ؟ !

وأجابنى بأنه أخذ العنوان من أبى مع رسالته إلىّ . . ولما فتحت الرسالة ، لم أجد بها سوى أسطر قليلة ، يقول فيها : « ولدى العزيز ، إننا جميعاً بخير ، ونرسل إليك حبنا مع مستر ليڤرمور ، الذى أسدى إليك خدمة عظيمة منذ زمن بعيد ، ربما تكون قد نسيتها » .

www.ibtesama.com

قلت ـــ وأنا أناول الرسالة لآن : أمر غريب ! هذا أعجب خطاب تسلمته فى حياتى من أحد أفراد أسرتى !

فقال سام : و ن نعيش فى أوقات عجيبة .

قلت : كيف يتصور أننى أنسى فضلك على ؟ والله ما نسيت إلى اليوم ما فعلته من أجلى !

قال ـــ وهو يهز كتفيه : مجرد احتياط ، ولاشك !

وتبلجت حقيقة ذلك الشك أمامى ، فقلت : احتياط ! ؟ لقد أدركت ما يرمى إليه ! حسنا ، إننى لم أنس فضلك ، وأنت فى أمان عندى ، يا سام . .

قال : كنت واثقا من ذلك ، ولكن الحذر واجب فى بعض الأحيان . . آه . . هل سمعت ، ولو على سبيل المصادفة ، شيئاً عن آخر أخبار الصاغ ؟

قلت : كان نزيلا بسجن فليت ، وقد زرته هناك . .

قال سام : أجل ، نحن نعرف ذلك . .

قلت : وكيف عرفتم ؟

قالت آن بسرعة : لقد زاره لانجدون تلبية لرجائى يا مستر ليفرمور . .

قال سام : ظننت أنك تعرف أخبارا جديدة عنه . . .

www.ibtesama.com

وهززت رأسى ، وقلت : لا . . وإن كان قد بلغنى من كوپلى بعض الشائعات ، وسمعت أنه سافر إلى الجزائر ، وكسب لحاكمها معركتين .

قال سام : ولكنها أخبار قديمة . . المهم ، ألم تسمع شيئاً عنه خلال الأسبوعين الأخيرين ؟

قلت : لا ، لم أسمع شيئاً . . ولكن ، ما الذى يدفعك إلى الاعتقاد بأنه اتصل بى ؟

قال : لأنك ذهبت معه إلى سانت فرانسس ، وهو صديقك القديم . . وربما يكون قد جاءك يطلب معونة . . ليستأجر ضباطاً .

قلت : يستأجر ضباطاً ؟ لأى غرض ؟

قال : لإنشاء فرقة جديدة من المتطوعين ، بدل تلك التى فقدها فى الشهر الماضى بكونيكتيكات ومامارونيك .

قلت ببطء : فقد متطوعيه فى مامارونيك ! ولكن لحساب من كان يقاتل فى مامارونيك ؟

قال — برفق وهو يبتسم : لحساب لورد هاو . . قام روچرز ومتطوعوه بدور الطليعة عندما تحرك لورد هاو إلى نيويورك ، ليهاجم واشنجتون فى هوايت پلينز . . وقد ساعد

www.ibtesama.com

أخوك أوديورن على وقف لورد هاو فى هوايت پلينز . . إنه يحارب فى خط ماساشوستس .

قلت ـــ وأنا أحاول إدراك معانى هذا الكلام : روچرز يقود متطوعى نيوإنجلند فى كونيكتيكات ضـــد جيش نيوإنجلند ؟ ضد أخى أوديورن ؟

وسكت عن الكلام ، وقد سبح ذهنى فى عالم من الخيال ، فأخذت أتصور رجالا فى ثياب جلدية خضراء اللون ، يتسللون فى سكون من شجرة إلى شجرة . . يقتربون ويقتربون من جنود نيوإنجلند النيام ، الذين يحمل كل منهم وجه أخى أوديورن .

ونظرت فى يأس إلى آن ، وهى تحملق فى يديها المعقودتين على حِجرها .

قال سام : أجل . . لقد عانينا المتاعب من الصاغ ، يا لانجدون . . كثيراً من المتاعب ، وما كنا لنستطيع وقفه فى هوايت پلينز ، لو لم يكن متطوعوه جُدُداً غير مدربين ، ولو لم نرسل لمواجهته ضعف عددهم من الجنود المدربين .

وأضاف فى مرارة : لو أننا أرسلنا جيشاً من المليشيا ، لظلوا يجرون هرباً حتى الآن . . فوالله ما فى هذه الدنيا

www.ibtesama.com

الواسعة أجبَن من هؤلاء المليشيا . . ولست أدرى إلى أى مصير نسير ، إذا كان هذا الجيل الموبوء هو نتاجنا الوحيد ! أنت سعيد الحظ بوجودك هنا ، يا لانجدون ، حيث الدعة والأمان .

وساد الصمت لحظات ، ثم قلت بلهجة أثقلها الهم : أما وقد ذكرت هذا كله ، فأكمل حديثك ، وخبرنى كيف أتاكم روچرز بالمتاعب ، وماذا فعل بمواطنيه ؟

قال سام — والغيظ يملأ لهجته : إنها سمعته السابقة وقدرته على الاحتيال ! إنطق بكلمة « روچرز » أمام المليشيا ، فيما بين پروڤيدانس ونيويورك ، ترهم يلقون السلاح ويفرون كالفئران . . ومهما بلغت سرعة جريهم ترى الضباع أسرع منهم ! وعندما كُلِّفت أنا واليوزباشى پيترز بمراقبته ، مرت علينا لحظات كنا نعتقد فيها أنه ليس إنساناً حقيقياً ، بل ساحراً شريراً يطوف الجحيم ممتطياً عصاه !

ونظر وراء ظهره وقال : أتظن خدمك يتجسسون على حديثنا ؟

ولما اطمأن إلى أنهم ينامون بالطابق الأول بعيدا عنا ، نظر إلينا فى اعتذار ، وقال : الحذر واجب فى هذه الأيام !

www.ibtesama.com

قلت لاتخش شيئاً يا سام ، فالخيانة لا توجد فى هذا البيت .

قال : حسنا ، لقد جاء روچرز إلى أمريكا منذ أكثر من عام ، وما إن وصل حتى أخذ يتلصص بين صفوفنا . . فيوما يكون فى بلتيمور ، ويوما تراه فى نيويورك ، وبعد لحظات تشاهده فى بور تسموث . .

وألقى نظرة سريعة على آن ، وأردف يقول : زار إليزابيث عندما كان هناك ، ولكنه كان . .

وسعل سام مرة وأردف : كان يكثر من مغازلة السيدات ، ولم تكن صحته على ما يرام ، فتسبب لها فى متاعب جمة . . أمضت معه وقتا عصيبا فى الحقيقة . . وأخيراً غادر پور تسموث متجها إلى نهر كونيكتيكات . . عندئذ كلفنى القائد واشنجتون بتعقبه أنا وپيترز . . وكانت مهمتنا كمن يريد أن يلاحق سحابة سوداء فى ليلة مظلمة . . وخيل إلينا أنه ربما أراد ، على سبيل التسلية ، أن يسلك نفس الطريق الذى سلكه عند ذهابه إلى سانت فرانسس . . فقد وصل إلى قلعة رقم ٤ ، وتركها إلى واتوكويتش ثم شلالات هوايت ريڤر ، وتوقف فى هانوڤر ليرى الدكتور

www.ibtesama.com

هويلوك . . واستمر بعد ذلك فى مسيره حتى اخترق سهول الكوهيز ، وإذ ذاك فقدنا كل أثرله . . وبالبحث سمعنا أنه فى ألبانى ، فسرنا فى أعقابه إلى نيويورك ومنها إلى الهدسون ، ثم فقدناه فى فيرمونت ، ووجدناه ثانية فى كونكورد ، وتعقبناه حتى زار أخاه چيمس ، وعاد إلى نيوچيرسى فنيويورك ثم إلى فيلادلفيا . . وهذا ما أثار القائد ، فقد أدرك أن روچرز وراء أمر لا يعلمه إلا الله . .

وأخيراً قبضنا عليه فى فيلادلفيا ، وألقيناه فى السجن قبيل توقيع الكونجرس لوثيقة إعلان الاستقلال . . وما إن مضت بضعة أيام ، إلا وقد انزلق من أيدينا ومرق تحت أنوفنا من وراء القضبان واستغفل الحراس وهرب ، كما هرب صديقك كاپ هوف من سجن پورتسموث . . سرق قارباً انفلت به مع النهر إلى جزيرة ستاتن ، حيث انضم إلى هاو ، قبيل استيلاء الإنجليز على نيويورك ، وبعد ذلك سافر إلى كونيكتيكات وأعاد تكوين فرقة المتطوعين . .

وهز سام رأسه وقال : كلما تذكرت جرينا وراءه أحس بالارهاق ، ولقد صببنا أنا وپيترز رصاصتين من الفضة ، ولعل الفرصة تواتينا لنفرغهما فيه من غدارتينا . .

وقال بعـــد تفكير عميق : ومع ذلك لست واثقا

www.ibtesama.com

أن رصاصاتنا الفضية تكفى للقضاء عليه ؟

وجعلت أفكر فى هذه القصة المذهلة ، ولما لم أجد ما أعبر به عن شعورى ، قلت : أما زال كاپ هوف يوقع نفسه فى المآزق ؟

قال : لا . . إنه يؤدى من الأعمال ما هو أفضل من ذلك ، فقد انضم إلى الجيش ، وذهب مع أرنولد إلى كويبك . . ولما عاد من مهمته اشترى مزرعة فى كيتارى . مزرعة من أجمل ما تراه على النهر . . ثم وجد أنه فى احتياج إلى مزيد من المال يصلح به مزرعته ، فسافر إلى كويبك من أجل هذا الغرض ، والله وحده يعلم كيف سيحصل على بغيته من المال هناك . . لقد سمعته يتمنى لو كنت معه فى كيتارى ، لترسم له جدران بيته كما فعلت لآل وارنر . .

وضحك سام وأردف يقول : لحسن حظك أنك باق هنا ، وإلا لأقنعك برسم البيت .

ونظرت مرة ثانية إلى آن ، وعجبت لِمَ لا تزال تحملق فى أصابعها المشبوكة !

والتفت إلى سام وقلت له : ولكنى لا أفهم لماذا جئت إلى لندن .

www.ibtesama.com

قال فى إرهاق : اللعنة ! جئت لأننا فى أشد الاحتياج إلى تتبع حركات روچرز ، والبحث عما يبيته من خطط جهنمية ! إنه يربض فوق أنفاسنا كسحابة سوداء مشحونة بالكهربا ، مستعدة لإرسال صواعقها فى أى مكان . . إن واشنجتون يعمل له ألف حساب . . ولقد وجدناه يختفى بعد هزيمته فى ماما رونيك ، وسمعنا أنه رحل إلى هاليفاكس وراء مشروع حملة جديدة من المتطوعين ، فى نيته أن ينظمها بنيو هامپشاير وڤيرمونت ، ليغزو بها شواطئ فالموت وكيتارى وبورتسموث . . ودفعنى إخلاصى لبلادى إلى المساهمة فى تحطيم مشروعاته ، فتطوعت لتعقبه ، واقتفيت أثره ، ولكنى لم أجده هناك ، فذهبت رحلتى هباءً . . ويشيع أهالى هاليفاكس أنه أبحر إلى إنجلترا وراء الضباط الذين حاربوا تحت لوائه فى الحرب الفرنسية القديمة . . فجئت بدورى إلى إنجلترا ، ولكنى لم أعثر عليه . . لعنه الله . . إنه ألعن من اليهودى التائه ، وأسوأ من الهولندى الطائر . . السرعة التى يتنقل بها تجعله مثل أبطال القصص الخيالية .

وألقى سام بذراعيه فى يأس ، وقام يذرع الغرفة ذهاباً وجيئة ، ثم عاد يقول : هاكم وضعى الآن ، والموقف

www.ibtesama.com

يدعونى إلى الرجوع على أول سفينة ، لأن مجال العمل هناك . .سأبحث عما إذا كان حقيقة يعمل على جمع المتطوعين من نيوها مبشاير وفيرنون أم لا .. فهل تحب أن تُحملنى رسالة إلى أسرتك ؟

وألقى علىّ نظرة غريبة ، وقال : أعتقد أنك تنوى البقاء هنا بعض الوقت ، مثل كوپلى ووست .

قلت : أجل ، يا سام ، سأبقى وقتاً قد يطول ؛ إذ أن عملى فى جمعية علم الأجناس البشرية لم ينته بعد ، وزوجتى تفضل المقام هنا .

والتفت إلى آن ، فوجدتها قد رفعت عينيها عن يديها ، وسلطت أنظارها علىّ بطريقة جعلتنى أقفز واقفاً ، وأتقدم إليهـــا قائلا : آن ! إنك تفضلين البقاء هنا ؟ أليس كذلك ؟

وبقيت لحظة لا تجيب ، ثم قالت : ألم توشك على الانتهاء من عملك ، يا لانجدون .

قلت فى حيرة : تقريباً . . فلم يبق سوى قطيع من الجاموس ، وبضعة صيادين يركبون الجياد .

قالت : يسرنى أن أسمع ذلك ، فالآن أستطيع أن أصارحك بما كنت أتردد فى ذكره من قبل .

www.ibtesama.com

والتفتت إلى سام واستطردت : أظنك تعرف يامستر ليفرمور أن الفنان يحتاج دائماً إلى التشجيع ، والفنان الممتاز لا يرضى عن عمله مهما بذل من جهد . . يعمل ويعمل ، فإذا أوشك على الانتهاء ينتابه الشك فى إجادته لعمله ، فيغلبه القلق والضيق . . وخير سبيل إلى معونته أن ينال حقه من راحة البال . . ولقد بذلت ما وسعنى فى توفير أسباب الراحة للانجدون . .

قلت ــ وأنا أضغط يدها بحنان : ونجحت فى ذلك يا آن . .

وأومأ سام برأسه مقدرا . .

واستدارت آن نحوى وقالت : والآن يحسن أن أجيبك عن سؤالك يا عزيزى . . لقد ظللت طول الوقت سعيدة بإقامتى هنا ، ولكنى غير راضية عنها اليوم . . وإذا كنت أكره البقاء لنفسى ، فأولى بى أن أكرهه لك . . أسعدك الله فاشتهرت كرسام ، وأخشى إذا زادت شهرتك ، أن تتطلع إلى مزيد من الرخاء ، وتطمع فى مستوى معيشى أعلى . . إلى خدم أكثر . . ودعوات أكثر ، ورفاهية أكثر . ومتى دخلت هذه الحلقة المفرغة ، يصبح من المستحيل عليك أن تخرج منها . . مثلما حدث لكل فنان تعرفه . .

www.ibtesama.com

كوپلى ووست ورينولدز . . جميعهم سقطوا فى شباك الشهرة فانساقوا معها ، حتى انتهى بهم الأمر إلى الانحلال والفجيعة . . ولسوف يصيبك ما أصابهم إن بقيت ؟ ؟ ولكن الأمر يختلف عن ذلك فى أمريكا ، يا لانجدون ، فأنت تستطيع هناك أن تبقى على مجدك القديم ، وتعيش فى ذات الوقت فى منتهى البساطة . . أما هنا فبلاد التصنع والرياء ، والخير فيها وقف على النبلاء وأتباع النبلاء .

والتفتت إلى سام تقول : لقد نسى لانجدون لندن التى عرفتها قبل أن يأخذنى منها . . لندن ذات الأقذار واليأس . . والبؤس والشقاء والآلام . . لندن التى لا يرقى رجالها ونساؤها إلى نصف مرتبة الحيوانات . . رجالها ونساؤها غارقون فى الجن . . أطفالها يركلون ويضربون ويجوعون ، يسامون قسوة العذاب على أنواعه ، ولا يتعلمون فى الحياة سوى الرذيلة والإجرام . . لم أذكر أن يوماً فى حياتى السابقة خلا من البؤس والرعب ! لم أعرف رجلا أو امرأة لم يجث على ركبتيه لشخص آخر . . فحياتهم دائماً ملك لمن له السيادة عليهم !

قلت : إنه جزء صغير من إنجلترا ، يا آن ، . . جزء لن تريه أبداً ما حييت .

www.ibtesama.com

قالت ، وكأنها تقذف الكلمات من فمها : لا ! لا ! إنه جزء عظيم من إنجلترا ، وليس هو وحده ما أكره ! فأنا أكره شبانها الأثرياء الماجنين ، ممن جعلوا من ليالي في هاف مون هول سلسلة من الرعب المتصل ، حتى أزمعت أن أنهي عملي هناك ، وكان في نيتي أن أفعل ذلك قبل أن تعود . . لا أحب تلك المواخير التي كثيراً ما يتردد عليها السادة — السادة المهذبون — ، ولا أحب ما يجرى فيها من فسق وفجور .

ونهضت على قدميها مطبقة قبضتيها وقالت : أتظنني قادرة على نسيان ذلك اليوم الذى أبحرنا فيه من ميناء بوسطون ، برياحه النقية المنعشة الآتية من عند التلال الثلاثة الخضراء ، لتكنس أمامي شارع كاسل ؟ لقد كدت أبكي وأصيح ، يا لانجدون . . ثم الناس هناك . . الناس المدهشون في تحررهم من الصغائر ، وكيف يسيرون في زهو وخيلاء لا تراهما في لندن . . لأنهم يعرفون أنهم أسياد أنفسهم . لا يسجدون لأحد ، ولا يخافون أي إنسان . . ولماذا يخافون وقد عاشوا حياتهم أعزاء طليقين . . لم يعذبوا في يوم من الأيام بالضرب والركل ، ولم يتعرضوا لسباب السكارى ومجون الفاسدين . . لم يجربوا التكفف أو السرقة

www.ibtesama.com

أو الاختفاء فى المخازن المعتمة كالفئران . . لم يخافوا الإهانة إذا تحدثوا إلى كبير ، أو يخشوا العدوى إذا عطفوا على فقير . . وما دمت أذكر كل هذا ، ولم أنسه بعد ، فكيف تنتظر منى أن أسعد بالمقام فى أرض يحكم أهلها على أطفالها بالإعدام لسرقة رغيف . . وينظر أثرياؤها إلى فقرائها كأنهم أحط شأناً من الكلاب ؟

وسكتت فجأة ، فأحسست كأن سكوتها لطمة على الأذن . . وسمعت سام يبلع ريقه مرتين .

وأمسكت يدها فى يدى وتكلمت أعيننا فى صمت .

قلت : والآن ، يا سام .

وارتعش صوتى وأنا أنطق باسمه ، حتى اضطررت أن أسعل مرتين لأخفى الانفعال الذى يوتر حلقى . . وقلت : والآن ، يا سام ، لقد رأيت كيف استقر رأينا على مغادرة إنجلترا فى أسرع وقت ، فهل يضايقك رفقتنا عندما تبدأ رحلتك إلى الوطن !

* * *

لم أندم يوما على العودة ، حتى عندما كانت الأمور فى أحلك ساعاتها . . وكثيرا ما تمنيت — بعد أن حل الفشل

www.ibtesama.com

والخراب بكوپلى ووست — لو أنهما كانا هنا ، لينتعش قلباها بما أنعم به من مناظر وأصوات لا يجدانها فى لندن . . خضرة الحقول والأشجار ، ولمعان الصخور وبريقها . . البحر الممتد تحت سماء مين المتألقة . . الريح الناعمة القادمة عبر النهر تحمل رائحة السفن والرمال الرطبة . . الضباب الراجف فوق المستنقعات . . عبير المراعى وقد خالطته رائحة الأرض الجافة . . نداء الفوارس وهى تحوم بحثا عن طعامها . . هزيم الرياح المنخفض برءوس أشجار الصنوبر العالية . . هسيس الأسماك فى أثناء قفزها فى مياه النهر عند بزوغ الفجر . . أصوات الخضارى والبط فى سيرها بين الأعشاب والبرك . . ضربات أجنحة القطا وهو يقفز فوق الحشائش . . . جحافل السحب بقواعدها المستقيمة وقممها المستديرة ، وكأنها قد اصطفت لتحمى مراعى نيوإنجلند من الأعداء . . العصافير وهى تزقزق بقوة ، فيخيل إليك أنها تقدم للخالق دعوات شكرها على ما أنعم به عليها من خير وجمال فى ربوع هذه البلاد . .

ولما نشر السلام أجنحته على ربوع نيوإنجلند فى آخر الأمر ، أقمنا لأنفسنا بيتا على ربوة تشرف على بيت أبى ، إنما على بعد يكفل لى الوحدة التى تعتبرها آن أهم وسائل

www.ibtesama.com

الإتقان فى حياة الفنان . . ولكن بيتنا لم يكن بعيدا عن متناول الأصدقاء القدامى ، الذين لا يستغنى الرسام عن عطفهم وحبهم . .

وفى مساء يوم عاصف من أيام الخريف ، سمعت صوت صديق قديم ينادينى من جهة النهر ، فلما فتحت الباب ليعرف أننى بالبيت ، رأيت على الضوء الذى يغمر الممشى ، ثلاثة أشخاص لا واحـــداً فقط ، كما كنت أظن . .

صاح كاپ هوف فى صوت مرتفع : لقد عثرت عليه عند ستودلى . . وجدته يبحث عن عنوانك ، فرأيت أنا وسام أن نأتى به معنا . . وفى طريقنا إليك ، وقفته قليلا ببيتى ، ليرى أى نوع من الرسوم تقدمـــه لصديقك بلا أجر . .

وكثيراً ما أحرجتنى هذه الملحوظة الأخيرة ، التى لايكفّ كاپ عن ترديدها كلما سنحت له الفرصة . . مع أنه أعطانى لقاء المراعى التى كلفنى برسمها فى قاعة جلوسه ، أثمن ما أملك فى الحياة . . عقداً من اللآلئ الغالية تلبسه آن . . وكثيرا ما سألناه من أين جاء بهذا العقد ، ولكن ذاكرته كانت تخونه دائما ، ورغم محاولاته

www.ibtesama.com

المتكررة ، لم يستطع أن يتذكر المصدر الذى حصل منه على العقد ، وكل ما كان يجيب به عن أسئلتنا المتكررة أنه لابد قد التقطه من مكان ما . .

قلت ـ وأنا أدقق النظر فى الشخص الثالث الذى يسير بين كاپ وسام ليڤرمور : بل توقفت فى منزلك لتشرب كأسا من الروم ؟

وكان فى الشخص القادم معهما شىء مألوف من حيث رأسه الذى يميل إلى جنب ، كأنه ينصت إلى حديث يقال له . . وقبل أن يسقط الضوء على وجهه تذكرت أنى تبعت صاحب هذا الرأس المائل عبر المستنقعات والأنهار . . وسط الأعاصير والغابات ، مدة شهرين قصيرين ، ولكن الحوادث التى تخللتهما جعلتهما إذ ذاك أطول من الدهر . .

صحت : اليوزباشى أوجدن ؟

قال سام يصححنى : بل البكباشى أوجدن ، وقد جاء من إنجلترا ، أو لعله أتى من بلد أبعد منها . .

وابتسم أوجدن ولم يقل شيئاً ، ولكن عند ما دخلنا غرفة الجلوس ، أمسك يد آن ، وضرب كعبيه بعضهما ببعض ، وانحنى انحناءة كبيرة ، كعادة الضباط الأجانب الذين يحاربون فى صفوفنا . .

www.ibtesama.com

وبينما آن تمزج الشراب لنا ، قال أوجدن : شاهدت رسومك فى لندن ، وعندما رست بنا السفينة فى پورتلاند ، فكرت أن أزورك لأخبرك بذلك ، وأعطيك هذا . .

وأخرج من جيب سترته كتابا صغيراً ، وفتح صحيفة بالذات منه ، وقدمها إلىّ . . كان عنوان الكتاب « رحلات فى مجاهل أمريكا الشمالية فى أعوام ١٧٦٦ و ١٧٦٧ و ١٧٦٨ تأليف ج . كارڤر المحترم » .

قلت : يا إلهى ؟ جوناثان كارڤر ؟

ونظرت فى الصحيفة التى أشار إليها أوجدن فوجدت بها قصة پناشون والحية ذات الأجراس ، وكذلك تفاصيل مقابلته مع هنود السيوكس عند مصب نهر سانت پيتر . . ولكن . . أين البقية ؟ البقية المنشودة . . ومع الأسف ، لم أجد ذكراً « للخرائط » التى كلفه روچرز برسمها . . ولا الأوامر التى أصدرها إليه وتيوت بالبحث عن الممر الشمالى الغربى . . ولا المساحات الواسعة التى باعها له السيوكس . . ولا الرسائل التى تمكن بها جيج وچونسون وسپيسميكر من التنكيل بروچرز ؟ ؟ لا ، لم أجد شيئاً من هذا كله ؟

ونظرت إلى أوجدن فى حيرة وغيظ ، وقلت : ليس

الرجل كاذبا جاحداً خائنا فحسب ، بل هو أيضاً لص غبي ؟ فقد زوّر فى جميع التواريخ التى وضعها فى كتابه ، وحوّر فى كل حقيقة ذكرها ، وأغفل معظم ما كان يجب أن يقال ! كيف يزعم هنا أنه سمىّ نهر جودارد باسم السيد الذى أراد أن يرافقه ، مع أن جودارد رئيسه الأعلى ، وما كان يستطيع أن يتحرك خطوة دون إذن منه . . ثم إنه نسب لنفسه فكرة البحث عن الممر الشمالى الغربى ، ولم يشر إلى روچرز ولا بكلمة عابرة ؟ . . والأدهى من ذلك ، ما يدعيه من أن نهرى سانت پيتر وأوريجون العظيم لا تفصل بينهما سوى مسافة صغيرة ، مع أن البعد بينهما يزيد على مئات الأميال . . لقد سرق معظم ما فى كتابه من المؤلف الذى وضعه الصاغ باسم « تقرير مختصر عن أمريكا الشمالية » .

وألقيت بالكتاب على المائدة مشمئزاً . .

قال أوجدن : ولكن احتجاجاتك كلها لا تغير شيئاً من الحقيقة الراهنة ، فلقد أصبح هذا الكتاب أشهر ما يقرؤه الناس فى أوروبا هذه الأيام ، ولفرط الاهتمام به ترجم إلى ثلاث أو أربع لغات . . ولا أستبعد مطلقا أن يظل اسم كارڤر حيا فى الدنيا بعد أن ينسى روچرز بسنين وأجيال . .

www.ibtesama.com

صاح كاپ : اللعنة ؟ هكذا الحال دائما ؟ فأنا مثلا ، قمت فى الحرب بأجلّ الأعمال ، ولكن الذى ينعم بفخرها الآن أشخاص آخرون . . قائد أو بكباشى . . أو ضابط عظيم ، ولا تؤاخذنى على هذا الكلام يا أوجدن . .

قالت آن : ولكنها ليست الحقيقة دائما . . أفلم يعطوك فخر الهرب من السجن مرات ؟ ؟

ونظر إليها كاپ هوف فى شيء من القلق . .

والتفتت آن إلى سام تسأله قائلة : أما سمعت شيئاً من أنباء الصاغ روچرز ؟

قال وهو يضحك : لم أسمع شيئاً ، ولكنى واثق من أنه يثير المتاعب فى مكان ما ، فهذا طبعه أينما ذهب أو حل . يالها من مطاردة تلك التى تبعناه فيها ؟ ؟ أظننى أخبرتك أن إليزابيث حصلت على الطلاق منه ، وتزوجت من اليوزباشى روش ، ذلك السكير الوصولى ، الذى كان يقود السفينة رينچر فى يوم من الأيام . .

وتساءل أوجدن قائلا : ألم يُجرَّد أخوه چيمس من حقوقه ؟

أجاب سام : يُجرد ؟ ؟ لقد صودرت أموال چيمس ، لا لذنب سوى أنه شقيق الصاغ . وتمكن المسكين من الفرار

www.ibtesama.com

إلى كندا ، مخلفا زوجه وأولادة بلا مال ولا معين . .

وانفجر كاب يقول : يا إلهى؟ لم أكن أعلم بوجود هذا الجيمس من قبل . . ولكن الصاغ يبدو ولا شك رجلا غير أمين . . وأراهن أنه لا يتـــورع عن سرقة أموال جنوده ؟

ثم نظر إلى أوجدن ، وضحكنا معا . .

قال أوجدن : لا ، يا رجل ؟ أنت تظلمه بهذا الكلام ، فسرقة أموال جنوده هى الأمر الوحيد الذى يتورع عنه الصاغ ، ولا يمكن أن يأتيه بحال من الأحوال . .

قال سام : ولكنه رجل لا يبارى فى سلب الأموال ، ولو كنا أعطيناه الوقت الكافى ، ما أبقى على قطعة نقود فى نيوإنجلند كلها . . ولولا سكره الدائم لاستطاع أن يفلس المنطقة فى الوقت القصير الذى قضاه هنا . . لم يترك ضابطاً فى كويبيك أوهاليفاكس إلا واستدان منه ، ولم يحصل أحدهم على بنس واحد من نقوده . . من حمد الله أننا تخلصنا منه ، فهو رجل مخرب بطبعه ، يدمر كل ما تمسه يده . وآخر ما فعله قبل أن يبحر إلى إنجلترا تاركا أخاه يواجه الدائنين وحده ، هو أنه جمع مالا على ذمة تكوين فرقة قوامها سبعمائة جندى ، ولم يجند بالفعل سوى أربعين ؟ ؟

www.ibtesama.com

ودهش كاب وقال : وهل دفعوا له المبلغ كله ؟ إنه الغباء الذى لا يستطيع شعب أن ينافس الإنجليز فيه . . ينفقون المـــال على ملوك وجودهم أقل نفعا من عدمه ، ويثيرون حروبا لا يعرفون كيف ينهونها ؛ ويبددون المبالغ الطائلة فى بلاد أجنبية لا يفقهون من أمورها شيئاً ! إنهم أغبياء سفهاء . . ولا يصح أن نأتمنهم على أموالنا . .

ولما كان أوجدن قد وصل لتوه من إنجلترا ، فقد سألته : وهل عاد الصاغ إلى إنجلترا ، وهـــل سمعت أنباءً منه ؟

وتردد أوجدن ، ثم قال : أنا ؟ لا . . لم أسمع كلمة عنه . . وأظنه مات ؟

وأحسست أن أوجدن لا يذكر الحقيقة ، ولا بد أنه سمع عن الصاغ أنباءً . . ولعله رآه أيضاً ، ولكنه يفضل أن يعتبره ميتا ، حتى لا يشوه ذكراه القديمة بقبح ما انحدر إليه . .

وأدهشتنا آن بقولها فى صوت لطيف : مات ؟ تخلصنا منه ؟ لا . . إنه لن يموت ؟ ولا أظنكم حقيقة تريدون الخلاص منه ومن أعماله . .

وقامت تعبر الغرفة وتفتح نوافذها الخشبية ، وأتتنا ريح

www.ibtesama.com

الخريف من الخارج ، وسمعنا الأوراق الجافة وهى تدور فى دوامة الهواء . . ، ثم دبيب أقدام مسرعة ، تجرى عبر الحشائش المغطاة بالصقيع ، أعقبتها صرخة مدوية ، انبعثت عند ركن المنزل . .

قالت آن هامسة : هذا الصوت يشبه صوته . . ووقع قدميه ، وهو يبحث ويهرع ويتسلل للصيد ؟ آه . . لا . لن تستطيعوا مطلقاً أن تميتوا ما فى هذا الإنسان ؟

** معرفتي **
www.ibtesama.com
منتديات مجلة الإبتسامة

www.ibtesama.com

القاهرة
مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

www.ibtesama.com

** معرفتي **
www.ibtesama.com
منتديات مجلة الإبتسامة

www.ibtesama.com

www.ibtesama.com

هذا الكتاب

تعد قصة « الممر الشمالى الغربى » من أروع الأعمال الأدبية العالمية ، وقد ترجمت إلى جميع لغات العالم وعلق عليها جميع النقاد ، وأجمعوا على أنها تستطيع أن تقف أمام أى عمل أدبى كبير فى العصر الحديث . وعندما صدرت لأول مرة تلقفتها شركات السينما وعرضت مبالغ طائلة على مؤلفها كينيث روبرتس لإنتاجها على الشاشة . وأخيراً أخرجتها شركة مترو جولدوين ماير . وقام بالدور الأول فيها الممثل الكبير « سبنسر تراسى » فقال : « أدت رواية الممر الشمالى الغربى أكبر فضل فى حياتى ، فإن دورى فيها كان من أحسن أدوارى الفنية ». وعرضت رواية « الممر الشمالى الغربى » فى جميع دور السينما بالعالم ، وفى القاهرة استمر عرضها ستة أسابيع كاملة ، وكانت فيلم الموسم .. والقصة صراع بين فنان والمتاعب ، تحداه القدر ففرش طريقه - طريق السلام وطريق الحرب - بالمتاعب ، ولكنه عرف كيف يواجهها ، وكيف ينتصر عليها .

وقد اختارت الكاتبة المصرية المعروفة السيدة أمينة السعيد هذه القصة بالذات ، لترجمتها من بين عشرات القصص التى عرضت عليها .

مجلة الابتسامة

سنة ١٩٦٢

www.ibtesama.com

** معرفتي **

2014

مصريات
مجلة الابتسامة
www.ibtesama.com

www.ibtesama.com